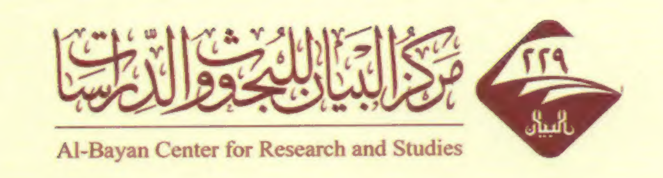
الطبعة الثانية



التربية النبوية

د. محمد بن عبد الله الدويش

www.albayan.co.uk

ⓗ محمد عبدالله الدويش، ١٤٣٧هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

الدويش، محمد بن عبدالله

التربية النبوية/ محمد بن عبدالله الدويش-الرياض، ١٤٣٧هـ

٩٤٨ ص ١٧ × ٢٤ سم

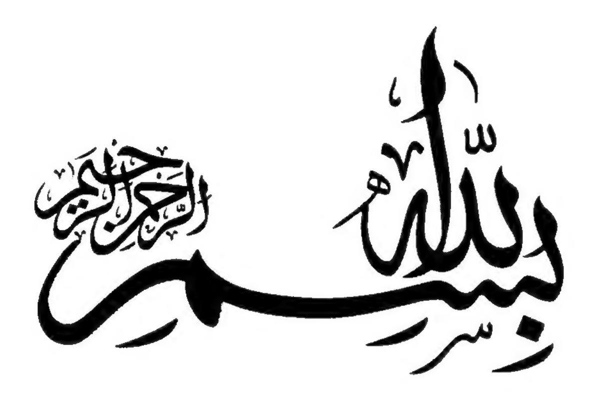
ردمك: ٣-١٩٨-٠-٠٢-٦٠٣-٩٧٨

١-التربية الإسلامية ٢-السيرة النبوية أ.العنوان

ديوي ١ ,٣٧٧ ١٩٨٤/ ١٤٣٧

رقم الإيداع: ١٩٨٤/ ١٤٣٧

ردمك: ٣-١٩٨-٠-٠٢-٦٠٣-٩٧٨


بسم الله الرحمن الرحيم

قائمة المحتويات

* * *

مقدمة

إن الحمد لله، نحمده، ونستعينه، ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، أما بعد:

فالتربية هي أداة بناء شخصية الإنسان وتكوينه، لا يستغني عنها في مرحلة من مراحل حياته، ولا في أي مهمة يُعَدُّ لها.

يولد الطفل صغيرًا لا يعلم شيئًا، كما قال سبحانه: ﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا﴾ (النحل: ٧٨)، يتعلم بالتربية اللغةَ والتواصلَ، يتعلم كيف يلبِّي حاجاته العضوية، يتعلم مهامَّه في أسرته وكيف يؤديها، وينمو وتنمو معه المطالب التربوية؛ ففي كل مرحلةٍ مطالبُ جديدة.

ويتقدم به السن فيدرك مرحلة البلوغ والتكليف الشرعي، ويشب، ويصل مرحلة الكهولة، ويبقى بحاجة إلى التربية مهما تقدم به العمر، ومهما كان لديه من العلم والصلاح.

وكما تتسع الحاجة إلى التربية على مدى عمر الإنسان؛ فهي تتسع موضوعيًّا بحسب متطلبات شخصية الإنسان.

بالتربية يتعلم الإنسان حقائق الإيمان ومعارفه، وبها تُغرس أعمال القلوب ويُنمَّى الوجدان، وبها تُنمَّى في القلب محبة الله وخشيته، ورجاؤه واليقين بما عنده.

والتربية تحدد لنا محتوى ما يحتاجه طالب العلم الشرعي، وكيفية تنظيم هذا المحتوى، وطرق التعليم وأساليبه الفاعلة.

ومن خلال التربية يتم البناء الخلقي والسلوكي، وتغرس العادات الإيجابية الحميدة، وتُقوَّم العادات السيئة وتعالج.

التربية هي الوسيلة التي تنتج إنسانًا إيجابيًا فاعلًا، أو إنسانًا اتكاليًا فاقدًا للثقة بنفسه، هي التي تبني الإرادة والعزيمة، أو الكسل والتواكل.

كما أن التربية هي الأداة التي تصنع القيادات: الاجتماعية، والعلمية، والسياسية، والاقتصادية...إلخ.

قد تختلف أنماط التربية، ومؤسساتها، وأساليبها، لكنها تبقى حاضرة في كل زمان وعصر، ولا غنى لأي مشروع إصلاحي ودعوي عن العناية بالتربية؛ **فهي أداة التغيير في الأفراد والمجتمعات، وهي أداة صناعة القادة والرموز.**

ومع تنوع المناهج والمدارس والفلسفات، فلا غنى للخلق عن منهج خير الناس وأزكاهم وأبرِّهم وأتقاهم محمد ﷺ، فهو الذي بعثه الله هاديًا ومزكيًا ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ (الجمعة: ٢).

ووصف ﷺ نفسه بقوله: «إن الله لم يبعثني مُعَنِّتًا، ولا مُتَعَنِّتًا، ولكن بعثني معلِّمًا مُيسِّرًا» (أخرجه مسلم ١٤٧٨).

ومن هنا تعظم حاجة المربين إلى تعرُّف هدي النبي ﷺ ومنهجه في التربية والتعليم والتوجيه، قال ابن القيم رحمه الله: «وإذا كانت سعادة العبد في الدارين معلَّقة بهدي النبي ﷺ، فيجب على كل من نصح نفسه وأحب نجاتها وسعادتها أن يعرف من هديه وسيرته وشأنه ما يخرج به عن الجاهلين به، ويدخل به في عداد أتباعه وشيعته وحزبه، والناس في هذا بين مستقلٍّ ومستكثرٍ ومحرومٍ، والفضل بيد الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم». (زاد المعاد ١/ ٦٩).

ورغم انتشار مؤسسات التعليم العالي وكليات التربية في العالم الإسلامي، واتجاه كثير من الأخيار لهذه الدراسات، إلا أن العناية بمنهج القرآن والسنة، وبالهدي النبوي

أقل مما ينبغي، بل إن معظم أبناء وبنات المسلمين يعرفون عن النظريات والمدارس والرموز النفسية والتربوية الغربية والشرقية أكثر مما يعرفونه عن هدي النبي ﷺ ومنهجه.

ومع أهمية العناية بالهدي والمنهج التربوي النبوي، وتأكُّد الحاجة إليه، إلا أن حجم الدراسات الجادة والعميقة حوله لا يزال محدودًا، وكثيرٌ مما كُتب- رغم فائدته- يفتقر إلى الاستقصاء والاستيعاب، ويقتصر على شواهد محدودة قريبة وحاضرة.

وقد كانت لي عناية متواضعة بالهدي والمنهج التربوي النبوي، ودوَّنت جزءًا من ذلك في مقالة نُشرت قبل أكثر من عقدين، ثم ضمَّنتها كتاب (المدرس ومهارات التوجيه)، واعتنيت بعد ذلك بتقديم بعض الدروس والدورات والأحاديث الإذاعية والمتلفزة حول الهدي النبوي في التربية؛ مما حفزني على إصدار هذا الجهد المتواضع.

لقد تحدثت كثيرًا، وكتبت كثيرًا وأجريت قلمي ما بين كتاب أو بحث أو مقالة، لكن هذا الكتاب له طبيعة خاصة، كيف لا وهو حديث عن مقام سيد ولد آدم ﷺ؟

إن مساحة الأفكار والرؤى البشرية مساحة واسعة ثرية تتسع للعديد من الاجتهادات والأطروحات، لكن الحديث عن المنهج النبوي أمر مختلف.

ترددت كثيرًا وأنا أكتب عن رسول الله ﷺ، شعرت كثيرًا بالخجل من نفسي، كيف لمثل هذا القلم أن يكتب عن ذلك المقام الرفيع؟ وأنَّى لهذا العبد الضعيف أن يتحدث عن سيد ولد آدم؟

الحديث عن المنهج النبوي يتطلب علمًا بالسنة ومواطن النصوص، وفقهًا وفهمًا، وقلمًا يجمع بين الفصاحة والأدب مع المقام النبوي، وكل ذلك لا أملكه، وبقدر ما فيه من بركة نشر السنة والهدي النبوي، ففيه مزلَّة قدم لمن لا يحسنه.

وأخيرًا عزمت وتجرأت على خوض هذا الغمار، مستعينًا بالله عز وجل أن يغفر زلتي، ويستر عيبي، ويقيل عثرتي.

وما أرجوه من قرائي الكرام أن يتخذوا هذا الكتاب سلَّمًا ووسيلة لتعرف جوانب من هدي النبي ﷺ، ثم يتجاوزوه ليتصلوا بالأصل والمعين، ويَدَعُوا عنهم فهمي وآرائي.

وفيما يلي إضاءات سريعة حول خطوات العمل ومنهجيته:

- بدأت العمل بقراءة متأنية لكتاب جامع الأصول لابن الأثير؛ إذ هو يحوي أمهات كتب السنة المشهورة، ودونت ما يندرج تحت الهدي النبوي في التربية، ثم أعدت قراءة الكتاب مرة أخرى واستدركت ما فاتني.
- قرأت ما وقفت عليه من كتب تناولت التربية النبوية، وأكثر ما أفدته منها هو استدراك ما فاتني من النصوص.
- اعتنيت بنصوص الهدي العملي أو ما يتصل بها، وصنَّفت النصوص التي جمعتها تصنيفًا موضوعيًّا، وعلَّقت عليها تعليقًا موجزًا، واعتنيت بنقل أقوال شرَّاح الحديث فيما يتطلب ذلك.
- التزمت في نصوص الحديث مطابقتها بأصح النسخ المطبوعة والمحققة، وبياناتها موضحة في قائمة المراجع، وتحديد هذه الطبعات محل اجتهاد.
- اعتنيت بعزو الأحاديث إلى من خرَّجها، فإن كان الحديث في الصحيحين أو أحدهما اكتفيت بذلك، وإلا اجتهدت في استيعاب مَن خرَّجه من أصحاب الكتب الستة، ولكثرة النصوص النبوية في الكتاب، وسعيًا للاختصار؛ فقد اكتفيت في العزو ببيان رقم الحديث وفق الترقيم الأشهر لدى المختصين (ويمكن معرفة الترقيم المعتمد بالرجوع لقائمة المراجع)، وأشرت إلى تخريج الحديث في متن الكتاب.

- اعتنيت بإيراد لفظ البخاري إن كان في الصحيحين معًا، باستثناء مواضع يسيرة أوردت فيها لفظ مسلم حين يكون أقرب للدلالة، أما إذا لم يكن الحديث مخرَّجًا في الصحيحين أو أحدهما فأورد أقرب الألفاظ والروايات إلى موطن الاستشهاد، مبتدئًا في التخريج بمن أوردت لفظه.

- حرصت- قدر الإمكان- على الاقتصار على الأحاديث الصحيحة؛ اعتمادًا على تصحيح الأئمة المتقدمين والمتأخرين، ولم أشر إلى من صحَّح الحديث اختصارًا، وقد أصبح الوصول إلى ذلك في متناول غير المتخصصين، فضلًا عن طلبة العلم، وفي حالات يسيرة قد أورد بعض ما فيه من مقال في سياق الشواهد، كما سرت على منهج علماء السير والمغازي في إيراد بعض ما لم يرو بإسناد صحيح من أخبار السيرة حين لا يترتب على ذلك حكم فقهي.

- نظرًا لأن الأحاديث والمواقف النبوية قد رُتِّبت في الكتاب ترتيبًا موضوعيًّا، فقد يقتضي الحال تكرار النص أو الموقف في أكثر من موضع لتكرر مواطن الاستشهاد به، وقد أكرره بلفظه وتخريجه، أو أورد رواية أخرى إن كانت أقرب إلى موطن الاستشهاد.

- اعتنيت ببيان معنى ما رأيت حاجته إلى البيان من الألفاظ الغريبة حين ترد في الحديث النبوي، معتمدًا في ذلك على شرَّاح الحديث، أو علماء اللغة، وربما فاتني بعض ما يقتضي البيان.

- نظرًا لطول فترة العمل على الكتاب، وتكرار الانقطاعات فقد يرد العزو- في مواطن يسيرة- إلى طبعة مختلفة عما أشير إليه في قائمة المراجع، وهذا في غير نصوص الأحاديث النبوية، وقد حرصت على مراجعة ذلك واستدراكه، إلا

أن الوقت أدركني، كما أن ذلك قد يؤدي للغفلة عن توثيق بعض النصوص والأفكار التي أفدتها من غيري.

وتختلف المدارس والاجتهادات فيما يتصل بالجوانب الإجرائية والشكلية في التوثيق، والأهم في ذلك كله اطراد ووضوح ما سار عليه الكاتب، أما الغفلة، والسهو، والخطأ فأمر جُبِل عليه البشر، فكيف بمن هو مثلي؟.

وقد أُمرنا بأن نشكر من أحسن إلينا، فعن أبي هريرة ﷺ، عن النبي ﷺ قال: «لا يشكر الله من لا يشكر الناس». (أخرجه أحمد ٧٩٣٩، وأبو داود ٤٨١١، والترمذي ١٩٥٤).

فأشكر كل من كان له إسهام أو عون في هذا الجهد، وأخص منهم الأستاذ/ عبد العزيز الشامي، الذي أعانني على استخراج بعض النصوص- التي زودته بأرقامها- من موسوعة «حرف»، والدكتور/ بلال ربابعة، الذي تولى مطابقة نصوص الأحاديث على الكتب المطبوعة، والابن العزيز/ أحمد سعد، الذي تولى طباعة بعض ما كنت أكتبه بيدي وتنسيق الملفات والعمل عليها، والأستاذ/ محمد كسَّاب، الذي تولَّى المراجعة اللغوية والطباعية.

كما لا أنسى شكر أخي الدكتور/ محمد بافيل، الذي رتب إلقاء دروس الهدي النبوي في التربية في مسجده على مدى أربع سنوات، وأعانتني تلك الدروس على جمع كثير من مادة هذا الكتاب.

ومن ينسى المرء شكرهم والاعترف بفضلهم فهذا من قصور من ينسى وغفلته، ولا يضيرهم ذلك عند الله عز وجل.

وأسعد بتلقِّي أي ملحوظة، أو تصويب، أو تسديد ممن يطلع على هذا الكتاب من إخواني وأخواتي؛ لأستدرك ما فاتني في طبعات لاحقة- إن أمدَّ الله في العمر بحوله وقوته.

أسأل الله أن يجعل هذا الجهد خالصًا لوجهه الكريم، وأن يعفو عن الزَّلل والقصور، وأن يملأ قلوبنا بمحبة رسول الله ﷺ، ويوردنا حوضه، ويسعدنا بشفاعته، ويرزقنا مرافقته في الجنة، برحمته سبحانه وفضله وجوده.

وصلى الله وسلم على نبينا محمد وآله وصحبه.

محمد بن عبد الله الدويش

الرياض ٠٨/ ٠٣/ ١٤٣٧هـ

dweesh@dweesh.com

الفصل الأول: مدخل حول الهدي النبوي

كيف تربى النبي ﷺ؟

النبي المربي

مدخل حول الهدي النبوي

الاعتناء بالهدي النبوي ضرورة:

أول سؤال يتبادر إلى الذهن حين نتحدث عن هدي النبي ﷺ ومنهجه: لماذا هَدْي النبي ﷺ؟

وإثارة هذا السؤال ليس الهدف منه تقرير مدى أهمية الاعتناء بالهدي والمنهج النبوي؛ فهو متقرر- بداهةً- لدى كل مسلمٍ مؤمن برسول الله ﷺ ومحبٍّ له، فضلًا عن طالب علم أو مشتغل بالدعوة والإصلاح، لكن الإجابة عن هذا السؤال تعزِّز أهمية الاعتناء بالهدي النبوي، وتستحثُّ الهمة لذلك.

وفيما يلي بعض جوانب أهمية الاعتناء بالهدي النبوي:

١- عصمته ﷺ

لقد عصم الله تعالى نبيه محمدًا ﷺ عن الخطأ والزلل، فكل ما يقوله ﷺ أو يفعله فهو حق لا مرية فيه، فقد قال عنه ربه تبارك وتعالى: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلۡهَوَىٰٓ ۝ إِنۡ هُوَ إِلَّا وَحۡيٞ يُوحَىٰ﴾ (النجم: ٣ - ٤)، فهو هدي ومنهج معصوم، يُستدل به، ولا يُستدل له.

أما حين نتجاوز المقام الشريف له ﷺ إلى مَن سواه من البشر- مهما علت مكانتهم وإمامتهم- فنحن أمام صورة مختلفة؛ فالبشر في مقام التقرير والتأصيل النظري تعتورهم عوارضُ القصور والسهو والغفلة والخطأ، وشيء من الهوى الخفي، ونتاجهم العلمي وتقريراتهم لن تسلم مما وصف الله عز وجل به كل ما سوى كتابه الكريم بقوله سبحانه: ﴿وَلَوۡ كَانَ مِنۡ عِندِ غَيۡرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخۡتِلَٰفٗا كَثِيرٗا﴾ (النساء: ٨٢).

أما في المقام العملي فالبشر مهما بلغوا من العلم والتقوى والصفاء لن يسلموا من الانفعال وردة الفعل والتعاطف، ونحو ذلك من العوارض المؤثرة على سلوكهم ومواقفهم.

كما أن البيئة وثقافة المجتمع والتربية والتنشئة لها أثر على أحكام صاحبها ومعاييره ونظرته للآخرين، فضلًا عن أخلاقه وسماته؛ فالذي ينشأ في مجتمع قاسٍ وصارمٍ- على سبيل المثال- كثيرًا ما يكتسب هذه السمة، وينزع إلى النصوص والشواهد التي تؤيد هذا المسلك، ليس بدافع الهوى، لكنها طبيعة البشر، وهكذا سائر المؤثرات والسمات.

أما النبي ﷺ فلا تخرجه الأحوال البشرية عن قول الحق والعمل به؛ فمحبته ﷺ لشخص لا تدعوه إلى مجاملته، أو المبالغة في الثناء عليه، أو إقراره على ما لا يسوغ، وخلاف ذلك لا يقوده إلى التحامل أو تجاوز الحق.

وحين أنكرت قريش على عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما كتابته عن رسول الله ﷺ محتجين بأن النبي ﷺ تعرض له العوارض البشرية، أَمَرَهُ ﷺ أن يكتب عنه؛ فعن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال: كنت أكتب كل شيء أسمعه من رسول الله ﷺ، أريد حفظَه، فنهتني قريش عن ذلك، وقالوا: تكتب ورسول الله ﷺ يقول في الغضب والرضا؟ فأمسكت، حتى ذكرت ذلك لرسول الله ﷺ فقال: «اكتب؛ فوالذي نفسي بيده، ما خرج منه إلا حق». (أخرجه أحمد ٦٨٠٢، وأبو داود ٣٦٤٦)، وفي رواية أبي داود «فأومأ بأصبعه إلى فيه».

٢- قمة الصفات البشرية:

قلّما ترى من ذاع صيته، أو كتب له القبول والتأثير لدى الآخرين، إلا وتجد فيه سمات وصفات مميزة، لذا يعتني الناس كثيرًا بالحديث عن صفات المتميزين، ويصفون من يعجبهم بقائمة طويلة من السمات، وقلما يسلمون من المبالغة في ذلك.

لكن خير الصفات والسمات هي ما جُبل عليه خير الخلق محمد ﷺ، فلو نظرنا له ﷺ نظرة بشرية بحتة دون اعتبار لصفة النبوة -حاشاه بأبي وأمي- فإنه ﷺ في قمة الصفات

البشرية؛ فهو أفصح الخلق، وأصدقهم نية وحديثًا، وأقدرهم على التسامي على ذاته، وأكثرهم وسطية واعتدالًا، لا يُعرف عنه جَوْر أو شَطَط أو غلو أو إفراط، ولا صفة سيئة مرذولة، وما من خلق حسن أو سجية محمودة في البشر إلا وهو على قمتها ﷺ وما من خصلة أو سجية مذمومة منقوصة إلا وهو أبعد الناس عنها.

إنه كما قال صاحبه حسَّان بن ثابت ﷺ:

وَأَحْسَنُ مِنْكَ لَمْ تَرَ قَطُّ عَيْنِي وَأَجْمَلُ مِنْكَ لَمْ تَلِدِ النِّسَاءُ

خُلِقْتَ مُبَرَّءًا مِنْ كُلِّ عَيْبٍ كَأَنَّكَ قَدْ خُلِقْتَ كَمَا تَشَاءُ

٣- نموذج ناجح:

يُولَع الناس بالناجحين، ويتتبَّعون أخبارهم، ويبذلون جهدهم في اكتشاف أسرار نجاحهم.

وفي ميدان التربية وبناء الإنسان يمثل المنهج النبوي التربوي أعظم قصة نجاح بشرية، فهو ليس منهجًا نظريًّا، ولا توجيهات مثالية، إنه منهج واقعي أحدث أعظم تغيير عرفته البشرية، حوَّل الأعرابَ الجفاةَ من عبادة الأصنام والأوثان إلى عبودية الله عز وجل وتوحيده، ومن التعلُّق بالدنيا وأطماعها إلى إرادة وجه الله عز وجل ومرضاته، ومن الفرقة والتنازع والتصارع والتهارج على مراعي الدواب، إلى الاجتماع والتآلف وصناعة الحضارة.

فلو تعاملنا مع المنهج النبوي- جدلًا- على أنه منهج بشري مجرد، لكان أولى تجربة تدرس وتبذل الجهود في اكتشاف معالمها.

أعطني فيلسوفًا أو مفكرًا أو عالمًا أو مربيًا قدَّم منهجًا عمليًّا ناجحًا ونموذجًا واقعيًّا كما قدم سيد ولد آدم ﷺ، ومع ذلك لم يحظ المنهج النبوي عند كثير من أتباعه بقدر

من الدراسة يوازي ما حظي به أفلاطون أو سقراط أو ديوي أو غيرهم من القدماء أو المعاصرين.

وفي كليات التربية وإعداد المعلمين يدرس أبناء المسلمين وبناتهم عن علماء التربية والنفس من المغرب والمشرق- بل عن أفلاطون وأرسطو وغيرهم- أكثر مما يدرسونه عن محمد ﷺ وربما يأتي ذكر لبعض علماء المسلمين كابن خلدون وابن جماعة والغزالي ونحوهم في سياق عرض آرائهم في النفس البشرية والتربية، والأغلب أن ذلك يأتي لملء فراغات في القوالب المعاصرة، لا عن دراسة مستقلة مستقصية.

«إن الانصراف عن الهدي النبوي حرمان من الخير، وإن التطلع إلى الغير- مع الغنى بمكنون تراثنا النبوي- لانحرافٌ عن القصد، وإن سبيل الفلاح لأمتنا أن تكشف الستار عما تغافلنا عنه من تراث النبوة». (الرسول المعلم وأساليبه في التعليم، ص ٩٣).

٤- التعبد باتباعه ﷺ:

اتباع النبي ﷺ والتأسي به عبادة وقربة إلى الله عز وجل، وقد اعتنى سلف الأمة باتباع هدي النبي ﷺ والتأسي به في كل أمورهم وأحوالهم.

عن أنس بن مالك رضي الله عنه أن خيَّاطًا دعا رسول الله ﷺ لطعام صنعه، قال أنس بن مالك: فذهبت مع رسول الله ﷺ إلى ذلك الطعام، فقرَّب إلى رسول الله ﷺ خبزًا ومَرَقًا، فيه دُبَّاءٌ وقَدِيد، فرأيت النبي ﷺ «يتتبَّعُ الدُّبَّاءَ من حوالي القَصْعَة»، قال: «فلم أزلْ أُحِبُّ الدُّبَّاءَ مِن يومئذ» (أخرجه البخاري ٥٣٧٩، ومسلم ٢٠٤١)، وفي رواية لمسلم: «فما صُنع لي طعام بعدُ أقدر على أن يصنع فيه دُبَّاء إلا صنع».

قال ابن حجر: «وفيه فضيلة ظاهرة لأنس؛ لاقتفائه أثر النبي ﷺ حتى في الأشياء الجِبليَّة، وكان يأخذ نفسه باتباعه فيها رضي الله عنه». (فتح الباري ٩/ ٥٢٦).

وقد أكَّد أهل العلم على طالب العلم الاعتناء بسنة النبي ﷺ وتلمُّس هديه، قال الخطيب البغدادي: «ينبغي لطالب الحديث أن يتميز في عامة أموره عن طرائق القوم، باستعمال آثار رسول الله ﷺ ما أمكنه، وتوظيف السنن على نفسه، فإن الله تعالى يقول: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ (الأحزاب: ٢١)»، ثم روى بإسناده عن إبراهيم الحربي: «ينبغي للرجل إذا سمع شيئًا من آداب النبي ﷺ أن يتمسَّك به»، وعن سفيان الثوري «إن استطعت، ألا تحكَّ رأسك إلا بأثر فافعل». (الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع ١/ ١٤٢).

وأخرج الخطيب بإسناده عن المروزي، قال: قال لي أحمد: «ما كتبت حديثًا عن النبي ﷺ إلا وقد عملت به، حتى مر بي الحديث «أن النبي ﷺ احتجم، وأعطى أبا طيبة دينارًا»، فأعطيت الحجام دينارًا حين احتجمت». (الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع ١/ ١٤٢).

أما أحوال السلف ومروياتهم في اتباعه ﷺ والتأسي به في العبادات فأكثر من أن تحصر أو تستوعب، والمقصد الإشارة إلى اعتنائهم بالتأسي به ﷺ.

قال ابن القيم رحمه الله: «والمقصود أن بحسب متابعة الرسول تكون العزة والكفاية والنصرة، كما أن بحسب متابعته تكون الهداية والفلاح والنجاة، فالله سبحانه علَّق سعادة الدارين بمتابعته، وجعل شقاوة الدارين في مخالفته، فلأتباعه الهدى والأمن والفلاح والعزة والكفاية والنصرة والولاية والتأييد وطيب العيش في الدنيا والآخرة، ولمخالفيه الذلة والصغار والخوف والضلال والخذلان والشقاء في الدنيا والآخرة، وقد أقسم ﷺ بأن «لا يؤمن أحدكم حتى يكون هو أحب إليه من ولده ووالده والناس أجمعين» (أخرجه مسلم ٤٤) وأقسم الله سبحانه بأن لا يؤمن من لا يُحكِّمُه في كل ما تنازع فيه هو وغيره، ثم يرضى بحكمه، ولا يجد في نفسه حرجًا مما حكم به، ثم يسلِّم له تسليمًا وينقاد له انقيادًا،

وقال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾ (الأحزاب: ٣٦)» (زاد المعاد ١/ ٣٩-٤٠).

ومن هنا يجدر بطالب العلم والمربي استحضار نية المتابعة للنبي ﷺ والتأسي به وهو يَدْرس أحواله وأخباره في التربية والتعليم أو يُدرِّسها، واستحضار ذلك حين يتأسى بهديه، فالتأسي به عبادة، وسبب لتحصيل بركة العمل والانتفاع به وظهور أثره.

ضوابط في التعامل مع الهدي النبوي:

السنة مورد للباحث وطالب العلم، والتعامل معها يحتاج إلى ضوابط منهجية تسهم في الوصول إلى نتائج صحيحة.

وحين نتحدث عن الهدي النبوي فثمَّة ضوابط عدة ينبغي مراعاتها، ومن أهمها ما يلي:

١- بين الهدي النبوي والعمل البشري:

إن ما نصل إليه ونحن نقرر هدي النبي ﷺ ومنهجه عملٌ بشريٌّ؛ فالسنة النبوية- قولية أو فعلية- محفوظة بتفاصيلها، وقد قيَّض الله عز وجل لها من يحفظها ويميز صحيحها من سقيمها، وقد صنَّفها أهل العلم وفق مناهج متعددة، إما على المسانيد أو الكتب أو الأبواب...إلخ.

ولئن كان الهدي النبوي في مسائل العبادة كالطهارة أو الصلاة أو الصيام أو الحج، أو في أعمال اليوم والليلة، أو في الجهاد ونحو ذلك، لئن كان الهدي النبوي في هذه الأبواب له مظانه في كتب السنة، فإن الهدي النبوي في التربية والتعليم لا ينتظمه باب، بل هو مبثوث في كتب الحديث والمغازي والشمائل ونحوها.

ومن ثَمَّ فحين يتحدث أحد أو يكتب عن الهدي النبوي في التربية والتعليم فهو يُعبِّر

عن رأيه الشخصي، وفهمه للهدي النبوي، لا عن الهدي النبوي في حقيقته، وموافقة ما يقرره للهدي النبوي مرتبطة بمدى استقصائه وجمعه، ومدى صحة فهمه.

وكثيرًا ما يؤتى الإنسانُ من قصور إحاطته واستقصائه، أو قصور فهمه واستنباطه.

٢- النظرة الشاملة:

استنتاج الهدي النبوي يتطلب النظرة الشاملة، ولا يتحقق من خلال النظرة الجزئية المحدودة.

كان أحدهم قاسيًا في خطابه عن الدعاة، شديد السطوة عليهم، مع أن خلافه معهم في مسائل اجتهادية، وحين حاورته في ذلك كان يستشهد بحديث عدي بن حاتم ﷺ أن رجلًا خطب عند النبي ﷺ، فقال: من يطع الله ورسوله فقد رشد، ومن يعصهما فقد غوى، فقال رسول الله ﷺ: «بئس الخطيب أنت، قل: ومن يعص الله ورسوله». (أخرجه مسلم ٨٧٠).

وهكذا من يستشهد بفعله ﷺ مع الرجل الذي لبس خاتمًا من ذهب، عن عبد الله بن عباس ﵄ أن رسول الله ﷺ رأى خاتمًا من ذهب في يد رجل، فنزعه فطرحه، وقال: «يعمد أحدكم إلى جمرة من نار فيجعلها في يده»، فقيل للرجل- بعد ما ذهب رسول الله ﷺ-: خذ خاتمك انتفع به، قال: لا والله، لا آخذه أبدًا وقد طرحه رسول الله ﷺ. (أخرجه مسلم ٢٠٩٠).

ولا شك أن تعامل النبي ﷺ مع الرجلين في هذين الموقفين هو اللائق تربويًا، وهو الأبلغ تأثيرًا، لكن هل هذا هو هديه الراتب؟ وهل هذا هو الأصل في تعامله مع سائر الناس؟

إننا حين ننظر نظرة شمولية إلى هديه ﷺ ومواقفه العملية، وإلى أقواله ووصاياه نرى أنه ﷺ كان رفيقًا، وكان يأمر بالرفق ويحث عليه، ويخبر ﷺ أن الله عز وجل يعطي

على الرفق ما لا يعطي على العنف وعلى ما سواه، وأنكر ﷺ على عائشة تركها الرفق في خطابها لليهود، عن عائشة رضي الله عنها أن يهود أتوا النبي ﷺ فقالوا: السَّام عليكم، فقالت عائشة: عليكم، ولعنكم الله، وغضب الله عليكم، قال: «مهلًا يا عائشة، عليكِ بالرفق، وإياكِ والعنف والفحش» قالت: أولم تسمع ما قالوا؟ قال: «أولم تسمعي ما قلت؟ رددتُ عليهم، فيستجاب لي فيهم، ولا يستجاب لهم فيَّ». (أخرجه البخاري ٦٠٣٠ ومسلم ٢١٦٥)، ولفظ مسلم: «ياعائشة لا تكوني فاحشة».

وسيأتي حديث مفصل عن ذلك، والمقصود هنا أن الحديث عن المنهج النبوي يتطلب رؤية كلية شاملة، وأن التعامل الجزئي مع النصوص- وبخاصة في المواقف العملية- قد يؤدي لتعميمات لا تمثل الهدي النبوي.

٣- التجرد من المقررات السابقة:

يتطلب البحث في الهدي النبوي التجرد من المقررات السابقة، فلا يأتي الباحث باقتناعات سابقة ليستدل لها، أو بصورة ذهنية عن التربية والتعليم، ثم يبحث عما يطابقها، وأمثال هؤلاء يصلون إلى صور مشوهة غير متكاملة ولا تمثل الهدي النبوي.

لقد تعامل النبي ﷺ في حياته مع أعداد من الناس، تختلف طبائعهم وشخصياتهم، ويتفاوتون في سابقتهم، وفي صحبتهم للنبي ﷺ وما يناسب أحدهم قد لا يناسب غيره، كما تتنوع المواقف العملية، فيتعامل ﷺ مع كل موقف ومع كل شخص بما يلائمه، فمنهم من يؤخذ بالعزيمة، ومنهم من يؤخذ باللين، وبعض المواقف يناسبها الإعراض والتجاهل، وبعضها الإيماء والإشارة، وبعضها التصريح، وبعضها الصرامة والعقوبة.

إن من يميل إلى أخذ الناس بالعزائم والصرامة سيجد في نصوص السنة القولية والفعلية ما يستدل به، وهكذا من يميل إلى ما يقابل ذلك.

وليس بالضرورة أن يكون التعامل مع الهدي النبوي وفق مقررات سابقة صادرًا عن نية سيئة، فالتجرد المطلق ليس في طاقة البشر، لكن ما لا يسوغ لهم التفريط فيه هو الاجتهاد والحرص على التجرد، ودوام التأمل واتهام النفس، واللجوء إلى الله عز وجل، وسؤاله سبحانه الهدى والسداد.

٤- التعامل مع النظريات العلمية:

ثَمَّةَ ولع لدى بعض المعاصرين في ربط المنهج النبوي بالنظريات والمدارس العلمية المعاصرة.

وهو أمر لا يخص الميدان التربوي، فحين سادت الاشتراكية وعلت أسهمها وجد في المفكرين المسلمين من يدعو إلى اشتراكية الإسلام، وهكذا في المدارس الإدارية كالإنسانية، أو المدارس العسكرية والحربية، ولا يزال الصوت مسموعًا اليوم في المجال السياسي في ربط الإسلام بالديموقراطية، أو الدولة المدنية.

وفي المجال النفسي والتربوي هناك من تكلف ربط المدرسة السلوكية، أو المعرفية، أو البنيوية، أو بعض نظريات التعلم ونحوها بالهدي النبوي.

ومن صور ذلك: تشبيه عدد من الباحثين النفسيين أحوال النفس (المطمئنة، والأمارة، واللوامة) التي وردت في القرآن بأقسام النفس الثلاثة (الهو، والأنا، والأنا الأعلى) في نظرية التحليل النفسي عند «فرويد».

وقد قدم أحد الباحثين الغيورين ورقة علمية تناول فيها أساليب تعديل السلوك المستنبطة من القرآن الكريم، وارتكزت على البحث عن شواهد من القرآن الكريم على أساليب تعديل السلوك كما جاءت في المدرسة السلوكية.

وهؤلاء كما يصفهم مالك بدري «يكتبون أبحاثهم على أساس مبادئ علم النفس الحديث ونظرياته وممارساته، ثم يبحثون بعد ذلك عن الآيات القرآنية والأحاديث التي

لها أدنى صلة سطحية بموضوعاتهم، فينشرونها في البحث هنا وهناك، ثم يقدمونه على أنه تأصيل إسلامي لعلم النفس».

ويطلق إبراهيم رجب على هذا المنحى المدخل الدفاعي أو الاعتذاري، ويقول عنه: يقوم هذا المدخل على محاولة إثبات أن الإسلام- ممثلًا في القرآن الكريم والسنة المطهرة، أو فيما انبثق عنهما من إسهامات السلف وغيرهم من علماء المسلمين المتقدمين- قد كان له فضل السبق في التوصل إلى نظريات ومفاهيم لم يأت بها العلم الحديث إلا مؤخرًا، فنرى الباحثين يبذلون جهودًا كبيرة لانتقاء الآيات أو الأحاديث النبوية التي تدعم بعض المفاهيم أو النظريات المألوفة في العلوم الاجتماعية الحديثة، ويتصور أصحاب هذا المدخل أنهم بهذا «يدافعون» عن الإسلام، ويثبتون صحة حقائقه، ويبرهنون على تفوقه على إسهامات العلم الوضعي، وكأنهم بهذا يثبتون صدق الرسالة.

كما يتكرر هذا المنحى لدى بعض المهتمين بالتدريب، أو ما يسمى التنمية البشرية، واستشهادات أمثال هؤلاء تعبر عن سطحية متناهية، وبعضها استجابة لما يطلبه المتابعون والمتدربون.

وفرق بين استثمار نتاج الدراسات المعاصرة والتجربة البشرية بما يعين على فهم المواقف النبوية، وبين ربط المنهج النبوي بالنظريات المعاصرة.

إن وجود قدر من التشابه مع أجزاء بعض النظريات أو مع تطبيقاتها لا يبرر ربط المنهج النبوي بهذه النظرية أو المدرسة؛ فالنظرية تمثل منظومة متكاملة، وتستند إلى أصول فلسفية بشرية كثير منها يناقض الدين، وكثير منها جاء ردة فعل لمدرسة مخالِفة أو واقع سيء.

أما الاستفادة من نتاج الفكر البشري في فهم الهدي النبوي واكتشاف بعض معالمه فأمر مختلف.

فحين نوظف ما توصل إليه الفكر البشري في فهم أساليب الإقناع في الهدي النبوي- على سبيل المثال- أو في تحليل القصة النبوية، أو في تعرُّف موقع المتعلم في التعليم النبوي، فإن هذا يختلف عن ربط المنهج النبوي بمدرسة أو نظرية ما في الإقناع والسرد القصصي والتعليم.

٥- مراعاة ضوابط الاستنباط والاستدلال:

ثَمَّةَ فرق بين التعامل مع الهدي النبوي العملي واستنباط الأحكام وأبواب الحلال والحرام، فلا يمكن أن نطبق على الدراسات المتصلة بالسيرة النبوية وما يلحق بها المعايير الصارمة في دراسة أسانيد الحديث النبوي.

وقد توسع أهل العلم في باب المغازي والسير والشمائل النبوية، وفي باب فضائل الأعمال ونحوها.

بوَّب الخطيب البغدادي في «الكفاية في علم الرواية»: (باب التشدُّد في أحاديث الأحكام، والتجوُّز في فضائل الأعمال)، قد ورد عن غير واحد من السلف أنه لا يجوز حمل الأحاديث المتعلقة بالتحليل والتحريم إلا عمن كان بريئًا من التهمة، بعيدًا من الظنَّة، وأما أحاديث الترغيب والمواعظ ونحو ذلك فإنه يجوز كتبها عن سائر المشايخ. (الكفاية في علم الرواية ١/ ١٣٢).

وأورد بإسناده عن سفيان الثوري: «لا تأخذوا هذا العلم في الحلال والحرام إلا من الرؤساء المشهورين بالعلم، الذين يعرفون الزيادة والنقصان، ولا بأس بما سوى ذلك من المشايخ». (الكفاية في علم الرواية ١/ ١٣٢).

وعن زكريا العنبري: «الخبر إذا ورد لم يحرِّم حلالًا، ولم يحل حرامًا، ولم يوجب حكمًا، وكان في ترغيب أو ترهيب، أو تشديد أو ترخيص، وجب الإغماض عنه، والتساهل في رواته». (الكفاية في علم الرواية ١/ ١٣٤).

وعن أحمد بن حنبل: «إذا روينا عن رسول الله ﷺ في الحلال والحرام والسنن والأحكام تشددنا في الأسانيد، وإذا روينا عن النبي ﷺ في فضائل الأعمال وما لا يضع حكماً ولا يرفعه تساهلنا في الأسانيد». (الكفاية في علم الرواية ١/ ١٣٤).

فحين نتناول سيرته ﷺ قبل البعثة وأثرها على شخصيته وحياته، أو نتناول تعامله ﷺ مع أصحابه، وأساليبه في التعليم والتوجيه، فقد يسع الاستشهاد بما رواه أهل السير والمغازي، أو ما في إسناده ضعف؛ إلحاقًا لذلك بما قرره أهل العلم في الاستشهاد بالحديث الضعيف في باب فضائل الأعمال ونحوها.

أما حين يصل الأمر للاستنباط والاستشهاد على حكم شرعي، أو قضية كلية أو منهجية فلا بد من تطبيق معايير صحة النص وسلامة الاستنباط والاستدلال.

٦- مراعاة اعتبار الزمان والمكان والأشخاص:

الهدي النبوي العملي يمثل تعاملًا مع واقع معين باختلاف عناصره؛ فهو مرتبط بزمان ومكان وأشخاص بأعيانهم، وهذا يتطلب مراعاة ذلك في الاستنتاج والاستنباط، وفي تعميم دلالة النص.

قال شيخ الإسلام- وهو يقرر مدى الاحتجاج بفعل الإمام في تقرير مذهبه-: «فإنَّ فعلَه يدل على جوازه فيما ليس من تعبداته، وإذا كان متعبدًا به دلَّ على أنه مستحب عنده أو واجب، أما كونه أفضل من غيره عنده فيفتقر إلى دليل منفصل، وكثيرًا ما يعدل الرجل عن الأفضل إلى الفاضل؛ لما في الأفضل من الموانع، وما يفتقر إليه من الشروط، أو لعدم الباعث، وإذا كان فعله جائزًا أو مستحبًا أو أفضل فإنه لا عموم له في جميع الصور، بل لا يتعدى حكمه إلا إلى ما هو مثله، فإن هذا شأن جميع الأفعال لا عموم لها، حتى فعل النبي ﷺ لا عموم له». (مجموع الفتاوى ١٩/ ١٥٣).

ومثل ذلك مراعاة اختلاف الأشخاص، فقد علَّم ﷺ مَن سأله عن الإسلام الفرائض، ولم يزد على ذلك، بينما أكَّد على أصحابه فعل الرواتب والتزوُّد من النوافل، وقال لعبد الله بن عمرو رضي الله عنهما: «يا عبد الله، لا تكن مثل فلان كان يقوم الليل، فترك قيام الليل» (أخرجه البخاري ١١٥٢، ومسلم ١١٥٩)، وهكذا تفاوت مواقفه ﷺ في تعامله مع أخطاء أصحابه.

لقد كان ﷺ يفعل ما يلائم الموقف والشخص والحال؛ ومِن ثَمَّ فاعتبار أحد أفعال النبي ﷺ قاعدة عامة تعميمٌ للنص في غير محله؛ فلم يكن هديه ﷺ أخذ الناس دومًا بالعزيمة، ولا بخلاف ذلك، ولم يكن هديه دومًا أن يواجه المخطئ صراحةً بخطئه، ولا خلاف ذلك، إنما كان ﷺ يتعامل مع كل موقف بما يقتضيه.

٧- التفريق بين المنهج والوسائل:

مما ينبغي مراعاته في التعامل مع الهدي النبوي التفريق بين المنهج، والوسائل والأساليب؛ إذ هدي النبي ﷺ القولي والعملي جاء متضمنًا لذلك كله.

لذا ينبغي التفريق بين ما يلحق بالتشريع والمنهج الواجب اتباعه، وبين ماهو في إطار الوسائل يختلف باختلاف الزمان والمكان؛ فما يكون بالغ التأثير اليوم قد لا يكون كذلك غدًا.

ومع ذلك فتغير الأحوال لا يلغي الاستدلال بما ورد في باب الوسائل النبوية، فعلى سبيل المثال كان النبي ﷺ يخطُّ على الأرض وهو يعلِّم أصحابه، كما فعل في حديثه عن الأمل والأجل، والصراط المستقيم وسبل الشيطان، ونحو ذلك مما سيأتي تفصيله

فلو أحضر معلم ترابًا في الصف أو المسجد ليخطَّ عليه؛ تأسيًا بالنبي ﷺ لم يكن ذلك سائغًا؛ لأن النبي ﷺ فعله وهو جالس على التراب مع أصحابه، والتأسي به ﷺ في ذلك

يتحقق باستخدام السبورة أو الورق أو أجهزة العرض، ونحو ذلك مما يمكن معه تصوير المعنى المجرد في نموذج محسوس.

وحين أمره تبارك وتعالى بأن يجهر بالدعوة صعد ﷺ على الصفا، وقال مقولته المشهورة، فعن ابن عباس رضي الله عنهما، قال: لما نزلت: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾ (الشعراء: ٢١٤) ورهطك منهم المخلصين، خرج رسول الله ﷺ حتى صعد الصفا فهتف: «يا صباحاه» فقالوا: من هذا؟ فاجتمعوا إليه، فقال: «أرأيتم إن أخبرتكم أن خيلًا تخرج من سفح هذا الجبل، أكنتم مصدقي؟» قالوا: ما جرَّبنا عليك كذبًا، قال: «فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد» قال أبو لهب: تبًا لك، ما جمعتنا إلا لهذا؟ ثم قام، فنزلت: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ﴾ (المسد: ١). (أخرجه البخاري ٤٩٧١، ومسلم ٢٠٨).

فالتأسي به ﷺ في هذا الأسلوب لا يتم بأن يقف الداعية على جبل في قريته، ويدعو قومه بهذا النداء، إنما بأن يختار الوسلية الأجدى في تبليغهم، كما اختار ﷺ هذه الوسيلة لأنها أجدى في وقته.

وفي حجِّه ﷺ كان له موقف آخر على الصفا، جاء في حديث جابر رضي الله عنه في وصف حجة النبي ﷺ: ثم خرج من الباب إلى الصفا، فلما دنا من الصفا قرأ: ﴿إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ﴾ (البقرة: ١٥٨) «أبدأ بما بدأ الله به» فبدأ بالصفا، فرقى عليه، حتى رأى البيت فاستقبل القبلة، فوحَّد الله وكبَّره، وقال: «لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير، لا إله إلا الله وحده، أنجز وعده، ونصر عبده، وهزم الأحزاب وحده»، ثم دعا بين ذلك، قال مثل هذا ثلاث مرات». (أخرجه مسلم ١٢١٨).

ففي هذا المقام يشرع لنا أن نقف حيث وقف ﷺ، ونقول ما قال، على الحال نفسها، بخلاف المقام الأول.

٨- الأدب مع المقام النبوي:

الحديث في الهدي البنوي- أيًا كان مجاله- هو حديث عن مقام خير البشر وسيد ولد آدم ﷺ؛ مما يقتضي غاية الأدب والإجلال والتوقير.

وقد أمر الله تبارك وتعالى بالتأدُّب مع نبيه ﷺ وتوقيره وإجلال مقامه، فنهى عز وجل عن التقدُّم بين يده ﷺ، قال سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ (الحجرات: ١).

قال ابن عباس رضي الله عنهما: «لا تقولوا خلاف الكتاب والسنة». (تفسير ابن جرير ٢٢/ ٢٧٢).

وقال مجاهد رحمه الله: «لا تفتاتوا على رسول الله ﷺ بشيء، حتى يقضيه الله على لسانه». (تفسير ابن جرير ٢٢/ ٢٧٣).

وقال ابن القيم رحمه الله: «وهذا باق إلى يوم القيامة ولم ينسخ؛ فالتقدم بين يدي سنته بعد وفاته، كالتقدم بين يديه في حياته، ولا فرق بينهما عند ذي عقل سليم». (مدارج السالكين ٢/ ٣٦٧).

ونهى سبحانه وتعالى عن رفع الصوت بين يديه، وتوعد على ذلك بحبوط العمل، قال عز وجل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرْفَعُوٓاْ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُواْ لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَٰلُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ (الحجرات: ٢).

قال ابن القيم رحمه الله: «ومن الأدب معه: أن لا تُرفع الأصوات فوق صوته؛ فإنه سبب لحبوط الأعمال، فما الظن برفع الآراء، ونتائج الأفكار على سنته وما جاء به؟». (مدارج السالكين ٢/ ٣٦٧).

وأثنى سبحانه وتعالى على من يتأدبون مع مقام النبي ﷺ بِغَضِّ أصواتهم، ووعد على ذلك بالمغفرة والأجر العظيم، فقال عز وجل: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصۡوَٰتَهُمۡ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمۡتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡ لِلتَّقۡوَىٰۚ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٌ عَظِيمٌ﴾ (الحجرات: ٣).

وقد كان أصحاب النبي ﷺ في غاية الأدب والتوقير والإجلال معه ﷺ، يصف المغيرة بن شعبة رضي الله عنه حين وفد إلى النبي ﷺ عام الحديبية شيئًا من أدبهم معه ﷺ، ففي حديث المِسْوَرِ بن مَخْرَمَة ومروانَ في قصة الحديبية: «ثم إن عروة جعل يرمق أصحاب النبي ﷺ بعينيه، قال: فوالله ما تنخَّم رسول الله ﷺ نُخامَة إلا وقعت في كف رجل منهم، فدلَّك بها وجهَه وجلدَه، وإذا أمرهم ابتدروا أمره، وإذا توضأ كادوا يقتتلون على وضوئه، وإذا تكلم خفضوا أصواتهم عنده، وما يُحِدُّون إليه النظر تعظيمًا له، فرجع عروة إلى أصحابه، فقال: أي قوم، والله لقد وفدت على الملوك، ووفدت على قيصر، وكسرى، والنجاشي، والله إن رأيت ملكًا قط يعظمه أصحابه ما يعظم أصحاب محمد ﷺ محمدًا... الحديث». (أخرجه البخاري ٢٧٣١).

وكان الأدب سِمَةً لمجالسهم معه، عن زياد بن علاقة، عن أسامة بن شريك، قال: «أتيت النبي ﷺ وأصحابه كأنما على رءوسهم الطير». (أخرجه الخطيب في الجامع ٣٢٢).

أخرج الخطيب بسنده عن أبي بكر بن الأنباري: قولهم: جلساء فلان كأنما على رءوسهم الطير، في هذا قولان، أحدهما: أن يكون المعنى أنهم يسكنون فلا يتحركون، ويغضون أبصارهم، والطير لا يقع إلا على ساكن، يقال للرجل- إذا كان حليمًا وقورًا-: إنه لساكن الطير الطائر، أي كأن على رأسه طيرًا لسكونه، والقول الثاني: إن الأصل في قولهم: كأنما على رؤوسهم الطير أن سليمان بن داود كان يقول للريح: أَقِلِّينَا، وللطير: أَظِلِّينَا، فتقلُّه وأصحابه الريح، وتظلُّهم الطير، وكان أصحابه يغضُّون أبصارهم هيبةً له وإعظامًا، ويسكنون فلا يتحركون ولا يتكلمون بشيء إلا أن يسألهم عنه فيجيبوا، فقيل

للقوم إذا سكنوا: هم علماء وُقَرَاء كأنما على رؤوسهم الطير، تشبيهًا بأصحاب سليمان عليه السلام، ومن ذلك الحديث الذي يروى: «كان رسول الله ﷺ إذا تكلم أطرق جلساؤه كأنما على رؤوسهم الطير». (الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع ٣٢٣).

ويتجلى أدب الصحابة رضوان الله عليهم مع النبي ﷺ في تعاملهم مع أقواله وأوامره ونواهيه، عن عبادة بن الصامت الأنصاري النقيب، صاحب رسول الله ﷺ و رضي الله عنه أنه غزا مع معاوية رضي الله عنه أرض الروم، فنظر إلى الناس وهم يتبايعون كسر الذهب بالدنانير، وكسر الفضة بالدراهم، فقال: يا أيها الناس، إنكم تأكلون الربا، سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لا تبتاعوا الذهب بالذهب، إلا مثلًا بمثل، لا زيادة بينهما ولا نَظِرة» فقال له معاوية: يا أبا الوليد، لا أرى الربا في هذا، إلا ما كان من نَظِرة، فقال عبادة: أحدثك عن رسول الله ﷺ، وتحدثني عن رأيك؟ لئن أخرجني الله لا أساكنك بأرض لك عليَّ فيها إمرة، فلما قفل لحق بالمدينة، فقال له عمر بن الخطاب: ما أقدمك يا أبا الوليد؟ فقص عليه القصة، وما قال من مساكنته، فقال: ارجع يا أبا الوليد إلى أرضك، فقبَّح اللهُ أرضًا لست فيها وأمثالك، وكتب إلى معاوية: لا إمرة لك عليه، واحمل الناس على ما قال؛ فإنه هو الأمر. (أخرجه ابن ماجه ١٨، وأصله في مسلم ١٥٨٧).

وقد كان أئمة السلف في غاية التأدب مع مقام النبي ﷺ، ويتجلى ذلك في مجالس السماع والتحديث، عن أحمد بن سنان القطان، قال: «كان عبد الرحمن بن مهدي لا يُتحدث في مجلسه، ولا يُبرى فيه قلم، ولا يبتسم أحد، فإن تحدث أو برى قلمًا، صاح ولبس نعليه ودخل، وكذا يفعل ابن نمير، وكان من أشد الناس في هذا، وكان وكيع - أيضًا - في مجلسه كأنهم في صلاة، فإن أنكر من أمرهم شيئًا انتعل ودخل، وكان ابن نمير يغضب ويصيح، وكان إذا رأى من يبري قلمًا تغير وجهه». (الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع ٣٢٤).

ونُقِل عن جمع منهم اعتناؤه بالطهارة حين يحدث عن رسول الله ﷺ، فعن معمر عن قتادة، قال: «لقد كان يستحب ألا تقرأ الأحاديث التي عن النبي ﷺ إلا على وضوء». (الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع ٣٢٥).

وعن أبي مصعب أنه قال: «كان مالك لا يحدث بحديث رسول الله ﷺ إلا وهو على طهارة؛ إجلالًا لحديث رسول الله». (الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع ٩٧٧).

وعن إسحاق بن الربيع، قال: «رأيت الأعمش إذا أراد أن يحدث على غير طهور تيمَّم». (الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع ٩٧٨).

ونُقل عن طائفة منهم كراهيته التحديث عنه ﷺ في حال الاضطجاع، أو القيام والمشي، عن ابن أبي الزناد، قال: كان سعيد بن المسيب وهو مريض يقول: «أقعدوني؛ فإني أعظم أن أحدِّث حديث رسول الله ﷺ وأنا مضطجع». (الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع ٩٧٢).

وقال عبد الرحمن بن مهدي: سألت مالك بن أنس عن حديثٍ وأنا أصحبه في الطريق فقال: «هذا حديث عن رسول الله ﷺ، وأكره أن أحدثك ونحن نستطرق الطريق، فإن شئت أن أجلس وأحدِّثك به فعلت، وإن شئت أن تصحبني إلى منزلي وأحدثك به فعلت، قال: فصحبته إلى منزله، فجلس وتمكن، ثم حدثني به». (الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع ٩٧٠).

وقيل لمالك: لِمَ لَمْ تكتب عن عمرو بن دينار؟ قال: «أتيته والناس يكتبون عنه قيامًا، فأجللتُ حديث رسول الله ﷺ أن أكتبه وأنا قائم». (الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع ٩٦٩).

وعقَّب الخطيب على هذه الآثار بقوله: «كراهة مَن كَرِهَ التحديث في الأحوال التي ذكرناها من المشي، والقيام، والاضطجاع، وعلى غير طهارة، إنما هي على سبيل التوقير للحديث والتعظيم والتنزيه له، ولو حدَّث محدث في هذه الأحوال لم يكن مأثومًا، ولا

فعل أمرًا محظورًا، وأجلُّ الكتب كتابُ الله، وقراءته في هذه الأحوال جائزة، فقراءة الحديث فيها بالجواز أولى». (الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع ١/ ٤١٠).

هذا غيض من فيض من أدبهم رحمهم الله في أحوال التحديث ومجالسه، وهو أدب صادق غير متكلف، فكيف بحالهم مع خبره وأمره ونهيه ﷺ، تصديقًا، وامتثالًا؟

عن أبي قتادة ﵁ قال: كنا عند عمران بن حصين ﵄ في رهط، وفينا بشير بن كعب، فحدثنا عمران، يومئذ، قال: قال رسول الله ﷺ: «الحياء خير كله»، قال: أو قال: «الحياء كله خير»، فقال بشير بن كعب: إنا لنجد في بعض الكتب- أو الحكمة- أن منه سكينة ووقارًا لله، ومنه ضعف، قال: فغضب عمران حتى احمرَّت عيناه، وقال: ألا أرى أحدثك عن رسول الله ﷺ، وتعارض فيه، قال: فأعاد عمران الحديث، قال: فأعاد بشير، فغضب عمران، قال: فما زلنا نقول فيه: إنه منا يا أبا نجيد، إنه لا بأس به. (أخرجه مسلم، كتاب الإيمان ح ٦١، وأخرجه البخاري ٦١١٧ مختصرًا).

ويتجلى هذا الأدب عند صاحبه أبي هريرة ﵁ أكثر الناس رواية عنه ﷺ، فعن أبي هريرة ﵁ أن النبي ﷺ قال: «توضَّؤُوا مما غيَّرت النار» فقال ابن عباس: أتوضَّأ من الحميم؟ فقال له: يا ابن أخي، إذا سمعت عن رسول الله ﷺ حديثًا، فلا تضرب له الأمثال. (أخرجه ابن ماجه ٣٥٢، وأصله في مسلم ٣٥٢).

وكان أئمة السلف من التابعين فمن بعدهم على هذا النهج، قال السائب: كنا عند وكيع، فقال لرجل ممن عنده، ممن ينظر في الرأي: «أشْعَرَ رسول الله ﷺ»- يعني هديه-، ويقول أبو حنيفة هو مُثْلَة؟ قال الرجل: فإنه قد روي عن إبراهيم النخعي أنه قال: الإشعار مُثْلةٌ، قال: فرأيت وكيعًا غضب غضبًا شديدًا، فقال: «أقول لك قال رسول الله ﷺ وتقول: قال إبراهيم؟ ما أحقك بأن تحبس، ثم لا تخرج حتى تنزع عن قولك هذا». (أخرجه الخطيب في الفقيه والمتفقه ١/ ٣٨٦).

وعن الربيع بن سليمان، قال: سمعت الشافعي، وسأله رجل عن مسألة، فقال: يروى فيها كذا وكذا عن النبي ﷺ، فقال له السائل: يا أبا عبد الله تقول به؟ فرأيت الشافعي أرعد وانتقص، فقال: «يا هذا، أيُّ أرضٍ تُقِلُّني، وأي سماءٍ تُظِلُّني، إذا رويت عن النبي ﷺ حديثًا فلم أقل به؟ نعم على السمع والبصر، نعم على السمع والبصر». (أخرجه الخطيب في الفقيه والمتفقه ١/ ٣٨٩).

والمقام لا يتسع لاستيعاب الشواهد من أقوال الصحابة وأحوالهم ﷺ ومَنْ بعدهم من السلف في التأدب مع النبي ﷺ وسنته وهديه.

فإذا كانت هذه حال الكبار، العالمين بالسنة ودقائقها، فكيف بحال أمثالنا من الجفاة الغرباء عن السنة والهدي النبوي، ومعرفتهم به مرتهنة بالقرطاس أو المصدر الرقمي؟

لو خاطب أحدٌ ذا سلطان وشأن لدقَّق في عباراته، وغيَّر وبدَّل، وراجعها مرة بعد أخرى، وربما استشار غيره، فكيف حين يكون الحديث عن سيد ولد آدم بأبي هو وأمي ﷺ؟

وها هو سعد بن معاذ ﷺ يضرب لنا مثلًا في التأدب مع رسول الله ﷺ، جاء في رواية ابن إسحاق لقصة تحكيم سعد ﷺ في بني قريظة: فلما انتهى سعد إلى رسول الله ﷺ والمسلمين، قال رسول الله ﷺ: «قوموا إلى سيدكم» فأما المهاجرون من قريش، فيقولون: إنما أراد رسول الله ﷺ الأنصار، وأما الأنصار، فيقولون: قد عم بها رسولُ الله ﷺ، فقاموا إليه، فقالوا: يا أبا عمرو، إن رسول الله ﷺ قد ولاك أمر مواليك لتحكم فيهم، فقال سعد بن معاذ: عليكم بذلك عهد الله وميثاقه، أن الحكم فيهم لما حكمت؟ قالوا: نعم، وعلى مَن ها هنا؟ في الناحية التي فيها رسول الله ﷺ، وهو معرض عن رسول الله ﷺ إجلالًا له، فقال رسول الله ﷺ: «نعم»، قال سعد: فإني أحكم فيهم أن تقتل الرجال، وتقسم الأموال، وتسبى الذراري والنساء... (السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ٢٣٩-٢٤٠).

وكما على الباحث في الهدي النبوي أن يتأدب في الألفاظ وهو يتحدث عنه ﷺ، فعليه كذلك تعظيم سنته ﷺ، وإجلال مقامه، والحذر من الاعتراض عليه، أو تقديم الرأي على سنته.

وقد يعترض الباحثَ في هديه ﷺ مواقفُ عمليةٌ أو أقوالٌ نبويةٌ، تتعارض في ذهنه وفهمه؛ فيعبر عن ذلك بما لا يليق بالمقام النبوي، وربما صيَّر فهمه وعقله إطارًا لفهم الهدي النبوي.

وقد يستخدم ﷺ في تعليمه وتربيته أو دعوته وسيلة أو أسلوبًا كان متاحًا في عصره ﷺ، فينظر الباحث إلى اختلاف العصر والأحوال، فلا يوفق في التعبير بما يليق بالمقام النبوي الكريم، بل ربما تجرأ بعضهم بقوله: إن هذا لا يناسب العصر ومتغيراته.

وليس من الأدب مع المقام النبوي بحال أن نقارن هديه ﷺ وما جاء به بآراء العلماء المسلمين، فضلًا عن الفلاسفة، فضلًا عن من وصفهم تبارك وتعالى بقوله: ﴿يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْءَاخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ﴾ (الروم: ٧).

وليس من الأدب مع الهدي النبوي أن يُسْتَشْكل لتعَارُضِه مع مقررات سابقة، بل هو الحَكَم وإليه المرجع، قال ابن القيم رحمه الله: «ومن الأدب معه: أن لا يستشكل قوله، بل تُستشكَل الآراء لقوله، ولا يعارَض نصُّه بقياس، بل تُهدَر الأقيسة وتُلقى لنصوصه، ولا يُحرَّف كلامه عن حقيقته لخيال يسميه أصحابه معقولًا، نعم هو مجهول، وعن الصواب معزول، ولا يوقف قبول ما جاء به ﷺ على موافقة أحد، فكل هذا من قلة الأدب معه ﷺ، وهو عين الجرأة». (مدارج السالكين ٢/ ٣٦٨).

* * *

كيف تربى النبي ﷺ؟

شاء الله عز وجل بحكمته أن يكون أنبياؤه بشرًا يعيشون كسائر البشر يأكلون الطعام ويمشون في الأسواق، قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا قَبۡلَكَ مِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمۡ لَيَأۡكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمۡشُونَ فِي ٱلۡأَسۡوَاقِۗ وَجَعَلۡنَا بَعۡضَكُمۡ لِبَعۡضٖ فِتۡنَةً أَتَصۡبِرُونَۗ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرٗا﴾ (الفرقان: ٢٠).

وأنكر عز وجل على المشركين اعتراضهم على بشرية النبي ﷺ، وأخبر أنه لو أنزل ملكًا لكان في هيئة البشر، فقال سبحانه: ﴿وَلَوۡ جَعَلۡنَٰهُ مَلَكٗا لَّجَعَلۡنَٰهُ رَجُلٗا وَلَلَبَسۡنَا عَلَيۡهِم مَّا يَلۡبِسُونَ﴾ (الأنعام: ٩).

وعاش محمد ﷺ كسائر الناس، يصحو وينام، يمرض ويصح، يستبشر ويحزن؛ ليكون قدوة للناس، وليرى الناس نموذج تطبيق الدين في واقع بشري عملي.

إن الله عز وجل قادر على أن يظهر أنبياءه للوجود وهم في سن الوحي والرسالة، وأن تتحقق لديهم صفات الأنبياء وسماتهم بسنة خارقة.

لكنه سبحانه قدَّر أن يعيش الأنبياء مع أقوامهم، تحملهم أمهاتهم، ويولدون كسائر الأطفال، ويهيء لهم سبحانه بقدرته وإرادته الأسباب والعوامل التي تسهم في بناء شخصيتهم؛ فأصبحوا بذلك قدوة وأسوة للناس من بعدهم.

قال محمد الغزالي: «وقد تسأل: أتنقدح المعارف المتصلة بالكون وما وراءه، والناس وما يفيضون فيه- أتنقدح حقائقها في نفوس المرسلين فجأة، دون إعداد سابق أو تهيئة حكيمة؟

والجواب: كلَّا، فالأنبياء- وإن لم يتعلَّموا بالطرق التي يتعلم بها أمثالنا- لهم من سلامة فكرهم واستقامة نظرهم ما يجعلهم في طليعة العلماء- وإن لم يتعلَّموا بما نعهد من أساليب.

ما العلم الذي ترقى به النفس؟ أهو حفظ الدروس واستيعاب القواعد والقوانين؟

إنَّ هناك ببغاوات كثيرة تردِّد ما تسمع دون وعي، ولقد نرى أطفالًا صغارًا يلقون بإتقان وتمثيل خُطبًا دقيقة لأشهر الساسة والقادة.

فلا الأطفال بما استُحفظوا من كلام الأئمة أصبحوا رجالًا، ولا الببغاوات تحوَّلت بشرًا.

وقد تجد من يحفظ ويفقه، ويجادل ويغلب، ولكن العلم في نفسه كعروق الذهب في الصخور المهملة، لا يبعث على خير، ولا يزجر عن شر». (فقه السيرة، ص٧٠).

ومن هنا؛ فإن دراسة حياة النبي ﷺ قبل بعثته مطلب مهم لاستجلاء النموذج الأمثل لبناء الشخصية الإنسانية.

اختيار رباني:

اختار الله عز وجل نبيه ﷺ واصطفاه من خير بيوت الناس؛ فعن أبي هريرة رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: «بُعثت من خير قرون بني آدم قرنًا فقرنًا، حتى كنت من القرن الذي كنت فيه». (أخرجه البخاري ٣٥٥٧).

وعن واثلة بن الأسقع رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الله اصطفى كنانة من ولد إسماعيل، واصطفى قريشًا من كنانة، واصطفى من قريش بني هاشم، واصطفاني من بني هاشم». (أخرجه مسلم ٢٢٧٦).

قال ابن القيم: «وهو خير أهل الأرض نسبًا على الإطلاق، فلنسبه من الشرف أعلى ذروة، وأعداؤه كانوا يشهدون له بذلك، ولهذا شهد له به عدوه- إذ ذاك- أبو سفيان بين يدي ملك الروم، فأشرف القوم قومه، وأشرف القبائل قبيلته، وأشرف الأفخاذ فخذه». (زاد المعاد ١/ ٧٠).

وهذا الاصطفاء والاختيار ليس أمرًا قاصرًا على محمد ﷺ، بل هي سنة الله عز وجل في الأنبياء والمرسلين، كما جاء في حديث هرقل: «سألتك عن نسبه، فذكرت أنه فيكم ذو نسب، فكذلك الرسل تبعث في نسب قومها». (أخرجه البخاري ٧، ومسلم١٧٧٣)، وفي رواية مسلم: «سألتك عن حسبه، فزعمت أنه فيكم ذو حسب، وكذلك الرسل تبعث في أحساب قومها».

وحسن النسب وكرامة الأصل له أثره في قبول دعوة النبي ﷺ، وبخاصة لدى أولئك الذين كانت تعلو لديهم معايير النسب، ويقيمون لها وزنًا وشأنًا، وتدفع عنه تهمة البحث عن محمدة ورفعة وراء ادعاء النبوة.

قال الماوردي: «لما كان أنبياء الله صفوة عباده وخير خلقه لما كلفهم من القيام بحقه، استخلصهم من أكرم العناصر، وأمدَّهم بأوكد الأواصر؛ حفظًا لنسبهم من قدح، ولمنصبهم من جرح؛ لتكون النفوس لهم أوطأ، والقلوب لهم أصفى؛ فيكون الناس إلى إجابتهم أسرع ولأوامرهم أطوع». (أعلام النبوة، للماوردي ١٨٥).

وقال ابن عثيمين: «لا شك أن النسب له تأثير وله ميزة، ولهذا نقول: جنس العرب خير من غيرهم من الأجناس، وبنو هاشم أفضل من غيرهم من قريش، كما جاء في الحديث ... فالنسب له تأثير؛ لذلك تجد طبائع العرب غير طبائع غيرهم، فهم خير في الفهم، وخير في الجلادة، وخير في الشجاعة وخير في العلم، لكن إذا أبطأ بهم العمل صاروا شرًّا من غيرهم، انظر إلى أبي لهب عم النبي ﷺ ماذا كانت أحواله؟» (شرح الأربعين النووية، ص ٣٦٦).

كما أن لحسن النسب أثرًا آخر على صاحبه؛ فهو يهيء له بيئة أكثر استقرارًا، وتتعزز لديه النظرة الإيجابية لذاته.

إلا أن الأمر يحتاج إلى اعتدال؛ فلا يتحول إلى فخر بالأنساب، أو طعن وانتقاص ممن لا يتصفون بشرف النسب، أو قياس الناس وتقويمهم وفقًا لأنسابهم.

لذا؛ فقد حذر ﷺ من ذلك، فعن أبي هريرة ﷺ، قال: قال رسول الله ﷺ «إن الله عز وجل قد أذهب عنكم عُبِّيَّةَ الجاهلية، وفخرها بالآباء، مؤمن تقي، وفاجر شقي، أنتم بنو آدم، وآدم من تراب، ليدعنَّ رجالٌ فخرَهم بأقوام، إنما هم فَحْم مِنْ فَحْم جهنم، أو ليكونن أهون على الله من الجِعْلَان التي تدفع بأنفها النَّتَن». (أخرجه أبو داود ٥١١٦، والترمذي ٣٢٧٠، وأحمد ٨٧٣٦).

وفي رواية للترمذي (٣٩٥٥): «لينتهينَّ أقوام يفتخرون بآبائهم الذين ماتوا، إنما هم فحم جهنم، أو ليكونن أهون على الله من الجُعلِ الذي يُدَهْدِهُ الخِرَاءَ بأنفه، إن الله أذهب عنكم عُبِّيَّةَ الجاهلية وفخرها بالآباء، إنما هو مؤمن تقي وفاجر شقي، الناس كلهم بنو آدم، وآدمُ خُلق من تراب».

وعن أبي نضرة، حدثني من سمع خطبة رسول الله ﷺ في وسط أيام التشريق، فقال: «يا أيها الناس، ألا إن ربكم واحد، وإن أباكم واحد، ألا لا فَضْلَ لعربي على عجمي، ولا لعجمي على عربي، ولا أحمر على أسود، ولا أسود على أحمر، إلا بالتقوى، أبلغت؟»، قالوا: بلغ رسول الله. (أخرجه أحمد ٢٣٤٨٩).

قال محمد الغزالي: «وعراقة الأصل لا تمنح الرجل الفاشل فضلًا، كالصُّلب إذا تُرِكَ للصَّدَأ، يمسي لا غناء فيه، أما إذا تعهدته اليد الصنَّاع فإنها تبدع منه الكثير». (فقه السيرة ٥٩).

أسرة مستقرة:

تمثل البيئة التي ينشأ فيها الإنسان عاملًا مهمًّا من عوامل بناء شخصيته، ولها أثر لا يُجهل على خصائص الشخصية وسماتها، وعلى محتوى هذه الشخصية من قيم وتدين.

وقد هيأ الله لنبيه ﷺ أن يعيش عيشة مستقرة؛ فقد رعته أمُّه، وجدُّه عبد المطلب الذي قام مقام والده، ثم عمُّه أبو طالب؛ فلم يكن يُتْمُهُ ﷺ مدعاةً للتشتُّتِ والحياةِ غير المستقرة.

ألقى الله عز وجل محبة النبي ﷺ على قلب جده عبدالمطلب، فأحبَّه، ورعاه كما يرعى الرجل أولاده، قال ابن إسحاق: «فكان رسول الله ﷺ مع جده عبد المطلب بن هاشم، وكان يوضع لعبد المطلب فراش في ظل الكعبة، فكان بنوه يجلسون حول فراشه ذلك حتى يخرج إليه، لا يجلس عليه أحد من بنيه؛ إجلالًا له، قال: فكان رسول الله ﷺ يأتي وهو غلام جَفْر، حتى يجلس عليه، فيأخذه أعمامه ليؤخروه عنه، فيقول عبد المطلب- إذا رأى ذلك منهم-: دعوا ابني؛ فو الله إن له لشأنًا، ثم يجلسه معه على الفراش، ويمسح ظهره بيده، ويَسُرُّه ما يراه يصنع». (السيرة النبوية لابن هشام ١/ ١٦٨).

وأخرج الواقدي عن ابن جبير وغيره أنهم قالوا: كان رسول الله ﷺ يكون مع أمه آمنة بنت وهب، فلما توفيت قبضه إليه جده عبد المطلب، وضمه، ورَقَّ عليه رِقَّةً لم يَرِقَّها على ولده، وكان يقرِّبه منه ويدنيه، ويدخل عليه إذا خلا وإذا نام.

وكان يجلس على فراشه، فيقول عبد المطلب- إذا رأى ذلك-: دعوا ابني؛ إنه يؤسس ملكًا.

وقال عبد المطلب لأم أيمن- وكانت تحضنه-: يا بركة لا تغفلي عن ابني؛ فإني وجدته مع غلمان قريب من السدرة، وإن أهل الكتاب يزعمون أن ابني نبي هذه الأمة.

وكان عبد المطلب لا يأكل طعامًا إلا يقول: عليَّ بابني، فيؤتى به إليه.

وحين توفي عبد المطلب أوصى به عمه أبا طالب- كما ذكر ابن إسحاق- وذلك لأن عبد الله أبا رسول الله ﷺ وأبا طالب أَخَوَانِ لأبٍ وأمٍّ، أمهما فاطمة بنت عمرو بن عائذ بن عبد بن عمران بن مخزوم.

وألقى اللهُ عز وجل محبتَه على قلب عمه أبي طالب، حتى أنه لم يطق فراقه حين خرج إلى الشام فاصطحبه معه، قال ابن إسحاق: ثم إن أبا طالب خرج في ركب تاجرًا إلى الشام، فلما تهيأ للرحيل، وأجمع المسير صَبَّ بِهِ (مَالَ إليه وتعلَّق به) رسول الله ﷺ- فيما يزعمون- فَرَقَّ له أبو طالب، وقال: والله لأخرجن به معي، ولا يفارقني، ولا أفارقه أبدًا، أو كما قال». (السيرة النبوية لابن هشام ١/ ١٨٠).

وتؤكد الدراسات التربوية والنفسية على العلاقة الوثيقة بين الاستقرار الأسري واستقرار الفرد ونجاحه في حياته.

وهذا يؤكد على أهمية الاعتناء بالاستقرار الأسري، باعتباره من أهم شروط نجاح التربية الأسرية.

ويتطلب ذلك الاعتناء بتحقيق الاستقرار على مستوى المجتمع، من خلال إيجاد النماذج والحلول والوسائل المهيئة لاستقرار الأسرة، والتعامل مع استقرار الأسرة على أنه أولوية عند سَنِّ التنظيمات العامة للمجتمع.

كما يتطلب ذلك الاعتناء بتحقيق الاستقرار على المستوى الفردي، واعتباره أولوية لدى كل من الزوج والزوجة، والاهتمام في تحقيقه على مستوى الأقارب.

وُلد يتيمًا:

ولد محمد ﷺ يتيم الأب- على الراجح من أقوال علماء السيرة-، قال ابن كثير: «وهذا أبلغ اليُتم، وأعلى مراتبه». (البداية والنهاية ٢/ ٣٨٣).

وقد نص القرآن على يتمه، كما قال سبحانه: ﴿أَلَمۡ يَجِدۡكَ يَتِيمٗا فَـَٔاوَىٰ﴾ (الضحى: ٦).

قال محمد الغزالي: «ولنفرض عبد الله بقي حيًّا!! فماذا عسى كان يفعل لابنه؟! أكان يربيه ليهب له النبوَّة؟! ما كان له ذلك، إن الأب عنصر واحد من عناصر شتى تتحكَّم

في مستقبل الطفل، وتحفر له في الحياة مجراه، ولو كانت النبوَّة بالاكتساب ما قربتها حياة الوالد شبرًا؛ فكيف وهي اصطفاء؟». (فقه السيرة ٦٢).

رعاية ربانية:

لم تكن نشأة محمد ﷺ قاصرة على الأسباب المادية التي هيأها الله عز وجل له، بل إن الله تبارك وتعالى رعاه، وصنعه على عينه، وأنزل الله عز وجل في ذلك سورتين امتنَّ بهما على نبيه ﷺ، قال تعالى: ﴿وَالضُّحَىٰ ۝١ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ۝٢ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ۝٣ وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ ۝٤ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ ۝٥ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ ۝٦ وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ ۝٧ وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَىٰ ۝٨﴾ (الضحى: ١-٨).

وقال في سورة الشرح: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ۝١ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ۝٢ الَّذِي أَنقَضَ ظَهْرَكَ ۝٣ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ۝٤﴾ (الشرح: ١ - ٤).

وأخبر تعالى عن رعايته لنبيه موسى عليه السلام في آيات كثيرة، ومنها قوله تعالى: ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي﴾ (طه: ٣٩)، ومحمد ﷺ هو سيد ولد آدم، وإمام المرسلين، فلا ريب أن ذلك منطبق عليه ﷺ.

وتوفيق الله عز وجل ورعايته لعباده ليس قاصرًا على أنبيائه ورسله- صلوات الله وسلامه عليهم-، وإن كان لهم من الرعاية ما ليس لغيرهم.

ومن هنا فإن على المربين السعي لتحقيق أسباب توفيق الله وإعانته لمن يربونهم، وألا يكتفوا بمجرد بذل الأسباب المادية؛ فهي وحدها غير كافية.

ومن ذلك: ما أرشد إليه النبي ﷺ من الذكر عند المعاشرة، والاعتناء بتحصين الأولاد بالأوراد والأذكار، ودعاء الله عز وجل لهم بالصلاح والهداية، وحماية المنزل من الأسباب التي تجلب الشياطين وتبعد الملائكة، وغير ذلك من أسباب حلول البركة

الشرعية والتوفيق الرباني.

طفولة في بني سعد:

كان من عادة أهل مكة أن يسترضعوا لأولادهم في البادية، وهيأ الله لمحمد ﷺ أن ينشأ في بادية بني سعد مع حليمة السعدية رضي الله عنها.

وقد حقق هذا الأمر أثارًا مهمة في شخصية النبي ﷺ، من أهمها ما يلي:

- البناء الصحيح السليم، والعيش في نقاء البادية وصفائها، بعيدًا عن ضجيج المدينة وصخبها.
- اكتساب اللغة؛ فأهل البادية كانوا أسلم في لغتهم؛ ذلك أن أهل مكة خالطهم الأعاجم والموالي من غير العرب؛ مما كان له أثره على لغتهم.
- اكتساب عادات وقيم لا يتاح اكتسابها في مجتمع مكة.
- التنوع الثقافي والبيئي، فيجمع محمد ﷺ بين خير ما عند أهل مكة، وخير ما في بادية بني سعد.
- العمل وبداية تحمل المسؤولية، فقد كان ﷺ وهو في بني سعد يشارك إخوانه من الرضاعة رعي الغنم.

قال محمد الغزالي: «وتنشئة الأولاد في البادية؛ ليمرحوا في كنف الطبيعة، ويستمتعوا بجوها الطلق وشعاعها المرسل، أدنى إلى تزكية الفطرة، وإنماء الأعضاء والمشاعر، وإطلاق الأفكار والعواطف.

إنها لتعاسة أن يعيش أولادنا في شقق صغيرة من بيوت متلاصقة كأنها علب أغلقت على من فيها، وحرمتهم لذة التنفس العميق والهواء المنعش، ولا شك أن اضطراب الأعصاب

الذي قارن الحضارة الحديثة يعود فيما يعود إليه إلى البعد عن الطبيعة، والإغراق في التصنُّع، ونحن نقدِّر لأهل مكة اتجاههم إلى البادية؛ لتكون عَرَصَاتُهَا الفِساح مدارجَ طفولتهم، وكثير من علماء التربية يودُّ لو تكون الطبيعة هي المعهد الأول للطفل، حتى تتَّسق مداركه مع حقائق الكون الذي وجد فيه، ويبدو أن هذا حلم عسر التحقيق». (فقه السيرة ٦٣-٦٤).

رعي الغنم:

قدَّر الله عز وجل لنبيه ﷺ أن يرعى الغنم في طفولته وشبابه، وقد أخبر ﷺ عن ذلك، وأنه شأن الأنبياء جميعًا؛ مما يدل على أن رعيه ﷺ للغنم أمر مقصود أراده الله عز وجل لأنبيائه جميعًا، وأنه ليس مما حصل له اتفاقًا، أو لأن هذا شأن قومه.

عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال: كنا مع رسول الله ﷺ نجني الكَبَاثَ، وإن رسول الله ﷺ قال: «عليكم بالأَسْوَدِ منه؛ فإنه أطيبه»، قالوا: أكنت ترعى الغنم؟ قال: «وهل من نبي إلا وقد رعاها؟». (أخرجه البخاري ٣٤٠٦، ومسلم ٢٠٥٠).

رعي الغنم مرتين:

رعى النبيُّ ﷺ الغنمَ على مرحلتين في حياته، كانت الأولى في طفولته في بني سعد، فقد جاء في روايته ﷺ لحديث شق الصدر أنه كان يرعى البَهْمَ وقتها مع أخيه من الرضاعة، عن عتبة بن عبد السلمي، أنه حدَّثهم: أن رجلًا سأل رسول الله ﷺ فقال: كيف كان أول شأنك يا رسول الله؟ قال: «كانت حاضنتي من بني سعد بن بكر، فانطلقت أنا وابن لها في بَهْم لنا، ولم نأخذ معنا زادًا، فقلت: يا أخي، اذهب فأتنا بزاد من عند أُمِّنا، فانطلق أخي، ومكثت عند البَهْمِ، فأقبل طَيْرَانِ أبيضانِ كأنهما نِسران، فقال أحدهما لصاحبه: أهو هو؟ قال: نعم، فأقبلا يبتدراني، فأخذاني فبطحاني إلى القفا، فشقَّا بطني.... الحديث. (أخرجه أحمد ١٧٦٤٨، والدارمي ١٣).

ويروي ابن إسحاق قصة حليمة رضي الله عنها حين قدمت إلى مكة، وظفرت بخير البشر ﷺ؛ لترضعه وينشأ في كنفها.

قال ابن إسحاق: وحدَّثني جهم بن أبي جهم مولى الحارث بن حاطب الجمحي، عن عبد الله بن جعفر بن أبي طالب، أو عمن حدثه عنه، قال: كانت حليمة بنت أبي ذؤيب السعدية، أم رسول الله ﷺ التي أرضعته، تحدِّث: أنها خرجت من بلدها مع زوجها، وابن لها صغير ترضعه في نسوة من بني سعد بن بكر، تلتمس الرضعاء، قالت: وذلك في سنة شهباء، لم تبق لنا شيئًا، قالت: فخرجت على أتانٍ لي قَمْرَاءَ، معنا شارف لنا، والله ما تَبِضُّ بقطرة، وما ننام ليلنا أجمع من صبيِّنا الذي معنا؛ من بكائه من الجوع، ما في ثديي ما يغنيه، وما في شارفنا ما يغذيه- قال ابن هشام: ويقال: يغذيه-، ولكننا كنا نرجو الغيث والفرج، فخرجت على أتاني تلك، فلقد أدمت بالركب حتى شق ذلك عليهم ضعفًا وعجفًا، حتى قدمنا مكة نلتمس الرضعاء، فما منا امرأة إلا وقد عُرِضَ عليها رسول الله ﷺ فتأباه، إذا قيل لها: إنه يتيم؛ وذلك أنا إنما كنا نرجو المعروف من أبي الصبي، فكنا نقول: يتيم! وما عسى أن تصنع أمه وجدُّه؟ فكنا نكرهه لذلك، فما بقيت امرأة قدمت معي إلا أخذت رضيعًا غيري، فلما أجمعنا الانطلاق قلت لصاحبي: والله إني لأكره أن أرجع من بين صواحبي ولم آخذ رضيعًا، والله لأذهبن إلى ذلك اليتيم فلآخذنه، قال: لا عليك أن تفعلي، عسى الله أن يجعل لنا فيه بركة، قالت: فذهبت إليه فأخذته، وما حملني على أخذه إلا أني لم أجد غيره، قالت: فلما أخذته، رجعت به إلى رحلي، فلما وضعته في حجري أقبل عليه ثدياي بما شاء من لبن، فشرب حتى روي، وشرب معه أخوه حتى روي، ثم ناما، وما كنا ننام معه قبل ذلك، وقام زوجي إلى شارفنا تلك، فإذا إنها لحافل، فحلب منها ما شرب، وشربت معه حتى انتهينا رِيًّا وشِبَعًا، فبتنا بخير ليلة، قالت: يقول صاحبي- حين أصبحنا-: تعلمي والله يا حليمة، لقد أخذتِ نَسَمَةً مباركة، قالت: فقلت: والله إني لأرجو ذلك، قالت: ثم

خرجنا وركبت (أنا) أتاني، وحملته عليها معي، فو الله لقطعت بالركب ما يقدر عليه شيء من حُمُرِهِمْ، حتى إن صواحبي ليقلن لي: يا ابنة أبي ذؤيب، ويحك! أربعي علينا، أليست هذه أتانكِ التي كنتِ خرجت عليها؟ فأقول لهن: بلى والله، إنها لهي هي، فيقلن: والله إن لها لشأنًا، قالت: ثم قدمنا منازلنا من بلاد بني سعد، وما أعلم أرضًا من أرض الله أجدب منها، فكانت غنمي تروح عليَّ حين قدمنا به معنا شباعًا لبنًا، فنحلب ونشرب، وما يحلب إنسانٌ قطرةَ لبن، ولا يجدها في ضرع، حتى كان الحاضرون من قومنا يقولون لرعيانهم: ويلكم! اسرحوا حيث يسرح راعي بنت أبي ذؤيب، فتروح أغنامهم جياعًا ما تَبِضُّ بقطرة لبن، وتروح غنمي شباعًا لبنًا، فلم نزل نتعرَّف من الله الزيادة والخير حتى مضت سنتاه وفصلته، وكان يشبُّ شبابًا لا يشبه الغلمان، فلم يبلغ سنتيْه حتى كان غلامًا جفرًا، قالت: فقدمنا به على أمه ونحن أحرص شيء على مكثه فينا؛ لما كنا نرى من بركته، فكلمنا أمه وقلت لها: لو تركت بُنَيَّ عندي حتى يغلظ؛ فإني أخشى عليه وَبَأَ مكة، قالت: فلم نزل بها حتى ردته معنا. (السيرة النبوية لابن هشام ١/ ١٦٢-١٦٤).

قال السهيلي: «وأما دفع قريش وغيرهم من أشراف العرب أولادهم إلى المراضع، فقد يكون ذلك لوجوه، أحدها: تفريغ النساء إلى الأزواج... وقد يكون ذلك منهم - أيضًا - لينشأ الطفل في الأعراب، فيكون أفصح للسانه، وأجلد لجسمه، وأجدر أن لا يفارق الهيئة المعدية، كما قال عمر ﷺ: تَمَعْدَدُوا وتَمَعْزَزُوا واخْشَوْشِنُوا، وقد قال ﵇ لأبي بكر ﷺ حين قال له: ما رأيت أفصح منك يا رسول الله، فقال: وما يمنعني، وأنا من قريش، وأُرضعت في بني سعد؟! فهذا ونحوه كان يحملهم على دفع الرُّضَعَاءِ إلى المراضع الأعرابيات». (الروض الأنف ٢/ ١٦٧-١٦٨).

لقد كانت المرحلة الأولى من رعيه ﷺ الغنم في طفوته وهو في بني سعد، وتكرر رعيه ﷺ الغنم في مرحلة ثانية وهو ﷺ شاب في مكة، وقد حدَّث ﷺ عن نفسه بذلك، عن أبي

هريرة ﷺ عن النبي ﷺ قال: «ما بعث الله نبيًّا إلا رعى الغنم»، فقال أصحابه: وأنت؟ فقال: «نعم، كنت أرعاها على قراريطَ لأهل مكة». (أخرجه البخاري ٢٢٦٢).

وقال السهيلي: «وإنما أراد ابن إسحاق بهذا الحديث رعايته الغنم في بني سعد مع أخيه من الرضاعة، وقد ثبت في الصحيح أنه رعاها بمكة- أيضًا- على قراريط لأهل مكة». (الروض الأنف ٢/ ١١٦).

وفي هذه المرة التي كان الرعي فيها بمكة كان ﷺ قد شبَّ وجاوز الطفولة، والرعي في مكة يتطلب مسيرًا أكثر؛ فطبيعة مكة تختلف عن بني سعد.

وكان يرعى ﷺ في بني سعد كجزءٍ من واجبه الأُسَرِي، أما في مكة فقد كانت على قراريط؛ فهو عمل بمقابل مادي، يتحمل فيه مسؤولية مختلفة عما كانت في طفولته ﷺ.

لماذا رعى الغنم؟

رعي النبي ﷺ للغنم من أهم أحداث السيرة النبوية فيما قبل البعثة، ويستحق أن نتوقف عنده كثيرًا.

فقد أخبر ﷺ عن نفسه بذلك، وأخبر أن إخوانه من الأنبياء جميعهم قد رعوا الغنم، وهذا يعني- كما سبق- أن الأمر اختيار رباني، ولم يكن مما حصل للنبي ﷺ وإخوانه الأنبياء اتفاقًا.

وقد تناول شُرَّاح الحديث وعلماء السيرة هذا الحدث بالتفسير والتعليل، واجتهدوا في استنباط الحكمة من رعيه ﷺ للغنم.

وفيما يلي نتناول ذلك بشيء من التفصيل، مع التركيز على ما له صلة بنطاق البحث:

١ - الحاجة إلى التربية والإعداد:

لا يوجد- في حدود علم الكاتب- نصٌّ يمكن القطع به في تحديد الحكمة من رعيه ﷺ للغنم في طفولته وشبابه، وما يقال من الحِكَمِ لا يعدو أن يكون اجتهادًا واستنباطًا من أهل العلم.

ومهما اختلفت الأقوال في تحديد الحكمة من رعي الغنم، فإن الأمر له دلالته على حاجة المرسلين إلى التربية والإعداد؛ فرعي الغنم ليس عملًا تعبديًّا مقصودًا لذاته، إنما لأثره على من يقوم به.

إن الأنبياء يُعَدُّون لمهام عظام، من أهمها: تبليغ الدين والرسالة، ودعوة الناس إلى الدين، وتعليم المؤمنين وتربيتهم، وقيادة الأمة، ومجاهدة الكفار والمنافقين....إلخ.

وتلك المهام العظام تتطلب تهيئة وإعدادًا وتربية، إضافة لاختياره ﷺ واصطفائه من بين خير بيوت الناس.

لقد عاش ﷺ أربعين سنة قبل أن يوحى إليه، يتلقى التربية والإعداد، حتى تهيأ ﷺ لتلقي الوحي، ولإبلاغ الرسالة وقيادة أصحابه.

وكلما عظمت المهمة تأكدت الحاجة للتربية والإعداد؛ فالمهام العظام لا يقوم بها إلا من امتلك الأهلية العالية لها، وتمكَّن مما تطلبه من علم ومهارات وقدرات.

كما أن مَن يتصدرون للقيادة يحتاجون أكثر من غيرهم لتزكية النفس وتهذيبها، ويتعرضون لآفات العُجب والنظرة للذات، وفتنة الأتباع، وهذا كله يؤكد على الحاجة للتربية التي تؤهلهم لذلك.

٢- شمول مجالات التربية:

انحسر مفهوم التربية عند بعض المهتمين بالشأن الدعوي والإصلاحي فيما يتصل بالتدين، حتى لدى كثير ممن يتحدثون عن التربية الشاملة؛ فهم يعنون بها: المجال الإيماني، والعلمي (الشرعي)، والسلوكي، والأخلاقي، والدعوي... إلخ، بينما تغيب أبعاد الشخصية الأخرى: المجال العقلي، النفسي، الاجتماعي.. إلخ، وتبقى خارج دائرة اهتمام هؤلاء؛ باعتبار عدم صلتها المباشرة بالتدين والعلاقة بالله عز وجل[1].

وتتأكد العناية ببناء كافة مجالات الشخصية، والتعامل مع الإنسان باعتباره كيانًا متكاملًا، وبخاصة في مرحلة الطفولة؛ إذ تتشكل فيها كثير من جوانب الشخصية: كالتفكير، والثقة بالنفس، والتواصل، والإرادة، والمبادرة، وتحمل المسؤولية.. إلخ، وهي جوانب ذات أهمية بالغة في تكوين الشخصية، ويظهر أثرها على صاحبها في شبابه ورجولته.

إن كثيرًا من جوانب التميز أو الخلل في تكوين شخصيات بارزة قد تشكلت في مرحلة طفولتهم، فتركت أثرها على تفكيرهم، وطريقة تشكيل مواقفهم، وعلى أدائهم في كافة مجالات الحياة.

لذا؛ فإن برامج التربية في رياض الأطفال، ومراحل الطفولة التالية ينبغي أن تولي مجالات بناء الشخصية اهتمامًا وعناية.

٣- تدريبه على القيادة:

محمد ﷺ سيقود أصحابه وأمته، في السلم والحرب، في السراء والضراء؛ لذا فقد هيأ الله عز وجل له ما يُعدُّه لهذه المهمة، وقد نصَّ طائفة من أهل العلم على أن من حِكَم رعي الغنم تهيئه النبي ﷺ للقيادة.

---

(١) سيتم تناول هذا الأمر بالتفصيل عند الحديث عن خصائص التربية النبوية، وعن مجالاتها.

قال ابن بطال: «أن ذلك توطئة وتقدمةً فى تعريفه سياسة العباد، واعتبارًا بأحوال رعاة الغنم، وما يجب على راعيها من اختيار الكلأ لها، وإيرادها أفضل مواردها، واختيار المسرح والمراح لها، وجبر كسيرها، والرفق بضعيفها، ومعرفة أعيانها وحسن تعهدها، فإذا وقف على هذه الأمور كانت مثالًا لرعاية العباد، وهذه حكمة بالغة». (شرح صحيح البخاري، لابن بطال ٦/ ٢٨٦).

قال السهيلي: «وفي غريب الحديث للقتبي: «بُعث موسى ﷺ وهو راعي غنم، وبُعث داود ﷺ وهو راعي غنم، وبُعثت وأنا راعي غنم أهلي بأجياد»، وإنما جعل الله هذا في الأنبياء تقدمة لهم ليكونوا رعاة الخلق ولتكون أممهم رعايا لهم، وقد رأى رسول الله ﷺ أنه ينزع على قليب وحولها غنم سود وغنم عُفْر، قال: ثم جاء أبو بكر ﷺ فنزع نزعًا ضعيفًا، والله يغفر له، ثم جاء عمر، فاستحالت غَرْبًا- يعني الدلو-، فلم أر عبقريًّا يفري فَرْيَه، فأوَّلها الناسُ في الخلافة لأبي بكر وعمر ﷺ، ولولا ذكر الغنم السود والعفر لبعدت الرؤيا عن معنى الخلافة والرعاية؛ إذ الغنم السود والعفر عبارة عن العرب والعجم، وأكثر المحدثين لم يذكروا الغنم في هذا الحديث. ذكره البزار في مسنده، وأحمد بن حنبل أيضًا، وبه يصح المعنى، والله أعلم». (الروض الأنف ٢/ ١١٧).

وأشار ابن الجوزي إلى جانب من جوانب القيادة فقال: «وأما رعي الغنم فكأنه تمهيد لمداراة الناس؛ فلذلك قُدِّر للأنبياء». (كشف المشكل ٣/ ٩).

وفصَّل ابن حجر رحمه الله ذلك مُوردًا عددًا من الأمثلة، مقارِنًا للغنم بغيرها من بهيمة الأنعام، فقال: «قال العلماء: الحكمة في إلهام الأنبياء من رعي الغنم قبل النبوة أن يحصل لهم التمرُّن برعيها على ما يُكلَّفونه من القيام بأمر أمتهم، ولأن في مخالطتها ما يحصل لهم الحلم والشفقة؛ لأنهم إذا صبروا على رعيها وجمعها بعد تفرقها في المرعى، ونقلها من مسرح إلى مسرح، ودفع عدوها من سَبُع وغيره كالسارق، وعلموا اختلاف طباعها، وشدة تفرقها مع

ضعفها، واحتياجها إلى المعاهدة، ألفوا من ذلك الصبر على الأمة، وعرفوا اختلاف طباعها وتفاوت عقولها، فجبروا كسرها، ورفقوا بضعيفها، وأحسنوا التعاهد لها، فيكون تحملهم لمشقة ذلك أسهل مما لو كلفوا القيام بذلك من أول وهلة؛ لما يحصل لهم من التدريج على ذلك برعي الغنم، وخصت الغنم بذلك لكونها أضعف من غيرها، ولأن تفرقها أكثر من تفرق الإبل والبقر؛ لإمكان ضبط الإبل والبقر بالربط دونها في العادة المألوفة، ومع أكثرية تفرقها؛ فهي أسرع انقيادًا من غيرها». (فتح الباري (٤/ ٤٤١).

٤- الاكتساب والاستغناء عن الناس:

ومن معاني رعي الغنم وحِكمه أن يكتسب ﷺ من عمل يده، وأن يستغني عن الحاجة إلى الناس؛ فالحاجة إليهم تتنافى مع كمال الشخصية، واليد العليا خير من اليد السفلى.

والحاجة إلى الناس لها أثرها على الشخص وشعوره بمنة الآخرين وإحسانهم؛ لذا أمره الله عز وجل أن يقول ذلك صريحًا للناس: ﴿ قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ﴾(الفرقان: ٥٧).

وهو منهج للأنبياء جميعًا، فقد كان كل منهم يقول لقومه هذه المقولة.

كما أن ذلك يجعله ﷺ قدوة لأمته في الاكتساب والأكل من عمل اليد، وقد بيَّن ﷺ أن هذا من هدي الأنبياء، فقال: «ما أكل أحد طعامًا قطُّ خيرًا من أن يأكل من عمل يده، وإن نبي الله داود عليه السلام كان يأكل من عمل يده». (أخرجه البخاري٢٠٧٢).

وقد أكَّد أهل العلم على المعلِّم في أن يتعفف عما في أيدي طلابه:

أخرج الخطيب البغدادي بإسناده عن جعفر بن محمد بن عيسى بن نوح، أنه قال: سمعت محمد بن عيسى بن الطباع، يقول: «أهدوا للأوزاعي هدية أصحاب الحديث، فلما اجتمعوا قال لهم: «أنتم بالخيار إن شئتم قبلت هديتكم ولم أحدثكم، وإن شئتم حدثتكم ورددت هديتكم». (الجامع ٨٣٢).

وأخرج بإسناده عن حماد بن شعيب، قال: «كان منصور لا يستعين بأحد يختلف إليه في حاجة، ولا يدع أحدًا يمشي معه في الطريق، يقول: هو ذا أجلس إليكم». (الجامع ٨٤٥).

وأخرج عن الحسن بن الربيع البوراي، قال: كنت عند عبد الله بن إدريس، فلما قمت قال لي: سل عن سعر الأشنان، فلما مشيت ردَّني، فقال لي: «لا تسل عنه؛ فإنك تكتب مني الحديث، وأنا أكره أن أسأل من يسمع مني الحديث حاجة». (الجامع ٨٤٦).

وقال ابن جماعة: «وكذلك ينزهه (العلم) عن الطمع في رفق من طلبته بمال أو خدمة أو غيرهما؛ بسبب اشتغالهم عليه وترددهم إليه، كان منصور لا يستعين بأحد يختلف إليه في حاجة». (تذكرة السامع والمتكلم في أدب العالم والمتعلم، ص٥٠).

٥- التواضع:

خلق التواضع من أهم ما يحتاجه المؤمن، فضلًا عن من يتصدى لقيادة الناس وتوجيههم، ورعيه ﷺ للغنم في بداية نشأته وحياته يسهم في غرس هذا الخلق لديه.

وقد نصَّ طائفة من أهل العلم على أن اكتساب التواضع من حِكَم رعيه ﷺ للغنم، قال ابن عبد البر رحمه الله: «وفيه- حديث ما من نبي- أن الأنبياء والمرسلين أحوالهم في تواضعهم غير أحوال الملوك والجبارين، وكذلك أحوال الصالحين». (التمهيد ٢٤/ ٣٤٤).

وقال ابن الجوزي: «أو كأنه يشير بهذا إلى أن الأنبياء لم يكونوا ملوكًا، وإنما كانت النبوة عند المتواضعين من أصحاب الحرف». (التمهيد ٢٤/ ٣٤٤).

وقال ابن حجر: «وفي ذكر النبي ﷺ لذلك بعد أن علم كونه أكرم الخلق على الله ما كان عليه من عظيم التواضع لربه، والتصريح بمنته عليه، وعلى إخوانه من الأنبياء، صلوات الله وسلامه عليه وعلى سائر الأنبياء». (فتح الباري ٤/ ٤٤١).

إن تواضع المعلم والداعية والمربي له أثره البالغ في تهيئة النفوس للتلقي والقبول منه، وفي مقابل ذلك فالكبر يورِّث حاجزًا بين الناس والتلقي.

٦- الرقَّة والسكينة:

ومن آثار رعي الغنم أنه يورث السكينة والرقَّة، وقد بين ﷺ اتصاف رعاة الغنم بذلك؛ فعن أبي هريرة ﷺ، أن رسول الله ﷺ قال: «رأس الكفر نحو المشرق، والفخر والخيلاء في أهل الخيل والإبل، والفَدَّادين[1] أهل الوبر، والسكينة في أهل الغنم». (أخرجه البخاري ٣٣٠١، ومسلم ٥٢).

قال ابن عبد البر: «وأما أهل الغنم فهم أهل سكينة، وقلة أذى، وقلة فخر وخيلاء، على ما قال النبي عليه السلام؛ فهو الصادق في خبره ﷺ». (التمهيد ١٨/ ١٤٢-١٤٣).

وقد أخرج الإمام أحمد (١١٩١٨) حديث وصف أهل الغنم بالسكينة مقرونًا بإخباره ﷺ عن رعيه الغنم، عن أبي سعيد الخدري ﷺ قال: افتخر أهل الإبل والغنم عند النبي ﷺ، فقال النبي ﷺ: «الفخر والخيلاء في أهل الإبل، والسكينة والوقار في أهل الغنم»، وقال رسول الله ﷺ: «بُعث موسى عليه السلام وهو يرعى غنمًا على أهله، وبعثت أنا وأنا أرعى غنمًا لأهلي بجياد»، وإسناده لا يصح، وله شواهد.

٧- أهمية التربية من خلال المواقف العملية:

كثيرةٌ هي الأهداف والمتطلبات التي يسعى المربون إلى تحقيقها لدى طلابهم وتلامذتهم، ولئن كانت المعارف والمعلومات يمكن إيصالها من خلال الأساليب المباشرة في التعليم، إلا أن كثيرًا من الأهداف لا يمكن أن تتحقق دون بيئة عملية.

---

(١) الفدَّادين: جمع الفدَّاد: وهو الشديد الصوت، من فدا: إذا رفع صوته، وهو دأب أصحاب الإبل وعادتهم.

حين نريد تعميق خلق الصبر - مثلًا- فلن يكفي في ذلك تقديم مادة معرفية للمتربي حول الصبر ومفهومه وأدلته، ونماذج من أخلاق السلف في ذلك، وهكذا حين نريد تنمية خلق التواضع، والحياء، والشجاعة، والجود... وغيرها من الأخلاق والسلوكيات.

والأمر ليس قاصرًا على المجال الخلقي والسلوكي، فكثير من متطلبات بناء الشخصية لا تمثل المعرفة المباشرة إلا نسبة يسيرة من وسائل تحقيقها، فمن ذلك: الإرادة، والمبادرة، والإيجابية، وهكذا ما يتصل بالمهارات العقلية، والقيادية ... إلخ.

ومن هنا تهيأت لمحمد ﷺ تلك البيئة التي يتعلم من خلالها هذه المعاني التربوية، وتتأصل في نفسه الشريفة ﷺ.

وعلى الرغم من أن كثيرًا من المربين اليوم يؤمنون بهذه الحقيقة، إلا أن المسافة واسعة بين الاقتناع والواقع العملي.

ولم تكن التربية العملية له ﷺ قاصرة على مرحلة ما قبل البعثة- وإن كانت المرحلةَ الأهمَّ لغرس هذه المعاني- فالمواقف التي عاشها ﷺ في دعوته وجهاده كان لها الأثر البالغ في تزكية تلك الشخصية العظيمة والسُّمُو بها.

٨- التعليم بالمحاكاة:

كما يتجلى في رعي الغنم ما يسمى التعليم بالمحاكاة، وهو أن يعيش المتعلم في بيئة بديلة لبيئة الحقيقة، فيتعلم المهارات ويتدرب عليها.

لقد كان ﷺ في رعيه للغنم يمارس مهام القيادة بصورة تدريجية، فهو يتعلم اتخاذ القرار، ورعاية المصالح، وحمايتها مما يضر، ويتعلم الصبر والحلم .. إلخ.

واليوم يمارس هذا النمط من التعليم في تدريب المعلمين، والطيارين، وفي إجراء التجارب الخطرة، وذلك بتهيئة بيئة تقترب من البيئة الحقيقية يتدرب فيها المتعلم على المهارات المستهدفة.

تساؤل مهم:

يبدو ها هنا تساؤل مهم وهو: ألا يمكن أن تتحقق هذه المعاني في نفس النبي ﷺ، وأن تتحقق الأهداف التربوية في شخصيته دون الحاجة لرعي الغنم، وغير ذلك مما عاشه ﷺ في طفولته وشبابه وهو الذي صُنع على عين الله؟

إن من يتأمل سنة الله عز وجل في خلقه يجد أن الله سبحانه وتعالى- مع أنه لا يعجزه شيء- قد قدَّر هذا الخلق بحكمة عظيمة، ومن ذلك ارتباط النتائج بالأسباب الظاهرة أمام الناس؛ مما له أثره في التأسي بالأنبياء، والاقتداء بهم.

لقد بيَّن الله عز وجل استنكار المشركين كون النبي ﷺ بشرًا مثلهم، يعيش كما يعيشون، فقال سبحانه: ﴿وَقَالُوا۟ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِى فِى ٱلْأَسْوَاقِ ۙ لَوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا ﴿٧﴾ أَوْ يُلْقَىٰٓ إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُۥ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا ۚ وَقَالَ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ﴿٨﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا۟ لَكَ ٱلْأَمْثَٰلَ فَضَلُّوا۟ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴿٩﴾﴾ (الفرقان: ٧ – ٩).

وبيَّن سبحانه أن هذه سنته في المرسلين، فقال: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِى ٱلْأَسْوَاقِ ۗ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ ۗ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا﴾ (الفرقان: ٢٠).

وحين بيَّن الله عز وجل اعتراض المشركين على بشرية الرسول ﷺ بيَّن سبحانه أنه لو أرسل ملكًا إلى البشر لكان على هيئتهم ﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ ۖ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِىَ ٱلْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ ﴿٨﴾ وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ﴾ (الأنعام: ٨ – ٩).

وهكذا تبدو حياة النبي ﷺ لأمته وأتباعه من بعده، صفحة مشرقة جليَّة، يرون فيها السُّموَّ والرفعة، ويرون فيها كمال عبادة الله عز وجل، والتعامل مع الناس، وقيادتهم

ورعايتهم، والجهاد في سبيل الله، والدعوة ونشر الدين... يرون ذلك كله في حياة بشر يعيش كما يعيشون، ويصيبه من الدنيا ما يصيبهم، فيتحقق كمال الاقتداء والتأسي به ﷺ.

شق الصدر:

طهَّر الله عز وجل نبيه ﷺ حسًّا ومعنًى، ومما هيأ الله له من أسباب التطهير شق الصدر، فقد شُق صدره الشريف ﷺ مرتين في حياته:

المرة الأولى في طفولته حين كان في بني سعد، فعن أنس بن مالك رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ أتاه جبريل ﷺ وهو يلعب مع الغلمان، فأخذه فصرعه، فشقَّ عن قلبه، فاستخرج القلب، فاستخرج منه عَلَقَة، فقال: هذا حظ الشيطان منك، ثم غسله في طَسْتٍ من ذهب بماء زمزم، ثم لَأَمَهُ، ثم أعاده في مكانه، وجاء الغلمان يسعون إلى أمه- يعني ظِئْرَه- فقالوا: إن محمدًا قد قُتل، فاستقبلوه وهو منتقع اللون، قال أنس: وقد كنت أرى أثر ذلك المخيط في صدره. (أخرجه مسلم ١٦٢).

وروى هذه الحادثة ابن إسحاق بإسناده عن خالد بن معدان، عن أصحاب رسول الله ﷺ أنهم قالوا: يا رسول الله، أخبرنا عن نفسك، فقال: دعوة أبي إبراهيم، وبشرى عيسى، ورأت أمي حين حملت بي أنه خرج منها نور أضاءت له قصور بصرى من أرض الشام، واسترضعتُ في بني سعد بن بكر، فبينا أنا مع أخ لي في بَهْم لنا، أتاني رجلان عليهما ثياب بياض، معهما طَسْتٌ من ذهب مملوءة ثلجًا، فأضجعاني، فشقَّا بطني، ثم استخرجا قلبي فشقَّاه، فأخرجا منه علقة سوداء، فألقياها، ثم غسلا قلبي وبطني بذاك الثلج، حتى إذا أنقياه، ردَّاه كما كان، ثم قال أحدهما لصاحبه: زنه بعشرة من أمته، فوزنني بعشرة، فوزنتهم، ثم قال: زنه بمائة من أمته، فوزنني بمائة، فوزنتهم، ثم قال: زنه بألف من أمته، فوزنني بألف، فوزنتهم، فقال: دعه عنك، فلو وزنته بأمته لوزنهم. (سيرة ابن إسحاق ص٢٨)، وقال ابن كثير: وهذا إسناد جيد قوي (البداية والنهاية ٣/ ٢٩٩، وأخرجه في دلائل النبوة ١/ ١٤٥-١٤٦).

والمرة الثانية التي شُقَّ فيها صدره الشريف ﷺ كانت حين عُرج به ﷺ إلى السماء، عن أنس بن مالك ﷺ، قال: كان أبو ذر ﷺ يحدِّث، أن رسول الله ﷺ قال: «فُرِّج عن سقف بيتي وأنا بمكة، فنزل جبريل، ففرج صدري، ثم غسله بماء زمزم، ثم جاء بطَستٍ من ذهب ممتلئ حكمة وإيمانًا، فأفرغه في صدري، ثم أطبقه...». (أخرجه البخاري ٣٤٩، ومسلم ١٦٣).

قال السهيلي: «بل كان هذا التقديس وهذا التطهير مرتين.

الأولى: في حال الطفولية؛ لينقى قلبه من مغمز الشيطان، وليطهر ويقدس من كل خلق ذميم، حتى لا يتلبس بشيء مما يعاب على الرجال، وحتى لا يكون في قلبه شيء إلا التوحيد؛ ولذلك قال: فَوَلَّيَا عني، يعني: الملكين، وكأني أعاين الأمر معاينة.

والثانية: في حال الاكتهال، وبعد ما نبِّيء، وعند ما أراد الله أن يرفعه إلى الحضرة المقدسة التي لا يصعد إليها إلا مقدَّس، وعرج به هنالك لتفرض عليه الصلاة، وليصلي بملائكة السموات، ومن شأن الصلاة: الطهور، فَقُدِّسَ ظاهرًا وباطنًا، وغُسِلَ بماء زمزم. (الروض الأنف ٢/ ١٧٣-١٧٤).

وقال ابن حجر- في سياق الحكمة من ذلك-: «ولكل منهما حكمة: فالأول وقع فيه من الزيادة كما عند مسلم من حديث أنس: فأخرج عَلَقَة فقال: هذا حظ الشيطان منك، وكان هذا في زمن الطفولية، فنشأ على أكمل الأحوال من العصمة من الشيطان، ثم وقع شق الصدر عند البعث زيادةً في إكرامه؛ ليتلقى ما يوحى إليه بقلب قوي في أكمل الأحوال من التطهير، ثم وقع شق الصدر عند إرادة العروج إلى السماء؛ ليتأهب للمناجاة، ويحتمل أن تكون الحكمة في هذا الغسل لتقع المبالغة في الإسباغ بحصول المرة الثالثة كما تقرر في شرعه ﷺ، ويحتمل أن تكون الحكمة في انفراج سقف بيته الإشارة إلى ما سيقع من شق صدره، وأنه سيلتئم بغير معالجة يتضرر بها.

وجميع ما ورد من شق الصدر، واستخراج القلب وغير ذلك من الأمور الخارقة للعادة مما يجب التسليم له، دون التعرض لصرفه عن حقيقته؛ لصلاحية القدرة، فلا يستحيل شيء من ذلك». (فتح الباري ٧/ ٢٠٥).

ورجَّح ابنُ حجر كونَه مرتين، فقال: «ورجح عياض أن شق الصدر كان وهو صغير عند مرضعته حليمة، وتعقَّبه السهيلي بأن ذلك وقع مرتين، وهو الصواب». (فتح الباري ١/ ٤٦٠).

تكليم الجماد له:

مما هيأ الله لنبيه ﷺ تكليم الجماد له، وسلامه عليه، عن جابر بن سمرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «إني لأعرف حَجَرًا بمكة كان يسلم عليَّ قبل أن أُبعث، إني لأعرفه الآن». (أخرجه مسلم ٢٢٧٧).

إن هذا يمثل تهيئة لمحمد ﷺ، وإعدادًا لمقام النبوة، كما أنه يجعله ينظر لنفسه نظرة الشعور بالمسؤولية، وأنه لا يليق به ما لا يليق بسائر الناس، وأنه يُعَدُّ لمهمة عظيمة تتطلب نفسًا عظيمة.

التواصل مع المجتمعات الأخرى:

عاش محمد ﷺ ونشأ في مجتمع مكة القبلي، وقد كانت مكة مقصدًا للعرب؛ فهم يحجون للبيت الحرام، ويمثل موسم الحج تجمعًا أدبيًا وثقافيًا.

فأتاح ذلك لمحمد ﷺ أن يتواصل مع سائر العرب، ويتعرف طبيعتهم وثقافتهم؛ فهو مرسلٌ للناس أجمعين، وليس للعرب وحدهم، ولا لأهل مكة- وإن كانوا مبدأ دعوته.

إلا أن الأمر لم يقف عند حدود القبائل العربية، بل إن الله عز وجل هيَّأ لمحمد ﷺ أن يتواصل مع المجتمعات الأخرى خارج مكة.

فقد خرج مع عمه أبي طالب في رحلته إلى الشام، وفيها التقى بُحَيْرَا الراهب، وكان من شأنه ما أوردته كتب السير[1].

ثم سافر إلى الشام مرة أخرى، وهذه المرة كان ﷺ مستقلًا بنفسه، فقد سافر ليتاجر بمال خديجة رضي الله عنها، وفي هذه المرة تحمَّل مسؤولية المال وممارسة التجارة، وكأن الرحلة الأولى كانت تهيئة لهذه الرحلة، فلا يجتمع عليه عبء التعرف على المجتمع الجديد، وإدارة المال.

قال ابن إسحاق- في وصف رحلته الثانية-: «وكانت خديجة بنت خويلد امرأة تاجرة ذات شرف ومال، تستأجر الرجال في مالها وتضاربهم إياه، بشيء تجعله لهم، وكانت قريش قوما تجَّارًا، فلما بلغها عن رسول الله ﷺ ما بلغها، من صدق حديثه، وعظم أمانته، وكرم أخلاقه، بعثت إليه فعرضت عليه أن يخرج في مال لها إلى الشام تاجرًا، وتعطيه أفضل ما كانت تعطي غيره من التجار، مع غلام لها يقال له ميسرة، فقبله رسول الله ﷺ منها، وخرج في مالها ذلك، وخرج معه غلامها ميسرة حتى قدم الشام». (السيرة النبوية لابن هشام ١/ ١٨٧-١٨٨).

لقد أتاحت رحلتا الشام لمحمد ﷺ الاطلاع على المجتمع الآخر، وعلى بيئة مختلفة عن البيئة العربية بتقاليدها وطبيعتها.

وهذا الاطِّلاع والتنوُّع له أثره على شخصية محمد ﷺ الذي سيراسل هؤلاء الملوك بعد سنوات، ويرسل أصحابه فاتحين لتلك الديار ومبلغين رسالة الإسلام.

قال محمد الغزالي: «إن الأسفار من أخصب أبواب المعرفة، وأعمقها أثرًا، ومِثْلُ محمد عليه الصلاة والسلام في صفاء ذهنه ونقاء قلبه، لا يعزب عنه وجه العبرة فيما يرى، في حلِّه أو ترحاله». (فقه السيرة ٦٩).

---

(١) يوجد خلاف بين أهل الحديث في مدى ثبوت قصة بحيرا. انظر: زاد المعاد، البداية والنهاية، السيرة النبوية الصحيحة.

حل المشكلات:

عاش محمد ﷺ يتيماً فقيرًا، عاش في كنف عمه أبي طالب، وكان أبو طالب كثير العيال؛ مما يزيد من الأعباء المادية عليه.

شعر محمد ﷺ بهذه المسؤولية منذ صغره، فسعى للتكسب وطلب الرزق، فرعى الغنم لأهل مكة - كما سبق -، ورحل متاجرًا إلى الشام، ولم يكن شعور محمد ﷺ بالمسؤولية قاصرًا على نفسه وحياته الشخصية، بل أحس بما يعانيه عمه، فاجتهد في مساعدته.

روى أهل السير أن محمدًا ﷺ ذهب إلى عمه العباس بن عبدالمطلب، وعرض عليه أن يُخفِّفا على أبي طالب من عياله، قال ابن إسحاق: وحدثني عبد الله بن أبي نجيح، عن مجاهد بن جبر أبي الحجاج، قال: كان من نعمة الله على علي بن أبي طالب، ومما صنع الله له، وأراده به من الخير، أن قريشًا أصابتهم أزمة شديدة، وكان أبو طالب ذا عيال كثير، فقال رسول الله ﷺ - للعباس عمه، وكان من أيسر بني هاشم -: يا عباس: إن أخاك أبا طالب كثير العيال، وقد أصاب الناس ما ترى من هذه الأزمة، فانطلِق بنا إليه، فلنخفف عنه من عياله، آخذ من بنيه رجلًا، وتأخذ أنت رجلًا، فنكلهما عنه، فقال العباس: نعم، فانطلقا حتى أتيا أبا طالب، فقالا له: إنا نريد أن نخفف عنك من عيالك حتى ينكشف عن الناس ما هم فيه، فقال لهما أبو طالب: إذا تركتما لي عقيلًا فاصنعا ما شئتما، قال ابن هشام: ويقال: عقيلًا وطالبًا.

فأخذ رسول الله ﷺ عليًّا، فضمه إليه، وأخذ العباس جعفرًا فضمه إليه، فلم يزل علي مع رسول الله ﷺ حتى بعثه الله تبارك وتعالى نبيًّا، فاتبعه علي ﷺ، وآمن به وصدقه، ولم يزل جعفر عند العباس حتى أسلم واستغنى عنه. (السيرة النبوية لابن هشام ١/ ٢٤٦).

وحين تقدَّم به العمر ﷺ؛ فأصبح فتًى يافعًا نما شعوره بالمسؤولية، وامتدت مشاركته

في حل المشكلات إلى المجتمع من حوله، فكانت حادثة بناء الكعبة، فقد أسهمت حكمة محمد ﷺ في إنقاذ قريش من دماء كانت على وشك أن تسيل.

يحكي ابن إسحاق قصة خلاف قريش حول وضع الحجر أثناء بناء الكعبة، فيقول: ثم إن القبائل من قريش جمعت الحجارة لبنائها، كل قبيلة تجمع على حدة، ثم بَنَوْهَا، حتى بلغ البنيان موضع الركن، فاختصموا فيه، كل قبيلة تريد أن ترفعه إلى موضعه دون الأخرى، حتى تحاوزوا وتحالفوا، وأعدوا للقتال، فقربت بنو عبد الدار جفنة مملوءة دمًا، ثم تعاقدوا هم وبنو عدي ابن كعب بن لؤي على الموت، وأدخلوا أيديهم في ذلك الدم في تلك الجفنة، فسُمُّوا لعقةَ الدمِ، فمكثت قريش على ذلك أربع ليال أو خمسًا، ثم إنهم اجتمعوا في المسجد، وتشاوروا وتناصفوا.

فزعم بعض أهل الرواية: أن أبا أمية بن المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم- وكان عامئذ أَسَنَّ قريش كلها- قال: يا معشر قريش، اجعلوا بينكم فيما تختلفون فيه أول من يدخل من باب هذا المسجد يقضي بينكم فيه، ففعلوا، فكان أول داخل عليهم رسول الله ﷺ، فلما رأوه قالوا: هذا الأمين، رضينا، هذا محمد، فلما انتهى إليهم وأخبروه الخبر، قال ﷺ: هَلُمَّ إليَّ ثوبًا، فأُتي به، فأخذ الركن فوضعه فيه بيده، ثم قال: لتأخذ كل قبيلة بناحية من الثوب، ثم ارفعوه جميعًا، ففعلوا: حتى إذا بلغوا به موضعه، وضعه هو بيده، ثم بنى عليه». (السيرة النبوية لابن هشام ١/ ١٩٦-١٩٧).

لقد كان لتلك الحياة والمواقف التي هيأها الله عز وجل لنبيه ﷺ أثر بالغ في اعتنائه بحل مشكلات الآخرين ورعايتهم، وفي اكتسابه لمهارات حل المشكلات.

ومثل هذه المهارات إنما يتم بناؤها من خلال المواقف العملية، وليس من خلال التوجيه المعرفي- وإن كان مفيدًا، إلا أنه لا يكفي-.

واعتناء المربين بإتاحة الفرص للمتربي لتعليمه مهارات حل المشكلات وأدواتها أمر مهم، وقد اعتنى النبي ﷺ بهذا الأمر في تربيته لأصحابه، كما سيأتي بإذن الله تعالى.

حلف الفضول:

شارك محمد ﷺ قومه في حلف الفضول، وحدَّث بذلك عن نفسه، كما روى ذلك البيهقي في السنن الكبرى (١٣٢١١) عن طلحة بن عبد الله بن عوف، أن رسول الله ﷺ قال: «لقد شهدت في دار عبد الله بن جدعان حِلْفًا ما أحب أن لي به حُمرَ النَّعم، ولو أُدْعَى به في الإسلام لأجبت»، قال القتيبي- فيما بلغني عنه-: وكان سبب الحلف أن قريشًا كانت تتظالم بالحَرَم، فقام عبد الله بن جدعان والزبير بن عبد المطلب فدَعَوَاهم إلى التحالف على التناصر، والأخذ للمظلوم من الظالم، فأجابهما بنو هاشم وبعض القبائل من قريش.

وذلك أن رجلًا أخذ العاصُ بن وائل مالَه فاستغاث بهم، فاجتمع نفرٌ منهم، وتحالفوا بالله ليكوننَّ يدًا واحدة مع المظلوم على الظالم، حتى يؤدى إليه حقه، ما بلَّ بحرٌ صوفةً، وما رسي ثبيرٌ وحراءٌ مكانَهما، وعلى التأسي في المعاش، وقال الزبير بن عبد المطلب- في ذلك-:

إِنَّ الفُضُولَ تَعَاقَدُوا وَتَحَالَفُوا ... أَنْ لَا يُقِيمَ بِبَطْنِ مَكَّةَ ظَالِمُ

أَمْرٌ عَلَيْهِ تَعَاقَدُوا وَتَوَاثَقُوا ... فَالجَارُ والمُعْتَرُّ فِيهِمْ سَالِمُ

ومثل هذا التحالف واللقاء لا بد أن ينشأ عنه حوارات، وآراء متباينة، حتى يصلوا إلى صيغة يتراضى عليها الجميع.

وشهوده ﷺ هذا اللقاء- ولو كان مستمعًا- سيفتحه على نافذة أخرى، وسيطلعه على نموذج في التواصل وحل المشكلات.

صيانته من حال أهل الجاهلية:

عاش محمد ﷺ في مجتمع دينُه الشرك وعبادة غير الله عز وجل، والفجور والفساد فيه ليس بمنكر، لكن الله تبارك وتعالى صانه وحماه، فلم يقع قبل بعثته في شيء من عبادة الأصنام أو تعظيمها، ولم يتلبس بقذارات أهل الجاهلية.

وصف ذلك ابن إسحاق بقوله: «فشب رسول الله ﷺ والله تعالى يكلؤه ويحفظه ويحوطه من أقذار الجاهلية؛ لما يريد به من كرامته ورسالته، حتى بلغ أن كان رجلًا، وأفضل قومه مروءة، وأحسنهم خلقًا، وأكرمهم حسبًا، وأحسنهم جوارًا، وأعظمهم حلمًا، وأصدقهم حديثًا، وأعظمهم أمانة، وأبعدهم من الفحش والأخلاق التي تدنس الرجال، تنزُّهًا وتكرُّمًا، حتى ما اسمه في قومه إلا الأمين؛ لما جمع الله فيه من الأمور الصالحة». (السيرة النبوية لابن هشام ١/ ١٨٣).

قال ابن عاشور: «ولم يختلف أصحابنا أن نبينا ﷺ لم يصدر منه ما ينافي أصول الدين قبل رسالته، ولم يزل علماؤنا يجعلون ما تواتر من حال استقامته ونزاهته عن الرذائل قبل نبوءته دليلًا من جملة الأدلة على رسالته، بل قد شَافَهَ القرآنُ به المشركينَ بقوله: ﴿فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓ﴾ (يونس: ١٦) وقوله: ﴿أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا۟ رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ﴾ (المؤمنون: ٦٩)، ولأنه لم يؤثر أن المشركين أفحموا النبيء ﷺ فيما أنكر عليهم من مساوي أعمالهم، بأن يقولوا: فقد كنت تفعل ذلك معنا». (التحرير والتنوير ٣٠/ ٤٠٠).

ومن حماية الله عز وجل له من دنس الجاهلية ما يلي:

١- حفظ العورة:

كان أهل الجاهلية لا يبالون في كشف العورات، ويطوفون بالبيت عراة، قال عروة:

«كان الناس يطوفون في الجاهلية عراة، إلا الحُمْس، والحُمْسُ: قريشٌ وما ولدت، وكانت الحُمْسُ يحتسبون على الناس، يعطي الرجلُ الرجلَ الثيابَ يطوف فيها، وتعطي المرأةُ المرأةَ الثياب تطوف فيها، فمن لم يعطه الحُمْسُ طاف بالبيت عريانًا». (أخرجه البخاري ١٦٦٥)، فصان الله عز وجل نبيه ﷺ عن هذا الدنس.

قال ابن إسحاق: «وكان رسول الله ﷺ- فيما ذكر لي- يحدث عما كان الله يحفظه به في صغره وأمر جاهليته، أنه قال: لقد رأيتني في غلمان قريش ننقل حجارة لبعض ما يلعب به الغلمان، كلنا قد تعرَّى، وأخذ إزاره فجعله على رقبته، يحمل عليه الحجارة، فإني لأُقْبِلُ معهم كذلك وأُدْبِرُ، إذ لَكَمَنِي لاكمٌ ما أراه، لكمةً وجيعةً، ثم قال: شُدَّ عليك إزارك، قال: فأخذته وشددته علي، ثم جعلت أحمل الحجارة على رقبتي وإزاري عليَّ من بين أصحابي». (السيرة النبوية لابن هشام ١/ ١٨٣).

وحين شارك ﷺ قومه في بناء الكعبة صانه الله عز وجل من التعري؛ فعن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما، قال: لما بُنِيت الكعبة ذهب النبي ﷺ وعباس ينقلان الحجارة، فقال العباس للنبي ﷺ: اجعل إزارك على رقبتك، فخرَّ إلى الأرض، وطمحت عيناه إلى السماء، فقال: «أرني إزاري»، فشده عليه. (أخرجه البخاري ١٥٨٢، ومسلم ٣٤٠).

قال ابن حجر: «وفيه أنه ﷺ كان مصونًا عما يُستقبح قبل البعثة وبعدها». (فتح الباري ١/ ٤٥٧).

٢- الوقوف بعرفة:

كان مما أحدثته قريش وبدَّلته من مناسك إبراهيم أنهم كانوا- دون سائر الناس- يقفون بالمزدلفة، ولا يخرجون إلى عرفة؛ لأنهم أهل الحرم فلا يخرجون منه، وفي ذلك نزل قول الله تعالى: ﴿ ثُمَّ أَفِيضُواْ مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ ٱلنَّاسُ وَٱسْتَغْفِرُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ (البقرة: ١٩٩).

وقد حمى الله عز وجل نبيه محمدًا ﷺ من ذلك، فكان يقف في عرفة مخالفًا ما عليه قومه، عن جبير بن مطعم ﷺ قال: أضللت بعيرًا لي، فذهبت أطلبه يوم عرفة، فرأيت النبي ﷺ واقفًا بعرفة، فقلت: «هذا والله من الحُمْسِ، فما شأنه ههنا؟» (أخرجه البخاري ١٦٦٤، ومسلم ١٢٢٠).

وفي رواية ابن إسحاق ما يدل على أن ذلك كان في الجاهلية، فقد أخرج بإسناده عن نافع بن جبير، عن أبيه جبير بن مطعم، قال: لقد رأيت رسول الله ﷺ قبل أن ينزل عليه الوحي، وإنه لواقف على بعير له بعرفات مع الناس من بين قومه، حتى يدفع معهم منها؛ توفيقًا من الله له ﷺ تسليمًا كثيرًا. (السيرة النبوية لابن هشام ١/ ٢٠٤).

٣- ترك تعظيم الأصنام:

حمى الله عز وجل نبيه محمدًا ﷺ مما كان عليه أهل الجاهلية من تعظيم الأصنام والتمسُّح بها، فقد روى زيد بن حارثة ﷺ أنه ﷺ نهاه عن ذلك حين كانا بالبيت، وذلك في الجاهلية، قال زيد ﷺ: .....وكان صنمًا من نُحَاس يقال له: إساف ونائلة يتمسح به المشركون إذا طافوا، فطاف رسول الله ﷺ وطفت معه، فلما مررتُ مسحتُ به، فقال رسول الله ﷺ: «لا تَمَسَّهُ»، قال زيد: فَطُفْنَا، فقلت في نفسي: لأمسنه حتى أنظر ما يقول، فمسحتُه، فقال رسول الله ﷺ: «ألم تُنْهَ؟» قال زيد: فوالذي أكرمه وأنزل عليه الكتاب ما استلمت صنمًا حتى أكرمه الله بالذي أكرمه، وأنزل عليه الكتاب .. (أخرجه الحاكم ٥٠٢٠).

عن علي بن أبي طالب ﷺ قال: قيل للنبي ﷺ: هل عبدتَ وثنًا قط؟ قال: لا، قيل: فهل شربت خمرًا قط؟ قال: لا، وما زلت أعرف أن الذي هم فيه كفر، وما كنت أدري ما الكتاب ولا الإيمان. (شرف المصطفى للخركوشي ١٦٩، وعزاه السيوطي في الخصائص الكبرى لأبي نعيم في الدلائل).

قال أبو نعيم: «ومما عُظِّمَ به ﷺ وحُرِسَ منه أن لا يتعرى كفعل قومه وأهله، وإذا حُفِظَ من التعري فما فوقه أولى أن يعصم منه، ويُنهى عنه». (دلائل النبوة ١/ ١٨٨).

٤- العفاف والطهر:

وكما انتشر لدى مجتمع مكة الكفر والشرك، فقد كان الفساد الخلقي شائعًا ومتاحًا، تُحَدِّثُنا عن ذلك عائشة رضي الله عنها، فعن عروة بن الزبير أن عائشة زوج النبي ﷺ أخبرته: أن النكاح في الجاهلية كان على أربعة أنحاء: فنكاح منها نكاح الناس اليوم: يخطب الرجل إلى الرجل وليته أو ابنته، فَيُصْدِقُها ثم يَنْكِحُها، ونكاح آخر: كان الرجل يقول لامرأته- إذا طهرت من طمثها-: أرسلي إلى فلان فاسْتَبْضِعي منه، ويعتزلها زوجها ولا يمسها أبدًا، حتى يتبين حملها من ذلك الرجل الذي تستبضع منه، فإذا تبين حملها أصابها زوجها إذا أحب، وإنما يفعل ذلك رغبةً في نجابة الولد، فكان هذا النكاحُ نكاحَ الاسْتِبْضَاع، ونكاح آخر: يجتمع الرهط ما دون العشرة، فيدخلون على المرأة، كلهم يصيبها، فإذا حملت ووضعت، ومر عليها لياليَ بعد أن تضع حملها، أرسلت إليهم، فلم يستطع رجل منهم أن يمتنع، حتى يجتمعوا عندها، تقول لهم: قد عرفتم الذي كان من أمركم وقد ولدت، فهو ابنك يا فلان، تسمي من أحبت باسمه فيلحق به ولدها، لا يستطيع أن يمتنع به الرجل، ونكاح الرابع: يجتمع الناس الكثير، فيدخلون على المرأة، لا تمتنع ممن جاءها، وهُنَّ البغايا، كن ينصبن على أبوابهن رايات تكون علمًا، فمن أرادهن دخل عليهن، فإذا حملت إحداهن ووضعت حملها جمعوا لها، ودعوا لهم القافة، ثم ألحقوا ولدها بالذي يرون، فالتاطَ به، ودُعِيَ ابنه، لا يمتنع من ذلك، فلما بُعِثَ محمد ﷺ بالحق، هدم نكاح الجاهلية كله إلا نكاح الناس اليوم. (أخرجه البخاري ٥١٢٧).

لكنه ﷺ عاش عفيفًا بعيدًا عن ذلك، بل بعيدًا عما اعتاده قومه من الفجور مما هو دون هذه الفواحش، وجاء في بعض مرويات السيرة أنه همَّ مرة بحضور عرس فيه لَهْوٌ،

فألقي عليه النوم، فعن علي بن أبي طالب ﷺ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ما هممت بما كان أهل الجاهلية يهمون به إلا مرتين من الدهر، كلاهما يعصمني الله تعالى منهما، قلت- ليلةً لفتًى كان معي من قريش، في أعلى مكة في أغنام لأهلها ترعى-: أبصر لي غنمي حتى أسمر هذه الليلة بمكة، كما تسمر الفتيان، قال: نعم، فخرجت، فلما جئت أدنى دار من دور مكة سمعت غناء وصوت دفوف وزمر، فقلت: ما هذا؟ قالوا: فلان تزوج فلانة- لرجل من قريش تزوج امرأة-، فلهوت بذلك الغناء والصوت حتى غلبتني عيني فنمت، فما أيقظني إلا مَسُّ الشمس، فرجعت فسمعت مثل ذلك، فقيل لي مثل ما قيل لي، فَلَهَوْتُ بما سمعت وغلبتني عيني فما أيقظني إلا مس الشمس ثم رجعت إلى صاحبي فقال: ما فعلت؟ فقلت: «ما فعلت شيئًا» قال رسول الله ﷺ: «فوالله ما هممتُ بعدها أبدًا بسوء مما يعمل أهل الجاهلية، حتى أكرمني الله تعالى بنبوته». (أخرجه الحاكم ٧٧٠٠)[1].

قال محمد الغزالي: «لكن محمدًا- عليه الصلاة والسلام- على ما يملك من وسائل المتاع- ما أُثرت عنه قطُّ شهوةٌ عارضةٌ، أو نزوةٌ خادشةٌ، أو حُكيت عنه مغامرةٌ لنيل جاه، أو اصطياد ثروة، بل على العكس؛ بدأت سيرته تومض في أنحاء مكة بما امتاز به على أقرانه- إن صحَّت الإضافة- من خِلَالٍ عَذْبَةٍ، وشمائلَ كريمةٍ، وفكرٍ راجحٍ، ومنطقٍ صادقٍ، ونهجٍ أمينٍ.

وليس شرف النفس أن تنتهي شهوة الإنسان إلى الحياة، أو توجد الشهوة وتنتفي وسائل بلوغها، بل الشرف أن تكون قوة العفاف أربى من نوازع الهوى، فإذا ظلَّت النفس في حالة سكون، فلتعادل القوى السالبة والموجبة فيها، وقد تجد رجلًا تافهًا هزيلًا لا يخفى

(١) قال ابن كثير: وهذا حديث غريب جدًا، وقد يكون عن علي نفسه، ويكون قوله في آخره: «حتى أكرمني الله عز وجل بنبوته» مقحمًا، والله أعلم (البداية والنهاية ٢/ ٤٤٧).

له طمع، ولا تنحبس له شهوة، لو قست غرائزه المنفلتة بغرائز غيره المضبوطة ما بلغت عُشْرَ قوتها، لكن هذه وجدت زمامًا من الرَّشَد، فكظم عليها، وتلك لم تجد عقلًا يردع، ولا خُلقًا يعصم، فثارت وتمردت». (فقه السيرة ٧٨-٧٩).

التحنُّث والتعبُّد:

حين تقدم بمحمد ﷺ العمر يسرَّ الله عز وجل له الصلة به سبحانه وتعالى، فحُبب إليه التحنُّث وهو التعبُّد، فكان يخلو في غار حراء فيتعبد ربه عز وجل، حتى أتاه الوحي ﷺ وهو في الغار، عن عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها أنها قالت: أول ما بدئ به رسول الله ﷺ من الوحي الرؤيا الصالحة في النوم، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح، ثم حُبِّبَ إليه الخلاء، وكان يخلو بغار حراء، فيتحنث فيه- وهو التعبُّد- الليالي ذوات العدد، قبل أن ينزع إلى أهله، ويتزود لذلك، ثم يرجع إلى خديجة فيتزود لمثلها، حتى جاءه الحق وهو في غار حراء، فجاءه الملك فقال: اقرأ، قال: «ما أنا بقارئ ....». (أخرجه البخاري ٣، ومسلم ١٦٠).

قال النووي: «قال أبو سليمان الخطابي رحمه الله: حُبِّبَت العزلة إليه ﷺ؛ لأن معها فراغ القلب، وهي معينة على التفكر، وبها ينقطع عن مألوفات البشر ويتخشع قلبه». (شرح صحيح مسلم ٢/ ١٩٨).

قال ابن كثير: «وإنما كان رسول الله ﷺ يحب الخلاء والانفراد عن قومه؛ لما يراهم عليه من الضلال المبين، من عبادة الأوثان والسجود للأصنام، وقويت محبته للخلوة عند مقاربة إيحاء الله إليه، صلوات الله وسلامه عليه». (البداية والنهاية ٤/ ١١).

وهنا اكتملت جميع جوانب شخصية محمد ﷺ، فتحقق لديه بناء الشخصية السوية، واكتسب الخبرات والمهارات اللازمة لمن سيتولى هذه المهمة، وتحقق له زكاء نفسه الشريفة وصلتها بالله عز وجل.

إن بناء الشخصية الإنسانية وحده لا يكفي، فكم في الدنيا ممن امتلكوا العبقرية والدهاء، والمهارات العالية وصنعوا منجزات هائلة، لكنهم مفلسون في عالم القيم، وهم من حطب جهنم، وقد قال عز وجل - عن المنافقين -: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِن يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾ (المنافقون: ٤).

والصلاح والإيمان وحدهما لا يكفيان لمن يريد قيادة المجتمعات والتغيير فيها، فلا غنى عن امتلاك القدرة على التأثير في الآخرين وتربيتهم، وقيادتهم.

وهكذا اكتملت مسيرة التربية والإعداد للنبي الخاتم، والمربي الأول ﷺ، وصار مهيئًا لحمل الرسالة وقيادة الأمة، قال ابن القيم: «فلما كمل له أربعون، أشرق عليه نور النبوة وأكرمه الله تعالى برسالته، وبعثه إلى خلقه واختصه بكرامته، وجعله أمينَه بينه وبين عباده». (زاد المعاد ١/ ٧٦).

هل انتهت التربية؟

وها هنا سؤال مهم: هل انتهت مرحلة التربية والإعداد لشخصية النبي ﷺ بعد النبوة؟

لقد كانت تلك السنون الأربعين خاصة بالإعداد والتربية، ولكن بعد نبوته ﷺ ورسالته استمرت مسيرة الإعداد والتربية، ويظهر ذلك من خلال أمور عدة منها:

أولًا: أمر الله عز وجل له بالتحنث والتعبد والتسبيح، وربط ذلك بمهمتة الرسالية والدعوية، قال سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ (١) قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا (٢) نِّصْفَهُ أَوِ انقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا (٣) أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا (٤) إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا (٥) إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئًا وَأَقْوَمُ قِيلًا (٦) إِنَّ لَكَ فِي النَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا (٧) وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا (٨) رَّبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا (٩) وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا (١٠)﴾ (المزمل: ١ - ١٠).

وحين يأتي الحديث في القرآن عن كيد المشركين وتكذيبهم يؤمر محمد ﷺ بالتسبيح والعبادة، قال سبحانه: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴿٩٧﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ ﴿٩٨﴾ وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ ﴿٩٩﴾﴾ (الحجر: ٩٧ - ٩٩).

وقال عز وجل: ﴿فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا ۖ وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ﴾ (طه: ١٣٠).

وقال سبحانه: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ تَنزِيلًا ﴿٢٣﴾ فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ آثِمًا أَوْ كَفُورًا ﴿٢٤﴾ وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٢٥﴾ وَمِنَ اللَّيْلِ فَاسْجُدْ لَهُ وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا ﴿٢٦﴾﴾ (الإنسان: ٢٣ - ٢٦).

ثانيًا: أمر الله عز وجل له بالاستزادة من العلم، قال سبحانه: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ (طه: ١١٤)، فَأَمَرَهُ تبارك وتعالى بالتزود من العلم، وهو ﷺ أعلم الناس.

قال ابن كثير: « قال ابن عيينة رحمه الله: ولم يزل ﷺ في زيادة من العلم حتى توفاه الله عز وجل، ولهذا جاء في الحديث: «إن الله تابع الوحي على رسوله، حتى كان الوحي أكثر ما كان يومَ توفي رسول الله ﷺ»[1]. (تفسير ابن كثير ٥/ ٣١٩).

والعلم في القرآن الكريم أوسع مما اصطلح عليه الناس اليوم؛ فقد بيَّن الله عز وجل أن أهل العلم هم أهل الخشية، فقال: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ (فاطر: ٢٨)، وأخبر عن حال أهل العلم وعبادتهم فقال: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ ۗ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ (الزمر: ٩)، وبيَّن حال أهل العلم السابقين بقوله سبحانه: ﴿قُلْ آمِنُوا بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا ۚ إِنَّ الَّذِينَ

(١) أخرجه البخاري (٤٩٨٢)، ولفظه في النسخة المطبوعة: عن ابن شهاب، قال: أخبرني أنس بن مالك رضي الله عنه: «أن الله تعالى تابع على رسوله ﷺ الوحي قبل وفاته، حتى توفاه أكثر ما كان الوحي، ثم توفي رسول الله ﷺ بعد».

﴿أُوتُوا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ۝١٠٧ وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ۝١٠٨﴾ (الإسراء: ١٠٧ - ١٠٨)، وقال عبادة بن الصامت لجبير: «إن شئت لأحدثنك بأول علم يرفع من الناس: الخشوع، يوشك أن تدخل مسجدَ جماعةٍ فلا ترى فيه رجلًا خاشعًا». (أخرجه الترمذي ٢٦٥٣).

ثالثًا: كان ﷺ يلقى جبريل كل عام ليدارسه القرآن، وكان من مقاصد هذه المدارسة جَمْع ما نزل منه هذا العام، كما كان لها أثر آخر على شخص النبي ﷺ، يعبِّر عنه ابن عباس رضي الله عنهما بذلك الوصف البليغ لحاله ﷺ بعد لقاء جبريل عليه السلام، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «كان النبي ﷺ أجود الناس بالخير، وكان أجود ما يكون في رمضان حين يلقاه جبريل، وكان جبريل عليه السلام يلقاه كل ليلة في رمضان، حتى ينسلخ، يعرض عليه النبي ﷺ القرآن، فإذا لقيه جبريل عليه السلام كان أجود بالخير من الريح المرسلة». (أخرجه البخاري ١٩٠٢، ومسلم ٢٣٠٨).

وبقيت هذه المدارسة واللقاء مع جبريل عليه السلام إلى نهاية عمره ﷺ، فها هو يحدث ابنته رضي الله عنها عن ذلك، عن عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها، قالت: إنا كنا أزواج النبي ﷺ عنده جميعًا، لم تغادر منَّا واحدة، فأقبلت فاطمة رضي الله عنها تمشي، لا والله ما تخفى مشيتها من مشية رسول الله ﷺ، فلما رآها رَحَّبَ، قال: «مرحبًا بابنتي»، ثم أجلسها عن يمينه أو عن شماله، ثم سارَّها، فبكت بكاء شديدًا، فلما رأى حزنها سارَّها الثانية، إذا هي تضحك، فقلت لها- أنا من بين نسائه-: خصَّكِ رسول الله ﷺ بالسِّرِّ من بيننا، ثم أنت تبكين، فلما قام رسول الله ﷺ سألتها: عما سارَّك؟ قالت: ما كنت لأفشي على رسول الله ﷺ سِرَّهُ، فلما توفي، قلت لها: عزمت عليك بما لي عليك من الحق لما أخبرتني، قالت: أما الآن فنعم، فأخبرتني، قالت: أما حين سارَّني في الأمر الأول، فإنه أخبرني: «أن جبريل كان يعارضه بالقرآن كل سنة مرة، وإنه قد عارضني به العام مرتين، ولا أرى الأجل إلا قد اقترب، فاتقي الله

واصبري، فإني نعم السلف أنا لك» قالت: فبكيت بكائي الذي رأيت، فلما رأى جزعي سارَّني الثانية، قال: «يا فاطمة، ألا ترضين أن تكوني سيدة نساء المؤمنين، أو سيدة نساء هذه الأمة؟». (أخرجه البخاري ٦٢٨٥، ومسلم ٢٤٥٠).

وهذا الأمر- التربية المستمرة- لم يكن خاصًّا به ﷺ فها هو موسى عليه السلام بعد أن نجاه الله من فرعون، وخرج مع بني إسرائيل، ها هو يسافر ويلقى النَّصَبَ من أجل أن يتلقى مسائل من الخضر، رغم أنه عليه السلام أعلم من الخضر، فقد قال له الخضر- حين لقيه-: يا موسى إني على علمٍ من علم الله علَّمنيه لا تعلمه أنت، وأنت على علم علَّمكه الله لا أعلمه، وقال له الخضر: ﴿إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٦٧﴾ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا﴾ (الكهف: ٦٧ - ٦٨).

وفي ذلك أسوة وعبرة لكل من يقوم على دعوة الناس أو تربيتهم، أنه مهما بلغ وارتقى فلن يستغني عن التعلم والتربية، وسيبقى بحاجة لذلك ما دام على قيد الحياة.

وقد تنوعت عبارات السلف رحمهم الله في التأكيد على هذا المعنى.

وقد روي مرفوعًا: «منهومان لا تنقضي نُهمتهما: طالب علم، وطالب دنيا»[1].

وكان السلف رضوان الله عليهم يُعْنَوْن بهذا المعنى في ذواتهم، ويوصون طلابهم به؛ فطلب العلم ملازم لهم حتى الوفاة، وتعاهد النفس ومحاسبتها وتزكيتها لا تنتهي في سن معين.

سئل ابن المبارك: إلى متى تطلب العلم؟ قال: «حتى الممات إن شاء الله». (جامع بيان العلم وفضله، ص٤٠٦).

---

(١) قال السخاوي: وفي الباب عن ابن عمر وأبي هريرة، وهي وإن كانت مفرداتها ضعيفة فبمجموعها تتقوى، وصححه الألباني في المشكاة.

وقيل له مرة أخرى مثل ذلك، فقال: «لعل الكلمة التي تنفعني لم أكتبها بعد». (جامع بيان العلم وفضله، ص٤٠٦).

وسئل سفيان بن عيينة: مَن أحوج الناس إلى طلب العلم؟ قال: أعلمهم؛ إن الخطأ منه أقبح. (جامع بيان العلم وفضله، ص ٤٠٧).

وقال محمد بن إسماعيل: مر بنا أحمد بن حنبل ونعلاه في يده، وهو يركض في دروب بغداد يتنقل من حلقة لأخرى، فقام أبي وأخذ بمجامع ثوبه، وقال له: يا أبا عبد الله إلى متى تطلب العلم؟ قال: إلى الموت». (شرف أصحاب الحديث ص ٦٨).

قال البخاري: «وقد تعلم أصحاب رسول الله ﷺ على كبر سنهم».

وعن ابن معاذ قال: سألت أبا عمر بن العلاء: حتى متى يحسن بالمرء أن يتعلم؟ فقال: ما دامت تحسن به الحياة».

قال ابن عقيل: «وإني لأجد من حرصي على العلم وانا في عشر الثمانين أشد مما كنت أجده وأنا ابن عشرين».

قال بعض العارفين: «متى رضيتَ نفسك وعملك لله، فاعلم أنه غير راض به». (مدارج السالكين ١/ ١٩٣).

النبي المربي

يبدو الحديث عن إثبات كونه ﷺ مربيًا أمرًا من فضول القول، وسعيًا لتقرير البدهيات، ولكن من باب اكتمال الصورة، وتأكيد هذا المعنى نورد بعض الشواهد الدالة على ذلك، وإلا فالاطلاع على شيء من سيرة النبي ﷺ وأخباره كاف في ذلك.

نص القرآن على وظيفته:

جاء الحديث في القرآن الكريم عن مقاصد بعثة النبي ﷺ ووظائفه، فحُددت في أربع: تلاوة القرآن، وتعليم الكتاب، وتعليم الحكمة، والتزكية.

ففي سورة البقرة ذكر الله عز وجل دعاء إبراهيم وإسماعيل وهما يرفعان قواعد البيت، قال تعالى: ﴿ رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ (البقرة: ١٢٩).

وفي سورة آل عمران جاء ذكرها في سياق امتنان الله عز وجل على المؤمنين ببعث نبيه ﷺ، قال عز وجل: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ (آل عمران: ١٦٤).

وفي سورة الجمعة جاء ذكر ذلك في سياق الامتنان على الأُميين ببعثه ﷺ، قال عز وجل: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّۦنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ (الجمعة: ٢).

فالوظيفة الأولى: تبليغ القرآن الكريم.

والوظيفة الثانية: تعليم الكتاب، والتعليم وظيفة تربوية.

والوظيفة الثالثة: تعليم الحكمة، وقد اختلف المفسرون في تحديد المقصود بالحكمة، وعلى كل الأقوال فهي وظيفة تربوية.

والوظيفة الرابعة: التزكية، ولا إشكال في كونها وظيفة تربوية، وهي تتحقق بتعليم الكتاب والحكمة، كما تتحقق بمعايشته ﷺ لأصحابه، وما يرونه من واقعه العملي.

قال السعدي: «﴿وَيُزَكِّيهِمْ﴾ بالتربية على الأعمال الصالحة والتبري من الأعمال الرَّدِيَّة، التي لا تزكَّى النفوس معها». (تفسير السعدي . ص٦٦).

والتزكية تشمل معنى عامًّا يتحقق لكل أتباعه من خلال نصوص القرآن الكريم، ونصوص السنة، وأخباره وأحواله ﷺ وشمائله.

وتشمل معنى خاصًّا بأصحابه الذين عايشوه وتربوا على يديه؛ فتحقق لديهم الأمران معًا، فكان هديهم وسمتهم أقرب الناس إلى هديه ﷺ، وهم متفاوتون في ذلك، قال حذيفة ﷺ: «إن أشبه الناس دلًّا وسمتًا وهديًا برسول الله ﷺ لَابنُ أم عبد، من حين يخرج من بيته إلى أن يرجع إليه، لا ندري ما يصنع في أهله إذا خلا». (أخرجه البخاري ٦٠٧٩).

فهم أسعد الناس بالتزكية بنصوص الوحيين، كما أنهم قد حازوا شرف صحبته ﷺ ومعايشته، فزكَّاهم بقوله وفعله وهديه ﷺ.

النتاج التربوي:

حين ترى سلعة جيدة المظهر، متقنة الصناعة تتصف بأداء جيد، وفاعلية عالية، فقد لا يعنيك كثيرًا أن تسمع عن جودة المصنع الذي أنتجها ومعاييره العالية.

وحين ترى موظفًا مميزًا جادًّا في عمله فلست بحاجة لأن تطلع على سيرته الذاتية، أو تبحث عن تزكية له لأجل أن توليه عملًا ما، فالنتيجة أعظم برهان وأصدق دليل.

وهكذا حين نعود إلى واقع محمد ﷺ، فإننا سنرى أفضل شاهد على كونه أعظم المربين.

«ومن تأمل حسن رعايته للعرب مع قسوة طباعهم، وشدة خشونتهم، وتنافر أمزجتهم، وكيف ساسهم واحتمل جفاءهم، وصبر على أذاهم، إلى أن انقادوا إليه والتفوا حوله، وقاتلوا أمامه ودونه أعز الناس عندهم: آباؤهم وأقاربهم، وآثروه على أنفسهم، وهجروا في طاعته ورضاه أحباءهم وأوطانهم، وعشيرتهم وإخوانهم، وكان كل ذلك- وأعظم منه- منهم له ﷺ، وهو لم يمارس القراءة و الكتابة، ولا طالع كتب الماضين، ولا أخبار المربين السالفين... من تأمل هذا تحقق له بنظر العقل أنه ﷺ هو المعلم الأول، والنبي المرسل، وأنه سيد العالمين صلوات الله وسلامه عليه.

يقول كارليل- في حال العرب-: «هم قوم يضربون في الصحراء، لا يؤبه لهم عدة قرون، فلما جاءهم النبي العربي، أصبحوا قبلة الأنظار في العلوم والعرفان، وكثروا بعد القلة، وعزُّوا بعد الذلة، ولم يمض قرن حتى استضاءت أطراف الأرض بعقولهم وعلومهم». (المربي محمد ﷺ، محمد المولوي، ص ٩٨).

لقد جاء محمد ﷺ إلى واقع بالغ الغاية في السوء، وأصدق وصف له ما ورد في حديث عياض بن حمار ﷺ، وفيه: «وإن الله نظر إلى أهل الأرض، فمقتهم عربهم وعجمهم، إلا بقايا من أهل الكتاب». (أخرجه مسلم ٢٨٦٥).

فماذا صنع محمد ﷺ؟

خلال ثلاث وعشرين سنة أحدث تغييرًا هائلًا .

نقل الناس أفرادًا ومجتمعات من الوثنية إلى التوحيد لله عز وجل، ومن عبادة الأرباب والآلهة المتعددة إلى عبادة الله وحده.

يحدثنا عمران بن حصين رضي الله عنهما عن شأن والده الذي كان نموذجًا من بعض ما كان عليه العرب آنذاك، فيقول رضي الله عنه: قال النبي ﷺ لأبي: «يا حصين، كم تعبد اليوم إلها»؟ قال أبي: سبعة، ستًا في الأرض، وواحدًا في السماء، قال: «فأيهم تعد لرغبتك ورهبتك؟» قال: الذي في السماء، قال: «يا حصين أما إنك لو أسلمت علمتك كلمتين تنفعانك»، قال: فلما أسلم حصين قال: يا رسول الله علمني الكلمتين اللتين وعدتني، فقال: «قل: اللهم ألهمني رشدي، وأعذني من شر نفسي». (أخرجه الترمذي ٣٤٨٣).

وربما صنع أحدهم إلهه من تمر، فإذا جاع أكله، كما قال الشاعر:

أَكَلَتْ حَنِيفَةُ رَبَّـها ... زَمَنَ التَّقَحُّمِ والمجَاعَةْ
لَمْ يَحْذَرُوا مِن رَبِّـهِم ... سُوءَ العَوَاقِبِ والتَّبَاعَةْ

ويُصوِّر أبو رجاء العطاردي رضي الله عنه حالهم مع الآلهة بقوله: «كنا نعبد الحجر، فإذا وجدنا حجرًا هو أخير منه ألقيناه، وأخذنا الآخر، فإذا لم نجد حجرًا جمعنا جثوة من تراب، ثم جئنا بالشاة فحلبناه عليه، ثم طفنا به، فإذا دخل شهر رجب قلنا: مُنَصِّلُ الأسِنَّة، فلا ندع رمحًا فيه حديدة، ولا سهمًا فيه حديدة، إلا نزعناه وألقيناه شهر رجب». (أخرجه البخاري ٤٣٧٦).

وقال الكلبي في كتاب (الأصنام): كان الرجل إذا سافر فنزل منزلًا أخذ أربعة أحجار، فنظر إلى أحسنها، فجعله ربا، وجعل ثلاث أثافيَّ لِقدره، وإذا ارتحل تركه». (البيهقي في الدلائل ص ٧٥).

حرَّفوا دين إبراهيم عليه السلام وبدَّلوه، وشرعوا في الدين ما لم يأذن به الله، قال عز وجل: ﴿مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِنۢ بَحِيرَةٖ وَلَا سَآئِبَةٖ وَلَا وَصِيلَةٖ وَلَا حَامٖ وَلَٰكِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَفۡتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَۖ وَأَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ ۝١٠٣﴾ (المائدة: ١٠٣).

وقال عز وجل: ﴿ وَجَعَلُواْ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ ٱلْحَرْثِ وَٱلْأَنْعَٰمِ نَصِيبًا فَقَالُواْ هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَٰذَا لِشُرَكَآئِنَا ۖ فَمَا كَانَ لِشُرَكَآئِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَآئِهِمْ ۗ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿١٣٦﴾ وَكَذَٰلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَٰدِهِمْ شُرَكَآؤُهُمْ لِيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُواْ عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ ۖ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا فَعَلُوهُ ۖ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴾ (الأنعام: ١٣٦ - ١٣٧).

ألفوا الفرقة والصراع والحروب التي عبر عنها شاعرهم: زهير بن أبي سلمى بقوله:

وَمَا الحَرْبُ إِلاَّ مَا عَلِمْتُمْ وَذُقْتُمُ ... وَمَا هُوَ عَنْهَا بِالحَدِيثِ المُرَجَّمِ

مَتَى تَبْعَثُوهَا تَبْعَثُوهَا ذَمِيمَةً ... وَتَضْرَ إِذَا ضَرَّيْتُمُوهَا فَتَضْرَمِ

فَتَعْرُكُكُمْ عَرْكَ الرَّحَى بِثِفَالِهَا ... وَتَلْقَحْ كِشَافًا ثُمَّ تُنْتَجْ فَتُتْئِمِ

فأصبحوا بعد تربية محمد ﷺ إخوانًا متحابين متآلفين معتصمين بحبل الله عز وجل .

كانت معايير المفاضلة بينهم هى معايير القبيلة والنسب، فصار معيار التفاضل هو التقوى ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ﴾ (الحجرات: ١٣).

أَلِفُوا شرب الخمر، وكانوا يتغنون بها ويمدحونها، فيقول قائلهم:

وَلَوْلَا ثَلَاثٌ هُنَّ مِنْ لَذَّةِ الفَتَى ... وَجَدِّكَ لَمْ أَحْفِلْ مَتَى قَامَ عُوَّدِي

فَمِنْهُنَّ سَبْقِي العَاذِلَاتِ بِشَرْبَةٍ ... كُمَيْتٍ مَتَى مَا تُعَلَّ بالماءِ تُزْبِدِ

وتلاحق أماني الخمر أحدهم حتى بعد وفاته، فيقول:

إِذَا مِتُّ فَادْفِنِّي إِلَى جَنْبِ كَرْمَةٍ تَرْوِي عِظَامِي بَعْدَ مَوْتِي عُرُوقُهَا
وَلَا تَدْفِنَنِّي بِالفَلَاةِ فَإِنَّنِي أَخَافُ إِذَا مَا مِتُّ أَلَّا أَذُوقُهَا

فلما حرَّم الإسلام الخمر استجابت نفوسهم وأراقوها، ولم تكن هناك حاجة لمتابعة وملاحقة، ولا برامج إرشادية أو علاجية.

عن أنس بن مالك ﷺ، قال: «كنت أسقي أبا طلحة الأنصاري، وأبا عبيدة بن الجراح، وأبي بن كعب شرابًا من فضيخ- وهو تمر-، فجاءهم آتٍ فقال: إن الخمر قد حرمت، فقال أبو طلحة: يا أنس، قم إلى هذه الجِرَار فاكسرها، قال أنس: فقمت إلى مِهْرَاسٍ لنا فضربتها بأسفله حتى انكسرت». (أخرجه البخاري ٧٢٥٣، ومسلم ١٩٨٠).

وفي رواية لمسلم: «فما راجعوها، ولا سألوا عنها بعد خبر الرجل». (أخرجه مسلم ١٩٨٠).

وهكذا في المجال الخلقي والسلوكي كانوا كما قال جعفر ﷺ للنجاشي: «أيها الملك، كنا قومًا أهل جاهلية نعبد الأصنام، ونأكل الميتة، ونأتي الفواحش، ونقطع الأرحام، ونسيء الجوار يأكل القوي منا الضعيف، فكنا على ذلك حتى بعث الله إلينا رسولًا منا نعرف نسبه، وصدقه، وأمانته، وعفافه، فدعانا إلى الله لنوحده، ونعبده، ونخلع ما كنا نحن نعبد وآباؤنا من دونه من الحجارة والأوثان، وأمرنا بصدق الحديث، وأداء الأمانة، وصلة الرحم، وحسن الجوار، والكف عن المحارم، والدماء، ونهانا عن الفواحش، وقول الزور، وأكل مال اليتيم، وقذف المحصنة، وأمرنا أن نعبد الله وحده لا نشرك به شيئًا، وأمرنا بالصلاة، والزكاة، والصيام». (أخرجه أحمد ١٧٤٠).

أما في المجال الحضاري فلم يكن لهم شأن يذكر، تتمحور حياتهم حول الطعام والشراب، والسلب والنهب، حتى أن يزدجرد تساءل عن سر مجيئهم لبلاده، وفسَّر ذلك بالصورة الذهنية التي كان يحملها عن العرب، فقال لرسولهم: إني لا أعلم في الأرض أمة كانت أشقى ولا أقل عددًا ولا أسوأ ذَاتَ بينٍ منكم، قد كنا نوكل بكم قرى الضواحي فيكفوناكم، لا تغزون فارس ولا تطمعون أن تقوموا لهم، فإن كان عدد لحق فلا يغرنكم منَّا، وإن كان الجهد دعاكم فرضنا لكم قوتًا إلى خصبكم، وأكرمنا وجوهكم وكسوناكم، وملَّكنا عليكم ملكًا يرفق بكم.

فأسكت القوم، فقام المغيرة بن زرارة بن النباش الأسيدي، فقال:

أيها الملك، إن هؤلاء رءوس العرب ووجوههم، وهم أشراف يستحيون من الأشراف، وإنما يكرم الأشرافَ الأشرافُ، ويعظم حقوقَ الأشرافِ الأشرافُ، ويفخم الأشرافَ الأشرافُ، وليس كل ما أرسلوا به جمعوه لك، ولا كل ما تكلمت به أجابوك عليه، وقد أحسنوا ولا يحسن بمثلهم إلا ذلك، فجاوبني لأكون الذي أبلغك، ويشهدون على ذلك، أنك قد وصفتنا صفة لم تكن بها عالمًا، فأما ما ذكرت من سوء الحال، فما كان أسوأ حالًا منَّا، وأما جوعنا فلم يكن يشبه الجوع، كنا نأكل الخنافس والجعلان والعقارب والحيات، فنرى ذلك طعامنا، وأما المنازل فإنما هي ظهر الأرض، ولا نلبس إلا ما غزلنا من أوبار الإبل وأشعار الغنم، ديننا أن يقتل بعضنا بعضًا، ويغير بعضنا على بعض، وإن كان أحدنا ليدفن ابنته وهي حية كراهيةَ أن تأكل من طعامنا، فكانت حالنا قبل اليوم على ما ذكرت لك، فبعث اللهُ إلينا رجلًا معروفًا، نعرف نسبه، ونعرف وجهه ومولده. (تاريخ الطبري ٣/ ٤٩٩-٥٠٠).

ثم فتح الله على يديهم البلاد، وأقاموا حضارة لا زال العالم يجني ثمراتها.

والحديث عن التغيير الذي أحدثه محمد ﷺ، والنتاج التربوي لا يمكن استيعابه في هذه السطور، وحسبنا هذه العجالة.

إن ذلك التغيير وتلك النقلة أعظم دليل على النجاح التربوي الذي حققه محمد ﷺ، بل إن التاريخ لم يعرف إنجازًا تربويًّا وتغييرًا كذلك الذي أحدثه ﷺ.

شهادات أصحابه:

من أعظم الشواهد على كونه ﷺ أعظم مربٍّ عرفته البشرية حديث أصحابه الذين رأوه وجالسوه، فقد تنوعت شهاداتهم رضوان الله عليهم على حسن تربيته ﷺ، وأثره في حياتهم، وفيما يلي طائفة من هذه الشواهد:

١ - قصائدهم الشعرية:

الشعر ديوان العرب، به يصفون ويدونون تاريخهم؛ فهو تعبير عن المشاعر ودواخل النفوس، ينطلقون به على سجيتهم وطبيعتهم، وهو مرآة يمكن من خلالها قراءة واقعهم وتعرف حياتهم.

ولقد بيَّن القرآن الكريم أن الشعراء يتبعهم الغاوون، ثم استثنى أهل الإيمان منهم، قال عز وجل: ﴿وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ ﴿٢٢٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِى كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴿٢٢٥﴾ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴿٢٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱنتَصَرُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا۟ ۗ وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ﴾ (الشعراء: ٢٢٤ - ٢٢٧).

ولا شك أن الشعراء من أصحاب النبي ﷺ هم أول من تحققت لديهم التزكية الربانية.

ومما سطره أصحابه الشعراء في وصفه ﷺ والثناء على تربيته ما قاله حسان ﷺ:

لَقَدْ غَيَّبُوا حِلْمًا وَعِلْمًا وَرَحْمَةً ... عَشِيَّةَ عَلَوْهُ الثَّرَى لَا يُوَسَّدُ

وَرَاحُوا بِحُزْنٍ لَيْسَ فِيهِمْ نَبِيُّهُم ... وَقَدْ وَهَنَتْ مِنْهُمْ ظُهُورٌ وَأَعْضُدُ

يُبَكُّونَ مَنْ تَبْكِي السَّمَاوَاتُ يَوْمَهُ ... وَمَنْ قَدْ بَكَتْهُ الْأَرْضُ فَالنَّاسُ أَكْمَدُ

وَهَلْ عَدَلَتْ يَوْمًا رَزِيَّةُ هَالِكٍ ... رَزِيَّةَ يَوْمٍ مَاتَ فِيهِ مُحَمَّدُ

تَقَطَّعَ فِيهِ مَنْزِلُ الْوَحْيِ عَنْهُمْ ... وَقَدْ كَانَ ذَا نُورٍ يَغُورُ وَيَنْجِدُ

يَدُلُّ عَلَى الرَّحْمَنِ مَنْ يَقْتَدِي بِهِ ... وَيُنْقِذُ مِنْ هَوْلِ الْخَزَايَا وَيُرْشِدُ

إِمَامٌ لَهُمْ يَهْدِيهِمْ الْحَقَّ جَاهِدًا ... مُعَلِّمُ صِدْقٍ إِنْ يُطِيعُوهُ يُسْعَدُوا

وَإِنْ نَابَ أَمْرٌ لَمْ يَقُومُوا بِحَمْلِهِ ... فَمِنْ عِنْدِهِ تَيْسِيرُ مَا يَتَشَدَّدُ

فَبَيْنَا هُمْ فِي نِعْمَةِ اللهِ بَيْنَهُمْ ... دَلِيلٌ بِهِ نَهْجُ الطَّرِيقَةِ يُقْصَدُ

عَزِيزٌ عَلَيْهِ أَنْ يَجُورُوا عَنْ الْهُدَى ... حَرِيصٌ عَلَى أَنْ يَسْتَقِيمُوا وَيَهْتَدُوا

عَطُوفٌ عَلَيْهِمْ لَا يُثَنَّى جَنَاحُهُ ... إِلَى كَنَفٍ يَحْنُو عَلَيْهِمْ وَيَمْهَدُ

فَبَيْنَا هُمْ فِي ذَلِكَ النُّورِ إِذْ غَدَا ... إِلَى نُورِهِمْ سَهْمٌ مِنَ الْمَوْتِ مُقْصِدُ

فَأَصْبَحَ مَحْمُودًا إِلَى اللهِ رَاجِعًا ... يُبَكِّيهِ حَقُّ الْمُرْسَلَاتِ وَيُحْمَدُ

وَأَمْسَتْ بِلَادُ الْحَرْمِ وَحْشًا بِقَاعُهَا ... لِغَيْبَةِ مَا كَانَتْ مِنْ الْوَحْيِ تَعْهَدُ

قِفَارًا سِوَى مَعْمُورَةِ اللَّحْدِ ضَافَهَا ... فَقِيدٌ يُبَكِّيهِ بَلَاطٌ وَغَرْقَدُ

وَمَسْجِدُهُ فالموحشات لِفَقْدِهِ ... خَلَاءٌ لَهُ فِيهِ مَقَامٌ وَمَقْعَدُ

وَبِالْجَمْرَةِ الْكُبْرَى لَهُ ثَمَّ أَوْحَشَتْ ... دِيَارٌ وَعَرَصَاتٌ وَرَبْعٌ وَمَوْلِدُ

ورثته صفية بنت عبدالمطلب رضي الله عنها بقولها:

أَلَا يَا رَسُولَ اللهِ كُنْتَ رَجَاءَنَا ... وكُنْتَ بِنَا بَرًّا وَلَمْ تَكُ جَافِيا
وكُنْتَ رَحِيمًا هَادِيًا وَمُعلِّمًا ... لِيَبْكِ عَلَيْكَ اليَوْمَ مَنْ كَانَ بَاكِيا
لَعَمْرُكَ مَا أَبْكِي النَّبِيَّ لِفَقْدِهِ ... وَلَكِنْ لِمَا أَخْشَى مِنَ الهَرْجِ آتِيَا
كَأَنَّ عَلَى قَلْبِي لِذِكْرِ مُحَمَّدٍ ... وَمَا خِفْتُ مِنْ بَعْدِ النَّبِيِّ المكَاوِيَا
أَفَاطِمُ صَلَّى اللهُ رَبُّ مُحَمَّدٍ ... عَلَى جَدَثٍ أَمْسَى بِيَثْرِبَ ثَاوِيا
فِدًى لِرَسُولِ اللهِ أُمِّي وَخَالَتِي ... وَعَمِّي وَآبَائِي ونَفْسِي وَمَالِيا
صَدَقْتَ وَبَلَّغْتَ الرِّسَالَةَ صَادِقًا ... ومِتَّ صَلِيبَ العُودِ أَبْلَجَ صَافِيا
فَلَوْ أَنَّ رَبَّ النَّاسِ أَبْقَى نَبِيَّنَا ... سَعِدْنَا وَلَكِنْ أَمْرُهُ كَانَ مَاضِيا
عَلَيْكَ مِنَ اللهِ السَّلَامِ تَحِيَّةٌ ... وأُدْخِلْتَ جَنَّاتٍ مِنَ العَدْنِ رَاضِيا
أَرَى حَسَنًا أَيْتَمْتَهُ وَتَرَكْتَهُ ... يَبْكِي وَيَدْعُو جَدَّهُ اليَوْمَ نَائِيا

٢- خير معلم:

جاء معاوية بن الحكم السلمي رضي الله عنه من البادية إلى رسول ﷺ، فرأى ذلك النموذج الذي عبر عنه بشهادته العظيمة، عن معاوية بن الحكم السلمي رضي الله عنه قال: بينا أنا أصلي مع رسول الله ﷺ إذ عطس رجل من القوم، فقلت: يرحمك الله، فرماني القوم بأبصارهم، فقلت: وا ثُكْلَ أمياه! ما شأنكم تنظرون إلي؟ فجعلوا يضربون بأيديهم على أفخاذهم، فلما رأيتهم يصمتونني، لكني سكت، فلما صلى رسول الله ﷺ، فبأبي هو وأمي ما رأيت معلماً قبله ولا بعده أحسن تعليماً منه، فوالله ما كَهَرَنِي، ولا ضربني، ولا شتمني، قال: «إن هذه الصلاة لا يصلح فيها شيء من كلام الناس، إنما هو التسبيح والتكبير وقراءة القرآن». (أخرجه مسلم ٥٣٧).

فوصف معاويةُ ﷺ رسولَ الله ﷺ وصفًا عامًّا بأنه أحسن الناس تعليمًا، ثم نفى عنه سوء التعليم، ثم وصف كيفية تعليمه ﷺ وتوجيهه، ذلك التعليم الذي جمع فيه بين الرفق وحسن التعامل مع المتعلم، وبين حسن التعليم وإيصال المراد إليه.

٣- المجالس الإيمانية:

وصف الصحابة رضوان الله عليهم مجالسهم مع الرسول ﷺ بأنها مجالس إيمان، وبيَّنوا تلك الصورة السامية المشرقة لهذه المجالس، يحدثنا عن ذلك أبو هريرة ﷺ، فيقول: قلنا: يا رسول الله، إنا إذا رأيناك رَقَّت قلوبنا وكُنَّا من أهل الآخرة، وإذا فارقناك أعجبتنا الدنيا وشممنا النساء والأولاد، قال: «لو تكونون- أو قال: لو أنكم تكونون- على كل حال على الحال التي أنتم عليها عندي لصافحتكم الملائكة بِأَكُفِّهِم، ولزارتكم في بيوتكم، ولو لم تذنبوا لجاء الله بقوم يذنبون كي يغفر لهم». (أخرجه أحمد ٨٠٤٣، والترمذي ٢٥٢٦).

ويتكرر الوصف نفسه من حنظلة الأسيدي- وكان من كتَّاب رسول الله ﷺ- فيقول: لقيني أبو بكر فقال: كيف أنت يا حنظلة؟ قال: قلت: نافق حنظلة، قال: سبحان الله! ما تقول؟ قال: قلت: نكون عند رسول الله ﷺ يذكرنا بالنار والجنة حتى كأنا رأي عين، فإذا خرجنا من عند رسول الله ﷺ عافسنا الأزواج والأولاد والضيعات فنسينا كثيرًا، قال أبو بكر: فوالله إنا لنلقى مثل هذا، فانطلقت أنا وأبو بكر حتى دخلنا على رسول الله ﷺ، قلت: نافق حنظلة يا رسول الله، فقال رسول الله ﷺ: «وما ذاك؟» قلت: يا رسول الله، نكون عندك تذكرنا بالنار والجنة حتى كأنا رأي عين، فإذا خرجنا من عندك عافسنا الأزواج والأولاد والضيعات نسينا كثيرًا، فقال رسول الله ﷺ: «والذي نفسي بيده إن لو تدومون على ما تكونون عندي وفي الذكر لصافحتكم الملائكة على فرشكم وفي طرقكم، ولكن يا حنظلة ساعة وساعة» ثلاث مرات. (أخرجه مسلم ٢٧٥٠).

والشاهد هنا ليس في الحال التي اشتكى الصحابة منها، إنما في وصف هذه المجالس وأثرها على نفوسهم.

٤- ثناء خادمه أنس بن مالك على طيب تعامله:

عاش أنس بن مالك ﷺ مع النبي ﷺ خادمًا عشر سنين، وهو لما يزل غلامًا يافعًا، والغلام في هذا السن لا يسلم من خطأ وتقصير لحداثة سنه، وقلة خبرته، كما أن شأن الخادم أن يتلقى أوامر من يخدمه، وأن يلبي احتياجاته.

وسِنُّ أنس ﷺ، وطبيعة مهمته يلزم منها الخطأ والقصور، وقد تستدعي بعض المواقف الزجر والعقاب، لكنه ﷺ كان له مع أنس شأن أخر.

يحدثنا أنس ﷺ عن حاله مع النبي ﷺ في خدمته له، فيقول: خدمت النبي ﷺ عشر سنين، فما قال لي: أف، ولا لم صنعت؟ ولا ألا صنعت؟ (أخرجه البخاري ٦٠٣٨، ومسلم ٢٣٠٩).

وأخرجه أبو نعيم بلفظ: خدمت رسول الله ﷺ سنين فما سبني سُبَّةً قط، ولا ضربني ضربة، ولا انتهرني، ولا عبس في وجهي، ولا أمرني بأمر فتوانيت فيه فعاتبني عليه، فإن عاتبني عليه أحد من أهله قال: «دعوه؛ فلو قدر شيء لكان». (دلائل النبوة ١٢٤).

حديثه عن نفسه ومهمته:

حدَّث ﷺ أصحابه في عدد من المواقف عن نفسه وعن مهمته، وفي بعضٍ مما حدَّث به ﷺ عن نفسه وصفه لنفسه ومهمته بأوصاف التربية والتعليم.

ومن ذلك ما يلي:

١- معلِّم ميسِّر:

عن جابر بن عبد الله قال: دخل أبو بكر يستأذن على رسول الله ﷺ، فوجد الناس جلوسًا ببابه، لم يؤذن لأحد منهم، قال: فأذن لأبي بكر، فدخل، ثم أقبل عمر، فاستأذن فأذن له، فوجد النبي ﷺ جالسًا حوله نساؤه، واجمًا ساكتًا، قال: فقال: لأقولن شيئا أضحك النبي ﷺ، فقال: يا رسول الله، لو رأيت بنت خارجة، سألتني النفقة، فقمت إليها، فَوَجَأْتُ عنقها، فضحك رسول الله ﷺ، وقال: «هن حولي كما ترى، يسألنني النفقة»، فقام أبو بكر إلى عائشة يَجَأُ عنقَها، فقام عمر إلى حفصة يَجَأُ عنقها، كلاهما يقول: تسألن رسول الله ﷺ ما ليس عنده؟ فقلن: والله لا نسأل رسول الله ﷺ شيئًا أبدًا ليس عنده، ثم اعتزلهن شهرًا- أو تسعًا وعشرين- ثم نزلت عليه هذه الآية ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ... ﴾ حتى بلغ ﴿ ....لِلْمُحْسِنَـٰتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ (الأحزاب: ٢٨ - ٢٩)، قال: فبدأ بعائشة فقال: «يا عائشة، إني أريد أن أعرض عليك أمرًا، أحب أن لا تعجلي فيه حتى تستشيري أبويك» قالت: وما هو يا رسول الله؟ فتلا عليها الآية، قالت: أفيك يا رسول الله أستشير أبوي؟ بل أختار الله ورسوله والدار الآخرة، وأسألك أن لا تخبر امرأة من نسائك بالذي قلت، قال: «لا تسألني امرأة منهن إلا أخبرتها، إن الله لم يبعثني مُعَنِّتًا، ولا مُتَعَنِّتًا، ولكن بعثني مُعَلِّمًا مُيسِّرًا). (أخرجه مسلم ١٤٧٨).

فهو هنا ﷺ يخبر بأن الله عز وجل بعثه معلِّمًا، وهذا يعني أنه ممتلك لصفات المعلم ومهاراته، الجبلي منها والمكتسب.

كما وصف ﷺ منهجه وأسلوبه في التعليم؛ فتعليمه قائم على التيسير، وهي سنة الله في الحياة؛ فهو سبحانه يعطي على الرفق ما لايعطي على العنف ولا على ما سواه.

كما نفى عن نفسه ﷺ أساليب التعليم التي لا تليق به من التعنُّت والتكلُّف.

٢- بمنزلة الوالد:

عن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ: «إنما أنا لكم بمنزلة الوالد أُعَلِّمُكُم، فإذا أتى أحدكم الغائط فلا يستقبل القبلة ولا يستدبرها، ولا يستطبُّ بيمينه» وكان يأمر بثلاثة أحجار، وينهى عن الرَّوْثِ والرِّمَّة. (أخرجه أبو داود ٨، والنسائي ٤٠، وابن ماجه ٣١٣، وأحمد ٧٣٦٨، والدارمي ٧٠١).

لقد جمع ﷺ بين صفات الوالد وخصائصه: من المحبة لأصحابه، والشفقة عليهم، والحرص على تعليمهم، وبذل الجهد في ذلك، وقد وصفه ربه تبارك وتعالى- وهو أعلم به- بقوله: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ (التوبة: ١٢٨).

٣- متمِّم لصالح الأخلاق:

حدَّث ﷺ عن نفسه بأنه جاء ليزكي النفوس، وليقيم صالح الأخلاق؛ عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «إنما بُعثت لأتمم صالح الأخلاق». (أخرجه أحمد ٨٩٥٢).

وإتمامه ﷺ لصالح الأخلاق متحقق بتعليمه أمته منزلة الأخلاق ومكانتها، ومعايير الخلق السوي وغير السوي، وبالقدوة العملية؛ فقد كان ﷺ أحسن الناس خلقًا شهد له بذلك الأعداء قبل الأصحاب، كيف لا وقد زكَّاه مولاه وخالقه عز وجل بقوله: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ (القلم: ٤).

* * *

الفصل الثاني: معالم التربية النبوية

التربية المتكاملة.

الاصطفاء والاختيار.

طول النفَس والصبر.

التدرج.

الواقعية.

التربية الإيجابية والقيادية.

الاعتدال.

معالم التربية النبوية

المعالم أو الخصائص هي سمات عامة كلية يتصف بها المنهج التربوي، هذه السمات قد لا ترد منصوصًا عليها بذاتها، وسبيل استكشافها هو النظرة الكلية للمنهج التربوي، ومما تتسم به المعالم ما يلي:

- ارتباطها بقضايا كلية لا جزئية أو تطبيقات محدودة؛ لذا فهي ظاهرة في كافة مجالات التربية وتطبيقاتها؛ فالاعتدال- على سبيل المثال- نراه في العبادة والصلة بالله عز وجل، والتعامل مع النفس، ومع الآخرين، وفي مجال الثواب والعقاب، والوعظ والتذكير، وفي تربية الخاصة والعامة، والرجال والنساء، وفي المجال العقلي والسلوكي والنفسي... وهكذا.
- اتساقها مع كليات الشريعة؛ فالمعالم لا يسوغ أن تكون قضايا فرعية أو مسائل اجتهادية؛ ولذا يمكن للباحث أن يورد عليها عشرات الأدلة من القرآن والسنة.
- تكتسب قدرًا عاليًا من الأهمية؛ فتأثيرها واسع وممتد على مجالات التربية وبناء الشخصية، وحاجة المربين إلى دراستها واستيعابها آكَد من حاجتهم إلى التفاصيل الدقيقة- رغم قيمتها وأهميتها-.

وعلى الرغم من كون المعالم قضايا كلية، وارتباط كثير منها بأدلة قطعية، إلا أن تحديدها والتعبير عنها أمر بشري اجتهادي، ودائرة الاختلاف في تصنيفها وتقسيمها، ودخول بعضها في بعض دائرة واسعة، ومع ذلك فجوهرها ينبغي ألا يختلف حوله.

وفيما يلي بعض المعالم التي اتسمت بها التربية النبوية، وهي اجتهاد من الكاتب في استقصائها والتعبير عنها وتصنيفها.

التربية المتكاملة

عرفت البشرية العديد من الفلسفات، والأديان السماوية المحرفة، والأديان البشرية، وكلها قدمت تصورًا للإنسان في طبيعته وإصلاحه، وكلها سعت لإسعاده إما في الدنيا أو الآخرة.

ورغم التباين الشديد بين هذه الفلسفات والديانات والمدارس إلا أنها تشترك جميعًا في أنها تقدم تصورًا قاصرًا للإنسان؛ ومِن ثَمَّ اتسم منهجها في تربيته وإصلاحه بالقصور.

نظرت بعضها إلى الجانب الروحي والوجداني في الإنسان وأهملت عقله ومشاعره وحياته الاجتماعية، فقدَّمت مناهج لإصلاح الروح على حساب عواطف الإنسان ومشاعره، وعلى حساب جسده ومصالح دنياه، وتأثرت الاتجاهات الصوفية بهذه المناهج.

ونظر بعضها إلى عقله وأهمل روحه ووجدانه، فاعتنى بالمنطق والفلسفة، وأغرق في إعلاء شأن العقل حتى ألَّهه.

ونظر بعضها إلى الإنسان كآلة للإنتاج المادي وتعمير الحياة، فاعتنى بتطوير معارفه ومهاراته في العمل والإنتاج، وأهمل الروح والوجدان.

وتسود التربية الغربية اليوم في معظم دول العالم، وقد تأثر بها العالم الإسلامي، وهي وإن سعت إلى النظرة المتكاملة للإنسان إلا أنها تختزله في عالم المادة، فلا وجود للإيمان والسعي للآخرة، والتدين أمر شخصي يختاره الفرد، والقيم والأخلاق نسبية ومحكومة بما تجلبه من مصالح ومنفعة.

أما المنهج التربوي النبوي فهو وحده المنهج المتكامل المتوازن.

سنة الله في الحياة:

التكامل والتوازن سنة من سنن الله في خلقه؛ فالحياة البشرية والحيوانية قائمة على التكامل والتوازن، والكون بنجومه وأفلاكه قائم على هذه السنة الربانية.

والكائن البشري قائم على هذا الأساس؛ فتكوين الإنسان العضوي قائم على منظومة متكاملة من الوظائف يكمِّل بعضها بعضًا، ويؤثر بعضها في بعض، وهكذا في تكوين الشخصية الإنسانية، فهي تتألف من مجالات متعددة لا غنى عنها لحياة الإنسان واستقراره، وبعضها يؤثر في بعض، والخلل في أي منها ينعكس على شخصية الإنسان وأدائه لأدواره في الحياة، فعلى سبيل المثال فـ«إن القلق النفسي يحدث اختلالًا في صحة الفرد العامة، ويتسبب في اختلال نظامه الهضمي ودورته الدموية ونومه، وإذا ما طال القلق والخوف في اختلال نظامه لمدة طويلة من الزمن فإن من شأنهما أن يتسببا في بطء عملية النمو الجسمي». (عمر التومي الشيباني، الأسس النفسية والتربوية لرعاية الشباب، ص ٤٧).

والمنهج التربوي النبوي منهج واقعي جاء لإصلاح النفس البشرية؛ ومِن ثَمَّ كان متوافقًا مع طبيعتها وخصائصها.

تكامل الشخصية النبوية:

منهج النبي ﷺ ليس مجرد منهج فكري، وليس قائمًا على المعرفة المجردة، وإنما يتمثل في شخص النبي ﷺ الذي بعثه الله بَشَرًا يأكل الطعام ويمشي في الأسواق.

والمتأمل في شخصية النبي ﷺ يلحظ التكامل والتوازن فيها .

ففي مجال العبادة والصلة بالله عز وجل كان ﷺ قدوة للناس أجمع في كل باب في أبوابها؛ في الذكر والتلاوة والصلاة والصدقة والصيام وأعمال القلوب.

وفي مجال السلوك والخلق كان إمامًا في الكرم والجود والشجاعة والصبر والحلم والحياء والعفة.

وفي مجال العلاقات مع الآخرين كان خيرهم في تعامله مع أسرته ومع الصغير والكبير والجاهل والمتعلم، والقريب والبعيد والعدو والصاحب.

كان قائدًا عسكريًا وحاكمًا عادلًا، وقاضيًا منصفًا، وواعظًا يحرك القلوب، ومعلمًا ميسرًا، صاحب رأي سديد، وفكر عميق، يبهر الحكماء والبلغاء، ويمشي مع الأرملة والمسكين، ويداعب الصغار والأطفال.

وأنَّى لفرد ضعيف مهما أوتي من علم وفصاحة أن يحيط بجوانب شخصية محمد ﷺ، لكنها إشارات عابرة.

إن هذا التكامل والتوازن في شخصية محمد ﷺ أول جوانب هذا المعلم التربوي؛ فالهدي النبوي في التربية أول ما يتمثل في شخص النبي ﷺوحياته العملية.

التكامل في مجالات الشخصية:

لعل أبرز ما يبدو فيه التكامل في المنهج النبوي ما يتصل بمجالات الشخصية، فقد كان ﷺ يعنى برعاية كافة مجالات الشخصية الانسانية ومكوِّناتها.

ففي مجال التربية الجسمية أكد على حق الجسد على صاحبه، وعلى الغذاء المتوازن والصحة الجسدية، وبناء الجسد وتقويته على طاعة الله عز وجل، بل إنه أمر بمراعاة حق الجسد في العبادة، وأكد على ذلك في توجيهاته لأصحابه، فعن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال: دخل عليَّ رسول الله ﷺ فقال: «ألم أُخْبر أنك تقوم الليل وتصوم النهار؟» قلت: بلى، قال: «فلا تفعل، قم ونم، وصم وأفطر؛ فإن لجسدك عليك حقًّا، وإن لعينك عليك حقًّا، وإن لِزَوْرِكَ عليك حقًّا، وإن لزوجك عليك حقًّا». (أخرجه البخاري ٦١٣٤).

وفي المجال الإيماني والروحي ربَّى أصحابه على حقائق الإيمان وأعمال القلوب، والصلة بالله عز وجل، ودوام طاعته وذكره.

وفي المجال النفسي اعتنى ببناء الشخصية السوية البعيدة عن القلق والهم والحزن، وحمى النفس البشرية من كل مظاهر الاعتلال والاضطراب، ولم يهمل المجال النفسي حتى في حال العبادة، فيدخل في الصلاة التي هي قُرَّة عينه ﷺ، فيسمع بكاء الصبي فيخفف مخافةَ أن تفتن أمه، عن أنس بن مالك ﷺ قال: ما صلَّيت وراء إمام قطُّ أخف صلاة ولا أتم من النبي ﷺ، وإن كان ليسمع بكاء الصَّبيِّ فيخفف؛ مخافةَ أن تفتن أمه. (أخرجه البخاري ٧٠٨).

ويأتي ابنه وهو ساجد أقرب ما يكون إلى ربه فيرتحله، فيتركه ﷺ حتى يقضي حاجته، عن عبد الله بن شداد عن أبيه ﷺ قال: خرج علينا رسول الله ﷺ في إحدى صلاتي العشيِّ: الظهر أو العصر، وهو حامل الحسن أو الحسين، فتقدم النبي ﷺ فوضعه، ثم كبَّر للصلاة، فصلى، فسجد بين ظهراني صلاته سجده أطالها، فقال: إني رفعت رأسي، فإذا الصَّبيُّ على ظهر رسول الله ﷺ وهو ساجد، فرجعت في سجودي، فلما قضى رسول الله ﷺ الصلاة، قال الناس: يا رسول الله، إنك سجدت بين ظهراني صلاتك سجدة قد أطلتها، فظننا أنه حدث أمر، أو أنه يوحى إليك، قال: «فكُلُّ ذلك لم يكن، ولكنَّ ابني ارتحلني، فكرهت أن أعجله حتى يقضي حاجته». (أحمد ١٦٠٣٣، والنسائي ١١٤١).

وفي المجال العقلي حَرَّر العقول من الدجل والخرافة، واعتنى ببناء المهارات والعمليات العقلية، والتوازن بين العقل والنقل، دون صراع أو اختلال.

وهكذا في سائر مجالات الشخصية، يقول محمد قطب- معبِّرًا عن هذا التكامل التربوي-: «طريقة الإسلام في التربية هي معالجة الكائن البشري كله معالجة شاملة لا تترك منه شيئًا، ولا تغفل عن شيء: جسمه، وعقله، وروحه، حياته المادية والمعنوية، وكل نشاطه في الأرض». (منهج التربية الإسلامية ج١ ص ١٩).

في مطالب الآخرة والدنيا:

جاء محمد ﷺ كإخوانه من الأنبياء ليقول للناس: ﴿أَعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ﴾ (الأعراف: ٦٥)، ليخرجهم من الظلمات إلى النور بإذن ربهم إلى صراط العزيز الحميد، جاء يدعوهم إلى النجاة من النار والفوز بالجنة، فمن أطاعه دخل الجنة، ومن عصاه فإلى النار -حمانا الله منها-.

ومع ذلك فقد ربى ﷺ أمته تربية تراعي مطالب الآخرة والدنيا، وتحقق التكامل بينهما، فربى ﷺ أصحابه على الأخذ بنصيبهم من الدنيا، وبيَّن أنها متاع، وحثَّهم على الكسب وطلب الرزق.

ونهى ﷺ أمته وأصحابه عن أن يكون اعتناؤهم بطلب الآخرة سببًا في التقصير في حقوقهم الدنيوية، وربط بين الدنيا والآخرة في بناء منسجم متكامل؛ فطلب الرزق عبادة يؤجر الإنسان عليها، وحسنات يلقى جزاءها في الآخرة، والصبرُ على مصائب الدنيا ومشاقها حطٌّ للسيئات ورفعةٌ للدرجات، وفي المقابل فطلب الدنيا لا يسوغ أن يكون على حساب مطالب الآخرة؛ فتصبح الدنيا أكبر هم المسلم ومقصد حياته.

الفرد والمجتمع:

اعتنت التربية النبوية بتحقيق التكامل والتوازن في رعاية الفرد؛ فحققت ذاته وكيانه وأطلقت قدراته وإمكاناته.

كما اعتنت ببناء المجتمع، ففرضت على الفرد حقوقًا تجاه مجتمعه، وعزَّزَت مشاعر انتماء الفرد للمجتمع، والاندماج في كيانه.

وحقَّقَت التوازن في ذلك، فلم يكن الاهتمام بالفرد على حساب المجتمع وحقوقه، ولم يكن البناء الاجتماعي ملغيًا لشخصية الفرد وكيانه.

الاصطفاء والاختيار

جاء هذا الدين للناس كلهم، العرب والعجم، الذكر والأنثى، الذكي والبليد، والتفاوت في ميزان الآخرة إنما هو بالتقوى وصالح العمل.

واستوعبت التربية النبوية الجميع، وقدمت لكلٍّ ما يناسبه.

وكانت التربية النبوية تستهدف بناء مجتمع جديد، وتحقيق الامتداد في مواطن جديدة، وتأسيس جيل يمثل قدوة للأمة وفرطًا لها تستضيء بهديه أجيال الأمة اللاحقة، ويمثل قدوة ومرجعية لها؛ مما اقتضى مزيد اهتمام ورعاية، وانتقاء لقادة ذلك الجيل، وهذا تطلّب اتّسام هذه التربية بقدر من الاصطفاء والاختيار، فمع ما كان يقدمه ﷺ لعامة أصحابه، ومع اعتنائه بدعوة الجميع وتعليم الجميع، فقد كان ﷺ يعتني بالاصطفاء والاختيار لمن يخصهم بمزيد من الرعاية.

ومن صور الاصطفاء والاختيار ما يلي:

١ - العناية بالنخبة:

تحفل كتب السنة والسيرة النبوية بالأخبار والمرويات العديدة التي نجد فيها اللقاء بين رسول الله ﷺ وأبي بكر وعمر وغيرهما من خاصة أصحاب النبي ﷺ.

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: إني لواقف في قوم فدعوا الله لعمر بن الخطاب وقد وضع على سريره، إذا رجل من خلفي قد وضع مرفقه على منكبي، يقول: رحمك الله إن كنت لأرجو أن يجعلك الله مع صاحبيك؛ لأني كثيرًا ما كنت أسمع رسول الله ﷺ يقول: «كنت وأبو بكر وعمر، وفعلت وأبو بكر وعمر، وانطلقت وأبو بكر وعمر»، فإن كنت لأرجو أن يجعلك الله معهما، فالتفتُّ فإذا هو علي بن أبي طالب. (أخرجه البخاري ٣٦٧٧، ومسلم ٢٣٨٩).

ومنها قصة أبي موسى الأشعري ﷺ حين كان بَوابَ النبي ﷺ، فجاء أبو بكر فدفع الباب، فقلت: منْ هذا؟ فقال أبو بكر، فقلت: على رِسلك، ثم ذهبت فقلت: يا رسول الله هذا أبو بكر يستأذن، فقال: «ائذن له وبشره بالجنة»، ثم استأذن عمر، ثم عثمان... (أخرجه البخاري ٣٦٧٤، ومسلم ٢٤٠٣).

وما رواه أنس بن مالك ﷺ أن النبي ﷺ صعد أحدًا، وأبو بكر، وعمر، وعثمان فرجف بهم فقال: «اثبت أحد؛ فإنما عليك نبي، وصديق، وشهيدان». (أخرجه البخاري ٣٦٧٥).

ومثله ما رواه أبو هريرة أن رسول الله ﷺ كان على حراء هو وأبو بكر وعمر وعثمان وعلي وطلحة والزبير، فتحركت الصخرة، فقال رسول الله ﷺ: «اهدأ؛ فما عليك إلا نبي أو صديق أو شهيد». (أخرجه مسلم ٢٤١٧).

ولئن ساغ تفسير موقفٍ أو موقفين بأن الأمر حصل اتفاقًا، فليس من المنطقي تفسير تلك المواقف كلها بذلك.

إن هذا يؤكد على مزيد من الاختصاص والعناية منه ﷺ بهذه النخبة من صحابته، ومَن تأمل تاريخ صدر الإسلام، وما أعقبه ﷺ من فتوح ونشر للإسلام أدرك أثر هذا الاصطفاء والعناية.

٢- التخصيص بالعزائم:

تربية النبي ﷺ قائمة على التيسير والرفق، وما خُيِّر بين أمرين إلا اختار أيسرهما- ما لم يكن إثمًا-، لكنه ﷺ كان يخصص بعض أصحابه بعزائم ليست لغيرهم من الناس، إنها لا تنقلهم إلى عنت أو مشقة، لكنهم مهيئون لمهام عليا تتطلب نفوسًا قادرة على ذلك.

عن عوف بن مالك الأشجعي ﷺ قال: كنا عند رسول الله ﷺ تسعة أو ثمانية أو سبعة، فقال: «ألا تبايعون رسول الله؟» وكنا حديث عهد ببيعة، فقلنا: قد بايعناك يا رسول الله، ثم قال: «ألا تبايعون رسول الله؟» فقلنا: قد بايعناك يا رسول الله، ثم قال: «ألا تبايعون رسول الله؟» قال: فبسطنا أيدينا، وقلنا: قد بايعناك يا رسول الله، فعلام نبايعك؟ قال: «على أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئًا، والصلوات الخمس، وتطيعوا -وأسرَّ كلمة خفية- ولا تسألوا الناس شيئًا»، فلقد رأيت بعض أولئك النفر يسقط سوط أحدهم، فما يسأل أحدًا يناوله إياه. (أخرجه مسلم ١٠٤٣).

ومن ذلك أنه كان لا يؤذَن بالسؤال لخاصة أصحابه كما يؤذَن لغيرهم، كما روى نواس بن سمعان ﷺ قال: أقمت مع رسول الله ﷺ بالمدينة سنةً، ما يمنعني من الهجرة إلا المسألة، كان أحدنا إذا هاجر لم يسأل رسول الله ﷺ عن شيء، قال: فسألته عن البر والإثم، فقال رسول الله ﷺ: «البر حسن الخلق، والإثم ما حاك في نفسك وكرهتَ أن يطلع عليه الناس». (أخرجه مسلم ٢٥٥٣).

وعن أنس بن مالك ﷺ، قال: نُهينا أن نسأل رسول الله ﷺ عن شيء، فكان يعجبنا أن يجيء الرجل من أهل البادية العاقل، فيسأله، ونحن نسمع، فجاء رجل من أهل البادية، فقال: يا محمد، أتانا رسولك، فزعم لنا أنك تزعم أن الله أرسلك، قال: «صدق»... (أخرجه مسلم ١٢).

وحين جاءه رجل وسأله ماذا فرض الله عليه؟ لم يذكر له سوى الفرائض، عن طلحة بن عبيد الله ﷺ، قال: جاء رجل إلى رسول الله ﷺ من أهل نجد ثائر الرأس، يسمع دوي صوته ولا يفقه ما يقول، حتى دنا، فإذا هو يسأل عن الإسلام، فقال رسول الله ﷺ: «خمس صلوات في اليوم والليلة»، فقال: هل علي غيرها؟ قال: «لا، إلا أن تطوع»، قال رسول الله ﷺ: «وصيام رمضان»، قال: هل علي غيره؟ قال: «لا، إلا أن تطوع»،

قال: وذكر له رسول الله ﷺ الزكاة، قال: هل علي غيرها؟ قال: «لا، إلا أن تطوع»، قال: فأدبر الرجل وهو يقول: والله لا أزيد على هذا ولا أنقص، قال رسول الله ﷺ: «أفلح إن صدق». (أخرجه البخاري ٤٦، ومسلم ١١).

بينما أمر أحد أصحابه بقيام الليل ونهاه عن تركه، عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما، قال: قال لي رسول الله ﷺ: «يا عبد الله، لا تكن مثل فلان كان يقوم الليل، فترك قيام الليل». (أخرجه البخاري ١١٥٢، ومسلم ١١٥٩).

٣- تخصيص صاحب الحال:

وقد يقتضي الموقف تخصيص صاحب الحال بخطاب معين، عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال ناس من الأنصار- حين أفاء الله على رسوله ﷺ ما أفاء من أموال هوازن، فطفق النبي ﷺ يعطي رجالًا المائة من الإبل- فقالوا: يغفر الله لرسول الله ﷺ، يعطي قريشًا ويتركنا، وسيوفنا تقطر من دمائهم، قال أنس: فحُدث رسول الله ﷺ بمقالتهم، فأرسل إلى الأنصار فجمعهم في قبة من أَدَم، ولم يدْعُ معهم غيرهم، فلما اجتمعوا قام النبي ﷺ فقال: «ما حديث بلغني عنكم؟» فقال فقهاء الأنصار: أما رؤساؤنا يا رسول الله فلم يقولوا شيئًا، وأما ناس منا حديثة أسنانهم فقالوا: يغفر الله لرسول الله ﷺ، يعطي قريشًا ويتركنا، وسيوفنا تقطر من دمائهم، فقال النبي ﷺ: «فإني أعطي رجالًا حديثي عهد بكفر أَتَأَلَّفُهُم، أما ترضون أن يذهب الناس بالأموال وتذهبون بالنبي ﷺ إلى رحالكم؟ فوالله لما تنقلبون به خير مما ينقلبون به»، قالوا: يا رسول الله، قد رضينا، فقال لهم النبي ﷺ: «ستجدون أَثَرَةً شديدةً؛ فاصبروا حتى تلقوا الله ورسوله ﷺ، فإني على الحوض». (أخرجه البخاري ٤٣٣١، ومسلم ١٠٥٩).

وتدل رواية أخرى أنه ﷺ سعى للتأكد من أنه لا يوجد معهم غيرهم؛ فعن أنس رضي الله عنه قال: دعا النبي ﷺ الأنصار فقال: «هل فيكم أحد من غيركم؟» قالوا: لا، إلا ابن أخت لنا، فقال رسول الله ﷺ: «ابن أخت القوم منهم». (أخرجه البخاري ٣٥٢٨، ومسلم ١٠٥٩).

لقد كان لهذا التخصيص قيمة أخرى خلاف كونهم هم وحدهم المعنيِّين، ففيه تأكيد على قيمتهم ومنزلتهم لدى رسول الله ﷺ، وهو ما عبَّر عنه ﷺ بقوله: «ترضون أن يذهب الناس بالشاة والبعير، وتذهبون بالنبي ﷺ إلى رحالكم، لولا الهجرة لكنت امرأً من الأنصار، ولو سلك الناس واديًا وشِعبًا لسلكت وادي الأنصار وشعبها، الأنصار شعار والناس دِثَار، إنكم ستلقون بعدي أَثَرَة، فاصبروا حتى تلقوني على الحوض». (البخاري ٤٣٣٠).

وربما خص ﷺ بعض أصحابه ممن يفقهون عنه بما لم يقله لغيره، عن أنس بن مالك أن النبي ﷺ ومعاذ رديفه على الرحل، قال: «يا معاذ بن جبل» قال: لبيك يا رسول الله وسعديك، قال: «يا معاذ» قال: لبيك يا رسول الله وسعديك، ثلاثًا، قال: «ما من أحد يشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله صدقًا من قلبه إلا حرمه الله على النار» قال: يا رسول الله، أفلا أخبر به الناس فيستبشروا؟ قال: «إذًا يتكلوا» وأخبر بها معاذ عند موته تأثُّمًا. (أخرجه البخاري ١٢٨، ومسلم ٣٢).

والتعامل مع الاصطفاء والاختيار كان يتم باعتدال وتوازن، فلم يكن على حساب الاعتناء بسائر الناس، ولم ينغلق ﷺ على ذاته ونخبةٍ من أصحابه، بل حين انشغل عن ابن أم مكتوم بدعوة كبار قومه ممن كان يرجو أن يكون في إسلامهم خير لدعوته الفتية، عاتبه ربه عز وجل بسورة تتلى إلى يوم القيامة ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ﴿١﴾ أَن جَآءَهُ ٱلۡأَعۡمَىٰ ﴿٢﴾ وَمَا يُدۡرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ﴿٣﴾ أَوۡ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكۡرَىٰٓ ﴿٤﴾ أَمَّا مَنِ ٱسۡتَغۡنَىٰ ﴿٥﴾ فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ ﴿٦﴾ وَمَا عَلَيۡكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسۡعَىٰ ﴿٨﴾ وَهُوَ يَخۡشَىٰ ﴿٩﴾ فَأَنتَ عَنۡهُ تَلَهَّىٰ ﴿١٠﴾ كَلَّآ إِنَّهَا تَذۡكِرَةٞ ﴿١١﴾ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ﴿١٢﴾﴾ (عبس: ١ - ١٢).

إن طائفة من الدعاة والمربين أغرقوا في التعامل مع النخبة والخصوصية، حتى انشغلوا عن الناس، وصرفوا أوقاتًا نفيسة منغلقين مع فئة لا تستحق هذا القدر؛ وذلك نتاج قراءة جزئية لسيرة النبي ﷺ، والصورة المتكاملة لا تتأتى إلا بالقراءة الشمولية.

طول النفَس والصبر

الكائن البشري كائن مُعقَّد تؤثر فيه مؤثرات عِدة من داخله وخارجه، وتصارعه نوازع النفس ووساوس الشيطان وكيده، بالإضافة إلى أن شخصيته وقناعاته ومعاييره تتشكل من خلال تراكم عوامل عديدة عبر مدى زمني طويل.

ومن هنا فإن التغيير في النفس البشرية يصطدم بكثير من العوائق والمؤثرات، فضلًا عن إصلاح الخلل المتراكم في الشخصية، ناهيك عن أن بعض الأهداف بطبيعتها لا يمكن تحقيقها إلا عبر وقت وجهد.

وهذا يتطلب أن يتحلى المربي والداعية وكل من يسعى للتغيير في الإنسان، أن يتحلى بالصبر وطول النفس.

لذا كان ﷺ إمامًا في الصبر وقدوة للمربين من بعده، وسيرته العملية ﷺ حافلة بذلك، وفيما يلي نماذج من صبره ﷺ وطول نفَسه:

١ - المدة التي قضاها في التربية:

بعث الله محمدًا ﷺ في مكة، فبقي ﷺ فيها ثلاث عشرة سنة يدعو إلى الله عز وجل، ويربي صفوة أصحابه المستجيبين له متحملًا ما يصيبه من الأذى واللأواء، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: بُعث رسول الله ﷺ لأربعين سنة، فمكث بمكة ثلاث عشرة سنة يوحى إليه، ثم أمر بالهجرة فهاجر عشر سنين، ومات وهو ابن ثلاث وستين. (أخرجه البخاري ٣٩٠٢، ومسلم ٢٣٥١).

وعن جابر رضي الله عنه قال: مكث رسول الله ﷺ بمكة عشر سنين يتبع الناس في منازلهم بعكاظ، ومجنَّة، وفي المواسم بمنًى يقول: «مَن يؤويني؟ مَن ينصرني؟ حتى أبلِّغ رسالة ربي، وله الجنة» حتى إن الرجل ليخرج من اليمن أو من مُضَرَ- كذا قال- فيأتيه قومه

فيقولون: احذر غلام قريش، لا يفتنك، ويمشي بين رجالهم وهم يشيرون إليه بالأصابع، حتى بعثنا الله إليه من يثرب، فآويناه وصدقناه.... (أخرجه أحمد ١٤٤٥٦).

وقد ظهر أثر تلك التربية النبوية، فكان لذلك الجيل الأول من المهاجرين السابقين إلى الإسلام الأثر البالغ في نشر الدين والجهاد وإقامة الإسلام في عهده ﷺ وبعد وفاته، ومَن تأمَّل تاريخ انتشار الإسلام في الصدر الأول رأى ذلك واضحًا، وأدرك أثر ذلك الجيل الذي ربَّاه ﷺ ورعاه في مكة.

ولم يكن صبره ﷺ قاصرًا على ما يلقاه من أذى المشركين، بل كان ﷺ يصبر على ما قد يبدر من بعض أصحابه- بحكم الطبيعة البشرية - من تعجُّل.

عن خبَّاب بن الأرَت ﷺ، قال: شكونا إلى رسول الله ﷺ، وهو متوسِّدٌ بردةً له في ظل الكعبة، قلنا له: ألا تستنصر لنا، ألا تدعو الله لنا؟ قال: «كان الرجل فيمن قبلكم يحفر له في الأرض، فيجعل فيه، فيجاء بالمنشار فيوضع على رأسه فيشق باثنتين، وما يصده ذلك عن دينه، ويُمَشَّط بأمشاط الحديد ما دون لحمه من عظم أو عصب، وما يصده ذلك عن دينه، والله ليتمن هذا الأمر، حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت، لا يخاف إلا الله، أو الذئب على غنمه، ولكنكم تستعجلون». (أخرجه البخاري ٣٦١٢).

ولم يكن الصبر وطول النفَس مرحلة انتهت مع هجرته ﷺ إلى المدينة، بل بقي ﷺ متحليًا بذلك، حتى ترك أثره على بدنه ﷺ وصحته، فعن عبد الله بن شقيق قال: قلت لعائشة ﵂: هل كان النبي ﷺ يصلي وهو قاعد؟ قالت: نعم، بعد ما حَطَمَهُ الناسُ. (أخرجه مسلم ٧٣٢).

قال النووي: قولها: (قعد بعد ما حَطَمَه الناس) قال الراوي في تفسيره: يقال: حَطَمَ فلانًا أهلُه: إذا كبر فيهم، كأنه لما حمله من أمورهم وأثقالهم والاعتناء بمصالحهم، صيَّروه شيخًا محطومًا، والحطم: الشيء اليابس». (شرح صحيح مسلم ٦/ ١٣).

٢- صبره على المتربين والمتعلمين:

استجاب للنبي ﷺ طائفة من الناس، وهم ليسوا في درجة واحدة، فمنهم خاصة أصحابه من العشرة، والمهاجرين والأنصار وأهل بدر والحديبية، وقد بيّن الله عز وجل في سورة التوبة تفاوت أولئك، فقال سبحانه وتعالى: ﴿وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَن يَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ مَغْرَمًا وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ الدَّوَائِرَ ۚ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ ۗ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٩٨﴾ وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَن يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ قُرُبَاتٍ عِندَ اللَّهِ وَصَلَوَاتِ الرَّسُولِ ۚ أَلَا إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَّهُمْ ۚ سَيُدْخِلُهُمُ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ ۗ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩٩﴾ وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ۚ ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١٠٠﴾ وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ الْأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ ۖ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ ۖ مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ ۖ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ ۚ سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ ﴿١٠١﴾ وَآخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا عَسَى اللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٠٢﴾﴾ (التوبة: ٩٨ - ١٠٢).

وقد صبر ﷺ على كثير من حديثي العهد بالإسلام ونحوهم، وتحمل جفاء بعضهم، وسيرته مليئة بالشواهد على ذلك، ومنها ما يلي:

أ- صبره على الأعرابي الذي بال في المسجد:

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قام أعرابي فبال في المسجد، فتناوله الناس، فقال لهم النبي ﷺ: «دعوه، وهريقوا على بوله سَجْلًا من ماء، أو ذنوبًا من ماء؛ فإنما بعثتم ميسرين، ولم تبعثوا معسرين». (أخرجه البخاري ٢٢٠).

ب- صبره على من طلب منه أن يأذن له في الزنا:

عن أبي أمامة رضي الله عنه قال: إن فتى شابًا أتى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، ائذن لي بالزنا، فأقبل القوم عليه فزجروه، وقالوا: مه، مه. فقال: «ادنه»، فدنا منه قريبًا، قال: فجلس قال:

«أتحبه لأمك؟»قال: لا، والله، جعلني الله فداءك، قال: «ولا الناس يحبونه لأمهاتهم»، قال: «أفتحبه لابنتك؟»قال: لا، والله يا رسول الله، جعلني الله فداءك، قال: «ولا الناس يحبونه لبناتهم»، قال: «أفتحبه لأختك؟» قال: لا، والله جعلني الله فداءك، قال: «ولا الناس يحبونه لأخواتهم»، قال: «أفتحبه لعمتك؟» قال: لا، والله، جعلني الله فداءك، قال: «ولا الناس يحبونه لعماتهم»، قال: «أفتحبه لخالتك؟» قال: لا، والله، جعلني الله فداءك، قال: «ولا الناس يحبونه لخالاتهم»، قال: فوضع يده عليه، وقال: «اللهم اغفر ذنبه، وطهر قلبه، وحصِّن فرجه»، قال: فلم يكن بعد ذلك الفتى يلتفت إلى شيء. (أخرجه أحمد ٢٢٢١١).

ج- صبره على من سأله العطاء:

عن أنس بن مالك ﷺ قال: كنت أمشي مع النبي ﷺ وعليه برد نجراني غليظ الحاشية، فأدركه أعرابي فجذبه جذبة شديدة، حتى نظرت إلى صفحة عاتق النبي ﷺ قد أثرت به حاشية الرداء من شدة جذبته، ثم قال: مُر لي من مال الله الذي عندك، فالتفت إليه فضحك، ثم «أمر له بعطاء». (أخرجه البخاري ٣١٤٩، ومسلم ١٠٥٧).

د- صبره على الغلاة:

بدأت نابتة الغلاة في عهد ﷺ يوم حنين، وأساؤوا الأدب مع النبي ﷺ، فصبر عليهم متذكرًا ما لقيه أخوه موسى عليه السلام، متمثلًا وصية ربه عز وجل ﴿فَٱصۡبِرۡ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلۡعَزۡمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ وَلَا تَسۡتَعۡجِل لَّهُمۡۚ﴾ (الأحقاف: ٣٥).

عن عبد الله بن مسعود ﷺ، قال: لما كان يوم حنين، آثر النبي ﷺ أناسًا في القسمة، فأعطى الأقرع بن حابس مائة من الإبل، وأعطى عيينةَ مثل ذلك، وأعطى أناسًا من أشراف العرب، فآثرهم يومئذ في القسمة، قال رجل: والله إن هذه القسمة ما عُدل فيها، وما أريد بها وجه الله، فقلت: والله لأخبرن النبي ﷺ فأتيته، فأخبرته، فقال: «فمن يعدل

إذا لم يعدل الله ورسوله؟! رحم الله موسى؛ قد أوذي بأكثر من هذا فصبر». (أخرجه البخاري ٣١٥٠، ومسلم ١٠٦٢).

٣ - صبره على ما يصدر من أصحابه:

أصحاب النبي ﷺ بشرٌ لا يسلمون من أن يصدر منهم- بحكم بشريتهم- ما يستوجب صبر النبي ﷺ واحتماله، وقد جاء في كتاب الله عز وجل عتاب لهم على بعض المواقف، فكان ﷺ صبورًا طويل النفس، كان كما وصفه ربه تبارك وتعالى بقوله: ﴿ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ (التوبة: ١٢٨).

ومن صور ذلك ما حصل من بعضهم وهو ﷺ يخطب الجمعة، عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال: بينما نحن نصلي مع النبي ﷺ إذ أقبلت عيرٌ تحمل طعامًا، فالتفتوا إليها، حتى ما بقي مع النبي ﷺ إلا اثنا عشر رجلًا، فنزلت هذه الآية: ﴿وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انفَضُّوا إِلَيْهَا﴾ . (أخرجه البخاري ٩٣٦، ومسلم ٨٦٣).

وصبر ﷺ على مخالفة بعضهم لأمره في أُحُد، وما نتج عن ذلك من قتل نفرٍ كريمٍ من أصحابه، وشجِّ رأسه وكسر رباعيته، وهكذا في سائر مواقفه ﷺ[1].

إن بعض المربين والشيوخ قد لا يطيق الصبر على بعض مواقف تلامذته وأخطائهم، وقد يضخمها بدافع الغيرة والحرص على بلوغهم درجات عالية، وربما كانت توقعاته منهم عالية، وانتظر منهم نموًّا ونضجًا أو إنجازًا لا يتناسب مع إمكاناتهم، أو تجاهل عامل الزمن والوقت.

---

(١) من المهم عند تناول مثل هذه الأحداث استحضار جلالة قدر أصحاب النبي ﷺ وعلو منزلتهم، وأنهم خير الناس وأبرهم وأتقاهم، فلا يسوغ أن تساق مثل هذه الأخبار في سياق التنقص منهم، أو إساءة الأدب معهم رضوان الله عليهم.

٤- صبره على أذى قومه:

وصبر ﷺ على ما يلقاه من أذى قومه وصدودهم، وشواهد ذلك متظافرة، ويكفي فيها ما لقيه منهم في بيت الله، عن عبد الله بن مسعود ﷺ أن النبي ﷺ كان يصلي عند البيت، وأبو جهل وأصحاب له جلوس، إذ قال بعضهم لبعض: أيكم يجيء بسلى جزور بني فلان، فيضعه على ظهر محمد إذا سجد؟ فانبعث أشقى القوم فجاء به، فنظر حتى سجد النبي ﷺ، وضعه على ظهره بين كتفيه، وأنا أنظر لا أغني شيئًا، لو كان لي منعة، قال: فجعلوا يضحكون ويحيل بعضهم على بعض، ورسول الله ﷺ ساجد لا يرفع رأسه، حتى جاءته فاطمة، فطرحت عن ظهره، فرفع رسول ﷺ رأسه ثم قال: «اللهم عليك بقريش»، ثلاث مرات، فشق عليهم إذ دعا عليهم، قال: وكانوا يرون أن الدعوة في ذلك البلد مستجابة، ثم سمى: «اللهم عليك بأبي جهل، وعليك بعتبة بن ربيعة، وشيبة بن ربيعة، والوليد بن عتبة، وأمية بن خلف، وعقبة بن أبي معيط»، وعدَّ السابع فلم يحفظ، قال: فوالذي نفسي بيده، لقد رأيت الذين عَدَّ رسول الله ﷺ صرعى في القَليب قليبِ بدرٍ. (أخرجه البخاري ٢٤٠، ومسلم ١٧٩٤).

٥ - ترك استعجال عذابهم:

حين عُرض عليه ﷺ عذاب المكذبين لم يتعجل ذلك، وصبر على ما لقيه، وبين ﷺ أنه يؤمل في صلاح ذرياتهم، عن عروة، أن عائشة ﵄ زوج النبي ﷺ حدَّثته أنها قالت للنبي ﷺ: هل أتى عليك يوم كان أَشَدَّ من يوم أحد، قال: «لقد لقيت من قومك ما لقيت، وكان أشد ما لقيت منهم يوم العقبة، إذ عرضت نفسي على ابن عبد ياليل بن عبد كلال، فلم يجبني إلى ما أردت، فانطلقت وأنا مهموم على وجهي، فلم أستفق إلا وأنا بِقَرْنِ الثَّعالب، فرفعت رأسي، فإذا أنا بسحابة قد أظلتني، فنظرت فإذا فيها جبريل، فناداني فقال: إن الله قد سمع قول قومك لك، وما ردوا عليك، وقد بعث إليك ملَك

الجبال لتأمره بما شئت فيهم، فناداني ملَك الجبال فسلم علي، ثم قال: يا محمد، فقال، ذلك فيما شئت، إن شئت أن أطبق عليهم الأخشبين؟ فقال النبي ﷺ: بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده، لا يشرك به شيئًا». (أخرجه البخاري ٣٢٣١، ومسلم ١٧٩٥).

التدرج

إن الجوانب التي تتطلب التربية والإصلاح في النفس البشرية من الاتساع والتعدد والتنوع ما يجعل تحصيلَها في وقت يسير وجهد محدود أمرًا عسيرًا ومتعذرًا؛ لذا كان التدرج معلمًا مهمًا من معالم التربية النبوية، ويشمل التدرج في التربية النبوية ما يلي:

١ - التدرج في التشريع:

عن يوسف بن ماهك قال: إني عند عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها إذ جاءها عراقي فقال: أي الكَفَن خير؟ قالت: ويحك، وما يضرك؟ قال يا أم المؤمنين: أريني مصحفك، قالت: لمَ؟ قال: لعلي أولف القرآن عليه؛ فإنه يُقرأ غيرَ مؤلَّف، قالت: وما يضرك أيَّه قرأتَ قبل؟ إنما نزل أول ما نزل منه سورة من المفصل فيها ذكر الجنة والنار، حتى إذا ثاب الناس إلى الإسلام نزل الحلال والحرام، ولو نزل أول شيء: لا تشربوا الخمر، لقالوا: لا ندع الخمر أبدًا، ولو نزل: لا تزنوا، لقالوا: لا ندع الزنا أبدًا، لقد نزل بمكة على محمد ﷺ وإني لجارية ألعب ﴿ بَلِ ٱلسَّاعَةُ مَوۡعِدُهُمۡ وَٱلسَّاعَةُ أَدۡهَىٰ وَأَمَرُّ ﴾ (القمر: ٤٦)، وما نزلت سورة البقرة والنساء إلا وأنا عنده، قال: فأخرجت له المصحف، فأملت عليه آي السورة. (أخرجه البخاري ٤٩٩٣).

ومن التدرج في التشريع أن تحريم الربا كان من آخر ما نزل، أخرج ابن جرير في تفسيره (بإسناده ٦٣٠٩، وأحمد في مسنده ٢٤٦) عن سعيد بن المسيب: أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: كان آخر ما نزل من القرآن آية الربا، وإن نبي الله ﷺ قُبضَ قبل أن يفسرها، فدعوا الرِّبا والرِّيبَة.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما، قال: «آخر آية نزلت على النبي ﷺ آية الربا». (أخرجه البخاري ٤٥٤٤).

وتأخر تحريم الخمر إلى المدينة؛ فالآيات التي جاء فيها تحريمه مدنية؛ فعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: نزل تحريم الخمر وإن في المدينة يومئذ لخمسة أشربة ما فيها شراب العنب. (أخرجه البخاري ٤٦١٦).

قال القرطبي (ج ٣، ص ٥٢)- في سياق سرده للمسائل المستخرجة من قوله تعالى: ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ ۖ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا ﴾ (البقرة: ٢١٩)-: «الثالثة: قال بعض المفسرين: إن الله تعالى لم يدع شيئًا من الكرامة والبر إلا أعطاه هذه الأمة، ومن كرامته وإحسانه أنه لم يوجب عليهم الشرائع دفعة واحدة، ولكن أوجب عليهم مرة بعد مرة، فكذلك تحريم الخمر، وهذه الآية أول ما نزل في أمر الخمر، ثم بعده ﴿لَا تَقْرَبُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَٰرَىٰ ﴾(النساء: ٤٣)،، ثم قوله: ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ فِى ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ ﴾ (المائدة: ٩١)، ثم قوله: ﴿إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾(المائدة: ٩٠)».

وأبيح نكاح المتعة ثم حُرِّم، عن الربيع بن سبرة الجهني أن أباه حدَّثه أنه كان مع رسول الله ﷺ فقال: «يا أيها الناس إني كنت أذنت لكم في الاستمتاع من النساء، وإن الله قد حرم ذلك إلى يوم القيامة، فمن كان عنده منهن شيء، فليخلِّ سبيلَه، ولا تأخذوا مما آتيتموهن شيئًا». (أخرجه مسلم ١٤٠٦).

ومع استقرار التشريع واكتمال الدين لم يعد هناك مجال للتدرج في الإباحة والتحريم، لكن تبقى دلالة ذلك قائمة على طبيعة النفس البشرية وحاجتها إلى التدرج في التربية والتقويم والإصلاح، وهذه سنة الله عز وجل في خلقه، قال عبد الملك بن عمر لأبيه: ما يمنعك أن تمضي للذي تريد؟ والذي نفسي بيده ما أبالي لو غَلَتْ بي وبك القدور، فقال: الحمد لله الذي جعل لي من ذريتي من يعينني على هذا الأمر، يا بني لو تأهب الناس بالذي

تقول لم آمن أن ينكروها، فإذا أنكروها لم أجد بُدًّا من السيف، ولا خير في خير لا يجيء إلا بالسيف، إني أروِّض الناس رياضة الصعب، فإن يطل بي عُمرٌ، فإني أرجو أن ينفذ الله مشيئتي، وإن تغدو عليَّ مَنِيَّةٌ فقد علم اللهُ الذي أريد. (تاريخ الإسلام للذهبي ٢/ ١١٣٤).

٢- التدرج في دعوة الناس:

ومن مجالات تدرجه ﷺ دعوة الناس، فقد تدرج ﷺ في محتوى الدعوة، والمدعوين، ومراحل الدعوة.

فمن تدرجه ﷺ في محتوى الدعوة وصيته لمعاذ ﵁ حين بعثه داعيًا، فعن ابن عباس ﵄ أن رسول الله ﷺ لما بعث معاذًا ﵁ على اليمن قال: «إنك تقدمُ على قومٍ أهل كتاب، فليكن أول ما تدعوهم إليه عبادة الله، فإذا عرفوا الله فأخبرهم أن الله قد فرض عليهم خمس صلوات في يومهم وليلتهم، فإذا فعلوا فأخبرهم أن الله فرض عليهم زكاة من أموالهم وترد على فقرائهم، فإذا أطاعوا بها فخذ منهم وتوقَّ كرائم أموال الناس». (أخرجه البخاري ١٤٥٨، ومسلم ١٩).

وتدرَّج ﷺ في المدعوين فبدأ بعشيرته الأقربين، ثم قومه، ثم سائر العرب.

وتدرَّج في مراحل دعوته؛ فبدأ بالدعوة السرية، ثم الجهرية، ثم الجهاد بمراتبه.

ويؤكد شيخ الإسلام رحمه الله على بقاء مبدأ التدرج في الدعوة، فيقول: «فإذا حصل من يقوم بالدين من العلماء أو الأمراء أو مجموعهما كان بيانه لما جاء به الرسول ﷺ شيئًا فشيئًا بمنزلة بيان الرسول لما بُعث به شيئًا فشيئًا، ومعلوم أن الرسول لا يبلغ إلا ما أمكن علمه والعمل به، ولم تأت الشريعة جملة، كما يقال: إذا أردت أن تطاع فأمر بما يستطاع، فكذلك المجدد لدينه والمحيي لسنته لا يبلغ إلا ما أمكن علمه والعمل به، كما أن الداخل في الإسلام لا يمكن حين دخوله أن يلقن جميع شرائعه ويؤمر بها كلها، وكذلك التائب

من الذنوب والمتعلم والمسترشد لا يمكن في أول الأمر أن يؤمر بجميع الدين ويذكر له جميع العلم؛ فإنه لا يطيق ذلك، وإذا لم يطقه لم يكن واجبًا عليه في هذه الحال، وإذا لم يكن واجبًا لم يكن للعالم والأمير أن يوجبه جميعه ابتداءً، بل يعفو عن الأمر والنهي بما لا يمكن علمه وعمله إلى وقت الإمكان، كما عفا الرسول ﷺ عما عفا عنه إلى وقت بيانه، ولا يكون ذلك من باب إقرار المحرمات وترك الأمر بالواجبات؛ لأن الوجوب والتحريم مشروط بإمكان العلم والعمل، وقد فرضنا انتفاء هذا الشرط، فتدبر هذا الأصل؛ فإنه نافع». (مجموع الفتاوى ٢٠/ ٥٩-٦٠).

٣- التدرج في العقوبة:

وكما كان التدرج في التشريع والدعوة، فقد أمر به ﷺ في عقوبة من ارتكب ما يوجب ذلك؛ فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ: «إذا زنت الأَمَة فتبين زناها فليجلدها ولا يُثَرِّب، ثم إن زنت فليجلدها ولا يُثَرِّب، ثم إن زنت الثالثة فليبعها ولو بحبل من شعر». (أخرجه البخاري ٢١٥٢، ومسلم ١٧٠٣).

وقد جاء في كتاب الله عز وجل الأمر بالتدرج في عقوبة الزوجة حين يُخاف نشوزها، فقال سبحانه وتعالى: ﴿فَالصَّالِحَاتُ قَانِتَاتٌ حَافِظَاتٌ لِلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللَّهُ وَاللَّاتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ وَاضْرِبُوهُنَّ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا﴾ (النساء: ٣٤).

٤ - توجيه المربين للتدرج:

ولم يكن التدرج لدى النبي ﷺ قاصرًا على هديه العملي، فقد وجَّه الآباء إلى التدرج في تربية أولادهم على الصلاة، عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «مُرُوا أولادكم بالصلاة وهم أبناء سبع سنين، واضربوهم عليها وهم أبناء عشر، وفرِّقوا بينهم في المضاجع». (أخرجه أبو داود ٤٩٥، وأحمد ٦٦٨٩).

ومعلوم أن وجوب الصلاة كسائر الأحكام إنما هو بعد البلوغ، لكن لأهمية الصلاة، وأنها تتطلب التعويد عليها أُمر الصغير بها ثلاث سنوات، ثم عوقب على تركها رغم أنها لا تجب عليه، وقرر الخطيب البغدادي أن «الأمر بالصلاة والضرب عليها إنما هو على وجه الرياضة، لا على وجه الوجوب». (الكفاية في علم الرواية ١/ ٦٣).

الواقعية

جاء هذا الدين للناس كافة، وجاءت الشريعة الإسلامية ناسخة لما قبلها من الشرائع وصالحة لكل زمان ومكان، ومن هنا كان هذا الدين بعقائده وشرائعه وآدابه ملائمًا لواقع الناس وحياتهم؛ فالناس في أي زمان كانوا وتحت أي ظرف أو مكان قادرون على أن يتمثلوا هذا الدين ويلتزموا بشرائعه.

ومن أهم صور الواقعية في التربية النبوية ما يلي:

١ - واقعية الشريعة:

تتجلي الواقعية في منهج النبي ﷺ في تربية أمته في واقعية الشريعة ابتداء، فقد جاء ﷺ بالتيسير، ووضع عن أمته الآصار والأغلال التي كانت على من سبقهم، كما قال سبحانه: ﴿ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ (الأعراف: ١٥٧).

وعنتُ الناس ومشقتُهم أمر يعزُّ على محمد ﷺ، وقد وصفه ربه تبارك وتعالى بقوله: ﴿ لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ التوبة: ١٢٨.

كما تجلت تلك الواقعية في توجيهاته ﷺ، وتعامله مع أصحابه، وخطابه لأمته، وقد أوصاه أخوه موسى عليه السلام بذلك، وخبَّره بما لقيه من بني إسرائيل وما عاشه من تجربة معهم، كما حدثنا عن ذلك ﷺ، فقد سأله موسى حين لقيه في الإسراء: «ما فرض الله لك على أمتك؟ قلت: فَرَضَ خمسين صلاة، قال: فارجع إلى ربك؛ فإن أمتك لا تطيق

ذلك، فراجعني، فوضع شطرها، فرجعت إلى موسى، قلت: وضع شطرها، فقال: راجع ربك؛ فإن أمتك لا تطيق، فراجعت فوضع شطرها، فرجعت إليه، فقال: ارجع إلى ربك، فإن أمتك لا تطيق ذلك، فراجعته، فقال: هي خمس، وهي خمسون، لا يُبَدَّلُ القول لدي، فرجعت إلى موسى، فقال: راجع ربك، فقلت: استحييت من ربي». (أخرجه البخاري ٣٤٩، ومسلم ١٦٢).

٢- مشروعية التوبة:

شرع الله عز وجل التوبة، وأمر بها ﷺ وحث عليها، وبيَّن لأصحابه فضائلها ومنزلتها، عن أنس بن مالك ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «للهُ أشدُّ فرحًا بتوبة عبده حين يتوب إليه، من أحدكم كان على راحلته بأرض فلاة، فانفلتت منه وعليها طعامه وشرابه، فأيس منها، فأتى شجرة، فاضطجع في ظلها، قد أيس من راحلته، فبينا هو كذلك إذا هو بها، قائمة عنده، فأخذ بخطامها، ثم قال- من شدة الفرح-: اللهم أنت عبدي، وأنا ربك، أخطأ من شدة الفرح». (أخرجه مسلم ٢٧٤٧).

وأخرجه البخاري (٦٣٠٨)، ومسلم (٢٧٤٤) من حديث عبد الله بن مسعود ﷺ بلفظ: «للهُ أفرح بتوبة عبده من رجل نزل منزلًا وبه مهلكة، ومعه راحلته، عليها طعامه وشرابه، فوضع رأسه فنام نومة، فاستيقظ وقد ذهبت راحلته، حتى إذا اشتد عليه الحر والعطش أو ما شاء الله، قال: أرجع إلى مكاني، فرجع فنام نومة، ثم رفع رأسه، فإذا راحلته عنده».

وحدَّثهم ﷺ عن حال عبد تكرر منه الذنب، فعن أبي هريرة ﷺ، عن النبي ﷺ فيما يحكي عن ربه عز وجل، قال: «أذنب عبد ذنبًا، فقال: اللهم اغفر لي ذنبي، فقال تبارك وتعالى: أذنب عبدي ذنبًا، فعلم أن له ربًّا يغفر الذنب، ويأخذ بالذنب، ثم عاد فأذنب، فقال: أي رب اغفر لي ذنبي، فقال تبارك وتعالى: عبدي أذنب ذنبًا، فعلم أن له ربًّا يغفر الذنب،

ويأخذ بالذنب، ثم عاد فأذنب فقال: أي رب اغفر لي ذنبي، فقال تبارك وتعالى: أذنب عبدي ذنبًا، فعلم أن له ربًّا يغفر الذنب، ويأخذ بالذنب، اعمل ما شئت فقد غفرت لك»، قال عبد الأعلى: لا أدري أقال في الثالثة أو الرابعة: «اعمل ما شئت». (أخرجه مسلم ٢٧٥٨).

وليس هذا مقام إيراد أحاديث التوبة وفضلها والحث عليها، والقصد أن تقريرَ مشروعية التوبة وبيان فضلها تقريرٌ لوقوع الذنوب من البشر، وأنهم لا يسلمون من ذلك.

كما حثهم ﷺ على الاستغفار، وأمر به في العديد من مواطن الذكر المقيد، فأمر به في الصلاة، وبعد المكتوبة، وعند الصباح والمساء وغير ذلك من المواطن.

٣- تقريره ﷺ وقوع الذنوب من الناس:

قرَّر النبي ﷺ وقوع الذنب والخطأ من ابن آدم، وأنه مهما بلغ من التقوى فلن يصل إلى حالة لا يقارف فيها ذنبًا، عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «والذي نفسي بيده لو لم تذنبوا لذهب الله بكم، ولجاء بقوم يذنبون فيستغفرون الله، فيغفر لهم». (أخرجه مسلم ٢٧٤٩).

وحين حضرتْ أبا أيوب الأنصاري ﷺ الوفاةُ قال: كنت كتمت عنكم شيئًا سمعته من رسول الله ﷺ، سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لولا أنكم تذنبون لخلق الله خلقًا يذنبون يغفر لهم». (أخرجه مسلم ٢٧٤٨).

وعن أنس ﷺ أن النبي ﷺ: «كل ابن آدم خطاء، وخير الخطائين التوابون». (أخرجه الترمذي ٢٤٩٩، وابن ماجه ٤٢٥١، وأحمد ١٣٠٤٩).

إن تقرير النبي ﷺ لوقوع الأخطاء من أمته ليس دعوة لمعصية، ولا لتهوين مراقبة الله عز وجل وخشيته، إنما هو بيان لطبيعة البشر، حتى لا يجهد الإنسان نفسه في تحصيل كمال يستحيل عليه إدراكه.

وهي دعوة للمربين ولكل من يعنيه شأن الناس للأخذ بالسعة والرفق، وفهم طبيعة الإنسان وواقعه.

ومن المهم مراعاة التوازن هنا، والنظر إلى النصوص جملة؛ فالإفراط في النظر إلى النصوص التي تقرر وقوع الذنوب من البشر قد يؤدي للاستهانة بالذنوب، والإفراط في الترهيب- دون النظر إلى أحاديث الرجاء والتوبة- قد يؤدي إلى القنوط من رحمة الله عز وجل.

٤- وقوع الأخطاء من أصحابه في عصره:

وتتمثل واقعية المنهج التربوي النبوي في مخرجات تربيته ﷺ، فحين تقرأ سيرته تجد أن أصحابه رضوان الله عليهم برغم ما بلغوه من صفاء ونقاء سريرة، وما كانوا عليه من صلاح وتقى بدرت منهم هفوات وزلات جاء التصريح بها في القرآن الكريم، ومن ذلك ما يلي:

- ما جاء في سورة الأنفال من خطاب لأهل بدر صفوة الأمة وخيرتها، قال تعالى: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ﴾ (الأنفال: ١)، وقوله: ﴿وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ﴾ (الأنفال: ٧)، وقال سبحانه: ﴿لَوْلَا كِتَابٌ مِنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ (الأنفال: ٦٨).

- وما جاء في سورة آل عمران خطابًا لأهل أحد ﷺ: ﴿إِذْ هَمَّتْ طَائِفَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلَا وَاللَّهُ وَلِيُّهُمَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ (آل عمران: ١٢٢)، وقوله: ﴿حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا أَرَاكُمْ مَا تُحِبُّونَ مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥٢﴾ إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُونَ عَلَى أَحَدٍ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أُخْرَاكُمْ فَأَثَابَكُمْ غَمًّا بِغَمٍّ لِكَيْلَا تَحْزَنُوا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَا أَصَابَكُمْ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ (آل عمران: ١٥٢ - ١٥٣).

- وما جاء في سورة التوبة بشأن حُنَيْن: ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ ﴿٢٦﴾﴾ (التوبة: ٢٥ - ٢٦).

ولكن هذه المواقف وغيرها لا يجوز أن تكون مدخلًا للانتقاص من أصحاب رسول الله ﷺ، فضلًا عن الطعن فيهم، فقد تاب الله عليهم، قال عز وجل: ﴿لَّقَد تَّابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِن بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ (التوبة: ١١٧)، ووعدهم الله عز وجل الحسنى، فقال سبحانه: ﴿لَا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُولَٰئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ الَّذِينَ أَنفَقُوا مِن بَعْدُ وَقَاتَلُوا وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ (الحديد: ١٠).

وقال فيهم: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ (الفتح: ٢٩).

وليس هذا مجال تسطير فضائلهم ومناقبهم، لكن يتأكد الاعتناء ببيان فضائلهم ومناقبهم حين يقتضي المقام الإشارة إلى ما حصل من بعضهم باعتبار بشريتهم، وكيف تعامل ﷺ مع تلك المواقف، وبخاصة أن بعض المعاصرين تحصل منه جرأة على مقام الصحابة، وسوء أدب معهم، وأنّى لمن بضاعته من العلم والعمل مُزْجَاة أن يطلق قلمه في الحديث عن أصحاب النبي ﷺ بما يخرج عن مقام الأدب والتبجيل والتوقير لهم رضوان الله عليهم.

٥- واقعيته في أخذ النفس بالعزيمة في العبادة:

أنكر ﷺ على من بالغ في أخذ نفسه بالعزيمة في العبادة؛ فعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال: قال لي رسول الله ﷺ: «يا عبد الله، ألم أخبر أنك تصوم النهار، وتقوم الليل؟»، فقلت: بلى يا رسول الله، قال: «فلا تفعل، صم وأفطر، وقم ونم؛ فإن لجسدك عليك حقًّا، وإن لعينك عليك حقًّا، وإن لزوجك عليك حقًّا، وإن لِزَوْرِكَ عليك حَقًّا، وإن بحسبك أن تصوم كل شهر ثلاثة أيام؛ فإن لك بكل حسنة عشر أمثالها، فإن ذلك صيام الدهر كله»، فشددت، فشدد عليَّ، قلت: يا رسول الله إني أجد قوة قال: «فصم صيام نبي الله داود عليه السلام، ولا تزد عليه»، قلت: وما كان صيام نبي الله داود عليه السلام؟ قال: «نصف الدهر»، فكان عبد الله يقول- بعد ما كبر-: يا ليتني قبلتُ رخصة النبي ﷺ. (أخرجه البخاري ١٩٧٥، ومسلم١١٥٩).

وأنكر ﷺ على زينب رضي الله عنها مبالغتها في التعبُّد، عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: دخل النبي ﷺ فإذا حبل ممدود بين الساريتين، فقال: ما هذا الحبل؟ قالوا: هذا حبل لزينب فإذا فترت تعلقت، فقال النبي ﷺ: «لا، حُلُّوهُ، ليصلِّ أحدُكُمْ نشاطَه، فإذا فتر فليقعد». (أخرجه البخاري ١١٥٠، ومسلم ٧٨٤).

إن العبادة تمثِّل صلة العبد بربه عز وجل، وهي إشراقة الروح وسمو النفس، وحاجة العبد إليها أشد من حاجته للطعام والشراب، ومع ذلك يؤكد النبي ﷺ على أصحابه الواقعية في التعامل مع النفس في ذلك، ويصحح ما قد يبدر من بعضهم من مبالغةٍ في التعبد.

وتعلَّم أصحابه رضوان الله عليهم هذا الهدي وتلك التربية؛ فتواصوا بهذا المنهج، فكان للمؤاخاة التي عقدها بينهم أثر تربوي.

تروي كتب السنة النبوية ما حدث بين سلمان وأبي الدرداء رضي الله عنهما؛ فعن عون بن أبي جحيفة، عن أبيه، قال: آخى النبي ﷺ بين سلمان، وأبي الدرداء، فزار سلمانُ أبا الدرداء، فرأى أمَّ الدرداء متبذِّلَة، فقال لها: ما شأنك؟ قالت: أخوك أبو الدرداء ليس له حاجة في الدنيا، فجاء أبو الدرداء فصنع له طعامًا، فقال: كل؟ قال: فإني صائم، قال: ما أنا بآكل حتى تأكل، قال: فأكل، فلما كان الليل ذهب أبو الدرداء يقوم، قال: نم، فنام، ثم ذهب يقوم، فقال: نم، فلما كان من آخر الليل قال سلمان: قم الآن، فصليا فقال له سلمان: إن لربك عليك حقًّا، ولنفسك عليك حقًّا، ولأهلك عليك حقًّا، فأعط كل ذي حق حقه، فأتى النبي ﷺ، فذكر ذلك له، فقال النبي ﷺ: «صدق سلمان». أخرجه البخاري (١٩٦٨).

لقد تعلم سلمان رضي الله عنه هذا المعنى من محمد ﷺ، وتربى عليه، وسعى لنقله إلى أخيه فأقره ﷺ على ذلك.

٦- تجاوزه عن الهفوات:

ثمة أخطاء وهفوات هي جزء من الطبيعة البشرية، والمربي الواقعي الذي يعرف طبيعة النفس البشرية لا يحفل بمثل هذا الهفوات ولا يقف عندها.

تركت حادثة الإفك أثرها على أصحاب رسول الله ﷺ، وتألَّموا لما أثير على بيت النبوة، كيف لا وهو محمد ﷺ، وتلك هي زوجه، وأمهم؟!

ومما جاء في خبر تلك الحادثة: فقام رسول الله ﷺ من يومه، فاستعذر من عبد الله بن أبي ابن سلول، فقال رسول الله ﷺ: «من يعذرني من رجل بلغني أذاه في أهلي، فوالله ما علمت على أهلي إلا خيرًا؟ وقد ذكروا رجلًا ما علمت عليه إلا خيرًا، وما كان يدخل على أهلي إلا معي»، فقام سعد بن معاذ، فقال: يا رسول الله، أنا والله أعذرك منه، إن كان

من الأوس ضربنا عنقه، وإن كان من إخواننا من الخزرج أمرتنا، ففعلنا فيه أمرك، فقام سعد بن عبادة- وهو سيد الخزرج، وكان قبل ذلك رجلًا صالحًا، ولكن احتملته الحمية- فقال: كذبت لعمر الله، لا تقتله، ولا تقدر على ذلك، فقام أسيد بن حضير، فقال: كذبت لعمر الله، والله لنقتلنَّه؛ فإنك منافق تجادل عن المنافقين، فثار الحيَّان: الأوس، والخزرج، حتى همُّوا، ورسول الله ﷺ على المنبر، فنزل، فخفضهم حتى سكتوا، وسكت. (أخرجه البخاري ٢٦٦١، ومسلم ٢٧٧٠).

لقد كان ﷺ بواقعيته يدرك طبيعة النفوس وطبيعة تلك الأجواء المشحونة، فتفهَّم ما صدر عن أصحابه رضوان الله عليهم، ولم يقف كثيرًا عند هذه المواقف، بل اكتفى بتلافي انقلاب الأمر إلى خصومة وصراع.

٧- واقعيته في التعامل مع العلاقات الاجتماعية:

طبيعة الحياة الاجتماعية تقتضي زوال التكلُّف والتعامل بعفوية، وتذيب طولُ المعاشرة فيها كثيرًا من الحواجز، وتزيل الكُلفة والتحفظ في التعامل مع الطرف الآخر.

وبيت النبوة كغيره من البيوت، ونساؤه ﷺ كسائر الناس، فيحصل منهن ما يحصل من المرأة في بيتها.

يحدثنا عن ذلك عمر ﷺ، فيقول: وكنا معشر قريش نغلب النساء، فلما قدمنا على الأنصار إذا هم قوم تغلبهم نساؤهم، فطفق نساؤنا يأخذن من أدب نساء الأنصار، فصحتُ على امرأتي، فراجعتني، فأنكرت أن تراجعني، فقالت: ولم تنكر أن أراجعك، فوالله إن أزواج النبي ﷺ ليراجعنه، وإن إحداهن لتهجره اليوم حتى الليل، فأفزعني، فقلت: خابت من فعل منهن بعظيم، ثم جمعت عليَّ ثيابي، فدخلت على حفصة، فقلت: أي حفصة أتغاضب إحداكن رسول الله ﷺ اليوم حتى الليل؟ فقالت: نعم، فقلت:

خابت وخسرت أفتأمن أن يغضب الله لغضب رسوله ﷺ، فتهلكين؟! لا تستكثري على رسول الله ﷺ، ولا تراجعيه في شيء، ولا تهجريه، واسأليني ما بدا لك، ولا يغرنك أن كانت جارتك هي أوضأ منك، وأحب إلى رسول الله ﷺ.(أخرجه البخاري ٢٤٦٨).

أدرك ﷺ طبيعة المرأة، وأنها قد تهجر وتسخط وتغلبها طبيعتها البشرية، فلم يكن ﷺ يقف عند ذلك، أو يعده إخلالًا بالحق الواجب، أو خطيئة تستوجب العقاب.

وفي بيت آخر قريب من بيت النبوة نقرأ هذا الموقف، عن سهل بن سعد ؓ قال: جاء رسول الله ﷺ بيت فاطمة فلم يجد عليًا في البيت، فقال: «أين ابن عمك؟» قالت: كان بيني وبينه شيء، فغاضبني، فخرج، فلم يَقِل عندي، فقال رسول الله ﷺ لإنسان: «انظر أين هو؟» فجاء فقال: يا رسول الله، هو في المسجد راقد، فجاء رسول الله ﷺ وهو مضطجع، قد سقط رداؤه عن شقه، وأصابه تراب، فجعل رسول الله ﷺ يمسحه عنه، ويقول: «قم أبا تراب، قم أبا تراب» (أخرجه البخاري ٤٤١، ومسلم ٢٤٠٩).

اطلع ﷺ على هذا الموقف بين ابنته وابن عمه، واكتفى بالسؤال عن علي ؓ وإيقاظه، وأمرَّ الموقف، فلم يعنف ابنته أو ابن عمه.

والذين يُصرُّون على الصورة المثالية في الحياة الاجتماعية يهدمون بيوتهم وأسرهم؛ إذ يرسمون صورة حالمة يحاسبون أنفسهم أو شريكهم على أساس هذه الصورة.

كما أن بعض المتصدرين للشأن الاجتماعي والأسري، يبالغون في رسم صورة حالمة عن الحياة الأسرية، فتصبح تلك الصورة معيارًا يحاكم كل طرف العلاقة الزوجية شريكه على ضوئها.

٨- مراعاته لواقع الناس في تطبيق الأحكام الشرعية:

وفي تطبيق الأحكام الشرعية كان ﷺ يراعي واقع الناس، فقد امتنع ﷺ عن هدم

الكعبة وبنائها على قواعد إبراهيم؛ لحداثة قومه بالكفر، عن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ قال لها: «ألم تري أن قومك لما بنوا الكعبة اقتصروا عن قواعد إبراهيم؟»، فقلت: يا رسول الله، ألا تردها على قواعد إبراهيم؟ قال: «لولا حدثان قومك بالكفر لفعلت» فقال عبد الله رضي الله عنه: لئن كانت عائشة رضي الله عنها سمعت هذا من رسول الله ﷺ، ما أرى رسول الله ﷺ ترك استلام الركنين اللذين يليان الحجر، إلا أن البيت لم يتمم على قواعد إبراهيم. (أخرجه البخاري ١٥٨٣، ومسلم ١٣٣٣).

قال النووي: «وفي هذا الحديث دليل لقواعد من الأحكام، منها: إذا تعارضت المصالح، أو تعارضت مصلحة ومفسدة، وتعذر الجمع بين فعل المصلحة وترك المفسدة بدئ بالأهم؛ لأن النبي ﷺ أخبر أن نقض الكعبة وردها إلى ما كانت عليه من قواعد إبراهيم ﷺ مصلحة، ولكن تعارضه مفسدة أعظم منه، وهي خوف فتنة بعض من أسلم قريبًا؛ وذلك لما كانوا يعتقدونه من فضل الكعبة فيرون تغييرها عظيما فتركها ﷺ». (شرح صحيح مسلم ٩/ ٨٩).

كما امتنع ﷺ عن قتل المنافقين معلِّلًا ذلك بمراعاة واقع الناس، عن عمرو بن دينار، أنه سمع جابرًا رضي الله عنه يقول: غزونا مع النبي ﷺ، وقد ثاب معه ناس من المهاجرين حتى كثروا، وكان من المهاجرين رجل لعَّاب، فكسع أنصاريًّا، فغضب الأنصاري غضبًا شديدًا حتى تداعوا، وقال الأنصاري: يا للأنصار، وقال المهاجري: يا للمهاجرين، فخرج النبي ﷺ، فقال: «ما بال دعوى أهل الجاهلية؟ ثم قال: ما شأنهم» فأخبر بكسعة المهاجري الأنصاري، قال: فقال النبي ﷺ: «دعوها فإنها خبيثة»، وقال عبد الله بن أبي ابن سلول: أقد تداعوا علينا، لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل، فقال عمر: ألا نقتل يا رسول الله هذا الخبيث؟ لعبد الله، فقال النبي ﷺ: «لا يتحدث الناس أنه كان يقتل أصحابه». (أخرجه البخاري ٣٥١٨، ومسلم ٢٥٨٤).

٩- مراعاته لواقع الناس في تطبيق العبادات:

كانت الصلاة قرة عين النبي ﷺ، وهي ملجؤه إذا حزبه أمر، ومع ذلك كان يراعي واقع الناس وطبيعتهم، فهو ﷺ يريد إطالة الصلاة؛ لأنه يتلذذ بمناجاة ربه، وليسمع أصحابه منه كتاب الله، لكنه يدع عن ذلك مراعاة لواقع الناس.

عن عبد الله بن أبي قتادة، عن أبيه أبي قتادة ﷺ، عن النبي ﷺ قال: «إني لأقوم في الصلاة أريد أن أطول فيها، فأسمع بكاء الصبي، فأتجوز في صلاتي؛ كراهية أن أشق على أمه» (أخرجه البخاري ٧٠٧).

وعن قتادة، عن أنس بن مالك ﷺ أن النبي ﷺ قال: «إني لأدخل في الصلاة وأنا أريد إطالتها، فأسمع بكاء الصبي، فأتجوز في صلاتي مما أعلم من شدة وجد أمه من بكائه» (أخرجه البخاري ٧٠٩، ومسلم ٧٤٠).

ويحب ﷺ أن يصلي هو وأصحابه في الوقت الفاضل، لكن ذلك يشق على الناس فيراعي ﷺ حالهم، يحدثنا عن ذلك ابن عباس ﷺ فيقول: أعتم رسول الله ﷺ ليلة بالعشاء، حتى رقد الناس واستيقظوا، ورقدوا واستيقظوا، فقام عمر بن الخطاب فقال: الصلاة- قال عطاء: قال ابن عباس-: فخرج نبي الله ﷺ، كأني أنظر إليه الآن، يقطر رأسه ماء، واضعًا يده على رأسه، فقال: «لولا أن أشق على أمتي، لأمرتهم أن يصلوها هكذا». (أخرجه البخاري ٥٧١).

وعن عائشة ﷺ قالت: أعتم النبي ﷺ ذات ليلة حتى ذهب عامة الليل، وحتى نام أهل المسجد، ثم خرج فصلى، فقال: «إنه لوقتها لولا أن أشق على أمتي». (أخرجه مسلم ٦٣٨، وأصله في البخاري).

وفي وقت إقامة الصلاة كان يراعي تقدمهم وتأخرهم، وفي حديث جابر ﷺ في صلاة

النبي ﷺ قال: والعشاء أحيانًا وأحيانًا، إذا رآهم اجتمعوا عَجَّل، وإذا رآهم أبطؤوا أَخَّر. (أخرجه البخاري ٥٦٠، ومسلم ٦٤٦).

١٠- تجاوزه عن بعض أخطاء أصحابه:

عن أنس ﷺ قال كان النبي ﷺ عند بعض نسائه، فأرسلت إحدى أمهات المؤمنين بصحفة فيها طعام، فضربت التي النبي ﷺ في بيتها يد الخادم، فسقطت الصحفة فانفلقت، فجمع النبي ﷺ فلق الصحفة، ثم جعل يجمع فيها الطعام الذي كان في الصحفة، ويقول: «غارت أمكم»، ثم حبس الخادم حتى أتي بصحفة من عند التي هو في بيتها، فدفع الصحفة الصحيحة إلى التي كسرت صحفتها، وأمسك المكسورة في بيت التي كسرت. (أخرجه البخاري ٥٢٢٥).

قال ابن حجر: «المراد- بقوله: أمكم- كاسرة الصحفة، وعلى هذا حمله جميع من شرح هذا الحديث، وقالوا: فيه إشارة إلى عدم مؤاخذة الغيراء بما يصدر منها؛ لأنها في تلك الحالة يكون عقلها محجوبًا بشدة الغضب الذي أثارته الغيرة، وقد أخرج أبو يعلى بسند لا بأس به عن عائشة مرفوعًا: «إن الغيرَى لا تبصر أسفل الوادي من أعلاه»[(١)]. (فتح الباري ٩/ ٣٢٥).

وكان ﷺ يتجاوز عما يصدر من خادمه ﷺ، عن أنس ﷺ قال: خدمت النبي ﷺ عشر سنين، فما قال لي: أفٍّ، ولا: لِمَ صنعت؟ ولا ألا صنعت؟. (أخرجه البخاري ٦٠٣٨، ومسلم ٢٣٠٩).

وفي رواية عند أحمد (١٣٤١٨): خدمت النبي ﷺ عشر سنين، فما أمرني بأمر فتوانيت عنه أو ضيعته فلامني، فإن لامني أحدٌ من أهل بيته إلا قال: «دعوه؛ فلو قُدِّر» أو قال: «لو قُضِي أن يكون كان».

---

(١) مسند أبي يعلى ٤٦٧٠.

وكما كان ﷺ واقعيًا في تعامله مع خادمه فقد راعى ذلك في موقفه من تعامل أصحابه مع خدمهم.

عن أسماء بنت أبي بكر، قالت: خرجنا مع رسول الله ﷺ حُجَّاجًا، حتى إذا كنا بالعرج نزل رسول الله ﷺ ونزلنا، فجلست عائشة إلى جنب رسول الله ﷺ وجلست إلى جنب أبي، وكانت زمالة أبي بكر وزمالة رسول الله ﷺ واحدة مع غلام لأبي بكر، فجلس أبو بكر ينتظر أن يطلع عليه، فطلع وليس معه بعيره، قال: أين بعيرك؟ قال: أضللته البارحة، قال: فقال أبو بكر: بعير واحد تضله؟ قال فطفق أبو بكر يضربه ورسول الله ﷺ يتبسم، ويقول: «انظروا إلى هذا المحرم ما يصنع؟» قال ابن أبي رزمة: فما يزيد رسول الله ﷺ على أن يقول: «انظروا الى هذا المحرم ما يصنع؟» ويتبسم. (أخرجه أبو داود ١٨١٨، وابن ماجه ٢٩٣٣، وأحمد ٢٦٩١٦).

ومن واقعيته ﷺ مراعاته للطبيعة البشرية، ووقوع الخطأ من الإنسان، فيدعو أصحابه إلى حسن التعامل مع من يقع في الخطأ، وتجنب إعانة الشيطان عليه، عن أبي هريرة ﵁ قال: أُتي النبي ﷺ برجل قد شرب، قال: «اضربوه» قال أبو هريرة: فمنا الضارب بيده، والضارب بنعله، والضارب بثوبه، فلما انصرف، قال بعض القوم: أخزاك الله، قال: «لا تقولوا هكذا، لا تعينوا عليه الشيطان». (أخرجه البخاري ٦٧٧٧).

التربية الإيجابية والقيادية

المنهج التربوي النبوي منهج واقعي عملي، لم يكن ليكتفي بالتوجيه النظري والتأصيل العلمي، إنما عاش محمد ﷺ- كإخوانه من الأنبياء- مع الناس، وعلّمهم وزكّاهم وربّاهم، حتى خرجت تلك التربية النبوية أفضل نموذج بشري، وخير مجتمع عرفته البشرية.

أسهمت تلك التربية النبوية في تخريج جيل فاعل ترك أثره على تاريخ الأمة أجمع، وليس على ذاك القرن الذي عاش فيه؛ لذا كانت التربية الإيجابية سمةً للتربية النبوية.

تعني التربية الإيجابية والقيادية تلك الممارسات التربوية التي تقود المتربين؛ ليكونوا منتجين مؤثرين في حياتهم ومجتمعاتهم.

وتتمثل تلك التربية في مستويين:

الأول: يستهدف جمهور المتربين، وذلك بتنشئتهم على الفاعلية والإيجابية؛ فينشأ الفرد إيجابيًّا، مؤثرًا في مجتمعه، أيًّا كان مستوى هذا التأثير.

الثاني: يستهدف النخبة والخاصة من المتربين، وذلك باصطفاء من يملكون سمات أعلى، وتخصيصهم بمزيد من التربية والرعاية؛ ليكونوا قادة فاعلين في مجتمعاتهم، وتتنوع القيادة لتشمل المجال الإداري والسياسي، والعسكري، والعلمي، والاجتماعي.

ويقابل التربية الإيجابية التربية السلبية التي تنظر لسلبيات المتربي وجوانب قصوره أكثر مما تنظر للجانب المشرق لديه، وينعكس أثر تلك النظرة على الأداء التربوي للنموذجين.

ويمكن أن تتمثل مجالات الإيجابية في التربية النبوية في ثلاثة مجالات: الأهداف، والعمليات، والنتائج.

الإيجابية في الأهداف التربوية:

التربية الإيجابية على مستوى الأهداف تعطي أولوية للبناء وتنمية شخصية المتربي والارتقاء بها، أما التربية السلبية فتركز أهدافها على تصحيح الأخطاء، وحماية المتربي مما يؤثر عليه سلبًا.

وحين نعود للتربية النبوية نجد بروز الجانب الإيجابي في الأهداف التربوية، ونلمس ذلك حين ننظر نظرة كلية إلى مواقف التعليم والتوجيه النبوي.

ويتجلى ذلك في اعتنائه ﷺ بتربية الإيمان في نفوس أصحابه، وتعليمهم القرآن الكريم، كما قال جندب بن عبد الله ﷺ: كنا مع النبي ﷺ ونحن فتيان حَزَاوِرَة، فتعلَّمنا الإيمان قبل أن نتعلم القرآن، ثم تعلمنا القرآن فازددنا به إيمانًا. (أخرجه ابن ماجه ٦١).

واستعراض الشواهد على ذلك يطول، وهو أمر جلي يدركه من له أدنى إلمام بسنة النبي ﷺ وسيرته.

الإيجابية في العمليات:

لا يكفي لتحقيق التربية الإيجابية رسم أهداف طموحة؛ فالأهداف لن تتحول إلى واقع إلا من خلال عمليات تربوية، والعمليات التربوية هي الترجمة الحقيقة لما يريد المربي تحقيقه.

وتعني الإيجابية في العمليات التربوية أن يكون الخطاب التربوي إيجابيًّا متفائلًا، يركز على الحوافز والدوافع؛ فنقد الواقع، وبيان المخاطر قد يحفز الناس على العمل، إلا أن علوَّ صوت النقد، وغلبة الخطاب المتشائم الذي يضخم المخاطر والسلبيات ويهمش الإنجاز، لا يمكن أن يوجد جيلًا إيجابيًّا فاعلًا.

كما تعني الإيجابية في العمليات التربوية أن يكون المتربي فاعلًا في الموقف التعليمي، يشارك في التعليم، ويتفاعل في بناء نفسه، لا مجرد متلقٍّ سلبي.

وتعني أن يدُفع به للميدان العملي- بما يتناسب معه- فيعمل ويشارك، ويرى النتائج بعينه؛ فتسره حسنته، وتسوءه سيئته.

ومن صور الإيجابية في العمليات التربوية في المنهج النبوي ما يلي:

أولًا: تولية المسؤوليات العملية:

كان ﷺ يولي أصحابه مسؤوليات ومهام عملية أصبح لها أثر في بناء الشخصية الإيجابية والفاعلية لديهم، وسيرته ﷺ مليئة بالشواهد على ذلك.

ونكتفي في هذا المقام ببعض الشواهد مِن توليته ﷺ المسؤوليات العملية للشباب واليافعين من أصحابه رضوان الله عليهم؛ فهي أكثر دلالة، وأبلغ في بيان اعتنائه ﷺ بالتربية على القيادية والعمل الإيجابي.

وقد تنوعت المسؤوليات التي كان ﷺ يوليها لأصحابه، ومن ذلك ما يلي:

١ - الإمامة في الصلاة:

ولَّى ﷺ طائفة من الشباب من أصحابه مسؤولية الإمامة في الصلاة، والإمامة في الصلاة آنذاك لها شأن مختلف عن واقعنا؛ فهي ليست مجرد وظيفة يتقدم لها من شاء.

ومن صور ذلك تولية عمرو بن سلمة ﷺ الإمامة وهو لما يزل يافعًا، عن أبي قلابة عن عمرو بن سلمة قال: كنا بماءٍ ممرَّ الناس، وكان يمر بنا الرُّكبان، فنسألهم ما للناس، ما للناس، ما هذا الرجل؟ فيقولون: يزعم أن الله أرسله، أوحى إليه، أو أوحى الله بكذا، فكنت أحفظ ذلك الكلام وكأنما يُغرني في صدري، وكانت العرب تَلَوَّم بإسلامهم الفتح، فيقولون: اتركوه وقومه، فإنه إن ظهر عليهم فهو نبي صادق، فلما كانت وقعة أهل الفتح، بادر كل قوم بإسلامهم، وبدر أبي قومي بإسلامهم، فلمَّا قدم، قال: جئتكم والله من عند النبي ﷺ حقًّا، فقال: صلوا صلاة كذا في حين كذا، وصلوا كذا في حين كذا، فإذا حضرت

الصلاة فليؤذن أحدكم وليؤمكم أكثركُم قرآنًا، فنظروا فلم يكن أحد أكثر قرآنًا مني؛ لما كنت أتلقَّى من الركبان، فقدَّموني بين أيديهم وأنا ابن ست سنين أو سبع سنين، وكانت عليَّ بردة كانت إذا سجدت تَقَلَّصَتْ عني، فقالت امرأة من الحي: ألا تغطوا عنا است قارئكم! فاشتروا فقطعوا لي قميصًا، فما فرحت بشيء فرحي بذلك القميص. (أخرجه البخاري ٤٣٠٢).

وقال عن نفسه: «فما شهدت مجمعًا مِنْ جَرْمٍ إلا كنت إمامهم، وأصلي على جنائزهم إلى يومي هذا». (أخرجه أحمد ٢٠٣٣٢).

كما ولى ﷺ عثمان بن أبي العاص ﷺ إمامة قومه، فعنه ﷺ أن النبي ﷺ قال له: «أُمَّ قومك» قال: قلت: يا رسول الله، إني أجد في نفسي شيئًا، قال: «ادنه» فجلسني بين يديه، ثم وضع كفه في صدري بين ثديي، ثم قال: «تحوَّل» فوضعها في ظهري بين كتفي، ثم قال: «أُمَّ قومك، فمن أَمَّ قومًا فليخفف؛ فإن فيهم الكبير، وإن فيهم المريض، وإن فيهم الضعيف، وإن فيهم ذا الحاجة، وإذا صلى أحدكم وحده، فليصل كيف شاء». (أخرجه مسلم ٤٦٨).

٢- الإمارة:

وولى ﷺ الإمارةَ طائفة من شباب أصحابه رضوان الله عليهم، فحين قدم عليه ﷺ وفد ثقيف وكان فيهم عثمان بن أبي العاص ﷺ وهو أصغر الوفد سنًّا ولاه عليهم وأمره بإمامتهم، عن المغيرة بن شعبة ﷺ، قال: قال عثمان بن أبي العاص- وكان شابًّا-: وفدنا على النبي ﷺ فوجدني أفضلهم أخذًا للقرآن، وقد فضلتهم بسورة البقرة، فقال النبي ﷺ: «قد أمَّرتك على أصحابك، وأنت أصغرهم، فإذا أممت قومًا فأُمَّهم بأضعفهم...». (أخرجه الطبراني في الكبير ٨٣٣٦).

وقال ابن سعد عن عثمان ﷺ: قدم عثمان بن أبي العاص على رسول الله ﷺ مع وفد ثقيف وكان أصغر الوفد سنًّا، فكانوا يخلفونه على رحالهم يتعاهدها لهم، فإذا رجعوا من عند رسول الله ﷺوناموا وكانت الهاجرة أتى عثمان رسول الله ﷺ فأسلم قبلهم سرًّا منهم وكتمهم ذلك، وجعل يسأل رسول الله ﷺ عن الدين ويستقرئه القرآن، فقرأ سورًا من في رسول الله ﷺ، وكان إذا وجد رسول الله ﷺ نائمًا عمد إلى أبي بكر فسأله واستقرأه، وإلى أُبيِّ بن كعب ﷺ فسأله واستقرأه، فأعجب به رسول الله ﷺ وأحبه، فلما أسلم الوفد وكتب لهم رسول الله ﷺ الكتاب الذي قاضاهم عليه وأرادوا الرجوع إلى بلادهم قالوا: يا رسول الله أَمِّر علينا رجلًا منَّا، فأمر عليهم عثمان بن أبي العاص وهو أصغرهم؛ لما رأى رسول الله ﷺ من حرصه على الإسلام. (الطبقات الكبرى ٦/ ٤٧-٤٨).

وولَّى ﷺ عتَّاب بنَ أَسيدٍ على مكة وهو شاب، وكان عمره حين استعمل نيفًا وعشرين سنة، وأثبت ﷺ أنه أهلٌ لهذه الإمارة، فعن عمرو بن أبي عقرب قال: سمعت عتَّاب بن أَسيدٍ، وهو مسنِدٌ ظهره إلى بيت الله، يقول: «والله ما أصبت في عملي هذا الذي ولَّاني رسول الله ﷺ إلا ثوبين معقدين كسوتُهما مولايَ كيسان». (الإصابة ٤/ ٣٥٦).

٣- كتابة الوحي:

واختار ﷺ زيد بن ثابت ﷺ لكتابة الوحي، وقد كان غلامًا صغيرًا حين قدم ﷺ المدينة، واقتدى أبو بكر ﷺ بالنبي ﷺ في ذلك، فولَّى زيدًا ﷺ جمع القرآن بعد وفاة النبي ﷺ، مستدلًا بتزكية النبي ﷺ له، فقال له ﷺ: «إنك رجل شاب عاقل ولا نتهمك، كنت تكتب الوحي لرسول الله ﷺ، فتتبع القرآن؛ فاجمعه»، فيشعر زيد ﷺ إذ ذاك بثقل المسئولية وعظم التبعة، فيقول: «فوالله لو كلَّفني نقل جبل من الجبال ما كان أثقل علي مما أمرني به من جمع القرآن». (أخرجه البخاري ٤٦٧٩).

٤ - الترجمة:

كلَّف رسول الله ﷺ زيدَ بن ثابت ﷺ مهمة الترجمة بينه وبين يهود وهو لا زال شابًّا يافعًا، عن خارجة بن زيد أن أباه زيدًا أخبره أنه لما قدم النبي ﷺ المدينة قال زيد: ذُهِبَ بي إلى النبي ﷺ فأعجب بي، فقالوا: يا رسول الله، هذا غلام من بني النجار معه مما أنزل الله عليك بضع عشرة سورة، فأعجب ذلك النبي ﷺ وقال: «يا زيد تعلم لي كتاب يهود؛ فإني والله ما آمن يهود على كتابي»، قال زيد: فتعلمت كتابهم، ما مرت بي خمس عشرة ليلة حتى حذقته، وكنت أقرأ له كتبهم إذا كتبوا إليه، وأجيب عنه إذا كتب. (أخرجه أحمد ٢١٦١٨، والترمذي ٢٧١٥، وأبو داود ٣٦٤٥).

٥ - قيادة الجيوش والسرايا:

وكان ﷺ يولي أصحابه رضوان الله عليهم قيادة الجيوش والسرايا، ومن أعظم هذه المواقف التي يتجلى فيها هذا الأمر توليته ﷺ أسامة بن زيد رضي الله عنهما على جيشٍ لغزو الروم، توفي ﷺ وهو لم يغادر المدينة، فأنفذه أبو بكر ﷺ وهي مهمة صعبة عظيمة ينوء بها الرجال الأشاوس فضلًا عن الشباب.

وكان ﷺ قد أمرَّه قبل ذلك على سرية الحُرَقَاتِ من جُهَيْنَةَ، كما قال ﷺ: بعثنا رسول الله ﷺ إلى الحُرَقَة، فصبَّحنا القوم فهزمناهم، ولحقت أنا ورجل من الأنصار رجلًا منهم، فلما غشيناه قال: لا إله إلا الله، فكف الأنصاري، فطعنته برمحي حتى قتلته، فلما قدمنا بلغ النبي ﷺ فقال: «يا أسامة أقتلتَه بعد ما قال لا إله إلا الله؟» قلت: كان متعوذًا، فما زال يكررها حتى تمنيت أني لم أكن أسلمت قبل ذلك اليوم. (أخرجه البخاري ٤٢٦٩، ومسلم ٩٦).

وأمَّر علي بن أبي طالب ﷺ على سرية، فعن عمران بن حصين رضي الله عنهما قال: بعث رسول الله ﷺ جيشًا واستعمل عليهم علي بن أبي طالب. (أخرجه الترمذي ٣٧١٢).

وأرسل ﷺ أحد الشبان في سرية وهو حمزة بن عمرو الأسلمي، فعنه ﷺ أن رسول الله ﷺ أمَّره على سرية، قال: فخرجت فيها، وقال: «إن وجدتم فلانًا فأحرقوه بالنار»، فوليت فناداني فرجعت إليه، فقال: «إن وجدتم فلانًا فاقتلوه ولا تحرقوه؛ فإنه لا يعذب بالنار إلا رب النار». (أخرجه أبو داود ٢٦٧٣، وأحمد ١٦٠٣٤).

٦-الدعوة:

وولَّى ﷺ طائفة من الشباب من أصحابه مهام في الدعوة، فأرسل معاذًا ﷺ إلى اليمن في القصة المشهورة، عن ابن عباس ﷺ: أن رسول الله ﷺ لما بعث معاذًا ﷺ على اليمن، قال: «إنك تقدم على قوم أهل كتاب، فليكن أول ما تدعوهم إليه عبادة الله، فإذا عرفوا الله، فأخبرهم أن الله قد فرض عليهم خمس صلوات في يومهم وليلتهم، فإذا فعلوا، فأخبرهم أن الله فرض عليهم زكاة من أموالهم وترد على فقرائهم، فإذا أطاعوا بها، فخذ منهم، وتَوَقَّ كرائم أموال الناس». (أخرجه البخاري ١٤٥٨، ومسلم ١٩).

وأَمَّرَ علي بن أبي طالب ﷺ حين بعثه ليهود خيبر بدعوتهم، فقال له: «انفُذْ على رِسْلِك حتى تنزل بساحتهم، ثم ادعهم إلى الإسلام، وأخبرهم بما يجب عليهم، فوالله لأن يهدي الله بك رجلًا خير لك من أن يكون لك حُمر النَّعم». (أخرجه البخاري ٣٠٠٩، ومسلم ٢٤٠٦).

وحين بايعه وفد الأوس والخزرج بيعة العقبة الأولى بعث ﷺ معهم مصعب بن عمير ﷺ إلى المدينة يدعوهم ويعلمهم، قال ابن إسحاق: فلما انصرف عنه القوم، بعث رسول الله ﷺ معهم مصعب بن عمير بن هاشم بن عبد مناف بن عبد الدار بن قصي، وأمره أن يقرئهم القرآن، ويعلمهم الإسلام، ويفقههم في الدين، فكان يسمى المقرئ بالمدينة: مصعب، وكان منزله على أسعد بن زرارة بن عدس، أبي أمامة، قال ابن إسحاق: فحدثني عاصم بن عمر بن قتادة: أنه كان يصلي بهم، وذلك أن الأوس والخزرج كره بعضهم أن يَؤُمَّهُ بعضٌ. (السيرة النبوية لابن هشام ١/ ٤٣٤-٤٣٥).

وعن البراء ﷺ قال: أول من قدم علينا من أصحاب رسول الله ﷺ مصعب بن عمير، وابن أم مكتوم، قال: فجعلا يُقْرِئَانِ الناس القرآن، ثم جاء عمار، وبلال، وسعد. (أخرجه أحمد ١٨٥١٢).

٧- التعليم:

وكان ﷺ يوصي الشباب من أصحابه بتعليم أقوامهم، ومن ذلك ما سبق من إرسال معاذ ﷺ إلى اليمن، ومصعبٍ ﷺ إلى المدينة، فقد كانا داعيَيْن ومعلمَيْن.

وأمر ﷺ أسماء بن حارثة ﷺ بتبليغ قومه صيام عاشوراء، فعن يحيى بن هند بن حارثة، عن أبيه- وكان من أصحاب الحديبية، وأخوه الذي بعثه رسول الله ﷺ يأمر قومه بصيام يوم عاشوراء، وهو أسماء بن حارثة- أن رسول الله ﷺ بعثه فقال: «مُر قومك فليصوموا هذا اليوم» قال: أرأيت إن وجدتهم قد طعموا؟ قال: «فليتموا آخر يومهم». (أخرجه أحمد ١٦٧١٦).

وأمر رسول الله ﷺ مالك بن الحويرث ﷺ ومن معه بتعليم قومهم، فعن مالك بن الحويرث ﷺ قال: أتينا النبي ﷺ ونحن شَبَبَةٌ متقاربون، فأقمنا عنده عشرين ليلة، فظن أنا اشتقنا أهلنا، وسألنا عمن تركنا في أهلنا، فأخبرناه، وكان رفيقًا رحيمًا، فقال: «ارجعوا إلى أهليكم، فعلِّموهم ومروهم، وصلُّوا كما رأيتموني أصلي، وإذا حضرت الصلاة، فليؤذن لكم أحدكم، ثم ليؤمكم أكبركم». (أخرجه البخاري ٦٠٠٨، ومسلم ٦٧٤ دون موضع الشاهد).

٨- الاحتساب على المنكرات:

ويكلِّف ﷺ بعض أصحابه مهمة الاحتساب على المنكرات، فقد بعث عليًا ﷺ بإزالة مظاهر الشرك وما يؤدي إليه، عن أبي الهياج الأسدي، قال: قال لي علي بن أبي طالب: ألا

أبعثك على ما بعثني عليه رسول الله ﷺ؟ «أن لا تدع تمثالًا إلا طمسته، ولا قبرًا مشرفًا إلا سويته». (أخرجه مسلم ٩٦٩).

ثانيًا: الاعتدال في علاج الخطأ:

لا يسلم المبادرون من القصور والوقوع في الخطأ، بل إن المبادرين ربما كانوا أقرب لذلك من غيرهم.

ووقوع الشخص في الخطأ يؤدي في عدد من الحالات إلى الشعور بالفشل والإحباط، والإحساس بالقصور الذاتي؛ مما يتطلب اعتناء المربي بطريقة ردة فعله تجاه الخطأ الواقع من المتربي، وألا يستولي عليه الحرص على تصحيح الخطأ وينسى من أمامه.

والتعامل مع الخطأ لدى المتربين يمكن أن يكون وسيلة للعلاج وتدارك الخطأ، ويمكن أن يكون بخلاف ذلك؛ فيؤدي إلى الإحباط والفشل.

ولقد كان النبي ﷺ يعنى بتصحيح أخطاء أصحابه، وربما أغلظ لأحدهم حين يقتضي المقام ذلك، لكنه كان يراعي الاعتدال في تصحيح الخطأ، ويعين صاحبه على تجاوزه.

فحين قتل أسامة بن زيد ﷺ رجلًا بعد أن قال: لا إله إلا الله، أغلظ له النبي ﷺ القول، ثم بعد ذلك أمَّره ﷺ على جيش يغزو الروم فيه كبار أصحابه رضوان الله عليهم، وسيأتي مزيد تفصيل لذلك عند الحديث عن منهجه ﷺ في التعامل مع الأخطاء.

ثالثًا: تشجيع المبادرات:

كان ﷺ يشجع مبادرات أصحابه، ويحفزهم على ذلك، ومن ذلك ما يلي:

تشجيعه مبادرة سلمان الفارسي ﷺ؛ فقد كانت أول غزوة غزاها مع رسول الله ﷺ هي غزوة الخندق، وأشار على النبي ﷺ بحفر الخندق فقال: «يا رسول الله، إنا إذ كنا

بأرض فارس وتخوفنا الخيل خندقنا علينا، فهل لك يا رسول الله أن نخندق؟». (مغازي الواقدي ٢/ ٤٤٥).

وأثنى ﷺ على من بادر بحمد الله عز وجل والثناء عليه، عن رفاعة بن رافع الزرقي، قال: «كنا يومًا نصلي وراء النبي ﷺ، فلما رفع رأسه من الركعة قال: سمع الله لمن حمده»، قال رجل -وراءه-: ربنا ولك الحمد حمدًا كثيرًا طيبًا مباركًا فيه، فلما انصرف، قال: «من المتكلم؟» قال: أنا، قال: «رأيت بضعة وثلاثين ملَكًا يبتدرونها أيهم يكتبها أول». (أخرجه البخاري ٧٩٩).

وأخرجه مسلم (٦٠٠) من حديث أنس بن مالك ﷺ أن رجلًا جاء فدخل الصف وقد حفزه النفَس، فقال: الحمد لله حمدًا كثيرًا طيبًا مباركًا فيه، فلما قضى رسول الله ﷺ صلاته قال: «أيكم المتكلم بالكلمات؟» فَأَرَمَّ[1] القومُ، فقال: «أيكم المتكلم بها؟ فإنه لم يقل بأسًا»، فقال رجل: جئت وقد حفزني النفَس فقلتها، فقال: «لقد رأيت اثني عشر ملكًا يبتدرونها، أيهم يرفعها».

وحين كان أصحاب النبي ﷺ في سرية واستضافوا قومًا فلم يضيفوهم، فرقى أحدهم سيدهم وأخذ جُعلًا على ذلك أثنى ﷺ على عمله وأيّده، عن أبي سعيد الخدري، ﷺقال: كنا في مسير لنا فنزلنا، فجاءت جارية، فقالت: إن سيد الحي سليم، وإنَّ نَفَرَنَا غُيَّبٌ، فهل منكم راقٍ؟ فقام معها رجل ما كنا نَأْبُنُهُ برقية، فرقاه فبرأ، فأمر له بثلاثين شاة، وسقانا لبنًا، فلما رجع قلنا له: أكنت تحسن رقية- أو كنت ترقي؟- قال: لا، ما رقيت إلا بأم الكتاب، قلنا: لا تحدثوا شيئًا حتى نأتي- أو نسأل- النبي ﷺ، فلما قدمنا المدينة ذكرناه للنبي ﷺ فقال: «وما كان يدريه أنها رقية؟ اقسموا واضربوا لي بسهم». (أخرجه البخاري ٥٠٠٧، ومسلم ٢٢٠١).

---

(١) قال النووي: قوله: «فأرم القوم» هو بفتح الراء وتشديد الميم، أي: سكتوا، قال القاضي عياض: ورواه بعضهم في غير صحيح مسلم، «فأزم» بالزاي المفتوحة وتخفيف الميم من الأزم، وهو الإمساك، وهو صحيح المعنى. (شرح صحيح مسلم ٥/ ٩٧).

وحين تأخر ﷺ على أصحابه فصلوا الصبح أثنى على عملهم ومبادرتهم، فعن المغيرة بن شعبة ﷺ أنه غزا مع رسول الله ﷺ تبوك قال المغيرة: فتبرَّز رسول الله ﷺ قبل الغائط فحملت معه إداوة قبل صلاة الفجر، فلما رجع رسول الله ﷺ إليَّ أخذتُ أهريق على يديه من الإداوة، وغسل يديه ثلاث مرات، ثم غسل وجهه، ثم ذهب يخرج جُبَّتَهُ عن ذراعيه، فضاق كُمَّا جُبَّتِهِ فأدخل يديه في الجبة، حتى أخرج ذراعيه من أسفل الجُبَّة، وغسل ذراعيه إلى المرفقين، ثم توضأ على خُفَّيه، ثم أقبل قال المغيرة: فأقبلت معه حتى نجد الناس قد قدَّموا عبد الرحمن بن عوف فصلى لهم، فأدرك رسول الله ﷺ إحدى الركعتين فصلى مع الناس الركعة الآخرة، فلما سلم عبد الرحمن بن عوف قام رسول الله ﷺ يتم صلاته فأفزع ذلك المسلمين، فأكثروا التسبيح، فلما قضى النبي ﷺ صلاته أقبل عليهم ثم قال: «أحسنتم»، أو قال: «قد أصبتم»، يغبطهم أن صلوا الصلاة لوقتها. (أخرجه مسلم ٢٧٤).

وألمح النبي ﷺ لأبي بصير ﷺ بما يعزز مبادرته، جاء في حديث المسور بن مخرمة ومروان الطويل في قصة الحديبية: ثم رجع النبي ﷺ إلى المدينة، فجاءه أبو بصير رجل من قريش وهو مسلم، فأرسلوا في طلبه رجلين، فقالوا: العهد الذي جعلت لنا، فدفعه إلى الرجلين، فخرجا به حتى بلغا ذا الحليفة، فنزلوا يأكلون من تمر لهم، فقال أبو بصير لأحد الرجلين: والله إني لأرى سيفك هذا يا فلان جيدًا، فاستلَّه الآخر، فقال: أجل، والله إنه لجيد، لقد جربت به، ثم جربت، فقال أبو بصير: أرني أنظر إليه، فأمكنه منه، فضربه حتى برد، وفر الآخر حتى أتى المدينة، فدخل المسجد يعدو، فقال رسول الله ﷺ حين رآه: «لقد رأى هذا ذُعرًا»، فلما انتهى إلى النبي ﷺ قال: قُتل والله صاحبي، وإني لمقتول، فجاء أبو بصير فقال: يا نبي الله، قد- والله- أوفى الله ذمتك، قد رددتني إليهم، ثم أنجاني الله منهم، قال النبي ﷺ: «ويل أُمِّه! مِسْعَرُ حرب، لو كان له أحد» فلما سمع ذلك عرف أنه سيرده إليهم، فخرج حتى أتى سيف البحر قال: وينفلت منهم أبو جندل بن سهيل،

فلحق بأبي بصير، فجعل لا يخرج من قريش رجل قد أسلم إلا لحق بأبي بصير، حتى اجتمعت منهم عصابة، فوالله ما يسمعون بعير خرجت لقريش إلى الشأم إلا اعترضوا لها، فقتلوهم وأخذوا أموالهم، فأرسلت قريش إلى النبي ﷺ تناشده بالله والرحم، لما أرسل، فمن أتاه فهو آمن، فأرسل النبي ﷺ إليهم. (أخرجه البخاري ٢٧٣١).

رابعًا: التعليم الإيجابي:

كان ﷺ إيجابيًا في تعليمه لأصحابه، فمع أنه ﷺ كان يُحذِّرهم، ويخوفهم عقوبة الآخرة، إلا أنه كثيرًا ما كان يرغبهم بنعيم الآخرة وجزاء الدنيا لمن أطاع الله، وسنته ﷺ مليئة بالحث على فضائل الأعمال، وبيان الأجور المترتبة عليها، وسيأتي الحديث عن الترغيب مفصلًا بإذن الله.

وكان ﷺ يثني على من أصاب منهم وأجاد: فيثني ﷺ على من أجاب عن سؤال سأله، كما أثنى على أبي حين سأله أي آية في كتاب الله معك أعظم؟ ويثني على من يحسن السؤال كما أثنى ﷺ على أبي هريرة ﷺ حين سأله من أسعد الناس بشفاعتك؟ ويثني ﷺ على القبائل كما أثنى على أسلم وغفار، وأثنى على الأشعريين، ويثني على الأفراد كما أثنى على أَشَجِّ عبد قيس.... ومواقف الثناء في تعليمه ﷺ لأصحابه أشهر من أن تحصى، وسيأتي الحديث عنها مفصلًا بإذن الله.

إن من يعيشون على لغة الترهيب والتحذير وحدها، ولا يسمعون سوى النقد والحديث عن الأخطاء، ويفتقدون الثناء والتشجيع والتأييد، إن أمثال هؤلاء كثيرًا ما يسيطر عليهم القلق والتوجُّس، ويصبح هاجس الفشل لديهم أعلى من الأمل بالنجاح، ويصعب أن توجد لديهم روح المبادرة والثقة التي تدفع إلى العمل والإبداع والمخاطرة التي لا غنى عنها.

لقد كان التعليم والخطاب النبوي التربوي خطابًا إيجابيًا متوازنًا: يستخدم الترهيب والتحذير في موضعه، ويبين الأخطاء ومواطن القصور، لكنه مع ذلك يرغب ويُحفِّز، ويثني على من يحسن ويصيب؛ فلا غرو أن خرَّج ذلك الجيل الإيجابي الفاعل.

خامسًا: التحفيز على العمل:

كان ﷺ يعنى بتحفيز أصحابه على العمل الصالح الإيجابي وحثهم عليه، وقد تنوعت أساليب التحفيز النبوي على العمل، ومنها ما يلي:

١- تشجيع العمل اليسير:

كان ﷺ يحث أصحابه رضوان الله عليهم على العمل وتبليغ الدين، ولو كان يسيرًا، فعن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما أن النبي ﷺ، قال: «بلِّغوا عني ولو آية، وحدِّثوا عن بني إسرائيل ولا حرج، ومن كذب عليَّ متعمدًا، فليتبوأ مقعده من النار». (أخرجه البخاري ٣٤٦١).

ومثل هذا التوجيه النبوي يحفِّز من يستمعونه على الفاعلية في الدعوة والتبليغ، فينطلق كل منهم في تبليغ ما تعلمه من رسول الله ﷺ من كلام الله أو كلام رسوله ﷺ، ولو كان آية واحدة.

٢- النهي عن احتقار العمل:

وفي مقابل حثِّه ﷺ أصحابه رضوان الله عليهم على العمل ولو كان يسيرًا، فإنه ينهاهم عن احتقار العمل؛ إذ البعض إنما يعوقه عن العمل الاستهانة به واحتقاره، ورغبته في أن يعمل عملًا ذا أثر بالغ، أو لا يعمل شيئًا.

فيحثهم ﷺ على الصدقة والهدية ولو كانت شيئًا يسيرًا، فعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «يا نساء المسلمات، لا تحقرنَّ جارة لجارتها، ولو فِرْسِن شاة». (أخرجه البخاري ٢٥٦٦، ومسلم ١٠٣٠).

كما يحث على الإحسان للآخرين ولو كانت مظاهر الإحسان تفاعلًا وتواصلًا إيجابيًّا، وبشاشة وطلاقة وجه، عن عبد الله بن الصامت، عن أبي ذر ﷺ قال: قال لي النبي ﷺ: «لا تحقرنَّ من المعروف شيئًا، ولو أن تلقى أخاك بوجهٍ طَلْق». (أخرجه مسلم ٢٦٢٦).

وينمِّي ﷺ لديهم الصدقة والبذل معلِّمًا إياهم أن أحدهم يمكنه أن يتصدق بما لا ينقص شيئًا من ماله، عن عبد الله بن الصامت، عن أبي ذر ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يحقرن أحدكم شيئًا من المعروف، وإن لم يجد فليلق أخاه بوجهٍ طَلْق، وإن اشتريت لحمًا أو طبخت قدرًا فأكثرْ مرقتَه واغرف لجارك منه». (أخرجه الترمذي ١٨٣٣).

كما يبين ﷺ لأصحابه تنوع مجالات الإحسان وبذل الخير للآخرين، فعن مالك بن مرثد، عن أبيه، عن أبي ذر ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «تبسُّمك في وجه أخيك لك صدقة، وأمرك بالمعروف ونهيك عن المنكر صدقة، وإرشادك الرجل في أرض الضلال لك صدقة، وبَصَرُكَ للرجل الرديء البصر لك صدقة، وإماطتك الحجر والشوكة والعظم عن الطريق لك صدقة، وإفراغك من دلوك في دلو أخيك لك صدقة». (أخرجه الترمذي ١٩٥٦).

وحين سأله أحد أصحابه عن المعروف ذكر له ﷺ صورًا مما يحتقره كثير من الناس ويستهينون به، عن أبي تميمة الهجيمي، عن رجل من قومه، قال: لقيت رسول الله ﷺ في بعض طرق المدينة، وعليه إزار من قطن منبتر الحاشية، فقلت: عليك السلام يا رسول الله، فقال: «إن عليك السلام تحية الموتى، إن عليك السلام تحية الموتى، إن عليك السلام تحية الموتى، سلام عليكم، سلام عليكم» مرتين أو ثلاثا هكذا» قال: سألت عن الإزار؟ فقلت: أين أَتَّزِر؟ فأقنع ظهره بعظم ساقه، وقال: «ها هنا اتَّزِر، فإن أبيت، فها هنا أسفل من ذلك، فإن أبيت، فها هنا فوق الكعبين، فإن أبيت فإن الله عز وجل لا يحب كل مختال فخور»، قال: وسألته عن المعروف؟ فقال: «لا تحقرن من المعروف شيئًا، ولو أن تعطي

صلة الحبل، ولو أن تعطي شِسْعَ النَّعل، ولو أن تفرغ من دلوك في إناء المستسقي، ولو أن تنحي الشيء من طريق الناس يؤذيهم، ولو أن تلقى أخاك، ووجهك إليه منطلق، ولو أن تلقى أخاك فتسلم عليه، ولو أن تؤنس الْوَحْشَانَ في الأرض، وإن سَّبك رجل بشيء يعلمه فيك، وأنت تعلم فيه نحوه، فلا تسبه فيكون أجره لك ووزره عليه، وما سر أذنك أن تسمعه فاعمل به، وما ساء أذنك أن تسمعه فاجتنبه». (أخرجه أحمد ١٥٩٥٥، وأبو داود ٤٠٨٤، والترمذي ٢٧٢٢، مختصرًا دون موضع الشاهد).

٣- تنويع مجالات العمل:

ومن أساليبه ﷺ في تحفيز أصحابه على العمل أنه كان يبين لهم تنوع مجالات العمل الصالح، وتنوع المجالات يحفِّز العاملين، ويلائم تنوع قدراتهم واهتماماتهم.

ومن صور بيان تنوع مجالات العمل ما رواه عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما، قال: قال رسول الله ﷺ: «أربعون خصلة أعلاهن مَنِيحَة العنز، ما من عامل يعمل بخصلة منها رجاء ثوابها، وتصديق موعودها، إلا أدخله الله بها الجنة»، قال حسان: فعددنا ما دون منيحة العنز، من رد السلام، وتشميت العاطس، وإماطة الأذى عن الطريق، ونحوه فما استطعنا أن نبلغ خمس عشرة خصلة. (أخرجه البخاري ٢٦٣١).

قال ابن حجر: «قال ابن بطال- ما ملخصه-: ليس في قول حسان ما يمنع من وجدان ذلك، وقد حض ﷺ على أبواب من أبواب الخير والبر لا تحصى كثرة، ومعلوم أنه ﷺ كان عالمًا بالأربعين المذكورة، وإنما لم يذكرها لمعنى هو أنفع لنا من ذكرها؛ وذلك خشية أن يكون التعيين لها مزهِّدًا في غيرها من أبواب البر». (فتح الباري ٥/ ٢٤٥).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ، قال: «من أنفق زوجين في سبيل الله، نودي من أبواب الجنة: يا عبد الله هذا خير، فمن كان من أهل الصلاة دعي من باب الصلاة،

ومن كان من أهل الجهاد دعي من باب الجهاد، ومن كان من أهل الصيام دعي من باب الريان، ومن كان من أهل الصدقة دعي من باب الصدقة»، فقال أبو بكر ﷺ: بأبي أنت وأمي يا رسول الله، ما على من دعي من تلك الأبواب من ضرورة، فهل يدعى أحد من تلك الأبواب كلها؟ قال: «نعم، وأرجو أن تكون منهم». (أخرجه البخاري ١٨٩٧، ومسلم ١٠٢٧).

وقد ظهر أثر ذلك على أصحاب النبي ﷺ في تنوع مجالات تميزهم وعطائهم، فلما سئل علي ﷺ عن أصحاب محمد ﷺ قال: عن أيهم تسألوني؟ قالوا: عبد الله بن مسعود؟ قال: علم القرآن والسنة ثم انتهى، وكفى به علمًا، قلنا: أبي موسى؟ قال: صبغ في العلم صبغة ثم خرج منه، قلنا: حذيفة؟ قال: أعلم أصحاب محمد ﷺ بالمنافقين، قالوا: سلمان؟ قال: أدرك العلم الأول والعلم الآخر، بحر لا يدرك قعره، وهو منا أهل البيت، قالوا: أبي ذر؟ قال: وعى علمًا عجز عنه، فسئل عن نفسه، فقال: كنت إذا سألت أعطيت، وإذا سكت ابتديت.

إن بعض الأشياخ والمربين يحصر التميز في مجال محدود، وربما ضيّق المجال أكثر؛ فقد يحصر مجال التميز في العلم الشرعي، ثم في فرع من فروعه، وهكذا المربي المهتم بمجال عملي أو دعوي.

لقد خلق الله عز وجل الناس متفاوتين في قدراتهم واهتماماتهم، وفي عقولهم وإدراكهم، وتنويع مجالات العطاء، وفتح الباب للطاقات المختلفة مما يوسع دائرة الإيجابية والفاعلية، ويشعر الفرد أن بإمكانه أن يؤدي أدوارًا مهمة، وأن يحقق نتائج عالية ولو تواضعت قدراته الذهنية والعلمية، أو كان فاقدًا للجاذبية أو ما يسمى (الكاريزما).

سادسًا: استشارتهم.

كان ﷺ كثيرًا ما يستشير أصحابه رضوان الله عليهم، حتى وصفه بذلك صاحبه أبو هريرة ﷺ بقوله: «ما رأيت أحدًا أكثر مشاورة لأصحابه من رسول الله ﷺ». (أخرجه البيهقي ١٣٤٣٢، وأحمد ١٨٩٢٨، والترمذي١٧١٤).

وتنوعت مجالات استشارته ﷺ لأصحابه، لتشمل ما يلي:

١- حياته الخاصة ﷺ:

كان ﷺ يستشير أصحابه في حياته الخاصة، بل في علاقته الزوجية؛ ففي حادثة الإفك التي اتهمت فيها زوجه عائشة ﵂، وصار الحديث يموج في المدينة استدعى ﷺ أحد الشباب من الصحابة كما تحدثنا صاحبة الشأن عائشة ﵂، فتقول: «فدعا رسول الله ﷺ علي بن أبي طالب وأسامة بن زيد حين استلبث الوحي يستشيرهما في فراق أهله». (أخرجه البخاري ٢٦٦١، ومسلم ٢٧٧٠).

وأثبت أسامة بن زيد ﵄ حينها أنه أهل للاستشارة، والثقة في أم المؤمنين ﵂، تقول عائشة- في حديثها-: «قالت: فأما أسامة فأشار عليه وبالذي يعلم في نفسه من الوُدِّ لهم، فقال أسامة: أهلُك يا رسول الله، ولا نعلم إلا خيرًا...». (أخرجه البخاري ٢٦٦١، ومسلم ٢٧٧٠).

٢- في العبادات:

وكان ﷺ يستشير أصحابه في العبادات فيما لم يرد فيه وحي من الله عز وجل، فقد استشارهم في أمر الأذان، عن أبي عمير بن أنس، عن عمومة له من الأنصار، قال: اهتم النبي ﷺ للصلاة كيف يجمع الناس لها، فقيل له: انصب راية عند حضور الصلاة، فإذا رأوها آذن بعضهم بعضًا، فلم يعجبه ذلك، قال: فذكر له القُنْعَ- يعني الشَّبُّورَ، وقال

زياد: شَبُّور اليهود- فلم يعجبه ذلك، وقال: «هو من أمر اليهود» قال: فذكر له الناقوس، فقال: «هو من أمر النصارى»، فانصرف عبد الله بن زيد بن عبد ربه وهو مهتم لهمِّ رسول الله ﷺ، فأري الأذان في منامه، قال: فغدا على رسول الله ﷺ، فأخبره، فقال له: يا رسول الله إني لبين نائم ويقظان، إذ أتاني آت فأراني الأذان، قال: وكان عمر بن الخطاب ﷺ قد رآه قبل ذلك فكتمه عشرين يومًا، قال: ثم أخبر النبي ﷺ، فقال له: «ما منعك أن تخبرني؟»، فقال: سبقني عبد الله بن زيد، فاستحييت، فقال رسول الله ﷺ: «يا بلال، قم فانظر ما يأمرك به عبد الله بن زيد، فافعله» قال: فأذن بلال، قال أبو بشر: فأخبرني أبو عمير، أن الأنصار تزعم أن عبد الله بن زيد، لولا أنه كان يومئذ مريضًا لجعله رسول الله ﷺ مؤذنًا. (أخرجه أبو داود ٤٩٨).

٣- في الجهاد ومواجهة العدو:

أما ميدان الجهاد ومواجهة العدو فيكاد أن يكون أبرز مجالات استشارته ﷺ لأصحابه؛ لأن مواقف الجهاد مواقف عملية، وكثير من القرارات المتصلة بها ترتبط بالاجتهاد البشري في تقرير ما هو الأصلح والأولى.

استشار النبي ﷺ أصحابه في أول غزوة لقي فيها قريش، عن أنس ﷺ أن رسول الله ﷺ شاور حين بلغه إقبال أبي سفيان، قال: فتكلم أبو بكر فأعرض، ثم تكلم عمر فأعرض عنه، فقام سعد بن عبادة فقال: إيانا تريد يا رسول الله؟ والذي نفسي بيده لو أمرتنا أن نخيضها البحر لأخضناها، ولو أمرتنا أن نضرب أكبادها إلى برك الغماد لفعلنا. (أخرجه مسلم ١٧٧٩).

وبعد أن وضعت الحرب أوزارها استشارهم في الأسرى؛ فعن ابن عباس ﷺ قال: حدثني عمر بن الخطاب ﷺ قال: لما كان يوم بدر نظر رسول الله ﷺ إلى المشركين وهم ألف... قال ابن عباس: فلما أسروا الأسارى، قال رسول الله ﷺ لأبي بكر، وعمر: «ما

ترون في هؤلاء الأسارى؟» فقال أبو بكر: يا نبي الله، هم بنو العم والعشيرة، أرى أن تأخذ منهم فدية؛ فتكون لنا قوة على الكفار، فعسى الله أن يهديهم للإسلام، فقال رسول الله ﷺ: «ما ترى يا ابن الخطاب؟» قلت: لا والله يا رسول الله، ما أرى الذي رأى أبو بكر، ولكني أرى أن تمكنَّا فنضرب أعناقهم، فتمكن عليًّا من عقيل فيضرب عنقه، وتمكني من فلان نسيبًا لعمر، فأضرب عنقه؛ فإن هؤلاء أئمة الكفر وصناديدها، فهوي رسول الله ﷺ ما قال أبو بكر، ولم يهو ما قلت، فلما كان من الغد جئت، فإذا رسول الله ﷺ وأبو بكر قاعدين يبكيان، قلت: يا رسول الله، أخبرني من أي شيء تبكي أنت وصاحبك؟ فإن وجدت بكاء بكيت، وإن لم أجد بكاء تباكيت لبكائكما، فقال رسول الله ﷺ: «أبكي للذي عرض علي أصحابك من أخذهم الفداء، لقد عُرض عليَّ عذابهم أدنى من هذه الشجرة- شجرة قريبة من نبي الله ﷺ- وأنزل الله عز وجل: ﴿ مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِي ٱلْأَرْضِ ﴾ (الأنفال: ٦٧)، إلى قوله تعالى: ﴿ فَكُلُوا۟ مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَٰلًا طَيِّبًا ﴾ (الأنفال: ٦٩)، فأحل الله الغنيمة لهم. (أخرجه مسلم ١٧٦٣).

كما استشارهم في غزوة أحد، فعن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «رأيت كأني في درع حصينة، ورأيت بقرًا منحرة، فأولت أن الدرع الحصينة المدينة، وأن البقر نفر، والله خير» قال: فقال لأصحابه: «لو أنا أقمنا بالمدينة فإن دخلوا علينا فيها قاتلناهم»، فقالوا: يا رسول الله، والله ما دخل علينا فيها في الجاهلية، فكيف يدخل علينا فيها في الإسلام؟- قال عفان في حديثه: فقال: «شأنكم إذًا»- قال: فلبس لَأْمَتَهُ، قال: فقالت الأنصار: رددنا على رسول الله ﷺ رأيه، فجاءوا، فقالوا: يا نبي الله، شأنك إذًا، فقال: «إنه ليس لنبي إذا لبس لَأْمَتَهُ أن يضعها حتى يقاتل». (أخرجه أحمد ١٤٧٨٧).

وأصله في البخاري باب قول الله: وأمرهم شورى بينهم ... وذكر البخاري في الباب، وشاور النبي ﷺ أصحابه يوم أحد في المقام والخروج، فرأوا له الخروج، فلما لبس لَأْمَتَهُ

و عزم، قالوا: أقم، فلم يمل إليهم بعد العزم وقال: لا ينبغي لنبي يلبس لأمته فيضعها حتى يحكم الله.

ويتجلى في هذا الموقف أثر التربية النبوية، وحقيقة استشارته ﷺ لأصحابه، فقد رأى ﷺ رؤيا، وأوَّل هذه الرؤيا بما يتفق مع ما كان يراه، وعرض لهم رأيه، لكن رأي جمهورهم كان بخلاف ذلك، ولم يصدَّهم هذا عن إبداء رأيهم.

إن دلالة هذا الموقف لا تقتصر على استشارته ﷺ لهم، وتقبله لرأيهم، فحين يبدي جمهورهم رأيًا بخلاف ما كان يراه ﷺ فهذا معبرٌ عن تلك البيئة التي عاشوها وتربوا عليها، وقد رأينا أن من هم حول المستبدين لا يجرؤون على مخالفة رأيهم ولو استشاروهم، وحال هؤلاء المستبدين كحال فرعون ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِيٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي ٱلْأَرْضِ ٱلْفَسَادَ﴾ (غافر: ٢٦).

وحال ملأ بلقيس حين استشارتهم، فوكلوا الأمر إليها مبدين استعدادهم وقوتهم، قال تعالى: ﴿قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَفْتُونِى فِىٓ أَمْرِى مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ ۝ قَالُوا۟ نَحْنُ أُو۟لُوا۟ قُوَّةٍ وَأُو۟لُوا۟ بَأْسٍ شَدِيدٍ وَٱلْأَمْرُ إِلَيْكِ فَٱنظُرِى مَاذَا تَأْمُرِينَ﴾ (النمل: ٣٢ - ٣٣).

وفي غزوة الأحزاب يرى رجلان من خيرة أصحاب النبي ﷺ خلاف رأيه، وهو قد اختارهما من بين سائر الناس ليستشيرهما.

قال ابن إسحاق: فلما اشتد على الناس البلاء، بعث رسول الله ﷺ- كما حدثني عاصم بن عمر بن قتادة ومن لا أتهم، عن محمد بن مسلم بن عبيد الله بن شهاب الزهري- إلى عيينة بن حصن بن حذيفة بن بدر، وإلى الحارث بن عوف بن أبي حارثة المري، وهما قائدا غطفان، فأعطاهما ثلث ثمار المدينة، على أن يرجعا بمن معهما عنه وعن أصحابه، فجرى بينه وبينهما الصلح، حتى كتبوا الكتاب ولم تقع الشهادة ولا عزيمة الصلح، إلا المراوضة

في ذلك، فلما أراد رسول الله ﷺ أن يفعل، بعث إلى سعد بن معاذ وسعد بن عبادة، فذكر ذلك لهما، واستشارهما فيه، فقالا له: يا رسول الله، أمرًا نحبه فنصنعه، أم شيئًا أمرك الله به، لا بد لنا من العمل به، أم شيئًا تصنعه لنا؟ قال: «بل شيء أصنعه لكم، والله ما أصنع ذلك إلا لأنني رأيت العرب قد رمتكم عن قوس واحدة، وكالبوكم من كل جانب، فأردت أن أكسر عنكم من شوكتهم إلى أمر ما» فقال له سعد بن معاذ: يا رسول الله، قد كنا نحن وهؤلاء القوم على الشرك بالله وعبادة الأوثان، لا نعبد الله ولا نعرفه، وهم لا يطمعون أن يأكلوا منها تمرة إلا قِرًى أو بيعًا، أفحين أكرمنا الله بالإسلام وهدانا له وأعزنا بك وبه، نعطيهم أموالنا؟ والله ما لنا بهذا من حاجة، والله لا نعطيهم إلا السيف حتى يحكم الله بيننا وبينهم، قال رسول الله ﷺ: فأنت وذاك، فتناول سعد بن معاذ الصحيفة، فمحا ما فيها من الكتاب، ثم قال: ليجهدوا علينا. (السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ٢٢٣).

ويتجلى في هذا الموقف الفقه، وتمام الأدب مع النبي ﷺ، فإن كان وحيًا فلا خيار لهما إلا التسليم، وإن كان يحبه ﷺ ويريده فلن يخرجا عما يحبه ﷺ، أما إن كان الأمر مرده للرأي والأصلح فهذا لم يمنعهما عن إبداء رأيهما.

واستشارهم ﷺ في غزوة الحديبية، فعن عروة بن الزبير، عن المسور بن مخرمة، ومروان بن الحكم- يزيد أحدهما على صاحبه- قالا: خرج النبي ﷺ عام الحديبية في بضع عشرة مائة من أصحابه، فلما أتى ذا الحليفة، قلد الهدي وأشعره وأحرم منها بعمرة، وبعث عينًا له من خزاعة، وسار النبي ﷺ حتى كان بغدير الأشطاط أتاه عينه، قال: إن قريشًا جمعوا لك جموعًا، وقد جمعوا لك الأحابيش، وهم مقاتلوك، وصادُّوك عن البيت، ومانعوك، فقال: «أشيروا أيها الناس علي، أترون أن أميل إلى عيالهم وذراري هؤلاء الذين يريدون أن يصدونا عن البيت، فإن يأتونا كان الله عز وجل قد قطع عينا من المشركين، وإلا تركناهم محروبين»، قال أبو بكر: يا رسول الله، خرجت عامدًا لهذا البيت، لا تريد

قتل أحد، ولا حرب أحد، فتوجه له، فمن صدَّنا عنه قاتلناه. قال: «امضوا على اسم الله». (أخرجه البخاري ٤١٧٨).

وفي مواقف استشارته ﷺ لأصحابه، لم يكن يطيل في تبرير وجهة نظره والدفاع عنها، وحتى لو صارت النتائج بخلاف ما رأى أصحابه- كما في أُحُد- لم يكن ﷺ ليلومهم، أو يعيد تذكيرهم بما كان يراه.

دور الاستشارة في بناء الشخصية القيادية:

للاستشارة أثر بارز في بناء الشخصية القيادية، ويتمثل ذلك فيما يلي:

- تعزيز الثقة بالنفس: فإن الفرد حين يستشار يشعر بقيمة رأيه وتأثيره؛ مما يعزز ثقته بنفسه، وشعوره بالقدرة على الإنجاز.
- رؤية الإنجاز: فالاستشارة تمنح الفرد فرصة لأن يقدم رأيًا يرى نتيجته وأثره في الواقع، ويبصر فيه إنجازه الشخصي، وهذا من أهم المحفزات على العمل والعطاء.
- نضج الرأي والتفكير، فالاستشارة- في الأغلب- لا تنتهي عند مجرد إبداء الرأي، إنما يصحب ذلك نقاش، وتبرير للرأي، وقد يورِد عليه من يستشيره بعض الثغرات في رأيه ويطالبه بالإجابة عنها، وربما أورد له بدائل أخرى مقارنًا لها برأيه، وهذا كله يجعله في موقف نقاش مع من هو- في الأغلب- أنضج منه رأيًا وسنًّا؛ مما يسهم في تنمية قدراته وإنضاج تفكيره.
- تحمل المسؤولية عن رأيه، وإشعاره بخطورة ما يترتب عليه، وهذا يحفِّزه على مزيد من التفكير وتقليب الرأي، وتقويم الآراء الأخرى، ومقارنتها برأيه.

المنتج التربوي:

وكما نلمس التربية الإيجابية والقيادية في التربية النبوية في الأهداف والعمليات، فيمكن أن نراها بشكل أوضح في المنتج التربوي.

بل إن المنتج التربوي هو الذي يعبِّر بشكل أكثر جلاءً ووضوحًا عن الأداء التربوي الناجح لأي تجربة تربوية؛ فالعمليات التربوية يمكن أن تتأثر بالقراءة الشخصية، ويمكن أن يتخلف تأثيرها لضعف في الأداء، أو لعوامل أخرى.

وقد يتملكك الإعجاب وأنت تسمع عن أب متميز في تربية أولاده، أو شيخ أو داعية في تربية تلامذته، لكن الأبلغ من ذلك كله حين ترى نتاج تربيته وأثرها، «فأيُّ معلم من المربين تخرج على يديه عدد أوفر وأهدى من هذا الرسول الكريم، الذي تخرج به هؤلاء الأصحابُ والأتباع؟ فكيف كانوا قبله؟ وكيف صاروا بعده؟! إن كل واحد من هؤلاء الأصحاب دليل ناطق على عظم هذا المعلم المربي الفريد الأوحد، وهذا يُذكرنا بكلمة طيبة جدًّا لبعض الجهابذة الأصوليين، يقول فيها: لو لم يكن لرسول الله ﷺ معجزة إلا أصحابه، لكفوه لإثبات نبوته». (الرسول المعلم وأساليبه في التعليم، ص١٤).

وحين نعود إلى المنتج التربوي النبوي نلمس أثر التربية الإيجابية والقيادية واضحًا وبارزًا لدى أصحاب النبي ﷺ، سواء في حياته، أم بعد مماته ﷺ.

ومن أمثلة ذلك ما يلي:

١- المبادرة:

كان من سمات أصحاب النبي ﷺ المبادرة إلى فعل الخير، وحياتهم رضوان الله عليهم حافلة بذلك، في ميدان العبادة والدعوة والجهاد والبذل والإحسان، وسائر أبواب القربات.

حين قدم أبو ذر ﷺ إلى مكة، وكان يبحث عن النبي ﷺ وهو يدرك خطورة الأمر، فعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: فأتى المسجد، فالتمس النبي ﷺ ولا يعرفه، وكره أن يسأل عنه حتى أدركه- يعني الليل- فاضطجع، فرآه علي فعرف أنه غريب، فلما رآه تبعه، فلم يسأل واحد منهما صاحبه عن شيء حتى أصبح، ثم احتمل قربته وزاده إلى المسجد، فظل ذلك اليوم ولا يرى النبي ﷺ حتى أمسى فعاد إلى مضجعه، فمر به علي فقال: ما آنىَ للرجل أن يعلم منزله؟ فأقامه فذهب به معه، ولا يسأل واحد منهما صاحبه عن شيء، حتى إذا كان يوم الثالث فعل مثل ذلك، فأقامه علي معه، ثم قال له: ألا تحدثني ما الذي أقدمك هذا البلد؟ قال: إن أعطيتني عهدًا وميثاقًا لترشدني فعلت، ففعل، فأخبره، فقال: فإنه حق، وهو رسول الله ﷺ، فإذا أصبحت فاتبعني...». (أخرجه البخاري ٣٨٦١، ومسلم ٢٤٧٤)، واللفظ لمسلم.

ومن صور المبادرة لدى أصحاب النبي ﷺ ما فعله سلمة بن الأكوع ﷺ في غزوة ذي قَرَد، يحكي سلمة ﷺ الموقف بنفسه في حديث طويل، وفيه... ثم قدمنا المدينة، فبعث رسول الله ﷺ بظهره مع رباح غلام رسول الله ﷺ، وأنا معه، وخرجت معه بفرس طلحة أُنَدِّيهِ مع الظَّهر، فلما أصبحنا إذا عبد الرحمن الفَزَاري قد أغار على ظهر رسول الله ﷺ، فاستاقه أجمع، وقتل راعيه، قال: فقلت: يا رباح، خذ هذا الفرس فأبلغه طلحة بن عبيد الله، وأخبر رسول الله ﷺ أن المشركين قد أغاروا على سَرْحِه، قال: ثم قمت على أَكَمَة، فاستقبلت المدينة، فناديت ثلاثًا: يا صباحاه، ثم خرجت في آثار القوم أرميهم بالنَّبل وأرتجز، أقول: أنا ابن الأكوع، واليوم يوم الرُّضَّع، فألحق رجلًا منهم فَأَصُكُّ سهمًا في رحله، حتى خلص نصل السهم إلى كتفه، قال: قلت: خذها وأنا ابن الأكوع، واليوم يوم الرُّضَّع، قال: فوالله، ما زلت أرميهم وأعقر بهم، فإذا رجع إليَّ فارس أتيت شجرة، فجلست في أصلها، ثم رميته فعقرت به، حتى إذا تضايق الجبل، فدخلوا في تضايقه،

علوت الجبل فجعلت أرديهم بالحجارة، قال: فما زلت كذلك أتبعهم حتى ما خلق الله من بعير من ظهر رسول الله ﷺ إلا خلفته وراء ظهري، وخلوا بيني وبينه، ثم اتبعتهم أرميهم حتى ألقوا أكثر من ثلاثين بردة، وثلاثين رمحًا، يستخفون ولا يطرحون شيئًا إلا جعلت عليه آرامًا من الحجارة يعرفها رسول الله ﷺ وأصحابه، حتى أتوا متضايقًا من ثنيَّة، فإذا هم قد أتاهم فلان بن بدر الفزاري، فجلسوا يتضحون- يعني يتغدون- وجلست على رأس قرن، قال الفزاري: ما هذا الذي أرى؟ قالوا: لقينا من هذا البرح، والله، ما فارقنا منذ غَلَسٍ يرمينا حتى انتزع كل شيء في أيدينا، قال: فليقم إليه نفر منكم أربعة، قال: فصعد إلي منهم أربعة في الجبل، قال: فلما أمكنوني من الكلام، قال: قلت: هل تعرفوني؟ قالوا: لا، ومن أنت؟ قال: قلت: أنا سلمة بن الأكوع، والذي كرم وجه محمد ﷺ لا أطلب رجلًا منكم إلا أدركته، ولا يطلبني رجل منكم فيدركني، قال أحدهم: أنا أظن، قال: فرجعوا، فما برحت مكاني حتى رأيت فوارس رسول الله ﷺ يتخللون الشجر، قال: فإذا أولهم الأخرم الأسدي، على إثره أبو قتادة الأنصاري، وعلى إثره المقداد بن الأسود الكندي، قال: فأخذت بعنان الأخرم، قال: فولوا مدبرين، قلت: يا أخرم، احذرهم لا يقتطعوك حتى يلحق رسول الله ﷺ وأصحابه، قال: يا سلمة، إن كنت تؤمن بالله واليوم الآخر، وتعلم أن الجنة حق، والنار حق، فلا تحل بيني وبين الشهادة، قال: فخليته، فالتقى هو وعبد الرحمن، قال: فعقر بعبد الرحمن فرسه، وطعنه عبد الرحمن فقتله، وتحول على فرسه، ولحق أبو قتادة فارس رسول الله ﷺ بعبد الرحمن، فطعنه فقتله، فوالذي كرم وجه محمد ﷺ، لتبعتهم أعدو على رجلي حتى ما أرى ورائي من أصحاب محمد ﷺ، ولا غبارهم شيئًا حتى يعدلوا قبل غروب الشمس إلى شعب فيه ماء يقال له: ذا قرد؛ ليشربوا منه وهم عطاش، قال: فنظروا إليَّ أَعْدُو وراءهم، فخلَّيتهم عنه- يعني أجليتهم عنه- فما ذاقوا منه قطرة، قال: ويخرجون فيشتدون في ثَنِيَّة، قال: فأعدُو، فألحق رجلًا منهم فَأَصُكُّهُ بسهم في نُغْض كتفه، قال: قلت: خذهاوأنا ابن الأكوع، واليوم يوم الرضع قال: يا ثَكِلَتْهُ

أمه، أَكْوَعُهُ بُكْرَة؟ قال: قلت: نعم يا عدو نفسه، أَكْوَعُكَ بُكْرَة، قال: وأَرْدَوْا فرسين على ثنيَّة، قال: فجئت بهما أسوقهما إلى رسول الله ﷺ، قال: ولحقني عامر بسَطِيحَةٍ فيها مَذْقَةٌ من لبن، وسَطِيحَة فيها ماء، فتوضأت وشربت، ثم أتيت رسول الله ﷺ وهو على الماء الذي حَلَّأْتُهُم عنه، فإذا رسول الله ﷺ قد أخذ تلك الإبل وكل شيء استنقذته من المشركين، وكل رمح وبردة، وإذا بلال نحر ناقة من الإبل الذي استنقذت من القوم، وإذا هو يشوي لرسول الله ﷺ من كبدها وسنامها، قال: قلت: يا رسول الله، خلني فأنتخب من القوم مائة رجل فأتبع القوم، فلا يبقى منهم مخبر إلا قتلته، قال: فضحك رسول الله ﷺ حتى بدت نواجذه في ضوء النار، فقال: «يا سلمة، أتراك كنت فاعلًا؟» قلت: نعم، والذي أكرمك، فقال: «إنهم الآن لَيُقْرَوْنَ في أرض غَطَفَان»، قال: فجاء رجل من غَطَفَان، فقال: نحر لهم فلان جزورًا، فلما كشفوا جلدها رأوا غبارًا، فقالوا: أتاكم القوم، فخرجوا هاربين، فلما أصبحنا قال رسول الله ﷺ: «كان خير فرساننا اليوم أبو قتادة، وخير رجالتنا سلمة»، قال: ثم أعطاني رسول الله ﷺ سهمين سهم الفارس، وسهم الراجل، فجمعهما لي جميعًا، ثم أردفني رسول الله ﷺ وراءه على العضباء راجعين إلى المدينة... (أخرجه مسلم ١٨٠٧).

ومن مواقف المبادرة أيضًا ما فعله ثابت بن أقرم ﷺ في غزوة مؤتة، فقد سمى ﷺ أمراء ثلاثة، فعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: أمَّر رسول الله ﷺ في غزوة مؤتة زيد بن حارثة، فقال رسول الله ﷺ: «إن قُتِلَ زيد فجعفر، وإن قُتِلَ جعفر فعبد الله بن رواحة»، قال عبد الله: كنت فيهم في تلك الغزوة، فالتمسنا جعفر بن أبي طالب، فوجدناه في القتلى، ووجدنا ما في جسده بضعًا وتسعين، من طعنة ورمية». (أخرجه البخاري ٤٢٦١).

قال ابن إسحاق: ثم أخذ الراية ثابت بن أقرم أخو بني العجلان، فقال: يا معشر المسلمين اصطلحوا على رجل منكم، قالوا: أنت، قال: ما أنا بفاعل، فاصطلح الناس على

خالد بن الوليد، فلما أخذ الراية دافع القوم، وحاشى بهم، ثم انحاز وانحيز عنه، حتى انصرف بالناس. (السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ٣٧٩-٣٨٠).

وتتمثل المبادرة هنا في موقف ثابت ﷺ حين أخذ الراية، ودعا المسلمين إلى الاتفاق على من يتولى الإمارة، كما تتمثل المبادرة- أيضًا- في موقف خالد بن الوليد ﷺ الذي قبل هذه المهمة، وقاد جيش المسلمين، حتى تحقق الفتح.

وقد أثنى ﷺ على موقف خالد ﷺ، فعن أنس ﷺ أن النبي ﷺ نعى زيدًا، وجعفرًا، وابن رواحة للناس قبل أن يأتيهم خبرهم، فقال: «أخذ الراية زيد فأصيب، ثم أخذ جعفر فأصيب، ثم أخذ ابن رواحة فأصيب» وعيناه تذرفان: «حتى أخذ الراية سيف من سيوف الله، حتى فتح الله عليهم». (أخرجه البخاري ٤٢٦٢).

وظلت المبادرة سمة لأصحاب النبي ﷺ في مواقف السراء والضراء، فحين مات والي الكوفة قام جرير بن عبد الله فخطب الناس، ودعاهم أن ينتظروا مَن يؤمَّر عليهم، عن زياد بن علاقة، قال: سمعت جرير بن عبد الله، يقول- يوم مات المغيرة بن شعبة، قام فحمد الله وأثنى عليه، وقال-: عليكم باتقاء الله وحده لا شريك له، والوقار، والسكينة، حتى يأتيكم أمير، فإنما يأتيكم الآن، ثم قال: استعفوا لأميركم؛ فإنه كان يحب العفو، ثم قال: أما بعد، فإني أتيت النبي ﷺ قلت: أبايعك على الإسلام، فشرط علي: «والنصح لكل مسلم»، فبايعته على هذا، ورب هذا المسجد إني لناصح لكم، ثم استغفر ونزل. (أخرجه البخاري ٥٨).

وقد سبق ذكر بعض الأمثلة في تشجيعه ﷺ على المبادرة والتحفيز عليها، والمبادرة من أهم الدلائل على إيجابية من صدرت منه.

٢- استيعاب الأزمات بعد وفاته ﷺ:

ومن أعظم ما تتجلى فيه آثار التربية الإيجابية والقيادية في المنهج النبوي واقع أصحاب النبي ﷺ بعد وفاته، ويتجلى ذلك في: استيعابهم للأزمات بعد وفاته، وفي نشر الإسلام والفتوحات، وفي تطوير حلول عملية للمشكلات التي حدثت بعد وفاته ﷺ.

أما ما يتعلق بالأزمات، فأعظم أزمة ومصيبة أصابت أصحاب النبي ﷺ هي وفاته ﷺ، فقد كانت مصيبة جللًا.

ويكفي في وصف تلك المصيبة والحدث ما سطَّره حسان ﷺ في قصيدته الطويلة: بِطَيْبَةَ رَسْمٌ للرسول، ومما جاء فيها قوله ﷺ:

لَقَدْ غَيَّبُوا حِلْمًا وَعِلْمًا وَرَحْمَةً	عَشِيَّةَ عَلَّوْهُ الثَّرَى لَا يُوَسَّدُ
وَرَاحُوا بِحُزْنٍ لَيْسَ فِيهِمْ نَبِيُّهُمْ	وَقَدْ وَهَنَتْ مِنْهُمْ ظُهُورٌ وَأَعْضُدُ
وَيَبْكُونَ مَنْ تَبْكِي السَّمَوَاتُ يَوْمَهُ	وَمَنْ قَدْ بَكَتْهُ الأَرْضُ فَالنَّاسُ أَكْمَدُ
وَهَلْ عَدَلَتْ يَوْمًا رَزِيَّةُ هَالِكٍ	رَزِيَّةَ يَوْمٍ مَاتَ فِيهِ مُحَمَّدُ

لقد أدَّى هول المصيبة إلى أن يكذِّب بعض أصحاب النبي ﷺ الخبر ويشككوا فيه، عن عائشة ﷺ أن رسول الله ﷺ مات وأبو بكر بالسُّنْح- قال إسماعيل: يعني: بالعالية- فقام عمر يقول: والله ما مات رسول الله ﷺ قالت: وقال عمر: والله ما كان يقع في نفسي إلا ذاك، وليبعثنه الله، فليقطعن أيدي رجال وأرجلهم، فجاء أبو بكر فكشف عن رسول الله ﷺ فقبَّله، قال: بأبي أنت وأمي، طبت حيًّا وميِّتًا، والذي نفسي بيده لا يذيقك الله الموتتين أبدًا، ثم خرج فقال: أيها الحالف على رسلك، فلما تكلم أبو بكر جلس عمر، فحمد الله أبو بكر وأثنى عليه، وقال: ألا من كان يعبد محمدًا ﷺ فإن محمدًا قد مات، ومن كان يعبد الله فإن الله

حي لا يموت، وقال: ﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴾ (الزمر: ٣٠)، وقال: ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللَّهَ شَيْـًٔا وَسَيَجْزِى اللَّهُ الشَّٰكِرِينَ ﴾ (آل عمران: ١٤٤). (أخرجه البخاري ٣٦٦٧-٣٦٦٨).

وسرعان ما استوعب أصحاب النبي ﷺ الموقف، وانشغلوا بما يجب عليهم؛ فكان أول ما اتخذوه أن اختاروا خليفة رسول الله ﷺ، فبايعوا أبا بكر ﷺ بالخلافة قبل أن يجهِّزوا رسول الله ﷺ.

وكثير من الكيانات تنهار وتتفكك عند رحيل قائدها وزعيمها، رغم الفارق الذي لا مجال معه للمقارنة بين الفراغ الناشيء عن فقده ﷺ، والفراغ الناشئ عن فقد غيره من القادة؛ فهو ﷺ رسول معصوم، يتلقى الوحي من ربه سبحانه وتعالى، إضافة إلى أنه ﷺ لا يقارن بغيره حتى على مستوى الخصائص البشرية المجردة، فقد اصطفاه خالقه سبحانه وآواه وهداه وأغناه.

ثم تلت حالةَ فَقْد النبي ﷺ واختيارِ خليفته حادثةُ الردة؛ فتعامل أصحاب النبي ﷺ بحزم ووضوح مع مَن صرَّحوا بالردة، إلا أن هناك من بقي على الإسلام، لكنهم منعوا الزكاة؛ فاختلف أصحاب النبي ﷺ في شأنهم، عن أبي هريرة ﷺ قال: لما توفي رسول الله ﷺ واستخلف أبو بكر بعده، وكفر من كفر من العرب، قال عمر لأبي بكر: كيف تقاتل الناس؟ وقد قال رسول الله ﷺ: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا: لا إله إلا الله، فمن قال: لا إله إلا الله عصم مني ماله ونفسه، إلا بحقه، وحسابه على الله»، فقال: والله لأقاتلن من فرقَّ بين الصلاة والزكاة؛ فإن الزكاة حق المال، والله لو منعوني عقالًا كانوا يؤدونه إلى رسول الله ﷺ لقاتلتهم على منعه، فقال عمر: «فوالله ما هو إلا أن رأيت الله قد شرح صدر أبي بكر للقتال، فعرفت أنه الحق». (أخرجه البخاري ٧٢٨٤، ومسلم ٢٠).

وعن طارق بن شهاب عن أبي بكر ﷺ أنه قال- لوفد بُزَاخَةَ-: «تتبعون أذناب الإبل، حتى يريَ اللهُ خليفةَ نبيه ﷺ والمهاجرين أمرًا يعذرونكم به». (أخرجه البخاري ٧٢٢١)، وقد أخرجها أبو بكر البرقاني في مستخرجه، وساقها الحميدي في الجمع بين الصحيحين بروايةٍ أتم: عن طارق بن شهاب قال: جاء وفد بُزَاخَةَ من أسد وغطفان إلى أبي بكر يسألونه الصلح، فخيرهم بين الحرب المُجْلِية والسِّلم المُخْزِيَة، فقالوا: هذه المجلية قد عرفناها فما المخزية؟ قال: ننزع منكم الحَلْقَة والكُرَاع، ونغنم ما أصبنا منكم، وتردون علينا ما أصبتم منَّا، وتدون لنا قتلانا، ويكون قتلاكم في النار، وتتركون أقوامًا يتبعون أذناب الإبل، حتى يري الله خليفة رسوله والمهاجرين أمرًا يعذرونكم به، فعرض أبو بكر ما قال على القوم، فقام عمر فقال: قد رأيت رأيًا وسنشير عليك: أما ما ذكرت فذكر الحكمين الأولين، قال: فنعم ما ذكرت، وأما تدون قتلانا ويكون قتلاكم في النار، فإن قتلانا قاتلت على أمر الله وأجورها على الله ليست لها ديات، قال: فتتابع القوم على ما قال عمر. قال الحميدي: اختصره البخاري، فذكر طرفًا منه. (فتح الباري ١٣/ ٢١٠).

لقد حسم أصحاب النبي ﷺ الأمر مع الجميع، كما حسموا أمر الردة من الناحية العملية، فما هي إلا أشهر حتى أعادوا الجزيرة إلى لواء الإسلام، وانطلقوا بعد ذلك في الفتوحات.

٣- نشر الإسلام والفتوحات:

ما أن حسم أصحاب النبي ﷺ أمر المرتدين حتى انطلقوا فاتحين، فغزوا فارس والروم، ومصر وأفريقية، فلم ينته عهد الخليفة الراشد عثمان بن عفان ﷺ حتى كانت الفتوحات الإسلامية قد استوعبت بلاد فارس، ووصلت إلى نهر جَيْحُونَ وبحر قزوين وتخوم القوقاز، وامتدت في أفريقيا إلى النوبة وصحراء أفريقيا وتونس غربًا.

ولا يمكن أن يفهم حجم هذا الإنجاز من لا يعرف واقع الجزيرة العربية، وإمكاناتها المادية والعسكرية في مقابل جيوش فارس والروم.

كما لا يفهمه من يقرؤه على أنه مجرد انتصار عسكري، إنه فتحٌ أزال كيانات عريقة كانت سائدة، وأعاد بناء تلك المجتمعات، ونشر الإسلام، وأشاع العدل والأمن والحياة الكريمة.

٤- التعامل مع المستجدات:

واجهت أصحاب النبي ﷺ مستجدات عدة تعاملوا معها بإيجابية وفاعلية واستوعبوها؛ فالأمر ليس قاصرًا على الانتصار العسكري، بل تمكن أصحاب النبي ﷺ من تعليم أهل تلك البلاد المفتوحة اللغة العربية، والعلم الشرعي، حتى كان القرن الثاني والثالث زاخرًا بأئمة الحديث والفقه والتفسير واللغة من أهل تلك البلاد.

وحين فتح أصحاب النبي ﷺ العراق- وهي أرض زراعية- اختلف رأيهم في ذلك، هل يقسمونها بين الفاتحين كما فعل النبي ﷺ؟ أم أن المصلحة تقتضي التعامل معها بصورة أخرى؟

روى أبو عبيد بإسناده عن عبد الله بن أبي قيس، أو عبد الله بن قيس الهمداني- شك أبو عبيد- قال: قدم عمر الجابية، فأراد قسم الأرض بين المسلمين، فقال له معاذ: والله - إذن- ليكونن ما تكره، إنك إن قسمتها صار الريع العظيم في أيدي القوم، ثم يبيدون، فيصير ذلك إلى الرجل الواحد أو المرأة، ثم يأتي من بعدهم قوم يَسُدُّون من الإسلام مَسَدًّا، وهم لا يجدون شيئًا، فانظر أمرًا يسع أولهم وآخرهم. (الأموال ١٥٢).

وعن حارثة بن مضرب، عن عمر، أنه أراد أن يقسم السواد بين المسلمين، فأمر أن يحصوا فوجد الرجل يصيبه ثلاثة من الفلاحين، فشاور في ذلك، فقال له علي بن أبي

طالب: دعهم يكونوا مادة للمسلمين، فتركهم وبعث عليهم عثمان بن حنيف، فوضع عليهم ثمانية وأربعين، وأربعة وعشرين، واثني عشر. (الأموال ١٥١)، وها هنا نرى أن أصحاب النبي ﷺ جمعوا المعلومات قبل أن يتخذوا قرارهم «فأمر أن يحصوا».

ويلخص أبو يوسف شأن الخراج حاكيًا حوار أصحاب النبي ﷺ في شأنه فيقول: وحدثني غير واحد من علماء أهل المدينة قالوا: لما قدم على عمر بن الخطاب ﷺ جيش العراق من قبل سعد بن أبي وقاص رضي الله تعالى عنه شاور أصحاب محمد ﷺ في تدوين الدواوين، وقد كان اتبع رأي أبي بكر في التسوية بين الناس؛ فلما جاء فتح العراق شاور الناس في التفضيل، ورأى أنه الرأي؛ فأشار عليه بذلك من رآه، وشاورهم في قسمة الأرضين التي أفاء الله على المسلمين من أرض العراق والشام؛ فتكلم قوم فيها وأرادوا أن يقسم لهم حقوقهم وما فتحوا، فقال عمر رضي الله تعالى عنه: فكيف بمن يأتي من المسلمين فيجدون الأرض بعلوجها قد اقتُسمت ووُرثت عن الآباء وحيزت، ما هذا برأي؛ فقال له عبد الرحمن بن عوف رضي الله تعالى عنه: فما الرأي؟ ما الأرض والعلوج إلا ما أفاء الله عليهم، فقال عمر: ما هو إلا كما تقول، ولست أرى ذلك، والله لا يفتح بعدي بلد فيكون فيه كبير نبيل؛ بل عسى أن يكون كلًّا على المسلمين؛ فإذا قسمت أرض العراق بعلوجها، وأرض الشام بعلوجها فما يسد به الثغور وما يكون للذرية والأرامل بهذا البلد وبغيره من أرض الشام والعراق؟

فأكثروا على عمر رضي الله تعالى عنه، وقالوا: أتقف ما أفاء الله علينا بأسيافنا على قوم لم يحضروا ولم يشهدوا، ولأبناء القوم ولأبناء أبنائهم ولم يحضروا؟ فكان عمر ﷺ لا يزيد على أن يقول: هذا رأي، قالوا: فاستشر، قال: فاستشار المهاجرين الأولين، فاختلفوا؛ فأما عبد الرحمن بن عوف ﷺ فكان رأيه أن تقسم لهم حقوقهم، ورأى عثمان وعلي وطلحة وابن عمر رضي الله عنهم رأي عمر.

فأرسل إلى عشرة من الأنصار: خمسة من الأوس، وخمسة من الخزرج من كبرائهم وأشرافهم؛ فلما اجتمعوا حمد الله وأثنى عليه بما هو أهله ثم قال: إني لم أزعجكم إلا لأن تشتركوا في أمانتي فيما حملت من أموركم؛ فإني واحد كأحدكم، وأنتم اليوم تقرون بالحق، خالفني من خالفني ووافقني من وافقني، وليس أريد أن تتبعوا هذا الذي هواي، معكم من الله كتاب ينطق بالحق؛ فوالله لئن كنت نطقت بأمر أريده ما أريد به إلا الحق.

قالوا: قل نسمع يا أمير المؤمنين قال: قد سمعتم كلام هؤلاء القوم الذين زعموا أني أظلمهم حقوقهم، وإني أعوذ بالله أن أركب ظلمًا، لئن كنت ظلمتهم شيئًا هو لهم وأعطيته غيرهم لقد شقيت؛ ولكن رأيت أنه لم يبق شيء يفتح بعد أرض كسرى، وقد غنمنا الله أموالهم وأرضهم وعلوجهم، فقسمت ما غنموا من أموال بين أهله وأخرجت الخمس، فوجهته على وجهه وأنا في توجيهه، وقد رأيت أن أحبس الأرضين بعلوجها وأضع عليهم فيها الخراج وفي رقابهم الجزية يؤدونها فتكون فيئًا للمسلمين: المقاتلة والذرية ولمن يأتي من بعدهم، أرأيتم هذه الثغور لا بد لها من رجال يلزمونها؟ أرأيتم هذه المدن العظام- كالشام والجزيرة والكوفة والبصرة ومصر- لا بد لها من أن تشحن بالجيوش، وإدرار العطاء عليهم؛ فمن أين يعطى هؤلاء إذا قسمت الأرضون والعلوج؟

فقالوا جميعًا: الرأي رأيك؛ فنعم ما قلت وما رأيت، وإن لم تشحن هذه الثغور وهذه المدن بالرجال، وتجري عليهم ما يتقوون به رجع أهل الكفر إلى مدنهم؛ فقال: قد بان لي الأمر، فمن رجل له جزالة وعقل يضع الأرض مواضعها، ويضع على العلوج ما يحتملون؟ فاجتمعوا له على عثمان بن حنيف وقالوا: تبعثه إلى أهل ذلك؛ فإن له بصرًا وعقلًا وتجربة؛ فأسرع إليه عمر فولاه مساحة أرض السواد، فأدت جباية سواد الكوفة قبل أن يموت عمر رضي الله تعالى عنه بعام مائة ألف ألف درهم، والدرهم يومئذ درهم ودانقان، ونصف، وكان وزن الدرهم يومئذ وزن المثقال. (الخراج لأبي يوسف ص٣٥-٣٦).

وحين فتحت مصر اتبع أصحاب النبي ﷺ بشأنها المنهج نفسه، فعن سفيان بن وهب الخولاني قال: لما افتتحت مصر بغير عهد، قام الزبير فقال: يا عمرو بن العاص، اقسمها، فقال عمرو: لا أقسمها، فقال الزبير: لتقسمنها، كما قسم رسول الله ﷺ خيبر، فقال عمرو: لا أقسمها، حتى أكتب إلى أمير المؤمنين فكتب إلى عمر، فكتب إليه عمر: أن دعها حتى يغزو منها حبل الحبلة قال أبو عبيد: أراه أراد: أن تكون فيئًا موقوفًا للمسلمين ما تناسلوا، يرثه قرن بعد قرن، فتكون قوة لهم على عدوهم. (الأموال ١٤٩).

«وهكذا دعا الفاتحون المغلوبين للبقاء في الأرض على أن يدفعوا الخراج، وقد أفاد هذا الإجراء في عدم تحول الفاتحين إلى فلاحين مما يضعف قدراتهم القتالية- وهم يواجهون الفرس في الشرق والبيزنطيين في الغرب- كما ربط الفلاحين القدامى بأرضهم وكسب ولاءهم، وساعد على استمرار ازدهار الزراعة في السواد؛ إذ ما كان بوسع الفاتحين استثمار الأرض لنقص الخبرة الزراعية، وأوجد موردًا سنويًّا كبيرًا لبيت المال، خاصة وأن الأراضي المفتوحة في الشام ومصر عوملت وفق نظام الخراج أيضًا، وهذا المورد مكَّن الدولة من تجهيز الجيوش الكبيرة والقيام بالإصلاحات المتنوعة، وخاصة الارتقاء بالمستوى المعيشي للناس عن طريق نظام العطاء، إضافة إلى الحد من نشوء الملكيات الاقطاعية الكبيرة مما يولد تباينًا اقتصاديًّا شاسعًا، ويحصر تداول الثروة بأيد قليلة، وهذا ما وعاه عمر من الآيات القرآنية مما يوضح دقة فهمه وعمق بصيرته، وأثر القرآن في توجيه سياسته». (عصر الخلافة الراشدة، أكرم العمري، ص١٧٩).

وليس المقصود الاستطراد في الشأن التاريخي للخراج وما يتعلق به، إنما هو دليل على أثر التربية النبوية ومخرجاتها، كان أصحاب رسول الله ﷺ في هذه الحالة مع مسألة حادثة وطارئة لم تكن وقت النبوة، فتعاملوا معها بفقه ومرونة عالية، وأداروا الخلاف بينهم بطريقة منهجية، فاستمعوا للآراء كافة وقلَّبوها، واتخذوا قرارهم، واجتهدوا في الأمر، ولم

يؤد ذلك إلى صراع وتطاحن، أو اتهام بالخروج عن منهج النبي ﷺ أو الجمود والتحجر.

إنه ليسهل اتخاذ موقف صارم بالرفض للجديد، ويسهل الاندفاع مع الجديد، لكن الإنجاز هو في الالتزام بالمنهج الشرعي، والمرونة التي تستوعب الواقع، وتطوير حلول جديدة تستوعب المشكلة، ولا تتجاوز حدود الشرع، وهكذا كان اجتهاد أصحاب النبي ﷺ.

اتساع الأمصار:

أدى اتساع الفتوح وتتابعها إلى اتساع أمصار المسلمين، وتضاعفت مساحة الدولة الإسلامية أضعافًا عدة، وهذا يفرض أعباءً عديدة في استيعاب أهل تلك البلاد المفتوحة وفي إدارتها.

ولم يقف أصحاب النبي ﷺ مكتوفي الأيدي، بل تعاملوا بإيجابية عالية مع هذا الواقع الجديد، وحققوا اندماج تلك المجتمعات المتباينة في المجتمع الإسلامي، وقد كانت مجتمعات مختلفة الأجناس واللغات، ومتباينة الثقافات ما بين فرس وروم وأقباط وعرب متنصرين وغيرهم.

العجمة وتطوير العلوم:

اقتضى اتساع نطاق الدولة الإسلامية بروز حاجات جديدة تمثلت بشكل أساس في تعلم العربية لغة القرآن والسنة، ثم في تعليم القرآن وعقائد الإسلام وأحكامه وآدابه، وما هي إلا سنوات حتى خرَّجت تلك البلاد نماذج فذًّة من علماء اللغة والحديث والتفسير والفقه والاعتقاد.

٥- تقديم حلول جديدة للمشكلات:

واجه أصحاب النبي ﷺ مشكلات عدة طوال عصر الخلافة الراشدة؛ فتعاملوا مع هذه المشكلات بفاعلية وإيجابية، وتمكنوا من تقديم حلول عملية لها.

ومن أبرز هذه المشكلات ما يلي:

أولًا: جمع القرآن الكريم:

لم يكن القرآن الكريم قد جمع على عهد النبي ﷺ في مصحف واحد، وكان يتلقى بالحفظ والمشافهة، وكان كما وصفه زيد بن ثابت ﷺ بقوله: قبض رسول الله ﷺ ولم يكن القرآن جمع، إنما كان في العُسُب، والكرانيف، وجرائد النخل، والسَّعَف، فلما قتل سالم يوم اليمامة قال سفيان- وهو أحد الأربعة الذين قال رسول الله ﷺ: «خذوا القرآن منهم»-: جاء عمر بن الخطاب إلى أبي بكر فقال: إن القتل قد استحرَّ بأهل القرآن، وقد قتل سالم مولى أبي حذيفة، وأخاف أن لا يلقى المسلمون زحفًا آخر إلا استحرَّ القتل فيهم، فاجمع القرآن في شيء؛ فإني أخاف أن يذهب... (أخرجه أحمد في فضائل الصحابة ٥٩١).

وفي رواية البخاري بيان الحوار بين أبي بكر وعمر ﷺ في الأمر، ثم حوارهما مع زيد بن ثابت ﷺ، عن زيد بن ثابت الأنصاري ﷺ وكان ممن يكتب الوحي- قال: أرسل إليَّ أبو بكر مقتلَ أهل اليمامة وعنده عمر، فقال أبو بكر: إن عمر أتاني، فقال: إن القتل قد اسْتَحَرَّ يوم اليمامة بالناس، وإني أخشى أن يستحرَّ القتل بالقُراء في المواطن، فيذهب كثير من القرآن إلا أن تجمعوه، وإني لأرى أن تجمع القرآن»، قال أبو بكر: قلت لعمر: «كيف أفعل شيئًا لم يفعله رسول الله ﷺ؟» فقال عمر: هو والله خير، فلم يزل عمر يراجعني فيه حتى شرح الله لذلك صدري، ورأيت الذي رأى عمر، قال زيد بن ثابت: وعمر عنده جالس لا يتكلم، فقال أبو بكر: إنك رجل شاب عاقل، ولا نتهمك، كنت تكتب الوحي لرسول الله ﷺ، فتتبع القرآن فاجمعه، فوالله لو كلفني نقل جبل من الجبال ما كان أثقل علي مما أمرني به من جمع القرآن، قلت: كيف تفعلان شيئًا لم يفعله النبي ﷺ؟ فقال أبو بكر: هو والله خير، فلم أزل أراجعه حتى شرح الله صدري للذي شرح الله له صدر أبي بكر وعمر، فقمت فتتبعت القرآن أجمعه من الرقاع والأكتاف، والعسب وصدور

الرجال، حتى وجدت من سورة التوبة آيتين مع خزيمة الأنصاري لم أجدهما مع أحد غيره، ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم﴾ [التوبة: ١٢٨] إلى آخرهما، وكانت الصحف التي جمع فيها القرآن عند أبي بكر حتى توفاه الله، ثم عند عمر حتى توفاه الله، ثم عند حفصة بنت عمر. (أخرجه البخاري ٤٦٧٩).

وعن هشام بن عروة، عن أبيه قال: لما استحرَّ القتل بالقراء يومئذ فَرَقَ أبو بكر على القرآن أن يضيع، فقال لعمر بن الخطاب ولزيد بن ثابت: «اقعدا على باب المسجد، فمن جاءكما بشاهدين على شيء من كتاب الله فاكتباه». (أخرجه ابن أبي داود في المصاحف ص١٥٧، رقم الأثر ٢٣).

واستقر الأمر على ذلك، ولم يخالف أحد من أصحاب النبي ﷺ في هذا الأمر.

وفي عهد عثمان ﷺ، ومع اتساع الفتوحات، وكثرة الداخلين في الإسلام من الأعاجم طرأت مشكلة أخرى دعته ﷺ إلى جمع آخر للقرآن الكريم.

عن ابن شهاب عن أنس بن مالك، حدثه: أن حذيفة بن اليمان، قدم على عثمان وكان يغازي أهل الشأم في فتح إرمينية، وأذربيجان مع أهل العراق، فأفزع حذيفة اختلافهم في القراءة، فقال حذيفة لعثمان: يا أمير المؤمنين، أدرك هذه الأمة، قبل أن يختلفوا في الكتاب اختلاف اليهود والنصارى، فأرسل عثمان إلى حفصة: «أن أرسلي إلينا بالصحف ننسخها في المصاحف، ثم نردها إليك»، فأرسلت بها حفصة إلى عثمان، فأمر زيد بن ثابت، وعبد الله بن الزبير، وسعيد بن العاص، وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام فنسخوها في المصاحف»، وقال عثمان للرهط القرشيين الثلاثة: «إذا اختلفتم أنتم وزيد بن ثابت في شيء من القرآن فاكتبوه بلسان قريش؛ فإنما نزل بلسانهم» ففعلوا حتى إذا نسخوا الصحف في المصاحف، رد عثمان الصحف إلى حفصة، وأرسل إلى كل أفق بمصحف مما نسخوا، وأمر بما سواه من القرآن في كل صحيفة أو مصحف أن يحرق. (أخرجه البخاري ٤٩٨٧).

ثانيًا: جلد شارب الخمر:

كان شارب الخمر على عهد النبي ﷺ يجلد أربعين جلدة، ومع اتساع الفتوحات، والاتصال بالأعاجم رأى أصحاب النبي ﷺ الحاجة لتغليظ العقوبة، عن السائب بن يزيد، قال: كنا نؤتى بالشارب على عهد رسول الله ﷺ وإمرة أبي بكر وصدرًا من خلافة عمر، فنقوم إليه بأيدينا ونعالنا وأرديتنا، حتى كان آخر إمرة عمر، فجلد أربعين، حتى إذا عتوا وفسقوا جلد ثمانين». (أخرجه البخاري ٦٧٧٩).

وفي رواية أبي داود بيان حوار أصحاب النبي ﷺ في الأمر، واتفاقهم على جلد الشارب ثمانين، عن عبد الرحمن بن أزهر، قال: رأيت رسول الله ﷺ غداة الفتح، وأنا غلام شاب، يتخلل الناس، يسأل عن منزل خالد بن الوليد، فأتي بشارب، فأمرهم فضربوه بما في أيديهم، فمنهم من ضربه بالسوط، ومنهم من ضربه بعصا، ومنهم من ضربه بنعله، وحثى رسول الله ﷺ التراب، فلما كان أبو بكر: أتي بشارب، فسألهم عن ضرب النبي ﷺ الذي ضربه، فَحَزَرُوهُ أربعين، فضرب أبو بكر أربعين، فلما كان عمر، كتب إليه خالد بن الوليد: إن الناس قد انهمكوا في الشرب، وتحاقروا الحد والعقوبة، قال: هم عندك فسلهم، وعنده المهاجرون الأولون، فسألهم، فأجمعوا على أن يضرب ثمانين، قال: وقال علي: إن الرجل إذا شرب افترى، فأرى أن يَجعله كَحَدِّ الفرية. (أخرجه أبو داود ٤٤٨٩).

الاعتدال

الاعتدال من أهم معالم التربية النبوية، بل هو مما تنفرد به عن سائر المناهج والفلسفات والتجارب البشرية.

ومن أبرز ما يتمثل فيه الاعتدال في التربية النبوية ما يلي:

أولًا: وسطية الإسلام عقيدة وشريعة:

أرسل الله نبيه ﷺ بعقيدة وشريعة يتجلى فيها الاعتدال والوسطية، قال سبحانه وتعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾ (البقرة: ١٤٣).

ونهى الله تبارك وتعالى أهل الكتاب عن الغلو في الدين، فقال عز وجل: ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ ﴾ (النساء: ١٧١).

وقال سبحانه: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوٓا۟ أَهْوَآءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا۟ مِن قَبْلُ وَأَضَلُّوا۟ كَثِيرًا وَضَلُّوا۟ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ﴾ (المائدة: ٧٧).

ونَهيُ أهل الكتاب عن الغلو يتضمن نفي الغلو عن دين الإسلام الذي أُمروا باتباعه، كما يتضمن نهي المسلمين عن الغلو في أي باب من أبواب الدين.

ووصف الله عز وجل نبيه محمدًا ﷺ بوضع الآصار والأغلال التي كانت على مَن سبق، فقال سبحانه وتعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٧﴾ ﴾ (الأعراف: ١٥٧).

ونفى الله عز وجل الحرج عن الدين، فقال- في سياق بيان أحكام الطهارة-: ﴿مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ (المائدة: ٦).

وربط تبارك وتعالى بين اصطفاء الأمة ونفي الحرج عنها، فقال عز وجل: ﴿وَجَٰهِدُوا۟ فِى ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ ۚ هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ ۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِى هَٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ ۚ فَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱعْتَصِمُوا۟ بِٱللَّهِ هُوَ مَوْلَىٰكُمْ ۖ فَنِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ ﴿٧٨﴾﴾ (الحج: ٧٨).

قال الماوردي: «الخصلة الثالثة: أنه عدل فيما شرعه من الدين عن غلو النصارى في التشديد، وعن تقدير اليهود في التقصير، إلى التوسط بينهما، وخير الأمور أوساطها؛ لأنه العدل بين طرفي سَرَفٍ وتقصير، فليس لما جاوز العدل حَظٌّ من رَشَد ولا نصيبٌ من سَداد، وقد قال ﷺ: «إن هذا الدين متين، فأوغلوا فيه برفق، فشر السير الحَقْحَقَة، وأن المُنْبَتَّ لا أرضًا قطع، ولا ظهرًا أبقى». (أعلام النبوة، للماوردي ٢٢٨-٢٢٩).

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية: «وهذه الفرقة الناجية -أهل السنة- وهم وسط في النِّحَل، كما أن ملة الإسلام وسط في المِلَل؛ فالمسلمون وسط في أنبياء الله ورسله وعباده الصالحين، لم يغلوا فيهم كما غلت النصارى، فاتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابًا من دون الله والمسيح ابن مريم، وما أمروا إلا ليعبدوا إلهًا واحدًا لا إله إلا هو سبحانه عما يشركون، ولا جفوا عنهم كما جفت اليهود، فكانوا يقتلون الأنبياء بغير حق، ويقتلون الذين يأمرون بالقسط من الناس، وكلما جاءهم رسول بما لا تهوى أنفسهم كذبوا فريقًا وقتلوا فريقًا، بل المؤمنون آمنوا برسل الله وعزروهم ونصروهم ووقروهم وأحبوهم وأطاعوهم، ولم يعبدوهم ولم يتخذوهم أربابًا». (مجموع الفتاوى ٣/ ٣٧٠)، ثم ذكر وسطيتهم في شرائع دين الله، وفي الحلال والحرام.

وليس هذا مقام البسط والحديث عن وسطية الإسلام عقيدة وشريعة، لكن المقصود أن تربية النبي ﷺ لأصحابه على عقيدة الإسلام وأحكامه لها أثرها في بناء الشخصية المعتدلة وتكوينها؛ فزيادة فقه المسلم في الدين من أهم أسباب تحقيق الاعتدال في شخصيته.

ثانيًا: الاعتدال في شخصية النبي ﷺ:

كان الاعتدال سمة للنبي ﷺ في شخصيته وتكوينه، وفي عبادته لله عز وجل، وفي سياسته للناس وقيادتهم.

وصف أصحابُه رضوان الله عليهم عبادته بالقصد والاعتدال، فعن جابر بن سمرة ﷺ، قال: «كنت أصلي مع رسول الله ﷺ فكانت صلاته قصدًا، وخطبته قصدًا». (أخرجه مسلم ٨٦٦).

ولم يكن الاعتدال في حياة النبي ﷺ قاصرًا على العبادة فحسب، بل كان سمة لحياته ﷺ، حتى وصفه أصحابه رضوان الله عليهم باعتداله في مشيته، فعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كان رسول الله ﷺ يمشي مشيًا يُعرف فيه أنَّه ليس بعاجزٍ ولا كسلان. (أخرجه ابن عساكر ٤/ ٦١، والبزار).

وفي رواية لأحمد (٣٠٣٣) أن النبي ﷺ «**كان إذا مشى، مشى مجتمعًا، ليس فيه كسل**».

وكان معتدلًا في مزاحه معهم ومضاحكته لهم؛ فكان كثير التبسم ﷺ، عن جرير ﷺ، قال: ما حجبني النبي ﷺ منذ أسلمت، ولا رآني إلا تبسم في وجهي. (أخرجه البخاري ٣٠٣٥، ومسلم ٢٤٧٥).

ومع كثرة تبسمه ﷺ فضحكه لم يكن يخرج به عن سمته ووقاره، عن عائشة رضي الله عنها، قالت: «ما رأيت النبي ﷺ مستجمعًا قطُّ ضاحكًا، حتى أرى منه لَهَوَاتِه، إنما كان يتبسم». (أخرجه البخاري ٦٠٩٢، ومسلم ٨٩٩).

وفي رواية مسلم : ما رأيت رسول الله ﷺ مستجمعًا ضاحكًا، حتى أرى منه لَهَوَاتِه، إنما كان يتبسم، قالت: وكان إذا رأى غيمًا أو ريحًا، عُرف ذلك في وجهه، فقالت: يا رسول الله، أرى الناس إذا رأوا الغيم فرحوا؛ رجاء أن يكون فيه المطر، وأراك إذا رأيته عرفت في وجهك الكراهية؟ قالت: فقال: «يا عائشة، ما يؤمنني أن يكون فيه عذاب؟ قد عُذِّب قوم بالريح، وقد رأى قوم العذاب، فقالوا: ﴿هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا﴾». (الأحقاف: ٢٤).

وكان ﷺ يدعو ربه أن يرزقه الاعتدال في حياته، عن أبي مجلز، قال: صلى بنا عمار ﷺ صلاة، فأوجز فيها، فأنكروا ذلك، فقال: ألم أتم الركوع والسجود؟ قالوا: بلى، قال: أما إني قد دعوت فيهما بدعاء كان رسول الله ﷺ يدعو به: «اللهم بعلمك الغيب، وقدرتك على الخلق، أحيني ما علمت الحياة خيرًا لي، وتوفني إذا كانت الوفاة خيرًا لي، أسألك خشيتك في الغيب والشهادة، وكلمة الحق في الغضب والرضا، والقصد في الفقر والغنى، ولذة النظر إلى وجهك، والشوق إلى لقائك، وأعوذ بك من ضراء مضرَّة، ومن فتنة مضلَّة، اللهم زينا بزينة الإيمان، واجعلنا هداة مهديين». (أخرجه أحمد ١٨٣٢٥، والنسائي ١٣٠٥-١٣٠٦).

قال ابن القيم رحمه الله: «ولما كان أكثر الناس إنما يتكلم بالحق في رضاه، فإذا غضب أخرجه غضبه إلى الباطل، وقد يدخله أيضًا رضاه في الباطل، سأل الله عز وجل من توفيقه لكلمة الحق في الغضب والرضى، ولهذا قال بعض السلف: لا تكن ممن إذا رضي أدخله رضاه في الباطل، وإذا غضب أخرجه غضبه من الحق.

ولما كان الفقر والغنى محنتَين وبليَّتَيْن، يبتلي الله بهما عبده، ففي الغنى يبسط يده، وفي الفقر يقبضها، سأل الله عز وجل القصد في الحالين، وهو التوسط الذى ليس معه إسراف ولا تقتير». (إغاثة اللهفان ١/ ٢٩).

والحديث عن اعتداله ﷺ يطول وليس هذا مقام استيعابه، والمقصود أن اتصافه ﷺ بالاعتدال له أثره البالغ على تربية أصحابه وتكوينهم.

وربما كانت شخصية المربي من أكثر عوامل اكتساب سمات الاعتدال والتحلي بها، أو اكتساب نقيضها، فثمة مربون أفاضل ذوو علم وديانة وسلوك، ولهم أثر في نشر الخير والعلم والدعوة، ومع ذلك فهم لا يَسْلَمُونَ مِن حِدَّةٍ في طباعهم تترك أثرها على بعض مواقفهم وآرائهم وأحكامهم؛ فيتعلم منهم طلابهم هذه السمة، وبخاصة أنها قد تصدر منهم في موقف دفاع عن حق، أو رد على باطل، وتكرُّر هذه المواقف يحولها إلى أن تصبح جزءًا من تكوين المتربين على يديه وطريقة تفكيرهم.

ثالثًا: النتاج التربوي:

من أهم ما يبرز الاعتدال في التربية النبوية نتاج تلك التربية وأثرها، وقد سبق الحديث مفصلًا عن النتاج التربوي لتربية النبي ﷺ، والمقصود هنا بيان صلة ذلك بالاعتدال بصفته مَعلمًا من معالم التربية النبوية.

حين تتأمل واقع أصحاب النبي ﷺ ستراهم- مع بشريَّتهم- أكثر الناس اعتدالًا، وأبعدهم عن الغلو والشَّطط، وقد مرت بهم أحداث وفتن تهز النفوس، فلم تدفعهم لردود أفعال حادة مجانبة للحكمة والاعتدال.

فقدوا رسول الله ﷺ الذي كان يتلو عليهم آيات الله، ويعلمهم الكتاب والحكمة، ويزكيهم، فقدوه وقد عاشوا معه ﷺ سنوات عدة في السراء والضراء، في المنشط والمكره: يعظهم، ويعلمهم، ويمازحهم، ويوجههم، وربما يعاتبهم عتاب المحب الناصح، فأصبحوا بين عشية وضحاها قد فقدوه.

ارتدَّ حدثاء العهد بالإسلام، وطائفة ممن وصفهم الله عز وجل بقوله: ﴿قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ﴾ (الحجرات: ١٤).

ظهرت بدايات التفرق والمقولات الضالة في الأمة؛ فظهرت الخوارج، والقول بنفي القدر.

وهكذا اتساع الفتوحات وما صاحبه من انفتاح الأمة على مجتمعات الفرس والروم والأقباط وغيرهم بما يحملونه من ثقافة وحياة اجتماعية، وانفتاح المجتمع الإسلامي على واقع اقتصادي واجتماعي جديد.

كل هذه العوامل التي واجهت مجتمعًا كان في قمة الصفاء والتديُّن، لم تولد حالات إفراط أو تفريط بين أصحاب النبي ﷺ، لا في الاعتقاد، ولا في التعبد والنسك، ولا في الخلق والسلوك، ولا في التعامل مع الآخرين؛ مما يبرز نتاج التربية النبوية في بناء الوسطية والاعتدال لدى الرعيل الأول.

رابعًا: عنايته ﷺ بالتربية على الاعتدال:

ومع الأثر البارز لوسطية الدين، ولشخصية النبي ﷺ في التربية على الاعتدال، إلا أن الطبيعة البشرية تتطلب بذل مزيد من الجهد التربوي الخاص لتأسيس الاعتدال، وعلاج ما قد يظهر من حالات الاختلال في ذلك.

وقد تنوعت أساليب اعتنائه ﷺ بتربية أصحابه على الاعتدال، ومن ذلك ما يلي:

١ - تقريره يسر الدين:

كان ﷺ يقرر لأصحابه ويعلِّمهم يسر الدين وسماحته، ويقرِّب لهم ﷺ الصورة المجردة بنموذج محسوس، عن أبي هريرة ﷺ، عن النبي ﷺ قال: «إن الدين يسر، ولن يشادَّ الدين أحد إلا غلبه، فسددوا وقاربوا، وأبشروا، واستعينوا بالغَدْوَة والرَّوحة وشيء من الدُّلجَة» (أخرجه البخاري ٣٩).

قال ابن رجب: «التسديد: هو إصابة الغرض المقصود، وأصله من تسديد السهم إذا أصاب الغرض المرمي إليه ولم يخطه، والمقاربة: أن يقارب الغرض وإن لم يصبه؛ لكن يكون مجتهدًا على الإصابة، فيصيب تارة ويقارب تارة أخرى، أو تكون المقاربة لمن عجز

عن الإصابة، كما قال تعالى: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ﴾ (التغابن: ١٦)، وقال النبي ﷺ: «إذا أمرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم»». (فتح الباري لابن رجب ١/ ١٥١).

وقال أيضًا: «ومعنى الحديث: النهي عن التشديد في الدين بأن يحمل الإنسان نفسه من العبادة ما لا يحتمله إلا بكلفة شديدة، وهذا هو المراد بقوله ﷺ -لن يُشَادَّ الدين أحدٌ إلا غلبه-، يعني: أن الدين لا يؤخذ بالمغالبة، فمن شادَّ الدين غلبَه وقطعَه». (فتح الباري لابن رجب ١/ ١٤٩).

وحين سئل ﷺ عن أحب الدين إلى الله أجاب بما يعبر عن الاعتدال والوسطية، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قيل لرسول الله ﷺ: أي الأديان أحب إلى الله؟ قال:«الحنيفية السمحة». (أخرجه أحمد ٢١٠٧).

٢- بيانه منزلة الاعتدال:

ومع تقريره ﷺ يسر الدين ووسطيته فقد كان يبين لأصحابه منزلة الاعتدال وفضله، عن أبي هريرة رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «ثلاث منجيات، وثلاث مهلكات، فأما المنجيات: فتقوى الله في السر والعلانية، والقول بالحق في الرضا والسخط، والقصد في الغنى والفقر، وأما المهلكات: فهوًى مُتَّبَع، وشُحٌّ مطاع، وإعجاب المرء بنفسه، وهي أشدهن». (أخرجه البيهقي في شعب الإيمان ٦٨٦٥).

٣- إنكاره على من جاوز الاعتدال:

دفع الحرص على الطاعة والاجتهاد فيها بعضَ أصحاب النبي ﷺ إلى مبالغة في التعبد، وإجهاد للنفس، فنهاهم ﷺ عن ذلك، وأنكر هذه المظاهر.

عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: دخل النبي ﷺ فإذا حبل ممدود بين الساريتين، فقال: «ما هذا الحبل؟» قالوا: هذا حبل لزينب فإذا فترت تعلقت، فقال النبي ﷺ: «لا، حُلُّوه،

لِيُصَلِّ أحدكم نشاطه، فإذا فتر فليقعد». (أخرجه البخاري ١١٥٠، ومسلم ٧٨٤).

وعن عائشة ﵂، أن النبي ﷺ دخل عليها وعندها امرأة، قال: «من هذه؟» قالت: فلانة، تذكر من صلاتها، قال: «مه، عليكم بما تطيقون، فوالله لا يمل الله حتى تملوا»، وكان أحب الدين إليه ما دام عليه صاحبه. (أخرجه البخاري ٤٣، ومسلم٧٨٥).

وقد ورد في رواية مسلم (٧٨٥) تسمية هذه المرأة بالحَوْلَاء بنت تُوَيْت، فعن عائشة زوج النبي ﷺ، أن الحَوْلَاء بنت تُوَيْت بن حبيب بن أسد بن عبد العزى مرت بها وعندها رسول الله ﷺ، فقلت: هذه الحَوْلَاء بنت تُوَيْت، وزعموا أنها لا تنام الليل، فقال رسول الله ﷺ: «لا تنام الليل، خذوا من العمل ما تطيقون، فوالله لا يسأم الله حتى تسأموا».

قال ابن رجب: «وقول النبي ﷺ -مه- زجر لعائشة عن قولها عن هذه المرأة في كثرة صلاتها وأنها لا تنام الليل، وأمر لها بالكف عما قالته في حقها؛ فيحتمل أن ذلك كراهية للمدح في وجهها؛ حيث كانت المرأة حاضرة، ويحتمل- وهو الأظهر، وعليه يدل سياق الحديث- أن النهي إنما هو لمدحها بعمل ليس بممدوح في الشرع، وعلى هذا فكثيرًا ما يذكر في مناقب العباد من الاجتهاد المخالف للشرع، ينهى عن ذكره على وجه التمدح به والثناء به على فاعله». (فتح الباري لابن رجب ١/ ١٦٤-١٦٥).

ونهى ﷺ من شَقَّت على نفسها بالنذر عن ذلك، وأمرها بالاقتصار على المشروع، عن عقبة بن عامر ﵁ قال: نذرت أختي أن تمشي، إلى بيت الله، وأمرتني أن أستفتي لها النبي ﷺ، فاستفتيته، فقال ﷺ: «لتمش، ولتركب». (أخرجه البخاري ١٨٦٦، ومسلم ١٤٦٨).

وكذلك الحال مع من جمع في نذره بين ما يشرع وما لا يشرع، فعن ابن عباس ﵄، قال: بينا النبي ﷺ يخطب، إذا هو برجل قائم، فسأل عنه فقالوا: أبو إسرائيل، نذر أن يقوم

ولا يقعد، ولا يستظل، ولا يتكلم، ويصوم، فقال النبي ﷺ: «مُرْهُ فليتكلم وليستظلَّ وليقعد، وليتمَّ صومَه». (أخرجه البخاري ٦٧٠٤).

وعن أنس ﷺ أن النبي ﷺ رأى شيخًا يهادى بين ابنيه، فقال: «ما بال هذا؟» قالوا: نذر أن يمشي، قال: «إن الله عن تعذيب هذا نفسه لغني»، وأمره أن يركب. (أخرجه مسلم ١٦٤٢).

وأنكر ﷺ بيده على من ربط زمامًا بأنف صاحبه يقوده في الطواف، فعن ابن عباس ﷺ «أن النبي ﷺ مَرَّ وهو يطوف بالكعبة بإنسان يقود إنسانًا بِخِزَامَةٍ[1] في أنفه، فقطعها النبي ﷺ بيده، ثم أمره أن يقوده بيده». (أخرجه البخاري ٦٧٠٣).

قال ابن حجر: «قال ابن بطال: وإنما قطعه؛ لأن القود بالأزمَّة إنما يفعل بالبهائم، وهو مُثْلة». (فتح الباري ٣/ ٤٨٣).

وحين رأى ﷺ من بالغ في العبادة أنكر عمله، عن رجاء بن أبي رجاء قال: كان بُرَيْدَة على باب المسجد، فمر محجنٌ عليه وسُكْبَةُ يصلي، فقال بُرَيْدَة- وكان فيه مُزَاحٌ-، لمحجن: ألا تصلي كما يصلي هذا؟ فقال محجن: إن رسول الله ﷺ أخذ بيدي، فصعد على أحد، فأشرف على المدينة، فقال: «ويل أُمِّها! قرية يدعها أهلها خير ما تكون، أو كأخير ما تكون، فيأتيها الدَّجَّال، فيجد على كل باب من أبوابها ملكًا مُصْلِتًا بجناحه فلا يدخلها»، قال: ثم نزل وهو آخذ بيدي، فدخل المسجد، وإذا هو برجل يصلي، فقال لي: «من هذا؟» فأثنيت عليه خيرًا، فقال: «اسكت لا تسمعه، فتهلكه»، قال: ثم أتى حجرة امرأة من نسائه، فنفض يده من يدي، قال: «إن خير دينكم أيسره، إن خير دينكم أيسره». (أخرجه أحمد ١٨٩٧٦).

---

(١) قال ابن حجر :« والخزامة بكسر المعجمة وتخفيف الزاي حلقة من شعر أو وبر تجعل في الحاجز الذي بين منخري البعير يشد فيها الزمام ليسهل انقياده إذا كان صعبا » (فتح الباري ١١/ ٥٨٩).

٤- تأكيده على حقوق النفس والآخرين:

غالبًا ما تكون المبالغة في التعبد وتجاوز القدر المشروع في ذلك على حساب رعاية حق النفس، وحق الآخرين؛ لذا فقد أرشد ﷺ من وقع في شيء من ذلك إلى أهمية رعاية هذه الحقوق، والتوازن بين حق الله عز وجل، وحق النفس، وحقوق الآخرين.

كان عبد الله بن عمرو بن العاص ﷺ مجتهدًا في التعبد حتى قصَّر في حق أهله، فاشتكى والده إلى النبي ﷺ، فدعاه ﷺ، وذكَّره برعاية هذه الحقوق.

عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما، قال لي رسول الله ﷺ: «يا عبد الله، ألم أخبر أنك تصوم النهار، وتقوم الليل؟»، فقلت: بلى يا رسول الله، قال: «فلا تفعل، صم وأفطر، وقم ونم؛ فإن لجسدك عليك حقًّا، وإن لعينك عليك حقًّا، وإن لزوجك عليك حقًّا، وإن لِزَوْرِكَ عليك حقًّا، وإن بحسبك أن تصوم كل شهر ثلاثة أيام؛ فإن لك بكل حسنة عشر أمثالها، فإن ذلك صيام الدهر كله»، فشدَّدت، فَشُدِّدَ عليَّ، قلت: يا رسول الله إني أجد قوة قال: «فصم صيام نبي الله داود عليه السلام، ولا تزد عليه»، قلت: وما كان صيام نبي الله داود عليه السلام؟ قال: «نصف الدهر»، فكان عبد الله يقول- بعد ما كبر-: يا ليتني قبلت رخصة النبي ﷺ. (أخرجه البخاري ١٩٧٥، ومسلم ١١٥٩).

وأقرَّ ﷺ سلمانَ الفارسي على ما قاله لأبي الدرداء رضي الله عنهما، عن عون بن أبي جحيفة، عن أبيه، قال: آخى النبي ﷺ بين سلمان، وأبي الدرداء، فزار سلمانُ أبا الدرداء، فرأى أم الدرداء متبذِّلة، فقال لها: ما شأنك؟ قالت: أخوك أبو الدرداء ليس له حاجة في الدنيا، فجاء أبو الدرداء فصنع له طعامًا، فقال: كل، قال: فإني صائم، قال: ما أنا بآكل حتى تأكل، قال: فأكل، فلما كان الليل ذهب أبو الدرداء يقوم، قال: نم، فنام، ثم ذهب يقوم، فقال: نم، فلما كان من آخر الليل قال: سلمان قم الآن، فصليا، فقال له سلمان: إن لربك عليك حقًّا،

ولنفسك عليك حقًّا، ولأهلك عليك حقًّا، فأعط كل ذي حق حقه، فأتى النبي ﷺ، فذكر ذلك له، فقال النبي ﷺ: «صدق سلمان». (أخرجه البخاري ١٩٦٨).

٥- إقراره الأخذ بحض النفس المشروع:

اشتكى بعض أصحاب النبي ﷺ له عن اختلاف حالهم عند مخالطة أهلهم وأولادهم عما يجدونه في مجالسته ﷺ، عن حنظلة الأسيدي، قال- وكان من كُتَّاب رسول الله ﷺ - قال: لقيني أبو بكر، فقال: كيف أنت؟ يا حنظلة قال: قلت: نافق حنظلة، قال: سبحان الله! ما تقول؟ قال: قلت: نكون عند رسول الله ﷺ، يذكِّرنا بالنار والجنة، حتى كأنا رأي عين، فإذا خرجنا من عند رسول الله ﷺ عافسنا الأزواج والأولاد والضيعات، فنسينا كثيرًا، قال أبو بكر: فوالله إنا لنلقى مثل هذا، فانطلقت أنا وأبو بكر، حتى دخلنا على رسول الله ﷺ، قلت: نافق حنظلة، يا رسول الله فقال رسول الله ﷺ «وما ذاك؟» قلت: يا رسول الله نكون عندك، تذكِّرنا بالنار والجنة، حتى كأنا رأي عين، فإذا خرجنا من عندك، عافسنا الأزواج والأولاد والضيعات، نسينا كثيرًا، فقال رسول الله ﷺ: «والذي نفسي بيده إن لو تدومون على ما تكونون عندي، وفي الذكر، لصافحتكم الملائكة على فرشكم وفي طرقكم، ولكن يا حنظلة ساعة وساعة»، ثلاث مرات. (أخرجه مسلم ٢٧٥٠).

٦- إزالة بواعث الغلو:

ثمة بواعث قد تدفع بالمرء إلى الغلو ومجاوزة القدر، وقد كان ﷺ يزيل هذه البواعث، ويكشف الشبه التي قد تقود بعض أصحابه إلى المبالغة في التعبد.

يقرر ﷺ لأصحابه أن المرء مهما بلغ في الاجتهاد والعمل الصالح فإن عمله لن يدخله الجنة إلا برحمة الله، عن أبي هريرة ﷺ، قال: قال رسول الله ﷺ: «لن ينجي أحدًا منكم عملُه»، قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: «ولا أنا، إلا أن يتغمدني الله برحمة، سددوا

وقاربوا، واغدوا وروحوا، وشيء من الدُّلجَة، والقصدَ القصدَ تبلغوا». (أخرجه البخاري ٦٤٦٣، ومسلم ٢٨١٦).

وعن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ قال: «سددوا وقاربوا، واعلموا أن لن يدخل أحدَكم عملُه الجنةَ، وأن أحب الأعمال إلى الله أدومها وإن قَلَّ». (أخرجه البخاري ٦٤٦٤، ومسلم ٢٨١٨).

ولما سعى بعض أصحاب النبي ﷺ إلى الاجتهاد في العبادة أكثر مما كان يفعل ﷺ؛ محتجين بأنه قد غُفر له، استدرك ﷺ ذلك عليهم، وبيَّن أن خير الهدي هديه، وأنه أتقى الناس وأخشاهم لربه.

عن أنس بن مالك رضي الله عنه، قال: جاء ثلاثة رهط إلى بيوت أزواج النبي ﷺ يسألون عن عبادة النبي ﷺ، فلما أخبروا كأنهم تَقَالُّوهَا، فقالوا: وأين نحن من النبي ﷺ؟ قد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، قال أحدهم: أما أنا فإني أصلي الليل أبدًا، وقال آخر: أنا أصوم الدهر ولا أفطر، وقال آخر: أنا أعتزل النساء فلا أتزوج أبدًا، فجاء رسول الله ﷺ إليهم، فقال: «أنتم الذين قلتم كذا وكذا؟ أما والله إني لأخشاكم لله وأتقاكم له، لكني أصوم وأفطر، وأصلي وأرقد، وأتزوج النساء، فمن رغب عن سنتي فليس مني» (أخرجه البخاري ٥٠٦٣، ومسلم ١٤٠١).

وأنكر ﷺ على من تنزهوا عما رخَّص فيه، فعن عائشة رضي الله عنها: صنع النبي ﷺ شيئًا ترخص فيه، وتنزه عنه قوم، فبلغ ذلك النبي ﷺ، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: «ما بال أقوام يتنزهون عن الشيء أصنعه، فوالله إني أعلمهم بالله وأشدهم له خشية». (أخرجه البخاري ٧٣٠١، ومسلم ٢٣٥٦).

٧- بيانه لآثار الغلو والمبالغة:

بيَّن ﷺ لأصحابه آثار الغلو والمبالغة في التعبد، وأخبرهم أن نهاية ذلك انقطاع النفس، وأن الدين سيغلب مَن شادَّه؛ ففي حديث أبي هريرة السابق قال :«ولن يشادَّ الدينَ أحدٌ إلا غلبه».

قال ابن حجر: «قال ابن المنير: في هذا الحديث علم من أعلام النبوة، فقد رأينا ورأى الناس قبلنا أن كل متنطع في الدين ينقطع، وليس المراد منع طلب الأكمل في العبادة؛ فإنه من الأمور المحمودة، بل منع الإفراط المؤدي إلى الملال، أو المبالغة في التطوع المفضي إلى ترك الأفضل، أو إخراج الفرض عن وقته». (فتح الباري ١/ ٩٤).

كما بين ﷺ أن التنطُّع يقود صاحبه إلى الهلاك، فعن الأحنف بن قيس، عن عبد الله ﷺ، قال: قال رسول الله ﷺ:«هلك المتنطعون»، قالها ثلاثًا. (أخرجه مسلم ٢٦٧٠).

قال النووي: «أي: المتعمقون الغالون المجاوزون الحدود في أقوالهم وأفعالهم». (شرح صحيح مسلم ١٦/ ٢٢٠).

٨- بيانه القدر المشروع في العبادة:

الإفراط والتفريط إنما ينشآن عن تجاوز القدر المشروع في العبادة؛ لذا فقد قرن ﷺ النهي عن الغلو ببيان الصفة الشرعية للعبادة، فعن ابن عباس رضي الله عنهما، قال: قال لي رسول الله ﷺ غداة جمع: «هَلُمَّ الْقُطْ لي»، فلقطت له حصيات هن حصى الخَذْف، فلما وضعهن في يده، قال: «نَعَمْ بأمثال هؤلاء، وإياكم والغلو في الدين، فإنما هلك من كان قبلكم بالغلو في الدين». (أخرجه أحمد ١٨٥١، والنسائي ٣٠٥٧، وابن ماجه ٣٠٢٩).

إن اتجاه النفس إلى الغلو نابع عن شعور صاحبها بحاجته إلى الاجتهاد في الطاعة والتقرب إلى الله عز وجل، ولن يتم علاج هذا الاختلال لديه إلا بتعليمه العمل المشروع، وإعانته على تحقيق التقرب إلى الله بما شرع سبحانه وتعالى.

٩- نهيه عن التفريط:

لم يكن أمره ﷺ بالاعتدال، ونهيه عن مجاوزته قاصرًا على حال الغلو والتعمق في الدين، إنما نهى أصحابه عمَّا يقابل ذلك، فنهاهم ﷺ عن السرف والمخيلة، عن عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جده رضي الله عنهما، قال: قال رسول الله ﷺ : «كلوا، وتصدقوا، والبسوا في غير إسراف، ولا مخيلة» (أخرجه النسائي ٢٥٥٩، وأحمد ٦٦٩٥).

قال ابن حجر: «قال الموفق عبد اللطيف البغدادي: هذا الحديث جامع لفضائل تدبير الإنسان نفسه، وفيه تدبير مصالح النفس والجسد في الدنيا والآخرة؛ فإن السرف في كل شيء يضر بالجسد ويضر بالمعيشة؛ فيؤدي إلى الإتلاف ويضر بالنفس؛ إذ كانت تابعة للجسد في أكثر الأحوال، والمخيلة تضر بالنفس حيث تكسبها العُجب، وتضر بالآخرة حيث تكسب الإثم، وبالدنيا حيث تكسب المقت من الناس». (فتح الباري ١٠/ ٢٥٣).

أما نهيه ﷺ وتحذيره من التفريط في أمور العبادات والتقصير فيها فأكثر من أن يحصر أو يستقصى، فقد توعَّد ﷺ مَن لا يستتر من بوله، وتوعَّد من يتساهل بالوضوء فيبقى من بشرته ما لم يصبه الماء.

وتوعَّد ﷺ مَن أخَّر الصلاة عن وقتها، ومَن يفرط في إتمام ركوعها وسجودها، ومَن ينام عنها، ومن يفرِّط في صلاة الجماعة فيصلي في بيته.

وتوعَّد ﷺ من فرَّط في الزكاة الواجبة فلم يخرجها، ومن استهان بها فأخرج رديء ماله، أو أخرجها عن غير طيب نفس.

وتوعَّد ﷺ من أفطر في رمضان دون عذر، وغلَّظ الكفارة على مَن تساهل في شأن الصيام فأتى أهله في نهار رمضان.

وهكذا توعَّد ﷺ مَن تساهل في الكسب الحرام فأكل الربا، أو كسب المال عن طريق الغش، أو التدليس، وتوعَّد مَن تساهل في ظلم الناس وإيذائهم بلسانه أو يده...إلخ.

ونهيه ﷺ أصحابه وأمته عن التفريط والتساهل في العبادات والطاعات، أو الحلال والحرام، أو سائر حقوق الله عز وجل وحقوق المخلوقين أضعاف نهيه عن الغلو والتشدد؛ إذ الأغلب لدى أكثر الناس هو التساهل والتهاون، والله المستعان.

* * *

الفصل الثالث: مجالات التربية النبوية

المجال الإيماني والعبادة.

المجال الخلقي والسلوكي.

المجال الجسمي.

المجال النفسي.

المجال العقلي.

المجال الاجتماعي.

التربية الجمالية.

الإعداد للحياة الدنيوية.

تنمية الكرامة.

المجال الإيماني والعبادة

عبادة الله عز وجل وحده لا شريك له هي الحكمة من خلق الإنسان وغاية وجوده، كما قال سبحانه: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ (الذاريات: ٥٦)؛ لذا كان من أهم أدوار التربية تهيئة الإنسان وإعداده لهذه الوظيفة.

وتمثل التربية الإيمانية محور ارتكاز التربية النبوية، وعنوانها، ومبدأها ومنتهاها؛ فغاية ما اشتغل به ﷺ مع أصحابه تعريفهم حقائق الإيمان، وتربيتهم عليه، وتعليمهم مقتضياته من العلم والعمل.

فالإيمان هو أفضل الأعمال، عن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ سئل: أي العمل أفضل؟ فقال: «إيمان بالله ورسوله» قيل: ثم ماذا؟ قال: «الجهاد في سبيل الله»، قيل: ثم ماذا؟ قال: «حج مبرور». (أخرجه البخاري ٢٦، ومسلم ٨٣).

والإيمان هو مناط دخول الجنة، عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تدخلون الجنة حتى تؤمنوا، ولا تؤمنوا حتى تحابوا، أولا أَدُلُّكم على شيء إذا فعلتموه تحاببتم؟ أفشوا السلام بينكم». (أخرجه مسلم ٥٤).

وتفاضل أهل الجنة فيما بينهم بالإيمان؛ فعن أبي سعيد الخدري ﷺ أن النبي ﷺ قال: «إن أهل الجنة ليتراءون أهل الغرف من فوقهم كما تتراءون الكوكب الدُّرِّيَّ الغابر من الأفق من المشرق أو المغرب لتفاضل ما بينهم»، قالوا: يا رسول الله، تلك منازل الأنبياء لا يبلغها غيرهم، قال: «بلى، والذي نفسي بيده، رجال آمنوا بالله وصدقوا المرسلين». (أخرجه مسلم ٢٨٣١، وأصله في البخاري دون موضع الشاهد).

وتفاوت العصاة من الموحدين في النار مرتبط بالإيمان؛ فعن معبد بن هلال العنزي قال: اجتمعنا ناس من أهل البصرة، فذهبنا إلى أنس بن مالك ﷺ وذهبنا معنا بثابت البناني

إليه يسأله لنا عن حديث الشفاعة، فإذا هو في قصره، فوافقناه يصلي الضحى، فاستأذنا، فأذن لنا وهو قاعد على فراشه، فقلنا لثابت: لا تسأله عن شيء أول من حديث الشفاعة، فقال: يا أبا حمزة، هؤلاء إخوانك من أهل البصرة جاؤوك يسألونك عن حديث الشفاعة، فقال: حدثنا محمد ﷺ قال: «إذا كان يوم القيامة ماج الناس بعضهم في بعض فيأتون آدم...الحديث، وفيه: فأقول: يا رب، أمتي أمتي، فيقول: انطلق، فأخرج منها من كان في قلبه مثقال شعيرة من إيمان، فأنطلق فأفعل، ثم أعود فأحمده بتلك المحامد، ثم أخرُّ له ساجدًا، فيقال: يا محمد، ارفع رأسك، وقل يُسمع لك، وسل تُعط، واشفع تشفَّع، فأقول: يا رب أمتي أمتي، فيقول: انطلق، فأخرج منها من كان في قلبه مثقال ذرة أو خردلة من إيمان، فأخرجه، فأنطلق فأفعل، ثم أعود فأحمده بتلك المحامد، ثم أخر له ساجدًا، فيقول: يا محمد، ارفع رأسك، وقل يُسمع لك، وسل تُعط، واشفع تُشفَّع، فأقول: يا رب، أمتي أمتي، فيقول: انطلق فأخرج من كان في قلبه أدنى أدنى أدنى مثقال حبة خردل من إيمان، فأخرجه من النار، فأنطلق فأفعل». (أخرجه البخاري ٧٥١٠).

التربية الإيمانية هي البداية:

كانت التربية الإيمانية هي بداية ما كان يعنى به ﷺ في تربيته لأصحابه، وكانت تسبق تعلم القرآن الكريم، يحدثنا عن ذلك جندب بن عبد الله ؓ فيقول: «كنا مع النبي ﷺ ونحن فتيان حَزَاوِرَة[1]، فتعلمنا الإيمان قبل أن نتعلم القرآن، ثم تعلمنا القرآن فازددنا به إيمانًا». (أخرجه ابن ماجه ٦١).

وأدرك ابن عمر ؓ تغير العصر، وقصور التربية الإيمانية، وأن بعض الناس انشغلوا بإتقان حروف القرآن قبل أن يتربَّوا على الإيمان، فيحدثنا ؓ عن حالهم مع رسول الله ﷺ فيقول: «لقد لبثنا بُرهة من دهر، وأحدنا ليؤتى الإيمان قبل القرآن، تنزل السورة

(١) الحَزَوَّر هو الغلام إذا اشتد وقوي وخدم، وهو الذي قارب البلوغ (اللسان ٤/ ١٨٧).

على محمد ﷺ فتتعلم حلالها وحرامها، وأمرها وزاجرها، وما ينبغي أن يوقف عنده منها كما يتعلم أحدكم السورة، ولقد رأيت رجالًا يؤتى أحدهم القرآن قبل الإيمان يقرأ ما بين فاتحته إلى خاتمته، ما يعرف حلاله ولا حرامه، ولا أمره ولا زاجره، ولا ما ينبغي أن يوقف عنده منه وينثره نثر الدَّقَل». (أخرجه ابن منده في الإيمان ٢٠٧، والحاكم ١٠٧).

وقال الحسن رحمه الله: «إن هذا القرآن قد قرأه عبيد وصبيان لا علم لهم بتأويله، ولم يتأولوا الأمر من قبل أوله، وقال الله سبحانه وتعالى: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ﴾ (ص: ٢٩)، وما تدبروا آياته اتباعه، والله بعلمه[1]، أما والله ما هو بحفظ حروفه وإضاعة حدوده، حتى أن أحدهم ليقول: لقد قرأت القرآن كله فما أسقطت منه حرفًا، وقد والله أسقطه كله، ما يرى له القرآن في خلق، ولا عمل، حتى أن أحدهم ليقول: إني لأقرأ السورة في نَفَس، والله ما هؤلاء بالقراء، ولا العلماء، ولا الحكماء، ولا الورعة، متى كانت القراء مثل هذا؟ لا كَثَّر الله في الناس مثل هؤلاء». (أخرجه ابن المبارك في الزهد٧٩٣).

مجالات البناء الإيماني:

تشمل مجالات البناء الإيماني في تربية النبي ﷺ ثلاثة مكونات رئيسة هي: العلم، والوجدان، والسلوك، وفيما يلي عرض موجز لهذه المجالات:

١ - العلم:

المعرفة والعلم هي المكون الأول من مكونات التربية الإيمانية؛ فالإيمان ليس مجرد مشاعر ووجدان، ولا رهبانية هائمة، إنما تربية عميقة تستند إلى العلم بالله عز وجل، واليقين بما جاء في كتاب الله وسنة نبيه ﷺ.

---

(١) هكذا في النسخة المطبوعة.

وقد أمر الله عز وجل نبيه ﷺ بالعلم بمسائل الإيمان والتوحيد، فقال سبحانه: ﴿ فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ۗ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ ﴾ (محمد: ١٩).

وقد اعتنى ﷺ بتعليم أصحابه الإيمان وأركانه، كما في حديث جبريل عليه السلام حين جاء للنبي ﷺ في صورة رجل يسأله، وفيه: قال: فأخبرني عن الإيمان، قال: «أن تؤمن بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، وتؤمن بالقدر خيره وشره»، قال: صدقت. (أخرجه البخاري ٥٠، ومسلم ٨)، واللفظ لمسلم.

وعن علي رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يؤمن عبد حتى يؤمن بأربع: بالله وحده لا شريك له، وأني رسول الله، وبالبعث بعد الموت، والقدر»، (أخرجه أحمد ٧٥٨، وابن ماجه ٨١) وفي رواية للترمذي (٢١٤٥): «لا يؤمن عبد حتى يؤمن بأربع: يشهد أن لا إله إلا الله وأني محمد رسول الله بعثني بالحق، ويؤمن بالموت، وبالبعث بعد الموت، ويؤمن بالقدر».

ولعظم شأن تعليم الإيمان فقد اعتنى ﷺ بتعليمه مَن يَفِدُ إليه من المؤمنين به، فعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: إن وفد عبد القيس لما أتوا النبي ﷺ قال: «مَن القوم؟ أو مَن الوفد؟» قالوا: ربيعة، قال: «مرحبًا بالقوم، أو بالوفد، غير خزايا ولا ندامى»، فقالوا: يا رسول الله إنا لا نستطيع أن نأتيك إلا في شهر الحرام، وبيننا وبينك هذا الحي من كفار مُضَر، فمرنا بأمرٍ فصلٍ، نخبر به من وراءنا، وندخل به الجنة، وسألوه عن الأشربة: فأمرهم بأربع، ونهاهم عن أربع، أمرهم: بالإيمان بالله وحده، قال: «أتدرون ما الإيمان بالله وحده؟» قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: «شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصيام رمضان، وأن تعطوا من المغنم الخمس» ونهاهم عن أربع:

عن الحَنْتَمِ والدُّبَّاء والنَّقِير والمُزَفَّت»، وربما قال: «المَقِير»، وقال: «احفظوهن، وأخبروا بهن من وراءكم». (أخرجه البخاري٥٣، ومسلم ١٧).

ولأهمية شأن الإيمان لم يذكره لهم ﷺ سردًا، إنما سألهم بقوله: «أتدرون ما الإيمان بالله وحده؟» ليتطلعوا إلى معرفته، ويعتنوا بتعلُّمه.

كما أن تعليم مسائل الإيمان لم يكن قاصرًا على خاصة أصحابه، بل امتد إلى العامة والإماء؛ ففي حديث معاوية بن الحكم السُّلَمي حين تكلم في الصلاة، قال: وكانت لي جارية ترعى غنمًا لي قبل أُحُد والجَوَّانِيَّة، فاطَّلعت ذات يوم فإذا الذِّيب قد ذهب بشاة من غنمها، وأنا رجل من بني آدم، آسَفُ كما يأسفون، لكني صككتُها صَكَّة، فأتيت رسول الله ﷺ، فعظم ذلك علي، قلت: يا رسول الله أفلا أعتقها؟ قال: «ائتني بها» فأتيته بها، فقال لها: «أين الله؟» قالت: في السماء، قال: «من أنا؟» قالت: أنت رسول الله، قال: «أعتقها، فإنها مؤمنة». (أخرجه مسلم ٥٣٧).

والعلم بأصول الإيمان لا بد أن يصل إلى اليقين؛ فينتفي الشك أو التردد؛ لذا أكَّد ﷺ على هذا المعنى؛ فقال: «أشهد ألا إله إلا الله، وأني رسول الله، لا يلقى اللهَ بهما عبد غير شاك فيهما إلا دخل الجنة». (أخرجه مسلم ٢٧).

كما وجَّه ﷺ أصحابه بالانصراف عن التفكير في مسائل الإيمان، وترك الاستجابة للوساوس، وطمأنهم بأن ما يجده أحدهم في نفسه دون أن يعتقده أو يتلفظ به لا يحاسب عليه.

عن أنس بن مالك ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «لن يبرح الناس يتساءلون حتى يقولوا: هذا الله خالق كل شيء، فمن خلق الله؟». (أخرجه البخاري ٧٢٩٦، ومسلم ١٣٦).

وعن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «يأتي الشيطان أحدكم، فيقول: من خلق كذا؟ من خلق كذا؟ حتى يقول: من خلق ربك؟ فإذا بلغه فليستعذ بالله، ولينته». (أخرجه البخاري ٣٢٧٦، ومسلم ١٣٤).

وقد وقع مصداق ما أخبر به ﷺ صاحبه أبا هريرة ﷺ من أن الناس سيسألونه عن ذلك، فعن أبي هريرة ﷺ قال: قال لي رسول الله ﷺ: «لا يزالون يسألونك يا أبا هريرة حتى يقولوا: هذا الله، فمن خلق الله؟» قال: فبينا أنا في المسجد إذ جاءني ناس من الأعراب، فقالوا: يا أبا هريرة، هذا الله، فمن خلق الله؟ قال: فأخذ حصًى بكفه فرماهم، ثم قال: قوموا قوموا، صدق خليلي. (أخرجه مسلم ١٣٥).

وفي رواية أخرى لمسلم: «لا يزال الناس يسألونكم عن العلم حتى يقولوا: هذا الله خلقنا، فمن خلق الله؟»، وفي رواية لمسلم أن أبا هريرة رضى الله عنه قال- وهو آخذ بيد رجل، فقال-: صدق الله ورسوله، قد سألني اثنان وهذا الثالث، أو قال: سألني واحد، وهذا الثاني». (أخرجه مسلم ١٣٥).

ونهاهم ﷺ عن التكلُّف وإثارة الإشكالات دون علم وبرهان، عن معاوية ﷺ أن النبي ﷺ «نهى عن الغُلُوطَاتِ». (أخرجه أبو داود ٣٦٥٦، وأحمد ٢٣٦٨٧).

عن أنس ﷺ قال: كنا عند عمر فقال: نُهينا عن التكلف. (أخرجه البخاري ٧٢٩٣).

ومع ما يتعرض له جيل الأمة من الانفتاح غير المسبوق في هذا العصر فإنه يتحتم الاعتناء بتأسيس العلم في مسائل الإيمان، وتأصيل اليقين بحقائقه لدى هذا الجيل؛ فالبناء العلمي الهَش عرضة للاهتزاز عند أدنى شبهة.

ومن المهم أن نعي أن البناء الإيماني الذي يحتاجه جيل اليوم ليس بالضرورة متمثلًا في التوسع في تفاصيل المسائل العقدية، والرد على المخالفين، فهذا شأن طلبة العلم، إنما

العناية بتأصيل كليات الإيمان وحقائقه وتعميقها؛ كاليقين باستحقاق الله عز وجل وحده للعبادة دون سواه، والحذر من صور الشرك، والتسليم لنصوص الوحي واليقين بما دلت عليه، والإيمان بالغيب واليوم الآخر والقضاء والقدر وغير ذلك من أصول الاعتقاد والفقه الأكبر، ولا بد من بناء المناهج التعليمية والتربوية على العناية بذلك، أما المختصون بالعلم الشرعي فلهم شأن آخر.

٢- الوجدان:

العلم والمعرفة منشأ الإيمان؛ فبه يعرف الإنسان ربه، وأسماءه وصفاته جل جلاله، ويعرف مقتضيات الإيمان والتوحيد، لكن المعرفة المجردة تبقى جافة ما لم ترتبط بالوجدان وتتصل به؛ لذا جاءت التربية النبوية الإيمانية بالعناية بالوجدان وتحريك القلوب، ولم تكتف بالمعرفة الجافة الجامدة.

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: جاء ناس من أصحاب النبي ﷺ، فسألوه: إنا نجد في أنفسنا ما يتعاظم أحدنا أن يتكلم به، قال: «وقد وجدتموه؟» قالوا: نعم، قال: «ذاك صريح الإيمان». (أخرجه مسلم ١٣٢).

قال الخطابي: «قوله: ذاك صريح الإيمان، معناه: أن صريح الإيمان هو الذي يمنعكم من قبول ما يلقيه الشيطان في أنفسكم والتصديق به، حتى يصير ذلك وسوسة لا يتمكن في قلوبكم، ولا تطمئن إليه أنفسكم، وليس معناه أن الوسوسة نفسها صريح الإيمان؛ وذلك أنها إنما تتولد من فعل الشيطان وتسويله، فكيف يكون إيمانًا صريحًا؟ وقد روي في حديث آخر: أنهم لما شكوا إليه ذلك قال: الحمد لله الذي رَدَّ كيده إلى الوسوسة». (شرح سنن أبي داود ٤/ ١٤٧).

وقال النووي: «معناه: استعظامكم الكلام به هو صريح الإيمان؛ فإن استعظام هذا وشدة الخوف منه ومن النطق به- فضلًا عن اعتقاده- إنما يكون لمن استكمل الإيمان

استكمالًا محققًا، وانتفت عنه الريبة والشكوك». (شرح صحيح مسلم٢/ ١٥٤) .

ففي هذا الحديث أشار النبي ﷺ إلى أن من صريح الإيمان: استقرارالإيمان في القلب، بما يقود إلى تعاظم التفكير بخلافه، أو ورود الوساوس والشكوك.

وأشار النبي ﷺ إلى أن الإيمان يخالط القلب فيجد صاحبه لذته وحلاوته، عن أنس ﷺ عن النبي ﷺ قال: «ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان: أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله، وأن يكره أن يعود في الكفر كما يكره أن يقذف في النار ». (أخرجه البخاري ١٦، ومسلم ٤٣).

وعن العباس بن عبد المطلب ﷺ أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «ذاق طعم الإيمان من رضي بالله ربًّا، وبالإسلام دينًا، وبمحمد رسولًا». (أخرجه مسلم ٣٤).

فهو هنا ﷺ يوجه إلى السعي لتحصيل طعم الإيمان وحلاوته، ويربط ذلك بالجانب الوجداني المتمثل في التسليم والرضا.

ويتحتم الاعتناء بهذا الأمر في تعليم التوحيد والاعتقاد، والتربية عليه، فقد أدى اتساع دائرة الانحراف في مسائل الإيمان والاعتقاد إلى اعتناء كثير من المصنفين في أبواب الاعتقاد بتحرير المسائل التي ضل فيها المخالفون، والرد عليهم، والإجابة عن شبههم، وهو أمر لا نقاش في أهميته، وفي أثره على حماية معتقد أهل السنة وتجليته.

إلا أن ذلك أثَّر على بعض بيئات التعليم ومدارسه، فارتبط تعليم الاعتقاد والتوحيد بنقاش المخالفين وشبهاتهم؛ مما حوَّل تدريس الاعتقاد والتوحيد إلى مسائل معرفية جدلية، وتضاءل جانب الوجدان، والحديث عن تعظيم الله عز وجل، وأعمال القلوب، وصار هذا شأن الوعاظ غير المشتغلين بالعلم الشرعي، فأدى إلى انفصال الأمرين.

لقد بيَّن الله عز وجل حال أهل العلم من قبلنا داعيًا للاقتداء بهم، فقال سبحانه: ﴿قُلْ ءَامِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوْ لَا تُؤْمِنُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ۝١٠٧ وَيَقُولُونَ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ۝١٠٨ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ۩ ۝١٠٩﴾ (الإسراء: ١٠٧ - ١٠٩).

وقال سبحانه: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْءَاخِرَةَ وَيَرْجُوا۟ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ ۗ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ۝٩﴾ (الزمر: ٩).

٣- السلوك:

يمثل السلوك المكون الثالث من مكونات التربية الإيمانية؛ فالإيمان الصادق لا بد أن يترك أثره على سلوك صاحبه؛ لذا فقد أكد ﷺ على أن الإيمان يترك أثره على سلوك صاحبه، فبين ﷺ أن صلاح القلب صلاح لسائر الجوارح، فقال: «ألا وإن في الجسد مضغة: إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهي القلب». (أخرجه البخاري ٥٢، ومسلم ١٥٩٩).

وقد عرَّف ﷺ المؤمن بمعيار سلوكي، فعن فضالة بن عبيد رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «المؤمن من أَمِنَهُ الناس على أموالهم وأنفسهم، والمهاجر من هجر الخطايا والذنوب». (أخرجه ابن ماجه ٣٩٣٤، وأحمد ٦٩٢٥).

واعتبار السلوك معيارًا لتعريف الإيمان دليل على علو منزلة الجانب السلوكي في الإيمان، وعلى أن الإيمان الصادق لا بد أن يترك أثره على سلوك صاحبه.

وقد جعل ﷺ حسن الخلق معيارًا لكمال الإيمان، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أكمل المؤمنين إيمانًا أحسنهم خلقًا» (أخرجه أبو داود ٤٠٦٢، وأحمد ٧٤٠٢، والترمذي ١٦٢).

وكثيرًا ما كان ﷺ يربط السلوك بالإيمان في توجيهاته لأصحابه، ففي أحاديث كثيرة نجد عبارة «مَن كان يؤمن بالله واليوم الآخر»: فقد وردت في: الإحسان للجار، وقول الخير أو الصمت، وإكرام الضيف، والاستتار عند دخول الحمام، محبة الأنصار، ورعاية حرمة مكة، وترك لبس الذهب والحرير، وامتناع المرأة عن رؤية عورة الرجال في الصلاة.

وفي مقابل ربط النبي ﷺ الإيمان وتحققه بالمظاهر المتعلقة بالسلوك، فإنه ﷺ بيَّن علاقة الخلل السلوكي بضعف الإيمان.

ففي أكثر من موضع ربط ﷺ نفي الإيمان ببعض مظاهر الإخلال بالسلوك، فقال- عن النبيذ-: «فإن هذا شراب من لا يؤمن بالله واليوم الآخر». (أخرجه أبو داود ٣٧١٦، وابن ماجه ٣٤٠٩، والنسائي ٥٦١٠).

وأقسم ﷺ على نفي الإيمان عن طوائف ممن ساء سلوكهم، فقال: «والله لا يؤمن، والله لا يؤمن، والله لا يؤمن»، قيل: ومن يا رسول الله؟ قال: «الذي لا يأمن جاره بوايقه». (أخرجه البخاري ٦٠١٦).

وهذا الارتباط بين الإيمان والسلوك- مع تأكيده على أهمية السلوك وصلته بالإيمان- يتطلب أن يتناول السلوك في إطار صلته بالإيمان؛ فهو يوافق المنهج النبوي والنصوص الشرعية، كما أنه يسهم في مراعاة منزلة السلوك ومكانته الشرعية.

وسيأتي مزيد تفصيل لذلك عند الحديث عن المجال الخلقي والسلوكي.

وسائل البناء الإيماني:

تنوعت وسائل البناء الإيماني وأساليبه في تربية النبي ﷺ لأصحابه، ومنها ما يلي:

١ - الربط باليوم الآخر:

يمثل الإيمان باليوم الآخر مرتكزًا رئيسًا في العقيدة الإسلامية؛ فهو يدفع المؤمن إلى فعل الطاعة والاجتهاد في أدائها وتحمل المشاق تجاه ذلك، فلا سبيل لتحقيق السعادة الأخروية إلا بالإيمان بالله واليوم الآخر، قال سبحانه: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُم ۖ مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّىٰ يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَىٰ نَصْرُ اللَّهِ ۗ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ﴾ (البقرة: ٢١٤).

كما أن الإيمان باليوم الآخر يدفع المؤمن إلى ترك ما حرم الله، والتخلي عن شهواته وغرائزه المحرمة، ومجاهدة النفس في ذلك.

لذا اعتنى ﷺ بربط كثير من توجيهاته وأوامره لأصحابه بالإيمان باليوم الآخر، فنقرأ كثيرًا في توجيهاته ﷺ قوله: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر».

وقد جاء ذلك في سياق: التوجيه العام لأصحابه، كما جاء في التوجيه الخاص لكل جنس، فقد قال- في حق النساء-: «من كان منكن يؤمن بالله واليوم الآخر فلا ترفع رأسها حتى يرفع الرجال رؤوسهم» كراهة أن يرين من عورات الرجال. (أخرجه أبو داود ٨٥١، وأحمد ٢٦٩٥٠).

وعن زينب بنت أبي سلمة، قالت: دخلت على أم حبيبة زوج النبي ﷺ، فقالت: سمعت رسول الله ﷺيقول: «لا يحل لامرأة تؤمن بالله واليوم الآخر، تحدُّ على ميت فوق ثلاث، إلا على زوج أربعة أشهر وعشرًا»، (أخرجه البخاري ١٢٨١، ومسلم ١٤٨٦) ثم دخلت على زينب بنت جحش حين توفي أخوها، فدعت بطيب، فَمَسَّت، ثم قالت: ما لي بالطيب من حاجة، غير أني سمعت رسول الله ﷺ على المنبر يقول: «لا يحل لامرأة تؤمن

بالله واليوم الآخر، تحدُّ على ميت فوق ثلاث، إلا على زوج أربعة أشهر وعشرا». (أخرجه البخاري ١٢٨٢، ومسلم ١٤٨٧).

وأثر هذه التربية والتوجيهات النبوية لا ينتهي عند الموقف محل التوجيه، وإنما يتجاوز ذلك فيترك أثره على الشخصية؛ فدوام سماع المؤمن والمؤمنة لليوم الآخر: ترغيبًا وترهيبًا، يعلِّق قلبه به، ويجعل الآخرة هي همه، وهذا من خير ما يُصْلح قلبه، كما في الحديث عن أنس بن مالك ﷺ، قال: قال رسول الله ﷺ: «من كانت الآخرةُ همَّه جعل الله غناه في قلبه، وجمع له شمله، وأتته الدنيا وهي راغمة، ومن كانت الدنيا همَّه جعل الله فقره بين عينيه، وفرَّق عليه شمله، ولم يأته من الدنيا إلا ما قُدر له». (أخرجه الترمذي ٢٤٦٥، وأحمد ٢١٥٩٠).

كما أن ارتباط العمل والسلوك باليوم الآخر يحوِّل هذا الإيمان من تصديق ويقين قلبي إلى عمل يحرك صاحبه ويدفعه.

وقد جاء هذا المعنى في كتاب الله عز وجل، فقال سبحانه: ﴿وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴿٨﴾ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا ﴿٩﴾ إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا﴾ (الإنسان: ٨ – ١٠).

ومن وسائله ﷺ في ربط أصحابه باليوم الآخر ما يلي:

أولًا: وصف الجنة و النار:

مما استخدمه ﷺ في ربط أصحابه باليوم الآخر وصف الجنة والنار، وبيان الطريق إليهما، فعن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «حُجِبَت النار بالشهوات، وحُجِبَت الجنة بالمكاره». (أخرجه البخاري ٦٤٨٧، ومسلم ٢٨٢٢ وفي لفظ مسلم: «حُفَّت» بدلًا من «حُجبت») .

وفي حديث طويل يجلي ﷺ هذا المعنى لأصحابه بالحديث عن خلق الله للجنة والنار، فيقول ﷺ: «لما خلق الله الجنة والنار، أرسل جبريل، قال: انظر إليها وإلى ما أعددت لأهلها فيها، فجاء فنظر إليها وإلى ما أعد الله لأهلها فيها، فرجع إليه، فقال: وعزتك، لا يسمع بها أحد إلا دخلها، فأمر بها فحُجبت بالمكاره، قال: ارجع إليها فانظر إليها وإلى ما أعددت لأهلها فيها، قال: فرجع إليها فإذا هي قد حُجبت بالمكاره، فرجع إليه، فقال: وعزتك، قد خشيت أن لا يدخلها أحد، قال: اذهب إلى النار فانظر إليها وإلى ما أعددت لأهلها فيها، فجاءها فنظر إليها وإلى ما أعد لأهلها فيها، فإذا هي يركب بعضها بعضًا، فرجع، فقال: وعزتك، لا يسمع بها أحد فيدخلها، فأمر بها فحُفَّت بالشهوات، فرجع إليه، قال: وعزتك، لقد خشيت أن لا ينجو منها أحد إلا دخلها». (أخرجه أبو داود ٤٧٤٤، وأحمد ٨٣٩٨، والترمذي ٢٥٦٠، والنسائي ٣٧٦٢، واللفظ لأحمد).

إن هذا التوجيه النبوي يرسِّخ لدى المؤمن العلاقة القوية بين الإيمان باليوم الآخر والعمل الصالح، فدخول الجنة لن يتحقق ما لم يحتمل المؤمن المكاره في طاعة الله، كما أن السير وراء الشهوات المحرمة قد تكون نهايته دخول النار.

ثانيًا: التأكيد على تعلم مسائل اليوم الآخر:

أكد ﷺ على أصحابه أثر العلم باليوم الآخر على الحياة والسلوك والعمل الصالح، عن أنس ﷺ، قال: خطب رسول الله ﷺ خطبة ما سمعت مثلها قط، قال: «لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلًا، ولبكيتم كثيرًا». (أخرجه البخاري ٤٦٢١، ومسلم ٢٣٥٩).

وفي رواية مسلم (٢٣٥٩) عن أنس بن مالك قال: بلغ رسول الله ﷺ عن أصحابه شيءٌ، فخطب فقال: «عُرضت عليَّ الجنة و النار، فلم أر كاليوم في الخير و الشر، ولوتعلمون ما أعلم لضحكتم قليلًا ولبكيتم كثيرًا»، قال: فما أتى على أصحاب رسول

الله ﷺ يوم أشد منه، قال: غطُّوا رؤوسهم ولهم خَنِينٌ، قال: فقام عمر فقال: رضينا بالله ربًّا، وبالإسلام دينًا، وبمحمد نبيًّا».

فجاء أثر هذا التأكيد منه على أصحابه بالبكاء والشدة، ثم بقول عمر ﷺ: «رضينا ...».

ثالثًا: وصف مشاهد اليوم الآخر:

يصف النبي ﷺ لأصحابه مشاهد اليوم الآخر، ويربط ذلك بالعمل والسلوك، فهو ﷺ يحدث أصحابه عما أراه الله من أحوال المعذبين في البرزخ أو في النار، ويربط ذلك بما كانوا يعملونه في الدنيا.

ففي حديث سمرة بن جندب ﷺ يصوِّر ﷺ حال طائفة من العصاة في البرزخ، فعن سمرة بن جندب ﷺ قال: كان رسول الله ﷺ مما يكثر أن يقول لأصحابه: «هل رأى أحد منكم من رؤيا؟» قال: فيقص عليه من شاء الله أن يقص، وإنه قال- ذات غداة-: «إنه أتاني الليلة آتيان، وإنهما ابتعثاني، وإنهما قالا لي: انطلق، وإني انطلقت معهما، وإنا أتينا على رجل مضطجع، وإذا آخر قائم عليه بصخرة، وإذا هو يهوي بالصخرة لرأسه فيثلغ رأسه، فيتدهده الحجر ها هنا، فيتبع الحجر فيأخذه، فلا يرجع إليه حتى يصح رأسه كما كان، ثم يعود عليه فيفعل به مثل ما فعل المرة الأولى» قال: «قلت لهما: سبحان الله ما هذان؟» قال: «قالا لي: انطلق» قال: «فانطلقنا، فأتينا على رجل مستلق لقفاه، وإذا آخر قائم عليه بِكَلُّوب من حديد، وإذا هو يأتي أحد شقي وجهه فَيُشَرْشِرُ شِدقه إلى قفاه، ومنخره إلى قفاه، وعينه إلى قفاه- قال: وربما قال أبو رجاء: فيشق-» قال: «ثم يتحول إلى الجانب الآخر فيفعل به مثل ما فعل بالجانب الأول، فما يفرغ من ذلك الجانب حتى يصح ذلك الجانب كما كان، ثم يعود عليه فيفعل مثل ما فعل المرة الأولى» قال: «قلت: سبحان الله ما هذان؟» قال: «قالا لي: انطلق انطلق، فانطلقنا، فأتينا على مثل التنور- قال: فأحسب أنه كان يقول: فإذا فيه لغط وأصوات-» قال: «فاطلعنا فيه، فإذا فيه رجال ونساء عراة،

وإذا هم يأتيهم لهب من أسفل منهم، فإذا أتاهم ذلك اللهب ضوضوا» قال: «قلت لهما: ما هؤلاء؟ » قال: «قالا لي: انطلق انطلق»، قال: «فانطلقنا، فأتينا على نهر- حسبت أنه كان يقول:- أحمر مثل الدم، وإذا في النهر رجل سابح يسبح، وإذا على شط النهر رجل قد جمع عنده حجارة كثيرة، وإذا ذلك السابح يسبح ما يسبح، ثم يأتي ذلك الذي قد جمع عنده الحجارة، فيفغر له فاه فيلقمه حجرًا، فينطلق يسبح، ثم يرجع إليه كلما رجع إليه فَغَرَ له فاه فألقمه حجرًا» قال: «قلت لهما: ما هذان؟ » قال: «قالا لي: انطلق انطلق» قال: «فانطلقنا، فأتينا على رجل كريه المرآة، كأكره ما أنت راء رجلًا مرآة، وإذا عنده نار يحُشُها ويسعى حولها» قال: «قلت لهما: ما هذا؟» قال: «قالا لي: انطلق انطلق، فانطلقنا، فأتينا على روضة معتمة، فيها من كل نور الربيع، وإذا بين ظهري الروضة رجل طويل، لا أكاد أرى رأسه طولًا في السماء، وإذا حول الرجل من أكثر ولدان رأيتهم قط»، قال: «قلت لهما: ما هذا؟ ما هؤلاء؟» قال: «قالا لي: انطلق انطلق» قال: «فانطلقنا فانتهينا إلى روضة عظيمة، لم أر روضة- قطُّ- أعظم منها ولا أحسن» قال: «قالا لي: ارقَ فيها» قال: «فارتقينا فيها، فانتهينا إلى مدينة مبنية بلبن ذهب ولبن فضة، فأتينا باب المدينة فاستفتحنا ففتح لنا فدخلناها، فتلقانا فيها رجال شطر من خلقهم كأحسن ما أنت راء، وشطر كأقبح ما أنت راء» قال: «قالا لهم: اذهبوا فقعوا في ذلك النهر» قال: «وإذا نهر معترض يجري كأن ماءه المحض في البياض، فذهبوا فوقعوا فيه، ثم رجعوا إلينا قد ذهب ذلك السوء عنهم، فصاروا في أحسن صورة» قال: «قالا لي: هذه جنة عدن وهذاك منزلك» قال: «فسما بصري صُعُدًا، فإذا قصر مثل الرَّبَابة البيضاء»، قال: «قالا لي: هذاك منزلك » قال: «قلت لهما: بارك الله فيكما ذراني فأدخله، قالا: أما الآن فلا، وأنت داخله»، قال: «قلت لهما: فإني قد رأيت منذ الليلة عجبًا، فما هذا الذي رأيت؟» قال: «قالا لي: أما إنا سنخبرك، أما الرجل الأول الذي أتيت عليه يثلغ رأسه بالحجر، فإنه الرجل يأخذ القرآن فيرفضه، وينام عن الصلاة المكتوبة، وأما الرجل الذي أتيت عليه، يشرشر شدقه إلى قفاه، ومنخره

إلى قفاه، وعينه إلى قفاه، فإنه الرجل يغدو من بيته، فيكذب الكذبة تبلغ الآفاق، وأما الرجال والنساء العراة الذين في مثل بناء التنور، فإنهم الزناة والزواني، وأما الرجل الذي أتيت عليه يسبح في النهر ويلقم الحجر، فإنه آكل الربا، وأما الرجل الكريه المرآة، الذي عند النار يحشها ويسعى حولها، فإنه مالك خازن جهنم، وأما الرجل الطويل الذي في الروضة فإنه إبراهيم ﷺ، وأما الولدان الذين حوله فكل مولود مات على الفطرة»، قال: فقال بعض المسلمين: يا رسول الله، وأولاد المشركين؟ فقال رسول الله ﷺ: «وأولاد المشركين، وأما القوم الذين كانوا شطر منهم حَسَنًا وشطر منهم قبيحًا، فإنهم قوم خلطوا عملا صالحًا وآخر سيئًا، تجاوز الله عنهم». (أخرجه البخاري٧٠٤٧).

وفي صلاة الكسوف حدَّث ﷺ أصحابه عما رآه من مشاهد النار وعذاب أهلها، فعن عبد الله بن عباس، قال: انخسفت الشمس، فصلى رسول الله ﷺ، ثم قال: «أُريتُ النار، فلم أر منظرًا كاليوم- قط- أفظع». (أخرجه البخاري ٤٣١).

ووصف ﷺ حال بعض من رآهم يُعذَّبون فيها، وذكر أعمالهم التي كانت سبب عذابهم، عن جابر ﷺ قال: انكسفت الشمس في عهد رسول الله ﷺ، يوم مات إبراهيم...... فانصرف حين انصرف، وقد آضت الشمس، فقال: «يا أيها الناس إنما الشمس والقمر آيتان من آيات الله، وإنهما لا ينكسفان لموت أحد من الناس- وقال أبو بكر: لموت بشر- فإذا رأيتم شيئًا من ذلك فصلوا حتى تنجلي، ما من شيء توعدونه إلا قد رأيته في صلاتي هذه، لقد جيء بالنار، وذلكم حين رأيتموني تأخرت؛ مخافة أن يصيبني من لفحها، وحتى رأيت فيها صاحب المِحْجَنِ يجر قُصْبَهُ في النار، كان يسرق الحاج بمِحجنه، فإن فطن له قال: إنما تعلق بمِحجني، وإن غفل عنه ذهب به، وحتى رأيت فيها صاحبة الهِرَّة التي ربطتها فلم تطعمها، ولم تدعها تأكل من خشاش الأرض، حتى ماتت جوعًا، ثم جيء بالجنة، وذلكم حين رأيتموني تقدمت حتى قمت في مقامي، ولقد مددت يدي

وأنا أريد أن أتناول من ثمرها لتنظروا إليه، ثم بدا لي أن لا أفعل، فما من شيء توعدونه إلا قد رأيته في صلاتي هذه». (أخرجه مسلم ٩٠٤).

كما خصَّ ﷺ النساء بمزيد تحذير من النار فقال: «أُريت النار فإذا أكثر أهلها النساء، يكفرن» قيل: أيكفرن بالله؟ قال: «يكفرن العشير، ويكفرن الإحسان، لو أحسنت إلى إحداهن الدهر، ثم رأت منك شيئًا، قالت: ما رأيت منك خيرًا قط». (أخرجه البخاري ٢٩، ومسلم ٩٠٧).

٢- الوعظ الفردي:

ومن الوسائل التي استخدمها النبي ﷺ في التربية الإيمانية لأصحابه الوعظ الفردي؛ فرغم أهمية البيئة الجماعية في التربية الإيمانية، وآثارها التي تتجاوز محتوى ما يقدم فيها، إلا أن النفس البشرية تحتاج إلى التنوع وتعدد الوسائل.

لذا فقد اعتنى ﷺ في تربيته لأصحابه بمبدأ الوعظ والتوجيه الفردي؛ فالخطاب الفردي يرفع مستوى التواصل ويزيد فيه الإصغاء والاستماع، كما أن المستمع يشعر أن الخطاب موجه له بشخصه وعينه دون غيره، بخلاف الخطاب الجماعي، وهو أيضًا يتيح له التواصل والسؤال والنقاش والحوار أكثر مما يتيحه الخطاب الجماعي.

ويندرج هذا المعنى في توجيهاته المتنوعة ﷺ بشأن النصيحة، وبيان منزلتها من الدين، ومن أول ما يدخل في النصيحة: الوعظ والخطاب الفردي.

ومن صور الوعظ الفردي النبوي موعظته ﷺ الشهيرة لابن عباس رضي الله عنهما، فعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كنت خلف رسول الله ﷺ يومًا فقال: «يا غلام، إني أعلمك كلمات: احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك، إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله، واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله

لك، ولو اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك، رُفعت الأقلام وجفت الصحف». (أخرجه الترمذي ٢٥١٦، وأحمد ٢٦٦٤) .

وعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: أخذ رسول الله ﷺ بمنكبي، فقال: «كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل». (أخرجه البخاري ٦٤١٦).

قال ابن بطال: «لما كان الغريب قليل الانبساط إلى الناس بل هو مستوحش منهم؛ إذ لا يكاد يمر بمن يعرفه مستأنس به، فهو ذليل في نفسه خائف، وكذلك عابر السبيل لا ينفذ في سفره إلا بقوته عليه وتخفيفه من الأثقال غير متثبت بما يمنعه من قطع سفره معه، زاده وراحلته يبلغانه إلى بغيته من قصده شبهه بهما، وفي ذلك إشارة إلى إيثار الزهد في الدنيا وأخذ البلغة منها والكفاف، فكما لا يحتاج المسافر إلى أكثر مما يبلغه إلى غاية سفره فكذلك لا يحتاج المؤمن في الدنيا إلى أكثر مما يبلغه المحل». (فتح الباري ١١/ ٢٣٤).

ومن المهم للمربي وهو يتعامل مع التوجيه الفردي والجماعي ألا يجعل الاعتناء بأحدهما يعني إلغاء الآخر؛ فلكل وسيلة منهما مجالها وأثرها المناسب، وما يلائم موقفًا قد لا يلائم غيره، والمتربي بحاجة لأن يتعامل معهما معًا، فيترك كل منهما أثره المناسب في شخصيته.

٣- مجالس الإيمان:

تتصف التربية النبوية بأنها تربية تؤكد على معاني الاجتماع ووحدة النفوس والقلوب، وتتمثل المعاني الجماعية في صور متعددة، ومنها الأساليب التربوية.

لذا كانت (مجالس الإيمان) من أهم الأساليب التربوية التي كان ﷺ يعنى بها في التربية الإيمانية.

ومجالس الإيمان لها أثر داخلي نفسي؛ فحين يعيش الفرد الجو الإيماني ويسمع الموعظة وهو مع إخوانه، ويقرأ فيهم التأثر والتفاعل يترك ذلك أثرًا يتجاوز مجرد السماع، ألا ترى أن حضور الموعظة وسماعها بمحضر الآخرين أبلغ أثرًا من سماعها عبر وسائط نقل الصوت أو الصورة؟

كما أن لمجالس الإيمان أثر معنوى يتمثل في بركة هذه المجالس، ومن أعظم بركاتها رحمة الله ومغفرته وأثر الصحبة الصالحة.

لذا فقد وجَّه ﷺ أصحابه للاعتناء بهذه المجالس، وبين لهم فضلها وبركتها فقال: «مَن نفَّس عن مؤمن كربة من كرب الدنيا، نفَّس الله عنه كربة من كرب يوم القيامة، ومَن يسَّر على معسر، يسَّر الله عليه في الدنيا والآخرة، ومن ستر مسلمًا، ستره الله في الدنيا والآخرة، والله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه، ومن سلك طريقًا يلتمس فيه علمًا، سهل الله له به طريقًا إلى الجنة، وما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله، يتلون كتاب الله، ويتدارسونه بينهم، إلا نزلت عليهم السكينة، وغشيتهم الرحمة وحفتهم الملائكة، وذكرهم الله فيمن عنده، ومن بطَّأَ به عمله، لم يسرع به نسبه». (أخرجه مسلم٢٦٩٩).

كما بَين ﷺ لأصحابه أن بركة هذه المجالس ليست قاصرة على من يحضرها راغبًا في أجرها وثوابها، بل يمتد ذلك لمن بقي في المجلس حياءً من الآخرين. ووظَّف ﷺ موقفًا عايشه أصحابه في ترسيخ هذا المعنى، فعن أبي واقد الليثي ﵁ قال: بينما رسول الله ﷺ في المسجد فأقبل ثلاثة نفر، فأقبل اثنان إلى رسول الله ﷺ وذهب واحد، فأما أحدهما، فرأى فرجة في الحلقة، فجلس وأما الآخر فجلس خلفهم، فلما فرغ رسول الله ﷺ قال: «ألا أخبركم عن النفر الثلاثة؟ أما أحدهم: فأوى إلى الله، فآواه الله، وأما الآخر: فاستحيا فاستحيا الله منه، وأما الآخر: فأعرض فأعرض الله عنه». (أخرجه البخاري ٤٧٤، ومسلم ٢١٧٦).

وفي حديث آخر يبين ﷺ أن إدراك بركة المجالس الإيمانية لا يقف عند مجرد من يحضرها حياءً، بل حتى أولئك الخطَّائين المقصرين الذين لا يأتونها رغبة فيها؛ إنما لحوائجهم، إن أولئك تنالهم هذه البركة، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن لله ملائكة يطوفون في الطرق يلتمسون أهل الذكر، فإذا وجدوا قومًا يذكرون الله تنادوا: هلُمُّوا إلى حاجتكم»، قال: «فيحفونهم بأجنحتهم إلى السماء الدنيا» قال: «فيسألهم ربهم- وهو أعلم منهم- ما يقول عبادي؟ قالوا: يقولون: يسبحونك ويكبرونك ويحمدونك ويمجدونك»، قال: «فيقول: هل رأوني؟» قال: «فيقولون: لا والله ما رأوك؟»، قال: «فيقول: وكيف لو رأوني؟» قال: «يقولون: لو رأوك كانوا أشد لك عبادة، وأشد لك تمجيدًا وتحميدًا، وأكثر لك تسبيحًا»، قال: «يقول: فما يسألوني؟»، قال: «يسألونك الجنة»، قال: «يقول: وهل رأوها؟»، قال: «يقولون: لا والله يا رب ما رأوها»، قال: «يقول: فكيف لو أنهم رأوها؟»، قال: «يقولون: لو أنهم رأوها كانوا أشد عليها حرصًا، وأشد لها طلبًا، وأعظم فيها رغبة»، قال: «فمم يتعوذون؟» قال: «يقولون: من النار»، قال: «يقول: وهل رأوها؟» قال: «يقولون: لا والله ما رأوها»، قال: «يقول: فكيف لو رأوها؟»، قال: «يقولون: لو رأوها كانوا أشد منها فرارًا، وأشد لها مخافة»، قال: «فيقول: فأشهدكم أني قد غفرت لهم»، قال: «يقول ملك من الملائكة: فيهم فلان ليس منهم، إنما جاء لحاجة، قال: هم الجلساء لا يشقى بهم جليسهم». (أخرجه البخاري ٦٤٠٨، ومسلم ٢٦٨٩).

ويُصوِّر أبو هريرة ﷺ أثر المجالس النبوية، فعن أبي هريرة ﷺ قال: قلنا: يا رسول الله، إنا إذا رأيناك رَقَّت قلوبنا وكُنَّا من أهل الآخرة، وإذا فارقناك أعجبتنا الدنيا، وشممنا النساء والأولاد، قال: «لو تكونون- أو قال: لو أنكم تكونون- على كل حال على الحال التي أنتم عليها عندي، لصافحتكم الملائكة بِأَكُفِّهِم، ولزارتكم في بيوتكم، ولو لم تذنبوا، لجاء الله بقوم يذنبون كي يغفر لهم». (أخرجه أحمد ٨٠٤٣، والترمذي ٢٥٢٦).

كما يُصوِّر المعنى نفسَه حنظلةُ الأسيدي ﷺ فيقول: لقيني أبو بكر، فقال: كيف أنت يا حنظلة؟ قال: قلت: نافق حنظلة، قال: سبحان الله! ما تقول؟ قال: قلت: نكون عند رسول الله ﷺ، يُذكِّرنا بالنار والجنة، حتى كأنا رأي عين، فإذا خرجنا من عند رسول الله ﷺ، عافسنا الأزواج والأولاد والضيعات، فنسينا كثيرًا، قال أبو بكر: فوالله إنا لنلقى مثل هذا، فانطلقت أنا وأبو بكر، حتى دخلنا على رسول الله ﷺ، قلت: نافق حنظلة يا رسول الله، فقال رسول الله ﷺ: «وما ذاك؟» قلت: يا رسول الله نكون عندك، تذكِّرنا بالنار والجنة، حتى كأنا رأي عين، فإذا خرجنا من عندك، عافسنا الأزواج والأولاد والضيعات، نسينا كثيرًا، فقال رسول الله ﷺ: «والذي نفسي بيده إن لو تدومون على ما تكونون عندي، وفي الذكر، لصافحتكم الملائكة على فُرشكم وفي طرقكم، ولكن يا حنظلة ساعة وساعة»، ثلاث مرات. (أخرجه مسلم ٢٧٥٠).

واليوم مع تنوع وسائل الاتصال، وحلول كثير من أساليب التواصل عن بُعد محلَّ اللقاء المباشر، يتأكد اعتناء المربين بمجالس الإيمان وإحيائها، والسعي لإيجاد الوسائل المعينة على تحقيقها، وتطوير بدائل ملائمة لذلك؛ فإن بدائل التواصل السمعي والبصري عن بُعد لا يتحقق معها أثر هذه المجالس، فضلًا عن بركة مجالس الإيمان والذكر وفضلها الشرعي.

٤- الأمر بالعمل الصالح عند الفتن:

الإيمان عدة صاحبه في أوقات الفتن؛ لذلك كان ﷺ يوصي بالعمل الصالح وقت الفتن.

عن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «بادروا بالأعمال فتنًا كقطع الليل المظلم، يصبح الرجل مؤمنًا ويمسي كافرًا، أو يمسي مؤمنًا ويصبح كافرًا، يبيع دينه بعرض من الدنيا». (أخرجه مسلم ١١٨).

قال النووي: «معنى الحديث: الحث على المبادرة إلى الأعمال الصالحة قبل تعذرها والاشتغال عنها بما يحدث من الفتن الشاغلة المتكاثرة المتراكمة، كتراكم ظلام الليل المظلم، لا المقمر، ووصف ﷺ نوعًا من شدائد تلك الفتن، وهو أنه يمسي مؤمنًا، ثم يصبح كافرًا أو عكسه- شك الراوي- وهذا لعظم الفتن ينقلب الإنسان في اليوم الواحد هذا الانقلاب، والله أعلم». (شرح صحيح مسلم ٢/ ١٣٣).

وفي رواية أخرى حدد ﷺ هذه الفتن، فعن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «بادروا بالأعمال ستًّا: طلوع الشمس من مغربها، أو الدخان، أو الدجال، أو الدابة، أو خاصة أحدكم أو أمر العامة». (أخرجه مسلم ٢٩٤٧).

قال ابن رجب: «والمراد من هذا أن هذه الأشياء كلها تعوق عن الأعمال، فبعضها يشغل عنه، إما في خاصة الإنسان، كفقره وغناه ومرضه وهرمه وموته، وبعضها عام، كقيام الساعة، وخروج الدجال، وكذلك الفتن المزعجة». (جامع العلوم والحكم ٢/ ٣٨٨).

وأخرج الطبراني عن زاذان قال: كنا مع عابس الغفاري على ظهرِ أجار، فأبصر أناسًا يتحملون، فقال: ما شأن هؤلاء؟ فقال: يفرون من الطاعون قال: يا طاعون خذني إليك، فقال ابن عم له- وكانت له صحبة-: تمنى الموت وقد سمعت رسول الله ﷺ: «لا يتمنين أحدكم الموت»، قال: إني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «بادروا بالأعمال ستًّا: إمارة السفهاء، وكثرة الشُّرَط، وبيع الحُكم، واستخفاف بالدم، وقطيعة الرحم، ونَشْوٌ يتخذون القرآن مزامير يقدمون أحدهم ليغنِّيهم وإن كان أقلَّهم فقهًا». (١٨/ ٣٦).

وبينَّ ﷺ لأصحابه فضل العبادة في الهرْج بقوله: «العبادة في الهرج كهجرة إلي». (أخرجه مسلم ٢٩٤٨).

قال النووي: «المراد بالهرج هنا الفتنة واختلاط أمور الناس، وسبب كثرة فضل العبادة فيه أن الناس يغفلون عنها ويشتغلون عنها، ولا يتفرغ لها إلا أفراد». (شرح صحيح مسلم ١٨/ ٨٨-٨٩).

وحين تأتي الفتن العامة والخاصة يتأكد على المربي حث الناس على العبادة واللجوء إليه سبحانه وتعالى؛ فالعبادة تربط العبد بالله عز وجل، وتخلِّصه من التعلق بنفسه والثقة بها دون عونه سبحانه وتوفيقه، كما أنها تذكره بالله عز وجل؛ إذ شأن الفتن أن تصرف الناس وتشغلهم بالدنيا والصراع والتنافس حولها، كما أن الفتن يلتبس فيها الحق بالباطل؛ فالعبادة والصلة بالله عز وجل سبب من أسباب الهداية والتوفيق الرباني.

٥- تعليمهم الدعاء:

للدعاء شأن عظيم، فقد سماه الله عز وجل عبادة، فقال سبحانه: ﴿وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَأَدْعُواْ رَبِّي عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّي شَقِيًّا ﴿٤٨﴾ فَلَمَّا ٱعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا﴾ (مريم: ٤٨ - ٤٩).

وقال عز وجل: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ (غافر: ٦٠).

وجاءت توجيهات النبي ﷺ لأصحابه مؤكدة على هذا المعنى، فعن النعمان بن بشير رضي الله عنهما، أن رسول الله ﷺ، قال: «إن الدعاء هو العبادة»، ثم قرأ: ﴿ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي﴾ (غافر: ٦٠). (أخرجه أحمد ١٨٣٥٢، وأبو داود ١٤٧٩، والترمذي ٢٩٦٩، وابن ماجه ٣٨٢٨).

وفي تربيته ﷺ لأصحابه على الدعاء كان يبين لهم منزلة الدعاء، وفضائله بعامة، والفضائل الخاصة بأنواع ومواضع معينة من الدعاء.

كما يبين لهم ﷺ الدعاء والذكر بالمشروع: تارة بفعله، وتارة بالقول والأمر، وهذا مشهور مبسوط في كتب السنة بما يغني عن الاستشهاد.

بل إنه ﷺ كان يعتني بتلقينهم الدعاء بلفظه، ويتأكد من استظهارهم له وحفظه، فعن البراء بن عازب رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ: «إذا أتيت مضجعك فتوضأ وضوءك للصلاة، ثم اضطجع على شقك الأيمن، ثم قل: اللهم أسلمت وجهي إليك، وفوضت أمري إليك، وألجأت ظهري إليك، رغبة ورهبة إليك، لا ملجأ ولا منجا منك إلا إليك، اللهم آمنت بكتابك الذي أنزلت، وبنبيك الذي أرسلت، فإن مت من ليلتك فأنت على الفطرة، واجعلهن آخر ما تتكلم به»، قال: فرددتها على النبي ﷺ فلما بلغت: اللهم آمنت بكتابك الذي أنزلت قلت: ورسولك، قال: «لا، ونبيك الذي أرسلت». (أخرجه البخاري ٢٤٧، ومسلم ٢٧١٠).

بل إن عنايته ﷺ بتعليمهم الدعاء قد بلغت أن يصف أصحابُه تعليمَ الدعاء بأنه كتعليم القرآن الكريم، فعن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال: كان رسول الله ﷺ يعلمنا الاستخارة في الأمور كما يعلمنا السورة من القرآن، يقول: «إذا هم أحدكم بالأمر فليركع ركعتين من غير الفريضة، ثم ليقل: اللهم إني أستخيرك بعلمك، وأستقدرك بقدرتك، وأسألك من فضلك العظيم؛ فإنك تقدر ولا أقدر، وتعلم ولا أعلم، وأنت علام الغيوب، اللهم إن كنت تعلم أن هذا الأمر خير لي في ديني ومعاشي وعاقبة أمري- أو قال: عاجل أمري وآجله- فاقدره لي ويسره لي ثم بارك لي فيه، وإن كنت تعلم أن هذا الأمر شر لي في ديني ومعاشي وعاقبة أمري- أو قال: في عاجل أمري وآجله- فاصرفه عني واصرفني عنه، واقدر لي الخير حيث كان، ثم أرضني»، قال: ويسمي حاجته. (أخرجه البخاري ١١٦٦).

وفي الدعاء لجوء إلى الله عز وجل، وإخبات وخشوع يربي صاحبه، ويلين قسوة قلبه، كما بيَّن عز وجل حال الأنبياء والصالحين عند الدعاء، فقال: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى

ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ ﴾ (الأنبياء: ٩٠).

فأثر الدعاء ليس قاصرًا على تلبية حاجة العبد موضع الدعاء- وإن كان ذلك من أعظم مقاصده- إلا أن دوامه وتكراره يزيد صاحبه إيمانًا وقربًا من ربه سبحانه، ولجوءًا إليه عز وجل، كما أنه يرقق القلب ويزيل قسوته.

واعتناء المربي بتعليم الدعاء يتضمن أمرين مهمين:

الأول: التأكيد على منزلة الدعاء، وبيان فضائله، وأنه ملجأ للعبد عند الحاجة والشدة، وهذا يتحقق ابتداء في مواقف التعليم العامة والخاصة، وفي توجيه المتربي عند التعامل مع موقف يرى فيه ضعف نفسه وقصورها عن الوصول إلى حل لمشكلته.

الثاني: تعليمه الأدعية المشروعة، الواردة في القرآن والسنة، سواء أكانت أدعية عامة ومطلقة، أو أدعية خاصة بأزمان وأحوال معينة.

٦- زيارة القبور واتباع الجنائز:

زيارة القبور واتباع الجنائز من وسائل التربية الإيمانية النبوية، ومما أوصى به ﷺ أصحابه وحثهم عليه، وبين أثره في تذكر الآخرة ورقة القلب.

فعن ابن بريدة، عن أبيه ﷺ، قال: قال رسول الله ﷺ: «نهيتكم عن زيارة القبور، فزوروها، ونهيتكم عن لحوم الأضاحي فوق ثلاث، فأمسكوا ما بدا لكم، ونهيتكم عن النبيذ إلا في سقاء، فاشربوا في الأسقية كلها، ولا تشربوا مسكرًا». (أخرجه مسلم ٩٧٧).

وجاء في بعض الروايات تعليل ذلك بتذكُّر الآخرة، ففي رواية أبي داود «نهيتكم عن زيارة القبور، فزوروها؛ فإن في زيارتها تذكرة». (٣٢٣٥).

وعند أحمد من حديث علي ﷺ: «فزوروها؛ فإنها تذكركم الآخرة». (١٢٣٦).

وعند أحمد أيضًا من حديث أبي سعيد رضي الله عنه: «إني نهيتكم عن زيارة القبور فزوروها؛ فإن فيها عبرة» (١١٣٢٩).

وعند أحمد أيضًا من حديث أنس رضي الله عنه: «ألا إني قد كنت نهيتكم عن ثلاث، ثم بدا لي فيهن: نهيتكم عن زيارة القبور، ثم بدا لي أنها ترق القلب، وتدمع العين، وتذكر الآخرة، فزوروها ولا تقولوا هُجْرًا» (١٣٤٨٧).

عن أبي سعيد الخدري، عن النبي ﷺ قال: «عودوا المريض، وامشوا مع الجنائز؛ تذكركم الآخرة». (أخرجه أحمد ١١١٨٠).

ووعظ ﷺ أصحابه عند القبر، كما في حديث البراء بن عازب رضي الله عنه، وسيأتي بإذن الله عند الحديث عن الموعظة.

٧- التعاون على العبادة:

الجانب الفردي في العبادة هو الأصل؛ فهي صلة بين العبد وربه عز وجل، إلا أن التعاون الجماعي عليها يؤدي وظيفة مهمة من وظائف العبادة، ويسهم في تحفيز العبد على ذلك؛ لذا كان ﷺ يُعنى بتربية أهل بيته على العبادة، ويعينهم على ذلك.

فقد كان ﷺ يوقظ زوجاته لقيام رمضان، كما تحدثنا عن ذلك عائشة رضي الله عنها، فتقول: «كان النبي ﷺ إذا دخل العشر شدَّ مئزره، وأحيا ليله، وأيقظ أهله». (أخرجه البخاري ٢٠٢٤، ومسلم ١١٧٤).

ولم يكن هذا الأمر قاصرًا على قيام رمضان، بل كان ﷺ يوقظ زوجته عائشة رضي الله عنها للوتر كما تحدثنا عن ذلك فتقول: كان رسول الله ﷺ يصلي من الليل، فإذا أوتر قال: «قومي فأوتري يا عائشة». (أخرجه مسلم ٧٤٤).

كما تجاوز ذلك ﷺ إلى من يعيشون خارج بيته، فأيقظ عليًّا وفاطمة رضي الله عنهما، فعن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ طرَقه وفاطمة بنت النبي ﷺ ورضي عنها ليلة، فقال: «ألا تصليان؟» فقلت: يارسول الله أنفسنا بيد الله، فإذا شاء أن يبعثنا بعثنا، فانصرف حين قلنا ذلك ولم يرجع إليَّ شيئًا، ثم سمعته وهو مُوَلٍّ يضرب فخذه،وهو يقول: ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا﴾(الكهف: ٥٤). (أخرجه البخاري ١١٢٧، ومسلم ٧٧٥).

ويوصي ﷺ النساء والرجال من أمته بهذا التعاون، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «رحم الله رجلًا قام من الليل فصلى وأيقظ امرأته فصلت، فإن أبت نضح في وجهها الماء، ورحم الله امرأة قامت من الليل فصلت وأيقظت زوجها فصلى، فإن أبى نضحت في وجهه الماء». (أخرجه أحمد ٧٤١٠، وأبو داود ١٣٠٨، وابن ماجه ١٣٣٦، والنسائي ١٦١٠).

ويحثهم على ذلك مبيِّنًا الأجر المترتب على هذا العمل، فعن أبي سعيد الخدري وأبي هريرة رضي الله عنهما قالا: قال ﷺ: «من استيقظ من الليل وأيقظ امرأته، فصليا ركعتين جميعًا، كُتبا من الذاكرين الله كثيرًا، والذاكرات». (أخرجه أبو داود ١٤٥١، والنسائي في الكبرى ١٣١٢، وابن ماجه ١٣٣٥).

وأذن ﷺ لمن صلى معه جماعة في الليل من أصحابه، فعن حذيفة رضي الله عنه قال: صليت مع النبي ﷺ ذات ليلة، فافتتح البقرة، فقلت: يركع عند المائة، ثم مضى، فقلت: يصلي بها في ركعة، فمضى، فقلت: يركع بها، ثم افتتح النساء، فقرأها، ثم افتتح آل عمران، فقرأها، يقرأ مترسلا، إذا مر بآية فيها تسبيح سبح، وإذا مر بسؤال سأل، وإذا مر بتعوذ تعوذ، ثم ركع، فجعل يقول: «سبحان ربي العظيم»، فكان ركوعه نحوًا من قيامه، ثم قال: «سمع الله لمن حمده»، ثم قام طويلًا قريبًا مما ركع، ثم سجد، فقال: «سبحان ربي الأعلى»، فكان سجوده قريبًا من قيامه، قال: وفي حديث جرير من الزيادة، فقال: «سمع الله لمن حمده، ربنا لك الحمد». (أخرجه مسلم ٧٧٢).

بل إنه ﷺ يطلب من أهل البيت أن يصلي بهم، كما يحدِّث عن ذلك أنس بن مالك رضي الله عنه أن جدته مليكة دعت رسول الله ﷺ لطعام صنعته له، فأكل منه، ثم قال: «قوموا فلأصلِّ لكم» قال أنس: فقمت إلى حصير لنا، قد اسودَّ من طول ما لبس، فنضحته بماء، فقام رسول الله ﷺ، وصففتُ واليتيم وراءه، والعجوز من ورائنا، فصلى لنا رسول الله ﷺ ركعتين، ثم انصرف. (أخرجه البخاري ٣٨٠، ومسلم ٦٥٨).

٨- تلاوة القرآن:

القرآن الكريم أعظم وأبلغ ما يرسِّخ الإيمان ويزيده في النفوس، وقد وصف الله تبارك وتعالى كتابه بأنه يزيد المؤمنين إيمانًا، قال عز وجل: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ (الأنفال: ٢).

وقال سبحانه: ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ (التوبة: ١٢٤).

لذا كان ﷺ يعنى بهذا الأمر، فهو كثيرًا ما يقرأ القرآن على أصحابه، عن ابن عمر رضي الله عنهما، قال: «كان النبي ﷺ يقرأ علينا السورة، فيها السجدة فيسجد ونسجد، حتى ما يجد أحدنا موضع جبهته». (أخرجه البخاري ١٠٧٥، ومسلم ٥٧٥).

وكثيرًا ما يقرأ القرآن في خطبته ﷺ، فعن جابر بن سمرة رضي الله عنه، قال: «كانت للنبي ﷺ خطبتان يجلس بينهما يقرأ القرآن، ويذكر الناس» (أخرجه مسلم ٨٦٢).

وربما قرأ القرآن على بعض أصحابه، عن أنس بن مالك رضي الله عنه، قال النبي ﷺ لأبي: «إن الله أمرني أن أقرأ عليك ﴿لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ﴾ (البينة: ١) قال: وسماني؟ قال: «نعم» فبكى (أخرجه البخاري ٣٨٠٩ ومسلم ٧٩٩).

وطلب من ابن مسعود ﷺ أن يقرأ عليه القرآن، عن عبد الله ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «اقرأ علي» قال: قلت: أقرأ عليك وعليك أُنزل؟ قال: «إني أشتهي أن أسمعه من غيري»، قال: فقرأت النساء حتى إذا بلغت: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾ (النساء: ٤١). قال لي: «كُفَّ- أو أمسك-» فرأيت عينيه تذرفان. (أخرجه البخاري ٥٠٥٥، ومسلم ٨٠٠).

وحث أصحابه على قراءة القرآن مقارنًا بين حال المؤمن الذي يقرأ القرآن والذي لا يقرؤه، والمنافق الذي يقرأ القرآن والذي لا يقرؤه، عن أبي موسى الأشعري ﷺ، قال: قال رسول الله ﷺ: «مثل المؤمن الذي يقرأ القرآن كمثل الأُتْرُجَّة، ريحها طيب وطعمها طيب، ومثل المؤمن الذي لا يقرأ القرآن كمثل التمرة، لا ريح لها وطعمها حلو، ومثل المنافق الذي يقرأ القرآن مثل الريحانة، ريحها طيب وطعمها مر، ومثل المنافق الذي لا يقرأ القرآن كمثل الحنظلة، ليس لها ريح وطعمها مر». (أخرجه البخاري ٥٤٢٧، ومسلم ٧٩٧).

وحثَّهم ﷺ على تعلم القرآن في المسجد، عن عقبة بن عامر ﷺ، قال: خرج رسول الله ﷺ ونحن في الصُّفَّة، فقال: «أيكم يحب أن يغدو كل يوم إلى بُطْحَانَ، أو إلى العقيق، فيأتي منه بناقتين كَوْمَاوَيْن في غير إثم، ولا قطع رحم؟»، فقلنا: يا رسول الله نحب ذلك، قال: «أفلا يغدو أحدكم إلى المسجد فيعلم، أو يقرأ آيتين من كتاب الله عز وجل، خير له من ناقتين، وثلاث خير له من ثلاث، وأربع خير له من أربع، ومن أعدادهن من الإبل». (أخرجه مسلم ٨٠٣).

كما حثَّهم على الاجتماع على تلاوته وتدارسه، عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: «من نفَّس عن مؤمن كربة من كرب الدنيا، نفَّس الله عنه كربة من كرب يوم القيامة، ومن يسَّر على معسر، يسَّر الله عليه في الدنيا والآخرة، ومن ستر مسلمًا، ستره الله في الدنيا والآخرة، والله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه، ومن سلك طريقًا يلتمس فيه

علمًا، سهَّل الله له به طريقًا إلى الجنة، وما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله، يتلون كتاب الله، ويتدارسونه بينهم، إلا نزلت عليهم السكينة، وغشيتهم الرحمة وحفتهم الملائكة، وذكرهم الله فيمن عنده، ومن بطَّأ به عمله، لم يسرع به نسبه». (أخرجه مسلم ٢٦٩٩).

المجال الخلقي والسلوكي

يمثل المجال الخلقي و السلوكي مجالًا مهمًا من مجالات التربية النبوية، حتى عدَّ ﷺ ذلك من مقاصد بعثته، وحث أصحابه على التحلي بمحاسن الأخلاق، وأعلى منزلة حسن الخلق، ورَبَطه بالإيمان- كما سيأتي تفصيل ذلك.

ويتصل البناء الخلقي والسلوكي بالتربية اتصالًا وثيقًا، حتى صار الذهن ينصرف إليه حين يطلق لفظ التربية، وبغض النظر عن مدى سلامة هذا الإطلاق، إلا أنه يعبر عن مدى الصلة الوثيقة بين التربية والأخلاق.

واستيعاب التربية النبوية في المجال الخلقي يضيق عنه هذا المقام، كيف لا وقد بُعث ﷺ ليتم صالح الأخلاق، وحسبنا هنا إشارات وإضاءات لنبذ من التربية النبوية في المجال الخلقي والسلوكي.

اعتناؤه بالدعوة له في مكة:

اعتنى ﷺ بالبناء الخلقي في صدر دعوته، حتى عدَّ بعضُ مَن وفد إليه من أصحابه- وهو في مكة- الأخلاق من معالم دعوته.

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: لما بلغ أبا ذر مبعثُ النبي ﷺ، قال لأخيه: اركب إلى هذا الوادي فاعلم لي علم هذا الرجل الذي يزعم أنه نبي، يأتيه الخبر من السماء، واسمع من قوله، ثم ائتني، فانطلق الأخ حتى قدمه، وسمع من قوله، ثم رجع إلى أبي ذر فقال له: رأيته يأمر بمكارم الأخلاق، وكلامًا ما هو بالشعر... (أخرجه البخاري ٣٨٦١، ومسلم ٢٤٧٤).

إن دلالة وصف أبي ذر رضي الله عنه لا تنتهي عن مجرد بيان أنه ﷺ كان يعنى بالدعوة لمكارم الأخلاق وهو في مكة، بل إنه جعل الأمر بمكارم الأخلاق شعارًا وعنوانًا لدعوة النبي ﷺ.

واعتناء النبي ﷺ بالدعوة إلى مكارم الأخلاق في المرحلة المكية لم ينفرد بذكرها أبو ذر ﷺ، فقد وفد عمرو بن عبسة إليه ﷺ وهو في مكة في بداية دعوته، وحكى ﷺ جزءًا مما علّمه إياه ﷺ من محاسن الأخلاق.

عن أبي أمامة، قال: قال عمرو بن عبسة السلمي ﷺ: كنت وأنا في الجاهلية أظن أن الناس على ضلالة، وأنهم ليسوا على شيء وهم يعبدون الأوثان، فسمعت برجل بمكة يخبر أخبارًا، فقعدت على راحلتي، فقدمت عليه، فإذا رسول الله ﷺ مستخفيًا جُرَءَاءُ عليه قومه، فتلطفت حتى دخلت عليه بمكة، فقلت له: ما أنت؟ قال: «أنا نبي»، فقلت: وما نبي؟ قال: «أرسلني الله»، فقلت: وبأي شيء أرسلك؟ قال: «أرسلني بصلة الأرحام، وكسر الأوثان، وأن يوحد الله لا يشرك به شيء»، قلت له: فمن معك على هذا؟ قال: «حر، وعبد»، قال: ومعه يومئذ أبو بكر، وبلال ممن آمن به، فقلت: إني متبعك، قال: «إنك لا تستطيع ذلك يومك هذا، ألا ترى حالي وحال الناس، ولكن ارجع إلى أهلك فإذا سمعت بي قد ظهرت فأتني»، قال: فذهبت إلى أهلي وقدم رسول الله ﷺ المدينة، وكنت في أهلي فجعلت أتخبَّر الأخبار، وأسأل الناس حين قدم المدينة، حتى قدم عليَّ نفر من أهل يثرب من أهل المدينة، فقلت: ما فعل هذا الرجل الذي قدم المدينة؟ فقالوا: الناس إليه سراع، وقد أراد قومه قتله فلم يستطيعوا ذلك، فقدمت المدينة فدخلت عليه، فقلت: يا رسول الله أتعرفني؟ قال: «نعم، أنت الذي لقيتني بمكة»، قال: فقلت: بلى... الحديث». (أخرجه مسلم ٨٣٢).

ومما يؤكد هذا المعنى عناية القرآن المكي بالجانب الخلقي؛ ففي سورة المطففين جاء الوعيد للمطففين، وربط القرآن ذلك باليوم الآخر، فقال سبحانه: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ۝١ ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكْتَالُوا۟ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ۝٢ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ۝٣ أَلَا يَظُنُّ أُو۟لَٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ ۝٤ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ۝٥ يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ (المطففين: ١ – ٦).

وفي وصية لقمان لابنه بدأها بالنهي عن الشرك بالله سبحانه، وتضمنت طائفة من الوصايا الخلقية، قال تعالى: ﴿يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأۡمُرۡ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَٱنۡهَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ ١٧ وَلَا تُصَعِّرۡ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمۡشِ فِي ٱلۡأَرۡضِ مَرَحًاۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخۡتَالٖ فَخُورٖ ١٨ وَٱقۡصِدۡ فِي مَشۡيِكَ وَٱغۡضُضۡ مِن صَوۡتِكَۚ إِنَّ أَنكَرَ ٱلۡأَصۡوَٰتِ لَصَوۡتُ ٱلۡحَمِيرِ﴾ (لقمان: ١٧ - ١٩).

وفي سورة الإسراء جاء الأمر بالقصد والنهي عن الإسراف والبخل، والنهي عن الكبر والتعالي، قال سبحانه: ﴿وَلَا تَقۡرَبُواْ مَالَ ٱلۡيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ حَتَّىٰ يَبۡلُغَ أَشُدَّهُۥۚ وَأَوۡفُواْ بِٱلۡعَهۡدِۖ إِنَّ ٱلۡعَهۡدَ كَانَ مَسۡـُٔولٗا ٣٤ وَأَوۡفُواْ ٱلۡكَيۡلَ إِذَا كِلۡتُمۡ وَزِنُواْ بِٱلۡقِسۡطَاسِ ٱلۡمُسۡتَقِيمِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلٗا ٣٥ وَلَا تَقۡفُ مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٌۚ إِنَّ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡبَصَرَ وَٱلۡفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنۡهُ مَسۡـُٔولٗا ٣٦ وَلَا تَمۡشِ فِي ٱلۡأَرۡضِ مَرَحًاۖ إِنَّكَ لَن تَخۡرِقَ ٱلۡأَرۡضَ وَلَن تَبۡلُغَ ٱلۡجِبَالَ طُولٗا ٣٧ كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُۥ عِندَ رَبِّكَ مَكۡرُوهٗا﴾ (الإسراء: ٣٤ - ٣٨).

وقد شاع في سياق الحديث عن أهمية التوحيد والعقيدة أنه ﷺ إنما اقتصر في مكة على الدعوة إلى التوحيد، وربما جعل بعض الناس هذا الأمر مبرِّرًا للتهوين من شأن الأخلاق، بل قد يلمز بعضهم من يعتني بالدعوة إليها، محتجًا بأن الأولى هو الدعوة إلى التوحيد.

ولا شك ولا ريب أن التوحيد كان عنوان دعوة النبي ﷺ، ودعوة إخوانه من الأنبياء قبله، كما قال سبحانه: ﴿وَلَقَدۡ بَعَثۡنَا فِي كُلِّ أُمَّةٖ رَّسُولًا أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجۡتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَۖ فَمِنۡهُم مَّنۡ هَدَى ٱللَّهُ وَمِنۡهُم مَّنۡ حَقَّتۡ عَلَيۡهِ ٱلضَّلَٰلَةُۚ فَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَٱنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُكَذِّبِينَ﴾ (النحل: ٣٦) ولسنا بحاجة إلى التأكيد على أهمية التوحيد وعظم شأنه ومنزلته، لكن حديث أبي ذر، وحديث عمرو بن عبسة رضي الله عنهما صريحان في أنه ﷺ كان وهو في مكة يعتني بالدعوة إلى مكارم الأخلاق والأمر بها، حتى جعل بعضهم ذلك عنوانًا لدعوته ﷺ.

من مقاصد بعثته ﷺ:

جعل النبي ﷺ الأخلاق عنوانًا لدعوته، ومن مقاصد بعثته، فعن أبي هريرة ﷺ، قال: قال رسول الله ﷺ: «إنما بُعثت لأتمم صالح الأخلاق». (أخرجه أحمد ٩٨٥٢).

وفي حديث هرقل حين سأل أبا سفيان ﷺ عما يدعوهم إليه النبي ﷺ ذكر في ذلك الجانب الخلقي، «ثم قال: بم يأمركم؟ قال: قلت: يأمرنا بالصلاة والزكاة والصلة والعفاف». (أخرجه البخاري ٤٥٥٣، ومسلم ١٧٧٣).

وسائل البناء الخلقي النبوي:

تنوعت وسائل البناء الخلقي في التربية النبوية، ومن أهم هذه الوسائل ما يلي:

١-القدوة العملية:

كان ﷺ قدوة عملية في مجال التحلي بمحاسن الأخلاق ومكارمها، ويكفي في ذلك التزكية الربانية، والشهادة له من الله سبحانه وتعالى بحسن خلقه، قال عز وجل: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ (القلم: ٤).

وامتن سبحانه وتعالى على المؤمنين بحسن خلق النبي ﷺ، قال سبحانه: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ (التوبة: ١٢٨).

كما امتن سبحانه عليه ﷺ بأن رزقه حسن الخلق، وبيّن أن ذلك من رحمته تبارك وتعالى بعبده ﷺ قال عز وجل ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾ (آل عمران: ١٥٩).

وتنوعت شهادات أصحابه رضوان الله عليهم له ﷺ بحسن الخلق، فشهد له خادمه أنس ﷺ بأنه أحسن الناس خلقًا، عن أنس ﷺ، قال: كان النبي ﷺ أحسن الناس خلقًا، وكان لي أخ يقال له أبو عمير- قال: أحسبه فطيمًا-، وكان إذا جاء قال: «يا أبا عمير، ما فعل النُّغَير» نُغَرٌ كان يلعب به، فربما حضر الصلاة وهو في بيتنا، فيأمر بالبساط الذي تحته فيكنس وينضح، ثم يقوم ونقوم خلفه فيصلي بنا. (أخرجه البخاري ٦٢٠٣، ومسلم ٦٥٩).

كما شهد له ﷺ بالجود والشجاعة، فعن أنس ﷺ قال: «كان النبي ﷺ أحسن الناس، وأشجع الناس، وأجود الناس، ولقد فزع أهل المدينة فكان النبي ﷺ سبقهم على فرس»، وقال: «وجدناه بحرًا». (أخرجه البخاري ٢٨٢٠، ومسلم ٢٣٠٧).

وجاء وصفه ﷺ بحسن الخلق في التوراة، عن عطاء بن يسار، قال: لقيت عبد الله بن عمرو بن العاص ﷺ، قلت: أخبرني عن صفة رسول الله ﷺ في التوراة؟ قال: «أجل، والله إنه لموصوف في التوراة ببعض صفته في القرآن: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدٗا وَمُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا﴾ (الأحزاب: ٤٥)، وحرزًا للأميين، أنت عبدي ورسولي، سميتك المتوكل، ليس بفظ ولا غليظ، ولا سخَّاب في الأسواق، ولا يدفع بالسيئة السيئة، ولكن يعفو ويغفر، ولن يقبضه الله حتى يقيم به الملة العوجاء، بأن يقولوا: لا إله إلا الله، ويفتح بها أعينًا عميًا، وآذانًا صمًّا، وقلوبًا غلفًا». (أخرجه البخاري ٢١٢٥).

ومع بلوغه ﷺ المثل الأعلى والأسوة الحسنة في مكارم الأخلاق ومعاليها، فقد كان ﷺ يبرز لأصحابه نماذج من القدوات الحية في محاسن الأخلاق، ومن أعظم هذه الأخلاق سلامة الصدر للمسلمين، عن أنس بن مالك ﷺ قال: كنا جلوسًا مع رسول الله ﷺ فقال: «يطلع عليكم الآن رجل من أهل الجنة»، فطلع رجل من الأنصار، تَنْطفُ لحيته من وضوئه، قد تعلق نعليه في يده الشمال، فلما كان الغد، قال النبي ﷺ، مثل ذلك، فطلع ذلك الرجل مثل المرة الأولى، فلما كان اليوم الثالث، قال النبي ﷺ، مثل مقالته

أيضًا، فطلع ذلك الرجل على مثل حاله الأولى، فلما قام النبي ﷺ تبعه عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما فقال: إني لَاحَيْتُ أبي، فأقسمت أن لا أدخل عليه ثلاثًا، فإن رأيت أن تؤويني إليك حتى تمضي فعلت؟ قال: نعم، قال أنس: وكان عبد الله يحدث أنه بات معه تلك الليالي الثلاث، فلم يره يقوم من الليل شيئًا، غير أنه إذا تعارَّ وتقلب على فراشه ذكر الله عز وجل وكبَّر، حتى يقوم لصلاة الفجر، قال عبد الله: غير أني لم أسمعه يقول إلا خيرًا، فلما مضت الثلاث ليال وكدت أن أحقر عمله، قلت: يا عبد الله إني لم يكن بيني وبين أبي غضب ولا هجر ثَمَّ، ولكن سمعت رسول الله ﷺ يقول لك- ثلاث مرار-: «يطلع عليكم الآن رجل من أهل الجنة»، فطلعت أنت الثلاث مرار، فأردت أن آوي إليك لأنظر ما عملك، فأقتدي به، فلم أرك تعمل كثير عمل، فما الذي بلغ بك ما قال رسول الله ﷺ؟ فقال: ما هو إلا ما رأيت، قال: فلما وليت دعاني، فقال: ما هو إلا ما رأيت، غير أني لا أجد في نفسي لأحد من المسلمين غشًّا، ولا أحسد أحدًا على خير أعطاه الله إياه، فقال عبد الله هذه التي بلغت بك، وهي التي لا نطيق. (أخرجه أحمد ١٢٦٩٧).

ولئن أمكن تحقيق بعض الأهداف التربوية من خلال التوجيه والتعليم، والأمر والنهي، فإن الجانب الخلقي لا يمكن بناؤه دون قدوة عملية تتمثل محاسن الأخلاق ومكارمها؛ فالأخلاق تتسع فيها دائرة النسبية، ويتأثر تفسيرها وفهمها بطبيعة الشخص وتربية؛ فالقسوة- على سبيل المثال- كثيرًا ما تُفسَّر على أنها قوة في الحق، وغَيرة على الحرمات، وقيام بحق القوامة والمسؤولية، والعفو قد يفسِّره بعضهم أنه ضعف، وسكوت عن الحق، وخدش في الكرامة... وهكذا.

وقلَّما نرى مبتلًى بخلق سيء من جفاء وقسوة وتعالٍ ونحو ذلك، إلا تجد أنه تلقى ذلك من معلِّم أو والد، أو بيئة نشَّأته عليه بصورة غير مقصودة، بل ربما بفهم قاصر لسوء الخلق.

إن مفتاح النجاح في التربية الخلقية أن يأخذ العالم والأستاذ والوالد وكل من له شأن في التربية نفسه بمكارم الأخلاق، ويحسِّن خلقه، ويقوِّم سلوكه، وسيرى أثر ذلك واضحًا على من يربِّيه.

والتأثير الفاعل للقدوة في البناء الخلقي مرتبط بالصدق في تمثُّل الأخلاق من قبل المربي؛ فالخلق الصادق الصادر عن محبة حقيقية للإحسان إلى الناس، وتوقير لهم، وتواضع حقيقي يترك أثره على المتلقي أضعاف أثر الخلق الذي يتصنَّعه صاحبه ويتكلفه.

٢- بيانه لمنزلة حسن الخلق:

اعتنى النبي ﷺ بالتأكيد على حسن الخلق وبيان منزلته ومكانته، والعلم بمنزلة حسن الخلق من أعظم ما يحفِّز على التحلي والالتزام بمحاسن الأخلاق، ومجاهدة النفس على ذلك، ومن صور بيانه ﷺ لمنزلة حسن الخلق ما يلي:

ربط حسن الخلق بالإيمان:

بيَّن ﷺ ارتباط حسن الخلق بالإيمان، عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «أكمل المؤمنين إيمانًا، أحسنهم خلقًا، وخيارهم خيارهم لنسائهم». (أخرجه أحمد ٧٤٠٢، وأبو داود ٤٦٨٢، والترمذي ١١٦٢).

كما بيَّن ﷺ أن دخول الجنة موقوف على الإيمان، والإيمان موقوف على خلق المحبة، ثم وجَّههم ﷺ إلى ما يسهم في تحقيق المحبة بينهم، عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تدخلون الجنة حتى تؤمنوا، ولا تؤمنوا حتى تحابوا، أولا أدُلُّكم على شيء إذا فعلتموه تحاببتم؟ أفشوا السلام بينكم». (أخرجه مسلم ٥٤).

وجعل ﷺ تحقق كمال الإيمان مرتبطًا بخلق المحبة للمؤمنين، عن أنس ﷺ عن النبي ﷺ قال: «لا يؤمن أحدكم، حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه». (أخرجه البخاري ١٣، ومسلم ٤٥).

ومن صور ربطه ﷺ الجانب الخلقي بالإيمان، نفيه ﷺ الإيمان عن بعض مَن تخلَّق بمساويء الأخلاق، عن أبي شريح ﵁ أن النبي ﷺ قال: «والله لا يؤمن، والله لا يؤمن، والله لا يؤمن» قيل: ومن يا رسول الله؟ قال: «الذي لا يأمن جاره بوايقَه». (أخرجه البخاري ٦٠١٦).

كما كان ﷺ يربط التحلي بمحاسن الأخلاق بالإيمان باليوم الآخر، كما في الكرم والإحسان إلى الجار، فعن أبي هريرة ﵁ قال: قال رسول الله ﷺ: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يؤذ جاره، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرًا أو ليصمت». (أخرجه البخاري ٦٠١٨، ومسلم ٤٧).

ويضيف ﷺ إلى الكرم والإحسان للجار الحث على طيب الكلام وقول الخير، أو التحلي بالصمت، فعن أبي شريح العدوي ﵁ قال: سمعتْ أذناي، وأبصرتْ عيناي، حين تكلم النبي ﷺ فقال: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم جاره، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه جائزته»، قال: وما جائزته يا رسول الله؟ قال: «يوم وليلة، والضيافة ثلاثة أيام، فما كان وراء ذلك فهو صدقة عليه، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرًا أو ليصمت». (أخرجه البخاري ٦٠١٩، ومسلم ٤٨).

وفي رواية مسلم: «مَن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليحسن إلى جاره، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرًا أو ليسكت».

ويحذرهم ﷺ من مساوئ الأخلاق مذكِّرًا إياهم بالإيمان بالله واليوم الآخر، عن عقبة بن عامر ﵁ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لا يحل لامرئ يؤمن بالله واليوم الآخر أن يبيع على بيع أخيه حتى يتركه». (أخرجه الدارمي ٢٥٩٢).

أكثر ما يدخل الناس الجنة:

بيَّن ﷺ أن حسن الخلق أكثر أسباب دخول الجنة، عن أبي هريرة ﷺ قال: سئل رسول الله ﷺ عن أكثر ما يلج الناس النار، فقال: «الأجوفان: الفم، والفرج»، وسئل عن أكثر ما يلج به الجنة، فقال رسول الله ﷺ: «حسن الخلق». (أخرجه أحمد ٧٩٠٧).

كما بيَّن ﷺ أن حسن الخلق من أسباب رفعة المنزلة في الجنة، عن أبي أمامة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «أنا زعيم ببيتٍ في رَبَضِ الجنة لمن ترك المِرَاء وإن كان محقًّا، وببيت في وسط الجنة لمن ترك الكذب وإن كان مازحًا، وببيت في أعلى الجنة لمن حَسُن خلقه». (أخرجه أبو داود ٤٨٠٠).

خير ما أعطي الناس:

وبين ﷺ لأصحابه أن حسن الخلق هو خير ما أعطي الناس، عن أسامة بن شريك ﷺ قال: أتيت النبي ﷺ، وأصحابه عنده كأنما على رءوسهم الطير، قال: فسلمت عليه، وقعدت، قال: فجاءت الأعراب، فسألوه فقالوا: يا رسول الله، نتداوى؟ قال: «نعم، تداوَوا؛ فإن الله لم يضع داء إلا وضع له دواء، غير داء واحد: الهَرَم» قال: وكان أسامة حين كَبِرَ يقول: «هل ترون لي من دواء الآن؟» قال: وسألوه عن أشياء، هل علينا حرج في كذا وكذا، قال: «عباد الله، وضع الله الحرج إلا امرأً اقترض امرأ مسلمًا ظلمًا، فذلك حرج، وهلك» قالوا: ما خير ما أعطي الناس يا رسول الله؟ قال: «خلق حسن». (أخرجه أحمد ١٨٤٥٤).

حسن الخلق هو البر:

ومن بيانه ﷺ لمنزلة حسن الخلق أن فسَّر البر بحسن الخلق، فعن النواس بن سمعان الأنصاري ﷺ قال: سألت رسول الله ﷺ، عن البر والإثم، فقال: «البر حسن الخلق، والإثم ما حاك في صدرك، وكرهت أن يطلع عليه الناس». (أخرجه مسلم ٢٥٥٣).

ثقله في ميزان العبد يوم القيامة:

وبيَّن ﷺ أن حسن الخلق أثقل ما يكون في ميزان العبد يوم القيامة، عن أم الدرداء، عن أبي الدرداء رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: «ما شيء أثقل في ميزان المؤمن يوم القيامة من خلق حسن، وإن الله ليبغض الفاحش البذيء». (أخرجه أحمد ٢٧٤٩٦، وأبو داود ٤٧٩٩، والترمذي ٢٠٠٢، واللفظ له).

حسن الخلق معيار للخيرية:

بيَّن ﷺ أن حسن الخلق معيار للخيرية؛ فجعل خيار الناس أحاسنهم أخلاقًا، عن مسروق، قال: كنا جلوسًا مع عبد الله بن عمرو، يحدثنا، إذ قال: لم يكن رسول الله ﷺ فاحشًا ولا متفحشًا، وإنه كان يقول: «إن خياركم أحاسنكم أخلاقًا». (أخرجه البخاري ٦٠٣٥، ومسلم ٢٣٢١).

إدراك درجة المتعبد:

بيَّن ﷺ لأصحابه أن تمثل حسن الخلق يبلغ بصاحبه درجة المتعبد القانت لله عز وجل، فعن عائشة رضي الله عنها أن النبي ﷺ قال: «إن الرجل ليدرك بحسن الخلق درجة الصائم القائم». (أخرجه أخرجه أحمد ٢٥٠١٣، وأبو داود ٤٧٩٨).

حبه ﷺ للمتحلين بمحاسن الأخلاق:

بيَّن ﷺ أن أحاسن الناس أخلاقًا من أحب الناس إليه ﷺ، فعن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما أنه قال: إن رسول الله ﷺ لم يكن فاحشًا ولا متفحشًا، وقال: «إن من أحبكم إلي أحسنكم أخلاقًا». (أخرجه البخاري ٣٧٥٩).

كما قرن ﷺ حبه لمن يتحلون بمحاسن الأخلاق بقرب منزلتهم منه في الجنة، عن جابر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إن من أحبكم إلي وأقربكم مني مجلسًا يوم القيامة

أحاسنكم أخلاقًا، وإن أبغضكم إلي وأبعدكم مني مجلسًا يوم القيامة الثرثارون والمتشدقون والمتفيهقون»، قالوا: يا رسول الله، قد علمنا الثرثارون والمتشدقون فما المتفيهقون؟ قال: «المتكبرون». (أخرجه الترمذي ٢٠١٨).

عَدُّه من أفضل الأعمال:

وجَّه النبي ﷺ من سأله عن أفضل الأعمال إلى الإحسان للناس، والتحلي بصالح الأخلاق، فعن أبي هريرة ﷺ قال: سئل رسول الله ﷺ: أي الأعمال أفضل؟ قال: «أن تدخل على أخيك المسلم سرورًا أو تقضي عنه دينًا، أو تطعمه خبزًا». (أخرجه البيهقي في شعب الإيمان ٧٢٧٣).

وصيته لرسله من أصحابه بحسن الخلق:

حين بعث ﷺ أبا موسى ومعاذ رضي الله عنهما إلى اليمن أوصاهما بحسن الخلق، عن سعيد بن أبي بردة، عن أبيه، عن جده، أن النبي ﷺ، بعث معاذًا وأبا موسى إلى اليمن قال: «يَسِّرا ولا تعسِّرا، وبَشِّرا ولا تُنَفِّرا، وتطاوعا ولا تختلفا». (أخرجه البخاري ٣٠٣٨، ومسلم ١٧٣٣).

وتضمنت هذه الوصية النبوية لمعاذ وأبي موسى رضي الله عنهما تحليهما بحسن الخلق فيما بينهما «تطاوعا ولا تختلفا»، وفي تعاملهما مع الآخرين « يَسِّرا ولا تُعَسِّرا، وبَشِّرا ولا تُنَفِّرا».

٣-الثناء والتعزيز:

ومن وسائل البناء الخلقي لدى النبي ﷺ الثناء على من تخلَّق بخلق حسن، عن ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال- للأشج أشج عبد القيس-: «إن فيك خصلتين يحبهما الله: الحلم، والأناة». (أخرجه مسلم ١٧).

وأخرجه أبو داود (٥٢٢٥) وأحمد مفصلًا من رواية زارع، أم أبان بنت الوازع بن زارع، عن جدها، زارع وكان في وفد عبد القيس قال: لما قدمنا المدينة فجعلنا نتبادر من رواحلنا، فنقبل يد النبي ﷺ ورجله، قال: وانتظر المنذر الأشج حتى أتى عيبته فلبس ثوبيه، ثم أتى النبي ﷺ فقال له: «إن فيك خلَّتين يحبهما الله: الحلم، والأناة» قال: يا رسول الله أنا أتخلق بهما أم الله جبلني عليهما؟ قال: «بل الله جبلك عليهما» قال: الحمد لله الذي جبلني على خلتين يحبهما الله ورسوله.

وأثنى ﷺ على من آثر ضيفه على نفسه وأهل بيته، عن أبي هريرة ﷺ، قال: جاء رجل إلى رسول الله ﷺ، فقال: إني مجهود، فأرسل إلى بعض نسائه، فقالت: والذي بعثك بالحق، ما عندي إلا ماء، ثم أرسل إلى أخرى، فقالت مثل ذلك، حتى قلن كلهن مثل ذلك: لا، والذي بعثك بالحق، ما عندي إلا ماء، فقال: «من يضيف هذا الليلة رحمه الله؟»، فقام رجل من الأنصار، فقال: أنا، يا رسول الله، فانطلق به إلى رحله، فقال لامرأته: هل عندك شيء؟ قالت: لا إلا قوت صبياني، قال: فعلِّليهم بشيء، فإذا دخل ضيفنا فأطفئ السراج، وأريه أنا نأكل، فإذا أهوى ليأكل، فقومي إلى السراج حتى تطفئيه، قال: فقعدوا وأكل الضيف، فلما أصبح غدا على النبي ﷺ، فقال: «قد عجب الله من صنيعكما بضيفكما الليلة». (أخرجه مسلم ٢٠٥٤).

كما أثنى ﷺ على من قابل قطيعة رحمه بالصلة، فعن أبي هريرة ﷺ أن رجلًا قال: يا رسول الله: إن لي قرابة أصلهم ويقطعوني، وأحسن إليهم ويسيئون إلي، وأحلم عنهم ويجهلون علي، فقال: «لئن كنت كما قلت، فكأنما تسفُّهم المَلَّ، ولا يزال معك من الله ظهير عليهم ما دمت على ذلك». (أخرجه مسلم ٢٥٥٨).

ويعزز ﷺ سلوك من تحلى بالرحمة من أصحابه، مذكِّرًا إياه بأن ذلك من أسباب استحقاق رحمة الله عز وجل، عن معاوية بن قرة، عن أبيه، أن رجلًا قال: يا رسول الله إني

لأذبح الشاة، وأنا أرحمها- أو قال: إني لأرحم الشاة أن أذبحها- فقال: «والشاة إن رحمتها رحمك الله، والشاة إن رحمتها رحمك الله». (أخرجه أحمد ١٥٥٩٢).

٤-بيان الجزاء في الآخرة:

يُرغِّب ﷺ أصحابه بحسن الخلق ويحثهم عليه مبينًا لهم الجزاء الأخروي، عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «مَن نَفَّس عن مؤمن كربة من كرب الدنيا، نَفَّس الله عنه كربة من كرب يوم القيامة، ومن يسَّر على معسر، يسَّر الله عليه في الدنيا والآخرة، ومن ستر مسلمًا، ستره الله في الدنيا والآخرة، والله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه، ومن سلك طريقًا يلتمس فيه علمًا، سهل الله له به طريقًا إلى الجنة، وما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله، يتلون كتاب الله، ويتدارسونه بينهم، إلا نزلت عليهم السكينة، وغشيتهم الرحمة وحفتهم الملائكة، وذكرهم الله فيمن عنده، ومن بطَّأ به عمله، لم يسرع به نسبه». (أخرجه مسلم ٢٦٦٩).

ويوجه ﷺ أصحابه إلى محاسن الأخلاق حين يسألونه عما يدخلهم الجنة، عن أبي أيوب ﷺ أن أعرابيًّا عرض لرسول الله ﷺ وهو في سفر، فأخذ بخطام ناقته- أو بزمامها- ثم قال: يا رسول الله- أو يا محمد- أخبرني بما يقربني من الجنة، وما يباعدني من النار، قال: فكف النبي ﷺ، ثم نظر في أصحابه، ثم قال: «لقد وُفِّق، أو لقد هُدِي»، قال: كيف قلت؟ قال: فأعاد، فقال النبي ﷺ: «تعبد الله لا تشرك به شيئًا، وتقيم الصلاة، وتؤتي الزكاة، وتصل الرحم، دع الناقة». (أخرجه مسلم ١٣، وأخرجه البخاري ١٣٩٦، بلفظ: أن رجلًا).

وعن البراء بن عازب ﷺ قال: جاء أعرابي إلى النبي ﷺ فقال: علِّمني علمًا يدخلني الجنة، قال: «لئن كنت أقصرت الخطبة، لقد أعرضت المسألة: أطعم الجائع، واسق الظمآن، ومر بالمعروف وانه عن المنكر، فإن لم تطق، فكف لسانك إلا من خير». (أخرجه

ابن أبي الدنيا في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ٤١ والصمت ٦٧، وجوَّد إسناده العراقي في تخريج الإحياء).

وحين سأله أحد أصحابه عن عمل يدخله الجنة دلَّه على باب من أبواب حسن الخلق، عن أبي الدرداء ﷺ قال: قلت: يا رسول الله، دُلَّني على عمل يدخلني الجنة، قال: «لا تغضب ولك الجنة»، (أخرجه الطبراني في الأوسط ٢٣٥٣).

وكما ربط ﷺ محاسن الأخلاق بحسن الجزاء في الآخرة، فقد حذَّرهم ﷺ من مساوئ الأخلاق مبينًا لهم عقوبتها في الآخرة، عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما، عن النبي ﷺ قال: «إياكم والظلم؛ فإن الظلم ظلمات يوم القيامة، وإياكم والفحش؛ فإن الله لا يحب الفحش ولا التفحش، وإياكم والشُّحَّ؛ فإنه أهلك من كان قبلكم، أمرهم بالقطيعة فقطعوا، وبالبخل فبخلوا، وبالفجور ففجروا» قال: فقام رجل فقال: يا رسول الله، أي الإسلام أفضل؟ قال:«أن يسلم المسلمون من لسانك ويدك»، قال- ذلك الرجل، أو رجل آخر-: يا رسول الله، فأي الهجرة أفضل؟ قال: «أن تهجر ما كره الله، والهجرة هجرتان: هجرة الحاضر والبادي، فأما البادي فإنه يطيع إذا أمر، ويجيب إذا دعي، وأما الحاضر فأعظمهما بلية، وأعظمهما أجرًا» (أخرجه أحمد ٦٨٣٧).

٥-بيان الجزاء الدنيوي:

من وسائل تحفيز النبي ﷺ لأصحابه على محاسن الأخلاق بيان ثمرة حسن الخلق وعاقبته في الدنيا، فعن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ قال: «يا عائشة، إن الله رفيق يحب الرفق، ويعطي على الرفق ما لا يعطي على العنف، وما لا يعطي على ما سواه». (أخرجه مسلم ٢٥٩٣).

ففي هذا الحديث بيان لآثار الرفق ونتائجه، وأنه من أسباب توفيق الله عز وجل وتيسيره، قال النووي: «ومعنى يعطي على الرفق، أي: يثيب عليه ما لا يثيب على غيره،

وقال القاضي: معناه يتأتى به من الأغراض، ويسهل من المطالب ما لا يتأتى بغيره». (شرح صحيح مسلم ٤/ ٢٠٠٣).

كما حث ﷺ على الصدق والتبيين في التعامل بين الناس، وبيَّن أن من آثار ذلك حصول البركة في المعاملة، عن حكيم بن حزام ﷺ عن النبي ﷺ، قال: «البيِّعان بالخيار ما لم يتفرقا، فإن صدقا وبيَّنا بورك لهما في بيعهما، وإن كذبا وكتما مُحقت بركة بيعهما». (أخرجه البخاري ٢١١٠، ومسلم ١٥٣٢).

قال ابن حجر: «وفي الحديث: حصول البركة لهما إن حصل منهما الشرط وهو الصدق والتبيين، ومحقها إن وجد ضدهما وهو الكذب والكتم، وهل تحصل البركة لأحدهما إذا وجد منه المشروط دون الآخر؟ ظاهر الحديث يقتضيه، ويحتمل أن يعود شؤم أحدهما على الآخر، بأن تنزع البركة من المبيع إذا وجد الكذب أو الكتم من كل واحد منهما، وإن كان الأجر ثابتًا للصادق المبين، والوزر حاصل للكاذب الكاتم، وفي الحديث: أن الدنيا لا يتم حصولها إلا بالعمل الصالح وأن شؤم المعاصي يذهب بخير الدنيا والآخرة». (فتح الباري ٤/ ٣١١).

كما حث ﷺ أصحابه على صلة الرحم، مبينًا أثر ذلك في سعة الرزق في الدنيا، عن أنس بن مالك ﷺ، قال: سمعت رسول الله ﷺ، يقول: «مَن سَرَّه أن يبسط له في رزقه، أو ينسأ له في أثره، فليصل رحمه». (أخرجه البخاري ٢٠٦٧، ومسلم ٢٥٥٧).

عن أبي هريرة ﷺ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «مَن سَرَّه أن يبسط له في رزقه، وأن ينسأ له في أثره، فليصل رحمه». (أخرجه البخاري ٥٩٥٨).

وقد حمل بعضهم هذا الحديث على ظاهره، وذلك بأن سنوات عمره تزداد، ومنهم من أَوَّل الزيادة بحصول البركة، قال ابن حجر: « قال العلماء: معنى البسط في الرزق

البركة فيه، وفي العمر حصول القوة في الجسد؛ لأن صلة أقاربه صدقة، والصدقة تربي المال وتزيد فيه فينمو بها ويزكو؛ لأن رزق الإنسان يكتب وهو في بطن أمه فلذلك احتيج إلى هذا التأويل، أو المعنى أنه يكتب مقيدًا بشرط، كأن يقال: إن وصل رحمه فله كذا، وإلا فكذا، أو المعنى بقاء ذكره الجميل بعد الموت». (فتح الباري ٤/ ٣٠٢).

وأيًّا كان المعنى الذي يحمل عله الحديث فهو شاهد على الثمرة والجزاء الدنيوي لحسن الخلق في الدنيا.

ورغَّب ﷺ في الهدية مبينًا أثرها في صفاء النفوس، وزوال الإِحَن، عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «تهادوا؛ فإن الهدية تذهب وَغَر الصَّدر». (أخرجه أحمد ٩٢٥٠).

وفي الحديث الآخر حثَّهم على التهادي مبينًا أثره في تحصيل المودة والمحبة بينهم، عن أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ قال: «تهادوا تحابوا». (أخرجه البخاري في الأدب المفرد ٥٩٤).

وكما كان ﷺ يرغب أصحابه في محاسن الأخلاق بذكر ثمرات ذلك في الدنيا، فقد كان يحذِّرهم من مساوئها بذكر عاقبتها في الدنيا، فقد حذَّرهم ﷺ من البغي والقطيعة مبينًا أثرها في حلول العقوبة العاجلة، عن أبي بكرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «ما من ذنب أحرى أن يُعجَّل لصاحبه العقوبة مع ما يؤخَّر له في الآخرة، من بغي، أو قطيعة رحم». (أخرجه أحمد ٢٠٣٧٤، وأبو داود ٤٩٠٢، والترمذي ٢٥١١، وابن ماجه ٤٢١١).

ومع أهمية تربية النفوس على التجرد والتعلق بالآخرة وجزائها، إلا أن من طبيعة النفس البشرية أن يؤثر فيها الجزاء العاجل ويحفِّزها نحو العمل، وقد جاء في القرآن الكريم حَفْز الناس على العمل الصالح، ووعدهم بالجزاء في الدنيا والآخرة، قال سبحانه: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَأَدْخَلْنَٰهُمْ جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٦٥﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا۟

ﭐلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُوا۟ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم ۚ مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَآءَ مَا يَعْمَلُونَ ﴾ (المائدة: ٦٥ - ٦٦)، وفي السنة النبوية حفَّز النبي ﷺ على الجهاد بالغنيمة والسَّلَب للقاتل، والثناء على من أحسن وأصاب من أصحابه، ونحو ذلك، وسيأتي مزيد تفصيل- بإذن الله- عند الحديث عن الترغيب والترهيب في التربية النبوية.

٦-إبراز الصورة الإيجابية لمن يتحلى بالخلق الحسن:

ومن وسائل البناء الخلقي في المنهج النبوي إبراز الصورة الإيجابية لمن يتحلى بمحاسن الأخلاق، فيبرز ﷺ صورة من ينتصر على نفسه ومشاعره، وبأنه أحق بوصف الشدة والانتصار ممن ينتصر بقوة جسده، عن أبي هريرة ؓ أن رسول الله ﷺ قال: «ليس الشديد بالصُّرَعَة، إنما الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب». (أخرجه البخاري ٦١١٤، ومسلم ٢٦٠٩).

وعن رجل شهد رسول الله ﷺ يخطب، فقال: «تدرون ما الرَّقُوب؟»، قالوا: الذي لا ولد له، فقال: «الرَّقُوب كل الرَّقوب، الرَّقوب كل الرَّقوب، الرَّقوب كل الرَّقوب الذي له ولد فمات ولم يقدم منهم شيئًا». قال: «تدرون ما الصُّعلوك؟»، قالوا: الذي ليس له مال، قال النبي ﷺ: «الصُّعلوك كل الصُّعلوك، الصُّعلوك كل الصُّعلوك، الذي له مال فمات، ولم يقدم منه شيئًا»، قال: ثم قال النبي ﷺ: «ما الصُّرَعَة؟» قال، قالوا: الصريع، قال: فقال رسول الله ﷺ: «الصُّرَعة كل الصُّرَعة، الصُّرَعة كل الصُّرَعة، الرجل يغضب فيشتد غضبه، ويحمر وجهه، ويقشعر شعره، فيصرع غضبه». (أخرجه أحمد ٢٣١١٥).

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «كذلك الشدة والقوة محبوبة، فبين أن قوة النفوس أحق بالمدح من قوة البدن، وهو أن يملك نفسه عند الغضب، كما قيل لبعض سادات العرب: ما بال عبيدك أصبر منكم عند الحرب وعلى الأعمال؟ قال: هم أصبر أجسادًا، ونحن أصبر نفوسًا» (مجموع الفتاوى ١٨/ ٢٨١).

وقال أيضًا: « والشجاعة ليست هي قوة البدن، فقد يكون الرجل قوي البدن ضعيف القلب، وإنما هي قوة القلب وثباته؛ فإن القتال مداره على قوة البدن وصنعته للقتال، وعلى قوة القلب وخبرته به، والمحمود منهما ما كان بعلم ومعرفة، دون التهور الذي لا يفكر صاحبه ولا يميز بين المحمود والمذموم؛ ولهذا كان القوي الشديد هو الذي يملك نفسه عند الغضب حتى يفعل ما يصلح دون ما لا يصلح، فأما المغلوب حين غضبه فليس هو بشجاع ولا شديد». (الاستقامة ٢/ ٢٧١).

٧-عدم احتقار اليسير:

كان ﷺ يربي أصحابه على ألا يحتقروا اليسير من محاسن الأخلاق؛ فيحثهم ﷺ على البذل والإحسان ولو كان يسيرًا، عن عدي بن حاتم ﷺ: أن النبي ﷺ ذكر النار فأشاح بوجهه فتعوذ منها، ثم ذكر النار فأشاح بوجهه فتعوذ منها، ثم قال: «اتقوا النار ولو بشق تمرة، فمن لم يجد فبكلمة طيبة». (أخرجه البخاري ٦٥٦٣، ومسلم ١٠١٦).

وفي رواية لمسلم: «من استطاع منكم أن يستتر من النار ولو بشق تمرة، فليفعل».

وينمي ﷺ لدى النساء سنة التهادي بينهن، ولو كانت الهدية شيئًا يسيرًا، عن أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ قال: «يا نساء المسلمات، لا تَحْقِرَنَّ جارة لجارتها، ولو فِرْسِن شاة» (أخرجه البخاري ٢٥٦٦، ومسلم ١٠٣٠).

وينهى ﷺ صاحبه أبا ذر ﷺ عن احتقار المعروف والإحسان، عن عبد الله بن الصامت، عن أبي ذر، قال: قال لي النبي ﷺ: «لا تحقرن من المعروف شيئًا، ولو أن تلقى أخاك بوجهٍ طلْق». (أخرجه مسلم ٢٦٢٦).

كما يحثهم ﷺ على بذل المعروف مبينًا لهم أنه باب من أبواب الصدقة، عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: «كل معروف صدقة». (أخرجه البخاري ٦٠٢١، ومسلم ١٠٠٥).

ويوسِّع ﷺ باب المعروف فلا يقتصر على بذل المال، عن جابر ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «كل معروف صدقة، إن من المعروف أن تلقى أخاك بوجهٍ طَلْق، وأن تُفرغ من دلوك في إناء أخيك». (أخرجه البخاري في الأدب المفرد ٣٠٤).

كما يربِّي ﷺ أصحابه على مكافأة الإحسان بالإحسان، ولو بالدعاء، عن ابن عمر رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: «من استعاذ بالله فأعيذوه، ومن سألكم بالله فأعطوه، ومن دعاكم فأجيبوه، ومن أتى إليكم معروفًا فكافئوه، فإن لم تجدوا ما تكافئوه، فادعوا له، حتى تعلموا أن قد كافأتموه». (أخرجه أحمد ٥٣٦٥، وأبو داود ١٦٧٢، والنسائي ٢٥٦٧).

ويعدد ﷺ لأصحابه أبوابًا من البدائل في البذل والإحسان، فعن سعيد بن أبي بردة، عن أبيه، عن جده ﷺ عن النبي ﷺ قال: «على كل مسلم صدقة»، فقالوا: يا نبي الله، فمن لم يجد؟ قال: «يعمل بيده، فينفع نفسه ويتصدق» قالوا: فإن لم يجد؟ قال: «يعين ذا الحاجة الملهوف» قالوا: فإن لم يجد؟ قال: «فليعمل بالمعروف، وليمسك عن الشر؛ فإنها له صدقة» (أخرجه البخاري ١٤٤٥، ومسلم ١٠٠٨).

كما ينمي ﷺ خلق الرحمة لدى أصحابه، ولو تجاه البهائم، ويبين لهم أن ذلك من أسباب استحقاق رحمة الله عز وجل، عن أبي أمامة قال: قال رسول الله ﷺ: «من رحم- ولو ذبيحة- رحمه الله يوم القيامة». (أخرجه البخاري في الأدب المفرد ٣٨١).

لكن اعتناء النبي ﷺ بتعزيز الإحسان والبذل- ولو بالقليل- لدى أصحابه لا يعني ضعف الهمة، والاكتفاء ببذل اليسير وفضلة المال، فهو يحثهم ﷺ على السخاء والعطاء من نفيس ما يجدون، عن أبي ذر ﷺ قال: سألت النبي ﷺ أي العمل أفضل؟ قال: «إيمان بالله، وجهاد في سبيله»، قلت: فأي الرقاب أفضل؟ قال: «أعلاها ثمنًا،

وأنفسها عند أهلها»، قلت: فإن لم أفعل؟ قال: «تعين ضايعًا، أو تصنع لأخرق»، قال: فإن لم أفعل؟ قال: «تدع الناس من الشر، فإنها صدقة تصدق بها على نفسك». (أخرجه البخاري ٢٥١٨، ومسلم ٨٤).

ويبيِّن ﷺ لأصحابه أن الإحسان في الصلة لا يتحقق بأن يعطي الإنسان لغيره نظير ما أعطاه ذلك الغير -كما قال ابن حجر- بل أن يمتد إحسانه وصلته إلى من يقطعونه، فيقول ﷺ: «ليس الواصل بالمكافئ، ولكن الواصل الذي إذا قطعت رحمه وصلها». (أخرجه البخاري ٥٩١١).

قال ابن حجر: «وقال شيخنا- في شرح الترمذي-: المراد بالواصل في هذا الحديث الكامل؛ فإن في المكافأة نوع صلة، بخلاف من إذا وصله قريبه لم يكافئه؛ فإن فيه قطعًا بإعراضه عن ذلك، وهو من قبيل «ليس الشديد بالصُّرَعة»، و«ليس الغنى عن كثرة العَرَض» انتهى. وأقول: لا يلزم من نفي الوصل ثبوت القطع، فهم ثلاث درجات: مواصل، ومكافىء، وقاطع؛ فالواصل من يتفضل ولا يتفضل عليه، والمكافئ الذي لا يزيد في الإعطاء على ما يأخذ، والقاطع الذي يتفضل عليه ولا يتفضل، وكما تقع المكافأة بالصلة من الجانبين كذلك تقع بالمقاطعة من الجانبين؛ فمن بدأ حينئذ فهو الواصل، فإن جُوزِيَ سمي من جازاه مكافئًا، والله أعلم». (فتح الباري ١٠/ ٤٢٣-٤٢٤).

٨-الواقعية ومراعاة حال الناس:

من معالم التربية النبوية الواقعية ومراعاة حال الناس- كما سبق تفصيل ذلك- ويتجلى هذا المعلم في البناء الخلقي؛ فهو ﷺ يراعي حال الناس، فيعطي من يرى لديه جزعًا وهلعًا، ويكل من يرى لديه قناعة إلى إيمانه، عن عمرو بن تغلب ﷺ أن رسول الله ﷺ أُتِي بمال- أو سبي- فقسمه، فأعطى رجالًا وترك رجالًا، فبلغه أن الذين ترك عتبوا،

فحمد الله، ثم أثنى عليه، ثم قال: «أما بعد فوالله إني لأعطي الرجل، وأدع الرجل، والذي أدع أحب إليَّ من الذي أعطي، ولكن أعطي أقوامًا لما أرى في قلوبهم من الجزع والهلع، وأَكِلُ أقوامًا إلى ما جعل الله في قلوبهم من الغنى والخير. (أخرجه البخاري ٩٢٣).

وفي فتح مكة أتى العباس بأبي سفيان رضي الله عنهما لرسول الله ﷺ، وطلب منه أن يمنحه ما يلبي محبته للفخر، فأجابه ﷺ لذلك، عن ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ عام الفتح، جاءه العباس بن عبد المطلب بأبي سفيان بن حرب فأسلم بِمَرِّ الظَّهْرَانِ، فقال له العباس: يا رسول الله، إن أبا سفيان رجل يحب هذا الفخر، فلو جعلت له شيئًا، قال: «نعم، من دخل دار أبي سفيان فهو آمن، ومن أغلق عليه بابه فهو آمن». (أخرجه أبو داود ٣٠٢١).

ومع تأكيده ﷺ على الصلة، وتعظيم شأن التقاطع بين المسلمين، فقد راعى الطبيعة البشرية وحدد الهجر بثلاث، عن أنس بن مالك رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «لا تباغضوا، ولا تحاسدوا، ولا تدابروا، وكونوا عباد الله إخوانًا، ولا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاثة أيام». (أخرجه البخاري ٦٠٦٥، ومسلم ٢٥٥٩).

وسبقت الإشارة إلى الحديث، وقول النووي رحمه الله: «وإنما عفي عنها في الثلاث؛ لأن الآدمي مجبول على الغضب وسوء الخلق ونحو ذلك، فعفي عن الهجرة في الثلاثة ليذهب ذلك العارض». (شرح صحيح مسلم ١٦/ ١١٧).

٩-استثمار المواقف:

كان ﷺ يستثمر المواقف المؤثرة في تنمية الجانب الخلقي لدى أصحابه، فيوصي المرأة التي فقدت من تحب بالصبر، مبينًا لها أن الصبر عند الصدمة الأولى، عن أنس بن مالك رضي الله عنه، قال: مر النبي ﷺ بامرأة تبكي عند قبر، فقال: «اتقي الله واصبري» قالت: إليك عني؛ فإنك لم تصب بمصيبتي، ولم تعرفه، فقيل لها: إنه النبي ﷺ، فأتت باب النبي ﷺ،

فلم تجد عنده بوابين، فقالت: لم أعرفك، فقال: «إنما الصبر عند الصدمة الأولى». (أخرجه البخاري ١٢٨٣، ومسلم ٩٢٦).

وحين رقَّت نفسه الشريفة، ورحم صبيًّا يحتضر ذكَّرهم ﷺ بأن التحلي بخلق الرحمة من أسباب تحصيل رحمة الله عز وجل، عن أسامة بن زيد رضي الله عنهما، قال: أرسلت ابنة النبي ﷺ إليه إن ابنًا لي قُبض، فأتنا، فأرسل يقرئ السلام، ويقول: «إن لله ما أخذ، وله ما أعطى، وكل عنده بأجل مسمى، فلتصبر، ولتحتسب»، فأرسلت إليه تقسم عليه ليأتينها، فقام ومعه سعد بن عبادة، ومعاذ بن جبل، وأبي بن كعب، وزيد بن ثابت ورجال، فرفع إلى رسول الله ﷺ الصبي ونفسه تتقعقع - قال: حسبته أنه قال كأنها شَنٌّ- ففاضت عيناه، فقال سعد: يا رسول الله، ما هذا؟ فقال: «هذه رحمة جعلها الله في قلوب عباده، وإنما يرحم الله من عباده الرحماء». (أخرجه البخاري ١٢٨٤، ومسلم ٩٢٣).

وحين رأى ﷺ إعجاب أصحابه بشجاعة رجل وفتوته، ذكَّرهم بخلق الحلم وكظم الغيظ، عن أنس رضي الله عنه أن النبي ﷺ: مر بقوم يصطرعون، فقال: «ما هذا؟»، فقالوا: يا رسول الله فلان الصريع لا ينتدب له أحد إلا صرعه، فقال رسول الله ﷺ: «ألا أدلكم على من هو أشد منه؟ رجل ظلمه رجل فكظم غيظه فغلبه، وغلب شيطانه، وغلب شيطان صاحبه». (أخرجه الطبراني في مكارم الأخلاق ٥٢).

ويوجه ﷺ أصحابه إلى التحلي بمحاسن الأخلاق حين يرى من أحدهم ما يستوجب ذلك، عن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها قالت: دخل رهط من اليهود على رسول الله ﷺ فقالوا: السَّام عليكم، قالت عائشة: ففهمتها فقلت: وعليكم السَّام واللعنة، قالت: فقال رسول الله ﷺ: «مهلًا يا عائشة، إن الله يحب الرفق في الأمر كله» فقلت: يا رسول الله، أولم تسمع ما قالوا؟ قال رسول الله ﷺ: «قد قلت: وعليكم». (أخرجه البخاري ٦٠٢٤، ومسلم ٢١٦٥).

وسيأتي حديث مفصل- بإذن الله- عن التربية في المواقف عند الحديث عن الوسائل التربوية النبوية.

١٠-تصحيح المفاهيم عن الأخلاق:

كان ﷺ يصحح ما التبس من مفاهيم حول الأخلاق، عن سالم بن عبد الله، عن أبيه، أن رسول الله ﷺ مر على رجل من الأنصار، وهو يعظ أخاه في الحياء، فقال رسول الله ﷺ: «دعه؛ فإن الحياء من الإيمان». (أخرجه البخاري ٢٤، ومسلم ٣٦).

وفي إحدى روايات البخاري (٦١١٨) تفصيل لموعظة هذا الرجل، عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: مر النبي ﷺ على رجل، وهو يعاتب أخاه في الحياء، يقول: إنك لتستحيي، حتى كأنه يقول: قد أضرَّ بك، فقال رسول الله ﷺ: «دعه، فإن الحياء من الإيمان».

وقد أشار عدد من شراح الحديث إلى أن مفهوم الحياء قد يلتبس بما ليس منه، قال النووي: « وأما كون الحياء خيرًا كله ولا يأتي إلا بخير، فقد يشكل على بعض الناس من حيث إن صاحب الحياء قد يستحي أن يواجه بالحق من يجله فيترك أمره بالمعروف ونهيه عن المنكر، وقد يحمله الحياء على الإخلال ببعض الحقوق وغير ذلك مما هو معروف في العادة، وجواب هذا ما أجاب به جماعة من الأئمة، منهم الشيخ أبوعمرو بن الصلاح رحمه الله: أن هذا المانع الذي ذكرناه ليس بحياء حقيقة، بل هو عجز وخور ومهانة، وإنما تسميته حياء من إطلاق بعض أهل العرف أطلقوه مجازًا لمشابهته الحياء». (شرح صحيح مسلم ٢/ ٥).

ويتأكد الاعتناء بتصحيح المفاهيم الملتبسة حول الأخلاق؛ إذ تؤثر البيئات والأعراف كثيرًا في حدود بعض الأخلاق وتفسيرها كما سبقت الإشارة إلى ذلك، ومن أصدق المعايير في ضبط مفاهيم الأخلاق الهدي العملي للنبي ﷺ.

١١-التوجيه العملي:

ومع عنايته ﷺ بالتوجيه القولي لأصحابه رضوان الله عليهم بِحَثِّهم على مكارم الأخلاق، وبيانه لفضائلها العاجلة والآجلة فإنه كان يعنى بالتوجيه العملي.

فيرشد ﷺ صاحبه أبا ذر إلى نماذج عملية من صور الإحسان وبذل المعروف إلى الجار، عن عبد الله بن الصامت، عن أبي ذر ﵁، قال: أوصاني خليلي ﷺ بثلاثة: «اسمع وأطع ولو لعبد مجدع الأطراف، وإذا صنعت مرقة فأكثر ماءها، ثم انظر أهل بيت من جيرانك فأصبهم منه بمعروف، وصل الصلاة لوقتها، وإذا وجدت الإمام قد صلى فقد أحرزت صلاتك، وإلا فهي نافلة». (أخرجه أحمد ٢١٤٢٨).

وأرشد ﷺ من استنصحه بعمل ينفعه ويدخله الجنة إلى خلق عملي في كف الأذى، عن أبي برزة الأسلمي ﵁ قال: قلت: يا رسول الله، دلني على عمل يدخلني الجنة أو أنتفع به؟ قال: «اعزل الأذى عن طريق المسلمين». (أخرجه أحمد ١٩٧٩١).

وأخرجه مسلم (٢٦١٨) بلفظ: قلت: يا نبي الله علمني شيئًا أنتفع به، قال: «اعزل الأذى عن طريق المسلمين».

وحدثهم ﷺ عن صورة عملية لمن أماط الأذى عن طريق المسلمين، عن أبي هريرة ﵁ أن رسول الله ﷺ، قال: «إن شجرة كانت تؤذي المسلمين، فجاء رجل فقطعها، فدخل الجنة». (أخرجه مسلم ١٩١٤).

وفي رواية لمسلم: «لقد رأيت رجلًا يتقلب في الجنة، في شجرة قطعها من ظهر الطريق، كانت تؤذي الناس».

ويرشدهم ﷺ إلى وسائل تعينهم على التخلص من مساوئ الأخلاق، عن ابن عباس، ﭭ عن النبي ﷺ أنه قال: «علموا، ويسروا، ولا تعسروا، وإذا غضب أحدكم

فليسكت». (أخرجه أحمد ٢١٣٦).

وحين رأى ﷺ رجلًا قد بلغ به الغضب كل مبلغ حدَّث أصحابه وهو يسمع عما يزيل عنه الغضب، عن سليمان بن صُرَد ﷺ قال: استبَّ رجلان عند النبي ﷺ، فغضب أحدهما، فاشتد غضبه حتى انتفخ وجهه وتغير: فقال النبي ﷺ: «إني لأعلم كلمة، لو قالها لذهب عنه الذي يجد»، فانطلق إليه الرجل فأخبره بقول النبي ﷺ وقال: «تعوَّذ بالله من الشيطان»، فقال: أترى بي بأس؟ أمجنون أنا؟ اذهب. (أخرجه البخاري ٦٠٤٨، ومسلم ٢٦١٠).

١٢-المقارنة الخلقية:

يقارن ﷺ في توجيهه لأصحابه بين محاسن الأخلاق وبين مساوئها في صورتين متقابلتين، فيقارن ﷺ بين الحياء والبذاء مبينًا مصير من يتحلى بهما، عن أبي بكرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «الحياء من الإيمان، والإيمان في الجنة، والبذاء من الجفاء، والجفاء في النار» (أخرجه ابن ماجه ٤١٨٤).

ويقارن ﷺ بين المؤمن والفاجر في أخلاقهما، عن أبي سلمة، عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «إن المؤمن غِرٌّ كريم، وإن الفاجر خَبٌّ لئيم». (أخرجه أحمد ٩١١٨، وأبو داود ٤٧٩٠، والترمذي ١٩٦٤).

قال الخطابي: «معنى هذا الكلام أن المؤمن المحمود هو من كان طبعه وشيمته الغرارة وقلة الفطنة للشر وترك البحث عنه، وإن ذلك ليس منه جهلًا، لكنه كرم وحسن خلق، وإن الفاجر من كانت عادته الخَب والدهاء والوغول في معرفة الشر، وليس ذلك منه عقلًا لكنه خَب ولؤم». (معالم السنن ٤/ ١٠٨).

وليس المقصود من الحديث أن يكون المؤمن مخدوعًا يلدغ من الجحر مرتين، قال في (العرف الشذي): «ويخالفه ما في الصحيحين: أن رجلًا أسر في البدر وأتى عنده فاعتذر

وأَلَحَّ، فخلى النبي ﷺ سبيله، ثم ذهب إلى أهله، وقال: إني خادعت محمدًا ثم جاء أسيرًا فاعتذر وأَلَحَّ، فقال النبي ﷺ: «لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين» إلخ، ولم يتركه النبي ﷺ، والجمع بين الحديثين أن مراد الأول أنه ليس بداهٍ ليكون يخرج الطرق والسبل قبل وقوع الأمر عليه، ومراد الثاني أنه يتعظ بما يقع عليه ولا يعود إلى ما صدر عنه مرة كالشطار». (العرف الشذي شرح سنن الترمذي ٣/ ٣٢٧).

ويقارن ﷺ بين الأخيار والأشرار واصفًا إياهم بصفات خلقية، عن أسماء بنت يزيد ﵂ أن النبي ﷺ قال: «ألا أخبركم بخياركم» قالوا: بلى يا رسول الله، قال: «الذين إذا رُؤوا، ذكر الله تعالى» ثم قال: «ألا أخبركم بشراركم؟ المشاؤون بالنميمة، المفسدون بين الأحبة، الباغون للبُرَآء العَنَت». (أخرجه أحمد ٢٧٥٥٩).

ويبين ﷺ لهم حال من تؤذي غيرها، وحال من تكف أذاها، عن أبي هريرة ﵁ قال: قيل للنبي ﷺ: يا رسول الله، إن فلانة تقوم الليل وتصوم النهار، وتفعل، وتصدق، وتؤذي جيرانها بلسانها؟ فقال رسول الله ﷺ: «لا خير فيها، هي من أهل النار»، قالوا: وفلانة تصلي المكتوبة، وتصدق بأثوار، ولا تؤذي أحدا؟ فقال رسول الله ﷺ: «هي من أهل الجنة». (أخرجه البخاري في الأدب المفرد ١١٩).

الصدق في التخلق:

اعتنى ﷺ في تربيته الخلقية لأصحابه بالصدق في التخلق بمحاسن الأخلاق؛ فالأخلاق -كغيرها من الأعمال- قد يتحلى بها من يبحث عن محبة الناس وثنائهم، أو تحصيل بعض مقاصده في الدنيا، عن أبي سلام، قال أبو ذر ﵁: «على كل نفس في كل يوم طلعت فيه الشمس صدقة منه على نفسه» قلت: يا رسول الله، من أين أتصدق وليس لنا أموال؟ قال: «لأن من أبواب الصدقة التكبير، وسبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، وأستغفر الله، وتأمر بالمعروف، وتنهى عن المنكر، وتعزل الشوكة عن طريق الناس والعظم

والحجر، وتهدي الأعمى، وتسمع الأصم والأبكم حتى يفقه، وتدل المستدل على حاجة له قد علمت مكانها، وتسعى بشدة ساقيك إلى اللهفان المستغيث، وترفع بشدة ذراعيك مع الضعيف، كل ذلك من أبواب الصدقة منك على نفسك، ولك في جماعك زوجتك أجر»، قال أبو ذر: كيف يكون لي أجر في شهوتي؟ فقال رسول الله ﷺ: «أرأيت لو كان لك ولد فأدرك ورجوت خيره فمات، أكنت تحتسب به؟» قلت: نعم، قال: «فأنت خلقته؟» قال: بل الله خلقه، قال: «فأنت هديته؟» قال: بل الله هداه، قال: «فأنت ترزقه؟» قال: بل الله كان يرزقه، قال: «كذلك فضعه في حلاله وجنبه حرامه، فإن شاء الله أحياه، وإن شاء أماته، ولك أجر». (أخرجه أحمد ٢١٤٨٤).

وفي رواية البيهقي في شعب الإيمان (٧٢١٢) عن أبي ذر، أن رسول الله ﷺ قال: «ليس من نفس بني آدم إلا عليها صدقة في كل يوم طلعت فيه الشمس»قيل: وما هي يا رسول الله؟ ومن أين لنا صدقة نتصدق بها؟ فقال: «إن أبواب الخير لكثيرة: التسبيح، والتحميد، والتكبير، والتهليل، وتأمر بالمعروف، وتنهى عن المنكر، وتميط الأذى عن الطريق، وتسمع الأصم وتهدي الأعمى، وتدل المستدل على حاجته، وتسعى بشدة ساقيك مع اللهفان المستغيث، وتحمل بشدة ذراعيك مع الضعيف، فهذا كله صدقة منك على نفسك».

إن هذا التوجيه النبوي البليغ في السعي بشدة الساقين، والرفع بشدة الذراعين تعبير عن الصدق في التخلق الذي يتحول إلى روح دافعة، ونفس توَّاقة لفعل الخير للناس، يُجهد فيها صاحبه بدنه بما يعود بالإشراق على نفسه وروحه.

ويؤكد ﷺ على ابتغاء ما عند الله وهو يحدثهم عن أجر من كظم غيظه، عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «ما من جرعة أعظم أجرًا عند الله، من جرعة غيظ كظمها عبد ابتغاء وجه الله». (أخرجه ابن ماجه ٤١٨٩).

التخلُّق:

وجَّه ﷺ أصحابه إلى التخلق بمحاسن الأخلاق، وبين لهم أن الله عز وجل يوفق من اجتهد في تمثل محاسن الأخلاق في نفسه، عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه: إن ناسًا من الأنصار سألوا رسول الله ﷺ، فأعطاهم، ثم سألوه، فأعطاهم، ثم سألوه، فأعطاهم حتى نفد ما عنده، فقال: «ما يكون عندي من خير فلن أدخره عنكم، ومن يستعفف يعفه الله، ومن يستغن يغنه الله، ومن يتصبر يصبره الله، وما أعطي أحد عطاء خيرًا وأوسع من الصبر». (أخرجه البخاري ١٤٦٩، ومسلم ١٠٥٣).

ولفظ مسلم: « ومن يصبر يصبره الله».

كما أخبرهم ﷺ بأن خلق الحلم يمكن اكتسابه وتعلمه، عن أبي الدرداء رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إنما العلم بالتعلُّم، وإنما الحلم بالتحلُّم، من يتحرَّ الخير يعطه، ومن يتق الشر يوقه». (أخرجه الطبراني في الأوسط ٢٦٦٣، والبيهقي في شعب الإيمان ١٠٢٥٤).

وقد قرر طائفة من أهل العلم إمكان اكتساب الأخلاق بالتدريب وسياسة النفس ورياضتها، واستدلوا على ذلك بالأمر بالتخلق بحسن الخلق، وترتيب الثواب على ذلك، والنهي عن سوء الخلق، وترتيب الوعيد على ذلك، ولا يمكن أن يكون هذا فيما هو خارج مقدور المكلف.

قال الماوردي: «فأما ما يستعمله من كان غالبًا عليه الحسد، وكان طبعه إليه مائلًا لينفي عنه ويكفاه ويسلم من ضرره وعداوته، فأمور هي له حسم إن صادفها عزم، فمنها: اتباع الدين في اجتنابه، والرجوع إلى الله عز وجل في آدابه، فيقهر نفسه على مذموم خلقها، وينقلها عن لئيم طبعها، وإن كان نقل الطباع عسرًا لك بالرياضة والتدريج يسهل منها ما استصعب، ويحبب منها ما أتعب، وإن تقدم قول القائل: مَن ربُّه خلقَه كيف يخلي

خلقه، غير أنه إذا عانى تهذيب نفسه تظاهر بالتخلق دون الخلق، ثم بالعادة يصير كالخلق، قال أبو تمام الطائي: فلم أجد الأخلاق إلا تخلقًا ... ولم أجد الأفضال إلا تفضلًا». (أدب الدنيا والدين، ص ٢٧٢).

وقال الغزالي: «لو كانت الأخلاق لا تقبل التغيير لبطلت الوصايا والمواعظ والتأديبات ولما قال رسول الله ﷺ: «حسِّنوا أخلاقكم» وكيف ينكر هذا في حق الآدمي وتغيير خلق البهيمة ممكن؟ إذ ينقل البازي من الاستيحاش إلى الأنس، والكلب من شره الأكل إلى التأدب والإمساك والتخلية، والفرس من الجماح إلى السلاسة والانقياد، وكل ذلك تغيير للأخلاق، والقول الكاشف للغطاء عن ذلك أن نقول: الموجودات منقسمة إلى ما لا مدخل للآدمي واختياره في أصله وتفصيله، كالسماء والكواكب، بل أعضاء البدن داخلًا وخارجًا، وسائر أجزاء الحيوانات، وبالجملة كل ما هو حاصل كامل وقع الفراغ من وجوده وكماله، وإلى ما وجد وجودًا ناقصًا، وجعل فيه قوة لقبول الكمال بعد أن وجد شرطه، وشرطه قد يرتبط باختيار العبد، فإن النواة ليست بتفاح ولا نخل، إلا أنها خلقت خلقة يمكن أن تصير نخلة إذا انضاف التربية إليها، ولا تصير تفاحًا أصلًا ولا بالتربية، فإذا صارت النواة متأثرة بالاختيار حتى تقبل بعض الأحوال دون بعض، فكذلك الغضب والشهوة لو أردنا قمعهما وقهرهما بالكلية حتى لا يبقى لهما أثر لم نقدر عليه أصلًا، ولو أردنا سلاستهما وقودهما بالرياضة والمجاهدة قدرنا عليه، وقد أمرنا بذلك وصار ذلك سبب نجاتنا ووصولنا إلى الله تعالى، نعم الجبلّات مختلفة بعضها سريعة القبول، وبعضها بطيئة القبول». (إحياء علوم الدين ٣/ ٥٥-٥٦).

وقال ابن القيم: « فإن قلت: هل يمكن أن يقع الخلق كسبيًّا، أو هو أمر خارج عن الكسب؟

قلت: يمكن أن يقع كسبيًّا بالتخلُّق والتكلُّف، حتى يصير له سجية وملكة، وقد قال النبي ﷺ لأشج عبد القيس ؓ: «إن فيك لخلقين يحبهما الله: الحلم، والأناة، فقال: أخلقين تخلقت بهما، أم جبلني الله عليهما؟ فقال: بل جبلك الله عليهما، فقال: الحمد لله الذي جبلني على خلقين يحبهما الله ورسوله»، فدل على أن من الخلق: ما هو طبيعة وجبلة، وما هو مكتسب، وكان النبي ﷺ يقول في دعاء الاستفتاح: «اللهم اهدني لأحسن الأخلاق، لا يهدي لأحسنها إلا أنت، واصرف عني سيئها، لا يصرف عني سيئها إلا أنت»، فذكر الكسب والقدر، والله أعلم». (مدارج السالكين ٢/ ٣٠٠).

الدعاء بحسن الخلق:

دعا ﷺ لبعض أصحابه باكتساب محاسن الأخلاق، فقد قال أبو هريرة ؓ قلت: يا رسول الله ادع الله أن يحببني أنا وأمي إلى عباده المؤمنين، ويحببهم إلينا، قال: فقال رسول الله ﷺ: «اللهم حَبِّب عبيدك هذا- يعني أبا هريرة- وأمه إلى عبادك المؤمنين، وحبب إليهم المؤمنين»، فما خلق مؤمن يسمع بي ولا يراني إلا أحبني. (أخرجه مسلم ٢٤٩١).

وكان ﷺ يدعو ربه أن يرزقه حسن الخلق، رغم أنه قد زكاه ربه تبارك وتعالى، ووصفه بأنه على خلق عظيم، عن علي بن أبي طالب ؓ، عن رسول الله ﷺ، أنه كان إذا قام إلى الصلاة، قال: «وجَّهت وجهي للذي فطر السماوات والأرض حنيفًا، وما أنا من المشركين، إن صلاتي، ونسكي، ومحياي، ومماتي لله رب العالمين، لا شريك له، وبذلك أمرت وأنا من المسلمين، اللهم أنت الملك لا إله إلا أنت أنت ربي، وأنا عبدك، ظلمت نفسي، واعترفت بذنبي، فاغفر لي ذنوبي جميعًا، إنه لا يغفر الذنوب إلا أنت، واهدني لأحسن الأخلاق لا يهدي لأحسنها إلا أنت، واصرف عني سيئها لا يصرف عني سيئها إلا أنت، لبيك وسعديك والخير كله في يديك، والشر ليس إليك، أنا بك وإليك، تباركت وتعاليت، أستغفرك وأتوب إليك»، وإذا ركع، قال: «اللهم لك ركعت، وبك آمنت،

ولك أسلمت، خشع لك سمعي، وبصري، ومخي، وعظمي، وعصبي»، وإذا رفع، قال: «اللهم ربنا لك الحمد ملء السماوات، وملء الأرض، وملء ما بينهما، وملء ما شئت من شيء بعد»، وإذا سجد، قال: «اللهم لك سجدت، وبك آمنت، ولك أسلمت، سجد وجهي للذي خلقه، وصوره، وشق سمعه وبصره، تبارك الله أحسن الخالقين»، ثم يكون من آخر ما يقول بين التشهد والتسليم: «اللهم اغفر لي ما قدمت وما أخرت، وما أسررت وما أعلنت، وما أسرفت، وما أنت أعلم به مني، أنت المقدم وأنت المؤخر، لا إله إلا أنت». (أخرجه مسلم ٧٧١).

المجال الجسمي

الجسد هو الوعاء الذي يحمل قلب الإنسان ومشاعره، وهو الأداة التي يؤدي بها الإنسان عبادة ربه، ومصالح دنياه، وعمارة الأرض؛ وصحةُ الجسد وسلامته من أسباب صحة الإنسان النفسية واستقراره وعطائه.

ومن هنا اعتنى النبي ﷺ ببناء الجسم وتربيته، وأكد على ذلك، وأنه حق على صاحبه.

وتتمثل أهم معالم التربية الجسمية في المنهج النبوي فيما يلي:

١ - تأكيد المسؤولية عنه:

يبين النبي ﷺ أن الإنسان سيسأل عن جسمه يوم القيامة؛ فعن أبي برزة الأسلمي رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تزول قدما عبد يوم القيامة حتى يسأل عن عمره فيما أفناه، وعن علمه فيم فعل، وعن ماله من أين اكتسبه وفيم أنفقه، وعن جسمه فيم أبلاه». (أخرجه الترمذي ٢٤١٧).

وفي هذا تأكيد على أن الجسم إنما يجب توظيفه في طاعة الله عز وجل، ويقتضي ذلك ما يلي:

- اغتنام نشاط الجسم وحيويته في الطاعة والعبادة.
- الحفاظ على الجسم والاعتناء به؛ فذلك وسيلة إبلائه في الطاعة، والوسيلة لها حكم الغاية.

ومن تمام رعاية هذه المسؤولية ألا ينهك الإنسان جسمه، ولو كان ذلك الإنهاك نتيجة الاجتهاد في الطاعة.

وقد أنكر ﷺ على من بدر منه شيء من ذلك من أصحابه رضوان الله عليهم؛ فعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال: قال لي رسول الله ﷺ: «يا عبد الله، ألم أخبر

أنك تصوم النهار، وتقوم الليل؟»، فقلت: بلى يا رسول الله قال: «فلا تفعل صم وأفطر، وقم ونم؛ فإن لجسدك عليك حقًّا، وإن لعينك عليك حقًّا، وإن لزوجك عليك حقًّا، وإن لزَوْرِك عليك حقًّا، وإن بحسبك أن تصوم كل شهر ثلاثة أيام، فإن لك بكل حسنة عشر أمثالها، فإن ذلك صيام الدهر كله»، فشدَّدت، فشُدِّد علي قلت: يا رسول الله إني أجد قوة قال: «فصم صيام نبي الله داود عليه السلام، ولا تزد عليه»، قلت: وما كان صيام نبي الله داود عليه السلام؟ قال: «نصف الدهر»، فكان عبد الله يقول بعد ما كبر: يا ليتني قبلت رخصة النبي ﷺ. (أخرجه البخاري ١٩٧٥، ومسلم ١١٥٩).

وأقر ﷺ سلمان رضي الله عنه حين قال المقولة نفسها لأبي الدرداء؛ فعن عون بن أبي جحيفة، عن أبيه، قال: آخى النبي ﷺ بين سلمان، وأبي الدرداء، فزار سلمان أبا الدرداء، فرأى أم الدرداء متبذلة، فقال لها: ما شأنك؟ قالت: أخوك أبو الدرداء ليس له حاجة في الدنيا، فجاء أبو الدرداء فصنع له طعامًا، فقال: كل؟ قال: فإني صائم، قال: ما أنا بآكل حتى تأكل، قال: فأكل، فلما كان الليل ذهب أبو الدرداء يقوم، قال: نم، فنام، ثم ذهب يقوم فقال: نم، فلما كان من آخر الليل قال سلمان قم الآن، فصليا، فقال له سلمان: إن لربك عليك حقًّا، ولنفسك عليك حقًّا، ولأهلك عليك حقًّا، فأعط كل ذي حق حقه، فأتى النبي ﷺ، فذكر ذلك له، فقال النبي ﷺ: «صدق سلمان». أخرجه البخاري (١٩٦٨).

٢- الرياضة والترويح:

مارس النبي ﷺ الرياضة بنفسه، فقد سابق عائشة رضي الله عنها كما تحدثنا عن ذلك بنفسها أنها كانت مع النبي ﷺ في سفر، قالت: فسابقته فسبقته على رجلي، فلما حملت اللحم سابقته فسبقني، فقال: «هذه بتلك السَّبْقَة». (أخرجه أحمد ٢٦٢٧٧، وأبو داود ٢٥٧٨، وابن ماجه ١٩٧٩، واللفظ لأبي داود).

كما أجرى ﷺ المسابقة بالخيل بين أصحابه رضوان الله عليهم؛ فعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ سابق بين الخيل التي أضمرت من الحَفْياء وأمدها ثنية الوداع، وسابق بين الخيل التي لم تضمر من الثنية إلى مسجد بني زُرَيق، وأن عبد الله بن عمر كان فيمن سابق بها. (أخرجه البخاري ٤٢٠، ومسلم ١٨٧٠)

وكان ﷺ يحفز الفائز منهم؛ فعن عبد الله بن عمر عن نافع عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: سبق النبي ﷺ بين الخيل وأعطى السابق. (أخرجه أحمد ٥٦٥٦).

وأذن للحبشة أن يلعبوا بحرابهم في المسجد، ونهى عمر بن الخطاب رضي الله عنه عن منعهم؛ فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: بينا الحبشة يلعبون عند النبي ﷺ بحرابهم دخل عمر فأهوى إلى الحصى فحصبهم بها، فقال: «دعهم يا عمر». (أخرجه البخاري ٢٩٠١، ومسلم ٨٩٣).

وفي روايةٍ عن عائشة رضي الله عنها قالت قال رسول الله ﷺ يومئذ: «لتعلم يهود أن في ديننا فسحة، إني أرسلت بحنيفية سمحة». (أخرجه أحمد ٢٤٨٥٥).

وفي رواية للحميدي (٢٥٦): «العبوا يا بني أَرْفِدَة؛ تَعْلَم اليهود والنصارى أن في ديننا فسحة».

إن بعض المولعين بالجد والصرامة يؤكدون على أن وظيفة الرياضة ومقصدها الإعداد للجهاد في سبيل الله، ويستشهدون بأحاديث مسابقة الخيل والرماية، ولا شك أن الإعداد للجهاد في سبيل الله مقصد عظيم؛ فقد ثبت عنه ﷺ أنه قال: «من مات ولم يغز، ولم يحدث به نفسه، مات على شعبة من نفاق». (أخرجه مسلم ١٩١٠)، لكن ذلك لا ينفي أن الفسحة والترويح عن النفس أحد هذه المقاصد، وهذا ما علل به ﷺ تركه لأهل الحبشة يلعبون في المسجد.

ويتأكد اليوم اعتناء الوالدين والمعلمين بحفز أولادهم إلى الرياضة البدنية؛ فطول الجلوس أمام الأجهزة الإلكترونية والكفيَّه، وكثرة النوم وقلة العمل له أثره على صحتهم ونموهم.

والاعتناء المطلوب بالرياضة هو ممارسة الرياضة وأداؤها، وليس ما يفعله طائفة من شباب المسلمين اليوم وفتياتهم من الانهماك في متابعة المنافسات الرياضية، والولع بالرياضيين وأحوالهم؛ فهذا عمل سلبي لا عائد فيه على صحة الشاب، ناهيك عن أثره في إضاعة الوقت، والانشغال بالاهتمامات الهامشية، والشحناء والصراع ونحو ذلك.

٣- الاعتدال في الطعام والشراب:

نهى النبي ﷺ عما يضر بجسم الإنسان، فقد نهى عن كثرة الطعام، وأمر بالاقتصاد فيه؛ فعن مقدام بن معدي كرب ﷺ، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ما ملأ آدمي وعاءً شرًا من بطن، بحسب ابن آدم أكلات يقمن صلبه، فإن كان لا محالة فثلث لطعامه، وثلث لشرابه، وثلث لنفَسه» (أخرجه أحمد ١٧١٨٦، والترمذي ٢٣٨٠، وابن ماجه ٣٣٤٩، واللفظ للترمذي).

وعن أبي هريرة ﷺ، قال: قال رسول الله ﷺ: «يأكل المسلم في مَعَيٍّ واحد، والكافر يأكل في سبعة أمعاء». (أخرجه البخاري ٥٣٩٦، ومسلم ٢٠٦٣).

وعن نافع، قال: كان ابن عمر ﷺ، لا يأكل حتى يؤتى بمسكين يأكل معه، فأدخلت رجلًا يأكل معه فأكل كثيرًا، فقال: يا نافع، لا تدخل هذا علي، سمعت النبي ﷺيقول: «المؤمن يأكل في مَعَيٍّ واحد، والكافر يأكل في سبعة أمعاء». (أخرجه البخاري ٥٣٩٣، ومسلم٢٠٦٠).

وأخرجه مسلم أيضًا (٢٠٦٢) عن أبي موسى ﷺ، كما أخرجه (٢٠٦١) عن جابر وابن عمر.

٤- حماية الطفل مما يضر به:

أمر النبي ﷺ الوالدين بحماية طفلهما عما يضر به، ومن ذلك اللعب وقت انتشار الشياطين؛ فعن جابر ﷺ عن النبي ﷺ قال: «إذا استجنح الليل- أو كان جنح الليل- فكفوا صبيانكم؛ فإن الشياطين تنتشر حينئذ، فإذا ذهب ساعة من العشاء فخلوهم، وأغلق بابك واذكر اسم الله، وأطفئ مصباحك واذكر اسم الله، وأوكِ سقاءك واذكر اسم الله، وخمر إناءك واذكر اسم الله، ولو تعرض عليه شيئًا». (أخرجه البخاري ٣٢٨٠، ومسلم ٢٠١٢).

٥- أخذ الوقاية:

أرشد النبي ﷺ أمته إلى أخذ الوقاية مما يضر بهم، فعن سعد بن أبي وقاص ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «من تصبَّح كل يوم سبع تمرات عجوة لم يضره في ذلك اليوم سُمٌّ ولا سحر». (أخرجه البخاري ٥٤٤٥، ومسلم ٢٠٤٧).

ونهى ﷺ عن القدوم على البلد التي فيها وباء، أو الخروج منها لأجل ذلك، عن عامر بن سعد بن أبي وقاص، عن أبيه ﷺ، أنه سمعه يسأل أسامة بن زيد ﷺ، ماذا سمعت من رسول الله ﷺ في الطاعون؟ فقال أسامة: قال رسول الله ﷺ: «الطاعون رجس أرسل على طائفة من بني إسرائيل، أو على من كان قبلكم، فإذا سمعتم به بأرض، فلا تقدموا عليه، وإذا وقع بأرض، وأنتم بها فلا تخرجوا، فرارًا منه» قال أبو النضر: «لا يخرجكم إلا فرارًا منه». (أخرجه البخاري ٣٤٧٣، ومسلم ٢٢١٨).

وقد اجتهد أصحاب النبي ﷺ ولمَّا يبلغهم النص فوافق اجتهادُهم ما أمر به ﷺ، مما يعني أنه قد استقر لديهم رضوان الله عليهم البعد عن أسباب الوباء والمرض، عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه، خرج إلى الشأم، حتى إذا كان بِسَرْغَ لقيه أمراء الأجناد، أبوعبيدة بن الجراح وأصحابه، فأخبروه أن الوباء قد وقع بأرض الشأم، قال ابن عباس: فقال عمر: ادع لي المهاجرين الأولين، فدعاهم فاستشارهم، وأخبرهم أن الوباء قد وقع بالشأم، فاختلفوا، فقال بعضهم: قد خرجت لأمر، ولا نرى أن ترجع عنه، وقال بعضهم: معك بقية الناس وأصحاب رسول الله ﷺ، ولا نرى أن تقدمهم على هذا الوباء، فقال: ارتفعوا عني، ثم قال: ادعوا لي الأنصار، فدعوتهم فاستشارهم، فسلكوا سبيل المهاجرين، واختلفوا كاختلافهم، فقال: ارتفعوا عني، ثم قال: ادع لي من كان ها هنا من مشيخة قريش من مهاجرة الفتح، فدعوتهم، فلم يختلف منهم عليه رجلان، فقالوا: نرى أن ترجع بالناس ولا تقدمهم على هذا الوباء، فنادى عمر في الناس: إني مصبح على ظهر فأصبحوا عليه، قال أبوعبيدة بن الجراح: أفرارًا من قدر الله؟ فقال عمر: لو غيرك قالها يا أبا عبيدة؟ نعم نَفِرُّ من قدر الله إلى قدر الله، أرأيت لو كان لك إبل هبطت واديًا له عُدوتان، إحداهما خصبة، والأخرى جدبة، أليس إن رعيت الخصبة رعيتها بقدر الله، وإن رعيت الجدبة رعيتها بقدر الله؟ قال: فجاء عبد الرحمن بن عوف- وكان متغيبًا في بعض حاجته- فقال: إن عندي في هذا علمًا، سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إذا سمعتم به بأرض فلا تقدموا عليه، وإذا وقع بأرض وأنتم بها فلا تخرجوا فرارًا منه»، قال: فحمد الله عمر، ثم انصرف. (أخرجه البخاري ٥٧٢٩، ومسلم ٢٢١٩).

وامتنع ﷺ عن مخالطة المجذوم، فعن عمرو بن الشريد، عن أبيه رضي الله عنه، قال: كان في وفد ثقيف رجل مجذوم، فأرسل إليه النبي ﷺ «إنا قد بايعناك فارجع». (أخرجه مسلم ٢٢٣١).

وأمر بالبعد عن المجذوم وعدم مخالطته، عن أبي هريرة ﷺ، قال: قال رسول الله ﷺ: «لا عدوى ولا طِيَرَة ولا هَامَةَ ولا صَفَرَ، وفرَّ من المجذوم كما تفرُّ من الأسد». (أخرجه البخاري ٥٧٠٧).

ودعاهم ﷺ إلى التحوُّط والبعد عما قد يؤدي إلى الضرر؛ فأمرهم ﷺ بحماية الشراب مما قد يلحق به من ضرر كما في قوله: «أطفئوا المصابيح إذا رقدتم، وغلقوا الأبواب، وأوكوا الأسقية، وخمروا الطعام والشراب- وأحسبه قال:- ولو بعود تعرضه عليه». (أخرجه البخاري ٥٦٢٤، ومسلم ٢٠١٢).

ونهاهم ﷺ عن الشرب من فم السقاء، عن أبي هريرة ﷺ: «نهى النبي ﷺ أن يشرب من فِيِّ السقاء». (أخرجه البخاري ٥٦٢٨).

وعن ابن عباس ﷺ، قال: «نهى النبي ﷺ عن الشرب من فِيِّ السقاء». (أخرجه البخاري ٥٦٢٩٩).

قال ابن حجر: «وقال الشيخ محمد بن أبي جمرة- ما ملخصه-: اختلف في علة النهي، فقيل: يخشى أن يكون في الوعاء حيوان، أو ينصبَّ بقوة فيشرق به، أو يقطع العروق الضعيفة التي بإزاء القلب، فربما كان سبب الهلاك، أو بما يتعلق بفم السقاء من بخار النفس، أو بما يخالط الماء من ريق الشارب فيتقذره غيره، أو لأن الوعاء يفسد بذلك في العادة، فيكون من إضاعة المال، قال: والذي يقتضيه الفقه أنه لا يبعد أن يكون النهي لمجموع هذه الأمور». (فتح الباري ١٠/ ٩١).

كما نهاهم ﷺ عن التنفس في الإناء، عن عبد الله بن أبي قتادة، عن أبيه ﷺ، قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا شرب أحدكم فلا يتنفس في الإناء، وإذا بال أحدكم فلا يمسح ذكره بيمينه، وإذا تمسح أحدكم فلا يتمسح بيمينه». (أخرجه البخاري ٥٦٣٠).

٦- التداوي:

اعتنى ﷺ بأمر التداوي، ووجه أصحابه لذلك، وفعله في نفسه؛ فهو بذل للسبب ورعاية للصحة، قال ابن القيم: «فكان من هديه ﷺ فعل التداوي في نفسه، والأمر به لمن أصابه مرض من أهله وأصحابه». (زاد المعاد ٤/ ٩).

وتنوع علاجه ﷺ كما قال ابن القيم: «كان علاجه ﷺ للمرض ثلاثة أنواع: أحدها بالأدوية الطبيعية، والثاني بالأدوية الإلهية، والثالث بالمركب من الأمرين». (زاد المعاد ٤/ ٢٢).

ويتضمن اعتناؤه ﷺ بالتداوي ما يلي:

أ- الأمر بالتداوي:

فقد أرشد ﷺ أمته إرشادًا عامًّا للتداوي، وبين لهم أن الله عز وجل قد جعل لكل داء دواء؛ مما يقطع اليأس، ويُحمِّل الإنسان مسؤولية عن البحث عن الدواء.

عن أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ قال: «ما أنزل الله داء إلا أنزل له شفاء». (أخرجه البخاري ٥٦٧٨).

وعن جابر ﷺ عن رسول الله ﷺ أنه قال: «لكل داء دواء، فإذا أُصيب دواء الداء برأ بإذن الله عزوجل». أخرجه مسلم (٢٢٠٤).

ويبين ﷺ في حديث آخر أن هذا الأمر يستثنى منه الهَرَم؛ فهو مرحلة من مراحل نمو الإنسان حين يصل إليها فشأنه الاستعداد للرحيل وختم عمره بالعمل الصالح، رزقنا الله حسن الخاتمة! عن أسامة بن شريك ﷺ قال: أتيت رسول الله ﷺ وأصحابه كأنما على رؤوسهم الطير، فسلمت ثم قعدت، فجاء الأعراب من ها هنا وها هنا، فقالوا: يارسول الله أنتداوى؟ فقال: تداووا؛ فإن الله عز وجل لم يضع داء إلا وضع له

دواء، غير داء واحد الهرَم». (أخرجه أبو داود ٣٨٥٥، والترمذي ٢٠٣٨، وابن ماجه ٣٤٣٦، وأحمد ١٨٤٥٤).

ب- النهي عن التداوي بالحرام:

إن الحاجة للتداوي لا تبرر فعل الإنسان للمحرم، فقد نهى ﷺ عن التداوي بالحرام؛ فذلك سبب لمحق بركة الدواء، وتجرئة للمسلم على فعل الحرام، عن أبي الدرداء رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله عز وجل أنزل الداء والدواء، وجعل لكل داء دواء، فتداووا، ولا تداووا بحرام». (أخرجه أبو داود ٣٨٧٤).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: «نهى رسول الله ﷺ عن الدواء الخبيث». (أخرجه أبو داود ٣٨٧٠، وأحمد ٨٠٤٨، وابن ماجه ٣٤٥٩، والترمذي ٢٠٤٥).

وعن عبد الرحمن بن عثمان: «أن طبيبًا سأل النبي ﷺ عن ضفدع يجعلها في دواء، فنهاه النبي ﷺ عن قتلها». (أخرجه أبو داود ٣٨٧١).

قال ابن القيم: «المعالجة بالمحرمات قبيحة عقلًا وشرعًا، أما الشرع فما ذكرنا من هذه الأحاديث وغيرها، وأما العقل، فهو أن الله سبحانه إنما حرمه لخبثه، فإنه لم يحرم على هذه الأمة طيبا عقوبة لها، كما حرمه على بني إسرائيل بقوله: ﴿فَبِظُلْمٍ مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ﴾ (النساء: ١٦٠) وإنما حرم على هذه الأمة ما حرم لخبثه، وتحريمه له حمية لهم، وصيانة عن تناوله، فلا يناسب أن يطلب به الشفاء من الأسقام والعلل، فإنه وإن أثر في إزالتها لكنه يعقب سقمًا أعظم منه في القلب بقوة الخبث الذي فيه، فيكون المداوى به قد سعى في إزالة سقم البدن بسقم القلب، وأيضًا فإن تحريمه يقتضي تجنبه والبعد عنه بكل طريق، وفي اتخاذه دواء حضٌّ على الترغيب فيه وملابسته، وهذا ضد مقصود الشارع، وأيضًا فإنه داء كما نص عليه صاحب الشريعة، فلا يجوز أن يتخذ دواء.

وأيضًا فإنه يكسب الطبيعة والروح صفة الخبث؛ لأن الطبيعة تنفعل عن كيفية الدواء انفعالًا بيِّنًا، فإذا كانت كيفيته خبيثة اكتسبت الطبيعة منه خبثًا، فكيف إذا كان خبيثًا في ذاته؟ ولهذا حرم الله سبحانه على عباده الأغذية والأشربة والملابس الخبيثة؛ لما تكسب النفس من هيئة الخبث وصفته.

وأيضا فإن في إباحة التداوي به- ولا سيما إذا كانت النفوس تميل إليه- ذريعة إلى تناوله للشهوة واللذة، لا سيما إذا عرفت النفوس أنه نافع لها مزيل لأسقامها جالب لشفائها، فهذا أحب شيء إليها، والشارع سد الذريعة إلى تناوله بكل ممكن، ولا ريب أن بين سد الذريعة إلى تناوله وفتح الذريعة إلى تناوله تناقضًا وتعارضًا.

وأيضًا فإن في هذا الدواء المحرم من الأدواء ما يزيد على ما يظن فيه من الشفاء». (زاد المعاد ٤/ ١٥٦-١٥٧).

ج- فعله في نفسه:

تداوى النبي ﷺ في نفسه، ومثَّل في ذلك قدوة لأصحابه وأمته؛ فعن ابن عباس رضي الله عنهما، عن النبي ﷺ: «احتجم وأعطى الحجام أَجْرَهُ، واسْتَعَطَ[1]». (أخرجه البخاري ٥٦٩١، ومسلم ١٢٠٢).

و عن أنس رضي الله عنه: أنه سئل عن أجر الحجَّام، فقال: احتجم رسول الله ﷺ، حَجَمَهُ أبو طيبة، وأعطاه صاعين من طعام، وكلم مواليه فخففوا عنه، وقال: «إن أمثل ما تداويتم به الحجامة، والقِسط البحري». (أخرجه البخاري ٥٦٩٦، ومسلم ١٥٧٧).

وقد بيَّنت إحدى روايات هذا الحديث أن هذا الاحتجام لأجل وجع كان به ﷺ،

---

(١) قال في فتح الباري: «قوله واستعط أي استعمل السعوط، وهو أن يستلقي على ظهره ويجعل بين كتفيه ما يرفعهما لينحدر رأسه ويقطر في أنفه ماء أو دهن فيه دواء مفرد أو مركب؛ ليتمكن بذلك من الوصول إلى دماغه؛ لاستخراج ما فيه من الداء بالعطاس». (١٠/ ١٤٧).

فعن ابن عباس رضي الله عنهما: «احتجم النبي ﷺ في رأسه وهو محرم، من وجع كان به، بماء يقال له لَحْي جَمَل». (أخرجه البخاري ٥٧٠٠).

د- وصفه للدواء:

سمى النبي ﷺ بعض الأدوية، وأثنى عليها، ومن ذلك:

- **العسل**: عن أبي سعيد رضي الله عنه أن رجلًا أتى النبي فقال: أخي يشتكي بطنه، فقال: «اسقه عسلًا»، ثم أتى الثانية، فقال «اسقه عسلًا»، ثم أتاه فقال: فعلت، فقال: «صدق الله وكذب بطن أخيك «اسقه عسلًا» فسقاه فبرأ. (أخرجه البخاري ٥٦٨٤).

- **العسل والحجامة والكي**: عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال: سمعت النبي ﷺ يقول: «إن كان في شيء من أدويتكم أو يكون في شيء من أدويتكم خير، ففي شَرطة محجم، أو شربة عسل، أو لذعة بنار توافق الداء، وما أحب أن أكتوي». (أخرجه البخاري ٥٦٨٣، ومسلم ٢٢٠٥).

- عن جابر رضي الله عنه أن أم سلمة رضي الله عنها استأذنت رسول الله ﷺ في الحجامة، فأمر النبي ﷺ أبا طيبة أن يحجمها، قال: حسبت أنه قال: كان أخاها من الرضاعة، أو غلامًا لم يحتلم. (أخرجه مسلم ٢٢٠٦).

- عن علي بن أبي رافع عن جدته سلمى خادم رسول الله ﷺ قالت: «ما كان أحد يشتكي إلى رسول الله ﷺ وجعًا في رأسه إلا قال: احتجم، ولا وجعًا في رجليه إلا قال: اخضبهما». (أخرجه أبو داود ٣٨٥٨، وأحمد ٢٧٠٧٠).

- **الحبة السوداء**: عن خالد بن سعد قال: خرجنا ومعنا غالب بن أَبْجَر، فمرض في الطريق، فقدمنا المدينة وهو مريض، فعاده ابن أبي عتيق، فقال لنا: عليكم

بهذه الحبيبة السوداء، فخذوا منها خمسًا أو سبعًا فاسحقوها ثم اقطروها في أنفه بقطرات زيت في هذا الجانب وفي هذا الجانب؛ فإن عائشة ﵂ حدثتني أنها سمعت النبي ﷺ يقول: «إن هذه الحبة السوداء شفاء من كل داء إلا من السَّام» قلت: وما السَّام؟ قال: الموت. (أخرجه البخاري ٥٦٨٧).

وعن أبي هريرة ﵁ أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «في الحبة السوداء شفاء من كل داء إلا السام».(أخرجه البخاري ٥٦٨٨، ومسلم ٢٢١٥).

- **الزيت والوَرْس:** عن زيد بن أرقم ﵁ أن النبي ﷺ كان ينعت الزيت والورس من ذات الجنب. (أخرجه الترمذي ٢٠٧٨، وابن ماجه ٣٤٦٧، وأحمد١٩٣٢٧).
- **الماء للحمى:** عن عائشة ﵂ عن النبي ﷺ قال: «الحمى من فيح جهنم؛ فأبردوها بالماء» (أخرجه البخاري ٣٢٦٣، ومسلم ٢٢١٠).

وعن أسماء بنت أبي بكر ﵄ كانت إذا أُتيت بالمرأة قد حُمَّت تدعو لها، أخذت الماء فصبته بينها وبين جيبها، قالت: وكان رسول الله ﷺ يأمرنا أن نبردها بالماء. (أخرجه البخاري ٥٧٢٤).

عن رافع بن خديج ﵁ قال: سمعت النبي ﷺ يقول: «الحمى من فور جهنم، فأبردوها عنكم بالماء». (أخرجه البخاري ٣٢٦٢، ومسلم ٢٢١٢).

عن ابن عمر ﵄ عن النبي ﷺ قال: «الحمى من فيح جهنم، فأطفئوها بالماء»، قال نافع: وكان عبد الله يقول: اكشف عنا الرجز. (أخرجه البخاري ٥٧٢٣، ومسلم ٢٢٠٩).

- **الإثمد:** عن ابن عباس ﵄ أن رسول الله ﷺ قال: «إن من خير أكحالكم الإثمد؛ إنه يجلو البصر وينبت الشعر». (أخرجه أبو داود ٤٠٦١، والترمذي

١٧٥٧، والنسائي ٥١١٣، وابن ماجه ٣٤٩٧، وأحمد ٢٠٤٨، واللفظ للنسائي).

- **أبوال الإبل وألبانها:** عن أنس ﷺ أن ناسًا من عُرَيْنَةَ قدموا المدينة فاجتووها، فبعثهم رسول الله ﷺ في إبل الصدقة، وقال: «اشربوا من ألبانها وأبوالها». (أخرجه الترمذي مختصرًا ٢٠٤٢)، والحديث في الصحيحين بطوله، (أخرجه البخاري ١٥٠١، ومسلم١٦٧١).

- **العجوة:** عن عائشة ﵂ أن رسول الله ﷺ قال: «إن في عجوة العالية شفاء، أو إنها ترياق أول البُكْرَة». (أخرجه مسلم ٢٠٤٨).

- **الكَمْأَة:** عن سعيد بن زيد ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «الكَمْأَة من المَنِّ، وماؤها شفاء للعين». (أخرجه البخاري ٤٤٧٨، ومسلم ٢٠٤٩).

- **وعن أبي هريرة ﷺ أن ناسًا من أصحاب النبي ﷺ قالوا:** «الكَمْأَة جُدَرِي الأرض، فقال النبي ﷺ: «الكَمْأَة من المن، وماؤها شفاء للعين، والعجوة من الجنة، وهي شفاء من السُّم». (أخرجه الترمذي ٢٠٦٨، وابن ماجه ٣٤٥٥، وأحمد ٨١٠٨).

- **الحِنَّاء:** عن علي بن عبيد الله عن جدته سلمى- وكانت تخدم النبي ﷺ- قالت: ما كان يكون برسول الله ﷺ قَرْحَة ولا نَكْبَة إلا أمرني رسول الله ﷺ أن أضع عليها الحِنَّاء. (أخرجه الترمذي ٢٠٥٤، وابن ماجه ٣٥٠٢).

- **العود الهندي:** عن أم قيس قالت: دخلت بابن لي على رسول الله ﷺ، وقد أعلقت عليه من العُذْرَة، فقال: «على ما تَدْغَرْنَ أولادكن بهذا العلاَق؟ عليكن بهذا العود الهندي؛ فإن فيه سبعة أشفية، منها ذات الجَنْب يُسْعَط من العُذْرَة، ويُلَدُّ من ذات الجَنْب». (أخرجه البخاري ٥٧١٣ ومسلم ٢٢١٤).

- المشي والسُّعوط: عن ابن عباس ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «إن خير ما تداويتم به السعوط واللَّدُود والحجامة والمشي، فلما اشتكى رسول الله ﷺ لَدَّهُ أصحابه، فلما فرغوا قال: لُدُّوهم، قال: فلُدُّوا كلُّهم غير العباس». (أخرجه الترمذي ٢٠٤٧).

إن تنوع وصفه ﷺ دليل على تأكد هذا المعنى (التداوي)، فلم يكن وصفه ﷺ مرة أو مرتين، أو حالة عارضة، بل تكرر ذلك في أحوال مختلفة ومتباينة.

هـ - أمره بالرقية:

أمر النبي ﷺ بالرقية؛ فعن حميد بن قيس المكي أنه قال: دُخِلَ على رسول الله ﷺ بابني جعفر بن أبي طالب، فقال لحاضنتهما: ما لي أراهما ضارعَيْن، فقالت حاضنتهما: يا رسول الله إنه تسرع إليهما العين، ولم يمنعنا أن نسترقي لهما إلا أنا لا ندري ما يوافقك من ذلك، فقال رسول الله ﷺ: «استرقوا لهما، فإنه لو سَبق شيء القدر لسبقته العين». (أخرجه مالك في الموطأ في كتاب العين ٣، والترمذي مختصرًا ٢٠٥٩، وابن ماجه ٣٥١٠، وأحمد ٢٧٤٧٠).

وعن أم سلمة ﷺ أن النبي ﷺ رأى في بيتها جارية في وجهها سَفْعَة، فقال: «استرقوا لها؛ فإن بها النظرة». (أخرجه البخاري ٥٧٣٩، ومسلم ٢١٩٧).

وعن عروة بن الزبير أن رسول الله ﷺ دخل بيت أم سلمة زوج النبي ﷺ وفي البيت صبي يبكي، فذكروا له أن به العين، قال عروة: فقال رسول الله ﷺ: «ألا تسترقون له من العين؟». (أخرجه مالك في الموطأ، كتاب العين ٤).

و- ترخيصه في الحرير لأجل التداوي:

ومما استثني من الدواء المحرم، أنه ﷺ رخص في لبس الحرير لأجل التداوي؛ فعن أنس ﷺ قال: رخص النبي ﷺ للزبير وعبد الرحمن في لبس الحرير لحكةٍ بهما. (أخرجه البخاري ٥٨٣٩، ومسلم ٢٠٧٦).

ز- نهيه عما يضر من الدواء:

يلجأ بعض المرضى أو أهلهم إلى أساليب مضرة في التداوي؛ فينهى ﷺ عن ذلك، عن أم قيس بنت محصن- وكانت من المهاجرات الأول اللاتي بايعن رسول الله ﷺ، وهي أخت عكاشة بن محصن رضي الله عنهما- أنها أتت رسول الله ﷺ بابن لها قد علقت عليه من الْعُذْرَةِ فقال: «اتقوا الله! على ما تَدْغَرُونَ أولادكم بهذه الأعلاق؟[1]، عليكم بهذا العود الهندي؛ فإن فيه سبعة أشفية منها ذات الجَنب». (أخرجه البخاري ٨١٧٥، ومسلم ٤١٢٢).

ورغم أن الكي دواء إلا أنه ﷺ نهى عنه لما فيه من إضرار ومضاعفات، عن سعيد بن جبير عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «الشفاء في ثلاثة: شربة عسل، وشَرْطَة مِحْجَم، وكَيَّة نار، وأنهى أمتي عن الكي»، رفع الحديث. (أخرجه البخاري ٥٦٨٠).

وعن عمران بن حصين رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ «نهى عن الكي قال: فابتلينا فاكتوينا، فما أفلحنا ولا أنجحنا». (أخرجه الترمذي ٢٠٤٩، وابن ماجه ٣٤٩٠، وأحمد ١٩٨٣١، وأبو داود ٣٨٦٥).

قال ابن حجر: «وقال الشيخ أبو محمد بن أبي جمرة: عُلم من مجموع كلامه في الكي أن فيه نفعًا وأن فيه مضرة، فلما نهى عنه علم أن جانب المضرة فيه أغلب». (فتح الباري ١٠/ ١٣٩).

تلك نماذج من اعتنائه ﷺ بطب الأبدان والتداوي، لكنه ﷺ إنما بُعث بطب القلوب وإصلاحها، قال ابن القيم رحمه الله: «وهذا إنما نشير إليه إشارة، فإن رسول الله ﷺ إنما بُعث هاديًا، وداعيًا إلى الله، وإلى جنته، ومعرفًا بالله، ومبينًا للأمة مواقع رضاه وآمرًا لهم بها، ومواقع سخطه وناهيًا لهم عنها، ومخبرهم أخبار الأنبياء والرسل وأحوالهم مع أممهم،

---

(١) العذرة: وجع في الحلق، والدغر: الضغط على محل الوجع بالأصبع.

وأخبار تخليق العالم، وأمر المبدأ والمعاد، وكيفية شقاوة النفوس وسعادتها وأسباب ذلك، وأما طب الأبدان: فجاء من تكميل شريعته، ومقصودًا لغيره، بحيث إنما يستعمل عند الحاجة إليه، فإذا قدر على الاستغناء عنه، كان صرف الهمم والقوى إلى علاج القلوب والأرواح، وحفظ صحتها، ودفع أسقامها، وحميتها مما يفسدها هو المقصود بالقصد الأول، وإصلاح البدن بدون إصلاح القلب لا ينفع، وفساد البدن مع إصلاح القلب مضرته يسيرة جدًّا، وهي مضرة زائلة تعقبها المنفعة الدائمة التامة. (زاد المعاد ٤/ ٢٤).

وبين رحمه الله أن غير النبي ﷺ يشترك معه في طب الأبدان، أما طب القلوب فهو شأنه وحده ﷺ، فيقول: «فأما طب القلوب، فمسلَّم إلى الرسل صلوات الله وسلامه عليهم، ولا سبيل إلى حصوله إلا من جهتهم وعلى أيديهم؛ فإن صلاح القلوب أن تكون عارفة بربها، وفاطرها، وبأسمائه، وصفاته، وأفعاله، وأحكامه، وأن تكون مؤثرة لمرضاته ومحابه، متجنبة لمناهيه ومساخطه، ولا صحة لها ولا حياة البتة إلا بذلك، ولا سبيل إلى تلقيه إلا من جهة الرسل، وما يظن من حصول صحة القلب بدون اتباعهم، فغلط ممن يظن ذلك، وإنما ذلك حياة نفسه البهيمية الشهوانية، وصحتها وقوتها، وحياة قلبه وصحته، وقوته عن ذلك بمعزل، ومن لم يميز بين هذا وهذا فليبكِ على حياة قلبه؛ فإنه من الأموات، وعلى نوره؛ فإنه منغمسٌ في بحار الظلمات». (زاد المعاد ٤/ ٧).

٧- النظافة:

أكد ﷺ على معاني النظافة والطهارة؛ وتمثَّلها في نفسه، وأثر ذلك في صحة الجسم البدنية والنفسية، وفي مراعاة مشاعر الناس لا يخفى.

فأمر ﷺ أصحابه بالغسل يوم الجمعة، وأكّد عليهم ذلك، حتى ذهب بعض أهل العلم إلى وجوبه، وبينت عائشة ﵂ سبب التأكيد على ذلك؛ فعن عائشة ﵂ قالت: كان

أصحاب رسول الله ﷺ عمالَ أنفسهم، وكان يكون لهم أرواح، فقيل لهم: «لو اغتسلتم». (أخرجه البخاري ٢٠٧١، ومسلم ٨٤٧).

كما أكد ﷺ على رعاية سنن الفطرة، وهي مظهر من مظاهر الطهارة والنظافة، عن أبي هريرة ﷺ: سمعت النبي ﷺ يقول: «الفطرة خمس: الختان، والاستحداد، وقص الشارب، وتقليم الأظفار، ونتف الآباط». (أخرجه البخاري ٥٨٩١، ومسلم ٢٥٧).

و عن ابن عمر ﷺ: أن رسول الله ﷺ قال: «من الفطرة: حلق العانة، وتقليم الأظفار، وقص الشارب». (أخرجه البخاري ٥٨٩٠).

وفي حديث آخر أوصلها إلى عشر، عن عائشة ﷺ، قالت: قال رسول الله ﷺ: «عشر من الفطرة: قص الشارب، وإعفاء اللحية، والسواك، واستنشاق الماء، وقص الأظفار، وغسل البراجم، ونتف الإبط، وحلق العانة، وانتقاص الماء»، قال زكريا: قال مصعب: ونسيت العاشرة إلا أن تكون المضمضة، زاد قتيبة، قال وكيع: «انتقاص الماء: يعني الاستنجاء». (أخرجه مسلم ٢٦١).

وأكد ﷺ على السواك في نصوص عديدة، فحث عليه عند كل وضوء وكل صلاة، فعن أبي هريرة ﷺ، قال: قال رسول الله ﷺ: «لولا أن أشق على أمتي، لأمرتهم بالسواك مع الوضوء، ولأخرت العشاء إلى ثلث الليل، أو شطر الليل»، (أخرجه أحمد ٧٤١٢)، ورواه البخاري تعليقًا، قال أبو هريرة عن النبي ﷺ: «لولا أن أشق على أمتي لأمرتهم بالسواك عند كل وضوء».

وعن أبي هريرة ﷺ: أن رسول الله ﷺ قال: «لولا أن أشق على أمتي أو على الناس لأمرتهم بالسواك مع كل صلاة». (أخرجه البخاري ٨٨٧، ومسلم ٢٥٢).

وأمر به ﷺ عند القدوم إلى الجمعة، فعن عمرو بن سليم الأنصاري، قال: أشهد على أبي سعيد رضي الله عنه قال: أشهد على رسول الله ﷺ قال: «الغسل يوم الجمعة واجب على كل محتلم، وأن يستن، وأن يمس طيبًا إن وجد»، قال عمرو: «أما الغسل، فأشهد أنه واجب، وأما الاستنان والطيب، فالله أعلم أواجب هو أم لا». (أخرجه البخاري ٨٨٠، ومسلم ٨٤٦ بلفظ «الغسل يوم الجمعة واجب على كل محتلم».

وأخبر ﷺ أن الطهارة من مقاصد السواك، فعن عائشة رضي الله عنها، قالت: قال رسول الله ﷺ: «السواك مطهرة للفم، مرضاة للرب» (أخرجه أحمد ٢٤٢٠٣، وابن ماجه عن أبي أمامه ٢٨٩، والنسائي ٥).

المجال النفسي

يُمثِّل المجال النفسي جانبًا مهمًّا في بناء الشخصية السوية؛ فاستقرار الشخصية وسواؤها له أثره على إنتاجية الفرد وأدائه في حياته؛ لذا كان ﷺ يدعو ربه ويسأله أن يحقق له الاستقرار النفسي، وأن يحميه من الهم والحزن وغيره مما يعوق المرء عن تحقيق مصالح دينه ودنياه، فكان من دعائه «اللهم إني أعوذ بك من الهم والحزن .... » (أخرجه البخاري ٢٨٩٣).

تلبية الدوافع المباحة:

في النفس دوافع غريزية وفطرية تلح على صاحبها لتلبيتها، وإهمال هذه الدوافع قد يؤثر على الاستقرار النفسي لصاحبه؛ لذا وجَّه النبي ﷺ أصحابه إلى تلبية هذه الدوافع بالقدر المعتدل، ومن ذلك ما يلي:

الدافع الجنسي:

أرشد ﷺ أمته بعامة، والشباب بخاصة إلى التلبية المشروعة للدافع الجنسي، فقد حث النبي ﷺ القادر على الزواج بالمبادرة إليه بقوله: «يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج، ومن لم يستطع فعليه بالصوم؛ فإنه له وجاء». (أخرجه البخاري٥٠٦٥، ومسلم ١٤٠٠).

كما بيَّن ﷺ أن المعاشرة بين الزوجين أمر يثاب عليه صاحبه ويؤجر، فقال: «وفي بُضْع أحدكم صدقة»، قالوا: يا رسول الله، أيأتي أحدنا شهوته ويكون له فيها أجر؟ قال: «أرأيتم لو وضعها في حرام أكان عليه فيها وزر؟ فكذلك إذا وضعها في الحلال كان له أجر». (أخرجه مسلم ١٠٠٦).

وقال ﷺ لأبي ذر ﷺ - كما سبق- «... ولك في جماعك زوجتك أجر»، قال أبو ذر: كيف يكون لي أجر في شهوتي؟ فقال رسول الله ﷺ: «أرأيت لو كان لك ولدٌ فأدرك ورجوت خيره فمات، أكنت تحتسب به؟» قلت: نعم. قال: «فأنت خلقته؟» قال: بل الله خلقه، قال: «فأنت هديته؟» قال: بل الله هداه، قال: «فأنت ترزقه؟» قال: بل الله كان يرزقه، قال: «كذلك فضعه في حلاله وجنبه حرامه، فإن شاء الله أحياه، وإن شاء أماته، ولك أجر». (أخرجه أحمد ٢١٤٨٤).

وأرشد ﷺ من تحرك عنده الدافع لغير ما أحل الله أن يبادر إلى الطريق المباح، فقال: «إن المرأة تقبل في صورة شيطان، وتدبر في صورة شيطان، فإذا أبصر أحدكم امرأة فليأت أهله؛ فإن ذلك يرد ما في نفسه». (أخرجه مسلم ١٤٠٣).

أخذ حق النفس:

تميل النفس إلى أخذ الحق ممن يؤذيها، وقد أعطى النبي ﷺ الإنسان حقًّا في تلبية قدر من هذه الحاجة، فأباح الهجر ثلاث ليال، عن أنس بن مالك ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «لا تباغضوا، ولا تحاسدوا، ولا تدابروا، وكونوا عباد الله إخوانًا، ولا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاثة أيام». (أخرجه البخاري ٦٠٦٥، ومسلم ٢٥٥٩).

ومفهوم الحديث جواز الهجر فيما دون الثلاث، وهذا في أمور الدنيا، أما الهجر لله فهو غير مقدر بهذا القدر، فقد هجر ﷺ كعبًا وصاحبيه خمسين ليلة، قال النووي: «قال العلماء: في هذا الحديث تحريم الهجر بين المسلمين أكثر من ثلاث ليال وإباحتها في الثلاث، الأول بنص الحديث، والثاني بمفهومه، قالوا: وإنما عفي عنها في الثلاث؛ لأن الآدمي مجبول على الغضب وسوء الخلق ونحو ذلك، فعفي عن الهجرة في الثلاثة ليذهب ذلك العارض». (شرح صحيح مسلم ١٦/ ١١٧).

ويتجلى في ذلك واقعية المنهج النبوي، فرغم أن الإسلام يربي على العزائم ومعالي الأمور، إلا إنه يتعامل مع الإنسان وفقًا لطبيعته، فيمنحه مساحة لتفريغ هذه الشحنة، ولذلك بيَّن الله عز وجل أن العتب مرفوع على من أخذ بحقه، وانتصر لنفسه، وجعل لولي الدم الحق في القصاص دون عدوان، فقال سبحانه: ﴿وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلْطَٰنًا فَلَا يُسْرِف فِّى ٱلْقَتْلِ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُورًا﴾ (الإسراء: ٣٣).

وأعطى المظلوم حق الانتصار لنفسه، قال سبحانه وتعالى: ﴿وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ ﴿٤١﴾ إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَظْلِمُونَ ٱلنَّاسَ وَيَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (الشورى: ٤١ - ٤٢).

ومع الاعتراف بهذا الحق البشري، ومراعاة طبيعة الإنسان وضعفه يبقى المنهج الشرعي يربي الناس على المثل العليا وعزائم الأمور حثًّا لهم وتحفيزًا دون إلزام، قال سبحانه: ﴿وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾ (الشورى: ٤٣).

وحثَّ ﷺ على العفو وبيَّن منزلته العالية، وأنه يزيد الإنسان عزًّا ويرفع مكانته، فقال: «ما نقصت صدقة من مال، وما زاد الله عبدًا بعفو إلا عزًّا، وما تواضع أحد لله إلا رفعه الله». (أخرجه مسلم ٢٥٨٨)

ومن المهم أن يراعي المربي هذا المعنى، وبالأخص عند التعامل مع المواقف العملية، فحين يتعرض المتربي لظلم أو بخس حق ونحو ذلك، فمن المناسب أن نذكرّه بفضائل العفو والتنازل عن حقه، دون أن نجعل ذلك شرطًا لتمام مروءته، واختبارًا لحسن خلقه.

الاعتدال في تلبية الدوافع:

إن مما يورث القلق والاضطراب لدى كثير من الناس مبالغتهم في تحصيل الدنيا ولهثهم وراءها؛ لذا اعتنى النبي ﷺ بتهذيب هذا الدافع.

حين جاء أبو عبيدة ﷺ بمال من البحرين وافى طائفة من أصحابه رضوان الله عليهم صلاة الصبح معه، فابتسم ﷺ وبشَّرهم، ثم حذَّرهم من الدنيا، عن عمرو بن عوف ﷺ - وهو حليف لبني عامس بن لؤي، وكان شهد بدرًا مع النبي ﷺ- أن رسول الله ﷺ بعث أبا عبيدة بن الجراح إلى البحرين يأتي بجزيتها، وكان رسول الله ﷺ هو صالح أهل البحرين وأمَّر عليهم العلاء بن الحضرمي، فقدم أبو عبيدة بمال من البحرين، فسمعت الأنصار بقدوم أبي عبيدة، فوافوا صلاة الفجر مع النبي ﷺ، فلما انصرف تعرضوا له، فتبسم رسول الله ﷺ حين رآهم، ثم قال: «أظنكم سمعتم أن أبا عبيدة قدم بشيء؟» قالوا: أجل يا رسول الله، قال: «فأبشروا وأمِّلوا ما يسركم، فوالله ما الفقر أخشى عليكم، ولكني أخشى أن تُبسط عليكم الدنيا كما بُسطت على من قبلكم، فتنافسوها كما تنافسوها، وتهلككم كما أهلكتهم». (أخرجه البخاري ٤٠١٥، ومسلم ٢٩٦١).

وبين لهم أن الدافع للدنيا لا ينتهي بصاحبه عند حد، فعن أنس بن مالك ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «لو أن لابن آدم واديًا من ذهب أحب أن يكون له واديان، ولن يملأ فاه إلا التراب، ويتوب الله على من تاب». (أخرجه البخاري ٦٤٣٩، ومسلم ١٠٤٨).

وأكد على القناعة، وأن من تحقق له الأمن والعافية في البدن كأنما حاز كل متاع، فعن عبيد الله بن محصن- وكانت له صحبة- قال: قال رسول الله ﷺ: «من أصبح منكم آمنًا في سربه، معافًى في جسده، عنده قوت يومه فكأنما حيزت له الدنيا». (أخرجه الترمذي ٢٣٤٦، وابن ماجه ٤١٤١).

ووجههم ﷺ إلى ما يعينهم على القناعة، وهو النظر في متاع الدنيا إلى من دونهم من الناس، فعن أبي هريرة ﷺ عن رسول الله ﷺ قال: «إذا نظر أحدكم إلى من فُضِّل عليه في المال والخَلق، فلينظر إلى من هو أسفل منه». (أخرجه البخاري٦٤٩٠، ومسلم ٢٩٦٣)، وزاد مسلم: «ممن فُضِّل عليه» في نهاية الحديث.

وكما أن الحرمان يؤثر على التوازن النفسي للشخص، وقد يقوده إلى تصرفات غير سوية، فالمبالغة في التعلق بمتاع الدنيا- ولو كان مباحًا- يفقد المرء اتزانه ويؤثر في تعامله مع مواقف الحياة، وأمثال هؤلاء يرضى ويسخط لأجل متاع الدنيا، وقد جاء ذلك في صفات المنافقين فقال سبحانه عنهم: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِي ٱلصَّدَقَٰتِ فَإِنْ أُعْطُوا۟ مِنْهَا رَضُوا۟ وَإِن لَّمْ يُعْطَوْا۟ مِنْهَآ إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ﴾ (التوبة: ٥٨).

ويتضخم النظر إلى المتاع لدى هؤلاء، فيؤثر على مواقفهم وأحكامهم على الآخرين، كما يؤثر على ما يتعرضون له مما يرون أنه انتقاص في حقوقهم وأرزاقهم، ويقللُ صبرهم واحتسابهم، وربما تطور الأمر لديهم إلى قلق وتألم نفسي.

التمتع بالمتاع المباح:

أذن النبي ﷺ لأصحابه في التمتع بالمباح من متاع الدنيا- ما لم يصل إلى حد الإسراف والمخيلة- فقال: «كلوا واشربوا والبسوا وتصدقوا، في غير إسراف ولا مخيلة». (أخرجه النسائي ٢٥٥٩، وأحمد ٦٦٩٥، وابن ماجه ٣٦٠٥، والبخاري معلقًا، باب قوله تعالى ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ﴾، كتاب اللباس، واللفظ له).

وحين ذمَّ ﷺ الكبر عبَّر له أصحابه عن حاجتهم للجمال، فبينَّ لهم أن التجملَّ حق بشري لا يلزم منه وصف صاحبه بالكبر، عن عبد الله بن مسعود ﷺ عن النبي ﷺ قال: «لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر»، قال رجل: إن الرجل يحب أن يكون ثوبه حسنًا ونعله حسنة، قال: «إن الله جميل يحب الجمال، الكبر بَطَر الحق، وغَمْطُ الناس». (أخرجه مسلم ٩١).

فبيَّن ﷺ لهم أن التمتع بالجمال حق للعبد، بل هو محبوب لله عز وجل، وأن الكبر أمر قلبي يظهر أثره على صاحبه في التعامل مع الحق، والنظر إلى الآخرين.

التعلق بالآخرة:

تعلق القلب بالآخرة له أثره في تجاوز صاحبه كثيرًا مما يورث القلق لدى الناس؛ فحين يتعلق الإنسان بالآخرة، تتضاءل في عينه الأهداف الدنيوية، وتهون عنده كثير من المصائب التي يواجهها، عن أنس بن مالك ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «من كانت الآخرةُ همَّه جعل الله غناه في قلبه وجمع له شمله، وأتته الدنيا وهي راغمة، ومن كانت الدنيا همَّه جعل الله فقره بين عينيه، وفرَّق عليه شمله، ولم يأته من الدنيا إلا ما قُدِّر له». (أخرجه الترمذي ٢٤٦٥، وأحمد ٢١٥٩٠).

ويوجه ﷺ أصحابه إلى المقارنة بين الدنيا والآخرة، ليدركوا قيمة الدنيا ومنزلتها، فعن سهل قال: سمعت النبي ﷺ يقول: «موضع سوط في الجنة خير من الدنيا وما فيها، ولغَدْوَة في سبيل الله أو رَوْحَة خير من الدنيا وما فيها». (أخرجه البخاري ٦٤١٥، ومسلم ١٨٨١).

ويقرِّب ﷺ المعنى بهذا المثل الحسي فيقول: «والله ما الدنيا في الآخرة إلا مثل ما يجعل أحدكم إصبعه هذه- وأشار بالسبابة- في اليم، فلينظر بم ترجع». (أخرجه مسلم ٢٨٥٨).

والتعلق بالآخرة له أثره في تقلل الفرد من الدنيا، واقتصاده في السعي لتحصيلها، كما يظهر أثره في استيعاب المرء لما يواجهه من مصائب، وما يفقده ويفوت عليه من جاه أو متاع أو نحو ذلك.

المرونة في مواجهة الواقع:

التصلب والإصرار على مثالية أو نمط واحد يقود صاحبه إلى الإحباط، وكثيرٌ ممن يحبطون من واقعهم ويصيبهم القلق النفسي كانت أمامهم خيارات عدة، أعمتهم الأزمة

عن النظر إليها، أو أنهم أفرطوا في النظر إلى زاوية مظلمة وأهملوا الجوانب المشرقة في الصورة التي يعايشونها.

يوجه النبي ﷺ الزوجين إلى النظر إلى الجوانب المشرقة عند الطرف الآخر، فعن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يَفْرَكْ مؤمن مؤمنة، إن كره منها خلقًا رضي منها آخر» أو قال: «غيره». (أخرجه مسلم ١٤٦٩).

وقد دل على ذلك القرآن الكريم، فقال عز وجل: ﴿فَإِن كَرِهۡتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَيَجۡعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيۡرٗا كَثِيرٗا﴾ (النساء: ١٩).

والخير الذي يجعله الله عز وجل فيما يكره الإنسان قد يظهر له قريبًا ويدركه وهو في غمرة الحدث والموقف، وقد لا يأتي إلا بعد حين، ومن ثم فهو حين لا يجد الخير فيما هو بين يديه سيعلم أن المستقبل حافل بمتغيرات قد يدركها الآن بنظره القاصر، وقد لا يدركها، وكما أن الخير يتسع في مداه الزمني فهو يتسع كذلك في مداه الموضوعي، يقول السعدي- حول هذا الآية-: «ومنها أن إجباره نفسه- مع عدم محبته لها- فيه مجاهدة النفس، والتخلق بالأخلاق الجميلة». (تفسير السعدي .ص ١٧٢).

وهذا يقود الإنسان إلى أن يتجاوز الصورة القريبة لديه، ويبحث فيما يواجهه من مواقف الحياة عن جوانب إيجابية ومشرقة.

تلبية الحاجات النفسية:

تلبية الحاجات النفسية مطلب مهم من مطالب البناء النفسي، يقول فايز الحاج: «وإذا لم تنل الحاجات الشخصية والحاجات الأولية قدرًا كافيًا من الإشباع فإن الشخص يغدو ميدانًا لحالة من التوتر، ازداد عدم الاتزان الانفعالي، وغلبت على الشخص ظاهرة الاضطراب، وبالتالي تصبح قدرته على التكيف الحسن أضعف من المعتاد». (الصحة النفسية، ص٢٨).

وتبين عائشة رضي الله عنها اعتناء النبي ﷺ بجانب من جوانب الحاجة النفسية للفتاة، ألا وهو الترويح واللهو.

عن عائشة رضي الله عنها قالت: رأيت النبي ﷺ يسترني بردائه، وأنا أنظر إلى الحبشة يلعبون في المسجد حتى أكون أنا التي أسأم، فاقدروا قدر الجارية الحديثة السن الحريصة على اللهو. (أخرجه البخاري ٥٢٣٦، ومسلم ٨٩٢).

واللهو الذي أوصت عائشة رضي الله عنها أولياء الفتيات أن يقدروا حاجتها له لا يمثل إلا أنموذجًا من نماذج الحاجات النفسية.

إننا أمام امرأة ليست كالنساء، إنها أم المؤمنين رضي الله عنها الصديقة بنت الصديق، خير نساء الأمة، عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «كَمُلَ من الرجال كثير، ولم يكمل من النساء إلا: مريم بنت عمران، وآسية امرأة فرعون، وفضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام». (أخرجه البخاري ٣٧٦٩، ومسلم ٢٤٣١)، ومع ذلك كان ﷺ يعنى بتلبية هذه الحاجة لها.

إن بعض المربين يقسون كثيرًا على أولادهم، فيحرمونهم من قدر من الفسحة والمتعة المباحة، وربما بالغوا في الاحتياط والخروج من الشبهات في ذلك، ورسموا لأنفسهم صورة عالية من نظر الناس لهم واقتدائهم بهم، والورع والاحتياط مطلوب، لكن ثمة حالات ليست يسيرة أدى الحرمان والقسوة فيها إلى جنوح وشطط، وربما انحراف!

كما أن بعض من يرعون المناشط التربوية للشباب والفتيات قد يبالغون في الحد من مثل هذه الجوانب الترويحية؛ لأنها تتعارض مع الجدية التي يجب أن يتربى عليها هؤلاء.

إننا بحاجة إلى التربية الجادة المتميزة، إلى تربية الناس على العزائم والمثل العليا، وإلى الارتقاء بهمم المتربين، لكن ينبغي التوسط و الاعتدال، وألا يؤدي ذلك إلى حرمانهم من هذه الحاجات.

مراعاة المشاعر:

كان ﷺ في تعامله مع أصحابه يعتني برعاية مشاعرهم، وكان يملك حسًّا عاليًا في التفطن للمشاعر، ويدرك ﷺ ذلك دون أن يحوجهم للتصريح به.

عن مالك بن الحويرث ﷺ قال: أتينا إلى النبي ﷺ ونحن شَبَبَةٌ متقاربون، فأقمنا عنده عشرين يومًا وليلة، وكان رسول الله ﷺ رحيمًا رفيقًا، فلما ظن أنا قد اشتهينا أهلنا أو قد اشتقنا، سألنا عمن تركنا بعدنا فأخبرناه، قال: «ارجعوا إلى أهليكم فأقيموا فيهم وعلموهم ومروهم- وذكر أشياء أحفظها أو لا أحفظها- وصلوا كما رأيتموني أصلي، فإذا حضرت الصلاة فليؤذن لكم أحدكم، وليؤمكم أكبركم». (أخرجه البخاري ٦٣١، ومسلم ٦٧٤).

لقد أدرك ﷺ هذا الاحتياج فبادرهم وعرض عليهم ما يلبِّي ذلك، وأمرهم بالعودة إلى أهلهم، والاكتفاء بما تلقوه من النبي ﷺ.

وحين يتعامل ﷺ مع أصحابه فإنه يدرك ردود أفعالهم، وأثر تعامله ﷺ معهم، عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما عن الصعب بن جثَّامة الليثي ﷺ أنه أهدى لرسول الله ﷺ حمارًا وحشيًّا وهو بالأبواء أو بودان، فرده عليه فلما رأى ما في وجهه قال: «إنا لم نرده عليك إلا أنا حُرُم». (أخرجه البخاري ١٨٢٥، ومسلم ١١٩٣).

وسيتم تناول هذا التعامل والتواصل النبوي السامي والراقي في مبحث مستقل، والمقصود هنا علاقة هذا الأمر بالبناء النفسي.

تقوية الإرادة:

الإرادة مكوِّن مهم في البناء الذاتي والنفسي للفرد، وقد كان ﷺ يعتني ببناء العزيمة وقوة النفس وكمال الإرادة لدى أصحابه.

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف، وفي كل خير، احرص على ما ينفعك، واستعن بالله ولا تعجِز، وإن أصابك شيء فلا تقل: لو أني فعلت كان كذا وكذا، ولكن قل: قدَّر الله وما شاء فعل؛ فإن لو تفتح عمل الشيطان». (أخرجه مسلم ٢٦٦٤).

إن الإرادة والعزيمة عامل مهم في دفع صاحبه على خطوات النجاح وتحقيق أهدافه، سواء ما يتصل ببناء نفسه وتربيتها أو التزام الطاعات والواجبات، أو البعد عن الشهوات المحرمة.

كما أن لها أثرها البارز على دفع صاحبها لتحقيق أهدافه الدنيوية، فكثير ممن حققوا نجاحات عالية في حياتهم الدراسية أو الوظيفية، أو أعمالهم الخاصة كانت الإرادة القوية عاملًا مهمًّا من عوامل نجاحهم، وفي مقابل هؤلاء فكثير من حالات الإخفاق في تحقيق المصالح الدنيوية يمكن تفسيرها من خلال ضعف الإرادة، ويتأكد الاعتناء بالإرادة في هذا العصر الذي اتسعت فيه فتن الشهوات، وصارت أبواب تحقيق الغرائز مُشْرَعَة أمام الشباب والفتيات.

كما يتأكد الاعتناء بتنمية الإرادة وتعزيزها لدى من يعيشون في مجتمعات أو بيئات تعاني من صعوبات الحياة ومشاقها، وهي تزداد في معظم المجتمعات يومًا بعد آخر، فقوة الإرادة تعينهم على تحصيل أسباب العيش الكريم، وعلى التكيُّف مع كثير من الأحوال الشاقة.

التداوي من المرض النفسي:

المرض النفسي كالمرض العضوي يعرض للفرد، وهو ليس بالضرورة ناتجًا عن ضعف الإيمان والتدين، ولا عن عدم الإيمان بالقضاء والقدر، ولئن كان المتدينون أقل

عرضة من غيرهم للإصابة بهذه الأمراض فهذا لا يلزم منه ربط جميع حالات المرض النفسي بضعف التدين، وهذا الربط أدى إلى إعراض بعض الناس عن العلاج النفسي، أو التحذير منه.

ومما لا يليق في هذا الباب أن يتحدث بعض طلبة العلم عن الموقف من التداوي من المرض النفسي وهم لا يعرفون الإنسان، ولا وظيفة الدواء ودوره، ولو كان الحديث انطباعًا شخصيًّا ورأيًا مجردًا لهان الأمر، لكنه يأتي باسم الشرع والتدين.

لقد أوصى النبي ﷺ بالتداوي من بعض الأحوال النفسية، وبيَّن أثر الدواء في تحسين الحالة النفسية لمن يتعاطاه.

عن عائشة زوج النبي ﷺ أنها كانت إذا مات الميت من أهلها، فاجتمع لذلك النساء ثم تفرقن إلا أهلها وخاصتها، أمرت بِبُرْمَةٍ من تَلْبِينَة فطبخت، ثم صُنعَ ثَرِيدٌ، فصُبَّت التلبينةُ عليها، ثم قالت: كُلْنَ منها، فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «التلبينة مُجَمَّةٌ لفؤاد المريض، تذهب ببعض الحزن». (أخرجه البخاري ٥٤١٧، ومسلم ٢٢١٦).

وعنها رضي الله عنها **قالت**: كان رسول الله ﷺ إذا أخذ أهله الوعك أمر بالحَسَاءِ فصُنع، ثم أمرهم فَحَسَوْا منه، وكان يقول: «إنه لَيَرْتَقُ فؤاد الحزين، ويَسْرُو عن فؤاد السقيم، كما تَسْرُو إحداكن الوسخ بالماء عن وجهها». (أخرجه الترمذي ٢٠٣٩، وابن ماجه ٣٤٤٥، وأحمد ٢٣٥١٥).

ووجه ﷺ من يعاني من الهم إلى اللجوء إلى دعاء الله عز وجل؛ فله أثره في حصول مطلوبه، كما أن الدعاء إذا صدر من قلب صادق له أثر بالغ في تفويض العبد أمره إلى الله عز وجل، وشعوره بأن الخير بيده سبحانه.

عن عبد الله رضي الله عنه **قال**: قال رسول الله ﷺ: «ما أصاب أحدًا قطُّ همٌّ ولا حزن، فقال: «اللهم إني عبدك، ابن عبدك، ابن أَمَتِك، ناصيتي بيدك ماضٍ في حكمك، عدلٌ فيَّ

قضاؤك، أسألك بكل اسم هو لك، سميت به نفسك، أو علمته أحدًا من خلقك أو أنزلته في كتابك، أو استأثرت به في علم الغيب عندك، أن تجعل القرآن ربيع قلبي، ونور صدري، وجلاء حزني، وذهاب همي إلا أذهب الله همه وحزنه، وأبدله مكانه فرجًا، قال: فقيل: يا رسول الله ألا نتعلمها؟ فقال: بلى ينبغي لمن سمعها أن يتعلمها». (أخرجه أحمد ٣٧٠٤).

قال ابن القيم: «وأما حديث أبي أمامة: «اللهم إني أعوذ بك من الهم والحزن» فقد تضمن الاستعاذة من ثمانية أشياء، كل اثنين منها قرينان مزدوجان، فالهم والحزن أخوان، والعجز والكسل أخوان، والجبن والبخل أخوان، وضلع الدين وغلبة الرجال أخوان؛ فإن المكروه المؤلم إذا ورد على القلب فإما أن يكون سببه أمرًا ماضيًا، فيوجب له الحزن، وإن كان أمرًا متوقعًا في المستقبل أوجب الهم، وتخلف العبد عن مصالحه وتفويتها عليه، إما أن يكون من عدم القدرة، وهو العجز، أو من عدم الإرادة، وهو الكسل، وحبس خيره ونفعه عن نفسه، وعن بني جنسه، إما أن يكون منع نفعه ببدنه فهو الجبن، أو بماله فهو البخل، وقهر الناس له إما بحق فهو ضلع الدين، أو بباطل فهو غلبة الرجال، فقد تضمن الحديث الاستعاذة من كل شر، وأما تأثير الاستغفار في دفع الهم والغم والضيق فلما اشترك في العلم به أهل الملل وعقلاء كل أمة أن المعاصي والفساد توجب الهم، والغم، والخوف، والحزن، وضيق الصدر، وأمراض القلب، حتى إن أهلها إذا قضوا منها أوطارهم، وسئمتها نفوسهم ارتكبوها؛ دفعًا لما يجدونه في صدورهم من الضيق والهم والغم، كما قال شيخ الفسوق:

وكأسٍ شَرِبْتُ على لَذَّةٍ وأخرى تَدَاوَيْتُ مِنْهَا بِهَا

وإذا كان هذا تأثير الذنوب والآثام في القلوب، فلا دواء لها إلا التوبة والاستغفار». (زاد المعاد ٤/ ١٩١).

ضبط الانفعالات:

الانفعالات مكوِّن مهم من مكونات الحالة النفسية، وحسن التعامل معها له أثره في ضبط كثير من تصرفات الفرد، كما أن زيادة حدتها قد تؤثر على الصحة النفسية لصاحبها.

وقد كان ﷺ يعنى بضبط الانفعالات، ومن ذلك ما يلي:

١- أمره بذلك:

أمر ﷺ أصحابه بضبط انفعالاتهم والتحكم فيها، عن أبي مسعود البدري ﷺ قال: كنت أضرب غلامًا لي بالسوط فسمعت صوتًا من خلفي: «اعلم أبا مسعود» فلم أفهم الصوت من الغضب، قال: فلما دنا مني إذا هو رسول الله ﷺ فإذا هو يقول: «اعلم أبا مسعود، اعلم أبا مسعود». قال: فألقيت السوط من يدي فقال: «اعلم أبا مسعود أن الله أقدر عليك منك على هذا الغلام»، قال: فقلت: لا أضرب مملوكًا بعده أبدًا. (أخرجه مسلم ١٦٥٩).

٢- توجيهه لوسائل ضبطها:

ووجَّه ﷺ أصحابه إلى وسائل لضبط الانفعالات، فوجَّه ﷺ إلى الاستعاذة بالله من الشيطان الرجيم، عن سليمان بن صُرَد ﷺ قال: استبَّ رجلان عند النبي ﷺ ونحن عنده جلوس وأحدهما يسب صاحبه مغضبًا قد احمرَّ وجهه، فقال النبي ﷺ: «إني لأعلم كلمة لو قالها لذهب عنه ما يجد، لو قال: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم»، فقالوا للرجل: ألا تسمع ما يقول النبي ﷺ؟ قال: «إني لست بمجنون». (أخرجه البخاري ٦١١٥، ومسلم ٢٦١٠).

وقد راعى النبي ﷺ الحالة التي يمر بها هذا الإنسان فلم يوجه إليه الكلام مباشرة، بل وجهه لأصحابه رضوان الله عليهم، وظهر أثر حكمته ﷺ من رده على أصحابه.

إن المربي وهو يعالج مثل هذه الانفعالات ينبغي أن يكون واقعيًا وحكيمًا، فلا يصر على مواجهة المتربي بخطئه، أو يسعى لانتزاع الاعتراف منه؛ فلا بد من تفهُّم الطبيعة الإنسانية.

وكم من الآباء والمربين دفعوا ثمنًا باهظًا نتيجة عدم تفهمهم لبعض المواقف الطبيعية من شاب أو فتاة مراهقة لم يتمكن من إدارة انفعالاته والتحكم بها.

كما أمر ﷺ من يغضب بالجلوس، عن أبي ذر ﷺ قال: إن رسول الله ﷺ قال لنا: «إذا غضب أحدكم وهو قائم فليجلس، فإن ذهب عنه الغضب وإلا فليضطجع». (أخرجه أبو داود ٤٧٨٢، وأحمد ٢١٣٤٨).

قال الخطابي: «القائم متهيىء للحركة والبطش، والقاعد دونه في هذا المعنى، والمضطجع ممنوع منهما، فيشبه أن يكون النبي ﷺ إنما أمره بالقعود والاضطجاع؛ لئلا تبدر منه في حال قيامه وقعوده بادرة يندم عليها فيما بعد، والله أعلم». (معالم السنن ٤/ ١٠٨).

عن أبي وائل القاص قال: دخلنا على عروة بن محمد السعدي فكلَّمه رجل فأغضبه، فقام فتوضأ ثم رجع وقد توضأ، فقال: حدثني أبي عن جدي عطية قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الغضب من الشيطان، وإن الشيطان خُلق من النار، وإنما تطفأ النار بالماء، فإذا غضب أحدكم فليتوضأ». (أخرجه أبو داود ٤٧٨٤ «وفيه ضعف»، وأحمد ٢١٣٦).

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «فالتوضؤ عند تحرك الشهوة من جنس التوضؤ عند الغضب، وهذا مستحب؛ لما في السنن عن النبي ﷺ أنه قال: «إن الغضب من الشيطان، وإن الشيطان من النار، وإنما تطفأ النار بالماء، فإذا غضب أحدكم فليتوضأ»، وكذلك الشهوة الغالبة هي من الشيطان والنار، والوضوء يطفئها، فهو يطفئ حرارة الغضب». (مجموع الفتاوى ٢٥/ ٢٣٨-٢٣٩).

عن ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي ﷺ أنه قال: «علِّموا، ويسِّروا ولا تعسِّروا، وإذا غضب أحدكم فليسكت». (أخرجه أحمد ٢١٣٧).

المجال العقلي

يمثل البناء العقلي مجالًا مهمًّا من مجالات التربية التي تستحق الاهتمام والعناية، ومما يؤكد أهمية هذا المجال ما يلي:

1) أنه مُكوِّن من مكونات الشخصية الإنسانية، وقد سبق مرارًا أن التربية الناجحة لا بد لها من الاعتناء بكافة مجالات الشخصية ومكوناتها، وأي منهج تربوي يتجاهل جانبًا من جوانب الشخصية الإنسانية سيولد نتاجًا مشوهًا.

2) أثر البناء العقلي- سلبًا وإيجابًا- ينعكس على سائر مجالات الشخصية؛ فطريقة تفكير الفرد تؤثر على فهمه للدين والتدين، كما تؤثر على سلوكه وأخلاقه وتعامله مع الناس، وعلى رؤيته لذاته وتوافقه مع نفسه والآخرين.

وطالب العلم يتأثر بطريقة تفكيره ومهاراته في تصوره للمسائل، وترجيحاته واختياراته، فضلا عن الداعية والخطيب والواعظ، ومن يقود الناس ويسوسهم.

3) لئن كان البناء العقلي ضرورة في كل عصر، فهو في عصرنا الحاضر آكد وأولى؛ لأمور عدة منها:

- تعقُّد المتغيرات والمؤثرات في هذا العصر؛ فالداعية يحتاج إلى قدرات أعلى وجهد أكبر حتى يفهم الواقع المعقد، ويتعامل معه بصورة مناسبة، والتعامل مع الواقع المحدود البسيط قد يجيده كثير من الناس كما هو الشأن في الأجهزة والأدوات والواقع الاجتماعي، أما الأدوات المعقدة والواقع الأكثر تعقيدًا فهو يتطلب مهارات أعلى، وقدرات أكثر .

- حاجة الأمة للتقدم العلمي والحضاري، وهو مرهون بالقدرات العقلية والانفتاح الفكري العقلي الموزون.

- ولَّد الواقع المعاصر سيلًا من المشكلات المعقدة في الواقع السياسي والاقتصادي والاجتماعي، وفهم هذه المشكلات- فضلًا عن تقديم الحلول لها- يتطلب عقليات ناضجة ومنفتحة.

وحين نشأ الانحراف العقدي في الأمة غلت بعض الطوائف في العقل، وقدَّسوه وقدموه على نصوص الوحي، بل بلغ الأمر ببعضهم أن قرر أن نصوص الوحي لا تفيد اليقين والقطع، بخلاف نتائج العقل والمنطق.

وأدى هذا الانحراف في منهج التلقي، والغلو في التعامل مع العقل إلى ردة فعل لدى طائفة من المنتسبين للسنة، وقد أشار لذلك عدد من أهل العلم.

قال شيخ الإسلام: «ولما أعرض كثير من أرباب الكلام والحروف وأرباب العمل والصوت عن القرآن والإيمان: تجدهم في العقل على طريق كثير من المتكلمة يجعلون العقل وحده أصل علمهم ويفردونه، ويجعلون الإيمان والقرآن تابعين له، والمعقولات عندهم هي الأصول الكلية الأولية المستغنية بنفسها عن الإيمان والقرآن، وكثير من المتصوفة يذمون العقل ويعيبونه، ويرون أن الأحوال العالية والمقامات الرفيعة لا تحصل إلا مع عدمه، ويقرون من الأمور بما يكذب به صريح العقل، ويمدحون السُّكر والجنون والوَلَه، وأمورًا من المعارف والأحوال التي لا تكون إلا مع زوال العقل والتمييز، كما يصدقون بأمور يعلم بالعقل الصريح بطلانها ممن لم يعلم صدقه، وكلا الطرفين مذموم، بل العقل شرط في معرفة العلوم وكمال وصلاح الأعمال، وبه يكمل العلم والعمل؛ لكنه ليس مستقلًّا بذلك؛ بل هو غريزة في النفس، وقوة فيها بمنزلة قوة البصر التي في العين؛ فإن اتصل به نور الإيمان والقرآن كان كنور العين إذا اتصل به نور الشمس والنار، وإن انفرد بنفسه لم يبصر الأمور التي يعجز وحده عن دركها، وإن عزل بالكلية كانت الأقوال والأفعال مع عدمه أمورًا حيوانية قد يكون فيها محبة ووجد وذوق كما قد يحصل للبهيمة،

فالأحوال الحاصلة مع عدم العقل ناقصة، والأقوال المخالفة للعقل باطلة». (مجموع الفتاوى ٣/ ٣٣٨-٣٣٩).

وقرر رحمه الله وجود الخلل في الموقف لدى بعض المنتسبين للحديث في الموقف من العقل، فقال: «والرسل جاءت بما يعجز العقل عن دركه، لم تأت بما يعلم بالعقل امتناعه، لكن المسرفون فيه قضوا بوجوب أشياء وجوازها وامتناعها لحجج عقلية- بزعمهم- اعتقدوها حقًّا، وهي باطل، وعارضوا بها النبوات وما جاءت به، والمعرضون عنه صدقوا بأشياء باطلة، ودخلوا في أحوال وأعمال فاسدة، وخرجوا عن التمييز الذي فضل الله به بني آدم على غيرهم، وقد يقترب من كل من الطائفتين بعض أهل الحديث تارة بعزل العقل عن محل ولايته، وتارة بمعارضة السنن به». (مجموع الفتاوى ٣/ ٣٣٩).

وقال ابن القيم: «وقد مدح الله سبحانه العقل وأهله في كتابه في مواضع كثيرة منه، وذم من لا عقل له، وأخبر أنهم أهل النار الذين لا سمع لهم ولا عقل، فهو آلة كل علم وميزانه الذي به يعرف صحيحه من سقيمه، وراجحه من مرجوحه، والمرآة التي يعرف بها الحسن من القبيح، وقد قيل: العقل مِلك: والبدن روحه، وحواسه وحركاته كلها رعية له، فإذا ضعف عن القيام عليها وتعهدها وصل الخلل اليها كلها، ولهذا قيل: من لم يكن عقله أغلب خصال الخير عليه كان حتفه في أغلب خصال الشر عليه، وروي أنه لما هبط آدم من الجنة أتاه جبريل فقال: إن الله أحضرك العقل والدين والحياء لتختار واحدًا منها، فقال: أخذت العقل، فقال الدين والحياء: أُمرنا أن لا نفارق العقل حيث كان، فانحاز اليه، والعقل عقلان: عقل غريزة وهو أب العلم ومربيه ومتمره، وعقل مكتسب مستفاد وهو ولد العلم وثمرته ونتيجته، فإذا اجتمعا في العبد فذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، واستقام له أمره، وأقبلت عليه جيوش السعادة من كل جانب، وإذا فقد أحدهما

فالحيوان البهيم أحسن حالًا منه، وإذا انفرد انتقص الرجل بنقصان أحدهما». (مفتاح دار السعادة ١/ ٣٨٣-٣٨٤).

وفي العصر الحاضر شطح بعض المفكرين، وتأثروا بواقع الأمة المتردي، وتطلعوا للنهضة، لكن الكفة طاشت لديهم، فجاوز العقل مكانه، وتعدى حده، فزاد ذلك من توجس بعض الغيورين، فولد مزيدًا من الحساسية والقلق من الحديث عن العقل وبنائه.

إن الحاجة ملحة لبناء العقل، وتنمية قدرات الإبداع والمرونة العقلية لدى جيلنا اليوم، وفي الوقت نفسه إلى ضبط ميزان التعامل مع العقل دون وكس ولا شطط.

قال الشعبي: «إنما كان يطلب هذا العلم من اجتمعت فيه خصلتان: العقل والنسك، فإن كان ناسكًا، ولم يكن عاقلًا، قال: هذا أمر لا يناله إلا العقلاء فلم يطلبه، وإن كان عاقلًا، ولم يكن ناسكًا قال: هذا أمر لا يناله إلا النُّساك، فلم يطلبه، فقال الشعبي: ولقد رهبت أن يكون يطلبه اليوم من ليست فيه واحدة منهما: لا عقل ولا نسك». (أخرجه الدارمي ٣٨٣).

هل ذم الوحي العقل؟

ورغم التوجس العالي لدى بعضهم من الحديث عن العقل، إلا أنه لم يرد في كتاب الله وسنه نبيه ﷺ أي ذم للعقل، بل الذم جاء لمن لا يعقلون ولا يتفكرون.

قال شيخ الإسلام: «وهذا كثير في القرآن يأمر ويمدح التفكر والتدبر والتذكر والنظر والاعتبار والفقه والعلم والعقل والسمع والبصر والنطق، ونحو ذلك من أنواع العلم وأسبابه وكماله، ويذم أضداد ذلك. (فصل) فإذا تبين أن جنس عدم العقل والفقه لا يحمد بحال في الشرع، بل يحمد العلم والعقل ويؤمر به أمر إيجاب أو أمر استحباب». (الاستقامة ٢/ ١٥٩).

العقل مناط التكليف:

بيَّن النبي ﷺ أن العقل مناط التكليف، فعن علي بن أبي طالب ﷺ عن رسول الله ﷺ أنه قال: «رُفع القلم عن ثلاثة: عن المجنون المغلوب على عقله حتى يفيق، وعن النائم حتى يستيقظ، وعن الصبي حتى يحتلم». (أخرجه أبو داود ٤٤٠١، وأحمد ٩٥٦ والترمذي ١٤٢٣).

وعن عائشة ﵂ عن النبي ﷺ قال: «رُفع القلم عن ثلاث: عن النائم حتى يستيقظ، وعن الصغير حتى يكبر، وعن المجنون حتى يعقل أو يفيق». (أخرجه النسائي ٣٤٣٢، وأبو داود ٤٣٩٨، وأحمد ٢٤٦٩٤، وابن ماجه ٢٠٤١).

وفي بعض الروايات: «وعن المبتلى حتى يبرأ».

وربط النبي ﷺ إقامة الحد بتمام العقل، فعن عبد الله بن بريدة، عن أبيه أن ماعز بن مالك الأسلمي ﷺ أتى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، إني قد ظلمت نفسي، وزنيت، وإني أريد أن تطهرني، فرده، فلما كان من الغد أتاه، فقال: يا رسول الله، إني قد زنيت، فرده الثانية، فأرسل رسول الله ﷺ إلى قومه، فقال: «أتعلمون بعقله بأسًا، تنكرون منه شيئًا؟»، فقالوا: ما نعلمه إلا وفي العقل من صالحينا فيما نرى، فأتاه الثالثة، فأرسل إليهم أيضًا، فسأل عنه، فأخبروه أنه لا بأس به، ولا بعقله، فلما كان الرابعة حفر له حفرة، ثم أمر به فرجم.... (أخرجه مسلم ١٦٩٥).

ونصَّ أهل العلم على ارتباط التكليف وصحة العبادات والعقود بالعقل، قال يحيى: سمعت مالكًا يقول: «الأمر المجتمع عليه عندنا أن الضعيف في عقله، والسفيه، والمصاب- الذي يفيق أحيانًا- تجوز وصاياهم، إذا كان معهم من عقولهم ما يعرفون ما يوصون به، فأما من ليس معه من عقله ما يعرف بذلك ما يوصي به، وكان مغلوبًا على عقله، فلا وصية له». (أخرجه مالك في الموطأ، الوصية ٣).

وقال ابن قدامة- معللًا إيجاب الدية في ذهاب العقل-: «ولأنه أكبر المعاني قدرًا، وأعظم الحواس نفعًا؛ فإن به يتميز من البهيمة، ويعرف به حقائق المعلومات، ويهتدي إلى مصالحه، ويتقي ما يضره، ويدخل به في التكليف، وهو شرط في ثبوت الولايات، وصحة التصرفات، وأداء العبادات، فكان بإيجاب الدية أحق من بقية الحواس». (المغني ٨/ ٤٦٥).

حثه على التفكر في القرآن:

حث النبي ﷺ أمته على التفكر في القرآن الكريم، عن عطاء قال: دخلت أنا وعبيد بن عمير على عائشة ؓ فقالت لعبيد بن عمير: قد آن لك أن تزورنا، فقال: أقول يا أمه كما قال الأول: زُرْ غِبًّا تزددْ حُبًّا، قال: فقالت: دعونا من رطانتكم هذه، قال ابن عمير: أخبرينا بأعجب شيء رأيته من رسول الله ﷺ، قال: فسكتت، ثم قالت: لما كان ليلة من الليالي قال: «يا عائشة ذريني أتعبد الليلة لربي» قلت: والله إني لأحب قربك وأحب ما سَرَّك، قالت: فقام فتطهر ثم قام يصلي: قالت: فلم يزل يبكي حتى بلَّ حجره، قالت: ثم بكى فلم يزل يبكي حتى بلَّ لحيته، قالت: ثم بكى فلم يزل يبكي حتى بلَّ الأرض، فجاء بلال يؤذنه بالصلاة، فلما رآه يبكي قال: يا رسول الله لم تبكي وقد غفر الله لك ما تقدم وما تأخر؟ قال «أفلا أكون عبدًا شكورًا، لقد نزلت علي الليلة آية ويل لمن قرأها ولم يتفكر فيها: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ (آل عمران: ١٩٠). (أخرجه ابن حبان ٦٢٠).

ففي وعيده ﷺ لمن قرأها ولم يتفكر فيها حث على التفكر في القرآن الكريم ومعانيه، وقد تكرر الأمر بذلك في كتاب الله عز وجل، والتفكر في القرآن الكريم يتضمن أمورًا عدة، منها:

- الاعتبار بقصص الأولين والآخرين، قال تعالى: ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ (يوسف: ١١١).
- التفكر في كمال وجمال خلق الله عز وجل، قال سبحانه: ﴿ يُنبِتُ لَكُم بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ (النحل: ١١).
- التفكر في حياة الكائنات التي خلقها الله سبحانه، قال تعالى: ﴿ وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿٦٨﴾ ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا ۚ يَخْرُجُ مِن بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِّلنَّاسِ ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ (النحل: ٦٨ - ٦٩).
- التفكير في حياة الناس وعلاقاتهم الاجتماعية، قال سبحانه: ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ (الروم: ٢١).
- التفكير في أحوال الإنسان ونومه ويقظته، قال عز وجل: ﴿ اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا ۖ فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ (الزمر: ٤٢).
- التفكير في حكم التشريع الرباني، قال عز وجل: ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ ۖ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا ۗ وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴾ (البقرة: ٢١٩).

وحين يعيش العقل في هذه المعاني يتأمل ويستنبط يزيد إيمان صاحبه، وتنمو قدراته وملكاته، ويدرك عظمة الله وجلاله، وجمال خلقه وكماله، وحكمة التشريع وإعجازه، وسنن الله في الأنفس والآفاق.

ولا أنفع ولا أصلح للعقل من الانشغال بخير الكلام وأصدقه، كلام الله عز وجل، خالق العقل ومنشئه.

تحديد مجال التفكير:

الدعوة لإعمال العقل وتنميته لا تعني إطلاق العنان له؛ فتوظيفه فيما لم يخلق له لا يوصل إلى نتيجه، ولا يحقق غاية، بل يقود إلى هلاك صاحبه، فضلًا عما فيه من استنفاد للطاقة فيما لا طائل وراءه.

لذا نهى النبي ﷺ عن توظيف العقل فيما لم يخلق له، وحذَّر أمته من الانشغال بما لا يوصل العقل فيه إلى نتيجة؛ ومن ذلك ما يلي:

النهي عن التفكير في ذات الله عز وجل:

إدراك العقل البشري محدود بما يراه وما يدركه بحواسه، أما عالم الغيب فلا سبيل له إليه؛ لذا نهى النبي ﷺ عن التفكير في ذات الله عز وجل، وأمر بصرف العقول إلى ما تحسنه وينفعها، إلى التفكير في مخلوقات الله سبحانه وتعالى.

عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «تفكروا في آلاء الله، ولا تتفكروا في الله»، (أخرجه الطبراني في الأوسط ٦٣١٩).

ويبين ﷺ أن الشيطان يستجر ابن آدم ليدخله إلى دائرة هذا التفكير، قال أبو هريرة رضي الله عنه: قال رسول الله ﷺ: «يأتي الشيطان أحدكم فيقول: من خلق كذا؟ من خلق كذا؟ حتى يقول: من خلق ربك؟ فإذا بلغه فليستعذ بالله ولينته». (أخرجه البخاري ٣٢٧٦، ومسلم ١٣٤).

والتساؤل عملية عقلية تقود إلى التفكر والاستنتاج، إلا أن النبي ﷺ يضع حدًّا لهذا التساؤل؛ فيحذر من امتداده إلى دائرة التساؤل عن الذات الإلهية، عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لن يبرح الناس يتساءلون حتى يقولوا: هذا الله خالق كل شيء، فمن خلق الله؟». (أخرجه البخاري ٧٢٩٦، ومسلم ١٣٦).

ونصَّ السلف رضوان الله عليهم على كبح جماح العقل عن الخوض في هذه المسائل، عن عباس بن محمد الدوري، قال: سمعت أبا عبيد القاسم بن سلام، وذكر عنده هذه الأحاديث: «ضحك ربنا عز وجل من قنوط عباده وقرب غِيَرِه» (أخرجه أحمد ١٦٢٠١، وابن ماجه ١٢٤٠٤)، «والكرسي موضع القدمين» (أخرجه الطبراني عن ابن عباس موقوفًا ١٢٤٠٤)، «وأن جهنم تمتلئ فيضع ربك قدمه فيها» (أخرجه البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال سمعت رسول الله ﷺ: «... فأما النار فلا تمتلئ حتى يضع رجله» (٤٨٥٩)، وأخرجه مسلم بلفظ «... فأما النار فلا تمتلئ حتى يضع الله تبارك وتعالى رجله» (٢٨٤٦).

وأشباه هذه الأحاديث، فقال أبو عبيد: «هذه الأحاديث عندنا حق، يرويها الثقات بعضهم عن بعض، إلا أنا إذا سئلنا عن تفسيرها قلنا: ما أدركنا أحدًا يفسر منها شيئًا، ونحن لا نفسر منها شيئًا، نصدق بها ونسكت» (أخرجه اللالكائي في شرح أصول اعتقاد أهل السنة ٩٢٨).

النهي عن التفكير في أمور الغيب:

كما يبين ﷺ أنه لا سبيل لابن آدم لإدراك علم الغيب عن ابن عمر رضي الله عنهما، عن النبي ﷺ، قال: «مفاتيح الغيب خمس، لا يعلمها إلا الله: لا يعلم ما تغيض الأرحام إلا الله، ولا يعلم ما في غد إلا الله، ولا يعلم متى يأتي المطر أحد إلا الله، ولا تدري نفس بأي أرض تموت إلا الله، ولا يعلم متى تقوم الساعة إلا الله». (أخرجه البخاري ٧٣٧٩).

إن من يتساءلون عن الغيب، أو من يبحثون عن الإجابة بعقولهم عن الأسئلة الغيبية يستخدمون العقل في غير ما هو قادر عليه ولا مؤهل له، إنهم أشبه بمن يستخدم المعاول اليدوية لحفر آبار النفط، أو من يستعين بنظارته الشخصية لفحص كائنات دقيقة لا ترى إلا بالمجهر الدقيق.

والانشغال بالتفكير في أمور الغيب- علاوة على أنه لا يوصل إلى نتيجة- فإنه مدخل وبوابة للقلق والانحراف، وربما تجاوز لدى بعضهم إلى الشك والإلحاد.

وتتأكد الحاجة اليوم إلى تربية الجيل على مبدأ التسليم للوحي في أمور الغيب، والكف عن الخوض فيما لا سبيل للعقل إلى إدراكه، ومن المهم الاعتناء بتأسيس القواعد المنهجية في ذلك، والإقناع العقلي بمبدأ التسليم للغيب، فدور العقل هنا تأسيس منهجية المعرفة في ذلك، وتأسيس مصدرية الوحي دون سواه في التعامل مع المغيبات.

ذم التقليد:

تقليد الآخرين من الآباء والأجداد، أو الأمم السابقة، أو المعاصرين من عوائق العقل في الوصول إلى النتائج السليمة، وقد ذم النبي ﷺ التقليد الأعمى، فعن أبي سعيد ﷺ، أن النبي ﷺ، قال: «لتتبعن سَنَنَ من قبلكم شبرًا بشبر، وذراعًا بذراع، حتى لو سلكوا جُحر ضَبٍّ لسلكتموه»، قلنا يا رسول الله: اليهود، والنصارى قال: «فمن؟» (أخرجه البخاري ٣٤٥٦، ومسلم ٢٦٦٩).

والمقلدون يسلِّمون عقولهم للآخرين دون تساؤل عن دليل أو برهان وحجة، بل يعارضون البراهين القاطعة والحجج الواضحة بالتقليد، إنهم كما وصفهم سبحانه بقوله: ﴿ أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا مِّن قَبْلِهِۦ فَهُم بِهِۦ مُسْتَمْسِكُونَ ﴿٢١﴾ بَلْ قَالُوٓا۟ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ ﴿٢٢﴾ وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدْنَآ

ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ ﴿٢٣﴾ ۞ قَٰلَ أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ ءَابَآءَكُمْ قَالُوٓا۟ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾ (الزخرف: ٢١ - ٢٤).

ذم اتباع الظن:

ومن آفات التفكير اتباع الظن والأوهام، والسير وراءها، وقد حذَّر ﷺ من اتباع الظن، وأخبر أنه لا يقود إلى الصدق والحق بل هو أكذب الحديث؛ فعن أبي هريرة ﷺ، أن رسول الله ﷺ قال: «إياكم والظن، فإن الظن أكذب الحديث، ولا تحسَّسوا، ولا تجسَّسوا، ولا تناجشوا، ولا تحاسدوا، ولا تباغضوا، ولا تدابروا، وكونوا عباد الله إخوانًا». (أخرجه البخاري ٦٠٦٦، ومسلم ٢٥٦٣).

وحين يفقد الإنسان أدوات التفكير والاستدلال الصحيح يُسلِّم لما يخطر على باله، أو يسبق إلى ذهنه من استنتاج، ويملأ فجوات المعلومات دون يقين أو برهان.

التعليم النبوي وتنمية التفكير:

من أهم جوانب البناء العقلي تنمية التفكير؛ فالتفكير البشري يمكن تحسينه والارتقاء به مما ينعكس على سائر جوانب الشخصية ومجالاتها؛ فالإنسان لا ينفصل عن ممارسة التفكير في كل أنشطته ومواقفه.

ومن أبرز وأهم ما ينمي التفكير طرق التعليم وأساليبه؛ لذا تتجه كثير من الدراسات التربوية والنفسية المعاصرة في مجال تنمية التفكير إلى تطوير استراتيجيات التعليم وأساليبه.

وبعيدًا عن التأطير النظري لأساليب التعليم النبوي، أو إنزالها وفق قوالب معاصرة، فقد كانت تسهم في بناء التفكير لدى المتعلم وتنمية قدراته العقلية، وسوف يأتي الحديث عن التعليم النبوي مفصلًا في فصل مستقل، ونكتفي هنا بإيراد بعض الشواهد على أثر التعليم النبوي في البناء العقلي.

ومن أهم الشواهد على دور التعليم النبوي في تنمية التفكير ما يلي:

١- إثارة أسئلة تستدعي التفكير:

كان ﷺ يلقي أسئلة تستدعي التفكير، فعن ابن عمر رضي الله عنهما قال قال رسول الله ﷺ: «إن من الشجر شجرة لا يسقط ورقها، وإنها مثل المسلم، فحدثوني ما هي؟» فوقع الناس في شجر البوادي، قال عبد الله: ووقع في نفسي أنها النخلة، فاستحييت، ثم قالوا: حدثنا ما هي يا رسول الله؟ قال: «هي النخلة». (أخرجه البخاري ٦١، ومسلم ٢٨١١).

وكثيرًا ما كان ﷺ يفتتح حديثه بسؤال أصحابه، عن أبي بكرة رضي الله عنه، قال: خطبنا النبي ﷺ يوم النحر، قال: «أتدرون أي يوم هذا؟»، قلنا: الله ورسوله أعلم، فسكت حتى ظننا أنه سيسميه بغير اسمه، قال: «أليس يوم النحر؟» قلنا: بلى، قال: «أي شهر هذا؟»، قلنا: الله ورسوله أعلم، فسكت حتى ظننا أنه سيسميه بغير اسمه، فقال «أليس ذو الحجة؟»، قلنا: بلى، قال «أي بلد هذا؟» قلنا: الله ورسوله أعلم، فسكت حتى ظننا أنه سيسميه بغير اسمه، قال: «أليست بالبلدة الحرام؟» قلنا: بلى، قال: «فإن دماءكم وأموالكم عليكم حرام، كحرمة يومكم هذا، في شهركم هذا، في بلدكم هذا، إلى يوم تلقون ربكم، ألا هل بلغت؟»، قالوا: نعم، قال: «اللهم اشهد، فليبلغ الشاهد الغائب، فرب مبلَّغ أوعى من سامع، فلا ترجعوا بعدي كفارًا، يضرب بعضكم رقاب بعض». (أخرجه البخاري ١٧٤١، ومسلم ١٦٧٩).

وسيأتي بإذن الله حديث مفصَّل عن الأسئلة النبوية عند الحديث عن التعليم النبوي، والمقصود هنا أن إلقاء هذه الأسئلة على أصحابه له أثره في تنمية التفكير.

٢- محاورة السائل:

يحاور النبي ﷺ السائل ويوجه له السؤال الذي يقوده إلى استنباط الحكم، عن ابن

عباس رضي الله عنهما أن امرأة من جهينة جاءت إلى النبي ﷺ فقالت: إن أمي نذرت أن تحج فلم تحج حتى ماتت، أفأحج عنها؟ قال: «نعم حجي عنها، أرأيت لو كان على أمك دين أكنت قاضية؟ اقضوا الله؛ فالله أحق بالوفاء» (أخرجه البخاري١٨٥٢).

٣- بيان العلل:

كثيرًا ما كان ﷺ يبين لأصحابه رضوان الله عليهم العلل في الأحكام الشرعية، عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يسأل عن اشتراء التمر بالرطب، فقال لمن حوله: «أينقص الرطب إذا يبس؟» قالوا: نعم، فنهى عن ذلك. (أخرجه الترمذي ١٢٢٥، والنسائي ٤٥٤٥، وأبو داود ٣٣٥٩، وابن ماجه ٢٢٦٤، وأحمد ١٥١٥).

وعلل لهم منع الذبح بالسن والظفر، عن رافع بن خديج رضي الله عنه قال: كنا مع النبي ﷺ بذي الحليفة فأصاب الناسَ جوع، فأصابوا إبلًا وغنمًا، قال: وكان النبي ﷺ في أخريات القوم فعجلوا وذبحوا ونصبوا القدور، فأمر النبي ﷺ بالقدور فأكفئت، ثم قسم فعدل عشرة من الغنم ببعير فندَّ منها بعير فطلبوه فأعياهم، وكان في القوم خيل يسيرة فأهوى رجل منهم بسهم فحبسه الله، ثم قال: إن لهذه البهائم أوابد كأوابد الوحش، فما غلبكم منها فاصنعوا به هكذا، فقال جدي: إنا نرجو أو نخاف العدو غدًا وليست مُدىً أفنذبح بالقَصَب، قال: «ما أنهر الدم وذُكر اسم الله عليه فكلوه، ليس السن والظفر، وسأحدثكم عن ذلك: أما السن فعظم، وأما الظفر فَمُدَى الحبشة». (أخرجه البخاري ٢٤٨٨، ومسلم ١٩٦٨).

وسيأتي حديث مفصل عن ذلك بإذن الله عند الحديث عن التعليم النبوي.

٤ - استعمال القياس العقلي:

يستعمل النبي ﷺ قياس النظير على نظيره، والفرع على الأصل، فحين سأله أعرابي

يُعرِّض بقذف زوجته حاوره ﷺ وضرب له مثلًا من بيئته، عن أبي هريرة ﵁ أن رسول الله ﷺ جاءه أعرابي فقال: يا رسول الله، إن امرأتي ولدت غلامًا أسود، فقال: «هل لك من إبل؟» قال: نعم، قال: «ما ألوانها؟» قال: حمر، قال: «هل فيها من أورق؟» قال: نعم، قال: «فأنى كان ذلك؟» قال: أراه عِرْق نزعه، قال: «فلعل ابنك هذا نزعه عِرق». (أخرجه البخاري ٦٨٤٧، ومسلم ١٥٠٠٩).

ويستخدم النبي ﷺ القياس وهو يحدثهم عن فضائل الأعمال؛ فعن أبي ذر ﵁ أن ناسًا من أصحاب النبي ﷺ قالوا للنبي ﷺ: يا رسول الله، ذهب أهل الدثور بالأجور، يصلون كما نصلي، ويصومون كما نصوم، ويتصدقون بفضول أموالهم، قال: «أوليس قد جعل الله لكم ما تصدقون؟ إن بكل تسبيحة صدقة، وكل تكبيرة صدقة، وكل تحميدة صدقة، وكل تهليلة صدقة، وأمر بالمعروف صدقة، ونهي عن منكر صدقة، وفي بضع أحدكم صدقة، قالوا: يا رسول الله، أيأتي أحدنا شهوته ويكون له فيها أجر؟ قال: «أرأيتم لو وضعها في حرام أكان عليه فيها وزر؟ فكذلك إذا وضعها في الحلال كان له أجر». (أخرجه مسلم ١٠٠٦).

وفي رواية: «وفي بُضع أحدكم صدقة» قالوا: يا رسول الله، يأتي أحدنا شهوته ويكون له فيها أجر؟ فقال: «أرأيتم لو وضعها في الحرام أليس كان يكون عليه وزر- أو الوزر-؟» قالوا: بلى، قال: «فكذلك إذا وضعها في الحلال يكون له الأجر». (أخرجه أحمد ٢١٤٨٢).

ومن صور قياسه ﷺ ضرب الأمثال، فعن أبي هريرة ﵁ أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «أرأيتم لو أن نهرًا بباب أحدكم يغتسل فيه كل يوم خمسًا، ما تقول: ذلك يبقي من درنه؟» قالوا: لا يبقي من درنه شيئًا، قال: «فذلك مثل الصلوات الخمس، يمحو الله به الخطايا». (أخرجه البخاري ٥٢٨، ومسلم ٦٦٧).

٥- الإقناع والبرهان:

مع أن كلامه ﷺ برهانٌ في حد ذاته لا يفتقر إلى استدلال، إلا أنه كثيرًا ما يقدم البرهان على ما يقوله، عن قيس بن سعد قال: أتيت الحيرة فرأيتهم يسجدون لِمَرْزُبَانَ لهم، فقلت: رسول الله أحق أن يُسجَد له، قال: فأتيت النبي ﷺ فقلت: إني أتيت الحيرة فرأيتهم يسجدون لِمَرْزُبَانَ لهم، فأنت يا رسول الله أحق أن نسجد لك، قال: «أرأيت لو مررت بقبري أكنت تسجد له؟» قال: قلت: لا، قال: «فلا تفعلوا؛ لو كنت آمرًا أحدًا أن يسجد لأحد لأمرت النساء أن يسجدن لأزواجهن؛ لما جعل الله لهم عليهن من الحق». (أخرجه أبو داود ٢١٤٠، والدارمي ١٤٦٣).

واستعمل النبي ﷺ: الاقناع والبرهان وهو يجيب على سؤال الأعرابي الذي كان يعرِّض بقذف زوجته كما سبق في الفقرة الماضية.

وسيأتي الحديث مفصلًا عن تعليمه ﷺ لأصحابه، وعن دور التعليم النبوي في البناء العقلي وتنمية التفكير، وإنما أوردنا هنا نماذج فقط.

لقد ترك التعليم التقليدي المعتمد على الاستظهار والتلقين، والذي يغيب فيه الحوار واستثارة التفكير أثره على الجمود في التفكير لدى طائفة من طلبة العلم الشرعي ممن تعلموا في تلك البيئات.

وأدى توارث هذا اللون من التعليم واستمراره إلى إعطائه الصبغة المنهجية، وإضافته إلى منهج السلف، كما أدت المبالغة لدى بعض المطالبين بتطوير التعليم الشرعي، وارتباط بعض مطالب التطوير بتشويه التعليم الشرعي إلى القلق والتوجس من الأصوات المطالبة بالتطوير .

والتعليم الشرعي عمل بشري لا يكسبه انتماؤه للعلم الشرعي صفة الثبات وانتفاء الحاجة إلى التطوير، والتحفظ على بعض الآراء المطالبة بالتطوير أو على من صدرت منهم، أو سوء النية لدى بعض الجهات أو الشخصيات الداعية للحوار لا ينبغي أن يكون مانعًا من التطوير الإيجابي.

المجال الاجتماعي

من سنن الله عز وجل في خلق الإنسان أنه مدني بطبعه، فهو يستوحش من الوحدة والعزلة، ويعيش مع الآخرين ويخالطهم، فيأنس بهم ويأنسون به، ويتبادلون تحقيق المصالح المشتركة فيما بينهم، بل إن كثيرًا من متطلبات حياة الإنسان لا تقوم إلا من خلال اجتماعه مع الآخرين.

ولأهمية الحاجة إلى الاجتماع لدى الفرد أصبح السجن الانفرادي عقوبة إضافية للسجين، وتحدد القوانين والانظمة قيودًا وإجراءات في تحويل السجين إلى السجن الانفرادي؛ مراعاة لطبيعة الإنسان وحاجته إلى الاجتماع والتواصل مع الآخرين.

وقد جاءت الشريعة بتأصيل معاني الاجتماع والتأكيد عليها، وامتنَّ الله تبارك وتعالى على المؤمنين بأن حقق لهم الاجتماع والتآلف، فقال سبحانه: ﴿ وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟ وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ (آل عمران: ١٠٣).

ونهى سبحانه عن التنازع وبين أنه طريق للفشل وذهاب الريح، فقال عز وجل: ﴿وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَٰزَعُوا۟ فَتَفْشَلُوا۟ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ ۖ وَٱصْبِرُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ (الأنفال: ٤٦).

وراعت الأحكام الشرعية تحقيق مقاصد الاجتماع والتآلف، فشُرعت الجماعة للصلوات المكتوبة خمس مرات كل يوم، ثم اجتماع أكبر يوم الجمعة، ثم في العيدين، ثم الحج.

كما اعتنت الآداب الشرعية، بتأصيل معاني الاجتماع والألفة وتحقيقها، فأوجبت واجبات، وسنَّت سننًا وآداب لتعميق معاني الاجتماع وتأكيدها.

وحين يعيش الفرد مع الآخرين في دوائر المجتمع المتقاربة بدءًا بأهل بيته، ثم أقاربه، ثم أسرته فالحي، فالمدينة، فالدولة.... إلخ فإن هذا يتطلب قدرًا من التأهيل له؛ ليتأهل لأداء الأدوار الاجتماعية، فيحتاج إلى قدر من الاتجاهات والمعارف والمهارات.

وقد اعتنى ﷺ ببناء الجانب الاجتماعي؛ فتربية الإنسان المسلم لا تُحقق بدون البناء الاجتماعي، ومن أهم جوانب المنهج التربوي في البناء الاجتماعي ما يلي:

١ - تقوية الصلة الاجتماعية:

اعتنى ﷺ بتقوية الصلة الاجتماعية منذ بدء دعوته، فعن عمرو بن عبسة السلمي ﵁ قال: كنت وأنا في الجاهلية أظن أن الناس على ضلالة وأنهم ليسوا على شيء وهم يعبدون الأوثان، فسمعت برجل بمكة يخبر أخبارًا، فقعدت على راحلتي فقدمت عليه فإذا رسول الله ﷺ مستخفيًا جُرَءَاءُ عليه قومُه، فتلطفت حتى دخلت عليه بمكة، فقلت له: ما أنت؟ قال: «أنا نبي» فقلت: وما نبي؟ قال: «أرسلني الله» فقلت: وبأي شيء أرسلك؟ قال: «أرسلني بصلة الأرحام وكسر الأوثان، وأن يوحَّد الله لا يشرك به شيء» (أخرجه مسلم ٨٣٢).

لقد جاء عمرو بن عبسة ﵁ إلى النبي ﷺ في بداية دعوته، بدليل قوله «متخفيًا» وحين سأل النبي ﷺ من معه على هذا الدين، قال له ﷺ: «حر و عبد» فقال عمرو- عن نفسه-: إنه كان ربع الإسلام.

إن اعتناء النبي ﷺ بهذا المعنى في بداية دعوته دليل على أهميته، بل إنه ﷺ جعله مما أرسله الله به.

وكان ﷺ يمنع من المشاركة في جهاد التطوع دون إذن الوالدين؛ فعن عبد الله بن عمرو بن العاص ﵄ قال: أقبل رجل إلى نبي الله ﷺ فقال: أبايعك على الهجرة والجهاد أبتغي الأجر من الله، قال: «فهل من والديك أحدٌ حي؟» قال: نعم، بل كلاهما، قال:

«فتبتغي الأجر من الله؟» قال: نعم، قال: «فارجع إلى والديك فأحسن صحبتهما» (أخرجه البخاري ٣٠٠٤، ومسلم ٢٥٤٩، واللفظ له).

لقد كانت الهجرة والجهاد في سبيل الله تحققان مصالح عامة للأمة، لكن لما تعارض ذلك مع قيام هذا الرجل بحقوق والديه أرشده ﷺ أن يعود إليهما ويقوم على شأنهما؛ فهو أعظم أجرًا في حقه.

وقد تكرر هذا الأمر فكان ﷺ يعيد من يأتي للجهاد إلى والديه، ويأمره بالإحسان لهما.

وبغض النظر عن تفاصيل الأحكام الفقهية المتعلقة بالتعارض بين الجهاد وحقوق الوالدين فإن تقديم حقوق الوالدين على الجهاد ولو في بعض الأحوال، وسؤال الناس قبل مشاركتهم عن مدى وجود والديهم له أثره في تربية الناس على تعظيم شأن الوالدين وصلتهما، والذين كانوا يستمعون لهذا التوجيه النبوي يعون جيدًا منزلة الجهاد في سبيل الله عز وجل ومكانته؛ فقد جاءوا باحثين عنه ساعين إلى المشاركة فيه.

وقد أكد ﷺ على مجالات معينة من مجالات الصلة الاجتماعية، ومنها الرحم والقرابة، والجيران ونحوهم.

وكان ﷺ يرشد أصحابه إلى وسائل عملية للقيام بحق الجيران، أوصى بالهدية لهم كما في قوله ﷺ لصاحبه أبي ذر ﷺ: «يا أبا ذر إذا طبخت مرقة فأكثر ماءها، وتعاهد جيرانك». (أخرجه مسلم ٢٦٢٥).

ولما يعلمه ﷺ من حال أصحابه وفقرهم، وأنه يشق على أحدهم أن يجد ما يهديه، فقد أرشدهم إلى وسيلة لا تكلفهم شيئًا من المال.

وهو ﷺ ينمي هنا قيمة الإحسان ولو بالقليل، وعدم احتقار العمل؛ فالعبرة بالإحسان والتعبير عن المودة، والرسالة التي يوصلها هذا التعاهد والإهداء أعمق من

العائد المادي للهدية.

٢- التأكيد على الحقوق الاجتماعية:

أكّد ﷺ على أصحابه رعاية الحقوق الاجتماعية، عن البراء بن عازب ﷺ، قال: «أمرنا النبي ﷺ بسبع، ونهانا عن سبع: أمرنا باتباع الجنائز، وعيادة المريض، وإجابة الداعي، ونصر المظلوم، وإبرار القسم، ورد السلام، وتشميت العاطس، ونهانا عن: آنية الفضة، وخاتم الذهب، والحرير، والديباج، والقَسِّي، والإستبرق». (أخرجه البخاري ١٢٣٩، ومسلم ٢٠٦٦).

وعن أبي هريرة ﷺ، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «حق المسلم على المسلم خمس: رد السلام، وعيادة المريض، واتباع الجنائز، وإجابة الدعوة، وتشميت العاطس». (أخرجه البخاري ١٢٤٠، ومسلم ٢١٦٢).

وفي رواية لمسلم: «خمس تجب للمسلم على المسلم».

وفي رواية له أيضًا: « «حق المسلم على المسلم ست» قيل: ما هن يا رسول الله؟، قال: «إذا لقيته فسلم عليه، وإذا دعاك فأجبه، وإذا استنصحك فانصح له، وإذا عطس فحمد الله فشمِّته، وإذا مرض فعده، وإذا مات فاتبعه».

ومن تأكيده ﷺ على هذا المعنى أنه سأل أصحابه رضوان الله عليهم عمن يفعل ذلك، عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «من أصبح منكم اليوم صائمًا؟» قال أبو بكر ﷺ: أنا، قال: «فمن تبع منكم اليوم جنازة؟» قال أبو بكر ﷺ: أنا، قال: «فمن أطعم منكم اليوم مسكينًا؟» قال أبو بكر ﷺ: أنا، قال: «فمن عاد منكم اليوم مريضًا؟» قال أبو بكر ﷺ: أنا، فقال رسول الله ﷺ: «ما اجتمعن في امرئ إلا دخل الجنة». (أخرجه مسلم ١٠٢٨).

وكان ﷺ قدوة عملية لأصحابه في ذلك؛ فكان يسلم على من لقيه صغيرًا أو كبيرًا، ويعود مريضهم، ويجيب دعوتهم، ويشهد جنائزهم، وسيأتي الحديث عن ذلك مفصلًا بإذن الله عز وجل.

٣- تنمية التعاون والعمل الجماعي:

إن مجرد إشاعة المحبة والتواصل بين أفراد المجتمع، والتأكيد على هذه الحقوق لا يكفي في تنمية العمل الجماعي ومهاراته.

إن مهارات العمل الجماعي تتطلب تربية عملية، حتى يتحول العمل الجماعي إلى اتجاه يقدِّره أصحابه، ويعلون منزلته، وحتى يتمكن الناس من التكيف مع مواقف التنوع والاختلاف التي لا بد أن يتسم بها العمل الجماعي.

ومن هنا اعتنى ﷺ بتربية أصحابه عمليًا على العمل الجماعي ومهاراته، ومن الوسائل التي استخدمها ﷺ لتحقيق هذا الهدف التربوي ما يلي:

أ- تكليف أصحابه بمهام مشتركة:

كان ﷺ يكلف أصحابه بمهام جماعية، وقد تكرر ذلك في عدد من المواقف، وتنوَّع تعامله ﷺ مع هذه المواقف، ففي بعضها يحدد المهمة والتفاصيل بدقة، كما في حادثة سرية عبد الله بن جحش رضي الله عنه، حين بعثه إلى نخلة، فقال له: «كن بها حتى تأتينا بخبر من أخبار قريش»، ولم يأمره بقتال، وذلك في الشهر الحرام، وكتب له كتابًا قبل أن يعلمه أين يسير، فقال: «اخرج أنت وأصحابك، حتى إذا سرت يومين فافتح كتابك وانظر فيه، فما أمرتك فيه فامض له، ولا تستكرهن أحدًا من أصحابك على الذهاب معك»، فلما سار يومين فتح الكتاب، فإذا فيه: «أن امض حتى تنزل نخلة، فتأتينا من أخبار قريش بما يصل إليك منهم»، فقال لأصحابه- حين قرأ الكتاب-: سمعًا وطاعة، من كان منكم له رغبة في

الشهادة فلينطلق معي، فإني ماض لأمر رسول الله ﷺ، ومن كره ذلك منكم فليرجع، فإن رسول الله ﷺقد نهاني أن أستكره منكم أحدًا... (أخرجه البيهقي ١٨٠٤٦ عن عروة مرسلًا).

وأحيانًا يكلف أصحابه بمهمة عامة، ويؤمِّر عليهم أحدهم ويترك لهم تفاصيل العمل، كما في قصة قتل كعب بن الأشرف، عن سفيان بن عمرو، سمعت جابرًا ﷺ يقول: قال رسول الله ﷺ: «من لكعب بن الأشرف؟ فإنه قد آذى الله ورسوله»، فقال محمد بن مسلمة: يا رسول الله، أتحب أن أقتله؟ قال: «نعم»، قال: ائذن لي، فلأقل، قال: «قل»، فأتاه، فقال له: وذكر ما بينهما، وقال: إن هذا الرجل قد أراد صدقة، وقد عنانا، فلما سمعه قال: وأيضا والله، لَتَمَلُّنَّه، قال: إنا قد اتبعناه الآن، ونكره أن ندعه حتى ننظر إلى أي شيء يصير أمره، قال: وقد أردت أن تسلفني سلفًا، قال: فما ترهنني؟ قال: ما تريد؟ قال: ترهنني نساءكم، قال: أنت أجمل العرب، أنرهنك نساءنا؟ قال له: ترهنوني أولادكم، قال: يُسَبُّ ابن أحدنا، فيقال: رهن في وَسْقَيْنِ من تمر، ولكن نرهنك اللَّأْمَةَ- يعني السلاح-، قال: فنعم، وواعده أن يأتيه بالحارث، وأبي عبس بن جبر، وعباد بن بشر، قال: فجاءوا فدعوه ليلًا فنزل إليهم، قال سفيان: قال غير عمرو: قالت له امرأته: إني لأسمع صوتًا كأنه صوت دم، قال: إنما هذا محمد بن مسلمة، ورضيعه، وأبو نائلة، إن الكريم لو دعي إلى طعنة ليلًا لأجاب، قال محمد: إني- إذا جاء- فسوف أمد يدي إلى رأسه، فإذا استمكنت منه فدونكم، قال: فلما نزل نزل وهو متوشح، فقالوا: نجد منك ريح الطيب، قال: نعم، تحتي فلانة هي أعطر نساء العرب، قال: فتأذن لي أن أشم منه، قال: نعم فشم، فتناول فشم، ثم قال: أتأذن لي أن أعود، قال: فاستمكن من رأسه، ثم قال: دونكم، قال: فقتلوه. (أخرجه مسلم ١٨٠١، والبخاري ٢٥١٠ مختصرًا).

وأحيانًا يترك التأمير مفتوحًا، ويعهد إلى أصحابه أن يختاروا بينهم من يتولى الإمارة كما في غزوة مؤتة، فقد أمَّر عليهم ﷺ زيد بن حارثة، وقال: « زيد بن حارثة أمير الناس، فإن قُتِل زيد بن حارثة فجعفر بن أبي طالب، فإن أصيب جعفر فعبد الله بن رواحة، فإن أصيب عبد الله بن رواحة فليرتض المسلمون بينهم رجلًا فليجعلوه عليهم». (الواقدي ٢/ ٧٥٦).

إن مثل هذا الموقف ليس موقفًا عاديًا، فهو موقف حرب وقتال، وظروف الحرب غير مقدَّرة، ومقتل الأمير قد يكون في حال لا تتيح التشاور الهادئ والحوار بين الناس، والعدو ليس عدوًّا تقليديًّا، فهم الروم وليسوا طائفة من بوادي العرب؛ ومع ذلك ترك ﷺ الأمر للناس؛ ليكونوا أمام الموقف، ويواجهوه؛ فيختاروا الأمير.

إن بناء مهارات العمل الجماعي، والتربية على اتخاذ القرارات في هذه المواقف مطلب لا يقل أهمية عن حسم تلك المواجهة مع العدو.

ب - التأمير في السفر:

أكَّد النبي ﷺ على أصحابه في توجيهاته ووصاياه القولية مبدأ التأمير، فعن أبي سعيد الخدري ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «إذا خرج ثلاثة في سفر فليؤمروا أحدهم». (أخرجه أبو داود ٢٦٠٨).

أما من الناحية العملية، فكان غالبًا ما يؤمر على أصحابه حين يرسلهم إلى مهمة كما سبق، وقد كان يحمِّل أصحابه المسؤولية حين يؤمر عليهم أحدهم، وذلك بأن تكون الإمارة وسيلة لتحقيق مقاصد الاجتماع، وألا يساء استخدام حق الطاعة.

عن علي ﷺ قال: بعث النبي ﷺ سرية فاستعمل رجلًا من الأنصار وأمرهم أن يطيعوه، فغضب، فقال: أليس أمركم النبي ﷺأن تطيعوني؟ قالوا: بلى، قال: فاجمعوا لي

حطبًا، فجمعوا، فقال: أوقدوا نارًا، فأوقدوها، فقال: ادخلوها، فهمُّوا وجعل بعضهم يمسك بعضًا، ويقولون: فررنا إلى النبي ﷺ من النار، فما زالوا حتى خمدت النار، فسكن غضبه، فبلغ النبي ﷺ، فقال: «لو دخلوها ما خرجوا منها إلى يوم القيامة، الطاعة في المعروف». (أخرجه البخاري ٤٣٤٠، ومسلم ١٨٤٠).

ج - المشاركة الجماعية:

كان ﷺ يشارك أصحابه في المهام والعمل؛ فشاركهم في بناء المسجد مبدأ قدومه إلى المدينة، وترك ذلك أثره عليهم حتى قال أحدهم:

لَئِنْ قَعَدْنَا والنَّبِيُّ يَعْمَلُ لَذَاكَ مِنَّا العَمَلُ المُضَلَّلُ

كما شاركهم ﷺ حفر الخندق، فوضع يده في العمل معهم، وكانت تلك المشاركة منه ﷺ لأصحابه في موقف عانوا فيه من الجوع، حتى تأثر جابر بن عبد الله رضي الله عنهما لما رأى حال النبي ﷺ، فقال: لما حفر الخندق رأيت بالنبي ﷺ خمصًا شديدًا، فانكفأت إلى امرأتي، فقلت: هل عندك شيء؟ فإني رأيت برسول الله ﷺ خمصًا شديدًا، فأخرجت إلي جرابًا فيه صاع من شعير، ولنا بهيمة داجن فذبحتها، وطحنت الشعير، ففرغت إلى فراغي، وقطعتها في برمتها، ثم وليت إلى رسول الله ﷺ، فقالت: لا تفضحني برسول الله ﷺ وبمن معه، فجئته فساررته، فقلت: يا رسول الله ذبحنا بهيمة لنا وطحنا صاعًا من شعير كان عندنا، فتعال أنت ونفر معك، فصاح النبي ﷺ فقال: «يا أهل الخندق، إن جابرًا قد صنع سُورًا[1]، فحي هلا بكم» فقال رسول الله ﷺ: «لا تُنزلنَّ بُرْمَتَكُمْ، ولا تخبزن عجينكم حتى أجيء»، فجئت وجاء رسول الله ﷺ يقدم الناس حتى جئت امرأتي،

---

(١) قال ابن حجر: «بضم المهملة وسكون الواو بغير همز هو هنا الصنيع بالحبشية، وقيل: العرس بالفارسية. ويطلق أيضًا على البناء الذي يحيط بالمدينة، وأما الذي بالهمز فهو البقية». (فتح الباري ٧/ ٣٩٩).

فقالت: بك وبك، فقلت: قد فعلت الذي قلت، فأخرجت له عجينًا فبصق فيه وبارك، ثم عمد إلى بُرْمَتِنَا فبصق وبارك، ثم قال: «ادع خابزة فلتخبز معي، واقدحي من بُرْمَتِكم ولا تنزلوها» وهم ألف، فأقسم بالله لقد أكلوا حتى تركوه وانحرفوا، وإن برمتنا لَتَغِطُّ كما هي، وإن عجيننا ليُخْبَزُ كما هو. (أخرجه البخاري ٤١٠٢، ومسلم ٢٠٣٩).

٤- تنمية الانتماء للمجتمع:

مما يعين الفرد على القيام بحقوقه الاجتماعية أن يتعزز شعوره بانتمائه للمجتمع، وقد اعتنى ﷺ بتنمية الانتماء للمجتمع، ومن ذلك ما يلي:

- حثه ﷺ أصحابه على الخُلطة، وتفضيلها على العزلة، عن يحيى بن وثاب عن رجل من أصحاب النبي ﷺ-قال: أظنه ابن عمر- عن النبي ﷺقال: «المؤمن الذي يخالط الناس ويصبر على أذاهم أعظم أجرًا من الذي لا يخالط الناس ولا يصبر على أذاهم»، (أخرجه أحمد ٢٣٠٩٨، وابن ماجه ٤٠٣٢، والترمذي ٢٥٠٧).

- وفي ربطه ﷺ الصبر على الناس بمخالطتهم تأكيد على غلبة تحقق الأذى عند مخالطة الناس، وأن من يخالطهم عليه أن يتسع صدره لتحمل الأخطاء والهفوات من الآخرين، والتقصير فيما ينتظره منهم من حقوق.

- تحفيزه ﷺ لأصحابه أن يكونوا مفاتيح للخير والإحسان، بعيدين عن الشر والإساءة للآخرين، عن أنس بن مالك ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «إن من الناس مفاتيح للخير مغاليق للشر، وإن من الناس مفاتيح للشر مغاليق للخير، فطوبى لمن جعل الله مفاتيح الخير على يديه، وويلٌ لمن جعل الله مفاتيح الشر على يديه». (أخرجه ابن ماجه ٢٣٧).

- حثُّه ﷺ أصحابه على بذل الخير للناس ولو كان يسيرًا، عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «كل سُلامى من الناس عليه صدقة، كل يوم تطلع فيه الشمس، يعدل بين الاثنين صدقة، ويعين الرجل على دابته فيحمل عليها أو يرفع عليها متاعه صدقة، والكلمة الطيبة صدقة، وكل خطوة يخطوها إلى الصلاة صدقة، ويميط الأذى عن الطريق صدقة». (أخرجه البخاري ٢٩٨٩، ومسلم ١٠٠٩).

وحين يستشعر المسلم أن ما يقدمه من إعانة للآخرين فهو صدقة- ولو كان شيئًا يسيرًا قد يحتقره الناس- فإن هذا ينمي لديه الانتماء لمجتمعه، ويرى أنه ميدانٌ للتزود من العمل الصالح، والبذل والإحسان.

- ترغيبه ﷺ لأصحابه فيما يناله المسلم من انتفاع الآخرين بعمله- ولو لم يكن ذلك مقصودًا منه-، فعن أنس بن مالك ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «ما من مسلم يغرس غرسًا أو يزرع زرعًا فيأكل منه طير أو إنسان أو بهيمة إلا كان له به صدقة». (أخرجه البخاري ٢٣٢٠، ومسلم ١٥٥٣).

بل بيّن النبي ﷺ أن المسلم المزارع يثاب على ما يأخذه منه السارق، فقد أخرج مسلم (١٥٥٢) عن جابر ﷺأن النبي ﷺ قال: «ما من مسلم يغرس غرسًا إلا كان ما أكل منه له صدقة، وما سُرِقَ منه له صدقة، وما أكل السَّبُع منه فهو له صدقة، وما أكلت الطير فهو له صدقة، ولا يَرْزَؤُه أحد إلا كان له صدقة».

ويتأكد اليوم على المربين العناية بتعزيز الانتماء إلى المجتمع، وبخاصة مع وجود مظاهر عدة من الخلل والانحراف في المجتمعات الإسلامية؛ فكثرة الحديث عن مظاهر الخلل وانتقادها مما يهز شعور الناشئة بالانتماء لمجتمعهم، وهو يهيىء لتقبل الشاب لأفكار الغلو والعنف.

إن المربين بحاجة إلى التوازن في تناول مظاهر الخلل في المجتمع، والاعتناء في مقابل ذلك بتعزيز الانتماء إليه، وبيان الجوانب المشرقة والإيجابية، وتعزيز الفصل بين مجانبة الانحراف والإنكار على أصحابه، وبين الانتماء للمجتمع.

٥- تنمية المسؤولية الاجتماعية:

ومن أهم جوانب البناء الاجتماعي التي اعتنى بها ﷺ في تربيته لأصحابه: المسؤولية الاجتماعية، فصوَّر لهم ﷺ حال المجتمع تصويرًا بليغًا، وشبَّهه بالقوم الذين ركبوا سفينة، فما يصيبها سيصيبهم، وسلامتهم من سلامتها؛ فعن النعمان بن بشير رضي الله عنهما قال: قال النبي ﷺ: «مثل المُدَّهِن في حدود الله والواقع فيها مثل قوم استهموا سفينةً؛ فصار بعضهم في أسفلها وصار بعضهم في أعلاها، فكان الذين في أسفلها يمرون بالماء على الذين في أعلاها فتأذَّوا به، فأخذ فأسًا فجعل ينقر أسفل السفينة، فأتوه فقالوا: ما لك؟ قال: تأذيتم بي ولا بد لي من الماء، فإن أخذوا على يديه أنجوه ونَجَّوْا أنفسهم، وإن تركوه أهلكوه وأهلكوا أنفسهم». (أخرجه البخاري ٢٦٨٦).

وتنمية المسؤولية الاجتماعية في تربية النبي ﷺ لأصحابه لا تقتصر على التعامل مع حالات الانحراف والخطأ، بل هي تتجلى أيضًا في مواقف الحاجة، فيضرب ﷺ لذلك مثلًا بليغًا، عن النعمان بن بشير رضي الله عنهما قال: قال النبي ﷺ«ترى المؤمنين في تراحمهم وتوادهم وتعاطفهم كمثل الجسد، إذا اشتكى عضو تداعى له سائر جسده بالسهر والحمى». (أخرجه البخاري ٦٠١١، ومسلم ٢٥٨٦).

وفي رواية لمسلم (٢٥٨٦): «المسلمون كرجل واحد، إن اشتكى عينه اشتكى كله، وإن اشتكى رأسه اشتكى كله».

٦- تنمية الاهتمام بقضايا الأمة:

ينمي ﷺ لدى أصحابه الاهتمام بشؤون إخوانهم المسلمين وأحوالهم، ومن صور الاعتناء بذلك في التربية النبوية ما يلي:

أ- الإخبار عن أحوالهم:

يُخبر ﷺ أصحابه عن أحوال إخوانهم وما يصيبهم، فعن أنس ﷺ أن النبي ﷺ نعى زيدًا وجعفر وابن رواحة للناس قبل أن يأتيهم خبرهم، فقال: «أخذ الراية زيد فأصيب، ثم أخذ جعفر فأصيب، ثم أخذ ابن رواحة فأصيب- وعيناه تذرفان- حتى أخذ سيف من سيوف الله حتى فتح الله عليهم». (أخرجه البخاري ٣٧٥٧).

ب- التبرع لهم:

ومن صور تربيته ﷺ لأصحابه على الاهتمام بأحوال إخوانهم: التبرع لهم والبذل للمحتاج منهم، فقد رقَّ ﷺ وتغيرت حاله، ودعا أصحابه إلى البذل والإنفاق لمن جاءوا من مضر وفيهم العوز والحاجة، عن المنذر بن جرير عن أبيه قال: كنا عند رسول الله ﷺ في صدر النهار، قال: فجاءه قوم حفاة عراة مجتابي النمار أو العباء متقلدي السيوف، عامتهم من مُضَر -بل كلهم من مضر- فتمعَّر وجه رسول الله ﷺ لما رأى بهم من الفاقة، فدخل ثم خرج، فأمر بلالًا فأذن وأقام فصلى ثم خطب، فقال: «﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾ إلى آخر الآية ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ (النساء: ١)، والآية التي في الحشر ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ﴾ (الحشر: ١٨) تصدق رجلٌ من ديناره، من درهمه، من ثوبه، من صاع بره، من صاع تمره»، حتى قال: «ولو بشق تمرة» قال: فجاء رجل من الأنصار بصرَّة كادت كفه تعجز عنها، بل قد عجزت، قال: ثم تتابع الناس حتى رأيت كومين من طعام وثياب، حتى رأيت وجه

رسول الله ﷺ يتهلل كأنه مُذْهَبَة، فقال رسول الله ﷺ: «من سنَّ في الإسلام سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها بعده من غير أن ينقص من أجورهم شيء، ومن سنَّ في الإسلام سنة سيئة كان عليه وزرها ووزر من عمل بها من بعده من غير أن ينقص من أوزارهم شيء». (أخرجه مسلم ١٠١٧).

بل إنه ﷺ نهاهم عن ادخار لحوم الأضاحي؛ لأجل مواساة إخوانهم المحتاجين، حتى فهم بعض أصحابه عموم النهي، وعدم اختصاصه بتلك الحالة إلى أن سألوه ﷺ، عن عائشة ﵂ قالت: دفَّ أهل أبيات من أهل البادية حضرة الأضحى زمن رسول الله ﷺ فقال رسول الله ﷺ: «ادخروا ثلاثًا، ثم تصدقوا بما بقي» فلما كان بعد ذلك قالوا: يا رسول الله، إن الناس يتخذون الأسقية من ضحاياهم ويجملون[1] منها الوَدَك، فقال رسول الله ﷺ: «وما ذاك؟» قالوا: نهيت أن تؤكل لحوم الضحايا بعد ثلاث، فقال: «إنما نهيتكم من أجل الدَّافَّة التي دَفَّت؛ فكلوا، وادخروا، وتصدقوا». (أخرجه مسلم ١٩٧١، وأصله في البخاري).

ج- القنوت لهم في النوازل:

ومن صور اهتمامه ﷺ بقضايا أمته، وأحوال المسلمين في عصرهم أنه كان يقنت لهم في صلاته عند النوازل.

فقنت ﷺ يدعو للمستضعفين الذين حبستهم قريس عن الهجرة، فعن أبي هريرة ﵁ قال: بينا النبي ﷺ يصلي العشاء إذ قال: سمع الله لمن حمده، ثم قال قبل أن يسجد: «اللهم نَجِّ عَيَّاش بن أبي ربيعة، اللهم نَجِّ سلمة بن هشام، اللهم نَجِّ الوليد بن الوليد، اللهم

(١) قال النووي: « قوله: يجملون بفتح الياء مع كسر الميم وضمها، ويقال بضم الياء مع كسر الميم، يقال: جملت الدهن أجمله بكسر الميم وأجمله بضمها جملًا، وأجملته إجمالًا، أي: أذبته، وهو بالجيم». (شرح صحيح مسلم ١٣/ ١٣١).

نَجِّ المستضعفين من المؤمنين، اللهم اشدد وطأتك على مُضَر، اللهم اجعلها سنين كسني يوسف». (أخرجه البخاري ٤٥٩٨، ومسلم ٦٧٥).

وحين أصيب طائفة من القراء من أصحابه حزن ﷺ عليهم، وقنت يدعو على من غدروا بهم؛ فعن أنس رضي الله عنه أن النبي ﷺ قنت شهرًا بعد الركوع يدعو على أحياء من بني سليم، قال: بعث أربعين أو سبعين- يشك فيه- من القراء إلى أناس من المشركين، فعرض لهم هؤلاء فقتلوهم، وكان بينهم وبين النبي ﷺ عهدٌ، فما رأيته وجد على أحد ما وجد عليهم. (أخرجه البخاري ٣١٧٠، ومسلم ٦٧٧).

لقد كان أصحاب النبي ﷺ يشهدون الصلاة معه، ويؤمِّنون على دعائه لإخوانهم المسلمين، ودعائه على من ظلمهم، وهذا المشهد المتكرر له أثره في تنمية شعورهم بقضايا إخوانهم المسلمين وأحوالهم ومشكلاتهم.

التربية الجمالية

محبة الجمال أمر فطر الله عز وجل عليه الإنسان؛ فجاء خلق الله تبارك وتعالى محققًا لهذا المعنى.

فالإنسان خُلق في أحسن صورة، قال عز وجل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ ۝٦ ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ﴾ (الانفطار: ٦ – ٧)، وقال عز وجل: ﴿وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيْتُونِ ۝١ وَطُورِ سِينِينَ ۝٢ وَهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ٱلْأَمِينِ ۝٣ لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ (التين: ١ – ٤).

وخَلْق الله عز وجل متصف بالجمال والإتقان، وهذا من آيات عظمة الخالق سبحانه وتعالى، قال عز وجل: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ۖ مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ ۖ فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ۝٣ ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ ۝٤ وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَجَعَلْنَٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَٰطِينِ ۖ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ ٱلسَّعِيرِ﴾ (الملك: ٣ – ٥).

والنبات الذي جعل الله فيه قوت الإنسان ورزقه متصف بالجمال، فيأمرنا الله عز وجل بالنظر إليه والاعتبار بذلك، يقول سبحانه: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ ٱلنَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّٰتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ ۗ ٱنظُرُوٓا۟ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَيَنْعِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكُمْ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ (الأنعام: ٩٩).

وامتن تبارك وتعالى على عباده بنعمة الجمال في الخلق، حتى فيما خلق لوظيفة أخرى وهو الحيوان، قال سبحانه: ﴿وَٱلْأَنْعَٰمَ خَلَقَهَا ۗ لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَٰفِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ۝٥ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ﴾ (النحل: ٥ – ٦).

كما امتن تبارك وتعالى على عباده بجمال اللباس، فقال: ﴿يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَٰرِى سَوْءَٰتِكُمْ وَرِيشًا ۖ وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ۚ ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾

(الأعراف: ٢٦).

والرِّيش قد فسره بعض السلف بالجمال، فروى ابن جرير بسنده عن ابن زيد أنه قال: الريش: الجمال (١٢/ ٣٦٦).

وقال ابن كثير: «يمتن تبارك وتعالى على عباده بما جعل لهم من اللباس والريش؛ فاللباس المذكور ها هنا لستر العورات وهي السوآت، والرياش والريش هو ما يتجمَّل به ظاهرًا». (٣/ ٣٩٩-٤٠٠).

ومن هنا فأي منهج يربي الإنسان لا يمكن أن يهمل هذه الفطرة في حب الجمال و الميل له.

وحين نتأمل منهج النبي ﷺ في التربية نجد أن الجانب الجمالي أخذ حظه وحقه من العناية والاهتمام، وفيما يلي بعض جوانب التربية الجمالية في المنهج النبوي:

١. تعزيز قيمة الجمال:

عزَّز النبي ﷺ لدى أصحابه قيمة الجمال وشأنه، فأخبر أنه أمر يحبه الله سبحانه وتعالى، عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله يحب أن يرى أثر نعمته على عبده». (أخرجه الترمذي ٢٨١٩، وأحمد ٨٠٤٥).

وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر» قال رجل: إن الرجل يحب أن يكون ثوبه حسنًا ونعله حسنة، قال: «إن الله جميل يحب الجمال، الكبر بَطَر الحق، وغَمْط الناس». (أخرجه مسلم ٩١).

وحين يستقر في حسِّ المسلم أن الله عز وجل يحب الجمال، ويحب أن يرى ذلك على عبده فإن هذا يضيف بعدًا شرعيًا للجمال؛ فلا يقف المسلم عند مجرد الدافع الطبيعي الفطري، بل يعتني برعاية هذا المعنى تعبدًا لله عز وجل؛ لأنه أمر يحبه الله ويريده من

عبده، ويرى أن ما ينفقه في سبيل تحقيق ذلك فهو من العبادة، ومن النفقة التي يبتغي بها وجه الله عز وجل إذا صحت النية في ذلك.

٢. الاعتناء بالجمال في المجامع العامة:

كان ﷺ يعنى بالجمال في المجامع العامة، بوَّب البخاري في صحيحه (باب التجمُّل للوفود) وأورد فيه بإسناده عن سالم بن عبد الله، أن ابن عمر رضي الله عنهما، قال: وجد عمر حُلَّة إستبرق تباع في السوق، فأتى بها رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله ابتع هذه الحُلَّة، فتجمل بها للعيد وللوفود، فقال رسول الله ﷺ: «إنما هذه لباس من لا خلاق له، أو إنما يلبس هذه من لا خلاق له» فلبث ما شاء الله، ثم أرسل إليه النبي ﷺ بجُبَّة ديباج، فأقبل بها عمر حتى أتى بها رسول الله ﷺ، فقال: يا رسول الله، قلت إنما هذه لباس من لا خلاق له، أو إنما يلبس هذه من لا خلاق له، ثم أرسلت إليَّ بهذه، فقال: «تبيعها أو تصيب بها بعض حاجتك». (أخرجه البخاري ٣٠٥٤، ومسلم ٢٠٦٨).

وذكر النووي من فوائد حديث ابن عمر: «واستحباب لباس أنفس ثيابه يوم الجمعة والعيد، وعند لقاء الوفود ونحوهم». (شرح صحيح مسلم ١٤/ ٣٨).

وأمر ﷺ أصحابه رضوان الله عليهم بأخذ الزينة في المجامع العامة، عن محمد بن يحيى بن حبان أن رسول الله ﷺ قال: «ما على أحدكم إن وجد- أو ما على أحدكم إن وجدتم- أن يتخذ ثوبين ليوم الجمعة سوى ثوبي مهنته». (أخرجه أبو داود ١٠٧٨، ومالك في الموطأ، كتاب الجمعة ٧، وابن ماجه ١٠٩٦).

كما أمر ﷺ أصحابه بالتهيؤ ليوم الجمعة بالاغتسال والتطيب، عن سلمان الفارسي رضي الله عنه، قال: قال النبي ﷺ: «لا يغتسل رجل يوم الجمعة، ويتطهر ما استطاع من طهر، ويدهن من دهنه، أو يمس من طيب بيته، ثم يخرج فلا يفرق بين اثنين، ثم يصلي ما كتب له، ثم

ينصت إذا تكلم الإمام، إلا غفر له ما بينه وبين الجمعة الأخرى». (أخرجه البخاري ٨٨٣).

٣. توجيهه لمن ترك التجمل:

حين يرى ﷺ من صحابته إخلالًا بالتجمُّل فإنه يبادر إلى توجيههم إلى مراعاة ما يقتضيه الجمال، عن أبي الأحوص عن أبيه ﵁ أنه أتى النبي ﷺ في ثوب دون؛ فقال له النبي ﷺ: «ألك مال؟ قال: نعم من كل المال، قال: «من أي المال؟» قال: قد آتاني الله من الإبل والغنم والخيل والرقيق. قال: «فإذا آتاك الله مالا فَلْيُرَ عليك أثر نعمة الله وكرامته». (أخرجه النسائي ٥٢٢٤، وأحمد ١٧٢٣١، وأبو داود ٤٠٦١)مجـ

و عن **جابر بن عبد الله الأنصاري ﵁ أنه قال:** خرجنا مع رسول الله ﷺ في غزوة بني أنمار، قال جابر: فبينا أنا نازل تحت شجرة إذا رسول الله ﷺ، فقلت: يا رسول الله هلم إلى الظل، قال: فنزل رسول الله ﷺ فقمت إلى غِرَارَةٍ لنا، فالتمست فيها شيئًا، فوجدت فيها جِرْوَ قِثَّاء فكسرته، ثم قربته إلى رسول الله ﷺ، فقال: «من أين لكم هذا؟» قال: فقلت: خرجنا به يا رسول الله من المدينة، قال جابر: وعندنا صاحب لنا نجهزه يذهب يرعى ظهرنا، قال: فجهزته ثم أدبر يذهب في الظهر، وعليه بُرْدَان له قد خَلَقَا، قال: فنظر رسول الله ﷺ إليه فقال: «أما له ثوبان غير هذين؟» فقلت: بلى يا رسول الله، له ثوبان في العَيْبَة كسوته إياهما، قال: فادعه فمره فليلبسهما، قال: فدعوته فلبسهما، ثم ولى يذهب قال: فقال رسول الله ﷺ: «ما له؟ ضرب الله عنقه! أليس هذا خيرًا له؟ قال: فسمعه الرجل، فقال: يا رسول الله في سبيل الله؟ فقال رسول الله ﷺ: في سبيل الله، قال: فقُتل الرجل في سبيل الله».(أخرجه مالك في الموطأ، كتاب اللباس ١).

وفي هذا المواقف ارتبط إنكاره ﷺ على هؤلاء بمدى قدرتهم، فسألهم هل يملكون سوى ذلك؟ لأن مجتمع النبي ﷺ كان مجتمع فقر وحاجة، فقد يكون هذا هو كل ما

يملكه الرجل، وقد قال ﷺ حين سأله أصحابه عن الصلاة في الثوب الواحد «أو لكلكم ثوبان؟». (أخرجه مسلم ٥١٥، وفي رواية البخاري ٣٦٥) «أو كلكم يجد ثوبين؟».

ومن كمال لطفه ﷺ وحسن تربيته وتوجيهه، أنه راعى مشاعر هذين الرجلين، فلم يصف حالهم وصفًا سيئًا؛ ففي الموقف الأول وجه الرجل لأن يظهر أثر نعمة الله عليه، وفي الموقف الثاني وجَّه أصحابه أن يأمروه بذلك.

٤. يهدي لأصحابه ما يتجملون به:

ومن تأكيده ﷺ على الاعتناء بالتجمل أنه كان يهدي لأصحابه رضوان الله عليهم، ويقسم عليهم مما أفاء الله عليه ما يتجملون به من اللباس.

عن المسور بن مخرمة رضي الله عنهما قال: قسم رسول الله ﷺ أَقْبِيَة، ولم يعطِ مخرمة منها شيئًا، فقال مخرمة: يا بني انطلق بنا إلى رسول الله ﷺ، فانطلقت معه فقال: ادخل فادعه لي، قال: فدعوته له فخرج إليه وعليه قَبَاء منها فقال: «خبأنا هذا لك» قال: فنظر إليه فقال: رضي مخرمة. (أخرجه البخاري ٢٥٩٩، ومسلم ١٠٥٨).

٥. كان ﷺ قدوة في الجمال:

لم يكن ﷺ ليأمر أصحابه وأمته بشيء وهو يخالفه، فقد جمع الله عز وجل له بين جمال الخَلْق والخُلُق، وبين رعايته ﷺ لأمور الجمال، ويصفه صاحبه أبو هريرة رضي الله عنه بقوله: «ما رأيت شيئًا أحسن من رسول الله ﷺ، كأن الشمس تجري في وجهه» (أخرجه أحمد ٨٩٤٣، والترمذي ٣٦٤٨).

ويقول عنه حسان بن ثابت رضي الله عنه:

وَأَحْسَنُ مِنْكَ لَمْ تَرَ قَطُّ عَيْنِي ... وَأَجْمَلُ مِنْكَ لَمْ تَلِدِ النِّسَاءُ

خُلِقْتَ مُبَرَّءًا مِنْ كُلِّ عَيْبٍ كَأَنَّكَ قَدْ خُلِقْتَ كَمَا تَشَاءُ

وجمع ﷺ مع جمال الخلق اعتناءه بالجمال وحسن المظهر.

عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما قال: لما خرجت الحرورية أتيت عليًّا رضي الله عنه، فقلت: آتي هؤلاء القوم، فلبست أحسن ما يكون من حُلل اليمن، قال أبو زميل: وكان ابن عباس رجلًا جميلًا جهيرًا، قال ابن عباس: فأتيتهم فقالوا: مرحبًا بك يا ابن عباس، ما هذه الحلة؟ قال: ما تعيبون عليَّ؟ لقد رأيت على رسول الله ﷺ أحسن ما يكون من الحُلَل. (أخرجه أبو داود ٤٠٣٧).

لقد جمع هؤلاء الغلاة بين الجهل وسوء الأدب مع صاحب رسول الله ﷺ وابن عمه، وهكذا فالغلو ينبت في مثل هذه البيئات، ويمثل سمة للشخصية، فلم يقف عند مجرد الغلو في الاعتقاد والتكفير؛ بل تجاوز ذلك إلى التعامل مع المظهر، فاعتقد هؤلاء أن التدين يقتضي رثاثة المظهر، والبعد عن الجمال والأناقة.

ويظهر من الرواية أن ابن عباس رضي الله عنهما أراد أن يظهر لهؤلاء هذا المعنى عمليًّا، فاختار هذه الحُلة الحسنة.

ويُحدِّث البراء بن عازب رضي الله عنه عن جمال النبي ﷺ فيقول: «ما رأيت أحدًا أحسن في حُلَّة حمراء من النبي ﷺ». (أخرجه البخاري ٥٩٠١، ومسلم ٢٣٣٧).

٦. أمره بالتجمل والتأكيد عليه:

كان ﷺ يأمر أصحابه بحسن اللباس، فأمرهم بلبس البياض من الثياب، وتكفين الموتى به.

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «البسوا من ثيابكم البياض؛ فإنها من خير ثيابكم، وكفنوا فيها موتاكم». (أخرجه الترمذي ٩٩٤، واللفظ له، وأبو داود ٣٨٧٨، وأحمد ٢٢١٩ بزيادات عليه، وابن ماجه ٣٥٦٦).

وعن سمرة ﷺ أن النبي ﷺ قال: «البسوا من ثيابكم البياض؛ فإنها أطهر وأطيب، وكفنوا فيها موتاكم». (أخرجه الترمذي ٢٨١٠، والنسائي ٥٣٢٢، وابن ماجه ٣٥٦٧، وأحمد ٢٠١٨٥ واللفظ للنسائي).

قال ابن بطال: «الثياب البيض من أفضل الثياب، وهو لباس الملائكة الذين نصروا النبي ﷺ يوم أحد وغيره، والرجلان اللذان كانا يوم أُحُد عن يمين النبي ﷺ وعن شماله كانا ملكين، والله أعلم، وكان ﷺ يلبس البياض ويفضله، ويحض على لباسه الأحياء، ويأمر بتكفين الأموات فيه». (شرح صحيح البخاري، لابن بطال ٩/ ١٠٤).

وقال الشوكاني: «والحديث يدل على مشروعية لبس البياض وتكفين الموتى به كونه أطهر من غيره وأطيب، أما كونه أطيب فظاهر، وأما كونه أطهر فلأن أدنى شيء يقع عليه يظهر، فيغسل إذا كان من جنس النجاسة فيكون نقيًا، كما ثبت عنه ﷺ في دعائه: «ونقني من الخطايا كما ينقى الثوب الأبيض من الدنس». (نيل الأوطار ٢/ ١١٦).

وقال ابن عثيمين: «فإن الثوب الأبيض خير من غيره من جهة الإضاءة والنور، ومن جهة أنه إذا اتسخ أدنى اتساخ ظهر فيه فبادر الإنسان إلى غسله، أما الثياب الأخرى فربما تتراكم فيها الأوساخ والإنسان لا يشعر بها ولا يغسلها، وإذا غسلها فلا يدري هل تنظف أم لا؟ فلهذا قال النبي عليه الصلاة والسلام: «إنها من خير ثيابكم، وكفنوا فيها موتاكم»، وهو شامل للبس الثياب البيض القمص والأزر والسراويل، كلها ينبغي أن تكون من البياض؛ فإنه أفضل». (شرح رياض الصالحين ٤/ ٢٧٠).

وكان ﷺ يلبس البياض، قال أبو ذر ﷺ: أتيت النبي ﷺ وعليه ثوب أبيض، وهو نائم، ثم أتيته وقد استيقظ، فقال: «ما من عبد قال: لا إله إلا الله، ثم مات على ذلك إلا دخل الجنة» قلت: وإن زنى وإن سرق؟ قال: «وإن زنى وإن سرق» قلت: وإن زنى وإن سرق؟ قال: «وإن زنى وإن سرق» قلت: وإن زنى وإن سرق؟ قال: «وإن زنى وإن سرق

على رغم أنف أبي ذر» وكان أبو ذر إذا حدث بهذا قال: وإن رغم أنف أبي ذر، قال أبو عبد الله: هذا عند الموت، أو قبله إذا تاب وندم، وقال: لا إله إلا الله، غفر له » (أخرجه البخاري ٥٨٢٧).

٧. الاعتدال في التجمُّل:

إن التربية الجمالية في المنهج النبوي لا تنفصل عن بناء الشخصية السَّويَّة؛ ومن هنا فقد اتسمت بالاعتدال.

فلم يأت الاهتمام بالتربية الجمالية على حساب القضايا الأخرى، وراعت حالة الإنسان، وملاءمة ما يصرفه وينفقه مع قدراته، فقد سأل ﷺ أولئك الذين لبسوا ما لا يليق عن حالهم قبل مطالبتهم بتحسين مظهرهم.

ومن معالم الاعتدال في هذا المجال ما يلي:

أ- النهي عن التزيُّن والتجمُّل بالحرام:

فقد نهى ﷺ عن مُشابهة لبس أهل الكفر، فحين رأى على أحد أصحابه ذلك أنكر عليه، عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال: رأى رسول الله ﷺ عليَّ ثوبين معصفرين، فقال: «إن هذه من ثياب الكفار، فلا تلبسها». (أخرجه مسلم ٢٠٧٧).

ومثَّل ﷺ القدوة العملية، فحين سترت عائشة رضي الله عنها الباب بسترة فيها صور؛ هتكها، وقال: «إن الله لَمْ يأمرنا أن نكسوَ الحجارة والطين». (أخرجه مسلم ٢١٠٧).

ب- النهي عن التزيُّن بما يؤدي للكِبر والخيلاء:

لا ينبغي أن يقود الاعتناء بالجمال إلى الكبر وما يؤدي إليه، فقد نهى ﷺ عن مظاهر الجمال التي تقود إلى الكِبر والخُيلاء، فنهى عن إسبال الثياب وإطالتها، عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «ما أسفل من الكعبين من الإزار ففي النار». (أخرجه البخاري ٥٧٨٧).

وتوعَّد ﷺ مَن فعل ذلك للخُيلاء والتكبر؛ فعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما، قال: قال رسول الله ﷺ: «مَن جرَّ ثوبه خُيلاء؛ لم ينظر الله إليه يوم القيامة»، فقال أبو بكر: إنَّ أحدَ شِقَّي ثَوْبي يَسْترْخِي، إلا أن أتعاهد ذلك منه؟، فقال رسول الله ﷺ: «إنك لست تصنع ذلك خُيلاء». (أخرجه البخاري ٣٦٦٥، وفي رواية لمسلم ٢٠٨٥)، عن ابن عمر رضي الله عنهما أنه رأى رجلًا يجرُّ إزاره، فقال: ممن أنت؟ فانتسب له، فإذا رجل مِن بني لَيْث، فعرفه ابن عمر، قال: سمعت رسول الله ﷺ بأذني هاتين، يقول: «مَن جرَّ إزاره لا يريد بذلك إلا المَخِيلَة؛ فإن الله لا ينظر إليه يوم القيامة».

وقد بيَّن ﷺ الارتباط بين إسبال الثياب والمَخِيلَة، فقال: «وإياك وإسبال الإزار؛ فإنها من المَخِيلَة وإن الله لا يحب المَخِيلَة». (أخرجه أبو داود ٤٠٨٤، وأحمد ١٦٦١٦).

ج. الحفاظ على خصوصية الرجل والمرأة:

خلق الله عز وجل كلًّا من الرجل والمرأة على طبيعة خاصة، واقتضت حكمته سبحانه تخصيص كل منهما بخصائص وسمات لا تليق بالآخر.

وصلاح حالهما تقتضي مراعاة هذه الطبيعة؛ لذا نهى ﷺ عن تشبُّه كل جنس بالآخر؛ فعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «لعن رسول الله ﷺ المُتشبهين من الرجال بالنساء، والمُتشبهات من النساء بالرجال». (أخرجه البخاري ٥٨٨٥).

كما نهى ﷺ الرجال عن التزيُّن والتجمُّل بما يخرجهم عن طبيعتهم، فنهاهم عن لبس الذهب والحرير، وجعلهما خاصين بالنساء.

د. الاعتدال والبعد عن الإسراف:

الاعتناء بالجمال قد يقود إلى المبالغة في الإنفاق والإسراف؛ لذا نهى ﷺ عن الإسراف في ذلك فقال: «كلوا، واشربوا، والبسوا، وتصدقوا، في غير إسراف، ولا مَخِيلَة». (أخرجه

البخاري تعليقًا، باب قول الله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ﴾، كتاب اللباس، وأخرجه النسائي ٢٥٥٩، وأحمد ٦٦٩٥، وابن ماجه ٣٦٠٥).

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: «كل ما شئت، والبس ما شئت، ما أخطأتك اثنتان: سرف، أو مَخِيلَة». (أخرجه البخاري تعليقًا، باب قول الله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ﴾، كتاب اللباس).

ونهى ﷺ أصحابه عن المبالغة في التجمُّل والتَّرفُّه، فعن عبد الله بن بريدة، أن رجلًا من أصحاب النبي ﷺ رحل إلى فضالة بن عبيد- وهو بمصر-، فقَدِمَ عليه، وهو يمد ناقة له، فقال: إني لم آتِكَ زائرًا، إنما أتيتك لحديث بلغني عن رسول الله ﷺ رجوت أن يكون عندك منه علم، فرآه شعثًا، فقال: ما لي أراك شعثًا، وأنت أمير البلد؟ قال: «إن رسول الله ﷺ كان ينهانا عن كثير من الإرفاه»، ورآه حافيًا، فقال: ما لي أراك حافيًا؟ قال: «إن رسول الله ﷺ أمرنا أن نحتفي أحيانًا». (أخرجه أحمد ٢٣٩٦٩، وأبو داود ٤١٦٠).

وأخرجه النسائي (٥٢٣٩): عن عبد الله بن بريدة، أن رجلًا من أصحاب النبي ﷺ يُقال له: عبيد قال: «إن رسول الله ﷺ كان ينهى عن كثير من الإرفاه»، سُئِلَ ابن بريدة عن الإرفاه، قال: «منه الترجُّل».

وبيَّن ﷺ أن التبسُّط في الزينة والملبس، وترك الترفع من الإيمان، عن أبي أُمامة رضي الله عنه، قال: ذكر أصحاب رسول الله ﷺ يومًا عنده الدنيا، فقال رسول الله ﷺ: «ألا تسمعون؟ ألا تسمعون؟ إن البَذَاذَةَ [1] من الإيمان، إن البَذَاذَةَ من الإيمان». (أخرجه أبو داود ٤١٦١، وأحمد ٢٤٠٠٩/٥٨، وابن ماجه ٤١١٨).

(١) قال الخطابي: «البذاذة سوء الهيئة والتجوز في الثياب ونحوهما، يقال رجل باذ الهيئة إذا كان رث الهيئة واللباس» (معالم السنن ٤/ ٢٠٨).

هـ . النهي عن تغيير خلق الله:

ومما يتنافى مع الاعتدال في الجمال: السعي إلى تغيير خلق الله عز وجل، فقد نهى ﷺ أُمَّته عن صور من التجمُّل، وعلَّل ذلك بتغيير خلق الله عز وجل.

ومن ذلك: نهيه ﷺ عن الوشم، ووصفه مَن يفعلن ذلك بالمُغَيِّرات لخلق الله عز وجل، عن علقمة، قال عبد الله رضي الله عنه: «لعن الله الواشمات، والمُستوشمات، والمُتنمِّصات، والمُتفلِّجات للحسن، المُغيِّرَات خلق الله تعالى»، مالي لا ألعن مَن لعن النبي ﷺ، وهو في كتاب الله: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ﴾ (الحشر: ٧). (أخرجه البخاري ٥٩٣١، ومسلم ٢١٢٥).

وفي رواية لمسلم: عن عبد الله، قال: «لعن الله الواشمات، والمُستوشمات، والنامصات، والمُتنمِّصات، والمُتفلِّجات للحسن، المُغَيِّرَات خلق الله»، قال: فبلغ ذلك امرأة من بني أسد يُقال لها: أُم يعقوب، وكانت تقرأ القرآن، فأتته فقالت: ما حديث بلغني عنك أنك لعنت الواشمات، والمُستوشمات، والمُتنمِّصات، والمُتفلِّجات للحسن، المُغَيِّرَات خلق الله، فقال عبد الله: «وما لي لا ألعن مَن لعن رسول الله ﷺ؟، وهو في كتاب الله»، فقالت المرأة: لقد قرأت ما بين لوحي المصحف فما وجدته، فقال: «لئن كنتِ قرأتيه لقد وجدتيه، قال الله عز وجل: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ﴾ (الحشر: ٧)»، فقالت المرأة: فإني أرى شيئًا من هذا على امرأتك الآن، قال: «اذهبي فانظري»، قال: فدخلت على امرأة عبد الله فلم تَرَ شيئًا، فجاءت إليه، فقالت: ما رأيت شيئًا، فقال: «أما لو كان ذلك لم نجامعها».

الإعداد للحياة الدنيوية

لماذا الإعداد للحياة الدنيوية؟

حين نتحدَّث عن التربية الإسلامية قد يتبادر إلى الذهن الاقتصار على الحديث عن جوانب الإيمان، والتقوى، والعبادات، والعلم الشرعي، وكل ما يتصل بتزكية النفس، والتعلق بالدار الآخرة، والتنفير من الدنيا، والزهد فيها، والحث على تركها، والاستغناء عنها، وهذا- لا شك- هو جوهر التربية، ولبُّها، وعمادها، والنبي ﷺ إنما جاء بتعبيد الناس لرب العالمين، وربطهم بخالقهم سبحانه وتعالى، وتزكية نفوسهم، وإصلاحها.

وفي المقابل لم يأتِ ﷺ بالصراع بين الدنيا والأخرة، فتصبح إقامة إحديهما على حساب الأخرى، بل جاء بإصلاح الدين والدنيا، ومن ذلك: إعداد المسلم للحياة الدنيا، وتنمية الاتجاهات والمهارات التي تعينه على أن يُحصِّل رزقه، ويتعامل بإيجابية مع واقعه الدنيوي.

ومما يؤكد على أهمية الإعداد للحياة المادية ما يلي:

١ - أنها جزء من مسؤولية الإنسان:

حَمَّل الله عز وجل الإنسان مسؤولية إصلاح شؤون دنياه؛ فهو مسؤول عن طلب رزقه، وعن تغذية نفسه، وحمايتها مما يضرها من برد، أو جوع، أو مرض.

وتمتد هذه المسؤولية إلى التفكير بمستقبله، ومستقبل أولاده، ومَن يعول، وقد أكَّد ﷺ هذا المعنى على أصحابه، فقال لسعد بن أبي وقاص ﷺ حين أراد أن يتصدَّق بثُلُثَي ماله: «إن تَذَرْ ورثتك أغنياء، خير مِن أن تَذَرهم عالة يتكفَّفون الناس». (أخرجه البخاري ١٢٩٥، ومسلم ١٦٢٨).

ودلالة هذا الحديث أعمُّ من حالة الوصية التي كانت سبب هذه المقولة، فهي تُؤكد على مسؤولية الإنسان عن تأمين الحياة الكريمة لِمَن يعول، ولنفسه من باب أولى؛ ولأن

يأخذ بالأسباب التي ترتقي بذريته وخبراتهم، وتسمو بهم عن حالة التكفُّف، و الحاجة للآخرين.

وعظَّم ﷺ إِثْمَ إضاعة الأولاد، فعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «كفى بالمرء إثمًا أن يضيع من يقوت». (أخرجه أحمد ٦٤٩٥، وأبو داود ١٦٩٢)، ومن صور الإضاعة: ضعف إعدادهم، وتأهيلهم لكسب الرزق والحياة الكريمة.

٢- تعقُّد الحياة الدنيوية:

كانت الحياة فيما مضى تتَّسم بقدر عالٍ من البساطة، يعيش الإنسان في مزرعته الصغيرة، أو باديته، أو محله التجاري، فيتيسر له من ذلك ما يقوت به نفسه وأولاده، يخرج إلى السوق؛ فيكسب قوته ببيع، أو شراء، أو عمل.

أما اليوم: فقد تعقدت فرص الكسب المادي، وصار حصول الفرد على عمل يتطلب قدرًا من التعليم، والتدريب، واكتساب المهارات، ثم قدرًا من الجهد في البحث عن العمل، وتطويرًا لنفسه ومهاراته فيما بعد؛ ليستقر في عمله، ويحافظ عليه، والمزارع صار بحاجه لجهد مضاعف لسقي زراعته، وحمايتها، وتسويق منتجاته بعد ذلك.

وفي مقابل تعقُّد فرص الاكتساب؛ تعقدت التكاليف، وزادت المصارف، فيومًا بعد آخر ترتفع تكاليف المعيشة، وتزداد مطالب الحياة الكريمة، فما يكفي الإنسان قبل عشر سنوات لم يعد اليوم يكفي إلا جزءًا من متطلبات معيشته.

وهذا التعقُّد في مطالب الحياة الدنيوية ترك أثره على التربية؛ فأضاف مطالب تربوية جديدة، وحمَّلها مسؤولية بناء اتجاهات، وإكساب معارف ومهارات تعين المتربي على تحقيق مطالب حياته الدنيوية.

٣- ارتباط العمل الدنيوي بأمور عدة في شخصية الإنسان:

العمل الدنيوي لم يعد مُجرَّد وسيلة لاكتساب الإنسان لرزقه، بل يمتدُّ تأثيره لجوانب عِدَّة في حياته.

فالإنسان ليس كسائر المخلوقات ينتهي هَمُّه الدنيوي عند تحصيل قوت يومه؛ فكثير من متطلبات حياته من ضرورات، وحاجيات، وتحسينات ترتبط بدخله وما يكتسبه؛ فنوع التعليم الذي يتَّجِهُ إليه ومستواه، والسكن الملائم، وسن الزواج، وتعدُّد فرصه، ورعايته لأولاده... إلخ، كل ذلك يتأثر بعمله الدنيوي بشكل واضح، فضلًا عن ثقافته، وطريقة تفكيره؛ فثقافة العمالة متدنِّية الخبرة- على سبيل المثال- تختلف عن الفنِّيِّين، والمهندسين، والمُعلمين، وأعضاء هيئة التدريس... إلخ.

وهذا يُضيف بُعدًا آخر في أهمية اعتناء التربية بالإعداد للحياة المادية.

٤- واقع العالم الإسلامي:

يُعاني العالم الإسلامي اليوم من ضعف مُتَناهٍ في كثير من مجالات الحياة، فالأُمَّة الإسلامية- علاوة على ضعفها في دينها- تُعاني ضعفًا اقتصاديًّا؛ جعلها عالة على غيرها من أمم الشرق والغرب، وحتى الدول الإسلامية الغنية معظمها تعاني من اقتصاد هَشٍّ، فاقتصادها في الغالب ريعي يعتمد على مصادر طبيعية للدخل: كالنفط الخام، والمعادن، ولا تتزامن معه قوة اقتصادية حقيقية مُنتجة.

والتغيير في الأُمَّة يتطلَّب ارتقاءً بجوانب الحياة المادية، وتغييرًا في بناء الفرد وإعداده بما يؤهله للمشاركة في إحداث النهضة.

وفي كثير من الدول الإسلامية الناطقة بغير العربية ينتمي عدد غير قليل من الدعاة، وطلاب العلم إلى فئات محدودة الدخل، والفرص الوظيفية؛ مما حوَّل الدعوة عند بعضهم

إلى مصدر للرزق، وجعلهم عالة على أهل البذل واليسار، والمؤسسات الخيرية والدعوية.

ما سبق يؤكد على أهمية اعتناء ينمية القدرة على القدرة التكسب وحسن التعامل مع مطالب الحياة المادية.

المنهج النبوي في الإعداد للحياة الدنيوية:

المنهج التربوي النبوي في الإعداد للحياة الدنيا منهجٌ متكاملٌ متوازنٌ، لم يُهمل ﷺ شأن الدنيا والاكتساب، ولم يعلِّق أصحابه بالدنيا على حساب الآخرة.

وفيما يلي بعض معالم المنهج النبوي في الإعداد للحياة الدنيوية:

١- تكوين الاتجاه الإيجابي نحو العمل:

الاتجاه قوة دافعة، ومطلب ضروري لأي عمل، فلن ينطلق المرء للعمل ما لم يحمل اتجاهًا إيجابيًّا نحوه، والذين لا يرون في الدنيا إلا أنها مُجرَّد رجس وقذارة، وأن الاكتساب ملهاة، وانصراف عن الآخرة والطاعة، هؤلاء لا يُتوقَّع منهم أن يعتنوا بالكسب والعمل.

لذا؛ فقد كان ﷺ يُوجه أصحابه للعمل والكسب المباح، مُبيِّنًا لهم أنه خير من الاتِّكال على الآخرين؛ فعن الزبير بن العوام ﷺ، عن النبي ﷺ قال: «لأَنْ يأخذ أحدكم حبله، فيأتي بحزمة الحطب على ظهره، فيبيعها، فيكُفَّ الله بها وجهه خيرٌ له مِن أن يسأل الناس، أعطوه، أو منعوه». (أخرجه البخاري ١٤٧١).

وعن أبي هريرة ﷺ، عن النبي ﷺ قال: «لأَنْ يأخذ أحدكم حبله، ثم يغدو- أحسبه قال: إلى الجبل- فيحتطب، فيبيع، فيأكل ويتصدق، خير له من أن يسأل الناس». (أخرجه البخاري ١٤٨٠، ومسلم ١٠٤٢).

٢- تأصيل العبودية في طلب الرزق:

أكَّد ﷺ على أصحابه مِرارًا أن نفقة المرء على أهله صدقة، والإنفاق على الأهل والأولاد من أكثر ما يبعث الإنسان على الاجتهاد في طلب الرزق، وحين يستقر في حِسِّ المسلم أن الإنفاق على الأهل والذرية باب من أبواب الصدقة؛ فإن هذا يُحفِّزه على الاجتهاد في الكسب، وطلب الرزق.

بل إن النبي ﷺ عدَّهُ من أفضل أبواب الصدقة، فعن ثوبان ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «أفضل دينار يُنفقه الرجل: دينار ينفقه على عِياله، ودينار ينفقه الرجل على دابَّته في سبيل الله، ودينار يُنفقه على أصحابه في سبيل الله»، قال أبو قلابة: وبدأ بالعِيال، ثم قال أبو قلابة: وأي رجل أعظم أجرًا، من رجل يُنفق على عِيال صِغار، يعفُّهم، أو ينفعهم الله به، ويغنيهم. (أخرجه مسلم ٩٩٤).

وعن كعب بن عجرة ﷺ قال: مرَّ على النبي ﷺ رجلٌ، فرأى أصحاب النبي ﷺ من جَلَدِه، ونشاطه ما أعجبهم، فقالوا: يا رسول الله، لو كان هذا في سبيل الله، فقال رسول الله ﷺ: «إن كان خرج يسعى على ولده صغارًا؛ فهو في سبيل الله، وإن خرج يسعى على أبَوَيْن شيخين كبيرين؛ فهو في سبيل الله، وإن كان يسعى على نفسه يُعفُّها؛ فهو في سبيل الله، وإن كان خرج رياءً وتفاخرًا؛ فهو في سبيل الشيطان». (أخرجه الطبراني في الأوسط ٦٨٣٥، والصغير ٩٤٠، والبيهقي في شعب الإيمان ٨٣٣٧).

ووجَّه ﷺ أصحاب الحاجة حين يجدون المال إلى أن يبدؤوا بأنفسهم وأهليهم، عن جابر ﷺ قال: أعتق رجلٌ من بني عذرة عبدًا له عن دُبُر، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فقال: «أَلَكَ مالٌ غيره؟»، فقال: لا، فقال: «مَن يشتريه مِنِّي؟»، فاشتراه نعيم بن عبد الله العدوي بثمانمائة درهم، فجاء بها رسول الله ﷺ فدفعها إليه، ثم قال: «ابدأ بنفسك،

فتصدق عليها، فإن فَضَلَ شيء فلِأَهْلك، فإن فَضَلَ عن أهلك شيء فلِذِي قرابتك، فإن فَضَلَ عن ذي قرابتك شيء فهكذا وهكذا»، يقول: فبين يديك، وعن يمينك، وعن شمالك. (أخرجه مسلم ٩٩٧).

ويُؤكد ﷺ على احتساب النية في الإنفاق على الأهل؛ فعن أبي مسعود البدري ﵁ عن النبي ﷺ قال: «إن المسلم إذا أنفق على أهله نفقة، وهو يحتسبها؛ كانت له صدقة». (أخرجه مسلم ١٠٠٢).

وحين يجتمع لدى الإنسان الدافع الفطري الغريزي، والدافع الشرعي، ويعلم أنه مأجور على كسبه ونفقته على أولاده؛ فإن هذا يحفزه أكثر على الكسب والسعي في تحصيل ما ينفق به على نفسه وأولاده.

ولا يقتصر الأجر بالإنفاق على مَن تجب له النفقة، فقد بيَّن ﷺ لأصحابه أن زوج المرأة، وعيالها أحق بصدقتها؛ فعن أبي سعيد الخدري ﵁ قال: خرج رسول الله ﷺ في أضحى، أو فطر إلى المُصلَّى، ثم انصرف، فوعظ الناس، وأمرهم بالصدقة، فقال: «أيها الناس، تصدَّقُوا»، فمرَّ على النساء، فقال: «يا معشر النساء، تَصَدَّقْنَ، فإني رأيتُكُنَّ أكثرَ أهل النار»، فقُلْنَ: وَبِمَ ذلك يا رسول الله؟ قال: «تُكْثِرْنَ اللعن، وتَكْفُرن العشير، ما رأيت من ناقصات عقل ودين، أذهب لِلُبِّ الرجل الحازم من إحداكُنَّ، يا معشر النساء»، ثم انصرف، فلما صار إلى منزله، جاءت زينب امرأة ابن مسعود تستأذن عليه، فقيل: يا رسول الله، هذه زينب، فقال: «أَيُّ الزَّيَانِب؟»، فقيل: امرأة ابن مسعود، قال: «نعم، ائذنوا لها»، فأذن لها، قالت: يا نبي الله، إنك أمرت اليوم بالصدقة، وكان عندي حُلِيٌّ لي، فأردت أن أتصدق به، فزعم ابن مسعود: أنه وولده أحق مَن تصدَّقت به عليهم، فقال النبي ﷺ: «صدق ابن مسعود: زوجك، وولدك أحق مَن تصدقت به عليهم». (أخرجه البخاري ١٤٦٢).

ولم يكن الأمر خاصًّا بابن مسعود ﷺ؛ ففي حديث زينب ﵁ أنها جاءت، ومعها امرأة من الأنصار، فعن زينب امرأة عبد الله، قالت: قال رسول الله ﷺ: «تَصدَّقْنَ يا معشر النساء، ولو من حُلِيِّكُنَّ»، قالت: فرجعت إلى عبد الله، فقلت: إنك رجل خفيف ذات اليد، وإن رسول الله ﷺ قد أمرنا بالصدقة، فأْتِه فاسأله، فإن كان ذلك يُجزي عنِّي، وإلا صرفتها إلى غيركم، قالت: فقال لي عبد الله: بل ائْتِيه أنت، قالت: فانطلقت، فإذا امرأة من الأنصار بباب رسول الله ﷺ حاجتي حاجتها، قالت: وكان رسول الله ﷺ قد أُلقيت عليه المهابة، قالت: فخرج علينا بلال، فقلنا له: ائْتِ رسول الله ﷺ، فأخبره أن امرأتين بالباب تسألانك: أتُجزئ الصدقة عنهما على أزواجهما، وعلى أيتام في حجورهما؟، ولا تخبره مَن نحن، قالت: فدخل بلال على رسول الله ﷺ فسأله، فقال له رسول الله ﷺ: «مَن هما؟» فقال: امرأة من الأنصار، وزينب، فقال رسول الله ﷺ: «أَيُّ الزَّيَانِب؟»، قال: امرأة عبد الله، فقال له رسول الله ﷺ: «لهما أجران: أجر القرابة، وأجر الصدقة». (أخرجه البخاري ١٤٦٦، ومسلم ١٠٠٠، واللفظ له).

٣- الحثُّ على الكسب للإنفاق في الخير:

ولا يقف دافع الكسب والعمل عند مُجرَّد تحصيل القُوت، ورعاية الأهل والأولاد، بل يُوجِّه ﷺ أصحابه إلى الاكتساب من أجل الصدقة، والإنفاق في وجوه الخير؛ فعن سعيد بن أبي بردة، عن أبيه، عن جده، عن النبي ﷺ قال: «على كلِّ مسلم صدقةٌ»، فقالوا: يا نبي الله، فمَن لم يجد؟ قال: «يعمل بيده، فينفع نفسه، ويتصدق»، قالوا: فإن لم يجد؟ قال: «يُعين ذا الحاجة الملهوف»، قالوا: فإن لم يجد؟ قال: «فليعمل بالمعروف، وليُمسك عن الشَّرِّ؛ فإنها له صدقة». (أخرجه البخاري ١٤٤٥، ومسلم ١٠٠٨).

ويحث ﷺ أصحابه على أن تعلو همتهم؛ ليكونوا مُنفقين مُعطين بدلًا ممن يأخذ، ويسأل الناس، عن أبي هريرة ﵁، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لأَنْ يغدو أحدكم،

فيحطب على ظهره، فيتصدق به، ويستغني به من الناس، خيرٌ له من أن يسأل رجلًا، أعطاه، أو منعه ذلك؛ فإن اليد العُليا أفضل من اليد السُّفلى، وابدأ بمَن تعول». (أخرجه مسلم ١٠٤٢).

وليس الأمر خاصًّا بالرجال؛ فهو ﷺ يُوجِّه المرأة إلى أن تعتنيَ بحقلها، وتعمل فيه لتتصدق؛ فعن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال: طُلِّقَت خالتي، فأرادت أن تَجُدَّ نخلها، فزجرها رجل أن تخرج، فأتت النبي ﷺ، فقال: «بلى، فجُدِّي نخلك، فإنك عسى أن تصدَّقي، أو تفعلي معروفًا». (أخرجه مسلم ١٤٨٣).

٤- إبراز القدوة من سِيَرِ الأنبياء:

حدَّث ﷺ أصحابه عن الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم، واعتنائهم بالكسب من عمل أيديهم، فبيَّن لهم ﷺ أن داود عليه السلام كان يأكل مِن عمل يده، وذكر ذلك في سياق الحثِّ على التكسُّب، فعن المقدام رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قال: «ما أكَلَ أحدٌ طعامًا قطُّ خيرًا من أن يأكل من عمل يده، وإن نبي الله داود عليه السلام كان يأكل من عمل يده». (أخرجه البخاري ٢٠٧٢).

وأخبر ﷺ عن عمل طائفة من الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «كان زكريَّا نجَّارًا». (أخرجه مسلم ٢٣٧٩).

بل أخبر ﷺ أن كُلَّ الأنبياء قد رعوا الغنم؛ فعن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «ما بعث الله نبيًّا إلا رَعَى الغنم»، فقال أصحابه: وأنت؟ فقال: «نعم، كنت أرعاها على قراريطَ لأهل مكة». (أخرجه البخاري ٢٢٦٢).

وجاء في كتاب الله عز وجل في قصة موسى عليه السلام أنه رعى سنوات؛ لتحصيل مهر الزواج، فقال سبحانه: ﴿قَالَ إِنِّيٓ أُرِيدُ أَنۡ أُنكِحَكَ إِحۡدَى ٱبۡنَتَيَّ هَٰتَيۡنِ عَلَىٰٓ أَن تَأۡجُرَنِي ثَمَٰنِيَ حِجَجٖ

فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٢٧﴾ قَالَ ذَٰلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا ٱلْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَٰنَ عَلَيَّ وَٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴿٢٨﴾ فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِۦٓ ءَانَسَ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓا۟ إِنِّيٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾ (القصص: ٢٧ - ٢٩).

كما أخبر القرآن عن أن الأنبياء قد مارسوا العمل المادي؛ لنفع قومهم، فقال عن داود عليه السلام: ﴿وَعَلَّمْنَٰهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّنۢ بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنتُمْ شَٰكِرُونَ﴾ (الأنبياء: ٨٠).

وفي موضع آخر أخبر عن داود وسليمان عليهما السلام بقوله: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًا يَٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ ﴿١٠﴾ أَنِ ٱعْمَلْ سَٰبِغَٰتٍ وَقَدِّرْ فِى ٱلسَّرْدِ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١﴾ وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ وَأَسَلْنَا لَهُۥ عَيْنَ ٱلْقِطْرِ وَمِنَ ٱلْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٢﴾ يَعْمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ وَتَمَٰثِيلَ وَجِفَانٍ كَٱلْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَٰتٍ ٱعْمَلُوٓا۟ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ﴾ (سبأ: ١٠ - ١٣).

ولا شك أن من أعظم ما يُحفِّز المسلم على الكسب والعمل: معرفته بهدي الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم، وأنهم كانوا يعملون بأيديهم؛ ليكتسبوا، ويتعفَّفوا عما في أيدي الآخرين.

٥- عدم إعطاء القادر على العمل من الصدقة:

يشترط النبي ﷺ فيمن تحل له الصدقة ألا يكون قادرًا على العمل؛ فعن عبيد الله بن عدي بن الخيار ﷺ أن رجلين حدَّثاه أنهما أَتَيا رسول الله ﷺ يسألانه من الصدقة، فقلَّب فيهما البصر- وقال محمد: بَصَرَهُ-، فرآهما جَلْدَيْنِ، فقال رسول الله ﷺ: «إن شئتما، ولا حظَّ فيها لغنيٍّ، ولا لقويٍّ مكتسب». (أخرجه النسائي ٢٥٩٨، وأبو داود ١٦٣٣، وأحمد ١٧٥١١).

إنَّ منع القادر على العمل مِن أخذ الصدقة فيه تحفيز له على العمل، وعلى الاجتهاد في الكسب، وطلب الرزق.

٦- تكوين الاتجاه السلبي نحو السؤال، وتكفُّف الناس:

لما كان سؤال الناس من أعظم ما يمنع صاحبه عن الكسب وطلب الرزق؛ فقد نهاهم ﷺ عن السؤال، وعظَّم أمره، وحذَّر منه، فعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: قال النبي ﷺ: «ما يزال الرجل يسأل الناس، حتى يأتي يوم القيامة ليس في وجهه مُزْعَة لحم». (أخرجه البخاري ١٤٧٥، ومسلم ١٠٤٠).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «مَن سأل الناس أموالهم تَكَثُّرًا، فإنما يسأل جمرًا، فليستقِلَّ، أو ليستكْثِر». (أخرجه مسلم ١٠٤١).

ويُبيِّن لهم ﷺ أن السؤال، واستجداء الناس لا يُحقق لهم ما يُريدون من الغِنَى؛ فعن أبي كبشة الأنماري رضي الله عنه أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «ثلاثة أقسم عليهن، وأُحدثكم حديثًا، فاحفظوه»، قال: «ما نقص مال عبدٍ من صدقة، ولا ظُلم عبد مظلمة، فصبر عليها؛ إلا زاده الله عِزًّا، ولا فتح عبد بابَ مسألة؛ إلا فتح الله عليه باب فقر- أو كلمة نحوها-». (أخرجه الترمذي ٢٣٢٥، وأحمد ١٨٠٣١).

وحين أتاه ﷺ أحد أصحابه سائلًا، بيَّن له ﷺ مَن الذي يحلُّ لهم سؤال الناس؛ فعن قبيصة بن مخارق الهلالي، قال: تحمَّلت حَمَالَةً، فأتيت رسول الله ﷺ أسأله فيها، فقال: «أقم حتى تأتينا الصدقة، فنأمر لك بها»، قال: ثم قال: «يا قبيصة، إن المسألة لا تحلُّ إلا لأحد ثلاثة: رجل تحمَّل حَمَالَة، فحلَّت له المسألة حتى يصيبها، ثم يمسك، ورجل أصابته جائحة اجتاحت ماله، فحلَّت له المسألة حتى يصيب قوامًا من عيش- أو قال سدادًا من عيش-، ورجل أصابته فاقة حتى يقوم ثلاثة من ذوي الحِجَا من قومه: لقد أصابت

فلانًا فاقة، فحلَّت له المسألة حتى يصيب قوامًا من عيش- أو قال سدادًا من عيش-، فما سواهن من المسألة يا قبيصة سُحتٌ، يأكلها صاحبها سُحتًا». (أخرجه مسلم ١٠٤٤).

وبيَّن ﷺ القَدْر الذي لا يحل لمن امتلكه أن يسأل؛ فعن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: «مَن سأل وله ما يغنيه؛ جاءت يوم القيامة خموش، أو خدوش، أو كدوح في وجهه»، فقال: يا رسول الله، وما الغِنَى؟، قال: «خمسون درهمًا، أو قيمتها من الذهب». (أخرجه أبو داود ١٦٢٦، والترمذي ٦٥٠، والنسائي ٢٥٩٢، وابن ماجه ١٨٤٠).

٧- التوجيه إلى مجالات العمل:

ووجَّه ﷺ أصحابه إلى مجالات العمل؛ فعن جميع بن عمير، عن خاله، قال: سُئِلَ النبي ﷺ: عن أفضل الكسب، فقال: «بيع مبرور، وعمل الرجل بيده». (أخرجه أحمد ١٥٨٣٦).

وأذن ﷺ في أخذ الأجر على تعليم القرآن الكريم، فعن ابن عباس رضي الله عنهما، عن النبي ﷺ أنه قال: «إن أحقَّ ما أخذتم عليه أجرًا كتاب الله». (أخرجه البخاري ٥٧٣٧).

ووجَّه أصحابه إلى الاحتطاب- كما سبق في حديث أبي هريرة، والزبير رضي الله عنهم- والاحتطاب ليس مقصودًا لذاته؛ إنما لكونه وسيلة متاحة في عصره ﷺ لا تتطلب رأس مال، ولا مهارات خاصة، ونظائرها في عصرنا اليوم مختلفة، والله أعلم.

٨- إعانة أصحابه على فتح مجالات العمل:

لم يكتف ﷺ بتوجيه أصحابه إلى المجالات المناسبة للعمل والكسب، بل كان يعين أصحابه على فتح باب العمل، وربما ساعدهم ﷺ بيده الشريفة، فقد رُوِي عن أنس بن مالك رضي الله عنه أن رجلًا من الأنصار أتى النبي ﷺ يسأله، فقال: «أما في بيتك شيء؟»، قال: بلى، حِلس نلبس بعضه، ونبسط بعضه، وقعب نشرب فيه من الماء، قال: «ائتني بهما»،

قال: فأتاه بهما، فأخذهما رسول الله ﷺ بيده، وقال: «مَن يشتري هذين؟»، قال رجل: أنا، آخذهما بدرهم، قال: «مَن يزيد على درهم مرتين، أو ثلاثًا»، قال رجل: أنا آخذهما بدرهمين، فأعطاهما إياه، وأخذ الدرهمين، وأعطاهما الأنصاري، وقال: «اشْتَرِ بأحدهما طعامًا، فانبذه إلى أهلك، واشتر بالآخر قدومًا فأتني به»، فأتاه به، فشدَّ فيه رسول الله ﷺ عودًا بيده، ثم قال له: «اذهب، فاحتطب، وَبِعْ، ولا أرينَّك خمسة عشر يومًا»، فذهب الرجل يحتطب ويبيع، فجاء، وقد أصاب عشرة دراهم، فاشترى ببعضها ثوبًا، وببعضها طعامًا، فقال رسول الله ﷺ: «هذا خير لك من أن تجيء المسألة نكتة في وجهك يوم القيامة، إن المسألة لا تصلح إلا لثلاثة: لذي فقر مدقع، أو لذي غرم مفظع، أو لذي دم موجع. «(أخرجه أبو داود ١٦٤١، وابن ماجه ٢١٩٨).

٩- تنمية الجانب المعنوي:

التربية النبوية، وهي تُوجِّه الناس إلى الاكتساب، والعمل، وطلب الرزق ليست تربية مادية تتعلق بالدنيا وحدها؛ لذا كان ﷺ يُؤكِّد على الجانب المعنوي في الاكتساب؛ فيُؤكِّد على البركة في الكسب، ويُخبرهم أن المال المُكتسَب من الإلحاف في المسألة منزوع البركة، فعن معاوية ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تلحفوا في المسألة، فوالله لا يسألني أحد منكم شيئًا، فتخرج له مسألته مِنِّي شيئًا، وأنا له كاره، فيبارك له فيما أعطيته». (أخرجه مسلم ١٠٣٨).

ونزع البركة ليس قاصرًا على حال السؤال، بل العمل والكسب المشروع تلحقه البركة حين يلتزم صاحبه الصدق، وإتيان ما أمر الله عز وجل به من البيان، وتجنب الغش والخداع، وتُنزع بركته حين يُلابسه الكذب، والخداع.

عن حكيم بن حزام ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «البيِّعان بالخيار ما لم يتفرقا،- أو قال: حتى يتفرقا-، فإن صدَّقا وبيَّنا؛ بُورك لهما في بيعهما، وإن كتما وكذَبَا؛ محقت بركةُ بيعهما». (أخرجه البخاري ٢٠٧٩، ومسلم ١٥٣٢).

وإيمان المسلم بأن مِن الكسب والمال ما فيه بركة وخير، وفيه ما لا بركة فيه؛ يُزكِّي نفسه، ويُربِّيه على تحري الصدق، والبحث عن الحلال، والكسب الطيب، ويصرفه عن التعلُّق بمصادر الكسب أيًّا كانت.

كما أن له أثرَه في أسواق المسلمين وتجارتهم؛ فهي ليست تنافسًا محمومًا على الدنيا، ولا لهاثًا وراء الدرهم والدينار، ومن هنا؛ فالمُتاجرة بما ينشر الفساد والرذيلة، أو يخرق سياج الديانة سبب من أسباب نزع البركة، وأحرى بأن يكون توظيف الإعلان، والدعاية لحفز الفقراء والمحتاجين إلى الإنفاق الاستهلاكي المُضرِّ بهم بابًا من أبواب نزع البركة.

إن هذا المعنى ضعيف الحضور في الخطاب التربوي؛ فهو في الأغلب- في حديثه عن الدنيا- إما أن يتناول ذمَّها، والتزهيد فيها- وهو حق، لكنه يحتاج إلى الاعتدال في تناوله-، أو أن يتناول الحثَّ على البحث عنها، والتنافس فيها، ويكثر هذا اللون من الحديث عند مَن يعتنون بالتنمية البشرية بحكم أن هذا المجال مُتأثر كثيرًا بالفكر الغربي، ونظرته للدنيا.

١٠- ربط القلوب بالله:

مع أمره ﷺ بالكسب والعمل، وحثِّه على بذل الأسباب المادية في ذلك، فقد كان يُؤكِّد على ربط القلوب بالله عز وجل، وأن الرزق من عنده سبحانه وتعالى.

ويُبيِّن لأصحابه أن الإيمان، وأعمال القلوب من أعظم أسباب الرزق؛ فعن عمر بن الخطاب ﷺ أنه سمع نبي الله ﷺ يقول: «لو أنكم تتوكَّلُون على الله حقَّ توكُّله؛ لرزقكم كما يرزق الطير، تغدو خماصًا، وتروح بطانًا». (أخرجه أحمد ٢٠٥، والترمذي ٢٣٤٤، وابن ماجه ٤١٦٤).

١١- تنمية الاعتدال في التعامل مع الدنيا:

لما كانت النفوس مجبولة على حب الدنيا، والسعي إليها؛ فإنه ﷺ يربي أصحابه على الاعتدال في الكسب وطلب الدنيا، ومن صور ذلك ما يلي:

أ- التربية على القناعة:

يُؤكِّد النبي ﷺ على أصحابه الأخذ بمبدأ القناعة، وألا يكون الإنسان شَرِهًا لا يرضيه شيء؛ عن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قال: «إذا نظر أحدكم إلى مَن فُضِّل عليه في المال والخلق، فلينظر إلى مَن هو أسفل منه». (أخرجه البخاري ٣٤٩٠، ومسلم ٢٩٦٣).

ويُبيِّن ﷺ أن القناعة سبب لفلاح صاحبها، عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «قد أفلح مَن أسلم، ورزق كفافًا، وقنَّعه الله بما آتاه». (أخرجه مسلم ١٠٥٤).

ويُخبر أن مَن حازوا القناعة؛ فقد حازوا ما يستحقون عليه الثناء، عن فضالة بن عبيد رضي الله عنه أنه سمع رسول الله ﷺ قال: «طُوبَى لمن هُدِي إلى الإسلام، وكان عيشه كفافًا، وقنع». (أخرجه الترمذي ٢٣٤٩، وأحمد ٢٣٤٢٦).

وتعلَّم منه أصحابه رضوان الله عليهم الاستعاذة بالله من شَرَهِ النفس، وعدم شبعها، عن زيد بن أرقم رضي الله عنه قال: لا أقول لكم إلا كما كان رسول الله ﷺ يقول، كان يقول: «اللهم إني أعوذ بك من العجز والكسل، والجبن، والبخل، والهرم، وعذاب القبر، اللهم آتِ نفسي تقواها، وزَكِّها، أنت خير مَن زكَّاها، أنت وليها ومولاها، اللهم إني أعوذ بك من علمٍ لا ينفع، ومن قلبٍ لا يخشع، ومن نفسٍ لا تشبع، ومن دعوةٍ لا يُستجاب لها». (أخرجه مسلم ٢٧٢٢).

ويحثُّهم ﷺ على القناعة، وتعليم الناس إيَّاها، فعن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «مَن يأخذ عنِّي هؤلاء الكلمات، فيعمل بهن، أو يُعلِّم مَن يعمل بهن؟»، فقال أبو هريرة: فقلت: أنا يا رسول الله، فأخذ بيدي فعدَّ خمسًا، وقال: «اتَّقِ المحارم؛ تكن أعبد الناس، وارْضَ بما قسم الله لك؛ تكن أغنى الناس، وأحْسِنْ إلى جارك؛ تكن مُؤمنًا، وأحِبَّ للناس ما تحب لنفسك؛ تكن مُسلمًا، ولا تُكثر الضَّحِك؛ فإن كثرة الضحك تُميت القلب». (أخرجه الترمذي ٢٣٠٥، وأحمد ٨٠٣٤).

ب- التربية على الكفاف:

يحثُّ ﷺ أصحابه على القناعة، وطلب الكفاف؛ فعن عبد الله بن عمرو بن العاص ﵄ أن رسول الله ﷺ قال: «قد أفلح مَن أسلم، ورُزق كفافًا، وقنَّعه الله بما آتاه». (أخرجه مسلم ١٠٥٤).

ويحثُّ ﷺ على الصبر على حال الكفاف، ويُثني على صاحبه؛ فعن أبي أُمامة ﷺ، عن النبي ﷺ قال: «إن أغبط أوليائي عندي لَمؤمن خفيف الحاذ، ذو حظٍّ من الصلاة، أحسنَ عبادةَ ربِّه، وأطاعه في السر، وكان غامضًا في الناس لا يشار إليه بالأصابع، وكان رزقه كفافًا، فصبر على ذلك». (أخرجه الترمذي ٢٣٤٧، وأحمد ٢١٦٩٣).

ج- التربية على التعفُّف والاستغناء:

يُربِّي ﷺ أصحابه على التعفُّف والاستغناء، مُبيِّنًا أن الجزاء من جنس العمل، وأن هذا سبب لإعفاف صاحبه وإغنائه، عن حكيم بن حزام ﷺ، عن النبي ﷺ قال: «اليد العُليا خير من اليد السفلى، وابدأ بمَن تعول، وخير الصدقة عن ظهر غِنى، ومَن يستعفف يُعفُّه الله، ومَن يستغنِ يُغْنِه الله». (أخرجه البخاري ١٤٢٨، ومسلم ١٠٣٤).

وعن أبي سعيد الخدري ﷺ أن ناسًا من الأنصار سألوا رسول الله ﷺ فأعطاهم، ثم سألوه، فأعطاهم، ثم سألوه، فأعطاهم حتى نفد ما عنده، فقال: «ما يكون عندي من خير، فلن أدَّخِرَه عنكم، ومَن يستعفف يُعفُّه الله، ومَن يستغنِ يُغنِه الله، ومن يتصبَّر يُصبِّره الله، وما أُعْطِيَ أحد عطاء خيرًا وأوسع من الصبر». (أخرجه البخاري ١٤٦٩، ومسلم ١٠٥٣).

د- التحذير من التنافس في الدنيا:

حذَّر ﷺ أصحابه من التنافس في الدنيا، والتسابق فيها؛ فعن أبي سعيد الخدري ﷺ: أن النبي ﷺ جلس ذات يوم على المنبر، وجلسنا حوله، فقال: «إنِّي مما أخاف عليكم من بعدي، ما يُفتح عليكم من زهرة الدنيا وزينتها»، فقال رجل: يا رسول الله، أَوَيَأْتِي الخير بالشَّرِّ؟، فسكت النبي ﷺ فقيل له: ما شأنك؟ تُكلِّم النبي ﷺ ولا يُكلِّمك؟ فرأينا أنه ينزل عليه؟ قال: فمسح عنه الرُّحَضَاء، فقال: «أين السائل؟»- وكأنه حمده-، فقال: «إنه لا يأتي الخير بالشر، وإن مما ينبت الربيع يقتل أو يُلِم، إلا آكلة الخضراء، أكلت حتى إذا امتدت خاصرتاها، استقبلت عين الشمس، فثلطت، وبالت، ورتعت، وإن هذا المال خضرة حلوة، فنعم صاحب المسلم ما أعطى منه المسكين، واليتيم، وابن السبيل- أو كما قال النبي ﷺ-، وإنه مَن يأخذه بغير حقِّه، كالذي يأكل، ولا يشبع، ويكون شهيدًا عليه يوم القيامة». (أخرجه البخاري ١٤٦٥، ومسلم ١٠٥٢).

وحين رأى ﷺ حرص أصحابه على المال ضَحِك، ثم حذَّرهم من التنافس في الدنيا، عن عمرو بن عوف الأنصاري ﷺ أن رسول الله ﷺ بعث أبا عبيدة بن الجرَّاح إلى البحرين يأتي بجزيتها، وكان رسول الله ﷺ هو صالح أهل البحرين، وأمَّر عليهم العلاء بن الحضرمي، فقَدِمَ أبو عبيدة بمال من البحرين، فسمِعَتِ الأنصار بقدوم أبي عبيدة، فوافت صلاة الصبح مع النبي ﷺ، فلما صلَّى بهم الفجر انصرف، فتعرَّضوا له، فتبسَّم

رسول الله ﷺ حين رآهم، وقال: «أظنكم قد سمعتم أن أبا عبيدة قد جاء بشيء؟»، قالوا: أجل يا رسول الله، قال: «فأبشروا، وأمِّلوا ما يسرُّكم، فوالله لا الفقر أخشى عليكم، ولكن أخشى عليكم أن تُبسط عليكم الدنيا، كما بُسطت على مَن كان قبلكم، فتنافسوها، كما تنافسوها، وتُهلككم، كما أهلكتهم». (أخرجه البخاري ٣١٥٨، ومسلم ٢٩٦١).

وبيَّن ﷺ لأصحابه أن ابن آدم لا يكفُّ عن التطلُّع للدنيا، والبحث عنها، عن ابن عباس رضي الله عنهما، قال: سمعت النبي ﷺ يقول: «لو كان لابن آدم واديان من مالٍ لابتغى ثالثًا، ولا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب، ويتوب الله على مَن تاب». (أخرجه البخاري ٦٤٣٦).

هـ- الحثُّ على سخاوة النفس:

ويحثُّهم ﷺ على أخذ المال بسخاوة نفس لا بإشراف نفس؛ فعن حكيم بن حزام رضي الله عنه قال: سألت رسول الله ﷺ فأعطاني، ثم سألته، فأعطاني، ثم سألته، فأعطاني، ثم قال: «يا حكيم، إن هذا المال خضرة حلوة، فمن أخذه بسخاوة نفس؛ بُورك له فيه، ومَن أخذه بإشراف نفس؛ لم يُبارك له فيه، كالذي يأكل ولا يشبع، اليد العُليا خير من اليد السُّفلى»، قال حكيم: فقلت: يا رسول الله، والذي بعثك بالحق لا أرزأ أحدًا بعدك شيئًا حتى أُفارق الدنيا، فكان أبو بكر رضي الله عنه، يدعو حكيمًا إلى العطاء، فيأْبَى أن يقبله منه، ثم إن عمر رضي الله عنه دعاه ليُعطيه فأَبَى أن يقبل منه شيئًا، فقال عمر: إني أُشهدكم يا معشر المسلمين على حكيم، أني أعرض عليه حقَّه من هذا الفيء فيَأْبَى أن يأخذه، فلم يرزأ حكيم أحدًا من الناس بعد رسول الله ﷺ حتى تُوفِّي. (أخرجه البخاري ١٤٧٢، ومسلم ١٠٣٥).

ويُبيِّن لهم ﷺ أن البركة فيما يعطيهم إياه من عطاء إنما هي فيما أعطاه ﷺ عن طيب نفس، أما صاحب المسألة والشَّرَه، فلن يشبع من العطاء، عن معاوية رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ، وهو يقول: «من يُردِ الله به خيرًا يُفقِّهْهُ في الدين»، وسمعت رسول الله

ﷺ يقول: «إنما أنا خازن، فمن أعطيته عن طيب نفس؛ فيُبارك له فيه، ومن أعطيته عن مسألة وشَرَهٍ؛ كان كالذي يأكل ولا يشبع». (أخرجه مسلم ١٠٣٧).

و- التوجيه للإنفاق في الخير:

يُوجِّه النبي ﷺ أصحابه إلى البذل، والإنفاق في الخير، ويحثُّهم على ذلك، والشواهد على هذا عديدة أكثر من أن تحصى، ويكفي في ذلك أن جعل هذا ميدانًا للتفاضل بين أُمَّهات المؤمنين، فعن عائشة رضي الله عنها أن بعض أزواج النبي ﷺ قُلْنَ للنبي ﷺ: أيُّنا أسرع بك لحوقًا؟ قال: «أطولكن يدًا»، فأخذوا قصبة يذرعونها، فكانت سَودة أطولهن يدًا، فعلمنا بعد أنها كانت طول يدها الصدقة، وكانت أسرعنا لحوقًا به، وكانت تحب الصدقة. (أخرجه البخاري ١٤٢٠، ومسلم ٢٤٥٢).

ويتحدَّث الماوردي عن الاعتدال في التعامل النبوي مع الدنيا، فيقول: «والخَصلة الرابعة: أنه لم يَمِلْ بأصحابه إلى الدنيا، كما رغبت اليهود، ولا إلى رفضها، كما ترهبت النصارى، وأمرهم فيها بالاعتدال أن يطلبوا منها قَدْر الكفاية، ويعدلوا عن احتجان، واستزداة، وقال لأصحابه: «خيركم مَن لم يترك دنياه لآخرته، ولا آخرته لدنياه، ولكن خيركم مَن أخذ من هذه وهذه»، وهذا صحيح؛ لأن الانقطاع إلى أحدهما اختلال، والجمع بينهما اعتدال.-

وقال ﷺ: «نِعْمَ المَطيّة: الدنيا، فارتحلوها؛ تُبلغكم الآخرة»، وإنما كان كذلك؛ لأن منها يتزود لآخرته، ويستكثر فيها من طاعته، ولأنه لا يخلو تاركها من أن يكون محرومًا مُضاعًا، أو محرومًا مُراعًى، وهو في الأول كَلٌّ، وفي الثاني مستذَلٌّ، أُثْنِيَ على رجل بخير عند رسول الله ﷺ، وقالوا: يا رسول الله: كنا إذا ركبنا لا يزال يذكر الله تعالى حتى ننزل، وإذا نزلنا لا يزال يُصلِّي حتى نرفع، فقال: «فمَن كان يكفيه علف بعيره، وإصلاح طعامه؟»، قالوا: كلُّنا، قال: «فكلُّكم خير منه». (أعلام النُّبوَّة ٢٢٩).

وهكذا يتكامل المنهج التربوي في الإعداد للحياة الدنيا؛ فهو يُنمِّي لدى الناس المسؤولية والحافز للعمل والتكسب، ويجعله عبادة لله عز وجل، وفي الوقت نفسه يُحيط ذلك بسياج الغاية من خلق الإنسان، ألا وهي: عبادة الله عز وجل.

فلا يتحوَّل المسلم إلى كائن مادي يبحث عن الدينار والدرهم، ويقضي عمره مسابقًا ومنافسًا فيه، ولا تعلو لديه قيم الدنيا والمادة، وفي الوقت نفسه لا يبقى عالة على الآخرين.

ولما كانت نفوس الناس مجبولة على حب الدنيا؛ فإن النبي ﷺ قد اكتفى بالدافع الفطري، فلم يحثَّ الناس على الدنيا، بل سعى إلى تهذيب الدوافع، ودعا الناس إلى الاعتدال، وإلى التعلُّق بالآخرة، ومحبة الدنيا فُطِرَ عليها الناس، لكن العمل والكسب لا يكفي فيه الرغبة، وحب المال، بل هو يتطلب جدية صاحبه، وامتلاكه أدوات الكسب والعمل، ومثابرته، وهذا شيء آخر غير محبة الدنيا.

وهذا الاعتدل والتوازن سمة للتربية النبوية في كافة مجالاتها، وليس في هذا المجال فحسب، إلا أن التوازن كثيرًا ما يختل عند تناول هذه المجالات؛ فهناك مَن يُهمل العناية بهذا المجال، بل ربما بالغ في تزهيد الناس من الدنيا حتى يدعهم عالة؛ حينها تتولَّد لديهم رِدَّة فعل غير متزنة، وفي مقابل هؤلاء مَن ينظر إلى نصوص التكسب والعمل، وإلى واقع أثرياء الصحابة رضوان الله عليهم، ويتجاهل الجانب الآخر.

دور التربية في الإعداد للحياة الدنيوية:

وبعد أن تناولنا جانبًا من الهدي النبوي في الإعداد للحياة الدنيا؛ يُمكن أن نتساءل ما دور التربية في إعداد الفرد للحياة الدنيوية؟، وكيف يمكن أن تُفعَّل الأسرة، والمؤسسات التربوية في تأهيل الفرد لذلك؟

ويُمكن أن تتمثل أهم الأدوار التربوية المطلوبة في هذا المجال فيما يلي:

أولًا: غرس المفاهيم الشرعية الصحيحة في التعامل مع الحياة الدنيا، والقائمة على حثِّ الناس على العمل والكسب، والاستغناء عما في أيدي الآخرين، دون تعلُّق بالدنيا، وولع بها، ودون لهاث وراءها على حساب المبادئ والقيم.

وتحقيق التوازن والاعتدال في هذه المفاهيم مطلب مهم؛ فكثير ممن يتحدثون عن الدنيا- كما سبق- إما أن يجنحوا للمبالغة في ذمِّها بما يُهيء نفوسًا اتِّكالية، أو يُفرطوا في الحثِّ عليها مُحتجِّين بجانب واحد من النصوص الشرعية، وكلاهما مجانب للمنهج التربوي النبوي.

ثانيًا: تنمية قيم العمل الدنيوي، وتأسيس الشخصية القادرة على النجاح في العمل الدنيوي، ومع أهمية اكتساب الخبرات والمهارات المباشرة في اتساع فرص الكسب والعمل أمام صاحبها، إلا أن قيم العمل والمهارات العامة أكثر أهمية وأبلغ؛ فلا قيمة لمن يمتلك مهارات عالية في البرمجة الحاسوبية- مثلًا- إن كان لا يتصف بالدقة، وإتقان العمل، وإن كان ضعيف الالتزام والانضباط.

إن الخبرات المتخصصة في مجال معين قد يسهل اكتسابها، لكن قيم العمل أكثر أهمية؛ فهي مما لا يستغني عنه عامل قطُّ أيًا كان مجال عمله ونشاطه، سواء أكان مُستقلًّا، أم موظَّفًا لدى غيره.

وتتمثل أهم قيم العمل التي ينبغي الاعتناء بتنميتها لدى الناشئة فيما يلي:

- الإتقان والعناية بالجودة، وهي قيمة ينعكس أثرها على الفرد أيًا كان مجال عمله واهتمامه، واختلال هذه القيمة يُضعف من جودة إنتاجه وأدائه، ومن ثم يُقلِّل من فرص حصوله على مراتب، ومستويات أعلى، ولعلَّ ما نراه من تفاوت

أجور العمال، وارتفاع أجور جنسيات مُعيَّنة اشتهرت لدى الناس بالإتقان، أو المؤسسات التي تُشغِّلهم خير شاهد على أهمية هذه القيمة.

- المثابرة والإصرار؛ ففرص العمل لا تأتي مرة واحدة، وهي تتطلب من الشاب أن يصبر طويلًا على عمل لا يُلائمه، ودخل قليل، ثم ما تلبث الأبواب أن تنفتح أمامه، وهكذا في المشروعات التِّجارية الشخصية، وما نراه من حصول عدد من العمالة مُتدنِّية التعليم والمهارات على فرص عالية، يُمكن تفسيره بتوفر عنصر المثابرة والإصرار لديهم.
- الالتزام والمسؤولية، وهي قيمة تقود صاحبها لأن يُقدِّر المهام التي تُوكل إليه، ويلتزم بالوعود التي يمنحها للآخرين، وهذا يمنحه ثقة أصحاب العمل إن كان مُوظَّفًا، وثقة العملاء إن كان يعمل لحسابه الشخصي، وكثير من المُتميزين يُفوِّتون على أنفسهم فرصًا مهمة حين يفقدون هذه القيمة.

إن هذه نماذج من قيم العمل التي تُهيئ الفرد للنجاح، وتزيد من فرص حصوله على مزايا عالية، وتأثير هذه القيم ليس قاصرًا على فرص العمل الدنيوي؛ فهي تؤثر على أداء الفرد في حياته الشخصية والأسرية، وفي عمله التطوعي والدعوي، بل إن كثيرًا من الناجحين في مجالات العمل الدعوي والتطوعي كان التميز القيمي وراء كثير من نجاحاتهم.

كما أن هذه القيم جزء من السلوك الشرعي؛ فالصدق في المعاملة، والنصح للمسلمين، والإيمان بحُرمة مال المسلم، وأنه لا يحل إلا بطيب نفس منه؛ كل ذلك يفرض على المسلم التحلِّي بهذه القيم والالتزام بها.

تنمية الكرامة

من أهم دعائم أي منهج تربوي تصوُّره عن الإنسان؛ فالإنسان هو موضوع التربية، والتربية إنما تستهدف بناء الإنسان، والتغيير في شخصيته.

ومن أهم جوانب التصوُّر الإسلامي عن الإنسان: الإيمان بكرامته، وقد نصَّ القرآن الكريم على كرامة الإنسان لفظًا ومعنى.

فأخبر سبحانه عن تكريم بني آدم، فقال عز وجل: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ (الإسراء: ٧٠).

وذكر الله عز وجل اعتراض الشيطان على ربه؛ لأنه كرَّم آدم، فقال: ﴿قَالَ أَرَءَيْتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا﴾ (الإسراء: ٦٢).

أما دلائل تكريم الإنسان التي وردت بمعنى التكريم دون لفظه فهي عديدة، ومنها: إخباره سبحانه بأنه خلق آدم بيده، وأسجد له ملائكته، وسخَّر له ما في السماوات والأرض... إلخ.

ومن هنا اعتنى النبي ﷺ بتأصيل هذا المعنى في تربيته لأصحابه.

ومن صور تنمية الكرامة في المنهج النبوي ما يلي:

١- إخباره ﷺ عن خلق الإنسان:

أخبر ﷺ أن الله عز وجل خلق آدم على صورته، عن أبي هريرة ﷺ، عن النبي ﷺ قال: «خلق الله آدم على صورته، طوله ستون ذراعًا، فلما خلقه قال: اذهب فسلِّم على

أولئك النَّفر من الملائكة، جلوس، فاستمع ما يحيونك، فإنها تحيتك، وتحية ذريتك، فقال: السلام عليكم، فقالوا: السلام عليك ورحمة الله، فزادوه: ورحمة الله، فكُلُّ مَن يدخل الجنة على صورة آدم، فلم يزل الخلق ينقص بعد حتى الآن». (أخرجه البخاري ٦٢٢٧، ومسلم ٢٨٤١).

وفي بعض روايات الحديث ربط ﷺ هذا المعنى بالنهي عن تقبيح الإنسان، فعن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا ضرب أحدكم فليتجنب الوجه، ولا يقل: قَبَّح الله وجهك، ووجه من أشبه وجهك، فإن الله تعالى خلق آدم على صورته». (أخرجه أحمد ٧٤٢٠).

وفي رواية لمسلم (٢/ ٢٦): قرن ﷺ تكريم الإنسان بهذا المعنى، فقال ﷺ: «إذا قاتل أحدكم أخاه، فليتجنب الوجه؛ فإن الله خلق آدم على صورته».

وقد اختلف شرَّاح الحديث في المقصود بخلق آدم على صورته، وأيًّا كان الراجح في ذلك فالحديث يدل على تكريم الله عز وجل لآدم، وذريته.

ولما ذكر النووي اختلاف العلماء في مرجع الضمير في قوله: (صورته) قال: «وقالت طائفة: يعود إلى الله تعالى، ويكون المراد إضافة تشريف واختصاص، كقوله تعالى: ناقة الله، وكما يُقال في الكعبة: بيت الله». (شرح صحيح مسلم ١٦/ ١٦٦).

قال شيخ الإسلام: «والكلام على ذلك أن يُقال: هذا الحديث لم يكن بين السلف من القرون الثلاثة نزاع في أن الضمير عائد إلى الله؛ فإنه مستفيض من طرق مُتعددة عن عدد من الصحابة، وسياق الأحاديث كلها يدل على ذلك». (بيان تلبيس الجهمية ٦/ ٣٧٣).

٢- مراعاة كرامته في العقوبة:

نهى ﷺ عن عقوبة الإنسان بما يُسيء إلى كرامته، فعن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «إذا قاتل أحدكم أخاه، فليجتنب الوجه؛ فإن الله خلق آدم على صورته». (أخرجه مسلم ٢٦١٢).

وحتى حين يأتي المسلم كبيرة من الكبائر، فإنه ﷺ ينهى عن إهانته، ففي عقوبة الأَمَةِ حين تزني، نهى ﷺ عن التثريب عليها ولَوْمها، عن أبي هريرة ﷺ، قال: سمعت النبي ﷺ، يقول: «إذا زَنَتْ أَمَةُ أحدِكم، فتبيَّن زناها؛ فلْيجْلِدْها الحد، ولا يثرب عليها، ثم إن زَنَتْ؛ فلْيجْلِدْها الحد، ولا يثرب، ثم إن زنت الثالثة، فتبيَّن زناها؛ فليبِعْهَا، ولو بحبل من شعر». (أخرجه البخاري ٢٢٣٤، ومسلم ١٧٠٣).

٣-نهيه عن قول ما يهينه ويخدش كرامته:

نهى ﷺ أصحابه عن أن يقول أحدهم لغيره ما يهين كرامته، عن أبي هريرة ﷺ قال: أتي النبي ﷺ برجل قد شرب، قال: «اضربوه»، قال أبو هريرة: فمنا الضارب بيده، والضارب بنعله، والضارب بثوبه، فلما انصرف، قال بعض القوم: أخزاك الله، قال: «لا تقولوا هكذا، لا تُعينوا عليه الشيطان». (أخرجه البخاري ٦٧٧٧).

ونهى ﷺ الرجل عن تقبيح وجه زوجته، فحين سأله أحد أصحابه عن حق الزوجة، ذكر له أن من حقوقها تجنُّب تقبيحها بالكلام، فعن حكيم بن مُعاوية القشيري، عن أبيه، قال: قلت: يا رسول الله، ما حق زوجة أحدِنا عليه؟، قال: «أن تطعمها إذا طعمت، وتكسوها إذا اكتسيت، أو اكتسبت، ولا تضرب الوجه، ولا تقبِّح، ولا تهجر إلا في البيت»، قال أبو داود: «ولا تقبح: أن تقول: قبَّحك الله». (أخرجه أبو داود ٢١٤٢، وأحمد ٢٠٠١٣، وابن ماجه ١٨٥٠).

وحين سأله أحدهم عما يأتي من زوجته ويذر، نهاه عن تقبيح الوجه، عن بهز بن حكيم، حدثني أبي، عن جدي، قال: قلت: يا رسول الله، نساؤنا ما نأتي منهن، وما نذر؟، قال: «ائتِ حرثك أنَّى شئت، وأطعمها إذا طعمت، واكسها إذا اكتسيت، ولا تقبح الوجه، ولا تضرب». (أخرجه أبو داود ٢١٤٣، وأحمد ٢٠٠١١).

٤- النهي عن التشبُّه بالحيوان:

ومن صور تأصيل كرامة الإنسان في المنهج التربوي النبوي: نهيه ﷺ عن التشبه بالحيوان، وقد ورد ذلك في نصوص عديدة، منها:

أ- الرجوع في الهبة:

عن ابن عباس رضي الله عنهما، قال: قال النبي ﷺ: «ليس لنا مَثَل السوء، الذي يعود في هبته، كالكلب يرجع في قيئه». (أخرجه البخاري ٢٦٢٢، ومسلم ١٦٢٢).

ب- التشبُّه بالحيوان في أفعال الصلاة:

نهى ﷺ عن التشبه بالحيوان في بعض أفعال الصلاة، فمن ذلك ما يلي:

- نهيه عن افتراش السَّبُع؛ ففي حديث عائشة رضي الله عنها في صفة صلاته ﷺ: «وكان ينهى عن عقبة الشيطان، وينهى أن يفترش الرجل ذراعيه افتراش السَّبُع» (أخرجه مسلم ٤٩٨).

- نهيه عن انبساط الكلب، عن أنس بن مالك رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «اعتدلوا في السجود، ولا يبسط أحدكم ذراعيه انبساط الكلب». (أخرجه البخاري ٨٢٢، ومسلم ٤٩٣)، قال ابن دقيق العيد: «وقد ذكر الحُكم هنا مقرونًا بعلَّته، فإن التشبيه بالأشياء الخسيسة يُناسب تركه في الصلاة». (إحكام الأحكام ١/ ٢٥٦).

- نهيه عن نقر الغراب، وافتراش السبع، وتوطُّن البعير، عن عبد الرحمن بن شبل، قال: نهى رسول الله ﷺ عن نقرة الغراب، وافتراش السبع، وأن يُوطِّن الرجل المكان في المسجد، كما يوطن البعير. (أخرجه أحمد ١٥٥٣٢، وأبو داود ٨٦٢، والنسائي ١١١٢)، قال شيخ الإسلام: «وإنما جمع بين الأفعال الثلاثة- وإن كانت مختلفة الأجناس-؛ لأنه يجمعها مشابهة البهائم في الصلاة، فنهى عن

مشابهة فعل الغراب، وعما يُشبه فعل السَّبع، وعما يشبه فعل البعير، وإن كان نقر الغراب أشد من ذينك الأمرين؛ لما فيه من أحاديث أُخَر». (مجموع الفتاوى ٢٢/ ٥٣٧).

- النهي عن الإشارة باليد عند السلام كأذناب الخيل، عن جابر بن سمرة ﷺ، قال: كُنَّا إذا صلَّينا مع رسول الله ﷺ قلنا: السلام عليكم ورحمة الله، السلام عليكم ورحمة الله، وأشار بيده إلى الجانبين، فقال رسول الله ﷺ: «عَلَامَ تُومِئُون بأيديكم كأنها أذناب خيلٍ شُمْس؟، إنما يكفي أحدكم أن يضع يده على فخذه، ثم يُسلم على أخيه من على يمينه، وشماله». (أخرجه مسلم ٤٣١).

ج- التفاصح في الكلام:

ونهى ﷺ عن التفاصح في الكلام، وشبَّه ذلك بفعل البقرة، عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما، أن رسول الله ﷺقال: «إن الله يُبغض البليغ من الرجال الذي يتخلَّل بلسانه كما تتخلَّل البقرة». (أخرجه الترمذي ٢٨٥٣، وأبو داود ٥٠٠٥، وأحمد ٦٥٤٣).

قال شيخ الإسلام: «فالأمور التي هي من خصائص البهائم لا يجوز للآدمي التشبُّه بالبهائم فيها بطريق الأَوْلى والأَحْرى؛ وذلك لأن الإنسان بينه وبين الحيوان قَدْر جامع مشترك، وقَدْر فارق مختص، ثم الأمر المشترك: كالأكل، والشرب، والنكاح، والأصوات، والحركات؛ لما اقترنت بالوصف المختص كان للإنسان فيها أحكام تخصه؛ ليس له أن يتشبَّه بما يفعله الحيوان فيها، فالأمور المختصة به أَوْلى». (مجموع الفتاوى ٣٢/ ٢٦٠)

٥-أمره بحفظ كرامة المسلم حيًّا وميتًا:

اعتناء النبي ﷺ بتأصيل كرامة الإنسان، وتأكيده على ذلك لم يقف عند حال حياة الإنسان، بل أمر ﷺ بحفظ كرامة المؤمن حيًّا وميتًا، فوفاته لا تسقط حقه في التكريم.

عن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «إن كسر عظم المؤمن ميّتًا، مثل كسره حيًّا». (أخرجه أحمد ٢٤٣٠٨، وأبو داود ٣٢٠٧، وابن ماجه ١٦١٦).

ومن صور تكريمه ﷺ للميت: نهيه عن الجلوس على القبر، فعن جابر رضي الله عنه، قال: «نهى رسول الله ﷺ أن يجصّص القبر، وأن يُقعد عليه، وأن يُبنى عليه». (أخرجه مسلم ٩٧٠).

وعظّم ﷺ النهي عن القعود على القبر، عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «لأَنْ يجلس أحدكم على جمرة فتحرق ثيابه، فتخلص إلى جلده، خيرٌ له من أن يجلس على قبر». (أخرجه مسلم ٩٧١).

٦-حفظه لكرامة أصحابه:

كان ﷺ يتعامل مع أصحابه بما يحفظ كرامتهم، كان أسيد بن حضير رضي الله عنه رجلًا صالحًا، ضاحكًا، مليحًا، فبينما هو عند رسول الله ﷺ يُحدِّث القوم، ويُضحكهم، فطعنه النبي ﷺ في خاصرته بعود، فقال: أصبرني، فقال: «اصطبر»، قال: إن عليك قميصًا، وليس عليَّ قميص، «فرفع النبي ﷺ عن قميصه، فاحتضنه، وجعل يقبل كشحه، قال إنما أردت هذا يا رسول الله. (أخرجه أبو داود ٥٢٢٤، والحاكم في المستدرك ٥٢٦٢).

٧-نهيه عن تفاخر الجاهلية:

لما كان تفاخر الناس بأمر الجاهلية يقود إلى الاستهانة بكرامة الآخرين؛ نهى ﷺ أصحابه وأُمّته عن ذلك، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله عز وجل قد أذهب عنكم عُبِّيَّة الجاهلية، وفخرها بالآباء، مُؤمن تقيٌّ، وفاجر شقيٌّ، والناس بنو آدم، وآدم من تراب، لينتهين أقوام فخرهم برجال، أو ليكونن أهون عند الله من عدتهم من الجِعْلَان التي تَدْفَع بأنفها النَّتْنَ». (أخرجه أحمد ٨٧٣٦، وأبو داود ٥١١٦، والترمذي ٣٩٥٥).

ولأهمية هذا الشأن؛ فقد خطب فيه ﷺ- وهو في مكة فاتحًا-، عن ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ خطب الناس يوم فتح مكة، فقال: «يا أيها الناس، إن الله قد أذهب عنكم عُبِّيَّة الجاهلية، وتعاظمها بآبائها، فالناس رجلان: بَرٌّ تقيٌّ كريم على الله، وفاجرٌ شقيٌّ هينٌ على الله، والناس بنو آدم، وخلق الله آدم من تراب». (أخرجه الترمذي ٣٢٧٠).

ومَن تأمَّل كثيرًا من صور انتهاك كرامة الآخرين واحتقارهم؛ وجد أن الاعتبارات الجاهلية، والتفاخر بالآباء والأنساب من أكبر مداخل ذلك.

دور التربية في تنمية كرامة الإنسان:

إن تأصيل كرامة الإنسان يتطلب اعتناء التربية ببناء كرامة الإنسان وتعزيزها، ومن الأدوار المُهِمَّة في ذلك ما يلي:

١- تعزيز الشعور بالكرامة:

الكرامة حق للإنسان أعطاه الله إياه، وليس مِنَّة وتفضَّلًا من المُربِّي، ومن هنا؛ ينبغي على المُربِّي أن يُعزز لدى المتربي شعوره بالكرامة، وأن يُنمي لديه هذا الاعتزاز.

٢- مراعاة كرامته في الخطاب والتوجيه:

حين يُوجَّه الخطاب للمتربي فينبغي أن تُراعَى فيه كرامته وقيمته؛ فيختار المربي الألفاظ الحسنة، واللغة الراقية، والمنطق المهذَّب.

وفي الخطاب الدعوي والوعظي اليوم نلمس تجاوزات في أدب الحديث، فالوعظ والتذكير لا يُبرر الإساءة في الخطاب.

والاعتناء بالخطاب التربوي، والتزام اللغة الراقية والمهذبة يُسهم في الارتقاء بسلوك المتربي، وأدبه، وذوقه.

٣- مراعاة الكرامة في النظام والبيئة التربوية:

يسود في المؤسسات التربوية: في المنزل، والمدرسة، والمسجد أنظمة مكتوبة مُقنَّنة، أو مُتعارَف عليها، وتحكم هذه الأنظمة علاقة المتعلم بأساتذته ومشايخه، أو علاقة الأولاد بآبائهم، كما تُحدد إجراءات للمطالبة بالحقوق، والتعامل معها، أو عقوبات لمن يتجاوز أدب التعامل.

وربما تشكلت هذه الأنظمة- العرفية أو المكتوبة- بالنظر لطرف واحد، وهو رعاية حق الوالد، والشيخ، ونحو ذلك، وتجاهلت قيمة المتعلم وكرامته كإنسان، فتبالغ في حقوق الأستاذ على حساب المتعلم، وتقسو على المتعلم حفظًا لكرامة أستاذه.

ورغم أهمية الأدب، وتوقير الكبار، إلا أن الأدب يُتعلَّم أكثر من خلال القدوة، والنموذج الحسن، فحين يتحلَّى الآباء والمعلمون بحسن الخلق، وتوقير المتعلمين، وحفظ كرامتهم؛ فإن هذا يُنشِّئهم على الأدب، وتوقير الأكابر.

وحين يتعالى الكبار، ويخدشون كرامة أولادهم وطُلَّابهم؛ فإن هذا يقود للخضوع كرهًا دون محبة وقبول، ودون تقدير حقيقي، وليس هذا ما تسعى التربية لتحقيقه.

٤- مراعاة الكرامة في العقوبة:

العقوبة يُراد منها الردع والزجر، إلا أنه ينبغي ألا تتجاوز فتَصِلَ إلى ما يخدش كرامة المتعلم.

وفي بعض المؤسسات التربوية تجاوزات في العقوبة تتمثل في التشهير، أو القسوة في الألفاظ، أو الذمِّ الجارح.

وقد نهى ﷺ عن التثريب على الزانية، وقول: أخزاك الله، لشارب الخمر، وتقبيح الزوجة.

ومن هنا؛ ينبغي أن تُراعَى كرامة المتعلم في العقوبة- حين يحتاج إليها- في نوع العقوبة، وأسلوبها، وآلية تنفيذها.

آثار تنمية الكرامة:

للاعتناء بتنمية الكرامة لدى المُتربِّي آثار عِدَّة، منها:

١- الاستجابة لتكريم الله عز وجل:

بيَّن الله تبارك وتعالى في كتابه في آيات عِدَّة أنه كرَّم الإنسان، وهذا يتضمن إخبارًا وإنشاءً، يتضمن الإِخبار عن هذه الحقيقة، ويتضمن الأمر بالتعامل مع الإنسان بمقتضى هذا التكريم.

ومِن ثَمَّ فالاعتناء بتكريم المُتربِّي استجابة لأمر الله عز وجل، كما أن فعل ما يتناقض مع كرامته مخالفة لأمره سبحانه وتعالى.

٢- مُلاءمة طبيعة الإنسان ووظيفته في الحياة:

خلق الله سبحانه وتعالى الإنسان وكرَّمه، وهو عز وجل أعلم به، وبما يصلحه، وشرع سبحانه وتعالى له من الأحكام والشرائع ما يُلائمه، ويتناسب مع وظيفته في الحياة.

ومن هنا؛ فقيام الإنسان بوظيفة العبودية، ونجاحه في حياته الدنيوية مُرتهن بالتزام هذا المنهج الرَّبَّاني، وكما يخفق المنهج الذي يتجاهل ما جُبِلَ عليه الإنسان من رغبات وغرائز؛ يخفق المنهج الذي يتجاهل كرامة الإنسان في بناء الشخصية السوية .

٣- تعزيز فاعلية الإنسان وأدائه في المجتمع:

تتأثر فاعلية الإنسان ونجاحه في إدارته لذاته، وأدائه لأدواره في المجتمع، بنظرته لنفسه، وشعوره بقيمته.

لذا فتعزيز كرامته يُحقق لديه قدرًا عاليًا من الرضا عن ذاته، ويُسهم في تعزيز انتمائه لمجتمعه، مما يزيد من فاعليته وتأثيره.

وتزداد فاعلية الإنسان وتأثيره في حياته كلما التزمنا المنهج الشرعي، وحين يتجاهل المنهج التربوي تكريم الإنسان؛ فلن ينجح في تنمية شخصية فاعلة.

والذين يتربون في بيئات لا تُشعرهم بكرامتهم وقيمتهم؛ سيؤثر ذلك سلبًا على فاعليتهم في مواقف الحياة، فضلًا عن الأدوار الرائدة والقيادية، وحتى لو تجاوز هؤلاء الأثر النفسي للشعور بعدم الكرامة، وانطلقوا للعمل والأداء، فإن هذه التربية ستترك أثرها في نوعية أدائهم.

٤- حمايته من مواضع الإسفاف:

يُسهم شعور الإنسان بكرامته في الارتقاء بهمته، والاستعلاء به عن مواطن الإسفاف، وهوان النفس؛ لذا فإنك قد تجد عند مَن تربَّى على الكرامة نفورًا من مواطن الهوان والإسفاف، قد يفوق نفور بعض مَن به ديانة وهوان في النفس.

وفي المقابل، فوقوع المرء في مواطن الإسفاف والهوان يجرح كرامته، ويُفسد شخصيته، حتى يدرك ذلك فيه كلُّ مَن رآه، وتعامل معه.

٥- الحماية من التكبُّر والتسلُّط:

في النفس ميلٌ للعلُوِّ، والشعور بعلُوِّ المنزلة، وربما قادت هذه الغريزة كثيرًا من الناس إلى التكبُّر، والتسلُّط، وازدراء الآخرين.

واحتقار الإنسان وإهانته لن يقوده إلى التواضع السَّوِي، والنظرة المتوازنة لنفسه وللآخرين، وحين ينجح المُربِّي بإشعاره بالكرامة والاعتزاز، وأن ذلك حق طبيعي له؛ فإن هذا سيُلبِّي لديه الحاجة، ويَرْوِي غريزته؛ فيحميه من اللجوء للتكبُّر والتَّعالِي.

وثمَّة خيط رفيع بين الكبر، وبين الشعور بالكرامة؛ لذا نرى كثيرًا ممن يتعالون، ويخفقون في التخلق بالتواضع يتحجَّجُون بكرامة النفس.

وقد جاء المنهج التربوي النبوي بالاعتدال والتوسط، فربَّى الإنسان على التواضع، وعالج داء الكبر والتَّعالِي، وفي الوقت نفسه ربَّى فيه العزة، والكرامة، والشعور بقيمته الإنسانية.

* * *

الفصل الرابع: الوسائل والأساليب النبوية

الموعظة.

الترغيب والترهيب.

القصة.

الحوار.

التوجيه غير المباشر.

التربية بالأحداث.

ضَرْب الأمثال.

الثواب والمكافأة.

العقوبة.

علاج الأخطاء.

الوسائل والأساليب النبوية

التربية النبوية ليست مُجرَّد تأسيس نظري أو معرفي، أو أفكار مثالية؛ فهي مشروع عملي واقعي يتجلَّى في حياة النبي ﷺ، وأقواله، وأفعاله، وأحواله، وفي تعامله مع أصحابه في السَّرَّاء والضَّرَّاء، في الظَّعن والإقامة، في مواقف التعليم والتوجيه، ومواقف الجِدِّ والترويح، ومن ثم؛ فهي غنية بالوسائل والأساليب المتنوعة، وثَرِية بتنوع أدوات المُعالجة التربوية.

وثمَّة جدل لا ينتهي حول العلاقة بين الوسائل والأساليب، وأيهما أعم، وأيهما أخص، أم هما مترادفان؟

والخلاف لا ينتهي عند تحرير المصطلحين، فلو أخذنا- على سبيل المثال- بالرأي الشائع المُتمثل في أن الأساليب فروع وأنواع للوسائل؛ فستبقى مساحة من الخلاف حول بعض الأساليب أهي وسائل، أم أساليب؟، وهذا كله خارج أهداف هذا البحث.

لذا؛ آثرت هذا العنوان الجامع بينهما: (الوسائل والأساليب)، فالذي يَعنينا هنا هو تعرُّف الأدوات التي استخدمها النبي ﷺ في تربيته بغض النظر عن التصنيف الذي تنتمي تحته، وتحرير انتماء أداة معينة للوسائل أو الأساليب لن يترتب عليه ثمرة عملية ذات قيمة عالية.

مدى الحاجة للوسائل والأساليب النبوية:

الأصل أن الوسائل ليست مقصودة لذاتها، ولا تدخل في دائرة التعبد المحض، وأن الأخذ بوسيلة ما مرتبط بمدى فاعليتها في تحقيق الهدف والغاية، وأن من حق المُربِّي الأخذ بأي وسيلة تسهم في تحقيق هدف تربوي، بل إن من مسؤوليته بذل الجهد البشري في اختيار الوسائل، وتقويمها، وقياس فاعليتها.

لكن ذلك كله لا يُقلِّل من أهمية- بل ضرورة- دراسة الوسائل التربوية النبوية، ومما يُؤكِّد على أهمية العناية بدراسة الوسائل والأساليب التربوية النبوية ما يلي:

١. أنها تُسهم في اكتمال الصورة حول التربية النبوية.

٢. أنها وسائل وأساليب ثَبَتَ نجاحها وفاعليتها، وأسهمت في بناء خيرِ، وأفضلِ رجال عرَفهم التاريخ.

٣. في مقابل اختلاف العصر والمرحلة، وما تقتضيه من تجديد وتنويع في الوسائل تبقى مساحة الاشتراك البشري واسعة، مما يجعل كثيرًا من الوسائل والأساليب فاعلًا مَهْمَا تغيَّر الزمن؛ فالقصة على سبيل المثال لها أثرها على ما يُسمَّى بالإنسان البدائي، والمدني، والمتحضر، ولها أثرها على الأُمِّي والمتعلم، والرجل والمرأة، واختلاف العصر، وتغير الزمان يُؤثر في أنماطها وأشكالها، ومداخلها، وأساليب حكايتها وسردها، لكنه لا يُلغي فاعليتها وتأثيرها بصفة عامة.

٤. بركة اتباع النبي ﷺ، والتعبد بالتأسي به، وهذا له أثره في مُضاعفة الأجر والثواب، وله أثره في ترسيخ محبَّة النبي ﷺ، واستحضار اتِّباعه، والتأسي به، كما أن له أثره في التوفيق الرَّبَّاني والإعانة.

٥. المواقف التربوية النبوية ليست مُنفصلة عن التشريع، حتى ولو كانت في إطار الوسائل والأساليب؛ فقد يتحرَّج بعض المُربِّين- على سبيل المثال- مِن استخدام الثواب المادي والمعنوي؛ لئلا يقدح في الإخلاص، ولتعارضه مع التجرُّد لله عز وجل، وقد يتحرَّج مِن استخدام العقوبة؛ لأنها قد تُؤدي به لترك الأمر لغير الله عز وجل ...، وهكذا في غيرها من الوسائل و الأساليب، لكن الحرج يزول حين يُرَى تعدُّد المواقف النبوية في الثواب والعقاب[1].

---

(١) وهذا لا يقتضي إلغاء مراعاة تجنب ما يقدح في الإخلاص والتجرد، فالعناية بذلك مطلوبة في قدر استخدام الثواب والعقاب، وموضوعهما، وأسلوبهما، وإنما المقصود هنا التحرج من المبدأ بكليته.

٦. يعترض بعض المولعين بالخطاب العقلي والمنطقي على بعض الوسائل والأساليب الشرعية: كالقصة والموعظة، وربما وصفوها بالسطحية والسذاجة.. إلخ، وكثير من هذه الاعتراضات لا تنشأ من سوءِ نية، أو اعتراض على النص الشرعي، بل هي نتيجة الغفلة، والبعد عن مُعايشة النصوص الشرعية، والهدي النبوي، وهذا من لوازم القصور البشري، ودراسة الوسائل والأساليب التربوية النبوية تُسهم في تحقيق التوازن، وتلافي الاندفاع وراء التطرف البشري.

٧. رغم أن الوسائل والأساليب أدوات لتحقيق الأهداف والغايات، وليست مقصودة لذاتها، فإنها لا تنفصل عن المنهج التربوي، فعلى سبيل المثال: تعنى التربية المعاصرة بمخاطبة العقل والتفكير، وتتعامل مع الواقع، والحقائق المادية، وقد أبدعت في ذلك، وحرِيٌّ بنا أن نستفيد من نتاجها- فيما لا يتعارض مع الشريعة-، إلا أنها أهملت مخاطبة الوجدان والروح، أما القيم والسلوك: فارتبطت بالطبيعة المادية لهذه الحضارة المعاصرة، فأضحى الحديث عنها مُرتبطًا بأثرها في كسب احترام الناس، والتأثير فيهم، وحين نتأمل الوسائل والأساليب التربوية النبوية؛ نرى العناية بالوجدان والروح بارزة جلية، ونرى ارتباط الجانب السلوكي بالوجدان والتقوى، وهذا يتجلَّى في الموعظة، والقصة، والخطاب النبوي بصفة عامة.

وفيما يلي نتناول جوانب من الأساليب والوسائل التربوية النبوية، مع مُراعاة أننا سنتناول وسائل التعليم وأساليبه في مبحث التعليم النبوي باعتبار صلته الأبرز في التعليم.

الموعظة

وصف الله عز وجل كتابه بأنه موعظة، فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ (يونس: ٥٧).

ووصف ما أنزله على موسى بذلك، فقال: ﴿وَكَتَبْنَا لَهُۥ فِى ٱلْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا۟ بِأَحْسَنِهَا ۚ سَأُو۟رِيكُمْ دَارَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ (الأعراف: ١٤٥).

ووصف الإنجيل الذي أُنزل على عيسى عليه السلام بأنه موعظة، فقال: ﴿وَقَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾ (المائدة: ٤٦).

ووعظ الله عز وجل نبيَّه نوحًا عليه السلام، فقال: ﴿قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ ۖ فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۖ إِنِّىٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ (هود: ٤٦).

ووعظ الله عز وجل أصحاب النبي ﷺ مِن العودة لما جرى في حادثة الإفك، فقال: ﴿يَعِظُكُمُ ٱللَّهُ أَن تَعُودُوا۟ لِمِثْلِهِۦٓ أَبَدًا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ (النور: ١٧).

وجاء الوعظ في سياق الأحكام الشرعية، فقال تعالى: ﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ ۚ وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِّتَعْتَدُوا۟ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥ ۚ وَلَا تَتَّخِذُوٓا۟ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوًا ۚ وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَآ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْحِكْمَةِ يَعِظُكُم بِهِۦ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ (البقرة: ٢٣١).

كما جاء الوعظ في سياق تقرير قواعد العدل والإحسان، فقال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآئِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ (النحل: ٩٠).

وبيَّن عز وجل حسن مواعظه للمؤمنين، فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا وَإِذَا حَكَمۡتُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحۡكُمُواْ بِٱلۡعَدۡلِۚ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعَۢا بَصِيرٗا﴾ (النساء: ٥٨).

وأمر نبيَّه ﷺ بالموعظة لفئات من المُخاطَبين:

فأمره بأن يعظ المنافقين، فقال: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَعۡلَمُ ٱللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمۡ فَأَعۡرِضۡ عَنۡهُمۡ وَعِظۡهُمۡ وَقُل لَّهُمۡ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ قَوۡلَۢا بَلِيغٗا﴾ (النساء: ٦٣).

وأمره عز وجل أن يعظ الكافرين، فقال: ﴿قُلۡ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍۖ أَن تَقُومُواْ لِلَّهِ مَثۡنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُواْۚ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍۚ إِنۡ هُوَ إِلَّا نَذِيرٞ لَّكُم بَيۡنَ يَدَيۡ عَذَابٖ شَدِيدٖ﴾ (سبأ: ٤٦).

وبيَّن الله عز وجل أن من شأن الصالحين الوعظ، فأخبر أن قوم هود خاطبوا نبيَّهم بأن وعظه لا أثر له فيهم، فقال: ﴿قَالُواْ سَوَآءٌ عَلَيۡنَآ أَوَعَظۡتَ أَمۡ لَمۡ تَكُن مِّنَ ٱلۡوَٰعِظِينَ﴾ (الشعراء: ١٣٦).

وأخبر عما وعظ به لقمانُ ابنه من مواعظ، فقال سبحانه: ﴿وَإِذۡ قَالَ لُقۡمَٰنُ لِٱبۡنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَٰبُنَيَّ لَا تُشۡرِكۡ بِٱللَّهِۖ إِنَّ ٱلشِّرۡكَ لَظُلۡمٌ عَظِيمٞ﴾ (لقمان: ١٣).

وبيَّن أن الصالحين من بني إسرائيل وَعَظُوا أهل السَّبْت، فقال: ﴿وَإِذۡ قَالَتۡ أُمَّةٞ مِّنۡهُمۡ لِمَ تَعِظُونَ قَوۡمًا ٱللَّهُ مُهۡلِكُهُمۡ أَوۡ مُعَذِّبُهُمۡ عَذَابٗا شَدِيدٗاۖ قَالُواْ مَعۡذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمۡ وَلَعَلَّهُمۡ يَتَّقُونَ﴾ (الأعراف: ١٦٤).

إن النفوس تُصيبها القسوة والغفلة، وتبتعد القلوب عن الله، وتتعلق بالدنيا وما فيها، ويُلابس الناس الذنب والمعصية، فيحتاجون للتذكير والوعظ؛ لذا كان ﷺ يُعنى بالموعظة، وكان كثيرًا ما يذكِّر أصحابه، ويُرقق قلوبهم، ولم تكن الموعظة خاصَّة بحديثي العهد بالإسلام والتوبة، ولا بالمقصرين المخلطين، إنما كانت هديًا راتبًا له ﷺ يتخول بها أصحابه.

وقد أخبر تبارك وتعالى عن عباده المتقين، أنهم بحاجة إلى تعاهد النفوس ورعايتها، فقال سبحانه: ﴿وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ ۝١٣٣ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلۡكَٰظِمِينَ ٱلۡغَيۡظَ وَٱلۡعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ۝١٣٤ وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوۡ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسۡتَغۡفَرُواْ لِذُنُوبِهِمۡ وَمَن يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمۡ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ﴾ (آل عمران: ١٣٣ - ١٣٥).

بل أخبر ﷺ عن نفسه، فقال: «إنه ليغان على قلبي، وإني لأستغفر الله في اليوم مائة مرة». (أخرجه مسلم ٢٧٠٢).

فإذا كانت هكذا نفوس المتقين الذين بلغوا الرتب العالية، والمنازل الرفيعة، فكيف بمَن هم دون ذلك بكثير؟ كيف بنا اليوم، ونحن نعيش عالمًا انتشر فيه الفساد والمنكرات، ونُلابس كثيرًا منها صباح مساء؟ ناهيك عن الاستغراق في فضول المباحات والوقوع في المشتبهات، وهذه دائرة ربما لم نفكر فيها؛ لأنَّا لم نتجاوز ما قبلها.

ولئن كان الرعيل الأول، وخير القرون يتعاهدهم نبيهم ﷺ بالوعظ والتذكير، ويتخوَّلهم بها، ويسمعون منه كل جمعة ذلك، فكيف بجيلنا نحن؟ بل وكيف نتصور بعد ذلك أن المواعظ إنما هي لفئات خاصة من حديثي العهد بالاستقامة والتوبة، أما الدُّعاة، ومَن قطعوا شوطًا في الطريق فهم في غِنى عن ذلك كله، وهم بحاجة للحديث عن القضايا الفكرية، والدعوية، والمسائل الساخنة؟

إن في الساحة الدعوية اليوم أصواتًا ليست خافتة تُهمِّش الموعظة، وتنظر إليها نظرة قاصرة، وتهوِّن من شأن الوُعَّاظ، وترى أن الموعظة إنما تُلائم العامة، وحديثي العهد بالاستقامة.

إن المؤسسات التربوية بحاجة إلى مزيد من ردِّ الاعتبار للموعظة، والاعتناء بالخطاب الوعظي وتطويره، والارتقاء بأدائه، وضبطه بمنهج النبي ﷺ وهديه.

مفهوم الموعظة:

عرَّف علماء اللغة الموعظة بأنها: التذكير بما يُلِين القلب.

فعرَّفها الخليل (٢/ ٢٢٨) بقوله: «وَعَظْت الرجل، أَعِظُه عِظَةً، وموعظة: واتَّعَظَ: تقبَّل العِظَة، وهو تذكيرك إياه الخير ونحوه مِمَّا يَرِقُّ له قلبه».

وعرَّفها ابن منظور (٧/ ٤٦٦) بقوله: «والموعظة: النصح والتذكير بالعواقب؛ قال ابن سيده: هو تذكيرك للإنسان بما يُلِين قلبه من ثواب وعقاب».

وعرَّفها الجرجاني (٢٣٦) بقوله: «الموعظة: هي التي تُلِين القلوب القاسية، وتُدمع العيون الجامدة، وتُصلح الأعمال الفاسدة».

وجاء استخدامها في نصوص الشرع بمعنى أوسع، وقد سبقت الإشارة إلى استخدامات الوعظ في القرآن، فقد جاء في سياق دعوة المشركين إلى التوحيد، وفي وصايا لقمان لابنه، وأمره بالتوحيد، وتحذيره من الشرك، وأمره بالصلاة، وجاء في سياق الحديث عن الأحكام الشرعية... إلخ.

وجاء في السنة استخدامه بمعنى أوسع مما يتعلق بترقيق القلب:

فعن ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ مرَّ على رجل من الأنصار، وهو يعِظُ أخاه في الحياء، فقال رسول الله ﷺ: «دعه؛ فإن الحياء من الإيمان». (أخرجه البخاري ٢٤، ومسلم ٣٦)، قال الحافظ ابن حجر: «المراد بوعظه: أنه يذكر له ما يترتب على مُلازمته من المفسدة». (فتح الباري ١٠/ ٥٢٢).

وحين قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه لأسماء بنت عميس: سبقناكم بالهجرة، فنحن أحق برسول الله ﷺ منكم، قالت: كلّا والله، كنتم مع رسول الله ﷺ يطعم جائعكم، ويعظ

جاهلكم، وكُنَّا في دار- أو في أرض- البعداء البغضاء بالحبشة، وذلك في الله، وفي رسوله ﷺ. (أخرجه البخاري ٤٢٣٠، ومسلم ٢٥٠٣).

مواعظه مؤثرة:

كانت مواعظ النبي ﷺ ذات أثر بالغ على أصحابه، فقد اجتمع فيها صدق الواعظ، وبلاغته، واستعداد المستمع، ورقة قلبه.

يصور لنا ذلك المعنى العرباض بن سارية رضي الله عنه فيقول: وعظنا رسول الله ﷺ يومًا بعد صلاة الغداة موعظة بليغة ذرفت منها العيون، ووجلت منها القلوب، فقال رجل: إن هذه موعظة مُودِّع، فماذا تعهد إلينا يا رسول الله؟ قال: «أوصيكم بتقوى الله، والسمع والطاعة، وإن عبد حبشي؛ فإنه مَن يعشْ منكم يَرَ اختلافًا كثيرًا، وإياكم ومحدثات الأمور؛ فإنها ضلالة، فمَن أدرك ذلك منكم، فعليه بسُنَّتِي، وسُنَّة الخلفاء الراشدين المهديِّين، عَضُّوا عليها بالنَّواجِذ». (أخرجه الترمذي ٢٦٧٦، وأبو داود ٤٦٠٧، وابن ماجه ٤٤، وأحمد ١٦٦٩٢).

وكانوا يبكون عند سماع مواعظه، فعن أنس رضي الله عنه قال: خطب رسول الله ﷺ خطبة ما سمعت مثلها قطُّ، قال: «لو تعلمون ما أعلم؛ لضحكتم قليلًا، ولبكيتم كثيرًا»، قال: فغطَّى أصحاب رسول الله ﷺ وجوههم لهم خنين. (أخرجه البخاري ٤٦٢١، ومسلم ٢٣٥٩).

التخوُّل بالموعظة:

النفوس البشرية تسأم وتمل، ومهما بلغ الناس من الإيمان والتقوى فسيبقون بشرًا؛ ولهذا لم يكن ﷺ يُكثر الموعظة لأصحابه، بل كان يتخوَّلهم بها.

عن ابن مسعود ﷺ قال: كان النبي ﷺ يتخوَّلنا بالموعظة في الأيام؛ كراهة السآمة علينا. (أخرجه البخاري ٦٨، ومسلم ٢٨٢١).

فإذا كان النبي ﷺ- وهو أعذب الناس حديثًا- لا يُكثر الموعظة، وإذا كان الصحابة رضوان الله عليهم يُخاف عليهم السآمة والملل، وهم أبعد الناس عن الغفلة، وأتقى الناس، وأرقهم قلوبًا، فكيف بغيرهم من الناس؟

وقد عمل ابن مسعود ﷺ، رواي الحديث بهذا المعنى، فعن أبي وائل، قال: كان عبد الله يُذكر الناس في كل خميس، فقال له رجل: يا أبا عبد الرحمن لَوَدَدْتُ أنك ذكرتنا كل يوم؟ قال: أما إنه يمنعني من ذلك أني أكره أن أملَّكم، وإني أتخوَّلكم بالموعظة، كما كان النبي ﷺ يتخوَّلنا بها؛ مخافة السآمة علينا. (أخرجه البخاري ٧٠، ومسلم ٢٨٢١).

بل كان ﷺ يترك ذلك رغم رغبة أصحابه بالموعظة، عن شقيق، قال: كُنَّا جلوسًا عند باب عبد الله ننتظره، فمرَّ بنا يزيد بن معاوية النخعي، فقلنا: أَعْلِمْهُ بمكاننا، فدخل عليه، فلم يلبث أن خرج علينا عبد الله، فقال: إني أخبر بمكانكم، فما يمنعني أن أخرج إليكم إلا كراهية أن أُملَّكم، «إن رسول الله ﷺ كان يتخوَّلنا بالموعظة في الأيام، مخافة السآمة علينا». (أخرجه مسلم ٢٨٢١).

وأوصى ابن عباس رضي الله عنهما عكرمة بألَّا يُكثر الموعظة، وألا يستكره الناس عليها، فعن عكرمة، عن ابن عباس رضي الله عنهما، قال: «حَدِّث الناس كل جمعة مرة، فإن أَبَيْت فمرتين، فإن أكثرت فثلاث مرار، ولا تمل الناس هذا القرآن، ولا ألفينَّك تأتي القوم، وهم في حديث من حديثهم، فتقص عليهم، فتقطع عليهم حديثهم فتملهم، ولكن أنصت، فإذا أمروك فحدِّثهم وهم يشتهونه، فانظر السجع من الدعاء فاجتنبه، فإني عهدت رسول الله ﷺ وأصحابه لا يفعلون إلا ذلك، يعني: لا يفعلون إلا ذلك الاجتناب». (أخرجه البخاري ٦٣٣٧).

وفي قول ابن مسعود ﷺ: «كراهة السآمة علينا» دليل على أهمية اعتبار المُربِّ لحال المتربين واستعدادهم، وتتسع دلالة النص، فلا تقف عند مُجرَّد كثرة الموعظة، بل يشمل ذلك كل ما يقود إلى السآمة، أو يعوق عن الاستفادة من تأثيرها: من أسلوب ولغة، أو توقيت، أو إطالة، أو ما يثير الحرج، أو يجرح المشاعر...إلخ.

وأكَّد أهل العلم على مراعاة حال الناس، قال الخطيب في الجامع (١/ ٣٣٠): «حق الفائدة أن تُساق إلى مُبتغيها، ولا تُعرض إلا على الراغب فيها؛ فإذا رأى المحدث بعض الفتور من المستمع فليسكت؛ فإن بعض الأدباء قال: نشاط القائل على قدر فهم المستمع».

وأخرج بإسناده (١/ ٣٣٠)، عن أبي الأحوص، عن عبد الله ﷺ، قال: «حدِّث القوم ما أقبلت عليك قلوبهم، فإذا انصرفت قلوبهم، فلا تُحدِّثْهم»، قيل له: ما علامة ذلك؟ قال: إذا حدقوك بأبصارهم، فإذا تثاءبوا، واتَّكأ بعضهم على بعض فقد انصرفت قلوبهم، فلا تُحدِّثْهم».

وأخرج الدارمي في سُنَنِه (٤٥٤): عن ابن مسعود ﷺ قوله: «إن للقلوب لنشاطًا وإقبالًا، وإن لها لتولية وإدبارًا؛ فحدِّثوا الناس ما أقبلوا عليكم».

وبعض المُربِّين والدعاة الغيورين ينهمك في موعظة، ويتفاعل مع حديث مُكرَّر، أو مما يُنسي آخرُه أولَه، أو يمل الناس بلغة لا تليق، أو جرح للمشاعر، أو مبالغة في وصف الواقع بالتقصير والانحراف، وربما أغراه تفاعل عدد من المعجبين به، والمتأثرين بحديثه، وغفل عن فئة لا تقل عنهم ممن أملَّهم الحديث.

وهنا يخرج الوعظ عن مساره، وربما جاء بنقيض ما يريده المربي ويتطلع إليه.

والإملال الممقوت في الوعظ ليس قاصرًا على الخطاب الجماعي، بل هو يشمل الموعظة الفردية والحديث الخاص؛ فالإكثار منه، أو القسوة فيه يُخرجه من دائرة التأثير إلى الإملال.

استثمار المواقف المؤثرة:

من مواطن الوعظ النبوي مواقف التأثر؛ فقد كان ﷺ يغتنم هذه المواقف في الوعظ؛ فعن البراء بن عازب ﷺ قال: خرجنا مع رسول الله ﷺ في جنازة رجل من الأنصار، فانتهينا إلى القبر ولما يلحد، فجلس رسول الله ﷺ، وجلسنا حوله كأنما على رؤوسنا الطير، وفي يده عود ينكت به في الأرض، فرفع رأسه، فقال: استعيذوا بالله من عذاب القبر، مرتين أو ثلاثًا .... »، وذكر ما يحصل للمرء في قبره. (أخرجه أبو داود ٤٧٥٣، وأحمد ١٨٠٦٣).

إن موقف الموت، وحضور الجنازة يستثير مشاعر الناس، وينقل تفكيرهم إلى الرحيل للآخرة، مما يجعل النفوس أكثر تهيؤًا لسماع الموعظة، وأكثر استعدادًا للتفاعل معها، والتأثُّر بها.

ومواقف التأثر والاستعداد النفسي قد تتمثل في أحوال الوفاة، والأمراض، ونحوها، أو في أحوال التغيرات الكونية: كالكسوف، والكوارث، وسيأتي حديث عن ذلك في موضوع استثمار المواقف.

وكما أن مواقف التأثُّر والاستعداد تُلائم الحالات الجماعية، فهي كذلك تُلائم الحالات الفردية: كوفاة قريب، أو حادث، ونحو ذلك، فمن المناسب استثمارها في الموعظة والتوجيه.

ولا يلزم من ذلك أن تكون كلمة متكلفة، أو طويلة، فقد يكفي توجيه عارض، كما أنه من المناسب هنا مراعاة مشاعر الشخص- و بخاصة أن الموقف فردي-، وتوجيه الحديث بأسلوب غير مباشر، كأن يشرك المتحدث نفسه قائلًا: مثل هذه المواقف تُذكِّرنا بالتهيؤ والاستعداد للرحيل، فلا ندري متى يحِلُّ الأجل.

الوعظ الفردي والجماعي:

كانت مواعظ النبي ﷺ كسائر أساليبه التربوية تتنوع بحسب المواقف، فتارة يعِظُ موعظة فردية، ومن ذلك:

موعظته لعبد الله بن عمر؛ فعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما، قال: أخذ رسول الله ﷺ بمنكبي، فقال: «كُنْ في الدنيا كأنك غريب، أو عابر سبيل»، وكان ابن عمر، يقول: «إذا أمسيت فلا تنتظر الصباح، وإذا أصبحت فلا تنتظر المساء، وخذ من صِحَّتك لمرضك، ومن حياتك لموتك». (أخرجه البخاري ٦٤١٦).

عن ابن عباس رضي الله عنهما، قال: كنت خلف رسول الله ﷺ يومًا، فقال: «يا غلام، إني أعلمك كلمات، احفظِ اللهَ يحفظْكَ، احفظ الله تجده تُجاهك، إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله، واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك، ولو اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك، رفعت الأقلام، وجفَّت الصُّحف». (أخرجه الترمذي ٢٥١٦، وأحمد ٢٦٦٩).

والموعظة الفردية لها تأثير مختلف؛ فالحديث الفردي يقتضي الإنصات، والمستمع مُوقن بأن الحديث مُوجَّه له لا لغيره، وبقاؤه في الذاكرة أقوى في الغالب.

وليست الموعظة الفردية قاصرة على حديث عن خطأ، أو عتاب على تقصير وتهاون، فكما في الموقفين السابقين: كان الحديث وصية عامة تُلائم أي شخص أو موقف؛ فالحديث الشخصي المُوجَّه لواقع المُتربِّي مباشرة قد لا يخلو من حرج، وتبقى المساحة العامة واسعة تستوعب جوانب عِدَّة يشترك فيها كثير من الناس.

وقد تكون الموعظة النبوية جماعية، كما في حديث العرباض رضي الله عنه - وسبقت الإشارة إليه - وكذلك حديث أنس: خطب رسول الله ﷺ خطبة ما سمعت مثلها قطُّ.

الموعظة عند التقصير:

وكما أن مواقف التأثر، والتهيؤ النفسي والوجداني تُلائم الموعظة، وتُمثل فرصة للمُربِّي ليغتنمها في ذلك، فكذلك مواقف التقصير والخطأ؛ فالنفس البشرية تعتريها أحوال تَسامٍ وإشراق، وأحوال ضعف وقصور.

ومِن ثَمَّ؛ فإنه يجدر بالمُربِّي تدارك أحوال التقصير والضعف بالموعظة والتذكير، كما كان يفعله ﷺ، عن أنس بن مالك ﵁ قال: بلغ رسول الله ﷺ عن أصحابه شيء، فخطب فقال: «عُرِضت عليَّ الجنة والنار، فلم أرَ كاليوم في الخير والشَّرِّ، ولو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلًا، ولبكيتم كثيرًا»، قال: فما أتى على أصحاب رسول الله ﷺ يوم أشد منه، قال: غطوا رؤوسهم، ولهم خنين، قال: فقام عمر، فقال: رضينا بالله ربًّا، وبالإسلام دينًا، وبمحمد نبيًّا، قال: فقام ذاك الرجل فقال: مَن أَبِي؟ قال: «أبوك فلان»، فنزلت: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَسْـَٔلُوا۟ عَنْ أَشْيَآءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ﴾. (المائدة: ١٠١). (أخرجه مسلم ٢٣٥٩، وهو في البخاري ٤٦٢١، دون موضع الشاهد).

وعن عطاء بن يسار، عن رجل من الأنصار، أنه سمع رسول الله ﷺ، وهو مجاور في المسجد يومًا، فوعظ الناس، وحذَّرهم، ورغَّبهم، ثم قال: «إنه ليس من مُصَلٍّ إلا وهو يناجي ربه؛ فلا يجهر بعضكم على بعض بالقرآن». (أخرجه النسائي في الكبرى ٣٣٤٦).

والوعظ عند التقصير والخطأ منهج قرآني؛ فقد جاء في كتاب الله عز وجل وعظ المؤمنين، وتذكيرهم عند مواطن القصور، جاء ذلك في سورة الأنفال، في التعقيب على اختلافهم في الأنفال والغنائم، فقال سبحانه: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ ۖ قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَصْلِحُوا۟ ذَاتَ بَيْنِكُمْ ۖ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ (الأنفال: ١).

وفي التعقيب على أحداث غزوة أحد قال سبحانه: ﴿ وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَ ۚ مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ ۚ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ ۖ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥٢﴾ ۞ إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُۥنَ عَلَىٰٓ أَحَدٍ وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِىٓ أُخْرَىٰكُمْ فَأَثَٰبَكُمْ غَمًّۢا بِغَمٍّ لِّكَيْلَا تَحْزَنُوا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَآ أَصَٰبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٥٣﴾ ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنۢ بَعْدِ ٱلْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَىٰ طَآئِفَةً مِّنكُمْ ۖ وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ ظَنَّ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ۖ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ مِن شَىْءٍ ۗ قُلْ إِنَّ ٱلْأَمْرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِ ۗ يُخْفُونَ فِىٓ أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبْدُونَ لَكَ ۖ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَٰهُنَا ۗ قُل لَّوْ كُنتُمْ فِى بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ ۖ وَلِيَبْتَلِىَ ٱللَّهُ مَا فِى صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِى قُلُوبِكُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴾ آل عمران: ١٥٢ - ١٥٤ .

وهكذا في التعقيب على أحداث الإفك، وغزوة حنين... إلخ.

الموعظة في الغزو:

وكما كان ﷺ يعظ أصحابه في المسجد وهو في المدينة، فقد كان يعظُهم في الغزو، سأل رجل عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما: هل حضرت رسول الله ﷺ حين كلّمه التميمي يوم حنين؟ قال: نعم، أقبل رجل من بني تميم يُقال له: ذو الخويصرة، فوقف على رسول الله ﷺ، وهو يعظ الناس، فقال: يا محمد، قد رأيت ما صنعت في هذا اليوم، فقال رسول الله ﷺ: «وكيف رأيت؟»، قال: لم أرَكَ عدلت، قال: فغضب رسول الله ﷺ، ثم قال: «ويحك، إن لم يكن العدل عندي، فعند مَن يكون؟»، فقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: يا رسول الله، ألا نقتله؟، قال: «لا، دعوه، فإنه سيكون له شيعة يتعمَّقون في الدين حتى يخرجوا منه، كما يخرج السهم من الرَّمِيَّة، فينظر في النصل، فلا يوجد شيء، ثم في القدح،

فلا يوجد شيء، ثم في الفوق، فلا يوجد شيء، سبق الفرث والدم». (أخرجه عبدالله بن الإمام أحمد في السنة ١٥٠٤).

ضوابط في الموعظة:

الموعظة- كغيرها من الوسائل والأساليب التربوية- ينبغي أن تُوظَّف بالتوقيت والقدر المناسب، وأن تُراعَى في التعامل معها الضوابط اللازمة؛ فهي ليست عملًا تعبُّديًا محضًا، بل هي وسيلة معقولة المعنى ينبغي أن يجتهد المُربِّي في تلمُّس مواطن التأثير فيها، وتلافي ما قد يُقلِّل من فاعليتها، بل ربما يُؤدي أحيانًا إلى التأثير السلبي.

ومن الضوابط المهمة التي ينبغي مراعاتها في الموعظة ما يلي:

١- البعد عن الإملال:

النفس البشرية يعتريها السأم والملل، ومهما كان المتحدث بليغًا فصيحًا مؤثرًا، فإن طاقة الناس على تحمُّله محدوده، فحَرِيٌّ به أن يُراعِي نشاط الناس واستعدادهم، وأن يتخوَّلهم بالموعظة، كما كان ﷺ يفعل، ويبتعد عن إملالهم، كما أوصى بذلك صاحبُه ابن مسعود ﵁.

٢- التوازن في الترغيب والترهيب:

ترتبط الموعظة لدى كثير من المتحدثين بالترهيب، والتخويف، والإنذار، والنفس البشرية تحتاج إلى الترغيب وإشاعة الرجاء كما تحتاج إلى الترهيب، والتخويف من عقوبات الآخرة والدنيا، و منهج القرآن والسنة هو التوازن بينهما، والنفس لا يُصلحها الترغيب وحده، أو الترهيب وحده، وسيأتي حديث مفصل بإذن الله عن الترغيب والترهيب.

٣- الاعتدال:

الموعظة تُخاطب الوجدان، وتستثير العاطفة، وهي في الأغلب لا تسلك مسلك اللغة العلمية الصارمة؛ فالواعظ لا يُناقش دلالة النص، وخلاف أهل العلم، ومدى صحة الاستدلال...، كما أنه لايُوظِّف لغة العقل والمنطق الذي يُقرر المقدمات، ثم ينطلق منها إلى النتائج، أو يفترض الفروض ويناقشها.

إنه يستشهد بالنصوص من القرآن والسنة، وأقوال أهل العلم، ويورد القصص والحكايات، وهو في ذلك كله يخاطب الوجدان والعاطفة، وهذا قد يُؤدي ببعض الوُعَّاظ إلى المبالغة، وتجاوز الاعتدال، واستنتاجات وتعميمات غير دقيقة.

فقد يُبالغ الواعظ في التحذير من صغيرة من الصغائر؛ فيحولها إلى كبيرة وموبقة، وربما جعلها سببًا للضلال، وسوء الخاتمة، وقد يُبالغ الواعظ في استثارة الرجاء لدى الناس حين يستهدف حثهم على التوبة، والترغيب فيها؛ فيُهوِّن من شأن المعصية، ويُقلِّل من شناعة الخطيئة، كحال ذلك الخطيب الذي قال للناس- وهو يحثُّهم على التوبة-: «إن الله لم يقل: لا تُسيئوا، ولكن قال: إذا أسأتم فاستغفروا».

كما يشمل الاعتدال ضبط الألفاظ، واستخدامها في السياق الملائم، والعناية بالوصف الشرعي دون إفراط أو تفريط، وقد رأينا من الوُعَّاظ مَن يُطلق أوصاف الدياثة، والبغاء، وذهاب الغيرة على بعض أحوال التساهل في اللباس، أو تصرفات الأهل والأولاد، وهذا فيه مبالغة في الحكم، وإيذاء للسامع.

وقد يُجاوز الواعظ حد الاعتدال في وصفه للواقع، فقد تحدَّث أحد الوُعَّاظ عن خروج بعض الفتيات مع أصدقائهن، وبالغ في تحذير الآباء، حتى طالبهم بالاستيقاظ ليلًا لتفقُّد بناتهم، ومعظم المصلِّين الذي يسمعون هذا الحديث هم من الأُسَرِ المحافظة.

إن الاعتدال سُنَّة الله في الحياة، وهو منهج الشريعة، قامت عليه، ودعت له، ولا يُصلِح الناس سوى المنهج الشرعي، ومجانبته مدعاة للسأم والنفور من الواعظ، بل ربما كان سكوته خيرًا من حديث مبالغ فيه.

الترغيب والترهيب

الترغيب في العملَ الصالح له أثره في حفز النفس على الإنابة إلى الله، والإقبال عليه، وعمل الطاعة، قال السعدي: «فإن التيسير لأعمال الخير، وتهوينها على العاملين، والاقتناع بما تيسَّر، وسمحت به هممهم وعزائمهم، وأمر كل أحد ودعوته بما يناسب حاله، وتقتضيه نفسه وطبيعته، ويهون عليه؛ لا ريب في نفعه وسهولة الإجابة إليه، وخصوصًا إذا انضم إلى التيسير: التبشيرُ بخيره، وثمراته العاجلة والآجلة، ونفعه اللازم والمتعدي». (الرياض الناضرة، الأعمال الكاملة ١/ ٤٩٨).

وكما أن الترغيب يُحفِّز النفس على العمل الصالح، والاجتهاد في طاعة الله عز وجل، فإن الترهيب والتحذير يمنعها، ويحجزها عن معصية الله عز وجل، وعن مقارفة الخطايا.

لذا؛ اعتنى القرآن الكريم بالترغيب والترهيب، وقَرَن بينهما كثيرًا، قال سبحانه وتعالى: ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ ٱلْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوْمًا لُّدًّا﴾ (مريم: ٩٧).

وبيَّن الله سبحانه وتعالى جمع النبي ﷺ بين التبشير والنذارة بالقرآن الكريم، فقال سبحانه: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ۜ ﴿١﴾ قَيِّمًا لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا ﴿٢﴾ مَّٰكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا ﴿٣﴾ وَيُنذِرَ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا﴾ (الكهف: ١ - ٤).

الجمع بين الترغيب والترهيب:

النفس البشرية فيها إقبال وإدبار، وفيها شِرَّة وفترة، ومِن ثَمَّ؛ كان المنهج التربوي النبوي يتعامل مع هذه النفس بكل هذه الاعتبارات، ومن ذلك: الجمع بين الترغيب والترهيب، والرجاء والخوف.

فكان ﷺ يُخوِّفهم عذاب الله عز وجل، ويُذكِّرهم بوعيده؛ حتى يبكون وترقَّ قلوبهم، عن أنس ﷺ، قال: خطب رسول الله ﷺ خطبة ما سمعت مثلها قطُّ، قال: «لو تعلمون ما أعلم؛ لضحكتم قليلًا، ولبكيتم كثيرًا»، قال: فغطَّى أصحاب رسول الله ﷺ وُجوههم لهم خنين. (أخرجه البخاري ٤٦٢١، ومسلم ٢٣٥٩).

وكان ﷺ يفتح لهم أبواب الرجاء، ويُذكِّرهم سعة رحمة الله عز وجل، ومن ذلك ما حدَّث به أبو ذَرٍّ ﷺ قال: أتيت النبي ﷺ، وعليه ثوب أبيض، وهو نائم، ثم أتيته، وقد استيقظ فقال: «ما من عبد قال: لا إله إلا الله، ثم مات على ذلك؛ إلا دخل الجنة»، قلت: وإن زَنَى، وإن سَرَق؟ قال: «وإن زَنَى، وإن سَرَق»، قلت: وإن زَنَى، وإن سَرَق؟، قال: «وإن زَنَى، وإن سَرَق»، قلت: وإن زَنَى، وإن سَرَق؟ قال: «وإن زَنَى، وإن سَرَق على رغم أنف أبي ذَرٍّ»، وكان أبو ذَرٍّ إذا حدَّث بهذا قال: وإن رغم أنف أبي ذَرٍّ. (أخرجه البخاري ٥٨٢٧، ومسلم ٩٤).

وعن أبي هريرة ﷺ قال: كُنَّا قعودًا حول رسول الله ﷺ، معنا أبو بكر وعمر في نفر، فقام رسول الله ﷺ من بين أظهُرنا، فأبطأ علينا، وخشينا أن يقتطع دوننا، وفزعنا، فقمنا، فكنت أول مَن فزع، فخرجت أبتغي رسول الله ﷺ حتى أتيت حائطًا للأنصار لبني النجار، فدرت به هل أجد له بابًا؟ فلم أجد، فإذا ربيع يدخل في جوف حائط من بئر خارجة- والربيع: الجدول-، فاحتفزت كما يحتفز الثعلب، فدخلت على رسول الله ﷺ فقال: «أبو هريرة؟»، فقلت: نعم يا رسول الله، قال: «ما شأنك؟»، قلت: كنت بين أظهُرنا، فقمتَ فأبطأتَ علينا، فخشينا أن تقتطع دوننا، ففزعنا، فكنت أول مَن فزع، فأتيت هذا الحائط، فاحتفزت كما يحتفز الثعلب، وهؤلاء الناس ورائي، فقال: «يا أبا هريرة»- وأعطاني نعليه- قال: «اذهب بنعليَّ هاتين، فمَن لقيت من وراء هذا الحائط يشهد أن لا إله إلا الله مُستيقنًا بها قلبه؛ فبشِّره بالجنة»الحديث. (أخرجه مسلم ٣١).

وربما جمع ﷺ الترغيب والترهيب في موقف واحد، فعن أنس بن مالك ﷺ، قال: إن رسول الله ﷺ صلَّى لنا يومًا الصلاة، ثم رَقَى المنبر، فأشار بيده قِبَل قِبلة المسجد، فقال: «قد أُريت الآن منذ صلَّيْت لكم الصلاة، الجنة والنار، ممثَّلتين في قِبَل هذا الجدار، فلم أرَ كاليوم في الخير والشَّرِّ، فلم أرَ كاليوم في الخير والشَّرِّ». (أخرجه البخاري ٦٤٦٨، ومسلم ٢٣٥٩).

ويُؤكِّد ﷺ على أصحابه الجمع بين الخوف والرجاء، عن أبي هريرة ﷺ، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الله خلق الرحمة يوم خلقها مائة رحمة، فأمسك عنده تسعًا وتسعين رحمة، وأرسل في خلقه كلهم رحمة واحدة، فلو يعلم الكافر بكل الذي عند الله من الرحمة لم ييأس من الجنة، ولو يعلم المؤمن بكل الذي عند الله من العذاب لم يأمن من النار». (أخرجه البخاري ٦٤٦٩، ومسلم ٢٧٥٥).

ويُبيِّن ﷺ أن الجنة قد حُجبت بالمكاره، والنار بالشهوات، عن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «حُجبت النار بالشهوات، وحُجبت الجنة بالمكاره». (أخرجه البخاري ٦٤٨٧)

وعن أنس بن مالك ﷺ، قال: قال رسول الله ﷺ: «حُفَّت الجنة بالمكاره، وحُفَّت النار بالشهوات». (أخرجه مسلم ٢٨٢٢).

ويُبيِّن ﷺ قُرْب الجنة والنار من العبد؛ ليعيش المسلم بين الرجاء والخوف، عن عبد الله بن مسعود ﷺ، قال: قال النبي ﷺ: «الجنة أقرب إلى أحدكم من شِرَاك نَعْلِه، والنار مثل ذلك». (أخرجه البخاري ٦٤٨٨).

قال ابن حجر: «قال ابن بطال فيه: إن الطاعة مُوصِّلة إلى الجنة، وإن المعصية مُقرِّبة إلى النار، وإن الطاعة والمعصية قد تكون في أيسر الأشياء، وتقدم في هذا المعنى قريبًا حديث:

«إن الرجل ليتكلم بالكلمة ...» الحديث، فينبغي للمرء أن لا يزهد في قليل من الخير أن يأتيه، ولا في قليل من الشَّرِّ أن يجتنبه؛ فإنه لا يعلم الحسنة التي يرحمه الله بها، ولا السيئة التي يسخط عليه بها». (فتح الباري ١١/ ٣٢١).

ويجمع ﷺ بين الترغيب والترهيب في ذكر عمل أهل الجنة، وعمل أهل النار، عن حارثة بن وهب الخزاعي، قال: سمعت النبي ﷺ يقول: «ألا أُخبركم بأهل الجنة؟ كل ضعيف مُتضعف، لو أقسم على الله لأبَرَّه، ألا أُخبركم بأهل النار: كل عُتُلٍّ، جوَّاظ، مُستكبر». (أخرجه البخاري ٤٩١٨، ومسلم ٢٨٥٣).

كما يُقارن ﷺ بين الجنة والنار، عن أبي هريرة ﷺ، قال: قال النبي ﷺ: «تحاجَّت الجنة والنار، فقالت النار: أُوثِرْت بالمُتكبرين والمُتجبرين، وقالت الجنة: ما لي لا يدخلني إلا ضعفاء الناس وسقطهم، قال الله تبارك وتعالى للجنة: أنت رحمتي، أرحم بك مَن أشاء من عبادي، وقال للنار: إنما أنت عذابي، أُعذِّب بك مَن أشاء من عبادي، ولكل واحدة منهما مِلؤها، فأما النار: فلا تمتلئ حتى يضع رجله، فتقول: قطٍّ قطٍّ، فهنالك تمتلئ، ويُزوى بعضها إلى بعض، ولا يظلم الله عز وجل من خلقه أحدًا، وأما الجنة: فإن الله عز وجل يُنشئ لها خلقًا». (أخرجه البخاري ٤٨٥٠، ومسلم ٢٨٤٦).

ويُقارن ﷺ بين حال أهلهما عند أول غمسة للنعيم، أو العذاب، فعن أنس بن مالك ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «يُؤتَى بأنعم أهل الدنيا من أهل النار يوم القيامة، فيُصبغ في النار صبغة، ثم يُقال: يا ابن آدم، هل رأيت خيرًا قطُّ؟ هل مرَّ بك نعيم قطٍّ؟ فيقول: لا والله يا ربِّ، ويُؤتَى بأشد الناس بُؤسًا في الدنيا من أهل الجنة، فيُصبغ صبغة في الجنة، فيُقال له: يا ابن آدم، هل رأيت بُؤسًا قطُّ؟ هل مرَّ بك شدة قطُّ؟ فيقول: لا والله يا ربِّ، ما مرَّ بي بُؤس قطٍّ، ولا رأيت شدة قطُّ». (أخرجه مسلم ٢٨٠٧).

موضوعات الترغيب النبوي:

تنوعت موضوعات الترغيب النبوي، ومن ذلك ما يلي:

أولًا: الترغيب في التوبة:

أمر الله- تبارك وتعالى- نبيَّه ﷺ بترغيب عبادة بالتوبة، فقال سبحانه وتعالى: ﴿وَإِذَا جَآءَكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِنَا فَقُلْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ أَنَّهُۥ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوٓءًۢا بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُۥ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ (الأنعام: ٥٤).

وكان ﷺ يُرغِّب أصحابه بالتوبة، ويذكر فضائلها؛ فيُحدِّثهم عن قبول الله عز وجل لتوبة العبد، وأنه تبارك وتعالى يبسط يده بالليل والنهار حتى تطلع الشمس من مغربها، عن أبي موسى ﷺ عن النبي ﷺ، قال: «إن الله عز وجل يبسط يده بالليل؛ ليتوب مسيء النهار، ويبسط يده بالنهار؛ ليتوب مسيء الليل، حتى تطلع الشمس من مغربها». (أخرجه مسلم ٢٧٥٩).

ويُخبرهم ﷺ أن الله عز وجل يُحب توبة عبده، ويفرح لذلك، ويضرب لهم مثلًا بليغًا، عن أنس ﷺ، قال: قال رسول الله ﷺ: «الله أفرح بتوبة عبده من أحدكم، سقط على بعيره، وقد أضله في أرض فلاة». (أخرجه البخاري ٦٣٠٩، ومسلم ٢٧٤٧).

وجاء في رواية مسلم (٢٧٤٧): «لله أشد فرحًا بتوبة عبده حين يتوب إليه من أحدكم، كان على راحلته بأرض فلاة، فانفلتت منه، وعليها طعامه وشرابه، فأَيِسَ منها، فأتى شجرة، فاضطجع في ظلها، قد أَيِسَ من راحلته، فبينا هو كذلك إذا هو بها قائمة عنده، فأخذ بخطامها، ثم قال من شدة الفرح: اللهم أنت عبدي، وأنا ربك، أخطأ من شدة الفرح».

ويربط ﷺ بيان سعة رحمة الله، وقبول توبة عبده بموقف عملي، فحين سأله بعض أصحابه عن صلاته على المرأة التي رُجِمت من الزنا، بيَّن لهم عِظَمَ توبتها، فعن عمران بن

حصين رضي الله عنهما أن امرأة من جهينة أتت نبي الله ﷺ، وهي حُبْلَى من الزِّنَى، فقالت: يا نبي الله، أصبت حدًّا، فأقِمْه عليَّ، فدعا نبي الله ﷺ وليها، فقال: «أحْسِن إليها، فإذا وضعت فأتني بها»، ففعل، فأمر بها نبي الله ﷺ، فشكت عليها ثيابها، ثم أمر بها فرُجِمت، ثم صلَّى عليها، فقال له عمر: تُصلِّي عليها يا نبي الله، وقد زنت؟ فقال: «لقد تابت توبة لو قسمت بين سبعين من أهل المدينة لوسعتهم، وهل وجدت توبة أفضل من أن جادت بنفسها لله تعالى؟». (أخرجه مسلم ١٦٩٦).

ثانيًا: الترغيب في رحمة الله:

يُرغِّب ﷺ أصحابه في رحمة الله عز وجل، ويربط المعنى بموقف عملي يرونه، عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: قَدِمَ على النبي ﷺ سبيٌ، فإذا امرأة من السبي قد تحلب ثديها تسقي، إذا وجدت صبيًّا في السَّبْي أخذته، فألصقته ببطنها، وأرضعته، فقال لنا النبي ﷺ: «أترون هذه طارحة ولدها في النار؟»، قلنا: لا، وهي تقدر على أن لا تطرحه، فقال: «لله أرحم بعباده من هذه بولدها». (أخرجه البخاري ٥٩٩٩، ومسلم ٢٧٥٤).

وآثار رحمة الله عز وجل على العبد تشمل الإحسان له في الدنيا، ومغفرة الذنوب في الآخرة، والنجاة من عذاب البرزخ وعذاب النار.

ثالثًا: الترغيب في ثواب الآخرة:

الجنة هي غاية مطالب المؤمن، فلِأَجْلِها يسعى ويَحْفِد، ويتحمَّل المكاره والمشاقَّ في هذه الدار؛ علَّه يحظى برحمة الله عز وجل؛ فيكون من أهلها.

لذا؛ كان الترغيب في الجنة ونعيمها من أكثر ما يُرغِّب فيه ﷺ أصحابه رضوان الله عليهم، ومن صور الترغيب النبوي بنعيم الآخرة ما يلي:

١ - التذكير بعيش الآخرة عند المشقة:

كان ﷺ يُذكِّر أصحابه في أحوال المشقة الدنيوية بعيش الآخرة، وأنه العيش الحقيقي، عن أنس ﷺ قال: خرج رسول الله ﷺ إلى الخندق، فإذا المهاجرون والأنصار يحفرون في غداة باردة، فلم يكن لهم عبيدٌ يعملون ذلك لهم، فلما رأى ما بهم من النَّصَب والجوع، قال: «اللهم إن العيش عيش الآخره، فاغفر للأنصار والمهاجرة»، فقالوا- مجيبين له-:

نَحْنُ الَّذِينَ بَايَعُوا مُحَمَّدا   عَلَى الجِهَادِ مَا بَقِينَا أبدا

(أخرجه البخاري ٢٨٣٤، ومسلم ١٨٠٥).

٢- المُقارنة بين متاع الجنة، ومتاع الدنيا:

يُقارن ﷺ بين متاع الجنة، ومتاع الدنيا، مُبيِّنًا أن موضع السَّوط من الجنة يعدل الدنيا بمتاعها كلها، عن سهل ﷺ، قال: سمعت النبي ﷺ يقول: «موضع سوط في الجنة، خير من الدنيا وما فيها، ولغدوة في سبيل الله أو رَوْحَة، خير من الدنيا وما فيها». (أخرجه البخاري ٦٤١٥).

٣- ربط العمل الصالح بدخول الجنة:

يربط ﷺ جزاء العمل الصالح بدخول الجنة، وقد ورد ذلك في أحاديثَ عِدَّة، منها:

الصبر على فقدان الصَّفِيِّ من الدنيا، عن أبي هريرة ﷺ: أن رسول الله ﷺ قال: «يقول الله تعالى: ما لعبدي المؤمن عندي جزاءٌ، إذا قبضت صفيَّه من أهل الدنيا ثم احتسبه؛ إلا الجنة». (أخرجه البخاري ٦٤٢٤).

الصبر عند فقد البصر، عن أنس بن مالك ﷺ، قال: سمعت النبي ﷺ يقول: «إن الله قال: إذا ابتليتُ عبدي بحبيبَتَيْه فصبر؛ عوَّضته منهما الجنة» يريد: عينيه. (أخرجه البخاري ٥٦٥٣).

٤- الترغيب بنعيم الآخرة في موقف الحشر:

يُرغِّب ﷺ أصحابه بذكر حوضه الشريف، وبيان صفته، عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال: قال النبي ﷺ: «حوضي مسيرة شهر، ماؤه أبيض من اللبن، وريحه أطيب من المسك، وكِيزانه كنجوم السماء، مَن شرب منها فلا يظمأ أبدًا». (أخرجه البخاري ٦٥٧٩، ومسلم ٢٢٩٢).

ويُبيِّن ﷺ لأصحابه أنه يعرفهم بأثر العبادة، فعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إن حوضي أبعد من أَيْلَةَ من عدن، لهو أشد بياضًا من الثلج، وأحلى من العسل باللبن، ولآنِيَتُه أكثر من عدد النجوم، وإني لأصدُّ الناس عنه، كما يصدُّ الرجلُ إبلَ الناس عن حوضه»، قالوا: يا رسول الله، أتعرفنا يومئذ؟ قال: «نعم، لكم سِيما ليست لأحد من الأُمَم، ترِدُون عليَّ غُرًّا، مُحجَّلين من أثر الوضوء». (أخرجه مسلم ٢٤٧).

ويربط ﷺ متاع الحوض بالبعد عن التنافس في الدنيا وزينتها، فعن عقبة بن عامر رضي الله عنه أن النبي ﷺ خرج يومًا، فصلَّى على أهل أُحُدٍ صلاته على الميت، ثم انصرف إلى المنبر، فقال: «إني فرط لكم، وأنا شهيد عليكم، وإني والله لأنظر إلى حوضي الآن، وإني أُعطيت مفاتيح خزائن الأرض- أو مفاتيح الأرض-، وإني والله ما أخاف عليكم أن تشركوا بعدي، ولكن أخاف عليكم أن تنافسوا فيها». (أخرجه البخاري ١٣٤٤، ومسلم ٢٢٩٦).

وقد كان هذا الترغيب النبوي من آخر ما حدَّث النبي ﷺ به أصحابه، ففي رواية مسلم (٢٢٩٦): ثم صعد المنبر- كالمودع للأحياء والأموات-، فقال: «إني فرطكم على الحوض، وإن عرضه كما بين أَيْلَةَ إلى الجُحْفَةِ، إني لست أخشى عليكم أن تشركوا بعدي، ولكني أخشى عليكم الدنيا أن تنافسوا فيها، وتقتتلوا؛ فتهلكوا، كما هلك مَن كان قبلكم»، قال عقبة: فكانت آخر ما رأيت رسول الله ﷺ على المنبر.

٥- وصْفُ حال أهل الجنة ونعيمهم:

ويُرغِّب ﷺ أصحابه بالحديث عن وصْفِ حال أهل الجنة ونعيمها، وقد تعددت صور ذلك، فمنها:

أ- بيانه عظمة نعيم أهل الجنة:

عن أبي هريرة ﷺ، قال: قال رسول الله ﷺ: «قال الله: أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رَأَتْ، ولا أذن سمعَتْ، ولا خطر على قلب بشر، فاقرؤوا إن شئتم: ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ ﴾(السجدة: ١٧)». (أخرجه البخاري ٣٢٤٤، ومسلم ٢٨٢٤).

وعن سهل بن سعد الساعدي ﷺ قال: شهدت مِن رسول الله ﷺ مجلسًا وصف فيه الجنة حتى انتهى، ثم قال ﷺ في آخر حديثه: «فيها ما لا عين رَأَتْ، ولا أذن سمعَتْ، ولا خطر على قلب بشر»، ثم اقترأ هذه الآية: ﴿ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿١٦﴾ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ (السجدة: ١٦ - ١٧). (أخرجه مسلم ٢٨٢٥).

ويُبيِّن ﷺ لأصحابه سعة نعيم أهل الجنة، فعن أبي هريرة ﷺ، قال: قال رسول الله ﷺ: «مَن آمن بالله وبرسوله، وأقام الصلاة، وصام رمضان؛ كان حقًّا على الله أن يدخله الجنة، جاهد في سبيل الله، أو جلس في أرضه التي وُلِد فيها»، فقالوا: يا رسول الله، أفلا نُبشِّر الناس؟ قال: «إن في الجنة مائة درجة، أعدَّها الله للمجاهدين في سبيل الله، ما بين الدَّرجتين كما بين السماء والأرض، فإذا سألتم الله، فاسألوه الفردوس، فإنه أوسط الجنة، وأعلى الجنة- أراه- فوقه عرش الرحمن، ومنه تفجَّر أنهار الجنة». (أخرجه البخاري ٢٧٩٠).

ومن صور بيانه ﷺ لسعة الجنة ونعيمها: أنه حدَّثهم عن ظل شجرة واحدة من شجر الجنة، فعن سهل بن سعد ﷺ عن رسول الله ﷺ قال: «إن في الجنة لشجرة، يسير الراكب في ظلها مائة عام لا يقطعها». (أخرجه البخاري ٦٥٥٢، ومسلم ٢٨٢٧).

وفي حديث أبي هريرة ﷺ، أعقب النبي ﷺ هذا الوصف بقوله: واقرؤوا إن شئتم: ﴿وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ﴾ (الواقعة: ٣٠). (أخرجه البخاري ٣٢٥٢).

وحدَّث ﷺ أصحابه عن منازل- غُرَف- أهل الجنة، وما بينها، فعن سهل ﷺ، عن النبي ﷺ قال: «إن أهل الجنة ليتراءون الغُرف في الجنة، كما تتراءون الكوكب في السماء». (أخرجه البخاري ٦٥٥٥، ومسلم ٢٨٣٠).

وحين سمع أصحابه- رضوان الله عليهم- هذا الوصْفَ، ظنُّوا أن هذه المنازل ليست لهم؛ فعن أبي سعيد الخدري ﷺ، عن النبي ﷺ، قال: «إن أهل الجنة يتراءون أهل الغرف من فوقهم، كما يتراءون الكوكب الدري الغابر في الأفق، من المشرق أو المغرب، لتفاضل ما بينهم»، قالوا: يا رسول الله، تلك منازل الأنبياء لا يبلغها غيرهم؟، قال: «بلى، والذي نفسي بيده، رجال آمنوا بالله، وصدَّقوا المرسلين». (أخرجه البخاري ٣٢٥٦، ومسلم ٢٨٣١).

ب- وصف حال أهل الجنة:

ويُرغِّب ﷺ في الجنة ببيان وصف حال أهلها، فعن أبي هريرة ﷺ، عن النبي ﷺ: «أول زمرة تدخل الجنة على صورة القمر ليلة البدر، والذين على آثارهم كأحسن كوكب دُرِّي في السماء إضاءة، قلوبهم على قلب رجل واحد، لا تباغض بينهم، ولا تحاسد، لكل امرئ زوجتان من الحور العين، يُرَى مُخ سوقهن من وراء العظم واللحم». (أخرجه البخاري ٣٢٥٤، ومسلم ٢٨٣٤).

كما يصف ﷺ حالهم، ودوام نعيمهم الحسي والمعنوي، عن أبي هريرة ﷺ، عن النبي ﷺ، قال: «مَن يدخل الجنة ينعم لا يبأس، لا تُبلَى ثيابه، ولا يُفنَى شبابه». (أخرجه مسلم ٢٨٣٦).

ج- وَصْفُ أعمال أهل الجنة:

الغاية من الترغيب في نعيم الجنة هي الدعوة إلى عمل أهل الجنة، وحثُّ العباد على الاجتهاد في طلبها، لذا كان ﷺ كثيرًا ما يصف لأصحابه أعمال أهل الجنة، وأحوالهم في الدنيا، عن أبي هريرة ﷺ، عن النبي ﷺ، قال: «يدخل الجنة أقوام، أفئدتهم مثل أفئدة الطير». (أخرجه مسلم ٢٨٤٠).

ويربط ﷺ الترغيب في الجنة بالعمل الصالح، فحين حدَّث أصحابه عن رؤية الله عز وجل حثَّهم على الحفاظ على صلاتَيِ الفجر والعصر، عن جرير بن عبد الله ﷺ، قال: كُنَّا عند النبي ﷺ، فنظر إلى القمر ليلة- يعني: البدر-، فقال: «إنكم ستَرَوْنَ ربكم، كما تَرَوْن هذا القمر، لا تُضامون في رؤيته، فإن استطعتم أن لا تغلبوا على صلاة قبل طلوع الشمس، وقبل غروبها، فافعلوا»، ثم قرأ: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ ٱلْغُرُوبِ﴾ (ق: ٣٩)، قال إسماعيل: «افعلوا، لا تفوتَنَّكم». (أخرجه البخاري ٥٥٤، ومسلم ٦٣٣).

ويُرغِّب ﷺ أصحابه بالمنازل العالية بذكر صفات أهل الجنة، ومَن يدخلها دون حساب، ولا عذاب، عن ابن عباس رضي الله عنهما: أن رسول الله ﷺ قال: «يدخل الجنة من أُمَّتي سبعون ألفًا بغير حساب، هم الذين لا يَسْتَرْقُون، ولا يتطيَّرُون، وعلى ربهم يتوكلون». (أخرجه البخاري ٦٤٧٢، ومسلم ٢٢٠).

وأما النصوص التي يَعِدُ فيها ﷺ مَن عمل أعمالًا مُعيَّنة بدخول الجنة: فهي عديدة، ولا يتسع المقام لإحصائها.

د- ذكر صور من نعيم أهل الجنة:

ويذكر ﷺ لأصحابه نماذجَ وصورًا من نعيم أهل الجنة، فعن أبي هريرة ﷺ: أن النبي ﷺ كان يومًا يُحدِّث، وعنده رجل من أهل البادية: «أن رجلًا من أهل الجنة استأذن ربَّه في الزرع، فقال له: ألست فيما شئت؟ قال: بلى، ولكني أُحب أن أزرع، قال: فبذر، فبادر الطرف نباته، واستواؤه، واستحصاده، فكان أمثال الجبال، فيقول الله: دونك يا ابن آدم، فإنه لا يُشبعك شيء»، فقال الأعرابي: والله لا تجده إلا قُرشيًّا، أو أنصاريًّا، فإنهم أصحاب زرع، وأما نحن فلسنا بأصحاب زرع، فضحك النبي ﷺ. (أخرجه البخاري ٢٣٤٨).

هـ- بيانه أدنى نعيم أهل الجنة:

وبيَّن ﷺ لأصحابه أدنى أهل الجنة منزلة، وآخرهم دخولًا إليها، مُنبِّهًا بذلك على ما هو أعلى من النعيم، عن عبد الله ﷺ: قال النبي ﷺ: «إني لأعلم آخر أهل النار خروجًا منها، وآخر أهل الجنة دخولًا، رجل يخرج من النار كَبْوًا، فيقول الله: اذهب فادخل الجنة، فيأتيها، فيُخيل إليه أنها مَلْأَى، فيرجع، فيقول: يا ربِّ وجدتها مَلْأَى، فيقول: اذهب فادخل الجنة، فيأتيها فيُخيل إليه أنها مَلْأَى، فيرجع فيقول: يا رب وجدتها مَلْأَى، فيقول: اذهب فادخل الجنة، فإن لك مثل الدنيا وعشرة أمثالها- أو: إن لك مثل عشرة أمثال الدنيا- فيقول: تسخر مني- أو: تضحك مني-، وأنت الملك»، فلقد رأيت رسول الله ﷺ ضحك حتى بدت نواجذه، وكان يُقال: «ذاك أدنى أهل الجنة منزلة». (أخرجه البخاري ٦٥٧١، ومسلم ١٨٦).

وفي رواية لمسلم (١٨٧): «آخر مَن يدخل الجنة رجل، فهو يمشي مرة، ويكْبُو مرة، وتسفعه النار مرة، فإذا ما جاوزها التفت إليها، فقال: تبارك الذي نجَّاني منك، لقد أعطاني الله شيئًا ما أعطاه أحدًا من الأولين والآخرين، فترفع له شجرة، فيقول: أي ربِّ، أَدْنِني من هذه الشجرة فلأستظل بظلِّها، وأشرب من مائها، فيقول الله عز وجل: يا ابن آدم، لعلي

إن أعطَيْتُكَها سألتني غيرها، فيقول: لا يا ربِّ، ويُعاهده أن لا يسأله غيرها، وربُّه يعذره؛ لأنه يرى ما لا صبر له عليه، فيدُنيه منها، فيستظل بظلها، ويشرب من مائها، ثم تُرفع له شجرة هي أحسن من الأولى، فيقول: أي ربِّ، أَدْنِني من هذه لِأَشْرب من مائها، وأستظلَّ بظلِّها، لا أسألك غيرها، فيقول: يا ابن آدم، ألم تُعاهدني أن لا تسألني غيرها؟ فيقول: لعلي إن أدنيتك منها تسألني غيرها، فيُعاهده أن لا يسأله غيرها، وربه يعذره؛ لأنه يرى ما لا صبر له عليه، فيُدنيه منها فيستظل بظلها، ويشرب من مائها، ثم تُرفع له شجرة عند باب الجنة هي أحسن من الأوليين، فيقول: أي ربِّ، أَدْنِني من هذه لأستظل بظلها، وأشرب من مائها، لا أسألك غيرها، فيقول: يا ابن آدم، ألم تُعاهدني أن لا تسألني غيرها، قال: بلى يا ربِّ، هذه لا أسألك غيرها، وربُّه يعذره؛ لأنه يرى ما لا صبر له عليها، فيُدنيه منها، فإذا أدناه منها، فيسمع أصوات أهل الجنة، فيقول: أي ربِّ أدخلْنِيها، فيقول: يا ابن آدم ما يصريني منك؟ أيرضيك أن أعطيك الدنيا ومثلها معها؟ قال: يا ربِّ، أتستهزئ مِنّي، وأنت ربُّ العالمين؟»، فضحك ابن مسعود، فقال: ألا تسألوني مِمَّ أضحك، فقالوا: مِمَّ تضحك، قال: هكذا ضحك رسول الله ﷺ، فقالوا: مِمَّ تضحك يا رسول الله، قال: «مِن ضحك ربِّ العالمين حين قال: أتستهزئ مِنّي، وأنت ربُّ العالمين؟، فيقول: إني لا أستهزئ منك، ولكني على ما أشاء قادر».

وجاء ذلك- أيضًا- في حديث أبي هريرة ﷺ الطويل، وفيه: «.... ثم يفرغ الله من القضاء بين العباد، ويبقى رجل بين الجنة والنار، وهو آخر أهل النار دخولًا الجنة، مُقبل بوجهه قِبَل النار، فيقول: يا ربِّ اصرف وجهي عن النار، قد قشبني ريحها، وأحرقني ذكاؤها، فيقول: هل عسيت إن فُعِل ذلك بك أن تسأل غير ذلك؟ فيقول: لا وعزتك، فيُعطي الله ما يشاء من عهد وميثاق، فيصرف الله وجهه عن النار، فإذا أقبل به على الجنة، رأى بهجتها، سكت ما شاء الله أن يسكت، ثم قال: يا ربِّ قدِّمني عند باب الجنة، فيقول

الله له: أليس قد أعطيتَ العهود والميثاق، أن لا تسأل غير الذي كنتَ سألتَ؟، فيقول: يا رب لا أكون أَشْقَى خلقك، فيقول: فما عسيت إن أعطيت ذلك أن لا تسأل غيره؟ فيقول: لا وعزتك، لا أسأل غير ذلك، فيُعطي ربُّه ما شاء من عهد وميثاق، فيُقدِّمه إلى باب الجنة، فإذا بلغ بابها، فرأى زهرتها، وما فيها من النضرة والسرور، فيسكت ما شاء الله أن يسكت، فيقول: يا ربِّ أدخلني الجنة، فيقول الله: ويحك يا ابن آدم، ما أغدرك! أليس قد أعطيتَ العهود والميثاق، أن لا تسأل غير الذي أُعطيتَ؟ فيقول: يا ربِّ، لا تجعلني أشقى خلقك، فيضحك الله عز وجل منه، ثم يأذن له في دخول الجنة، فيقول: تمنَّ، فيتمنَّى حتى إذا انقطع أمُنيَّته، قال الله عز وجل: من كذا وكذا، أقبل يذكره ربه، حتى إذا انتهت به الأماني، قال الله تعالى: لك ذلك ومثله معه»، قال أبو سعيد الخدري لأبي هريرة رضي الله عنهما: إن رسول الله ﷺ قال: «قال الله: لك ذلك وعشرة أمثاله»، قال أبو هريرة: لم أحفظ من رسول الله ﷺ إلا قوله: «لك ذلك ومثله معه»، قال أبو سعيد: إني سمعته يقول: «ذلك لك، وعشرة أمثاله». (أخرجه البخاري ٨٠٦، مسلم ١٨٢).

و- التَّمتُّع برضوان الله، ورؤية وجهه الكريم:

وأعظم صور نعيم الآخرة وأجلُّها: التمتُّع برضوان الله عز وجل، ورؤية وجهه الكريم، لذا؛ كان ﷺ يُرغِّب أصحابه بذاك النعيم، عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله يقول لأهل الجنة: يا أهل الجنة؟ يقولون: لبيك ربنا وسعديك، فيقول: هل رضيتم؟ فيقولون: وما لنا لا نرضى، وقد أعطيتنا ما لم تُعطِ أحدًا من خلقك، فيقول: أنا أُعطيكم أفضل من ذلك، قالوا: يا ربِّ، وأي شيء أفضل من ذلك؟ فيقول: أحلُّ عليكم رضواني، فلا أسخط عليكم بعده أبدًا». (أخرجه البخاري ٦٥٤٩، ومسلم ٢٨٢٩).

ويُرغِّبهم ﷺ بالتنعُّم برؤية الله عز وجل، فعن أبي بكر بن عبد الله بن قيس، عن أبيه ﷺ، أن رسول الله ﷺ قال: «إن في الجنة خيمة من لؤلؤة مُجوَّفة، عرضها ستون ميلًا، في كل زاوية منها أهل ما يرون الآخرين، يطوف عليهم المؤمنون، وجنتان من فِضة، آنيتهما وما فيهما، وجنتان من كذا، آنيتهما وما فيهما، وما بين القوم، وبين أن ينظروا إلى ربهم إلا رداء الكبر على وجهه في جنة عدن». (أخرجه البخاري ٤٨٧٩، ومسلم ٢٨٣٨).

رابعًا: الترغيب بالنصر والتمكين:

ويُرغِّب ﷺ أصحابه بالنصر والتمكين في الدنيا، عن خبَّاب بن الأرت ﷺ، قال: شكَوْنَا إلى رسول الله ﷺ، وهو مُتوسِّد بردة له في ظل الكعبة، فقلنا: ألا تستنصر لنا، ألا تدعو لنا؟ فقال: «قد كان مَن قبلكم، يُؤخذ الرجل، فيُحفر له في الأرض، فيُجعل فيها، فيُجاء بالمنشار، فيوضع على رأسه، فيُجعل نصفين، ويُمشط بأمشاط الحديد، ما دون لحمه وعظمه، فما يصدُّه ذلك عن دينه، والله ليتمَّنَّ هذا الأمر، حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت، لا يخاف إلا الله، والذئب على غنمه، ولكنكم تستعجلون». (أخرجه البخاري ٦٩٤٣).

وفي غزوة الخندق حين أحاط الكرب بالمؤمنين، وزاغت الأبصار، وبلغت القلوب الحناجر بشَّرهم ﷺ بالفتح والتمكين في الدنيا، عن البراء بن عازب ﷺ قال: أمرنا رسول الله ﷺ بحفر الخندق، قال: وعرض لنا صخرة في مكان من الخندق، لا تأخذ فيها المعاول، قال: فشكوها إلى رسول الله ﷺ، فجاء رسول الله ﷺ، قال عوف: وأحسبه قال: وضع ثوبه، ثم هبط إلى الصخرة، فأخذ المعول فقال: «بسم الله»، فضرب ضربة، فكسر ثلث الحجر، وقال: «الله أكبر، أُعطيت مفاتيح الشام، والله إني لأبصر قصورها الحمر من مكاني هذا»، ثم قال: «بسم الله»، وضرب أُخرى، فكسر ثلث الحجر، فقال: «الله أكبر، أُعطيت مفاتيح فارس، والله إني لأُبصر المدائن، وأُبصر قصرها الأبيض من مكاني هذا»، ثم قال: «بسم الله»،

وضرب ضربة أُخرى، فقلع بقية الحجر، فقال: «الله أكبر، أُعطيت مفاتيح اليمن، والله إني لأبصر أبواب صنعاء من مكاني هذا». (أخرجه أحمد ١٨٦٩٤).

وذكر ﷺ لعدي بن حاتم ﷺ بعض صور التمكين التي ستحصل للأُمَّة، فعن عدي بن حاتم ﷺ، قال: بينا أنا عند النبي ﷺ إذ أتاه رجل فشكا إليه الفاقة، ثم أتاه آخر، فشكا إليه قطع السبيل، فقال: «يا عدي، هل رأيت الحيرة؟»، قلت: لَمْ أَرَهَا، وقد أُنبئت عنها، قال: «فإن طالت بك حياة، لترين الظعينة ترتحل من الحيرة، حتى تطوف بالكعبة لا تخاف أحدًا إلا الله»- قلت فيما بيني وبين نفسي فأين دُعَّارُ[1] طيئ الذين قد سعروا البلاد-، ولئن طالت بك حياة، لتفتحن كنوز كسرى»، قلت: كسرى بن هُرْمز؟ قال: «كسرى بن هُرْمز، ولئن طالت بك حياة، لترين الرجل يخرج ملءَ كفِّه من ذهب أو فضة، يطلب مَن يقبله منه فلا يجد أحدًا يقبله منه، وليلقين الله أحدكم يوم يلقاه، وليس بينه وبينه ترجمان يُترجم له، فليقولن له: ألم أبعث إليك رسولًا فيبلغك؟ فيقول: بلى، فيقول: ألم أُعطك مالًا، وأفضل عليك؟ فيقول: بلى، فينظر عن يمينه، فلا يرى إلا جهنم، وينظر عن يساره، فلا يرى إلا جهنم»، قال عدي: سمعت النبي ﷺ، يقول: «اتَّقُوا النار، ولو بشقة تمرة، فمَن لم يجد شقة تمرة فبكلمة طيبة»، قال عدي: فرأيت الظعينة ترتحل من الحيرة حتى تطوف بالكعبة، لا تخاف إلا الله، وكنت فيمَن افتتح كنوز كسرى بن هُرْمز، ولئن طالت بكم حياة، لترون ما قال النبي أبو القاسم ﷺ. (أخرجه البخاري ٥٣٩٥).

---

(١) قال ابن حجر: «الدُّعَّار: جمع داعر، وهو بمهملتين، وهو الشاطر الخبيث المفسد، وأصله عود داعر، إذا كان كثير الدخان، قال الجواليقي: والعامة تقوله بالذال المعجمة، فكأنهم ذهبوا به إلى معنى الفزع، والمعروف الأول، والمراد: قُطَّاع الطريق، وطيء: قبيلة مشهورة منها عدي بن حاتم المذكور، وبلادهم ما بين العراق والحجاز، وكانوا يقطعون الطريق على مَن مرَّ عليهم بغير جواز، ولذلك تعجب عدي كيف تمرُّ المرأة عليهم، وهي غير خائفة». (فتح الباري ٦/ ٦١٣).

خامسًا: الترغيب بمتاع الدنيا:

ويُرغِّبهم ﷺ بمتاع الدنيا؛ فيذكر لهم الجزاء الدنيوي على العمل الصالح، عن أنس بن مالك رضي الله عنه، قال: سمعت رسول الله ﷺ، يقول: «مَن سرَّه أن يُبسط له رزقه، أو يُنسأ له في أثره، فلْيَصِلْ رحمه». (أخرجه البخاري ٢٠٦٧، ومسلم ٢٥٥٧).

وأخرجه البخاري (٥٩٨٥) بنحوه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

ورغَّب ﷺ مَن تعلق قلبه بالآخرة بالمتاع العاجل في الدنيا قبل متاع الآخرة، فعن أنس بن مالك رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «مَن كانت الآخرةُ همَّه؛ جعل الله غناه في قلبه، وجمع له شمله، وأتته الدنيا وهي راغمة، ومَن كانت الدنيا همَّه؛ جعل الله فَقْرَه بين عينيه، وفرَّق عليه شمله، ولم يأتِهِ من الدنيا إلا ما قُدِّرَ له». (أخرجه الترمذي ٢٤٦٥).

كما ورد الحديث- أيضًا- من حديث زيد بن ثابت رضي الله عنه، فعبد الرحمن بن أبان بن عثمان بن عفان، يُحدِّث عن أبيه، قال: خرج زيد بن ثابت من عند مَرْوان بنصف النهار، قلت: ما بعث إليه هذه الساعة إلا لشيء يسأل عنه، فسألته، فقال: سألنا عن أشياء سمعناها من رسول الله ﷺ، سمعت رسول الله ﷺ يقول: «مَن كانت الدنيا همَّه؛ فرَّق الله عليه أمره، وجعل فَقْرَه بين عينيه، ولم يأتِهِ من الدنيا إلا ما كُتِبَ له، ومَن كانت الآخرةُ نيتَه؛ جمع الله له أمره، وجعل غناه في قلبه، وأتته الدنيا وهي راغمة». (أخرجه ابن ماجه ٤١٠٥).

وقد جاء في القرآن الترغيب في متاع الدنيا لمن آمن بالله عز وجل واتَّقاه، قال سبحانه: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوْاْ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُواْ فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ﴾ (الأعراف: ٩٦).

ورغَّب سبحانه وتعالى أهل الكتاب بالرخاء، ورغد العيش في الدنيا- إن هم أقاموا كتاب الله-، قال سبحانه: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوْاْ لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ

سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأَدْخَلْنَاهُمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴿٦٥﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ مِنْهُمْ أُمَّةٌ مُقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ﴾ (المائدة: ٦٥ - ٦٦).

موضوعات الترهيب النبوي:

تتنوَّع موضوعات الترهيب النبوي؛ لتشمل الترهيب من عذاب الآخرة،و عذاب الدنيا، ومن صور الترهيب النبوي ما يلي:

أولًا: بيان قرب حلول الساعة:

يُبيِّن ﷺ لأُمَّته قُرْب الساعة، عن سهل ﵁، قال: قال رسول الله ﷺ: «بُعِثْت أنا والساعة هكذا»، ويُشير بإصبعيه، فيمد بهما. (أخرجه البخاري ٦٥٠٣، ومسلم ٢٩٥٠).

وأخرجه البخاري (٦٥٠٤)، ومسلم (٢٩٥١) من حديث أنس ﵁، كما أخرجه البخاري (٦٥٠٥) من حديث أبي هريرة ﵁.

وحين يسأله ﷺ أحدٌ عن الساعة يُوجِّهه إلى ما يعينه، وهو الموت الذي يُمثِّل ساعته، عن هشام، عن أبيه، عن عائشة ﵂ قالت: كان رجال من الأعراب جفاة، يأتون النبي ﷺ فيسألونه: متى الساعة؟ فكان ينظر إلى أصغرهم فيقول: «إن يَعِشْ هذا لا يدركه الهرم حتى تقوم عليكم ساعتكم»، قال هشام: يعني موتهم. (أخرجه البخاري ٦٥١١، ومسلم ٢٩٥٢).

ثانيًا أحوال البرزخ:

يُحذِّر ﷺ أُمَّته بذكر أحوال البرزخ، وما فيه من أهوال، ومن صور الترهيب النبوي في ذلك ما يلي:

١- الترهيب من فتنة القبر وعذابه:

يُبيِّن ﷺ لأصحابه أن المرء يُفتن في قبره، ويُسأل عن ربِّه، ودينه، ونبيِّه ﷺ، فعن عروة بن الزبير: أنه سمع أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنهما، تقول: «قام رسول الله ﷺ خطيبًا فذكر فتنة القبر التي يفتتن فيها المرء، فلما ذكر ذلك؛ ضجَّ المسلمون ضجَّة». (أخرجه البخاري ١٣٧٣).

وعن أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنها أنها قالت: أتيت عائشة زوج النبي ﷺ حين خسفت الشمس، فإذا الناس قيام يُصلُّون، وإذا هي قائمة تُصلِّي، فقلت: ما للناس؟ فأشارت بيدها نحو السماء، وقالت: سبحان الله، فقلت: آية؟ فأشارت: أي نعم، فقمت حتى تجلَّاني الغشي، وجعلت أصب فوق رأسي ماء، فلما انصرف رسول الله ﷺ حمد الله، وأثنى عليه، ثم قال: «ما من شيء كنت لَمْ أَرَه إلا قد رأيته في مقامي هذا، حتى الجنة والنار، ولقد أُوحي إليَّ أنكم تُفتنون في القبور مثل- أو قريب- من فتنة الدجال، لا أدري أي ذلك، قالت أسماء: يُؤتَى أحدُكم، فيقال له: ما علمك بهذا الرجل؟ فأما المؤمن أو الموقن- لا أدري أي ذلك قالت أسماء- فيقول: هو محمد رسول الله، جاءنا بالبينات والهُدى، فأجبنا، وآمنا، واتَّبعنا، فيُقال له: نَمْ صالحًا، فقد علمنا إن كنت لمؤمنًا، وأما المنافق، أو المرتاب- لا أدري أي ذلك قالت أسماء-، فيقول: لا أدري، سمعت الناس يقولون شيئًا فقلته». (أخرجه البخاري ١٨٤، ومسلم ٩٠٥).

٢- ذكر بعض أسباب عذاب القبر:

يُحذِّر ﷺ أصحابه بذكر بعض أسباب عذاب القبر، ويربط ذلك بنماذج واقعية مما أطلعه الله عز وجل على أحوال أهلها، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: مرَّ النبي ﷺ على قبرين، فقال: «إنهما ليُعذَّبان، وما يُعذَّبان من كبير»، ثم قال: «بلى، أما أحدهما فكان يسعى

بالنَّميمة، وأما أحدهما فكان لا يستتر من بوله»، قال: ثم أخذ عودًا رطبًا، فكسره باثنتين، ثم غرز كل واحد منهما على قبر، ثم قال: «لعلَّه يُخفِّف عنهما ما لم ييبسا». (أخرجه البخاري ١٣٧٨، ومسلم ٢٩٢).

وفي حديث طويل يقصُّ ﷺ على أصحابه رؤيا رآها عن أحوال مَن يُعذَّبون في البرزخ- ورؤيا الأنبياء وحي-، ويروي هذا الحديث سَمُرة بن جندب ﷺ، فيقول: كان رسول الله ﷺ مما يكثر أن يقول لأصحابه: «هل رأى أحد منكم من رؤيا»، قال: فيقصُّ عليه مَن شاء الله أن يقصَّ، وإنه قال ذات غداة: «إنه أتاني الليلة آتيان، وإنهما ابتعثاني، وإنهما قالا لي: انطلق......الحديث» (أخرجه البخاري ٧٠٤٧).

ثالثًا: أحوال البعث والحشر:

من صور الترهيب النبوي أنه ﷺ كان يُحدِّث أصحابه عما يحصل في موقف البعث والنشور، ومن ذلك ما يلي:

١- النفخ في الصور:

بيَّن ﷺ لأصحابه حال المَلَكِ المُوكَّل بالنفخ في الصور، فعن أبي سعيد الخدري ﷺ، أن النبي ﷺ كان يقول: «كيف أنعم، وصاحبُ الصور قد التقم الصور، وحَنَى جبهته، وأصغى سمعه، ينتظر متى يُؤمر». (أخرجه أحمد ١١٦٩٦، والترمذي ٢٤٣١، وابن ماجه ٤٢٧٣).

٢-أهوال الحشر:

ويُبيِّن ﷺ لأصحابه حال الناس في الحشر، عن ابن عباس ﷺ، قال: سمعت رسول الله ﷺ يخطب على المنبر، يقول: «إنكم مُلاقُو الله، حُفاة، عُراة غُرلًا». (أخرجه البخاري ٦٥٢٥، ومسلم ٢٨٦٠).

ويُبينّ ﷺ أن هول الموقف يصرفهم عن الانشغال بعورات الآخرين، عن عائشة ﵂ قالت: قال رسول الله ﷺ: «تُحشرون حُفاة، عُراة، غرلًا»، قالت عائشة: فقلت: يا رسول الله، الرجال والنساء ينظر بعضهم إلى بعض؟ فقال: «الأمر أشد من أن يهمهم ذاك». (أخرجه البخاري ٦٥٢٧، ومسلم ٢٨٥٩).

ويُبيِّن ﷺ شِدَّة عَرَق الناس يوم القيامة، فعن أبي هريرة ﵁: أن رسول الله ﷺ قال: «يعرق الناس يوم القيامة حتى يذهب عرقهم في الأرض سبعين ذراعًا، ويلجمهم حتى يبلغ آذانهم». (أخرجه البخاري ٦٥٣٢، ومسلم ٢٨٦٣).

ويُبيِّن ﷺ لأصحابه أن شِدَّة الموقف تتفاوت لدى أهل المحشر بحسب أعمالهم، عن المقداد بن الأسود ﵁، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «تُدْنَى الشمس يوم القيامة من الخلق، حتى تكون منهم كمقدار ميل»، قال سليم بن عامر: فوالله ما أدري ما يعني بالميل؟ أمسافة الأرض، أم الميل الذي تكتحل به العين، قال: «فيكون الناس على قَدْر أعمالهم في العرق، فمنهم مَن يكون إلى كعبيه، ومنهم مَن يكون إلى ركبتيه، ومنهم مَن يكون إلى حِقْوَيه، ومنهم مَن يلجمه العرق إلجامًا»، قال: وأشار رسول الله ﷺ بيده إلى فيه. (أخرجه مسلم ٢٨٦٤).

٣- موقف الحساب:

يُحذِّر ﷺ أصحابه من موقف الحساب، والعرض على الله عز وجل، مُبيِّنًا لهم شُؤم الظلم وعاقبته، عن أبي هريرة ﵁، قال: قال رسول الله ﷺ: «مَن كانت له مظلمة لأخيه من عِرضه أو شيء، فلْيتحلَّلْه منه اليوم، قبل أن لا يكون دينارٌ، ولا درهم، إن كان له عمل صالح، أخذ منه بقدر مظلمته، وإن لم تكن له حسنات، أخذ من سيئات صاحبه فحمل عليه». (أخرجه البخاري ٢٤٤٩).

ويُبيِّن ﷺ شِدَّة مناقشة الحساب، عن ابن أبي مليكة أن عائشة ﵂ كانت لا تسمع شيئًا لا تعرفه، إلا راجعت فيه حتى تعرفه، وأن النبي ﷺ قال: «مَن حُوسب عُذِّب»، قالت عائشة: فقلت: أَوَلَيْس يقول الله تعالى: ﴿فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا﴾ (الانشقاق: ٨) قالت: فقال: «إنما ذلك العرض، ولكن: مَن نُوقش الحساب يَهلك». (أخرجه البخاري ١٠٣، ومسلم ٢٨٧٦).

ويُبيِّن ﷺ لأصحابه أول الأعمال التي يُحاسب العبد عليها يوم القيامة، فعن حريث بن قبيصة، قال: قَدِمت المدينة، فقلت: اللهم يسِّر لي جليسًا صالحًا، قال: فجلست إلى أبي هريرة ﵁، فقلت: إني سألت الله أن يرزقني جليسًا صالحًا، فحدِّثني بحديث سمعته من رسول الله ﷺ؛ لعل الله أن ينفعني به، فقال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن أول ما يُحاسب به العبد يوم القيامة من عمله صلاته، فإن صلحت فقد أفلح، وأنجح، وإن فسدت؛ فقد خاب وخسر، فإن انتقص من فريضته شيء، قال الرَّبُّ عز وجل: انظروا، هل لعبدي مِن تطوع؟ فيكمل بها ما انتقص من الفريضة، ثم يكون سائر عمله على ذلك». (أخرجه الترمذي ٤١٣، والنسائي ٤٦٥، وأخرجه كل من: أبو داود ٨٦٤، وابن ماجه ١٤٢٥، عن أنس بن حكيم الضبيِّ، عن أبي هريرة).

ويُقارن ﷺ لأصحابه بين موقف المؤمن، وكلٍّ من: الكافر والمنافق بين يدي ربهم عز وجل، عن صفوان بن محرز المازني، قال: بينما أنا أمشي مع ابن عمر ﵄ آخذ بيده، إذ عرض رجل، فقال: كيف سمعت رسول الله ﷺ يقول في النجوى؟ فقال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الله يُدْنِي المؤمن، فيضع عليه كَنَفَه، ويستره، فيقول: أتعرف ذنب كذا، أتعرف ذنب كذا؟ فيقول: نعم، أي ربِّ، حتى إذا قرَّره بذنوبه، ورأى في نفسه أنه هلك، قال: سترتها عليك في الدنيا، وأنا أغفرها لك اليوم، فيُعطى كتاب حسناته،

وأما الكافر، والمنافقون: فيقول الأشهاد: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَىٰ رَبِّهِمۡۚ أَلَا لَعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾(هود: ١٨)» (أخرجه البخاري ٢٤٤١، ومسلم ٢٧٦٨).

ويُحذِّر ﷺ من موقف الحساب، مُبيِّنًا حال العبد مع جوارحه، عن أنس بن مالك ﷺ، قال: كُنَّا عند رسول الله ﷺ فضحك، فقال: «هل تدرون مِمَّ أضحك؟» قال: قلنا: الله ورسوله أعلم، قال: «مِن مُخاطبة العبدِ ربَّه، يقول: يا ربِّ ألم تُجرني من الظلم؟ قال: يقول: بلى، قال: فيقول: فإني لا أُجيز على نفسي إلا شاهدًا مني، قال: فيقول: كفى بنفسك اليوم عليك شهيدًا، وبالكرام الكاتبين شهودًا، قال: فيختم على فيه، فيُقال لأركانه: انطقي، قال: فتنطق بأعماله، قال: ثم يُخلَّى بينه وبين الكلام، قال: فيقول: بُعدًا لَكُنَّ، وسُحقًا، فعنكُنَّ كُنت أُناضل». (أخرجه مسلم ٢٩٦٩).

٤. الذَّوْدُ عن الحوض:

ويُبيِّن ﷺ أن من أُمَّته مَن يُذَادُ عن الحوض، عن ابن أبي مليكة، قال: قالت أسماء ﵄ : عن النبي ﷺ قال: «أنا على حوضي، أنتظر مَن يَرِدُ عليَّ، فيُؤخذ بناس من دوني، فأقول: أُمَّتي، فيقول: لا تدري، مشوا على القهقرى»، قال ابن أبي مليكة: «اللهم إنا نعوذ بك أن نرجع على أعقابنا، أو نُفتن». (أخرجه البخاري ٧٠٤٨).

رابعًا: الترهيب من عذاب النار:

ومن مواضع الترهيب النبوي: ترهيبه ﷺ من عذاب النار، وتحذيره منها، حمانا الله عز وجل منها، وأعتقنا بفضله ورحمته من عذابها.

ومن صور الترهيب النبوي من عذاب النار ما يلي:

١ - وصف حر النار:

يصف ﷺ لأصحابه حرَّ النار، مُقارنًا إيَّاها بنار الدنيا، فعن أبي هريرة ﷺ أن رسول

الله ﷺ قال: «ناركم جزء من سبعين جزءًا من نار جهنم»، قيل: يا رسول الله، إن كانت لكافية، قال: «فُضِّلَت عليهن بتسعة وستين جزءًا، كلُّهن مثل حرِّها». (أخرجه البخاري ٣٢٦٥، ومسلم ٢٨٤٣).

٢- ذكر منازل أهل النار في العذاب:

ويذكر ﷺ منازل أهل النار في العذاب، فعن سَمُرة ﷺ أنه سمع نبي الله ﷺ، يقول: «إن منهم مَن تأخذه النار إلى كعبيه، ومنهم مَن تأخذه إلى حجزته، ومنهم مَن تأخذه إلى عُنقه». (أخرجه مسلم ٢٨٤٥).

ويصِفُ ﷺ حال أهون أهل النار عذابًا، فكيف بمَن هو في الدرك الأسفل منها، حمانا الله ووقانا من عذابه، عن النعمان بن بشير ﷺ قال: سمعت النبي ﷺ يقول: «إن أهون أهل النار عذابًا يوم القيامة لرجل توضع في أخمص قدميه جمرة؛ يغلي منها دماغه». (أخرجه البخاري ٦٥٦١، ومسلم ٢١٣).

وعن أبي سعيد الخدري، أن رسول الله ﷺ قال: «إن أَدْنَى أهل النار عذابًا ينتعل بنعلين من نار، يغلي دماغه من حرارة نعليه». (أخرجه مسلم ٢١١).

ويربط ﷺ الترهيب من النار بأحكام العبادات، فحذَّرهم ﷺ من عدم بلوغ الماء إلى مواضع الوضوء، عن عبد الله بن عمرو ﷺ، قال: تخلَّف عنَّا النبي ﷺ في سفرة سافرناها، فأدركنا وقد أرهقتنا الصلاة، ونحن نتوضأ، فجعلنا نمسح على أرجلنا، فنادى بأعلى صوته: «ويلٌ للأعقاب من النار»، مرتين، أو ثلاثًا. (أخرجه البخاري ٦٠، ومسلم ٢٤١).

وجاء في رواية مسلم: «رجعنا مع رسول الله ﷺ من مكة إلى المدينة حتى إذا كُنَّا بماء بالطريق تعجَّل قوم عند العصر، فتوضؤوا، وهم عجال، فانتهينا إليهم، وأعقابهم تلوح لم يمسها الماء..».

وتوعَّد ﷺ مَن قتل معاهدًا بالحرمان من الجنة- جعلنا الله من أهلها-، عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما، عن النبي ﷺ قال: «مَن قتل معاهدًا لم يرح رائحة الجنة، وإن ريحها توجد من مسيرة أربعين عامًا». (أخرجه البخاري ٣١٦٦).

٣- وصف أحوال أهل النار:

يصِفُ النبي ﷺ أحوال أهل النار بما يُنفِّر منها، ويُبيِّن عِظَمَ عذاب أهلها، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ضرس الكافر، أو ناب الكافر، مثل أُحُدٍ، وغلظ جلده مسيرة ثلاث». (أخرجه مسلم ٢٨٥١).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «ما بين منكبي الكافر مسيرة ثلاثة أيام للراكب المسرع». (أخرجه البخاري ٦٥٥١، ومسلم ٢٨٥٢).

٤- ربط عذاب النار بالمظاهر المحسوسة:

ويربط ﷺ التحذير من النار بمواقف محسوسة، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: كُنَّا مع رسول الله ﷺ، إذ سمع وجبة، فقال النبي ﷺ: «تدرون ما هذا؟» قال: قلنا: الله ورسوله أعلم، قال: «هذا حجر رُمِي به في النار منذ سبعين خريفًا، فهو يهوي في النار الآن، حتى انتهى إلى قعرها». (أخرجه مسلم ٢٨٤٤) .

ويربطها ﷺ بما يراه الناس من تحوُّل الفصول، وشدة الحر والبرد، عن أبي هريرة رضي الله عنه يقول: قال رسول الله ﷺ: «اشتكت النار إلى ربها فقالت: ربِّ، أكل بعضي بعضًا، فأذن لها بنفَسين: نفَس في الشتاء، ونفَس في الصيف، فأشد ما تجدون في الحرِّ، وأشد ما تجدون من الزَّمْهَرير». (أخرجه البخاري ٣٢٦٠، ومسلم ٦١٧).

خامسًا: الترهيب بعقوبة الدنيا:

وربما رهَّبهم ﷺ بعقوبات دنيوية، فقد حذَّر ﷺ من البغي، وقطيعة الرحم، وأخبر

أن عقوبتهما تُعجَّل في الدنيا.

عن أبي بكرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «ما من ذنب أَحْرَى أن يعجل لصاحبه العقوبة مع ما يُؤخَّر له في الآخرة، من بغي، أو قطيعة رحم». (أخرجه أحمد ٢٠٣٧٤، وأبو داود ٤٩٠٢، والترمذي ٢٥١١، وابن ماجه ٤٢١١).

وفي رواية لأحمد (٢٠٣٨٠): «ذنبان مُعجَّلان، لا يُؤخَّران: البغي، وقطيعة الرحم».

وحذَّر ﷺ أصحابه من طائفة من المعاصي، مُبيِّنًا لهم العقوبة الدنيوية لمَنْ يفعلها، عن عبد الله بن عمر، قال: أقبل علينا رسول الله ﷺ فقال: «يا معشر المهاجرين، خمسٌ إذا ابتليتم بهن، وأعوذ بالله أن تُدركوهن: لم تظهر الفاحشة في قوم قطُّ، حتى يُعلنوا بها؛ إلا فشا فيهم الطاعون، والأوجاع التي لم تكن مضت في أسلافهم الذين مَضَوْا، ولم ينقصوا المكيال والميزان؛ إلا أُخِذُوا بالسِّنِين، وشدة المئونة، وجور السلطان عليهم، ولم يمنعوا زكاة أموالهم؛ إلا مُنِعوا القطر من السماء، ولولا البهائم لَمْ يُمْطروا، ولم ينقضوا عهد الله، وعهد رسوله؛ إلا سلَّط الله عليهم عدوًّا من غيرهم، فأخذوا بعض ما في أيديهم، وما لم تحكم أئمتهم بكتاب الله، ويتخيروا مما أنزل الله؛ إلا جعل الله بَأْسَهم بينهم». (أخرجه ابن ماجه ٤٠١٩).

وبيَّن لهم العقوبة المعنوية التي تحل بالأُمَّة حين تتخلى عن الجهاد، وتركن إلى الدنيا، عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إذا تبايعتم بالعِينَة، وأخذتم أذناب البقر، ورضيتم بالزرع، وتركتم الجهاد؛ سلَّط الله عليكم ذُلًّا لا ينزعه حتى ترجعوا إلى دينكم». (أخرجه أبو داود ٣٤٦٢).

وقد أخرجه أحمد (٥٠٠٧) بلفظ: «لئن تركتم الجهاد، وأخذتم بأذناب البقر، وتبايعتم بالعِينَة؛ ليُلْزِمَنَّكُم الله مذلَّة في رقابكم، لا تنفك عنكم حتى تتوبوا إلى الله، وترجعوا على ما كنتم عليه».

كما حذَّر ﷺ أُمَّته من الحال التي تُنزع فيها المهابة منهم، ويُتسلَّط عليهم أعداؤُهم، عن ثوبان ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «يُوشك الأُمَمُ أن تَداعَى عليكم، كما تَداعَى الأَكَلَةُ إلى قصعتها»، فقال قائل: ومن قِلَّة نحن يومئذ؟ قال: «بل أنتم يومئذ كثير، ولكنكم غُثاء كغُثاء السيل، ولينزعَنَّ الله من صدور عدُوِّكم المهابة منكم، وليقذفن الله في قلوبكم الوهن»، فقال قائل: يا رسول الله، وما الوهن؟ قال: «حب الدنيا، وكراهية الموت». (أخرجه أبو داود ٤٢٩٧).

وحذَّرهم ﷺ من التعلُّق بالدنيا، وربط ذلك بالعقوبة العاجلة، كما في قوله ﷺ: «ومَن كانت الدنيا همَّه؛ جعل الله فقره بين عينيه، وفرَّق عليه شمله، ولم يأتِهِ من الدنيا إلا ما قُدِّر له». (أخرجه الترمذي ٢٤٦٥ من حديث أنس ﷺ، وأخرجه ابن ماجه ٤١٠٥ من حديث زيد بن ثابت ﷺ).

القصة

لا يحتاج أحد لمزيد من التأمل ليُدرك عناية القرآن الكريم بالقصص؛ فقد تنوعت القصص في القرآن الكريم، وتكرَّر كثير منها، كقصة آدم والشيطان، وقصص الأنبياء والمرسلين، وقصص الصالحين من الأُمَم السابقة، وقصص المُعذَّبين والضالين مِمَّن سبق، كما جاء في القرآن الكريم كثير من قصص ومواقف سيرة النبي ﷺ.

وبيَّن الله عز وجل أن القرآن جاء بأحسن القصص، فقال سبحانه: ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ﴾ (يوسف: ٣).

وأمر بالاعتبار والاتعاظ بالقصص، فقال عز وجل: ﴿ لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾(يوسف: ١١١).

كما أمر سبحانه بالاتعاظ والاعتبار بقصص الضالين والمُهلَكِين، فقال في شأن ما أصاب بني النضير: ﴿فَٱعْتَبِرُوا۟ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ ﴾(الحشر: ٢).

وأمَرَ الله تبارك وتعالى نبيَّه ﷺ بقصِّ القصص، وبيَّن سبحانه أثر ذلك في الاعتبار والاتعاظ، فقال سبحانه: ﴿فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ (الأعراف: ١٧٦).

وهذا يُؤكِّد أهمية القصة، ودورها في التربية، لذا كان النبي ﷺ يُعنى بالقصة في تربيته لأصحابه رضوان الله عليهم، وكتبُ السنة حافلة بأنواع القصص النبوي، ولا يمكن أن تُستوعب هنا كل مفردات القصص النبوي، فهي مبثوثة في فضائها من كتب السنة، إنما نُورِد شواهد، ونماذج منها.

وشواهد ذلك كثيرة في السنة، ومنها: قصة الرجل الذي قَتَل تسعة وتسعين إنسانًا، والثلاثة الذين آواهم المبيت إلى غار، وأصحاب الأخدود، والأقرع والأعمى والأبرص... إلخ.

خصائص القصة النبوية:

تتسم القصص النبوية بخصائص، منها:

١. أنها حقيقية:

عالم القصة تدخله الصَّنعة، وفي القديم والحديث كان هناك مَن يصطنع الأحداث، فيروي ما لا أصل له، أو يزيد، ويحوِّر في الأحداث والقصص، بل أصبح هذا النمط مُنتجًا أدبيًّا مُعاصرًا يتمثل في القصة القصيرة، والرواية، والمسرحية .... ونحو ذلك.

أما القصص النبوي: فهو حق لا يتطرق إليه شك، ورواية لما جرى دون زيادة أو تحوير، وقد أكَّد ﷺ أن ما يرويه لأصحابه حق وصِدق حتى لو كان مما يُستغرب حدوثه.

عن أبي هريرة ﷺ قال: صلَّى رسول الله ﷺ صلاة الصبح، ثم أقبل على الناس، فقال: «بينا رجل يسوق بقرة إذ ركبها فضربها، فقالت: إنا لم نُخلق لهذا، إنما خُلقنا للحرث»، فقال الناس: سبحان الله، بقرة تكلَّم، فقال: «فإني أُومن بهذا، أنا، وأبو بكر، وعمر،– وما هما ثَمَّ–، وبينما رجل في غنمه، إذ عدا الذئب، فذهب منها بشاة، فطلب حتى كأنه استنقذها منه، فقال له الذئب هذا: استنقذتها مني، فمَن لها يوم السبع، يوم لا راعي لها غيري»، فقال الناس: سبحان الله ذئب يتكلَّم، قال: «فإني أُومن بهذا أنا، وأبو بكر، وعمر،– وما هما ثَمَّ–».

(أخرجه البخاري ٣٤٧١، ومسلم ٢٣٨٨).

٢– موافقة للفطرة:

القصة النبوية جزء من الخطاب النبوي، وهو وحي غير مَتْلُوٍّ، لذا فهي تُوافق

الفطرة، وتستهدف إصلاح النفوس، ومع أنها تعرض لنماذج من السلوك البشري: فتعرض حالات الصفاء، وسير القدوات، وتعرض حالات الضعف البشري لدى بعض الصالحين، وتعرض سير بعض الضالين والهالكين على سبيل التحذير والاعتبار، لكنها وهي تعرض ذلك كله تُلائم الفطرة السَّوِية، وتُساق في سياق التهذيب، والارتقاء بالنفس.

لذا فحين تعرض الصورة المخالفة، ولحظات الضعف البشري لا تسترسل في وصف هذه اللحظات، ولا تعرضها بما يثير الغرائز والشهوات، حاشا الخطاب النبوي أن يكون فيه شيء من ذلك.

حدَّث النبي ﷺ عن بَغيٍّ من بني إسرائيل، وفي شأن الثلاثة الذين آواهم المبيت إلى الغار، ذكر حال أحدهم الذي همَّ بالفاحشة حتى لم يكن بينه وبينها إلا لحظات، وقصة جريج العابد ...، وغير ذلك من القصص النبوي، وكلها لا تخرج عن سَمْتِ الخطاب النبوي وَوَقَاره.

ويعج الأدب المعاصر اليوم بما يُثير الغرائز والشهوات في النفوس، ويُناقض الفطرة السَّوِيَّة، بل يُقحم القاصُّ والرِّوائي ذلك إقحامًا، ويتكلفه بمناسبة، أو غير مناسبة.

وقد يجنح بعض الوُعَّاظ والمُذكِّرين إلى التجاوز، والتوسع حين يتحدثون عن العلاقات غير الشريفة، أو حين ينتقدون بعض صور الانحراف، فيستطرد في عرض تفاصيل غير مناسبة، أو إيراد ألفاظ وعبارات غير لائقة، وهذا مخالف للهدي النبوي، وخروج عن سَمْتِ الخطاب التربوي الدعوي.

٣- هادفة:

القصة النبوية لا تُساق للتسلية، ولا لمجرد الإعجاب بأحداثها، أو التدوين التاريخي

لأصحابها؛ فهي قصة تُساق للاعتبار والاتعاظ، وحين قصَّ الله عز وجل على نبيِّه ﷺ قصة أحدٍ ممن ضلوا من علماء بني إسرائيل، أمره بقصِّ القصص، وعلَّل ذلك بالاتعاظ والاعتبار، فقال سبحانه: ﴿ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ ۚ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ۚ ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ۚ فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾(الأعراف: ١٧٥ - ١٧٦)، وتتجلَّى هذه الخاصية للقصة النبوية في تتبُّع ما قصَّه ﷺ، فهو لا يخلو من عبرة وعظة، ومن تقرير لِمَعَانٍ شرعية عظيمة.

ولأن القصة النبوية هادفة، ومقصدها تحقيق الاعتبار والاتعاظ؛ فإن حجم التفاصيل فيها يرتبط بوظيفتها في الاعتبار والاتعاظ؛ فلا تستطرد القصة في ذكر تفاصيل الأحداث إلا فيما يتحقق به الاعتبار والاتعاظ.

وهكذا القصة في القرآن الكريم، فهي تقتصر على موطن العبرة؛ لذا لا نجد فيها أسماء الأشخاص والأماكن، أو تفاصيل ما لا حاجة له من الأحداث.

«والحقيقة: أن عدم ذكر الاسم في القرآن الكريم لا يتعلَّق به أي غرض، وليس لذكره أي فائدة، لا فنيَّة في بناء القصة، ولا موضوعية في مضمونها، والمعروف أنه لا يُذكر شيء في القرآن الكريم إلا لغرض، فلما لم يتعلق بذكر الاسم أي غرض، ولم يكن له أي فائدة؛ تُرك ذكرُه». (القصص في الحديث النبوي، محمد الزير ٢٦٠).

٤- متنوعة:

تتنوع القصة النبوية باعتبارات عِدَّة، ومنها ما يلي:

أولًا: باعتبار بنائها:

تتنوع القصة النبوية في بنائها، فمن صورها:

أ- قصة واقعية مقصودة لذاتها:

فهي قصة تحكي حادثة وقعت بذاتها، وأشخاصها، وتفاصيلها، وذلك مثل قصص الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم، وبعض الصالحين من الأُمَم السابقة، وقد يُسمَّى أصحابها: كموسى، وعيسى، وإبراهيم، ويوشع بن نون، وقد لا يُسمَّى: كما في قوله ﷺ: كان رجل فيمَن كان قبلكم، كان رجل من بني إسرائيل.

وقد ساق ﷺ طائفة من قصص الأنبياء عليهم السلام دون أن يُسمِّيهم، ومنها:

عن سعيد بن المسيَّب، وأبي سلمة، أن أبا هريرة ﷺ، قال: سمعت رسول الله ﷺ، يقول: «قرصت نملة نبيًّا من الأنبياء، فأمر بقرية النمل، فأُحرقت، فأوحى الله إليه: أن قرصتك نملة أحرقت أُمَّة من الأُمَم تُسبِّح؟». (أخرجه البخاري ٣٠١٩، ومسلم ٢٢٤١).

وعن عبدالله ﷺ قال: كأني أنظر إلى النبي ﷺ، يحكي نبيًّا من الأنبياء، ضربه قومه فأدمَوه، وهو يمسح الدم عن وجهه، ويقول: «اللهم اغفر لقومي، فإنهم لا يعلمون». (أخرجه البخاري ٣٤٧٧، ومسلم ١٧٩٢).

فهذه القصص ونظائرها تحكي أحداثًا وقعت لأشخاص بأعيانهم، منهم الأنبياء، ومنهم الصالحون، ومنهم مَن ليس كذلك.

ب- قصة واقعية تعرض نموذجًا لحالة إنسانية:

ومن القصص النبوي ما يعرض نماذج لحالة إنسانية، وقد تكون هذه الحالة حالة ضعف استفاق صاحبها بعد ذلك، كما في الذي راود ابنة عمه في قصة الثلاثة الذين آواهم المبيت إلى غار.

وقد تكون في سياق العبرة والتحذير من حاله، ومن ذلك: الرجل الذي قتل نفسه، فعن الحسن قال: حدثنا جُندب بن عبد الله ﷺ، في هذا المسجد، وما نسينا منذ حدثنا، وما نخشى أن يكون جندب كذب على رسول الله ﷺ، قال: قال رسول الله ﷺ: «كان فيمَن كان قبلكم رجل به جرح، فجزع، فأخذ سكينًا فحز بها يده، فما رقأ الدم حتى مات، قال الله تعالى: بادرني عبدي بنفسه، حرَّمت عليه الجنة». (أخرجه البخاري ٣٤٦٣، ومسلم ١١٣)، ولفظ رواية مسلم: عن الحسن، قال: الحسن يقول: «إن رجلًا ممَّن كان قبلكم خرجت به قرحة، فلما آذته انتزع سهمًا من كنانته فنكأها، فلم يرقأ الدم حتى مات، قال ربكم: «قد حرَّمت عليه الجنة»، ثم مدَّ يده إلى المسجد، فقال: إي والله، لقد حدَّثني بهذا الحديث جُندب، عن رسول الله ﷺ في هذا المسجد.

وقد تُمثِّل حالة ممَّن عفا الله عنهم، عن أبي سعيد رضي الله عنه، عن النبي ﷺ: أن رجلًا كان قبلكم، رَغَسه[1] الله مالًا، فقال لبنيه لما حضر: أيُّ أبٍ كنتُ لكم؟ قالوا: خير أبٍ، قال: فإني لم أعمل خيرًا قطُّ، فإذا مِتُّ فأحرقوني، ثم اسحقوني، ثم ذروني في يوم عاصف، ففعلوا، فجمعه الله عز وجل، فقال: ما حملك؟ قال: مخافتك، فتلقَّاه برحمته. (أخرجه البخاري ٣٤٧٨، ومسلم ٢٧٥٧).

وربما عرض ﷺ نموذجين مُتقابلين، كما في حال الرجلين من بني إسرائيل، عن جُندب ﷺ، أن رسول الله ﷺ، حدَّث: «أن رجلًا قال: والله لا يغفر الله لفلان، وإن الله تعالى قال: مَن ذا الذي يتألَّى عليَّ أن لا أغفر لفلان؟ فإني قد غفرت لفلان، وأحبطتُ عملك»، أو كما قال. (أخرجه مسلم ٢٦٢١).

وأخرجه أحمد (٨٢٩٢)، وأبو داود (٤٩٠١) عن ضمضم بن جوس اليمامي، قال:

---

(١) قال ابن حجر: «قوله: رَغَسه الله، بفتح الراء، والغين المعجمة بعدها سين مهملة، أي: كثر ماله، وقيل: رغس كل شيء أصله، فكأنه قال: جعل له أصلًا من مال». (فتح الباري ٦/ ٥٢١).

قال لي أبو هريرة: يا يمامي، لا تقولن لرجل: والله لا يغفر الله لك، أو لا يدخلك الله الجنة أبدًا، قلت: يا أبا هريرة، إن هذه لكلمة يقولها أحدنا لأخيه وصاحبه إذا غضب، قال: فلا تقُلْها، فإني سمعت النبي ﷺ يقول: «كان في بني إسرائيل رجلان، كان أحدهما مُجتهدًا في العبادة، وكان الآخر مُسرفًا على نفسه، فكانا متآخيين، فكان المجتهد لا يزال يرى الآخر على ذنب، فيقول: يا هذا، أقصر، فيقول: خلِّني وربِّي، أَبُعِثْتَ عليَّ رقيبًا؟» قال: «إلى أن رآه يومًا على ذنب استعظمه، فقال له: ويحك، أقصر، قال: خلِّني وربِّي، أَبُعِثْتَ عليَّ رقيبًا؟»، قال: «فقال: والله لا يغفر الله لك، أو لا يدخلك الله الجنة أبدًا، قال أحدهما: قال: فبعث الله إليهما ملكًا، فقبض أرواحهما، واجتمعا عنده، فقال للمذنب: اذهب فادخل الجنة برحمتي، وقال للآخر: أكنتَ بي عالمًا؟ أكنت على ما في يدي قادرًا؟ اذهبوا به إلى النار»، قال: «فوالذي نفس أبي القاسم بيده، لتكلم بكلمة، أوبقت دنياه وآخرته».

ج - قصة تمثيلية:

وقد لا تحكي القصة أحداثًا وتفاصيل وقعت، إنما تأتي على سياق المثل، ومن ذلك ما يلي:

تمثيله ﷺ لحال أُمَّته، وحال أهل الكتاب، عن أبي موسى ﷺ، عن النبي ﷺ قال: «مَثَل المسلمين، واليهود، والنصارى، كمثل رجل استأجر قومًا يعملون له عملًا يومًا إلى الليل، على أجر معلوم، فعملوا له إلى نصف النهار، فقالوا: لا حاجة لنا إلى أجرك الذي شرطت لنا، وما عملنا باطل، فقال لهم: لا تفعلوا، أكملوا بقِيَّة عملكم، وخذوا أجركم كاملًا، فأبوا، وتركوا، واستأجر أجيرين بعدهم، فقال لهما: أكملا بقيَّة يومكما هذا، ولكما الذي شرطت لهم من الأجر، فعملوا حتى إذا كان حين صلاة العصر، قالا: لك ما عملنا باطل، ولك الأجر الذي جعلت لنا فيه، فقال لهما: أكملا بقية عملكما ما بقي من النهار شيء يسير، فأبيا، واستأجر قومًا أن يعملوا له بقِيَّة يومهم، فعملوا بقِيَّة يومهم حتى غابت

الشمس، واستكملوا أجر الفريقين كليهما، فذلك مثلهم، ومثل ما قبلوا من هذا النور». (أخرجه البخاري ٢٢٧١).

ومن ذلك تمثيله لحال الآمِرين بالمعروف، والناهين عن المنكر، والتاركين لذلك، عن النعمان بن بشير رضي الله عنهما، قال: قال النبي ﷺ: «مثل المُدَّهن في حدود الله، والواقع فيها، مثل قوم استهموا سفينة، فصار بعضهم في أسفلها، وصار بعضهم في أعلاها، فكان الذي في أسفلها يمرُّون بالماء على الذين في أعلاها، فتأذوا به، فأخذ فأسًا، فجعل ينقر أسفل السفينة، فأتوه، فقالوا: ما لك؟ قال: تأذيتم بي، ولا بُدَّ لي من الماء، فإن أخذوا على يديه أنجوه، ونجوا أنفسهم، وإن تركوه؛ أهلكوه، وأهلكوا أنفسهم». (أخرجه البخاري ٢٦٨٦).

ثانيًا: باعتبار الطول والقِصَر:

كما يُمكن تقسيم القصص النبوي باعتبار الطول والقِصَر إلى قسمين:

أ- قصص طويلة:

كقصة أصحاب الأخدود، وقصة الثلاثة الذين آواهم المبيت إلى الغار، وقصة موسى والخضر، والأعمى والأبرص والأقرع...، ونحوها.

ب- قصص قصيرة:

وقد تكون القصة قصيرة، كقصة اختلاف الرجلين حول الكنز، عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال النبي ﷺ: «اشترى رجلٌ من رجلٍ عقارًا له، فوجد الرجل الذي اشترى العقار في عقاره جَرَّة فيها ذهب، فقال له الذي اشترى العقار: خُذْ ذهبك مِنِّي، إنما اشتريت منك الأرض، ولم أَبْتَعْ منك الذهب، وقال الذي له الأرض: إنما بعتك الأرض وما فيها، فتحاكما إلى رجل، فقال: الذي تحاكما إليه: ألكما ولد؟ قال أحدهما: لي غلام، وقال الآخر:

لي جارية، قال: أنكحوا الغلامَ الجاريةَ، وأنفقوا على أنفسهما منه، وتصدَّقا». (أخرجه البخاري ٣٤٧٢، ومسلم ١٧٢١).

ثالثًا: باعتبار أشخاصها:

وكما تتنوع القصة النبوية باعتبار أشخاصها، وفقًا لما يلي:

أ- قصص الأنبياء:

حكى النبي ﷺ طائفةً من قصص إخوانه الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم، ومنها ما يلي:

قصة أيوب عليه السلام مع الجراد، عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ، قال: «بينما أيوب يغتسل عُريانًا، خرَّ عليه رجل جراد من ذهب، فجعل يحثي في ثوبه، فناداه ربه: يا أيوب ألم أكن أغنيتك عما ترى؟ قال: بلى يا ربِّ، ولكن لا غنى لي عن بركتك». (أخرجه البخاري ٣٣٩١).

قصة موسى عليه السلام مع ملك الموت، عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: «أُرسل ملك الموت إلى موسى عليه السلام، فلما جاءه صكَّه، فرجع إلى ربه، فقال: أرسلتني إلى عبد لا يريد الموت، قال: ارجع إليه فقل له يضع يده على متن ثور، فله بما غطت يده بكل شعرة سنة، قال: أي ربِّ، ثم ماذا؟ قال: ثم الموت، قال: فالآن، قال: فسأل الله أن يُدنيه من الأرض المقدسة رمية بحجر، قال أبو هريرة: فقال رسول الله ﷺ: «لو كنت ثَمَّ لأريتكم قبره، إلى جانب الطريق تحت الكثيب الأحمر». (أخرجه البخاري ٣٤٠٧، ومسلم ٢٣٧٢).

قصة عيسى عليه السلام مع الرجل السارق، عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «رأى عيسى بن مريم رجلًا يسرق، فقال له: أَسَرَقْتَ؟ قال: كلَّا والله الذي لا إله إلا هو، فقال عيسى: آمنت بالله، وكذبت عيني». (أخرجه البخاري ٣٤٤٤، ومسلم ٢٣٦٨).

قصة سليمان عليه السلام مع المرأتين حين قضى بينهما، عن أبي هريرة رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «كانت امرأتان معهما ابناهما، جاء الذئب، فذهب بابن إحديهما، فقالت لصاحبتها: إنما ذهب بابنك، وقالت الأخرى: إنما ذهب بابنك، فتحاكمتا إلى داود عليه السلام، فقضى به للكُبرى، فخرجتا على سليمان بن داود عليهما السلام فأخبرتاه، فقال: ائتوني بالسكين أشقه بينهما، فقالت الصغرى: لا تفعل يرحمك الله، هو ابنها؛ فقضى به للصُّغرى»، قال أبو هريرة: والله إن سمعت بالسكين قطُّ إلا يومئذ، وما كُنَّا نقول إلا المُدْيَة. (أخرجه البخاري ٦٧٦٩، ومسلم ١٧٢٠).

ب- قصص الصالحين من الأمم السابقة:

ومن القصص النبوي: قصص الصالحين من الأمم السابقة، ومن ذلك:

قصة الثلاثة الذين آواهم المبيت إلى الغار، فدعوا الله بصالح أعمالهم...». (أخرجه البخاري ٢٢٧٢، ومسلم ٢٧٤٣).

وفي هذه القصة بيان أثر العمل الصالح على نجاة صاحبه من الشدائد والمضايق في الحياة الدنيا، وتنوعت أعمالهم فمنهم البارُّ بوالديه، ومنهم المُتعفِّف عن الفاحشة، ومنهم مَن حفظ حقَّ الأجير، ويجمعهم في ذلك كله الإخلاص لله وحده عز وجل.

ومن قصص الصالحين من الأُمَم السابقة: قصة المُقترض، عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ: «أنه ذكر رجلًا من بني إسرائيل، سأل بعض بني إسرائيل أن يُسلِّفه ألف دينار، فقال: ائتني بالشهداء أُشهدهم، فقال: كفى بالله شهيدًا، قال: فأتني بالكفيل، قال: كفى بالله كفيلًا، قال: صدقت، فدفعها إليه إلى أجل مُسمًّى، فخرج في البحر فقضى حاجته، ثم التمس مركبًا يركبها يقدم عليه للأجل الذي أجله، فلم يجد مركبًا، فأخذ خشبة فنقرها، فأدخل فيها ألف دينار وصحيفة منه إلى صاحبه، ثم زجَّج موضعها،

ثم أتى بها إلى البحر، فقال: اللهم إنك تعلم أني كنت تسلَّفت فلانًا ألف دينار، فسألني كفيلًا، فقلت: كفى بالله كفيلًا، فرضي بك، وسألني شهيدًا، فقلت: كفى بالله شهيدًا، فرضي بك، وأني جهدت أن أجد مركبًا أبعث إليه الذي له فلم أقدر، وإني أستودعكها، فرمى بها في البحر حتى ولجت فيه، ثم انصرف، وهو في ذلك يلتمس مركبًا يخرج إلى بلده، فخرج الرجل الذي كان أسلفه، ينظر لعلَّ مركبًا قد جاء بماله، فإذا بالخشبة التي فيها المال، فأخذها لأهله حطبًا، فلما نشرها وجد المال والصحيفة، ثم قَدِمَ الذي كان أسلفه، فأتى بالألف دينار، فقال: والله ما زلت جاهدًا في طلب مركب لآتيك بمالك، فما وجدت مركبًا قبل الذي أتيت فيه، قال: هل كنت بعثت إلي بشيء؟ قال: أخبرك أني لم أجد مركبًا قبل الذي جئت فيه، قال: فإن الله قد أدَّى عنك الذي بعثت في الخشبة، فانصرف بالألف الدينار راشدًا». (أخرجه البخاري ٢٢٩١).

ج - قصص غير الصالحين:

وكما أن قصص الصالحين تحوي عبرة وعظة، فكذلك غير الصالحين؛ لذا فقد قصَّ النبي ﷺ على أصحابه طائفة من قصص غير الصالحين.

ومن ذلك: قصة الذي قتل نفسه، فعن الحسن قال: حدثنا جُندب بن عبد الله ﵁ في هذا المسجد، وما نسينا منذ حدثنا، وما نخشى أن يكون جندب كذب على رسول الله ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «كان فيمَن كان قبلكم رجل به جرح، فجزع، فأخذ سكينًا فحزَّ بها يده، فما رقأ الدم حتى مات، قال الله تعالى: بادرني عبدي بنفسه؛ حرَّمت عليه الجنة». (أخرجه البخاري ٣٤٦٣، ومسلم ١١٣).

وهكذا يتنوع القصص النبوي ما بين قصص الصالحين من الأنبياء والصالحين من آحاد الناس للتأسِّي بهم، وقصص الضالين للحذر من عاقبتهم وطريقهم.

وهكذا في كتاب الله عز وجل نجد قصة خير الخلق، وأبرِّهم، وأتقاهم: الأنبياء والمرسلين، والربانين، والأحبار، والعباد، وقصص شَرِّ الناس: الشيطان، وفرعون، وقارون، وهامان، والمُكذِّبين للمرسلين، وكلها تُساق سياق الاعتبار والاتعاظ.

د- قصص الحيوانات والبهائم:

ومن القصص النبوي- أيضًا-: قصص بعض البهائم والحيوانات، ومن ذلك: قصة البقرة مع المزارع، عن أبي هريرة ﷺ، قال: صلَّى رسول الله ﷺ صلاة الصبح، ثم أقبل على الناس، فقال: «بينا رجل يسوق بقرة إذ ركبها، فضربها، فقالت: إنَّا لم نُخلق لهذا، إنما خُلِقنا للحرث»، فقال الناس: سبحان الله، بقرة تكلَّم، فقال: «فإني أُومن بهذا، أنا، وأبو بكر، وعمر،- وما هما ثَمَّ-، وبينما رجل في غنمه إذ عدا الذئب، فذهب منها بشاة، فطلب حتى كأنه استنقذها منه، فقال له الذئب هذا: استنقذتها مِنِّي، فمَن لها يوم السبع، يوم لا راعي لها غيري»، فقال الناس: سبحان الله، ذئب يتكلَّم، قال: «فإني أُومن بهذا أنا، وأبو بكر، وعمر،- وما هما ثَمَّ-». (أخرجه البخاري ٣٤٧١، ومسلم ٢٣٨٨).

من وظائف القصة:

تتنوع وظائف القصة النبوية، ويصعب استيعابها في هذا المقام، وحسبنا الإشارة إلى طائفة من أهم هذه الوظائف، فمن ذلك ما يلي:

١- بيان عاقبة العمل السيىء:

قد تأتي القصة النبوية لبيان عاقبة العمل السيء تحذيرًا منه، ومن ذلك: ما رواه أبو هريرة ﷺ قال: قال النبي ﷺ، أو قال أبو القاسم ﷺ: «بينما رجل يمشي في حُلَّة، تعجبه نفسه، مُرجِّل جُمَّته، إذ خسف الله به، فهو يتجلَّل إلى يوم القيامة». (أخرجه البخاري ٥٧٨٩، ومسلم ٢٠٨٨).

٢- بيان ما أُجمل في القرآن:

ومن القصص النبوي ما فيه بيان ما أُجْمِل في كتاب الله عز وجل، ومن ذلك: قصة اغتسال موسى عليه السلام، عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «إن موسى كان رجلًا حييًّا ستيرًا، لا يُرى من جلده شيء؛ استحياء منه، فآذاه مَن آذاه من بني إسرائيل، فقالوا: ما يستتر هذا التَّسَتُّر، إلا من عيب بجلده: إما برص، وإما أدرة، وإما آفة، وإن الله أراد أن يُبرِّئه مما قالوا لموسى، فخلا يومًا وحده، فوضع ثيابه على الحجر، ثم اغتسل، فلما فرغ أقبل إلى ثيابه ليأخذها، وإن الحجر عدا بثوبه، فأخذ موسى عصاه وطلب الحجر، فجعل يقول: ثوبي حجر، ثوبي حجر، حتى انتهى إلى ملأٍ من بني إسرائيل، فرأوه عُريانًا أحسن ما خلق الله، وأبرأه مما يقولون، وقام الحجر، فأخذ ثوبه فلبسه، وطفق بالحجر ضربًا بعصاه، فوالله إن بالحجر لندبًا من أثر ضربه، ثلاثًا، أو أربعًا، أو خمسًا، فذلك قوله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوْا۟ مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُوا۟ ۚ وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهًا ﴾(الأحزاب: ٦٩). (أخرجه البخاري ٣٤٠٤، ومسلم ٣٣٩).

ومن ذلك- أيضًا- قصة الخضر مع موسى عليه السلام، فقد جاء في القصص النبوي تفصيل لهذه القصة، ونص على أن العبد المذكور في سورة الكهف هو الخضر، ولفظه: «قام موسى النبي خطيبًا في بني إسرائيل، فسُئِلَ: أيُّ الناس أعلم؟ فقال: أنا أعلم، فعتب الله عليه، إذ لم يَرُدَّ العلم إليه، فأوحى الله إليه: أن عبدًا من عبادي بمجمع البحرين، هو أعلم منك....». (أخرجه البخاري ١٢٢، ومسلم ٢٣٨٠).

وقصة أصحاب الأخدود، فقد جاءت مُوجزة في القرآن، وذكر ﷺ تفاصيلها في الحديث المشهور: «كان ملك فيمَن كان قبلكم، وكان له ساحر، فلما كبر، قال للملك: إني قد كبرت، فابعث إلي غلامًا أعلمه السحر، فبعث إليه غلامًا يعلمه.....». (أخرجه مسلم ٣٠٠٥).

وقصة إبراهيم، وابنه إسماعيل في بناء البيت، فقد جاء تفصيلها في الحديث الطويل: «أول ما اتخذ النساء المنطق من قبل أم إسماعيل، اتخذت منطقًا لتعفي أثرها على سارة، ثم جاء بها إبراهيم، وبابنها إسماعيل وهي ترضعه، حتى وضعهما عند البيت عند دوحة، فوق زمزم في أعلى المسجد، وليس بمكة يومئذ أحد، وليس بها ماء...». (أخرجه البخاري ٣٣٦٤).

٣- مُقارنة حال أصحابه بالصالحين من قبلهم:

واستخدم النبي ﷺ القصة ليقارن حال أصحابه بحال الصالحين من قبلهم؛ لتثبيتهم والتسرية عنهم فيما أصابهم من الأذى في سبيل الإيمان به ﷺ واتّباعه.

عن خبَّاب بن الأَرَتْ ﷺ قال: شكونا إلى رسول الله ﷺ، وهو متوسد بردة له في ظل الكعبة فقلنا: ألا تستنصر لنا، ألا تدعو لنا؟ فقال: «قد كان من قبلكم، يُؤخذ الرجل، فيُحفر له في الأرض، فيُجعل فيها، فيُجاء بالمنشار، فيُوضع على رأسه فيُجعل نصفين، ويُمشط بأمشاط الحديد، ما دون لحمه وعظمه، فما يصده ذلك عن دينه، والله ليتمن هذا الأمر، حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت، لا يخاف إلا الله، والذئب على غنمه، ولكنكم تستعجلون». (أخرجه البخاري ٦٩٤٣).

٤- بيان فضائل الأعمال:

وقد يُورد ﷺ القصة لبيان فضل العمل الصالح، ومن ذلك: بيانه لفضيلة الصلاة في بيت المقدس في سياق قصة بناء سليمان عليه السلام له.

عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما، عن رسول الله ﷺ: «أن سليمان بن داود ﷺ لما بنى بيت المقدس سأل الله عز وجل خلالًا ثلاثة: سأل الله عز وجل حكمًا يصادف حكمه فأُوتيه، وسأل الله عز وجل مُلكًا لا ينبغي لأحد من بعده فأُوتيه، وسأل الله عز وجل حين فرغ

من بناء المسجد أن لا يأتيه أحد لا ينهزه إلا الصلاة فيه أن يخرجه من خطيئته كيوم ولدته أمه». (أخرجه النسائي ٦٩٣، وأحمد ٦٦٤٤، وابن ماجه ١٤٠٨).

وفي رواية أحمد: «فنحن نرجو أن يكون الله عز وجل قد أعطاه إياه».

وفي رواية ابن ماجه، فقال النبي ﷺ: «أما اثنتان فقد أُعطيهما، وأرجو أن يكون قد أُعطي الثالثة».

التفاعل مع القصة:

يتفاعل ﷺ حين يحكي القصة؛ فيضحك مما يستوجب ذلك، عن ابن مسعود ﵁، أن رسول الله ﷺ قال: «آخر مَن يدخل الجنة رجل، فهو يمشي مرة، ويكبو مرة، وتسفعه النار مرة، فإذا ما جاوزها التفت إليها، فقال: تبارك الذي نجاني منك، لقد أعطاني الله شيئًا ما أعطاه أحدًا من الأولين والآخرين، فترفع له شجرة، فيقول: أي ربِّ، أَدْنِني من هذه الشجرة فلأستظل بظلها، وأشرب من مائها، فيقول الله عز وجل: يا ابن آدم، لعلي إن أعطيتكها سألتني غيرها، فيقول: لا يا ربِّ، ويُعاهده أن لا يسأله غيرها، وربه يعذره؛ لأنه يرى ما لا صبر له عليه، فيُدنيه منها، فيستظل بظلها، ويشرب من مائها، ثم تُرفع له شجرة هي أحسن من الأولى، فيقول: أي ربِّ، أَدْنِني من هذه لأشرب من مائها، وأستظل بظلها، لا أسألك غيرها، فيقول: يا ابن آدم، ألم تعاهدني أن لا تسألني غيرها، فيقول: لعلي إن أدنيتك منها تسألني غيرها، فيُعاهده أن لا يسأله غيرها، وربه يعذره؛ لأنه يرى ما لا صبر له عليه، فيُدنيه منها فيستظل بظلها، ويشرب من مائها، ثم تُرفع له شجرة عند باب الجنة هي أحسن من الأوليين، فيقول: أي ربِّ، أَدْنِني من هذه لأستظل بظلها، وأشرب من مائها، لا أسألك غيرها، فيقول: يا ابن آدم، ألم تعاهدني أن لا تسألني غيرها، قال: بلى يا ربِّ، هذه لا أسألك غيرها، وربه يعذره؛ لأنه يرى ما لا صبر له عليها، فيُدنيه منها، فإذا أدناه منها فيسمع أصوات أهل الجنة، فيقول: أي ربِّ، أدخلنيها، فيقول: يا ابن آدم

ما يصريني منك؟ أيرضيك أن أعطيك الدنيا، ومثلها معها؟ قال: يا ربِّ، أتستهزئ مني، وأنت ربُّ العالمين؟»، فضحك ابن مسعود، فقال: ألا تسألوني مِمَّ أضحك، فقالوا: مِمَّ تضحك، قال: هكذا ضحك رسول الله ﷺ، فقالوا: مِمَّ تضحك يا رسول الله، قال: «من ضحك رب العالمين حين قال: أتستهزئ مني، وأنت ربُّ العالمين؟ فيقول: إني لا أستهزئ منك، ولكني على ما أشاء قادر». (أخرجه مسلم ١٨٧، والبخاري ٦٥٧١ مختصرًا).

ربطها بالقرآن:

يربط ﷺ بعض ما دلَّت عليه القصة بالقرآن الكريم، كما في قصة موسى حين سأل ربه عن نعيم الجنة، عن الشعبي قال: سمعت المغيرة بن شعبة، يخبر به الناس على المنبر- قال سفيان: رفعه أحدهما، أراه ابن أبجر- قال: «سأل موسى ربه، ما أدنى أهل الجنة منزلة، قال: هو رجل يجيء بعد ما أُدخل أهل الجنةِ الجنةَ، فيُقال له: ادخل الجنة، فيقول: أي ربِّ، كيف، وقد نزل الناس منازلهم، وأخذوا أخذاتهم، فيُقال له: أترضى أن يكون لك مثل مُلْكِ مَلِكٍ من ملوك الدنيا؟ فيقول: رضيت ربِّ، فيقول: لك ذلك، ومثله، ومثله، ومثله، ومثله، فقال في الخامسة: رضيت ربِّ، فيقول: هذا لك وعشرة أمثاله، ولك ما اشتهت نفسك، ولذَّت عينك، فيقول: رضيت ربِّ، قال: ربِّ، فأعلاهم منزلة؟ قال: أولئك الذين أردت، غرست كرامتهم بيدي، وختمت عليها، فلم ترَ عين، ولم تسمع أذن، ولم يخطر على قلب بشر»، قال: ومصداقه في كتاب الله عز وجل: ﴿ فَلَا تَعۡلَمُ نَفۡسٞ مَّآ أُخۡفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعۡيُنٖ جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴾ (السجدة: ١٧) الآية. (أخرجه مسلم ١٨٩).

الاستشهاد بها على صحة ما أخبر به:

ويستشهد ﷺ بالقصة على صحة ما أخبرهم به، كما في حديث الجسَّاسة المشهور، عن عامر بن شراحيل الشعبي، شعب همدان، أنه سأل فاطمة بنت قيس، أخت الضحاك

بن قيس- وكانت من المهاجرات الأُوَلِ-، فقال: حدِّثيني حديثًا سمعتيه من رسول الله ﷺ، لا تسنديه إلى أحد غيره، فقالت: لئن شئت لأفعلن، فقال لها: أجل حدِّثيني، فقالت: نكحت ابن المغيرة، وهو من خيار شباب قريش يومئذ.... الحديث، وفيه: فلما انقضت عِدَّتِي، سمعت نداء المنادي، منادي رسول الله ﷺ، ينادي: الصلاة جامعة، فخرجت إلى المسجد، فصليت مع رسول الله ﷺ، فكنت في صَفِّ النساء التي تلي ظهور القوم، فلما قضى رسول الله ﷺ صلاته جلس على المنبر، وهو يضحك، فقال: «ليلزم كل إنسان مُصلَّاه»، ثم قال: «أتدرون لِمَ جمعتكم؟»، قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: «إني والله ما جمعتكم لرغبة، ولا لرهبة، ولكن جَمعتكم؛ لأن تميمًا الداري كان رجلًا نصرانيًّا، فجاء فبايع، وأسلم، وحدَّثني حديثًا وافق الذي كنت أحدثكم عن مسيح الدجال...، وذكرت حديث الجسَّاسة ...، وفي آخره: «ألا هل كنت حدثتكم ذلك؟» فقال الناس: نعم، «فإنه أعجبني حديث تميم، أنه وافق الذي كنت أُحدثكم عنه، وعن المدينة ومكة، ألا إنه في بحر الشأم، أو بحر اليمن، لا بل من قبل المشرق ما هو، من قبل المشرق ما هو، من قبل المشرق ما هو»، وأومأ بيده إلى المشرق، قالت: فحفظت هذا من رسول الله ﷺ. (أخرجه مسلم ٢٩٤٢).

أساليب الاعتبار في القصة النبوية:

القصة النبوية ليست مُجرَّد تسجيل أحداث تاريخية، أو تسلية وأُنْس، إنما تُساق لأجل الاعتبار والاتعاظ.

وقد تنوعت أساليب الاعتبار في القصة النبوية ؛ فشملت ما يلي:

١ - الاكتفاء بحكاية القصة:

قد يكتفي النبي ﷺ بحكاية القصة على أصحابه، ويترك لهم استنباط العبر منها؛ لوضوح دلالة القصة.

ويكثر هذا الأسلوب في القصة النبوية، بل ربما كان الأغلب على ما يُحدِّث به ﷺ أصحابه من قصص.

ومن ذلك: قصة السَّحابة، عن أبي هريرة ﷺ، عن النبي ﷺ قال: «بينا رجل بفلاة من الأرض، فسمع صوتًا في سحابة: اسقِ حديقة فلان، فتنحَّى ذلك السحاب، فأفرغ ماءه في حَرَّة، فإذا شرجة من تلك الشراج قد استوعبت ذلك الماء كله، فتتبع الماء، فإذا رجل قائم في حديقته يحول الماء بمسحاته، فقال له: يا عبد الله ما اسمك؟ قال: فلان- للاسم الذي سمع في السحابة-، فقال له: يا عبد الله لِمَ تسألني عن اسمي؟ فقال: إني سمعت صوتًا في السحاب الذي هذا ماؤه يقول: اسقِ حديقة فلان- لِاسْمِكَ-، فما تصنع فيها؟ قال: أما إذ قلت هذا، فإني أنظر إلى ما يخرج منها، فأتصدق بثلثه، وآكل أنا وعيالي ثلثًا، وأرد فيها ثلثه». (أخرجه مسلم ٢٩٨٤).

وفي كثير من القصص النبوي كان ﷺ يكتفي بإيراد القصة تاركًا لأصحابه الاستنباط والاستنتاج منها، كما في قصة قاتل المائة، وقصة أصحاب الأخدود، والثلاثة الذي آواهم المبيت إلى الغار، وبغي بني إسرائيل... وغيرها.

٢- البدء بموطن العبرة:

وأحيانًا يبدأ ﷺ بموطن العبرة قبل سياق القصة، ومن ذلك: قصة الأعمى والأبرص والأقرع، عن عبد الرحمن بن أبي عمرة، أن أبا هريرة ﷺ، حدَّثه: أنه سمع رسول الله ﷺ، يقول: «إن ثلاثة في بني إسرائيل: أبرص، وأقرع، وأعمى، بدا لله عز وجل أن يبتليهم، فبعث إليهم ملَكًا، فأتى الأبرص، فقال: أي شيء أحب إليك؟ قال: لون حسن، وجلد حسن، قد قذرني الناس، قال: فمسحه فذهب عنه، فأُعطي لونًا حسنًا، وجلدًا حسنًا، فقال: أي المال أحب إليك؟ قال: الإبل،- أو قال: البقر، هو شك في ذلك: إن الأبرص، والأقرع، قال أحدهما: الإبل، وقال الآخر: البقر، فأُعطي ناقة عُشَرَاء، فقال: يُبارك لك فيها، وأتى الأقرع،

فقال: أي شيء أحب إليك؟ قال: شَعر حسن، ويذهب عنِّي هذا، قد قذرني الناس، قال: فمسحه فذهب، وأُعطي شعرًا حسنًا، قال: فأي المال أحب إليك؟ قال: البقر، قال: فأعطاه بقرة حاملًا، وقال: يُبارك لك فيها، وأتى الأعمى، فقال: أي شيء أحب إليك؟ قال: يَرُدُّ الله إليَّ بصري، فأُبصر به الناس، قال: فمسحه فردَّ الله إليه بصره، قال: فأي المال أحب إليك؟ قال الغنم: فأعطاه شاة والدًا، فأنتج هذان، وولد هذا، فكان لهذا وادٍ من إبل، ولهذا وادٍ من بقر، ولهذا وادٍ من غنم، ثم إنه أتى الأبرص في صورته وهيئته، فقال: رجل مسكينٌ، تقطَّعت بي الحبال في سفري، فلا بلاغ اليوم إلا بالله، ثم بك، أسألك بالذي أعطاك اللون الحسن، والجلد الحسن، والمال، بعيرًا أتبلَّغُ عليه في سفري، فقال له: إن الحقوق كثيرة، فقال له: كأني أعرفك، ألم تكن أبرص يقذرك الناس، فقيرًا فأعطاك الله؟ فقال: لقد ورثت لكابرٍ عن كابرٍ، فقال: إن كنت كاذبًا فصيرك الله إلى ما كنت، وأتى الأقرع في صورته وهيئته، فقال له: مثل ما قال لهذا، فردَّ عليه مثلَ ما ردَّ عليه هذا، فقال: إن كنت كاذبًا فصيرك الله إلى ما كنت، وأتى الأعمى في صورته، فقال: رجل مسكينٌ، وابن سبيل، وتقطَّعت بي الحبال في سفري، فلا بلاغ اليوم إلا بالله، ثم بك، أسألك بالذي ردَّ عليك بصرك شاة أتبلَّغ بها في سفري، فقال: قد كنت أعمى، فردَّ الله بصري، وفقيرًا فقد أغناني، فخُذ ما شِئتَ، فوالله لا أجهدك اليوم بشيء أخذته لله، فقال: أمسك مالك، فإنما ابْتُليتم، فقد رضي الله عنك، وسخط على صاحبيك». (أخرجه البخاري ٣٤٦٤، ومسلم ٢٩٦٤).

لقد لخَّص ﷺ موطن العبرة بجملة واحدة حين قال: «فأراد الله أن يبتليهم».

ومن ذلك: قصة الذي أضلَّ راحلته، فقد بدأها ﷺ ببيان فرح الله عز وجل بتوبة العبد إذا تاب، وأنها أعظم من فرح من وَجد دابته، عن أنس بن مالك ﷺ، قال: قال رسول الله ﷺ: «لله أشد فرحًا بتوبة عبده حين يتوب إليه، من أحدكم كان على راحلته بأرض فلاة، فانفلتت منه، وعليها طعامه وشرابه، فأيس منها، فأتى شجرة، فاضطجع

في ظلها، قد أَيِسَ من راحلته، فبينا هو كذلك إذا هو بها قائمة عنده، فأخذ بخطامها، ثم قال من شدة الفرح: اللهم أنت عبدي وأنا ربك، أخطأ من شدة الفرح». (أخرجه مسلم ٢٧٤٧).

وبدأ ﷺ خبر البغي من بني إسرائيل بإخباره أن الله عز وجل قد غفر لها، عن أبي هريرة ﷺ، عن رسول الله ﷺ، قال: «غُفِر لامرأة مومسة، مرَّت بكلب على رأس رَكِيٍّ يلهث، قال: كاد يقتله العطش، فنزعت خُفَّها، فأوثقته بخمارها، فنزعت له من الماء، فغُفِر لها بذلك». (أخرجه البخاري ٣٣٢١).

وفي قصة إبراهيم ﷺ مع الملك الجبار بدأها ﷺ ببيان مُلازمة إبراهيم ﷺ للصدق، وأنه لم يكذب إلا في ثلاث مواطن، كلها كانت المصلحة تستدعي ذلك، ثم ذكرها ﷺ، عن أبي هريرة ﷺ، أن رسول الله ﷺ قال: «لَمْ يكذب إبراهيم النبي ﷺ قطُّ إلا ثلاث كذبات: ثنتين في ذات الله، قوله: إني سقيم، وقوله: بل فعله كبيرهم هذا، وواحدة في شأن سارة، فإنه قَدِمَ أرض جبار، ومعه سارة، وكانت أحسن الناس، فقال لها: إن هذا الجبار، إن يعلم أنك امرأتي يغلبني عليك، فإن سألك فأخبريه أنك أختي، فإنك أختي في الإسلام، فإني لا أعلم في الأرض مسلماً غيري وغيرك، فلما دخل أرضه رآها بعض أهل الجبار، أتاه فقال له: لقد قَدِمَ أرضك امرأة لا ينبغي لها أن تكون إلا لك، فأرسل إليها، فأتي بها، فقام إبراهيم ﷺ إلى الصلاة، فلما دخلت عليه لم يتمالك أن بسط يده إليها، فقبضت يده قبضة شديدة، فقال لها: ادعي الله أن يُطلق يدي، ولا أضرك، ففعلت، فعاد، فقبضت أشد من القبضة الأولى، فقال لها مثل ذلك، ففعلت، فعاد، فقبضت أشد من القبضتين الأوليين، فقال: ادعي الله أن يُطلق يدي، فلك الله أن لا أضرك، ففعلت، وأطلقت يده، ودعا الذي جاء بها، فقال له: إنك إنما أتيتني بشيطان، ولم تأتني بإنسان، فأخرجها من أرضي، وأعطها هاجر، قال: فأقبلت تمشي، فلما رآها إبراهيم ﷺ انصرف،

فقال لها: مهيم؟ قالت: خيرًا، كَفَّ الله يد الفاجر، وأخدم خادمًا»، قال أبو هريرة: فتلك أُمُّكم يا بني ماء السماء. (أخرجه البخاري ٢٢١٧، ومسلم ٢٣٧١، واللفظ له).

٣- تضمينها العبرة في أثنائها:

وأحيانًا يضمِّن ﷺ العبرة في أثناء القصة، فيُوردها في موطنها، كما في قصة إسماعيل عليه السلام وأمه، عن سعيد بن جبير، قال ابن عباس: أول ما اتخذ النساء المنطق من قبل أُمِّ إسماعيل، اتخذت منطقًا لتعفي أثرها على سارة، ثم جاء بها إبراهيم، وبابنها إسماعيل، وهي ترضعه، حتى وضعهما عند البيت عند دوحة، فوق زمزم في أعلى المسجد، وليس بمكة يومئذ أحد، وليس بها ماء، فوضعهما هنالك، ووضع عندهما جرابًا فيه تمر، وسِقَاء فيه ماء، ثم قفى إبراهيم مُنطلقًا، فتبعته أُمُّ إسماعيل فقالت: يا إبراهيم، أين تذهب وتتركنا بهذا الوادي، الذي ليس فيه إنس ولا شيء؟ فقالت له ذلك مرارًا، وجعل لا يلتفت إليها، فقالت له: آلله الذي أمرك بهذا؟ قال نعم، قالت: إذن لا يضيعنا، ثم رجعت، فانطلق إبراهيم حتى إذا كان عند الثنية حيث لا يرونه، استقبل بوجهه البيت، ثم دعا بهؤلاء الكلمات، ورفع يديه فقال: ﴿رَبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ﴾ (إبراهيم: ٣٧)- حتى بلغ ﴿يَشۡكُرُونَ﴾، «وجعلت أم إسماعيل تُرضع إسماعيل، وتشرب من ذلك الماء، حتى إذا نفد ما في السِّقاء؛ عطشت، وعطش ابنها، وجعلت تنظر إليه يتلوَّى، أو قال: يتلبَّط، فانطلقت كراهية أن تنظر إليه، فوجدت الصفا أقرب جبل في الأرض يليها، فقامت عليه، ثم استقبلت الوادي تنظر هل ترى أحدًا؟ فلم تَرَ أحدًا، فهبطت من الصفا حتى إذا بلغت الوادي، رفعت طرف درعها، ثم سعت سعي الإنسان المجهود حتى جاوزت الوادي، ثم أتت المروة، فقامت عليها، ونظرت هل ترى أحدًا؟ فلم تَرَ أحدًا، ففعلت ذلك سبع مرات، قال ابن عباس: قال النبي ﷺ: «فذلك سعي الناس بينهما»....الحديث. (أخرجه البخاري ٣٣٦٤).

٤- ختمها بالعبرة:

وقد تأتي العبرة في القصة النبوية في خاتمتها ونهايتها، كما في قصة الرجل الذي تصدَّق على السارق والزاني، عن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «قال رجل: لأتصدَّقَنَّ بصدقة، فخرج بصدقته، فوضعها في يد سارق، فأصبحوا يتحدثون: تصدق على سارق، فقال: اللهم لك الحمد، لأتصدَّقنَّ بصدقة، فخرج بصدقته، فوضعها في يدي زانية، فأصبحوا يتحدثون: تصدق الليلة على زانية، فقال: اللهم لك الحمد، على زانية، لأتصدَّقنَّ بصدقة، فخرج بصدقته، فوضعها في يدي غني، فأصبحوا يتحدثون: تصدَّق على غني، فقال: اللهم لك الحمد، على سارق، وعلى زانية، وعلى غني، فأُتِيَ، فقيل له: أما صدقتك على سارق: فلعلَّه أن يستعفَّ عن سرقته، وأما الزانية: فلعلها أن تستعفَّ عن زناها، وأما الغني: فلعلَّه يعتبر؛ فيُنفق مما أعطاه الله». (أخرجه البخاري ١٤٢١، ومسلم ١٠٢٢).

وكما في قصة الذين استهموا على السفينة، عن النعمان بن بشير رضي الله عنهما، قال: قال النبي ﷺ: «مثل المُدَّهن في حدود الله، والواقع فيها، مثل قوم استهموا سفينة، فصار بعضهم في أسفلها، وصار بعضهم في أعلاها، فكان الذي في أسفلها يمرون بالماء على الذين في أعلاها، فتأذوا به، فأخذ فأسًا فجعل ينقر أسفل السفينة، فأتوه، فقالوا: ما لك، قال: تأذَّيْتم بي، ولا بُدَّ لي من الماء، فإن أخذوا على يديه؛ أنجوه، ونجوا أنفسهم، وإن تركوه؛ أُهلكوه، وأهلكوا أنفسهم». (أخرجه البخاري ٢٦٨٦).

ومما ذكر فيه ﷺ العبرة في خاتمة القصة: قصة الرجل الذي طلب من بنيه أن يحرقوه بعد موته، عن أبي هريرة ﷺ، عن النبي ﷺ، قال: «كان رجل يُسرف على نفسه، فلما حضره الموت، قال لبنيه: إذا أنا مِتُّ فأحرقوني، ثم اطحنوني، ثم ذروني في الريح، فوالله لَئِنْ قَدِرَ عليَّ ربي ليعذبني عذابًا ما عذَّبه أحدًا، فلما مات، فُعِل به ذلك، فأمر الله الأرض

فقال: اجمعي ما فيك منه، ففعلت، فإذا هو قائم، فقال: ما حملك على ما صنعت؟ قال: يا ربِّ خشيتك، فغفر له»، وقال غيره: «مخافتك يا رب». (أخرجه البخاري ٣٤٨١، ومسلم ٢٧٥٦).

ومن ذلك- أيضًا- قصة يوشع بن نون ﷺ، عن أبي هريرة ﷺ، قال: قال رسول الله ﷺ: «غزا نبي من الأنبياء، فقال لقومه: لا يتبعني رجل ملك بضع امرأة، وهو يريد أن يبني بها ولَمَّا يبنِ بها، ولا أحد بنى بيوتًا، ولم يرفع سقوفها، ولا أحد اشترى غنمًا، أو خلفات، وهو ينتظر ولادها، فغزا، فدنا من القرية صلاة العصر، أو قريبًا من ذلك، فقال للشمس: إنك مأمورة، وأنا مأمور، اللهم احبسها علينا، فحُبست حتى فتح الله عليه، فجمع الغنائم، فجاءت، يعني: النار لتأكلها، فلم تطعمها فقال: إن فيكم غلولًا، فليبايعني من كل قبيلة رجل، فلزقت يد رجل بيده، فقال: فيكم الغلول، فليبايعني قبيلتك، فلزقت يد رجلين، أو ثلاثة بيده، فقال: فيكم الغلول، فجاءوا برأس مثل رأس بقرة من الذهب، فوضعوها، فجاءت النار، فأكلتها، ثم أحل الله لنا الغنائم، رأى ضعفنا، وعجزنا؛ فأحلها لنا». (أخرجه البخاري ٣١٣٤، ومسلم ١٧٤٧).

وكذلك قصة آدم ﷺ مع داود عليهما السلام، عن أبي هريرة ﷺ، قال: قال رسول الله ﷺ: «لما خلق الله آدم مسح ظهره، فسقط من ظهره كل نسمة هو خالقها من ذريته إلى يوم القيامة، وجعل بين عيني كل إنسان منهم وبيصًا من نور، ثم عرضهم على آدم، فقال: أي ربِّ، مَن هؤلاء؟ قال: هؤلاء ذريتك، فرأى رجلًا منهم، فأعجبه وبيص ما بين عينيه، فقال: أي ربِّ، مَن هذا؟ فقال: هذا رجل من آخر الأُمَم من ذريتك، يُقال له: داود، فقال: ربِّ، كم جعلت عمره؟ قال: ستين سنة، قال: أي ربِّ، زِدْهُ مِن عمري أربعين سنة، فلما قُضي عمر آدم، جاءه ملك الموت، فقال: أولم يبق من عمري أربعون سنة؟ قال: أولم تُعطها ابنك داود، قال: فجحد آدم؛ فجحدت ذريته، ونسي آدم؛ فنسيت

ذريته، وخطئ آدم؛ فخطئت ذريته». (أخرجه الترمذي ٣٠٧٦، وكذا أخرجه أحمد من حديث ابن عباس ٣٥١٩).

ومن النماذج في ذلك- أيضًا-: قصة سليمان عليه السلام في طوافه على النساء، عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال رسول الله ﷺ: «قال سليمان: لأطوفنَّ الليلة على تسعين امرأة، كُلهنَّ تأتي بفارس يُجاهد في سبيل الله، فقال له صاحبه: إن شاء الله، فلم يقل: إن شاء الله، فطاف عليهن جميعًا، فلم يحمل منهن إلا امرأة واحدة، جاءت بشق رجل، وايم الذي نفس محمد بيده، لو قال: إن شاء الله، لجاهدوا في سبيل الله فرسانًا أجمعون». (أخرجه البخاري ٦٦٣٩، ومسلم ١٦٥٤).

وهكذا تتنوع أساليب النبي ﷺ في سياق العبرة بالقصة، ما بين الاكتفاء بسياق القصة وإيرادها، أو سوق العبرة في مطلع القصة، أو أثنائها، أو في خاتمتها.

وعلى المُربِّي أن يُراعِي تنوع الأساليب في التوظيف التربوي للقصة، سواء في حكايتها، أو في كتابتها وصياغتها، ويُراعِي ما يلائم المتربين، ويُسهم في إيصال الرسالة التربوية إليهم.

تفاعل الصحابه وسؤالهم:

كان أصحاب النبي ﷺ يتفاعلون مع القصة النبوية، فيستنبطون، ويسألونه ﷺ عما يخفى عليهم، أو ما استنتجوه في القصة، ومن ذلك: قصة الرجل الذي سقى الكلب، عن أبي هريرة رضي الله عنه: أن النبي ﷺ قال: «بينما رجل يمشي بطريق، اشتد عليه العطش، فوجد بئرًا فنزل فيها، فشرب، ثم خرج، فإذا كلب يلهث، يأكل الثرى من العطش، فقال الرجل: لقد بلغ هذا الكلب من العطش مثل الذي كان بلغ بي، فنزل البئر فملأ خُفَّه، ثم أمسكه بفيه، فسقى الكلب، فشكر الله له؛ فغفر له»، قالوا: يا رسول الله، وإن لنا في البهائم أجرًا؟ فقال: «في كل ذات كبد رطبة أجر». (أخرجه البخاري ٦٠٠٩، ومسلم ٢٢٤٤).

كيف نُربِّي بالقصة؟

تكرَّر فيما سبق التأكيدُ على أهمية الاعتناء بفاعلية الوسائل، والأساليب التربوية، وحسن توظيفها، والقصة ليست حالة مختلفة.

وعلى الرغم من ترسيخ أهمية الدور التربوي للقصة، وكثرة الحديث عنها، والتأكيد على أهمية توظيفها في التربية، إلا أن الاعتناء بالحديث عن معايير التعامل مع القصة لا يتناسب مع إيماننا بأهميتها.

وفيما يلي نُشير لطائفة من المعايير التي ينبغي مراعاتها في التعامل مع القصة، وهذه المعايير مُستوحاة من طبيعة القصص النبوي:

أولًا: ثبوت القصة:

تغري فاعلية القصة وجاذبيتها بعض الوُعَّاظ والمُربِّين في الإسهاب في إيراد القصص، والتساهل في ثبوتها، ويُؤدي ذلك إلى رواج عدد من القصص التي لا تصح، بل ربما عمد بعضهم إلى اختلاق بعض الوقائع والقصص بحسن نية، أو سوء نية.

وفي عصرنا راجت عدد من القصص، وتداولها بعض الوُعَّاظ بحسن نية، ثم اتضح فيما بعد أنها مصنوعة ومختلقة.

وقد عرض علي عدد من الشباب في مواقف مختلفة، مُشافهة، أو مراسلة قصصًا يدَّعون أنها حدثت لهم، ويطلبون مِنِّي ذكرها في حديث عام؛ ليتَّعِظَ بها الناس، وكثيرٌ منها فيه غرابة ظاهرة، بل اكتشفت فيما بعد أن بعضها مصنوع.

ولا شك أنه مما يصعب على المُتحدث التثبُّت من كل ما يورده، ويستشهد به من قصص، وبخاصة الأخبار الحادثة مما لا يُروى بإسناد، لكن استعانته بالنقد الداخلي للقصة، أو ما يُسمَّى بنقد المتن؛ مما يعين على تجاوز كثير من المشكلات في ذلك.

وقد حذَّر السلف في حديثهم عن القصَّاص من رواية الأخبار الباطلة والمنكرة، بل هذا أحد أسباب إنكارهم على القصَّاص، ونهي كثير منهم عن ذلك.

ثانيًا: البعد عن التركيز على النماذج الشاذة[1]:

تحمل النماذج الشاذة جاذبية عالية، وتُثير الانتباه أكثر من غيرها، وإنك حين تسير في الطريق تُقابل العشرات والمئات من المركبات، ولا يلفت نظرك منها إلا الشاذ في مظهره، أو في اتجاه سيره، وهكذا في الأخبار والحكايات، وفي أحوال الآخرين.

ومن صور الشذوذ الشائعة: الحالات المثالية لبعض الصالحين، وأخبارهم في التقوى والعبادة.

ويُولع بعض الوُعَّاظ والمذكِّرين بإيراد هذه النماذج، والاستشهاد بها، وربما تكلَّف البحث عنها، وبقدر ما يبدو لنا أنها تؤدي دورًا في تحفيز الناس على العمل والإصلاح؛ فإنها قد لا تسلم من آثار غير محمودة، فـ «عندما نُورد هذه الأخبار، وهي بهذه الدرجة من المثالية على قوم يعدُّون المحافظة على الصلاة ضربًا من الإنجاز؛ فمن السذاجة أن نتصور أنها ستنقلهم ١٨٠ درجة إيجابية، أو قريبًا منها، بل إن هذه الأخبار وأمثالها مع ما لبعضها من صحة في الرواية، وموافقة للشرع قد تُورث الإحباط واليأس في نفوس بعض المدعوين؛ لأن فيهم مَن يشعر أننا قدَّمناها على أنها هي النموذج الذي نتطلع إليه، والغايات التي نصبو إليها؛ والغايات إذا لم تكن قريبة المنال فستكون مُستصعبة التنفيذ؛ و إذا أردت أن تُطاع؛ فأمر بما يُستطاع». (سليمان الخضير، مجلة البيان ١٥٧/ ٢٦).

واحتفاء الناس بالمواقف والأخبار الشاذة أمر طبيعي فطري، إلا أن الولع بها، والتركيز عليها له آثار سلبية عِدَّة، ومنها:

---

(١) ليس المقصود بالشاذة هنا ما يتضمن محتوى شاذًا ومخالفًا، إنما ما يخرج عن القاعدة العامة المألوفة.

١. أن كثيرًا من الأخبار والقصص الشاذة لا تثبت، أو لا تسلم من المبالغة والتزيد فيها، وللإمام الذهبي رحمه الله منهج بارز في نقد كثير من هذه الأخبار والمبالغات، ومن ذلك ما يلي:

- ما ذكره عن ابن الجوزي رحمه الله بقوله: وكان ذا حظ عظيم، وصيت بعيد في الوعظ، يحضر مجالسه الملوك، والوزراء، وبعض الخلفاء، والأئمة، والكبراء، لا يكاد المجلس ينقص عن ألوف كثيرة، حتى قيل في بعض مجالسه: إن حزر الجمع بمائة ألف، ثم عقَّب على ذلك بقوله: «ولا ريب أن هذا ما وقع، ولو وقع لما قدر أن يسمعهم، ولا المكان يسعهم». (سير أعلام النبلاء ٢١/ ٣٧٠).
- ما ذكره فيما رُوي عن أبي منصور الخياط، أنه أقرأ سبعين ألفًا من العميان، فقال- تعليقًا على ذلك-: «قلت: هذا مستحيل، والظاهر أنه أراد أن يكتب نفسًا، فسبقه القلم فخط ألفًا، ومن لقَّن القرآن لسبعين ضريرًا، فقد عمل خيرًا كثيرًا». (سير أعلام النبلاء ١٩/ ٢٢٣).
- ما ذكره فيما رُوي من أخبار وفاة الإمام أحمد رحمه الله: وأسلم يوم مات عشرون ألفًا، وفي رواية ظفر: عشرة آلاف من اليهود، والنصارى، والمجوس، قال رحمه الله: «هذه حكاية مُنكرة، تفرَّد بنقلها هذا المكِّي عن هذا الوركاني، ولا يعرف، وماذا بالوركاني المشهور محمد بن جعفر الذي مات قبل أحمد بن حنبل بثلاث عشرة سنة، وهو الذي قال فيه أبو زرعة: كان جارًا لأحمد بن حنبل، ثم العادة والعقل تُحيل وقوع مثل هذا، وهو إسلام ألوف من الناس لموت ولي لله، ولا ينقل ذلك إلا مجهول لا يُعرف، فلو وقع ذلك؛ لاشتهر، ولتواتر؛ لتوفُّر الهِمَم، والدواعي على نقل مثله، بل لو أسلم لموته مائة نفس؛ لقضي من ذلك العجب، فما ظنك؟». (سير أعلام النبلاء ١١/ ٣٤٤).

وحرص المُربِّ على استثارة تفاعل تلامذته، والتأثير فيهم قد يدفعه للمبالغة في اختيار النماذج الشاذة، والاحتفاء بها.

٢. النماذج الشاذة- ولو صحَّت- تُمثل استثناء يُخالف القاعدة، وشذوذها من أهم أسباب حفظها، وروايتها، والاعتناء بها؛ لذا فالناس لا تلفت انتباههم الأخبار المعتادة، إنما ما يخرج عن السياق، ولا تجد في الثناء على أحد الصالحين وصفه بأداء الصلاة مع الجماعة، إنما بقدر يمتاز به من رعايتها، ولا وصفه بالبعد عن الكبائر، إنما بمزيد من الورع والتوقِّي.

٣. لا تسلم كثير من المرويات الشاذة من مخالفة هدي النبي ﷺ، كما في بعض المرويات من وصف أحدهم بأنه صلَّى الفجر بوضوء العشاء كذا سنة، أو كان يضحك حين وفاة ولده ..، ونحو ذلك.

٤. التركيز على النماذج الشاذة، والحالات الاستثنائية يُؤثر على منهجية التفكير لدى المُتربِّي، ويضعف المنطق لديه، وهو بحاجةٍ لِأَنْ يترسخ لديه أن كل شيء له سُنن قدَّرها الله عز وجل، وأن النتائج ترتبط بالمقدمات، والأسباب تُؤدي في الغالب إلى المسببات؛ لذا يزداد التعلق بالخرافة، وانتظار الخوارق لدى المتصوفة الذين ألفوا سماع كرامات مشايخهم المزعومة.

ثالثًا: أن تكون بالقدر المناسب:

فاعلية القصة في التأثير لا تُبرر التماهي معها إلى ما لا نهاية، فهناك من الوُعَّاظ والمتحدثين مَن هو مولع بالقصة، والبحث عنها، حينها يفقد الحديث جاذبيته المستمدة من محتواه.

يحتاج المُتربِّي إلى تنوع مداخل الخطاب، وإلى تنوع مصادر تكوين الإقناع لديه، والإفراط في القصة سيكون على حساب نصوص القرآن والسنة، وعلى حساب المنطق والعقل؛ فيشكل مواقفه وآراءه المخالفة للشرع، أو العقل بناء على قصة، أو موقف، وتضمر لديه محاكمة الأفكار والاستنتاجات.

ومما يُكرِّس هذا الأمر أن المولعين بالقصص يضعف لديهم الحسُّ النقدي، ويكثر عندهم القفز إلى النتائج، ولا يبذلون جهدًا في فحص المعلومات وتقويمها.

رابعًا: تعزيز دور المتربي:

مما يُسهم في الارتقاء بفاعلية القصة: تعزيز دور المُتربِّي في التعامل معها، فيحلل الأحداث والشخصيات، ويستنتج، ويُقارن، ويتوقع النهاية..، وألا يكون دوره قاصرًا على مجرد الاستماع.

خامسًا: العُمق في تحليل القصة:

التناول المحدود والسطحي للقصة يُقلِّل من فاعليتها؛ فوظيفة القصة ليست قاصرة على التأثر الوجداني والاستمتاع، ولا ينبغي أن تقتصر على مجرد التأكيد على حقائق مستقرة، وفوائد مُكرَّرة.

ومن المهم توظيف القصة في مُقارنات عميقة بين نموذجين إيجابيين، أو سلبيين، وإثارة تساؤلات حول تفسير حدث، أو موقف، أو افتراضات، ومقارنة القصة بواقع المُتربِّي، وحدود الاتفاق، أو الاختلاف، ونحو ذلك من الأساليب.

الحوار

يُمثل الحوار مَعلمًا مهمًّا من معالم تربية النبي ﷺ، ونصوص السنة والسيرة النبوية حافلة بالعديد من مواقف حواره ﷺ مع أصحابه بكافة فئاتهم، وفي جميع أحوالهم.

ولم يرد الحوار بهذا اللفظ في القرآن الكريم إلا مرة واحدة، في سورة المجادلة في قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَسۡمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ﴾ (المجادلة: ١)، إلا أن معناه حاضر وشاهد في مواقف عديدة يصعب حصرها واستقصاؤها.

والتأمل في مواقف الحوار النبوي يُؤكِّد حجم الاعتناء بالحوار في المنهج النبوي، وتفاعل أصحابه رضوان الله عليهم مع حواره ﷺ دليل على أنهم اعتادوا الحوار وأَلِفُوه؛ فالذي لم يعتدِ الحوار يصعب عليه أن يتعامل بانطلاق وعفوية، وربما عجز عن التعبير عن رأيه وموقفه مع أقرب الناس إليه، فضلًا عن رسول الله ﷺ صاحب المهابة، والمكانة العالية.

تطبيقات حول الحوار في المنهج النبوي:

كان ﷺ يُمارس الحوار مع أصحابه لكافة فئاتهم، فيُحاور الأطفال، والشباب، والنساء، والعامة، والخاصة.

وفيما يلي إشارة إلى نماذج من ذلك:

١- مع الغلمان:

كان ﷺ يتحاور مع الغلمان الذين لم يبلغوا سِنَّ التكليف، عن سهل بن سعد رضي الله عنه، قال: أُتِيَ رسول الله ﷺ بقدح، فشرب، وعن يمينه غلام، هو أحدث القوم، والأشياخ عن يساره، قال: «يا غلام، أتأذن لي أن أُعطي الأشياخ»، فقال: ما كنت لأُوثر بنصيبي منك أحدًا يا رسول الله، فأعطاه إياه. (أخرجه البخاري ٢٣٦٦، ومسلم ٢٠٣٠).

٢- مع الشباب:

وكان ﷺ يتحاور مع الشباب، فعن أبي أُمامة ﷺ قال: إن فتًى شابًّا أتى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، ائذن لي بالزنى، فأقبل القوم عليه، فزجروه، وقالوا: مُه، مُه، فقال: «ادْنه، فدَنَا منه قريبًا»، قال: فجلس، قال: «أتحبه لأُمِّك؟»، قال: لا والله، جعلني الله فداءك، قال: «ولا الناس يحبونه لأُمَّهاتهم»، قال: «أفتحبه لابنتك؟»، قال: لا والله يا رسول الله، جعلني الله فداءك، قال: «ولا الناس يحبونه لبناتهم»، قال: «أفتحبه لأُختك؟»، قال: لا والله، جعلني الله فداءك، قال: «ولا الناس يحبونه لأخواتهم»، قال: «أفتحبه لعمَّتِك؟»، قال: لا والله، جعلني الله فداءك، قال: «ولا الناس يحبونه لعمَّاتهم»، قال: «أفتحبه لخالتك؟»، قال: لا والله، جعلني الله فداءك، قال: «ولا الناس يحبونه لخالاتهم»، قال: فوضع يده عليه، وقال: «اللهم اغفر ذنبه، وطَهِّر قلبه، وحصِّن فرجه»، قال: فلم يكن بعد ذلك الفتى يلتفت إلى شيء.. (أخرجه أحمد ٢٢٢١١).

٣- مع النساء:

كان للمرأة نصيب من حواره ﷺ فها هو يحاور أمَةً من النساء، وزوجة في شأن زوجها، وعلاقتها به.

عن ابن عباس ﷺ، أن زوج بريرة كان عبدًا يُقال له: مغيث، كأني أنظر إليه يطوف خلفها يبكي، ودموعه تسيل على لحيته، فقال النبي ﷺ لعباس: «يا عباس، ألا تعجب من حب مغيث بريرة، ومن بغض بريرة مغيثًا؟»، فقال النبي ﷺ: «لو راجعته»، قالت: يا رسول الله تأمرني؟ قال: «إنما أنا أشفع»، قالت: لا حاجة لي فيه. (أخرجه البخاري ٥٢٨٣).

وعن عائشة ﷺ، أنها قالت: الحمد لله الذي وسع سمعه الأصوات، لقد جاءت خَوَلَةُ إلى رسول الله ﷺ تشكو زوجها، فكان يخفى عليَّ كلامها، فأنزل الله عز وجل:

﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِي تُجَٰدِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِيٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ﴾ (المجادلة: ١). (أخرجه النسائي ٣٤٦٠، وابن ماجه ١٨٨، وأحمد ٢٤١٩٥).

٤- مع المُتعلِّم:

ويتحاور ﷺ مع المتعلم، عن أبي هريرة ﷺ، أن رسول الله ﷺ جاءه أعرابي، فقال: يا رسول الله، إن امرأتي ولدت غلامًا أسود، فقال: «هل لك من إبل؟» قال: نعم، قال: «ما ألوانها؟» قال: حُمر، قال: «هل فيها من أورق؟» قال: نعم، قال: «فأنَّى كان ذلك؟» قال: أراه عرق نزعه، قال: «فلعل ابنك هذا نزعه عرق». (أخرجه البخاري ٦٨٤٧، ومسلم ١٥٠٠)

٥- مع الخاصَّة:

وحين يقتضي الحوار تخصيص فئة من أصحابه بالحوار؛ فإنه ﷺ يفعل ذلك، وخير مثال على ذلك: موقفه ﷺ مع الأنصار في غزوة حُنين بعد قسمته للغنائم، فقد أعطى ﷺ المُؤلَّفة قلوبهم، وترك الأنصار، فبلغه أنهم وجدوا في أنفسهم، فدعاهم ﷺ، وكان بينهم وبينه هذا الحوار الذي يرويه عبد الله بن زيد ﷺ، فيقول: لما أفاء الله على رسوله ﷺ يوم حُنين، قسم في الناس في المؤلفة قلوبهم، ولم يُعْطِ الأنصار شيئًا، فكأنهم وجدوا إذ لم يُصبهم ما أصاب الناس، فخطبهم، فقال: «يا معشر الأنصار، ألم أجدكم ضُلَّالًا، فهداكم الله بي؟، وكنتم مُتفرِّقين، فألَّفكم الله بي؟، وعالة فأغناكم الله بي؟»، كلما قال شيئًا قالوا: الله ورسوله أَمَنُّ، قال: «ما يمنعكم أن تُجيبوا رسول الله ﷺ؟»، قال: كلما قال شيئًا قالوا: الله ورسوله أَمَنُّ، قال: «لو شئتم قلتم: جئتنا كذا وكذا، أترضون أن يذهب الناس بالشاة والبعير، وتذهبون بالنبي ﷺ إلى رحالكم؟ لولا الهجرة لكنت امرأ من الأنصار،

ولو سلك الناس واديًا، وشِعبا لسلكت وادي الأنصار وشِعبها، الأنصار شعار، والناس دِثار، إنكم ستلقون بعدي أَثَرة، فاصبروا حتى تلقوني على الحوض». (أخرجه البخاري ٤٣٣٠، ومسلم ١٠٦١).

ففي هذا الموقف استخدم النبي ﷺ الحوار معهم، فوجَّه لهم سؤالًا، وانتظر منهم الإجابة، بل حين لم يجيبوا لقَّنهم الإجابة قائلًا: «ألا تقولون أتيتنا طريدًا فآويناك، وخائفًا فآمناك، ومخذولًا فنصرناك؟»، فقالوا: بل لله المنُّ علينا ولرسوله. (أخرجه أحمد ١٣٦٥٥).

وفي رواية لأحمد (١١٧٣٠) أنه قال: «أما والله لو شئتم لقلتم فلَصَدَقْتُم، وَصُدِّقْتُم».

لقد كان الموقف يقتضي حوارًا خاصًّا، وحديثًا لا شأن للآخرين به، فاختار ﷺ تخصيصهم بذلك دون أن يُشاركهم غيرهم.

٦- مع عامة أصحابه:

وكان ﷺ يتحاور- أيضًا- مع جمهور أصحابه في لقاءات عامة، عن المسور بن مخرمة، ومروان بن الحكم، يزيد أحدهما على صاحبه، قالا: خرج النبي ﷺ عام الحديبية في بضع عشرة مائة من أصحابه، فلما أتى ذا الحليفة، قلَّد الهدي، وأشعره، وأحرم منها بعمرة، وبعث عينًا له من خزاعة، وسار النبي ﷺ حتى كان بغدير الأشطاط، أتاه عينه، قال: إن قريشًا جمعوا لك جموعًا، وقد جمعوا لك الأحابيش، وهم مُقاتلوك، وصادُّوك عن البيت، ومانعوك، فقال: «أشيروا أيها الناس عليَّ، أترون أن أميل إلى عيالهم، وذراري هؤلاء الذين يُريدون أن يصدونا عن البيت، فإن يأتونا، كان الله عز وجل قد قطع عينًا من المشركين، وإلا تركناهم محروبين»، قال أبو بكر: يا رسول الله، خرجت عامدًا لهذا البيت، لا تُريد قتل أحدٍ، ولا حرب أحدٍ، فتوجَّه له، فمن صدَّنا عنه؛ قاتلناه، قال: «امضوا على اسم الله». (أخرجه البخاري ٤١٧٩).

وهكذا كان ﷺ يُحاور الناس: صغيرهم، وكبيرهم، الخاصة، والعامة، الرجال، والنساء.

كيف نُهيىء بيئة للحوار؟

الحوار ليس مُجرَّد قرار يتخذه المعلم أو الوالد، فبمُجرَّد أن يقتنع بأن الحوار هو الخيار الفاعل ينتقل إليه مباشرة؛ فيصبح المفتاح، والحل السحري للأزمة.

كثير من الأزواج، أو المُربِّين حين يُدعَى للحوار مع الطرف الآخر، يجيب بأنه قد جرَّب الحوار لكن دون جدوى وأثر.

إن أول شروط نجاح الحوار هو أن نُهيئ البيئة الملائمة؛ فالنبتة الحسنة لا تنمو إلا في التربة الملائمة لها، وحسن البذرة لا يكفي لتحقق الغراس الطيب، والثمرة الحسنة ما لم تُراعَى البيئة الملائمة.

وفيما يلي نتناول أهم جوانب البيئة الملائمة للحوار، مع ربط ذلك- ما أمكن- بالحوار النبوي.

١- بناء العلاقة الودية:

مهما كان موضوع الحوار وقضيته، فالناس لن يتحولوا عن بشريتهم، ولن يتعاملوا مع القضايا الإنسانية بحياد تام وموضوعية.

وقد بيَّن القرآن الكريم أثر ذلك حتى لدى جيل الصحابة رضوان الله عليهم، وهم يتعاملون مع النبي ﷺ، قال عز وجل: ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ ﴾ (آل عمران: ١٥٩).

ومن هنا؛ كان ﷺ يُعنى بتهيئة بيئة ودية، وجوٍّ مُلائم للحوار، يشعر معه الطرف الآخر بالاطمئنان النفسي؛ فينطلق مُتحدِّثًا بعفوية، ويُعبِّر عما في نفسه بتلقائية، ويُناقش ما يسمعه من آراء وأفكار.

وحين لا يشعر الطرف الآخر بالاطمئنان، ولا تُتاح له البيئة الودية؛ فلن يكون صريحًا في التعبير عما في نفسه، ولن يُبدي رأيه فيما يقال له.

في حديث الشاب المستأذِن بالزِّنا، دعاه ﷺ، وأمره بأن يدنو منه، وفي ختام حواره معه وضع يده الشريفة على صدره، ودعا له ﷺ، وقد ترك هذا التعامل أثره على الشاب؛ فكان رده على النبي ﷺ: «جعلني الله فداءك». (أخرجه أحمد ٢٢٢١١).

وحين تكلَّم معاوية بن الحكم السلمي ﷺ، وتحدَّث معه النبي ﷺ بالخطاب النبوي اللطيف؛ ترك ذلك أثره عليه ﷺ فانطلق يسأل عما يعرض له، قال ﷺ: قلت: يا رسول الله، إني حديث عهد بجاهلية، وقد جاء الله بالإسلام، وإن مِنَّا رجالًا يأتون الكُهَّان، قال: «فلا تأتهم»، قال: ومِنَّا رجال يتطيَّرون، قال: «ذاك شيء يجدونه في صدورهم، فلا يصدنهم- قال ابن الصباح: فلا يصدنكم-»، قال: قلت: ومِنَّا رجال يخطُّون، قال: «كان نبي من الأنبياء يخطُّ، فمَن وافق خطه فذاك». (أخرجه مسلم ٥٣٧).

وترك ذلك الحوار النبوي أثره عليه ﷺ؛ فأحسَّ بقسوته على جاريته، فسأل النبي ﷺ عن كفارة عمله ذلك، قال: وكانت لي جارية تَرْعَى غنمًا لي قِبَل أُحد والجوانية، فاطلعت ذات يوم فإذا الذيب قد ذهب بشاة من غنمها، وأنا رجل من بني آدم، آسَفُ كما يأسفون، لكني صككتها صكة، فأتيت رسول الله ﷺ فعظم ذلك عليَّ، قلت: يا رسول الله أفلا أعتقها؟ قال: «ائتني بها»، فأتيته بها، فقال لها: «أين الله؟» قالت: في السماء، قال: «مَن أنا؟» قالت: أنت رسول الله، قال: «أعتقها، فإنها مؤمنة». (أخرجه مسلم ٥٣٧).

إن بعض الآباء والأمهات يُناقش أولاده مناقشة أشبه ما تكون بالمُساءلة والتحقيق، ويسيطر عليه هاجس الإدانة، والبحث عن الزلة، أو الشاهد على الصورة التي رسمها عنه، أو الدليل على التهمة التي واجهه بها، وهذا لا يُحقق ثمرة الحوار، ولا يُؤدِّي وظيفته.

٢- حسن اختيار الألفاظ:

امتاز الحوار النبوي بحسن اختيار الألفاظ، ومناقشة الطرف الآخر بلغة مُهذَّبة، ومنطق راقٍ بعيد عن الحكم بالجهل، أو التَّسفيه.

فهو ﷺ يقول للشاب: «أتحبُّه لأُمِّك؟».

«أفتحبُّه لابنتك؟».

«أفتحبه لأختك؟».

«أفتحبه لعمَّتك؟».

«أفتحبه لخالتك؟».

ويقول لمعاوية بن الحكم ﷺ: «إن هذه الصلاة لا يصلح فيها شيء من كلام الناس، إنما هو التسبيح، والتكبير، وقراءة القرآن». (أخرجه مسلم ٥٣٧).

إن حسن اختيار الألفاظ يُعبِّر عن احترام الطرف المقابل، ويُشعره بقيمته ومكانته، كما أن الاعتناء بذلك من المُربِّي أمر في غاية الأهمية؛ فهو في موضع القدوة والأسوة، وهذه الأجواء لها أثرها في الارتقاء بلُغَتِه وحديثه، وتنمية احترام مشاعر الآخرين لديه.

٣- إعطاء فرصة للحديث:

الحوار تواصل لفظي بين طرفين، وكل طرف يفترض أن لديه ما يستحق أن يسمعه الآخرون، وأن من حقه أن يُنصت له الطرف الآخر، وألا تكون مهمته أن يستمع، والآخر يتحدث.

إن الإنصات تعبير عن قيمة الإنسان، وأن ما لديه قد أوصله بوضوح، كما أنه مهم للمحاور نفسه؛ ليفهم الطرف الآخر كما هو.

وفهم موقف الطرف الآخر إما أن يقود إلى الاقتناع بموقفه، والرجوع إلى رأيه، أو أن يُؤدي إلى عذره، أو إلى توضيح ما التبس لديه، وعلى كل الأحوال، فالأغلب أن أقل ما يُؤدي إليه الاستماع للطرف الآخر أن تخف حدة الموقف منه.

وقد كان ﷺ يمنح الطرف الآخر الفرصة للحديث، فحين حاور ﷺ الأنصار، دعاهم للحديث بقوله: «ما يمنعكم أن تجيبوا رسول الله ﷺ؟».

وفي قصة حاطب ﷺ، حين كَاتَبَ أهل مكة، مُخبرًا عن عزمه ﷺ على الفتح، دعاه ﷺ واستمع له، وقال له: «يا حاطب، ما هذا؟»، قال: يا رسول الله، لا تعجل عليَّ، إني كنت امرءًا ملصقًا في قريش، ولم أكن من أنفسها، وكان مَن معك مِن المهاجرين لهم قرابات بمكة يحمون بها أهليهم وأموالهم، فأحببت إذ فاتني ذلك من النسب فيهم، أن أتخذ عندهم يدًا يحمون بها قرابتي، وما فعلت كفرًا، ولا ارتدادًا، ولا رضًى بالكفر بعد الإسلام، فقال رسول الله ﷺ: «لقد صدقكم». (أخرجه البخاري ٣٠٠٧، ومسلم ٢٤٩٤).

إن بعض الشيوخ والمُربِّين لا ينصت لتلميذه، ولا يُصغي له بما يكفي، وحين يستمع له، لا يمنحه الفرصة الكافية للحديث، فيُقاطعه مُستدركًا، أو مُصوِّبًا، أو نافيًا، ويفترض أن موقعه في التعليم والتوجيه يقتضي ذلك.

إن المسافة بين النبي ﷺ وأصحابه أعلى بكثير من المسافة بين الشيوخ، والمُربِّين، وتلامذتهم، بل إن النبي ﷺ مقطوع بفضله على أصحابه، وعُلُوِّ رتبته عليهم، بخلاف الشيوخ والمُربِّين، فربما كان تلميذهم أعلى منهم منزلة عند الله، وأقرب إليه زُلْفى، وربما كان أسعد بالحق منهم.

٣- الاعتراف بما لدى الطرف الآخر:

يميل كثير من المحاورين إلى أن يحشر الطرف الثاني في زاوية ضيقة، وأن يجمع عليه

قائمة من الأخطاء والتجاوزات، وقد يسلك ذلك بعض المُربِّين؛ لأنه من وجهة نظره خطوة نحو الإصلاح، أما المنهج التربوي النبوي: فقد كان بخلاف ذلك، ففي حواره ﷺ مع الأنصار طلب منهم أن يُجيبوه، فلما لم يفعلوا لقنَّهم الحجة، وحدَّثهم عن فضلهم، فقال- كما في رواية أحمد (١١٧٣٠)-: «أما والله لو شئتم لقلتم فَلَصَدَقْتُمْ وَصُدِّقْتُمْ: أتيتنا مُكذَّبًا فصدَّقْنَاك، ومخذولًا فنصرناك، وطريدًا فآويناك، وعائلًا فآسيناك..».

٤- توسيع تقبُّل اختلاف وجهات النظر:

كثير من مواطن الخلاف تتصل بمواقف، ووسائل عملية تطبيقية، والمسائل العملية تتسع فيها الآراء، وتتنوع مدارك النظر إليها، والتعامل معها، ومن هنا؛ فالمحاور بحاجة لِأَنْ يتَّسع أُفُقُهُ لتقبل اختلاف وجهات النظر بينه وبين الطرف الآخر، ولو كان ولده، أو تلميذه.

وفي الحوار النبوي كان ﷺ يتقبل وجهة نظر أصحابه، وربما نزل عن رأيه لرأيهم، كما في استشارته للسعدين في شأن مصالحة غطفان على ثلث ثمار المدينة، وفي غزوة أُحُدٍ في حواره مع الناس بشأن التحصُّن في المدينة، أو الخروج لملاقاة قريش...، وغيرها كثير مما سيأتي تناوله بإذن الله تفصيلًا عند الحديث عن استشارته ﷺ لأصحابه.

٥- التفريق بين الحقائق والآراء:

يتناول الحوار قضايا عِدَّة، وجوانب شتَّى؛ ومن هنا لا بد من التفريق بين موضوعات الحوار ومجالاته، والتعامل مع كل منها بما يتلاءم معه.

وعليه؛ فقد كان الحوار لدى النبي ﷺ يتَّسع حين يكون في مجالات الرأي، أما الحقائق، والقضايا المحسومة: فإن إطالة الحوار فيها إضاعة للوقت، ولهذا فحين رأى النبي ﷺ رَجُلَيْنِ من أصحابه يتحاوران حول حقيقة من الحقائق، حسم الأمر بالنَّصِّ على ذلك.

عن أبي سعيد الخدري ﷺ، قال: تمارى رجلان في المسجد الذي أُسِّس على التقوى من أول يوم، فقال رجل: هو مسجد قباء، وقال الآخر: هو مسجد رسول الله ﷺ، فقال رسول الله ﷺ: «هو مسجدي هذا». (أخرجه النسائي ٦٩٧، وأحمد ١١٠٤٦، والترمذي ٣٠٩٩، وأصله في مسلم ١٣٨٩).

وفي صلح الحديبية حين كان موقف النبي ﷺ مُنطلقًا من الوحي، حسم الأمر، وكانت إجابته على كل مَن أَبْدَى رأيه: «أنِّي رسول الله، ولن يُضيعني الله أبدًا». (أخرجه البخاري ٣١٨٢، ومسلم ١٧٨٥).

لكن من المهم هنا استيعاب المسافة بين المُربِّي والمُتلقِّي في حدود ما هو محسوم، وما هو بخلاف ذلك، فدائرة المحسوم تتسع لدى بعضهم، وربما تكلف إلحاق كل مسألة يحاور فيها بالثوابت والقطعيات.

وحين يعترض المُتربِّي على ما مجاله التسليم، فالأَوْلَى إقناعه بأن الأمر مداره على التسليم، وأن العقل البشري ليس أداة الوصول للمعرفة في هذه الحالة، فأنت لو رأيت إنسانًا لا تعرفه فلن تستطيع معرفة اسمه ونسبه بعقلك، أو استنتاجك، وسبيل ذلك الوحيد هو أن تسمع ذلك منه، أو ممن يعرفه، فكيف بما هو فوق ذلك؟

وليس بالضرورة أن يكون دافع كل معترض هو العناد واللجج، ولو فرض ذلك، فالحوار العلمي قادر على إغلاق الموضوع بالحجة لا الإسكات، كما فعل إبراهيم عليه السلام مع مَن حاجَّه في ربه، قال سبحانه: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِى رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ ۖ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ (البقرة: ٢٥٨).

إن كثيرًا من مواقف الحوار هي في إطار الآراء لا الحقائق، كالحوار حول توصيف الواقع، أو تفسير بعض المواقف والظواهر، أو بعض الوسائل، والأساليب الدعوية والإصلاحية، واقتناعنا برأي ما في مثل هذه المسائل لا يمنحنا الحق في إلزام الطرف الآخر به.

٦- تقبُّل اختلاف الشخصيات:

يتباين الناس في طباعهم وخصائصهم، منهم مَن يتَّسم بالعجلة، وسرعة اتخاذ القرار، ومنهم مَن يتَّسم بالهدوء والأناة، وربما تجاوز القدر في ذلك، كما أن مِن الناس مَن يكون صريحًا واضحًا يتحدَّث عن كل ما يجول بخاطره بوضوح، ومنهم مَن ليس كذلك... إلخ.

ومن مشكلات بعض المُربِّين والمحاورين عدم استيعاب هذه الفروق، ومحاكمة الطرف الآخر وفق طبيعته وسجيته هو، والسعي لِأَنْ يصبغه بصبغته.

إن المحاور بحاجة لأن يضيف إلى اعتبار الاختلاف في الرأي اعتبارَ اختلاف الشخصيات، وتباين الصفات، وأن يجتهد في التعامل مع الطرف الآخر وفق شخصيته وسجيته.

ولئن كانت بعض الأخطاء تحتاج إلى صرامة، ولا يصلحها إلا الحزم؛ فإن موقف الحوار ليس موقف عقوبة، أو محاسبة، بل هو موقف إقناع، ومُخاطبة للعقل، وهذا يقتضي الحكمة في التعامل مع الخطأ.

٧- حُسْن معالجة الخطأ:

ومما يُهيئ البيئة الملائمة للحوار: حُسْن معالجة الخطأ، سواء أكان الخطأ هو موضوع الحوار أصلًا، أو أنه نشأ عن الحوار.

ويتجلَّى ذلك في فعله ﷺ مع الشاب الذي جاء يطلب الإِذْن له بالزنا أمام الناس، فقد دعاه ﷺ وأجلسه، وأمره بالقرب منه، ثم حاوره بما أزال ما في نفسه ﷺ، ومع الأعرابي الذي بال في المسجد ...، وغيرها من المواقف.

٨- الواقعية والبُعد عن المثالية:

مهما سعى البشر للتأدب بآداب الحوار والتزام ضوابطه، فلن يخرجوا عن بشريتهم؛ فأجواء الحوار قد تُخرج الإنسان عن طوره؛ فيعلو صوتُه، أو يَغلظ منطقُه.

وقد كان ﷺ واقعيًّا، فيُراعِي هذا الأمر لدى أصحابه حين يصدر منهم ما يخل بأدب الحوار، بل يعتذر لهم.

عن أبي هريرة ﷺ، أن رجلًا أتى النبي ﷺ يتقاضاه فأغلظ، فهمَّ به أصحابه، فقال رسول الله ﷺ: «دعوه؛ فإن لصاحب الحق مقالًا»، ثم قال: «أعطوه سِنًّا مثل سِنِّه»، قالوا: يا رسول الله، إلا أمثل من سِنِّه، فقال: «أعطوه؛ فإن من خيركم أحسنكم قضاء». (أخرجه البخاري ٢٣٠٦، ومسلم ١٦٠١).

وبما أن المُتربِّي- وهو الطرف الآخر في الحوار- أصغر سِنًّا في الأغلب، وأقل خبرة، فمن المتوقع ألا يكون أداؤه جيدًا في الحوار، وألا يتحكم بلغة حديثه، كما يتحكم الكبار.

وكما يحتاج المُربِّي إلى الواقعية فيما ينتظره من المُتربِّي من أدب الحوار، فهو كذلك يحتاج إلى الواقعية في حديثه، وتوقعاته من الطرف الآخر.

٩- التنازل عن الرأي:

لا قيمة للحوار ما لم يكن صاحبه على استعداد للتنازل عن رأيه، والتراجع عنه حين يتضح له الحق.

وقد ضرب النبي ﷺ أروع المثل في ذلك، ففي مواقف عِدَّة أثناء حواره مع أصحابه كان يتنازل عن رأيه حين يظهر له أن الحق بخلافه.

ولم يكن التنازل منه ﷺ قاصرًا على ما يصل فيه إلى رأي حاسم؛ فكثير من موضوعات الحوار تتسع للعديد من الآراء، ويصعب الاتفاق فيها على رأي نهائي، لذا؛ كان ﷺ يتنازل عن رأيه لرأي أصحابه حين يكون أكثرهم على خلاف رأيه.

في غزوة أُحُدٍ، كان للنبي ﷺ رأي بناه على رؤيا رآها ففسَّرها، و على حجة ومنطق، وحين كان رأي عامة أصحابه مختلفًا عن رأيه؛ تنازل ﷺ عن رأيه لرأيهم.

عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما، أن رسول الله ﷺ قال: «رأيت كأني في درع حصينة، ورأيت بقرًا منحرة، فأوَّلت أن الدرع الحصينة المدينة، وأن البقر نفرٌ، والله خير»، قال: فقال لأصحابه: «لو أنَّا أقمنا بالمدينة، فإن دخلوا علينا فيها قاتلناهم»، فقالوا: يا رسول الله، والله ما دُخِلَ علينا فيها في الجاهلية، فكيف يُدخَل علينا فيها في الإسلام؟ قال عفان في حديثه: فقال: «شأنكم إذًا»، قال: فلبس لَأْمَته، قال: فقالت الأنصار: رددنا على رسول الله ﷺ رأيه، فجاءوا، فقالوا: يا نبي الله، شأنك إذًا، فقال: «إنه ليس لنبي إذا لبس لَأْمَتَهُ أن يضعها حتى يقاتل». (أخرجه أحمد ١٤٧٨٧).

وحين نهى ﷺ أصحابه عن لحوم الحمر، وأمرهم بكسر القدور، رجع إلى رأي أصحابه، عن سلمة بن الأكوع رضي الله عنه، قال: لما أمسوا يوم فتحوا خيبر، أوقدوا النيران، قال النبي ﷺ: «عَلَامَ أوقدتم هذه النيران؟»، قالوا: لحوم الحمر الإنسيَّة، قال: «أهريقوا ما فيها، واكسروا قدورها»، فقام رجل من القوم، فقال: نهريق ما فيها، ونغسلها، فقال النبي ﷺ: «أو ذاك». (أخرجه البخاري ٥٤٩٧، ومسلم ١٨٠٢).

١٠- عدم الإصرار على الرأي:

وكما كان ﷺ يتنازل عن رأيه لرأي أصحابه، فلم يكن يُصِرُّ على نزول الآخرين عند رأيه، ولم يكن يُطيل الجدل.

فحين حاور بريرة رضي الله عنها بشأن الرجوع إلى زوجها، وتمسَّكت بحقها في مفارقته لم يُصِرَّ عليها ﷺ، ولم يُبالغ في محاولة إقناعها بذلك.

وحين طرق النبي ﷺ عليًّا وفاطمة رضي الله عنهما ليلًا ليُصلِّيا، واحتج عليٌّ رضي الله عنه بقوله: أنفسنا بيد الله؛ أعرض ﷺ، ولم يُطِلِ الجدل والحوار، عن حسين بن عليٍّ رضي الله عنه: أن عليَّ بن أبي طالب رضي الله عنه أخبره: أن رسول الله ﷺ طرقه وفاطمة بنت النبي عليه السلام ليلة، فقال: «ألا تُصلِّيان؟»، فقلت: يا رسول الله، أنفسنا بيد الله، فإذا شاء أن يبعثنا بعثنا، فانصرف حين قلنا ذلك، ولم يرجع إليَّ شيئًا، ثم سمعته، وهو مُولٍّ يضرب فخذه، وهو يقول: ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا﴾ (الكهف: ٥٤). (أخرجه البخاري ١١٢٧، ومسلم ٧٧٥).

ثمَّة قضايا عديدة يختلف فيها رأي المُربِّي عن رأي ولده، أو تلميذه، فيطول الحوار، ويتحول إلى جدل، ويظل يبحث عن وسيلة لإقناعه برأيه، وباستثناء مسائل الحق والباطل، هناك مسائل عديدة تقبل التنوع والاختلاف، والأَحْرَى بالمُربِّي ألا يُصِرَّ على موقفه، وألا يُبالغ في عرضه، والانتصار له.

ماذا يُحقق لنا الحوار؟

الحوار ليس مجرد وسيلة من الوسائل، أو أسلوبًا من الأساليب التربوية، فحين يعيش الأولاد والتلاميذ في بيئة حوار حقيقية؛ فإن ذلك يترك آثارًا مهمة على حياتهم، ومن ذلك ما يلي:

١ – الشخصية الهادئة المُتَّزنة:

تَتَّسم بيئة الحوار بالحديث الهادئ، وتبادل الرأي، والأخذ، والعطاء، ويعتاد فيها الأولاد والطلاب أن يُبدوا آرءاهم، ويُستمع إليها، وأن يستمعوا ويُنصتوا، فيوافقون، أو يعترضون، وذلك كله في جوٍّ هادئ بعيد عن الضجيج والصَّخب، مما يترك أثره على شخصياتهم.

وفي المقابل: فمن يعيش في بيئة مشحونة، مليئة بالضجيج والصراخ، والعتاب، والتأنيب؛ سيكتسب منها شخصية قَلِقَة في تفكيرها وتصرفاتها، فإذا تأثَّر الإنسان برعي الإبل ومعايشتها، فتأثره ببني جنسه أَوْلَى، عن أبي مسعود ﷺ، يبلغ به النبي ﷺ، قال: «مِن ها هنا جاءت الفتن- نحو المشرق-، والجفاء، وغلظ القلوب في الفدادين أهل الوبر، عند أصول أذناب الإبل والبقر، في ربيعة، ومُضر». (أخرجه البخاري ٣٤٩٨، ومسلم ٥١).

٢ – اقتناع المُتربِّي بما يعمل:

يعتمد الحوار على تسويق الفكرة والإقناع بها، ويتيح الفرصة للمُتربِّي في إبداء وجهة نظره والإجابة عن اعتراضاته، مما يُرسِّخ لديه الاقتناع بما يتلقَّى من توجيهات وأوامر، لا أن يستجيب ظاهريًّا، واقتناعاته بخلاف ذلك.

٣– تنمية التفكير لدى المُتربِّي:

يعتمد الحوار على الإقناع، ويتطلب استخدام الحجة والمنطق، والمقارنات، والموازنات، سواء في عرض المُربِّي لرأيه، أو في نقاشه لرأي المُتربِّي، مما يسهم في تنمية أدوات التفكير، ومهاراته لدى المتربي، وتعزيز اتجاهه نحو توظيف التفكير في تشكيل مواقفه وآرائه.

٤- تعزيز الثقة بالنفس:

تتطلب بيئة الحوار الاستماع للمُتربِّي، والإنصات له، كما تتطلب التَّسليم لما يُبديه من رأي صحيح، أو حُجَّة سلمية، واعتياد المُتربِّي على إنصات الكبار، واستماعهم له؛ يُعزز ثقته بنفسه، ويُشعره بقيمته.

٥- القدرة على التعبير عن النفس:

حين يعيش الناشئة في بيئة يسود فيها الحوار؛ تنمو قدرتهم على التعبير عما في أنفسهم؛ فقد اعتادوا الحديث مع الكبار، وإبداء رأيهم الموافق، والمخالف لهم.

نلمس ذلك في موقف سهل بن سعد ﷺ، وقد كان غلامًا صغيرًا؛ فعن سهل بن سعد ﷺ قال: أُتِيَ النبي ﷺ بقدح، فشرب منه، وعن يمينه غلام أصغر القوم، والأشياخ عن يساره فقال: «يا غلام، أتأذن لي أن أُعْطِيَهُ الأشياخ؟»، قال: ما كنت لأُوثر بفضلي منك أحدًا يا رسول الله، فأعطاه إياه. (أخرجه البخاري ٢٣٥١، ومسلم ٢٠٣٠).

كما تكرَّر الموقف مع فتًى آخر، هو ابن عباس ﷺ، فعن ابن عباس ﷺ، قال: دخلت مع رسول الله ﷺ أنا، وخالد بن الوليد على ميمونة، فجاءتنا بإناء فيه لبن، فشرب رسول الله ﷺ، وأنا على يمينه، وخالد على شماله، فقال لي: «الشربة لك، فإن شئت آثرت بها خالدًا»، فقلت: ما كنت أُوثر على سُؤرك أحدًا، ثم قال رسول الله ﷺ: «مَن أطعمه الله الطعام فليقل: اللهم بارِك لنا فيه، وأطعمنا خيرًا منه، ومَن سقاه الله لبنًا فليقل: اللهم بارِك لنا فيه، وزدنا منه»، وقال رسول الله ﷺ: «ليس شيء يُجزي مكان الطعام والشراب غير اللبن». (أخرجه الترمذي ٣٤٥٥، وأحمد ٢٥٦٩، وابن ماجه ٣٣٢٢).

ففي كِلا الموقفين تمسَّك سهل، وابن عباس ﷺ بحقِّهما، لكنهما عبَّرا عنه بأدب جَمٍّ، ولغة راقية، فلم يُعبِّرَا بعدم الإذن، فهو لا يليق برسول ﷺ، إنما عبَّرَا بتعبير إيجابي، وهو التسمك بالظفر ببركة فضل النبي ﷺ، وسُؤْره.

إننا نُعاني اليوم من ضعف في اللغة، والتعبير لدى كثير من الناشئة: ذكورًا وإناثًا، فإما أن يسكت أحدهم عن حقه، أو أن يُعبِّر عنه بصورة لا تليق بمخاطبة الكبار، واعتيادهم على بيئة الحوار المنفتح من الكبار يُؤدي إلى نُمُوٍّ لغتهم، وارتقاء اساليبهم.

٦- غياب وسائل التعبير غير المشروعة:

صاحب الحق له مقال، وحين يشعر الفرد بالكبت، والتسلط؛ فقد يلجأ لإثبات ذاته، وإشعار مَن حوله برجولته؛ فيستخدم أساليب العناد، وربما امتدَّ لما هو أسوأ من ذلك.

أما حين يكون بمقدوره أن يُبدي رأيه، وأن يعترض، ويُناقش؛ فليس بحاجة لهذه الأساليب.

٧- التمسك بالحقوق المشروعة:

أدَّى الحوار النبوي إلى تنمية القدرة لدى الصحابة رضوان الله عليهم على التمسُّك بحقوقهم المشروعة، والمُطالبة بها.

ففي موقف الغلامين: ابن عباس، وسهل ﷺ تمسَّك كلٌّ منهما بحقه، وكذا في موقف بريرة ﵁ ولم يُنكر عليهم ﷺ أو يعتب عليهم ذلك.

وحين يعيش الناشئة في بيئة حوار؛ فإنهم يتمكَّنون من التمسُّك بحقوقهم الشخصية المشروعة، ولا يمنعهم من ذلك الخجل، أو ضعف القدرة على التعبير عن مطالبهم، والتنازل عن الحق إنما يحمد حين يكون بإرادة، واختيار، وطيب نفس، أما الذين يتنازلون بضعف، أو لعدم قدرة على تحصيل حقهم فإن صدورهم تُوغر على الآخرين.

٨- الصراحة والوضوح:

حين تسود بيئة الحوار؛ يتسم المُتربُّون بالصراحة والوضوح؛ فيُعبِّرون عما في داخلهم، ويُجيبون عن أسئلة المُربِّي باطمئنان وثقة.

ولعل ما لمسه الشاب من حُسن تعامل النبي ﷺ، واستماعه، وإنصاته للآخرين هو الذي دعاه أن يأتي للنبي ﷺ، ويتحدث عن مطلبه بصراحة، ويُعبِّر عما في نفسه بجرأة.

والمُتأمِّل في الواقع التربوي اليوم يُدرك الفجوة بين الناشئة والمُربِّين: آباء، ومعلمين، وشيوخ، وأن الناشئة يترددون في الحديث الصريح مع المُربِّين عما في خواطرهم، وربما استبدلوا ذلك باللجوء لأصدقائهم، وأقرانهم، ولو اعتادوا بيئة الحوار الهادئة، وأَلِفُوا أن يُعبِّروا عما في أنفسهم دون تعنيف وتسفيه؛ لكانوا صرحاء، وواضحين في حديثهم مع مُربِّيهم.

ماذا يحصل حين يغيب الحوار؟

إن غياب بيئة الحوار، وسيادة التسلط؛ تُغري بعض المُربِّين غير القادرين على إدارة المواقف، ويرون فيها نجاحات عاجلة، لكنها خادعة.

ولعل من أهم نتائج افتقاد بيئة الحوار ما يلي:

- الانضباط الخارجي دون الداخلي؛ فيستجيب الأولاد لوالديهم، ويخضعون، لكن ذلك أمامهم، وبحضورهم، أما داخليًّا فهم بخلاف ذلك.
- ضعف الشخصية؛ فلا يستطيع الشاب أو الفتاة التعبير عن نفسه، ولا التمسك بموقفه، فلم يعتدِ الحديث مع الآخرين، أو مخالفة رأيهم.
- اللجوء للعناد؛ فحين لا يستطيع التعبير الهادئ عن موقفه، ولا توظيف الحجة والمنطق، فسيكون سلاحه هو العناد، والإصرار دون مبرر، وكثيرًا ما يُعاني الآباء، والأمهات من أبنائهم وبناتهم هذا السلوك، وبخاصة في مرحلة المراهقة حين ينمو اعتداده بنفسه، وإحساسه بشخصيته.

- ممارسة التسلُّط مع الآخرين؛ فالشاب الذي يعيش في بيئة مُتسلِّطة يكتسب هذا السلوك مع زوجته حين يتزوج، أو مع تلامذته حين يكون مُعلمًا، والأمر نفسه بالنسبة للفتاة، ولعل ما نراه من انتشار التسلط هو نتيجة لهذه التنشئة غير السوية.

لا حوار في موضع النص:

مع اعتناء النبي ﷺ بالحوار، واستماعه للآخرين، إلا أنه ربَّى أصحابه رضوان الله عليهم على التسليم للنصِّ الشرعي، عن عائشة رضي الله عنها قالت: تلا رسول الله ﷺ هذه الآية: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ ۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ ﴾، إلى قوله: ﴿إِلَّآ أُولُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ (آل عمران: ٧)،، قالت: قال رسول الله ﷺ: «فإذا رأيت الذين يتَّبعون ما تشابه منه، فأولئك الذين سَمَّى الله؛ فاحذروهم». (أخرجه البخاري ٤٥٤٧ ومسلم ٢٦٦٥).

وحذَّر ﷺ مَن تجادلوا في كلام الله عز وجل مِن مصير الأُمَم السابقة، فعن عبد الله بن رباح الأنصاري، أن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال: هجرت إلى رسول الله ﷺ يومًا، قال: فسمع أصوات رجلين اختلفا في آية، فخرج علينا رسول الله ﷺ، يُعرف في وجهه الغضب، فقال: «إنما هلك مَن كان قبلكم، باختلافهم في الكتاب». (أخرجه مسلم ٢٦٦٦).

ويبلغ منه ﷺ الغضب مبلغًا يراه مَن حوله حين يسمع مَن يتجادلون في القَدَرِ، فعن عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جده رضي الله عنهما: أن نفرًا كانوا جلوسًا بباب النبي ﷺ، فقال بعضهم: ألم يقل الله كذا وكذا؟، وقال بعضهم: ألم يقل الله كذا وكذا؟ فسمع ذلك رسول الله ﷺ، فخرج كأنما فُقِئ في وجهه حبُّ الرُّمَّان، فقال: «بهذا أُمرتم؟ أو بهذا بُعثتم؟ أن

تضربوا كتاب الله بعضه ببعض؟ إنما ضلَّت الأُمَم قبلكم في مثل هذا، إنكم لستم مما ها هنا في شيء، انظروا الذي أُمرتم به، فاعملوا به، والذي نُهيتم عنه، فانتهوا». (أخرجه أحمد ٦٨٤٥، وابن ماجه ٨٥).

ويجعل ﷺ الجدل نقيضًا للهداية، وضِدًّا لها، فعن أبي أُمامة ﷺ، قال: قال رسول الله ﷺ: «ما ضلَّ قوم بعد هُدًى كانوا عليه؛ إلا أُوتوا الجدل، ثم تلا هذه الآية: ﴿مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًاۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ﴾(الزخرف: ٥٨) ». (أخرجه أحمد ٢٢١٦٤، والترمذي ٣٢٥٣، وابن ماجه ٤٨).

وهكذا نجد الاعتدال في المنهج النبوي، فقد كان ﷺ يستمع، ويُنصت، ويُحاور، وفي الوقت نفسه فهو يُؤصِّل لدى أصحابه التسليم لنصوص الوحي، ويغضب حين تُنتهك حُرْمة النَّصِّ.

وفي مقابل مَن يضيقون اليوم بالحوار، ولا يتقبلون الرأي المخالف، هناك مَن يغلو، فيتسلَّط على النصِّ الشرعي، ويُجادل في المحكمات، ويُفتي فيما لا يُحسن ولا يعلم، بحجة عدم الحجر على التفكير والرأي.

التوجيه غير المباشر

تَتَّسم النفس البشرية بقدرٍ عالٍ من التعقيد والحساسية، ويصعب على كثير من الناس تلقي التوجيه المباشر، وبخاصة حين يتعلَّق الأمر بالنقد، والحديث عن الأخطاء.

لذا كان التوجيه غير المباشر حاضرًا في تربية النبي ﷺ لأصحابه، وهو نموذج من خُلُقه الرفيع ﷺ، وحسن تعامله مع أصحابه.

صور التوجيه غير المباشر:

يتمثَّل التوجيه غير المباشر في المنهج النبوي في أمور، منها:

أَوَّلًا: ما بالُ أقوام:

كان من هديه ﷺ أن يُعمِّم التوجيه دون أن يذكر أحدًا بعينه، عن عائشة ﵂ قالت: «كان النبي ﷺ إذا بلغه عن الرجل الشيء، لم يقل: ما بال فلان يقول؟، ولكن يقول: ما بال أقوام يقولون كذا وكذا؟». (أخرجه أبو داود ٤٧٨٨).

وتحفظ كُتب السُّنَّة مواقف عِدَّة كان ﷺ يقول فيها: ما بال أقوام، ومن ذلك ما يلي:

١- قصة بريرة ﵂:

عن عائشة ﵂ قالت: أتتها بريرة ﵂ تسألها في كتابتها، فقالت: إن شئت أعطيت أهلك، ويكون الولاء لي، فلما جاء رسول الله ﷺ ذكرته ذلك، قال النبي ﷺ: «ابتاعيها، فأعتقيها، فإنما الولاء لمن أعتق»، ثم قام رسول الله ﷺ على المنبر، فقال: «ما بال أقوام يشترطون شروطًا ليست في كتاب الله، مَن اشترط شرطًا ليس في كتاب الله فليس له، وإن اشترط مائة شرط». (أخرجه البخاري ٢٧٣٥، ومسلم١٥٠٤) .

٢- التحذير من رفع البصر إلى السماء:

حذَّر النبي ﷺ أصحابه مِن رفع البصر إلى السماء في الصلاة، فعن أنس بن مالك رضي الله عنه، قال: قال النبي ﷺ: «ما بال أقوام يرفعون أبصارهم إلى السماء في صلاتهم»، فاشتدَّ قوله في ذلك، حتى قال: «لينتهنَّ عن ذلك، أو لتخطفنَّ أبصارهم». (أخرجه البخاري ٧٥٠).

٣- التحذير من التنزه عما فعله ﷺ:

حذَّر ﷺ أصحابه من المبالغة التي تُؤدي إلى تنزه بعضهم عما فعله ﷺ، فعن عائشة رضي الله عنها قالت: صنع النبي ﷺ شيئًا فرخَّص فيه، فتنزه عنه قوم، فبلغ ذلك النبي ﷺ، فخطب، فحمد الله، ثم قال: «ما بال أقوام يتنزهون عن الشيء أصنعه، فوالله إني لأعلمهم بالله، وأشدهم له خشية». (أخرجه البخاري ٦١٠١، ومسلم ٢٣٥٦).

كما قال ذلك ﷺ في شأن الرهط الذي سألوا عن عبادته فتقالُّوها، عن أنس رضي الله عنه، أن نفرًا من أصحاب النبي ﷺ سألوا أزواج النبي ﷺ عن عمله في السِّرِّ؟، فقال بعضهم: لا أتزوج النساء، وقال بعضهم: لا آكل اللحم، وقال بعضهم: لا أنام على فراش، فحمد الله، وأثنى عليه، فقال: «ما بال أقوام قالوا كذا وكذا؟ لكني أُصلِّي وأنام، وأصوم وأُفطر، وأتزوج النساء، فمَن رَغِبَ عن سُنَّتِي فليس مِنِّي». (أخرجه مسلم ١٤٠١).

٤- التحذير من هدايا العمال:

حين بعث ﷺ رجلًا على الصدقة، وأخذ من هدايا الناس، خطب ﷺ على المنبر مُحذِّرًا من ذلك دون أن يُسمِّيَ الرجل، عن أبي حميد الساعدي رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ استعمل عاملًا، فجاءه العامل حين فرغ من عمله، فقال: يا رسول الله، هذا لكم، وهذا أُهدِي لِي، فقال له: «أفلا قعدت في بيت أبيك وأُمِّك، فنظرت أيُهدى لك أم لا؟»، ثم قام رسول الله ﷺ عشية بعد الصلاة، فتشهَّد، وأثنى على الله بما هو أهله، ثم قال: «أما بعد،

فما بال العامل نستعمله، فيأتينا، فيقول: هذا من عملكم، وهذا أُهدِي لي؟ أفلا قعد في بيت أبيه وأُمِّه فنظر: هل يُهدَى له أم لا؟، فوالذي نفس محمد بيده، لا يغل أحدكم منها شيئًا إلا جاء به يوم القيامة يحمله على عُنقه، إن كان بعيرًا جاء به له رُغَاء، وإن كانت بقرة جاء بها لها خُوَار، وإن كانت شاة جاء بها تَيْعَرُ، فقد بلَّغْت». فقال أبو حميد: ثم رفع رسول الله ﷺ يده، حتى إنَّا لننظر إلى عُفْرَة إبطيه. (أخرجه البخاري ٦٦٣٦، ومسلم ١٨٣٢).

٥- النهي عن البزاق في المسجد:

عن أبي رافع، عن أبي هريرة ﷺ، أن رسول الله ﷺ رأى نُخَامة في قِبلة المسجد، فأقبل على الناس، فقال: «ما بال أحدكم يقوم مستقبل ربه، فيتنخَّع أمامه، أيحب أحدكم أن يُستقبل فيُتنخَّع في وجهه؟ فإذا تنخَّع أحدكم، فليتنخع عن يساره، تحت قدمه، فإن لم يجد فليقل هكذا»، ووصف القاسم فتفل في ثوبه، ثم مسح بعضه على بعض. (أخرجه مسلم ٥٥٠، وأخرجه البخاري عن أبي هريرة، وأبي سعيد ٤٠٨، ٤١٠ دون موضع الشاهد).

والنصوص والشواهد التي كان ﷺ يُوجِّه فيها بهذا التوجيه العام: ما بال أقوام، أو: ما بال رجال، أو: ما بال أُنَاس.. إلخ عديدة، يصعب استقصاؤها.

ثانيًا: أَمْرُ أصحابه بما يريد قوله للرجل:

من صور التوجيه النبوي غير المباشر: أَمْرُه ﷺ أصحابه بما يُريد قوله للرجل؛ فعن سلم العلوي، عن أنس بن مالك ﷺ، أن رجلًا دخل على رسول الله ﷺ، وعليه أثر صفرة، وكان النبي ﷺ قلَّما يُواجه رجلًا في وجهه بشيء يكرهه، فلما خرج قال: «لو أمرتم هذا أن يغسل ذا عنه». (أخرجه أبو داود ٤١٨٢، وأحمد ١٢٣٦٧)[1].

---

(١) قال أبو داود: «سلم ليس هو علويًّا، كان يبصر في النجوم، وشهد عند عدي بن أرطاة على رؤية الهلال فلم يجز شهادته»، وحسَّن إسناده أحمد شاكر.

ثالثًا: مُخاطبة غيره، وهو يسمع:

وأحيانًا يُوجِّه ﷺ الخطاب لغير صاحب الشأن، وهو يسمع حديثه، عن سليمان بن صُرَد ﷺ، قال: استبَّ رجلان عند النبي ﷺ، ونحن عنده جلوس، وأحدهما يسبُّ صاحبه مغضبًا قد احمرَّ وجهه، فقال النبي ﷺ: «إني لأعلم كلمة لو قالها لذهب عنه ما يجد، لو قال: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم»، فقالوا للرجل: ألا تسمع ما يقول النبي ﷺ؟ قال: إني لست بمجنون. (أخرجه البخاري ٦١١٥، ومسلم ٢٦١٠).

إن من فقه المُربِّي ألا يُوجِّه الشخص بأمر، أو نهي، وهو في حالة انفعال، أو تصلُّب في الرأي، فإما أن يُؤجِّل التوجيه لحين زوال العارض، أو يُوجِّهه بطريقة غير مباشرة، كما فعل النبي ﷺ في هذا الموقف.

رابعًا: الثناء على الصفة الحسنة في الشخص:

وربما أثنى ﷺ على صفة حسنة في الشخص، وحثَّه على العمل بطريقة غير مباشرة، ومن ذلك: ما رواه سالم عن ابن عمر ﷺ، قال: كان الرجل في حياة النبي ﷺ إذا رأى رؤيا قصَّها على النبي ﷺ، فتمنَّيت أن أرى رؤيا أقُصُّها على النبي ﷺ، وكنت غلامًا أعزب، وكنت أنام في المسجد على عهد النبي ﷺ، فرأيت في المنام كأن ملكين أخذاني فذهبا بي إلى النار، فإذا هي مطوية كطيِّ البئر، وإذا لها قرنان كقرني البئر، وإذا فيها ناس قد عرفتهم، فجعلت أقول: أعوذ بالله من النار، فلقيهما ملك آخر فقال لي: لن تُراعَ، فقصصتها على حفصة، فقصَّتها حفصة على النبي ﷺ فقال: «نعم الرجل عبد الله لو كان يُصلِّي بالليل»، قال سالم: فكان عبد الله لا ينام من الليل إلا قليلًا. (أخرجه البخاري ٣٧٣٨-٣٧٣٩، ومسلم ٢٤٧٩).

خامسًا: القصة:

ومن صور التوجيه النبوي غير المباشر: القصة، والقصة حاضرة في التوجيه، والتربية النبوية، وكُتب السُّنَّة حافلة بالعديد من القصص النبوي.

وقد سبق تناول القصة النبوية تفصيلًا في مبحث مُستقِلٍّ، والمقصود هنا أنها أحدى وسائل التوجيه غير المباشر؛ فهي في الأغلب تحكي موقفًا إيجابيًّا للحثِّ على الاقتداء به، أو بخلاف ذلك للتنفير والتحذير منه.

مزايا التوجيه غير المباشر:

يُشير الشيخ صالح بن حميد إلى بعض مزايا التوجيه غير المباشر، فيقول: «إن ثمَّة ميزة واضحة لهذا النوع من التوجيه الكريم، هو شعور الفرد بأنه يكتسب هذه المعارف، وتلك الخبرات باستقلالية تامة من غير توجيه، أو إلزام، أو إكراه، إنه يحسُّ بحريته في التفكير، والتعلم، والاكتشاف، إنه تعلم واكتساب من غير إحساس باستعلاء من أحد بفضل علم، أو تقدم خبرة». (التوجيه غير المباشر، صالح بن حميد، ص١٦).

ومن أهم مزايا التوجيه غير المباشر ما يلي[(١)]:

١- مُراعاة نفسية المُتربِّي وشخصيته:

طبيعة الإنسان بصفة عامة عدم الترحيب بالتوجيه المباشر، فالتوجيه المباشر يتضمن أمرًا ونهيًا، أو إشارة إلى خطأ الشخص وعيوبه، ومن طبيعة الإنسان أنه لا يحب أن يبدو أمام نفسه أوَّلًا، وأمام الآخرين ثانيًا بمظهر الخطأ والقصور.

والتوجيه غير المباشر يتلافى ذلك؛ فهو لا يُواجه الشخص بخطئه بصورة مباشرة، إنما يُبدي له الصورة الإيجابية للخيار المقابل، فبدلًا من حديث الشخص بصورة مباشرة

(١) انظر التوجيه غير المباشر، د. صالح بن حميد.

عن سوء خلقه، وعن أخطائه في التعامل مع الآخرين، يحثُّه المُربِّي على حسن الخلق، ويُبيِّن له فضائله، ويدلُّه على مهارات التعامل مع الناس، ودورها في مساعدته على تحقيق أهدافه...، وهكذا.

٢- تلافي الاصطدام بالعقبات النفسية:

يلجأ الفرد داخليًّا لافتعال عقبات ومشكلات تحميه من لوم النفس، وتأنيب الضمير، وتحميه من الظهور أمام الآخرين بمظهر المُخطئ المُقصِّر.

فالشاب المنحرف، أو الفتاة المنحرفة- على سبيل المثال- كثيرًا ما يُوجِّهان اللوم لوالديهما وأسرتهما، وكثيرًا ما يبحثان عن جوانب القصور التربوي لإحالة انحرافهما لذلك القصور.

والشاب الذي لم يتمكن من إتمام حفظ القرآن، أو الاستمرار في التحصيل العلمي قد يُفسِّر قصوره نتيجة أخطاء المعلم والمُربِّي.

ومَن ينقطع عن عمل دعوي، وربما ضعف تدينه واستقامته قد يُبرر ذلك بالحديث عن أخطاء بيئته الدعوية.

وهذا اللون من الحِيَلِ النفسية ليس قاصرًا على البيئات المُتدينة، بل نراه في أي عمل سياسي، أو اقتصادي، أو رياضي، وهو يُؤدي وسيلة نفسية للخلاص من لوم الذات، وتأنيب الضمير، فضلًا عن لوم الآخرين.

وحين يأتي التوجيه بصورة غير مباشرة، فالغالب أن الشخص لن يحتاج للُّجوء للحِيَلِ النفسية، ولا لتبرير مواقفه؛ فالتوجيه لا يتضمن نقدًا مباشرًا له، أو حطًّا من ذاته.

٣- تعليم المُتربِّي الأدب، وتوقير الآخرين:

ما يتعلمه المُتربِّي ليس قاصرًا على ما يتلقاه من محتوى توجيهي، فأساليب التعليم والتوجيه لها أثر مهم في تعليم المُتربِّي قيمًا سلبية، أو إيجابية.

والتوجيه غير المباشر يتَّسم بمراعاة الأدب مع المُتربِّي، وفيه توقير لشخصيته، وتقدير لذاته، وهذا يُكسِبُه حسن التعامل مع الآخرين وتوقيرهم.

كما أن مَن يتعلمون في أجواء تسود فيها القسوة والصرامة، ويعتادون سماع ألفاظ الذم والتوبيخ؛ فإنهم يكتسبون هذه اللغة، ويتعلمون الاستهانة بمشاعر الآخرين.

٤- جَعْلُ المُتربِّي مُشاركًا في التغيير:

التوجيه غير المباشر يبتعد عن التحديد الدقيق للخطأ، أو الأمر المباشر بالفعل، وهو تلميح وإيماء، يقود صاحبه للتفكير، والمراجعة، والمقارنة.

وهذا يقوده إلى التفكير في ذاته، ثم البحث عن خطوات التغيير؛ مما يجعله شريكًا في التغيير، وهذا أكثر فاعلية في تغيير الذات.

التربية بالأحداث

«الحياة الدنيا كدٌّ، وكَدْحٌ، ونصبٌ ...، وتفاعلٌ دائمٌ مع الأحداث، وما دام الناس أحياء؛ فَهُمْ عرضة على الدوام للأحداث..، تقع بسبب تصرُّفاتهم الخاصة، أو لأسباب خارجة عن تقديرهم، وخارجة عن إرادتهم، والمُربِّي البارع لا يترك الأحداث تذهب سُدًى بغير عبرة، وبغير توجيه، وإنما يستغلها لتربية النفوس، وصقلها، وتهذيبها، فلا يكون أثرها موقوتًا لا يلبث أن يضيع». (منهج التربية الإسلامية- محمد قطب ١/ ٢٠٧).

والمنهج التربوي النبوي- كما أكَّدنا مرارًا- منهج عملي واقعي، وليس مُجرَّد منهج فكري، كان محمد ﷺ بشرًا يعيش مع الناس، يُؤَاكلهم، ويُشاربهم، يصحبهم في السفر والإقامة، يُشاركهم السَّرَّاء والضَّرَّاء، ومن هنا كانت التربية بالأحداث والمواقف حاضرة في المنهج النبوي.

أنواع الأحداث والمواقف:

تتنوع الأحداث والمواقف التي كان ﷺ يُوظِّفها في تربيته لأصحابه، وتشمل ما يلي:

١- الظواهر الكونية:

بعض الظواهر الكونية حدثٌ غير مألوف، تُثير اهتمام الناس، وتُطلعهم لتفسير هذه الحوادث، وتعرُّف منهج التعامل معها.

حين كسفت الشمس على عهد النبي ﷺ استخدم ﷺ الموقف لتربية أصحابه وتوجيههم، فعن عائشة ﵂ أنها قالت: خسفت الشمس في عهد رسول الله ﷺ، فصلَّى رسول الله ﷺ بالناس، فقام، فأطال القيام، ثم ركع، فأطال الركوع، ثم قام، فأطال القيام- وهو دون القيام الأول-، ثم ركع، فأطال الركوع- وهو دون الركوع الأول-،

ثم سجد، فأطال السجود، ثم فعل في الركعة الثانية مثل ما فعل في الأولى، ثم انصرف، وقد انجلت الشمس، فخطب الناس، فحمد الله، وأثنى عليه، ثم قال: «إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله لا ينخسفان لموت أحد، ولا لحياته، فإذا رأيتم ذلك، فادعوا الله، وكبِّرُوا، وصلُّوا، وتصدَّقُوا»، ثم قال: «يا أُمَّةَ مُحمَّدٍ، والله ما من أحد أَغْيَرَ من الله أن يزني عبده، أو تزني أَمَتُهُ، يا أُمَّةَ مُحمَّد، والله لو تعلمون ما أعلم؛ لضحكتم قليلًا، ولبكيتم كثيرًا». (أخرجه البخاري ١٠٤٤، ومسلم ٩٠١).

ففي هذا الحديث صحَّح لهم ﷺ المفهوم الخاطئ الذي شاع في الجاهلية بربط هذه الأحداث بالعظماء موتًا، أو ولادة، ثم وجَّههم ﷺ للاعتبار والاتعاظ بما فيها من دلالات.

٢- المصائب والمشكلات الشخصية:

تُواجه الناس مصائب ومشكلات شخصية تترك أثرها على حياتهم، وقد تقودهم لإعادة التفكير في بعض اقتناعاتهم ومُسلَّماتهم، أو البحث عن تفسير لها، أو كيفية التعامل معها، بل إن كثيرًا من الناس شكَّلت هذه المواقف نقطة تحول، وتغيُّر في حياتهم السلوكية، أو الفكرية.

وقد كان ﷺ يُوظِّف مشكلات الأفراد، والصعوبات التي تُواجههم في حياتهم في التربية والتوجيه، عن خبَّاب بن الأَرَتْ ﷺ، قال: شكونا إلى رسول الله ﷺ، وهو مُتوسِّد بردة له في ظلِّ الكعبة، قلنا له: ألا تستنصر لنا؟ ألا تدعو الله لنا؟، قال: «كان الرجل فيمَن قبلكم يُحفر له في الأرض فيُجعل فيه، فيُجاء بالمنشار فيُوضع على رأسه، فيُشقّ باثنتين، وما يصده ذلك عن دينه، ويُمشَّط بأمشاط الحديد ما دون لحمه من عَظْمٍ، أو عصب، وما يصده ذلك عن دينه، والله ليتمن هذا الأمر، حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت لا يخاف إلا الله، أو الذئب على غنمه، ولكنكم تستعجلون». (أخرجه البخاري ٣٦١٢).

وعاد ﷺ زيد بن أرقم ﷺ حين أصابه رمد، ثم بيَّن له فضل الصبر على البلاء، عن زيد بن أرقم ﷺ، قال: أصابني رمد، فعادَني النبي ﷺ، قال: فلما برأت خرجت، قال: فقال لي رسول الله ﷺ: «أرأيت لو كانت عيناك لما بهما[1] ما كنت صانعًا؟»، قال: قلت: لو كانتا عيناي لما بهما صبرت، واحتسبت، قال: «لو كانت عيناك لما بهما، ثم صبرت، واحتسبت، للقيتَ الله عز وجل ولا ذنب لك»، قال إسماعيل: «ثم صبرت واحتسبت؛ لأوجب الله لك الجنة». (أخرجه أحمد ١٩٣٤٨).

٣- النَّعماء والسَّرَّاء:

التربية بالأحداث في المنهج النبوي لا تختص بأحوال الضَّرَّاء، بل كان ﷺ يُعنى بتوظيف مواقف السَّرَّاء في التربية والتوجيه، فعن عمرو بن عوف الأنصاري ﷺ، أن رسول الله ﷺبعث أبا عبيدة بن الجراح ﷺ إلى البحرين، يأتي بجزيتها، وكان رسول الله ﷺ هو صالح أهل البحرين وأمَّر عليهم العلاء بن الحضرمي، فقَدِمَ أبو عبيدة بمال من البحرين، فسمعت الأنصار بقدوم أبي عبيدة، فوافت صلاة الصبح مع النبي ﷺ فلما صلَّى بهم الفجر، انصرف، فتعرَّضوا له، فتبسَّم رسول الله ﷺ حين رآهم، وقال: «أظنكم قد سمعتم أن أبا عبيدة قد جاء بشيء؟»، قالوا: أَجَل يا رسول الله، قال: «فأبشروا، وأمِّلوا ما يسركم، فوالله لا الفقر أخشى عليكم، ولكن أخشى عليكم أن تُبسط عليكم الدنيا، كما بُسطت على مَن كان قبلكم، فتنافسوها، كما تنافسوها، وتُهلككم، كما أهلكتهم». (أخرجه البخاري ٣١٥٨، ومسلم ٢٩٦١).

٤- الخطأ الفردي:

ومن مواطن التربية بالأحداث في المنهج النبوي: توظيف الأخطاء الفردية في خطاب عامة الناس، فعن أبي حميد الساعدي ﷺ، أن النبي ﷺ استعمل ابن الأُتْبِيَّة على صدقات

(١) أي أصيبتا بسوء كفقد إبصارهما (الفتح الرباني ١٩/ ١٣٥).

بني سليم، فلما جاء إلى رسول الله ﷺ، وحاسبه، قال: هذا الذي لكم، وهذه هدية أُهْدِيَت لي، فقال رسول الله ﷺ: «فهلَّا جلست في بيت أبيك، وبيت أُمِّك حتى تأتيك هديتك إن كنت صادقًا؟»، ثم قام رسول الله ﷺ، فخطب الناس، وحمد الله، وأثنى عليه، ثم قال: «أما بعد، فإني أستعمل رجالًا منكم على أمور مما وَلَّاني الله، فيأتي أحدكم، فيقول: هذا لكم، وهذه هدية أُهْدِيَت لي، فهلَّا جلس في بيت أبيه، وبيت أُمِّه حتى تأتيه هديته، إن كان صادقًا، فوالله لا يأخذ أحدكم منها شيئًا- قال هشام: بغير حقِّه- إلا جاء اللهَ يحمله يوم القيامة، ألا فلأعرفنَّ ما جاء اللهَ رجلٌ ببعير له رُغاء، أو ببقرة لها خوار، أو شاة تَيْعر»، ثم رفع يديه حتى رأيت بياض إبطيه: «ألا هل بلغت؟». (أخرجه البخاري ٧١٩٧، ومسلم ١٨٣٢، وعند مسلم: ابن اللتبيَّة).

ورغم أن الخطأ ها هنا صدر من فرد، وقد نصح ﷺ له وبيَّن، إلا أن الحاجة اقتضت أن يُبيِّن ﷺ الأمر للناس بيانًا عامًّا، فخطب فيهم في ذلك.

٥- الخطأ الجماعي:

ومن مجالات التربية بالمواقف: التوجيه عند الخطأ الجماعي، عن رجل من الأنصار قال: خرجنا مع رسول الله ﷺ في سفر فأصاب الناس حاجة شديدة وجهد، وأصابوا غنمًا، فانتهبوها، فإن قدورنا لتغلي إذ جاء رسول الله ﷺ يمشي على قوسه، فأكفأ قدورنا بقوسه، ثم جعل يرمل اللحم بالتراب، ثم قال: «إن النُّهبة ليست بأَحَلَّ من الميتة»، أو «إن الميتة ليست بأَحَلَّ من النُّهبة». (أخرجه أبو داود ٢٧٠٥، وأحمد ٢٣١١٦، وابن ماجه ٣٩٣٨).

قال الخطابي: «إنما نهى عن النهب؛ لأن الناهب إنما يأخذ ما يأخذه على قدر قوته لا على قدر استحقاقه؛ فيُؤدي ذلك إلى أن يأخذ بعضهم فوق حظِّه، وأن يبخس بعضهم حقه، وإنما لهم سهام معلومة: للفرس سهمان، وللرجل سهم؛ فإذا انتهبوا الغنيمة؛ بطلت القسمة، وعدمت التسوية». (عون المعبود ٧/ ٢٦٥).

٦- مواقف لا يفطن لها الناس:

بعض المواقف والأحداث تستثير تفاعل الناس واهتمامهم، لكن هناك مواقف خفية لا يتفطن لها كثير من الناس، وفي السُّنَّة النبوية عديد من تلك المواقف العارضة، كان ﷺ يغتنمها في تربية أصحابه وتوجيههم، ومنها ما يلي:

عن عمر بن الخطاب ﷺ، قال: قَدِمَ على النبي ﷺ سبيٌ، فإذا امرأة من السبي قد تحلب ثديها تسقي، إذا وجدت صبيًّا في السَّبْي أخذته، فألصقته ببطنها، وأرضعته، فقال لنا النبي ﷺ: «أترون هذه طارحة ولدها في النار؟» قُلنا: لا، وهي تقدر على أن لا تطرحه، فقال: «للهُ أرحم بعباده من هذه بولدها». (أخرجه البخاري ٥٩٩٩، ومسلم ٢٧٥٤).

وعن الأعمش، عن أنس ﷺ، أن رسول الله ﷺ مرَّ بشجرة يابسة الورق، فضربها بعصاه؛ فتناثر الورق، فقال: «إن الحمد لله، وسبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر، لتساقط من ذنوب العبد، كما تساقط ورق هذه الشجرة». (أخرجه الترمذي ٣٥٣٣).

وفي رواية لأحمد (١٢٥٣٤): أن رسول الله ﷺ أخذ غُصنًا فنفضه فلم ينتفض، ثم نفضه فلم ينتفض، ثم نفضه فانتفض، فقال رسول الله ﷺ: «إن سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر، تنفض الخطايا كما تنفض الشجرة ورقها».

وقد تكرَّر الموقف منه ﷺ، وتنوع التوجيه، كما في موقفه ﷺ مع كلٍّ من: أبي ذَرٍّ، وسلمان رضي الله عنهما وسيأتي بعد قليل.

والتوجيه النبوي في مثل هذه المواقف ليس قاصرًا على الحالات الجماعية، فقد كان ﷺ يُوظِّف المواقف والأحداث في تربية أصحابه في الأحوال الفردية.

عن أبي ذَرٍّ ﷺ، أن النبي ﷺ خرج زمن الشتاء، والورق يتهافت، فأخذ بغصنين من شجرة، قال: فجعل ذلك الورق يتهافت، قال: فقال: «يا أبا ذَرٍّ»، قلت: لبيك يا رسول

الله، قال: «إن العبد المسلم ليُصلِّي الصلاة يُريد بها وجه الله؛ فتهافت عنه ذنوبه، كما يتهافت هذا الورق عن هذه الشجرة». (أخرجه أحمد ٢١٥٥٦).

وعن أبي عثمان، قال: كنت مع سلمان الفارسي ﷺ تحت شجرة، وأخذ منها غُصنًا يابسًا فهزَّه حتى تحاتَّ ورقه، ثم قال: يا أبا عثمان، ألا تسألني لِمَ أفعل هذا؟ قلت: وَلِمَ تفعله؟ فقال: هكذا فعل بي رسول الله ﷺ، وأنا معه تحت شجرة، فأخذ منها غُصنًا يابسًا، فهزَّه حتى تحاتَّ ورقه، فقال: «يا سلمان: ألا تسألني لِمَ أفعل هذا؟»، قلت: وَلِمَ تفعله؟ قال: «إن المسلم إذا توضأ، فأحسن الوضوء، ثم صلَّى الصلوات الخمس؛ تحاتَّت خطاياه، كما يتحاتُّ هذا الورق»، وقال: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيۡلِۚ إِنَّ ٱلۡحَسَنَٰتِ يُذۡهِبۡنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ ذَٰلِكَ ذِكۡرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ﴾ (هود: ١١٤). (أخرجه أحمد ٢٣٧٠٧، والدارمي ٧٤٦).

أثر المواقف والأحداث:

المواقف والأحداث لها آثار تربوية، منها ما يلي:

١ - تصحيح المفاهيم:

كان ﷺ يُوظِّف الأحداث والمواقف في تصحيح المفاهيم، عن المغيرة بن شعبة ﷺ قال: كسفت الشمس على عهد رسول الله ﷺ يوم مات إبراهيم، فقال الناس: كسفت الشمس لموت إبراهيم، فقال رسول الله ﷺ: «إن الشمس والقمر لا ينكسفان لموت أحد، ولا لحياته، فإذا رأيتم فصلُّوا، وادعوا الله». (أخرجه البخاري ١٠٤٣، ومسلم ٩١٥).

وعن أبي بكرة ﷺ قال: كُنَّا عند رسول الله ﷺ فانكسفت الشمس، فقام النبي ﷺ يجُرُّ رداءه حتى دخل المسجد، فدخلنا، فصلَّى بنا ركعتين حتى انجلت الشمس، فقال ﷺ: «إن الشمس والقمر لا ينكسفان لموت أحد، فإذا رأيتموهما، فصلُّوا، وادعوا حتى يُكشف ما بكم». (أخرجه البخاري ١٠٤٠).

لقد شاع لدى الناس في الجاهلية ارتباط الكسوف بموت وحياة العظماء، وأراد الله سبحانه وتعالى أن يقترن كسوف الشمس بموت إبراهيم ابن رسول الله ﷺ؛ ليُصحِّح ﷺ للناس هذا المفهوم، ويُبيِّن لهم أن ذلك آية يُخوِّف الله بها العباد، ويُرشدهم إلى الواجب عند حصولها.

وربما سألهم ﷺ؛ ليُصحِّح لهم، عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما، قال: أخبرني رجل من أصحاب النبي ﷺ من الأنصار، أنهم بينما هم جلوس ليلة مع رسول الله ﷺ رُمِي بنجم، فاستنار، فقال لهم رسول الله ﷺ: «ماذا كنتم تقولون في الجاهلية، إذا رُمِي بمثل هذا؟» قالوا: الله ورسوله أعلم، كُنَّا نقول: وُلد الليلة رجل عظيم، ومات رجل عظيم، فقال رسول الله ﷺ: «فإنها لا يُرمَى بها لموت أحد، ولا لحياته، ولكن ربنا تبارك وتعالى اسمه، إذا قضى أمرًا سبَّح حملة العرش، ثم سبَّح أهل السماء الذين يَلُونهم، حتى يبلغ التَّسبيح أهل هذه السماء الدنيا، ثم قال: الذين يلُون حملةَ العرش لحملةِ العرش: ماذا قال ربكم؟ فيُخبرونهم ماذا قال»، قال: «فيستخبر بعض أهل السماوات بعضًا، حتى يبلغ الخبر هذه السماء الدنيا، فتخطف الجن السمع، فيقذفون إلى أوليائهم، ويرمون به، فما جاءوا به على وجهه فهو حق، ولكنهم يقرفون فيه، ويزيدون». (أخرجه مسلم ٢٢٢٩).

وهكذا كان أهل الجاهلية يُفسِّرون هذه الظواهر بموت العظماء، أو ولادتهم، فصحح لهم ﷺ هذا المفهوم، وبيَّن لهم حقيقة الشهب.

وربما ارتبط تصحيح المفهوم بفهم خاطئ لأمر شرعي، كاعتقاد بعضهم جواز الشفاعة في الحدود، عن عائشة رضي الله عنها أن قريشًا أهمَّهم شأن المرأة المخزومية التي سرقت، فقالوا: ومَن يُكلِّم فيها رسول الله ﷺ؟ فقالوا: ومَن يجترئ عليه إلا أسامة بن زيد، حِبُّ رسول الله ﷺ؟ فكلَّمه أسامة، فقال رسول الله ﷺ: «أتشفع في حدٍّ من حدود الله؟»، ثم قام فاختطب، ثم قال: «إنما أهلك الذين قبلكم، أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه،

وإذا سرق فيهم الضعيف، أقاموا عليه الحدَّ، وايم الله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت؛ لقطعت يدها». (أخرجه البخاري ٣٤٧٥، ومسلم ١٦٨٨).

ومن تلك المفاهيم ما يتعلق بالعبادة، فحين اجتهد بعض أصحاب النبي ﷺ، وتجاوزوا القدر الشرعي، ورأوا أن حاجتهم للعبادة أكثر من حاجة النبي ﷺ؛ صحح لهم ﷺ هذا الفهم، وأكَّد الاقتداء به ﷺ؛ فعن أنس بن مالك ﷺ، قال: جاء ثلاثة رهط إلى بيوت أزواج النبي ﷺ، يسألون عن عبادة النبي ﷺ، فلما أُخبروا كأنهم تقالُّوها، فقالوا: وأين نحن من النبي ﷺ؟ قد غُفر له ما تقدَّم من ذنبه وما تأخَّر، قال أحدهم: أما أنا: فإني أُصلِّي الليل أبدًا، وقال آخر: أنا أصوم الدهر، ولا أُفطر، وقال آخر: أنا أعتزل النساء، فلا أتزوج أبدًا، فجاء رسول الله ﷺ، فقال: «أنتم الذين قلتم كذا وكذا؟ أما والله إني لأخشاكم لله، وأتقاكم له، لكني أصوم وأُفطر، وأُصلِّي وأرقد، وأتزوج النساء، فمن رَغِبَ عن سُنَّتِي؛ فليس مني». (أخرجه البخاري ٥٠٦٣، ومسلم ١٤٠١).

٢- علاج الأخطاء:

وقد يغتنم ﷺ المواقف والحدث في علاج خطأ، كما سبق في حديث مَن بعثه على الصدقة، وفي حديث الثلاثة الذين تقالُّوا عبادة رسول الله ﷺ، وغيرها.

٣- التسديد والتصويب:

وقد يغتنم ﷺ الموقف للتسديد، وتصويب العمل، عن أبي بردة، عن أبيه ﷺ، قال: صلَّيْنا المغرب مع رسول الله ﷺ، ثم قلنا: لو جلسنا حتى نصلي معه العشاء، قال: فجلسنا، فخرج علينا، فقال: «ما زلتم ها هنا؟» قلنا: يا رسول الله صلَّيْنا معك المغرب، ثم قلنا: نجلس حتى نصلي معك العشاء، قال «أحسنتم، أو أصبتم»، قال: فرفع رأسه إلى السماء - وكان كثيرًا مما يرفع رأسه إلى السماء-، فقال: «النجوم أَمَنَةٌ للسماء، فإذا ذهبت النجوم

أتى السماء ما تُوعد، وأنا أَمَنَةٌ لأصحابي، فإذا ذهبت أتى أصحابي ما يُوعدون، وأصحابي أَمَنَةٌ لأُمَّتِي، فإذا ذهب أصحابي أتى أمتي ما يُوعدون». (أخرجه مسلم ٢٥٣١).

٤- الوعظ والتذكير:

وقد يغتنم ﷺ الموقف لوعظ أصحابه وتذكيرهم، كما في حديث البراء بن عازب ﷺ حين وعظهم ﷺ، وذكَّرهم بما يُصيب كُلًّا من المؤمن والفاجر في قبره، عن البراء بن عازب ﷺ، قال: خرجنا مع النبي ﷺ، في جنازة رجل من الأنصار، فانتهينا إلى القبر، ولما يلحد، فجلس رسول الله ﷺ، وجلسنا حوله، كأن على رؤوسنا الطير، وفي يده عود ينكت في الأرض، فرفع رأسه، فقال: «استعيذوا بالله من عذاب القبر» مرتين، أو ثلاثًا، ثم قال: «إن العبد المؤمن إذا كان في انقطاع من الدنيا، وإقبال من الآخرة، نزل إليه ملائكة من السماء بيض الوجوه، كأن وجوههم الشمس، معهم كفنٌ من أكفان الجنة، وحَنُوطٌ من حَنُوطِ الجنة، حتى يجلسوا منه مدَّ البصر، ثم يجيء ملك الموت، ﷺ، حتى يجلس المؤمن عند رأسه، فيقول: أيتها النفس الطيبة، اخرجي إلى مغفرة من الله ورضوان ...». الحديث (أخرجه أحمد ١٨٥٣٤، وأبو داود ٤٧٥٣).

٥- التشبيه والربط:

وقد يغتنم ﷺ الموقف والحدث للتشبيه والتعليم، فيربطهم بمعنى آخر، كما سبق في المرأة التي تبحث عن رضيعها، وحثِّه لورق الشجرة، ومن ذلك- أيضًا- تشبيهه لنفسه ﷺ بالنجم- كما سبق في حديث ابن أبي بردة عن أبيه.

أهمية الأحداث والمواقف:

تبرز أهمية الأحداث والمواقف في التربية من خلال ما يلي:

١- إبراز كَوَامِنِ النفوس:

تبرز الأحداث كوامن النفوس؛ فيظهر منها ما كان خفيًّا على أصحابها قبل أن يكون خفيًّا على الآخرين.

وقد جاء ذلك كثيرًا في القرآن الكريم في التعقيب على الأحداث، قال سبحانه: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِ حَتَّىٰ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّن بَعْدِ مَا أَرَاكُم مَّا تُحِبُّونَ مِنكُم مَّن يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ الْآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ (آل عمران: ١٥٢).

وقال سبحانه: ﴿ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّن بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَىٰ طَائِفَةً مِّنكُمْ وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ الْأَمْرِ مِن شَيْءٍ قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ يُخْفُونَ فِي أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبْدُونَ لَكَ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَاهُنَا قُل لَّوْ كُنتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ (آل عمران: ١٥٤).

«ومزية الأحداث على غيرها من وسائل التربية أنها تُحدث في النفس حالة خاصة، هي أقرب للانصهار، إن الحادثة تُثير النفس بكاملها، وتُرسل فيها قدرًا من حرارة التفاعل، والانفعال يكفي لصهرها أحيانًا، أو الوصول بها إلى قُرْب الانصهار، وتلك حالة لا تحدث كل يوم في النفس، وليس من اليسير الوصول إليها، والنفس في راحتها، وأمنها، وطمأنينتها، مسترخية، أو منطلقة في تأمل رخي». (منهج التربية الإسلامية، محمد قطب ١/ ٢٠٧-٢٠٨).

واكتشاف هذه الكوامن هدف تربوي بحدِّ ذاته؛ فهي تكشف جوانب الخير، وجوانب القصور والخلل؛ فيكتشف كل من الفرد والمُربِّي ما كان خافيًا قبل الحدث، قال

ابن مسعود ﷺ: «ما شعرت أن أحدًا من أصحاب النبي ﷺ كان يُريد الدنيا وعرَضَها، حتى كان يوم أُحُدٍ». (أخرجه ابن جرير ٧/ ٢٩٤).

٢- تهيئة النفوس للاستقبال:

تترك الأحداث أثرها على النفس؛ فتجعلها أكثر تهيؤًا للسماع والاستجابة، كما في حديث البراء بن عازب ﷺ في الموعظة عند القبر، إذا قال: كأن على رؤوسنا الطير.

يقول محمد شديد: «ولا يُؤثر في النفوس شيء كما تُؤثر فيه التربية في ظل التجارب والأحداث، حيث تكون القلوب منفتحة للتوجيه، والنفوس مُهيأة للانطباع». (منهج القرآن في التربية، ص ٣٣٤).

٣- جَعْل التوجيه أكثر ارتباطًا بالواقع:

من آثار المواقف والأحداث أنها تجعل التوجيه التربوي أكثر اتِّصالًا وارتباطًا بالواقع؛ فهي تنقل المتعلم من التفاعل الذهني المجرد إلى التفاعل العملي مع ما يسمعه من توجيه.

وقد يتلقَّى الفرد رصيدًا ثريًّا من التوجيه والمعرفة، حتى يتصور هو، أو مَن يُربِّيه أن الأمر قد استقرَّ، ورسخ لديه، فحين تأتي المواقف يختلف الأمر، ويعلم حينها أنه لا زال بحاجة لمزيد من التوجيه، والتربية، والتسديد، وخير شاهد على ذلك ما جاء في كتاب الله عز وجل خطابًا لخير جيل بعد غزوة بدر، وأُحُدٍ، وحادثة الإفك، وحُنين، وغيرها.

٤- ترسيخ المعاني التربوية:

الحديث والتوجيه النظري عُرْضة للنسيان والغفلة، أما حين يرتبط بموقف عملي؛ فإنه أكثر رسوخًا لدى المتربي، وأبلغ تأثيرًا في نفسه، عن أبي شريح ﷺ، أنه قال لعمرو بن سعيد- وهو يبعث البعوث إلى مكة-: ائذن لي أيها الأمير، أُحدِّثك قولًا قام به النبي ﷺ الغد من يوم الفتح، سَمِعَتْهُ أُذُناي، ووعاه قلبي، وأبصَرَتْهُ عيناي حين تكلم به: حمد الله،

وأثنى عليه، ثم قال: «إن مكة حرَّمها الله، ولم يحرمها الناس، فلا يحل لامرئ يُؤمن بالله واليوم الآخر أن يسفك بها دمًا، ولا يعضد بها شجرة، فإن أحد ترخَّص لقتال رسول الله ﷺ فيها، فقولوا: إن الله قد أذن لرسوله، ولم يأذن لكم، وإنما أذن لي فيها ساعة من نهار، ثم عادت حُرْمتها اليوم كحُرْمتها بالأمس، وليبلغ الشاهد الغائب». (أخرجه البخاري ١٠٤، ومسلم ١٣٥٤).

وعن عمر بن أبي سلمة ﷺ قال: كنت غلامًا في حِجر رسول الله ﷺ، وكانت يدي تطيش في الصحفة، فقال لي رسول الله ﷺ: «يا غلام، سَمِّ الله، وكُلْ بيمينك، وكُلْ مما يليك»، فما زالت تلك طعمتي بعد. (أخرجه البخاري ٥٣٧٦، ومسلم ٢٠٢٢).

يُمكن أن يتحدث المُربِّي عن الحلم، ومنزلته، وخطورة الاستجابة لدافع الغضب، فيُؤثر على المتلقي، لكن هذا التأثير سيكون أبلغ حين يرتبط بموقف واقعي يعايشه المُتربِّي، وهكذا سائر المعاني التربوية.

دور المربي تجاه الأحداث والمواقف:

يتمثل دور المربي تجاه الأحداث والمواقف فيما يلي:

١- الإعانة على صحة الفهم:

على المربي أن يعين المتربي على الفَهم الصحيح للأحداث، سواء أكانت الأحداث مواقف، وحوادث بشرية، أم كانت أحداثًا، ومظاهر كونية، وقد سبقت الإشارة إلى المواقف النبوية في تفسير حدث الكسوف، والرَّمْي بالشهب، وغيرها.

ومن المهم أن يفرِّق المربي بين ما فيه نصوص شرعية قاطعة: كالظوهر الكونية في عللها وأسبابها، وبين تطبيق هذه النصوص على وقائع بعينها: كالجزم بأن ما أصاب شخصًا، أو بلدًا بعينه إنما هو عقوبة بسبب ذنب معين، فهذا من أمور الغيب، وفرق بين

ثبوت أصل العقوبة على الذنب، وبين تنزيله على معين.

كما يدخل في ذلك تفسير الأحداث والوقائع السياسية، أو الاجتماعية فمن الوُعَّاظ والمُربِّين من يجزم بتحليله، وتفسيره للأحداث، ويربط ذلك بالنصوص الشرعية، وصحة النصوص لا يلزم منها صحة الفَهم.

وليس المُنتظَر مِن المُربِّي أن ينقل اقتناعاته، وآراءه لطلابه، بل أن يُزودهم بمنهجية الفَهم الصحيح، وحين يُبدي تفسيره لحدث، أو موقف معين فمن المهم أن تتنوع مستويات جزمه وتأكيده لاستنتاجاته، وأن يعتني بالبرهنة والاستدلال على ما يقوله.

٢- تأصيل القواعد والأصول الشرعية:

تُمثِّل الأحداث والمواقف فرصة مهمة لتأصيل القواعد والأصول الشرعية، وقد جاء ذلك كثيرًا في كتاب الله عز وجل.

ومن ذلك ما يلي:

- الأمر بحسن الظن بالمؤمنين والتثبُّت، عند الحديث عن قصة الإفك، قال عز وجل: ﴿لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا۟ هَٰذَآ إِفْكٌ مُّبِينٌ﴾ (النور: ١٢).

- بيان سُنَّة الله عز وجل في إنجاء المؤمنين، عند الحديث عن نجاة المرسلين، قال سبحانه وتعالى: ﴿وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٧﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ ۚ وَكَذَٰلِكَ نُۨجِى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾(الأنبياء: ٨٧ - ٨٨).

- نُصرة الله عز وجل لنبيِّه ﷺ عند الحديث عن حدث الهجرة، قال سبحانه: ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا

فِي ٱلۡغَارِ إِذۡ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحۡزَنۡ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَاۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيۡهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٖ لَّمۡ تَرَوۡهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلسُّفۡلَىٰۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِيَ ٱلۡعُلۡيَاۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾(التوبة: ٤٠).

إن اعتناء المُربِّي بربط تلامذته بكتاب الله عز وجل، وسُنَّة نبيِّه ﷺ، والحقائق الشرعية أمر مهم، والأحداث والمواقف تُمثِّل فرصة لتأصيل هذه القواعد لدى المُتربِّين، مع أهمية مُراعاة منهجية تنزيل النصوص، والقواعد الشرعية على أحداث معينة، أو أفراد بأعيانهم.

٣- توظيفها في تنمية قدرات المتربي:

ومن دور المربي أن يستثمر الأحداث، ويُوظِّفها في تنمية قدرات المُتربِّي، كالقدرة على الربط والاستنتاج، وعلى تفسير الأحداث والمواقف، وجهد المُربِّي لا ينبغي أن ينتهي عند التلقين والتوجيه المباشر، فالوعي لا يملى إملاء، ولا يتحقق بمجرد تلقي الفرد لتوجيه المربي، وتفسيره للأحداث؛ فهو بناء تراكمي تسهم الأحداث في تكوينه، والارتقاء به، وذلك حين تستثمَر، ويتعامل معها المُربِّي بصورة صحيحة، ويعنى بتوظيفها في تنمية قدرات المتربي.

٤- توجيه المتربي للتعامل الشرعي مع الأحداث:

ومن أدوار المربي تجاه الأحداث أن يُوجِّهه للتعامل الشرعي معها، سواء في ذلك الموقف الذي يعايشه الفرد ويراه، أو ما يتوقع حصوله.

ووجَّه ﷺ بعض أصحابه عند الفتنة أن يتخذ سيفًا من خشب؛ فعن عديسة ابنة وهبان بن صيفي، أنها كانت مع أبيها في منزله، فمرض، فأفاق من مرضه ذلك، فقام عليٌّ بن أبي طالب ﷺ بالبصرة، فأتاه في منزله، حتى قام على باب حجرته، فسلَّم، وردَّ عليه الشيخ السلام، فقال له علي: كيف أنت يا أبا مسلم؟ قال: بخير، فقال علي: ألا تخرج معي

إلى هؤلاء القوم فتعينني؟ قال: بلى إن رضيت بها أعطيك، قال علي: وما هو؟ فقال الشيخ: يا جارية هات سيفي، فأخرجت إليه غمدًا، فوضعته في حجره، فاستلَّ منه طائفة، ثم رفع رأسه إلى علي ﷺ، فقال: إن خليلي ﷺ، وابن عمك عهد إليَّ إذا كانت فتنة بين المسلمين، أن أتخذ سيفًا من خشب، فهذا سيفي فإن شئت خرجت به معك، فقال علي ﷺ: لا حاجة لنا فيك، ولا في سيفك، فرجع من باب الحجرة، ولم يدخل. (أخرجه أحمد ٢٠٦٧٠، والترمذي ٢٢٠٣، وابن ماجه ٣٩٦٠).

وقد وجَّه النبي ﷺ أصحابه إلى كيفية التعامل مع الدَّجَّال لمن أدركه، عن عمران بن حصين ﷺ، عن النبي ﷺ قال: «مَن سمع بالدَّجَّال فلينأَ منه؛ مَن سمع بالدجال فلينأَ منه، مَن سمع بالدجال فلينأَ منه، فإن الرجل يأتيه، وهو يحسب أنه مؤمن، فلا يزال به لما معه من الشُّبه حتى يتبعه». (أخرجه أحمد ١٩٨٧٥، وأبو داود ٤٣١٩).

ويتضمن ذلك- أيضًا- تحذيره من التعامل الخاطيء معها، عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «ستكون فِتَنٌ، القاعد فيها خير من القائم، والقائم فيها خير من الماشي، والماشي فيها خير من الساعي، ومَن يشرف لها تستشرفه، ومن وجد ملجأ، أو معاذًا؛ فليعذ به». (أخرجه البخاري ٣٦٠١، ومسلم ٢٨٨٦).

قال ابن حجر: «حكى ابن التين عن الداودي، أن الظاهر، أن المراد مَن يكون مباشرًا لها في الأحوال كلها، يعني أن بعضهم في ذلك أشد من بعض، فأعلاهم في ذلك الساعي فيها بحيث يكون سببًا لإثارتها، ثم مَن يكون قائمًا بأسبابها، وهو الماشي، ثم مَن يكون مباشرًا لها، وهو القائم، ثم مَن يكون مع النظارة، ولا يُقاتل، وهو القاعد، ثم مَن يكون مجتنبًا لها، ولا يباشر، ولا ينظر، وهو المضطجع اليقظان، ثم مَن لا يقع منه شيء من ذلك، ولكنه راضٍ، وهو النائم، والمراد بالأفضلية في هذه الخيرية: مَن يكون أقل شرًا ممن فوقه». (فتح الباري ١٣/ ٣٠-٣١).

٥- تعليم المربي فرص استثمارها:

كما يتضمن دور المُربِّي تجاه الأحداث أن يعلم المتربي فرص استثمارها، فقد وجَّه ﷺ عمر بن الخطاب ﷺ إلى طلب الدعاء من أُوَيْس القرني إنْ لَقِيَهُ، عن أسير بن جابر، قال: كان عمر بن الخطاب ﷺ إذا أتى عليه أمداد أهل اليمن، سألهم: أفيكم أُوَيْس بن عامر؟ حتى أتى على أُوَيْس فقال: أنت أُوَيْس بن عامر؟ قال: نعم، قال: من مراد، ثم من قرن؟ قال: نعم، قال: فكان بك بَرَص فبرأت منه إلا موضع درهم؟ قال: نعم، قال: لك والدة؟ قال: نعم، قال سمعت رسول الله ﷺ، يقول: «يأتي عليكم أُوَيْس بن عامر مع أمداد أهل اليمن، من مراد، ثم من قَرْن، كان به برص، فبرأ منه إلا موضع درهم، له والدة هو بها بَرٌّ، لو أقسم على الله لأَبَرَّهُ، فإن استطعت أن يستغفر لك فافعل»، فاسْتَغْفِرْ لي، فاسْتَغْفَرَ له، فقال له عمر: أين تريد؟ قال: الكوفة، قال: ألا أكتب لك إلى عاملها؟ قال: أكون في غَبْراء الناس أحب إليَّ، قال: فلما كان من العام المقبل حج رجل من أشرافهم، فوافق عمر، فسأله عن أُوَيْس، قال: تركته رَثَّ البيت، قليل المتاع، قال: سمعت رسول الله ﷺ، يقول: «يأتي عليكم أُوَيْس بن عامر مع أمداد أهل اليمن من مراد، ثم من قَرْن، كان به برص فبرأ منه، إلا موضع درهم، له والدة هو بها بَرٌّ، لو أقسم على الله لأَبَرَّهُ، فإن استطعت أن يستغفرَ لك فافعل»، فأتى أُوَيْسًا، فقال: اسْتَغْفِرْ لي، قال: أنت أحدث عهدًا بسفر صالح، فاسْتَغْفِرْ لي، قال: اسْتَغْفِرْ لي، قال: أنت أحدث عهدًا بسفر صالح، فاسْتَغْفِرْ لي، قال: لقيت عمر؟ قال: نعم، فاستغفر له، ففطن له الناس، فانطلق على وجهه، قال أسير: وكسوته بردة، فكان كلما رآه إنسان قال: من أين لأُوَيْس هذه البردة؟ (أخرجه مسلم ٢٥٤٢).

ومهما كانت الأحداث مؤلمة وسيئة فهي تحوي في طيَّاتها فرصًا، وبغض النظر عن حجم الفرص ونسبتها مقابل المخاطر؛ فإن استثمار الفرص التي تبدو يسيرة قد يُشكِّل نقطة تحول في حياة الفرد، وربما المجتمع.

ويشيع في خطاب بعض الوُعَّاظ والمُربِّين الحديث عن الجانب السلبي والمُظلم من الأحداث، ومع أهمية التحذير من مخاطر مثل هذه الأحداث، والتوعية بآثارها، فإن استثمار الفرص الناشئة عنها لا يقل أهمية.

ومن المهم حين الحديث عن الفرص أن يتوازن المُربِّي، فلا يُحوِّل الحدث كله إلى فرصة، ويغفل عن مخاطره.

كما ينبغي على المُربِّي، وهو يتناول الفرص في الأحداث أن يُؤكِّد على أن الفرص ليست مكاسب مجانية، ولا قيمة لها بذاتها ما لم تُوظَّف وتُستثمر، ويحسن تقريب الصورة بالأمثلة؛ فقراءة مَن يبحث عن عمل لإعلان عن وظيفة شاغرة ذات مُرتَّب مُجزٍ لا قيمة لها ما لم يسعَ، ويبذل جهده للالتحاق بها، وإلا ستفوت عليه، وقد لا يُتاح مثلها مرة أخرى، وهكذا الفرص في الأحداث والمواقف.

ضرب الأمثال

من الأساليب التربوية النبوية: ضَرْب المثل، والمثل فنٌّ أدبي، استخدمه العرب قديماً وحديثًا، وتكرَّر وُرود الأمثال في القرآن والسُّنَّة، متنوعة في أنماطها، وموضوعاتها، وتركيبها.

وفيما يلي نتناول ضرب الأمثال باعتباره أحد الوسائل التربوية النبوية.

التعريف بالمثل:

مِثل: كلمةُ تَسْوِيَةٍ، يقال: هذا مِثْله، و مَثَله، كما يُقال: شِبْهه وشَبَهُهُ بمعنى.

و المِثْل: الشَّبْه، يُقال: مِثْل، و مَثَل، وشِبْه، وشَبَه بمعنى واحد.

و المَثَلُ: الشيء الذي يُضرَب لشيء مثلًا فيُجعل مِثْلَه.

وقد يكون المَثَلُ بمعنى العِبْرة، ومنه قوله عزوجل: ﴿فَجَعَلْنَٰهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْءَاخِرِينَ﴾ (الزخرف: ٥٦)، فمعنى السَّلَفِ أَنا جعلناهم متقدِّمين يَتَّعِظُ بهم الغابِرُون، ومعنى قوله: ومَثَلًا أَي: عِبْرة يعتبِر بها المتأَخرون.

«وقد تقرَّر عند علماء البلاغة أن لِضَرْب الأمثال شأنًا عظيماً، في إبراز خفيات المعاني، ورفع أستار مُحجبات الدقائق، وقد أكثر الله سبحانه من ضرب الأمثال في كتابه العزيز، واقتدى النبي ﷺ في ذلك بالكتاب العزيز، فكان يُكثر من ذكر الأمثال في مُخاطباته، ومواعظه، وكلامه». (الرسول المعلم، وأساليبه في التعليم، ص ١١٢- ١١٣).

واعتنى النبي ﷺ بضرب الأمثال في حديثه مع أصحابه مُصوِّرًا لهم المعاني، ومُقرِّبًا لها، وقد جمع طائفة من أهل العلم الأمثال النبوية الشريفة، إما في أبواب مستقلة ضمن مصنافتهم، أو في مصنفات مستقلة.

ومن أوائل مَن عني بجمعها من الأئمة: الإمام الترمذي، فقد بوَّب في سُنَنِه: (كتاب الأمثال عن رسول ﷺ)، وأورد في هذا الباب أربعة عشر مثلًا عن رسول الله ﷺ.

قال ابن العربي: «وقد ضرب الله في كتابه الأمثال، وضربها النبي ﷺ، ورُوي عن عبد الله بن عمر ﷺ أنه قال: حفظت عن رسول الله ﷺ ألف مَثَل، ولم يصح، ولم أَرَ أحدًا من أهل الحديث صنَّف فأفرد لها بابًا غير أبي عيسى- ولله دَرُّه- لقد فتح بابًا، أو بنى قصرًا، أو دارًا، ولكن اختطَّ خطًّا صغيرًا، فنحن نقع به، ونشكره عليه، وجملة ما ذكر: أربعة عشر حديثًا». (عارضة الأحوذي ١٠/ ٢٩٥-٢٩٦).

وممن أفرد الأمثال النبوية بالتأليف: الإمام الحسن بن عبد الرحمن بن خلَّاد الرامهرمزي، (ت٣٦٠هـ) في كتابه (أمثال الحديث)، والحسن بن عبد الله بن سعيد البغدادي العسكري (ت٣٨٢هـ) في كتابه: (أمثال الحديث)، ومحمد بن سلامة بن جعفر القضاعي (ت٤٥٤هـ) في كتابه: (شهاب الأخبار من الوصايا والأمثال النبوية، والحكم، والآداب المصطفوية).

كما أُفردت الأمثال النبوية بدراسات علمية معاصرة.

أهمية ضرب الأمثال:

جاء في القرآن ضرب الأمثال كثيرًا، وجاء التعقيب عليها بالأمر بالاعتبار والاتِّعاظ:

- ففي بعض الآيات بيان أن من غايتها التذكُّر، قال تعالى: ﴿وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ (إبراهيم: ٢٥).
- وفي بعضها بيان أن من غايتها التفكُّر، قال سبحانه: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (الحشر: ٢١).

- وفي بعضها الثناء على مَن يعيها ويعقلها، قال عز وجل: ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ﴾ (العنكبوت: ٤٣).

وتنوع الأمثال في القرآن الكريم، والأمر بالاتِّعاظ بها والتفكُّر، والثناء على مَن يعقلونها، كل ذلك دليل على أهمية المثل، ودوره في التأثير، فضلًا عن دلالته على منزلة الأمثال القرآنية؛ إذ لا يقاس كلام الله سبحانه بكلام خلقه، كما يدل على منزلة الأمثال النبوية الشريفة؛ فالسُّنَّة وحيٌ غير متلُوٍّ.

أغراض المثل النبوي:

تنوعت أغراض المثل النبوي الشريف ومقاصده، وقد أشار إلى ذلك طائفة من أهل العلم.

قال ابن القيم رحمه الله: «فهذه، وأمثالها من الأمثال التي ضربها رسول الله ﷺ لتقريب المراد، وتفهيم المعنى، وإيصاله إلى ذهن السامع، وإحضاره في نفسه بصورة المثال الذي مثل به، فإنه قد يكون أقرب إلى تعقله، وفهمه، وضبطه، واستحضاره له باستحضار نظيره؛ فإن النفس تأنس بالنظائر والأشباه الأُنْس التام، وتنفر من الغربة، والوحدة، وعدم النظير؛ ففي الأمثال من تأنيس النفس، وسرعة قبولها، وانقيادها لما ضرب لها مثله من الحق أمر لا يجحده أحد، ولا ينكره، وكلما ظهرت لها الأمثال ازداد المعنى ظهورًا ووضوحًا؛ فالأمثال شواهد المعنى المراد، ومزكية له، فهي: ﴿كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِ﴾ (الفتح: ٢٩)، وهي خاصة العقل، ولبُّه، وثمرته». (إعلام الموقعين ١/ ١٨٢-١٨٣).

وقال **ابن حجر**: «وفيه- حديث ابن عمر في النخلة- ضرب الأمثال والأشباه لزيادة الإفهام، وتصوير المعاني لترسخ في الذهن، ولتحديد الفكر في النظر في حكم الحادثة، وفيه

إشارة إلى أن تشبيه الشيء بالشيء لا يلزم أن يكون نظيره من جميع وجوهه؛ فإن المؤمن لا يُماثله شيء من الجمادات، ولا يُعادله». (فتح الباري ١/ ١٤٧).

وفيما يلي نماذج من أغراض المثل النبوي:

١- التشويق:

يأتي المثل النبوي للتشويق لعمل صالح، والتحفيز عليه، فقد ضرب ﷺ المثل لمن يُبكر لصلاة الجمعة بمَن يتقرب إلى الله بالهَدْي، عن أبي هريرة ﷺ، قال: قال النبي ﷺ: «إذا كان يوم الجمعة وقفت الملائكة على باب المسجد يكتبون الأَوَّل فالأَوَّل، ومثل المهجر كمثل الذي يهدي بدنة، ثم كالذي يهدي بقرة، ثم كبشًا، ثم دجاجة، ثم بيضة، فإذا خرج الإمام طَوَوْا صحفهم، ويستمعون الذكر». (أخرجه البخاري ٩٢٩، ومسلم ٨٥٠).

٢- التنفير:

وكما يأتي المثل النبوي للتشويق، فإنه يأتي للتنفير من العمل السيء، ومن ذلك ما يلي:

تمثيل الدنيا بالجدي الميت، عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما، أن رسول الله ﷺ مرَّ بالسوق داخلًا من بعض العالية والناس كنفته، فمر بجدي أسكَّ ميت، فتناوله فأخذ بأذنه، ثم قال: «أيكم يحب أن هذا له بدرهم؟» فقالوا: ما نحب أنه لنا بشيء، وما نصنع به، قال: «أتحبون أنه لكم؟» قالوا: والله لو كان حيًّا كان عيبًا فيه؛ لأنه أسكُّ، فكيف وهو ميت؟ فقال ﷺ: «فوالله لَلدنيا أهون على الله من هذا عليكم». (أخرجه مسلم ٢٩٧٥).

وتمثيل مَن يعود في هبته بالكلب يعود في قيئه، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال النبي ﷺ: «ليس لنا مثل السوء؛ الذي يعود في هبته، كالكلب يرجع في قيئه». (أخرجه البخاري ٢٦٢٢، ومسلم ١٦٢٢).

وعن ابن عمر، وابن عباس رضي الله عنهما، عن النبي ﷺ قال: «لا يحلُّ لرجل أن يُعطِي عطية، أو يهب هِبةً فيرجع فيها، إلا الوالد فيما يُعطي ولده، ومثل الذي يُعطي العطية، ثم يرجع فيها، كمثل الكلب يأكل فإذا شبع قاء، ثم عاد في قيئه». (أخرجه أبو داود ٣٥٣٩، والترمذي ٢١٣٢، والنسائي ٣٦٩٤، وابن ماجه ٢٣٨٤، وأحمد ٧٤٧٢).

وتمثيل مَن لا يذكرون الله في مجلسهم بمَن يقومون من جيفة حمار، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ما من قوم يقومون من مجلس لا يذكرون الله فيه إلا قاموا عن مثل جيفة حمار، وكان لهم حسرة». (أخرجه أبو داود ٤٨٥٥، والترمذي ٣٣٨٠).

وربط العمل السيء بالصورة المُنفِّرة له أثره البالغ على المستمع في النفور من العمل، واستحضار قبحه وشناعته.

وقد تكرَّر هذا النوع من الأمثلة في القرآن الكريم؛ فضرب الله عز وجل مثلًا لمن يتبع هواه من الذين أوتوا العلم بالكلب، قال سبحانه: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ ۚ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ۚ ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ۚ فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (الأعراف: ١٧٥ - ١٧٦).

وضرب مثلًا لمن لم يقوموا بأمانة حمل الكتاب بالحمار، فقال عز وجل: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًۢا ۚ بِئْسَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ (الجمعة: ٥).

وضرب مثلًا لمن يقع في عِرض أخيه بمن يأكل لحمه ميتًا، فقال عز وجل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱجْتَنِبُوا۟ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ ۖ وَلَا تَجَسَّسُوا۟ وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا ۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ﴾ (الحجرات: ١٢).

٣- تقريب الصورة المُجرَّدة:

من أبرز وظائف المثل النبوي: تقريب الصورة المجردة في نموذج محسوس، كما ضرب ﷺ المثل بأثر الحرص على المال والشرف على دين المرء، فعن كعب بن مالك ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «ما ذئبان جائعان أُرْسِلَا في غنم بأفسدَ لها من حرص المرء على المال والشرف لدينه». (أخرجه الترمذي ٢٣٧٦، والدارمي ٢٧٣٠، وأحمد ١٥٣٥٧).

وضرب ﷺ مثلًا بليغًا لأثر الحرص على زهرة الدنيا، عن أبي سعيد الخدري ﷺ، أن رسول الله ﷺ قام على المنبر فقال: «إنما أخشى عليكم من بعدي ما يُفتح عليكم من بركات الأرض، ثم ذكر زهرة الدنيا، فبدأ بإحداهما، وثَنَّى بالأخرى، فقام رجل، فقال: يا رسول الله أَوَيَأْتِي الخير بالشَّرِّ؟ فسكت عنه النبي ﷺ قلنا: يُوحَى إليه، وسكت الناس، كأن على رؤوسهم الطير، ثم إنه مسح عن وجهه الرُّحَضَاء، فقال: أين السائل آنفًا، أَوَخَيْرٌ هو، ثلاثًا، إن الخير لا يأتي إلا بالخير، وإنه كلما ينبت الربيع ما يقتل حبطًا، أو يُلِم إلا آكلة الخضر، كلما أكلت حتى إذا امتلأت خاصرتاها استقبلت الشمس فثلطت، وبالت، ثم رتعت، وإن هذا المال خضرة حلوة، ونعم صاحب المسلم لَمَن أخذه بحقِّه، فجعله في سبيل الله، واليتامى، والمساكين، وابن السبيل، ومَن لم يأخذه بحقه فهو كالآكل الذي لا يشبع، ويكون عليه شهيدًا يوم القيامة». (أخرجه البخاري ٢٨٤٢، ومسلم ١٠٥٢).

كما في ضربه ﷺ المثل للصلوات الخمس بالنَّهر الجاري الذي يُغتسل منه في اليوم خمس مرات.

صور الأمثال النبوية:

تنوعت صور الأمثال النبوية، وتمثلت أبرزها فيما يلي:

١- النص على وجه الشبه:

أحيانًا ينص ﷺ على وجه الشبة في المثل، ومن ذلك ما يلي:

عن أبي موسى ﷺ، عن النبي ﷺ قال: «مَثَلُ الجليس الصالح والسوء، كحامل المسك، ونافخ الكير، فحامل المسك إما أن يحذيك، وإما أن تبتاع منه، وإما أن تجد منه ريحًا طيبة، ونافخ الكير إما أن يحرق ثيابك، وإما أن تجد ريحًا خبيثة». (رواه البخاري ٥٥٣٤، ومسلم ٢٦٢٨).

كما نصَّ ﷺ على وجه الشبه، حين ضرب المثل للأنبياء في اتِّفاق عقيدتهم، واختلاف شرائعهم، عن أبي هريرة ﷺ، قال: قال رسول الله ﷺ: «أنا أَوْلَى الناس بعيسى ابن مريم في الدنيا والآخرة، والأنبياء إخوة لعلات، أُمَّهاتهم شَتَّى، ودينهم واحد». (أخرجه البخاري ٣٤٤٣، ومسلم ٢٣٦٥).

ونصَّ ﷺ على وجه الشبه حين ضرب المثل للمؤمن بالنحلة، فعن أبي رزين العقيلي، عن النبي ﷺ قال: «مثل المؤمن مثل النحلة لا تأكل إلا طيبًا، ولا تضع إلا طيبًا». (أخرجه ابن حبان ٢٤٧).

٢- ترك ذكر وجه الشبه للاستنباط:

وقد يترك ﷺ ذكر وجه الشبه لأصحابه ليستنبطوه، كما في حديث ابن عمر ﷺ في تمثيل المؤمن بالنخلة، عن مجاهد، قال: صحبت ابن عمر إلى المدينة، فلم أسمعه يُحدِّث عن رسول الله ﷺ إلا حديثًا واحدًا، قال: كُنَّا عند النبي ﷺ فأتي بجمار فقال: «إن من الشجر شجرةً، مثلها كمثل المسلم» فأردت أن أقول: هي النخلة، فإذا أنا أصغر القوم فسكت، قال النبي ﷺ: «هي النخلة». (رواه البخاري ٧٢، ومسلم ٢٨١١).

ففي هذا التمثيل شبَّه النبي ﷺ المؤمن بالنخلة دون أن يُبيِّن وجه الشبه، وقد ورد في بعض الروايات بيان وجه الشبه، ومن ذلك: ما أخرجه الطبراني في الكبير (١٣٥١٤) عن مجاهد، عن ابن عمر رضي الله عنهما، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «مثل المؤمن مثل النخلة، ما أخذت منها من شيء نفعك».

وأخرج أبو الشيخ في أمثال الحديث (٣٥٣)، والبيهقي في الشعب (٨٦٥٣) عن حميد، قال: صحبت ابن عمر من المدينة إلى مكة فحدَّثني بأحاديث، عن رسول الله ﷺ، منها: «إن المؤمن مثل النخلة، إن شاورته نفعك، وإن صاحبته نفعك، وإن شاركته نفعك، وإن جالسته نفعك، وكل شيء من المؤمن منافع، وكل شيء من النخلة منافع».

قال ابن حجر رحمه الله في بيان وجه الشبه: « قال القرطبي: فوقع التشبيه بينهما من جهة أن أصل دين المسلم ثابت، وأن ما يصدر عنه من العلوم والخير قوت للأرواح مستطاب، وأنه لا يزال مستورًا بدينه، وأنه ينتفع بكل ما يصدر عنه حيًّا وميتًا، انتهى.

وقال غيره: والمراد بكون فرع المؤمن في السماء: رفع عمله وقبوله، وروى البزار- أيضًا- من طريق سفيان بن حسين، عن أبي بشر، عن مجاهد، عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «مثل المؤمن مثل النخلة، ما أتاك منها نفعك»، هكذا أورده مختصرًا، وإسناده صحيح، وقد أفصح بالمقصود بأوجز عبارة». (فتح الباري ١/ ١٤٧).

ثم ذكر طائفة من أوجه التشبيه واستبعدها، «وأما مَن زعم أن موقع التشبيه بين المسلم والنخلة من جهة كون النخلة إذا قطع رأسها ماتت، أو لأنها لا تحمل حتى تلقح، أو لأنها تموت إذا غرقت، أو لأن لطلعها رائحة مني الآدمي، أو لأنها تعشق، أو لأنها تشرب من أعلاها، فكلها أوجه ضعيفة؛ لأن جميع ذلك من المشابهات مشترك في الآدميين، لا يختص بالمسلم، وأضعف من ذلك قول مَن زعم أن ذلك لكونها خُلقت من فضلة طين آدم؛ فإن الحديث في ذلك لم يثبت، والله أعلم». (فتح الباري ١/ ١٤٧).

٣- المقارنة بين صورتين:

وقد يقارن ﷺ في المثل بين صورتين متقابلتين، فيمثل لكل صورة بما يلائمها، ومن ذلك ما يلي:

تمثيل المؤمن بخامة الزرع، والمنافق بالأرزة، عن عبد الله بن كعب، عن أبيه، عن النبي ﷺ قال: «مثل المؤمن كالخامة من الزرع، تفيئها الريح مرة، وتعدلها مرة، ومثل المنافق كالأرزة لا تزال حتى يكون انجعافها مرة واحدة». (أخرجه البخاري ٥٦٤٣، ومسلم ٢٨١٠).

وتمثيل البخيل والمنفق، عن أبي هريرة ﷺ، قال رسول الله ﷺ: «مثل البخيل والمُنفق، كمثل رجلين عليهما جبتان من حديد من لدن ثدييهما إلى تراقيهما، فأما المُنفق فلا يُنفق شيئًا إلا مادت على جلده حتى تُجِنَّ بنانه، وتعفو أثره، وأما البخيل فلا يريد ينفق إلا لزمت كل حلقة موضعها، فهو يوسعها فلا تتسع، ويُشير بإصبعه إلى حلقه». (أخرجه البخاري ٥٢٩٩، ومسلم ١٠٢١).

كما مثَّل كُلًّا من المُنفق والآخذ باليد العليا، واليد السفلى، عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما، أن رسول الله ﷺ قال وهو على المنبر، وذكر الصدقة، والتعفف، والمسألة: «اليد العُليا خير من اليد السفلى، فاليد العُليا هي المنفقة، والسُّفلى هي السائلة». (أخرجه البخاري ١٤٢٩، ومسلم ١٠٣٣).

عن مالك بن نضلة قال: قال رسول الله ﷺ: «الأيدي ثلاثة: فيد الله العليا، ويد المُعطي التي تليها، ويد السائل السفلى، فأعطِ الفضل، ولا تعجز عن نفسك». (رواه أبو داود ١٦٤٩، وأحمد ٤٢٤٩).

تمثيل الذاكر لربه، وتارك الذكر بالحي والميت، عن أبي موسى ﷺ، قال: قال النبي ﷺ: «مثل الذي يذكر ربه، والذي لا يذكر ربه، مثل الحي والميت». (أخرجه البخاري ٦٤٠٧، ومسلم ٧٧٩).

وفي رواية لمسلم (٧٧٩) أنه ﷺ مثَّل البيت الذي يُذكر الله فيه، والبيت الذي لا يذكر الله فيه، عن أبي موسى ﷺ عن النبي ﷺ قال: «مثل البيت الذي يُذكر الله فيه، والبيت الذي لا يُذكَر الله فيه، مثل الحي والميت».

وقد يُقارن بين أكثر من صورتين، كما في تمثيل كل من المؤمن والمنافق الذي يقرأ القرآن، والذي لا يقرؤه، عن أبي موسى الأشعري قال: قال رسول الله ﷺ: «مثل المؤمن الذي يقرأ القرآن كمثل الأُتْرُجَّة، ريحها طيب وطعمها طيب، ومثل المؤمن الذي لا يقرأ القرآن كمثل التمرة، لا ريح لها وطعمها حلو، ومثل المنافق الذي يقرأ القرآن مثل الريحانة، ريحها طيب، وطعمها مر، ومثل المنافق الذي لا يقرأ القرآن كمثل الحنظلة ليس لها ريح، وطعمها مر». (أخرجه البخاري ٥٤٢٧، ومسلم ٧٩٧).

٤- التمثيل لصورة واحدة:

وقد يُمثِّل ﷺ لصورة واحدة، كما مثَّل المريض بعد بُرْئِه بالبَرَد ينزل من السماء، عن أنس بن مالك ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «إنما مثل المريض إذا بَرأ وصَحَّ كالبردة تقع من السماء في صفائها ولونها». (أخرجه الترمذي ٢٠٨٦).

٥- التمثيل لصور متعددة:

وقد يأتي التمثيل لأكثر من صورة، كما في تمثيله حال الناس في انتفاعهم بالوحي، عن أبي موسى ﷺ، عن النبي ﷺ قال: «مثل ما بعثني الله به من الهُدَى والعلم، كمثل الغيث الكثير أصاب أرضًا، فكان منها نقية، قبلت الماء؛ فأنبتت الكلأ والعشب الكثير، وكانت منها أجادب، أمسكت الماء؛ فنفع الله بها الناس، فشربوا، وسقوا، وزرعوا، وأصابت منها طائفة أُخرى، إنما هي قيعان لا تمسك ماءً، ولا تنبت كلأً، فذلك مثل مَن فَقِهَ في دين الله، ونفعه ما بعثني الله به فعَلِمَ وعَلَّم، ومثل مَن لم يرفع بذلك رأسًا، ولم يقبل هُدَى الله الذي

أُرسلت به»، قال أبو عبد الله: قال إسحاق: وكان منها طائفة قبلت الماء، قاع يعلوه الماء، والصفصف المستوي من الأرض. (أخرجه البخاري ٧٩، ومسلم ٢٢٨٢).

٦- التمثيل بشيء مادي:

وقد يُمثل ﷺ بشيء مادي محسوس، كما مثل المؤمن قاريء القرآن بالأترجة، والمنافق بالحنظلة، ومثل المؤمن بالنخلة، ومثل المنافق بالشاة العائرة بين الغنمين، وهذا كثير في الأمثلة النبوية.

٧- التمثيل بصورة رمزية:

وكما يُمثل ﷺ بصور محسوسة- كما سبق- فقد يُمثل بصورة رمزية، عن المستورد ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «والله ما الدنيا في الآخرة إلا مثل ما يجعل أحدكم إصبعه هذه- وأشار يحيى بالسبابة- في اليمِّ، فلينظر بِمَ ترجع؟». (أخرجه مسلم ٢٨٥٨).

٨- التمثيل بقصة خيالية:

وربما مثَّل ﷺ بصورة خيالية، كما في حديث القائم على حدود الله والواقع فيها، عن النعمان بن بشير رضي الله عنهما، عن النبي ﷺ قال: «مثل القائم على حدود الله، والواقع فيها، كمثل قوم استهموا على سفينة، فأصاب بعضهم أعلاها، وبعضهم أسفلها، فكان الذين في أسفلها إذا استقوا من الماء مرُّوا على مَن فوقهم، فقالوا: لو أنَّا خرقنا في نصيبنا خرقًا ولم نُؤذِ مَن فوقنا، فإن يتركوهم وما أرادوا؛ هلكوا جميعًا، وإن أخذوا على أيديهم نجوا، ونجوا جميعًا. (أخرجه البخاري ٢٤٩٣).

ومثَّل ﷺ لفرح الله عز وجل بتوبة عبده بقصة رجل وجد راحلته في أرض فلاة بعد أن يئس منها، عن سماك، قال: خطب النعمان بن بشير رضي الله عنهما فقال: «للهُ أشد فرحًا بتوبة عبده من رجل حمل زاده ومزاده على بعير، ثم سار حتى كان بفلاة من الأرض، فأدركته

القائلة، فنزل، فقال تحت شجرة، فغلبته عينه، وانسلَّ بعيره، فاستيقظ فسعى شرفًا فلم يَرَ شيئًا، ثم سعى شرفًا ثانيًا فلم يَرَ شيئًا، ثم سعى شرفًا ثالثًا فلم يَرَ شيئًا، فأقبل حتى أتى مكانه الذي قال فيه، فبينما هو قاعد إذ جاءه بعيره يمشي، حتى وضع خطامه في يده، فَلَلَّهُ أشد فرحًا بتوبة العبد، من هذا حين وجد بعيره على حاله»، قال سماك: فزعم الشعبي، أن النعمان رفع هذا الحديث إلى النبي ﷺ، وأما أنا فلم أسمعه. (أخرجه مسلم ٢٧٤٥).

وعن البراء بن عازب ﷺ، قال: قال رسول الله ﷺ: «كيف تقولون بفرح رجل انفلتت منه راحلته، تجر زمامها بأرض قفر ليس بها طعام ولا شراب، وعليها له طعام وشراب، فطلبها حتى شقَّ عليه، ثم مرَّت بجذل شجرة فتعلق زمامها، فوجدها متعلقة به؟»، قلنا: شديدًا، يا رسول الله فقال رسول الله ﷺ: «أما والله، للهُ أشد فرحًا بتوبة عبده، من الرجل براحلته». (أخرجه مسلم ٢٧٤٦).

وعن الحارث بن سويد، حدثنا عبد الله بن مسعود حديثين: أحدهما عن النبي ﷺ، والآخر عن نفسه، قال: «إن المؤمن يرى ذنوبه كأنه قاعد تحت جبل يخاف أن يقع عليه، وإن الفاجر يرى ذنوبه كذباب مَرَّ على أنفه»، فقال به هكذا، قال أبو شهاب: بيده فوق أنفه، ثم قال: «للهُ أفرح بتوبة عبده من رجل نزل منزلًا وبه مهلكة، ومعه راحلته، عليها طعامه وشرابه، فوضع رأسه فنام نومة، فاستيقظ وقد ذهبت راحلته، حتى إذا اشتد عليه الحر والعطش، أو ما شاء الله، قال: أرجع إلى مكاني، فرجع فنام نومة، ثم رفع رأسه، فإذا راحلته عنده». (أخرجه البخاري ٦٣٠٨، ومسلم ٢٧٤٤).

موضوعات الأمثال النبوية:

تنوعت موضوعات الأمثال النبوية، واستخدم النبي ﷺ المثل في كافة مجالات حديثه، ومن ذلك ما يلي:

١- العقائد:

استخدم النبي ﷺ المثل في أمور العقائد، ومن ذلك: حديثه عن رؤية المؤمنين لربهم يوم القيامة، فقرَّب لهم المعنى الغيبي بصورة محسوسة يعايشونها، عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، أن أُناسًا في زمن النبي ﷺ قالوا: يا رسول الله، هل نرى ربنا يوم القيامة؟ قال النبي ﷺ: «نعم، هل تُضَارُّونَ في رؤية الشمس بالظهيرة ضوء ليس فيها سحاب؟» قالوا: لا، قال: «وهل تُضَارُّونَ في رؤية القمر ليلة البدر ضوء ليس فيها سحاب؟» قالوا: لا، قال النبي ﷺ: «ما تُضَارُّونَ في رؤية الله عز وجل يوم القيامة إلا كما تُضَارُّونَ في رؤية أحدهما» (أخرجه البخاري ٤٥٨١، ومسلم ١٨٢).

كما ضرب ﷺ المثل في تصوير خفاء الشِّرك ودقته، فعن معقل بن يسار رضي الله عنه قال: انطلقت مع أبي بكر الصديق رضي الله عنه إلى النبي ﷺ، فقال: «يا أبا بكر، لَلشِّرْكُ فيكم أخفى من دبيب النمل»، فقال أبو بكر: وهل الشِّرك إلا من جعل مع الله إلهًا آخر؟ فقال النبي ﷺ: «والذي نفسي بيده، لَلشِّرْكُ أخفى من دبيب النمل، ألا أدلك على شيء إذا قلته ذهب عنك قليله وكثيره؟» قال: «قل: اللهم إني أعوذ بك أن أشرك بك وأنا أعلم، وأستغفرك لما لا أعلم». (أخرجه البخاري في الأدب المفرد ٧١٦).

٢- بيان فضائل العبادات:

واستخدم النبي ﷺ المثل في بيان فضائل العبادات، ومن ذلك: تمثيله الصلوات الخمس بالنَّهر الجاري، عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «أرأيتم لو أن نهرًا بباب أحدكم يغتسل فيه كل يوم خمسًا، ما تقول: ذلك يُبقي من درنه؟» قالوا: لا يُبقي من درنه شيئًا، قال: «فذلك مثل الصلوات الخمس، يمحو الله به الخطايا». (أخرجه البخاري ٥٢٨، ومسلم ٦٦٧).

وأخرجه مسلم (٦٦٨) من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «مثل الصلوات الخمس كمثل نَهر جارٍ غمر على باب أحدكم يغتسل منه كل يوم خمس مرات» قال: قال الحسن: «وما يُبقي ذلك من الدرن؟».

وعن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه قال: كان رجلان أخوان فهلك أحدهما قبل صاحبه بأربعين ليلة، فذكرت فضيلة الأول عند رسول الله ﷺ فقال: ألم يكن الآخر مسلماً؟ قالوا: بلى يا رسول الله، وكان لا بأس به، فقال رسول الله ﷺ: وما يُدريكم ما بلغت به صلاته، إنما مثل الصلاة كمثل نهر غمر عذب بباب أحدكم، يقتحم فيه كل يوم خمس مرات، فما ترون ذلك يبقي من درنه، فإنكم لا تدرون ما بلغت به صلاته». (أخرجه مالك في الموطأ: كتاب النداء للصلاة).

كما ضرب المثل ﷺ لأصحابه حين سألوه عن فضل الجهاد في سبيل الله، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قيل للنبي ﷺ: ما يعدل الجهاد في سبيل الله عز وجل؟ قال: «لا تستطيعونه»، قال: فأعادوا عليه مرتين أو ثلاثًا، كل ذلك يقول: «لا تستطيعونه»، وقال في الثالثة: «مثل المجاهد في سبيل الله كمثل الصائم القائم القانت بآيات الله، لا يفتر من صيام، ولا صلاة حتى يرجع المجاهد في سبيل الله تعالى». (أخرجه البخاري ٢٧٨٧، ومسلم ١٨٧٨، واللفظ له).

٣- بيان أحكام العبادات:

وضرب ﷺ المثل في بيان أحكام العبادات، فعن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما، أنه رأى عبد الله بن الحارث يُصلِّي، ورأسه معقوص من ورائه، فقام فجعل يحلُّه، فلما انصرف أقبل إلى ابن عباس فقال: ما لك ورأسي؟ فقال: إني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إنما مثل هذا مثل الذي يُصلِّي، وهو مكتوف». (أخرجه مسلم ٤٩٢).

٤- الأخلاق والسلوك:

واستخدم ﷺ المثل في باب الأخلاق والسلوك، فضرب المثل لمن يصل من قطعه من ذوي رحمه وقرابته، فعن أبي هريرة ﷺ، أن رجلًا قال: يا رسول الله، إن لي قرابة أَصِلُهُم ويقطعوني، وأحسن إليهم، ويُسيئون إليَّ، وأَحْلُم عنهم، ويجهلون عليَّ، فقال: «لئن كنت كما قلت، فكأنما تسفهم المَلَّ، ولا يزال معك من الله ظهير عليهم ما دمت على ذلك». (أخرجه مسلم ٢٥٥٨).

وضرب ﷺ المثل لمساوئ الأخلاق، فعن الزبير بن العوام ﷺ، أن رسول الله ﷺ قال: «دبَّ إليكم داء الأُمَم قبلكم: الحسد والبغضاء، والبغضاء: هي الحالقة، لا أقول: تحلق الشعر، ولكن تحلق الدين، والذي نفسي بيده- أو والذي نفس محمد بيده- لا تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا، ولا تؤمنوا حتى تحابُّوا، أفلا أُنبئكم بما يثبت ذلك لكم؟ أفشوا السلام بينكم». (أخرجه أحمد ١٤٣٠، والترمذي ٢٥١٠).

لمن يضرب المثل؟

وكما تنوعت الأمثال النبوية في صورها وموضوعاتها، فقد تنوعت فيمن يُضرب له المثل، ومن ذلك ما يلي:

١- نفسه الشريفة ﷺ:

ضرب ﷺ المثل لنفسه الشريفة، فضرب لنفسه مثلًا في حاله في مُجاهدة قومه ودعوتهم، فعن جابر ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «مثلي ومثلكم، كمثل رجل أوقد نارًا فجعل الجنادب والفراش يقعن فيها، وهو يذبُّهن عنها، وأنا آخذ بِحُجَزِكُم عن النار، وأنتم تفلتون من يدي». (أخرجه مسلم ٢٢٨٥، والبخاري ٤٣٨٣ عن أبي هريرة).

كما ضرب ﷺ المثل لنفسه في دعوته لقومه وإنذارهم، فعن قبيصة بن المخارق، وزهير بن عمرو رضي الله عنهما، قالا: لما نزلت: ﴿وَأَنذِرۡ عَشِيرَتَكَ ٱلۡأَقۡرَبِينَ﴾ قال: انطلق نبي الله ﷺ إلى رَضْمَة من جبل فعلا أعلاها حجرًا، ثم نادى: «يا بني عبد منافاه، إني نذير، إنما مثلي ومثلكم كمثل رجل رأى العدو فانطلق يربأ أهله، فخشي أن يسبقوه فجعل يهتف: يا صباحاه». (أخرجه مسلم ٢٠٧).

وعن أبي موسى رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «مثلي ومثل ما بعثني الله، كمثل رجل أتى قومًا فقال: رأيت الجيش بعيني، وإني أنا النذير العريان، فالنجاء النجاء، فأطاعته طائفة فأَدْلجوا على مهلهم فنجوا، وكذَّبته طائفة فصبَّحهم الجيش فاجتاحهم». (أخرجه البخاري٦٤٨٢، ومسلم ٢٢٨٣).

وضرب ﷺ لنفسه المثل في بيان حاله مع إخوانه الأنبياء، عن أبي هريرة رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «إن مثلي ومثل الأنبياء من قبلي كمثل رجل بنى بيتًا، فأحسنه وأجمله، إلا موضع لبنة من زاوية فجعل الناس يطوفون به، ويُعجبون له، ويقولون: هلَّا وُضعت هذه اللبنة، قال: فأنا اللبنة، وأنا خاتم النبيين». (أخرجه البخاري ٣٥٣٥، ومسلم ٢٢٨٦).

٢- للمؤمنين:

وضرب ﷺ المثل للمؤمنين في حالهم مع إخوانهم، عن النعمان بن بشير رضي الله عنهما، قال: قال رسول الله ﷺ: مثل المؤمنين في توادِّهم، وتراحمهم، وتعاطفهم مثل الجسد، إذا اشتكى منه عضو؛ تداعى له سائر الجسد بالسهر والحُمَّى». (أخرجه البخاري ٦٠١١، ومسلم ٢٥٨٦، واللفظ له).

وضرب ﷺ للمؤمنين مثلًا آخر، فعن أبي موسى رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «إن المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضًا»، وشبك أصابعه. (أخرجه البخاري ٤٨١، ومسلم ٢٥٨٥).

٣- للمنافقين والعصاة:

وضرب ﷺ المثل للمنافق بالشاة العائرة، عن ابن عمر رضي الله عنهما، عن النبي ﷺ قال: «مثل المنافق كمثل الشاة العائرة بين الغنمين، تعير إلى هذه مرة، وإلى هذه مرة». (أخرجه مسلم ٢٧٨٤).

كما ضرب ﷺ المثل لمن تتبرج بزينتها، فعن ميمونة بنت سعد- وكانت خادمًا للنبي ﷺ- قالت: قال رسول الله ﷺ: «مثل الرَّافلة في الزينة في غير أهلها، كمثل ظلمة يوم القيامة لا نور لها». (أخرجه الترمذي ١١٦٧).

٤ - للأُمَّة:

وضرب ﷺالمثل لأُمَّته مشبهًا لها بالغيث، فعن أنس رضي الله عنهقال: قال رسول الله ﷺ: «مثل أمتي مثل المطر لا يُدرى أوله خير، أم آخره». (أخرجه الترمذي ٢٨٦٩، وأحمد ١٢٣٢٧).

كما ضرب ﷺ لأمته المثل في بيان فضلها على أهل الكتاب، عن أبي موسى رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «مثل المسلمين، واليهود، والنصارى كمثل رجل استأجر قومًا يعملون له عملًا يومًا إلى الليل على أجر معلوم، فعملوا له إلى نصف النهار، فقالوا: لا حاجة لنا إلى أجرك الذي شرطت لنا، وما عملنا باطل، فقال لهم: لا تفعلوا، أكملوا بقية عملكم، وخذوا أجركم كاملًا، فأبوا وتركوا، واستأجر أجيرين بعدهم فقال لهما: أكملا بقية يومكما هذا، ولكما الذي شرطت لهم من الأجر، فعملوا حتى إذا كان حين صلاة العصر قالا له: ما عملنا باطل، ولك الأجر الذي جعلت لنا فيه، فقال لهما: أكملا بقية عملكما ما بقي من النهار شيء يسير فأبيا، واستأجر قومًا أن يعملوا له بقية يومهم، فعملوا بقية يومهم حتى غابت الشمس، واستكملوا أجر الفريقين كليهما، فذلك مثلهم، ومثل ما قبلوا من هذا النور». (أخرجه البخاري ٢٢٧١) .

وعن ابن عمر رضي الله عنهما، عن النبي ﷺ قال: «مثلكم ومثل أهل الكتابين كمثل رجل استأجر أُجَرَاء، فقال: مَن يعمل لي من غدوة إلى نصف النهار على قيراط، فعملت اليهود، ثم قال: مَن يعمل لي من نصف النهار إلى صلاة العصر على قيراط، فعملت النصارى، ثم قال: مَن يعمل لي من العصر إلى أن تغيب الشمس على قيراطين، فأنتم هم، فغضبت اليهود والنصارى، فقالوا: ما لنا أكثر عملًا، وأقل عطاءً؟ قال: هل نقصتكم من حقكم؟ قالوا: لا، قال: فذلك فضلي أوتيه مَن أشاء». (أخرجه البخاري ٢٢٦٨).

٥- للعمل الصالح:

وضرب ﷺ المثل للعمل الصالح، فشبه تعاهد القرآن بتعاهد صاحب الإبل إبله، عن ابن عمر رضي الله عنهما، أن رسول الله ﷺ قال: «إنما مثل صاحب القرآن كمثل صاحب الإبل المعقلة، إن عاهد عليها أمسكها، وإن أطلقها ذهبت». (أخرجه البخاري ٥٠٣١، ومسلم ٧٨٩).

وضرب ﷺ المثل لمضاعفة الصدقة بمن يُربِّي المهر الصغير من الخيل، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «مَن تصدق بعدل تمرة من كسب طيب- ولا يقبل الله إلا الطيب-، وإن الله يتقبلها بيمينه، ثم يربيها لصاحبه، كما يُربِّي أحدكم فُلُوَّه، حتى تكون مثل الجبل». (أخرجه البخاري ١٤١٠، ومسلم ١٠١٤).

وفي رواية مسلم: « كما يُربِّي أحدكم فُلُوَّه، أو فصيله».

وربما شبَّه ﷺ عملًا صالحًا بآخر صالح، عن عقبة بن عامر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «الجاهر بالقرآن كالجاهر بالصدقة، والمُسرُّ بالقرآن كالمُسرِّ بالصدقة». (أخرجه أحمد ١٧٣٦٨، وأبو داود ١٣٣٣، والترمذي ٢٩١٩، والنسائي ٢٥٦١).

قال الترمذي: «ومعنى هذا الحديث: أن الذي يُسِرُّ بقراءة القرآن أفضل من الذي يجهر بقراءة القرآن؛ لأن صدقة السِّرِّ أفضل عند أهل العلم من صدقة العلانية، وإنما معنى هذا عند أهل العلم لكي يأمن الرجل من العُجب؛ لأن الذي يُسِرُّ العمل لا يُخاف عليه العُجْب ما يخاف عليه من علانيته».

٦- للعمل غير الصالح:

وضرب ﷺ المثل للعمل السيء تنفيرًا منه، ومن ذلك: ضربه المثل لمن يرجع في هبته، فعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال النبي ﷺ: «العائد في هبته، كالكلب يعود في قيئه، ليس لنا مثل السوء». (أخرجه البخاري ٦٩٧٥، ومسلم ١٦٢٢).

وعن عمر رضي الله عنه أنه حمل على فرس في سبيل الله، فوجده عند صاحبه، وقد أضاعه، وكان قليل المال، فأراد أن يشتريه، فأتى رسول الله ﷺ فذكر ذلك له، فقال: «لا تَشْتَرِه، وإن أُعطيته بدرهم؛ فإن مثل العائد في صدقته كمثل الكلب يعود في قيئه». (أخرجه البخاري ١٤٩٠، ومسلم ١٦٢٠، واللفظ له).

وضرب ﷺ المثل لمن يعتق عند موته، فعن أبي إسحاق، عن أبي حبيبة الطائي قال: أوصى إليَّ أخي بطائفة من ماله، فلقيت أبا الدرداء فقلت: إن أخي أوصى إليَّ بطائفة من ماله، فأين ترى لي وضعه؟ في الفقراء أو المساكين؟ أو المجاهدين في سبيل الله؟ فقال: أما أنا فلو كنت لم أعدل بالمجاهدين، سمعت رسول الله ﷺ يقول: «مثل الذي يعتق عند الموت كمثل الذي يهدي إذا شبع». (أخرجه الترمذي ٢١٢٣، والنسائي ٣٦١٤، وأبو داود ٣٩٦٨، وأحمد ٢١٧١٩).

٧- لحال الناس:

وضرب ﷺ المثل لبيان حال الناس، وقِلَّة مَن هو أهل لقيادتهم، فعن عبد الله بن

عمر رضي الله عنهما قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إنما الناس كالإبل المائة، لا تكاد تجد فيها راحلة». (أخرجه البخاري ٦٤٩٨، ومسلم ٢٥٤٧).

عن النواس بن سمعان الكلابي قال: قال رسول الله ﷺ إن الله ضرب مثلًا صراطًا مستقيمًا، على كنفي الصراط داران لهما أبواب مُفتحة، على الأبواب ستور، وداع يدعو على رأس الصراط، وداع يدعو فوقه: ﴿وَٱللَّهُ يَدۡعُوٓاْ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾، والأبواب التي على كنفي الصراط حدود الله، فلا يقع أحد في حدود الله حتى يكشف السِّتر، والذي يدعو من فوقه واعظ ربه. (رواه الترمذي ٢٨٥٩، ورواه أحمد ١٧٦٣٦ بلفظ «سوران»).

عن جابر بن عبد الله الأنصاري قال: خرج علينا رسول الله ﷺ يومًا فقال: إني رأيت في المنام كأن جبريل عند رأسي، وميكائيل عند رجلي يقول أحدهما لصاحبه: اضرب له مثلًا، فقال: اسمع، سمعت أذنك، واعقل، عقل قلبك، إنما مثلك ومثل أُمَّتك كمثل ملك اتَّخذ دارًا، ثم بنى فيها بيتًا، ثم جعل فيها مائدة، ثم بعث رسولًا يدعو الناس إلى طعامه، فمنهم مَن أجاب الرسول، ومنهم مَن تركه، فالله هو الملك، والدار: الإسلام، والبيت: الجنة، وأنت يا محمد رسول، فمن أجابك، دخل الإسلام، ومن دخل الإسلام؛ دخل الجنة، ومن دخل الجنة؛ أَكَلَ ما فيها. (رواه الترمذي ٢٨٦٠)، وقال: وقد روي هذا الحديث من غير وجه عن النبي ﷺ بإسناد أصح من هذا، قال أبو عيسى: هذا حديث مرسل، سعيد بن أبي هلال لم يدرك جابر بن عبد الله، وفي الباب عن ابن مسعود.

عن سبرة بن أبي فاكه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: إن الشيطان قعد لابن آدم بأَطْرُقِهِ، فقعد له بطريق الإسلام، فقال: تسلم وتذر دينك، ودين آبائك، وآباء أبيك، فعصاه فأسلم، ثم قعد له بطريق الهجرة، فقال: تُهاجر، وتدع أرضك وسماءك، وإنما مثل المهاجر كمثل الفرس في الطول، فعصاه، فهاجر، ثم قعد له بطريق الجهاد فقال: تُجاهد

فهو جهد النفس، والمال فتقاتل، فتُقتل، فتُنكح المرأة، ويُقسَّم المال، فعصاه، فجاهد، فقال رسول الله ﷺ: فمن فعل ذلك؛ كان حقًّا على الله عز وجل أن يدخله الجنة، ومن قُتِلَ كان حقًّا على الله عز وجل أن يدخله الجنة، وإن غرق كان حقًّا على الله أن يدخله الجنة، أو وقصته دابته كان حقًّا على الله أن يدخله الجنة. (رواه النسائي ٣١٣٤).

عن أبي موسى الأشعري قال: قال رسول الله ﷺ: مثل القلب مثل الريشة، تقلبها الرياح بفلاة. (رواه أحمد ١٩٦٦١، وابن ماجه ٨٨، واللفظ لابن ماجه).

الثواب والمكافأة

تميل النفس البشرية إلى الثواب والمكافأة، وتُحب سماع الثناء من الآخرين.

ومَن تأمل القرآن الكريم وجد الثناء والثواب أمرًا بارزًا ومُتكرِّرًا؛ فكثيرًا ما يأتي الثناء على المؤمنين والمُتَّقين، وسرد طائفة من صفاتهم وأعمالهم.

وكثيرًا ما يأتي الحديث عن الثواب والجزاء الأُخْرَوِي: بالمغفرة وتكفير السيئات، ودخول الجنة، وألوان نعيم الجنة، والنجاة من النار... إلخ.

وقد يأتي ربط الثواب الدُّنْيَوِي بالعمل الصالح، فبيَّن الله عز وجل أن العمل بكتابه سبب للرخاء في المجتمعات، فقال سبحانه: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأَدْخَلْنَاهُمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴿٦٥﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ﴾ (المائدة: ٦٥ - ٦٦).

والأمر ليس قاصرًا على أهل الكتاب، بل هو عام لأهل القُرَى كلهم، قال عز وجل: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ (الأعراف: ٩٦).

وبيَّن الله عز وجل أن الأنبياء السابقين كانوا يَعِدُون قومهم بالرخاء، ورغد العيش إن هم آمنوا، فقد جاء على لسان أوَّل الرُّسل عليه الصلاة والسلام قوله: ﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَارًا﴾ (نوح: ١٠ - ١٢).

وقال هود عليه السلام لقومه: ﴿وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ﴾ (هود: ٥٢).

وفي ذلك كله دليل على أن الثواب والمكافأة لها أثرها في تقويم النفس الإنسانية وإصلاحها؛ لذا كان محمد ﷺ كثيرًا ما يستخدم هذه الوسيلة.

والسُّنَّة والسِّيرة النبوية حافلة بالشواهد والمواقف التي يستخدم فيها ﷺ الثناء والمكافأة في تربية أصحابه وأُمَّته.

فكثير من التوجيهات القولية يربط فيها ﷺ العمل بالثواب والجزاء الأُخْرَوِي، وقد يربط العمل الصالح بالثواب الدنيوي العاجل، عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «مَن سَرَّه أن يُبسط له في رزقه، أو يُنسأ له في أثره، فلْيَصِلْ رَحِمَهُ». (أخرجه البخاري ٢٠٦٧، ومسلم ٢٥٥٧).

وقد تنوعت أساليب الثواب والمكافأة النبوية: ما بين دعاء، وثناء، ومكافأة مادية، كما تنوعت في مواقفها، وتنوعت في المستهدفين بها ما بين فرد، أو قبيلة، أو من أحسن في عمل أخروي، أو دنيوي.

وفيما يلي طائفة من مواقف الثواب النبوي:

الدعاء:

دعوة النبي ﷺ مُستجابة، وهي من أهم وأثمن ما ينتظره أصحاب النبي ﷺ فكانوا يسألونه ﷺ الدعاء، ويتعرضون للمواقف التي تكون سببًا في تحصيل دعائه ﷺ، بل إنهم ربما يغبطون مَن حاز الدعاء النبوي، ولو كان الموقف مما يكرهه الناس، عن عوف بن مالك رضي الله عنه قال: صلَّى رسول الله ﷺ على جنازة، فحفظت من دعائه، وهو يقول: «اللهم اغفر له وارحمه، وعافِهِ واعْفُ عنه، وأكرم نزله، ووسع مُدْخَلَه، واغسله بالماء والثلج والبَرَد، ونقِّهِ من الخطايا كما نقَّيْت الثوب الأبيض من الدَّنَس، وأبدله دارًا خيرًا من داره، وأهلًا خيرًا من أهله، وزوجًا خيرًا من زوجه، وأدخله الجنة، وأَعِذْهُ من عذاب القبر- أو

من عذاب النار-» قال: حتى تمنيت أن أكون أنا ذلك الميت. (أخرجه مسلم ٩٦٣).

لذا كان ﷺ كثيرًا ما يُثيب أصحابه بالدعاء حين يحسنون، فيدعو لمن بادر منهم بالعمل، عن ابن عباس رضي الله عنهما، أن النبي ﷺ دخل الخلاء، فوضعت له وَضُوءًا قال: «مَن وضع هذا؟ فأُخْبر فقال: اللهم فَقِّهْهُ في الدين». (أخرجه البخاري ١٤٣، ومسلم ٢٤٧٧).

وحين اجتهد عروة بن أبي الجعد رضي الله عنه بمبادرة منه، دعا له ﷺ؛ فعن عروة بن أبي الجعد البارقي قال: عرض للنبي ﷺ جلب، فأعطاني دينارًا، وقال: «أي عروة، ائْتِ الجَلَب، فاشتر لنا شاة»، فأتيت الجَلَب، فساومت صاحبه، فاشتريت منه شاتين بدينار، فجئت أسوقهما- أو قال: أقودهما-، فلقيني رجل، فساومني، فأبيعه شاة بدينار، فجئت بالدينار، وجئته بالشاة، فقلت: يا رسول الله، هذا ديناركم، وهذه شاتكم، قال: «وصنعت كيف؟» قال: فحدَّثْتُه الحديث، فقال: «اللهم بارك له في صفقة يمينه»، فلقد رأيتني أقف بكناسة الكوفة، فأربح أربعين ألفًا قبل أن أصل إلى أهلي، وكان يشتري الجواري ويبيع. (أخرجه أحمد ١٩٣٦٢، وأبو داود ٣٣٨٤، والترمذي ١٢٥٨، وابن ماجه ٢٤٠٢).

وأخرجه البخاري (٣٦٤٢) عن عروة، أن النبي ﷺ أعطاه دينارًا يشتري له به شاة، فاشترى له به شاتين، فباع إحدهما بدينار، وجاء بدينار وشاه؛ فدعا له بالبركة في بيته، وكان لو اشترى التراب لربح فيه.

وحين بادر سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه بحراسته ﷺ دعا له، فعن عائشة رضي الله عنها قالت: سهر رسول الله ﷺ مقدمه المدينة ليلة، فقال: «ليت رجلًا صالحًا من أصحابي يحرسني الليلة» قالت: فبينا نحن كذلك سمعنا خَشْخَشَة سلاح، فقال: «مَن هذا؟» قال: سعد بن أبي وقاص. فقال له رسول الله ﷺ: «ما جاء بك؟» قال: وقع في نفسي خوف على رسول الله ﷺ فجئت أحرسه، فدعا له رسول الله ﷺ ثم نام. (أخرجه البخاري ٢٨٨٥، ومسلم

٢٤١٠، واللفظ لمسلم).

وحين يُوصي أحدهم بمهمة فيؤديها؛ يدعو له ﷺ، وهذا كثير في سيرته، فعن قيس، عن جرير بن عبد الله قال: كان في الجاهلية بيت يُقال له: ذو الخَلَصَة، وكان يُقال له: الكعبة اليمانية، أو الكعبة الشأمية، فقال لي رسول الله ﷺ: «هل أنت مريحي من ذي الخلصة؟» قال: فنفرت إليه في خمسين ومائة فارس من أَحْمَس، قال: فكسرنا وقتلنا مَن وجدنا عنده، فأتيناه فأخبرناه، فدعا لنا ولِأَحْمَس. (أخرجه البخاري ٣٨٢٣، ومسلم ٢٤٧٦).

كما يدعو ﷺ لمن أثنى عليه بما هو أهله، مدح عبد الله بن رواحة ﷺ رسول الله ﷺ قائلًا:

إنِّي تَفَرَّسْتُ فِيكَ الخَيْرَ أَعْرِفُه ... واللهُ يَعْلَمُ أَن ما خَانَنِي البَصَرُ
أَنْتَ النَّبِيُّ وَمَنْ يُحرَمْ شَفَاعَتَهُ ... يَوْمَ الحِسَابِ فَقَدْ أَزْرَى بِهِ القَدَرُ
فثبَّتَ اللهُ ما آتاكَ مِن حَسَنٍ ... تَثْبِيتَ مُوسَى وَنَصْرًا كَالَّذِي نَصَرُوا

فقال له النبي: وأنت، فثبَّتك الله يا ابن رواحة. (أسد الغابة في معرفة الصحابة، ص ٦٦٦).

المكافأة المادية:

وكان ﷺ يُحفِّز أصحابه بالمال، والمكافأة المادية؛ فعن إياس بن سلمة، حدثني أبي، قال: قَدِمْنَا الحديبية مع رسول الله ﷺ ونحن أربع عشرة مائة...، فلما أصبحنا قال رسول الله ﷺ: «كان خير فرساننا اليوم أبو قتادة، وخير رجالتنا سلمة»، قال: ثم أعطاني رسول الله ﷺ سهمين: سهم الفارس، وسهم الرَّاجل، فجمعهما لي جميعًا، ثم أردفني رسول الله ﷺ وراءه على العَضْبَاء راجعين إلى المدينة... (أخرجه مسلم ١٨٠٧).

وتكرَّر الأمر في موقف آخر مع سلمة ﷺ فعن سلمة بن الأكوع ﷺ قال: «غزونا مع رسول الله ﷺ هوازن، فبينا نحن نتضحَّى مع رسول الله ﷺ إذ جاء رجل على جمل أحمر، فأناخه، ثم انتزع طلقًا من حقبه، فقيَّد به الجمل، ثم تقدم يتغدَّى مع القوم، وجعل ينظر، وفينا ضعفة، ورقة في الظهر، وبعضنا مشاة، إذ خرج يشتد، فأتى جمَلَه فأطلق قيده، ثم أناخه، وقعد عليه، فأثاره، فاشتد به الجمل، فاتبعه رجل على ناقة ورقاء، قال سلمة: وخرجت أشتد، فكنت عند ورك الناقة، ثم تقدمت حتى كنت عند ورك الجمل، ثم تقدمت حتى أخذت بخطام الجمل، فأنخته، فلما وضع ركبته في الأرض اخترطت سيفي، فضربت رأس الرجل فندر، ثم جئت بالجمل أقوده عليه رحله وسلاحه، فاستقبلني رسول الله ﷺ والناس معه، فقال: «مَن قتل الرجل؟» قالوا: ابن الأكوع، قال: «له سلبه أجمع». (أخرجه مسلم ١٧٥٤، وأخرجه البخاري ٣٠٥١ مختصرًا).

الثناء:

الثناء أمر مُحبَّب للنفس؛ فهو يُشعرها بالإنجاز وبقيمتها، وحين يكون من الكبار فشأنه أعظم، أما حين يكون من النبي ﷺ فهذا لا يعدله شيء؛ فهو تزكية لصاحبه، وتصويب لعمله، ومنقبة له.

ومَن تأمل في أبواب المناقب في كُتب السُّنَّة وجد المواقف العديدة من ثنائه ﷺ على أصحابه، أفرادًا وجماعات، فحين سأله أبو هريرة ﷺ سؤالًا، أثنى عليه، وعلى حرصه على السؤال، عن أبي هريرة ﷺ أنه قال: قلت: يا رسول الله، مَن أسعد الناس بشفاعتك يوم القيامة؟ فقال: «لقد ظننت يا أبا هريرة أن لا يسألني عن هذا الحديث أحد أَوَّلُ منك؛ لِمَا رأيت من حرصك على الحديث، أسعد الناس بشفاعتي يوم القيامة مَن قال: لا إله إلا الله، خالصًا من قبل نفسه». (أخرجه البخاري ٦٥٧٠).

ويُثني ﷺ على القبائل حين يَرَى منهم عملًا حسنًا؛ فقد أثنى على الأشعريين، فعن أبي موسى ﵁ قال: قال النبي ﷺ: «إن الأشعريين إذا أرملوا في الغزو، أو قل طعام عيالهم بالمدينة؛ جمعوا ما كان عندهم في ثوب واحد ثم اقتسموه بينهم في إناء واحد بالسوية، فهم مِنِّي، وأنا منهم». (أخرجه البخاري ٢٤٨٦، ومسلم ٢٥٠٠).

كما كان ﷺ يُثني على مَن رأى منهم صفة وخلقًا حسنًا؛ فقد أثنى على الأشج ﵁، عن ابن عباس ﵄ قال رسول الله ﷺ للأشج- أشج عبد القيس-: «إن فيك خصلتين يحبهما الله: الحلم، والأناة». (أخرجه مسلم ١٧).

وأثنى ﷺ على نساء قريش لما فيهن من حُسن رعاية للزوج والولد؛ فعن أبي هريرة ﵁ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «نساء قريش خير نساء ركبن الإبل، أحناه على طفل في صغره، وأرعاه على زوج في ذات يده». (أخرجه البخاري ٣٤٣٤، ومسلم ٢٥٢٧).

وكان ﷺ يُثني على المواقف الإيجابية من أصحابه رضوان الله عليهم، فأثنى على أصحابه حين شرعوا في صلاة الجماعة لما تأخر عنهم، عن المغيرة بن شعبة أنه غزا مع رسول الله ﷺ تبوك، قال المغيرة: فتبرز رسول الله ﷺ قبل الغائط، فحملت معه إِدَاوة قبل صلاة الفجر، فلما رجع رسول الله ﷺ إليَّ أخذت أهريق على يديه من الإداوة، وغسل يديه ثلاث مرات، ثم غسل وجهه، ثم ذهب يخرج جُبَّته عن ذراعيه، فضاق كُمَّا جُبَّته، فأدخل يديه في الجُبَّة حتى أخرج ذراعيه من أسفل الجُبَّة، وغسل ذراعيه إلى المرفقين، ثم توضأ على خُفَّيْه، ثم أقبل، قال المغيرة: فأقبلت معه حتى نَجِدَ الناس قد قدَّموا عبد الرحمن بن عوف فصلَّى لهم، فأدرك رسول الله ﷺ إحدى الركعتين فصلَّى مع الناس الركعة الآخرة، فلما سلم عبد الرحمن بن عوف، قام رسول الله ﷺ يُتِمُّ صلاته فأفزع ذلك المسلمين، فأكثروا التسبيح، فلما قضى النبي ﷺ صلاته أقبل عليهم، ثم قال: «أحسنتم- أو قال: قد أصبتم-» يغبطهم أن صلُّوا الصلاة لوقتها. (أخرجه مسلم ٢٧٤).

قال ابن عبد البر حول هذا الحديث: «وفيه حمد من بدر إلى أداء فرضِه، وشكره على ذلك، وتحسين فعله». (التمهيد ١١/ ١٣٤).

لقد أحسَّ بعض أصحاب النبي ﷺ بالحرج أن صلُّوا قبل مجيئه وأمَّه ﷺ أحدهم، قال ابن الجوزي: «وإنما فزع المسلمون من تقديمهم سوى رسول الله ﷺ، وائتمام الرسول بغيره». (كشف المشكل ٤/ ١٠١).

وفي موقف آخر أثنى ﷺ على طائفة من أصحابه انتظروا الصلاة بعد الصلاة، عن أبي بردة، عن أبيه ﷺ قال: صلينا المغرب مع رسول الله ﷺ ثم قلنا: لو جلسنا حتى نصلي معه العشاء، قال: فجلسنا، فخرج علينا فقال: «ما زلتم ها هنا؟» قلنا: يا رسول الله، صلينا معك المغرب ثم قلنا: نجلس حتى نصلي معك العشاء، قال: «أحسنتم- أو أصبتم-» قال: فرفع رأسه إلى السماء- وكان كثيرًا مما يرفع رأسه إلى السماء- فقال: «النجوم أَمَنَةٌ للسماء، فإذا ذهبت النجوم؛ أتى السماء ما توعد، وأنا أَمَنَةٌ لأصحابي، فإذا ذهبت؛ أتى أصحابي ما يُوعدون، وأصحابي أَمَنَةٌ لأُمَّتِي، فإذا ذهب أصحابي؛ أتى أُمَّتِي ما يوعدون». (أخرجه مسلم ٢٥٣١)

وعن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال: خرج علينا رسول الله ﷺ، ونحن نقرأ القرآن، وفينا العجمي، والأعرابي، قال: فاستمع، فقال: «اقرؤوا، فكل حسن، وسيأتي قوم يقيمونه كما يقام القدح، يتعجلونه، ولا يتأجلونه». (أخرجه أحمد ١٥٢٧٣، وأبو داود ٨٣٠).

عن أنس ﷺ قال: كُنَّا مع النبي ﷺ في السفر، فمِنَّا الصائم، ومِنَّا المفطر، قال: فنزلنا منزلًا في يوم حار، أكثرنا ظِلًّا صاحب الكساء، ومِنَّا مَن يتقي الشمس بيده، قال: فسقط الصُّوَّام، وقام المفطرون، فضربوا الأبنية، وسقوا الركاب، فقال رسول الله ﷺ: «ذهب المفطرون اليوم بالأجر». (أخرجه البخاري ٢٨٩٠، ومسلم ١١١٩، واللفظ لمسلم).

وحين انتظره أصحابه رضوان الله عليهم في الصلاة حتى تأخَّر الوقت أثنى على عملهم، عن أبي موسى ﷺ قال: كنت أنا وأصحابي الذين قدموا معي في السفينة نزولًا في بقيع بُطْحَان، ورسول الله ﷺ بالمدينة، فكان يتناوب رسول الله ﷺ عند صلاة العشاء كل ليلة نفر منهم، قال أبو موسى: فوافقنا رسول الله ﷺ أنا وأصحابي، وله بعض الشغل في أمره حتى أعتم بالصلاة حتى ابْهَارَّ الليل، ثم خرج رسول الله ﷺ فصلَّى بهم، فلما قضى صلاته قال لمن حضره: «على رِسلكم، أُعَلِّمكم، وأبشروا أن من نعمة الله عليكم أنه ليس من الناس أحد يُصلِّي هذه الساعة غيركم، أو قال: ما صلَّى هذه الساعة أحد غيركم»، لا ندري أي الكلمتين قال: قال أبو موسى: فرجعنا فَرِحِين بما سمعنا من رسول الله ﷺ. (أخرجه البخاري ٥٦٧، ومسلم ٦٤١، واللفظ لمسلم).

الثواب المعنوي:

وأحيانًا يكون الثواب جانبًا معنويًا، واعتباريًا، وهو أمر لا يكلف، لكنه يلبي حاجة نفسية؛ فهو مؤشر على الرضا والتقدير، وكان الصحابة رضوان الله عليهم لا يعدلون بمثله شيئًا.

ومن صور التكريم والثواب المعنوي الذي كان ﷺ يقدمه لأصحابه: أنه كان يُرْدِفهم على الدابة، وهو موقف له أثره في القرب الجسدي منه ﷺ، والخَلوة به، والحديث معه، وقد رويت أحاديث عِدَّة تلقاها أصحاب رسول الله ﷺ في مثل هذه الحالة.

ومن صور الإرداف التي يبدو فيها التكريم والإثابة ما فعله ﷺ مع سلمة بن الأكوع ﷺ بعد موقفه في غزوة ذي قَرَد، جاء في سياق روايته ﷺ لهذه القصة: ثم أردفني رسول الله ﷺ وراءه على العضباء، راجعين إلى المدينة، قال: فبينما نحن نسير، قال: وكان رجل من الأنصار لا يسبق شدًّا، قال: فجعل يقول: ألا مسابق إلى المدينة؟ هل من مسابق؟

فجعل يعيد ذلك، قال: فلما سمعت كلامه، قلت: أما تكرم كريمًا، ولا تهاب شريفًا؟ قال: لا، إلا أن يكون رسول الله ﷺ قال: قلت: يا رسول الله، بأبي وأمي، ذرني فلأسابق الرجل، قال: «إن شئت». (أخرجه مسلم ١٨٠٧).

فقد جاء هذا الإرداف بعد ما أبلى سلمة ﷺ بلاء حسنًا في تلك الحادثة.

ويحدث ﷺ **أنه ﷺ فعل ذلك مرارًا فيقول:** «أردفني رسول الله ﷺ مرارًا، ومسح برأسي، واستغفر لي ولذريتي عدد ما بيدي من الأصابع». (أخرجه الطبراني ٦٢٦٧).

الاعتدال في الثواب والثناء:

يمثل الاعتدال سِمة بارزة من سمات المنهج التربوي النبوي، وتبدو تطبيقاته في كافة الجوانب والأساليب التربوية النبوية.

ومن ذلك: الثواب والثناء؛ فقد كان ثناؤه ﷺ معتدلًا لا يبالغ فيه، ولا يتجاوز القدر، ولا يثني على الشخص بما ليس فيه.

بل بيَّن ﷺ أنه ربما ترك الثناء حين يُؤدي إلى محذور، عن معاوية ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «الناس تبع لقريش في هذا الأمر، خيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام إذا فقهوا، والله لولا أن تبطر قريش لأخبرتها ما لخيارها عند الله عز وجل». (أخرجه أحمد ١٦٩٢٨).

وقد قيَّد عدد من أهل العلم المدح والثناء بما لا يُؤثر على الممدوح، قال النووي- تعليقًا على ثناء النبي ﷺ على سلمة ﷺ-: «هذا فيه استحباب الثناء على الشجعان، وسائر أهل الفضائل، لا سيما عند صنيعهم الجميل؛ لما فيه من الترغيب لهم ولغيرهم في الإكثار من ذلك الجميل، وهذا كله في حق مَن يأمن الفتنة عليه بإعجاب ونحوه». (شرح صحيح مسلم ١٢/ ١٨٢).

قال ابن جماعة- داعيًا المعلم إلى الثناء المعتدل على مَن يُحسن مِن طُلَّابه-: «فمَن رآه مُصيبًا في الجواب، ولم يخف عليه شدة الإعجاب؛ شكره، وأثنى عليه بين أصحابه؛ ليبعثه وإياهم على الاجتهاد في طلب الازدياد». (تذكرة السامع والمتكلم ص ٥٤).

ونهى ﷺ أصحابه عن المدح والثناء الذي يضر بالممدوح، فعن عبد الرحمن بن أبي بكرة، عن أبيه ﷺ قال: أثنى رجل على رجل عند النبي ﷺ فقال: **«ويلك، قطعت عنق صاحبك، قطعت عنق صاحبك- مرارًا-»، ثم قال: «مَن كان منكم مادحًا أخاه لا محالة فليقل: أحسب فلانًا، والله حسيبه، ولا أُزكِّي على الله أحدًا، أحسبه كذا وكذا، إن كان يعلم ذلك منه»**. (أخرجه البخاري ٢٦٦٢، ومسلم ٣٠٠٠).

وعن معاوية ﷺ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«إياكم والتمادح؛ فإنه الذبح»**. (أخرجه ابن ماجه ٣٧٤٣، وأحمد ١٦٨٣٧).

الثواب ليس مجرد وسيلة:

الثواب والثناء على المتربي ليس مجرد وسيلة محايدة تنتهي وظيفتها عند الحفز على سلوك معين، أو الكفِّ عن غيره.

إنه كغيره من الوسائل يُؤثر في شخصية المتعلم، ويُسهم في تشكيل مفهومه عن ذاته، ونظرته عن نفسه، وهذا له أثر بارز على كثير من جوانب شخصيته، وأفعاله فيما بعد.

ويشير ابن خلدون إلى أثر مثل هذه الوسائل والأساليب على شخصية المتعلم، فيقول- متحدثًا عن أثر التسلط والقهر على الشخصية-: «وذلك أنَّ إرهاف الحدِّ بالتَّعليم مُضرٌّ بالمتعلِّم، سيَّما في أصاغر الولد؛ لأنَّه من سوء الملكة، ومَن كان مرباه بالعسف والقهر من المتعلمين، أو المماليك، أو الخدم؛ سطا به القهر، وضيَّق على النَّفْسِ في انبساطها، وذهب بنشاطها، ودعاه ذلك إلى الكسل، وحمله على الكذب والخبث، وهو التظاهر بغير ما في

ضميره خوفًا من انبساط الأيدي بالقهر عليه، وعلَّمَه المكر والخديعة لذلك، وصارت له هذه عادة وخلقًا، وفسدت معاني الإنسانية التي له من حيث الاجتماع والتمدُّن، وهي الحمية والمدافعة عن نفسه ومنزله، وصار عيالًا على غيره في ذلك، بل وكسلت النفس عن اكتساب الفضائل والخلق الجميل؛ فانقبضت عن غايتها ومدى إنسانيتها، فارتكس وعاد في أسفل السافلين»، ثم يُوضح أن الأثر يمتد إلى المجتمعات، فقال: «هكذا وقع لكلِّ أُمَّة حصلت في قبضة القهر، ونال منها العسف، واعتبره في كلِّ من يملك أمره عليه، ولا تكون الملكة الكافلة له رفيقة به، وتجد ذلك فيهم استقراء، وأنظره في اليهود، وما حصل بذلك فيهم من خلق السُّوء حتَّى إنَّهم يوصفون في كلِّ أفق وعصر بالحرج». (تاريخ ابن خلدون ١/ ٧٤٣).

وقال ابن مسكويه: «ليمدح الطفل بكل ما يظهر من خلق جميل، وفعل حسن، ويُكرم عليه، وإن خالف في بعض الأوقات لا يُوبَّخ، ولا يكاشف، بل يتغافل عنه المُربِّي، ولا سيَّما إن ستر الصبي مخالفته، فإن عاد فليُوبَّخ سِرًّا، ويعظم عنده ما أتاه، ويحذر من معاودته؛ فإنك إن عودته التوبيخ والمكاشفة؛ حملته على الوقاحة».

ولأبي حامد الغزالي كلام عن أثر هذه الأساليب على شخصية المتعلم، فيقول: «ثم مهما ظهر من الصبي من خلق جميل، وفعل محمود، فينبغي أن يُكرم عليه، ويُجازى عليه بما يفرح به، ويُمدح بين أَظْهُر الناس، فإن خالف ذلك في بعض الأحوال مرة واحدة؛ فينبغي أن يتغافل عنه، ولا يهتك ستره، ولا يكاشفه، ولا يظهر له أنه يتصور أن يتجاسر أحد على مثله، ولا سِيَّما إذا ستره الصبي، واجتهد في إخفائه؛ فإن إظهار ذلك عليه ربما يفيده جسارة حتى لا يُبالي بالمكاشفة، فعند ذلك إن عاد ثانية؛ فينبغي أن يُعاقَب سرًّا، ويعظم الأمر فيه، ويُقال له: إياك أن تعود بعد ذلك لمثل هذا، وأن يُطَّلع عليك في مثل هذا؛ فتُفضح بين الناس، ولا تُكثر القول عليه بالعتاب في كل حين؛ فإنه يهون عليه سماع

الملامة، وركوب القبائح، ويسقط وقع الكلام من قلبه». (إحياء علوم الدين ٣/ ٧٣).

وقد كان علماء السلف يوصون مؤدب أولادهم بأن يعتني بالثواب والثناء، قال سحنون الفقيه- في وصيته لمُعلِّم ابنه-: «لا تُؤدِّبه إلا بالمدح، ولطيف الكلام، وليس هو ممن يُؤدَّب بالضرب أو التعنيف».

وكانوا يُثيبون مَن أنجز منهم، حذق ابنٌ لعبد الله بن الحسن بن أبي الحسن، فقال الحسن: إن فلانًا قد حذق، فقال الحسن: «كان الغلام إذا حذق قبل اليوم نحروا جزورًا، وصنعوا طعامًا للناس». (أخرجه ابن أبي الدنيا في النفقة على العيال ٣١٨).

وقال القابسي: «ينبغي لمُعلِّم الأطفال أن يُراعِي منهم حتى يخلص أدبهم لمنافعهم، وليس لمعلمهم في ذلك شفاء من غضبه، ولا شيء يُريح قلبه من غيظه؛ فإن ذلك إن أصابه فإنما ضَرَبَ أولاد المسلمين لراحة نفسه، وهذا ليس من العدل».

العقوبة

تُشكل العقوبة محل جدل واسع وكبير في المجال التربوي، وهذا الجدل ليس وَلِيدَ العصر الحاضر، بل هو قديم قِدَمَ الفلسفات الإنسانية والتربوية، وقلّمَا نجد فيلسوفًا، أو عالمًا، أو مفكرًا له آراء في التربية، إلا ونجد له حديثًا عن العقوبة.

وموقف الأفراد أو المدارس التربوية من العقوبة ليس منفصلًا عن النظرة للإنسان: طبيعته ودوره في الحياة؛ فالمذاهب التي تُغالي في الحرية الفردية تنظر إلى العقوبة على أنها انتهاك لحرية الفرد، ونوع من الإجبار الذي لا يحق لأحد أن يمارسه ضد غيره.

العقوبة البدنية:

تُمثل العقوبة البدنية أكثر صور العقوبة جدلًا بين المُربِّين قديمًا وحديثًا، ولا يخلو الحديث عنها من غلو يتمثل في الرفض المطلق لها، وعدِّها انتهاكًا لكرامة الفرد، وإلغاء فاعليتها في تقويم سلوكه.

ويقابله غلو من طرف آخر يستند إلى النصوص الواردة في شأنها، وكأن الشريعة قد أمرت بها، وحثت عليها، وأثنت على أهلها، وأن أي انتقاد لها هو انتقاد للشريعة.

وصورة العقوبة في التربية النبوية لا تكتمل إلا بالنظر إلى مجموع النصوص، والجمع بين هَدْيِه القولي، وهَدْيِه العملي ﷺ.

جاءت العقوبة البدنية في الإسلام في سياقين:

الأول: الحدود والتعزيرات الشرعية.

الثاني: التأديب والتربية.

وكلا السياقين دالَّان على اعتبار العقوبة البدنية وسيلة لإصلاح النفس وردعها، بغض النظر عن مصدر العقوبة أهو المُربِّي، أم السلطة القضائية.

وفي مجال التربية والتأديب نصَّ القرآن الكريم على الضرب وسيلة لإصلاح نشوز الزوجة، قال تعالى: ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعۡضَهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ وَبِمَآ أَنفَقُواْ مِنۡ أَمۡوَٰلِهِمۡۚ فَٱلصَّٰلِحَٰتُ قَٰنِتَٰتٌ حَٰفِظَٰتٞ لِّلۡغَيۡبِ بِمَا حَفِظَ ٱللَّهُۚ وَٱلَّٰتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَٱهۡجُرُوهُنَّ فِي ٱلۡمَضَاجِعِ وَٱضۡرِبُوهُنَّۖ فَإِنۡ أَطَعۡنَكُمۡ فَلَا تَبۡغُواْ عَلَيۡهِنَّ سَبِيلًاۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيّٗا كَبِيرٗا﴾ (النساء: ٣٤).

وحين خطب ﷺ أصحابه في حجة الوداع، وبيَّن حقوق النساء، أَذِنَ في ضربهن للتأديب فقال: «فاتقوا الله في النساء، فإنكم أخذتموهن بأمان الله، واستحللتم فروجهن بكلمة الله، ولكم عليهن أن لا يوطئن فُرُشَكم أحدًا تكرهونه، فإن فعلن ذلك فاضربوهن ضربًا غير مبرح، ولهن عليكم رزقهن، وكسوتهن بالمعروف». (أخرجه مسلم ١٢١٨).

ومَن نظر إلى النصوص النبوية الواردة في ضرب الزوجة؛ أدرك أنها ليست كما يفهم بعض القُساة، أو مَن يمتهنون المرأة.

فالضرب جاء مقرونًا بالوصاة بهن، والأمر بتقوى الله، كما في حديث جابر ﷺ: «فاتَّقوا الله في النساء، فإنكم أخذتموهن بأمان الله».

وفي حديث عمرو بن الأحوص ﷺ جاء ذلك بعد أن أوصى بهن خيرًا، عن عمرو بن الأحوص ﷺ: أنه سمع رسول الله ﷺ في حجة الوداع يقول- بعد أن حمد الله، وأثنى عليه، وذكر ووعظ فذكر في الحديث قصة-، فقال: «ألا واستوصوا بالنساء خيرًا، فإنما هُنَّ عوان عندكم، ليس تملكون منهن شيئًا غير ذلك، إلا أن يأتين بفاحشة مبينة، فإن فعلن فاهجروهن في المضاجع، واضربوهن ضربًا غير مبرح، فإن أطعنكم فلا تبغوا

عليهن سبيلًا، ألا وإن لكم على نسائكم حقًّا، ولنسائكم عليكم حقًّا، فحقكم عليهن: أن لا يُوطِئن فُرُشَكم مَن تكرهون، ولا يأذن في بيوتكم لمن تكرهون، ألا وحقهن عليكم: أن تُحسنوا إليهن في كسوتهن وطعامهن». (أخرجه الترمذي ٣٠٨٧).

كما أن الضرب جاء في حال أوطأت الزوجة فراش زوجها مَن يكره، أو أتت بفاحشة مبينة؛ ولهذا قصر بعض أهل العلم ذلك على ما يتعلق بالعِرض، وبغض النظر عن الراجح في ذلك، فالضرب في النصوص النبوية لم يأتِ على إطلاقه.

عن حكيم بن معاوية، عن أبيه قال: «قلت: يا رسول الله، ما حق زوجة أحدنا عليه؟ قال: أن تطعمها إذا طعمت، وتكسوها إذا اكتسيت، ولا تضرب الوجه، ولا تقبح، ولا تهجر إلا في البيت». (أخرجه أبو داود ٢١٤٢).

وقد ذكَّر النبي ﷺ الرجل بأنه يحتاج لمعاشرة زوجته، وبيَّن أنه لا يليق به أن يضربها، ثم يعاشرها بعد ذلك، فعن عبد الله بن زمعة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: ««لا يجلد أحدكم امرأته جلد العبد، ثم يجامعها في آخر اليوم». (أخرجه البخاري ٥٢٠٤، ومسلم ٢٨٥٥)، وفي رواية للبخاري (٦٠٤٢): «ثم لعله يُعانقها».

كما أن الضرب إنما جاء رخصة بعد أن نُهِيَ عنه؛ فعن إياس بن عبد الله بن أبي ذباب ﷺ: قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تضربوا إماء الله، فجاء عمر إلى رسول الله ﷺ، فقال: ذئرن النساء على أزواجهن، فرخَّص في ضربهن، فأطاف بآل رسول الله ﷺ نساء كثير يشكون أزواجهن، فقال رسول الله ﷺ: لقد طاف بآل محمد نساء كثير يشكون أزواجهن ليس أولئك بخياركم». (أخرجه أبو داود ٢١٤٦).

وفي هذا الحديث- أيضًا- بيَّن ﷺ أن الذين يضربون ليسوا هم الخيار، مما يعني أنه رخصة لأولئك الذين احتاجوا إليه، ولم يجدوا منه بُدًّا.

كما يؤكد ﷺ على أن القصور من طبيعة المرأة؛ ومِن ثَم فعلى الرجال أن يحتملوا القصور فيها، وألا يُحاسبوها وفق صورة مثالية يرسمونها بما لا يتناسب مع طبيعة المرأة، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «استوصوا بالنساء، فإن المرأة خُلِقت من ضِلَع، وإن أعوج شيء في الضِّلَع أعلاه، فإن ذهبت تُقِيمه؛ كسرته، وإن تركته لم يزل أعوج، فاستوصوا بالنساء». (أخرجه البخاري ٣٣٣١، ومسلم ١٤٦٨).

وفي رواية: «المرأة كالضِّلَع، إن أقمتها كسرتها، وإن استمتعت بها استمتعت بها، وفيها عوج». (أخرجه البخاري ٥١٨٤، ومسلم ١٤٦٨).

كما يُؤكِّد ﷺ على النظرة المتكاملة لشخصية المرأة، وأن السمات السلبية التي يراها الزوج في زوجته تُقابلها سمات إيجابية، فحين يكره شيئًا من زوجته فعليه أن ينظر إلى الجانب الآخر؛ فسيجد كثيرًا مما يُحبه فيها، عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «لا يَفْرَكْ مؤمنٌ مؤمنةً، إن كره منها خلقًا، رضي منها آخر». (أخرجه مسلم ١٤٦٩).

أما هَدْيُه العملي ﷺ فإنه لم يضرب بيده قطُّ، ولو كان الضرب فضيلة لم يتركه ﷺ

عن عائشة رضي الله عنها قالت: ما ضرب رسول الله ﷺ شيئًا قطُّ بيده، ولا امرأة، ولا خادمًا إلا أن يجاهد في سبيل الله، وما نيل منه شيء قطُّ فينتقم من صاحبه، إلا أن يُنتهك شيء من محارم الله؛ فينتقم لله عز وجل. (أخرجه مسلم ٢٣٢٨).

ضرب الأولاد على الصلاة:

أمر ﷺ بضرب الأولاد على الصلاة، فعن عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جده رضي الله عنهما، قال: قال رسول الله ﷺ: «مُرُوا أولادكم بالصلاة، وهم أبناء سبع سنين، واضربوهم عليها، وهم أبناء عشر، وفرِّقوا بينهم في المضاجع». (أخرجه أبو داود ٤٩٥).

قال عطية سالم: «فيُعَوَّد الصبي على الصلاة من السابعة إلى العاشرة ثلاث سنوات، بالترغيب وبالترهيب، وبإعطاء الحلوى والهدايا، وصحبته إلى المسجد، ثلاث سنوات، فإذا بلغ العاشرة، فإن كان خيِّرًا طيبًا نقيًّا؛ كان ذلك كافيًا له في أن يرتاد المسجد وحده، وإلا ضُرِب ضَرْبَ تأديب لا ضَرْبَ تشفٍّي، فإذا رُوِّض من السابعة إلى العاشرة، ثم أُلْزم وضُرِب من العاشرة إلى الخامسة عشرة؛ فلا يجري القلم عليه إلا وقد أصبحت الصلاة جزءًا من دمه ولحمه». (شرح الأربعين النووية، المكتبة الشاملة).

الهجر:

ومن العقوبات التي استخدمها ﷺ في تربية أصحابه: الهجر، فقد هجر كعب بن مالك، وصاحبيه رضي الله عنهما في واقعة مشهورة.

عن عبد الله بن كعب بن مالك- وكان قائد كعب من بنيه حين عمي- قال: سمعت كعب بن مالك يُحدِّث حين تخلَّف عن قصة تبوك، قال كعب: لم أتخلَّف عن رسول الله ﷺ في غزوة غزاها إلا في غزوة تبوك، غير أني كنت تخلفت في غزوة بدر ولم يُعاتب أحدًا تخلَّف عنها، إنما خرج رسول الله ﷺ يُريد عِيرَ قريش حتى جمع الله بينهم، وبين عدوهم على غير ميعاد، ولقد شهدت مع رسول الله ﷺ ليلة العقبة حين تواثقنا على الإسلام، وما أحب أن لي بها مشهد بدر، وإن كانت بدر أذكر في الناس منها، كان من خبري أني لم أكن قطُّ أقوى ولا أيسر حين تخلَّفت عنه في تلك الغزاة ...وذكر فيه: ونهى رسول الله ﷺ المسلمين عن كلامنا- أيها الثلاثة- من بين مَن تخلَّف عنه، فاجتنبنا الناس، وتغيَّرُوا لنا حتى تنكرت في نفسي الأرض فما هي التي أعرف، فلبثنا على ذلك خمسين ليلة، فأما صاحباي فاستكانا، وقعدا في بيوتهما يبكيان، وأما أنا: فكنت أشبَّ القوم، وأجلدَهم، فكنت أخرج، فأشهد الصلاة مع المسلمين، وأطوف في الأسواق، ولا يكلمني أحد، وآتي رسول الله ﷺ فأسلم عليه، وهو في مجلسه بعد الصلاة، فأقول في نفسي: هل حرَّك شفتيه

بِرَدِّ السلام عليَّ، أَمْ لا؟ ثم أُصلِّي قريبًا منه، فأسارقه النظر، فإذا أقبلت على صلاتي أقبل إليَّ، وإذا التفت نحوه أعرض عَنِّي، حتى إذا طال عليَّ ذلك من جفوة الناس، مشيت حتى تسورت جدار حائط أبي قتادة، وهو ابن عمي، وأحب الناس إليَّ، فسلمت عليه، فوالله ما ردَّ عليَّ السلام، فقلت: يا أبا قتادة، أنشدك بالله، هل تعلمني أحب الله ورسوله؟ فسكت، فعدت له فنشدته فسكت، فعدت له فنشدته، فقال: الله ورسوله أعلم، ففاضت عيناي. (أخرجه البخاري ٤٤١٨، ومسلم ٢٧٦٩).

وهجر ﷺ زوجاته شهرًا، عن أم سلمة رضي الله عنها أن النبي ﷺ حلف أن لا يدخل على بعض أهله شهرًا، فلما مضى تسعة وعشرون يومًا، غدا عليهم، أو راح، فقيل له: حلفت يا نبي الله أن لا تدخل علينا شهرًا؟ قال: «إن الشهر يكون تسعة وعشرين يومًا». (أخرجه البخاري ١٩١٠، ومسلم ١٠٨٥).

وهجر زينب رضي الله عنها فعن عائشة رضي الله عنها أنه اعتلَّ بعير لصفية بنت حيي، وعند زينب فضل ظهر، فقال رسول الله ﷺ لزينب: «أعطيها بعيرًا» فقالت: أنا أُعطي تلك اليهودية؟ فغضب رسول الله ﷺ فهجرها ذا الحجة، والمحرم، وبعض صفر. (أخرجه أبو داود ٤٦٠٢، وأحمد ٢٤٤٨١).

الإغلاظ في القول:

وأحيانًا كان ﷺ يُغلظ في القول على مَن ارتكب خطأ؛ فعن أسامة بن زيد رضي الله عنهما قال: بعثنا رسول الله ﷺ إلى الحرقة، فصبَّحنا القوم فهزمناهم، ولحقت أنا ورجل من الأنصار رجلًا منهم فلما غشيناه قال: لا إله إلا الله، فكفَّ الأنصاري، فطعنته برمحي حتى قتلته، فلما قَدِمْنَا، بلغ النبي ﷺ فقال: «يا أسامة، أقتلته بعد ما قال: لا إله إلا الله؟» قلت: كان مُتعوِّذًا، فما زال يُكرِّرها حتى تمنَّيْت أني لم أكن أسلمت قبل ذلك اليوم. (أخرجه البخاري ٤٢٦٩، ومسلم ٩٦).

وانتهر ﷺ زوجته حفصة؛ فعن أم مبشر أنها سمعت النبي ﷺ يقول عند حفصة: «لا يدخل النار - إن شاء الله - من أصحاب الشجرة أحد - الذين بايعوا تحتها» قالت: بلى يا رسول الله، فانتهرها فقالت حفصة: وَإِنْ مِنْكُم إِلَّا وَارِدُهَا؟ فقال النبي ﷺ: «قد قال الله عز وجل: ﴿ ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوا وَّنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ﴾(مريم: ٧٢) ». (أخرجه مسلم ٢٤٩٦).

الدعاء:

وأحيانًا يدعو ﷺ على مَن وقع في الخطأ؛ فعن سليمان بن بريدة، عن أبيه، أن رجلًا نشد في المسجد، فقال: من دعا إلى الجمل الأحمر، فقال النبي ﷺ: «لا وجدت؛ إنما بُنيت المساجد لِمَا بُنيت له». (أخرجه مسلم ٥٦٩).

وعن سلمة بن الأكوع ﷺ، أن رجلًا أكل عند رسول الله ﷺ بشماله، فقال: «كُلْ بيمينك» قال: لا أستطيع، قال: «لَا اسْتَطَعْتَ»، ما منعه إلا الكبر، قال: فما رفعها إلى فيه. (أخرجه مسلم ٢٠٢١).

قال النووي (١٣/ ١٩٢): «وأما قول القاضي عياض: إن قوله: ما منعه إلا الكبر يدل على أنه كان مُنافقًا فليس بصحيح؛ فإن مُجرَّد الكبر والمخالفة لا يقتضي النفاق والكفر، لكنه معصية إن كان الأمر أمر إيجاب، وفي هذا الحديث جواز الدعاء على مَن خالف الحكم الشرعي بلا عذر».

وأمر ﷺ بالدعاء على مَن خالف؛ فعن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «مَن سمع رجلًا ينشد ضالة في المسجد فليقل: لا ردها الله عليك؛ فإن المساجد لم تُبْنَ لهذا». (أخرجه مسلم ٥٦٨).

النهي عن القسوة في العقوبة:

العقوبة في التربية النبوية وسيلة تربوية تهدف إلى إصلاح النفس وتهذيبها، ومِن ثَمَّ؛ فإنها مرتبطة بتحقق الهدف منها، وهو الإصلاح، وليست مقصودة لذاتها؛ لذا فقد ارتبطت بوظيفتها، فنهى النبي ﷺ عن القسوة في العقوبة.

فقال في شأن النساء: «فاضربوهن ضربًا غير مبرح».

وقال- أيضًا: «لا يجلد أحدكم امرأته جلد العبد».

ومَن تأمل العقوبات الشرعية، وتفاوتها، وتدرجها أدرك ذلك.

عدم الجمع بين عقوبتين:

نهى النبي ﷺ أن يجمع المُربِّي بين عقوبتين؛ فعن أبي هريرة ﷺ، قال: سمعت النبي ﷺ يقول: «إذا زَنَتْ أَمَةُ أحدِكم، فتبيَّن زناها؛ فليجلدها الحد، ولا يثرب عليها، ثم إن زَنَتْ؛ فليجلدها الحد، ولا يثرب، ثم إن زَنَتِ الثالثة، فتبيَّن زناها؛ فليبعها، ولو بحبل من شعر». (أخرجه البخاري ٢٢٣٤، ومسلم ١٧٠٣).

النهي عن العقوبة التي تقود إلى مفسدة:

يُؤكِّد ﷺ على ألا تُؤدِّي العقوبة إلى مفسدة، وإعانة للشيطان على الشخص المُعاقَب؛ فعن أبي هريرة ﷺ، قال: أتي النبي ﷺ بسكران، فأمر بضربه، فمِنَّا مَن يضربه بيده، ومِنَّا مَن يضربه بنعله، ومِنَّا مَن يضربه بثوبه، فلما انصرف قال رجل: ما له، أخزاه الله، فقال رسول الله ﷺ: «لا تكونوا عونَ الشيطان على أخيكم». (أخرجه البخاري ٦٨٧١).

علاج الأخطاء

يتعامل المُربِّي كثيرًا مع أخطاء المُتربِّين، بل إن التعامل مع الأخطاء من أكثر ما يدور حوله التساؤل والجدل.

ويتأثر التعامل مع الخطأ بطبيعة المُربِّي وشخصيته؛ فالمُربِّي الدقيق الصارم يفرض صورة عالية من الانضباط، ويحاسب في ضوء هذه الصورة التي يرسمها، فتزداد مساحة الأخطاء لديه بناء على هذه المعايير العالية، كما أن صرامته تنعكس على تعامله مع الخطأ؛ فيبدو صارمًا في حديثه وحوراه مع المخطئ، وكثيرًا ما تتسم عباراته بالقسوة والشدة، ويمتد أثر الصرامة لديه إلى طريقة تفكيره، وتعامله مع المواقف والنصوص؛ فهو يميل إلى النصوص التي تتفق مع طبيعته؛ فتراه كثيرًا ما يستشهد بنصوص الضرب والعقوبة، ويحفظ المواقف النبوية التي اقتضت التعامل الحازم، وربما العقاب.

وفي الطرف الآخر تجد المهمل المتساهل، الذي يبرر تساهله وإهماله بالرفق والحكمة، بينما المصدر الحقيقي ذلك الإهمال والتساهل، هو الكسل، وتضييع الأمانة.

وبينهما مَن هو أكثر اعتدالًا، لكنه يميل إلى الصرامة والقسوة، أو مَن يميل إلى الرفق والهدوء، ومن المشكلات لدى عدد من هؤلاء: أنه يميل إلى قراءة الهدي النبوي بما يتناسب مع طبيعته وشخصيته؛ ذلك أن الهدي النبوي يحوي أساليب عديدة ومتنوعة تتلاءم مع طبيعة الشخص، والموقف؛ إذ إن أسلوب التصحيح ليس مقصودًا لذاته؛ فالعبرة بمدى إسهامه في علاج الخطأ.

معالم في التصحيح النبوي للأخطاء[1]:

تعامل ﷺ مع أصحابه في مواقف عديدة ومتنوعة، في السفر والإقامة، في السِّلم

(١) للشيخ محمد المنجد كتاب قيم بعنوان: الأساليب النبوية في التعامل مع أخطاء الناس، وقد استفدت منه في هذا المبحث.

والحرب، في حال رضاهم، وحال ما يسخطهم، عند السراء والضراء.

كما تعامل ﷺ مع الصغير والكبير، والرجل والمرأة، وخاصة أصحابه وعامتهم، والسابقين الأولين، ومُسلمي الأعراب الذين ربما لم يَرَهُ أحدهم إلا مرة واحدة.

وفي كثير من هذه المواقف كانت تقع من بعضهم أخطاء؛ فيتعامل معها النبي ﷺ بما يتلاءم مع كل موقف.

وفيما يلي أهم معالم التصحيح النبوي للخطأ:

أولًا: تغليب الرفق:

تتنوع أساليب التعامل النبوي مع الخطأ- كما سيأتي- تبعًا لطبيعة الموقف، إلا أنه من المهم تقرير أن الأصل هو الرفق في التعامل النبوي، ويتضح ذلك من خلال ما يلي:

١- كان الرفق هو الغالب على مواقفه ﷺ، أما الإغلاظ فكان استثناء حين يتطلب الموقف ذلك؛ لذا نجد وصف أصحابه له ﷺ إنما جاء بالرفق، بخلاف المواقف الأُخرى، فقد كانت تأتي في سياق ذكر الموقف وحكايته، ومما ورد في وصفه بالرفق: حديث مالك بن الحويرث ﷺ: أتيت النبي ﷺ في نفر من قومي، فأقمنا عنده عشرين ليلة، وكان رحيمًا رفيقًا؛ فلما رأى شوقنا إلى أهالينا قال: «ارجعوا، فكونوا فيهم، وعلِّموهم، وصلُّوا، فإذا حضرت الصلاة، فليؤذن لكم أحدكم، وليؤُمُّكم أكبركم». (أخرجه البخاري ٦٢٨، ومسلم ٦٧٤).

٢- أثنى ﷺ على الرفق، وحثَّ عليه، وبيَّن أنه لا يكون في شيء إلا زانه؛ فعن عائشة ﷺ عن النبي ﷺ قال: «إن الرفق لا يكون في شيء إلا زانه، ولا يُنزع من شيء إلا شانه». (أخرجه مسلم ٢٥٩٤).

٣- أخبر ﷺ أن الله عز وجل يُحبُّ الرفق في الأمر كله، فقال: «إن الله يحب الرفق في الأمر كله». (أخرجه البخاري ٦٠٢٤، ومسلم ٢١٦٥).

٤- بيَّن ﷺ أن الرفق سبب لتوفيق الله عز وجل، وأن نتائجه أقرب من نتائج العنف؛ فعن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ قال: «يا عائشة، إن الله رفيق يحب الرفق، ويُعطي على الرفق ما لا يعطي على العنف، وما لا يُعطي على ما سواه». (أخرجه مسلم ٢٥٩٣).

٥- أمر ﷺ أصحابه بالرفق حتى بالحيوان البهيم، عن خالد بن معدان يرفعه: «إن الله تبارك وتعالى رفيق يحب الرفق، ويرضى به، ويُعين عليه ما لا يُعين على العنف، فإذا ركبتم هذه الدواب العجم، فأنزلوها منازلها؛ فإن كانت الأرض جدبة، فانجوا عليها بنِقيها، وعليكم بسير الليل، فإن الأرض تُطوى بالليل ما لا تُطوى بالنهار، وإياكم والتَّعريس على الطريق؛ فإنها طرق الدواب، ومأوى الحيَّات». (أخرجه مالك في الموطأ ١٨٣٤).

٦- ذمَّ ﷺ مَن نزع منه الرفق، وأخبر أن حرمانه حرمان للخير، عن جرير رضي الله عنه، أن النبي ﷺ قال: «مَن يُحرم الرفق يُحرم الخير». (أخرجه مسلم ٢٥٩٢)، وعن أبي الدرداء رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «مَن أُعْطي حظه من الرفق، فقد أُعطي حظه من الخير، ومَن حُرم حظه من الرفق، فقد حُرم حظه من الخير». (أخرجه الترمذي ٢٠١٣، وأحمد ٢٤٧٣١).

وأحسب أن هذه النصوص تُقرر بوضوح أن الرفق هو الأصل، وهو ما أمر به ﷺ، وحثَّ عليه، وأثنى على أهله، وأن ما سواه استثناء.

كما أن هذا المعنى يُمكن أن يُلحظ- أيضًا- بوضوح من خلال رصد المواقف العملية للنبي ﷺ، وتعامله مع المخطئين.

ثانيًا: التنوع في الأساليب:

لم يكن ﷺ يعتمد على أسلوب واحد في تصحيح الخطأ، فقد كانت أساليبه متنوعة تُلائم طبيعة الخطأ، ومَن وقع فيه؛ فهو تارة يُصحح الخطأ بطريقة غير مباشرة، وأخرى يُصرح بالخطأ، وربما عنَّف ﷺ مَن وقع في الخطأ، وربما هجره وعاقبه.

وسيأتي مزيد تفصيل لهذا التنوع في المنهج النبوي في تصحيح الخطأ.

ثالثًا: مُراعاة حال الشخص:

ومن معالم تصحيحه ﷺ للخطأ: مُراعاة حال الشخص؛ فالخطأ ليس منفصلًا عن صاحبه، وربما اختلف تعامل النبي ﷺ مع شخصين وَقَعَا في خطأ واحد، ومن ذلك: ما حصل من كل من أبي بكر رضي الله عنه، وأبي مسعود الأنصاري رضي الله عنه.

عن أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنهما قالت: خرجنا مع رسول الله ﷺ حُجَّاجًا حتى إذا كُنَّا بالعرج، نزل رسول الله ﷺ ونزلنا، فجلست عائشة رضي الله عنها إلى جنب رسول الله ﷺ، وجلست إلى جنب أبي، وكانت زمالة أبي بكر، وزمالة رسول الله ﷺ واحدة مع غلام لأبي بكر، فجلس أبو بكر ينتظر أن يطلع عليه، فطلع وليس معه بعيره، قال: أين بعيرك؟ قال: أضللته البارحة، قال: فقال أبو بكر: بعير واحد تضله؟ قال: فطفق يضربه، ورسول الله ﷺ يتبسم، ويقول: «انظروا إلى هذا المُحرم ما يصنع»، قال ابن أبي رزمة: فما يزيد رسول الله ﷺ على أن يقول: «انظروا إلى هذا المُحرم ما يصنع»، ويتبسم. (أخرجه أبو داود ١٨١٨).

وحين ضرب أبو مسعود الأنصاري رضي الله عنه غلامه، اختلف تعامل النبي ﷺ معه، عن أبي مسعود البدري رضي الله عنه قال: كنت أضرب غلامًا لي بالسَّوط، فسمعت صوتًا من خلفي: «اعلم أبا مسعود»، فلم أفهم الصوت من الغضب، قال: فلما دنا مني إذا هو رسول الله ﷺ فإذا هو يقول: «اعلم أبا مسعود، اعلم أبا مسعود»، قال: فألقيت السَّوط من يدي،

فقال: «اعلم أبا مسعود أن الله أقدر عليك منك على هذا الغلام» قال: فقلت: لا أضرب مملوكًا بعده أبدًا. (أخرجه مسلم ١٦٥٩).

وتتجلَّى الحكمة النبوية في تعامله ﷺ مع مَن كان يقع في الخطأ من أصحابه؛ فيتعامل ﷺ مع كل موقف بما يُلائمه، وبما هو أقرب إلى تحقيق المصلحة، وتصويب الخطأ.

ويتطلب التعامل مع الخطأ الاعتناء بتصويب الخطأ، كما يتطلب الاعتناء بحال المُخطئ، وعليه يمكن أن نصنِّف الأساليب النبوية في التعامل مع الخطأ في ضوء ذلك إلى:

- أساليب يغلب فيها مُراعاة النظر إلى الخطأ.
- أساليب يغلب فيها مُراعاة النظر إلى مَن يقع في الخطأ.

وهو تصنيف اجتهادي قد لا يكون جامعًا مانعًا، ولا يسلم من ثغرات، لكن الهدف منه تقريب الصورة.

وفيما يلي نتناول هذه الأساليب[1] بقدر من التفصيل:

القسم الأول: تغليب النظر إلى الخطأ:

قد يقتضي تصحيح الخطأ تغليب النظر إلى الخطأ؛ فيتم تصحيحه بطريقة مباشرة، وربما اقتضى الإغلاظ على المخطئ، أو معاقبته، وهذا لا يعني بالضرورة إهمال جانب المخطئ، بل هو المقصود من ذلك كله.

ومن صور هذه الأساليب ما يلي:

١ - التصحيح المباشر للخطأ:

يؤكد كثير من المتحدثين في التربية، أو التنمية البشرية اليوم على أنه لا ينبغي أن يتم

---

(١) انظر: الأساليب النبوية في التعامل مع أخطاء الناس. محمد المنجد.

تصحيح الخطأ بصورة مباشرة، وأنه على المُربِّي أن يُوجِّه توجيهًا غير مباشر، وأن مواجهة المُتربِّي بالتخطئة أسلوب غير تربوي.

وبغض النظر عن أهمية الاعتناء بالجانب النفسي للمخطئ، وعن أن التوجيه غير المباشر يزيل الحرج عنه، وأنه مظهر من مظاهر تقدير شخصيته، إلا أن اعتبار التصحيح المباشر للخطأ أمرًا مرفوضًا بإطلاق، ومبدأ غير تربوي، غير مسلَّم، بل هو يتعارض مع المنهج النبوي.

فقد حُفِظَتْ مواقف عديدة عن النبي ﷺ عمد فيها ﷺ إلى التوجيه المباشر للمخطئ.

عن أبي واقد الليثي رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ لما خرج إلى حُنين مرَّ بشجرة للمشركين يُقال لها: ذات أنواط، يُعلِّقون عليها أسلحتهم، فقالوا: يا رسول الله، اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط، فقال النبي ﷺ: «سبحان الله، هذا كما قال قوم موسى: اجعل لنا إلهًا كما لهم آلهة، والذي نفسي بيده لتركبن سُنَّة مَن كان قبلكم». (أخرجه الترمذي ٢١٨٠، وأحمد ٢١٣٩٠).

وعن زيد بن خالد الجهني رضي الله عنه، أنه قال: صلَّى لنا رسول الله ﷺ صلاة الصبح بالحُديبية على إثْر سماء كانت من الليلة، فلما انصرف، أقبل على الناس، فقال: «هل تدرون ماذا قال ربكم؟» قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: «أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر، فأما مَن قال: مُطِرنا بفضل الله ورحمته؛ فذلك مؤمن بي، وكافر بالكوكب، وأما من قال: بِنَوْء كذا وكذا؛ فذلك كافر بي، ومؤمن بالكوكب». (أخرجه البخاري ٨٤٦، ومسلم ٧١).

ففي هذا الحديث حكم النبي ﷺ على مَن قال هذه المقولة بهذا الحكم، وفي مواقف أخرى يكون الأمر أكثر مواجهة مع المخطئ، فيأتي ردُّ النبي ﷺ مُوجهًا لمن وقع في الخطأ بشكل مباشر؛ فعن أبي واقد الليثي رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ لما خرج إلى خيبر مرَّ بشجرة

للمشركين يُقال لها: ذات أنواط يُعلِّقون عليها أسلحتهم، فقالوا: يا رسول الله، اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط، فقال النبي ﷺ: «سبحان الله، هذا كما قال قوم موسى: ﴿ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ﴾، والذي نفسي بيده لتركبن سُنَّة مَن كان قبلكم». (أخرجه أحمد ٢١٩٠٠، وأخرجه الترمذي ٢١٨٠، بلفظ خيبر بدل حنين).

وعن ابن عباس رضي الله عنه، أن رجلًا قال للنبي ﷺ: ما شاء الله وشئت، فقال له النبي ﷺ: «أجعلتني والله عدلًا؟، بل ما شاء الله وحده». (أخرجه أحمد ١٨٣٩).

ففي تلك المواقف كان الخطأ يتصل بأمر من أمور الاعتقاد، وبمقولات تقدح في صفاء التوحيد لله عز وجل، وكثير منها كان صادرًا عن جهل من صاحبها.

وأحيانًا يكون الخطأ فعلًا يُخِلُّ بالسلوك اللائق بمكارم الأخلاق؛ فيُصححه ﷺ ناهيًا صاحبه عن ذلك، فعن يعيش بن طِخْفَة بن قيس الغفاري قال: كان أبي من أصحاب الصُّفَّة، فقال رسول الله ﷺ: «انطلقوا بنا إلى بيت عائشة رضي الله عنها»، فانطلقنا، فقال: «يا عائشة، أطعمينا»، فجاءت بجشيشة، فأكلنا، ثم قال: «يا عائشة، أطعمينا»، فجاءت بحيسة مثل القطاة فأكلنا، ثم قال: «يا عائشة، اسقينا»، فجاءت بعس من لبن فشربنا، ثم قال: «يا عائشة اسقينا»، فجاءت بقدح صغير فشربنا، ثم قال: «إن شئتم بِتُّم، وإن شئتم انطلقتم إلى المسجد»، قال: فبينما أنا مضطجع من السَّحَر على بطني إذا رجل يُحرِّكني برجله، فقال: «إن هذه ضجعة يبغضها الله عز وجل» قال: فنظرت فإذا رسول الله ﷺ (أخرجه أبو داود ٥٠٤٠، وابن ماجه ٣٧٢٣، وأحمد ١٥٥٤٣).

وقد يكون فعلًا يُؤذي الآخرين، فينهى ﷺ صاحبه عن ذلك على رؤوس الأشهاد؛ فعن أبي الزاهرية قال: كُنَّا مع عبد الله بن بسر صاحب النبي ﷺ يوم الجمعة، فجاء رجل يتخطَّى رقاب الناس، فقال عبد الله بن بسر: جاء رجل يتخطَّى رقاب الناس يوم الجمعة،

والنبي ﷺ يخطب فقال له النبي ﷺ: «اجلس فقد آذيت». (أخرجه أبو داود ١١١٨، وأحمد ١٧٦٩٧، والنسائي ١٣٩٩).

وعن جابر بن عبدالله رضي الله عنهما قال: جاء سليك الغطفاني يوم الجمعة، ورسول الله ﷺ يخطب، فجلس؛ فقال له: يا سُلَيْك، قم فاركع ركعتين، وتجوَّز فيهما، ثم قال: «إذا جاء أحدكم يوم الجمعة، والإمام يخطب، فليركع ركعتين، ولْيَتَجَوَّز فيهما». (أخرجه البخاري ٩٣١، ومسلم ٨٧٥، واللفظ لمسلم).

وربما تغافل ﷺ عن طلب صاحب الخطأ الاستغفار، وكرَّر عليه الإنكار، فعن صفوان بن محرز، أنه حدَّث أن جندب بن عبد الله البجلي بعث إلى عسعس بن سلامة زمن فتنة ابن الزبير، فقال: اجمع لي نفرًا من إخوانك حتى أحدثهم، فبعث رسولًا إليهم، فلما اجتمعوا، جاء جندب، وعليه برنس أصفر، فقال: تحدثوا بما كنتم تحدثون به حتى دار الحديث، فلما دار الحديث إليه حسر البرنس عن رأسه، فقال: إني أتيتكم، ولا أريد أن أخبركم عن نبيِّكم، إن رسول الله ﷺ بعث بعثًا من المسلمين إلى قوم من المشركين، وإنهم التقوا، فكان رجل من المشركين إذا شاء أن يقصد إلى رجل من المسلمين قصد له، فقتله، وإن رجلًا من المسلمين قصد غفلته، قال: وكُنَّا نُحدَّث أنه أسامة بن زيد، فلما رفع عليه السيف قال: لا إله إلا الله، فقتله، فجاء البشير إلى النبي ﷺ فسأله، فأخبره، حتى أخبره خبر الرجل كيف صنع، فدعاه، فسأله فقال: «لِمَ قتلته؟» قال: يا رسول الله، أوجع في المسلمين، وقتل فلانًا وفلانًا، وسمَّى له نفرًا، وإني حملت عليه، فلما رأى السيف قال: لا إله إلا الله، قال رسول الله ﷺ: «أقتلته؟» قال: نعم، قال: «فكيف تصنع بلا إله إلا الله إذا جاءت يوم القيامة؟» قال: يا رسول الله، استغفر لي، قال: «وكيف تصنع بلا إله إلا الله إذا جاءت يوم القيامة؟» قال: فجعل لا يزيده على أن يقول: «كيف تصنع بلا إله إلا الله إذا جاءت يوم القيامة». (أخرجه مسلم ٩٧، وأصله في البخاري ٦٨٧٢).

والإنكار المباشر للخطأ ليس قاصرًا على أن يقول للمخطئ: إنك أخطات حين قلت كذا، أو فعلت كذا، فقد يذكره ﷺ بالله سبحانه وتعالى، أو يذكر له عقوبة عمله؛ فعن أبي مسعود البدري ﷺ قال: كنت أضرب غلامًا لي بالسَّوط فسمعت صوتًا من خلفي: «اعلم أبا مسعود»، فلم أفهم الصوت من الغضب، قال: فلما دنا مني إذا هو رسول الله ﷺ، فإذا هو يقول: «اعلم أبا مسعود، اعلم أبا مسعود» قال: فألقيت السوط من يدي، فقال: «اعلم أبا مسعود أن الله أقدر عليك منك على هذا الغلام» قال: فقلت: لا أضرب مملوكًا بعده أبدًا. (أخرجه مسلم ١٦٥٩) .

٢- إظهار الغضب:

وقد يتطلب الأمر من النبي ﷺ تجاوز مُجرَّد التنبيه الصريح على الخطأ؛ فيظهر عليه الغضب ﷺ بصورة يدركها من حوله.

عن أبي مسعود ﷺ **قال:** أتى رجل النبي ﷺ فقال: إني لأتأخَّر عن صلاة الغداة من أجل فلان مما يطيل بنا، قال: فما رأيت رسول الله ﷺ قطُّ أشد غضبًا في موعظة منه يومئذ، قال: فقال: «يا أيها الناس، إن منكم مُنفِّرين، فأيُّكم ما صلَّى بالناس فليتجوَّز؛ فإن فيهم المريض، والكبير، وذا الحاجة». (أخرجه البخاري ٦١١٠، ومسلم ٤٦٦).

وعن عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جده ﷺ **قال:** خرج رسول الله ﷺ على أصحابه، وهم يختصمون في القَدَرِ، فكأنما يُفقأ في وجهه حبُّ الرُّمَّان من الغضب، فقال: «بهذا أُمرتم؟»، أو «لهذا خُلقتم؟ تضربون القرآن بعضه ببعض؟ بهذا هلكت الأمم قبلكم» قال: فقال عبد الله بن عمرو: ما غبطت نفسي بمجلس تخلَّفت فيه عن رسول الله ﷺ ما غبطت نفسي بذلك المجلس، وتخلُّفي عنه. (أخرجه أحمد ٦٦٣٠، وابن ماجه ٨٥).

وربما غضب ﷺ على زوجاته، وأهل بيته، فعن القاسم بن محمد، عن عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها، أنها أخبرته أنها اشترت نُمْرُقَة فيها تصاوير، فلما رآها رسول الله ﷺ قام على الباب، فلم يدخله، فعرفت في وجهه الكراهية، فقلت: يا رسول الله أتوب إلى الله، وإلى رسوله ﷺ ماذا أذنبت؟ فقال رسول الله ﷺ: «ما بال هذه النُّمْرُقَة؟» قلت: اشتريتها لك لتقعد عليها وتوسدها، فقال رسول الله ﷺ: «إن أصحاب هذه الصور يوم القيامة يُعذَّبون، فيُقال لهم: أحيوا ما خلقتم»، وقال: «إن البيت الذي فيه الصور لا تدخله الملائكة». (أخرجه البخاري ٢١٠٥، ومسلم ٢١٠٧).

وغضب ﷺ على عائشة في موقف آخر، فعن عائشة رضي الله عنها قالت: دخل عليَّ رسول الله ﷺ وعندي رجل قاعد، فاشتدَّ ذلك عليه، ورأيت الغضب في وجهه، قالت: فقلت: يا رسول الله، إنه أخي من الرضاعة، قالت: فقال: «انظرن إخوتكن من الرضاعة؛ فإنما الرضاعة من المجاعة». (أخرجه مسلم ١٤٥٥، واللفظ له، وأخرجه البخاري ٥١٠٢ بلفظ: « فكأنه تغير وجهه، كأنه كره ذلك»).

وغضب ﷺ على مَن فضَّله على موسى عليه السلام، عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: بينما يهودي يعرض سلعته، أُعطي بها شيئًا كرهه، فقال: لا والذي اصطفى موسى على البشر، فسمعه رجل من الأنصار، فقام فلطم وجهه، وقال: تقول: والذي اصطفى موسى على البشر، والنبي ﷺ بين أَظْهُرنا؟ فذهب إليه فقال: أبا القاسم، إن لي ذِمَّة وعهدًا، فما بال فلان لطم وجهي؟ فقال: «لِمَ لطمتَ وجهه؟» فذكره، فغضب النبي ﷺ حتى رُئِيَ في وجهه، ثم قال: «لا تُفضِّلوا بين أنبياء الله؛ فإنه يُنفخ في الصور، فيُصعق مَن في السموات، ومن في الأرض، إلا مَن شاء الله، ثم يُنفخ فيه أُخرى، فأكون أول مَن بعث، فإذا موسى آخذ بالعرش، فلا أدري أحُوسِب بصعقته يوم الطور، أم بُعث قبلي؟». (أخرجه البخاري ٣٤١٥، ومسلم ٢٣٧٣).

وغضب ﷺ على عبد الله بن عمر رضي الله عنهما حين طلَّق زوجته، وهي حائض، فعن سالم، أن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما، أخبره: أنه طلَّق امرأته وهي حائض، فذكر عمر لرسول الله ﷺ، فتغيَّظ فيه رسول الله ﷺ، ثم قال: «ليراجعها، ثم يمسكها حتى تَطْهُر، ثم تحيض فتطْهُر، فإن بدا له أن يُطلِّقها فليطلِّقها طاهرًا قبل أن يمسها، فتلك العدة كما أمر الله عز وجل». (أخرجه البخاري ٤٩٠٨، ومسلم ١٤٧١).

ولم يكن الغضب النبوي كحال بعض المُربِّين اليوم، فهو ليس انفعالًا يخرجه عن طوره ووقاره ﷺ، أو يُؤدي إلى تصرف حاد، وعقوبة لا تتلاءم مع الموقف.

وثمَّة فرق كبير بين غضب ناشئ عن خطأ المُتربِّي، وبين ما يمارسه بعض الآباء والأمهات، أو المعلمين من ردَّة فعل عنيفة تقود إلى لوم وتعنيف قد يتجاوز حدود الأدب، فيوجه للمخطئ عبارات وألفاظ نابية، أو إلى ضرب مبرح ربما أدى في بعض الحالات إلى إيذاء المتربي، وإلحاق الضرر البدني به.

ولا يسوغ أن يكون الغضب النبوي التربوي مُبرِّرًا لتسويغ حالات فقدان التحكم بالانفعال لدى المُربِّي، وحين تغلبه انفعالاته، ويعلو غضبه؛ فيتصرف بما لا ينبغي، فهذا أمر بشري، لكن لا ينبغي تسويغه وتبريره.

٣- الإغلاظ:

وفي بعض المواقف قد يُوجِّه ﷺ لمن يقع في الخطأ لومًا وعتابًا يتناسب مع خطئه، عن واصل الأحدب، عن المعرور بن سويد، قال: لقيت أبا ذَرٍّ رضي الله عنه بالرَّبَذَة، وعليه حُلَّة، وعلى غلامه حُلَّة، فسألته عن ذلك، فقال: إني ساببت رجلًا فعيَّرته بأُمِّه، فقال لي النبي ﷺ: «يا أبا ذَرٍّ، أعيَّرته بأُمِّه؟ إنك امرؤ فيك جاهلية، إخوانكم خولكم، جعلهم الله تحت أيديكم، فمَن كان أخوه تحت يده، فليطعمه مما يأكل، وليُلبسه مما يلبس، ولا تكلِّفوهم ما يغلبهم، فإن كلفتموهم فأعينوهم». (أخرجه البخاري ٣٠، ومسلم ١٦٦١).

وربما أثَّر ذلك على مَن وقع عليه اللوم والانتهار؛ فعن المغيرة بن شعبة ﵁، أن رسول الله ﷺ أكل طعامًا، ثم أُقيمت الصلاة، فقام، وقد كان توضأ قبل ذلك، فأتيته بماء ليتوضأ منه، فانتهرني وقال: «وراءك»، فساءني والله ذلك، ثم صلَّى، فشكوت ذلك إلى عمر، فقال: يا نبي الله، إن المغيرة قد شقَّ عليه انتهارك إياه، وخشي أن يكون في نفسك عليه شيء، فقال النبي ﷺ: «ليس عليه في نفسي شيء إلا خير، ولكن أتاني بماء لأتوضأ، وإنما أكلت طعامًا، ولو فعلت فعل ذلك الناس بعدي». (أخرجه أحمد ١٨٢١٩).

وهكذا نجد صفاء نفس النبي ﷺ، وأن القسوة التي قد يقتضيها الموقف لا تمتد فتُوثر على مشاعره ﷺ تجاه مَن وقع في الخطأ.

٤- الإعلان:

ربما اقتضى الأمر أن يُعلن ﷺ تصحيح الخطأ على المنبر أمام الناس.

عن أنس ﵁، أن نفرًا من أصحاب النبي ﷺ سألوا أزواج النبي ﷺ عن عمله في السر، فقال بعضهم: لا أتزوج النساء، وقال بعضهم: لا آكل اللحم، وقال بعضهم: لا أنام على فراش، فحمد الله، وأثنى عليه، فقال: ما بال أقوام قالوا كذا وكذا؟ لكني أصلي وأنام، وأصوم، وأفطر، وأتزوج النساء، فمن رَغِب عن سُنَّتِي فليس مني». (أخرجه البخاري ٥٠٦٣، ومسلم ١٤٠١، واللفظ له).

وعن عائشة ﵂ قالت: صنع رسول الله ﷺ أمرًا فترخص فيه، فبلغ ذلك ناسًا من أصحابه، فكأنهم كرهوه، وتنزهوا عنه، فبلغه ذلك، فقام خطيبًا، فقال: «ما بال رجال بلغهم عنِّي أمر ترخَّصت فيه فكرهوه، وتنزهوا عنه؛ فوالله لأنا أعلمهم بالله، وأشدهم له خشية». (أخرجه البخاري مختصرًا ٦١٠١، ومسلم ٢٣٥٦، واللفظ له).

كما تكرَّر الأمر في موقف عائشة رضي الله عنها مع أهل بريرة رضي الله عنها، عن عائشة رضي الله عنهاقالت: دخلت عليَّ بريرة فقالت: إن أهلي كاتبوني على تسع أواقٍ في تسع سنين، في كل سنة أوقية فأعينيني، فقلت لها: إن شاء أهلك أن أعدها لهم عدة واحدة، وأعتقك، ويكون الولاء لي؛ فعلت، فذكرت ذلك لأهلها، فأبوا إلا أن يكون الولاء لهم، فأتتني، فذكرت ذلك، قالت: فانتهرتها فقالت: لا ها الله إذا قالت، فسمع رسول الله ﷺ، فسألني، فأخبرته، فقال: «اشتريها، وأعتقيها، واشترطي لهم الولاء، فإن الولاء لمن أُعتق»، ففعلت قالت: ثم خطب رسول الله ﷺ عشية، فحمد الله، وأثنى عليه بما هو أهله، ثم قال: «أمَّا بعد، فما بال أقوام يشترطون شروطًا ليست في كتاب الله؟ ما كان من شرط ليس في كتاب الله عز وجل فهو باطل، وإن كان مائة شرط، كتاب الله أحق، وشرط الله أوثق، ما بال رجال منكم يقول أحدهم: أعتق فلانًا، والولاء لي، إنما الولاء لمن أُعتق». (أخرجه البخاري ٢١٦٨، ومسلم ١٥٠٤، واللفظ لمسلم).

وفي هذه المواقف نجد أن الخطأ لم يكن أمام الناس، إلا أنه ﷺ تحدَّث عنه على المنبر؛ نظرًا لأن ملابسات الخطأ وظروفه قد تتكرَّر، فقد يعتقد غير هؤلاء المتعبدين أن عليهم من العبادة ما ليس على النبي ﷺ، و الأمر نفسه فيما يتصل بالمعاملات.

ومع ذلك، فإن النبي ﷺ وهو يُصحح هذه الأخطاء من أصحابه، فإنه لم يتحدث عن أشخاص بأسمائهم وأعيانهم، إنما كان يقول: ما بال أقوام.

الإنكار الخاص:

وكما أعلن ﷺ بالإنكار على طائفة ممن وقع في الخطأ، إلا أننا نجده في موقف مُشابه ينكر إنكارًا خاصًا، عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال: أُخبِرَ رسول الله ﷺ أنَّه يقول: لأقومن الليل، ولأصومن النهار ما عشت، فقال رسول الله ﷺ: آنت الذي تقول

ذلك؟ فقلت له: قد قلته يا رسول الله، فقال رسول الله ﷺ: «فإنك لا تستطيع ذلك، فصُمْ وأفطر، ونَمْ وقُمْ، وصُمْ من الشهر ثلاثة أيام؛ فإن الحسنة بعَشْرِ أمثالها، وذلك مثل صيام الدهر، قال: قلت: فإني أطيق أفضل من ذلك، قال: صُمْ يومًا، وأفطر يومين، قال: قلت: فإني أُطيق أفضل من ذلك يا رسول الله، قال: صُم يومًا، وأفطر يومًا، وذلك صيام داود ﵇، وهو أعدل الصيام، قال: قلت: فإني أطيق أفضل من ذلك قال رسول الله ﷺ: لا أفضل من ذلك، قال عبد الله بن عمرو ﵄: لأن أكون قبلت الثلاثة الأيام التي قال رسول الله ﷺ أحب إليَّ من أهلي ومالي. (أخرجه البخاري ١٩٧٥، ومسلم ١١٥٩، واللفظ لمسلم).

إن هذا الموقف شبيه بموقف مَن سألوا عن عبادة النبي ﷺ، إلا أنه ﷺ لم يتحدث عن هذا الأمر على المنبر، بل دعا عبد الله ﵁ وصوَّب له الأمر.

ففي رواية لمسلم (١١٥٩) فإما ذكرت للنبي ﷺ، وإما أرسل إليَّ فأتيته.

وقد جاء الجزم بأنه دعاه في رواية النسائي (٢٣٨٩)، ففيها أن أباه ذكر ذلك للنبي ﷺ فقال: «ائتني به»، فأتيته معه.

وليس الحديث العام هو الخيار المناسب في كل موقف، والمعتبر في ذلك الأصلح والأقرب لتحقيق المقصود الشرعي.

ولعله من غير المناسب أن يعمد المعلم للحديث أمام طلبته عن خطأ معين يعلمون جميعًا أن المقصود به فلان من الناس، وربما التفتوا إليه أثناء الحديث، فالأنسب ها هنا التأسِّي بما فعله ﷺ مع عبد الله بن عمرو ﵄.

٥- إظهار الكراهية:

وربما ظهرت منه ﷺ الكراهية، ففهمها مَن وقع في الأمر دون أن يُصرح ﷺ له بذلك، عن جابر بن عبدالله ﵄ قال: أتيت النبي ﷺ في دَيْن كان على أبي، فدققت

الباب، فقال: مَن ذا؟ فقلت: أنا، فقال: «أنا، أنا، كأنه كرهها». (أخرجه البخاري ٦٢٥٠، ومسلم ٢١٥٥).

٦- الترك والتولي:

وقد يرى ﷺ أن الحديث مع المخطئ قد يمتد إلى دائرة الجدل، فيترك الأمر، وبخاصة حين لا يترتب على ذلك لبس لدى الواقع في الخطأ، أو اعتقاد صحة ما عمل، عن علي بن أبي طالب، قال: إن رسول الله ﷺ طرقه وفاطمة بنت رسول الله ﷺ، فقال لهم: «ألا تُصلُّون»، فقال علي ﷺ: فقلت: يا رسول الله، إنما أنفسنا بيد الله، فإذا شاء أن يبعثنا بعثنا، فانصرف رسول الله ﷺ حين قال له ذلك، ولم يرجع إليه شيئًا، ثم سمعه، وهو مدبر يضرب فخذه، وهو يقول: ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ أَكْثَرَ شَىْءٍ جَدَلًا﴾ . (أخرجه البخاري ٧٣٤٧، ومسلم ٧٧٥).

إن وظيفة تصويب الخطأ تسديد المُتربِّي وتوجيهه، وليست محاكمته بالخطأ، ومِن ثَمَّ؛ فلا معنى للإصرار على انتزاع اعترافه بالخطأ، أو إطالة الجدل معه.

وكثير من المُتربِّين قد يصعب عليه الإقرار بالخطأ والاعتراف به؛ فطبيعة النفس قد تأنف من ذلك وتستكثره، ولكنه حين يهدأ تفكيره، ويزول انفعاله؛ يدرك خطأه.

٧- الهجر:

وربما هجر ﷺ مَن وقع في الخطأ، وأعرض عنه، وقد فعل ذلك ﷺ مع الثلاثة الذين خُلِّفوا حين تخلَّفوا عن غزوة تبوك، وترك هذا الهجر منه ﷺ وصحابته أثره على كعب رضي الله عنه وأصحابه، ويظهر هذا الأثر فيما جاء في سورة التوبة من وصف لحالهم رضي الله عنهم حيث قال عز وجل: ﴿وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُوا۟ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوٓا۟ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ (التوبة: ١١٨).

وربما كان هجره ﷺ لمن يقع في الخطأ إعراضًا عنه حتى يدرك ما وقع فيه من خطأ، عن أبي سعيد الخدري ﷺ، أن رجلًا قدم من نجران إلى رسول الله ﷺ، وعليه خاتم ذهب، فأعرض عنه رسول الله ﷺ، ولم يسأله عن شيء، فرجع الرجل إلى امرأته فحدَّثها، فقالت: إن لك لشأنًا، فارجع إلى رسول الله ﷺ، فرجع إليه، فألقى خاتمه وجُبَّة كانت عليه، فلما استأذن أذن له، وسلَّم على رسول الله ﷺ، فردَّ ﷺ، فقال: يا رسول الله أعرضت عَنِّي قبل حين جئتك، فقال رسول الله ﷺ: «إنك جئتني وفي يدك جمرة من نار»، فقال: يا رسول الله لقد جئت إذًا بجمر كثير، وكان قد قدم بحُلي من البحرين، فقال رسول الله ﷺ: «إن ما جئت به غير مُغن عنَّا شيئًا، إلا ما أغنت حجارة الحرة، ولكنه متاع الحياة الدنيا»، فقال الرجل: فقلت: يا رسول الله اعذرني في أصحابك، لا يظنون أنك سخطت علي بشيء، فقام رسول الله ﷺ، فعذره، وأخبر أن الذي كان منه إنما كان لخاتمه الذهب. (أخرجه أحمد ١١١٠٩، والنسائي مختصرًا ٥١٨٨).

وفي هذا الموقف حفظ ﷺ لهذا الرجل حقه، فبيَّن لأصحابه سبب هذا الهجران؛ حتى لا يظنون به خلاف ذلك، كما أن الهجر والإعراض قد زال حين زال السبب لذلك؛ فحين ألقى ما عليه، ردَّ عليه ﷺ السلام.

وأعرض- أيضًا- عن رجل رأى عليه خاتمًا من ذهب، فعن عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جده، أن النبي ﷺ رأى على بعض أصحابه خاتمًا من ذهب، فأعرض عنه، فألقاه، واتَّخذ خاتمًا من حديد، فقال: «هذا شرٌّ، هذا حلية أهل النار»، فألقاه، فاتَّخذ خاتمًا من وَرِق، فسكت عنه. (أخرجه أحمد ٦٥١٨).

وقد كان هذا شأنه- أيضًا- ﷺ مع أهل بيته، فقد كان يعرض عن مَن وقع في الخطأ حتى يتوب إلى الله.

عن عائشة ﵂ قالت: «كان رسول الله ﷺ إذا اطَّلع على أحد من أهل بيته كذب كذبة لم يزل معرضًا عنه حتى يُحْدِث توبة». (أخرجه العقيلي في الضعفاء الكبير، ص ٢٦).

ورغم أن من مقاصد هجر المخطئ عقوبته على ذلك، إلا أنه ﷺ لم يكن يهجر كل مَن وقع في الخطأ، إنما كان ذلك مرتبطًا بالمصلحة.

فها هو ﷺ يتبسط مع أحد أصحابه رغم كثرة شربه للخمر، فعن عمر بن الخطاب ﵁: أن رجلًا على عهد النبي ﷺ كان اسمه عبد الله، وكان يُلقَّب حمارًا، وكان يضحك رسول الله ﷺ، وكان النبي ﷺ قد جلده في الشراب، فأُتِيَ به يومًا، فأمر به فجلد، فقال رجل من القوم: اللهم الْعَنْهُ، ما أكثر ما يُؤتى به؟ فقال النبي ﷺ: «لا تلعنوه، فوالله ما علمت أنه يحب الله ورسوله». (أخرجه البخاري ٦٧٨٠).

وقد جاء في بعض روايات الحديث أنه كان يهدي لرسول الله ﷺ العكة من السمن، والعكة من العسل، فإذا جاء صاحبها يتقاضاه جاء به إلى رسول الله ﷺ، فيقول: يا رسول الله، أَعطِ هذا ثمن متاعه، فما يزيد رسول الله ﷺ على أن يتبسم، ويأمر به، فيُعطى، فجيء به يومًا إلى رسول الله ﷺ، وقد شرب الخمر، فقال رجل: اللهم الْعَنْهُ، ما أكثر ما يُؤتى به رسول الله ﷺ، فقال رسول الله ﷺ: «لا تلعنوه؛ فإنه يحب الله ورسوله». (أخرجه أبو يعلى ١٧٦).

٨ - العقوبة:

وقد يُعاقب ﷺ مَن وقع منه الخطأ، كما في قصة عوف بن مالك مع خالد بن الوليد ﵄، عن عوف بن مالك ﵁، قال: قتل رجل من حمير رجلًا من العدو، فأراد سلبه، فمنعه خالد بن الوليد ﵁، وكان واليًا عليهم، فأتى رسولَ الله ﷺ عوفُ بن مالك، فأخبره، فقال لخالد: «ما منعك أن تعطيه سلبه؟» قال: استكثرته يا رسول الله، قال:

«ادفعه إليه»، فمرَّ خالد بعوف، فجرَّ بردائه، ثم قال: هل أنجزت لك ما ذكرت لك من رسول الله ﷺ، فسمعه رسول الله ﷺ فاستغضب، فقال: «لا تُعطِه يا خالد، لا تُعطِه يا خالد، هل أنتم تاركون لي أمرائي؟ إنما مثلكم ومثلهم كمثل رجل استرعي إبلًا، أو غنمًا، فرعاها، ثم تحيَّن سقيها، فأوردها حوضًا، فشرعت فيه فشربت صفوه، وتركت كدره، فصفوه لكم، وكدره عليهم». (أخرجه مسلم ١٧٥٣).

وعاقب ﷺ رجلًا بَصَقَ في القبلة، فعزله عن الإمامة في الصلاة، عن أبي سهلة السائب بن خلَّاد- قال أحمد: من أصحاب النبي ﷺ- أن رجلًا أَمَّ قومًا، فبَصَقَ في القبلة، ورسول الله ﷺ ينظر، فقال رسول الله ﷺ حين فرغ: «لا يُصلِّي لكم»، فأراد بعد ذلك أن يُصلِّي لهم، فمنعوه، وأخبروه بقول رسول الله ﷺ، فذكر ذلك لرسول الله ﷺ، فقال: «نعم»، وحسبت أنه قال: «إنك آذيت الله ورسوله». (أخرجه أبو داود ٤٨١).

تغليب النظر إلى المخطئ:

وقد يقتضي الأمر تغليب النظر إلى مَن وقع منه الخطأ، ومراعاة حاله، وهنا نجد التصحيح غير المباشر، وتجنب الإغلاظ عليه.

وكما سبقت الإشارة عند الحديث عن تغليب النظر إلى الخطأ، فهذه الأساليب- أيضًا- لا تعني تجاهل الخطأ، بل هو الباعث على التصحيح.

ومن الأساليب النبوية التي يُغلِّب فيها ﷺ النظر إلى حال مَن وقع منه الخطأ ما يلي:

١- التثبُّت من الخطأ:

تصويب الخطأ، وانتقاد المخطئ ينبغي أن يسبقه التأكد من وقوع الخطأ ودوافعه، ففي بعض الحالات يتسرع المربي، ويفهم الأمر على غير وجهه، وربما قاد ذلك إلى ظلم المُخطئ، أو إعطاء صورة لا تليق بالمربي.

حين أراد النبي ﷺ فتح مكة كتب حاطب ﷺ إلى أهل مكة يخبرهم بقدومه ﷺ، وكان أوّل مافعله ﷺ بعد أن بلغه الخبر أن دعا حاطبًا ﷺ، وتثبّت من الأمر، وقال له: «ما حملك على ما صنعت؟» قال حاطب: والله ما بي أن لا أكون مؤمنًا بالله ورسوله ﷺ، أردت أن يكون لي عند القوم يد يدفع الله بها عن أهلي ومالي، وليس أحد من أصحابك إلَّا له هناك من عشيرته مَن يدفع الله به عن أهله وماله، فقال النبي ﷺ: «صدق، ولا تقولوا له إلا خيرًا». (أخرجه البخاري ٣٩٨٣، ومسلم ٢٤٩٤).

وحين اشتكى له عمر بن الخطاب ﷺ هشام بن حكيم، وقد قرأ بخلاف ما أقرأه رسول الله ﷺ تثبّت ﷺ من الأمر، عن عمر بن الخطاب ﷺ قال: سمعت هشام بن حكيم بن حزام يقرأ سورة الفرقان على غير ما أقرؤها، وكان رسول الله ﷺ أقرأنيها، وكدت أن أعجل عليه، ثم أمهلته حتى انصرف، ثم لَبَبْتُهُ بردائه، فجئت به رسول الله ﷺ، فقلت: إني سمعت هذا يقرأ على غير ما أقرأتنيها، فقال لي: «أرسله»، ثم قال له: «اقرأ»، فقرأ، قال: «هكذا أنزلت»، ثم قال لي: «اقرأ»، فقرأت، فقال: «هكذا أنزلت، إن القرآن أُنزل على سبعة أحرف، فاقرؤوا منه ما تيسر». (أخرجه البخاري ٢٤١٩، ومسلم ٨١٨).

ومن تثبُّته ﷺ قبل بيان الخطأ: فعله مع عبد الله بن عمرو ﷺ في قصته المشهورة في مبالغته ﷺ في العبادة، جاء في بعض روايات الحديث: «ألم أُخبر أنك تقوم الليل، وتصوم النهار؟» قلت: إني أفعل ذلك. (أخرجه البخاري ١١٥٣، ومسلم ١١٥٩).

وحين رأى ﷺ رجلًا جلس، ولم يُصلِّ ركعتين سأله قبل أن ينكر عليه، عن جابر بن عبد الله ﷺ، قال: جاء رجل، والنبي ﷺ يخطب الناس يوم الجمعة، فقال: «أصلَّيْت يا فلان؟» قال: لا، قال: «قُمْ فاركع». (أخرجه البخاري ٩٣٠، ومسلم ٨٧٥).

إن العمل قد يكون خطأً لا إشكال فيه، حينها لا بُدَّ من ثبوت فعله، وفي بعض الأحوال قد يثبت الفعل، لكن الأمر يتطلب استطلاع حال صاحبه، فقد يكون جاهلًا،

أو له مقصد غير ظاهر، عن عبد الرحمن بن وعلة السبئي من أهل مصر، أنه سأل عبد الله بن عباس عما يعصر من العنب، فقال ابن عباس: إن رجلًا أهدى لرسول الله ﷺ راوية خمر، فقال له رسول الله ﷺ: «هل علمت أن الله قد حرَّمها؟ قال: لا، فسارَّ إنسانًا، فقال له رسول الله ﷺ: بِمَ ساررته؟ فقال: أمرته ببيعها، فقال: إن الذي حرَّم شربها حرم بيعها»، قال: ففتح المزاد حتى ذهب ما فيها. (أخرجه مسلم ١٥٧٩).

ويتجلَّى التثبُّت من الخطأ هنا في موقفين:

الأول: سؤاله ﷺ للرجل عن مدى علمه بتحريم الخمر، قال النووي: «لعل السؤال كان ليعرف حاله؛ فإن كان عالمًا بتحريمها أنكر عليه هديتها، وإمساكها، وحملها، وعزَّره على ذلك، فلما أخبره أنه كان جاهلًا بذلك عذره، والظاهر أن هذه القضية كانت على قرب تحريم الخمر قبل اشتهار ذلك». (شرح صحيح مسلم ١١/ ٤).

الثاني: سؤاله عن الحديث الذي دار بين الرجلين؛ فهو محتمل أنه أمره بما لا يجوز فعله جهلًا منه، ومحتمل لخلاف ذلك، فلم يعجل ﷺ حتى يتبيَّن الأمر.

وسؤال المخطئ إنما يكون حين يظهر منه الخطأ، ويكون محتملًا للعذر، أما التفتيش والتنقيب، وسؤال المرء عما يخفيه فهو خلاف منهج النبي ﷺ، وقد قال ﷺ عن نفسه: «إني لم أُومر أن أنقب عن قلوب الناس، ولا أشق بطونهم». (أخرجه البخاري ٤٣٥٢، ومسلم ١٠٦٤).

وحين يختلف الحكم باختلاف حال الشخص، فإنه ﷺ يسأله عن حاله، عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ فاستأذنه في الجهاد، فقال: «أحيٌّ والداك؟ قال: نعم، قال: ففيهما فجاهد». (أخرجه البخاري ٣٠٠٤، ومسلم ٢٥٤٩).

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن رجلًا هاجر إلى رسول الله ﷺ من اليمن، فقال: هل

لك أحد باليمن؟ قال: أبواي، قال: أَذِنَا لك؟ قال: لا، قال: «ارجع إليهما فاستأذنهما، فإن أَذِنَا لك فجاهد، وإلا فبرهما». (أخرجه أبو داود ٢٥٣٠، وأحمد ١١٧٢١).

٢- ترك الاستقصاء:

أحيانًا كان ﷺ يكتفي بذكر جانب من الخطأ دون الاسترسال في بقية التفاصيل، وقد جاء ذلك في كتاب الله في حديثه ﷺ مع أهله كما قال عز وجل: ﴿وَإِذْ أَسَرَّ ٱلنَّبِىُّ إِلَىٰ بَعْضِ أَزْوَٰجِهِۦ حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِۦ وَأَظْهَرَهُ ٱللَّهُ عَلَيْهِ عَرَّفَ بَعْضَهُۥ وَأَعْرَضَ عَنۢ بَعْضٍ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِۦ قَالَتْ مَنْ أَنۢبَأَكَ هَٰذَا قَالَ نَبَّأَنِىَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْخَبِيرُ﴾ (التحريم: ٣).

قال الحسن: ما استقصى كريمٌ قطُّ.

وقال سفيان: مازال التغافل من فعل الكرام.

إن تفاصيل بعض الأخطاء قد تكون مُحرِجة، وعليه فليس من المناسب الاستطراد في هذه التفاصيل، وهزُّ شخصية المتربي، وإيقاعه في الحرج، والهدف الأهم هو التصويب والتسديد، وهو سيتحقق دون استخدام مثل هذا النمط.

كما أن كثيرًا من المشكلات لا يتوقف حلُّها على استيعاب كافة التفاصيل، والمربي إنما يحتاج التفاصيل المعبرة عن جوهر المشكلة، وما سوى ذلك فالغالب أنه لا أثر له على التعامل معها فيما بعد.

وهذا الرقي في التعامل مع المخطئ يشعره بقيمته، ويظهر شخصية المربي بمظهر الوقار والسمت اللائق، كما أنه وسيلة مهمة لتربيته على هذا السلوك في التعامل مع الآخرين، ومُراعاة مشاعرهم.

وربما تجاوز بعض الأخطاء، ولم يلتفت إليها، كما وصفه أنس ﷺ بقوله: خدمت النبي ﷺ عشر سنين، فما أمرني بأمر فتوانيت عنه، أو ضيعته، فَلَامَنِي، فإن لامني أحد

من أهل بيته إلا قال: «دعوه، فلو قدر- أو قال: لو قضي- أن يكون كان». (أخرجه أحمد ١٣٤١٨).

٣- التعامل مع الخطأ الظاهر دون التفتيش:

كان ﷺ يتعامل مع الخطأ الذي يظهر له، ولا يُفتِّش ويُنقِّب عن الأخطاء والهفوات، فعن أبي سعيد الخدري ﷺ، قال: بعث علي بن أبي طالب ﷺ إلى رسول الله ﷺ من اليمن بذهيبة في أديم مقروظ، لم تحصل من ترابها، قال: فقسمها بين أربعة نفر، بين عُيينة بن بدر، وأقرع بن حابس، وزيد الخيل، والرابع: إما علقمة، وإما عامر بن الطفيل، فقال رجل من أصحابه: كُنَّا نحن أحق بهذا من هؤلاء، قال: فبلغ ذلك النبي ﷺ فقال: «ألا تأمنوني، وأنا أمين مَن في السماء؟ يأتيني خبر السماء صباحًا ومساءً»، قال: فقام رجل غائر العينين، مشرف الوجنتين، ناشز الجبهة، كث اللحية، محلوق الرأس، مشمر الإزار، فقال: يا رسول الله، اتقِّ الله، قال: «ويلك، أولستُ أحق أهل الأرض أن يتقي الله؟» قال: ثم وَلَّى الرجل، قال خالد بن الوليد: يا رسول الله، ألا أضرب عنقه؟ قال: «لا، لعله أن يكون يُصلِّي» فقال خالد: وكم من مُصلٍّ يقول بلسانه ما ليس في قلبه، قال رسول الله ﷺ: «إني لم أومر أن أُنقِّب عن قلوب الناس، ولا أشقَّ بطونهم» قال: ثم نظر إليه وهو مُقَفٍّ، فقال: «إنه يخرج من ضِئْضِئِ هذا قوم يتلون كتاب الله رطبًا، لا يجاوز حناجرهم، يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية»، وأظنه قال: «لئن أدركتهم لأقتلنهم قتل ثمود». (أخرجه البخاري ٤٣٥١، ومسلم ١٠٦٤).

ونهى عن تتبع عورات المسلمين، والنهي عام يشمل ما كان بحسن نِيَّة، أو بسوء نِيَّة، عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: صعد رسول الله ﷺ المنبر فنادى بصوت رفيع، فقال: «يا معشر مَن أسلم بلسانه، ولم يفض الإيمان إلى قلبه، لا تؤذوا المسلمين، ولا تُعيِّروهم، ولا تتبعوا

عوراتهم، فإنه مَن تتبع عورة أخيه المسلم تتبَّع الله عورته، ومَن تتبَّع الله عورته يفضحه، ولو في جوف رحله» قال: ونظر ابن عمر يومًا إلى البيت، أو إلى الكعبة فقال: «ما أعظمك، وأعظم حرمتك، والمؤمن أعظم حرمة عند الله منك». (أخرجه الترمذي ٢٠٣٢).

٤- حفظ حق مَن وقع عليه الخطأ:

وكان ﷺ يحفظ حق مَن وقع عليه الخطأ، عن عوف بن مالك ﷺ، قال: قتل رجل من حمير رجلًا من العدو، فأراد سلبه، فمنعه خالد بن الوليد، وكان واليًا عليهم، فأتى رسولَ الله ﷺ عوفُ بن مالك، فأخبره، فقال لخالد: «ما منعك أن تعطيه سلبه؟» قال: استكثرته يا رسول الله، قال: «ادفعه إليه»، فمر خالد بعوف، فجر بردائه، ثم قال: هل أنجزت لك ما ذكرت لك من رسول الله ﷺ، فسمعه رسول الله ﷺ فاستغضب، فقال: «لا تُعطِه يا خالد، لا تُعطِه يا خالد، هل أنتم تاركون لي أمرائي؟ إنما مثلكم ومثلهم كمثل رجل استرعي إبلًا، أو غنمًا، فرعاها، ثم تحيَّن سقيها، فأوردها حوضًا، فشرعت فيه، فشربت صفوه، وتركت كدره، فصفوه لكم، وكدره عليهم». (أخرجه مسلم ١٧٥٣).

ففي هذا الموقف تجاوز عوف ﷺ على خالد بن الوليد ﷺ، فغضب ﷺ، وعاقب عوفًا ﷺ بحرمانه من سلبه؛ حفظًا لحق خالد ﷺ.

إن المخطئ قد يكون موضع تناول الناس، وفي حالات كثيرة يتجاوز الأقران، أو غيرهم الحدَّ في التعامل مع المخطئ، وهنا يجدر بالمربي أن يحفظ له حقه؛ فالخطأ الواقع منه لا يُبرر للآخرين التصرف القاسي تجاهه دون ضابط.

٥- التصحيح غير المباشر:

وأحيانًا كان ﷺ يتبع أسلوبًا غير مباشر في تصحيح الخطأ، فلا يُوجِّه حديثه للمخطئ، ولا يتحدث عن العمل، ويصدر حكمه عليه.

عن أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنهما قالت: خرجنا مع رسول الله ﷺ حُجَّاجًا حتى إذا كُنَّا بالعَرْج، نزل رسول الله ﷺ ونزلنا، فجلست عائشة رضي الله عنها إلى جنب رسول الله ﷺ وجلست إلى جنب أبي، وكانت زمالة أبي بكر، وزمالة رسول الله ﷺ واحدة مع غلام لأبي بكر، فجلس أبو بكر ينتظر أن يطلع عليه، فطلع وليس معه بعيره، قال: أين بعيرك؟ قال أضللته البارحة، قال: فقال أبو بكر: بعير واحد تضله؟ قال: فطفق أبو بكر يضربه، ورسول الله ﷺ يتبسم، ويقول: «انظروا إلى هذا المُحرم ما يصنع؟» قال ابن أبي رزمة: فما يزيد رسول الله ﷺ على أن يقول: «انظروا إلى هذا المُحرم ما يصنع؟»، ويتبسم. (أخرجه أبو داود ١٨١٨، وابن ماجه ٢٩٣٣).

في هذا الموقف اكتفى ﷺ بقوله: انظروا إلى هذا المُحرم، وفيه تذكير لأبي بكر رضي الله عنه بحاله، وربما كان هذا العبد يستحق التأديب؛ لإهماله وتقصيره.

وربما وجَّه النبي ﷺ الحديث لأصحابه ليسمع الرجل، أو ليعيد له أصحابه المقولة، عن سليمان بن صرد قال: استبَّ رجلان عند النبي ﷺ، ونحن عنده جلوس، وأحدهما يسبُّ صاحبه مغضبًا قد احمرَّ وجهه، فقال النبي ﷺ: «إني لأعلم كلمة لو قالها لذهب عنه ما يجد، لو قال: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم» فقالوا للرجل: ألا تسمع ما يقول النبي ﷺ؟ قال: إني لست بمجنون. (أخرجه البخاري ٦١١٥، ومسلم ٢٦١٠).

وسبق تناول التوجيه غير المباشر وأساليبه ﷺ في ذلك.

٦- الثناء على المُخطئ بما يعلمه عنه من خير:

وقد يُثني ﷺ على مَن وقع في الخطأ بما يعلمه عنه من خير، عن جبير بن نفير، عن أبي الدرداء رضي الله عنه، قال: كُنَّا مع رسول الله ﷺ فشخص ببصره إلى السماء ثم قال: «هذا أوان يختلس العلم من الناس حتى لا يقدروا منه على شيء» فقال زياد بن لبيد الأنصاري: كيف

يختلس مِنَّا، وقد قرأنا القرآن؟ فوالله لنَقْرَأَنَّهُ، ولنُقْرِئَنَّهُ نساءنا، وأبناءنا، فقال: «ثكلتك أُمُّك يا زياد، إن كنت لأعدك من فقهاء أهل المدينة، هذه التوراة والإنجيل عند اليهود والنصارى فماذا تغني عنهم؟» قال جبير: فلقيت عبادة بن الصامت، قلت: ألا تسمع إلى ما يقول أخوك أبو الدرداء؟ فأخبرته بالذي قال أبو الدرداء قال: «صدق أبو الدرداء، إن شئت لأحدثنك بأول عِلم يُرفع من الناس؟ الخشوع، يُوشك أن تدخل مسجد جماعة فلا ترى فيه رجلًا خاشعًا». (أخرجه الترمذي ٢٦٥٣).

٧- قبول الصواب من المخطئ:

العمل البشري ليس بالضرورة كتلة واحدة يُمكن أن تصنف في دائرة الخطأ والصواب، فقد يتضمن الموقف الواحد جانبًا من الصواب، وجانبًا من الخطأ.

وحين يكون الأمر كذلك؛ فإنه ﷺ يقبل الصواب ممن أصاب، وبيَّن له ما أخطأ فيه، عن الربيع بنت معوذ بن عفراء ﵂ قالت: جاء النبي ﷺ فدخل حين بُنِيَ عليَّ، فجلس على فراشي كمجلسك مِنِّي، فجعلت جويريات لنا يضربن بالدُّف، ويندبن من قتل من آبائي يوم بدر، إذ قالت إحداهن: وفينا نبي يعلم ما في غد، فقال: «دعي هذه، وقولي بالذي كنت تقولين». (أخرجه البخاري ٥١٤٧).

لقد أصابت هذه الجارية في الثناء على رسول الله ﷺ، وقالت قولًا حقًّا، ثم أضافت له نسبته لعلم الغيب، فأقرَّها ﷺ على الثناء بحق، ونهاها عما تجاوزت فيه.

وحين فسَّر أبو بكر ﵁ الرؤيا بمحضره ﷺ، أخبره أنه أصاب في بعض التفسير، وأخطأ في بعضه.

عن ابن عباس ﵄، كان يحدث: أن رجلًا أتى رسول الله ﷺ فقال: إني رأيت الليلة في المنام ظُلَّة تنطف السمن والعسل، فأرى الناس يتكفَّفون منها، فالمُستكثر والمُستقل، وإذا

سببٌ واصل من الأرض إلى السماء، فأراك أخذت به فعلوت، ثم أخذ به رجل آخر فعلا به، ثم أخذ به رجل آخر فعلا به، ثم أخذ به رجل آخر فانقطع، ثم وصل، فقال أبو بكر: يا رسول الله، بأبي أنت، والله لتدعني فأعبرها، فقال النبي ﷺ: «اعبرها» قال: أما الظُّلَّة: فالإسلام، وأما الذي ينطف من العسل والسمن: فالقرآن، حلاوته تنطف، فالمُستكثر من القرآن والمستقل، وأما السبب الواصل من السماء إلى الأرض: فالحق الذي أنت عليه، تأخذ به؛ فيُعليك الله، ثم يأخذ به رجل من بعدك؛ فيعلو به، ثم يأخذ به رجل آخر؛ فيعلو به، ثم يأخذه رجل آخر؛ فينقطع به، ثم يوصل له؛ فيعلو به، فأخبرني يا رسول الله، بأبي أنت، أصبتُ أم أخطأتُ؟ قال النبي ﷺ: «أصبتَ بعضًا، وأخطأتَ بعضًا» قال: فوالله لتحدثني بالذي أخطأتُ، قال: «لا تقسم». (أخرجه البخاري ٧٠٤٦، ومسلم ٢٢٦٩).

وقد يتمثل صواب المخطئ في الاجتهاد، وحسن النية، فيثني ﷺ على ذلك، ويُبيِّن له خطأ العمل، عن أبي بكرة ﷺ أنه انتهى إلى النبي ﷺ وهو راكع، فركع قبل أن يَصِلَ إلى الصف، فذكر ذلك للنبي ﷺ فقال: «زادك الله حرصًا، ولا تَعُدْ». (أخرجه البخاري ٧٨٣).

قال ابن حجر: «قوله: زادك الله حرصًا أي: على الخير، قال ابن المنير: صوَّب النبي ﷺ فعل أبي بكرة من الجهة العامة، وهي الحرص على إدراك فضيلة الجماعة، وخطَّأه من الجهة الخاصة، قوله: «ولا تَعُدْ» أي: إلى ما صنعت من السعي الشديد، ثم الركوع دون الصف، ثم من المشي إلى الصف، وقد ورد ما يقتضي ذلك صريحًا في طرق حديثه، كما تقدم بعضها». (فتح الباري ٢/ ٢٦٨).

إنها مواقف كثيرة يُحسِن المتربي النية والاجتهاد، لكنه يخطئ في الفعل، وقد يكون العمل نفسه مختلطًا بين الصواب والخطأ، والاكتفاء بالحديث عن الخطأ وحده قد يؤدي لضياع الصواب لدى المتربي سواء أكان حسن نية، أم قولًا وعملًا أصاب فيه، كما أنه قد يُؤدي للإحباط، والشعور بالفشل والقصور، والمتربي أحوج ما يكون إلى التأييد والتعزيز.

٨- الرحمة بالمخطئ:

كان ﷺ نبي الرحمة، كما وصف نفسه بذلك، عن أبي موسى الأشعري ﷺ، قال: كان رسول الله ﷺ يُسمِّي لنا نفسه أسماء، فقال: «أنا محمد، وأحمد، والمقفي، والحاشر، ونبي التوبة، ونبي الرحمة». (أخرجه مسلم ٢٣٥٥).

ووصفه ربه تبارك وتعالى بقوله: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾ (الأنبياء: ١٠٧).

وتجلَّت هذه الرحمة في دعوته ابتداءًا فهي رحمة للناس، وإنقاذ لهم من النار، كما تجلت في سلوكه وتعامله ﷺ، وأساليب دعوته، فكانت الرحمة مُلازمة له، مع الصغير والكبير، الجاهل والمتعلم، المحسن والمسيء.

لذا فقد كانت الرحمة لا تُفارقه، وهو يُصحح أخطاء أصحابه رضوان الله عليهم، عن أبي هريرة ﷺ قال: بينما نحن جلوس عند النبي ﷺ، إذ جاءه رجل فقال: يا رسول الله هلكت، قال: «ما لك؟» قال: وقعت على امرأتي، وأنا صائم، فقال رسول الله ﷺ: «هل تجد رقبة تعتقها؟» قال: لا، قال: «فهل تستطيع أن تصوم شهرين متتابعين»، قال: لا، فقال: «فهل تجد إطعام ستين مسكينًا»، قال: لا، قال: فمكث النبي ﷺ، فبينا نحن على ذلك أُتِي النبي ﷺ بعرق فيها تمر- والعرق المكتل- قال: «أين السائل؟» فقال: أنا، قال: «خذها، فتصدق به»، فقال الرجل: أَعَلَى أَفْقَرَ مِنِّي يا رسول الله؟ فوالله ما بين لابتيها- يريد الحرَّتين- أهل بيت أفقر من أهل بيتي، فضحك النبي ﷺ حتى بدت أنيابه، ثم قال: «أطعمه أهلك». (أخرجه البخاري ١٩٣٦، ومسلم ١١١١).

وعن سلمة بن صخر الأنصاري قال كنت رجلًا قد أُوتيت من جماع النساء ما لم يُؤت غيري، فلما دخل رمضان تظاهرت من امرأتي حتى ينسلخ رمضان فرقًا من أن أُصيب منها في ليلتي، فأتتابع في ذلك إلى أن يدركني النهار، وأنا لا أقدر أن أنزع، فبينما

هي تخدمني ذات ليلة إذ تكشَّف لي منها شيء؛ فوثبت عليها، فلما أصبحت غدوت على قومي، فأخبرتهم خبري، فقلت: انطلقوا معي إلى رسول الله ﷺ فأخبره بأمري، فقالوا: لا والله لا نفعل، نتخوف أن ينزل فينا قرآن، أو يقول فينا رسول الله ﷺ مقالة يبقى علينا عارها، ولكن اذهب أنت فاصنع ما بدا لك، قال: فخرجت، فأتيت رسول الله ﷺ فأخبرته خبري، فقال: «أنت بذاك؟» قلت: أنا بذاك، قال: «أنت بذاك؟» قلت: أنا بذاك، قال: «أنت بذاك؟» قلت: أنا بذاك، وها أنا ذا فامض في حكم الله، فإني صابر لذلك، قال: «أعتق رقبة»، قال: فضربت صفحة عنقي بيدي، فقلت: لا والذي بعثك بالحق لا أملك غيرها، قال: «صُمْ شهرين»، قلت: يا رسول الله، وهل أصابني ما أصابني إلا في الصيام، قال: «فأطعم ستين مسكينًا»، قلت: والذي بعثك بالحق لقد بتنا ليلتنا هذه وَحْشًا، ما لنا عشاء، قال: «اذهب إلى صاحب صدقة بني زريق، فقل له فليدفعها إليك فأطعم عنك منها وسقى ستين مسكينًا، ثم اسْتَعِنْ بسائره عليك، وعلى عيالك» قال: فرجعت إلى قومي، فقلت: وجدت عندكم الضيق، وسوء الرأي، ووجدت عند رسول الله ﷺ السعة والبركة، أمر لي بصدقتكم، فادفعوها إليَّ؛ فدفعوها إليَّ. (أخرجه الترمذي ٣٢٩٩، وأبو داود ٢٢١٣، وابن ماجه ٢٠٦٢، وأحمد ١٦٤٢١).

ورغم ما فعله الرجلان من انتهاك حُرْمة الصيام، وإتيان هذا العمل الذي شرعت له الكفارة المغلظة، إلا أنه ﷺ لم يلمهما، أو يُعنفهما، إنما أخبرهما بما يجب عليهما شرعًا من الكفارة، ووجدا عنده ﷺ السعة والبركة، وعادا من عنده بالطعام لأهلهما، وعبَّر أحدهما عن ذلك بأنه وجد عند قومه الضيق، وسوء الرأي.

٩- علاج أسباب الخطأ:

كثيرٌ من الأخطاء لا تصدر ابتداءً دون مقدمات، بل لها أسباب تدعو إليها، وهذا، وإن كان لا يُبرر الوقوع في الخطأ، إلا أنه ﷺ كان يعتني بعلاج أسبابه.

عن عباد بن شراحيل ﷺ قال: قدمت مع عمومتي المدينة، فدخلت حائطًا من حيطانها، ففركت من سنبله، فجاء صاحب الحائط، فأخذ كسائي وضربني، فأتيت رسول الله ﷺ أستعدي عليه، فأرسل إلى الرجل، فجاءوا به، فقال: «ما حملك على هذا؟» فقال: يا رسول الله، إنه دخل حائطي، فأخذ من سنبله ففركه، فقال رسول الله ﷺ: «ما علمته إذ كان جاهلًا، ولا أطعمته إذ كان جائعًا، اردد عليه كساءه»، وأمر لي رسول الله ﷺ بوسق، أو نصف وسق. (أخرجه النسائي ٥٤٠٩، وأبو داود ٢٦٢٠، وابن ماجه ٢٢٩٨، وأحمد ١٧٥٢١، وعند النسائي عباد بن شراحيل، وعند غيره عبادة بن شراحيل).

في هذا الموقف يُصحح النبي ﷺ تعامل صاحب الحائط مع المُخطئ، فيوجِّهه إلى علاج سبب الخطأ المتمثل في الجهل، وعلاجه التعليم والتوجيه، وفي الجوع وعلاجه أن يطعمه.

إن كثيرًا من مواقف العقاب التي يتعرض لها الأطفال مصدرها الجهل؛ فمرحلة نمو الطفل قد لا تُؤهله لاستيعاب كل ما يطلب منه، وقد يكون الخطأ نتيجة ضعف قدرته على التحكم في انفعالاته وردود أفعاله، ومثل هذه المواقف تتطلب التجاهل إن كان الخطأ عارضًا، وغير مُدْرك له، أو تتطلب التعليم والتنبيه لا العقوبة.

والشق الآخر تلبية الحاجة التي دفعته للوقوع في الخطأ، فإن الحاجة قد تُلحُّ على صاحبها فلا يحسن التعامل مع الموقف، فإن كانت الحاجة مشروعة؛ فدور المربي تلبيتها، وتعليمه كيف يتعامل معها مستقبلًا.

١٠ - تعليم المُخطئ عمليًّا:

وكان ﷺ يستخدم التطبيق العملي في تعليم الخطأ حين يتطلب الأمر ذلك.

عن جبير بن نفير، عن أبيه جبير، أنه قَدِمَ على رسول الله ﷺ فأمر له بوَضوء فقال: توضأ يا أبا جبير، فبدأ أبو جبير بفيه، فقال له رسول الله ﷺ: «لا تبتدئ بفيك يا أبا

جبير؛ فإن الكافر يبدأ بفيه»، ثم دعا رسول الله ﷺ بوَضوء، فغسل كفَّيْه حتى أنقاهما، ثم تمضمض، واستنشق ثلاثًا، وغسل وجهه ثلاثًا، وغسل يده اليمنى إلى المرفق ثلاثًا، واليُسرى ثلاثًا، ومسح رأسه، وغسل رجْلَيْه. (أخرجه البيهقي في السنن الكبرى ٢١٤).

وهذا الأسلوب مهم جدًّا في تصويب الخطأ في العبادات العملية؛ ليتعلم المخطئ كيفية أداء العبادة بصورة صحيحة، ويستوعب الفرق بين أدائه، والأداء الصحيح.

كما يُلائم التعليم العملي كثيرًا في تعليم المهارات الحركية، وبخاصة للأطفال، وهو يعفي الوالدين من عبارات اللوم والتأنيب لأطفالهم، ويعفيهم من اللغة اللفظية التي قلما توصل المراد بصورة واضحة للطفل.

١١ - تجنُّب إعانة الشيطان على المخطئ:

عن أبي هريرة ﷺ قال: أتي النبي ﷺ بسكران، فأمر بضربه، فمِنَّا مَن يضربه بيده، ومِنَّا مَن يضربه بنعله، ومِنَّا مَن يضربه بثوبه، فلما انصرف، قال رجل: ما له، أخزاه الله، فقال رسول الله ﷺ: «لا تكونوا عونَ الشيطان على أخيكم». (أخرجه البخاري ٦٧٨١).

في هذا الموقف نهى ﷺ أصحابه عن إعانة الشيطان على المُخطئ، فالشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم، ويستغل الفرص للإيقاع بالعبد، ودفعه نحو معصية الله عز وجل، ومن هنا فإن المخطئ عرضة لأن يستغله الشيطان حين يتعامل معه الآخرون تعاملًا غير ملائم.

وفي نهيه ﷺ عن إعانة الشيطان على المخطئ توجيه للمربي بأن من مسؤوليته أن يتأمل نتائج فعله وأثرها، وأن حسن نيته، وخطأ المتربي ليسا مبررًا للتعامل مع الموقف كيفما اتفق.

وإعانة الشيطان كلمة جامعة لكل تعامل يؤثر سلبًا على المخطئ، إما من خلال محتوى ما يقال له، أو نبره الصوت، أو نوع العقوبة، ونحو ذلك.

وإعانة الشيطان على المخطئ ليست قاصرة على القسوة والعنف، فربما كانت في التطرف في مراعاة حاله بطريقة تدعو إلى التهوين من شأن الخطأ، والتقليل منه، فقد يعمد بعض المربين إلى تذكير المخطئ بنصوص العفو، وأن الخطأ من سجية ابن آدم وطبيعته، وربما قال: ليس عيبًا أن تخطئ، لكن أن تستمر على الخطأ، وهذا إنما يصدق على مواقف التجربة البشرية، والمحاولات غير الناجحة، أما ما فيه معصية ظاهرة لله عز وجل؛ فلا يجوز أن يُوصف بذلك، والذي يحتاج إلى نصوص العفو والترغيب هو مَن غلب عليه اليأس، وقلَّ رجاؤه بالتوبة، أما مَن ارتكب الخطيئة، وهو غير مبال، فقد يكون الأولى تذكيره بشناعة ما عمل وخطورته.

١٢- إعطاء البديل:

كثيرًا ما يكون الدافع للخطأ تلبية حاجة لدى المخطئ، وفي مثل هذه الحالة من المناسب أن يعطى بديلًا لتلبية هذه الحاجة دون الوقوع في الخطأ.

عن حميد، عن أنس ﷺ، أن النبي ﷺ رأى نُخامة في القبلة، فشقَّ ذلك عليه حتى رُئِيَ في وجهه، فقام فحكه بيده، فقال: «إن أحدكم إذا قام في صلاته، فإنه يُناجي ربه، أو إن ربه بينه وبين القِبلة، فلا يبزقن أحدكم قِبَلَ قِبْلته، ولكن عن يساره، أو تحت قدميه»، ثم أخذ طرف ردائه، فبصق فيه، ثم ردَّ بعضه على بعض، فقال: «أو يفعل هكذا». (أخرجه البخاري ٤٠٥).

وعن عبادة بن الوليد بن عبادة بن الصامت ﷺ، قال: أتينا جابر بن عبد الله ﷺ في مسجده، وهو يُصلِّي في ثوب واحد مُشتملًا به، فتخطَّيت القوم حتى جلست بينه وبين القبلة، فقلت: يرحمك الله، أتُصلِّي في ثوب واحد، ورداؤك إلى جنبك؟ قال: فقال بيده في صدري هكذا، وفرَّق بين أصابعه وقوسها: أردت أن يدخل علي الأحمق مثلك، فيراني كيف أصنع، فيصنع مثله، أتانا رسول الله ﷺ في مسجدنا هذا، وفي يده عرجون

ابن طاب، فرأى في قبلة المسجد نُخامة، فحكها بالعرجون، ثم أقبل علينا، فقال: «أيكم يحب أن يُعرِض الله عنه؟» قال: فخشعنا، ثم قال: «أيكم يحب أن يُعرِض الله عنه؟» قال: فخشعنا، ثم قال: «أيكم يحب أن يُعرِض الله عنه؟» قلنا: لا أينا، يا رسول الله قال: «فإن أحدكم إذا قام يُصلِّي، فإن الله تبارك وتعالى قِبَلَ وجهه، فلا يبصُقَنَّ قِبَلَ وجهه، ولا عن يمينه، وليبصق عن يساره، تحت رجله اليسرى، فإن عجلت به بادرة فليقل بثوبه هكذا»، ثم طوى ثوبه بعضه على بعض، فقال: «أروني عبيرًا»، فقام فتًى من الحي يشتد إلى أهله، فجاء بخلوق في راحته، فأخذه رسول الله ﷺ فجعله على رأس العرجون، ثم لطخ به على أثر النُّخامة، فقال جابر: فمن هناك جعلتم الخلوق في مساجدكم. (أخرجه مسلم ٣٠٠٨).

ففي هذا الموقف كان الدافع للرجل الذي بصق في المسجد هو الحاجة، وليس الرغبة في تلويث المسجد، فأرشده ﷺ للبديل، وكيف يُمكن للرجل أن يُلبِّي هذه الحاجة، ويتخلَّص من الفضلات دون تلويث المسجد.

كما نجد هذا المنهج النبوي في توجيه النبي ﷺ لبلال ﷺ حين وقع ﷺ في الرِّبا دون أن يعلم، فعن أبي سعيد الخدري ﷺ، قال: جاء بلال ﷺ إلى النبي ﷺ بتمر بَرْني، فقال له النبي ﷺ: «من أين هذا؟»، قال بلال: كان عندنا تمر ردي، فبعت منه صاعين بصاع، لنطعم النبي ﷺ، فقال النبي ﷺ عند ذلك: «أَوَّه أَوَّه، عين الرِّبا، عين الرِّبا، لا تفعل، ولكن إذا أردت أن تشتري؛ فبع التمر ببيع آخر، ثم اشتره». (أخرجه البخاري ٢٣١٢، ومسلم ١٥٩٤).

وقال ابن حجر رحمه الله حول هذا الحديث: «وفيه النَّصُّ على تحريم ربا الفضل، واهتمام الإمام بأمر الدين، وتعليمه لمن لا يعلمه، وإرشاده إلى التوصل إلى المباحات وغيرها». (فتح الباري ٤/ ٤٩١).

وعلَّمهم ﷺ البديل عما نهى عنه من الألفاظ، فعن عائشة ﵂ عن النبي ﷺ قال: «لا يقولنَّ أحدكم: خبثت نفسي، ولكن ليقل: لَقِسَت نفسي». (أخرجه البخاري ٦١٧٩، ومسلم ٢٢٥٠).

وعن عائشة ﵂ عن النبي ﷺ قال: «لا يقولنَّ أحدكم: جاشت نفسي، ولكن ليقل: لَقِسَت نفسي». (أخرجه أبو داود ٤٩٧٩).

وعن حذيفة ﵁، عن النبي ﷺ قال: «لا تقولوا: ما شاء الله، وشاء فلان، ولكن قولوا: ما شاء الله، ثم شاء فلان». (أخرجه أبو داود ٤٩٨٠، وأحمد ٢٢٧٥٤).

١٣- الخطأ لا يُلازم صاحبه:

لم يكن ﷺ يحتفظ بصورة سلبية دائمة لا تُمحى عن مَن يقع في الخطأ من أصحابه، بل ربما كان ذلك في مسائل عظيمة كالدماء.

أرسل النبي ﷺ سرية إلى جهينة، وأمَّر عليهم أسامة ﵁، فكان من شأنه أن قتل الرجل الذي قال: لا إله إلا الله، عن أسامة بن زيد ﵄، يقول: بعثنا رسول الله ﷺ إلى الحرقة، فصبحنا القوم فهزمناهم، ولحقت أنا ورجل من الأنصار رجلًا منهم، فلما غشيناه، قال: لا إله إلا الله، فكفَّ الأنصاري، فطعنته برُمْحِي حتى قتلته، فلما قدمنا، بلغ النبي ﷺ، فقال: «يا أسامة، أقتلته بعد ما قال: لا إله إلا الله» قلت: كان مُتعوِّذًا، فما زال يُكرِّرها، حتى تمنيت أني لم أكن أسلمت قبل ذلك اليوم. (أخرجه البخاري ٤٢٦٩، ومسلم ٩٦).

لقد بيَّن ﷺ لأسامة ﵁ خطأه، وأغلظ عليه في الأمر، حتى أنه لم يستجب له حين طلب منه الاستغفار، فقد جاء في بعض الروايات: قال: يا رسول الله، استغفر لي، قال: «وكيف تصنع بلا إله إلا الله إذا جاءت يوم القيامة؟» قال: فجعل لا يزيده على أن يقول: «كيف تصنع بلا إله إلا الله إذا جاءت يوم القيامة». (أخرجه مسلم ٩٧).

ورغم ما فعله أسامة ﷺ إلا أن النبي ﷺ بعد ذلك ولَّاه على الجيش الذي أرسله لغزو الروم، وأنكر ﷺ على مَن طعن في إِمْرَتِه، فعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما، قال: بعث النبي ﷺ بعثًا، وأمَّر عليهم أسامة بن زيد، فطعن بعض الناس في إمارته، فقال النبي ﷺ: «أن تطعنوا في إمارته، فقد كنتم تطعنون في إِمارة أبيه من قبل، وايم الله إن كان لخليقًا للإمارة، وإن كان لمن أحب الناس إليَّ، وإن هذا لمن أحب الناس إليَّ بعده». (أخرجه البخاري ٣٧٣٠، ومسلم ٢٤٢٦).

إن فعل أسامة ﷺ في قتل الرجل لم يكن صادرًا عن استهانة بالدماء، ولم يكن نتيجة صفة راسخة لديه ﷺ، لكنه كان متأوِّلًا، وعالج النبي ﷺ الخطأ في حينها بالأسلوب المناسب؛ فاستوعب أسامة ﷺ الدرس.

إن كثيرًا ممن يقع في الخطأ، ويقلع عنه يتطلع إلى تغير صورته لدى الآخرين، وربما سعى لإشعارهم بذلك بصورة غير مباشرة، ومن هنا فإن من إعانته على تجاوز الخطأ، ونسيانه التعامل معه بما يشعره بتغير نظرة الآخرين تجاهه.

أما حين يكون الأمر نتيجة صفة شخصية؛ لا يتوقع أن تتغير في المدى القريب فقد كان ﷺ له شأن آخر، لذا أوصى ﷺ أبا ذَرٍّ ﷺ بقوله: «يا أبا ذَرٍّ، إني أراك ضعيفًا، وإني أحب لك ما أحب لنفسي، لا تأمرن على اثنين، ولا تولين مال يتيم». (أخرجه مسلم ١٨٢٦).

١٤- تجنُّب الفحش في القول:

وقوع الخطأ من الآخرين قد يُؤدي بالشخص إلى الغضب والانفعال، وقد يصحب ذلك تجاوز وفحش في القول.

أما رسول الله ﷺ فكان عفَّ اللسان، جميل المنطق، لم تُروَ عنه كلمة فاحشة، أو لفظة نابية، عن أنس ﷺ قال: لم يكن رسول الله ﷺ فاحشًا، ولا لعَّانًا، ولا سبَّابًا، كان يقول عند

المعتبة: «ما له، تَرِبَ جبينه». (أخرجه البخاري ٦٠٤٦).

ولم يكن اجتناب الفحش منه ﷺ قاصرًا على خاصة أصحابه، أو الصالحين من الناس، بل كان ﷺ يفعل ذلك حتى مع من يستحقون الذم والعيب، عن عائشة ﵂، أن رجلًا استأذن على النبي ﷺ، فلما رآه قال: «بئس أخو العشيرة، وبئس ابن العشيرة»، فلما جلس تطلق النبي ﷺ في وجهه وانبسط إليه، فلما انطلق الرجل قالت له عائشة: يا رسول الله، حين رأيت الرجل قلت له كذا وكذا، ثم تطلقت في وجهه، وانبسطت إليه؟ فقال رسول الله ﷺ: «يا عائشة، متى عهدتني فحّاشا، إن شر الناس عند الله منزلة يوم القيامة مَن تركه الناس اتقاء شره». (أخرجه البخاري ٦٠٣٢، ومسلم ٢٥٩١).

وفي الحالات التي كان ﷺ يغضب فيها لوقوع الخطأ، ويغلظ على صاحبه- وسبق إيراد نماذج من ذلك- لم يكن ﷺ ليتفوَّه عليه بكلمة فاحشة، أو لفظة لا تليق.

إن وقوع الخطأ وشناعته لا يُبرِّر للمربي والموجه أن يطلق العنان للسانه في النقد اللاذع، وتوجيه الإهانة الشخصية والسباب.

١٥- مُراعاة الحالة النفسية للمخطئ:

وقد يكون الخطأ ناتجًا عن طبيعة الشخص، أو انفعال لا يستطيع التحكم فيه، حينها كان ﷺ يراعي هذا الأمر، عن أنس ﵁ قال: كان النبي ﷺ عند بعض نسائه، فأرسلت إحدى أمهات المؤمنين بصحفة فيها طعام، فضربت التي النبي ﷺ في بيتها يد الخادم، فسقطت الصحفة فانفلقت، فجمع النبي ﷺ فلق الصحفة، ثم جعل يجمع فيها الطعام الذي كان في الصحفة، ويقول: «غارت أُمُّكم»، ثم حبس الخادم حتى أُتي بصحفة من عند التي هو في بيتها، فدفع الصحفة الصحيحة إلى التي كُسِرت صحفتها، وأمسك المكسورة في بيت التي كسرت. (أخرجه البخاري ٥٢٢٥).

قال ابن حجر: «قوله: غارت أمكم: الخطاب لمن حضر، والمراد بالأُمِّ: هي التي كسرت الصحفة، وهي من أمهات المؤمنين- كما تقدم بيانه-، وأغرب الداودي فقال: المراد بقوله أُمُّكم: سارة، وكأن معنى الكلام عنده: لا تتعجبوا مما وقع من هذه من الغيرة، فقد غارت قبل ذلك أُمُّكم حتى أخرج إبراهيم ولده إسماعيل، وهو طفل مع أمه إلى وادٍ غير ذي زرع، وهذا، وإن كان له بعض توجيه لكن المراد خلافه، وأن المراد كاسرة الصحفة، وعلى هذا حمله جميع مَن شرح هذا الحديث، وقالوا: فيه إشارة إلى عدم مؤاخذة الغيراء بما يصدر منها؛ لأنها في تلك الحالة يكون عقلها محجوبًا بشدة الغضب الذي أثارته الغيرة، وقد أخرج أبو يعلى (٤٦٧) بسند لا بأس به عن عائشة مرفوعًا: «إن الغيرة لا تبصر أسفل الوادي من أعلاه»، قاله في قصة، وعن ابن مسعود رفعه: «إن الله كتب الغيرة على النساء، فمن صبر منهن؛ كان لها أجر شهيد». (أخرجه البزار ١٤٩٥)، وأشار إلى صحته، ورجاله ثقات، لكن اختلف في عبيد بن الصباح منهم، وفي إطلاق الداودي على سارة أنها أم المخاطبين نظر- أيضًا- فإنهم إن كانوا من بني إسماعيل؛ فأُمُّهم هاجر لا سارة، ويبعد أن يكونوا من بني إسرائيل حتى يصح أن أمهم سارة». (فتح الباري ٩/ ٣٢٥).

١٦- مُراعاة المخطئ الجاهل:

حين يقع الخطأ ممن يجهل الحكم الشرعي، فقد كان ﷺ يراعي حاله، ويرفق به، عن معاوية بن الحكم السلمي ﷺ، قال: بينا أنا أُصلِّي مع رسول الله ﷺ، إذ عطس رجل من القوم، فقلت: يرحمك الله، فرماني القوم بأبصارهم، فقلت: واثكل أُمِّيَاه، ما شأنكم؟ تنظرون إليَّ، فجعلوا يضربون بأيديهم على أفخاذهم، فلما رأيتهم يُصمِّتونني لكني سكت، فلما صلَّى رسول الله ﷺ، فبأبي هو وأمي، ما رأيت مُعلِّمًا قبله، ولا بعده أحسن تعليمًا منه، فوالله ما كهرني، ولا ضربني، ولا شتمني، قال: «إن هذه الصلاة لا يصلح فيها شيء من كلام الناس، إنما هو التسبيح، والتكبير، وقراءة القرآن»، أو كما قال رسول

الله ﷺ قلت: يا رسول الله، إني حديث عهد بجاهلية، وقد جاء الله بالإسلام، وإن مِنَّا رجالًا يأتون الكُهَّان، قال: «فلا تأتهم» قال: ومِنَّا رجال يتطيرون، قال: «ذاك شيء يجدونه في صدورهم، فلا يصدنهم- قال ابن الصباح: فلا يصدنكم-»، قال: قلت: ومِنَّا رجال يخطون، قال: «كان نبي من الأنبياء يخط، فمن وافق خطه فذاك» قال: وكانت لي جارية ترعى غنمًا لي قِبَلَ أُحُدٍ والجوانية، فاطلعت ذات يوم فإذا الذيب قد ذهب بشاة من غنمها، وأنا رجل من بني آدم، آسَفُ كما يأسفون، لكني صككتها صكة، فأتيت رسول الله ﷺ، فعظم ذلك عليَّ، قلت: يا رسول الله، أفلا أعتقها؟ قال: «ائتني بها»، فأتيته بها، فقال لها: «أين الله؟» قالت: في السماء، قال: «مَن أنا؟» قالت: أنت رسول الله، قال: «أعتقها، فإنها مؤمنة». (أخرجه مسلم ٥٣٧).

١٧- ترك ما يقود للخطأ ولو كان فاضلًا:

وربما ترك النبي ﷺ السُّنَّة حين يترتَّب على فعلها وقوعُ الخطأ، فقد ترك ﷺ الاعتكاف في العشر الأواخر حين تتابعت نساؤه على الاعتكاف، عن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ ذكر أن يعتكف العشر الأواخر من رمضان، فاستأذنته عائشة فأَذِنَ لها، وسألت حفصة عائشة أن تستأذن لها ففعلت، فلما رأت ذلك زينب ابنة جحش، أمرت ببناء فبُني لها، قالت: وكان رسول الله ﷺ إذا صلى انصرف إلى بنائه، فبصر بالأبنية، فقال: ما هذا؟ قالوا: بناء عائشة، وحفصة، وزينب، فقال رسول الله ﷺ: «آلبرَّ أردن بهذا، ما أنا بمعتكف، فرجع، فلما أفطر اعتكف عشرًا من شوال». (أخرجه البخاري ٢٠٤٥، ومسلم ١١٧٣).

قال ابن حجر رحمه الله- حول هذا الحديث-: «وفيه ترك الأفضل إذا كان فيه مصلحة». (فتح الباري ٤/ ٢٧٧).

* * *

الفصل الخامس: النبي ﷺ معلمًا

اعتناؤه ﷺ بتعليم أصحابه.

التهيئة والتشويق.

التعليم الفاعل.

السؤال في التعليم النبوي.

مهارات العلم والتعلم.

توظيف الوسائل التعليمية.

العلاقة بالمتعلم.

الاستشهاد بالقرآن الكريم.

النبي ﷺ معلمًا[1]

وصف الله عز وجل نبيه ﷺ بالتعليم، وبيَّن أن تعليم الكتاب والحكمة من مقاصد بعثته ﷺ، قال عز وجل: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾. (آل عمران: ١٦٤).

وقال سبحانه: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ (الجمعة: ٢).

ووصف ﷺ نفسه بذلك، فقال: «إن الله لم يبعثني معنِّتًا، ولا متعنِّتًا، ولكن بعثني مُعلِّمًا مُيسِّرًا». (أخرجه مسلم، ١٤٧٨).

كما شبَّه ﷺ نفسه بالوالد لأصحابه في مقام التعليم؛ فعن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «إنما أنا لكم بمنزلة الوالد أُعلِّمكم، فإذا أتى أحدُكم الغائطَ فلا يستقبل القبلة، ولا يستدبرها، ولا يَسْتَطِبْ بيمينه»، وكان يأمر بثلاثة أحجار، وينهى عن الرَّوْث والرِّمَّة. (أخرجه أبو داود، ٨، والنسائي، ٤٠، وابن ماجه، ٣١٣، وأحمد، ٧٣٦٨).

وسبق تناول هذه النصوص مُفصَّلة في بداية الكتاب.

ودراسة التعليم النبوي لا تعني مَن يعمل في مجال التدريس والتعليم وحده؛ فالمواقف التعليمية مُتعددة ومُتنوعة، بدءًا بمَن يُعلِّم في المساجد، ومؤسسات التعليم، والواعظ، والخطيب، والداعية عبر وسائل التواصل المباشر، أو عبر وسائل الإعلام.

---

(١) من أفضل ما وقفت عليه في جمع مواقف النبي ﷺ في التعليم كتاب فضل إلهي: النبي الكريم معلمًا، وقد استفدت منه في هذا الفصل.

كما أن الوالدين يمارسان مواقف تعليمية مختلفة لأولادهما، بدءًا بمهارت الحياة اليومية: الاعتماد على النفس في تناول الطعام، قضاء الحاجة، العادات والآداب السلوكية، وامتدادًا إلى تعليم المفاهيم والحوار في الأفكار والمواقف.

وقد كُتب كثيرًا عن التعليم النبوي، وأفاد الكاتب ممَّن سبقه في ذلك، لكن كثيرًا مما كُتب كان يُركز على جمع المواقف وحصرها، وهو مُهم، لكنه خطوة أولى، كما أن معظم ما كُتب كان يُركز على الأساليب والوسائل: كاستخدام وسائل التعليم، والتشويق، ونحو ذلك، وهذا مهم؛ إذ لايسوغ أن نقلل من شأن تعرُّف سنة النبي ﷺ ومواقفه في كل صغيرة وكبيرة.

إلا أن هناك قضايا جوهرية يجب الاعتناء بها، واكتشافها في المنهج النبوي، والوعي بها يقود إلى تغيير جوهري في منهجية تعليمنا الشرعي، ويُحررنا من بعض المفاهيم الخاطئة التي سادت حول منهج التعليم الشرعي.

ومما ينبغي الاعتناء به: أن نمط التعليم ومنهجيته لهما أثرهما الجوهري في بناء شخصية المتعلم، وليس قاصرًا على مجرد التشويق، أو إذهاب الملل، ونحو ذلك.

والحديث عن التعليم النبوي يتداخل مع الحديث عن سائر جوانب الهدي النبوي في التربية، كالحديث عن الوسائل والمجالات، وتصحيح الأخطاء، ونحو ذلك؛ لذا فقد بذل الكاتب جهده في تلافي التكرار، والاكتفاء بما ورد في أحد المواضع عن غيره، وربما احتاجت بعض المواضع إلى تكرار يسير يقتضيه الموقف.

اعتناؤه ﷺ بتعليم أصحابه

كان ﷺ يعتني بتعليم أصحابه رضوان الله عليهم، ويبذل جهده في ذلك، وحياته ﷺ حافلة بهذا الأمر، والشواهد من سنته وسيرته يصعُب استقصاؤها.

كان ﷺ يُعلِّم أصحابه في المسجد، وفي الطريق، في السفر والإقامة، في العسر واليسر، في المنشط والمكره.

ويعتني ﷺ بتعليم نسائه وأهل بيته، ويبادرهن بذلك قبل السؤال، فعن جويرية رضي الله عنها أن النبي ﷺ خرج من عندها بُكْرَةً حين صلَّى الصبح، وهي في مسجدها، ثم رجع بعد أن أضحى، وهي جالسة، فقال: «ما زلت على الحال التي فارقتك عليها؟» قالت: نعم، قال النبي ﷺ: «لقد قلت بعدك أربع كلمات، ثلاث مرات، لو وُزِنت بما قلتِ منذ اليوم لوزنتهن: سبحان الله وبحمده، عدد خلقه، ورضا نفسه، وَزِنَةَ عرشه، ومِداد كلماته». (أخرجه مُسلم، ٢٧٢٦).

وتكرر الموقف قريبًا منه مع صفية رضي الله عنها، فعن صفية رضي الله عنها قالت: دخل عليَّ رسول الله ﷺ وبين يديَّ أربعة آلاف نواة أُسبِّح بها، فقال: «لقد سبَّحتِ بهذه، ألا أُعلمك بأكثر مما سبَّحتيه؟»، فقلت: بلى علمني، فقال: «قولي: سبحان الله عدد خلقه». (أخرجه الترمذي، ٣٥٥٤).

ويبذل ﷺ جهده في تعليمهم الآداب والأذكار، حتى شبَّهوا ذلك بتعليمه القرآن الكريم، فعن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال: كان رسول الله ﷺ يُعلِّمنا الاستخارة في الأمور كلها، كما يُعلِّمنا السورة من القرآن، يقول: «إذا هَمَّ أحدكم بالأمر فليركع ركعتين من غير الفريضة، ثم ليقل: اللهم إني أستخيرك بعلمك، وأستقدرك بقدرتك، وأسألك من فضلك العظيم، فإنك تقدر ولا أقدر، وتعلم ولا أعلم، وأنت علام الغيوب، اللهم إن

كنت تعلم أن هذا الأمر خير لي في ديني، ومعاشي، وعاقبة أمري، أو قال: عاجل أمري وآجله، فاقْدُرْه لي ويسِّره لي، ثم بارك لي فيه، وإن كنت تعلم أن هذا الأمر شر لي في ديني، ومعاشي، وعاقبة أمري، أو قال: في عاجل أمري وآجله؛ فاصرفه عني، واصرفني عنه، واقْدُرْ ليَ الخير حيث كان، ثم أرضني، قال: ويُسمِّي حاجته». (أخرجه البخاري ١١٦٦).

وربما رفع ﷺ صوته بالتعليم حين يحتاج الأمر لذلك، فعن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما، قال: تخلَّف عنا النبي ﷺ في سَفْرَةٍ سافرناها فأدركَنا- وقد أرهقتنا الصلاة- ونحن نتوضأ، فجعلنا نمسح على أرجلنا، فنادى بأعلى صوته: «ويلٌ للأعقاب من النار» مرتين أو ثلاثًا. (أخرجه البخاري ٦٠، وأخرجه مسلم، ٢٤١، دون موضع الشاهد).

وفي الحج يتصدى ﷺ للناس، فيُعلِّمهم، ويستفتونه في كل أحواله؛ فيفتيهم ﷺ وهو على دابته، بوَّب البخاري رحمه الله: (باب الفُتيا، وهو واقف على الدابة، وغيرها)، وأورد فيه حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنه في سؤالهم له يوم النحر، وقوله لمن سأله: «افعل ولا حرج»، (أخرجه البخاري ٨٣، ومسلم ١٣٠٦).

وها هو ﷺ في النَّزع الأخير يُغالب نفسه مجتهدًا في تعليمهم، فعن عائشة وعبد الله بن عباس رضي الله عنهم جميعًا، قالا: لما نزل برسول الله ﷺ طفِق يطرح خَمِيصة له على وجهه، فإذا اغتمَّ بها كشفها عن وجهه، فقال- وهو كذلك-: «لعنة الله على اليهود والنصارى، اتخذوا قبورَ أنبيائهم مساجد»؛ يُحذِّر ما صنعوا. (أخرجه البخاري، ٤٣٥، ومسلم، ٥٣١).

وحين اشتدَّ به المرض ﷺ أراد أن يكتب لهم كتابًا، ثم أوصاهم بثلاث، فعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: يوم الخميس، وما يوم الخميس؟ اشتد برسول الله ﷺ وجَعُه، فقال: «ائتوني أكتب لكم كتابًا لن تضلُّوا بعده أبدًا»، فتنازعوا- ولا ينبغي عند نبي تنازُع-، فقالوا: ما شأنه، أهَجَر؟ استفهموه؟ فذهبوا يردون عليه، فقال: «دعوني، فالذي أنا فيه خير مما تدعوني إليه»، وأوصاهم بثلاث، قال: «أخرجوا المشركين من جزيرة العرب،

وأجيزوا الوفد بنحو ما كنت أجيزهم»، وسكت عن الثالثة، أو قال: فنسيتها. (أخرجه البخاري، ٤٤٣١، ومسلم، ١٦٣٧).

ويبلغ من حرصه ﷺ على تعليم الناس أن يطلب- وهو في شدة مرضه- ما يقويه ليخرج إليهم فيخطبهم، فعن عائشة ﵂، قالت: لما ثَقُل رسول الله ﷺ، واشتد به وجَعُه؛ استأذن أزواجَه أن يُمرَّض في بيتي، فأذِنَّ له، فخرج وهو بين الرجلين تخط رجلاه في الأرض، بين عباس بن عبد المطلب، وبين رجل آخر، قال عبيد الله: فأخبرت عبد الله بالذي قالت عائشة ﵂، فقال لي عبد الله بن عباس: «هل تدري مَن الرجل الآخر الذي لم تُسمِّ عائشةُ؟» قال: قلت: لا، قال ابن عباس: «هو علي بن أبي طالب»، وكانت عائشة زوج النبي ﷺ تُحدِّث أن رسول الله ﷺ لما دخل بيتي، واشتد به وجَعُه قال: «هريقوا عليَّ من سبع قِربٍ، لم تُحلَل أوْكِيَتهنَّ، لعلي أعهد إلى الناس» فأجلسناه في مِخْضَبٍ لحفصة زوج النبي ﷺ، ثم طفقنا نَصُبُّ عليه من تلك القِرب، حتى طفق يشير إلينا بيده، «أن قد فعلتنَّ»، قالت: ثم خرج إلى الناس، فصلَّى بهم، وخطبهم. (أخرجه البخاري ٤٤٤٢، وأخرجه مسلم ٤١٨، دون موضع الشاهد).

ومهما اجتهدنا في استيعاب المواقف الدالة على اجتهاده واعتنائه ﷺ بتعليم أصحابه فلن نستطيع؛ فحياته ومواقفه ﷺ كلها شاهدة بذلك، وناطقة به.

التفاعل في مواقف التعليم:

ومن صور اعتنائه ﷺ بتعليم أصحابه: تفاعله في مواقف التعليم، فقد كان النبي ﷺ يتفاعل في تعليمه وحديثه معهم، فلم يكن حديثًا مجرَّدًا جامدًا، بل يظهر أثر تفاعله ﷺ على بدنه، فعن جابر بن عبد الله ﵄ قال: كان رسول الله ﷺ إذا خطب احمَرَّت عيناه، وعلا صوته، واشتد غضبه حتى كأنه منذر جيشًا، يقول: «صبَّحكم ومسَّاكم»، ويقول:

«بُعثت أنا والساعة كهاتين»، ويقرن بين إصبعيه السبابة والوسطى، ويقول: «أما بعد، فإن خير الحديث كتاب الله، وخير الهدي هدي محمد، وشر الأمور محدثاتها، وكل بدعة ضلالة»، ثم يقول: «أنا أَوْلَى بكل مؤمن من نفسه؛ مَن ترك مالًا فلِأَهْلِه، ومَن ترك دَيْنًا أو ضياعًا فإليَّ وعليَّ». (أخرجه مسلم ٨٦٧).

قال النووي: «قوله: إذا خطب احمرَّت عيناه، وعلا صوته، واشتد غضبه كأنه منذر جيشًا: يُستدَل به على أنه يُستحب للخطيب أن يفخِّم أمر الخطبة، ويرفع صوته، ويجزل كلامه، ويكون مطابقًا للفصل الذي يتكلم فيه من ترغيب أو ترهيب، ولعل اشتداد غضبه كان عند إنذاره أمرًا عظيمًا، وتحديده خطبًا جسيمًا». (شرح صحيح مسلم ٦/ ١٥٥-١٥٦).

التهيئة والتشويق

ترتبط بالتعلم صعوبات ومعوقات عِدَّة، فهو يتطلب قدرًا من الجهد البدني والعزيمة، والتفرغ من كثير من المشاغل، إضافة إلى الجهد الذهني والعقلي، كما أن المتعلم كثيرًا ما تُواجهه صعوبات في الفهم واستيعاب بعض المسائل، أو الوصول إلى دلائل، أو الحفظ، وغير ذلك من متطلبات التعلُّم.

ومن هنا يحتاج المتعلِّم إلى تعزيز الدافع نحو التعلُّم وتنميته؛ حتى يُحفزه ذلك إلى بذل الجهد والتضحية، وإلى تحمُّل مشاقِّ التعلم وصعوباته.

أساليب التهيئة في التعليم النبوي:

تتمثل أهم أساليب التهيئة في التعليم النبوي فيما يلي:

١ - تنمية الدافع لدى المتعلم:

اعتنى ﷺ بتنمية الدافع للتعلم لدى أصحابه، وتحفيزهم بأنواع من المحفزات.

ومن أساليب النبي ﷺ في تنمية الدافع نحو التعلُّم ما يلي:

أ - بيان فضل العلم وطلبه:

عن قيس بن كثير، قال: قَدِم رجل من المدينة على أبي الدرداء- وهو بدمشق-، فقال: ما أقدمك يا أخي؟ فقال: حديث بلغني أنك تُحدِّثه عن رسول الله ﷺ، قال: أما جئت لحاجة؟ قال: لا، قال: أما قدِمت لتجارة؟ قال: لا، قال: ما جئت إلا في طلب هذا الحديث؟ قال: فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من سلك طريقًا يبتغي فيه علمًا؛ سلك الله به طريقًا إلى الجنة، وإن الملائكة لتضع أجنحتها رضاءً لطالب العلم، وإن العالم

ليستغفر له مَن في السموات ومَن في الأرض، حتى الحيتان في الماء، وفضل العالم على العابد كفضل القمر على سائر الكواكب، إن العلماء ورثة الأنبياء، إن الأنبياء لم يُورِّثوا دينارًا ولا درهمًا، إنما ورَّثُوا العلم؛ فمن أخذ به أخذ بحظ وافر». (أخرجه الترمذي، ٢٦٨٢، وأبو داود، ٣٦٤١، وأحمد، ٢١٧١٥، وابن ماجه، ٢٢٣).

ففي هذا الحديث حفَّز ﷺ أصحابَه نحو التعلُّم بأمور ثلاثة:

الأول: تذكيرهم ببعض فضائل طلب العلم؛ فهو طريق إلى الجنة، وسبب لتحصيل بركةِ وضعِ الملائكة لأجنحتها.

الثاني: بيانه ﷺ لفضائل العلماء؛ إذ ثمرة العلم الوصول بصاحبه إلى هذه المنزلة.

الثالث: بيانه ﷺ لثمرة العلم ذاته، وأنه ميراث الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم.

وحثَّ ﷺ أصحابه على العلم بتشبيه بليغ من واقع حياتهم، فعن عقبة بن عامر ﷺ قال: خرج رسول الله ﷺ ونحن في الصُّفَّة، فقال: «أيُّكم يحب أن يغدو كل يوم إلى بُطْحَانَ، أو إلى العقيق، فيأتي منه بناقتين كَوْمَاوَيْن في غير إثم، ولا قطع رحم؟» فقلنا: يا رسول الله نُحب ذلك، قال: «أفلا يغدو أحدكم إلى المسجد فيتعلَّم، أو يقرأ آيتين من كتاب الله عز وجل خيرٌ له من ناقتين، وثلاث خيرٌ له من ثلاث، وأربع خيرٌ له من أربع، ومِن أعدادهن من الإبل؟». (أخرجه مسلم ٨٠٣).

في هذا الحديث خاطب النبي ﷺ أصحابه بما يفهمون، وحدَّثهم مِن واقعهم، فضرب لهم هذا المثل في المقارنة بين نتيجة الانشغال بالعلم، والانشغال بالدنيا، وعائد كل منهما.

وحين جاء ثلاثة نفر- وهو جالسٌ مع أصحابه-، فجلس أحدهم خلف الحلقة، والآخر رأى فُرجة فجلس فيها، وأما الثالث فأعرض، قال ﷺ لأصحابه بعد ذلك: «أما أحدهم فأوى إلى الله؛ فآواه، وأما الآخر فاستحيا؛ فاستحيا الله منه، وأما الآخر فأعرض؛

فأعرض الله عنه». (أخرجه البخاري ٦٦، ومسلم، ٢١٧٦).

إن طلبة العلم ليسوا على درجة واحدة ومنزلة متساوية؛ فهم متفاوتون في قدراتهم وهمَّتهم؛ ومن ثَمَّ فالتحفيز ينبغي أن يُراعِي أمرين مهمين:

الأول: أن يُبرز الصورة العالية التي ينبغي أن يتطلع إليها الجادون والمميزون.

الثاني: أن يُراعِي واقع الناس وتفاوتهم.

والتركيز على الأمر الأول وحده قد يُؤدي ببعض الطلاب إلى الإحباط واليأس، كما يحصل من تركيز بعض الشيوخ والمعلمين على النماذج العالية، والصور الشاذة.

والتركيز على الأمر الثاني قد يُفوت الفرص على النابهين والجادين.

وفي هذا الموقف بيَّن ﷺ لأصحابه الصورة المُثْلَى المتمثلة في الإقبال على مجلس العلم، والدخول في الحلقة، كما بيَّن لهم ﷺ الصورة التي دونها، والمتمثلة في حال الرجل الذي جلس حياءً.

ب- إشعار المتعلم بحاجته إلى العلم:

ومن وسائل تنمية الدافع لدى المتعلم أن يشعره ﷺ بحاجته إلى العلم، والشعور بالحاجة إلى العلم من أعظم ما يُنمي الدافع للتعلم.

حين جاء المسيء صلاتَه وصلَّى؛ قال له النبي ﷺ:«ارجع فصلِّ؛ فإنك لم تُصَلِّ»، فأعاده ﷺ مرارًا حتى أحسَّ ﷺ بالحاجة للتعلُّم؛ فقال: والذي بعثك بالحق ما أحسن غيره فعلِّمني. (أخرجه البخاري، ٧٥٧، ومسلم، ٣٩٧).

وقد رأينا بعض أهل العلم كان سبب طلبهم للعلم واعتنائهم بذلك وقوعهم في مواقف أشعرتهم بحاجتهم لطلب العلم، كما وقع من الإمام ابن حزم رحمه الله، فقد حدَّث

عن نفسه بأن سبب تعلُّمه الفقه أنه شهد جنازة، فدخل المسجد فجلس ولم يركع، فقال له رجل: قُمْ فَصَلِّ تحيةَ المسجد، وكان قد بلغ ستًّا وعشرين سنة، قال: فقمت وركعت، فلما رجعنا من الصلاة على الجنازة، دخلت المسجد، فبادرت بالركوع، فقيل لي: اجلس اجلس، ليس ذا وقت صلاة- وكان بعد العصر-، قال: فانصرفت وقد حزنت، وقلت للأستاذ الذي ربَّاني: دُلَّني على دار الفقيه أبي عبد الله بن دحون، قال: فقصدته، وأعلمته بما جرى، فدَلني على (مُوَطَّأ مالك)، فبدأت به عليه، وتتابعت قراءتي عليه وعلى غيره نحوًا من ثلاثة أعوام، وبدأت بالمناظرة. (سير أعلام النبلاء ١٨/ ١٩٩).

ويمكن أن يُشْعِر المعلمُ طلبَته بحاجتهم للتعلُّم من خلال توجيه بعض الأسئلة التي تُعينهم على اكتشاف جوانب القصور لديهم، أو طلب رأيهم في بعض المسائل المُشكَلة التي تُواجههم، مع مراعاة ألا يعقب ذلك لوم، وتأنيب، ووصف بالقصور- كما يفعل ذلك بعض المعلمين- إنما يدفعهم للتعلُّم بإشعارهم بالقصور والحاجة.

٢- استنصات الناس:

ومن أساليب التهيئة للتعلم في التعليم النبوي: استنصات الناس، وطلب إصغائهم؛ فقد كان ﷺ كثيرًا ما يُحدِّث الناس في مجامعَ عامة؛ لذا كان يستعين بمَن يستنصت الناس له، ويقدم بين يدي حديثه، فعن جرير ﷺ أن النبي ﷺ قال له في حجة الوداع: «استنصت الناس»، فقال: «لا ترجعوا بعدي كفارًا، يضرب بعضكم رقاب بعض». (أخرجه البخاري ١٢١، ومسلم ٦٥).

وعن أنس بن مالك ﷺ قال: وقف النبي ﷺ بعرفات، وكادت الشمس أن تؤوب، فقال: «يابلال، أنصتْ لي الناس» فقام بلال، فقال: أنصتوا لرسول الله ﷺ؛ فنصت الناس، فقال: «معاشر الناس: أتاني جبريل آنفًا، فأقرأني من ربي السلام». (أخرجه ابن

عبد البر في التمهيد ١/ ١٢٨).

وقد لا يكون الجمع كبيرًا، فيستنصت ﷺ الناس بنفسه، والمقصود هنا: دعوتهم للتركيز، والتهيؤ للسماع؛ فقد كانت كلماته ﷺ يسيرة ومعدودة، فمن فاته جزءٌ منها ربما فاته الحديث كله.

عن خباب ؓ قال: كنا قعودًا على باب النبي ﷺ، فخرج علينا، فقال: «اسمعوا»، قلنا: قد سمعنا، قال:«اسمعوا»، قلنا: قد سمعنا، قال:«اسمعوا»، قلنا: قد سمعنا، قال:«إنه سيكون بعدي أمراء فلا تصدقوهم بكذبهم، ولا تعينوهم على ظلمهم، فإنه مَن صدقهم بكذبهم، وأعانهم على ظلمهم لم يرد عليَّ الحوض». (أخرجه ابن حبان ٢٨٤).

والعبرة في هذه المواقف النبوية لا تقف عند الصورة المباشرة المُتمثلة في طلب الاستماع، إنما في تهيئة الجو الملائم للتعلُّم بكل ما يتطلبه الموقف التعليمي من تهيؤ.

٣- إبعاد المُشتتات:

وتهيئة البيئة المناسبة واستنصات الناس قد لا يكفي وحده، فيتطلب الأمر إزالة ما قد يشتت ويشوش على المتعلم؛ لذا كان ﷺ يعتني بذلك في تعليمه.

كان ﷺ يحدِّث، فجاءه أعرابي، فقال: متى الساعة؟ فمضى رسول الله ﷺ يحدِّث، فقال بعض القوم: سمع ما قال فكره ما قال، وقال بعضهم: بل لم يسمع، حتى إذا قضى حديثه قال:«أين أراه السائل عن الساعة؟»، قال: ها أنا يا رسول الله، قال:«فإذا ضُيِّعت الأمانةُ فانتظرِ الساعة»، قال: كيف إضاعتها؟، قال:«إذا وسِّدَ الأمر إلى غير أهله فانتظر الساعة». (أخرجه البخاري ٥٩).

لقد كان هذا السائل يستحق الاهتمام، ويستحق الإجابة عن سؤاله، إلا أنه ﷺ رأى أن إجابته عن سؤاله مباشرة ستؤدي إلى قطع الحديث، وصرف الناس عن الاستماع لما يقال؛

لينتقلوا إلى موضوع مختلف؛ لذا آثَر ﷺ إكمال حديثه، ثم عاد للسائل ليجيبه عن سؤاله.

وفي القرآن الكريم إشارة إلى شيء من هذا المعنى، فيقول تعالى- في شأن تدبر القرآن-: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ (ق: ٣٧)، فقارىء القرآن حين يريد الفهم والتدبر الأمثل؛ لا بد أن يُفرغ قلبه من الشوارد والصوارف.

وفي صلاة الجمعة ينهى ﷺ عن الانشغال عن الخطبة، أو إشغال الآخرين، ولو لإسكات مَن كان يتحدث، فيقول ﷺ: «إذا قلت لصاحبك يوم الجمعة: أنصت- والإمام يخطب- فقد لَغَوْتَ». (أخرجه البخاري، ٩٣٤، ومسلم، ٨٥١)، كل هذا دعوة لِأَنْ يتهيأ المسلم للإنصات والاستماع.

ولما كانت الصلاة تتطلب حضور القلب وخشوعه، وتدبر المصلي لما يكون في صلاته من تلاوة وذكر؛ نهى ﷺ عن الصلاة بحضرة ما يُشغل المصلي، ومن ذلك: الصلاة بحضرة الطعام، ومدافعة الأخبثين، ووجود ما يُشغله في قِبلته.

وسائل التهيئة في التعليم النبوي:

تنوعت وسائل التهيئة والتمهيد في التعليم النبوي، ومن صور ذلك ما يلي:

١ - الاكتفاء بنداء المتعلم:

قد يكتفي ﷺ بنداء المتعلم ليهيِّئه لسماع ما سيُلْقَى عليه، عن معاذ ﷺ، قال: كنت رِدْفَ النبي ﷺ على حمار يُقال له عُفَيْر، فقال: «يا معاذ، هل تدري حق الله على عباده، وما حق العباد على الله؟»، قلت: الله ورسوله أعلم، قال: «فإن حق الله على العباد أن يعبدوه، ولا يشركوا به شيئًا، وحق العباد على الله أن لا يُعذب مَن لا يشرك به شيئًا»، فقلت: يا رسول الله أفلا أبشر به الناس؟ قال: «لا تبشرهم؛ فيتَّكِلُوا». (أخرجه البخاري ٢٨٥٦، ومسلم ٣٠).

وفي بعض الروايات أنه ﷺ كرَّر نداء معاذ ثلاثًا؛ ففي رواية للبخاري ٥٩٦٧ ومسلم ٣٠، أنه ﷺ قال: بينا أنا رَدِيف النبي ﷺ ليس بيني وبينه إلا آخرة الرَّحل، فقال: «يا معاذ» قلت: لبيك رسول الله وسعديك، ثم سار ساعة، ثم قال: «يا معاذ» قلت: لبيك رسول الله وسعديك، ثم سار ساعة، ثم قال: «يا معاذ» قلت: لبيك رسول الله وسعديك، قال: «هل تدري ما حق الله على عباده؟..... الحديث».

لقد كان معاذ ﷺ وحده مع النبي ﷺ، وبمجرد حديثه له ﷺ سينصت ويستمع، إلا أن الأمر كان يتطلب مزيدًا من التركيز والاستعداد لوعي ما سيُقال له.

٢- السؤال عما يريد قوله:

ومن صور التهيئة والتمهيد في التعليم النبوي: أن يسأل ﷺ المتعلمين عما يريد قوله، وهو يعلم أنهم لا يملكون الإجابة، لكن ذلك يقودهم إلى التطلع إليها، والوعي بما سيقال، ففي حديث معاذ ﷺ سأله ﷺ عن حق العباد على الله، وحق الله على العباد، والمتعلم- ها هنا- فرد واحد.

وقد يكون السؤال لجميع المتعلمين، فعن عبد الرحمن بن أبي بكرة، عن أبيه ﷺ، قال: قال النبي ﷺ: «ألا أُنبئكم بأكبر الكبائر؟» ثلاثًا، قالوا: بلى يا رسول الله، قال: «الإشراك بالله، وعقوق الوالدين- وجلس وكان متكئًا-، فقال: ألا وقول الزور»، قال: فما زال يُكرِّرها حتى قلنا: ليته سكت. (أخرجه البخاري ٢٦٥٤، ومسلم ٨٧).

وعن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال:«أتدرون ما الغيبة؟» قالوا: الله ورسوله أعلم، قال:«ذكرُك أخاك بما يكره»، قيل: أفرأيت إن كان في أخي ما أقول؟، قال:«إن كان فيه ما تقول فقد اغتبته، وإن لم يكن فيه فقد بهته». (أخرجه مسلم ٢٥٨٩).

ويظهر من السياق هنا أنهم يعلمون تحريم الغيبة، لكنه ﷺ أراد أن يعرِّف لهم هذا المفهوم، ويحدده؛ لذا سألوه ﷺ- بعد أن بيَّن لهم مفهوم الغيبة- عما يدخل في المفهوم، وما لا يدخل فيه.

وعن أنس بن مالك ﷺ قال: كنا عند رسول الله ﷺ فضحك، فقال: «هل تدرون مِمَّ أضحك؟ قال: قلنا: الله ورسوله أعلم، قال: «من مخاطبة العبد ربه، يقول: يارب ألم تجرني من الظلم؟ قال: يقول: بلى، قال: فيقول: فإني لا أُجيز على نفسي إلا شاهدًا مني، قال: فيقول: كفى بنفسك اليوم عليك شهيدًا، وبالكرام الكاتبين شهودًا، قال: فيختم على فيه، فيُقال لأركانه: انطقي، قال: فتنطق بأعماله، قال: ثم يُخلَّى بينه وبين الكلام، قال: فيقول: بُعدًا لَكُنَّ وسحقًا، فعنكُنَّ كنت أناضل». (أخرجه مسلم ٢٩٦٩).

وسألهم ﷺ عن صفة أهل الجنة وأهل النار قبل أن يحدثهم، عن حارثة بن وهب الخزاعي ﷺ قال: سمعت النبي ﷺ يقول: «ألا أخبركم بأهل الجنة؟ كل ضعيف متضعِّف، لو أقسم على الله لأبرَّه، ألا أخبركم بأهل النار؟ كل عُتُلٍّ جوَّاظ مستكبر». (أخرجه البخاري ٤٩١٨، ومسلم ٢٨٥٣)، ولأنه في مثل هذا الموقف لا يتوقع منهم إجابة؛ فجاء السؤال بصيغة «ألا أخبركم؟».

وربما سألهم ﷺ عن المستقبل، وماذا عساهم يفعلون، فعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «كيف بكم وبزمان- أو يوشك أن يأتي زمان- يغربل الناس فيه غربلة، تبقى حثالة من الناس قد مَرِجَتْ عهودهم وأماناتهم، واختلفوا؛ فكانوا هكذا؟»، وشبَّك بين أصابعه، فقالوا: وكيف بنا يا رسول الله؟ قال: «تأخذون ما تعرفون، وتذرون ما تنكرون، وتقبلون على أمر خاصتكم، وتذرون أمر عامتكم». (أخرجه أبو داود مطولًا، ٤٣٤٢، وأخرجه البخاري مختصرًا، ٤٨٠، وابن ماجه، ٣٩٥٧، وأحمد، ٧٠٦٣).

وعن أبي ذَرٍّ ﷺ قال: قال لي رسول الله ﷺ: «يا أبا ذر، قلت: لبيك يارسول الله وسعديك، قال: «كيف أنت إذا أصاب الناس موت يكون البيت فيه بالوصيف؟»- يعني القبر- قلت: الله ورسوله أعلم، أو قال: ما خار الله لي ورسوله، قال: «عليك بالصبر»، أو قال: «تصبر»، ثم قال لي: «يا أبا ذر»، قلت: لبيك وسعديك، قال: «كيف أنت إذا رأيت أحجار الزيت قد غرقت بالدم؟»، قلت: ماخار الله لي ورسوله، قال: «عليك بمن أنت منه»، قلت: يا رسول الله أفلا آخذ سيفي، وأضعه على عاتقي؟، قال: «شاركت القوم إذن»، قلت: فما تأمرني؟ قال: «تلزم بيتك»، قلت: فإن دُخِلَ عليّ بيتي؟ قال: «فإن خشيت أن يبهرك شعاع السيف فألقِ ثوبك على وجهك؛ يبوء بإثمك وإثمه». (أخرجه أبو داود ٤٢٦١، وابن ماجه ٣٩٥٨، وأحمد ٢١٤٤٥).

وسأله مرة أخرى عما يفعل مع الأئمة المستأثرين بالمال، فعن أبي ذرٍّ ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «كيف أنتم، وأئمة من بعدي يستأثرون بهذا الفيء؟» قلت: إذن، والذي بعثك بالحق أضع سيفي على عاتقي، ثم أضرب به حتى ألقاك، أو ألحقك، قال: «أولا أدُلُّك على خير من ذلك؟ تصبر حتى تلقاني». (أخرجه أبو داود ٤٧٥٩، وأحمد ٢١٥٥٩).

ففي هذه النصوص حدَّث ﷺ أصحابه عن بعض ما سيحدث في المستقبل، وبدأ حديثه بسؤالهم عن موقفهم من تلك الأحداث، ففي هذا السؤال استثارة للتفكير، وتهيئة لسماع التوجيه النبوي، وربما سبق إلى أذهانهم خلاف ما ينبغي؛ فصحح لهم ﷺ، كما في حديث أبي ذَرٍّ ﷺ.

٣- تغيير المفهوم:

وربما سألهم ﷺ عن مفهوم شائع بينهم؛ ليعطيهم معنى مختلفًا عن هذا المفهوم، عن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «أتدرون ما المفلس؟»، قالوا: المفلس فينا مَن لا

درهم له، ولا متاع، فقال: «إن المفلس من أمتي يأتي يوم القيامة بصلاة، وصيام، وزكاة، ويأتي قد شتم هذا، وقذف هذا، وأكل مال هذا، وسفك دم هذا، وضرب هذا، فيُعطَى هذا من حسناته، وهذا من حسناته، فإن فنيت حسناته قبل أن يقضي ما عليه؛ أَخَذَ من خطاياهم، فطُرِحت عليه، ثم طُرِح في النار». (أخرجه مسلم ٢٥٨١).

وليس المقصود هنا الحديث عن المصطلح الفقهي الذي يترتب عليه الحجر، والتحاصص بين الغرماء، إنما المقصود المقارنة بين نوعين من الإفلاس: الإفلاس الدنيوي، والإفلاس الأخروي، وبيان أن المفلس في الآخرة أحق بهذا الوصف، قال النووي: «معناه: أن هذه حقيقة المفلس، وأما مَن ليس له مال، ومن قلَّ ماله؛ فالناس يسمونه مفلسًا، وليس هو حقيقةً المفلسَ؛ لأن هذا أمر يزول وينقطع بموته، وربما ينقطع بيسارٍ يحصل له بعد ذلك في حياته، وإنما حقيقة المفلس: هذا المذكور في الحديث، فهو الهالك الهلاك التام، والمعدوم الإعدام المقطع». (شرح صحيح مسلم ١٦/ ١٣٥-١٣٦).

٤- السؤال عن تفسير الظواهر:

وقد يكون ما يريد تصحيحه ﷺ تفسيرًا لظاهرة أو حكمًا عليها، فيسأل عن تفسيرهم للظاهرة، عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما قال: أخبرني رجل من أصحاب النبي ﷺ من الأنصار أنهم بينما هم جلوس ليلةً مع رسول الله ﷺ رُمي بنجم فاستنار، فقال لهم رسول الله ﷺ: «ماذا كنتم تقولون في الجاهلية إذا رُمي بمثل هذا؟»، قالوا: الله ورسوله أعلم، كنا نقول: وُلد الليلة رجل عظيم، ومات رجل عظيم، فقال رسول الله ﷺ: «فإنها لا يُرمَى بها لموت أحد ولا لحياته، ولكن ربنا تبارك وتعالى اسمه إذا قضى أمرًا سبَّح حملة العرش، ثم سبَّح أهل السماء الذين يلونهم؛ حتى يبلغ التسبيح أهل هذه السماء الدنيا، ثم قال الذين يلون حملة العرش لحملة العرش: ماذا قال ربكم؟ فيُخبرونهم ماذا قال، قال: فيسْتَخْبر

بعض أهل السماوات بعضًا؛ حتى يبلغ الخبر هذه السماء الدنيا، فتخطف الجن السمع، فيقذفون إلى أوليائهم، ويرمون به، فما جاءوا به على وجهه فهو حق، ولكنهم يَقْرِفُون فيه ويزيدون». (أخرجه مسلم، ٢٢٢٩).

إن ابتداءه ﷺ بالسؤال عن تفسير هذه الظاهرة يُهيء أذهانهم لاستحضار هذا المفهوم، وإحلال المفهوم البديل له.

وسأل ﷺ أبا ذرٍّ ﷺ عن حال الشمس عند غيابها قبل أن يخبره، فعن أبي ذَرٍّ ﷺ، قال: دخلت المسجد، ورسول الله ﷺ جالس، فلما غربت الشمس، قال: «يا أبا ذَرٍّ، هل تدري أين تذهب هذه؟»، قال: قلت: الله ورسوله أعلم، قال: «فإنها تذهب تستأذن في السجود، فيُؤذن لها، وكأنها قد قيل لها: ارجعي من حيث جئت، فتطلع من مغربها، ثم قرأ: ذلك مستقر لها- في قراءة عبد الله-». (أخرجه البخاري ٧٤٢٤، ومسلم ١٥٩).

٥- الربط:

وقد يمهد لهم ﷺ في الربط بين المواقف والمفاهيم، فعن عبد الرحمن بن أبي بكرة، عن أبيه ﷺ، ذكر النبي ﷺ قعد على بعيره، وأمسك إنسان بخطامه، أو بزمامه، قال: «أي يوم هذا؟»، فسكتنا حتى ظننا أنه سيسميه سوى اسمه، قال: «أليس يوم النحر؟» قلنا: بلى، قال: «فأي شهر هذا؟» فسكتنا حتى ظننا أنه سيسميه بغير اسمه، فقال: «أليس بذي الحجة؟» قلنا: بلى، قال: «فإن دماءكم، وأموالكم، وأعراضكم بينكم حرام، كحرمة يومكم هذا، في شهركم هذا، في بلدكم هذا، ليُبلغ الشاهدُ الغائبَ، فإن الشاهد عسى أن يُبلغ مَن هو أوعى له منه». (أخرجه البخاري ٦٧، ومسلم ١٦٧٩).

لقد أراد ﷺ أن يبين لهم حرمة الدماء، والأموال، والأعراض، فربطها بحُرمة الشهر الحرام، والبلد الحرام؛ إذ هم في البلد الحرام، والشهر الحرام.

٦- التشويق:

وتارة يُمهد ﷺ بالتشويق لما يريد تعليمه، عن أبي سعيد بن المعلى، قال: كنت أصلي في المسجد، فدعاني رسول الله ﷺ فلم أجبه، فقلت: يا رسول الله إني كنت أصلي، فقال: «ألم يقل الله ﴿ٱسْتَجِيبُوا۟ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ﴾؟ (الأنفال: ٢٤)، ثم قال لي: «لأُعلِّمنك سورة هي أعظم السور في القرآن قبل أن تخرج من المسجد»، ثم أخذ بيدي، فلما أراد أن يخرج قلت له: ألم تقل لأُعلِّمنك سورة هي أعظم سورة في القرآن؟ قال: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ هي السبع المثاني، والقرآن العظيم الذي أوتيته». (أخرجه البخاري ٤٤٧٤).

ففي هذا الحديث وعد ﷺ أبا سعيد بن المعلى ﷺ أن يعلمه أعظم سورة في القرآن قبل خروجه من المسجد، ثم انصرف عن هذا الحديث حتى قارب الخروج، فسأله أبو سعيد ﷺ؛ مما يعني أنه قد أشغل ذهنه في التفكير والاستعداد لتلقي العلم.

وتكرر الموقف مع أُبَيِّ بن كعب ﷺ، فعن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ خرج على أبي بن كعب، فقال رسول الله ﷺ: «يا أُبَيُّ- وهو يصلي-، فالتفت أُبَيٌّ، ولم يجبه، وصلَّى أُبَي فخفَّفَ، ثم انصرف إلى رسول الله ﷺ، فقال: السلام عليك يا رسول الله، فقال رسول الله ﷺ: وعليك السلام، ما منعك يا أُبَيُّ أن تجيبني إذ دعوتك؟ فقال: يا رسول الله إني كنت في الصلاة، قال: أفلم تجد فيما أوحى الله إليَّ أن: ﴿ٱسْتَجِيبُوا۟ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ (الأنفال: ٢٤)، قال: بلى، ولا أعود- إن شاء الله-، قال: «تُحبُّ أن أعلمك سورة لم ينزل في التوراة، ولا في الإنجيل، ولا في الزبور، ولا في الفرقان مثلها؟»، قال: نعم يا رسول الله، قال رسول الله ﷺ: «كيف تقرأ في الصلاة؟ قال: فقرأ أُمَّ القرآن، فقال رسول الله ﷺ: «والذي نفسي بيده ما أُنزلت في التوراة، ولا في الإنجيل، ولا في الزبور، ولا في الفرقان مثلها، وإنها سبع من المثاني والقرآن العظيم الذي أعطيته». (أخرجه الترمذي ٢٨٧٥، وأحمد ٩٣٤٥).

وجاء في رواية مالك: فوضع رسول الله ﷺ يدَه على يدِه، وهو يُريد أن يخرج من باب المسجد، فقال: إني لأرجو أن لا تخرج من المسجد حتى تعلم سورةً ما أنزل الله في التوراة، ولا في الإنجيل، ولا في القرآن مثلها، قال أُبي: فجعلت أبطئ في المشي رجاءَ ذلك، ثم قلت: يارسول الله، السورة التي وعدتني». (أخرجه مالك في الموطأ ٣٧، كتاب الصلاة، باب ما جاء في أم القرآن).

وذهب بعضهم إلى أن القصة واحدة، ورجح البيهقي تعدد القصة، ووافقه ابن حجر، قال ابن حجر: «وجمع البيهقي بأن القصة وقعت لأُبَيّ بن كعب، ولأبي سعيد بن المعلى، ويتعين المصير إلى ذلك؛ لاختلاف مخرج الحديثين، واختلاف سياقهما كما سأُبيِّنُه». (فتح الباري ٨ / ١٥٧).

وعن معاذ بن جبل ﷺ قال: كنت مع النبي ﷺ في سفر، فأصبحت يومًا قريبًا منه- ونحن نسير-، فقلت: يا رسول الله أخبرني بعمل يدخلني الجنة، ويباعدني عن النار؟ قال: «لقد سألتني عن عظيم، وإنه ليسير على مَن يسَّره الله عليه، تعبد الله ولا تشرك به شيئًا، وتقيم الصلاة، وتؤتي الزكاة، وتصوم رمضان، وتحج البيت، ثم قال: أَلَا أدلك على أبواب الخير؟، الصوم جُنَّة، والصدقة تطفئ الخطيئة كما يطفئ الماءُ النارَ، وصلاة الرجل من جوف الليل، قال: ثم تلا: ﴿ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ ﴾ (السجدة: ١٦)، حتى بلغ ﴿يَعْمَلُونَ ﴾ ، ثم قال: «ألا أُخبرك برأس الأمر كله، وعموده، وذروة سنامه؟» قلت: بلى يا رسول الله، قال: «رأس الأمر الإسلام، وعموده الصلاة، وذروة سنامه الجهاد»، ثم قال: «ألا أخبرك بملاك ذلك كله؟»، قلت: بلى يا نبي الله، فأخذ بلسانه، قال: «كُفَّ عليك هذا»، فقلت: يا نبي الله، وإنَّا لمؤاخذون بما نتكلم به؟، فقال: «ثكلَتْكَ أمُّك يا معاذ، وهل يكبُّ الناسَ في النار على وجوههم، أو على مناخرهم إلا حصائدُ ألسنتِهم». (أخرجه الترمذي ٢٦١٦، وابن ماجه ٣٩٧٣، وأحمد ٢٢٠١٦).

فحين أجاب النبي ﷺ معاذًا رضي الله عنه عن سؤاله، أراد أن يعلمه فوق ما سأل، فمهَّد لذلك بالسؤال عما يريد تعليمه إياه.

وسألهم ﷺ عن الخيار والأشرار من الأُمراء قبل أن يحدِّثهم بذلك، فعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «ألا أُخبركم بخيار أمرائكم وشرارهم؟ خيارهم الذين تحبونهم ويحبونكم، وتدعون لهم ويدعون لكم، وشرار أمرائكم الذين تبغضونهم ويبغضونكم، وتلعنونهم ويلعنونكم». (أخرجه الترمذي ٢٢٦٤).

وفي موقف آخر سألهم ﷺ عن خيرهم وشرهم قبل أن يخبرهم، عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ وقف على أُناسٍ جلوس، فقال: «ألا أخبركم بخيركم من شركم؟»، قال: فسكتوا، فقال ذلك ثلاث مرات، فقال رجل: بلى يا رسول الله، أخبرنا بخيرنا من شرنا، قال: «خيركم من يُرجَى خيرُه، ويؤمَنُ شرُّه، وشركم مَن لا يُرجَى خيرُه، ولا يؤمَنُ شرُّه». (أخرجه الترمذي ٢٢٦٣، وأحمد ٨٨١٢).

ويسألهم ﷺ عما قال ربهم تبارك وتعالى، وهو يعلم مدى اشتياقهم وحرصهم على معرفة ذلك، عن زيد بن خالد الجهني رضي الله عنه أنه قال: صلَّى لنا رسول الله ﷺ صلاةَ الصبح بالحديبية على إِثْرِ سماء كانت من الليلة، فلما انصرف النبي ﷺ، أقبل على الناس، فقال: «هل تدرون ماذا قال ربكم؟»، قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: «أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر، فأما مَن قال: مُطِرنا بفضل الله ورحمته؛ فذلك مؤمن بي، كافر بالكوكب، وأما مَن قال: بِنَوْءِ كذا وكذا؛ فذلك كافر بي، مؤمن بالكوكب». (أخرجه البخاري ١٠٣٨، ومسلم ٧١).

ويسألهم ﷺ عن مَن تُحرم عليه النار، عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ألا أخبركم بمن يُحرَّم على النار، أو بِمَن تُحرَّم عليه النار؟ على كل قريب، هين، سهل». (أخرجه الترمذي، ٢٤٨٨، وأحمد، ٣٩٣٨).

ويسألهم قبل أن يخبرهم بفضل سورة الإخلاص، عن أبي الدَّرْدَاء ﷺ عن النبي ﷺ قال: «أيعجز أحدكم أن يقرأ في ليلةٍ ثلثَ القرآن؟، قالوا: وكيف يقرأ ثلث القرآن؟ قال: قل هو الله أحد تَعدِل ثلثَ القرآن»، وفي روايةٍ أنه قال: «إن الله جزَّأ القرآن ثلاثة أجزاء، فجعل: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ جزءًا من أجزاء القرآن». (أخرجه مسلم ٨١١).

تنوع أساليب التعليم النبوي ومداخله

لم يكن ﷺ يسير على نمطٍ مُتكرر، أو أسلوب واحد، ومَن تأمَّل مواقف التعليم النبوي؛ رأى هذا التنوع في أساليب التعليم، ومداخله، وأدواته.

يتحدث أبو غُدَّة عن هذا التنوع، فيقول:

«كان رسول الله ﷺ يختار في تعليمه من الأساليب أحسنها، وأفضلها، وأوقعها في نفس المُخاطَب، وأقربها إلى فهمه وعقله، وأشدها تثبيتًا للعلم في ذهن المُخاطَب، وأكثرها مساعدة على إيضاحه له.

ومَن درس كتب السنة، وقرأها بإمعان؛ رأى أن رسول الله ﷺ كان يُلون الحديث لأصحابه ألوانًا كثيرة، فكان تارة يكون سائلًا، وتارة يكون مُجيبًا، وتارة يُجيب السائل بقدر سُؤاله، وتارة يزيده على ما سأل، وتارة يضرب المثل لما يريد تعليمه، وتارة يُصحب كلامه القسم بالله تعالى، وتارة يلفت السائل عن سؤاله لحكمة بالغة منه ﷺ، وتارة يُعلم بطريق الكتابة، وتارة بطريق الرسم، وتارة بطريق التشبيه أو التصريح، وتارة بطريق الإبهام أو التلويح.

وكان ﷺ تارة يورد الشبهة؛ ليذكر جوابها، تارة يسلك سبيل المُداعبة والمُحاجاة فيما يُعلمه، وتارة يُمهد لما يشاء، وتارة يشير إلى عللها؛ لذكر جوابها، وتارة يسأل أصحابه- وهو يعلم-؛ ليمتحنهم بذلك، وتارة يسألهم؛ ليرشدهم إلى موضع الجواب، وتارة يُلقي إليهم العلم قبل السؤال، وتارة يَخُصُّ النساء ببعض مجالِسِه، ويُعلمهن ما يحتَجْنَ إليه من العلم، وتارة يُراعي حال مَن بحضرته من الأطفال والصغار؛ فيتنزل إليهم، ويعلمهم بما يُلاقي طفولتهم ولهوهم البريء، إلى غير ذلك من فنون تعليمه ﷺ». (الرسول المعلم وأساليبه في التعليم، ص ٦٣-٦٤).

والتنوع في أساليب التعليم وأنماطه له آثاره الإيجابية المهمة، ومن ذلك ما يلي:

- التشويق وإبعاد الملل؛ فالنفوس تسأم من البقاء على وتيرة واحدة في موقف التعلم.
- مراعاة اختلاف المتعلمين في قدراتهم وتحصيلهم، وفي أنماط ذكاءاتهم: (المنطقي، والمكاني، والاجتماعي...).
- ملاءمة موضوع التعلم؛ فالأسلوب والمدخل الذي يناسب موضوعًا ما قد لا يناسب غيره.
- تكوين شخصية المتعلم؛ فأساليب التعلم وأدواته ليست وعاءً لنقل المعرفة فحسب، فلها أثرها في تنمية كثير من جوانب شخصية المتعلم، كما سيأتي.
- وسيَرِد معنا في هذا الفصل - بإذن الله - العديد من الشواهد على تنوع أساليب التعليم النبوي وأدواته.

التعليم الفاعل

كان ﷺ- كما وصف نفسه- مُعلِّما مُيسِّرًا، وكما وصفه صاحبه رضوان الله عليه: «ما رأيت مُعلمًا قبله، ولا بعده أحسن تعليمًا منه».

ومع أُمِّيَّته ﷺ إلا أنه كان خير معلم، قال الماوردي:«وهو أُميٌّ من أمةٍ أُمِّيَّةٍ، لم يقرأ كتابًا، ولا درس علمًا، ولا صحب عالمًا ولا معلمًا، فأتى بما بهر العقول، وأذهل الفطن، من إتقان ما أبان، وإحكام ما أظهر، فلم يعثر فيه بزلل في قول أو عمل، وجعل مدار شرعه على أربعة أحاديث، أوجز بها المراد، وأحكم بها الاجتهاد». (أعلام النبوة للماوردي، ٢٢٣).

تعزيز دور المتعلم:

تتفق الاتجاهات التربوية الحديثة اليوم على أن تعزيز دور المتعلم أمر محوري في التعليم الفاعل، وتركز الاتجاهات الحديثة في التعليم على أن يكون المتعلم فاعلًا ونشطًا في الموقف التعليمي، يُمارس التعلم، ويتفاعل ذهنيًّا وعقليًّا.

ومع مرور الوقت يتضاءل الحديث عن التلقِّي والتلقين، وعن تضخيم دور الإنصات والاستماع، وتتنوع التجارب والتطبيقات التربوية في تطوير أساليب ووسائل تُعزز من دور المتعلم، وتُنمي التعلم النشط لديه.

ومهما تنوعت المصطلحات، وتعددت النظريات التعليمية، يبقى تفاعل المتعلم في الموقف التعليمي، ونقله من دور الاستماع والتلقي إلى دور ممارسة التعلم والاستنتاج محورًا في كثير من الاتجاهات التربوية[١].

(١) لست ممن يميل إلى الولع بربط السنة النبوية بالنظريات والمصطلحات الحديثة، وإلى السعي لفهم المنهج النبوي من خلالها، أو اعتباره أدوات لملء الفراغ بين عناوينها، إلا أن الوعي بهذه الاتجاهات والنظريات والتجارب العلمية يوسع الأفق ويتيح أدوات جديدة يمكن أن نستكشف منها جوانب من المنهج النبوي، وبالأخص أننا لا نتطرق إلى محتوى النص الشرعي، أو نعيد فهمه=

ويُمكن أن نُقسِّم دور المتعلم في الموقف التعليمي إلى ثلاثة مستويات:

المستوى الأول: أن يكون دور المتعلم قاصرًا على مجرد الاستماع والإنصات، وحفظ ما يقوله المعلم.

المستوى الثاني: أن يتجاوز الحفظ والتلقي المجرد إلى فهم ما يُقال، والسؤال عما لا يتضح له، وطلب إعادة ما فاته، أو قصَّر في فهمه.

المستوى الثالث: أن يتفاعل ذهنيًّا، ويشارك في التعلم؛ فيمارس عددًا من المعالجات الذهنية والعقلية على المعرفة التي يتلقاها من معلمه، فيستنتج ويستنبط، ويُعمِّم ويُحلِّل، فربما استنتج الحكم الشرعي بعد مقارنته بنظيره، أو النظر إلى علته ومقصده، وربما نزَّل الحكم الشرعي الثابت بالنص على واقعة جديدة، وهكذا.

وهذا المستوى هو ما يعنيه التربويون في حديثهم عن تعزيز دور المتعلم وفاعليته، وليس المستوى الثاني؛ فليس التفاعل المقصود هو مجرد النشاط البدني، والتركيز، والإجابة عن أسئلة المعلم- وإن كان مطلوبًا- إلا أن التفاعل الذي يسهم في تنمية شخصية المتعلم: هو الذي يتحول فيه المتعلم من مجرد مُتَلقٍّ إلى مشارك في الموقف التعليمي، وممارس للتعلم.

وحين نعود إلى المواقف التعليمية النبوية نجد هذا الجانب حاضرًا وبارزًا، فكثيرًا ما كان الصحابة في مجالس التعليم النبوي يمارسون التعلم من رسول الله ﷺ، ولا يقف دورهم عند الاستماع المجرد، وإن كان الاستماع والإنصات له ﷺ غاية في الفضيلة.

ومن صور تعزيز دور المتعلم في الموقف النبوي ما يلي:

١- استثمار سؤال المتعلم:

كان أصحاب النبي ﷺ يسألونه عما يشكل عليهم في أمور دينهم، في كافة شؤون

=وتشكيله في ضوء المستجدات، وقد سبق الحديث في ذلك مفصلًا في مدخل الكتاب.

الحياة، والسؤال يقتضي من المجيب أن يعطي السائل الحكم مباشرة، إلا أن النبي ﷺ في مواقف عِدَّة كان يحاور السائل، ويوجه له أسئلة تقود إلى استنتاج الحكم.

عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه **قال:** سمعت رسول الله ﷺ يُسأَل عن شراء التمر بالرُّطب، فقال رسول الله ﷺ: «أينقص الرُّطب إذا يبس؟»، قالوا: نعم، فنهاه رسول الله ﷺ عن ذلك. (أخرجه أبو داود ٣٣٥٩، والترمذي ١٢٢٥، والنسائي، ٤٥٤٥، وابن ماجه ٢٢٦٤، وأحمد ١٥١٥).

«وبَدَهِيٌّ كل البداهة أن النبي ﷺ كان عالمًا أن الرُّطب ينقص إذا يبس، فهو يعيش في قلب جزيرة العرب، بلاد التمر والرُّطب، وذلك أمر لا يخفى على أقل الناس، لكنه ﷺ سألهم: هل ينقص الرُّطب إذا يبس؟ لينبِّهَ أصحابه وتابعِيه إلى أن علة النهي عن بيع الرُّطب بالتمر هي نقصه عند يبسه». (أساليب الرسول ﷺ في التعليم، أبو غدة، ص١١٢).

ولم يكن الحوار النبوي قاصرًا على خاصة أصحابه، بل نرى في السنة عددًا من المواقف كان ﷺ يمارس فيها المنهج نفسه مع سائلٍ يسأله: امرأة، أو أعرابي، وغيرهم ممن لم يكونوا أهل تميُّز في العلم والفقه.

عن ابن عباس رضي الله عنهما أن امرأة أتت رسول الله ﷺ، فقالت: إن أُمِّي ماتت، وعليها صوم شهر، فقال: «أرأيت لو كان عليها دَيْنٌ، أكنت تقضينه؟» قالت: نعم، قال: «فدَيْنُ الله أحق بالقضاء». (أخرجه مسلم ١١٤٨، وأصله في البخاري ٧٣١٥).

واستخدم ﷺ الأسلوب نفسه مع أعرابي جاءه سائلًا؛ فعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رجلًا أتى النبي ﷺ، فقال: يا رسول الله، وُلد لي غلام أسود؟، فقال: «هل لك من إبل؟»، قال: نعم، قال: «ما ألوانها؟»، قال: حمر، قال: «هل فيها من أورق؟»، قال: نعم، قال: «فأنّى

ذلك؟»، قال: لعله نزعه عِرق، قال: «فلعل ابنك هذا نزعه». (أخرجه البخاري ٥٣٠٥، ومسلم ١٥٠٠).

وجاء في رواية للبخاري ٧٣١٤: أن أعرابيًّا.

لقد سأل النبي ﷺ هذا الأعرابي عن ظاهرةٍ يراها في حياته، ونشأ عليها من صِغره، تدل على أن شبه المولود ليس قاصرًا على أبويه، بل قد ينتقل إليه من أجداده السابقين.

ويسأله رجل أشكلت عليه آية من كتاب الله تعالى في وصفه سبحانه وتعالى للجنة، بأن عرضها السماوات والأرض، عن أبي هريرة ﷺ قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: يا محمد، أرأيت جنة عرضها السماوات والأرض، فأين النار؟، قال: «أرأيت الليل الذي قد ألبس كل شيء، فأين جعل النهار؟»، قال: الله أعلم، قال: «كذلك يفعل الله ما يشاء». (أخرجه الحاكم ١٠٣).

ففي هذا الموقف أحال النبي ﷺ الرجل إلى ظاهرة يراها ويتعامل معها كل يوم، ووَجَّهَ له السؤال عن تفسيرها، فأحال الرجل العلم إلى الله عز وجل، حينها ربط النبي ﷺ الأمرين.

وحين تساءل أعرابي عن التوفيق بين ما قاله ﷺ، وما يراه في بيئته؛ وجَّه له ﷺ سؤالا منطقيًّا؛ فعن أبي هريرة ﷺ قال: إن رسول الله ﷺ قال: «لا عَدْوَى، ولا صَفَر، ولا هامة»، فقال أعرابي: يا رسول الله، فما بال إبلي، تكون في الرمل كأنها الظِّباء، فيأتي البعير الأجرب فيدخل بينها فيجربها؟، فقال: «فمن أعدى الأول؟». (أخرجه البخاري ٥٧١٧، ومسلم ٢٢٢٠).

٢- الإقناع بالحُكم:

وقد يبدو الحكم للمتعلم مشكلًا؛ فيوجه النبي ﷺ له السؤال الذي يقوده للاستنتاج، فعن أبي ذَرٍّ ﷺ، أن ناسًا من أصحاب النبي ﷺ قالوا للنبي ﷺ: يا رسول الله، ذهب أهل

الدُّثور بالأجور، يُصلون كما نُصلي، ويصومون كما نصوم، ويتصدقون بفضول أموالهم، قال: «أوليس قد جعل الله لكم ما تصدقون؟ إن بكل تسبيحة صدقة، وكل تكبيرة صدقة، وكل تحميدة صدقة، وكل تهليلة صدقة، وأمر بالمعروف صدقة، ونهي عن منكر صدقة، وفي بُضع أحدكم صدقة»، قالوا: يا رسول الله، أيأتي أحدنا شهوته، ويكون له فيها أجر؟، قال: «أرأيتم لو وضعها في حرام أكان عليه فيها وزر؟، فكذلك إذا وضعها في الحلال كان له أجر». (أخرجه مسلم ١٠٠٦، وأصله في البخاري ٨٤٣، دون موضع الشاهد).

وفي رواية أنهم أجابوه ﷺ، ففي رواية أحمد (٢١٤٨٢): «وفي بُضع أحدكم صدقة»، قالوا: يا رسول الله، يأتي أحدنا شهوته، ويكون له فيها أجر؟، فقال:«أرأيتم لو وضعها في الحرام، أليس كان يكون عليه وزر؟- أو الوزر-»، قالوا: بلى، قال: «فكذلك إذا وضعها في الحلال يكون له الأجر».

فقد أُشكل على أصحاب النبي ﷺ كيف يُؤجر الإنسان على أمرٍ يريد به الشهوة، وقضاء الوطر، فسألهم ﷺ عن الصورة المقابلة لها، وهي وضع الشهوة في الحرام، منبهًا لهم على مأخذ ثبوت الأجر على مثل هذه الصورة.

وقد استدل بعض أهل العلم بهذا الحديث على جواز القياس، قال النووي: «فيه جواز القياس، وهو مذهب العلماء كافة، ولم يُخالف فيه إلا أهل الظاهر، ولا يُعتدُّ بهم، وأما المنقول عن التابعين ونحوهم من ذم القياس: فليس المراد به القياس الذي يعتمده الفقهاء المجتهدون». (شرح صحيح مسلم ٧/ ٩٢).

توجيه المتعلم للتطبيق العملي:

وربما وجَّه ﷺ المتعلم للتطبيق العملي؛ ليكون ذلك وسيلة لتعليمه، ومن أمثلة ذلك الحديث المشهور: حديث المسيء صلاته، فقد كرر عليه ﷺ الأمر بإعادة الصلاة بقوله:

«ارجع فَصَلِّ؛ فإنك لم تُصَلِّ». (أخرجه البخاري ٧٥٧، ومسلم ٣٩٧).

واستفاض شُرَّاح الحديث في تعليل أمره ﷺ له بتكرار الصلاة، قال ابن حجر: «وقد استشكل تقرير النبي ﷺ له على صلاته، وهي فاسدة على القول بأنه أخلَّ ببعض الواجبات، وأجاب المازري: بأنه أراد استدراجه بفعل ما يجهله مرات؛ لاحتمال أن يكون فعله ناسيًا أو غافلًا؛ فيتذكره، فيفعله من غير تعليم، وليس ذلك من باب التقرير على الخطأ، بل من باب تحقق الخطأ، وقال النووي نحوَه، قال: وإنما لم يُعلمه أولًا؛ ليكون أبلغ في تعريفه، وتعريف غيره بصفة الصلاة المجزئة». (فتح الباري ٢/ ٢٨١).

ونقل رحمه الله عن ابن دقيق العيد تعليل ذلك بكونه أصلح في تعليمه، فقال: «ولا شك أن في زيادة قبول المتعلم لما يلقى إليه بعد تكرار فعله، واستجماع نفسه، وتوجه سؤاله مصلحةً مانعةً من وجوب المبادرة إلى التعليم، لا سيما مع عدم خوف الفوات، إما بناء على ظاهر الحال، أو بوحي خاص». (فتح الباري ٢/ ٢٨١).

وأيًّا كان التعليل، فإن دلالة الحديث باقية على تعزيز دور المتعلم، وجعل الموقف التعليمي أكثر فاعلية.

سؤال المتعلم:

وأحيانًا كان ﷺ يُوجه السؤال للمتعلم، والسؤال يقوده إلى ممارسة التفكير والتأمل، فإن كانت لديه إجابة حاضرة؛ فإنه سيعيد تقويمها ومراجعتها في ذهنه قبل أن يجيب، وسيتلقى تغذية راجعة منه ﷺ بشأنها.

وإن لم تكن الإجابة حاضرة لديه؛ فهو سيفكر ويتأمل فيها، فإما أن يرى أنه لا يجترئ على الإجابة؛ فسيحيل العلم لله ورسوله قائلًا: (الله ورسوله أعلم)، أو أن يرى أن بمقدوره الاجتهادَ؛ فيجيب منتظرًا التسديد والتصويب منه ﷺ.

وفي كل الحالات سيمارس المتعلم عملية التعلم، والتأمل، والتفكير، وحين لا يعرف الإجابة؛ فيعلمه ﷺ، فإن أثر الموقف يختلف كثيرًا عما لو أعطاه ﷺ الأمر مباشرة.

وتتنوع أسئلة النبي ﷺ لأصحابه، فتارة يكون السؤال موجهًا لشخص واحد بعينه، وهذا غالبًا في مواقف التعلم الفردية.

ومنها: حديث أُبَي بن كعب ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «يا أبا المنذر، أتدري أي آية من كتاب الله معك أعظم؟» قال: قلت: الله ورسوله أعلم. قال: «يا أبا المنذر أتدري أي آية من كتاب الله معك أعظم؟» قال: قلت ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ﴾ (البقرة: ٢٥٥)، قال: فضرب في صدري، وقال: «والله لِيَهْنِكَ العلمُ أبا المنذر». (أخرجه مسلم ٨١٠).

وتارة يكون السؤال موجهًا للعموم، كما في حديث ابن عمر ﷺ حين سألهم ﷺ عن الشجرة التي لا يسقط ورقها.

وكلا النمطين من السؤال يُؤدي وظيفة مختلفة، فالسؤال الفردي يُوجَّه للمتعلم بعينه، ودرجة تفاعله معه ستكون أعلى مما لو كان فردًا ضمن مجموعة.

والسؤال الجماعي- وإن كان لا يتحقق فيه هذا المعنى- ففيه بعدٌ آخر لا يوجد في السؤال الفردي؛ فهو يثير التنافس بين المتعلمين، فكل منهم يريد أن يحظى بالإجابة الصحيحة.

وفي السؤال الجماعي معنًى آخر لا يوجد في السؤال الفردي، وهو أن المجيب قد يبني على إجابة مَن سبقه؛ فالأفكار الجماعية تراكمية، ولو فكر كل فرد لوحده بمعزل عن المجموعة؛ فلن يصل في الأغلب للإجابة التي سيصل إليها وهو في المجموعة.

إتاحة الفرصة للإجابة:

وربما بادر المتعلم بالإجابة، أو المشاركة، دون أن يطلب منه ﷺ ذلك، أو يوجه له السؤال، فيأذن له ﷺ بأن يجيب، عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه كان يُحدث أن رجلًا أتى رسول الله ﷺ فقال: إني رأيت الليلة في المنام ظلة تنطف السمن والعسل، فأرى الناس يتكفَّفون منها، فالمستكثر، والمستقل، وإذا سبب واصل من الأرض إلى السماء، فأراك أخذت به فعلوت، ثم أخذ به رجل آخر فعلا به، ثم أخذ به رجل آخر فعلا به، ثم أخذ به رجل آخر فانقطع، ثم وصل، فقال أبو بكر: يا رسول الله- بأبي أنت-، والله لتدعني فأعبرها، فقال النبي ﷺ: اعبُر، قال: أما الظلة: فالإسلام، وأما الذي ينطف من العسل والسمن: فالقرآن، حلاوته تنطف، فالمستكثر من القرآن والمستقل، وأما السبب الواصل من السماء إلى الأرض: فالحق الذي أنت عليه، تأخذ به فيعليك الله، ثم يأخذ به رجل من بعدك فيعلوَ به، ثم يأخذ رجل آخر فيعلوَ به، ثم يأخذه رجل آخر فينقطعَ به، ثم يوصل له فيعلوَ به، فأخبرْني يا رسول الله- بأبي أنت- أصبتُ أم أخطأتُ؟ قال النبي ﷺ: «أصبتَ بعضًا، وأخطأتَ بعضًا»، قال: فوالله لتحدثني بالذي أخطأتُ، قال: «لا تقسم». (أخرجه البخاري ٧٠٤٦، ومسلم ٢٢٦٩، وانظر: النظرية التربوية في طرق تدريس الحديث النبوي، ليوسف صديق، ص١٤٠).

إن مبادرة أبي بكر رضي الله عنه بالإجابة في محضر النبي ﷺ، وهو من أكثر الناس صحبة ومجالسة له، ومن أعلمهم به ﷺ، هذه المبادرة مؤشر على أنهم اعتادوا التفاعل والمشاركة مع مواقف التعليم النبوي.

التعليم بالمواقف العملية:

استخدم النبي ﷺ المواقف العملية في تعليم أصحابه، وحفلت سنة النبي ﷺ بمواقفَ عديدةٍ، طبَّق فيها ﷺ هذا الأسلوب، ومن ذلك ما يلي:

١- تعليم الوضوء:

علَّم ﷺ أصحابه كيفية الوضوء عمليًّا، فعن عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جده رضي الله عنهما، أن رجلًا أتى النبي ﷺ، فقال: يا رسول الله، كيف الطهور؟، فدعا بماءٍ في إناء، فغسل كفَّيْه ثلاثًا، ثم غسل وجهه ثلاثًا، ثم غسل ذراعيه ثلاثًا، ثم مسح برأسه، فأدخل إصبعيه السَّبَّاحتين في أذنيه، ومسح بإبهامَيْه على ظاهر أذنيه، وبالسَّبَّاحتين باطنَ أذنيه، ثم غسل رجلَيْه ثلاثًا ثلاثًا، ثم قال: «هكذا الوضوء؛ فمن زاد على هذا أو نقص[1]؛ فقد أساء، وظلم- أو ظلم، وأساء-». (أخرجه أبو داود ١٣٥، وأخرجه كلٌّ من: أحمد ٦٦٨٤، وابن ماجه ٤٢٢، مختصرًا).

وعن حمران مولى عثمان أنه رأى عثمان بن عفان رضي الله عنه دعا بإناءٍ، فأفرغ على كفَّيْه ثلاث مرات، فغسلهما، ثم أدخل يمينه في الإناء، فمضمض، واستنشق، ثم غسل وجهه ثلاثًا، ويديه إلى المرفقين ثلاثَ مرات، ثم مسح برأسه، ثم غسل رجليه ثلاث مرات إلى الكعبين، ثم قال: قال رسول الله ﷺ: «مَن توضأ نحوَ وضوئي هذا، ثم صلَّى ركعتين لا يُحدِّث فيهما نفسه، غُفِر له ما تقدَّم من ذنبه». (أخرجه البخاري ١٥٩، ومسلم ٢٢٦).

٢- تعليم التيمم:

علَّم النبي ﷺ عمار بن ياسر رضي الله عنهما صفةَ التيمم من خلال التطبيق العملي؛ فعن عمار رضي الله عنه قال: بعثني رسول الله ﷺ في حاجةٍ، فأجنبت، فلم أجد الماء، فتمرَّغت في الصعيد، كما تمرَّغُ الدابة، ثم أتيت النبي ﷺ، فذكرت ذلك له، فقال: «إنما كان يكفيك أن تقول بيديك: هكذا»، ثم ضرب بيديه الأرض ضربةً واحدةً، ثم مسح الشمال على اليمين، وظاهر كفَّيْه ووجهه. (أخرجه البخاري ٣٤٧، ومسلم ٣٦٨، واللفظ له).

---

(١) جملة «أو نقص» شاذة، كما نص على ذلك ابن القيم في زاد المعاد.

٣- تعليم الغُسل:

وعلَّم النبي ﷺ أمَّتَه صفةَ الغُسل بصورة عملية من خلال اغتساله ﷺ مع زوجاته، فرَوَيْنَ لنا رضوان الله عليهن صفةَ غُسله ﷺ، بل إن صفة الغُسل المسنونة لا تكاد تُحفظ إلا من خلال النقل عن فعله ﷺ.

فقد وصفت عائشة رضي الله عنها صفةَ غُسله ﷺ، عن عائشة زوج النبي ﷺ أن النبي ﷺ كان إذا اغتسل من الجنابة، بدأ فغسل يديه، ثم يتوضأ كما يتوضأ للصلاة، ثم يُدخل أصابعه في الماء، فيُخلِّل بها أصولَ شعره، ثم يصبُّ على رأسه ثلاثَ غرفٍ بيديه، ثم يفيض الماء على جلده كله. (أخرجه البخاري ٢٤٨، ومسلم ٣١٦).

ووصفت ميمونة رضي الله عنها **غُسلَه ﷺ، فقالت**: «صببت للنبي ﷺ غُسلًا، فأفرغ بيمينه على يساره فغسلهما، ثم غسل فرجه، ثم قال بيده الأرض، فمسحها بالتراب، ثم غسلها، ثم تمضمض واستنشق، ثم غسل وجهه، وأفاض على رأسه، ثم تنحى، فغسل قدميه، ثم أتي بمنديل فلم ينفض بها». (أخرجه البخاري ٢٥٩، ومسلم ٣١٧).

وهذه النصوص- وإن كانت ليست صريحة في إرادة النبي ﷺ التعليم- إلا أنها تدل على ذلك؛ فاغتساله ﷺ مع نسائه بهذه الصورة قد يُفهم منه إرادة التعليم إذا علمنا أنه ﷺ لم يصف لأصحابه كيفية الغسل مُفصلَّة، رغم الحاجة لذلك.

٤- تعليم مواقيت الصلاة:

استخدم النبي ﷺ التعليم العملي في تعليم أصحابه مواقيت الصلاة؛ فصلَّى بهم يومًا في أول الوقت، واليوم التالي في آخره، ثم بيَّن لهم أن الوقت بين هذين، عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ أنه أتاه سائل يسأله عن مواقيت الصلاة، فلم يردَّ عليه شيئًا، قال: فأقام الفجر حين انشقَّ الفجر، والناس لا يكاد يعرف بعضهم بعضًا، ثم أمره

فأقام بالظهر، حين زالت الشمس، والقائل يقول: قد انتصف النهار، وهو كان أعلم منهم، ثم أمره، فأقام بالعصر، والشمس مرتفعة، ثم أمره، فأقام بالمغرب حين وقعت الشمس، ثم أمره، فأقام العشاء حين غاب الشفق، ثم أَخَّر الفجر من الغد حتى انصرف منها، والقائل يقول: قد طلعت الشمس، أو كادت، ثم أَخَّر الظهر، حتى كان قريبًا من وقت العصر بالأمس، ثم أَخَّر العصر، حتى انصرف منها، والقائل يقول: قد احمرَّت الشمس، ثم أَخَّر المغرب، حتى كان عند سقوط الشفق، ثم أَخَّر العشاء حتى كان ثلث الليل الأول، ثم أصبح، فدعا السائل، فقال: «الوقت بين هذين». (أخرجه مسلم ٦١٤).

وعن سليمان بن بريدة، عن أبيه ﷺ، عن النبي ﷺ، أن رجلًا سأله عن وقت الصلاة، فقال له: «صَلِّ معنا هذين- يعني اليومين-، فلما زالت الشمس، أمر بلالًا فأَذَّنَ، ثم أمره، فأقام الظهر، ثم أمره، فأقام العصر والشمس مرتفعة بيضاء نقية، ثم أمره، فأقام المغرب حين غابت الشمس، ثم أمره، فأقام العشاء حين غاب الشفق، ثم أمره، فأقام الفجر حين طلع الفجر، فلما أن كان اليوم الثاني، أمره، فأبرد بالظهر، فأبرد بها، فأنعم أن يبرد بها، وصلَّى العصر والشمس مرتفعة، أَخَّرها فوق الذي كان، وصلَّى المغرب قبل أن يغيب الشفق، وصلَّى العشاء بعدما ذهب ثلث الليل، وصلَّى الفجر فأسفر بها»، ثم قال: «أين السائل عن وقت الصلاة؟»، فقال الرجل: أنا يا رسول الله، قال: «وقت صلاتكم بين ما رأيتم». (أخرجه مسلم ٦١٣).

قال النووي: «معنى قوله: لم يرُدَّ عليه شيئًا، أي: لم يرُدَّ جوابًا ببيان الأوقات باللفظ، بل قال له: صَلِّ معنا؛ لتعرف ذلك، ويحصل لك البيان بالفعل». (شرح صحيح مسلم ٥/ ١١٥).

وتكرَّر الموقف مع سائلٍ يسأل عن وقت الصبح وحدها، فعن أنس ﷺ قال: سُئِلَ رسول الله ﷺ عن وقت صلاة الصبح، قال: فأمر بلالًا حين طلع الفجر، فأقام الصلاة،

ثم أسفر من الغد حتى أسفر، ثم قال: «أين السائل عن وقت صلاة الغداة؟، ما بين هاتين- أو قال: هذين- وقت». (أخرجه أحمد ١٢١١٩، والنسائي ٥٤٤).

وقد بيَّن ﷺ لهم أن جبريل عليه السلام علَّمه أوقات الصلاة بالكيفية نفسها؛ فعن ابن عباس رضي الله عنهما، قال: قال رسول الله ﷺ: «أمَّني جبريلُ عند البيت، فصلَّى بي الظهر حين زالت الشمس، فكانت بقدر الشراك، ثم صلَّى بي العصر حين كان ظِلُّ كل شيء مثله، ثم صلَّى بي المغرب حين أفطر الصائم، ثم صلَّى بي العشاء حين غاب الشفق، ثم صلَّى بي الفجر حين حُرِّم الطعام والشراب على الصائم، ثم صلَّى الغد الظهر حين كان ظل كل شيء مثله، ثم صلَّى بي العصر حين كان ظل كل شيء مثليه، ثم صلَّى بي المغرب حين أفطر الصائم، ثم صلَّى بي العشاء إلى ثلث الليل الأول، ثم صلَّى بي الفجر فأسفر، ثم التفت إليَّ فقال: يا محمد، هذا وقت الأنبياء من قبلك، الوقت فيما بين هذين الوقتين». (أخرجه أحمد ٣٠٨١، وأبو داود ٣٩٣، والترمذي ١٤٩).

ولأهمية تعلُّم مواقيت الصلاة؛ فإنه ﷺ لم يكتفِ بمواقف التعليم العملية، بل جمع بين الموقف العملي، وبين التعليم بالقول، فعن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ، قال: «وقت الظهر إذا زالت الشمس، وكان ظل الرجل كطوله، ما لم يحضر العصر، ووقت العصر ما لم تصفرَّ الشمس، ووقت صلاة المغرب ما لم يغبِ الشفق، ووقت صلاة العشاء إلى نصف الليل الأوسط، ووقت صلاة الصبح من طلوع الفجر ما لم تطلع الشمس، فإذا طلعت الشمس؛ فأمسك عن الصلاة؛ فإنها تطلع بين قرني شيطان». (أخرجه مسلم ٦١٢).

٥- تعليم صفة الصلاة:

وكما استخدم ﷺ التعليمَ العملي في تعليمهم مواقيت الصلاة، فقد استخدم ذلك في تعليم كيفية الصلاة.

عن عبد العزيز بن أبي حازم، عن أبيه، أن نفرًا جاءوا إلى سهل بن سعد، قد تمارَوا في المنبر من أي عودٍ هو؟ فقال: أما والله إني لأعرف من أي عودٍ هو، ومَن عمله، ورأيت رسول الله ﷺ أول يوم جلس عليه، قال: فقلت له: يا أبا عباس، فحدِّثنا، قال: أرسل رسول الله ﷺ إلى امرأة- قال أبو حازم: إنه ليسميها يومئذ-: «انظري غلامَك النجار، يعمل لي أعوادًا أكلم الناسَ عليها»، فعمل هذه الثلاث درجات، ثم أمر بها رسول الله ﷺ، فوُضعت هذا الموضع، فهي من طرفاء الغابة، ولقد رأيت رسول الله ﷺ قام عليه فكبَّر، وكبَّر الناس وراءه، وهو على المنبر، ثم رفع، فنزل القهقرى حتى سجد في أصل المنبر، ثم عاد، حتى فرغ من آخر صلاته، ثم أقبل على الناس، فقال: «يا أيُّها الناس، إني صنعت هذا لِتَأْتَمُّوا بي، ولتعلموا صلاتي». (أخرجه مسلم ٥٤٤، وأصله في البخاري ٩١٧).

ففي هذا الحديث صلَّى ﷺ على المنبر في مكانٍ مرتفع، وترتَّب على ذلك أن يتحرك في الصلاة، فيرجع وقت السجود، ثم يَرْقَى، وكل هذا لمصلحة التعليم، وقد نصَّ جمعٌ من الفقهاء على كراهة الحركة في الصلاة لغير حاجة، قال النووي: «وفيه جواز صلاة الإمام على موضعٍ أعلى من موضع المأمومين، ولكنه يكره ارتفاع الإمام على المأموم، وارتفاع المأموم على الإمام لغير حاجة، فإن كان لحاجة بأن أراد تعليمهم أفعالَ الصلاة لم يكره، بل يستحبُّ لهذا الحديث، وكذا إن أراد المأمومُ إعلامَ المأمومين بصلاة الإمام، واحتاج إلى الارتفاع، وفيه: تعليم الإمام المأمومين أفعال الصلاة، وأنه لا يقدح ذلك في صلاته، وليس ذلك من باب التشريك في العبادة، بل هو كرفع صوته بالتكبير». (شرح صحيح مسلم ٥/ ٣٤).

وذكر في عون المعبود من فوائد الحديث: «وجواز قصد تعليم المأمومين أفعالَ الصلاة بالفعل». (٣/ ٢٩٦).

٦- تعليم المناسك:

وعلَّم النبي ﷺ أصحابَه مناسكَ الحج من خلال الأداء العملي، واجتهد أصحاب النبي ﷺ في الحج معه؛ ليتعلموا مناسكهم، كما قال جابر ﵁- في حديثه المشهور في وصف حجة النبي ﷺ-: «فقدم المدينة بشرٌ كثير، كلُّهم يلتمس أن يأتَمَّ برسول الله ﷺ، ويعمل مثل عمله، فخرجنا معه». (أخرجه مسلم ١٢١٨).

ومضى ﷺ يُعلِّم أصحابَه المناسكَ بأوقاتها وصفاتها، من خلال الأداء العملي، ويُؤكِّد عليهم ﷺ هذا المعنى، فعن جابر ﵁ قال: رأيت النبي ﷺ يرمي على راحلته يوم النَّحْرِ، ويقول: «لتأخذوا مناسِكَكم؛ فإني لا أدري لعلي لا أَحُجُّ بعد حجتي هذه». (أخرجه مسلم ١٢٩٧).

قال النووي: «فهذه اللَّامُ لامُ الأمر، ومعناه: خذوا مناسككم، وهكذا وقع في رواية غير مسلم، وتقديره: هذه الأمور التي أتيت بها في حجتي- من الأقوال، والأفعال، والهيئات- هي أمور الحج وصفته، وهي مناسككم؛ فخذوها عني، واقْبَلُوها، واحفظوها، واعملوا بها، وعلِّموها الناس، وهذا الحديث أصل عظيم في مناسك الحج، وهو نحو قوله ﷺ- في الصلاة-: «صَلُّوا كما رأيتموني أُصلِّي». (أخرجه البخاري ٦٣١)، (شرح صحيح مسلم ٩/ ٤٥).

٧- مهارات الحياة:

والتعليم النبوي بالمواقف التعليمية لم يكن قاصرًا على تعليم العبادات والأحكام الشرعية، بل كان ﷺ في مواقف الحياة العملية يُعلِّمهم من خلال الموقف العملي.

عن أبي سعيد الخدري ﵁ أن النبي ﷺ مرَّ بغلام، وهو يسلخ شاة، فقال له رسول الله ﷺ: «تَنَحَّ حتى أُرِيكَ»، فأدخل يده بين الجلد واللحم، فدحس بها، حتى توارت إلى الإبط، ثم مضى، فصلى للناس، ولم يتوضأ. (أخرجه أبو داود ١٨٥، وابن ماجه ٣١٧٩).

٨- مواقف غير صريحة:

ما مضى من المواقف كانت صريحة في إرادته ﷺ تعليمَ أصحابه، وثمَّة مواقف عِدَّة علَّم فيها ﷺ أصحابه بعضَ أحكام العبادات، أو بعضَ القيم الاجتماعية، وإن لم يُصرِّح ﷺ بأنه أراد التعليم.

ومن هذه المواقف: حَمْلُهُ ﷺ أُمامةَ، وهو يصلي، عن أبي قتادة الأنصاري رضي الله عنه «أن رسول الله ﷺ كان يصلي، وهو حامل أمامة بنت زينب، بنت رسول الله ﷺ، ولأبي العاص بن ربيعة بن عبد شمس، فإذا سجد وضعها، وإذا قام حملها». (أخرجه البخاري ٥١٦، ومسلم ٥٤٣).

وقد استنبط أهل العلم من هذا الحديث فوائدَ تتصل بطهارة الصبي وحمله، وبالحركة في الصلاة، وفي كثير منها خلاف يطول، وذلك كله لا يُؤثِّر على الاستدلال بهذا الحديث في مقام التعليم.

كما استنبط بعض أهل العلم منه فوائدَ تتصل بتعليم بعض القيم، وتغيير قيم الجاهلية، قال الفاكهاني: «وكأنَّ السرَّ في حَمْلِه أُمامةَ بنته رضي الله عنها على عاتقه الشريفة أثناء الصلاة؛ دفعًا لما كانت العرب تألفه من كراهة البنات وحملهن، فخالفهم في ذلك حتى في الصلاة؛ للمبالغة في ردعهم، والبيان بالفعل قد يكون أقوى من القول». (فتح الباري ١/ ٥٩٢).

ولما استقرَّ لدى أصحاب النبي ﷺ من التعليم النبوي بالفعل؛ فقد كانوا يصطنعون بعض المواقف العملية- إن صحَّ التعبير-؛ لمعرفة الحكم الشرعي، عن أُمِّ الفضل بنت الحارث رضي الله عنها أن ناسًا اختلفوا عندها يوم عرفة في صوم النبي ﷺ، فقال بعضهم: هو صائم، وقال بعضهم: ليس بصائم، «فأرسلت إليه بقدح لبن- وهو واقف على بعيره- فشربه». (أخرجه البخاري ١٦٦١، ومسلم ١١٢٣).

وفي قصة الحُديبية أمَر النبي ﷺ أصحابه بالحلق والنَّحْر فلم يفعلوا، فأشارت عليه أم سلمة ﵂ بأن يحلق وينحر؛ فاستجاب الناس[1].

جاء في حديث المسور، ومروان: «فلما فرغ من قضية الكتاب، قال رسول الله ﷺ لأصحابه: «قوموا، فانحروا، ثم احلقوا»، قال: فوالله ما قام منهم رجل حتى قال ذلك ثلاث مرات، فلما لم يقم منهم أحد؛ دخل على أم سلمة، فذكر لها ما لَقِيَ من الناس، فقالت أم سلمة: يا نبيَّ الله، أتحب ذلك، اخرج، ثم لا تُكلِّم أحدًا منهم كلمةً، حتى تنحر بُدنك، وتدعوَ حالقك؛ فيحلقك، فخرج، فلم يُكلِّم أحدًا منهم حتى فعل ذلك، نحر بُدنه، ودعا حالقه؛ فحلقه، فلما رأوا ذلك؛ قاموا، فنحروا، وجعل بعضهم يحلق بعضًا، حتى كاد بعضهم يقتل بعضًا غمًّا». (أخرجه البخاري ٢٧٣١).

أثر التعليم بالمواقف العملية:

إن التعليم من خلال المواقف العملية له أثر مهم في فاعلية التعليم، ومن ذلك ما يلي:

- **أنه أقرب إلى إدراك المتعلم، وأوضح في إفهامه من التعليم اللفظي، وبخاصة فيما يتطلب التطبيق، كصفات العبادات.**
- **أنه يُزيل التفاوت بين المتعلمين في مستوى الفهم والإدارك، فالموقف العملي يستوي في إدراكه الجميع، بخلاف التعليم اللفظي؛ فهو يتأثر باللغة، كما يتأثر بتركيز المتعلم وانتباهه.**
- **أنه أكثر بقاءً في الذاكرة من التعلم اللفظي.**

وتتأكد العناية بهذا اللون من التعليم اليوم، مع الضعف اللغوي لدى كثير من

---

(١) ذكر ابن حجر في الفتح (٥/ ٣٤٧) تخريجات عِدَّة لتأخُّر الصحابة رضوان الله عليهم في الحلق والنحر.

المتعلمين، إضافة إلى ارتباط كثير منهم بوسائل التقنية والبرامج المرئية؛ مما رسَّخ لديهم التعلُّم من خلال الصورة أكثر من التعلم من خلال اللغة اللفظية.

التعليل:

كان ﷺ في تعليمه لأصحابه كثيرًا ما يقرن ما يقوله لهم ببيان العلة، سواء في مواقف التعليم ابتداءً، أو في إجابته عن أسئلتهم.

ويتنوع التعليل النبوي ليشمل أبواب العبادات، والمعاملات، والأحكام الزوجية، وكذلك الآداب، والدعاء، والأذكار، ونحو ذلك.

وفيما يلي نورد طائفةً من الأحاديث التي كان ﷺ يقرن مقولَته فيها ببيان العلة.

١ - العلم والتفقُّه:

حين نهى ﷺ أصحابَه عن السؤال عما سكت عنه، علل لهم ذلك، فعن أبي هريرة ﷺ، عن النبي ﷺ قال: «دعوني ما تركتكم؛ إنما هلك مَن كان قبلكم بسؤالهم واختلافهم على أنبيائهم؛ فإذا نهيتكم عن شيء فاجتنبوه، وإذا أمرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم». (أخرجه البخاري ٧٢٨٨، ومسلم ١٣٣٧).

٢ - الطهارة:

ثبت عن النبي ﷺ تعليل كثير مما حدَّث به أصحابه في مسائل الطهارة، فحين أمرهم ﷺ بالاستعاذة عند دخول الخلاء قَرَنَ ذلك ببيان العلة، فعن زيد بن أرقم ﷺ، عن رسول الله ﷺ قال: «إن هذه الحشوش محتضرة، فإذا أتى أحدُكم الخلاءَ فليقل: أعوذ بالله من الخبث والخبائث». (أخرجه أبو داود ٦، وابن ماجه ٢٩٦، وأحمد ١٩٢٨٦).

وعلَّل ﷺ أمرَه مَن استيقظ بأن يغسل يده قبل غمسها في الإناء، فعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إذا توضأ أحدكم فليجعل في أنفه، ثم لينثر، ومَن استجمر فلْيُوتر، وإذا استيقظ أحدكم من نومه فليغسل يده قبل أن يدخلها في وضوئه، فإن أحدكم لا يدري أين باتت يده». (أخرجه البخاري ١٦٢، ومسلم ٢٧٨).

وعلَّل ﷺ أمرَ القائم من نومه بالاستنثار، فعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «إذا استيقظ- أُراه- أحدُكم من منامه، فتوضأ فليستنثر ثلاثًا، فإن الشيطان يبيت على خيشومه». (أخرجه البخاري ٣٢٩٥، ومسلم ٢٣٨).

كما علَّل ﷺ النهي عن الصلاة في مَبارِك الإبل، والإذن بالصلاة في مَبارِك الغنم، عن البراء بن عازب رضي الله عنه قال: سُئِلَ رسول الله ﷺ عن الوضوء من لحوم إبل، فقال: «توضَّئُوا منها»، قال: وسُئِلَ عن الصلاة في مَبارِك الإبل، فقال: «لا تُصلُّوا فيها؛ فإنها من الشياطين»، وسُئِلَ عن الصلاة في مرابض الغنم، فقال: «صلُّوا فيها؛ فإنها بركة». (أخرجه أحمد ١٨٥٣٨، وأبو داود ١٨٤).

٣- الصلاة:

كما علَّل ﷺ كثيرًا من أحكام الصلاة، فحين أمر أصحابه بإبراد الصلاة في شدَّة الحرِّ، علَّل لهم ذلك، فعن أبي ذَرٍّ الغفاري رضي الله عنه قال: كُنَّا مع النبي ﷺ في سفرٍ؛ فأراد المؤذن أن يُؤَذِّن للظهر، فقال النبي ﷺ: أبرِد، ثم أراد أن يؤذن، فقال له: أبرِد، حتى رأينا فيءَ التلول، فقال النبي ﷺ: «إن شدة الحرِّ من فيح جهنم؛ فإذا اشتد الحر فأبردوا بالصلاة». (أخرجه البخاري ٥٣٩، ومسلم ٦١٦).

وورد ذلك- أيضًا- في حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أبرِدوا بالظهر؛ فإن شدة الحر من فيح جهنم». (أخرجه البخاري ٥٣٨).

كما ورد في حديث أبي موسى يرفعه، قال: «أبرِدوا بالظهر؛ فإن الذي تجدون من الحر من فيح جهنم». (أخرجه النسائي ٥٠١).

وحين حدَّث ﷺ أحدَ أصحابه عن أوقات الصلاة الفاضلة، وأوقات النهي عنها؛ ذكر له العلة في ذلك، فعن عمرو بن عبسة السلمي رضي الله عنه أنه قال: كنت- وأنا في الجاهلية- أظن أن الناس على ضلالة، وأنهم ليسوا على شيء وهم يعبدون الأوثان، فسمعت برجلٍ بمكةَ يخبر أخبارًا... الحديث، وفيه: فقلت: يا نبي الله، أخبِرْني عما علَّمك الله، وأجهله، أخبِرْني عن الصلاة، قال: «صَلِّ صلاة الصبح، ثم أقصر عن الصلاة حتى تطلع الشمس، حتى ترتفع، فإنها تطلع حين تطلع بين قرني شيطان، وحينئذ يسجد لها الكفار، ثم صَلِّ؛ فإن الصلاة مشهودة محضورة حتى يستقل الظل بالرمح، ثم أقصر عن الصلاة، فإن حينئذ تُسَجَّر جهنم، فإذا أقبل الفيء فَصَلِّ، فإن الصلاة مشهودة محضورة حتى تُصلِّيَ العصر، ثم أقصِر عن الصلاة حتى تغرب الشمس، فإنها تغرب بين قرني شيطان، وحينئذ يسجد لها الكفار».

قال: فقلت: يا نبي الله، فالوضوءَ، حدِّثْني عنه، قال: «ما منكم رجل يقرب وضوءه فيتمضمض، ويستنشق فينتثر؛ إلا خرَّت خطايا وجهه وفيه وخياشيمه، ثم إذا غسل وجهه- كما أمره الله- إلا خرَّت خطايا وجهه من أطراف لحيته مع الماء، ثم يغسل يديه إلى المرفقين؛ إلا خرَّت خطايا يديه من أنامله مع الماء، ثم يمسح رأسه؛ إلا خرَّت خطايا رأسه من أطراف شعره مع الماء، ثم يغسل قدميه إلى الكعبين؛ إلا خرَّت خطايا رجليه من أنامله مع الماء، فإن هو قام فصلَّى، فحمد الله، وأثنى عليه، ومجَّده بالذي هو له أهل، وفرَّغ قلبه لله؛ إلا انصرف من خطيئته كهيئته يومَ ولدته أمه».

فحدث عمرو بن عبسة بهذا الحديث أبا أُمامة صاحبَ رسول الله ﷺ، فقال له أبو أُمامة: «يا عمرو بن عبسة، انظر ما تقول في مقام واحد يعطى هذا الرجل»، فقال عمرو:

«يا أبا أُمامة، لقد كبرتْ سني، ورَقَّ عظمي، واقترب أجلي، وما بي حاجة أن أكذب على الله، ولا على رسول الله، لو لَمْ أسمعه من رسول الله ﷺ إلا مرة، أو مرتين، أو ثلاثًا حتى عدَّ سبع مرات، ما حدثت به أبدًا، ولكني سمعته أكثر من ذلك». (أخرجه مسلم ٨٣٢).

وعلَّل ﷺ النهي عن الصلاة عند طلوع الشمس، فعن عبدة، عن هشام بن عروة، عن أبيه، عن ابن عمر رضي الله عنهما، قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا طلع حاجب الشمس فدعوا الصلاة حتى تبرز، وإذا غاب حاجب الشمس فدعوا الصلاة حتى تغيب، ولا تحينوا بصلاتكم طلوع الشمس، ولا غروبها؛ فإنها تطلع بين قرني شيطان، أو الشيطان»، لا أدري أي ذلك، قال هشام. (أخرجه البخاري ٣٢٧٢ و ٣٢٧٣).

كما ورد ذلك- أيضًا- عن عائشة رضي الله عنها قالت: أوهم عمر رضي الله عنه، إنما نهى رسول الله ﷺ قال: «لا تتحروا بصلاتكم طلوع الشمس ولا غروبها؛ فإنها تطلع بين قرني شيطان». (أخرجه النسائي ٥٧٠، وأخرجه مسلم ٨٣٣، دون ذكر التعليل).

وأمر رسول الله ﷺ مَن أدرك الصلاة مع الناس- وهو قد صلَّى الفريضة- بأن يُصلِّي معهم، وعلل له ذلك، فعن جابر بن يزيد بن الأسود العامري، عن أبيه، قال: شهدت مع رسول الله ﷺ حجته، قال: فصليت معه صلاة الفجر في مسجد الخيف، فلما قضى صلاته إذا هو برَجُلَيْن في آخر المسجد لم يُصلِّيَا معه، فقال: «عليَّ بهما»، فأتي بهما ترعد فرائصهما، قال: «ما منعكما أن تُصليا معنا؟» قالا: يا رسول الله كنا قد صلينا في رحالنا، قال: «فلا تفعلا، إذا صليتما في رحالكما، ثم أتيتما مسجد جماعة، فصليا معهم؛ فإنها لكما نافلة». (أخرجه أحمد ١٧٤٧٤، والترمذي ٢١٩، وأبو داود ٥٧٥، والنسائي ٨٥٨).

وأمر ﷺ أبا ذَرٍّ رضي الله عنه حين يدرك مَن يؤخرون الصلاة أن يصليها في وقتها، ثم يُصلي معهم، وعلل له ذلك، فعن أبي ذَرٍّ رضي الله عنه قال: قال ﷺ: «كيف أنتم، أو قال: كيف أنت إذا

بقيت في قوم يُؤخرون الصلاة عن وقتها؟ فَصَلِّ الصلاة لوقتها، ثم إن أُقيمت الصلاة، فَصَلِّ معهم؛ فإنها زيادة خير». (أخرجه مسلم ٦٤٨).

وعلل ﷺ أمرَه المصلي بأن يدفع مَن يمر بيديه، فعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «إذا كان أحدكم يُصلي فلا يدع أحدًا يمر بين يديه؛ فإن أَبَى؛ فَلْيُقاتلْه؛ فإن معه القرينَ». (أخرجه مسلم ٥٠٦).

٤- الصيام:

وعلَّل ﷺ لأصحابه بعض ما أمرهم به في مسائل الصيام، فحين أمرهم بالفطر عند مواجهة العدو، علل لهم ذلك؛ عن قزعة، قال: أتيت أبا سعيد الخدري رضي الله عنه وهو مكثور عليه، فلما تفرَّق الناس عنه، قلت: إني لا أسألك عما يسألك هؤلاء عنه، سألته عن الصوم في السفر، فقال: سافرنا مع رسول الله ﷺ إلى مكة- ونحن صيام-، قال: فنزلنا منزلًا، فقال رسول الله ﷺ: «إنكم قد دنوتم من عدوكم، والفطر أقوى لكم»؛ فكانت رخصة؛ فمنَّا مَن صام، ومنَّا مَن أفطر، ثم نزلنا منزلًا آخر، فقال: «إنكم مصبِّحو عدوكم، والفطر أقوى لكم؛ فأفطروا»، وكانت عزمة فأفطرنا، ثم قال: لقد رأيتنا نصوم مع رسول الله ﷺ بعد ذلك في السفر. (أخرجه مسلم ١١٢٠).

٥- الآداب:

كما ورد التعليل في التوجيه النبوي كثيرًا في أحاديث الآداب، فقد علل ﷺ نهيه لأصحابه عن التناجي، فعن عن عبد الله رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا كنتم ثلاثة، فلا يتناجى اثنان دون صاحبهما؛ فإن ذلك يحزنه». (أخرجه البخاري ٦٢٩٠، ومسلم ٢١٨٤، واللفظ له).

كما علل ﷺ أمره مَن تثاءَب بإمساك يده على فيه، فعن أبي سعيد الخدري ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا تثاوب أحدكم فلْيُمْسك بيده على فيه؛ فإن الشيطان يدخل». (أخرجه مسلم ٢٩٩٥).

وعلَّل ﷺ نهيه عن قول: تَعِسَ الشيطان، فعن أبي المليح، عن رجل، قال: كنت رَدِيفَ النبي ﷺ فعثرت دابته، فقلت: تَعِسَ الشيطان، فقال: «لا تقل: تَعِسَ الشيطان؛ فإنك إذا قلت ذلك تعاظم حتى يكون مثل البيت، ويقول: بقوتي، ولكن قل: بسم الله؛ فإنك إذا قلت ذلك تصاغر حتى يكون مثل الذباب». (أخرجه أبو داود ٤٩٨٢، وأحمد ٢٠٥٩١).

كما علَّل ﷺ نهيه عن الأكل والشرب بالشمال؛ فعن ابن عمر ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «لا يأكُلَنَّ أحد منكم بشماله، ولا يشربَنَّ بها؛ فإن الشيطان يأكل بشماله، ويشرب بها». (أخرجه مسلم ٢٠٢٠).

وحين حدَّثهم ﷺ عن حال الذباب حين يقع في الإناء، وما عليهم فعله، علل ذلك؛ فعن أبي هريرة ﷺ قال: قال النبي ﷺ: «إذا وقع الذباب في شراب أحدكم فلْيَغْمِسْه ثم لِيَنْزَعْه؛ فإن في إحدى جناحيه داءً والأخرى شفاء». (أخرجه البخاري ٣٣٢٠).

ولما حثَّهم ﷺ على الهدية، بيَّن لهم علة ذلك، فعن أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ قال: «تهادوا؛ فإن الهدية تُذهِب وَحْرَ الصَّدر، ولا تَحْقِرَنَّ جارة لجارتها، ولو شِقَّ فِرْسِن شاة». (أخرجه الترمذي ٢١٣٠، وأحمد ٩٢٥٠ بلفظ: فإن الهدية تذهب وغر الصدر).

وفي نهيه لهم عن النوم في الطريق أثناء السفر، ذكر لهم علة ذلك؛ فعن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «إذا سافرتم في الخِصب، فأعطوا الإبل حظَّها من الأرض، وإذا سافرتم في السَّنَة فبادروا بها نِقْيَها، وإذا عَرَّسْتُم فاجتنبوا الطريق؛ فإنها طرق الدواب، ومأوى الهوام بالليل». (أخرجه مسلم ١٩٢٦).

كما علَّل لهم ﷺ أمره بالسير بالليل في السفر، فعن خالد بن معدان ﷺ- يرفعه-: «إن الله تبارك وتعالى رفيق يُحب الرفق، ويرضى به، ويُعين عليه ما لا يُعين على العنف؛ فإذا ركبتم هذه الدواب العجم فأنزلوها منازلها؛ فإن كانت الأرض جدبة فانجوا عليها بنِقْيها، وعليكم بسير الليل؛ فإن الأرض تُطوى بالليل ما لا تُطوى بالنهار، وإياكم والتعريس على الطريق؛ فإنها طرق الدواب، ومأوى الحيات». (أخرجه مالك في الموطأ ٣٨، كتاب الاستئذان، باب ما يُؤمر به من العمل في السفر).

وجاء ذلك- أيضًا- في حديث أنس ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «عليكم بالدُّلجَة؛ فإن الأرض تُطوى بالليل». (أخرجه أبو داود ٢٥٧١، وأحمد ١٤٢٧٧ مطولًا).

ولما نهى ﷺ أحدَ أصحابه عن سؤال الإمارة، ذكر له العلة في ذلك؛ فعن عبد الرحمن بن سمرة ﷺ قال: قال النبي ﷺ: «يا عبد الرحمن بن سمرة، لا تسأل الإمارة؛ فإنك إن أُوتيتها عن مسألة؛ وُكِلْت إليها، وإن أُوتيتها من غير مسألة؛ أُعنت عليها، وإذا حلفت على يمين، فرأيت غيرها خيرًا منها؛ فَكَفِّر عن يمينك، وَأْتِ الذي هو خير». (أخرجه البخاري ٦٦٢٢، ومسلم ١٦٥٢).

٦- اللباس وزينة المرأة:

وفي أبواب لباس المرأة وزينتها علَّل ﷺ إذنَه لفاطمة ﷺ أن تلبس ما لا يكفي لتغطية رأسها وقدميها، فعن أنس ﷺ أن النبي ﷺ أتى فاطمة ﷺ بعبدٍ قد وهبه لها، قال: وعلى فاطمة ﷺ ثوبٌ، إذا قنعت به رأسها لم يبلغ رجليها، وإذا غطَّت به رجليها لم يبلغ رأسها، فلما رأى النبي ﷺ ما تلقى، قال: «إنه ليس عليك بأس، إنما هو أبوكِ وغلامكِ». (أخرجه أبو داود ٤١٠٦).

٧- الصيد والأطعمة:

وفي مسائل الصيد علَّل ﷺ نهيه عن أَكْلِ ما أَكَلَ منه الكلبُ المُعلَّم، فعن عدي بن حاتم ﷺ قال: سألت رسول الله ﷺ قلت: إنا قوم نصيد بهذه الكلاب، فقال: «إذا أرسلت كلابك المُعلَّمة، وذكرت اسم الله؛ فكل مما أمسكن عليكم، وإن قتلن؛ إلا أن يأكل الكلب، فإني أخاف أن يكون إنما أمسكه على نفسه، وإن خالطها كلاب من غيرها فلا تأكل». (أخرجه البخاري ٥٤٨٣، ومسلم ١٩٢٩).

وحين نهى ﷺ عن الخَذْف بيَّن العلة في ذلك، فعن عبد الله بن مغفل المزني ﷺ قال: «نهى النبي ﷺ عن الخَذْف، وقال: إنه لا يقتل الصيد، ولا ينكأ العدو، وإنه يفقأ العين، ويكسر السن». (أخرجه البخاري ٦٢٢٠، ومسلم ١٩٥٤).

٨- الدعاء:

وجاء التعليل النبوي في أبواب الدعاء- أيضًا-، فحين أمر ﷺ بالعزم في الدعاء علَّل ذلك، فعن أنس ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا دعا أحدكم فلْيعزم المسألة، ولا يقولن: اللهم إِنْ شئت فأعطني، فإنه لا مستكرِه له». (أخرجه البخاري ٦٣٣٨، ومسلم ٢٦٧٨).

وعلَّل ﷺ نهيه أصحابَه عن رفع الصوت بالدعاء، فعن أبي موسى الأشعري ﷺ قال: «كنا مع رسول الله ﷺ، فكنا إذا أشرفنا على وادٍ هلَّلْنا وكبَّرْنا، ارتفعت أصواتنا، فقال النبي ﷺ: «يا أيها الناس ارْبَعُوا على أنفسكم؛ فإنكم لا تدعون أصمَّ ولا غائبًا، إنه معكم، إنه سميع قريب، تبارك اسمه، وتعالى جده». (أخرجه البخاري ٢٩٩٢، ومسلم ٢٧٠٤).

السؤال في التعليم النبوي

مواقف التعليم النبوي لم تكن ذات اتصال من طرف واحد، فلم يكن التعليم النبوي سردًا مجرَّدًا، فقد كان السؤال حاضرًا في التعليم النبوي، فكان النبي ﷺ يُلقي الأسئلة على أصحابه، ويستمع إجاباتهم وهو يعلمهم، وكان يتلقَّى أسئلتهم واستشكالاتهم.

وفيما يلي نتناول جانبًا من السؤال في التعليم النبوي بشِقَّيْهِ: الأسئلة النبوية، وأسئلة الصحابة رضوان الله عليهم.

وظائف السؤال النبوي[1]:

تنوعت وظائف السؤال في التعليم النبوي، وحين نتأمل مواقف التعليم النبوي؛ يمكن أن نستنتج الوظائف الآتية للسؤال النبوي:

١- التهيئة والتشويق:

وذلك بتشويق المتعلم، وتهيئته لتلقي ما يُراد تعليمه، وقد سبق ذكر عدد من النماذج من هذه الأسئلة حين الحديث عن التمهيد بالسؤال.

ومن ذلك: سؤاله ﷺ لأبي ذَرٍّ ؓ عن الشمس، ولمعاذ ؓ عن حق الله على عباده، وحق العباد عليه سبحانه، وسؤاله ﷺ عن المفلس...إلخ، وقد سبقت الإشارة إلى هذه النصوص.

٢- الإغراء والحَث:

يسأل ﷺ أحيانًا؛ ليَحُثَّ أصحابه على العمل الصالح، ومن ذلك ما يلي:

---

(١) انظر: طرق التعليم في السنة النبوية (٥٤-٧٨).

عن حارثة بن وهب الخزاعي ﷺ، قال: سمعت النبي ﷺ يقول: «ألا أخبركم بأهل الجنة؟ كل ضعيف متضعف، لو أقسم على الله لأَبَرَّهُ، ألا أخبركم بأهل النار؟ كل عُتُلٍّ، جَوَّاظٍ مُسْتَكْبِرٍ». (أخرجه البخاري ٤٩١٨، ومسلم ٢٨٥٣).

وسألهم ﷺ - وهو يخبرهم - بخير الشهداء، فعن زيد بن خالد الجهني ﷺ، أن النبي ﷺ قال: «ألا أخبركم بخير الشهداء؟ الذي يأتي بشهادته قبل أن يسألها». (أخرجه مسلم ١٧١٩).

وسألهم ﷺ - وهو يريد إخبارهم - بفضل الإصلاح بين الناس، فعن أبي الدرداء ﷺ، قال: قال رسول الله ﷺ: «ألا أخبركم بأفضل من درجة الصيام، والصلاة، والصدقة؟» قالوا: بلى يا رسول الله، قال: «إصلاح ذات البَيْنِ، وفساد ذات البين الحالقة». (أخرجه أبو داود ٤٩١٩، والترمذي ٢٥٠٩، وأحمد ٢٧٥٠٨).

وكذلك سألهم - وهو يُحدِّثهم - عن تفاوت منازل الناس في الخيرية، فعن ابن عباس ﷺ ،أن النبي ﷺ قال: «ألا أخبركم بخير الناس؟ رجل مُمسك بعنان فرسه في سبيل الله، ألا أخبركم بالذي يتلوه؟ رجل مُعتزل في غنيمة له يُؤدي حق الله فيها، ألا أخبركم بشر الناس؟ رجل يُسأل بالله، ولا يُعطي به». (أخرجه الترمذي ١٦٥٢، وأحمد ١٠٧٧٩).

وعن أبي هريرة ﷺ، أن رسول الله ﷺ وقف على أُناس جلوس، فقال: «ألا أخبركم بخيركم من شركم؟» قال: فسكتوا، فقال ذلك ثلاث مرات، فقال رجل: بلى يا رسول الله، أخبرنا بخيرنا مِن شرنا، قال: «خيركم مَن يُرجَى خيرُه، ويُؤمَن شرُّه، وشركم مَن لا يُرجَى خيرُه، ولا يُؤمَن شرُّه». (أخرجه الترمذي ٢٢٦٣، وأحمد ٨٨١٢).

وعن ابن عباس ﷺ، أن رسول الله ﷺ قال: «ألا أخبركم بخير الناس منزلًا؟» قلنا: بلى يا رسول الله، قال: «رجل آخذٌ برأس فرسه في سبيل الله عز وجل حتى يموت،

أو يُقتل، وأُخبركم بالذي يليه؟» قلنا: نعم يا رسول الله، قال: «رجل مُعتزل في شِعب يُقيم الصلاة، ويُؤتي الزكاة، ويعتزل شرور الناس، وأُخبركم بشر الناس؟» قلنا: نعم يا رسول الله، قال: «الذي يُسأل بالله عز وجل، ولا يُعطي به». (أخرجه النسائي ٢٥٦٩، وأحمد ٢٩٥٨، والترمذي ١٦٥٢).

٣- التحذير:

ويسأل ﷺ أحيانًا؛ ليحذِّر أصحابه من عملٍ، فسألهم وهو يُحذِّرهم من الدجال، فعن أبي سلمة، قال: سمعت أبا هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «ألا أُحدثكم حديثًا عن الدجال، ما حدَّث به نبي قومَه؟ إنه أعور، وإنه يجيء معه بمثال الجنة والنار، فالَّتِي يقول إنها الجنة هي النار، وإني أُنذركم، كما أنذر به نوحٌ قومَه ». (أخرجه البخاري ٣٣٣٨، ومسلم ٢٩٣٦).

وحذَّرهم من الرياء- مُبينًا أنه أخوف عليهم عنده ﷺ من الدجال-، عن أبي سعيد ﷺ، قال: خرج علينا رسول الله ﷺ، ونحن نتذاكر المسيح الدجال، فقال: «ألا أُخبركم بما هو أخوف عليكم عندي من المسيح الدجال؟» قال: قلنا: بلى، فقال: «الشرك الخفي، أَنْ يقوم الرجل يُصلِّي، فيُزين صلاته، لما يرى من نظر رجل». (أخرجه ابن ماجه ٤٢٠٤، وأحمد ١١٢٥٢).

وحين أراد تحذيرهم من الكبائر سألهم عنها، فعن عبد الرحمن بن أبي بكرة، عن أبيه ﷺ، قال: قال رسول الله ﷺ: «ألا أُخبركم بأكبر الكبائر»، قالوا: بلى يا رسول الله، قال: «الإشراك بالله، وعقوق الوالدين». (أخرجه البخاري ٦٢٧٣، ومسلم ٨٧).

٤- الإنكار:

واستخدم ﷺ السؤال في سياق الإنكار، ومن ذلك ما يلي:

عن أبي هريرة ﵁ قال: خرج علينا رسول الله ﷺ، ونحن نتنازع في القَدَرِ؛ فغضب حتى احمرَّ وجهه، حتى كأنما فقئ في وَجْنَتَيْهِ الرُّمَّان، فقال: «أبهذا أُمرتم؟ أم بهذا أرسلت إليكم؟ إنما هلك مَن كان قبلكم حين تنازعوا في هذا الأمر، عزمت عليكم ألَّا تتنازعوا فيه». (أخرجه الترمذي ٢١٣٣).

وفي حديث عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جده، قال: خرج رسول الله ﷺ على أصحابه، وهم يختصمون في القَدَرِ، فكأنما يفقأ في وجهه حبُّ الرُّمَّان من الغضب، فقال: «بهذا أُمرتم، أو لهذا خُلقتم؟ تضربون القرآن بعضَه ببعض، بهذا هلكت الأمم قبلكم»، قال: فقال عبد الله بن عمرو: ما غبطتُ نفسي بمجلس تخلَّفت فيه عن رسول الله ﷺ ما غبطتُ نفسي بذلك المجلس، وتخلُّفي عنه. (أخرجه ابن ماجه ٨٥، وأحمد ٦٦٦٨).

٥- التقرير:

كما استخدم النبي ﷺ السؤال للتقرير في مواضع عدة، ومنها ما يلي:

عن ابن عباس ﵄، **قال:** صعد النبي ﷺ الصفا ذات يوم، فقال: «يا صباحاه»، فاجتمعت إليه قريش، قالوا: ما لك؟ قال: «أرأيتم لو أخبرتكم أن العدو يصبحكم أو يمسيكم، أَمَا كنتم تصدقوني؟»، قالوا: بلى، قال: «فإني نذيرٌ لكم بين يدي عذاب شديد»، فقال أبو لهب: تبًّا لك، ألهذا جمعتنا؟ فأنزل الله: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ﴾[المسد: ١]. (أخرجه البخاري ٤٨٠١، ومسلم ٢٠٨).

وعن أبي سعيد الخدري ﵁، قال: خرج رسول الله ﷺ في أضحى، أو فِطر إلى المُصلَّى، فمرَّ على النساء، فقال: «يا معشر النساء تَصَدَّقْنَ؛ فإني أُريتكن أكثرَ أهل النار»، فقلن: وَبِمَ يا رسول الله؟ قال: «تُكثِرْنَ اللَّعْنَ، وَتَكْفُرْنَ العَشِيرَ، ما رأيت من ناقصات عقل ودين، أذهبَ لِلُبِّ الرجل الحازم من إحداكن»، قلن: وما نُقصان ديننا وعقلنا يا رسول الله؟

قال: «أليست شهادة المرأة مثل نصف شهادة الرجل»، قلن: بلى، قال: «فذلك من نقصان عقلها، أليس إذا حاضت لم تُصَلِّ، ولم تَصُمْ»، قلن: بلى، قال: «فذلك من نُقصان دينها». (أخرجه البخاري ٣٠٤، ومسلم ٧٩، دون موضع الشاهد).

وعن أبي ذَرٍّ ﷺ أن ناسًا من أصحاب النبي ﷺ قالوا للنبي ﷺ: يا رسول الله، ذهب أهل الدثور بالأجور، يُصلون كما نُصلي، ويصومون كما نصوم، ويتصدقون بفضول أموالهم، قال: «أوليس قد جعل الله لكم ما تصدقون؟ إن بكل تسبيحة صدقة، وكل تكبيرة صدقة، وكل تحميدة صدقة، وكل تهليلة صدقة، وأمر بالمعروف صدقة، ونهي عن منكر صدقة، وفي بُضع أحدكم صدقة»، قالوا: يا رسول الله، أيأتي أحدنا شهوته، ويكون له فيها أجر؟، قال: «أرأيتم لو وضعها في حرام، أكان عليه فيها وزر؟، فكذلك إذا وضعها في الحلال؛ كان له أجر». (أخرجه مسلم ١٠٠٦).

٦- التعلُّم:

ويسأل النبي ﷺ أصحابه لأجل التعلُّم، وذلك بأن تقودهم الإجابة على السؤال للاستنباط والاستنتاج، وتتنوع هذه الأسئلة ما بين أسئلة جماعية: كسؤاله في بيع الرُّطب بالتمر: «أينقص الرُّطب إذا جفَّ؟»، وسؤاله في سياق الحديث عن ترتُّب الأجر على معاشرة الرجل أهله: «أرأيتم لو وضعها في حرام؟»، وما بين أسئلة فردية: كسؤاله الأعرابي: «أرأيت الليل الذي قد ألبس كل شيء؟ فأين جعل النهار؟»، وسؤاله لمن عرَّض باتهام امرأته عن إبله...، وقد تم تناول ذلك بالتفصيل.

والمقصود هنا أن الهدف أن يقود هذا السؤال للتعلُّم.

التعامل مع أسئلة المتعلمين:

ومن الجوانب المتعلقة بالسؤال في التعليم النبوي تعامله ﷺ مع أسئلة المتعلمين؛ فقد

كان ﷺ يتلقَّى الأسئلة من أصحابه، وكان ﷺ لا يكتفي بمُجرَّد الإجابة فحسب.

ومن معالم تعامله ﷺ مع أسئلة أصحابه ما يلي:

١- الإبهام ليحفِّزهم على السؤال:

في بعض مواقف التعليم كان ﷺ يكتفي بقول كلمة مُبهمة، ولعل ذلك- والله أعلم- ليسأل الناس عنها، ومن ذلك ما يلي:

عن أنس بن مالك ﷺ قال: مروا بجنازة، فأَثْنَوْا عليها خيرًا، فقال النبي ﷺ: «وجبت»، ثم مروا بأُخرى، فأَثْنَوْا عليها شرًّا، فقال: «وجبت»، فقال عمر بن الخطاب ﷺ: ما وجبت؟ قال: «هذا أثنيتم عليه خيرًا؛ فوجبت له الجنة، وهذا أثنيتم عليه شرًّا؛ فوجبت له النار، أنتم شهداء الله في الأرض». (أخرجه البخاري ١٣٦٧، ومسلم ٩٤٩).

قال النووي: «وفي هذا الحديث استحباب توكيد الكلام المهتم بتكراره؛ ليُحفظ، وليكون أبلغ». (شرح صحيح مسلم ٧/ ١٩).

عن أبي قتادة بن ربعي الأنصاري ﷺ أنه كان يُحدِّث أن رسول الله ﷺ مرَّ عليه بجنازة فقال: «مُستريح، ومُستراح منه»، قالوا: يا رسول الله، ما المُستريح، والمُستراح منه؟ قال: «العبد المؤمن، يستريح من نصب الدنيا وأذاها إلى رحمة الله، والعبد الفاجر، يستريح منه العباد، والبلاد، والشجر، والدواب». (أخرجه البخاري٦٥١٢، ومسلم ٩٥٠).

وعن أبي شريح ﷺ أن النبي ﷺ قال: «والله لا يُؤمن، والله لا يُؤمن، والله لا يُؤمن»، قيل: ومَن يا رسول الله؟ قال: «الذي لا يأمن جارُه بوايقَه». (أخرجه البخاري ٦٠١٦).

وعن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «يضحك الله إلى رجلين، يقتل أحدُهما الآخر، كلاهما يدخل الجنة»، فقالوا: كيف يا رسول الله؟ قال: «يُقاتل هذا في سبيل الله

عز وجل فيستشهد، ثم يتوب الله على القاتل، فيسلم، فيقاتل في سبيل الله عز وجل، فيستشهد». (أخرجه مسلم ١٨٩٠، وأخرجه البخاري ٢٨٢٦، دون موضع الشاهد).

ففي هذه النصوص أَبْهَمَ ﷺ ما يُريد قوله، وأشار إليه بكلمة، أو جملة، لا يفهم منها السامع المقصود؛ مما يثير التساؤل لديهم عن المعنى؛ فتأتي الإجابة، وهم يتطلعون إليها؛ فيصبح المعنى أكثر رسوخًا لديهم، وهكذا الأمر لمن يسمع بالحديث ويقرؤه.

٢- اتساع صدره لأسئلتهم:

كان ﷺ واسعَ الصدر لأسئلة أصحابه، والشواهد على ذلك عديدة، ومنها: حديث حذيفة ﷺ، عن حذيفة بن اليمان ﷺ، قال: كان الناس يسألون رسول الله ﷺ عن الخير، وكنت أسأله عن الشر؛ مخافة أن يدركني، فقلت: يا رسول الله، إنَّا كُنَّا في جاهلية وشرٍّ، فجاءنا الله بهذا الخير، فهل بعد هذا الخير من شر؟ قال: «نعم»، قلت: وهل بعد ذلك الشر من خير؟ قال: «نعم، وفيه دخَنٌ»، قلت: وما دخَنُه؟ قال: «قوم يَهدونَ بغير هديي، تعرف منهم وتنكر»، قلت: فهل بعد ذلك الخير من شر؟ قال: «نعم، دعاة إلى أبواب جهنم، مَن أجابهم إليها قذفوه فيها»، قلت: يا رسول الله، صفهم لنا؟ فقال: «هم من جِلدتنا، ويتكلمون بألسنتنا»، قلت: فما تأمرني إن أدركني ذلك؟ قال: تلزم جماعة المسلمين وإمامهم، قلت: فإن لم يكن لهم جماعة ولا إمام؟ قال: «فاعتزل تلك الفِرَقَ كلها، ولو أن تعض بأصل شجرة، حتى يدركك الموت، وأنت على ذلك». (أخرجه البخاري ٣٦٠٦، ومسلم ١٨٤٧).

٣- الاعتناء بالسائل:

وكان ﷺ يعتني بالسائل، عن صفوان بن يعلى بن أمية- يعني-، عن أبيه، أن رجلًا أتى النبي ﷺ، وهو بالجِعْرَانة، وعليه جُبَّة، وعليه أثر الخَلُوق- أو قال: صُفْرَة-، فقال:

كيف تأمرني أن أصنع في عمرتي؟ فأنزل الله على النبي ﷺ، فستر بثوب، ووددت أني قد رأيت النبي ﷺ، وقد أنزل عليه الوحي، فقال عمر: تعالَ، أيسرُّك أن تنظر إلى النبي ﷺ، وقد أنزل الله عليه الوحي؟ قلت: نعم، فرفع طرف الثوب، فنظرت إليه، له غَطِيط، -وأحسبه قال: كغطيط البَكْر-، فلما سُرِّي عنه، قال: «أين السائل عن العمرة؟ اخلع عنك الجُبَّة، واغسل أثر الخَلُوق عنك، وأَنْقِ الصفرة، واصنع في عمرتك كما تصنع في حجك». (أخرجه البخاري ١٧٨٩، ومسلم ١١٨٠).

وسبق اهتمامه بمَن سأله عن الساعة، وقوله ﷺ :«أين أراه السائل عن الساعة؟»، واهتمامه بمن سأل عن وقت الصلاة، وقوله:«أين السائل عن وقت الصلاة؟».

٢- الأمر بالسؤال:

فقد أمر ﷺ أصحابه بسؤاله، فعن أبي هريرة ﷺ، قال: قال رسول الله ﷺ: «سَلُوني، فهابوه أن يسألوه، فجاء رجل، فجلس عند ركبتيه، فقال: يا رسول الله ما الإسلام؟ قال: لا تشرك بالله شيئًا، وتُقيم الصلاة، وتُؤتي الزكاة، وتصوم رمضان، قال: صدقت، قال: يا رسول الله ما الإيمان؟ قال: أن تؤمن بالله، وملائكته، وكتابه، ولقائه، ورسله، وتُؤمن بالبعث، وتؤمن بالقَدَرِ كله، قال: صدقت، قال: يا رسول الله ما الإحسان؟ قال: أن تخشى الله كأنك تراه، فإنك إن لا تكن تراه فإنه يراك، قال: صدقت، قال: يا رسول الله متى تقوم الساعة، قال: ما المسئول عنها بأعلمَ من السائل؟، وسأحدثك عن أشراطها: إذا رأيت المرأة تلد ربَّها؛ فذاك من أشراطها، وإذا رأيت الحُفاة العُراة الصُّمَّ البُكمَ ملوكَ الأرض؛ فذاك من أشراطها، وإذا رأيت رِعَاءَ البَهْم يتطاولون في البنيان؛ فذاك من أشراطها، في خمس من الغيب لا يعلمهن إلا الله، ثم قرأ: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ

بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ (لقمان: ٣٤)، قال: ثم قام الرجل، فقال رسول الله ﷺ ردُّوه عليَّ، فالتُمِسَ، فلم يجدوه، فقال رسول الله ﷺ: هذا جبريل، أراد أن تعلموا إذ لم تسألوا». (أخرجه مسلم ١٠).

٣- التشجيع على السؤال:

كان ﷺ يُشجع السائل، ويُثني عليه، فعن معاذ بن جبل ﷺ قال: كنت مع النبي ﷺ في سفر، فأصبحت يومًا قريبًا منه- ونحن نسير-، فقلت: يا رسول الله، أخبرني بعمل يُدخلني الجنة، ويُباعدني عن النار، قال: «لقد سألتني عن عظيم، وإنه ليسير على مَن يسَّره الله عليه: تعبد الله، ولا تشرك به شيئًا، وتقيم الصلاة، وتؤتي الزكاة، وتصوم رمضان، وتحج البيت»، ثم قال:«ألا أدُلُّك على أبواب الخير؟ الصوم جُنَّة، والصدقة تطفئ الخطيئة، كما يُطفئ الماءُ النارَ، وصلاة الرجل من جوف الليل، قال: ثم تلا: ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ﴾ حتى بلغ ﴿يَعْمَلُونَ﴾، ثم قال: ألا أُخبرك برأس الأمر كله، وعموده، وذروة سنامه؟ قلت: بلى يا رسول الله، قال: رأس الأمر: الإسلام، وعموده: الصلاة، وذروة سنامه: الجهاد، ثم قال: ألا أُخبرك بملاك ذلك كله؟ قلت: بلى يا نبي الله، فأخذ بلسانه، قال: كُفَّ عليك هذا، فقلت: يا نبي الله، وَإِنَّا لمؤاخذون بما نتكلم به؟ فقال: ثكلَتْك أُمُّك يا معاذ، وهل يكُبُّ الناسَ في النار على وجوههم، أو على مناخرهم إلا حصائدُ ألسنتهم». (أخرجه الترمذي ٢٦١٦، وأحمد ٢٢٠١٦، وابن ماجه ٣٩٧٣).

ففي هذا الموقف أَثْنَى ﷺ على سؤال معاذ ﷺ وأخبر أنه سأل عن أمر عظيم، وفي هذا تأكيد له على أهمية ما سأل عنه، وهو أدعى لِأَنْ يُصغي أكثر، ويعتني بما تعلَّمه.

٤- الثناء على السائل:

أثنى ﷺ على أبي هريرة ﷺ حين سأله عن الشفاعة، مُبيِّنًا أنه ظن به أن يكون أول

مَن يسأل عن معنى عظيم، هو الشفاعة، عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال: قيل يا رسول الله مَن أسعد الناس بشفاعتك يوم القيامة؟ قال رسول الله ﷺ: «لقد ظننت يا أبا هريرة أن لا يسألني عن هذا الحديث أحدٌ أوّل منك؛ لما رأيت من حرصك على الحديث؛ أسعدُ الناس بشفاعتي يوم القيامة مَن قال: لا إله إلا الله، خالصًا من قلبه أو نفسه». (أخرجه البخاري ٩٩).

قال ابن أبي جمرة: في هذا دليل على أن من السنة إدخال السرور على السائل قبل رد الجواب عليه».

وأثنى ﷺ على أعرابي سأله عما يُقرِّب إلى الجنة، ويُبعد عن النار، فعن أبي أيوب الأنصاري رضي الله عنه أن أعرابيًا عرض لرسول الله ﷺ وهو في سفر، فأخذ بخطام ناقته- أو بزمامها-، ثم قال: يا رسول الله- أو يا محمد- أخبرني بما يُقربني من الجنة، وما يُباعدني من النار، قال: فكفَّ النبي ﷺ ثم نظر في أصحابه، ثم قال: «لقد وُفِّقَ، أو لقد هُدِيَ»، قال: كيف قلت؟ قال: فأعاد، فقال النبي ﷺ: «تعبد الله لا تشرك به شيئًا، وتُقيم الصلاة، وتُؤتي الزكاة، وتصلُ الرحم، دَعِ الناقةَ». (أخرجه مسلم ١٣)، (وأخرجه البخاري ٥٩٨٣) بلفظ: فقال القوم: ما له، ما له؟ فقال رسول الله ﷺ: «أَرَبٌ ما له»، فقال النبي ﷺ: «تعبد الله لا تشرك به شيئًا، وتُقيم الصلاة، وتُؤتي الزكاة، وتَصِلُ الرحم، ذَرْهَا»، قال: كأنه كان على راحلته.

وحين سأله أعرابي آخر عن عمل يُدخله الجنة، أَثْنَى على عِظَم سؤاله، مع قِصَر مقالته، عن البراء بن عازب رضي الله عنه قال: جاء أعرابي إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، علِّمْني عملًا يُدخلني الجنة، فقال: «لَئِنْ كنت أقصرت الخطبة، لقد أعرضت المسألة، أعتقِ النَّسمة، وفُكَّ الرقَبة»، فقال: يا رسول الله، أوليستا بواحدة؟ قال:«لا، إن عِتْقَ النَّسَمة أن تَفرَّد بعتقها، وفك الرقبة أن تُعين في عتقها، والمِنْحَةُ الوَكُوفُ، والفيء على ذي الرحم الظالم، فإن لم تُطقْ

ذلك، فأطعم الجائع، واسقِ الظمآن، وأمر بالمعروف، وانهَ عن المنكر، فإن لم تُطقْ ذلك، فكُفَّ لسانك إلا من الخير». (أخرجه أحمد ١٨٦٤٧).

٥- الغضب على التعنُّت في السؤال:

ومع ثنائه ﷺ على السائل، وحثه لأصحابه على السؤال، إلا أنه ﷺ كان ينهى أن يتجاوز السؤال في سياقه أو موضوعه، فقد غضب ﷺ على مَن سأله عن ضالَّة الإبل، عن زيد بن خالد الجهني ﷺ، أن النبي ﷺ سأله رجل عن اللُّقَطة، فقال: «اعرف وكاءها، أو قال وعاءها، وعِفَاصها، ثم عرِّفها سَنَةً، ثم استمتع بها، فإن جاء ربُّها فأدِّها إليه»، قال: فضالَّة الإبل؟ فغضب حتى احمرَّت وَجْنَتَاهُ، أو قال: احمرَّ وجهه، فقال: «وما لك ولها، معها سقاؤها وحذاؤها، ترد الماء، وترعى الشجر، فذرها حتى يلقاها ربُّها»، قال: فضالَّة الغنم؟ قال: «لك، أو لأخيك، أو للذئب». (أخرجه البخاري ٩١، ومسلم ١٧٢٢).

وبوَّب عليه البخاري: (باب الغضب في الموعظة والتعليم، إذا رأى ما يكره)، وقال ابن حجر: «قصر المصنفُ الغضبَ على الموعظة والتعليم دون الحكم؛ لأن الحاكم مأمور أن لا يقضي وهو غضبان، والفرق: أن الواعظ من شأنه أن يكون في صورة الغضبان؛ لأن مقامه يقتضي تكلُّف الانزعاج؛ لأنه في صورة المُنذر، وكذا المعلم، إذا أنكر على مَن يتعلم منه سوءَ فَهم ونحوه؛ لأنه قد يكون أدعى للقبول منه، وليس ذلك لازمًا في حق كل أحد، بل يختلف باختلاف أحوال المتعلمين، وأما الحاكم فهو بخلاف ذلك». (فتح الباري ١/ ١٨٧).

٦- الغضب عند كثرة السؤال عما يكره:

وغضب ﷺ حين أكثروا عليه السؤال عما يكره، عن أبي موسى ﷺ، قال: سُئِلَ النبي ﷺ عن أشياء كرهها، فلما أكثر عليه غضب، ثم قال للناس: «سَلُوني عما شئتم»، قال

رجل: مَنْ أَبِي؟ قال: «أبوك حُذافة»، فقام آخر فقال: مَن أبي يا رسول الله؟ فقال: «أبوك سالم مولى شيبة»، فلما رأى عمر ما في وجهه، قال: يا رسول الله، إنا نتوب إلى الله عز وجل. (أخرجه البخاري ٩٢، ومسلم ٢٣٦٠).

٧- الاعتناء بمعرفة السائل:

وحين يتوقف الجواب على معرفة السائل كان ﷺ يسأل عنه، فعن عمرو بن الحارث، عن زينب امرأة عبد الله، قالت: قال رسول الله ﷺ: «تصدَّقْنَ يا معشر النساء، ولو من حُلِيِّكُنَّ، قالت: فرجعت إلى عبد الله، فقلت: إنك رجل خفيف ذات اليد، وإن رسول الله ﷺ قد أمرنا بالصدقة، فأته، فاسأله، فإن كان ذلك يُجزي عني، وإلا صرفتها إلى غيركم، قالت: فقال لي عبد الله: بل ائْتِيهِ أنت، قالت: فانطلقت، فإذا امرأة من الأنصار بباب رسول الله ﷺ حاجتي حاجتها، قالت: وكان رسول الله ﷺ قد أُلقيت عليه المهابة، قالت: فخرج علينا بلال، فقلنا له: ائْتِ رسولَ الله ﷺ، فأخبره أن امرأتين بالباب تسألانك أتُجزئ الصدقة عنهما على أزواجهما، وعلى أيتام في حجورهما، ولا تخبره مَن نحن، قالت فدخل بلال على رسول الله ﷺ فسأله، فقال له رسول الله ﷺ: مَن هما؟ فقال امرأة من الأنصار، وزينب، فقال رسول الله ﷺ: أي الزَّيَانِب؟ قال: امرأة عبد الله، فقال له رسول الله ﷺ: «لهما أجران: أجر القرابة، وأجر الصدقة». (أخرجه البخاري ١٤٦٦، ومسلم ١٠٠٠، واللفظ لمسلم).

٨- الإجابة بأكثر من سؤال السائل:

وربما أجاب النبي ﷺ السائل بأكثر مما سأله، فعن ابن عمر رضي الله عنهما، عن النبي ﷺ أن رجلًا سأله: ما يلبس المُحرِم؟ فقال: «لا يلبس القميص، ولا العمامة، ولا السراويل، ولا البُرْنُس، ولا ثوبًا مسَّه الوَرْس، أو الزعفران، فإن لم يجد النعلين فليلبس الخفين، وليقطعهما حتى يكونا تحت الكعبين». (أخرجه البخاري ١٣٤، ومسلم ١١٧٧).

وبوَّب البخاري على حديث ابن عمر رضي الله عنهما: «بابُ مَن أجاب السائل بأكثر مما سأله»، وقال ابن حجر: «ويُؤخذ منه- أيضًا- أن المفتي إذا سُئِلَ عن واقعة، واحتمل عنده أن يكون السائل يتذرع بجوابه إلى أن يعديه إلى غير محل السؤال؛ تعين عليه أن يفصل الجواب، ولهذا قال: «فإن لم يجد نعلين»، فكأنه سُئِلَ عن حالة الاختيار، فأجابه عنها، وزاده حالة الاضطرار، وليست أجنبية عن السؤال؛ لأن حالة السفر تقتضي ذلك». (فتح الباري ١/ ٢٣١).

وحين سأله رجل عن الوضوء بماء البحر لم يكتف ﷺ ببيان جواز ذلك، بل أعطاه قاعدة عامة في طهور ماء البحر، وزاده بما يحتاجه مما لم يَرِدْ في سؤاله، عن أبي هريرة ﷺ قال: سأل رجل النبي ﷺ، فقال يا رسول الله، إنا نركب البحر، ونحمل معنا القليل من الماء؛ فإن توضأنا به عطشنا، أفنتوضأ بماء البحر؟، فقال رسول الله ﷺ: «هو الطَّهُور ماؤه، الحِلُّ مَيْتَتُه». (أخرجه أبو داود ٨٣، والترمذي ٦٩، والنسائي ٥٩، وابن ماجه ٣٨٦، وأحمد ٨٧٣٥).

وحين سأله أصحابه عن بئر بُضَاعَة، أعطاهم قاعدة في طهارة الماء، ولم يكتفِ ببيان حكم تلك البئر، فعن أبي سعيد الخدري ﷺ قال: سمعت رسول الله ﷺ، وهو يقال له: إنه يستقى لك من بئر بُضَاعَة، وهي بئر يُلقَى فيها لحوم الكلاب، والمحايض، وعُذَر الناس، فقال رسول الله ﷺ: «إن الماء طهور لا ينجسه شيء». (أخرجه أبو داود ٦٧، والترمذي ٦٦، والنسائي ٣٢٦، وأحمد ١١٨١٥).

٩- ترشيد السؤال:

إن أهمية السؤال ودوره في تحقيق التعلم لا تعني أن يكون الأمر مطلقًا، فقد يتجاوز السائل في موضوع السؤال، أو أسلوبه، أو سياقه.

لذا كان ﷺ يُعنى بترشيد السؤال، وتربية أصحابه على منهج السؤال وأدبه، ومن صور ذلك ما يلي:

أ- صرف السائل إلى ما يعنيه:

حين يسأله السائل عما لا يعنيه، أو يسأله عما لا يترتب عليه عمل؛ فإنه ﷺ يصرفه إلى ما يعنيه، فعن أنس ﷺ أن رجلًا سأل النبي ﷺ عن الساعة، فقال: متى الساعة؟ قال: «وماذا أعددت لها؟ قال: لا شيء، إلا أني أحب الله ورسوله ﷺ، فقال: أنت مع مَن أحببت»، قال أنس: فما فرحنا بشيء فَرَحَنا بقول النبي ﷺ: أنت مع مَن أحببت، قال أنس: فأنا أُحب النبي ﷺ وأبا بكر وعمر، وأرجو أن أكون معهم بحبِّي إياهم، وإن لم أعمل بمثل أعمالهم. (أخرجه البخاري ٣٦٨٨، ومسلم ٢٦٣٩).

وفي رواية للبخاري (٦١٦٧): أن رجلًا من أهل البادية أتى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، متى الساعة قائمة؟ قال: «ويلك، وما أعددت لها؟»، قال: ما أعددت لها إلا أني أحب الله ورسوله، قال: «إنك مع مَن أحببت»، فقلنا: ونحن كذلك؟ قال: «نعم»، ففرحنا يومئذ فرحًا شديدًا، فمرَّ غلام للمغيرة، وكان من أقراني، فقال: «إن أُخِّر هذا، فلن يدركه الهَرَم حتى تقوم الساعة».

قال ابن حجر: «قال الكرماني: سلك مع السائل أسلوب الحكيم، وهو تلقي السائل بغير ما يطلب مما يهمه، أو هو أهم». (فتح الباري ١٠/ ٥٦٠).

وحين سأله آخر عن الساعة بيَّن له ﷺ شيئًا من علاماتها، عن أبي هريرة ﷺ، قال: بينما النبي ﷺ في مجلس يُحدِّث القوم، جاءه أعرابي، فقال: متى الساعة؟ فمضى رسول الله ﷺ يُحدِّث، فقال بعض القوم: سمع ما قال؛ فكره ما قال، وقال بعضهم: بل لم يسمع، حتى إذا قضى حديثه، قال: «أين- أُرَاهُ- السائل عن الساعة»، قال: ها أنا يا رسول الله،

قال: «فإذا ضُيِّعت الأمانة؛ فانتظر الساعة»، قال: كيف إضاعتها؟ قال: «إذا وُسِّدَ الأمر إلى غير أهله؛ فانتظر الساعة». (أخرجه البخاري ٥٩).

وحين يسأله الأعراب عن الساعة، كان يجيبهم عن ساعتهم هم، فبحلول الأجل ينتهي عمر الإنسان، عن هشام، عن أبيه، عن عائشة ﵂، قالت: كان رجال من الأعراب جفاة، يأتون النبي ﷺ فيسألونه: متى الساعة؟ فكان ينظر إلى أصغرهم فيقول: «إن يعش هذا لا يدركه الهرم حتى تقوم عليكم ساعتكم»، قال هشام: يعني موتهم. (أخرجه البخاري ٦٥١١، ومسلم ٢٩٥٢).

ب- النهي عن كثرة السؤال:

ونهى ﷺ عن كثرة السؤال، فعن سهل بن سعد أن عويمرًا أتى عاصم بن عدي ﵁ وكان سيد بني عجلان، فقال: كيف تقولون في رجل وجد مع امرأته رجلًا؟ أيقتله فتقتلونه؟ أم كيف يصنع؟ سَلْ لي رسول الله ﷺ عن ذلك، فأتى عاصم النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، فكره رسول الله ﷺ المسائل، فسأله عويمر، فقال: إن رسول الله ﷺ كره المسائل، وعابها، قال عويمر: والله لا أنتهي حتى أسأل رسول الله ﷺ عن ذلك، فجاء عويمر، فقال: يا رسول الله، رجل وجد مع امرأته رجلًا، أيقتله فتقتلونه؟ أم كيف يصنع؟ فقال رسول الله ﷺ: «قد أنزل الله القرآن فيك وفي صاحبتك، فأمرهما رسول الله ﷺ بالمُلاعنة بما سَمَّى الله في كتابه، فلاعنها، ثم قال: يا رسول الله إن حبستها فقد ظلمتها؛ فطلَّقها، فكانت سُنة لمن كان بعدهما في المتلاعنين، ثم قال رسول الله ﷺ: انظروا، فإن جاءت به أسحم، أدعج العينين، عظيم الأليتين، خَدَلَّجَ الساقين، فلا أحسب عويمرًا إلا قد صدق عليها، وإن جاءت به أحيمر كأنه وَحَرَة، فلا أحسب عويمرًا إلا قد كذب عليها، فجاءت به على النعت الذي نعت به رسول الله ﷺ من تصديق عويمر؛ فكان بعد يُنسب إلى أمه. (أخرجه البخاري ٤٧٤٥، ومسلم ١٤٩٢).

ج- ذم التكلف في السؤال:

وذم ﷺ التكلُّف في السؤال، مبينًا أنه قد يكون سببًا في تكليفهم ما يشقُّ عليهم، وأمرهم بأن يقفوا عند حدود ما علمهم إياه ﷺ عن أبي هريرة ﷺ قال: خطبنا رسول الله ﷺ فقال: «أيها الناس قد فرض الله عليكم الحج فحجوا، فقال رجل: أكل عامٍ يا رسول الله، فسكت حتى قالها ثلاثًا، فقال رسول الله ﷺ: «لو قلت نعم لوجبت، ولما استطعتم، ثم قال: ذروني ما تركتكم، فإنما هلك مَن كان قبلكم بكثرة سؤالهم، واختلافهم على أنبيائهم، فإذا أمرتكم بشيء فأتوا منه ما استطعتم، وإذا نهيتكم عن شيء فدعوه». (أخرجه مسلم ١٣٣٧).

ويُبيِّن ﷺ عِظَمَ جُرْم مَن تسبب سؤاله في تحريم ما لم يُحرِّمه الله عز وجل من قبل، عن سعد بن أبي وقاص ﷺ أن النبي ﷺ قال: «إن أعظم المسلمين جُرمًا مَن سأل عن شيء لم يُحرَّم؛ فحُرِّم من أجل مسألته». (أخرجه البخاري ٧٢٨٩، ومسلم ٢٣٥٨).

قال ابن حجر: «وحملوه على مَن سأل تكلُّفًا وتعنُّتًا فيما لا حاجة له به إليه، وسبب تخصيصه: ثبوت الأمر بالسؤال عما يحتاج إليه، لقوله تعالى: ﴿فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ﴾ (النحل: ٤٣)، فمَن سأل عن نازلة وقعت له لضرورته إليها فهو معذور؛ فلا إثم عليه، ولا عتب، فكل من الأمر بالسؤال والزجر عنه مخصوص بجهة غير الأخرى». (فتح الباري ١٣/ ٢٦٨).

وبيَّن ﷺ أن الله عز وجل قد حرَّم كثرة السؤال، فعن المغيرة بن شعبة ﷺ قال: قال النبي ﷺ: «إن الله حرَّم عليكم عقوق الأمهات، ووأد البنات، ومنع وهات، وكَرِهَ لكم قيل وقال، وكثرة السؤال، وإضاعة المال». (أخرجه البخاري ٢٤٠٨، ومسلم ٥٩٣).

وهكذا يتحقق التوازن في التعامل مع السؤال؛ فهو ممدوح مأمور به، ومُثنى على صاحبه حين يكون في سياقه الصحيح، ويهدف إلى التعلم والعمل، ومذموم حين يكون فيما لا يعني، أو للاعتراض على الشرع، أو فيه تكلُّف وتمحُّل.

الاعتناء بحفظ العلم:

يُوجه ﷺ أصحابه إلى أن يحفظوا ما تعلموه ويتقنوه، فحين أتاه وفد عبدِ قيس، وعلَّمهم مسائل الإيمان، أمرهم بحفظها، عن أبي جمرة، قال: كنت أترجم بين ابن عباس ﷺ، وبين الناس، فقال: إن وفدَ عبدِ القيس أتوا النبي ﷺ فقال: «مَن الوفد، أو مَن القوم؟»، قالوا: ربيعة، فقال: «مرحبًا بالقوم، أو بالوفد، غير خزايا، ولا ندامى»، قالوا: إنا نأتيك من شُقَّةٍ بعيدة، وبيننا وبينك هذا الحي من كفار مُضر، ولا نستطيع أن نأتيك إلا في شهر حرام، فمُرْنَا بأمر نخبر به من وراءنا، ندخل به الجنة، فأمرهم بأربع، ونهاهم عن أربع: أمرهم بالإيمان بالله عز وجل وحده، قال: «هل تدرون ما الإيمان بالله وحده؟»، قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: «شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصوم رمضان، وتعطوا الخُمس من المغنم»، ونهاهم عن الدُّبَّاء، والحَنْتَم، والمُزَفَّت»، قال شعبة: ربما قال: «النَّقير»، وربما قال: «المقير»، قال: «احفظوه، وأخبروه مَن وراءكم». (أخرجه البخاري ٨٧، ومسلم ١٧).

وبوَّب البخاري على هذا الحديث: «باب تحريض النبي ﷺ وفدَ عبدِ القيس على أن يحفظوا الإيمان والعلم، ويخبروا مَن وراءهم».

وأَذِنَ ﷺ لعبد الله بن عمر رضي الله عنهما في كتابة ما يسمعه منه، فعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما، قال: كنت أكتب كل شيء أسمعه من رسول الله ﷺ أريد حفظه، فنهتني قريش، فقالوا: إنك تكتب كل شيء تسمعه من رسول الله ﷺ، ورسول الله ﷺ بشرٌ يتكلم في الغضب والرضا، فأمسكت عن الكتاب، فذكرت ذلك لرسول الله ﷺ؟ فقال: «اكتب، فوالذي نفسي بيده ما خرج مني إلا حق». (أخرجه أحمد ٦٥١٠، وأبو داود ٣٦٤٦).

وحين سأل أبو شاه رضي الله عنه مَن يكتب له، أمرهم ﷺ بذلك، عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: لما فتح الله على رسوله ﷺ مكة، قام في الناس، فحمد الله، وأثنى عليه، ثم قال: «إن الله حبس

عن مكة الفيل، وسلَّط عليها رسوله والمؤمنين، فإنها لا تحل لأحد كان قبلي، وإنها أُحِلَّت لي ساعة من نهار، وإنها لا تحل لأحد بعدي، فلا يُنَفَّرُ صيدُها، ولا يُخْتَلَى شوكُها، ولا تحلُّ ساقطتها إلا لمنشد، ومَن قُتل له قتيل فهو بخير النَّظَرَيْنِ، إما أن يُفْدَى وإما أن يُقِيدَ»، فقال العباس: إلا الإِذْخَر، فإنا نجعله لقبورنا وبيوتنا، فقال رسول الله ﷺ: «إلا الإِذْخَر»، فقام أبو شاه- رجل من أهل اليمن- فقال: اكتبوا لي يا رسول الله، فقال رسول الله ﷺ: «اكتبوا لأبي شاه»، قلت للأوزاعي: ما قوله: اكتبوا لي يا رسول الله؟ قال: هذه الخطبة التي سمعها من رسول الله ﷺ. (أخرجه البخاري ٢٤٣٤، ومسلم ١٣٥٥).

وحين حدَّث النبي ﷺ البراء بن عازب ﷺ بدعاء النوم، أعاده عليه البراء، وصوَّب له ﷺ ما أخطأ فيه، عن البراء بن عازب ﷺ، قال: قال النبي ﷺ: «إذا أتيت مضجعك، فتوضأ وضوءك للصلاة، ثم اضطجع على شِقك الأيمن، ثم قل: اللهم أسلمت وجهي إليك، وفوَّضت أمري إليك، وألجأت ظهري إليك، رغبة ورهبة إليك، لا ملجأ ولا منجا منك إلا إليك، اللهم آمنت بكتابك الذي أنزلت، وبنبيك الذي أرسلت، فإن مِتَّ من ليلتك، فأنت على الفطرة، واجعلهن آخر ما تتكلم به»، قال: فرددتها على النبي ﷺ، فلما بلغت: اللهم آمنت بكتابك الذي أنزلت، قلت: ورسولك، قال: «لا، ونبيك الذي أرسلت». (أخرجه البخاري ٢٤٧، ومسلم ٢٧١٠).

الاعتناء بالفهم والفقه:

كان ﷺ يُعنى بإفهام المتعلمين، وتحقق استيعابهم لما يتلقونه منه ﷺ، ومن صور ذلك ما يلي:

١- تأكيده على أهمية الانتفاع بالعلم:

يُؤكد ﷺ على أصحابه أهمية الانتفاع بالعلم، فيُشبه لهم العلم الذي لا ينفع بالمال

الذي لا يُنفِق منه صاحبه، عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «إن مَثَل علم لا ينفع، كمَثَل كنز لا يُنفَق في سبيل الله». (أخرجه أحمد ١٠٤٧٦).

ويُبيِّن لهم ﷺ أن العلم الذي لا ينفع شرٌّ، يأمرهم بالاستعاذة بالله منه، فعن جابر ﷺ، قال: قال رسول الله ﷺ: «سَلُوا الله علمًا نافعًا، وتعوَّذوا بالله من علم لا ينفع». (أخرجه ابن ماجه ٣٨٤٣).

وعن زيد بن أرقم ﷺ، قال: لا أقول لكم إلا كما كان رسول الله ﷺ يقول: كان يقول: «اللهم إني أعوذ بك من العجز والكسل، والجبن، والبخل، والهَرَم، وعذاب القبر، اللهم آتِ نفسي تقواها، وزكِّها أنت خير مَن زكاها، أنت وليها ومولاها، اللهم إني أعوذ بك من علم لا ينفع، ومن قلب لا يخشع، ومن نفس لا تشبع، ومن دعوة لا يُستجاب لها». (أخرجه مسلم ٢٧٢٢).

٢- التأكيد على الفهم والإعلاء من شأنه:

أكَّد ﷺ على أهمية الفهم، وأعلى من شأنه، وضرب لأصحابه مثلًا في ذلك، فعن أبي موسى ﷺ، عن النبي ﷺ قال: «مَثَل ما بعثني الله به من الهُدى والعلم، كمثل الغيث الكثير أصاب أرضًا، فكان منها نقية، قبلت الماء، فأنبتت الكلأ والعشب الكثير، وكانت منها أجادب، أمسكت الماء، فنفع الله بها الناس، فشربوا، وسقوا، وزرعوا، وأصابت منها طائفة أخرى، إنما هي قِيعَان لا تمسك ماء، ولا تنبت كلأً، فذلك مَثَل مَن فَقِهَ في دين الله، ونفعه ما بعثني الله به، فعَلِمَ وَعلَّم، ومَثَل مَن لم يرفع بذلك رأسًا، ولم يقبل هُدى الله الذي أُرسلت به». (أخرجه البخاري ٧٩، ومسلم ٢٢٨٢).

قال النووي: «ومعناه: أن الأرض ثلاثة أنواع، وكذلك الناس، فالنوع الأول من الأرض ينتفع بالمطر؛ فيحيى بعد أن كان ميتًا، وينبت الكلأ؛ فتنتفع بها الناس، والدواب،

والزرع، وغيرها، وكذا النوع الأول من الناس، يبلغه الهُدى والعلم، فيحفظه؛ فيحيا قلبه، ويعمل به، ويعلمه غيره؛ فينتفع وينفع، والنوع الثاني من الأرض: ما لا تقبل الانتفاع في نفسها، لكن فيها فائدة، وهي إمساك الماء لغيرها؛ فينتفع بها الناس والدواب، وكذا النوع الثاني من الناس، لهم قلوب حافظة، لكن ليست لهم أفهام ثاقبة، ولا رسوخ لهم في العقل يستنبطون به المعاني والأحكام، وليس عندهم اجتهاد في الطاعة والعمل به، فهم يحفظونه حتى يأتي طالب محتاج متعطش لما عندهم من العلم، أهلٌ للنفع والانتفاع، فيأخذه منهم؛ فينتفع به، فهؤلاء نفعوا بما بلغهم، والنوع الثالث من الأرض: السِّباخ التي لا تُنبت ونحوها، فهي لا تنتفع بالماء، ولا تمسكه لينتفع بها غيرها، وكذا النوع الثالث من الناس، ليست لهم قلوب حافظة، ولا أفهام واعية، فإذا سمعوا العلم لا ينتفعون به، ولا يحفظونه لنفع غيرهم». (شرح صحيح مسلم ١٥/ ٤٧- ٤٨).

عن عبد الرحمن بن أبي بكرة، عن أبيه، ذكر النبي ﷺ قعد على بعيره، وأمسك إنسان بخطامه- أو بزمامه-، قال: «أي يوم هذا؟»، فسكتنا حتى ظننا أنه سيسميه سوى اسمه، قال: «أليس يوم النحر؟»، قلنا: بلى، قال: «فأي شهر هذا؟»، فسكتنا حتى ظننا أنه سيسميه بغير اسمه، فقال: «أليس بذي الحجة؟»، قلنا: بلى، قال: «فإن دماءكم، وأموالكم، وأعراضكم بينكم حرام، كحرمة يومكم هذا، في شهركم هذا، في بلدكم هذا، ليبلغ الشاهد الغائب؛ فإن الشاهد عسى أن يُبلغ مَن هو أوعى له منه». (أخرجه البخاري ٦٧، ومسلم ١٦٧٩، مُطولًا).

وجاء في رواية للبخاري (١٧٤١): «فرُبَّ مُبلَّغ أوعى مِن سامع»، وجاء في بعض الروايات: «فإنه عسى أن يكون بعضُ مَن لم يشهد أوعى لما أقول مِن بعض مَن شهد». (فتح الباري ١/ ٤٥٨).

وبيَّن ﷺ أن الفهم والفقه في الدين أمارة على إرادة الله الخير بالعبد، عن حميد بن عبد الرحمن، قال: سمعت معاوية- خطيبًا- يقول: سمعت النبي ﷺ يقول: «مَن يُردِ الله به

خيرًا يُفَقِّهْهُ في الدين، وإنما أنا قاسم، والله يُعطي، ولن تزال هذه الأمة قائمة على أمر الله، لا يضرهم مَن خالفهم، حتى يأتي أمر الله». (أخرجه البخاري ٧١، ومسلم ١٠٣٧).

قال ابن حجر: «قوله: يُفقِّهْهُ، أي: يُفهِّمْهُ، كما تقدم». (فتح الباري ١/ ١٦٤).

إن هذه النصوص تُؤكد على أهمية الفهم والفقه، وهو ثمرة العلم؛ فإن العلم إنما يُتعلَّم لأجل العمل، والعمل لا يتم دون فقه وفهم، وحين لا يعمل المرء بما تعلَّم فعلمه شرٌّ يُستعاذ بالله منه.

٣- الوضوح في الكلام والتأني فيه:

كان حديث النبي ﷺ واضحًا لا يصعب فهمه، ولا يلتبس على السامع، فهو- كما وصفته عائشة رضي الله عنها بقولها-: «كان كلام رسول الله ﷺ كلامًا فصلًا، يفهمه كل مَن سمعه». (أخرجه أبو داود ٤٨٣٩، وأحمد ٢٦٢٠٩، والترمذي ٣٦٣٩).

وفي رواية أخرى تُبيِّن عائشة رضي الله عنها تَمَهُّلَهُ ﷺ في الحديث وتَأَنِّيَه، فعن عروة بن الزبير، عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: «ألا يُعجبك أبو فلان؟ جاء فجلس إلى جانب حجرتي، يُحدث عن رسول الله ﷺ يسمعني ذلك، وكنت أُسبِّح، فقام قبل أن أقضي سُبْحَتِي، ولو أدركته لرددت عليه، إن رسول الله ﷺ لم يكن يسرد الحديث كسردكم». (أخرجه البخاري ٣٥٦٨، ومسلم ٢٤٩٣).

وجاء في بعض روايات الحديث عند (البخاري ٣٥٦٧، ومسلم ٢٤٩٣) بيان إيجاز قوله ﷺ واختصاره، فقالت: «كان يُحدِّث حديثًا لو عَدَّهُ العادُّ لأحصاه».

قال ابن حجر: «قوله: لو عَدَّهُ العادُّ لأحصاه، أي: لو عدَّ كلماته، أو مفرداته، أو حروفه لأطاق ذلك، وبلغ آخرها، والمراد بذلك المبالغة في الترتيل والتفهيم». (فتح الباري ٦/ ٥٧٨).

٤- التكرار والإعادة:

كان ﷺ يعتني بتكرار الحديث حين يقتضي الأمر ذلك؛ لأجل إفهامهم، أو تأكيد ما يريد تأكيده، فعن أنس ﷺ عن النبي ﷺ أنه كان إذا تكلم بكلمة أعادها ثلاثًا، حتى تُفهم عنه، وإذا أتى على قوم فسلَّم عليهم، سلَّم عليهم ثلاثًا. (أخرجه البخاري ٩٥).

وبوَّب البخاري على هذا الحديث: (باب مَن أعاد الحديث ثلاثًا ليُفهم عنه)، قال ابن حجر: «وقال ابن المنير: نبَّهَ البخاري بهذه الترجمة على الرد على مَن كره إعادة الحديث، وأنكر على الطالب الاستعادة، وعدَّه من البلادة، قال: والحق أن هذا يختلف باختلاف القرائح، فلا عيب على المستفيد الذي لا يحفظ من مرة إذا استعاد، ولا عُذر للمفيد إذا لم يُعِد، بل الإعادة عليه آكد من الابتداء؛ لأن الشروع ملزم، وقال ابن التين: فيه أن الثلاث غاية ما يقع به الاعتذار والبيان». (فتح الباري ١/ ١٨٩).

وأورد البخاري في باب مَن أعاد الحديث ثلاثًا ليُفهم عنه: فقال: «ألا وقول الزور»، فما زال يُكرِّرها، وقال: ابن عمر: قال النبي ﷺ: «هل بلغت؟ ثلاثًا».

وما علَّقه هنا، رواه موصولًا من حديث أبي بكرة ﷺ، فعن عبد الرحمن بن أبي بكرة، عن أبيه ﷺ قال: قال النبي ﷺ: «ألا أُنبئكم بأكبر الكبائر؟» ثلاثًا، قالوا: بلى يا رسول الله، قال: «الإشراك بالله، وعقوق الوالدين، وجلس وكان مُتكئًا، فقال: ألا وقول الزور»، قال: فما زال يُكرِّرها حتى قلنا: ليته سكت. (أخرجه البخاري ٢٦٥٤، ومسلم ٨٧).

وكرَّر ﷺ عليهم وصيته في تحريم الدماء والأموال، فعن ابن عباس ﷺ، أن رسول الله ﷺ خطب الناس يومَ النَّحر، فقال: «يا أيها الناس، أي يوم هذا؟»، قالوا: يوم حرام، قال: «فأي بلد هذا؟»، قالوا: بلد حرام، قال: «فأي شهر هذا؟»، قالوا: شهر حرام، قال: «فإن دماءكم، وأموالكم، وأعراضكم عليكم حرام، كحُرمة يومكم هذا، في بلدكم هذا، في

شهركم هذا»، فأعادها مرارًا، ثم رفع رأسه فقال: «اللهم هل بلغت؟ اللهم هل بلغت؟»، قال ابن عباس رضي الله عنهما: فوالذي نفسي بيده، إنها لوصيته إلى أمته، «فليبلغ الشاهد الغائب، لا ترجعوا بعدي كفارًا، يضرب بعضكم رقاب بعض». (أخرجه البخاري ١٧٣٩).

وكرَّر ﷺ قوله: «هل بلغت» في حديثه عن تعظيم شأن المال العام، عن أبي حميد الساعدي رضي الله عنه، قال: استعمل النبي ﷺ رجلا من الأزد، - يُقال له: ابن الأُتْبِيَّة- على الصدقة، فلما قَدِمَ، قال: هذا لكم، وهذا أهدي لي، قال: «فهلا جلس في بيت أبيه، أو بيت أمه، فينظر يُهدى له أم لا؟، والذي نفسي بيده لا يأخذ أحد منه شيئًا إلا جاء به يوم القيامة يحمله على رقبته، إن كان بعيرًا له رغاء، أو بقرة لها خُوَار، أو شاة تَيْعَر»، ثم رفع بيده حتى رأينا عُفْرَة إبطيه: «اللهم هل بلغت؟، اللهم هل بلغت؟»، ثلاثًا. (أخرجه البخاري ٢٥٩٧، ومسلم ١٨٣٢، وعند مسلم ابن اللُّتْبِيَّة).

وكرَّرها ﷺ في تحذيره من الفتن، عن عثمان الشَّحَّام، قال: انطلقت أنا وفرقد السبخي إلى مسلم بن أبي بكرة، وهو في أرضه، فدخلنا عليه، فقلنا: هل سمعت أباك يُحدِّث في الفتن حديثًا؟ قال: نعم، سمعت أبا بكرة يُحدِّث، قال: قال رسول الله ﷺ: «إنها ستكون فتن: ألا ثم تكون فتنة، القاعد فيها خير من الماشي فيها، والماشي فيها خير من الساعي إليها، ألا فإذا نزلت، أو وقعت، فمَن كان له إبل فليلحق بإبله، ومَن كانت له غنم فليلحق بغنمه، ومَن كانت له أرض فليلحق بأرضه»، قال: فقال رجل: يا رسول الله، أرأيت مَن لم يكن له إبل، ولا غنم، ولا أرض؟، قال: «يعمد إلى سيفه، فيدق على حده بحجر، ثم لينجُ- إن استطاع النجاء-، اللهم هل بلغت؟ اللهم هل بلغت؟ اللهم هل بلغت؟»، قال: فقال رجل: يا رسول الله، أرأيت إن أُكرهت حتى يُنطلق بي إلى أحد الصفين، أو إحدى الفئتين، فضربني رجل بسيفه، أو يجيء سهم فيقتلني؟ قال: «يبوء بإثمه وإثمك، ويكون من أصحاب النار». (أخرجه مسلم ٢٨٨٧).

واستقصاء مواطن التكرار والتأكيد منه ﷺ يطول، والمقصود أنه ﷺ كان يُكرِّر ما يحتاج إلى تكرير؛ ليُفهم عنه، أو ليُؤكد على أهميته.

٥- سؤال المتعلم:

وربما سأل النبي ﷺ المتعلم تأكيدًا على ما علَّمه إياه، عن عقبة بن عامر ﷺ، قال: كنت أقود برسول الله ﷺ ناقته، قال: فقال لي: «ألا أُعلمك سورتين لم يُقرأ بمثلهما؟»، قلت: بلى، فعلمني: ﴿قُلۡ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾ و ﴿قُلۡ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلۡفَلَقِ﴾، فلم يرني أُعجبت بهما، فلما نزل الصبح فقرأ بهما، ثم قال لي: «كيف رأيت يا عقبة؟». (أخرجه أحمد ١٧٣٥٠، والنسائي ٥٤٣٦، وأبو داود ١٤٦٢، وأخرجه مسلم ٨١٤، دون موضع الشاهد).

توجيه أصحابه إلى تطبيق ما تعلموه:

لم يكن التعليم النبوي يهدف إلى المعرفة المجردة، أو العلم لذاته، بل كان يهدف إلى تحقيق الغاية من خلق الإنسان: (عبادة الله وتوحيده)، وإلى إصلاح النفوس وتهذيبها بالعلم الشرعي.

لذا كان ﷺ يُعنى بتربية أصحابه على العمل بالعلم، فقد كان يأمرهم بسؤال الله العلمَ النافعَ، ويُشبه لهم العلم الذي لا ينفع بالكنز الذي لا يُنفَق منه، وسبقت النصوص في ذلك.

ويُبيِّن ﷺ أن مِن أولى الناس بالغبطة مَن أُوتي العلم والحكمة فاعتنى بالتعليم، وقضى بين الناس وِفق ما تعلَّمه، عن عبد الله بن مسعود ﷺ قال: قال النبي ﷺ: «لا حسد إلا في اثنتين: رجل آتاه الله مالًا فسُلِّط على هلكته في الحق، ورجل آتاه الله الحكمة فهو يقضي بها ويعلِّمها». (أخرجه البخاري ٧٣، ومسلم ٨١٦).

وجاء في حديث ابن عمر رضي الله عنهما: «رجل علَّمه الله القرآن، فهو يتلوه آناء الليل، وآناء النهار، فسمعه جار له، فقال: ليتني أُوتيت مثل ما أُوتي فلان، فعملت مثل ما يعمل، ورجل آتاه الله مالًا فهو يُهلكه في الحق، فقال رجل: ليتني أُوتيت مثل ما أُوتي فلان، فعملت مثل ما يعمل». (أخرجه البخاري ٥٠٢٦).

وما ذكر في الحديث هو أحد صور العمل به، فقد جاء في حديث يزيد بن الأخنس رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «لا تنافس بينكم إلا في اثنتين: رجل أعطاه الله عز وجل القرآن، فهو يقوم به آناء الليل وآناء النهار، ويتبع ما فيه، فيقول رجل: لو أن الله تعالى أعطاني مثل ما أعطى فلانًا؛ فأقوم به كما يقوم به، ورجل أعطاه الله مالًا، فهو يُنفق ويتصدق، فيقول رجل: لو أن الله أعطاني مثل ما أعطى فلانًا فأتصدق به». (أخرجه أحمد ١٦٩٦٦).

قال ابن حجر: «والمراد بالقيام به: العمل به مطلقًا، أعم من تلاوته داخل الصلاة أو خارجها، ومن تعليمه، والحكم والفتوى بمقتضاه، فلا تخالف بين لفظي الحديثين، ولأحمد من حديث يزيد بن الأخنس السلمي: «رجل آتاه الله القرآن، فهو يقوم به آناء الليل وآناء النهار، ويتبع ما فيه»». (فتح الباري ١/ ١٦٧).

ويُبيِّن ﷺ أجر مَن علم الحق فاجتهد في العمل به، فعن عمرو بن العاص رضي الله عنه أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «إذا حكم الحاكم، فاجتهد، ثم أصاب؛ فله أجران، وإذا حكم، فاجتهد، ثم أخطأ؛ فله أجر». (أخرجه البخاري ٧٣٥٢، ومسلم ١٧١٦).

توجيه المتعلم للتعليم:

كان ﷺ يُوجِّه أصحابه رضوان الله عليهم إلى أن يُعلِّموا غيرهم، فحين أتاه مالك بن الحويرث وأصحابه- وكانوا شبابًا- أقاموا عنده مُدَّة يسيرة، فلما انصرفوا أمرهم بتعليم قومهم ما تعلموه منه ﷺ، عن مالك بن الحويرث رضي الله عنه، قال: أتينا إلى النبي ﷺ- ونحن

شببة مُتقاربون-، فأقمنا عنده عشرين يومًا وليلة، وكان رسول الله ﷺ رحيمًا رفيقًا، فلما ظنَّ أنَّا قد اشتهينا أهلنا- أو قد اشتقنا- سألنا عمَّن تركنا بعدنا، فأخبرناه، قال: «ارجعوا إلى أهليكم، فأقيموا فيهم، وعلِّموهم، ومُروهم- وذكر أشياء أحفظها، أو لا أحفظها-، وصلُّوا كما رأيتموني أُصلِّي، فإذا حضرت الصلاة، فليؤذِّن لكم أحدكم، وليؤُمُّكم أكبركم». (أخرجه البخاري ٦٣١، ومسلم ٦٧٤).

وأمر ﷺ وفدَ عبدِ قيس بأن يُعلِّموا قومهم، قائلًا لهم: «احفظوه، وأخبروه مَن وراءكم». (أخرجه البخاري ٨٧، ومسلم ١٧).

وجاء في حديث أبي موسى الأشعري: «مَثَل ما بعثني» قوله: «فذلك مَثَل مَن فَقِهَ في دين الله، ونفعه ما بعثني الله به فعلِم وعلَّم». (أخرجه البخاري ٧٩، ومسلم ٢٢٨٢).

وأثنى ﷺ على مَن علَّم جاريته، فعن أبي بردة، عن أبيه، قال: قال رسول الله ﷺ: «ثلاثة لهم أجران: رجل من أهل الكتاب، آمن بنبيه، وآمن بمحمد ﷺ، والعبد المملوك إذا أدَّى حق الله، وحق مواليه، ورجل كانت عنده أَمَةٌ، فأدَّبها، فأحسن تأديبها، وعلَّمها، فأحسن تعليمها، ثم أعتقها، فتزوجها؛ فله أجران». (أخرجه البخاري ٩٧، ومسلم ١٥٤).

وحثَّ ﷺ عموم أصحابه وأُمَّته على التبليغ عنه- ولو كان يسيرًا-، فعن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال: «بلِّغُوا عني ولو آية، وحدِّثوا عن بني إسرائيل، ولا حرج، ومَن كذب عليَّ مُتعمدًا، فلْيتبوَّأ مقعده من النار». (أخرجه البخاري ٣٤٦١).

وحثَّهم ﷺ على تعليم القرآن الكريم، مُبيِّنًا لهم فضيلة ذلك، عن عثمان رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «خيركم مَن تعلَّم القرآن وعلَّمه». (أخرجه البخاري ٥٠٢٧).

وكان الرجل إذا هاجر، دفعه لأحد أصحابه يُعلِّمه، عن عُبادة بن الصامت رضي الله عنه،

قال: كان رسول الله ﷺ يشغل، فإذا قَدِمَ رجل مهاجر على رسول الله ﷺ، دفعه إلى رجل مِنَّا يُعلِّمه القرآن، فدفع إليَّ رسول الله ﷺ رجلًا، فكان معي في البيت أُعشِّيه عشاء أهل البيت، فكنت أُقرئه القرآن، فانصرف انصرافةً إلى أهله، فرأى أن عليه حقًّا، فأهدى إليَّ قوسًا لم أرَ أجودَ منها عودًا، ولا أحسن منها عطفًا، فأتيت رسول الله ﷺ فقلت: ما ترى يا رسول الله فيها؟، قال: «جمرة بين كتفيك تقلَّدتها، أو تعلَّقتها». (أخرجه أحمد ٢٢٧٦٦).

كما أمر ﷺ بالتعلُّم من أصحابه، وفي هذا توجيه لهم للتعليم، فعن مسروق قال: ذُكِرَ عبد الله بن مسعود عند عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما، فقال: ذاك رجل لا أزال أُحبه؛ سمعت النبي ﷺ يقول: «خذوا القرآن من أربعة، من عبد الله بن مسعود، فبدأ به، وسالم مولى أبي حذيفة، ومعاذ بن جبل، وأُبَي بن كعب». (أخرجه البخاري ٣٨٠٨، ومسلم ٢٤٦٤).

وحين سأله أهل اليمن أن يبعث معهم مَن يُعلِّمهم؛ أجابهم إلى ذلك، عن أنس بن مالك رضي الله عنه، أن أهل اليمن لما قَدِمُوا على رسول الله ﷺ، سألوه أن يبعث معهم رجلًا يُعلِّمهم، فبعث معهم أبا عُبيدة، وقال: «هو أمين هذه الأمة». (أخرجه أحمد ١٢٢٦١).

وبعث ﷺ معاذًا، وأبا موسى رضي الله عنهما إلى اليمن؛ ليعلما الناس، عن سعيد بن أبي بردة، عن أبيه، عن جده، أن النبي ﷺ، بعث معاذًا، وأبا موسى إلى اليمن، قال: «يَسِّرَا، ولا تُعَسِّرَا، وبَشِّرَا، ولا تُنَفِّرَا، وتَطَاوَعَا، ولا تَخْتَلِفَا». (أخرجه البخاري ٣٠٣٨).

وفي رواية لأحمد (١٩٥٤٤): أن رسول الله ﷺ بعث معاذًا، وأبا موسى إلى اليمن، «فأمرهما أن يُعلِّما الناس القرآن».

مهارات العلم والتعلم

لم يكن تعليم النبي ﷺ لأصحابه قاصرًا على تزويدهم بالحقائق والمعارف الشرعية فحسب، بل اعتنى ﷺ ببناء المنهج العلمي، وتنمية مهارات العلم والتعلم لديهم.

ومن ذلك ما يلي:

رد العلم إلى الله، وقول: لا أدري:

يصعب على بعض المتعلمين أن يُصرِّح بنفي العلم عن نفسه، وربما تجرَّأ، فقال بالظن، أو ما يظهر له دون أن يتيقن من صواب ذلك.

وقد ربَّى ﷺ أصحابه على قول: لا أدري، فها هو ﷺ- وهو أعلم الناس بالله ودينه- يقول: لا أدري، في مواطن عدة.

فحين سأله جابر رضي الله عنه عن مسألة لم ينزل فيها وحي، سكت حتى أتاه الوحي، عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما، قال: مرضت، فجاءني رسول الله ﷺ يعودني، وأبو بكر- وهما ماشيان-، فأتاني، وقد أغمي عليَّ، فتوضأ رسول الله ﷺ، ثم صبَّ وَضُوءه عليَّ، فأفقت، فقلت: يا رسول الله- وربما قال سفيان: فقلت: أي رسول الله- كيف أقضي في مالي؟، كيف أصنع في مالي؟، قال: فما أجابني بشيء حتى نزلت آية الميراث. (أخرجه البخاري ٧٣٠٩، ومسلم ١٦١٦)، وجاء في مسلم ﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ﴾ (النساء: ١٧٦).

وحين سأله أحدهم عن أمر لا يعلمه، قال: لا أدري، فعن محمد بن جبير بن مطعم، عن أبيه، أن رجلًا أتى النبي ﷺ، فقال: يا رسول الله، أي البلدان شر؟ قال: فقال:«لا أدري»، فلما أتاه جبريل عليه السلام، قال: «يا جبريل، أي البلدان شر؟»، قال: لا أدري حتى أسأل ربي عز وجل، فانطلق جبريل عليه السلام، ثم مكث ما شاء الله أن يمكث، ثم

جاء، فقال: يا محمد، إنك سألتني أي البلدان شر، فقلت: لا أدري، وإني سألت ربي عز وجل: أي البلدان شر؟ فقال: «أسواقها». (أخرجه أحمد ١٦٣٠٢).

ويُحدِّث ابن مسعود ﷺ عن سكوته ﷺ حين سأله اليهود عن الروح، حتى أتاه الوحي، عن ابن مسعود ﷺ، قال: كنت مع النبي ﷺ في حرث بالمدينة، وهو يتوكأ على عسيب، فمر بنفر من اليهود، فقال بعضهم: سلُوه عن الروح؟، وقال بعضهم: لا تسألوه، لا يسمعكم ما تكرهون، فقاموا إليه فقالوا: يا أبا القاسم، حدِّثنا عن الروح، فقام ساعة ينظر، فعرفت أنه يُوحَى إليه، فتأخرت عنه حتى صعد الوحي، ثم قال: ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى ﴾ (الإسراء: ٨٥). (أخرجه البخاري ٧٢٩٧، ومسلم ٢٧٩٤)، وأورده البخاري مُعلَّقًا في كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة، باب: مَا كان النبي ﷺ يُسأَل مما لم ينزل عليه الوحي، فيقول: «لا أدري»، أو لم يُجب حتى ينزل عليه الوحي، ولم يقل برأي، ولا بقياس.

ومما يعوق طالب العلم عن قول لا أدري: ظنه أن ذلك يَحُطُّ من قدره ومنزلته؛ لذا قال ابن جماعة- موصيًا المعلم-: «واعلم أن قول المسؤول: لا أدري، لا يضع من قدره كما يظنه بعض الجهلة، بل يرفعه؛ لأنه دليل عظيم على عِظَم محلِّه، وقوة دينه، وتقوى ربه، وطهارة قلبه، وكمال معرفته، وحسن تثبته، وقد رُوِّينا معنى ذلك عن جماعة من السلف، وإنما يأنف من قول: لا أدري مَن ضعُفت ديانته، وقلَّت معرفته؛ لأنه يخاف من سقوطه من أعين الحاضرين، وهذه جهالة، ورقة دين، وربما يشهر خطؤه بين الناس فيقع فيما فرَّ منه، ويتصف عندهم بما احترز عنه، وقد أدَّب الله تعالى العلماء بقصة موسى مع الخضر حين لم يَرُدَّ موسى عليه السلام العلم إلى الله تعالى، لما سُئِلَ: هل أحد في الأرض أعلم منك؟». (تذكرة السامع والمتكلم ٤٢-٤٣).

وقد اعتنى أهل العلم بالتأكيد على هذا الأمر، وكُتُب أدب العالم والمتعلم حافلة بالنقول عنهم في ذلك[1].

تعليم منهج التلقي والتعامل مع مصادر المعرفة:

اعتنى ﷺ بتعليم أصحابه منهج التلقي، والتعامل مع المعرفة، ومن ذلك ما يلي:

١- بيانه لمصادر العلم الشرعي:

رسَّخ ﷺ لدى أصحابه مرجعية الوحيين في العلم الشرعي، فحين حدثهم عن الاختلاف الذي سيقع في الأمة، أوصاهم بلزوم سنته، وسنة خلفائه الراشدين، عن عرباض بن سارية ﷺ، قال: صلَّى لنا رسول الله ﷺ الفجر، ثم أقبل علينا، فوعظنا موعظة بليغة، ذرفت لها الأعين، ووجلت منها القلوب، قلنا، أو قالوا: يا رسول الله، كأن هذه موعظة مُودِّع، فأَوْصِنا، قال: «أُوصيكم بتقوى الله، والسمع، والطاعة، وإن كان عبدًا حبشيًّا؛ فإنه مَن يعشْ منكم يرى بعدي اختلافًا كثيرًا، فعليكم بسُنَّتِي، وسُنَّة الخلفاء الراشدين المهديين، وعَضُّوا عليها بالنواجذ، وإياكم ومحدثات الأمور؛ فإن كل محدثة بدعة، وإن كل بدعة ضلالة». (أخرجه أحمد ١٧١٤٤، والترمذي ٢٦٧٦، وأبو داود ٤٦٠٧، وابن ماجه ٤٢).

وحين حذَّر أُمَّته من الفِرَق الهالكة، بيَّن أن النجاة في اتباع سُنَّته ﷺ، فعن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما، قال: قال رسول الله ﷺ: «ليأتين على أُمَّتي ما أتى على بني إسرائيل، حذو النعل بالنعل، حتى إن كان منهم مَن أتى أُمَّه علانية، لكان في أمتي مَن يصنع ذلك، وإن بني إسرائيل تفرَّقت على ثنتين وسبعين مِلَّة، وتفترق أُمتي على ثلاث وسبعين مِلَّة، كلهم

(١) انظر على سبيل المثال: أدب العالم والمتعلم، الفقيه والمتفقه، تذكرة السامع والمتكلم، جامع بيان العلم وفضله.

في النار إلا مِلَّة واحدة»، قالوا: ومَن هي يا رسول الله؟ قال: «ما أنا عليه وأصحابي». (أخرجه الترمذي ٢٦٤١).

وفي الموطأ: (كتاب القَدَر، باب النهي عن القول بالقَدَر، حديث رقم ٣) بلاغًا، أنه ﷺ قال: «تركت فيكم أمرين لن تضلوا ما مسكتم بهما: كتاب الله، وسنة رسوله»، وقال ابن عبد البر: «محفوظ، معروف، مشهور عن النبي ﷺ عند أهل العلم شهرة يكاد يُسْتَغْنَى بها عن الإسناد». (التمهيد ٢٤/ ٣٣١).

٢- نهيه عن اتباع المصادر غير الصحيحة:

نهى ﷺ أصحابه عن اتباع المصادر غير الصحيحة؛ فعن أبي هريرة ﷺ، قال: كان أهل الكتاب يقرءون التوراة بالعبرانية، ويفسرونها بالعربية لأهل الإسلام، فقال رسول الله ﷺ: «لا تُصدِّقوا أهل الكتاب، ولا تكذبوهم، ﴿وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَأُنزِلَ إِلَيۡكُمۡ﴾ (العنكبوت: ٤٦)». (أخرجه البخاري ٧٣٦٢).

وحين رأى ﷺ مع عمر صحيفةً من التوراة غضب، ونهاه عن ذلك، وقال: «أمُتهوِّكون فيها يا ابن الخطاب؟، والذي نفسي بيده، لقد جئتكم بها بيضاءَ نقيةً، لا تسألوهم عن شيء فيخبروكم بحق فتُكذبوا به، أو بباطل فتُصدقوا به، والذي نفسي بيده، لو أن موسى كان حيًّا ما وسعه إلا أن يتبعني». (أخرجه أحمد ١٥١٥٦).

٣- ذم القول بالرأي فيما لا يسوغ فيه:

من أكثر صور الإخلال في التعامل مع مصادر المعرفة: بناء الأحكام الشرعية على الرأي الشخصي، وقد ذَمَّ النبي ﷺ هذا المسلك؛ فعن أبي الأسود، عن عروة، قال: حجَّ علينا عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما، فسمعته يقول: سمعت النبي ﷺ يقول: «إن الله لا ينزع العلم بعد أن أعطاهموه انتزاعًا، ولكن ينتزعه منهم مع قبض العلماء بعلمهم، فيبقى ناس

جهال يُستفتون؛ فيفتون برأيهم؛ فيَضِلُّونَ ويُضِلُّونَ». (أخرجه البخاري ٧٣٠٧، ومسلم ٢٦٧٣).

وأورد البخاري رحمه الله هذا الحديث في باب ما يُذكر مِن ذَمِّ الرأي، وتكلف القياس، ثم أورد بعده أثر سهل بن حنيف ﷺ: «يا أيها الناس، اتهموا رأيكم على دينكم، لقد رأيتني يوم أبي جندل، ولو أستطيع أن أردَّ أمر رسول الله ﷺ عليه لرددته، وما وضعنا سيوفنا على عواتقنا إلى أمر يفظعنا، إلا أسهلن بنا إلى أمر نعرفه، غير هذا الأمر». (أخرجه البخاري ٧٣٠٨، ومسلم ١٧٨٥).

٤ - بيانه لمصادر المعرفة في أمور الدنيا:

أكَّد النبي ﷺ في تربيته لأصحابه على أن مصادر المعرفة في الأمور الدنيوية هي مصادر بشرية متروكة للجهد البشري، عن موسى بن طلحة، عن أبيه، قال: مَرَرْتُ مع رسول الله ﷺ بقوم على رؤوس النخل فقال: «ما يصنع هؤلاء؟»، فقالوا: يُلقِّحونه، يجعلون الذكر في الأنثى فيُلقح، فقال رسول الله ﷺ: «ما أظن يغني ذلك شيئًا»، قال: فأُخبِروا بذلك فتركوه، فأُخبر رسول الله ﷺ بذلك فقال: «إن كان ينفعهم ذلك فليصنعوه؛ فإني إنما ظننت ظنًّا، فلا تُؤاخذوني بالظن، ولكن إذا حدثتكم عن الله شيئًا فخذوا به، فإني لن أكذب على الله عز وجل». (أخرجه مسلم ٢٣٦١).

وعن رافع بن خديج ﷺ، قال: قَدِمَ نبي الله ﷺ المدينة، وهم يأبرون النخل، يقولون: يُلقِّحون النخل، فقال: «ماتصنعون؟»، قالوا: كُنَّا نصنعه، قال: «لعلكم لو لم تفعلوا كان خيرًا»، فتركوه؛ فنفضت، أو فنقصت، قال: فذكروا ذلك له، فقال: «إنما أنا بشر، إذا أمرتكم بشيء من دينكم فخذوا به، وإذا أمرتكم بشيء من رأي فإنما أنا بشر». (أخرجه مسلم ٢٣٦٢).

عن عائشة، وأنس رضي الله عنهما، أن النبي ﷺ مرَّ بقوم يُلقِّحون، فقال: «لو لم تفعلوا لصلح»، قال: فخرج شِيصًا، فمرَّ بهم، فقال:«ما لنخلكم؟»، قالوا: قلت كذا وكذا، قال:«أنتم أعلم بأمر دنياكم». (أخرجه مسلم ٢٣٦٣).

وبوَّب النووي في شرحه لمسلم على هذا الحديث: باب وُجوب امتثال ما قاله شرعًا دون ما ذكره ﷺ من معايش الدنيا على سبيل الرأي.

ويتأكد على المربي ترسيخ منهجية التعامل مع مصادر المعرفة، وبخاصة في المسائل التي يختلط فيها الجانب الشرعي بالجانب الدنيوي؛ فعلى سبيل المثال، حين نقول: إن لبس الفتاة للحجاب يُحسِّن من حالتها الصحية، فإن هذ الفرضية لا تصح لمجرد كون الحجاب حُكمًا شرعيًا؛ وعليه فسبيل التحقق منها هو المعرفة البشرية، ونفي علاقة ارتداء الحجاب بالصحة ليس طعنًا في الحجاب؛ فهو لم يُشرع لحفظ الصحة، إنما شُرع لتحقيق السِّتر والعفاف، وسد أبواب الفاحشة، ونظائر ذلك كثيرة.

وكثير ما يخلط بعض الدعاة والوعَّاظ في هذه المسائل؛ فيتلقفون أي معلومة تتصل بأثر الالتزام بالأحكام الشرعية على بعض جوانب الحياة، أو تتصل بالآثار السيئة لبعض المخالفات الشرعية، ويرون أن ثبوت الحكم الشرعي كافٍ في قبول مثل هذه المقولات.

٥- التربية على منهج التعامل مع النص الشرعي:

ربَّى النبي ﷺ أصحابَه على تعظيم النص الشرعي، والتسليم له، وحذَّرهم ﷺ من الإخلال بهذا المنهج؛ عن عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جده رضي الله عنهما، قال: خرج رسول الله ﷺ ذات يوم، والناس يتكلمون في القَدَر، قال: وكأنما تفقأ في وجهه حَبُّ الرُّمَّان من الغضب، قال: فقال لهم: «ما لكم تضربون كتاب الله بعضه ببعض؟ بهذا هلك مَن كان قبلكم»، قال: فما غبطت نفسي بمجلس فيه رسول الله ﷺ لم أشهده، بما غبطت نفسي

بذلك المجلس أني لم أشهده. (أخرجه أحمد ٦٦٦٨، وابن ماجه ٨٥).

وأخرجه مسلم من طريق أبي عمران الجوني، قال: كتب إليَّ عبد الله بن رباح الأنصاري، أن عبد الله بن عمرو ﷺ قال: هجَّرت إلى رسول الله ﷺيومًا، قال: فسمع أصوات رجلين اختلفا في آية، فخرج علينا رسول الله ﷺ، يُعرف في وجهه الغضب، فقال: «إنما هلك مَن كان قبلكم باختلافهم في الكتاب». (٢٦٦٦).

تنمية الاستنباط والفهم:

اعتنى ﷺ بتنمية قدرة أصحابه على الاستنباط والفهم، وأمثلة ذلك كثيرة، وقد سبقت الإشارة إليها، ومنها: حديث ابن عمر ﷺ في النخلة.

ومن ذلك ما رواه ابن عباس ﷺ، أن رجلًا أتى رسول الله ﷺ فقال: إني رأيت الليلة في المنام ظُلَّة تَنْطِف السمن والعسل، فأرى الناس يتكفَّفون منها، فالمُستكثر والمُستقل، وإذا سببٌ واصل من الأرض إلى السماء، فأراك أخذت به فعلَوْتَ، ثم أخذ به رجل آخر؛ فعلا به، ثم أخذ به رجل آخر؛ فعلا به، ثم أخذ رجل آخر فانقطع، ثم وصل، فقال أبو بكر: يا رسول الله بأبي أنت، والله لتدعني فأعبرها، فقال النبي ﷺ: «اعبرها»، قال: أما الظُّلَّة: فالإسلام، وأما الذي ينطف من العسل والسمن: فالقرآن، حلاوته تنطف، فالمُستكثر من القرآن والمُستقل، وأما السبب الواصل من السماء إلى الأرض: فالحق الذي أنت عليه، تأخذ به فيُعليك الله، ثم يأخذ به رجل من بعدك فيعلو به، ثم يأخذ به رجل آخر فيعلو به، ثم يأخذه رجل آخر فينقطع به، ثم يوصل له؛ فيعلو به، فأخبرني يا رسول الله- بأبي أنت- أصبتُ أم أخطأتُ؟، قال النبي ﷺ: «أصبتَ بعضًا، وأخطأتَ بعضًا»، قال: فوالله لتحدثني بالذي أخطأتُ، قال: «لا تُقسم». (أخرجه البخاري ٧٠٤٦، ومسلم ٢٢٦٩).

وذكر ابن حجر فيما يؤخذ من الحديث: «كلام العالم بالعلم بحضرة مَن هو أعلم منه، إذا أُذن له في ذلك صريحًا، أو ما قام مقامه، ويُؤخذ منه جواز مثله في الإفتاء والحكم». (فتح الباري ١٢/ ٤٣٨).

المناقشة والمراجعة:

كان ﷺ يتيح لأصحابه مناقشته ومراجعته على سبيل التعلُّم لا الاعتراض، عن ابن أبي مليكة، أن عائشة زوج النبي ﷺ كانت لا تسمع شيئًا لا تعرفه إلا راجعت فيه حتى تعرفه، وأن النبي ﷺ قال: «من حوسب عُذِّب»، قالت عائشة: فقلت: أوليس يقول الله تعالى: ﴿فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا﴾ (الانشقاق: ٨)، قالت: فقال: «إنما ذلك العرض، ولكن: مَن نُوقش الحساب يهلك». (أخرجه البخاري ١٠٣، ومسلم ٢٨٧٦).

إن دلالة الحديث لا تنتهي عند سؤال عائشة رضي الله عنها في هذه المسألة فحسب، فقد أخبرت أنها تراجعه ﷺ فيما يشكل عليها، واعتيادها المراجعة دليل على تقبُّله ﷺ لذلك، قال ابن حجر: «وفي الحديث ما كان عند عائشة من الحرص على تفهُّم معاني الحديث، وأن النبي ﷺ لم يكن يتضجر من المراجعة في العلم، وفيه جواز المناظرة ومقابلة السُّنَّة بالكتاب». (فتح الباري ١/ ١٩٧).

ومثل هذا السؤال لا يدخل في السؤال المذموم قال ابن حجر: «أن السؤال عن مِثل هذا لم يدخل فيما نهي الصحابة عنه في قوله تعالى: ﴿لَا تَسْـَٔلُوا عَنْ أَشْيَآءَ﴾ (المائدة: ١٠١)». (فتح الباري ١/ ١٩٧).

ولم تكن المناقشة والمراجعة قاصرة على عائشة رضي الله عنها، فقد كان أصحاب النبي ﷺ يُراجعونه فيما أُشْكِل عليهم، عن عبد الله رضي الله عنه، قال: لما نزلت هذه الآية: ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوٓا إِيمَـٰنَهُم بِظُلْمٍ﴾ (الأنعام: ٨٢) شقَّ ذلك على أصحاب النبي ﷺ،

وقالوا: أيُّنا لم يظلم نفسه؟ فقال رسول الله ﷺ: «ليس كما تظنون، إنما هو كما قال لقمان لابنه: ﴿يَٰبُنَيَّ لَا تُشۡرِكۡ بِٱللَّهِۖ إِنَّ ٱلشِّرۡكَ لَظُلۡمٌ عَظِيمٞ﴾(لقمان: ١٣)». (أخرجه البخاري ٦٩٣٧، ومسلم ١٢٤)، فقد استمع ﷺ لمراجعتهم، وأجابهم عن ذلك.

وثمَّة خيط رفيع بين النقاش والمراجعة الإيجابية، والاعتراض والجدل، وقد انتهر ﷺ حفصة عند سؤالها؛ فعن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما، قال: أخبرتني أم مبشر رضي الله عنها أنها سمعت النبي ﷺ يقول عند حفصة رضي الله عنها: «لا يدخل النار- إن شاء الله- من أصحاب الشجرة أحد، الذين بايعوا تحتها»، قالت: بلى يا رسول الله؛ فانتهرها، فقالت حفصة: ﴿وَإِن مِّنكُمۡ إِلَّا وَارِدُهَاۚ﴾(مريم: ٧١)، فقال النبي ﷺ: قد قال الله عز وجل: ﴿ثُمَّ نُنَجِّي ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّنَذَرُ ٱلظَّٰلِمِينَ فِيهَا جِثِيّٗا﴾(مريم: ٧٢)». (أخرجه مسلم ٢٤٩٦)، وحين استدلت رضي الله عنها بالآية بيَّن لها ﷺ المقصود.

قال النووي: «فيه دليل للمناظرة، والاعتراض، والجواب على وجه الاسترشاد، وهو مقصود حفصة، لا أنها أرادت ردَّ مقالته ﷺ». (شرح صحيح مسلم ١٦/ ٥٨).

توظيف الوسائل التعليمية

لم يكُن التعليم النبوي قاصرًا على التواصل اللفظي وحده، بل كان ﷺ يُعنى بإيصال ما يريد تعليمه لأصحابه، ويُوظف ﷺ مداخل ووسائل متعددة.

ومما اعتنى به ﷺ توظيف الوسائل التعليمية، وفي هذا الجزء من الكتاب نتناول جانبًا من استخدام الوسائل التعليمية في التعليم النبوي.

وقد تنوعت الوسائل التي استخدمها ﷺ في التعليم، ومنها ما يلي:

١- الأشياء الحقيقية:

يمثل استخدام الأشياء الحقيقية أعلى صور استخدام الوسائل التعليمية، وهو يعني أن يقوم المعلم بعرض الشيء المراد تعليمه بصورة حقيقية، فهو لا يعرض صورة، أو مجسمًا، أو يرمز له.

وقد كان ﷺ كثيرًا ما يستخدم الأشياء الحقيقية في تعليمه لأصحابه، ومن ذلك ما يلي:

عن عائشة رضي الله عنها أن النبي ﷺ نظر إلى القمر، فقال: «يا عائشة، استعيذي بالله من شرِّ هذا؛ فإن هذا الغاسق إذا وقب». (أخرجه أحمد ٢٥٨٠٢، والترمذي ٣٣٦٦).

وحين أراد أن يُعلِّم أصحابه الحصى الذي تُرمَى به الجمرات، عرضها أمامهم، فعن أبي العالية قال: قال ابن عباس رضي الله عنهما قال لي رسول الله ﷺ- غداة العقبة، وهو على راحلته-: «هات، القُطْ لي»، فلقطت له حصيات، هُنَّ حصى الخَذْف، فلما وضعتهن في يده، قال: «بأمثال هؤلاء، وإياكم والغلو في الدين؛ فإنما أَهلك مَن كان قبلكم الغلوُّ في الدين». (أخرجه النسائي ٣٠٥٧، وابن ماجه ٣٠٢٩، وأحمد ٣٢٤٨).

ومَن استمع إلى أسئلة كثير من الحُجاج عن حجم الحصى الذي يُرمَى به؛ أدرك أهمية مثل هذا الموقف التعليمي.

وحين أراد تعليمهم تحريم الحرير والذهب؛ عرض أمامهم قطعة منه، عن علي بن أبي طالب ﷺ قال: «إن نبي الله ﷺ أخذ حريرًا فجعله في يمينه، وأخذ ذهبًا فجعله في شماله، ثم قال: إن هذين حرام على ذكور أمتي». (أخرجه أبو داود ٤٠٥٧، والنسائي ٥١٤٤، وابن ماجه ٣٥٩٥، وأحمد ٩٣٥).

واستخدم قضيبًا كان معه مبينًا هوان مسيلمة، عن عبيد الله بن عبد الله بن عتبة، قال: بلغنا أن مسيلمة الكذاب قَدِمَ المدينة، فنزل في دار بنت الحارث، وكان تحته بنت الحارث بن كريز، وهي أم عبد الله بن عامر، فأتاه رسول الله ﷺ، ومعه ثابت بن قيس بن شماس، وهو الذي يقال له: خطيب رسول الله ﷺ، وفي يد رسول الله ﷺ قضيب، فوقف عليه فكلمه، فقال له مسيلمة: إن شئت خلَّيْت بيننا وبين الأمر، ثم جعلته لنا بعدك، فقال النبي ﷺ: «لو سألتني هذا القضيب ما أعطيتُكه، وإني لأراك الذي أُريت فيه ما أُريت، وهذا ثابت بن قيس، وسيجيبك عني»، فانصرف النبي ﷺ. (أخرجه البخاري ٤٣٧٨).

٢- الربط بين المواقف التعليمية:

ومن الوسائل التي استخدمها ﷺ في تعليمه لأصحابه: الربط بين المواقف التعليمية، فيربط لهم بين مفهوم مُجرَّد، أو غائب بموقف حقيقي، أو كائن مادي يرونه، ومن ذلك ما يلي:

عن أبي بردة، عن أبيه ﷺ قال: صلينا المغرب مع رسول الله ﷺ، ثم قلنا: لو جلسنا حتى نصلي معه العشاء؟ قال: فجلسنا، فخرج علينا، فقال: «مازلتم ها هنا؟»، قلنا: يا رسول الله، صلَّيْنا معك المغرب، ثم قلنا: نجلس حتى نصلي معك العشاء، قال:

«أحسنتم، أو أصبتم»، قال: فرفع رأسه إلى السماء- وكان كثيرًا ما يرفع رأسه إلى السماء-، فقال: «النجوم أَمَنَةٌ للسماء، فإذا ذهبت النجوم؛ أتى السماء ما تُوعد، وأنا أَمَنَةٌ لأصحابي، فإذا ذهبت؛ أتى أصحابي ما يوعدون، وأصحابي أَمَنَةٌ لأمتي، فإذا ذهب أصحابي؛ أتى أمتي ما يوعدون». (أخرجه مسلم ٢٥٣١).

فقد ربط ﷺ في هذا الموقف بين علاقة النجوم بالسماء ودورها في حفظها، وما يحصل للسماء إذا ذهبت النجوم، ربط ذلك بحال أصحابه رضوان الله عليهم عند ذهابه ﷺ، وحال الأُمة عند ذهاب أصحابه رضوان الله عليهم.

ويربط ﷺ نعيم الآخرة وثوابها بما يراه الناس من متاع الدنيا الحاضر، فعن أنس ﷺ، قال: أُهدي للنبي ﷺ جُبَّة سندس، وكان ينهى عن الحرير، فعجب الناس منها فقال: «والذي نفس محمد بيده لمناديل سعد بن معاذ في الجنة أحسن من هذا». (أخرجه البخاري ٢٦١٥، ومسلم ٢٤٦٨).

لقد تملَّك الحاضرين العَجبُ من جمال هذا اللباس؛ فربطهم ﷺ بما هو أعظم وأجمل من ذلك، ألا وهو لباس أهل الجنة، ويصف لهم ﷺ لباسًا مُحدَّدًا هو المناديل، لرجل بعينه، وهو سعد بن معاذ ﷺ، فإذا كان هذا شأن المناديل، فكيف بما سواها من لباس أهل الجنة؟ جعلنا الله برحمته من أهلها.

وحين رأى القمر، وهو مع أصحابه رضوان الله عليهم، حدَّثهم عن رؤيتهم لربهم يوم القيامة، فعن جرير بن عبد الله ﷺ قال: كُنَّا عند النبيﷺ ، فنظر إلى القمر ليلة، يعني: البدر، فقال: «إنكم سترون ربكم كما ترون هذا القمر، لا تُضامُون في رؤيته، فإن استطعتم أن لا تُغلَبوا على صلاة قبل طلوع الشمس، وقبل غروبها، فافعلوا، ثم قرأ: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ ٱلْغُرُوبِ﴾(ق: ٣٩)». (أخرجه البخاري ٥٥٤، ومسلم ٦٣٣).

كما استخدم ﷺ الوسيلة نفسها في الإجابة عن سؤالهم؛ فعن أبي هريرة ﷺ، قال: قال أناس: يا رسول الله، هل نرى ربنا يوم القيامة؟، فقال: «هل تُضارون في الشمس ليس دونها سحاب»، قالوا: لا يا رسول الله، قال: «هل تُضارون في القمر ليلة البدر ليس دونه سحاب» قالوا: لا يا رسول الله، قال: «فإنكم ترونه يوم القيامة كذلك، يجمع الله الناس، فيقول: مَن كان يعبد شيئًا فليتبعه...» الحديث. (أخرجه البخاري ٦٥٧٣، ومسلم ٢٩٦٨).

عن أبي رزين ﷺ، **قال موسى العقيلي:** قال: قلت: يا رسول الله، أكلُّنا يرى ربَّه؟ قال ابن معاذ: مخليًّا به يوم القيامة؟ وما آية ذلك في خلقه؟ قال: «يا أبا رزين أليس كلكم يرى القمر؟ قال ابن معاذ: ليلة البدر مخليًا به، ثم اتفقا، قلت: بلى، قال: فالله أعظم، قال ابن معاذ: قال: فإنما هو خَلْقٌ من خَلْقِ الله، فالله أجلُّ وأعظمُ». (أخرجه أبو داود ٤٧٣١، وابن ماجه ١٨٠، وأحمد ١٦١٨٦).

وحين علَّم ﷺ أحدَ أصحابه دعاءً يدعو به، ربط ذلك بموقف حقيقي؛ فعن علي بن أبي طالب ﷺ، قال: قال لي رسول الله ﷺ: «قل: اللهم اهدني وسددني، واذكر بالهُدى هدايتَك الطريق، والسَّداد سدادَ السهم». (أخرجه مسلم ٢٧٢٥).

وحين كان ﷺ مع أصحابه في سفر، رأى جبلًا، فربط ذلك بموقف تعليمي، عن أبي هريرة ﷺ قال: كان رسول الله ﷺ يسير في طريق مكة، فمر على جبل يقال له: جُمْدَان، فقال: «سيروا، هذا جُمْدَان، سبق المفرِّدون»، قالوا: وما المفرِّدون يا رسول الله؟ قال: «الذاكرون الله كثيرًا والذاكرات». (أخرجه مسلم ٢٦٧٦).

والربط بالمواقف لا يقتصر على المكونات المادية المحسوسة، فهو ﷺ يربط المواقف الاجتماعية التي تمر بالناس بحقائق شرعية، عن عمر بن الخطاب ﷺ، أن النبي ﷺ بعث بعثًا قِبَل نجد، فغنموا غنائم كثيرة، وأسرعوا الرجعة، فقال رجل- مِمَّن لم يخرج-: ما رأينا

بعثًا أسرع رجعة ولا أفضل غنيمة من هذا البعث، فقال النبي ﷺ: «ألا أدلكم على قوم أفضل غنيمة، وأسرع رجعة؟ قوم شهدوا صلاة الصبح، ثم جلسوا يذكرون الله حتى طلعت عليهم الشمس، فأولئك أسرع رجعة، وأفضل غنيمة». (أخرجه الترمذي ٣٥٦١).

وحين يرى ﷺ موقفًا يلفت انتباه أصحابه، ويستثير اهتمامهم؛ يستثمر الموقف في تعليمهم، فعن عمر بن الخطاب ﷺ، قال: قَدِمَ على النبي ﷺ سَبْيٌ، فإذا امرأة من السَّبي قد تحلب ثديها تسقي إذا وجدت صبيًا في السبي أخذته، فألصقته ببطنها، وأرضعته، فقال لنا النبي ﷺ: «أترون هذه طارحةً ولدها في النار؟»، قلنا: لا، وهي تقدر على أن لا تطرحه، فقال: «لَلهُ أرحم بعباده من هذه بولدها». (أخرجه البخاري ٥٩٩٩، ومسلم ٢٧٥٤).

وذكر ابن حجر رحمه الله في فوائد حديث عمر: «وفيه ضَرْبُ المثل بما يُدرك بالحواس لما لا يُدرك بها؛ لتحصيل معرفة الشيء على وجهه، وإن كان الذي ضُرب به المثل لا يُحاط بحقيقته؛ لأن رحمة الله لا تُدرك بالعقل، ومع ذلك فقرَّبها النبي ﷺ للسامعين بحال المرأة المذكورة». (فتح الباري ١٠/ ٤٣١).

وعن أبي هريرة ﷺ، قال: أتى النبيَّ ﷺ رجلٌ، ومعه صبي، فجعل يضمُّه إليه، فقال النبي ﷺ: «أترحمه؟»، قال: نعم، قال: «فالله أرحم بك منك به، وهو أرحم الراحمين». (أخرجه البخاري في الأدب المفرد ٣٧٧).

عن جابر بن عبد الله أن رسول الله ﷺ مرَّ بالسوق- داخلًا من بعض العالية-، والناس كنفته، فمر بجدي أسكَّ ميت، فتناوله، فأخذ بأذنه، ثم قال: «أيُّكم يحب أن هذا له بدِرْهم؟»، فقالوا: ما نحب أنه لنا بشيء، وما نصنع به؟ قال: «أتحبون أنه لكم؟»، قالوا: والله لو كان حيًّا كان عيبًا فيه؛ لأنه أسكُّ، فكيف وهو ميت، فقال: «فوالله لَلدُّنيا أهون على الله من هذا عليكم». (أخرجه مسلم ٢٩٥٧).

وعن المستورد بن شداد رضي الله عنه، **قال:** كنت مع الركب الذين وقفوا مع رسول الله ﷺ على السخلة الميتة، فقال رسول الله ﷺ: «أترون هذه هانت على أهلها حين ألقوها؟ قالوا: من هوانها ألقوها يا رسول الله، قال: فالدنيا أهون على الله من هذه على أهلها»، (أخرجه الترمذي ٢٣٢١، وابن ماجه ٤١١١، وأحمد ١٨٠١٣).

وعن أنس رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ مرَّ بشجرة يابسة الورق، فضربها بعصاه؛ فتناثر الورق، فقال: «إن الحمد لله، وسبحان الله، ولا إله إلا الله، والله أكبر؛ لتساقط من ذنوب العبد كما تساقط ورق هذه الشجرة». (أخرجه الترمذي ٣٥٣٣).

واستخدم ﷺ الموقف نفسه في حديث تكفير الطهارة والصلاة للخطايا، عن أبي عثمان قال: كنت مع سلمان الفارسي رضي الله عنه تحت شجرة، وأخذ منها غُصنًا يابسًا فهزَّه حتى تحات ورقه، ثم قال: يا أبا عثمان، ألا تسألني لمَ أفعل هذا؟ قلت: ولم تفعله؟، فقال: هكذا فعل رسول الله ﷺ وأنا معه تحت شجرة، فأخذ منها غُصنًا يابسًا، فهزَّه، حتى تحات ورقه، فقال: «ياسلمان ألا تسألني لمَ أفعل هذا؟»، قلت: ولمَ تفعله؟، قال: «إن المسلم إذا توضَّأ فأحسن الوضوء، ثم صلَّى الصلوات الخمس؛ تحاتت خطاياه، كما يتحات هذا الورق، وقال: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيۡلِۚ إِنَّ ٱلۡحَسَنَٰتِ يُذۡهِبۡنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ ذَٰلِكَ ذِكۡرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ﴾ (هود: ١١٤)». (أخرجه أحمد ٢٣١٩٥).

٣- الخط في الأرض:

واستخدم ﷺ الخط في الأرض، فعن ابن عباس رضي الله عنهما، قال: خطَّ رسول الله ﷺ في الأرض أربعة خطوط، قال: «تدرون ما هذا؟»، فقالوا: الله ورسوله أعلم، فقال رسول الله ﷺ: «أفضل نساء أهل الجنة: خديجة بنت خويلد، وفاطمة بنت محمد، وآسية بنت مُزاحم- امرأة فرعون-، ومريم ابنة عمران رضي الله عنهن أجمعين». (أخرجه أحمد ٢٦٦٨).

ودور الخط هنا لفت انتباه الحاضرين، وتركيزهم على العدد الذي يتضمنه هذا الحديث.

٤- الإشارة بالأصابع:

وكثيرًا ما كان ﷺ يستخدم الإشارة بإصبعه في تعليمه لأصحابه، وتنوعت إشارته ﷺ، ومن صور ذلك ما يلي:

أ- التقريب والتوضيح:

يُشير ﷺ بأصابعه؛ ليقرِّب المفهوم ويوضحه، ومن أمثلة ذلك ما يلي:

عن أنس بن مالك ﷺ، قال: قال رسول الله ﷺ: «مَن عال جاريتين حتى تبلغا؛ جاء يوم القيامة أنا وهو، وضمَّ أصابعه». (أخرجه مسلم ٢٦٣١).

كما استخدم ﷺ الإشارة نفسها في بيان فضل رعاية اليتيم، عن سهل بن سعد ﷺ، عن النبي ﷺ قال: «أنا وكافل اليتيم في الجنة هكذا»، وقال بإصبعيه: السبابة، والوسطى. (أخرجه البخاري ٦٠٠٥).

وعن أبي هريرة ﷺ، قال: قال رسول الله ﷺ: «كافل اليتيم له- أو لغيره-، أنا وهو كهاتين في الجنة»، وأشار مالك بالسبابة، والوسطى. (أخرجه مسلم ٢٦٨٣).

وقَرَن ﷺ بين أصبعيه الشريفتين؛ موضحًا منزلة الدنيا من الآخرة، عن المستورد ﷺ، قال: قال رسول الله ﷺ: «والله ما الدنيا في الآخرة إلا مثل ما يجعل أحدكم إصبعه هذه- وأشار يحيى بالسبابة- في اليَمِّ، فلينظر بم ترجع؟». (أخرجه مسلم ٢٨٥٨).

وقَرَن بينهما ﷺ مبينًا وقت الفجر، عن عبد الله بن مسعود ﷺ، عن النبي ﷺ قال: «لا يمنعن أحدكم- أو أحدًا منكم- أذان بلال من سحوره، فإنه يُؤذن- أو ينادي بليل-؛

ليرجع قائمكم، ولينبِّهَ نائمكم، وليس أن يقول: الفجر- أو الصبح-»، وقال بأصابعه، ورفعها إلى فوق، وطأطأ إلى أسفل حتى يقول هكذا، وقال زهير: «بسبَّابَتَيْهِ إحداهما فوق الأخرى، ثم مدَّها عن يمينه وشماله». (أخرجه البخاري ٦٢١، ومسلم ١٠٩٣).

واستخدمها ﷺ؛ لبيان علاقة بعثه بالساعة، عن سهل بن سعد ﷺ، قال: رأيت رسول الله ﷺ قال بإصبعيه هكذا: بالوسطى، والتي تلي الإبهام: «بُعثت والساعة كهاتين». (أخرجه البخاري ٤٩٣٦، ومسلم ٨٦٧).

ويستخدمها ﷺ لوصف حال سَدِّ يأجوج ومأجوج، عن زينب بنت جحش ﷺ، أن النبي ﷺ دخل عليها فزعًا يقول: «لا إله إلا الله، ويل للعرب من شرٍّ قد اقترب، فُتح اليوم من ردم يأجوج ومأجوج مثل هذه»، وحلَّق بإصبعه الإبهام والتي تليها، قالت زينب بنت جحش: فقلت: يا رسول الله: أنهلك، وفينا الصالحون؟ قال: «نعم إذا كثر الخبث». (أخرجه البخاري ٣٣٤٦، ومسلم ٢٨٨٠).

ويبين جابر ﷺ أن هذا الأمر كان يتكرَّر منه ﷺ، عن جابر بن عبد الله ﷺ، قال: كان رسول الله ﷺ إذا خطب احمرَّت عيناه، وعلا صوته، واشتدَّ غضبه، حتى كأنه منذر جيشًا يقول: «صَبَّحكم ومساكم»، ويقول: «بُعثت أنا والساعة كهاتين»، ويقْرِن بين إصبعيه: السبابة، والوسطى، ويقول: «أمَّا بعد، فإن خير الحديث: كتاب الله، وخير الهَدي: هدي محمد، وشر الأمور محدثاتها، وكل بدعة ضلالة»، ثم يقول: «أنا أَوْلى بكل مؤمن من نفسه، مَن ترك مالًا فلأهله، ومَن ترك دَيْنًا أو ضياعًا فإليَّ، وعليَّ». (أخرجه مسلم ٨٦٧).

ويُنكر أصحاب النبي ﷺ على مَن خالف سُنَّته في ذلك مبينين أنه كان يشير بسبَّاحته الشريفة، عن عمارة بن رؤيبة ﷺ، قال: رأى بشر بن مروان على المنبر رافعًا يديه، فقال: «قبَّح الله هاتين اليدين، لقد رأيت رسول الله ﷺ ما يزيد على أن يقول بيده هكذا، وأشار بإصبعه المُسَبِّحَة». (أخرجه مسلم ٨٧٤).

وقد يستخدمها ﷺ لبيان قدر الشيء، فعن أبي هريرة ﷺ، أن رسول الله ﷺ ذكر يوم الجمعة، فقال: «فيه ساعة، لا يُوافقها عبدٌ مسلم، وهو قائم يصلي، يسأل الله تعالى شيئًا، إلا أعطاه إياه»، وأشار بيده يُقللها. (أخرجه البخاري ٩٣٥، ومسلم ٨٥٢).

ب- تعين ما يريد الحدث عنه:

وتارة يستخدمها ﷺ لتعيين ما يريد الحديث عنه، عن أبي سلمة بن عبد الرحمن، قال: مرَّ بي عبد الرحمن بن أبي سعيد الخدري، قال: قلت له: كيف سمعت أباك يذكر في المسجد الذي أُسِّس على التقوى؟ قال: قال أبي: دخلت على رسول الله ﷺ في بيت بعض نسائه، فقلت: يا رسول الله، أي المسجدين الذي أُسِّس على التقوى؟ قال: فأخذ كفًّا من حصباء، فضرب به الأرض، ثم قال: «هو مسجدكم هذا» لمسجد المدينة. (أخرجه مسلم ١٣٩٨).

ج- تعيين الجهة:

وتارة يستخدمها ﷺ لتعيين جهة بالإشارة إليها، عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول- وهو على المنبر-: «ألا إن الفتنة ها هنا»، يُشير إلى المشرق، «من حيث يطلع قرن الشيطان». (أخرجه البخاري ٣٥١١، ومسلم ٢٩٠٥).

وأشار بها إلى اليمن واصفًا أهلها بالحكمة، عن أبي مسعود ﷺ، أن النبي ﷺ قال: «الإيمان ها هنا، وأشار بيده إلى اليمن، والجفاء وغلظ القلوب في الفَدَّادِين عند أصول أذناب الإبل، من حيث يطلع قرنا الشيطان: ربيعة، ومُضَر». (أخرجه البخاري ٤٣٨٧، ومسلم ٥١).

وعن همام بن منبه، قال: قدمت المدينة، فرأيت حلقة عند منبر النبي ﷺ، فسألت، فقيل لي: أبو هريرة، قال: فسلَّمت، فقال لي: مِمَّنْ أنت؟ قلت: من أهل اليمن، فقال: سمعت حِبِّي، أو قال: سمعت أبا القاسم ﷺ يقول: «الإيمان يمانٍ، والحكمة يمانية، هم

أرقُّ قلوبًا، والجفاء في الفَدَّادِين، أصحاب الوبر»، وأشار بيده نحو المشرق. (أخرجه أحمد ٧٥٠٥).

وأشار ﷺ بيده إلى موطن الخوارج، عن يسير بن عمرو، قال: سألت سهل بن حنيف، هل سمعتَ النبي ﷺ يذكر الخوارج، فقال: سمعته، وأشار بيده نحو المشرق: «قوم يقرؤون القرآن بألسنتهم لا يعدو تراقيهم، يمرقون من الدين، كما يمرق السهم من الرمية». (أخرجه مسلم ١٠٦٨).

وأشار بها ﷺ إلى أرض المحشر، عن حكيم بن معاوية البهزي، عن أبيه ﷺ أنه قال للنبي ﷺ: إني حلفت هكذا، ونشر أصابع يديه حتى تخبرني ما الذي بعثك الله به؟ قال: «بعثني الله بالإسلام»، قال: وما الإسلام؟ قال: «شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا عبده ورسوله، وتُقيم الصلاة، وتُؤتي الزكاة، أخوان نصيران لا يقبل الله من أحد توبة أشرك بعد إسلامه»، قال: قلت: يا رسول الله، ما حق زوج أحدنا عليه؟ قال: «تطعمها إذا أكلت، وتكسوها إذا اكتسيت، ولا تضرب الوجه ولا تقبِّح، ولا تهجر إلا في البيت»، ثم قال: «ها هنا تُحشرون، ها هنا تُحشرون، ها هنا تُحشرون، ثلاثًا، ركبانًا ومشاة، وعلى وجوهكم، توفون يوم القيامة سبعين أُمَّة، أنتم آخر الأمم، وأكرمها على الله، تأتون يوم القيامة، وعلى أفواهكم الفِدَامُ، أول ما يُعْرِبُ عن أحدكم فَخِذُه»، قال ابن بكير: فأشار بيده إلى الشام فقال: إلى ها هنا تحشرون. (أخرجه أحمد ٢٠٠١١).

ويُشير ﷺ بيده الشريفة إلى جهة المشرق؛ لبيان وقت إفطار الصائم، عن عبدالله بن أبي أوفى ﷺ، قال: سِرْنا مع رسول الله ﷺ، وهو صائم، فلما غربت الشمس، قال: «انزل فاجدح لنا»، قال: يا رسول الله لو أمسيت؟ قال: «انزل فاجدح لنا»، قال: يا رسول الله، إن عليك نهارًا، قال: «انزل فاجدح لنا»، فنزل فجدح، ثم قال: «إذا رأيتم الليل أقبل من ها هنا، فقد أفطر الصائم»، وأشار بإصبعه قِبَلَ المشرق. (أخرجه البخاري ١٩٥٦، مسلم ١١٠١).

ويُشير ﷺ ليبين للناس منازلهم، عن عبد الرحمن بن معاذ، عن رجل من أصحاب النبي ﷺ قال: خطب النبي ﷺ الناس بمنًى، ونزلهم منازلهم، فقال: «لينزل المهاجرون ها هنا»، وأشار إلى ميمنة القِبلة، «والأنصار ها هنا»، وأشار إلى ميسرة القِبلة، «ثم لينزل الناس حولهم». (أخرجه أبو داود ١٩٥١، وأحمد ١٦٥٨٨).

د- الإشارة لأصحابه:

وتارة يشير بها ﷺ لبعض أصحابه مُعرِّفًا بفضائلهم، عن حذيفة ﷺ، قال: كُنَّا جلوسًا عند النبي ﷺ فقال: «إني لست أدري ما قَدْرُ بقائي فيكم، فاقتدوا باللَّذَيْنِ من بعدي، وأشار إلى أبي بكر وعمر، قال: وما حدَّثكم ابن مسعود، فصدِّقوه». (أخرجه أحمد ٢٣٤١٩، والترمذي ٣٦٦٣، وابن ماجه ٩٧).

هـ- الإشارة لمواطن من جسده الشريف:

ويُشير بها ﷺ إلى مواطنَ مِن جسده الشريف مُكرِّرًا ذلك؛ ليُقرِّب لهم الصورة، عن أبي هريرة ﷺ، قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تحاسدوا، ولا تناجشوا، ولا تباغضوا، ولا تدابروا، ولا يَبِعْ بعضكم على بيع بعض، وكونوا عباد الله إخوانًا، المسلم أخو المسلم، لا يظلمه، ولا يخذله، ولا يَحْقِره، التقوى ها هنا»، ويُشير إلى صدره ثلاث مرات، «بحسب امرئ من الشرِّ أن يحقر أخاه المسلم، كل المسلم على المسلم حرام، دمه، وماله، وعرضه». (أخرجه مسلم ٢٥٦٤).

ومن ذلك- أيضًا- ما رواه المقداد بن الأسود ﷺ، قال: سمعت رسول الله ﷺ، يقول: «تُدْنَى الشمس يوم القيامة من الخلق، حتى تكون منهم كمقدار ميل»، قال سليم بن عامر: فوالله ما أدري ما يعني بالميل؟ أمسافة الأرض، أم الميل الذي تكتحل به العين، قال: «فيكون الناس على قدر أعمالهم في العرق، فمنهم من يكون إلى كعبيه، ومنهم من

يكون إلى ركبتيه، ومنهم من يكون إلى حقويه، ومنهم من يلجمه العرق إلجامًا»، قال: وأشار رسول الله ﷺ بيده إلى فيه. (أخرجه مسلم ٢٨٦٤).

وأشار ﷺ إلى لسانه الشريف محذرًا أحدَ أصحابه من زلَّاتِ اللسان، عن عبد الله بن سفيان، عن أبيه، قال: يا رسول الله، أخبرني بأمرٍ في الإسلام لا أسأل عنه أحدًا بعدك، قال: «قل: آمنت بالله، ثم استقم»، قال: يا رسول الله فأي شيء أتَّقِي؟ قال: فأشار بيده إلى لسانه. (أخرجه أحمد ١٥٤١٧).

وفعل ذلك ﷺ، وهو يُوصي معاذًا رضي الله عنه وصيته الجامعة، عن معاذ بن جبل رضي الله عنه، قال: كنت مع النبي ﷺ في سفر، فأصبحت يومًا قريبًا منه- ونحن نسير-، فقلت: يا نبي الله، أخبرني بعمل يُدخلني الجنة، ويُباعدني من النار، قال: «لقد سألت عن عظيم، وإنه ليسير على مَن يسَّره الله عليه، تعبد الله، ولا تشرك به شيئًا، وتُقيم الصلاة، وتُؤتي الزكاة، وتصوم رمضان، وتحج البيت»، ثم قال: «ألا أدلك على أبواب الخير؟ الصوم جُنَّة، والصدقة تُطفئ الخطيئة، وصلاة الرجل في جوف الليل»، ثم قرأ: ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ﴾ (السجدة: ١٦)، حتى بلغ ﴿يَعْمَلُونَ﴾ (السجدة: ١٧)، ثم قال: «ألا أخبرك برأس الأمر، وعموده، وذروة سنامه؟»، فقلت: بلى يا رسول الله، قال: «رأس الأمر: الإسلام، وعموده: الصلاة، وذروة سنامه: الجهاد»، ثم قال: «ألا أخبرك بملاك ذلك كله؟»، فقلت له: بلى يا نبي الله، فأخذ بلسانه، فقال: «كُفَّ عليك هذا»، فقلت: يا رسول الله، وإنا لمُؤاخذون بما نتكلَّم به؟ فقال: «ثكلَتْك أُمُّك يا معاذ، وهل يكبُّ الناسَ في النار على وجوههم- أو قال: على مناخرهم- إلا حصائدُ ألسنتهم؟». (أخرجه أحمد ٢٢٠١٦، والترمذي ٢٦١٦، وابن ماجه ٣٩٧٣).

وأشار ﷺ إلى لسانه الشريف مُحذِّرًا من القول المُنكر عند حلول المصيبة، عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما، قال: اشتكى سعد بن عُبادة شكوى له، فأتاه النبي ﷺ يَعُودُه مع عبد الرحمن

بن عوف، وسعد بن أبي وقاص، وعبد الله بن مسعود ﷺ، فلما دخل عليه، فوجده في غاشية أهله، فقال: «قد قضى»، قالوا: لا يا رسول الله، فبكى النبي ﷺ، فلما رأى القومُ بكاءَ النبي ﷺ بكَوْا، فقال: «ألا تسمعون: إن الله لا يُعذب بدمع العين، ولا بحُزن القلب، ولكن يُعذب بهذا- وأشار إلى لسانه- أو يرحم، وإن الميت يُعذَّب ببكاء أهله عليه»، وكان عمر ﷺ يضرب فيه بالعصا، ويرمي بالحجارة، ويحثي بالتراب. (أخرجه البخاري ١٣٠٤، ومسلم ٩٢٤).

ويُشير ﷺ إلى عينه الشريفة، وهو يصف لهم الدجال، عن نافع، عن عبد الله ﷺ، قال: ذُكِر الدجال عند النبي ﷺ، فقال: «إن الله لا يخفى عليكم، إن الله ليس بأعور- وأشار بيده إلى عينه-، وإن المسيح الدجال أعور العين اليُمنى، كأن عينه عِنَبة طافية». (أخرجه البخاري ٧٤٠٧).

ويُشير ﷺ إلى عاتقه الشريف؛ حاثًّا لهم على سقاية الحاج، عن ابن عباس ﷺ، أن رسول الله ﷺ جاء إلى السقاية فاسْتَسْقى، فقال العباس: يا فضل، اذهب إلى أُمِّك فَأْتِ رسولَ الله ﷺ بشراب من عندها، فقال: «اسقني»، قال: يا رسول الله، إنهم يجعلون أيديهم فيه، قال: «اسقني»، فشرب منه، ثم أتى زمزم، وهم يسقون، ويعملون فيها، فقال: «اعملوا؛ فإنكم على عمل صالح»، ثم قال: «لولا أن تغلبوا لنزلت، حتى أضع الحبل على هذه» يعني: عاتقه، وأشار إلى عاتقه. (أخرجه البخاري ١٦٣٥).

ويشير ﷺ إلى فيه مبينًا صدق ما يقوله في كل أحواله، عن عبد الله بن عمرو ﷺ، قال: كنت أكتب كل شيء أسمعه من رسول الله ﷺ أريد حفظه، فنهتني قريش، وقالوا: أتكتب كل شيء تسمعه، ورسول الله ﷺ بشرٌ يتكلم في الغضب والرضا؟ فأمسكت عن الكتاب، فذكرت ذلك لرسول الله ﷺ، فأَوْمَأَ بأصبعه إلى فِيهِ، فقال: «اكتب، فوالذي نفسي بيده ما يخرج منه إلا حق». (أخرجه أبو داود ٣٦٤٦).

ويُشير ﷺ بها إلى حلقه، وهو يصف حال الخوارج، عن عُبيد الله بن أبي رافع مولى رسول الله ﷺ، أن الحَرُورِيَّة لما خرجت، وهو مع علي بن أبي طالب ﵁، قالوا: لا حكم إلا لله، قال عليٌّ: كلمةُ حقٍّ أُريد بها باطلٌ، إن رسول الله ﷺ وصف ناسًا، إني لأعرف صفتهم في هؤلاء، «يقولون الحق بألسنتهم، لا يجوز هذا، منهم- وأشار إلى حلقه- مِن أبغض خلق الله إليه منهم أسودُ، إحدى يديه طُبْيُ شاةٍ، أو حَلَمَةُ ثدي»، فلما قتلهم علي بن أبي طالب ﵁، قال: انظروا، فنظروا، فلم يجدوا شيئًا، فقال: ارجعوا، فوالله ما كَذبت، ولا كُذبت، مرتين أو ثلاثًا، ثم وجدوه في خَرِبَةٍ، فأَتَوْا به حتى وضعوه بين يديه، قال عُبيد الله: وأنا حاضر ذلك من أمرهم، وقول عليٍّ فيهم. (أخرجه مسلم ١٠٦٦).

ويُشير بها ﷺ إلى نفسه في حديثه عن الأنصار، فعن أبي قتادة ﵁، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول- على المنبر للأنصار-: «ألا إن الناس دِثَارِي، والأنصار شِعَارِي، لو سلك الناس واديًا وسلكت الأنصار شِعبة؛ لاتبعت شِعبة الأنصار، ولولا الهجرة لكنت رجلًا من الأنصار، فمن وَلِيَ من الأنصار فلْيُحسن إلى مُحسنهم، ولْيَتَجاوز عن مُسيئهم، ومن أفزعهم، فقد أفزع هذا الذي بين هاتين»، وأشار إلى نفسه ﷺ. (أخرجه أحمد ٢٢٦١٥).

و - الاكتفاء بالإشارة بديلًا عن الكلام:

وتارة يستخدمها ﷺ لتوضيح ما يُريد، فيكتفي بها بديلًا عن الكلام، عن عبد الله بن كعب بن مالك، أن كعب بن مالك أخبره أنه تقاضى ابن أبي حدرد دينًا له عليه في عهد رسول الله ﷺ في المسجد، فارتفعت أصواتهما، حتى سمعها رسول الله ﷺ، وهو في بيته، فخرج إليهما رسول الله ﷺ حتى كشف سجف حجرته، ونادى: يا كعب بن مالك، قال: لبيك يا رسول الله، فأشار بيده أن ضَعِ الشَّطر من دَيْنك، قال كعب: قد فعلت يا رسول الله، قال رسول الله ﷺ: «قم، فَاقْضِه». (أخرجه البخاري ٤٧١، ومسلم ١٥٥٨).

وآخِر ما رأى أصحابه: يده الشريفة حين أشار لهم ﷺ بها ليُتِمُّوا صلاتهم، عن أنس بن مالك ﷺ، أن أبا بكر ﷺ كان يُصلِّي لهم في وجع النبي ﷺ الذي تُوفِّي فيه، حتى إذا كان يوم الاثنين- وهم صفوف في الصلاة-، فكشف النبي ﷺ ستر الحجرة ينظر إلينا- وهو قائم- كأن وجهه ورقة مصحف، ثم تبسَّم يضحك، فهممنا أن نفتتن من الفرح برؤية النبي ﷺ، فنكص أبو بكر على عقبيه ليَصِلَ الصَّفَّ، وظن أن النبي ﷺ خارج إلى الصلاة، «فأشار إلينا النبي ﷺ أن أتِمُّوا صلاتكم، وأرخى الستر، فتوفي من يومه». (البخاري ٦٨٠، ومسلم ٤١٩).

وعن أبي هريرة ﷺ، عن النبي ﷺ قال: «يُقبض العلم، ويظهر الجهل والفتن، ويكثر الهَرْج»، قيل: يا رسول الله، وما الهرج؟ فقال: «هكذا بيده فحرفها، كأنه يريد القتل». (أخرجه البخاري ٨٥).

ي- بيان كيفية العبادة:

وتارة يستخدمها ﷺ لبيان كيفية العبادة، عن جبير بن مطعم ﷺ، قال: قال رسول الله ﷺ: «أمَّا أنا فأفيض على رأسي ثلاثًا، وأشار بيديه كلتيهما». (أخرجه البخاري ٢٥٤، ومسلم ٣٢٧، دون موضع الشاهد).

وأشار ﷺ إلى مواضع السجود، فعن ابن عباس ﷺ، قال: قال النبي ﷺ: «أُمِرت أن أسجد على سبعة أعظم: على الجبهة- وأشار بيده على أنفه-، واليدين، والركبتين، وأطراف القدمين، ولا نكفت الثياب والشعر». (أخرجه البخاري ٨١٢، ومسلم ٤٩٠).

وفي حديث جابر ﷺ... فقام رسول الله ﷺ ليُصلِّي، وكانت عليَّ بردة، ذهبت أن أخالف بين طرفيها فلم تبلغ لي، وكانت لها ذباذب فنكستها، ثم خالفت بين طرفيها، ثم تواقصت عليها، ثم جئت حتى قمت عن يسار رسول الله ﷺ، فأخذ بيدي، فأدارني حتى

أقامني عن يمينه، ثم جاء جبار بن صخر، فتوضأ، ثم جاء فقام عن يسار رسول الله ﷺ، فأخذ رسول الله ﷺ بيدينا جميعًا، فدفعنا حتى أقامنا خلفه، فجعل رسول الله ﷺ يرمقني وأنا لا أشعر، ثم فطنت به، فقال: هكذا، بيده- يعني: شد وسطك-، فلما فرغ رسول الله ﷺ، قال: «يا جابر»، قلت: لبيك، يا رسول الله، قال: «إذا كان واسعًا فخالف بين طرفيه، وإذا كان ضيِّقًا فاشدده على حِقْوِك». (أخرجه مسلم ٣٠١٠).

ويستخدمها ﷺ ليُبيِّن لهم كيفية أفعال الصلاة، عن جابر بن سمرة ﷺ، قال: كنا إذا صلَّيْنا خلف رسول الله ﷺ أشار أحدنا إلى أخيه من عن يمينه، ومن عن شماله، فلما صلَّى رسول الله ﷺ قال: «ما بال أحدكم يفعل هذا كأنها أذناب خيلٍ شُمْس، إنما يكفي أحدكم أن يقول هكذا، ووضع يمينه على فخذه، وأشار بأصبعه، ثم يُسلِّم على أخيه من عن يمينه، ومن عن شماله». (أخرجه أحمد ٢١٠٢٨، وأخرجه مسلم ٤٣٠، دون موضع الشاهد).

واستخدم ﷺ الإشارة بسبابته الشريفة؛ ليعلِّم أحد أصحابه الدعاء، عن سعد بن أبي وقاص، قال: مرَّ عليَّ النبي ﷺ- وأنا أدعو بأصبعي-، فقال: «أحد أحد»، وأشار بالسبابة. (أخرجه أبو داود ١٤٩٩، والنسائي ١٢٧٣).

ويصف ﷺ بيديه ما لا يحل من الشراب، عن أبي هريرة ﷺ، قال: نهى رسول الله ﷺ وفدَ عبدِ القيس حين قَدِمُوا عليه، عن الدُّبَّاء، وعن النَّقير، وعن المُزَفَّت، والمزادة المجبوبة، وقال: «انتبذ في سِقائك أَوْكِه، واشربه حلوًا»، قال بعضهم: ائذن لي يا رسول الله في مثل هذا، قال: «إذًا تجعلها مثل هذه» وأشار بيده يصف ذلك. (أخرجه النسائي ٥٦٤٦).

وأخرجه أحمد (١٠٣٧٣) بلفظ: فقال رجل: يا رسول الله ائذن لي في مثل هذه، قال: «إذن تجعلها مثل هذه؟»، قال يزيد: وفتح هشام يده قليلًا فقال: إذن تجعلها مثل هذه، وفتح يده شيئًا أرفع من ذلك.

ويُومئ ﷺ بيده، وهو يفتي أحد أصحابه، فعن ابن عباس رضي الله عنهما، أن النبي ﷺ سُئِلَ في حجته، فقال: ذبحت قبل أن أرمي؟ فأَوْمَأَ بيده، قال: «ولا حرج»، قال: حلقت قبل أن أذبح؟ فأومأ بيده: «ولا حرج». (أخرجه البخاري ٨٤).

واستخدم ﷺ العدَّ لبيان ما لا يُجزِيء في الأضحية، فعن عبيد بن فيروز، قال: قلت للبراء بن عازب ﷺ: حدثني ما كَرِه، أو نهى عنه رسول الله ﷺ من الأضاحي، قال: فإن رسول الله ﷺ قال هكذا بيده، ويدي أقصر من يد رسول الله ﷺ: «أربعة لا يجزين في الأضاحي: العوراء البَيِّن عورها، والمريضة البيِّن مرضها، والعرجاء البيِّن ظلعها، والكسيرة التي لا تنقي»، قال: فإني أكره أن يكون نقص في القرن، والأذن، قال: فما كرهت منه فدعه، ولا تُحرِّمه على أحد. (أخرجه النسائي ٤٣٧٠، وأحمد ١٨٥١٠، وأبو داود ٢٨٠٢، وابن ماجه ٣١٤٤).

وحين سأله سلمة بن الأكوع ﷺ عما يقوله الناس في أخيه، وأنه قتل نفسه، بيَّن أن له الأجر مرتين، وأشار بأصبعيه، فقال: «كذبوا، مات جاهدًا مجاهدًا؛ فله أجره مرتين»، وأشار بإصبعيه. (أخرجه مسلم ١٨٠٢).

٥- الرسم:

وحين يتَّصف المفهوم بتعقيد أكثر يستخدم ﷺ الرسم لتوضيحه، عن عبد الله ﷺ، قال: خط النبي ﷺ خطًّا مربعًا، وخطَّ خطًّا في الوسط خارجًا منه، وخط خططًا صغارًا إلى هذا الذي في الوسط من جانبه الذي في الوسط، وقال: «هذا الإنسان، وهذا أجله محيط به، أو قد أحاط به، وهذا الذي هو خارج: أمله، وهذه الخطط الصغار: الأعراض، فإن أخطأه هذا نهشه هذا، وإن أخطأه هذا نهشه هذا. (أخرجه البخاري ٦٤١٧).

فهو هنا ﷺ يريد بيان علاقة الإنسان بمتغيرات ثلاث: الأجل، والأمل، والأعراض.

واستخدم ﷺ الرسم؛ ليُوضح العلاقة بين الصراط المستقيم، والسبل الضالة، عن جابر بن عبد الله ﷺ، قال: كنا عند النبي ﷺ، فخطَّ خطًّا، وخطَّ خطَّيْن عن يمينه، وخطَّ خطَّيْن عن يساره، ثم وضع يده في الخط الأوسط، فقال: «هذا سبيل الله»، ثم تلا هذه الآية ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسۡتَقِيمٗا فَٱتَّبِعُوهُۖ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمۡ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ (الأنعام: ١٥٣). (أخرجه أحمد ١٥٢٧٧، وابن ماجه ١١، واللفظ لابن ماجه).

٦- استخدام الأعواد:

واستخدم ﷺ الأعواد لتصوير العلاقة بين المفاهيم، عن أبي سعيد الخدري ﷺ، أن النبي ﷺ غرز بين يديه غرزًا، ثم غرز إلى جنبه آخر، ثم غرز الثالث فأبعده، ثم قال: «هل تدرون ما هذا؟»، قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: «هذا الإنسان، وهذا أجله، وهذا أمله، يتعاطى الأمل يختلجه دون ذلك». (أخرجه أحمد ١٠٧٤٨).

٧- العَدُّ باليد والأصابع:

واستخدم ﷺ يده وأصابعه لبيان العدد، عن ابن عمر ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «الشهر كذا، وكذا، وكذا»، وصفق بيديه مرتين بكل أصابعهما، ونقص في الصفقة الثالثة إبهام اليُمنى أو اليُسرى. (أخرجه مسلم ١٠٨٠، والبخاري مختصرًا ١٩٠٨).

وعن سعد بن أبي وقاص ﷺ قال: ضرب رسول الله ﷺ بيده على الأخرى، فقال: «الشهر هكذا وهكذا، ثم نقص في الثالثة إصبعًا». (رواه مسلم ١٠٨٦).

ويُؤكد ﷺ المعنى بالعدِّ بإصابعه الشريفة، فاستخدام ذلك في حديثه عن الصلوات الخمس، عن أبي مسعود ﷺ، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «نزل جبريل فأمَّني، فصلَّيْت معه، ثم صلَّيْت معه، ثم صلَّيْت معه، ثم صلَّيْت معه، ثم صلَّيْت معه»، يحسب بأصابعه خمس صلوات. (أخرجه البخاري ٣٢٢١، ومسلم ٦١٠).

عن أبي سعيد الخدري ﷺ، عن النبي ﷺ قال: «ليس فيما دون خمسة أَوْسُقٍ صدقة، ولا فيما دون خَمْسِ ذَوْدٍ صدقة، ولا فيما دون خمس أواقٍ صدقة»، وفي رواية: سمعت رسول الله ﷺ يقول، وأشار النبي ﷺ بكَفِّه بخمس أصابعه. (أخرجه مسلم ٩٧٩).

وربما استخدم ﷺ يدَ المتعلم لذلك، عن أبي هريرة ﷺ، قال: قال رسول الله ﷺ: «مَن يأخذ منِّي خمسَ خِصال فيعملَ بهنَّ، أو يُعلِّمهن مَن يعمل بهن؟»، قال: قلت: أنا يا رسول الله، قال: فأخذ بيدي فعدَّهُنَّ فيها، ثم قال: «اتَّقِ المحارمَ؛ تكن أعبدَ الناس، وارْضَ بما قسم الله لك؛ تكن أغنى الناس، وأحْسِنْ إلى جارك؛ تكن مؤمنًا، وأَحِبَّ للناس ما تُحب لنفسك؛ تكن مسلمًا، ولا تُكثر الضَّحِك؛ فإن كثرة الضَّحِك تُميت القلب». (أخرجه أحمد ٨٠٤٣، والترمذي ٢٣٠٥).

٨- التشبيه والتمثيل:

ومما استخدمه ﷺ من الوسائل: التشبيه والتمثيل بأشياء محسوسة ومادية، عن بسر بن جحاش القرشي، قال: بزق النبي ﷺ في كفه، ثم وضع أصبعه- السبابة-، وقال: «يقول الله عز وجل: أنى تُعجزني ابن آدم؟ وقد خلقتك من مثل هذه، فإذا بلغت نفسك هذه- وأشار إلى حلقه- قلت: أَتَصَدَّقُ، وأَنَّى أوان الصدقة؟». (أخرجه ابن ماجه ٢٧٠٧، وأحمد ١٧٨٤٢).

وقد يحكي ﷺ الفعل ويُصوره، وهو يقص القصة، عن أبي هريرة ﷺ، عن النبي ﷺ قال: «لم يتكلم في المهد إلا ثلاثة: عيسى، وكان في بني إسرائيل رجل يُقال له: جريج، كان يُصلِّي، جاءته أمه فدعته، فقال: أجيبها، أو أصلي؟ فقالت: اللهم لا تُمِتْهُ حتى تريه وجوهَ المُومسات، وكان جريج في صومعته، فتعرَّضت له امرأة، وكلمته، فأَبَى، فأتت راعيًا فأمكنته من نفسها، فولدت غلامًا، فقالت: مِن جريج، فأَتَوْه، فكسروا صومعته، وأنزلوه، وسبُّوه، فتوضأ وصلَّى، ثم أتى الغلام، فقال: مَن أبوك يا غلام؟ قال: الراعي،

قالوا: نبني صومعتك من ذهب؟ قال: لا، إلا من طين، وكانت امرأة تُرضع ابنًا لها من بني إسرائيل، فمرَّ بها رجل راكب ذو شارة، فقالت: اللهم اجعل ابني مثله، فترك ثديها، وأقبل على الراكب، فقال: اللهم لا تجعلني مثله، ثم أقبل على ثديها يمُصُّه- قال أبو هريرة: كأني أنظر إلى النبي ﷺ يمص إصبعه-، ثم مرَّ بأَمَةٍ، فقالت: اللهم لا تجعل ابني مثل هذه، فترك ثديها، فقال: اللهم اجعلني مثلها، فقالت: لم ذاك؟ فقال: الراكب جبار من الجبابرة، وهذه الأَمَةُ يقولون: سرقت، زنيت، ولم تفعل». (أخرجه البخاري ٣٤٣٦، ومسلم ٢٥٥٠).

وعن عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جده، أن رسول الله ﷺ أتى بعيرًا، فأخذ من سنامه وَبَرَةً بين إصبعيه، ثم قال: «إنه ليس لي من الفيء شيء، ولا هذه إلا الخُمس، والخُمس مردود فيكم». (أخرجه النسائي ٤١٣٩، وأبو داود ٢٦٩٤، وأحمد ٦٧٢٩).

العلاقة بالمتعلم

تُمثل العلاقة بالمتعلم عنصرًا مُهمًّا من عناصر الموقف التعليمي؛ فالتعليم عملية إنسانية تواصلية، وليس مجرد آلة لنقل معارف من مُلقٍ إلى مُستمعٍ.

وقد اعتنى أهل العلم في التأكيد على مَن يتصدَّى للتعليم أن يُحسن تعامله مع طلابه، وقلَّ مَن دوَّن في أدب العالم والمتعلم، إلا وعقد فصلًا أو بابًا في تعامل الشيخ مع تلامذته.

وفي (الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع): باب إكرامه الغرباء من الطلبة وتقريبهم، استقباله لهم بالترحيب، تواضعه لهم، تحسين خلقه معهم، الرفق بمَن جفا طبعه منهم، ويروي في الباب الأخير عن أبي عثمان الوراق، قال: اجتمع أصحاب الحديث عند وكيع، قال: وعليه ثوب أبيض، فانقلبت المحبرة على ثوبه، فسكت مليًّا، ثم قال: ما أحسن السواد في البياض.

وعن سفيان بن وكيع، قال: قال أبي: مَن أراد أن يحدث فليصبر، وإلا فليسكت. (الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع ١/ ٣٥٥).

وفي الأدب الرابع للمُعلم عند ابن جماعة: «أن يُحبَّ لطالبه ما يحب لنفسه- كما جاء في الحديث- ويكره له ما يكره لنفسه، قال ابن عباس: أكرم الناس عليَّ: جليسي الذي يتخطَّى رقاب الناس إليَّ، لو استطعت أن لا يقع الذباب عليه لفعلت، وفي رواية: إن الذباب ليقع عليه فيؤذيني». (تذكرة السامع والمتكلم ٤٩).

ويُؤكد ابن جماعة: على المعلم حسن المعاملة في موضع آخر، فيقول: «وكذلك ينبغي أن يترحب بالطلبة إذا جلسوا إليه، ويُؤنسهم بسؤالهم عن أحوالهم، وأحوال مَن يتعلَّق بهم بعد درسهم، وليعاملهم بطلاقة الوجه، وظهور البشر، وحسن المودة، وإعلام المحبة، وإضمار الشفقة». (تذكرة السامع والمتكلم ٦٥).

وقال النووي: «وينبغي له أن يحنوَ عليه، ويعتني بمصالح نفسه وولده، ويجريه مجرى ولده في الشفقة عليه، والاهتمام بمصالحه». (المجموع شرح المهذب ١/ ٣١).

العناية بالمتعلم:

كان ﷺ يُعنى بالمتعلم، ويوليه اهتمامه، ومن صور اهتمامه بالمتعلم ما يلي:

١- مساعدته فيما يعينه على التعلم:

فحين كان يخطب ﷺ، وسأله رجل أن يكتب له؛ أمر ﷺ أصحابه بذلك، عن أبي هريرة ﷺ، قال: لما فتح الله على رسوله ﷺ مكة، قام في الناس، فحمد الله، وأثنى عليه، ثم قال: «إن الله حبس عن مكة الفيل، وسلَّط عليها رسوله والمؤمنين، فإنها لا تحل لأحد كان قبلي، وإنها أُحلَّت لي ساعة من نهار، وإنها لا تحل لأحد بعدي، فلا يُنَفَّر صيدُها، ولا يُختَلَى شوكُها، ولا تحل ساقطتها إلا لمنشد، ومن قُتل له قتيل، فهو بخير النَّظَرَيْن، إما أن يُفْدَى، وإما أن يُقِيد»، فقال العباس: إلا الإِذْخَر، فإنا نجعله لقبورنا وبيوتنا، فقال رسول الله ﷺ: «إلا الإِذْخَر»، فقام أبو شاه- رجل من أهل اليمن- فقال: اكتبوا لي يا رسول الله، فقال رسول الله ﷺ: «اكتبوا لأبي شاه»، قلت للأوزاعي: ما قوله: اكتبوا لي يا رسول الله؟ قال: هذه الخطبة التي سمعها من رسول الله ﷺ. (أخرجه البخاري ٢٤٣٤، ومسلم ١٣٥٥).

٢- الاستماع لمناجاته:

كان بعض أصحاب النبي ﷺ يُناجيه؛ فينصت له ﷺ ويستمع، ومن ذلك ما رواه أنس ﷺ: أُقيمتِ الصلاة، ورجل يُناجي رسول الله ﷺ، فما زال يُناجيه حتى نام أصحابه، ثم قام، فصلَّى. (أخرجه البخاري ٦٢٩٢، ومسلم ٣٧٦).

وفي رواية لمسلم (٣٧٦): أُقيمت صلاة العشاء، فقال رجل: لي حاجة، وتدل هذه الرواية على أن الحاجة للرجل، وليست لرسول الله ﷺ كما ذهب بعض الشراح.

٣- التعليم الفردي:

حين يحتاج أحد أصحاب النبي ﷺ جهدًا خاصًّا في تعليمه؛ فإنه ﷺ يخصُّه بتعليم فردي، فيقطع ﷺ خطبته ذات مرة؛ ليُعلِّمَ رجلًا يسأل عن دينه، عن أبي رفاعة ﷺ، قال: انتهيت إلى النبي ﷺ وهو يخطب، قال: فقلت: يا رسول الله، رجل غريب جاء يسأل عن دينه، لا يدري ما دينه؟، قال: فأقبل عليَّ رسول الله ﷺ، وترك خطبته حتى انتهى إليَّ، فأُتِيَ بكرسي حسبت قوائمه حديدًا، قال: فقعد عليه رسول الله ﷺ، وجعل يُعلِّمني مما علَّمه الله، ثم أتى خطبته، فأتمَّ آخرها. (أخرجه مسلم ٨٧٦).

وقد أجاب شراح الحديث على تركه ﷺ الخطبة، وانصرافه للرجل بعدة أجوبه، قال النووي: «ويُحتمل أن هذه الخطبة التي كان النبي ﷺ فيها خطبة أمر غير الجمعة؛ ولهذا قطعها بهذا الفصل الطويل، ويُحتمل أنها كانت الجمعة واستأنفها، ويُحتمل أنه لم يحصل فصلٌ طويل، ويُحتمل أن كلامه لهذا الغريب كان متعلقًا بالخطبة؛ فيكون منها، ولا يضر المشي في أثنائها». (شرح صحيح مسلم ٦/ ١٦٦).

وحين يقتضي المقام أن يكمل ﷺ حديثه؛ فإنه يكمله، ولا يهمل السائل، عن أبي هريرة ﷺ، قال: «بينما النبي ﷺ في مجلس يُحدِّث القوم، جاءه أعرابي، فقال: متى الساعة؟ فمضى رسول الله ﷺ يُحدِّث، فقال بعض القوم: سمع ما قال، فكره ما قال، وقال بعضهم: بل لم يسمع، حتى إذا قضى حديثه، قال: «أين أراه السائل عن الساعة؟»، قال: ها أنا يا رسول الله، قال: «فإذا ضُيِّعَتِ الأمانة؛ فانتظر الساعة»، قال: كيف إضاعتها؟، قال: «إذا وُسِّد الأمر إلى غير أهله؛ فانتظر الساعة». (أخرجه البخاري ٥٩).

قال ابن حجر: «قوله: فقال بعض القوم: سمع ما قال، إنما حصل لهم التردد في ذلك، لما ظهر من عدم التفات النبي ﷺ إلى سؤاله، وإصغائه نحوه، ولكونه كان يكره السؤال عن هذه المسألة بخصوصها، وقد تبيَّن عدم انحصار ترك الجواب في الأمرين المذكورين، بل احتمل- كما تقدم- أن يكون أخَّره؛ ليكمل الحديث الذي هو فيه، أو أخَّر جوابه؛ ليُوحَى إليه به». (فتح الباري ١/ ١٤٣).

٤- تفقُّد أحوالهم:

ومن صور اهتمامه بهم ﷺ تفقُّده لأحوالهم، فحينما يرى ما يلفت؛ يسأل عن الحال، عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما، قال: كان رسول الله ﷺ في سفر، فرأى زحامًا ورجلًا قد ظُلِّل عليه، فقال ما هذا؟ فقالوا: صائم، فقال: «ليس من البرِّ الصوم في السفر». (أخرجه البخاري ١٩٤٦، ومسلم ١١١٥).

التواصل مع المتعلم:

كان ﷺ يُعنى بالتواصل مع المتعلمين، ومن صور هذا التواصل ما يلي:

١- التواصل البدني:

عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما، **قال:** أخذ رسول الله ﷺ بمنكبي، فقال: «كن في الدنيا كأنك غريب، أو عابر سبيل»، وكان ابن عمر يقول: إذا أمسيت فلا تنتظر الصباح، وإذا أصبحت فلا تنتظر المساء، وخذ من صِحَّتك لمرضك، ومن حياتك لموتك. (أخرجه البخاري ٦٤١٦).

قال ابن حجر: «وفي الحديث مسُّ المعلمِ أعضاءَ المتعلم عند التعليم، والموعوظ عند الموعظة؛ وذلك للتأنيس والتنبيه، ولا يفعل ذلك غالبًا إلا بمَن يميل إليه». (١١/ ٢٣٥).

وحين رأى ﷺ على ابن عمر رضي الله عنهما ما يستوجب التنبيه؛ أخذ بمنكبه، فعن ابن عمر رضي الله عنهما، قال: كساني رسول الله ﷺ قبطية، وكسا أسامة حُلَّة سيراء، قال: فنظر، فرآني قد أسبلت، فجاء فأخذ بمنكبي، وقال: «يا ابن عمر، كل شيء مسَّ الأرضَ من الثياب ففي النار»، قال: فرأيت ابن عمر يتَّزر إلى نصف الساق. (أخرجه أحمد ٥٧٢٧).

وحين علَّم ابنَ مسعود رضي الله عنه وضَع كفَّه بين كفَّيْه؛ فعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: علَّمني رسول الله ﷺ التَّشهُّد كفِّي بين كفَّيْه، كما يُعلِّمني السورة من القرآن، واقتصَّ التَّشهُّد بمثل ما اقتصُّوا. (أخرجه البخاري ٦٢٦٥، ومسلم ٤٠٢، واللفظ له).

وحين علَّم أبا محذورة الأذان مَسَحَ مُقدَّم رأسه، عن محمد بن عبد الملك بن أبي محذورة، عن أبيه، عن جده، قال: قلت: يا رسول الله، عَلِّمْني سُنَّة الأذان، قال: فمسح مُقدَّم رأسي، وقال: «تقول: الله أكبر، الله أكبر، الله أكبر، الله أكبر، ترفع بها صوتك، ثم تقول: أشهد أن لا إله إلا الله، أشهد أن لا إله إلا الله، أشهد أن محمدًا رسول الله، أشهد أن محمدًا رسول الله، تخفض بها صوتك، ثم ترفع صوتك بالشهادة: أشهد أن لا إله إلا الله، أشهد أن لا إله إلا الله، أشهد أن محمدًا رسول الله، أشهد أن محمدًا رسول الله، حيَّ على الصلاة، حيَّ على الصلاة، حيَّ على الفلاح، حيَّ على الفلاح، فإن كان صلاة الصبح قلت: الصلاة خير من النوم، الصلاة خير من النوم، الله أكبر، الله أكبر، لا إله إلا الله». (أخرجه أبو داود ٥٠٠، وأحمد ٥٣٧٩).

وربما ضربه ﷺ برجله لتنبيهه، عن قيس بن سعد بن عبادة، أن أباه دفعه إلى النبي ﷺ يخدمه، قال: فمرَّ بي النبي ﷺ، وقد صليت، فضربني برجله، وقال: «ألا أدلُّك على باب من أبواب الجنة؟»، قلت: بلى، قال: «لا حول ولا قوة إلا بالله». (أخرجه الترمذي ٣٥٨١، وأحمد ١٥٤٨٠).

ووضع يده ﷺ على رأس ابن حوالة ﷺ- وهو يحدثه-، فعن عبد الله بن حوالة الأزدي ﷺ، فقال لي: بعثنا رسول الله ﷺ لنغنم على أقدامنا، فرجعنا، فلم نَغْنَمْ شيئًا، وعرف الجهد في وجوهنا، فقام فينا، فقال: «اللهم لا تَكِلْهُم إليَّ، فأضعف عنهم، ولا تَكِلْهُم إلى أنفسهم؛ فيعجزوا عنها، ولا تَكِلْهُم إلى الناس؛ فيستأثروا عليهم»، ثم وضع يده على رأسي- أو قال: على هامَّتِي-، ثم قال: «يا ابن حوالة، إذا رأيت الخلافة قد نزلت أرض المقدسة؛ فقد دنت الزلازل، والبلابل، والأمور العِظام، والساعة يومئذ أقرب من الناس من يدي هذه من رأسك». (أخرجه أحمد ٢٢٤٨٧، وأبو داود ٢٥٣٥، واللفظ له).

٢- الترحيب بالمُتعلم:

ومن صور تواصله ﷺ مع المتعلمين: ترحيبه، واحتفاؤه بهم؛ فعن عبد الله بن مسعود ﷺ، قال: حدَّث صفوان بن عسال المرادي ﷺ، قال: أتيت رسول الله ﷺ، وهو مُتَّكِئ في المسجد على برد له، فقلت له: يا رسول الله، إني جئت أطلب العلم، فقال: «مرحبًا بطالب العلم، طالب العلم لتحُفُّه الملائكة، وتُظِلُّه بأجنحتها، ثم يركب بعضُه بعضًا حتى يبلغوا السماء الدنيا من حبِّهم لما يطلب، فما جئت تطلب؟»، قال: قال صفوان: يا رسول الله، لا نزال نسافر بين مكة والمدينة، فأفتنا عن المسح على الخفين، فقال له رسول الله ﷺ: «ثلاثة أيام للمسافر، ويوم وليلة للمقيم». (أخرجه الطبراني ٧٣٤٧ في الكبير، وابن عبد البر في جامع بيان العلم وفضله ١٦٢).

وأوصى بالترحيب بهم؛ فعن أبي سعيد الخدري ﷺ، عن رسول الله ﷺ: «قال: سيأتيكم أقوام يطلبون العلم، فإذا رأيتموهم، فقولوا لهم: مرحبًا مرحبًا بوصية رسول الله ﷺ، وأقنوهم»، قلت للحكم: ما أقنوهم؟ قال: علِّمُوهم. (أخرجه ابن ماجه ٢٤٧، والترمذي ٢٦٥٠ بنحوه).

٣- افتقادهم حين غيابهم:

ومن صور اهتمامه ﷺ بأصحابه أنه كان يفتقدهم عند غيابهم، فحين افتقد ثابت بن قيس ﷺ سأل عنه، عن أنس بن مالك ﷺ، أن النبي ﷺ افتقد ثابت بن قيس، فقال رجل: يا رسول الله، أنا أعلم لك علمه، فأتاه، فوجده جالسًا في بيته، مُنَكِّسًا رأسه، فقال: ما شأنك؟ فقال: شرٌّ، كان يرفع صوته فوق صوت النبي ﷺ، فقد حبط عمله، وهو من أهل النار، فأتى الرجل، فأخبره أنه قال كذا وكذا، فقال موسى بن أنس: فرجع المرة الآخرة ببشارة عظيمة، فقال: «اذهب إليه، فقل له: إنك لست من أهل النار، ولكن من أهل الجنة». (أخرجه البخاري ٣٦١٣).

وأخرجه مسلم بلفظ: لما نزلت هذه الآية: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرۡفَعُوٓاْ أَصۡوَٰتَكُمۡ فَوۡقَ صَوۡتِ ٱلنَّبِيِّ﴾ (الحجرات: ٢) إلى آخر الآية، جلس ثابت بن قيس في بيته، وقال: أنا من أهل النار، واحتبس عن النبي ﷺ، فسأل النبي ﷺ سعد بن معاذ، فقال: «يا أبا عمرو، ما شأن ثابت؟ اشتكى؟»، قال سعد: إنه لجاري، وما علمت له بشكوى، قال: فأتاه سعد، فذكر له قول رسول الله ﷺ، فقال ثابت: أنزلت هذه الآية، ولقد علمتم أني من أرفعكم صوتًا على رسول الله ﷺ، فأنا من أهل النار، فذكر ذلك سعدٌ للنبي ﷺ، فقال رسول الله ﷺ: «بل هو من أهل الجنة». (١١٩).

وبينما كان أبو هريرة ﷺ يسير معه افتقده، فسأله عن ذلك؛ عن أبي هريرة ﷺ أن النبي ﷺ لقِيَهُ في بعض طريق المدينة- وهو جُنُب-؛ فانخنست منه، فذهب، فاغتسل، ثم جاء فقال: «أين كنت يا أبا هريرة؟»، قال: كنت جُنُبًا، فكرهت أن أُجالسك، وأنا على غير طهارة، فقال: «سبحان الله؛ إن المسلم لا ينجس». (أخرجه البخاري ٢٨٣، ومسلم ٣٧١).

وتكرَّر الموقف نفسه مع حذيفة ﷺ، فعن حذيفة ﷺ أن رسول الله ﷺ لقيه، وهو جُنُب، فحاد عنه، فاغتسل، ثم جاء فقال: كنت جنبًا، قال: «إن المسلم لا ينجس». (أخرجه مسلم ٣٧٢).

وفقد رجلًا كان يحضر مجلسه، فسأل عنه وواساه، عن معاوية بن قرة، عن أبيه، قال: كان نبي الله ﷺ إذا جلس يجلس إليه نفر من أصحابه، وفيهم رجل له ابن صغير يأتيه من خلف ظهره، فيقعده بين يديه، فهلك، فامتنع الرجل أن يحضر الحلقة لذكر ابنه، فحزن عليه، ففقده النبي ﷺ فقال: «مالي لا أرى فلانًا؟»، قالوا: يا رسول الله، بُنَيه الذي رأيته هلك، فلقيه النبي ﷺ، فسأله عن بُنَيِّه، فأخبره أنه هلك، فعزَّاه عليه، ثم قال: «يا فلان، أيما كان أحبَّ إليك: أن تمتع به عمرك، أو لا تأتي غدًا إلى باب من أبواب الجنة إلا وجدته قد سبقك إليه يفتحه لك؟»، قال: يا نبي الله، بل يسبقني إلى باب الجنة، فيفتحها لي لهو أحب إليَّ، قال: «فذاك لك». (أخرجه النسائي ٢٠٨٨).

٤- مراعاة نشاطهم واستعدادهم:

كان ﷺ يُراعي نشاط أصحابه واستعدادهم، ويتجنب إملالهم؛ فعن ابن مسعود ﷺ، قال: كان النبي ﷺ يتخوَّلنا بالموعظة في الأيام كراهة السآمة علينا. (أخرجه البخاري ٦٨، ومسلم ٢٨٢١)، وسبق الحديث مُفصلًا عن تخوُّله ﷺ لهم بالموعظة.

٥- مراعاة ضعف المتعلم:

كان ﷺ يُراعي ضعف المتعلم في التحصيل، فعن ابن أبي أوفى ﷺ، قال: أتى رجل النبي ﷺ فقال: إني لا أستطيع أن آخذ من القرآن شيئًا، فعلِّمني شيئًا يُجزئني من القرآن، قال: «سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر، ولا حول ولا قوة إلا بالله»، قال: فذهب، أو قام، أو نحو ذا قال: هذا لله عز وجل، فما لي؟ قال: «قل: اللهم اغفر لي،

وارحمني، وعافني، واهدني، وارزقني- أو ارزقني، واهدني-، وعافني». (أخرجه أحمد ١٩١٣٨، والنسائي ٩٢٤، وأبو داود ٨٣٢).

وعن عبد الله بن عمرو ﭬ، قال: أتى رجلٌ رسولَ الله ﷺ فقال: أقرئني يا رسول الله، فقال: «اقرأ ثلاثًا من ذوات الر»، فقال: كَبُرت سِنِّي، واشتد قلبي، وغلظ لساني، قال: «فاقرأ ثلاثًا من ذوات حا ميم [حم]»، فقال مثل مقالته، فقال: «اقرأ ثلاثًا من المسبِّحات»، فقال مثل مقالته، فقال الرجل: يا رسول الله أقرئني سورة جامعة، فأقرأه النبي ﷺ: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ﴾ حتى فرغ منها، فقال الرجل: والذي بعثك بالحق لا أزيد عليها أبدًا، ثم أدبر الرجل، فقال النبي ﷺ: «أفلح الرويجل»، مرتين. (أخرجه أبو داود ١٣٩٩، وأحمد ٦٥٧٥).

٦- معرفته لقدرات المُتعلمين:

كان ﷺ يعرف قدرات أصحابه، فحين سأله أبو هريرة ﭬ الشفاعة، قال له: «لقد ظننت يا أبا هريرة أن لا يسألني عن هذا الحديث أحدٌ أوَّلَ منك؛ لِمَا رأيت من حرصك على الحديث». (أخرجه البخاري ٩٩).

ويقول ﷺ: «أرحم أُمَّتي بأُمَّتِي: أبو بكر، وأشدُّهم في أمر الله: عمر، وأصدقهم حياء: عثمان، وأعلمهم بالحلال والحرام: معاذ بن جبل، وأفرضهم: زيد بن ثابت، وأقرؤهم: أُبَيٌّ، ولكل أُمَّة أمين، وأمين هذه الأُمَّة: أبو عبيدة بن الجراح». (أخرجه الترمذي ٣٧٩٠، وابن ماجه ١٥٤، وأحمد ١٢٩٠٤).

مراعاة الفروق الفردية:

كان يُراعي ﷺ الفروق بين أصحابه في تعلُّمهم، قال أبو غُدَّة: «وكان ﷺ شديدَ المراعاة للفروق الفردية بين المتعلمين من المُخاطبين والسائلين، فكان يُخاطب كل واحد

بقدر فهمه، وبما يُلائم منزلته، وكان يُحافظ على قُلوب المبتدئين، فكان لا يُعلمُهم ما يُعلِم المنتهين، وكان يجيب كل سائل عن سؤاله بما يهُمه، ويناسب حاله». (الرسول المعلم وأساليبه في التعليم، ص ٨١).

ويدل على ذلك حديث أبي رفاعة ﷺ، حين أتى النبي ﷺ، وهو يخطب، فترك خطبته، وقعد على كرسي من حديد ليُعلِّمه، وقد سبق قبل قليل.

وأكَّد أهل العلم على أهمية مراعاة المعلم للفروق الفردية بين المتعلمين، قال النووي: «وينبغي أن يكون باذلًا وُسعه في تفهيمهم، وتقريب الفائدة إلى أذهانهم، حريصًا على هدايتهم، ويُفهم كل واحد بحسب فهمه وحفظه، فلا يعطيه ما لا يحتمله، ولا يقصر به عما يحتمله بلا مشقة، ويُخاطب كل واحدٍ على قدر درجته، وبحسب فهمه وهِمَّته، فيكتفي بالإشارة لمن يفهمها فهمًا مُحققًا، ويُوضح العبارة لغيره، ويُكرِّرها لمن لا يحفظها إلا بتكرار، ويذكر الأحكام مُوضَّحة بالأمثلة من غير دليل لمن لا ينحفظ له الدليل، فإن جهل دليل بعضها؛ ذكره له». (المجموع شرح المهذب ١/ ٣١).

وكان السلف ربما خصُّوا بعض الطلاب بالتعليم والتحديث دون غيره، قال أبو عاصم: «ربما رأيت سفيان يجذب الرجل من وسط الحلقة، فيحدثه بعشرين حديثًا، والناس قعود»، قالوا: لعله كان ضعيفًا، قال: لا». (أخرجه الرامهرمزي في المحدث الفاصل ٧٨٥).

مراعاة حال المتعلم وقدراته، ومخاطبة المتعلم بواقعه:

كان ﷺ يراعي حال المتعلم وواقعه، ويخاطبه بما يلائمه، عن عبد الله بن بُسْر ﷺ، أن رجلًا قال: يا رسول الله، إن شرائع الإسلام قد كثرت عليَّ، فأخبرني بشيء أتشبَّث به، قال: «لا يزال لسانك رطبًا من ذكرالله». (رواه الترمذي ٣٣٧٥، وابن ماجه ٣٧٩٣، وأحمد ١٧٦٩٨).

وحين حدَّث ﷺ أعرابيًّا عن ربه عز وجل، مثَّل له ﷺ بأمثلة يُعايشها هذا الأعرابي في واقع حياته، عن جابر بن سليم ﷺ قال: رأيت رجلًا يصدر الناس عن رأيه، لا يقول شيئًا إلا صدروا عنه، قلت: مَن هذا؟ قالوا: هذا رسول الله، قلت: عليك السلام يا رسول الله، مرتين، قال: «لا تقل عليك السلام؛ فإن عليك السلام تحية الميت، قل: السلام عليك»، قال: قلت: أنت رسول الله؟، قال: «أنا رسول الله الذي إذا أصابك ضرٌّ فدعوته؛ كشفه عنك، وإن أصابك عامٌ سِنَةٌ فدعوته؛ أنبتها لك، وإذا كنت بأرض قفراء، أو فلاة، فَضَلَّت راحلتك فدعوته؛ ردَّها عليك»، قال: قلت: اعهد إليَّ، قال: «لا تسُبَّنَّ أحدًا»، قال: فما سببت بعده حُرًّا، ولا عبدًا، ولا بعيرًا، ولا شاة، قال: «ولا تحقرن شيئًا من المعروف، وأن تُكلِّم أخاك، وأنت منبسط إليه وجهك؛ إن ذلك من المعروف، وارفع إزارك إلى نصف الساق؛ فإن أَبَيْتَ فإلى الكعبين، وإياك وإسبال الإزار؛ فإنها من المخيلة، وإن الله لا يحب المخيلة، وإن امرؤ شتمك وعيَّرك بما يعلم فيك، فلا تُعيِّره بما تعلم فيه؛ فإنما وبال ذلك عليه». (رواه أبو داود ٤٠٨٤، والترمذي مختصرًا ٢٧٢١، وأحمد ١٦٦١٦).

الحياء في تعليمهم:

كان حرص النبي ﷺ على تعليم أصحابه لا يُخرجه عن حد الحياء حين يقتضي المقام ذلك، عن عائشة ﷺ، أن امرأة سألت النبي ﷺ عن غُسلها من المحيض، فأمرها كيف تغتسل، قال: «خذي فِرْصَةً من مِسْك فتطهري بها»، قالت: كيف أتطهر؟، قال: «تطهري بها»، قالت: كيف؟ قال: «سبحان الله، تطهري»، فاجتبذتها إليَّ، فقلت: تتبعي بها أثر الدم. (أخرجه البخاري ٣١٤، ومسلم ٣٣٢).

وفي رواية للبخاري: أن امرأة من الأنصار قالت للنبي ﷺ: كيف أغتسل من المحيض؟ قال: «خذي فِرْصَةً مُمَسَّكَةً، فتوضَّئِي ثلاثًا»، ثم إن النبي ﷺ استحيى، فأعرض بوجهه، أو قال: «توضَّئِي بها»، فأخذتها فجذبتها، فأخبرتها بما يريد النبي ﷺ. (٣١٥).

وفي رواية مسلم، قال: «تطهري بها، سبحان الله!»، واستتر، وأشار لنا سفيان بن عيينة بيده على وجهه.

قال النووي: «وفيه استحباب الكنايات فيما يتعلق بالعورات». (شرح صحيح مسلم ٤/ ١٤).

وقال ابن حجر: «وفيه الاكتفاء بالتعريض، والإشارة في الأمور المستهجنة، وتكرير الجواب لإفهام السائل، وإنما كرَّره مع كونها لم تفهمه أوَّلًا؛ لأن الجواب به يُؤخذ من إعراضه بوجهه عند قوله: توضَّئِي، أي: في المحلِّ الذي يستحيي من مواجهة المرأة بالتصريح به؛ فاكتفى بلسان الحال عن لسان المقال، وفهمت عائشة ﵂ ذلك عنه؛ فتولَّت تعليمها». (فتح الباري ١/ ٤١٦).

ونصوص القرآن والسُّنَّة حافلة بالتكنية فيما يتعلق بالعورات، وما يُستحيا من ذكره، كالتكنية عن الجماع بإتيان المرأة، والتكنية عما يخرج من الإنسان بالغائط، وقضاء الحاجة، ونحو ذلك.

التوجيه للتخصص المناسب:

حين يحتاج المسلمون لتخصص أو علم؛ فإنه ﷺ يوجه مَن يلمس فيه القدرة على ذلك؛ فحين لقي زيد بن ثابت ﵁، ورأى فيه النبوغ؛ طلب منه أن يتعلم السِّريانيَّة، فعن خارجة بن زيد، أن أباه زيدًا ﵁ أخبره: أنه لما قَدِمَ النبي ﷺ المدينة، قال زيد: ذُهِبَ بي إلى النبي ﷺ فأُعْجِبَ بي، فقالوا: يا رسول الله، هذا غلام من بني النجار، معه مما أنزل الله عليك بضع عشرة سورة، فأعجب ذلك النبي ﷺ، وقال: «يا زيد، تعلَّم لي كتاب يهود؛ فإني والله ما آمن يهود على كتابي»، قال زيد: فتعلمت له كتابهم، ما مرَّت بي خمس عشرة ليلة حتى حذقته، وكنت أقرأ له كتبهم إذا كتبوا إليه، وأُجيب عنه إذا كتب. (أخرجه أحمد ٢١٦١٨، وأبو داود ٣٦٤٥، والترمذي ٢٧١٥).

وأخرجه البخاري- مُعلَّقًا بصيغة الجزم- عن زيد بن ثابت ﷺ أن النبي ﷺ أمره أن يتعلم كتاب اليهود حتى كتبت للنبي ﷺ كتبه، وأقرأته كتبهم. (البخاري ٧١٩٥).

وفي رواية لأحمد: قال لي رسول الله ﷺ: «تُحسن السُّريانيَّة؟، إنها تأتيني كتب»، قال: قلت: لا، قال: «فتعلَّمها»، فتعلَّمتها في سبعة عشر يومًا. (٢١٥٨٧).

الجمع بين التعليم الفردي والجماعي:

كان ﷺ يُنوع في تعليمه لأصحابه بين التعليم الجماعي، والتعليم الفردي بحسب ما يقتضيه المقام.

وصور التعليم الجماعي عديدة لا تُحصى، نجدها في قول الرواة: كان النبي ﷺ جالسًا مع أصحابه، بينما كُنَّا جلوسًا مع النبي ﷺ، كُنَّا جلوسًا مع النبي ﷺ، في مجلس النبي ﷺ... إلخ.

وأما التعليم الفردي: فنماذجه كثيرة، ومنها: تعليمه ابن مسعود ﷺ التَّشهُّد، قال ابن مسعود ﷺ: علَّمَني رسول الله ﷺ التَّشهُّد كفِّي بين كفَّيْه، كما يُعلمني السورة من القرآن .. (أخرجه البخاري ٦٢٦٥، ومسلم ٤٠٢).

ومن ذلك ما ورد عن غير واحد من أصحابه: أوصاني رسول الله ﷺ.

ومن ذلك: حديث معاذ ﷺ: عن معاذ بن جبل ﷺ قال: بينا أنا رَدِيفُ النبي ﷺ ليس بيني وبينه إلا آخرة الرحل، فقال: «يا معاذ بن جبل»، قلت: لبيك رسول الله وسعديك، ثم سار ساعة، ثم قال: «يا معاذ»، قلت: لبيك رسول الله وسعديك، ثم سار ساعة، ثم قال: «يا معاذ»، قلت: لبيك رسول الله وسعديك، قال: «هل تدري ما حق الله على عباده؟»، قلت: الله ورسوله أعلم، قال: «حق الله على عباده أن يعبدوه، ولا يشركوا به شيئًا»، ثم سار ساعة، ثم قال: «يا معاذ بن جبل»، قلت: لبيك رسول الله وسعديك،

فقال: «هل تدري ما حق العباد على الله إذا فعلوه؟»، قلت: الله ورسوله أعلم، قال: «حق العباد على الله أن لا يعذبهم». (أخرجه البخاري ٥٩٦٧، ومسلم ٣٠).

وربما أسرَّ لهم ﷺ بالتعليم فلم يخبروا بذلك، عن عبد الله بن جعفر ، قال: أردفني رسول الله ﷺ ذات يوم خلفه، فأسَرَّ إليَّ حديثًا لا أُحدِّث به أحدًا من الناس، «وكان أحب ما استتر به رسول الله ﷺ لحاجته، هدف أو حائش نخل»، قال ابن أسماء في حديثه: «يعني حائط نخل». (أخرجه مسلم٣٤٢) .

وعلَّم ﷺ أبا محذورة الأذان- كما سبق-، وعلَّم أبا رفاعة حين أتاه، وهو يخطب، فترك خطبته.

الاستشهاد بالقرآن الكريم

كان ﷺ كثيرًا ما يستشهد بالقرآن الكريم في تعليمه لأصحابه رضوان الله عليهم، وقد تنوَّعت أحوال استشهاده ﷺ بالقرآن وموضوعاته.

فربما ابتدأ ﷺ بقراءة الآية، ثم أعقبها بتوجيه أصحابه، عن عائشة رضي الله عنها، قالت: تلا رسول الله ﷺ هذه الآية: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ ۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ ۗ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾. (آل عمران: ٧)، قالت: قال رسول الله ﷺ: «فإذا رأيت الذين يتبعون ما تشابه منه، فأولئك الذين سمَّى الله؛ فاحذروهم». (أخرجه البخاري ٤٥٤٧، ومسلم ٢٦٦٥).

وكثيرًا ما يستشهد ﷺ بالآية بعد تقريره ما يُريد قوله لأصحابه، وستأتي أمثلة عديدة على هذا النوع.

وربما قَرَن ﷺ التعليم بالوسيلة والإشارة بالاستشهاد بالقرآن الكريم، عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما، قال: كُنَّا جلوسًا عند النبي ﷺ فخطَّ خطًّا هكذا أمامه، فقال: «هذا سبيل الله»، وخطَّيْن عن يمينه، وخطَّيْن عن شماله، قال: «هذه سبيل الشيطان»، ثم وضع يده في الخطِّ الأوسط، ثم تلا هذه الآية: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾. (الأنعام: ١٥٣). (أخرجه أحمد ١٥٢٧٧، ابن ماجه ١١).

تقرير مسائل الاعتقاد:

ويستشهد ﷺ بالقرآن في تقرير مسائل الاعتقاد، فعن عليٍّ رضي الله عنه، قال: كُنَّا في جنازة في بقيع الغرقد، فأتانا النبي ﷺ فقعد، وقعدنا حوله، ومعه مخصرة، فنكس، فجعل

ينكت بمخصرته، ثم قال: «ما منكم من أحد، ما من نفس منفوسة إلا كُتب مكانها من الجنة والنار، وإلا قد كُتب شقية أو سعيدة»، فقال رجل: يا رسول الله، أفلا نتَّكِل على كتابنا، وندع العمل؟ فمَن كان مِنَّا من أهل السعادة؛ فسيصير إلى عمل أهل السعادة، وأما مَن كان مِنَّا من أهل الشقاوة؛ فسيصير إلى عمل أهل الشقاوة، قال: «أمَّا أهل السعادة فيُيَسَّرون لعمل السعادة، وأما أهل الشقاوة فيُيَسَّرون لعمل الشقاوة»، ثم قرأ: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ۝ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ﴾. (الليل: ٥ - ٦). (أخرجه البخاري ١٣٦٢، ومسلم ٢٦٤٧).

وجاء في رواية مسلم: ثم قرأ: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ۝ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ۝ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ ۝ وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ ۝ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ ۝ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَىٰ ۝﴾. (الليل: ٥ - ١٠).

وفي حديث جبريل عليه السلام استشهد ﷺ بالقرآن، وهو يُقرِّر أن علم الساعة بيد الله عز وجل، عن أبي هريرة، قال: كان النبي ﷺ بارزًا يومًا للناس، فأتاه جبريل، فقال: ما الإيمان؟ قال: «الإيمان: أن تُؤمن بالله، وملائكته، وكتبه، وبلقائه، ورسله، وتؤمن بالبعث»، قال: ما الإسلام؟، قال: « الإسلام: أن تعبد الله، ولا تشرك به شيئًا، وتُقيم الصلاة، وتُؤدِّي الزكاة المفروضة، وتصوم رمضان»، قال: ما الإحسان؟ قال: «أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك»، قال: متى الساعة؟، قال: «ما المسئولُ عنها بأعلمَ من السائل، وسأخبرك عن أشراطها: إذا ولدت الأَمَةُ ربَّها، وإذا تطاول رعاة الإبل البَهْم في البنيان، في خمس لا يعلمهن إلا الله»، ثم تلا النبي ﷺ: ﴿إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ﴾. (لقمان: ٣٤) الآية، ثم أدبر، فقال: «رُدُّوه»، فلم يروا شيئًا، فقال: «هذا جبريل، جاء يُعلِّم الناس دينهم». (أخرجه البخاري ٥٠، ومسلم ٩).

وفي رواية مسلم: ثم تلا ﷺ: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌۢ ﴾. (لقمان: ٣٤).

الوعظ والترهيب:

وحين يعظ ﷺ أصحابه يستشهد بالقرآن على ما قاله، عن عبد الله بن مسعود ﷺ، قال: قال رسول الله ﷺ: «مَن اقتطع مال امرئ مسلم بيمين كاذبة، لَقِيَ الله، وهو عليه غضبان»، قال عبد الله: ثم قرأ رسول الله ﷺ، مصداقه من كتاب الله جل ذكره: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَأَيْمَٰنِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُو۟لَٰٓئِكَ لَا خَلَٰقَ لَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾. (آل عمران: ٧٧). (أخرجه البخاري ٧٤٤٥، ومسلم ١٣٨).

ويستشهد ﷺ بالقرآن في الترهيب من البُخل بالزكاة، عن أبي هريرة ﷺ، قال: قال رسول الله ﷺ: «مَن آتاه الله مالًا، فلم يُؤَدِّ زكاته؛ مُثِّلَ له مالُه يوم القيامة شُجاعًا أقرعَ، له زبيبتان، يُطوَّقُه يوم القيامة، ثم يأخذ بِلِهْزِمَتَيه- يعني بشِدْقَيْه-، ثم يقول: أنا مَالُك، أنا كَنْزُك، ثم تلا: ﴿ وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ ﴾. (آل عمران: ١٨٠) الآية». (أخرجه البخاري ١٤٠٣).

الترغيب:

ويستشهد ﷺ بالقرآن في تعليمه لأصحابه في مقام الترغيب، عن جرير بن عبد الله، قال: كُنَّا عند النبي ﷺ، فنظر إلى القمر ليلة- يعني البدر-، فقال: «إنكم ستَرَوْن ربكم، كما ترون هذا القمر، لا تُضامون في رؤيته، فإن استطعتم أن لا تُغلبوا على صلاة قبل طلوع الشمس، وقبل غروبها فافعلوا»، ثم قرأ:

﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ﴾. (ق: ٣٩)، قال إسماعيل: «افعلوا، لا تفوتنَّكم». (أخرجه البخاري ٥٥٤، ومسلم ٦٣٣).

في الإنكار:

ويُنكر ﷺ ما يستوجب الإنكار على أصحابه، مُستشهدًا بالقرآن الكريم، عن أبي سعيد بن المعلى قال: كنت أُصلِّي في المسجد، فدعاني رسول الله ﷺ فلم أُجِبْهُ، فقلت: يا رسول الله إني كنت أُصلِّي، فقال: «ألم يقل الله: ﴿اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ﴾ (الأنفال: ٢٤)، ثم قال لي: «لأُعلِّمنَّك سورة، هي أعظم السور في القرآن قبل أن تخرج من المسجد»، ثم أخذ بيدي، فلما أراد أن يخرج قلت له: ألم تقل: لأُعلِّمنَّك سورة هي أعظم سورة في القرآن؟، قال: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾. (الفاتحة: ٢)، هي السبع المثاني، والقرآن العظيم الذي أوتيته». (أخرجه البخاري ٤٤٧٤).

ومثله ما جرى مع أُبَيِّ بن كعب رضي الله عنه، كما سبق في الحديث عن التشويق في تعليمه ﷺ.

وحين طرق النبي ﷺ عليًّا وفاطمة رضي الله عنهما ليلًا ليُصلِّيا، واحتج عليٌّ رضي الله عنه بقوله: أنفسنا بيد الله، قرأ ﷺ آية الكهف، عن حسين بن عليٍّ رضي الله عنه: أن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أخبره: أن رسول الله ﷺ طرقه وفاطمة بنت النبي عليه السلام ليلة، فقال: «ألا تُصلِّيان؟»، فقلت: يا رسول الله، أنفسنا بيد الله، فإذا شاء أن يبعثنا بعثنا، فانصرف حين قُلنا ذلك، ولم يرجع إليَّ شيئًا، ثم سمعته، وهو مُولٍّ يضرب فخذه، وهو يقول: ﴿وَكَانَ الْإِنسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا﴾ (الكهف: ٥٤). (أخرجه البخاري ١١٢٧، ومسلم ٧٧٥).

الاقتباس:

الاقتباس فنٌّ بلاغي، وقد كان ﷺ يقتبس في حديثه من القرآن، وذلك بإيراد آية، أو جزء منها دون أن يشير إلى أنها من القرآن، قال الثعالبي: «هذا النبي ﷺ- وهو أفصح العرب

لهجة، وأعذبهم عذبة، وأحسنهم إفصاحًا وبيانًا، وأرجحهم في الحكمة البالغة ميزانًا- قد اقتبس من معاني القرآن وألفاظه في الكثير من كلامه، والجمِّ الغفير من مقاله». (الاقتباس من القرآن الكريم، ص ٢٤).

ويقتبس ﷺ من القرآن، وهو يبين لأصحابه منهج التعامل مع ما يرويه أهل الكتاب، عن أبي هريرة ﵁، قال: كان أهل الكتاب يقرؤون التوراة بالعبرانية، ويفسرونها بالعربية لأهل الإسلام، فقال رسول الله ﷺ:«لا تُصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم، وقولوا: ﴿ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا﴾. (البقرة: ١٣٦). (أخرجه البخاري ٤٤٨٥).

واقتبس ﷺ في حديثه وصفه لحاله، وحال أصحابه عند دخولهم خيبر، عن أنس بن مالك، أن رسول الله ﷺ غزا خيبر، فصلَّيْنا عندها صلاة الغَداة بغلس، فركب نبي الله ﷺ، وركب أبو طلحة، وأنا رديف أبي طلحة، فأجرى نبي الله ﷺ في زقاق خيبر، وإن ركبتي لتمس فخِذ نبي الله ﷺ، ثم حسر الإزار عن فخِذه حتى إني أنظر إلى بياض فخِذ نبي الله ﷺ، فلما دخل القرية قال: «الله أكبر، خربت خيبر، إنا إذا نزلنا بساحة قوم، ﴿فَسَآءَ صَبَاحُ ٱلۡمُنذَرِينَ﴾. (الصافات: ١٧٧)» قالها ثلاثًا... (أخرجه البخاري ٣٧١، ومسلم ١٣٦٥).

تلاوة القرآن في الخطبة:

كان ﷺ كثيرًا ما يقرأ القرآن في خطبته، بل وصف أصحابه رضوان الله عليهم خطبته بأنها قراءة للقرآن، عن جابر بن سمرة ﵁، قال: «كانت للنبي ﷺ خطبتان يجلس بينهما يقرأ القرآن، ويُذكِّر الناس». (أخرجه مسلم ٨٦٢).

وكان ﷺ كثيرًا ما يقرأ سورة ق في خطبته، عن أم هشام بنت حارثة بن النعمان، قالت: «لقد كان تَنُّورنا، وتَنُّور رسول الله ﷺ واحدًا، سنتين، أو سنة وبعض سنة، وما

أخذت: ﴿قٓۚ وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡمَجِيدِ﴾ إلا عن لسان رسول الله ﷺ، يقرؤها كل يوم جمعة على المنبر، إذا خطب الناس». (أخرجه مسلم ٨٧٣).

وفي خطبته الشهيرة في حادثة المُضريِّين كان يستشهد ﷺ بآيات القرآن، عن المنذر بن جرير، عن أبيه، قال: كُنَّا عند رسول الله ﷺ في صدر النهار، قال: فجاءه قوم حُفاة، عُراة، مجتابي النمار، أو العباء، مُتقلدي السيوف، عامتهم من مُضر، بل كلهم من مُضر، فتمعر وجه رسول الله ﷺ لما رأى بهم من الفاقة، فدخل ثم خرج، فأمر بلالًا فأذن، وأقام، فصلَّى، ثم خطب، فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ﴾ النساء: ١ إلى آخر الآية،﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا ﴾(النساء: ١)، والآية التي في الحشر﴿ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلۡتَنظُرۡ نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ لِغَدٖۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ (الحشر: ١٨) «تصدق رجل من ديناره، من درهمه، من ثوبه، من صاع بُرِّه، من صاع تمره، حتى قال: ولو بشِقِّ تمرة»، قال: فجاء رجل من الأنصار بصُرَّة كادت كفُّه تعجز عنها، بل قد عجزت، قال: ثم تتابع الناس، حتى رأيت كومين من طعام وثياب، حتى رأيت وجه رسول الله ﷺ يتهلَّل، كأنه مُذْهَبَة، فقال رسول الله ﷺ: «مَن سنَّ في الإسلام سنة حسنة؛ فله أجرها، وأجر مَن عمل بها بعده، من غير أن ينقص من أجورهم شيء، ومَن سنَّ في الإسلام سنة سيئة، كان عليه وزرها، ووزر مَن عمل بها من بعده، من غير أن ينقص من أوزارهم شيء». (أخرجه مسلم ١٠١٧).

في التقرير:

ويستشهد ﷺ بالقرآن، وهو يقرر حقائق ومسائل في الدين، ففي حديثه عن ذَمِّ الجدل يستشهد بالقرآن، فعن أبي أُمامة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «ما ضلَّ قوم بعد هُدى كانوا عليه؛ إلا أوتوا الجدل، ثم تلا هذه الآية: ﴿مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلَۢاۚ بَلۡ هُمۡ قَوۡمٌ خَصِمُونَ ﴾ (الزخرف: ٥٨). (أخرجه أحمد ٢٢١٦٤، والترمذي ٣٢٥٣، وابن ماجه ٤٨).

كما استشهد ﷺ بالقرآن، وهو يقرر الطبيعة البشرية في علاقة الرجل بولده، فعن عبد الله بن بريدة، عن أبيه ﷺ، قال: خطبنا رسول الله ﷺ، فأقبل الحسن والحسين ﷺ، عليهما قميصان أحمران يعثران ويقومان، فنزل، فأخذهما، فصعد بهما المنبر، ثم قال: «صدق الله: ﴿إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ﴾ (التغابن: ١٥)، رأيت هذين فلم أصبر»، ثم أخذ في الخطبة. (أخرجه أبو داوود ١١٠٩، والنسائي ١٤١٣، وابن ماجه ٣٦٠٠).

تلاوة القرآن في الدعوة:

وكان ﷺ كثيرًا ما يتلو القرآن في دعوته للناس، عن أسامة بن زيد ﷺ، أن رسول الله ﷺ ركب على حمار على قطيفة فدكية، وأردف أسامة بن زيد وراءه يعود سعد بن عبادة في بني الحارث بن الخزرج قبل وقعة بدر، قال: حتى مرَّ بمجلس فيه عبد الله بن أُبَيٍّ ابن سلول، وذلك قبل أن يسلم عبد الله بن أُبَي، فإذا في المجلس أخلاط من المسلمين، والمشركين عبدة الأوثان، واليهود، والمسلمين، وفي المجلس عبد الله بن رواحة، فلما غشيت المجلس عجاجة الدابة، خمَّر عبد الله بن أبي أنفه بردائه، ثم قال: لا تغبِّروا علينا، فسلَّم رسول الله ﷺ عليهم، ثم وقف، فنزل، فدعاهم إلى الله، وقرأ عليهم القرآن، فقال عبد الله بن أُبَيٍّ ابن سلول: أيها المرء، إنه لا أحسن مما تقول، إن كان حقًّا، فلا تؤذينا به في مجلسنا، ارجع إلى رحلك، فمَن جاءك فاقصص عليه، فقال عبد الله بن رواحة: بلى يا رسول الله فاغشنا به في مجالسنا، فإنا نحب ذلك، فاستبَّ المسلمون، والمشركون، واليهود، حتى كادوا يتثاورون، فلم يزل النبي ﷺ يخفضهم حتى سكنوا، ثم ركب النبي ﷺ دابته، فسار حتى دخل على سعد بن عبادة، فقال له النبي ﷺ: «يا سعد، ألم تسمع ما قال أبو حباب؟- يريد عبد الله بن أُبَي- قال: كذا وكذا»، قال سعد بن عبادة: يا رسول الله، اعفُ عنه، واصفح عنه، فوالذي أنزل عليك الكتاب لقد جاء الله بالحق الذي أنزل عليك، لقد اصطلح أهل هذه البحيرة على أن يتوِّجوه، فيعصبونه بالعصابة، فلما أبى الله

ذلك بالحق الذي أعطاك الله شرق بذلك، فذلك فعل به ما رأيت، فعفا عنه رسول الله ﷺ، وكان النبي ﷺ وأصحابه يعفون عن المشركين، وأهل الكتاب، كما أمرهم الله، ويصبرون على الأذى، قال الله عز وجل: ﴿وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ أَذًى كَثِيرًا﴾ (آل عمران: ١٨٦) الآية، وقال الله: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَـٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم﴾ (البقرة: ١٠٩) إلى آخر الآية، وكان النبي ﷺ يتأوَّل العفو ما أمره الله به، حتى أذن الله فيهم، فلما غزا رسول الله ﷺ بدرًا، فقتل الله به صناديد كفار قريش، قال ابن أُبَيٍّ ابن سلول، ومَن معه من المشركين، وعبدة الأوثان: هذا أمر قد توجه، فبايعوا الرسول ﷺ على الإسلام، فأسلموا. (أخرجه البخاري ٤٥٦٦، ومسلم ١٧٩٨).

في الفتوى وتقرير الأحكام:

وربما استشهد ﷺ بالقرآن في فتواه لأصحابه، فعن أبي الزبير، أنه سمع عبد الرحمن بن أيمن، مولى عزة، يسأل ابن عمر، وأبو الزبير يسمع ذلك، كيف ترى في رجل طلَّق امرأته حائضًا؟ فقال: طلَّق ابن عمر رضي الله عنهما امرأته، وهي حائض على عهد رسول الله ﷺ، فسأل عمرُ رضي الله عنه رسولَ الله ﷺ، فقال: إن عبد الله بن عمر طلَّق امرأته وهي حائض، فقال له النبي ﷺ: «ليراجعها»، فردَّها، وقال: «إذا طهرت فليطلِّق، أو ليمسك»، قال ابن عمر: وقرأ النبي ﷺ: «يا أيها النبي إذا طلقتم النساء فطلقوهن في قبل عدتهن[1]». (أخرجه مسلم ١٤٧١).

ويستشهد ﷺ بالقرآن، وهو يقرر لهم تفاصيل بعض ما حرمه الله عز وجل، عن ابن عمر، وابن عباس رضي الله عنهما أنهما شهدا على رسول الله ﷺ:

(١) هذه قراءة ابن عباس و ابن عمر ، وهي شاذة لا تثبت قرآنًا بالإجماع، ولا يكون لها حكم حق الواحد عندنا وعند محققي الأصوليين. (تعليق محمد فؤاد عبد الباقي على الحديث لصحيح مسلم ص ١٠٩٨).

«أنه نهى عن الدُّبَّاء، والحنتم، والمُزَفَّت، والنَّقير، ثم تلا رسول الله ﷺ: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾ (الحشر: ٧). (أخرجه أحمد ٣٣٠٠).

في الإجابة عن السؤال:

ويستشهد ﷺ بالقرآن في إجابته عن أسئلة أصحابه رضوان الله عليهم، فعن أبي هريرة ﷺ، سئل النبي ﷺ عن الحمر، فقال: «لم ينزل علي فيها شيء إلا هذه الآية الجامعة الفاذة: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾ (الزلزلة ٧ - ٨)». (أخرجه البخاري ٤٩٦٣، ومسلم ٩٨٧).

الإخبار عن اليوم الآخر:

ويستشهد ﷺ بالقرآن، وهو يحدثهم عما يجري في اليوم الآخر، عن عمر بن الخطاب ﷺ قال: قال النبي ﷺ: «إن من عباد الله لأُناسًا ما هم بأنبياء، ولا شهداء، يغبطهم الأنبياء والشهداء يوم القيامة، لمكانهم من الله»، قالوا: يا رسول الله، تخبرنا مَن هم، قال: «هم قوم تحابُّوا بروح الله على غير أرحام بينهم، ولا أموال يتعاطونها، فوالله إن وجوههم لنور، وإنهم على نور، لا يخافون إذا خاف الناس، ولا يحزنون إذا حزن الناس»، وقرأ هذه الآية: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (يونس: ٦٢). (أخرجه أبو داود ٣٥٢٧).

كما يستشهد ﷺ بالقرآن، وهو يتحدث عن صفة الجنة- جعلنا الله من أهلها- ، عن أبي هريرة ﷺ، عن النبي ﷺ، قال: «إن في الجنة لشجرة، يسير الراكب في ظِلِّها مائة سنة، واقرؤوا إن شئتم: ﴿وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ﴾ (الواقعة: ٣٠)». (أخرجه البخاري ٣٢٥٢).

وأخرجه الترمذي (٣٢٩٢) مُطوَّلًا، عن أبي هريرة ﷺ، قال: قال رسول الله ﷺ: «يقول الله: أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رَأَتْ، ولا أذن

سمعت، ولا خطر على قلب بشر، فاقرؤوا إن شئتم﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءً بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ (السجدة: ١٧)، وفي الجنة شجرة يسير الراكب في ظِلِّها مائة عام لا يقطعها، واقرؤوا إن شئتم:﴿وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ﴾ (الواقعة: ٣٠)، وموضع سوط في الجنة خير من الدنيا وما فيها، واقرؤوا إن شئتم: ﴿فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ۗ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ﴾. (آل عمران: ١٨٥).

الخطاب الفردي:

ويستشهد ﷺ بالقرآن، وهو يخاطب آحادهم تأكيدًا لمعنى شرعي يذكره له، عن أبي رِمْثَة، قال: انطلقت مع أبي نحو النبي ﷺ، ثم إن رسول الله ﷺ، قال لأبي: «ابنك هذا؟» قال: إي ورب الكعبة، قال: «حقًّا؟» قال: أشهد به، قال: فتبسم رسول الله ﷺ ضاحكًا من ثبت شبهي في أبي، ومن حلف أبي عليَّ، ثم قال: «أما إنه لا يجني عليك، ولا تجني عليه»، وقرأ رسول الله ﷺ:﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾(الأنعام: ١٦٤). (أخرجه أبو داود ٤٤٩٥، وأحمد ٧١١٤).

ومن استشهاده ﷺ بالقرآن في الخطاب الفردي مع أصحابه رضوان الله عليهم: قصته مع كل من: أبي سعيد المعلى، وأُبَي بن كعب رضي الله عنهما، وسبقت الإشارة إليها في الاستشهاد بالقرآن في سياق الإنكار.

خطاب النساء:

ويستشهد ﷺ بالقرآن في خطابه للنساء، كما فعل ﷺ في خطبته لهُنَّ يوم العيد، عن ابن عباس رضي الله عنهما، قال: شهدت الصلاة يوم الفطر مع رسول الله ﷺ، وأبي بكر، وعمر، وعثمان، فكلهم يصليها قبل الخطبة، ثم يخطب بعد، فنزل نبي الله ﷺ، فكأني أنظر إليه

حين يجلس الرجال بيده، ثم أقبل يشقهم، حتى أتى النساء مع بلال، فقال: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰٓ أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِٱللَّهِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَٰنٍ يَفْتَرِينَهُۥ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ ﴾ (الممتحنة: ١٢)، حتى فرغ من الآية كلها، ثم قال حين فرغ: «أنتنَّ على ذلك؟» فقالت امرأة واحدة- لم يجبه غيرها-: نعم يا رسول الله- لا يدري الحسن من هي- قال: «فتصدَّقْن»، وبسط بلال ثوبه، فجعلن يلقين الفتخ والخواتيم في ثوب بلال. (أخرجه البخاري ٤٨٩٥، ومسلم ٨٨٤).

تعليمهم صفة العبادة:

ويستشهد ﷺ بالقرآن، وهو يُعلِّم أصحابه صفة العبادة بفعله ﷺ، جاء في حديث جابر في صفة حجه ﷺ: «حتى إذا أتينا البيت معه، استلم الركن، فرمل ثلاثًا، ومشى أربعًا، ثم نفذ إلى مقام إبراهيم عليه السلام، فقرأ: ﴿وَٱتَّخِذُوا۟ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى﴾ (البقرة: ١٢٥)، فجعل المقام بينه وبين البيت، فكان أبي يقول- ولا أعلمه ذكره إلا عن النبي ﷺ-: كان يقرأ في الركعتين: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ و﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ﴾، ثم رجع إلى الركن فاستلمه، ثم خرج من الباب إلى الصفا، فلما دنا من الصفا قرأ: ﴿إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ﴾ (البقرة: ١٥٨)، «أبدأ بما بدأ الله به» فبدأ بالصفا، فرقي عليه، حتى رأى البيت، فاستقبل القبلة، فوحَّد الله وكبَّره... الحديث». (أخرجه مسلم ١٢١٨).

تعليمهم فضائل الأعمال:

ويستشهد ﷺ بالقرآن في بيانه فضل الوضوء، فعن علي رضي الله عنه قال: كنت إذا سمعت من رسول الله ﷺ حديثًا نفعني الله بما شاء أن ينفعني منه، وإذا حدثني غيري استحلفته، فإذا حلف لي صدقته، وحدثني أبو بكر، وصدق أبو بكر، قال: قال رسول الله ﷺ: «ما من عبد مؤمن يذنب ذنبًا فيتوضأ، فيحسن الطهور، ثم يصلي ركعتين، فيستغفر الله؛ إلا غفر الله له»،

ثم تلا: ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ﴾(آل عمران: ١٣٥). (أخرجه أحمد ٥٦، وأبو داود ١٥٢١، والترمذي ٤٠٦).

ويستشهد ﷺ بالقرآن، وهو يُعلِّمهم منزلة الدعاء، عن النعمان بن بشير رضي الله عنهما، أن رسول الله ﷺ، قال: «إن الدعاء هو العبادة»، ثم قرأ: ﴿ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي ﴾ (غافر: ٦٠). (أخرجه أحمد ١٨٣٥٢، والترمذي ٢٩٦٩، وأبو داوود ١٤٧٩، وابن ماجه ٣٨٢٨).

بيان فضائل أهل بيته:

واستشهد ﷺ بالقرآن، وهو يُبيِّن فضل أهل بيته، عن صيفة بنت شيبة، قال: قالت عائشة رضي الله عنها: خرج النبي ﷺ غداة وعليه مِرْط مُرَحَّل، من شعر أسود، فجاء الحسن بن علي فأدخله، ثم جاء الحسين فدخل معه، ثم جاءت فاطمة فأدخلها، ثم جاء عليٌّ فأدخله، ثم قال: ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴾(الأحزاب: ٣٣). (أخرجه مسلم ٢٤٢٤).

وعن شداد أبي عمار، قال: دخلت على واثلة بن الأسقع، وعنده قوم، فذكروا عليًّا، فلما قاموا قال لي: ألا أخبرك بما رأيت من رسول الله ﷺ؟ قلت: بلى، قال: أتيت فاطمة رضي الله تعالى عنها أسألها عن عليٍّ، قالت: توجَّه إلى رسول الله ﷺ، فجلست أنتظره حتى جاء رسول الله ﷺ، ومعه عليٌّ، وحسن، وحسين رضي الله تعالى عنهم، آخذ كل واحد منهما بيده، حتى دخل فأدنى عليًّا وفاطمة، فأجلسهما بين يديه، وأجلس حسنًا، وحسينًا كل واحد منهما على فخِذه، ثم لفَّ عليهم ثوبه- أو قال: كساء-، ثم تلا هذه الآية:﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾(الأحزاب: ٣٣)، ،وقال: «اللهم هؤلاء أهل بيتي، وأهل بيتي أحق». (أخرجه أحمد ١٦٩٨٨).

بيان ولايته للمؤمنين:

ويستشهد ﷺ بالقرآن، وهو يقرر ولايته للمؤمنين، عن أبي هريرة ﷺ: أن النبي ﷺ قال: «ما من مؤمن إلا وأنا أَوْلَى به في الدنيا والآخرة، اقرءوا إن شئتم: ﴿ٱلنَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ﴾ (الأحزاب: ٦)، فأيما مؤمن مات، وترك مالًا؛ فليَرِثْه عصبته من كانوا، ومَن ترك دَيْنًا، أو ضياعا؛ فليأتني، فأنا مولاه». (أخرجه البخاري ٢٣٩٩).

في الصلة والآداب:

ويستشهد ﷺ بالقرآن الكريم، وهو يعلم أصحابه منزلة الرَّحِم وصلتها، عن أبي هريرة ﷺ، قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله خلق الخلق حتى إذا فرغ منهم قامت الرَّحِم، فقالت: هذا مقام العائذ من القطيعة، قال: نعم، أما ترضين أن أصل مَن وصلك، وأقطع مَن قطعك؟ قالت: بلى، قال: فذاك لك»، ثم قال رسول الله ﷺ: «اقرؤوا إن شئتم: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوٓا۟ أَرْحَامَكُمْ ﴿٢٢﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰٓ أَبْصَٰرَهُمْ ﴿٢٣﴾ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ﴾(محمد: ٢٢ - ٢٤). (أخرجه البخاري ٤٨٣٠، ومسلم ٢٥٥٤، واللفظ له)[1].

إن استشهاد المربي بالقرآن الكريم له آثار ونتائج مهمة، منها:

- تربية المتلقين على تعظيم القرآن الكريم، والاعتناء به.
- تنمية فهمهم للقرآن وتدبره، ومبدأ الخير ومنتهاه في تدبر القرآن، والعمل به.
- تعزيز الاقتناع بما يقوله لهم من توجيه، وأمر، ونهي.

---

(١) أخرجه البخاري (٤٨٣٠) والاستشهاد بالآية موقوف على أبي هريرة، لكنه أخرجه بعده في موضعين (٤٨٣١، ٤٨٣٢)، وفيهما معًا التصريح برفع الاستشهاد إلى الى النبي ﷺ.

- تربية المتلقين على عدم التعلق بالأشخاص، ولو كان معلمًا، أو مربيًا؛ فمعيار القبول والرفض لدى المتلقي هو موافقة الأمر، أو مخالفته لقول الله عز وجل، وقول رسوله ﷺ، وهذا، وإن شق على كثير من النفوس إلا أنه هو الحق، وهو الأَوْلَى بمن يتجرد، ويعمل لله عز وجل، ويتخلى عن حظوظ نفسه.

ومع أهمية الاعتناء بالاستشهاد بالقرآن الكريم في الوعظ، والتعليم، والتذكير، والتوجيه العام، فلا ينبغي للمربي أن يغفل عن الاستشهاد بالقرآن في التوجيه والحديث الفردي؛ فذلك له أثره البالغ في وصول الرسالة، وتربية النفس على حب القرآن، والتلقي منه كما سبق.

وكثيرٌ مما يعرض للمتربي من مواقف يمكن أن يستشهد بتوجيهه فيها بالقرآن الكريم، ومن ذلك على سبيل المثال:

- حين تُصيبه مصيبة فيحزن ويأسى، فمن المهم تذكيره بما ورد في القرآن من أن ما يصيبه إنما هو من الله عز وجل، قال سبحانه: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِيٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾ (الحديد: ٢٢).

- وحين يفوته ما كان حريصًا عليه، ساعيًا له، مجتهدًا في البحث عنه، يُذكِّره بقوله تعالى: ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُواْ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّواْ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ﴾ (البقرة: ٢١٦)، وقوله: ﴿فَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُواْ شَيْـًٔا وَيَجْعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ (النساء: ١٩).

- وحين يهمُّ باتخاذ قرار في شأن من حياته؛ فليرشده إلى الاستشارة، مُستشهدًا بقوله تعالى لنبيه: ﴿فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي ٱلْأَمْرِ﴾ (آل عمران:

١٥٩)، فإذا أمر النبي ﷺ، وهو أعقل الناس، وأحكمهم بالاستشارة فغيره من باب أَوْلَى.

- وهكذا حين يُحدِّثه عن ذكر الله عز وجل؛ فإنه يُذكِّره بالمنزلة العالية التي وعد الله سبحانه وتعالى بها مَن يُذكِّره، فقال: ﴿فَٱذۡكُرُونِيٓ أَذۡكُرۡكُمۡ﴾ (البقرة: ١٥٢).

وهكذا، فإنه ما من مجال وميدان من ميادين النفس إلا وفي القرآن الكريم أمر، أو نهي، أو بيان عاقبة مَن فعله إما محسنًا، أو مسيئًا.

* * *

الفصل السادس: التواصل النبوي

التبسط والتواضع.

الرعاية الخاصة.

العاطفة الصادقة.

الاهتمام بأصحابه.

العلاقة التواصلية.

التواصل النبوي

التربية تفاعل بين مُربٍّ، ومُتلقٍّ للتربية، وهي عملية إنسانية تفاعلية؛ فالعلاقة بين المربي والمتعلم لها أثر بالغ في الاستعداد للقبول والتلقي.

وقد خصَّ الله عز وجل نبيَّه محمدًا ﷺ بكريم الأخلاق، وجميل الصفات، فزكَّاه سبحانه، وشهد له بحسن الخلق، كما قال عز وجل: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ (القلم: ٤).

وامتنَّ سبحانه وتعالى على أصحابه بحُسن خُلقه ﷺ، فقال عز وجل: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾. (التوبة: ١٢٨).

كما بيَّن القرآن الكريم أثر حُسن خلقه ﷺ على اجتماع كلمتهم عليه ﷺ، فقال سبحانه وتعالى: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾ (آل عمران: ١٥٩).

والحديث عن حُسن خلقه ﷺ يطول، وليس هذا مقام بسطه والتفصيل فيه، وإنما سنتناول هنا ما يتصل بالعلاقة التربوية.

التبسط والتواضع

رسول الله ﷺ هو خير البشر، وهو سيد ولد آدم، وله المقام العظيم في الدنيا والآخرة، ومع ذلك كان ﷺ يعيش مع أصحابه حياة التواضع والتبسط، يجالسهم كأحدهم، ويتعامل معهم دون تكلف، أو ترفع.

ومن صور تواضعه ﷺ وتبسطه معهم ما يلي:

١ - التبسم والطلاقة:

كان ﷺ طلقًا كثير التبسم لأصحابه، فيُحدِّث عنه جرير بن عبد الله ﷺ أنه يتبسم كلما لقيه، عن جرير ﷺ قال: ما حجبني النبي ﷺ منذ أسلمت، ولا رآني إلا تبسم في وجهي، ولقد شكوت إليه إني لا أثبت على الخيل، فضرب بيده في صدري، وقال: «اللهم ثبِّته، واجعله هاديًا مهديًا». (أخرجه البخاري ٣٠٣٦، ومسلم ٢٤٧٥).

وتبسمه ﷺ لم يكن خاصًا بجرير ﷺ فعن عبد الله بن الحارث بن جزء ﷺ قال: ما رأيت أحدًا أكثر تبسمًا من رسول الله ﷺ. (أخرجه أحمد ١٧٧١٣، والترمذي ٣٦٤١، وعند الترمذي عن عبد الله بن الحارث بن حزم).

قال الأحوذي: «لأن شأن الكُمَّل إظهار الانبساط والبشر لمن يريدون تألفه واستعطافه». (تحفة الأحوذي ١٠/ ٨٦-٨٧).

وبقيت الابتسامة ملازمة له ﷺ طوال حياته، فقد كانت ابتسامته، وثغره الشريف ﷺ آخر مشهد رآه عليه أصحابه رضوان الله عليهم، فعن أنس بن مالك الأنصاري ﷺ- وكان تبع النبي ﷺ، وخدمه، وصحبه- أن أبا بكر ﷺ كان يُصلِّي لهم في وجع النبي ﷺ الذي توفي فيه، حتى إذا كان يوم الاثنين، وهم صفوف في الصلاة، فكشف النبي ﷺ ستر

الحجرة ينظر إلينا، وهو قائم، كأن وجهه ورقة مصحف، ثم تبسم يضحك، فهممنا أن نفتتن من الفرح برؤية النبي ﷺ، فنكص أبو بكر على عقبيه ليَصِلَ الصف، وظن أن النبي ﷺ خارج إلى الصلاة، فأشار إلينا النبي ﷺ: «أن أتموا صلاتكم»، وأرخى الستر، فتوفي من يومه. (أخرجه البخاري ٦٨٠، ومسلم ٤١٩).

وفي رواية للبخاري (٦٨١): فلما وضح وجه النبي ﷺ، ما نظرنا منظرًا كان أعجب إلينا من وجه النبي ﷺ حين وضح لنا.

وحثَّ ﷺ أصحابه على التخلُّق بهذا الخلق، فعدَّ التبسم صدقة، فعن أبي ذَرٍّ ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «تبسُّمك في وجه أخيك لك صدقة، وأمرك بالمعروف، ونهيك عن المنكر صدقة، وإرشادك الرجل في أرض الضلال لك صدقة، وبصرك للرجل الرديء البصر لك صدقة، وإماطتك الحجر، والشوكة، والعظم عن الطريق لك صدقة، وإفراغك من دلوك في دلو أخيك لك صدقة». (أخرجه الترمذي ١٩٥٦).

٢- إجابة الدعوة:

ومن تبسطه ﷺ مع أصحابه، وحسن تعامله معهم: إجابة دعوتهم، فعن أنس بن مالك ﷺ قال: إن خياطًا دعا رسول الله ﷺ لطعام صنعه، قال أنس بن مالك: فذهبت مع رسول الله ﷺ إلى ذلك الطعام، فقرب إليَّ رسول الله ﷺ خبزًا ومرقًا، فيه دُبَّاء، وقديد، فرأيت النبي ﷺ «يتتبع الدُّبَّاء من حوالي القصعة»، قال: «فلم أزل أحب الدُّبَّاء من يومئذ». (أخرجه البخاري ٢٠٩٢، ومسلم ٢٠٤١).

وعن أبي مسعود ﷺ قال: جاء رجل من الأنصار، يُكْنَى أبا شعيب، فقال لغلام له قصَّاب: اجعل لي طعامًا يكفي خمسة، فإني أريد أن أدعو النبي ﷺ خامس خمسة، فإني قد عرفت في وجهه الجوع، فدعاهم، فجاء معهم رجل، فقال النبي ﷺ: «إن هذا قد تبعنا، فإن

شئت أن تأذن له، فأذن له، وإن شئت أن يرجع رجع»، فقال: لا، بل قد أذنت له. (أخرجه البخاري ٢٠٨١، ومسلم ٢٠٣٦).

وإجابة النبي ﷺ لدعوتهم ليست خاصة بكبار أصحابه، وخواصهم رضوان الله عليهم، بل هي تشمل الجميع، ومن صور ذلك ما يلي:

١ - إجابة دعوة المملوك والضعيف:

من جميل خلقه، وكماله ﷺ، وتبسطه مع أصحابه رضوان الله عليهم: أنه كان يُجيب دعوة الضعيف، والمملوك، والفقير.

عن أنس بن مالك ﷺ قال: كان رسول الله ﷺ يجيب دعوة المملوك. (أخرجه ابن ماجه ٢٢٩٦).

وعن أنس بن مالك ﷺ قال: كان رسول الله ﷺ يعود المريض، ويشهد الجنازة، ويركب الحمار، ويجيب دعوة العبد، وكان يوم بني قريظة على حمار مخطوم بحبل من ليف، عليه إكاف من ليف. (أخرجه الترمذي ١٠١٧، وابن ماجه ٤١٨٧).

إن إجابة دعوة الضعفاء نموذج عالٍ من التبسط والتواضع، وهو يوصل رسالة لهم بقيمتهم ومنزلتهم، وإتاحة الفرصة لهم بأن ينالوا بركة دخوله ﷺ منازلهم، وأكله طعامهم.

كما أن الأغلب على هؤلاء بساطة طعامهم، وفقرهم، وضعف حالهم، وهم حين يدعون النبي ﷺ وهذه حالهم، فإن هذا دليل على ما أَلِفُوه منه ﷺ من التواضع والتبسط، والبعد عن الكلفة.

ب - إجابة دعوة الشباب من أصحابه:

ومن تبسطه ﷺ في تعامله مع أصحابه: أنه كان يجيب دعوة الشباب اليافعين، عن

عبد الله بن بُسر المازني رضي الله عنهما قال: بعثني أبي إلى رسول الله ﷺ أدعوه إلى طعام، فجاء معي، فلما دنوت من المنزل أسرعت، فأعلمت أبوي، فخرجا، فتلقَّيا رسول الله ﷺ، ورحبًّا به، ووضعنا له قطيفة كانت عندنا زئبرية، فقعد عليها، ثم قال أبي لأمي: هات طعامك، فجاءت بقصعة فيها دقيق قد عصَّدَتْه بماء وملح، فوضعته بين يدي رسول الله ﷺ فقال: «خذوا بسم الله من حواليها، وذروا ذروتها؛ فإن البركة فيها»، فأكل رسول الله ﷺ، وأكلنا معه، وفضل منها فضلة، ثم قال رسول الله ﷺ: «اللهم اغفر لهم، وارحمهم، وبارك عليهم، ووسع عليهم في أرزاقهم». (أخرجه أحمد ١٧٦٧٨).

ومن إجابته ﷺ لدعوتهم أن أبا أسيد الساعدي رضي الله عنه دعا رسول الله ﷺ في عُرْسه، عن سهل بن سعد: أن أبا أسيد الساعدي رضي الله عنهما، دعا النبي ﷺ لعُرْسه، فكانت امرأته خادمهم يومئذ، وهي العروس فقالت، أو قال: «أتدرون ما أنقعتُ لرسول الله ﷺ؟ أنقعتُ له تمرات من الليل في تَوْر». (أخرجه البخاري ٥١٨٣، ومسلم ٥٠٠٦).

ج- كانوا يوصون الشباب بدعوته:

ويبلغ الأمر لدى أصحاب النبي ﷺ أنهم لم يكونوا يتكلفون في أسلوب دعوته إلى منازلهم، ففي مواقف عِدَّة كان أحدهم يرسل ابنه الشاب ليتولى دعوة النبي ﷺ؛ فيجيب ﷺ الدعوة.

عن أنس رضي الله عنه أن أُمَّه- أم سليم رضي الله عنها- عمدت إلى مُدٍّ من شعير جشَّتْهُ، وجعلت منه خطيفة، وعصرت عكَّة عندها، ثم بعثتني إلى النبي ﷺ، فأتيته وهو في أصحابه، فدعوته، قال: «ومَن معي؟» فجئت، فقلت: إنه يقول: ومن معي، فخرج إليه أبو طلحة قال: يا رسول الله، إنما هو شيء صنعته أم سليم، فدخل فجيء به، وقال: «أَدْخِل عليَّ عشرة»، فدخلوا، فأكلوا حتى شبعوا، ثم قال: «أدخل عليَّ عشرة»، فدخلوا، فأكلوا حتى شبعوا،

ثم قال: «أدخل عليَّ عشرة» حتى عدَّ أربعين، ثم أكل النبي ﷺ، ثم قام، فجعلت أنظر هل نقص منها شيء؟ (أخرجه البخاري ٥٤٥٠، ومسلم ٢٠٤٠).

ولم يكن تكليفهم الشباب بدعوته ﷺ جفاءً منهم رضوان الله عليهم، ولا قصورًا في مكانته ﷺ لديهم- حاشاهم-؛ فحالهم في توقيره وإجلاله لا تخفى.

إن ذلك الخلق الرفيع منه ﷺ يترك أثره على هؤلاء الشباب؛ فيقتدون، ويتأسون به، وهو سيد الخلق ﷺ، كما أنه يشعرهم بمكانتهم وقيمتهم؛ وشعور الفرد بقيمته ومكانته له أثره على أدائه في مواقف الحياة.

لقد ترسخت اليوم لدى كثير من مجتمعات المسلمين تقاليد وقيم أصَّلت للكلفة في التعامل، وألبست بعض صفات التعالي والتكبر صفةَ التقدير ورعاية المكانة، فليس من المقبول اليوم في مجتمعاتنا أن يكلِّف الأب ابنَه بدعوة قريب إلى مناسبة، حتى لو كان المدعو أخاه، أو ابن عمه، ولو فعل أحدهم ذلك لَعَدُّوه مستخِفًّا بهم، وربما لم يجيبوا دعوته، وما من أحد أعلى مكانة في هذه الدنيا من رسول الله ﷺ، وليس من جيل أكثر أدبًا، وأحسن خلقًا، وأسمى ذوقًا من أصحاب رسول الله ﷺ، ومع ذلك كانت علاقتهم به على هذه الحال.

د- دعوتهم لطعامه:

ولا يقف الأمر عند إجابته ﷺ دعوة الصغير والكبير، بل كان ﷺ يدعوهم إلى طعامه، فقد دعا جابر بن عبد الله رضي الله عنهما؛ فعنه رضي الله عنه قال: كنت جالسًا في داري، فمرَّ بي رسول الله ﷺ فأشار إليَّ، فقمت إليه، فأخذ بيدي، فانطلقنا حتى أتى بعض حجر نسائه فدخل،ثم أذن لي، فدخلت- والحجاب عليها-، فقال:«هل من غداء؟» فقالوا: نعم، فأتي بثلاثة أقرصة، فوضعن على نبي[1]، فأخذ رسول الله ﷺ قرصًا فوضعه بين يديه،

(١) مائدة من خوص، روي (بتِّي) والبتُّ: كساء من وبر أو صوف، فلعله منديل وضع عليه هذا الطعام (شرح النووي لمسلم١٣/ ٢٥١).

وأخذ قرصًا آخر فوضعه بين يدي، ثم أخذ الثالث، فكسره باثنين، فجعل نصفه بين يديه، ونصفه بين يديَّ، ثم قال: «هل من أُدْم؟» قالوا: لا إلا شيء من خلٍّ، قال: «هاتوه، فنعم الأُدْم هو». (أخرجه مسلم ٢٠٥٢).

٣- ممازحته لهم:

ومن صور تواضعه ﷺ لأصحابه وتبسطه معهم: أنه كان يُمازحهم؛ فيمازح الصغير منهم، كما يحدثنا عن ذلك صاحبه وغلامه أنس رضي الله عنه فيقول: قال لي رسول الله ﷺ: «يا ذا الأذنين». (أخرجه أبو داود ٥٠٠٢، والترمذي ٣٨٢٨- ١٩٩٢، وأحمد ١١٧٥٤).

وكان يُمازح أبا عمير أخا أنس رضي الله عنهما، فعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: إن كان النبي ﷺ ليُخالطنا حتى يقول لأخ لي صغير: «يا أبا عُمَيْرٍ، ما فعل النُّغَيْرُ». (أخرجه البخاري ٦١٢٩، ومسلم ٢١٥٠).

وفي رواية: أن النبي ﷺ كان يدخل على أم سليم، ولها ابن من أبي طلحة يكنى أبا عمير، وكان يمازحه، فدخل عليه، فرآه حزينًا، فقال: «مالي أرى أبا عُمَيْرٍ حزينًا» فقالوا: مات نُغَرُه الذي كان يلعب به، قال: فجعل يقول: «أبا عُمَيْرٍ، ما فعل النُّغَيْرُ؟». (أخرجه أحمد ١٢٥٤٥).

ولم تكن ممازحته ﷺ قاصرة على الصغار والولدان، فقد كان يمازح الكبار منهم، وربما في موطن من مواطن الجد؛ فعن أنس بن مالك رضي الله عنه أن رجلًا استحمل رسول الله ﷺ، فقال: «إني حاملك على ولد الناقة»، فقال: يا رسول الله، ما أصنع بولد الناقة؟ فقال رسول الله ﷺ: «وهل تلد الإبل إلا النوق؟». (أخرجه الترمذي ١٩٩١، وأبو داود ٤٩٩٨، وأحمد ١٣٤٠٥).

ولم يكن مزاحه ﷺ مزيلًا للوقار والهيبة، ولا مُبرِّرًا لقول الباطل، فلم يكن يكذب ﷺ قطُّ في مزاحه، فحين سأله أصحابه رضوان الله عليهم عن ممازحته لهم، أخبرهم أنه لا

يقول سوى الحق، فعن أبي هريرة ﷺ قال: قالوا يا رسول الله، إنك تداعبنا، قال: «إني لا أقول إلا حقًّا». (أخرجه الترمذي ١٩٩٠، أحمد ٨٥٠٦).

ومزاحه ﷺ مع أصحابه ليس قاصرًا على اللفظ والكلام، فربما مازحهم ﷺ بيده، وقد فعل ذلك ﷺ مع الصغار، فعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كنت ألعب مع الصبيان، فجاء رسول الله ﷺ، فتواريت خلف باب، قال: فجاء، فَحَطَأَنِي حَطْأَةً، وقال: «اذهب، وادع لي معاوية» قال: فجئت، فقلت: هو يأكل، قال: ثم قال لي: «اذهب فادع لي معاوية»، قال: فجئت، فقلت: هو يأكل، فقال: «لا أشبعَ اللهُ بطنَه»، قال ابن المثنى: قلت لأمية: ما حطأني؟ قال: قَفَدَنِي قَفْدَة. (أخرجه مسلم ٢٦٠٤).

وعن أسيد بن حضير- رجل من الأنصار- قال: بينما هو يُحدِّث القوم، وكان فيه مزاحٌ بَيِّنًا يضحكهم، فطعنه النبي ﷺ في خاصرته بعود، فقال: أصبرني، فقال: «اصطبر» قال: إن عليك قميصًا، وليس عليَّ قميص، فرفع النبي ﷺ عن قميصه، فاحتضنه، وجعل يقبل كَشْحَه، قال: إنما أردت هذا يا رسول الله. (أخرجه أبو داود ٥٢٢٤).

إن المزاح منه ﷺ- وهو في مقامه العالي- نموذج للتواضع والتبسط، وهو مما يعين على زوال الكلفة، ويُذيب كثيرًا من الحواجز التي قد تعيقهم عن التواصل معه ﷺ، كما في حديث ذي اليدين رضي الله عنه، فقد هاب الصحابة أن يكلموه، فتحدث ذو اليدين الذي كان ﷺ يمازحه، ويسميه (ذا اليدين). (انظر صحيح البخاري ٦٠٥١).

وحين يمازح المربي تلامذته فحَرِيٌّ به أن يحفظ وقاره وسَمْتَه، فلا يبالغ في التبسط بما يفقده الهيبة، ولا يبالغ في التحفظ بما يُضفي على شخصيته هَالَةً مبالغًا فيها.

يُوجِّه الخطيبُ البغداديُّ المعلمَ قائلًا: «يجب أن يتقي المزاح في مجلسه؛ فإنه يسقط الحشمة، ويُقلُّ الهيبة»، ويسوق بإسناده إلى الأحنف بن قيس قال: قال لي عمر بن الخطاب

ﷺ: «يا أحنف، من كَثُرَ ضحكه؛ قلَّت هيبته، ومَن أكثر من شيء عُرِف به، ومَن مزح؛ استُخِفَّ به». (الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع ٢/ ٥٠).

وقال محمد بن المنكدر: قالت لي أمي: يا بني، لا تمازح الصبيان؛ فتهون عليهم». (الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع ٢/ ١٥٠).

٤- تقبُّل المزاح منهم:

ولم يكن الأمر قاصرًا على ممازحته ﷺ لهم، بل كان يتقبل المزاح حين يصدر من أحدهم، فعن المقداد ﷺ قال: أقبلت أنا وصاحبان لي، وقد ذهبت أسماعنا وأبصارنا من الجهد، فجعلنا نعرض أنفسنا على أصحاب رسول الله ﷺ، فليس أحد منهم يقبلنا، فأتينا النبي ﷺ، فانطلق بنا إلى أهله، فإذا ثلاثة أعنز، فقال النبي ﷺ: «احتلبوا هذا اللبن بيننا» قال: فكُنَّا نحتلب، فيشرب كل إنسان مِنَّا نصيبه، ونرفع للنبي ﷺ نصيبه، قال: فيجيء من الليل، فيُسلِّم تسليمًا لا يوقظ نائمًا، ويسمع اليقظان، قال: ثم يأتي المسجد، فيصلي، ثم يأتي شرابه فيشرب، فأتاني الشيطان ذات ليلة، وقد شربت نصيبي، فقال: محمد يأتي الأنصار فيُتْحِفُونه، ويصيب عندهم، ما به حاجة إلى هذه الجرعة، فأتيتها فشربتها، فلما أن وغلت في بطني، وعلمت أنه ليس إليها سبيل، قال: ندَّمني الشيطان، فقال: ويحك، ما صنعت؟ أشربت شراب محمد؟ فيجيء فلا يجده، فيدعو عليك؛ فتهلك؛ فتذهب دنياك وآخرتك، وعليَّ شملة، إذا وضعتها على قدمي؛ خرج رأسي، وإذا وضعتها على رأسي؛ خرج قدماي، وجعل لا يجيئني النوم، وأما صاحباي فناما، ولم يصنعا ما صنعت، قال: فجاء النبي ﷺ، فسلَّم كما كان يسلم، ثم أتى المسجد فصلَّى، ثم أتى شرابه، فكشف عنه، فلم يجد فيه شيئًا، فرفع رأسه إلى السماء، فقلت: الآن يدعو عليَّ؛ فأهلك فقال: «اللهم أَطْعِم مَن أطعمني، وأَسْقِ مَن أسقاني» قال: فعمدت إلى الشملة فشددتها عليَّ، وأخذت

الشفرة، فانطلقت إلى الأعنز، أيها أسمن فأذبحها لرسول الله ﷺ، فإذا هي حافلة، وإذا هن حُفَّلٌ كلهن، فعمدت إلى إناء لآل محمد ﷺ ما كانوا يطمعون أن يحتلبوا فيه قال: فحلبت فيه حتى علته رغوة، فجئت إلى رسول الله ﷺ فقال: «أشربتم شرابكم الليلة؟» قال: قلت: يا رسول الله، اشرب فشرب، ثم ناولني، فقلت: يا رسول الله، اشرب فشرب، ثم ناولني، فلما عرفت أن النبي ﷺ قد روي، وأصبت دعوته؛ ضحكت حتى أُلقيت إلى الأرض، قال: فقال النبي ﷺ: «إحدى سوآتك يا مقداد» فقلت: يا رسول الله، كان من أمري كذا وكذا، وفعلت كذا، فقال النبي ﷺ: «ما هذه إلا رحمة من الله، أفلا كنت آذنتني، فنوقظ صاحبينا؛ فيصيبان منها؟» قال: فقلت: والذي بعثك بالحق ما أبالي إذا أصبتها، وأصبتها معك من أصابها من الناس. (أخرجه مسلم ٢٠٥٥).

وأصحاب النبي ﷺ يختلفون- تبعًا لاختلاف طبائعهم- في مزاحهم مع النبي ﷺ، إلا أنهم يتفقون على توقيره وإجلاله.

ومثل هذه الممازحة منهم مع النبي ﷺ دليل على ما أَلِفُوه منه من حسن تعامل، وتبسط، وتواضع.

٥- تبسطه في مجلسه:

وكان ﷺ يتبسط في مجالسته لهم، ويستمع لحديثهم وضحكهم، فعن سِمَاكِ بن حَرْبٍ قال: قلت لجابر بن سَمُرَةَ ﷺ: أكنت تجالس رسول الله ﷺ؟ قال: نعم، كثيرًا، كان لا يقوم من مُصلَّاه الذي يصلي فيه الصبح أو الغداة حتى تطلع الشمس، فإذا طلعت الشمس قام، وكانوا يتحدثون فيأخذون في أمر الجاهلية؛ فيضحكون، ويتبسم. (أخرجه مسلم ٦٧٠).

وفي رواية: فيتحدث أصحابه يذكرون حديث الجاهلية، وينشدون الشعر، ويضحكون، ويتبسم ﷺ. (أخرجه النسائي ١٣٥٨).

فهو هنا ﷺ يستمع لحديثهم في أمور الجاهلية وما كان فيها، ويتبسم ﷺ تفاعلًا مع حديثهم، قال النووي: «وفيه جواز الحديث بأخبار الجاهلية، وغيرها من الأمم، وجواز الضحك، والأفضل الاقتصار على التبسم، كما فعله رسول الله ﷺ في عامة أوقاته، قالوا: ويكره إكثار الضحك، وهو في أهل المراتب والعلم أقبح، والله أعلم». (شرح صحيح مسلم ١٥/ ٧٩).

وكان ﷺ يجلس مع أصحابه كواحد منهم لدرجة أن مَن يأتي إلى مجلسه قد لا يعرفه ﷺ، فعن أنس بن مالك ﷺ قال: بينما نحن جلوس مع النبي ﷺ في المسجد، دخل رجل على جمل، فأناخه في المسجد ثم عقله، ثم قال لهم: أيكم محمد؟ والنبي ﷺ متكئ بين ظهرانيهم، فقلنا: هذا الرجل الأبيض المتكئ، فقال له الرجل: ابن عبد المطلب، فقال له النبي ﷺ: «قد أجبتك»، فقال الرجل للنبي ﷺ: إني سائلك فمشدد عليك في المسألة، فلا تجد علي في نفسك؟ فقال: «سَلْ عما بَدَا لك» فقال: أسألك بربِّك، وربِّ مَن قبلك، آلله أرسلك إلى الناس كلهم؟ فقال: «اللهم نعم»، قال: أنشدك بالله، آلله أمرك أن نصلي الصلوات الخمس في اليوم والليلة؟ قال: «اللهم نعم» قال: أنشدك بالله، آلله أمرك أن نصوم هذا الشهر من السنة؟ قال: «اللهم نعم» قال: أنشدك بالله، آلله أمرك أن تأخذ هذه الصدقة من أغنيائنا فتقسمها على فقرائنا؟ فقال النبي ﷺ: «اللهم نعم» فقال الرجل: آمنت بما جئت به، وأنا رسول من ورائي من قومي، وأنا ضمام بن ثعلبة أخو بني سعد بن بكر. (أخرجه البخاري ٦٣).

فحين جاء ضمام ﷺ لم يعرف رسول الله ﷺ إلا حين سأل عنه، ولو كان مجلسه متميزًا بينهم لم يحتج لذلك.

وفي جلوسه متكئًا بين ظهرانيهم شاهد آخر على تواضعه وتبسطه ﷺ، قال ابن حجر: «فيه جواز اتِّكاء الإمام بين أتباعه، وفيه ما كان رسول الله ﷺ عليه من ترك التكبر؛ لقوله:

«بين ظهرانَيهم»، وهي بفتح النون أي:بينهم، وزيد لفظ الظهر ليدل على أن ظهرًا منهم قدامه، وظهرًا وراءه، فهو محفوف بهم من جانبيه». (فتح الباري ١/ ١٥٠).

ووقع ذلك- أيضًا- لجابر بن سليم ﷺ، فعن جابر بن سليم ﷺ، قال: أتيت رسول الله ﷺ، وهو مُحْتَبٍ بشملة له، وقد وقع هُدْبُهَا على قدميه، فقلت: أيُّكم محمد، أو رسول الله؟ فأومأ بيده إلى نفسه، فقلت: يا رسول الله، إني من أهل البادية، وفيَّ جفاؤهم فأوصني، فقال: «لا تحقرن من المعروف شيئًا، ولو أن تلقى أخاك ووجهك منبسط، ولو أن تفرغ من دلوك في إناء المستسقي، وإن امرؤ شتمك بما يعلم فيك، فلا تشتمه بما تعلم فيه، فإنه يكون لك أجره، وعليه وزره، وإياك وإسبال الإزار، فإن إسبال الإزار من المَخِيلَة، وإن الله لا يحب المَخِيلَة، ولا تسُبَّنَّ أحدًا»، فما سببت بعده أحدًا، ولا شاة، ولا بعيرًا. (أخرجه أحمد ٢٠٦٣٥).

ومما يؤكد أن الأمر كان هديًا راتبًا له ﷺ، ولم يكن عارضًا: أن أصحابه رضوان الله عليهم سعوا لتمييز مجلسه، لا لأنه يريد ذلك، إنما ليعرفه الغريب، عن أبي هريرة، وأبي ذر رضي الله عنهما قالا: كان رسول الله ﷺ يجلس بين ظهراني أصحابه، فيجيء الغريب؛ فلا يدري أيهم هو حتى يسأل، فطلبنا إلى رسول الله ﷺ أن نجعل له مجلسًا يعرفه الغريب إذا أتاه؛ فبنينا له دُكَّانًا من طين كان يجلس عليه، وإنا لجلوس، ورسول الله ﷺ في مجلسه إذ أقبل رجل أحسن الناس وجهًا، وأطيب الناس ريحًا، كأن ثيابه لم يمسها دَنَس، حتى سلم في طرف البساط، فقال: السلام عليك يا محمد، فردَّ عليه السلام، قال: أدنو يا محمد؟ قال: ادْنُه، فما زال يقول: أدنو؟، مرارًا، ويقول له: ادن، حتى وضع يده على ركبتي رسول الله ﷺ، قال: يا محمد، أخبرني ما الإسلام؟ قال: الإسلام أن تعبد الله، ولا تشرك به شيئًا، وتقيم الصلاة، وتؤتي الزكاة، وتحج البيت، وتصوم رمضان، قال: إذا فعلت ذلك فقد أسلمت؟ قال: نعم، قال: صدقت، فلما سمعنا قول الرجل: صدقت؛ أنكرناه، قال:

يا محمد، أخبرني ما الإيمان؟ قال: الإيمان بالله، وملائكته، والكتاب، والنبيين، وتؤمن بالقَدَر، قال: فإذا فعلت ذلك فقد آمنت؟ قال رسول الله ﷺ: نعم، قال: صدقت، قال: يا محمد، أخبرني ما الإحسان؟ قال: أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك قال: صدقت، قال: يا محمد، أخبرني متى الساعة، قال: فنكس، فلم يُجِبْهُ شيئًا، ثم أعاد، فلم يُجِبْهُ شيئًا، ثم أعاد، فلم يُجِبْهُ شيئًا، ورفع رأسه، فقال: ما المسئول عنها بأعلم من السائل، ولكن لها علامات تُعرف بها، إذا رأيت الرِّعاء البهم يتطاولون في البنيان، ورأيت الحُفاة العُراة ملوك الأرض، ورأيت المرأة تلد ربَّها، خمس لا يعلمها إلا الله: إن الله عنده علم الساعة، إلى قوله: إن الله عليم خبير، ثم قال: لا، والذي بعث محمدًا بالحق هدًى وبشيرًا ما كنت بأعلم به من رجل منكم، وإنه لجبريل عليه السلام نزل في صورة دِحْيَة الكلبي. (أخرجه النسائي ٤٩٩١، وأصله في البخاري ٤٧٧٧، ومسلم ٩).

ولم يكن ﷺ يرضى منهم مظاهر التعظيم من القيام له، فعن أنس ﵁ قال: لم يكن شخص أحب إليهم من رسول الله ﷺ، قال: وكانوا إذا رأوه لم يقوموا؛ لما يعلمون من كراهيته لذلك. (أخرجه الترمذي ٢٧٥٤، وأحمد ١٢٣٤٥) .

قال المباركفوري: «"لم يقوموا؛ لما يعلمون من كراهيته لذلك" أي: لقيامهم تواضعًا لربه، ومخالفته لعادة المتكبرين والمتجبرين، بل اختار الثبات على عادة العرب في ترك التكلف في قيامهم، وجلوسهم، وأكلهم، وشربهم، ولبسهم، ومشيهم، وسائر أفعالهم وأخلاقهم». (تحفة الأحوذي ٨/ ٢٤).

٦- الإرداف على الدابة:

ومن تبسطه ﷺ وتواضعه مع أصحابه رضوان الله عليهم: أنه كثيرًا ما كان يُردف أحدهم معه على دابته، فعن عبد الله بن جعفر ﵁ قال: أردفني رسول الله ﷺ ذات يوم

خلفه، فأسرَّ إليَّ حديثًا لا أُحدِّث به أحدًا من الناس، وكان أحب ما استتر به رسول الله ﷺ لحاجته هدف، أو حائش نخل. (أخرجه مسلم ٣٤٢).

٧- قبول هداياهم:

ومن تواضعه وتبسطه ﷺ مع أصحابه: أنه كان يقبل هداياهم، فعن أم عطية ﵂ قالت: بعث إلى نسيبة الأنصارية بشاة، فأرسلت إلى عائشة ﵂ منها، فقال النبي ﷺ: «عندكم شيء؟» فقلت: لا، إلا ما أرسلت به نسيبة من تلك الشاة، فقال:«هات، فقد بلغت محلها». (أخرجه البخاري ١٤٤٦، ومسلم ١٠٧٦).

وعن أنس ﵁ أن اليهود كانوا إذا حاضت المرأة فيهم؛ لم يؤاكلوها، ولم يجامعوهن في البيوت، فسأل أصحابُ النبيِّ ﷺ النبيَّ ﷺ فأنزل الله تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى فَٱعْتَزِلُوا۟ ٱلنِّسَآءَ فِى ٱلْمَحِيضِ﴾ (البقرة: ٢٢٢) إلى آخر الآية، فقال رسول الله ﷺ: «اصنعوا كل شيء إلا النكاح»، فبلغ ذلك اليهود فقالوا: ما يريد هذا الرجل أن يدع من أمرنا شيئًا إلا خالفنا فيه، فجاء أسيد بن حضير، وعباد بن بشر فقالا: يا رسول الله، إن اليهود تقول كذا وكذا فلا نجامعهن؟ فتغير وجه رسول الله ﷺ حتى ظننا أن قد وجد عليهما، فخرجا فاستقبلهما هدية من لبن إلى النبي ﷺ فأرسل في آثارهما، فسقاهما، فعرفا أن لم يجد عليهما. (أخرجه مسلم ٣٠٢).

بل إنه ﷺ كان يقبل الهدية ممن ملكها عن طريق الصدقة، فعن أنس ﵁ أن النبي ﷺ أتي بلحم تصدق به على بريرة فقال: «هو عليها صدقة، وهو لنا هدية». (أخرجه البخاري ١٤٩٥، ومسلم ١٠٧٤).

وربما أكل ﷺ مما أعطته زوجته صدقة لمولاتها؛ فعن جويرية ﵂، أن رسول الله ﷺ دخل عليها فقال: «هل من طعام؟» قالت: لا والله يا رسول الله، ما عندنا طعام إلا

عظم من شاة أعطيته مولاتي من الصدقة، فقال: «قرِّبيه؛ فقد بلغت محلَّها». (أخرجه مسلم ١٠٧٣).

٨- تبسطه ولينه مع العصاة:

ولم يكن تبسطه ﷺ قاصرًا على الأتقياء من خاصة أصحابة، بل كان يتبسط مع أهل التقصير.

عن عائشة رضي الله عنها، أن رجلًا استأذن على النبي ﷺ؛ فلما رآه قال: بئس أخو العشيرة، وبئس ابن العشيرة، فلما جلس تطلَّق النبي ﷺ في وجهه، وانبسط إليه، فلما انطلق الرجل قالت له عائشة: يا رسول الله، حين رأيت الرجل قلت له كذا وكذا، ثم تطلقت في وجهه، وانبسطت إليه، فقال رسول الله ﷺ: «يا عائشة متى عهدتني فحَّاشًا؟ إن شر الناس عند الله منزلة يوم القيامة مَن تركه الناس اتِّقاء شره». (أخرجه البخاري ٦٠٣٢، ومسلم ٢٥٩١).

الرعاية الخاصة

ومع اهتمامه ﷺ بعموم أصحابه رضوان الله عليهم، إلا أنه كان يولي مَن يحتاج منهم رعاية واهتمامًا أخص، ومن ذلك ما يلي:

١ - الاعتناء بالضعيف:

كان ﷺ يُعنى بالضعفاء ويرعاهم، وبخاصة حين يتطلب الموقف ذلك: كالسفر والتنقل؛ فالضعيف قد لا يجد راحلة تحمله، أو قد لا تعينه راحلته على المسير كما يسير الجيش.

عن أبي الزبير، أن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما حدثهم قال: كان رسول الله ﷺ يتخلف في المسير، فيزجي الضعيف، ويُردِف ويدعو لهم. (أخرجه أبو داود في سننه ٢٦٣٩).

بل كان ﷺ يحثهم على تقديم الضعفاء له، ويبين أنهم من أسباب تحصيل النصر والرزق، فعن جبير بن نفير الحضرمي أنه سمع أبا الدرداء رضي الله عنه يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «أبغوني الضعفاء؛ فإنما تُرزقون وتُنصرون بضعفائكم». (أخرجه أبو داود ٢٥٩٤، والترمذي ١٧٠٢، والنسائي ٣١٧٩).

وكان ﷺ يمنح الضعفاء من وقته، ويعتني بقضاء حاجاتهم، فعن أنس بن مالك رضي الله عنه، أن امرأة كان في عقلها شيء فقالت: يا رسول الله، إن لي إليك حاجة، فقال: «يا أم فلان، انظري أي السكك شئتِ حتى أقضي لك حاجتك، فخلا معها[1] في بعض الطرق حتى فرغت من حاجتها. (أخرجه مسلم ٢٣٢٤).

(١) قال النووي في توجيه قول الرواي: خلا معها في بعض الطرق: «أي: وقف معها في طريق مسلوك ليقضي حاجتها ويفتيها في الخلوة، ولم يكن ذلك من الخلوة بالأجنبية؛ فإن هذا كان في ممر الناس ومشاهدتهم إياه وإياها، لكن لا يسمعون كلامها؛ لأن مسألتها مما لا يظهره. والله أعلم» (شرح صحيح مسلم ١٥/ ٨٣).

وكان ﷺ يلبي حاجتهم في تبركهم بآثاره، فعن أنس بن مالك رضي الله عنه، قال: «كان رسول الله ﷺ إذا صلَّى الغداة جاء خدم المدينة بآنيتهم فيها الماء، فما يؤتى بإناء إلا غمس يده فيها، فربما جاؤوه في الغداة الباردة، فيغمس يده فيها». (أخرجه مسلم ٢٣٢٤)، وبوَّب عليه النووي: باب قُرب النبي عليه السلام من الناس، وتبركهم به.

ويراعي ﷺ الضعيف وهو في الصلاة؛ فيقدِّم الصلاة عن وقتها الفاضل إلى وقتها المفضول، فعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: صلَّيْنا مع رسول الله ﷺ صلاة العَتَمَة، فلم يخرج حتى مضى نحو من شطر الليل، فقال: خذوا مقاعدكم، فأخذنا مقاعدنا، فقال: «إن الناس قد صلُّوا، وأخذوا مضاجعهم، وإنكم لن تزالوا في صلاة ما انتظرتم الصلاة، ولولا ضعف الضعيف، وسُقْم السقيم؛ لأخَّرت هذه الصلاة إلى شطر الليل». (أخرجه أبو داود ٤٢٢، والنسائي ٥٣٨، وابن ماجه ٦٩٣، وأحمد ١١٠١٥).

ويغضب ﷺ على مَن يشقُّ على الضعفاء، ولو كان في الصلاة، فعن أبي مسعود رضي الله عنه، أن رجلًا قال: والله يا رسول الله إني لأتأخر عن صلاة الغداة من أجل فلان مما يطيل بنا، فما رأيت رسول الله ﷺ في موعظة أشد غضبًا منه يومئذ، ثم قال: «إن منكم مُنفِّرين، فأيكم ما صلَّى بالناس فليتجوَّز، فإن فيهم الضعيف، والكبير، وذا الحاجة». (أخرجه البخاري ٧٠٢، ومسلم ٤٦٦).

وحين بايع ﷺ عبدًا يظنه حرًّا؛ عالج الأمر بأن اشتراه، ودفع ثمنه إلى سيده، فعن جابر رضي الله عنه قال: جاء عبد فبايع النبي ﷺ على الهجرة، ولم يشعر أنه عبد، فجاء سيده يريده، فقال له النبي ﷺ: «بِعْنِيه؛ فاشتراه بعبدين أسودين، ثم لم يبايع أحدًا بعدُ حتى يسأله أعبدٌ هو؟». (أخرجه مسلم ١٦٠٢).

وتمتد عنايته ﷺ بالضعيف إلى ما بعد موته، فعن أبي هريرة رضي الله عنه، أن امرأة سوداء كانت تقُمُّ المسجد، أو شابًّا، ففقدها رسول الله ﷺ، فسأل عنها، أو عنه فقالوا: مات، قال:

أفلا كنتم آذنتموني؟ قال: فكأنهم صغَّروا أمرها، أو أمره، فقال: دُلُّوني على قبره، فدلوه، فصلَّى عليها، ثم قال: إن هذه القبور مملوءة ظلمة على أهلها، وإن الله عز وجل يُنَوِّرها لهم بصلاتي عليهم». (أخرجه البخاري ٤٦٠، ومسلم ٩٥٦، واللفظ لمسلم).

وعن أبي أمامة بن سهل بن حنيف ﷺ، أن مسكينة مرضت، فأُخبر رسول الله ﷺ بمرضها، وكان رسول الله ﷺ يعود المساكين، ويسأل عنهم، فقال رسول الله ﷺ: «إذا ماتت فآذنوني»، فأخرج بجنازتها ليلًا، وكرهوا أن يوقظوا رسول الله ﷺ، فلما أصبح رسول الله ﷺ أُخبر بالذي كان منها، فقال: «ألم آمركم أن تؤذنوني بها؟» قالوا: يا رسول الله، كرهنا أن نوقظك ليلًا، فخرج رسول الله ﷺ حتى صفَّ بالناس على قبرها، وكبَّر أربع تكبيرات. (أخرجه النسائي ١٩٠٧، ومالك في الموطأ ١٥، كتاب الجنائز، باب التكبير على الجنائز).

وينهى ﷺ أصحابه عن إيذاء الضعفاء، فعن عمر بن الخطاب ﷺ، أن النبي ﷺ قال له: «يا عمر، إنك رجل قوي، لا تزاحم على الحجر؛ فتُؤذي الضعيف، إن وجدت خلوة فاستلمه، وإلا فاستقبله، فهلِّل، وكبِّر». (أخرجه أحمد ١٩٠).

ويوصيهم ﷺ بالعناية بالضعيف ومساعدته، فعن أبي ذَرٍّ ﷺ قال: قلت: يا رسول الله، ذهب الأغنياء بالأجر، يصلُّون، ويصومون، ويحجون، قال: «وأنتم تصلون، وتصومون، وتحجون» قلت: يتصدقون، ولا نتصدق قال: «وأنت فيك صدقة: رفعك العظم عن الطريق صدقة، وهدايتك الطريق صدقة، وعونك الضعيف بفضل قوتك صدقة، وبيانك عن الأرتم[1] صدقة، ومباضعتك امرأتك صدقة» قال: قلت: يا رسول الله، نأتي شهوتنا ونؤجر؟ قال: «أرأيت لو جعلته في حرام، أكنت تأثم؟» قال: قلت: نعم،

(١) قال ابن الأثير: هو الذي لا يصحح كلامه ولا يبينه لآفة في لسانه أو أسنانه. وأصله من رثيم الحصى، وهو ما دق منه بالأخفاف، أو من رثمت أنفه إذا كسرته حتى أدميته، فكأن فمه قد كسر فلا يفصح في كلامه. ويروى بالتاء (النهاية ٢/ ١٩٦).

قال: «فتحتسبون بالشر، ولا تحتسبون بالخير؟». (أخرجه أحمد ٢١٣٦٣).

وفي رواية لأحمد (٢١٤٨٤): «وترفع بشدة ذراعيك مع الضعيف».

وأمرهم ﷺ بنصر الضعيف، فعن البراء بن عازب رضي الله عنهما، قال: «أمرنا رسول الله ﷺ بسبع: بعيادة المريض، واتباع الجنائز، وتشميت العاطس، ونصر الضعيف، وعون المظلوم، وإفشاء السلام، وإبرار المقسم، ونهى عن الشرب في الفضة، ونهانا عن تختم الذهب، وعن ركوب المياثر، وعن لبس الحرير، والديباج، والقسي، والإستبرق». (أخرجه البخاري ٦٢٣٥، ومسلم ٢٠٦٦).

٢- مراعاة مَن يستحي منهم:

وكان ﷺ يراعي مَن يراه يستحيي من أصحابه، عن سعيد بن العاص رضي الله عنه، أن عائشة زوج النبي ﷺ، وعثمان رضي الله عنهما حدثاه أن أبا بكر رضي الله عنه استأذن على رسول الله ﷺ، وهو مضطجع على فراشه، لابس مِرْطَ عائشة، فأذن لأبي بكر، وهو كذلك، فقضى إليه حاجته ثم انصرف، ثم استأذن عمر رضي الله عنه، فأذن له، وهو على تلك الحال، فقضى إليه حاجته ثم انصرف، قال عثمان: ثم استأذنت عليه فجلس، وقال لعائشة: «اجمعي عليك ثيابك» فقضيت إليه حاجتي، ثم انصرفت، فقالت عائشة: يا رسول الله، ما لي لم أرك فزعت لأبي بكر، وعمر رضي الله عنهما، كما فزعت لعثمان؟ قال رسول الله ﷺ: «إن عثمان رجل حيي، وإني خشيت إن أذنت له على تلك الحال؛ أن لا يبلغ إلي في حاجته». (أخرجه مسلم ٢٤٠٢).

إنه نموذج راقٍ وسامٍ من التعامل والإحساس بقيمة الآخرين، وتهيئة الفرصة لهم؛ ليبلغوا حاجتهم وما يريدون .

إن الناس يختلفون: فمنهم مَن يُصرِّح بكل ما يريد، ويُعبِّر عما في خاطره، ومنهم مَن يُلمِّح ويُعرِّض بحاجته، ومنهم مَن لا يجرؤ على ذلك، ووعي المربي بطبيعة تلامذته،

ومراعاتهم في تعامله، وتهيئة البيئة الملائمة لذلك، كل هذا من حسن التواصل، وطيب التعامل.

٣ -عيادة المرضى:

كان ﷺ يعود مَن يمرض من أصحابه، فعاد ﷺ سعد بن أبي وقاص ؓ؛ فعن عامر بن سعد بن مالك، عن أبيه ؓ قال: عادني النبي ﷺ عام حجة الوداع من مرض أشفيت منه على الموت، فقلت: يا رسول الله، بلغ بي من الوجع ما ترى، وأنا ذو مال، ولا يرثني إلا ابنة لي واحدة، أفأتصدق بثلثي مالي؟ قال: «لا»، قال: فأتصدق بشطره؟ قال: «الثلث يا سعد، والثلث كثير، إنك أن تذر ذريتك أغنياء، خير من أن تذرهم عالة يتكفَّفون الناس، ولست بنافق نفقة تبتغي بها وجه الله؛ إلا آجرك الله بها، حتى اللقمة تجعلها في في امرأتك» قلت: يا رسول الله، أخلف بعد أصحابي؟ قال: «إنك لن تخلف، فتعمل عملًا تبتغي بها وجه الله؛ إلا ازددت به درجة ورفعة، ولعلك تخلف حتى ينتفع بك أقوام، ويضر بك آخرون، اللهم أمض لأصحابي هجرتهم، ولا تردهم على أعقابهم، لكن البائس سعد ابن خولة»، يرثي له رسول الله ﷺ أن توفي بمكة. (أخرجه البخاري ٣٩٣٦، ومسلم ١٦٢٨).

وعاد ﷺ عُبادة بن الصامت ؓ في نفر من أصحابه، فعن عُبادة بن الصامت ؓ قال: عادني رسول الله ﷺ في نفر من أصحابه فقال: «هل تدرون مَن الشهداء مِن أمتي؟»، مرتين، أو ثلاثًا، فسكتوا، فقال عُبادة: أخبرنا يا رسول الله، فقال: «القتيل في سبيل الله شهيد، والمبطون شهيد، والمطعون شهيد، والنُّفساء شهيدة، يجرها ولدها بِسَرَرِه إلى الجنة». (أخرجه أحمد ٢٢٧٨٤).

وربما عاد ﷺ النساء؛ فعن أم العلاء ؓ قالت: عادني رسول الله ﷺ وأنا مريضة، فقال: «أبشري يا أم العلاء؛ فإن مرض المسلم يُذهِب الله به خطاياه، كما تُذهِب النار خبث الذهب والفضة». (أخرجه أبو داود ٣٠٩٢).

وقد واسى ﷺ أم العلاء رضي الله عنها بأن بيَّن لها تكفير المرض للخطايا، وفعل ذلك ﷺ مع زيد بن أرقم رضي الله عنه، وأوصاه بالصبر، عن زيد بن أرقم رضي الله عنه قال: أصابني رمد، فعادني النبي ﷺ، قال: فلما برأت، خرجت، قال: فقال لي رسول الله ﷺ: «أرأيت لو كانت عيناك لِمَا بهما[1]، ما كنت صانعًا؟» قال: قلت: لو كانتا عيناي لما بهما؛ صبرت واحتسبت، قال: «لو كانت عيناك لما بهما، ثم صبرت واحتسبت؛ لَلَقِيت الله عز وجل، ولا ذنب لك». (أخرجه أحمد ١٩٣٦٩، وأبو داود ٣١٠٢ مختصرًا).

لم تكن عيادته ﷺ لمن يمرض من أصحابه قاصرة على ذوي الشأن، فقد عاد أم العلاء رضي الله عنها، وعاد زيد بن أرقم رضي الله عنه، وهو غلام شاب، وعاد أعرابيًّا، فعن ابن عباس رضي الله عنهما، أن النبي ﷺ دخل على أعرابي يعوده، قال: «وكان النبي ﷺ إذا دخل على مريض يعوده قال: لا بأس، طهورٌ إن شاء الله، فقال له: لا بأس، طهورٌ إن شاء الله، قال: قلت طهور؟! كلَّا، بل هي حُمَّى تفور، أو تثور على شيخ كبير، تُزيره القبور، فقال النبي ﷺ: فنعم إذًا». (أخرجه البخاري ٣٦١٦).

ولم يكن ﷺ يكتفي بمجرد عيادتهم، فكان يداويهم بيده الشريفة، فعن جابر رضي الله عنه قال: عادني النبي ﷺ، وأبو بكر في بني سلمة ماشيين، فوجدني النبي ﷺ لا أعقل، فدعا بماء، فتوضأ منه، ثم رشَّ عليَّ؛ فأفقتُ، فقلت: ما تأمرني أن أصنع في مالي يا رسول الله؟ فنزلت: ﴿يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِيٓ أَوۡلَٰدِكُمۡۖ﴾(النساء: ١١). (أخرجه البخاري ٤٥٧٧، ومسلم ١٦١٦).

وقد بيَّن جابر رضي الله عنه في هذا الحديث أنه ﷺ قد جاءه ماشيًا، وفي رواية للبخاري (٥٦٦٤): جاءني النبي ﷺ يعودني، ليس براكب بغل، ولا بِرْذَوْن.

---

(١) أي أصيبتا بسوء كفقد إبصارهما (الفتح الرباني ١٩/ ١٣٥).

ويسأل ﷺ عن حالهم حين يعودهم، ويدعو لهم؛ فعن أنس ﷺ، أن رسول الله ﷺ عاد رجلًا من المسلمين قد خَفُتَ فصار مثل الفَرْخ، فقال له رسول الله ﷺ: «هل كنت تدعو بشيء، أو تسأله إياه؟» قال: نعم، كنت أقول: اللهم ما كنت معاقبي به في الآخرة؛ فعجِّله لي في الدنيا، فقال رسول الله ﷺ: «سبحان الله، لا تطيقه، أو لا تستطيعه، أفلا قلت: اللهم آتنا في الدنيا حسنة، وفي الآخرة حسنة، وقنا عذاب النار»، قال: فدعا الله له فشفاه. (أخرجه مسلم ٢٦٨٨).

وربما رقى أحدهم حين يعوده، فعن أبي هريرة ﷺ قال: جاء النبي ﷺ يعودني فقال لي: «ألا أرقيك برقية جاءني بها جبرائيل؟» قلت: بأبي وأمي، بلى يا رسول الله، قال:«بسم الله أرقيك، والله يشفيك من كل داء فيك، من شر النفاثات في العقد، ومن شر حاسد إذا حسد» ثلاث مرات. (أخرجه ابن ماجه ٣٥٢٤، وأحمد ٩٤٦٥).

ولعنايته ﷺ بعيادة صاحبه سعد بن معاذ ﷺ؛ فقد ضرب له خيمة في المسجد، عن عائشة ﷺ، قالت: أُصيب سعد يوم الخندق في الأكحل، فضرب النبي ﷺ خيمة في المسجد، ليعوده من قريب، فلم يرعهم، وفي المسجد خيمة من بني غفار، إلا الدم يسيل إليهم، فقالوا: يا أهل الخيمة، ما هذا الذي يأتينا من قِبَلِكم؟ فإذا سعد يغذو جرحه دمًا، فمات فيها. (أخرجه البخاري ٤٦٣، ومسلم ١٧٦٩).

٤ – عيادتهم عند الموت:

ويعودهم ﷺ عند الاحتضار والموت، فعن أنس ﷺ، أن النبي ﷺ دخل على شاب، وهو في الموت فقال: «كيف تجدك؟» قال: والله يا رسول الله إني أرجو الله، وإني أخاف ذنوبي، فقال رسول الله ﷺ: «لا يجتمعان في قلب عبد في مثل هذا الموطن؛ إلا أعطاه الله ما يرجو، وآمنه مما يخاف». (أخرجه الترمذي ٩٨٣، وابن ماجة ٤٢٦١).

العاطفة الصادقة

كان ﷺ يحمل عاطفة صادقة تجاه أصحابه رضوان الله عليهم، فيتأثر ويتألم لما يصيبهم.

عن أنس رضي الله عنه، أن النبي ﷺ نعى زيدًا، وجعفرًا، وابن رواحة للناس قبل أن يأتيهم خبرهم، فقال: «أخذ الراية زيد فأُصيب، ثم أخذ جعفر فأُصيب، ثم أخذ ابن رواحة فأُصيب- وعيناه تذرفان- حتى أخذ سيف من سيوف الله؛ حتى فتح الله عليهم». (أخرجه البخاري ٣٧٥٧).

وحين أتاه قومٌ قد أصابهم فقرٌ وحاجة؛ تألم ﷺ لما أصابهم، ورقَّ لحالهم، وظهرت آثار ذلك عليه ﷺ، عن جرير رضي الله عنه قال: كُنَّا عند رسول الله ﷺ في صدر النهار قال: فجاءه قوم حُفاة، عُراة، مجتابي النمار، أو العباء، متقلدي السيوف، عامتهم من مُضر، بل كلهم من مُضر، فتمعَّر وجه رسول الله ﷺ لما رأى بهم من الفاقة، فدخل، ثم خرج، فأمر بلالًا، فأذَّن وأقام، فصلَّى، ثم خطب، فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾ إلى آخر الآية: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ (النساء: ١)، والآية التي في الحشر ﴿ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ (الحشر: ١٨) تصدق رجل من ديناره، من درهمه، من ثوبه، من صاع بُرِّه، من صاع تمره» حتى قال: «ولو بشِقِّ تمرة» قال: فجاء رجل من الأنصار بصُرَّة كادت كفُّه تعجز عنها، بل قد عجزت قال: ثم تتابع الناس حتى رأيت كومين من طعام وثياب، حتى رأيت وجه رسول الله ﷺ يتهلَّل كأنه مُذْهَبَةٌ، فقال رسول الله ﷺ: «من سنَّ في الإسلام سنة حسنة؛ فله أجرها، وأجر مَن عمل بها بعده من غير أن ينقص من أجورهم شيء، ومَن سنَّ في الإسلام سنة سيئة؛ كان عليه وزرها، ووزر مَن عمل بها من بعده، من غير أن ينقص من أوزارهم شيء». (أخرجه مسلم ١٠١٧).

ويبرز التعاطف النبوي مع أصحابه في هذا الموقف في أول الحديث، حين رقَّ لحالهم حتى ظهر ذلك على وجهه، وفي نهاية الموقف حين سُرَّ ﷺ حتى بدا ذلك لهم عيانًا، وظهور مشاعر التعاطف على وجهه الشريف ﷺ دليل على صدق هذا التعاطف، وشفافية تلك المشاعر، وأنها أبعد ما تكون عن التصنع والتكلف، بأبي هو وأمي صاحب القلب الكبير ﷺ.

الاهتمام بأصحابه

الاهتمام بالآخرين من أهم مجالات حسن التعامل والتواصل، وشعور الشخص بأهميته لدى الآخرين حاجة طبيعية فطرية، ويزداد الأمر حين يكون الآخر مربيًّا، أو موجِّهًا، أو والدًا وزوجًا، فكيف إذا كان رسول الله ﷺ؟

وها هي عائشة رضي الله عنها تُعبِّر عن هذا المعنى، واصفة حالها، وهي تختبر منزلتها لدى رسول الله ﷺ حين دعاها لتنظر لأهل الحبشة، وهم يلعبون، فقال لها: «يا عائشة، تعالي فانظري»، قالت: فجئت فوضعت لحيي على منكب رسول الله ﷺ، فجعلت أنظر إليها ما بين المنكب إلى رأسه، فقال لي: «أما شبعت، أما شبعت»، قالت: فجعلت أقول: لا؛ لأنظر منزلتي عنده. (أخرجه الترمذي ٣٦٩١، وأخرجه البخاري ٥٢٣٦، ومسلم ٨٩٢ دون موضع الشاهد).

والاهتمام بالآخرين يبدأ من الشعور القلبي الداخلي بقيمتهم ومكانتهم، وهو معبر عن تواضع صاحبه، وحبه للخير، وحسن خلقه وطيب سجاياه.

ولعلنا لا نبالغ حين نقول: إن الاهتمام بالآخرين هو مفتاح حسن التعامل معهم، وهو من أكثر ما يترك أثره عليهم، ومن أهم أسباب اكتساب قلوبهم.

ومَن تأمل حياة النبي ﷺ، وتعامله مع أصحابه؛ أدرك هذا المعنى جليًّا واضحًا.

لم يكن رسول الله ﷺ مجرد معلِّم لثلاثين تلميذًا هم جوهر اهتمامه، ولُبُّ حياته، بل كان ﷺ قائد أمة، كان هو الأمير والقائد، وهو المعلم والمُوجِّه، يصلي بأصحابه، ويخطب فيهم، ويعلمهم، ويتلو عليهم آيات الله، ويُراسل الملوك يدعوهم، ويستقبل الوفود ويُجيزهم، ويُواجه كيد اليهود، والمشركين، والمنافقين، ويتألف الأعراب على الإسلام والتوحيد، ويرعى بيئته وأسرته.

كل أهل المدينة: رجالًا ونساءً، شيبًا وشبابًا، صغارًا وكبارًا كانوا مَحطَّ اهتمامه ﷺ، وكلهم يرى أن له حقاً ونصيباً، وأن في قلب رسول الله ﷺ مساحة تتسع له.

ليس هؤلاء وحدهم، بل كل وافد، وقادم للمدينة: مهاجرًا، أو عابرًا، أو مسلمًا سيعود لبلده، كل هؤلاء حريصون على الظَّفَر منه ﷺ بسلام ومصافحة، أو نصيحة وتوجيه، أو رأي وحل لمشكلة، وربما بعطاء ومال.

ومع ذلك كان يهتم ﷺ بالجميع، ويستوعب الكافة، ولا يضيق صدره ﷺ عن مكان لكل أولئك.

بل الأمر لم يقف عند البشر وحدهم، فحتى الحيوان البهيم كان يرى أن له مكانًا في قلب رسول الله ﷺ، عن عبد الله بن جعفر رضي الله عنهما، قال: ركب رسول الله ﷺ بغلته، وأردفني خلفه، وكان رسول الله ﷺ إذا تبرز؛ كان أحب ما تبرز فيه هدف يستتر به، أو حائش نخل، فدخل حائطًا لرجل من الأنصار، فإذا فيه ناضح له، فلما رأى النبي ﷺ، حنَّ، وذرفت عيناه، فنزل رسول الله ﷺ، فمسح ذفراه وسراته، فسكن فقال: «من ربُّ هذا الجمل؟» فجاء شاب من الأنصار، فقال: أنا، فقال: «ألا تتقي الله في هذه البهيمة التي ملَّكَك الله إياها، فإنه شكاك إليَّ، وزعم أنك تجيعه وتدئبه؟» ثم ذهب رسول الله ﷺ، في الحائط فقضى حاجته، ثم توضأ، ثم جاء، والماء يقطر من لحيته على صدره، فأسر إليَّ شيئًا لا أُحدِّث به أحدًا، فحرجنا عليه أن يحدثنا، فقال: لا أفشي على رسول الله ﷺ سِرَّه حتى ألقى الله. (أخرجه أحمد ١٧٥٤، وأبو داود ٢٥٤٩).

وتأتيه حُمَّرَة تشكو إليه ﷺ من فجعها بولدها، فعن عبد الرحمن بن عبد الله، عن أبيه، قال: كُنَّا مع رسول الله ﷺ في سفر، فانطلق لحاجته، فرأينا حُمَّرَة معها فَرْخَان فأخذنا فرخيها، فجاءت الحُمَّرَة فجعلت تفرش، فجاء النبي ﷺ فقال: «مَن فجع هذه بولدها؟ ردُّوا ولدها إليها»، ورأى قرية نمل قد حرقناها فقال: «مَن حرق هذه؟» قلنا: نحن، قال:

«إنه لا ينبغي أن يُعذِّب بالنار إلا ربُّ النار». (أخرجه أبو داود ٢٦٧٥، وأحمد ٣٨٣٥).

وفي ما يلي نقف على نماذج من اهتمامه ﷺ بأصحابه ورعايته لهم:

١- إشعارهم بالمحبة:

يُشعر ﷺ أصحابه بمحبته لهم، قارنًا ذلك بوصيته إياهم، عن معاذ بن جبل ﷺ، أن النبي ﷺ أخذ بيده يومًا، ثم قال: «يا معاذ، إني لأحبك»، فقال له معاذ: بأبي أنت وأمي يا رسول الله، وأنا أحبك، قال: «أوصيك يا معاذ لا تدعن في دبر كل صلاة أن تقول: اللهم أَعِنِّي على ذكرك، وشكرك، وحسن عبادتك». (أخرجه أحمد ٢٢١١٩، وأبو داود ١٥٢٢، والنسائي ١٣٠٣).

عن عبد الله بن عمر ﷺ قال: بعث النبي ﷺ بعثًا، وأمَّرَ عليهم أسامة بن زيد، فطعن الناس في إمارته، فقال النبي ﷺ: «إن تطعنوا في إمارته، فقد كنتم تطعنون في إمارة أبيه من قبل، وايم الله، إن كان لخليقًا للإمارة، وإن كان لمن أحب الناس إليَّ، وإن هذا لمن أحب الناس إليَّ بعده». (أخرجه البخاري ٣٧٣٠، ومسلم ٢٤٢٦).

ويأمر ﷺ من أحب أخاه أن يشعره بذلك، عن المقدام بن معدي كرب أبي كريمة ﷺ، عن النبي ﷺ، قال: «إذا أحبَّ أحدكم أخاه، فليُعْلِمْه أنه يحبه». (أخرجه أحمد ١٧١٧١، والترمذي ٢٣٩٢، وأبو داود ٥١٢٤).

وحين أخبره أحد أصحابه بمحبته لأخيه، أمره ﷺ بأن يعلمه بذلك، عن أنس بن مالك ﷺ قال: كنت جالسًا عند رسول الله ﷺ، إذ مرَّ رجل، فقال رجل من القوم: يا رسول الله، إني لأحب هذا الرجل، قال: «هل أعلمته ذلك؟»، قال: لا، قال: «قُمْ فأعْلِمْهُ»، قال: فقام إليه فقال: يا هذا، والله إني لأحبك في الله، قال: أحبَّك الذي أحببتني له. (أخرجه أحمد ١٢٤٣٠، وأبو داود ٥١٢٥).

إن الحب مطلب مهم، وشرط أساسي للتلقي التربوي؛ فالإنسان لا ينفصل عن مشاعره وأحاسيسه، وليس آلة صمّاء تستقبل كل ما يرد إليها، ومهما ارتقى الإنسان واجتهد في أن يكون موضوعيًّا، فلن يستطيع الفصل بين المشاعر والأفكار فصلًا تامًّا.

ولذلك فإن الله عز وجل فطر خلقه على الحب والتوادِّ بينهم، فجعل بين الزوجين مودة ورحمة، وغرس في قلب الوالدين المحبة والرحمة لأولادهم، وفطر الأولاد على محبة والديهم، وهذا يُلبي الحاجة الغريزية لابن آدم، فيشعر بأنه يحب الآخرين ويحبونه، كما أنه يسهم في تهيئة بيئة ملائمة للقبول والتلقي.

ويؤكد محمد قطب على أهمية الحب في التلقي من المربي، فيقول: «فما لم يشعر المتلقي أن مربيه يحبه، ويحب له الخير، فلن يقبل على التلقي منه، ولو أيقن أن عنده الخير كله، بل لو أيقن أنه لن يجد الخير إلا عنده؛ وأي خير يمكن أن يتم بغير حب». (منهج التربية الإسلامية ٢ / ٤٥).

ولا يسوغ أن يكتفي المربي بالدافع الطبيعي في محبة أولاده وتلامذته، بل هو بحاجة لأن ينمي هذا الحب ويرسخه، كما أنه بحاجه لأن يوصل لهم رسائل الحب اللفظية بالتعبير عن حبه لهم، والتصريح بذلك، ورسائله غير اللفظية بما يتناسب مع أعمارهم، فالطفل يحتاج للقُبلة، والاحتضان، والمداعبة، والكبير للتقدير، والبشاشة، والاحتفاء، والهدية، والإكرام.

٢- وعيه بمشاعرهم:

من مظاهر اهتمامه ﷺ بأصحابه: وَعْيُه بمشاعرهم، فقد كان ﷺ يقرأ مشاعرهم، ويدرك تأثرهم من خلال حالهم دون أن يُعبِّروا عن ذلك.

يُحدثنا مالك بن الحويرث ﷺ عن إدراكه ﷺ لمشاعره وأصحابه فيقول: أتيت النبي ﷺ في نفر من قومي، فأقمنا عنده عشرين ليلة، وكان رحيمًا رفيقًا؛ فلما رأى شوقنا إلى

أهالينا قال: «ارجعوا، فكونوا فيهم، وعلِّموهم، وصلُّوا، فإذا حضرت الصلاة، فليؤذن لكم أحدكم، وليؤُمَّكم أكبركم». (أخرجه البخاري ٦٢٨، ومسلم ٦٧٤).

ويصف أبو هريرة ﷺ حاله، وكيف تفطَّن له النبي ﷺ، وأدرك معاناته، فعن أبي هريرة ﷺ قال: آلله الذي لا إله إلا هو، إن كنت لأعتمد بكبدي على الأرض من الجوع، وإن كنت لأشُدُّ الحجر على بطني من الجوع، ولقد قعدت يومًا على طريقهم الذي يخرجون منه، فمرَّ أبو بكر، فسألته عن آية من كتاب الله، ما سألته إلا ليشبعني، فمرَّ، ولم يفعل، ثم مرَّ بي عمر، فسألته عن آية من كتاب الله، ما سألته إلا ليشبعني، فمرَّ، فلم يفعل، ثم مر بي أبو القاسم ﷺ فتبسم حين رآني، وعرف ما في نفسي، وما في وجهي، ثم قال:«أبا هِر» قلت: لبيك يا رسول الله قال: «الْحَقْ»، ومضى؛ فتبعته، فدخل، فاستأذن فأذن لي، فدخل، فوجد لبنًا في قدح، فقال: «من أين هذا اللبن؟» قالوا: أهداه لك فلان، أو فلانة، قال:«أبا هِر» قلت: لبيك يا رسول الله، قال: الْحَقْ إلى أهل الصُّفَّة فادعهم لي، قال: وأهل الصفة: أضياف الإسلام، لا يأوون إلى أهل، ولا مال، ولا على أحد، إذا أتته صدقة؛ بعث بها إليهم، ولم يتناول منها شيئًا، وإذا أتته هدية؛ أرسل إليهم، وأصاب منها، وأشركهم فيها، فساءني ذلك، فقلت: وما هذا اللبن في أهل الصفة؟ كنت أحق أنا أن أصيب من هذا اللبن شربة أَتَقَوَّى بها، فإذا جاء، أمرني فكنت أنا أعطيهم، وما عسى أن يبلغني من هذا اللبن، ولم يكن من طاعة الله، وطاعة رسوله ﷺ بُدٌّ، فأتيتهم، فدعوتهم، فأقبلوا، فاستأذنوا، فأذن لهم، وأخذوا مجالسهم من البيت، قال: يا أبا هِر، قلت: لبيك يا رسول الله قال: خُذْ فأعطهم، قال: فأخذت القدح، فجعلت أعطيه الرجل، فيشرب حتى يروى، ثم يرد عليَّ القدح، فأعطيه الرجل، فيشرب حتى يروى، ثم يرد عليَّ القدح، فيشرب حتى يروى، ثم يرد عليَّ القدح حتى انتهيت إلى النبي ﷺ، وقد روي القوم كلهم، فأخذ القدح، فوضعه على يده، فنظر إليَّ، فتبسم، فقال:«أبا هِر» قلت: لبيك يا رسول الله قال:«بقيت

أنا وأنت»، قلت: صدقت يا رسول الله قال: «اقعد فاشرب»، فقعدت فشربت، فقال: «اشرب» فشربت، فما زال يقول: «اشرب» حتى قلت: لا، والذي بعثك بالحق ما أجد له مسلكًا، قال: «فأرني»، فأعطيته القدح، فحمد الله، وسمى، وشرب الفضلة. (أخرجه البخاري ٦٤٥٢).

وحين سأله ﷺ رجل عن مصير والده فأجابه، تفطَّن ﷺ لأثر ما قاله عليه فسرَّى عنه، عن أنس ﷺ، أن رجلًا قال: يا رسول الله، أين أبي؟ قال: «في النار» فلما قفى دعاه، فقال:«إن أبي وأباك في النار». (أخرجه مسلم ٢٠٣).

وأدرك ﷺ تأثر الصعب بن جثَّامة ﷺ حين لم يقبل هديته لمانع شرعي؛ فاعتذر له مبيِّنًا سبب عدم قبوله لهديته، فعن عبد الله بن عباس، عن الصعب بن جثَّامة الليثي ﷺ، أنه أهدى لرسول الله ﷺ حمارًا وحشيًا، وهو بالأبواء، أو بودان، فردَّه عليه، فلما رأى ما في وجهه قال: «إنا لم نردَّه عليك إلا أنَّا حُرُمٌ». (أخرجه البخاري ١٨٢٥، ومسلم ١١٩٣).

٣- العدل في إظهار المشاعر:

وحين يبدي ﷺ مشاعره لفئة من أصحابه، فإنه يطيِّب خاطر غيرهم، فيعدل بينهم ﷺ حتى في المشاعر.

عن سلمة بن الأكوع ﷺ **قال:** مرَّ النبي ﷺ على نفر من أسلم ينتضلون، فقال النبي ﷺ: «ارموا بني إسماعيل؛ فإن أباكم كان راميًا، ارموا، وأنا مع بني فلان» قال: فأمسك أحد الفريقين بأيديهم، فقال رسول الله ﷺ: «ما لكم لا ترمون؟» قالوا: كيف نرمي، وأنت معهم؟ قال النبي ﷺ: «ارموا فأنا معكم كلكم». (أخرجه البخاري ٢٨٩٩)، قال ابن حجر: «وفيه التنويه بذكر الماهر في صناعته ببيان فضله، وتطييب قلوب مَن هم دونه». (فتح الباري ٦/ ٩٢).

وحين قضى ﷺ بين أصحابه لما اختلفوا في حضانة ابنة حمزة رضي الله عنهم أجمعين، طيَّب قلب من لم يقض لهم، عن البراء بن عازب رضي الله عنه، قال: اعتمر النبي ﷺ في ذي القعدة، فأبى أهل مكة أن يدعوه يدخل مكة حتى قاضاهم على أن يقيم بها ثلاثة أيام، فلما كتبوا الكتاب، كتبوا: هذا ما قاضى عليه محمد رسول الله، فقالوا: لا نقرُّ بها، فلو نعلم أنك رسول الله ما منعناك، لكن أنت محمد بن عبد الله، قال: «أنا رسول الله، وأنا محمد بن عبد الله»، ثم قال لعلي: «امْحُ رسول الله»، قال: لا والله لا أمحوك أبدًا، فأخذ رسول الله ﷺ الكتاب، فكتب: «هذا ما قاضى عليه محمد بن عبد الله، لا يدخل مكة سلاح إلا في القراب، وأن لا يخرج من أهلها بأحد، إن أراد أن يتبعه، وأن لا يمنع أحدًا من أصحابه أراد أن يقيم بها»، فلما دخلها ومضى الأجل، أتوا عليًّا فقالوا: قل لصاحبك اخرج عنَّا، فقد مضى الأجل، فخرج النبي ﷺ، فتبعتهم ابنة حمزة: يا عم، يا عم، فتناولها عليٌّ رضي الله عنه، فأخذ بيدها، وقال لفاطمة عليها السلام: دونك ابنة عمك، حملتها، فاختصم فيها علي، وزيد، وجعفر، فقال علي: أنا أحق بها، وهي ابنة عمي، وقال جعفر: ابنة عمي، وخالتها تحتي، وقال زيد: ابنة أخي، فقضى بها النبي ﷺ لخالتها، وقال: «الخالة بمنزلة الأم»، وقال لعلي: «أنت مِنِّي، وأنا منك»، وقال لجعفر: «أشبهت خلقي وخلقي»، وقال لزيد: «أنت أخونا ومولانا». (أخرجه البخاري ٢٦٩٩).

لقد قضى ﷺ بينهم بالحق الشرعي، وبيَّن لهم سبب استحقاق جعفر رضي الله عنه لها؛ فالمصلحة المُراعاة هنا هي مصلحة المحضون لا الحاضن، وطيَّب خاطر الآخرين، فذكر لكل منهم فضيلة وميزة، وهكذا تسمو العاطفة النبوية، وتستوعب الآخرين دون أن تكون على حساب الحق.

٤- الاستجابة لمطالبهم:

كان ﷺ قريبًا من أصحابه، يستجيب لمطالبهم، ويُلبي رغباتهم ما لم تخالف شرع الله عز وجل، سأله أحد أصحابه أن يأتي لبيته فيُصلي فيه؛ ليتخذ هذا المكان مُصلًّى له،

فلبَّى النبي ﷺ دعوته، وحقَّق مطلبه، عن أنس بن مالك الأنصاري ﵁ قال: قال رجل من الأنصار- وكان ضخماً- للنبي ﷺ: إني لا أستطيع الصلاة معك، فصنع للنبي ﷺ طعامًا، فدعاه إلى بيته، ونضح له طرف حصير بماء، فصلَّى عليه ركعتين. (أخرجه البخاري ١١٧٩).

ووردت تسميته في حديث محمود بن الربيع أنه عتبان بن مالك ﵁، فعن محمود بن الربيع الأنصاري ﵁، أن عتبان بن مالك ﵁ كان يؤُمُّ قومه، وهو أعمى، وأنه قال لرسول الله ﷺ: يا رسول الله، إنها تكون الظلمة والسيل، وأنا رجل ضرير البصر فَصَلِّ يا رسول الله في بيتي مكانًا أتخذه مُصلًّى، فجاءه رسول الله ﷺ فقال: «أين تحب أن أصلي؟»، فأشار إلى مكان من البيت؛ فصلَّى فيه رسول الله ﷺ. (أخرجه البخاري ٦٦٧).

وفي رواية أخرى يفصِّل عتبان ﵁ قصة صلاة النبي ﷺ في بيته، فعن محمود بن الربيع الأنصاري ﵁، أن عتبان بن مالك ﵁- وهو من أصحاب رسول الله ﷺ ممن شهد بدرًا من الأنصار- أنه أتى رسول الله ﷺ، فقال: يا رسول الله قد أنكرت بصري، وأنا أصلِّي لقومي، فإذا كانت الأمطار؛ سال الوادي الذي بيني وبينهم، لم أستطع أن آتي مسجدهم فأصلي بهم، ووددت يا رسول الله أنك تأتيني، فتُصلِّي في بيتي، فأتخذه مُصلًّى، قال: فقال له رسول الله ﷺ: «سأفعل إن شاء الله» قال عتبان: فغدا رسول الله ﷺ، وأبو بكر حين ارتفع النهار، فاستأذن رسول الله ﷺ فأذنت له، فلم يجلس حتى دخل البيت، ثم قال: «أين تحب أن أُصلي من بيتك؟» قال: فأشرت له إلى ناحية من البيت، فقام رسول الله ﷺ فكبَّر، فقمنا، فصفَّنا، فصلَّى ركعتين، ثم سلَّم، قال: وحبسناه على خزيرة صنعناها له، قال: فثاب في البيت رجال من أهل الدار ذووا عدد، فاجتمعوا، فقال قائل منهم: أين مالك بن الدخيشن، أو ابن الدخشن؟ فقال بعضهم: ذلك منافق لا يحب الله ورسوله، فقال رسول الله ﷺ: «لا تقل ذلك، ألا تراه قد قال: لا إله إلا الله، يريد بذلك وجه الله»

قال: الله ورسوله أعلم، قال: فإنا نرى وجهه، ونصيحته إلى المنافقين، قال رسول الله ﷺ: «فإن الله قد حرم على النار مَن قال: لا إله إلا الله، يبتغي بذلك وجه الله». (أخرجه البخاري ٤٢٥، ومسلم ٣٣).

لقد لبَّى رسول الله ﷺ حاجة عتبان ﷺ، فجاء إلى بيته قاصدًا، وصلى ركعتين، وبادر بذلك حين دخوله منزله، كما في هذه الرواية، وفي رواية أخرى للبخاري (١١٨٦): فلم يجلس حتى قال: «أين تحب أن أصلي من بيتك؟» فأشرت له إلى المكان الذي أحب أن أصلي فيه، وهذه الرواية أبين في المراد، كما قال ابن حجر.

ومبادرته ﷺ بالصلاة قبل جلوسه تعبير عن مزيد اهتمامه ﷺ بشأن عتبان ﷺ، فـ«جلوسه إنما وقع بعد صلاته بخلاف ما وقع منه في بيت مليكة حيث جلس، فأكل، ثم صلى؛ لأنه هناك دعي إلى الطعام فبدأ به، وهنا دُعِي إلى الصلاة؛ فبدأ بها». (فتح الباري ١/ ٥٢١).

وصحة صلاة عتبان ﷺ في هذا الموطن ليست موقوفة على صلاة النبي ﷺ فيه؛ فالأرض كلها مسجد وطهور، لكنه ﷺ كان قريبًا من أصحابه، مُلبيًا حاجاتهم.

وتلبية النبي ﷺ حاجات أصحابه ليست قاصرة على الخواص منهم، أو على مَن شهد بدرًا كعتبان ﷺ، بل إن الجارية السوداء كانت تجد لها مكانًا في قلب النبي ﷺ فيلبي لها ما طلبت.

عن عبد الله بن بريدة قال: سمعت بريدة ﷺ تقول: خرج رسول الله ﷺ في بعض مغازيه، فلما انصرف جاءت جارية سوداء؛ فقالت: يا رسول الله، إني كنت نذرت إن ردَّك الله صالحًا أن أضرب بين يديك بالدف وأتغنَّى، فقال لها رسول الله ﷺ: إن كنت نذرت فاضربي، وإلا فلا، فجعلت تضرب، فدخل أبو بكر، وهي تضرب، ثم دخل عليٌّ،

وهي تضرب، ثم دخل عثمان، وهي تضرب، ثم دخل عمر، فألقت الدف تحت استها، ثم قعدت عليه، فقال رسول الله ﷺ: «إن الشيطان ليخاف منك يا عمر، إني كنت جالسًا، وهي تضرب، فدخل أبو بكر، وهي تضرب، ثم دخل عليٌّ، وهي تضرب ثم دخل عثمان، وهي تضرب، فلما دخلت أنت يا عمر؛ ألقت الدف». (أخرجه الترمذي ٣٦٩٠، و أحمد ٢٢٩٨٩).

قال القاري: «فيه دلالة ظاهرة على أنَّ ضرب الدف لا يجوز إلا بالنذر ونحوه؛ مما ورد فيه الإذن من الشارع، كضربه في إعلان النكاح، فما استعمله بعض مشايخ اليمن من ضرب الدف حال الذكر، فمن أقبح القبيح، والله ولي دينه، وناصر نبيه». (مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح ٩/ ٣٩٠٢).

إن مَن يقيِّمون جدوى الاستجابة لمطالب الآخرين وفق معاييرهم هم، وحسب أهميتها لديهم؛ لن يصلوا إلى هذا الخُلُق النبوي العظيم، فما يراه الشيخ والمربي قليل الأهمية قد يكون ذا أهمية بالغة لدى تلميذه، وأثر هذه الاستجابة على نفسية المتربي وشخصيته ربما فاقت نظرتنا القاصرة إلى الموقف.

واستجابة النبي ﷺ لأصحابه تمتد لدرجة أن يصفوه بأنه لم يقل: لا ﷺ، فعن ابن المنكدر قال: سمعت جابرًا ﷺ يقول: ما سُئِل النبي ﷺ عن شيء قطُّ فقال: لا. (أخرجه البخاري ٦٠٣٤، ومسلم ٢٣١١).

وخلقه الرفيع ﷺ واهتمامه بتلبية مطالب أصحابه لم يكن ليتجاوز حدود الشرع؛ فحين يتعارض ذلك مع ما شرعه الله؛ فشرع الله أَوْلَى.

عن نافع أبي غالب قال: كنت في سكة المِرْبَد، فمرَّت جنازة معها ناس كثير، قالوا: جنازة عبد الله بن عمير فتبعتها، فإذا أنا برجل عليه كساء رقيق على بُرَيْذِينَتِهِ، وعلى رأسه

خرقة تقيه من الشمس، فقلت: من هذا الدِّهقان؟ قالوا: هذا أنس بن مالك، فلما وضعت الجنازة، قام أنس، فصلَّى عليها، وأنا خلفه لا يحول بيني وبينه شيء، فقام عند رأسه، فكبَّر أربع تكبيرات لم يُطلْ، ولم يُسرعْ، ثم ذهب يقعد فقالوا: يا أبا حمزة، المرأة الأنصارية، فقربوها، وعليها نعش أخضر، فقام عند عجيزتها فصلَّى عليها نحو صلاته على الرجل، ثم جلس، فقال العلاء بن زياد: يا أبا حمزة هكذا كان يفعل رسول الله ﷺ يُصلِّي على الجنازة كصلاتك، يكبِّر عليها أربعًا، ويقوم عند رأس الرجل، وعجيزة المرأة؟ قال: نعم قال: يا أبا حمزة، غزوت مع رسول الله ﷺ قال: نعم غزوت معه حُنينًا، فخرج المشركون، فحملوا علينا حتى رأينا خَيْلنا وراء ظهورنا، وفي القوم رجل يحمل علينا فيدقنا، ويحطمنا، فهزمهم الله، وجعل يجاء بهم، فيبايعونه على الإسلام، فقال رجل من أصحاب النبي ﷺ: إن عليَّ نذرًا، إن جاء الله بالرجل الذي كان منذ اليوم يحطمنا لأضربن عنقه، فسكت رسول الله ﷺ، وجيء بالرجل، فلما رأى رسولَ الله ﷺ قال: يا رسول الله تبت إلى الله، فأمسك رسول الله ﷺ عنه، لا يبايعه؛ ليفي الآخر بنذره، قال: فجعل الرجل يتصدَّى لرسول الله ﷺ؛ ليأمره بقتله، وجعل يهاب رسول الله ﷺ أن يقتله، فلما رأى رسول الله ﷺ أنه لا يصنع شيئًا؛ بايعه، فقال الرجل: يا رسول الله نذري، فقال: إني لم أمسك عنه منذ اليوم إلا لتوفي بنذرك، فقال: يا رسول الله ألا أومضت إليَّ؟ فقال النبي ﷺ: إنه ليس لنبي أن يومض. (أخرجه أبو داود ٣١٩٤).

لقد كفَّ النبي ﷺ عن مبايعته الرجل لأجل أن يوفي الرجل بنذره، قال الخطابي: «وفي الحديث دليل على أن الإمام بالخيار بين قتل الرجال البالغين من الأسارى، وبين حقن دمائهم ما لم يسلموا، فإذا أسلموا؛ فلا سبيل عليهم». (معالم السنن ١/ ٣١٤).

لبَّى النبي ﷺ حاجة الرجل، وأتاح له الفرصة للوفاء بالنذر، إلا أنه ﷺ لم يكن ليتجاوز حدود الشرع، فلم يومض له؛ فهذا مما لا يليق بالأنبياء، قال الخطابي: «وأما

قوله: ليس لنبي يومض: فإن معناه أنه لا يجوز له فيما بينه وبين ربه عز وجل أن يضمر شيئًا، ويظهر خلافه؛ لأن الله تعالى إنما بعثه بإظهار الدين، وإعلان الحق، فلا يجوز له ستره وكتمانه؛ لأن ذلك خداع، ولا يحل له أن يؤمِّن رجلًا في الظاهر، ويخفره في الباطن». (معالم السنن ١/ ٣١٤).

٥- قضاء حوائجهم، وحل مشكلاتهم:

كان ﷺ يُعنى بقضاء حوائج أصحابه، فعن عبد الله بن أبي أوفى ﷺ قال: كان رسول الله ﷺ يُكثر الذكر، ويُقل اللَّغو، ويطيل الصلاة، ويقصر الخطبة، ولا يأنف أن يمشي مع الأرملة والمسكين، فيقضي له الحاجة. (أخرجه النسائي ١٤١٤، والدارمي ٧٥).

ويصفه أنس ﷺ بوصف يجلِّي غاية التواضع والتبسط منه ﷺ، واهتمامه بحاجات أصحابه حتى الضعفاء منهم، فعن أنس بن مالك ﷺ قال: كانت الأَمَةُ من إماء أهل المدينة لتأخذ بيد رسول الله ﷺ، فتنطلق به حيث شاءت. (أخرجه البخاري ٦٠٧٢).

واهتمامه ﷺ بحوائج أصحابه يَعمُّ كل الأحوال، فعن عثمان ﷺ قال: إنا والله قد صحبنا رسول الله ﷺ في السفر والحضر، فكان يعود مرضانا، ويتبع جنائزنا، ويغزو معنا، ويواسينا بالقليل والكثير، وإن ناسًا يعلموني به عسى أن لا يكون أحدهم رآه قط. (أخرجه أحمد ٥٠٤).

واهتمامه ﷺ بقضاء حوائج أصحابه يمتد إلى ما بعد وفاتهم، فقد كان ﷺ يشدِّد في أمر الدَّين؛ لما يتعلق به من حقوق الخلق، ومع ذلك كان ﷺ يقضي دين مَن مات من أصحابه، فعن أبي هريرة ﷺ، أن رسول الله ﷺ كان يُؤتى بالرجل الميت عليه الدَّيْن، فيسأل هل ترك لدينه من قضاء؛ فإن حدَّث أنه ترك وفاءً صلَّى عليه، وإلا قال: «صلوا على صاحبكم»، فلما فتح الله عليه الفتوح، قال: «أنا أَوْلَى بالمؤمنين من أنفسهم، فمن

توفي، وعليه دين؛ فعليَّ قضاؤه، ومَن ترك مالًا؛ فهو لورثته». (أخرجه البخاري ٢٢٩٨، ومسلم ١٦١٩، واللفظ لمسلم).

ويعتني ﷺ بقضاء حوائج أصحابه حتى ولو احتاج إلى أن يكفِّر عن يمينه، فعن أبي بردة بن أبي موسى، عن أبي موسى الأشعري ﷺ، قال: أتيت رسول الله ﷺ في رهط من الأشعريين أستحمله، فقال: «والله لا أحملكم، ما عندي ما أحملكم»، ثم لبثنا ما شاء الله فأتي بإبل، فأمر لنا بثلاثة ذود، فلما انطلقنا، قال بعضنا لبعض: لا يبارك الله لنا، أتينا رسول الله ﷺ نستحمله، فحلف أن لا يحملنا فحملنا، فقال أبو موسى: فأتينا النبي ﷺ، فذكرنا ذلك له، فقال: «ما أنا حملتكم، بل الله حملكم، إني والله- إن شاء الله- لا أحلف على يمين، فأرى غيرها خيرًا منها، إلا كفَّرت عن يميني، وأتيت الذي هو خير». (أخرجه البخاري ٤٤١٥، ومسلم ١٦٤٩).

إن بعض مَن يقضي حاجات الآخرين يفعل ذلك حين يكون صاحبه أمامه، وإذا غاب عن ناظريه نسيه، أو غفل عنه، أما رسول الله ﷺ فلم يكن انصرافهم عنه مانعًا من عنايته بقضاء حاجتهم، والسؤال عنهم، حتى مع يمينه التي حلف عليها ﷺ.

وربما قام ﷺ بنفسه بحل مشكلات أصحابه، فعن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما، أن رجلًا أعتق غلامًا له عن دبر فاحتاج، فأخذه النبي ﷺ فقال: «مَن يشتريه مِنِّي؟» فاشتراه نعيم بن عبد الله بكذا وكذا، فدفعه إليه. (أخرجه البخاري ٢١٤١، ومسلم ٩٩٧).

فلم يكتفِ ﷺ بالإذن له بالبيع، إنما تولَّى ﷺ بيعه بنفسه، ولا شك أن ذلك أنفق له، وأدعى إلى أن يجد مَن يشتريه.

وفي إحدى روايات الحديث: أنه ﷺ وجَّه الرجل إلى كيفية التصرف بمال هذا الغلام الذي باعه، وأنه ﷺ هو الذي بادر بسؤاله عن حاله، ففي رواية لمسلم (٩٩٧): أعتق رجل من بني عذرة عبدًا له عن دبر، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فقال: «ألك مال غيره؟» فقال: لا، فقال: «مَن يشتريه مِنِّي؟» فاشتراه نعيم بن عبد الله العدوي بثمان مائة درهم،

فجاء بها رسول الله ﷺ فدفعها إليه، ثم قال: «ابدأ بنفسك فتصدق عليها، فإن فضل شيء فلأهلك، فإن فضل عن أهلك شيء فلذي قرابتك، فإن فضل عن ذي قرابتك شيء فهكذا وهكذا»، يقول: فبين يديك، وعن يمينك، وعن شمالك.

ووقوع المخالفة من أحدهم لم يكن مانعًا له ﷺ من مساعدته، والاعتناء بحل مشكلته، فعن أبي هريرة ﷺ، قال: بينما نحن جلوس عند النبي ﷺ، إذ جاءه رجل فقال: يا رسول الله هلكت، قال: «ما لك؟» قال: وقعت على امرأتي، وأنا صائم، فقال رسول الله ﷺ: «هل تجد رقبة تعتقها؟» قال: لا، قال: «فهل تستطيع أن تصوم شهرين متتابعين؟»، قال: لا، فقال: «فهل تجد إطعام ستين مسكينًا؟» قال: لا، قال: فمكث النبي ﷺ، فبينا نحن على ذلك أتي النبي ﷺ بعرق فيها تمر- والعرق: المِكْتَل- قال: «أين السائل؟» فقال: أنا، قال: «خذها، فتصدق به» فقال الرجل: أَعَلَى أفقر مِنِّي يا رسول الله؟ فوالله ما بين لابتيها- يريد الحَرَّتَيْن- أهل بيت أفقر من أهل بيتي، فضحك النبي ﷺ حتى بدت أنيابه، ثم قال: «أَطْعِمْه أهلك». (أخرجه البخاري ١٩٣٦).

لقد استقر عند الصحابة رضوان الله عليهم اعتناء النبي ﷺ بقضاء حوائجهم وحل مشكلاتهم، فكان الجميع يفد إليه في حاجته، حتى حين يختلف الرقيق مع سيده يأتي إلى رسول الله ﷺ يبحث عن حل لمشكلته، فعن يزيد بن أبي عبيد قال: سمعت عميرًا مولى آبي اللحم قال: أمرني مولاي أن أقدِّد لحمًا، فجاءني مسكين، فأطعمته منه، فعلم بذلك مولاي فضربني، فأتيت رسول الله ﷺ فذكرت ذلك له فدعاه، فقال: لِمَ ضربته؟ فقال: يعطي طعامي بغير أن آمره. فقال: «الأجر بينكما». (أخرجه مسلم ١٠٢٥).

ومن أعظم صور اهتمامه ﷺ بمشكلاتهم: مبادرته إلى الإصلاح بينهم، فعن سهل بن سعد ﷺ، أن أهل قباء اقتتلوا، حتى تراموا بالحجارة، فأُخبر رسول الله ﷺ بذلك، فقال: «اذهبوا بنا نصلح بينهم». (أخرجه البخاري ٢٦٩٣).

وهكذا نرى رسول الله ﷺ يعيش مع أصحابه همومهم، ومشكلاتهم، وقضاياهم، فهم مَحطُّ اهتمامه ﷺ يتفقدهم، ويسأل عنهم، ويوجههم، ويرشدهم، وربما شارك ﷺ، وأسهم بنفسه في ذلك حين يقتضي الأمر.

إن اهتمام المربي بحاجات ومشكلات المتربين له نتائج مهمة، منها:

- أنه خلق رفيع، ومنهج شرعي؛ فمَن كان في حاجة أخيه كان الله في حاجته، ومن فرَّج عن مسلم كربة من كرب الدنيا؛ فرج الله عنه كربة من كرب يوم القيامة، ويجتمع في ذلك أجر قضاء حوائج المسلمين، والحق الخاص للقريب أو الصديق، وهو باب من أبواب اكتساب الأجر، وتحصيل الثواب.
- أنه أحد أسباب نمو الألفة والمحبة، وهي مطلب مهم من مطالب التلقي التربوي؛ فالمرء لا يتلقى إلا ممن يحبه.
- أنه من أهم أسباب تربيته على هذا الخلق وتعويده عليه؛ فالتعلم بالقدوة أبلغ، وأعظم أثرًا من التعليم بالقول.
- حماية المتربي من قرارات خاطئة قد يتخذها في حياته؛ فصاحب المشكلة يبحث عن حل لها، فإذا لم يكن المربي قريبًا منه مستمعًا له، فربما اتخذ قراره بنفسه، أو استشار مَن لا يناسب.

ويجدر بالمربي في مثل هذه المواقف أن يستحضر النية الخالصة لله عز وجل، ويريد وجهه لا كسب محبة الآخرين، أو ثناءهم على خُلُقِه، وإن كان ذلك سيحصل تبعًا، وحين يغيب الإخلاص عن المربي، وهو يهتم بأحوال تلامذته؛ يفقد الأمر بركته، ويفقد تأثيره، فصدق المشاعر يظهر على صاحبه، والتصنع سرعان ما يزول أثره، ويُدرك الآخرون عدم صدق هذا الخلق.

٦- سؤاله عن أحوالهم:

ومن اهتمامه ﷺ بأصحابه أن يسأل عن أحوالهم حين يرى ما يستوجب ذلك، فعن أنس بن مالك ﷺ أن عبد الرحمن بن عوف ﷺ جاء إلى رسول الله ﷺ، وبه أثر صُفْرَة، فسأله رسول الله ﷺ، فأخبره أنه تزوج امرأة من الأنصار، قال: «كم سقت إليها؟» قال: زِنَة نواة من ذهب، قال رسول الله ﷺ: «أَوْلِم، ولو بشاة». (أخرجه البخاري ٥١٥٣، ومسلم ١٤٢٧).

وحين رأى رجلًا ملازمًا للمسجد سأله ﷺ، وأرشده إلى ما يعينه على تجاوز حالته، فعن أبي سعيد الخدري ﷺ قال: دخل رسول الله ﷺ ذات يوم المسجد، فإذا هو برجل من الأنصار يُقال له: أبو أمامة، فقال: «يا أبا أمامة، ما لي أراك جالسًا في المسجد في غير وقت الصلاة؟» قال: هموم لزمتني، وديون يا رسول الله، قال: «أفلا أعلمك كلامًا إذا أنت قلته؛ أذهب الله همك، وقضى عنك دَيْنك؟» قال: قلت: بلى يا رسول الله قال: «قُلْ إذا أصبحت، وإذا أمسيت: اللهم إني أعوذ بك من الهم والحَزَن، وأعوذ بك من العجز والكسل، وأعوذ بك من الجبن والبخل، وأعوذ بك من غلبة الدين، وقهر الرجال» قال: ففعلت ذلك، فأذهب الله عز وجل همِّي، وقضى عني دَيْني. (أخرجه أبو داود ١٥٥٥).

وحين عاد رجلًا مريضًا من أصحابه، فرأى من حاله ما يستوجب السؤال؛ سأله ﷺ، وأرشده إلى البديل، فعن أنس ﷺ، أن رسول الله ﷺ عاد رجلًا من المسلمين قد خَفُتَ، فصار مثل الفرخ، فقال له رسول الله ﷺ: «هل كنت تدعو بشيء، أو تسأله إياه؟» قال: نعم، كنت أقول: اللهم ما كنت معاقبي به في الآخرة، فعجِّله لي في الدنيا، فقال رسول الله ﷺ: «سبحان الله، لا تطيقه، أو لا تستطيعه، أفلا قلت: اللهم آتنا في الدنيا حسنة، وفي الآخرة حسنة، وقِنا عذاب النار» قال: فدعا الله له فشفاه. (أخرجه مسلم ٢٦٨٨).

واهتمامه ﷺ بأصحابه لم يكن في الحضر فقط، فقد كان يسأل عن حالهم، وهو في الغزو والسفر، فعن جابر بن عبد الله ﷺ قال: كان رسول الله ﷺ في سفر، فرأى

زحامًا، ورجلًا قد ظُلِّل عليه، فقال: «ما هذا؟» فقالوا: صائم، فقال: «ليس من البرِّ الصوم في السفر». (أخرجه البخاري ١٩٤٦، ومسلم ١١١٥).

٧- معرفة أحوالهم المادية:

ومن اهتمامه ﷺ بأصحابه: معرفته بأحوالهم المادية، فحين أهداه بلال ﷺ تمرًا جيِّدًا سأله ﷺ عن مصدره؛ لمعرفته بحال بلال ﷺ، فعن أبي سعيد الخدري ﷺ قال: جاء بلال إلى النبي ﷺ بتمر بَرْنِي، فقال له النبي ﷺ: «من أين هذا؟»، قال بلال: كان عندنا تمر ردي، فبعت منه صاعين بصاع؛ لنطعم النبي ﷺ، فقال النبي ﷺ عند ذلك: «أَوَّه أَوَّه، عين الربا عين الربا، لا تفعل، ولكن إذا أردت أن تشتري؛ فبع التمر ببيع آخر، ثم اشتره». (أخرجه البخاري ٢٣١٢، ومسلم ١٥٩٤).

وعن أبي نضرة قال: سألت ابن عمر، وابن عباس ﷺ عن الصرف فلم يريا به بأسًا، فإني لقاعد عند أبي سعيد الخدري ﷺ، فسألته عن الصرف، فقال: ما زاد فهو ربا، فأنكرت ذلك لقولهما، فقال: لا أحدثك إلا ما سمعت من رسول الله ﷺ، جاءه صاحب نخله بصاع من تمر طيب، وكان تمر النبي ﷺ هذا اللون، فقال له النبي ﷺ: «أنَّى لك هذا؟» قال: انطلقت بصاعين، فاشتريت به هذا الصاع، فإن سعر هذا في السوق كذا، وسعر هذا كذا، فقال رسول الله ﷺ: «ويلك، أَرْبَيْتَ إذا أردت ذلك، فبع تمرك بسلعة، ثم اشتر بسلعتك أيَّ تمر شئت». (أخرجه مسلم ١٥٩٤).

٨- الاهتمام بأحوالهم الشخصية والأسرية:

ومن مظاهر اهتمامه ﷺ بأصحابه: اعتناؤه بأحوالهم الأسرية والاجتماعية، فيسأل ﷺ جابر بن عبد الله ﷺ هل تزوج أم لا؟ ويسأله عن حال زوجته، فعن جابر بن عبد الله ﷺ قال: كُنَّا في مسير مع رسول الله ﷺ، وأنا على ناضح، إنما هو في أخريات الناس، قال:

فضربه رسول الله ﷺ- أو قال: نخسه، أراه قال: بشيء كان معه-، قال: فجعل بعد ذلك يتقدم الناس، ينازعني حتى إني لأكفه، قال: فقال رسول الله ﷺ: «أتبيعنيه بكذا وكذا، والله يغفر لك؟» قال: قلت: هو لك يا نبي الله قال: «أتبيعنيه بكذا وكذا، والله يغفر لك؟» قال: قلت: هو لك يا نبي الله، قال: وقال لي: «أتزوجت بعد أبيك؟» قلت: نعم، قال: «ثيبًا أم بكرًا؟» قال: قلت: ثيبًا، قال: «فهلَّا تزوجت بكرًا تُضاحكك وتضاحكها، وتلاعبك وتلاعبها؟». (أخرجه البخاري ٢٠٩٧، ومسلم ٧١٥، واللفظ لمسلم).

وحين افتقد ﷺ عليًا في منزله سأل عنه، عن سهل بن سعد ﷺ قال: ما كان لعليٍّ ﷺ اسم أحب إليه من أبي تراب، وإن كان ليفرح به إذا دُعِي به، جاء رسول الله ﷺ بيتَ فاطمة عليها السلام فلم يجد عليًا في البيت، فقال: أين ابن عمك؟ فقالت: كان بيني وبينه شيء؛ فغاضبني، فخرج، فلم يقل عندي، فقال رسول الله ﷺ لإنسان: «انظر أين هو؟» فجاء، فقال: يا رسول الله، هو في المسجد راقد، فجاء رسول الله ﷺ، وهو مضطجع قد سقط رداؤه عن شقه، فأصابه تراب، فجعل رسول الله ﷺ يمسحه عنه، وهو يقول: «قم أبا تراب، قم أبا تراب». (أخرجه البخاري ٦٢٨٠، ومسلم ٢٤٠٩).

لقد افتقد النبي ﷺ عليًا ﷺ، وسأل عنه زوجته، وحين علم ﷺ أن الأمر يتصل بعلاقتهما؛ عالجه بحكمه، فلم يسأل فاطمة ﷺ عما دار بينهما، وذهب ﷺ بنفسه لعليٍّ، ثم مسح التراب بيده الشريفة عنه ومازحه، قال ابن حجر: «وفي حديث سهل هذا من الفوائد- أيضًا-: جواز القائلة في المسجد، وممازحة المُغضَب بما لا يغضب منه، بل يحصل به تأنيسه». (فتح الباري ١/ ٥٣٦).

٩- الشفاعة لذوي الحاجة:

ومن صور اهتمامه ﷺ بأصحابه: شفاعته لذوي الحاجة منهم، ومن هذه المواقف: شفاعته للإصلاح بين بَرِيرَة وزوجها ﷺ، فقد كانت بَرِيرَة زوجة لمغيث، وكلاهما

رقيق، وعتقت بريرة؛ فخيَّرها رسول الله ﷺ بين البقاء مع زوجها أو الفراق، فاختارت أن تفارقه، لكن زوجها اختار البقاء معها، فرقَّ له النبي ﷺ، وشفع له لدى زوجته.

عن ابن عباس رضي الله عنهما أن زوج بريرة كان عبدًا يُقال له: مغيث، كأني أنظر إليه يطوف خلفها يبكي، ودموعه تسيل على لحيته، فقال النبي ﷺ لعباس: «يا عباس، ألا تعجب من حب مغيث بريرة، ومن بغض بريرة مغيثًا؟» فقال النبي ﷺ: «لو راجعتِه» قالت: يا رسول الله تأمرني؟ قال: «إنما أنا أشفع» قالت: لا حاجة لي فيه. (أخرجه البخاري ٥٢٨٣).

إنه ﷺ يشفع لرقيق من الأرِقَّاء، لدى جارية كانت أَمَةً قبل أيام، ويتقبل ﷺ امتناعها عن قبول شفاعته بصدر رَحْب، ولا يرى أن في ذلك إهانة لمقامه ﷺ، ولا بخسًا من حقه.

كما شفع ﷺ لمولى حجَّام لدى مواليه، فعن أنس رضي الله عنه، أنه سُئِل عن أجر الحجَّام فقال: احتجم رسول الله ﷺ، حجمَهُ أبو طيبة، وأعطاه صاعين من طعام، وكلَّم مواليه؛ فخففوا عنه. (أخرجه البخاري ٥٦٩٦، ومسلم ١٥٧٧).

وفي رواية: وأمر له بصاع، أو صاعين، أو مُدٍّ، أو مُدَّيْنِ، وكلم فيه؛ فخفف من ضريبته. (أخرجه البخاري ٢٢٨١).

وكان ﷺ يحث أصحابه على الشفاعة لأهل الحوائج، فعن أبي موسى رضي الله عنه قال: كان رسول الله ﷺ إذا جاءه السائل، أو طُلبت إليه حاجة قال: «اشفعوا تُؤجروا، ويقضي الله على لسان نبيه ﷺ ما شاء». (أخرجه البخاري ١٤٣٢، ومسلم ٢٦٢٧).

وتركت هذه التربية النبوية أثرها على أصحابه رضوان الله عليهم، فها هو عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما يعرض شفاعته على المحتاجين لها، فعن أبي عبد الرحمن قال: جاء ثلاثة نفر إلى عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما، وأنا عنده، فقالوا: يا أبا محمد، إنا والله ما نقدر على

شيء، لا نفقة، ولا دابة، ولا متاع، فقال لهم: ما شئتم؛ إن شئتم رجعتم إلينا، فأعطيناكم ما يسَّر الله لكم، وإن شئتم ذكرنا أمركم للسلطان، وإن شئتم صبرتم؛ فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن فقراء المهاجرين يسبقون الأغنياء يوم القيامة إلى الجنة بأربعين خريفًا» قالوا: فإنا نصبر لا نسأل شيئًا. (أخرجه مسلم ٢٩٧٩).

١٠ - العناية بتطييب نفوسهم:

ومن صور اهتمامه ﷺ بأصحابه: اعتناؤه بتطييب نفوسهم، عن مروان بن الحكم، والمسور بن مخرمة، أن رسول الله ﷺ قام حين جاءه وفد هوازن مسلمين، فسألوه أن يرد إليهم أموالهم وسَبْيَهم، فقال لهم رسول الله ﷺ: «أحبُّ الحديث إلي أصدَقُه، فاختاروا إحدى الطائفتين: إما السبي، وإما المال، وقد كنت استأنيت بهم»، وقد كان رسول الله ﷺ انتظرهم بضع عشرة ليلة حين قفل من الطائف، فلما تبيَّن لهم أن رسول الله ﷺ غير رادٍّ إليهم إلا إحدى الطائفتين، قالوا: فإنا نختار سبينا، فقام رسول الله ﷺ في المسلمين، فأثنى على الله بما هو أهله، ثم قال: «أما بعد، فإن إخوانكم هؤلاء قد جاؤونا تائبين، وإني قد رأيت أن أرد إليهم سبيهم، فمن أحب منكم أن يطيب بذلك فليفعل، ومن أحب منكم أن يكون على حظه حتى نعطيه إياه من أول ما يفيء الله علينا فليفعل»، فقال الناس: قد طيبنا ذلك لرسول الله ﷺ لهم، فقال رسول الله ﷺ: «إنا لا ندري من أذن منكم في ذلك ممن لم يأذن، فارجعوا حتى يرفعوا إلينا عرفاؤكم أمركم»، فرجع الناس، فكلمهم عرفاؤهم، ثم رجعوا إلى رسول الله ﷺ فأخبروه أنهم قد طيبوا وأذنوا. (أخرجه البخاري ٢٣٠٧).

إن السبي الآن قد صار ملكًا لأصحاب النبي ﷺ، وهم أصحاب الشأن فيه، وإسلام هوازن لا يلزم منه إعادة السبي لهم، إلا أنه ﷺ راعى تطييب نفوسهم، فتبرع لهم بنصيبه، ثم حث أصحابه رضوان الله عليهم على ذلك، فوصف وفد هوازن بأنهم جاؤوا تائبين،

وبيَّن ﷺ أنه سيرد إليهم ما يخصه، وحثَّ أصحابه على أن يطيبوا نفسًا بذلك، لكنه ﷺ حفظ حق مَن لم يأذن، فوعدهم بأن يعوضهم من أول فيء.

ولما كان الموقف عامًّا لا يظهر فيه مَن أذن ومَن لم يأذن، وربما منع بعضَهم الحياءُ أن يتمسك بحقه؛ أحال ﷺ الأمر إلى العرفاء.

١١- الاعتذار مما قد يلتبس عليهم:

حِرْصُ المربي على الاستجابة لطلب تلميذه لا يعني قدرته على ذلك في كل الأحوال، وربما كان العذر خفيًّا، وغير ظاهر لدى المتربي؛ فبيان العذر هنا يزيل ما في النفوس، ويشعر المتربي بأهميته.

وقد كان ﷺ يعتذر من أصحابه حين تخفى حاله عليهم، فعن المهاجر بن قنفذ رضي الله عنه، أنه أتى النبي ﷺ، وهو يبول فسلَّم عليه، فلم يرد عليه حتى توضأ، ثم اعتذر إليه، فقال: «إني كرهت أن أذكر الله عز وجل إلا على طُهْر- أو قال: على طهارة». (أخرجه أبو داود ١٧، وابن ماجه ٣٥٠، وأحمد ٢٠٧٦٢).

وحين سلَّم عليه بعض أصحابه، وهو يصلي ﷺ اعتذر منهم بعد فراغه من صلاته مُبيِّنًا ما منعه من السلام، فعل ذلك ﷺ مع جابر رضي الله عنه؛ فعن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال: بعثني رسول الله ﷺ في حاجة له، فانطلقت، ثم رجعت وقد قضيتها، فأتيت النبي ﷺ، فسلمت عليه، فلم يرد عليَّ، فوقع في قلبي ما الله أعلم به، فقلت في نفسي: لعل رسول الله ﷺ وجد عليَّ أني أبطأت عليه، ثم سلمت عليه فلم يرد عليَّ، فوقع في قلبي أشد من المرة الأولى، ثم سلمت عليه فرد عليَّ، فقال: «إنما منعني أن أرد عليك أني كنت أصلي»، وكان على راحلته متوجهًا إلى غير القبلة. (أخرجه البخاري ١٢١٧، ومسلم ٥٤٠).

كما فعله ﷺ مع ابن مسعود ﷺ؛ فعن عبد الله ﷺ قال: كُنَّا نسلم على النبي ﷺ، وهو في الصلاة فيرد علينا، فلما رجعنا من عند النجاشي سلمنا عليه، فلم يرد علينا، وقال: «إن في الصلاة شغلًا». (أخرجه البخاري ١١٩٩، ومسلم ٥٣٨).

وفي بعض روايات الحديث أنهم سألوه عن ذلك، فجاء في رواية للبخاري: فقلنا: يا رسول الله، إنا كُنَّا نسلم عليك فترد علينا؟ قال: «إن في الصلاة شغلًا». (أخرجه البخاري ٣٨٧٥، ومسلم ٥٣٨).

وحين خرج ﷺ بعد الصلاة مُسرعًا على غير عادته، فعجبوا من ذلك؛ بيَّن ﷺ لهم ما الذي حمله على ذلك، فعن عقبة ﷺ قال: صلَّيْت وراء النبي ﷺ بالمدينة العصر، فسلَّم، ثم قام مُسرعًا، فتخطى رقاب الناس إلى بعض حُجَر نسائه، ففزع الناس من سرعته، فخرج عليهم، فرأى أنهم عجبوا من سرعته، فقال: «ذكرت شيئًا من تِبْر عندنا، فكرهت أن يحبسني؛ فأمرت بقسمته». (أخرجه البخاري ٨٥١).

وكان من عادته ﷺ مع أصحابه أن يأكل مما يهدونه له تطييبًا لخاطرهم، وحين لا يفعل ذلك لمانع، فإنه يعتذر لهم؛ فعن ابن عباس ﷺ قال: قدم زيد بن أرقم ﷺ، فقال له عبد الله بن عباس ﷺ يستذكره: كيف أخبرتني عن لحم صيد أُهدِي إلى رسول الله ﷺ، وهو حرام؟ قال: قال: أُهدِي له عضو من لحم صيد فردَّه، فقال: «إنا لا نأكله، إنا حُرُمٌ». (أخرجه مسلم ١١٩٥).

وربما جمع بين بيان عذره، وتلبية رغبتهم حين يتسع المقام لذلك، عن أبي سعيد الخدري ﷺ أنه قال: قرأ رسول الله ﷺ، وهو على المنبر ﷺ، فلما بلغ السجدة نزل فسجد، وسجد الناس معه، فلما كان يوم آخر قرأها، فلما بلغ السجدة تَشَزَّنَ[1] الناس للسجود،

(١) قال الخطابي: «معناه استوفروا، وتأهبوا له، وتهيؤوا، وأصله من الشَّزَن، وهو القلق، يقال: بات فلان على شزن، إذا بات قلقًا، ينقلب من جنب إلى جنب». (معالم السنن. ١/ ٢٨٤).

فقال النبي ﷺ: «إنما هي توبة نبي، ولكني رأيتكم تَشَزَّنْتُم للسجود؛ فنزل فسجد، وسجدوا». (أخرجه أبو داود ١٤١٠).

١٢- إعطاء البديل عند الاعتذار:

وحين لا يتمكن ﷺ من تلبية مطلبهم إما لعدم قدرته، أو لمانع شرعي؛ فإنه ﷺ قد لا يكتفي بالاعتذار، بل يقدم البديل لذلك، عن زهرة بن معبد، عن جَدِّه عبد الله بن هشام، وكان قد أدرك النبي ﷺ، وذهبت به أمه زينب بنت حميد إلى رسول الله ﷺ، فقالت: يا رسول الله بايعه، فقال: «هو صغير، فمسح رأسه، ودعا له»، وعن زهرة بن معبد، أنه كان يخرج به جَدُّه عبد الله بن هشام إلى السوق، فيشتري الطعام، فيلقاه ابن عمر، وابن الزبير رضي الله عنهما، فيقولان له: «أشرِكنا، فإن النبي ﷺ قد دعا لك بالبركة»، فيشركهم، فربما أصاب الراحلة كما هي، فيبعث بها إلى المنزل. (أخرجه البخاري ٢٥٠٢).

فحين امتنع ﷺ من مبايعة عبد الله رضي الله عنه بيَّن السبب لأمه بأنه صغر سِنُّه، ثم عوَّضهما عن ذلك بالمسح على رأسه، والدعاء له بالبركة.

وحين يستعين به ﷺ أحد أصحابه، وهو لا يجد ما يعينه؛ يوجهه ﷺ إلى الاقتصاد في المهر، ثم يعطيه البديل لذلك، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: إني تزوجت امرأة من الأنصار، فقال له النبي ﷺ: «هل نظرت إليها؟ فإن في عيون الأنصار شيئًا» قال: قد نظرت إليها، قال: «على كم تزوجتها؟» قال: على أربع أواق، فقال له النبي ﷺ: «على أربع أواق؟! كأنما تَنْحِتُونَ الفضة من عُرْض هذا الجبل! ما عندنا ما نعطيك، ولكن عسى أن نبعثك في بعثٍ تصيب منه، قال: فبعث بعثًا إلى بني عبس، بعث ذلك الرجل فيهم». (أخرجه مسلم ١٤٢٤).

١٣- افتقادهم:

ومن صور اهتمامه ﷺ بأصحابه: افتقاده مَن يغيب منهم عنه، فعن أبي هريرة ﷺ، أن النبي ﷺ لقيه في بعض طريق المدينة، وهو جُنُب؛ فانخنست منه، فذهب، فاغتسل، ثم جاء فقال: «أين كنت يا أبا هريرة؟» قال: كنت جنبًا، فكرهت أن أجالسك، وأنا على غير طهارة، فقال: «سبحان الله، إن المسلم لا ينجس». (أخرجه البخاري ٢٨٣، ومسلم ٣٧١).

ويفتقد ﷺ مَن يغيب عن مجلسه فيسأل عنه، كما افتقد ثابت بن قيس ﷺ، فعن أنس بن مالك ﷺ، أن النبي ﷺ افتقد ثابت بن قيس ﷺ، فقال رجل: يا رسول الله: أنا أعلم لك علمه، فأتاه فوجده جالسًا في بيته منكسًا رأسه، فقال: ما شأنك؟ فقال: شَرٌّ، كان يرفع صوته فوق صوت النبي ﷺ؛ فقد حبط عمله، وهو من أهل الأرض، فأتى الرجل، فأخبره أنه قال كذا وكذا، فقال موسى بن أنس: فرجع المرة الآخرة ببشارة عظيمة فقال: «اذهب إليه، فقل له: إنك لست من أهل النار، ولكن من أهل الجنة». (أخرجه البخاري ٣٦١٣، ومسلم ١١٩).

وسأل عن رجل اعتاد أن يراه ﷺ في مجلسه مع ابنه الصغير؛ فعن معاوية بن قرة، عن أبيه ﷺ، أن رجلًا أتى النبي ﷺ، ومعه ابنٌ له، فقال له: أتحبه؟ فقال: أحبك الله كما أحبه، فمات، ففقده، فسأل عنه فقال: «ما يسرك أن لا تأتي بابًا من أبواب الجنة إلا وجدته عنده يسعى يفتح لك». (أخرجه النسائي ١٨٧٠).

كما يفتقدهم ﷺ في الغزو، ومواطن الجهاد، فقد افتقد ﷺ جُلَيْبِيبًا ﷺ، عن أبي برزة ﷺ، أن النبي ﷺ كان في مغزى له، فأفاء الله عليه، فقال لأصحابه: هل تفقدون من أحد؟ قالوا: نعم، فلانًا، وفلانًا، وفلانًا، ثم قال: هل تفقدون من أحد؟ قالوا: نعم، فلانًا، وفلانًا، وفلانًا، ثم قال: هل تفقدون من أحد؟ قالوا: لا، قال: لكني أفقد جُلَيْبِيبًا فاطلبوه؛ فطُلِبَ في القتلى، فوجدوه إلى جنب سبعة قد قتلهم، ثم قتلوه، فأتى النبي ﷺ

فوقف عليه، فقال: قتل سبعة، ثم قتلوه، هذا مِنِّي، وأنا منه، هذا مِنِّي، وأنا منه، قال: فوضعه على ساعديه ليس له إلا ساعدا النبي ﷺ قال: فحفر له، ووضع في قبره، ولم يذكر غسلًا. (أخرجه مسلم ٢٤٧٢).

١٤- انتظار غائبهم:

ومن صور اهتمامه ﷺ بأصحابه: انتظار الغائب منهم، ففي الحج أخَّر ﷺ الإفاضة من عرفة من أجل أسامة ينتظره، عن هشام بن عروة، عن أبيه، أن رسول الله ﷺ أخَّر الإفاضة من عرفة من أجل أسامة بن زيد ينتظره، فجاء غلام أفطس أسود، فقال أهل اليمن: إنما حُبِسنا من أجل هذا؟ قال: فلذلك كفر أهل اليمن من أجل ذا، قال محمد بن سعد: قلت ليزيد بن هارون: ما يعني بقوله: كفر أهل اليمن من أجل هذا؟ فقال: ردتهم حين ارتدوا في زمن أبي بكر، إنما كانت لاستخفافهم بأمر النبي ﷺ. (طبقات ابن سعد ٤/ ٦٣).

١٥- حرصه على سلامتهم:

ومن اهتمامه ﷺ بأصحابه: حرصه على سلامتهم، حتى أنه كان يلتفت في الصلاة انتظارًا لمن أرسله، عن سهل بن الحنظلية قال: ثُوِّبَ بالصلاة، يعني: صلاة الصبح، فجعل رسول الله ﷺ يصلي، وهو يلتفت إلى الشِّعْب، قال أبو داود: وكان أرسل فارسًا إلى الشِّعْب من الليل يحرس. (أخرجه أبو داود ٩١٦).

وجاء في بعض روايات الحديث تسميته بأنه أنس بن مرثد الغنوي ﷺ؛ فعن سهل بن الحنظلية، أنهم ساروا مع رسول الله ﷺ يوم حُنين، فأطنبوا السير حتى كانت عشية، فحضرت الصلاة عند رسول الله ﷺ، فجاء رجل فارس، فقال: يا رسول الله، إني انطلقت بين أيديكم حتى طلعت جبل كذا وكذا، فإذا أنا بهوازن على بكرة آبائهم

بظعنهم، ونعمهم، وشائهم، اجتمعوا إلى حُنين، فتبسم رسول الله ﷺ، وقال: «تلك غنيمة المسلمين غدًا إن شاء الله»، ثم قال: «مَن يحرسنا الليلة؟» قال أنس بن أبي مرثد الغنوي: أنا يا رسول الله، قال: فاركب، فركب فرسًا له، فجاء إلى رسول الله ﷺ، فقال له رسول الله ﷺ: «استقبلْ هذا الشِّعْب حتى تكون في أعلاه، ولا نُغَرَّنَّ مِن قِبلك الليلة»، فلما أصبحنا خرج رسول الله ﷺ إلى مُصلَّاه، فركع ركعتين، ثم قال: «هل أحسستم فارسكم؟» قالوا: يا رسول الله، ما أحسسناه، فثُوِّبَ بالصلاة، فجعل رسول الله ﷺ يصلي، وهو يلتفت إلى الشِّعْب، حتى إذا قضى صلاته وسلَّم قال: «أبشروا، فقد جاءكم فارسكم»، فجعلنا ننظر إلى خلال الشجر في الشِّعْب، فإذا هو قد جاء حتى وقف على رسول الله ﷺ فسلَّم، فقال: إني انطلقت حتى كنت في أعلى هذا الشِّعب حيث أمرني رسول الله ﷺ، فلما أصبحت، اطلعت الشِّعبين كليهما، فنظرت فلم أرَ أحدًا، فقال له رسول الله ﷺ: «هل نزلت الليلة؟» قال: لا، إلا مصليًّا، أو قاضيًا حاجة، فقال له رسول الله ﷺ: «قد أوجبت؛ فلا عليك أن لا تعمل بعدها». (أخرجه أبو داود ٢٥٠١).

١٦- حِرْصُه ألا ينشغل عنهم:

ومن صور اهتمامه ﷺ بأصحابه: حرصه ألا ينشغل وينصرف عنهم، فعن ابن عباس رضي الله عنهما، أن رسول الله ﷺ اتخذ خاتمًا فلبسه، قال: «شغلني هذا عنكم منذ اليوم، إليه نظرة، وإليكم نظرة»، ثم ألقاه. (أخرجه النسائي ٥٢٨٩، وأحمد ٢٩٦٠).

وقد كان ﷺ يحرص على البروز لهم؛ ليروه، ويقتدوا به، دون أن يُدْفعوا عنه، أو يُذادون، عن أبي الطفيل رضي الله عنه قال: قلت لابن عباس رضي الله عنهما: أراني قد رأيت رسول الله ﷺ، قال: فصفه لي، قال: قلت رأيته عند المروة على ناقة، وقد كثر الناس عليه، قال: فقال ابن عباس: ذاك رسول الله ﷺ؛ إنهم كانوا لا يُدَعُّونَ عنه، ولا يُكْرَهُونَ. (أخرجه مسلم ١٢٦٥).

وعن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال: طاف النبي ﷺ في حجة الوداع على راحلته بالبيت، وبالصفا والمروة؛ ليراه الناس، وليشرف وليسألوه؛ فإن الناس غَشَوْهُ. (أخرجه مسلم ١٢٧٣).

١٧- اهتمامه بمَن يعمل تحت يده:

ومن صور اهتمامه ﷺ بأصحابه: عنايته بمَن يعملون تحت يده، فعن عائشة رضي الله عنها، أن النبي ﷺ بعث أبا جهم بن حذيفة مصدقًا فَلَاجَّهُ[1] رجل في صدقته، فضربه أبو جهم فشَجَّهُ، فأتوا النبي ﷺ، فقالوا: القود يا رسول الله، فقال النبي ﷺ: «لكم كذا وكذا» فلم يرضوا، فقال: «لكم كذا وكذا» فلم يرضوا، فقال: «لكم كذا وكذا» فرضوا، فقال النبي ﷺ: «إني خاطب العشية على الناس، ومخبرهم برضاكم» فقالوا: نعم، فخطب رسول الله فقال ﷺ: «إن هؤلاء الليثيين أتوني يريدون القود، فعرضت عليهم كذا وكذا فرضوا، أرضيتم؟» قالوا: لا، فهَمَّ المهاجرون بهم، فأمرهم رسول الله ﷺ أن يكفوا عنهم؛ فكفُّوا، ثم دعاهم فزادهم، فقال: «أرضيتم؟» فقالوا: نعم، قال: «إني خاطب على الناس، ومخبرهم برضاكم، قالوا: نعم»، فخطب النبي ﷺ فقال: «أرضيتم؟» قالوا: نعم. (أخرجه أبو داود ٤٥٣٤، والنسائي ٤٧٧٨، وأحمد ٢٤٥٢٧، وابن ماجه ٢٦٣٨).

١٨- توديعهم والدعاء لهم:

ومن اهتمامه ﷺ بأصحابه: أنه كان يودِّعهم عند السفر، ويدعو لهم، فعن قزعة قال: قال لي ابن عمر رضي الله عنهما: هَلُمَّ أُوَدعك، كما ودعني رسول الله ﷺ: أستودع الله دينك، وأمانتك، وخواتيم عملك. (أخرجه أبو داود ٢٦٠٠، والترمذي ٣٤٤٣، وابن ماجه ٢٨٢٦، وأحمد ٤٩٥٧).

---

(١) ورد في بعض الروايات «لاحاه» وبها يتضح المعنى، وقال في الصحاح: «والملاجة: التمادي في الخصومة». (١/ ٣٣٧).

وعن أبي هريرة ﷺ، أن رجلًا قال: يا رسول الله، إني أريد أن أسافر فأوصني، قال: عليك بتقوى الله، والتكبير على كل شَرَف، فلما أن ولَّى الرجل، قال: «اللهم اطْوِ له الأرض، وهَوِّن عليه السفر». (أخرجه الترمذي ٣٤٤٥، وأحمد ٨١١١).

ويدعو ﷺ لهذا الرجل، وهو لا يسمعه، إنه الخلق الصادق، والاهتمام الحقيقي الذي لا يبحث عن رضا الآخرين وإعجابهم، إن استقرار الاهتمام في قلب المربي، وصدقه في ذلك يختصر كثيرًا من الخطوات؛ فالقلب سيد الجوارح وأميرها؛ إذ يُترجم هذا الاهتمام في الاعتناء به، والاجتهاد في حسن تربيته.

العلاقة التواصلية

التربية عملية تواصلية؛ فالتواصل أهم أدوات المربي في إبلاغ رسالته، وتحقيق أهدافه، وهو أداة بناء العلاقة بين الطرفين، وبدون التواصل الفاعل لا يمكن اكتشاف شخصية المتربي، ولا التقويم، ولا قياس الأداء.

والمجال التواصلي في المنهج النبوي مجال واسع، ولا يمكن الإحاطة به في هذا المقام، وقد تمت الإشارة إلى جوانب من العلاقة التواصلية بين النبي ﷺ وأصحابه.

ونشير هنا إلى بعض الجوانب المهمة في العلاقة التواصلية النبوية.

١- البيان ووضوح الرسالة:

أخبر الله عز وجل أن البيان من وظائف النبي ﷺ، فقال تبارك وتعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ (النحل: ٤٤).

لذا فقد رزقه الله عز وجل أدوات البيان من الفصاحة والبلاغة، فكان ﷺ أفصح الناس وأبلغهم، وفضَّله تبارك وتعالى في ذلك على إخوانه الأنبياء، فقال- عن نفسه ﷺ-: «فُضِّلت على الأنبياء بِسِتٍّ: أُعطيت جوامع الكلم، ونُصرت بالرعب، وأُحِلَّت لي الغنائم، وجُعلت لي الأرض طهورًا ومسجدًا، وأُرسلت إلى الخلق كافة، وخُتِم بي النبيون». (أخرجه البخاري ٢٩٧٧، ومسلم ٥٢٣، واللفظ له).

قال النووي: «قوله ﷺ: «أُعطيت جوامع الكلم»، وفي الرواية الأخرى: «بُعثت بجوامع الكلم» قال الهروي: يعني به: القرآن، جمع الله تعالى في الألفاظ اليسيرة منه المعاني الكثيرة، وكلامه ﷺ كان بالجوامع قليل اللفظ كثير المعاني». (شرح صحيح مسلم ٥/ ٥).

ووصفت عائشة ﵂ حديثه ﷺ، وهى تتحدَّث مع ابن اختها عروة، فعن عروة بن الزبير، عن عائشة ﵂، أنها قالت: «ألا يعجبك أبو فلان؟ جاء فجلس إلى جانب حجرتي، يحدِّث عن رسول الله ﷺ، يسمعني ذلك، وكنت أسبِّح، فقام قبل أن أقضي سبحتي، ولو أدركته لرددت عليه، إن رسول الله ﷺ لم يكن يسرد الحديث كسردكم». (أخرجه البخاري ٣٥٦٨، ومسلم ٢٤٩٣).

وكان ﷺ يبتعد عن التكلُّف، فقد نهاه ربه عز وجل عن ذلك، قال سبحانه: ﴿قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ﴾ (ص: ٨٦).

وذمَّ ﷺ المتكلفين في الحديث، فعن أبي ثعلبة الخشني ﵁ قال: قال رسول الله ﷺ: «إن أحبَّكم إليَّ، وأقربكم مِنِّي في الآخرة محاسنكم أخلاقًا، وإن أبغضكم إليَّ، وأبعدكم مِنِّي في الآخرة مساوئكم أخلاقًا، الثرثارون، المتفيهقون، المتشدقون». (أخرجه أحمد ١٧٧٣٢، وأخرجه الترمذي ٢٠١٨ من حديث جابر ﵁).

وأخبر ﷺ أن الله عز وجل يُبغض المتكلفين في حديثهم؛ فعن عبد الله بن عمرو ﵄ قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله عز وجل يبغض البليغ من الرجال الذي يتخلل بلسانه تخلل الباقرة بلسانها». (أخرجه أبو داود ٥٠٠٥، والترمذي ٢٨٥٣، وأحمد ٦٥٤٣).

ولم يكن ﷺ ليذم المتكلفين ويقع فيما ذمَّهُ، ونهى عنه.

٢- الإصغاء والسماع:

كان ﷺ يُصغي ويُنصت لأصحابه، يحدِّثه الصغير والكبير، والرجل والمرأة، القريب والبعيد، فيصغي، ويستمع للجميع ﷺ.

عن عروة بن الزبير، قال: قالت عائشة ﵂: تبارك الذي وسع سمعه كل شيء، إني لأسمع كلام خولة بنت ثعلبة، ويخفى عليَّ بعضه، وهي تشتكي زوجها إلى رسول

الله ﷺ، وهي تقول: يا رسول الله، أكل شبابي، ونثرت له بطني، حتى إذا كبرت سِنِّي، وانقطع ولدي، ظاهر مِنِّي، اللهم إني أشكو إليك، فما برحت حتى نزل جبرائيل بهؤلاء الآيات: ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ﴾ (المجادلة: ١). (أخرجه أحمد ٢٤١٩٥، والنسائي ٣٤٦٠، وابن ماجه ٢٠٦٣، واللفظ له).

كما حكى أصحابه رضوان الله عليهم مواقف عِدَّة من استماعه ﷺ ومناجاته للآخرين، ومن ذلك: ما رواه عدي بن حاتم ﷺ قال: أتيت رسول الله ﷺ، وهو جالس في المسجد، فقال القوم: هذا عدي بن حاتم، وجئت بغير أمان، ولا كتاب، فلما دفعت إليه، أخذ بيدي، وقد كان قال قبل ذلك: «إني لأرجو أن يجعل الله يده في يدي» قال: فقام، فلقيته امرأة وصبي معها، فقالا: إن لنا إليك حاجة، فقام معهما حتى قضى حاجتهما، ثم أخذ بيدي حتى أتى بي داره..... الحديث. (أخرجه الترمذي ٢٩٥٣، وأحمد ١٩٣٨١).

وربما طالت مناجاة الرجل، ويبقي ﷺ مستمعًا له، فعن أنس ﷺ أنه قال: «أُقيمت الصلاة، والنبي ﷺ يناجي رجلًا في جانب المسجد، فما قام إلى الصلاة حتى نام القوم». (أخرجه البخاري ٦٤٢، ومسلم ٣٧٦).

وفي (رواية لأحمد ١٣١٣٤، والترمذي ٥١٧): عن أنس ﷺ قال: «أُقيمت الصلاة، وعرض رجل للنبي ﷺ، فحبسه بعدما أُقيمت الصلاة حتى نعس بعض القوم».

ويُبيِّن أنس ﷺ في رواية أخرى تكَرُّرَ هذا الأمر منه ﷺ، فيقول: «كانت الصلاة تُقام، فيكلم النبيَّ ﷺ الرجلُ في حاجة تكون له، فيقوم بينه وبين القبلة، فما يزال قائمًا يكلمه، فربما رأيت بعض القوم ينعس من طول قيام النبي ﷺ له». (أخرجه أحمد ١٢٦٤٢، والترمذي ٥١٨).

٣- التواصل البدني:

ومن صور تواصله ﷺ مع أصحابه: التواصل البدني، وسَبَق إيراد بعض النماذج عند الحديث عن التعليم النبوي.

وفيما يلي نماذج أخرى من التواصل البدني:

عن عمِّ أبي رافع بن عمرو الغفاري ﷺ قال: كنت غلامًا أرمي نخل الأنصار، فأُتِيَ بي النبي ﷺ فقال: «يا غلام لِمَ ترمي النخل؟» قال: آكل، قال: «فلا تَرْمِ النخل، وكل مما يسقط في أسفلها»، ثم مسح رأسه، فقال: «اللهم أشبع بطنه». (أخرجه أبو داود ٢٦٢٢، والترمذي ١٢٨٨، وابن ماجه ٢٢٩٩، وأحمد ٢٠٣٤٣).

بل قد ورد عنه ﷺ أن هذا الأمر هدي راتب، فكلما لقي رجلًا مَاسَحَهُ، عن حذيفة ﷺ قال: كان رسول الله ﷺ: إذا لقي الرجل من أصحابه مَاسَحَهُ، ودعا له قال: فرأيته يومًا بكرة، فحدت عنه، ثم أتيته حين ارتفع النهار، فقال: «إني رأيتك فحُدْتَ عني» فقلت: إني كنت جُنبًا، فخشيت أن تمسني، فقال رسول الله ﷺ: «إن المسلم لا ينجس». (أخرجه النسائي ٢٦٧، وأخرجه مسلم ٣٧٢، مختصرًا).

وضمَّ ابن عباس ﷺ، وهو يدعو له، عن ابن عباس ﷺ قال: ضمَّنِي النبي ﷺ إلى صدره، وقال: «اللهم علِّمْهُ الحكمة». (أخرجه البخاري ٣٧٥٦).

ومسح رأس أبي محذورة، وهو يعلمه الأذان، عن أبي محذورة ﷺ قال: قلت: يا رسول الله علِّمْنِي سُنَّة الأذان، قال: فمسح مُقدَّم رأسي، وقال: «تقول: الله أكبر الله أكبر، الله أكبر الله أكبر، ترفع بها صوتك، ثم تقول: أشهد أن لا إله إلا الله، أشهد أن لا إله إلا الله، أشهد أن محمدًا رسول الله، أشهد أن محمدًا رسول الله تخفض بها صوتك، ثم ترفع صوتك بالشهادة أشهد أن لا إله إلا الله، أشهد أن لا إله إلا الله، أشهد أن محمدًا رسول

الله، أشهد أن محمدًا رسول الله، حيَّ على الصلاة حيَّ على الصلاة، حيَّ على الفلاح، حيَّ على الفلاح، فإن كان صلاة الصبح قلت: الصلاة خير من النوم، الصلاة خير من النوم، الله أكبر الله أكبر، لا إله إلا الله». (أخرجه أبو داود ٥٠٠، ومسلم مختصرًا ٣٧٩).

وفي رواية أبي داود (٥٠١): قال: وعلَّمني الإقامة مرتين مرتين: الله أكبر الله أكبر، أشهد أن لا إله إلا الله، أشهد أن لا إله إلا الله، أشهد أن محمدًا رسول الله، أشهد أن محمدًا رسول الله، حيَّ على الصلاة، حيَّ على الصلاة، حيَّ على الفلاح، حيَّ على الفلاح، الله أكبر الله أكبر، لا إله إلا الله، وقال: فكان أبو محذورة لا يجز ناصيته، ولا يفرقها؛ لأن النبي ﷺ مسح عليها.

وربما ضرب ﷺ على منكب أحدهم، فعن المقدام بن معدي كرب ﷺ، أن رسول الله ﷺ ضرب على منكبه، ثم قال له: «أفلحت يا قديم إن مِتَّ، ولم تكن أميرًا، ولا كاتبًا، ولا عرِّيفًا». (أخرجه أبو داود ٢٩٣٣، وأحمد ١٧٢٠٥).

إن التواصل البدني، والقرب منه ﷺ، ونيل بركة مسِّ جسده الشريف له أثره على أصحابه رضوان الله عليهم، فربما احتال بعضهم لينال هذا الأمر، عن أسيد بن حضير ﷺ قال: بينما هو يحدث القوم، وكان فيه مزاح بينا يضحكهم، فطعنه النبي ﷺ في خاصرته بعود، فقال: أصبرني، فقال: «اصطبر» قال: إن عليك قميصًا، وليس علي قميص، فرفع النبي ﷺ عن قميصه، فاحتضنه، وجعل يقبل كشحه، قال: إنما أردت هذا يا رسول الله. (أخرجه أبو داود ٥٢٢٤).

وها هو زاهر ﷺ يستثمر هذه الفرصة؛ ليحظى بهذا القرب البدني منه ﷺ، عن أنس ﷺ، أن رجلًا من أهل البادية كان اسمه زاهرًا، وكان يهدي إلى رسول الله ﷺ الهدية من البادية، فيجهزه رسول الله ﷺ إذا أراد أن يخرج، فقال النبي ﷺ: «إن زاهرًا باديتنا، ونحن حاضروه».

وكان النبي ﷺ يُحبُّه، وكان رجلًا دميمًا، فأتاه النبي ﷺ يومًا، وهو يبيع متاعه، فاحتضنه من خلفه ولا يبصره الرجل، فقال: أرسلني، مَن هذا؟ فالتفت، فعرف النبي ﷺ، فجعل لا يألو ما ألصق ظهره بصدر النبي ﷺ حين عرفه، وجعل النبي ﷺ يقول: «مَن يشتري العبد؟» فقال: يا رسول الله، إذًا- والله- تجدني كاسدًا، فقال النبي ﷺ: «لكن عند الله لست بكاسد»، أو قال: «لكن عند الله أنت غالٍ». (أخرجه أحمد ١٢٦٤٨).

* * *

الفصل السابع: تربية المرأة

شقائق الرجال.

تكريم المرأة.

التربية الإيمانية.

التربية السلوكية والأخلاقية.

التربية العاطفية.

التربية الجمالية.

الاعتدال ومراعاة طبيعتها.

تعليم المرأة.

الوسائل والأساليب التربوية.

المشاركة العملية.

عقوبة المرأة.

المرأة واللعب.

رعاية البنات.

تهيئة البيئة التربوية.

دورها في إعانة الرجل.

المربي في بيته.

تربية المرأة

خلق الله عز وجل الرجل والمرأة من نفس واحدة، وقضى سبحانه وتعالى بحكمته أن يكون بينهما اتفاق وتجانس في أصل الخلقة، والسمات، والصفات، وأن تكون بينهما فروق، ونقاط اختلاف تُميِّز كل جنس عن الآخر.

ولما كان الله سبحانه وتعالى صاحب الخلق والأمر، وكانت شريعته موافقة لطبيعة الإنسان وخَلْقه؛ فقد جاء الدين بما يحويه من عقائد وعبادات، وسلوك وأخلاق، وحلال وحرام خطابًا للإنسان، بغَضِّ النظر عن جنسه، وراعت الشريعة الفروق في الطبيعة والوظائف؛ فخصَّت الرجل بأحكام دون النساء، وخصَّت النساء بأحكام دون الرجال.

ومن هنا يمكن أن نقول: إن خطاب المرأة يتضمن دائرتين:

الدائرة الأولى: الدائرة العامة التي تشترك فيها مع الرجل، وتشمل الاعتقاد، والتوحيد، وأعمال القلوب، والصلة بالله عز وجل، كما تشمل أحكام العبادات كالطهارة ونواقضها، والصلاة، والصيام، والزكاة، والحج، كما تشمل أحكام المعاملات، والحلال، والحرام، والعقوبات، والقصاص، وأبواب السلوك والآداب... إلخ.

الدائرة الثانية: الدائرة الخاصة، التي تتضمن الأحكام الخاصة بالمرأة، الناشئة عن طبيعتها وتكوينها كأحكام الطهارة من الدماء، وأثر الدماء على الصلاة، والصيام، والحج، أو الناشئة عن دورها ووظيفتها في الحياة: كأحكام مشاركتها في الحياة العامة، والجهاد، والقضاء، ونحو ذلك.

والدائرة العامة هي الأصل والقاعدة، وهي الأوسع، أما الدائرة الثانية: فهي استثناء.

ولهذا قرر العلماء أن الأصل في خطاب القرآن والسنة شموله لكل من الرجل والمرأة، حتى وإن كان في صيغة المذكر، أو بلفظ الرجل كقوله ﷺ: «ورجل ذكر الله خاليًا ففاضت

عيناه، ورجلان تحابّا في الله». (أخرجه البخاري ٦٦٠، ومسلم ١٠٣١)، فالأصل دخولها في خطاب الشارع، ولا تخص منه إلا بدليل.

إلا أن التعامل مع المرأة في الخطاب الدعوي والتربوي الموجَّه لها كثيرًا ما يركز على الدائرة الثانية، ويضخمها على حساب الدائرة الأولى؛ لذا ينزع كثير من الدعاة والوعاظ حين يخاطب المرأة إلى الدائرة الخاصة، ويهمل الدائرة العامة.

وحين نسعى لتلمس معالم التربية النبوية للمرأة، فلا بد من استحضار هذه القضية واستصحابها.

وعليه؛ فإن تعرُّف المنهج التربوي النبوي للمرأة من خلال خطابه ﷺ مع النساء، أو مواقفه معهن لن يقود إلى رسم الصورة المتكاملة للتربية النبوية للمرأة.

وكل ما يُقال عن التربية النبوية بعامة فهو منطبق على المرأة، فحين نتحدث عن مجالات التربية (الجسمية، والإيمانية، والعقلية ...) فذلك يشمل تربية الرجل والمرأة، إلا ما اسْتُثْني، وهو محدود، وهكذا حين نتحدث عن معالم التربية، ووسائلها، وأساليبها، والتعامل مع المتربين، والتعليم... إلخ.

وبعد ذلك تبقى الحاجة لتناول ما ورد بشأن المرأة إما في الخطاب الموجَّه لها، أو في تعامله ﷺ معها؛ ليسهم ذلك في اكتمال الصورة حول المنهج النبوي في تربية المرأة.

شقائق الرجال

قرَّر ﷺ بسنته القولية والعملية أن النساء شقائق الرجال، واستقر هذا المعنى لدى أمهات المؤمنين رضوان الله عليهن، فعن أم المؤمنين أم سلمة رضي الله عنها أنها قالت: كنت أسمع الناس يذكرون الحوض، ولم أسمع ذلك من رسول الله ﷺ، فلما كان يومًا من ذلك، والجارية تمشطني، فسمعت رسول الله ﷺ يقول: «أيها الناس» فقلت للجارية: استأخري عنِّي، قالت: إنما دعا الرجال، ولم يدع النساء، فقلت: إني من الناس، فقال رسول الله ﷺ: «إني لكم فَرَط على الحوض، فإياي لا يأتين أحدكم فيُذَب عني كما يُذَبُّ البعير الضالُّ، فأقول: فيم هذا؟ فيقال: إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك، فأقول: سُحقًا». (أخرجه مسلم ٢٢٩٥).

ولأن دخول المرأة في الخطاب الموجَّه للرجل قد تقرر لدى أمهات المؤمنين، فإن أم المؤمنين أم سلمة رضي الله عنها ترى أن خطابه العام ﷺ هو خطاب للرجال والنساء، فتحرص رضي الله عنها على ترك ما هي فيه من إصلاح شأنها؛ لتسمع ما سيقوله ﷺ.

ويؤكد ﷺ على هذا المعنى، مُبيِّنًا أن اشتراك الرجل والمرأة في الخلقة، والطبيعة الإنسانية ينشأ عنه اشتراك فيما يترتب على ذلك من أحكام فقهية.

عن عائشة رضي الله عنها قالت: سُئِل رسول الله ﷺ عن الرجل يجد البلل، ولا يذكر احتلامًا قال: «يغتسل»، وعن الرجل يرى أنه قد احتلم، ولم يجد بللًا قال: «لا غسل عليه»، قالت أم سلمة: يا رسول الله هل على المرأة ترى ذلك غسل؟ قال: «نعم، إن النساء شقائق الرجال». (أخرجه الترمذي ١١٣، وأحمد ٢٦١٩٥، وأبو داود ٢٣٦).

ولا تقتصر دلالة هذا التقرير النبوي بأن النساء شقائق الرجال على مسائل الطهارة ونحوها، فإن عموم النص يدل على أن الأصل أن كل ما يحتاجه الرجل تحتاجه المرأة، وكل ما يُخاطَب به الرجل تُخاطَب به المرأة، إلا ما دلَّ الدليل على استثنائه.

وحين رأت إحدى أمهات المؤمنين أن القرآن لم يُبيِّن ما يخص المرأة في بعض الأحكام الشرعية؛ سألته ﷺ عن ذلك، فأنزل الله عز وجل ما يُبيِّن اشتراك النساء مع الرجال في خطاب الشرع.

عن أم سلمة رضي الله عنها، قالت: يا رسول الله، لا أسمع الله ذكر النساء في الهجرة؟ فأنزل الله تعالى: ﴿أَنِّي لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٖ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰۖ بَعۡضُكُم مِّنۢ بَعۡضٖۖ﴾ (آل عمران: ١٩٥). (أخرجه الترمذي ٣٠٢٣).

وفي رواية للنسائي في السنن الكبرى (١١٣٤٠): فأنزل الله عز وجل: ﴿إِنَّ ٱلۡمُسۡلِمِينَ وَٱلۡمُسۡلِمَٰتِ وَٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ﴾ (الأحزاب: ٣٥).

تكريم المرأة

جاء النبي ﷺ لمجتمع يحتقر المرأة، ويستخف بها، ولا يقيم لها وزنًا، تُعدُّ من سقط المتاع، وتورث، كما يورث المال، يصور ذلك عمر بن الخطاب ﷺ بقوله: «كُنَّا في الجاهلية لا نعد النساء شيئًا، فلما جاء الإسلام، وذَكَرَهُنَّ الله؛ رأينا لهن بذلك علينا حقًّا». (أخرجه البخاري ٥٨٤٣، ومسلم ١٤٧٩).

فغيَّر النبي ﷺ الأمر، ودعا إلى تكريم المرأة، والرفع من مكانتها، وأكَّد ﷺ هذا المعنى في تعامله مع المرأة وتربيتها، وفي توجيهاته المتعلقة بالأحكام، أو الآداب.

وتكريم المرأة امتداد لتكريم بني آدم؛ فلا فرق في ذلك بين الرجال والنساء، وسبق الحديث مُفصلًا عن تكريم الإنسان، وعليه؛ فكل ما سبق إيراده من منهجه ﷺ في تكريم الإنسان ينطبق على المرأة.

ونظرًا لأن الواقع الذي عايشه ﷺ كان يمتهن كرامة المرأة، ويقلل من شأنها؛ فقد اعتنى النبي ﷺ بتأكيد هذا المعنى وترسيخه، وتخصيص المرأة بذلك دون الاكتفاء بالخطاب العام.

ومن صور التكريم النبوي للمرأة ما يلي:

١ - تغيير حال الجاهلية:

كانت قريش- كما يُحدِّث عمر ﷺ- لا يعدُّون النساء شيئًا، فجاء النبي ﷺ، فغيَّر هذا الحال، عن ابن عباس ﷺ قال: لبثت سنة، وأنا أريد أن أسأل عمر عن المرأتين اللتين تظاهرتا على النبي ﷺ، فجعلت أهابه، فنزل يومًا منزلًا، فدخل الأراك، فلما خرج سألته فقال: عائشة، وحفصة ثم قال: كُنَّا في الجاهلية لا نَعُدُّ النساء شيئًا، فلما جاء الإسلام،

وذكرهن الله؛ رأينا لهن بذلك علينا حقًّا، من غير أن ندخلهن في شيء من أمورنا، وكان بيني وبين امرأتي كلام، فأغلظت لي، فقلت لها: وإنك لهناك؟ قالت: تقول هذا لي، وابنتك تؤذي النبي ﷺ، فأتيت حفصة فقلت لها: إني أُحذِّرك أن تعصي الله ورسوله، وتقدمت إليها في أذاه، فأتيت أم سلمة فقلت لها، فقالت: أعجب منك يا عمر، قد دخلت في أمورنا، فلم يبقَ إلا أن تدخل بين رسول الله ﷺ وأزواجه؟ فرددت، وكان رجل من الأنصار إذا غاب عن رسول الله ﷺ وشهدته، أتيته بما يكون، وإذا غبت عن رسول الله ﷺ وشهد، أتاني بما يكون من رسول الله ﷺ، وكان من حول رسول الله ﷺ قد استقام له، فلم يبقَ إلا ملك غسان بالشأم، كُنَّا نخاف أن يأتينا، فما شعرت إلا بالأنصاري، وهو يقول: إنه قد حدث أمر، قلت له: وما هو، أجاء الغساني؟ قال: أعظم من ذاك، طلق رسول الله ﷺ نساءه، فجئت، فإذا البكاء من حجرها كلها، وإذا النبي ﷺ قد صعد في مشربة له، وعلى باب المشربة وصيف، فأتيته فقلت: استأذن لي، فدخلت، «فإذا النبي ﷺ على حصير قد أثر في جنبه، وتحت رأسه مِرْفَقَة من أَدَمٍ حشوها ليف، وإذا أُهُبٌ معلقة وقَرَظ» فذكرت الذي قلت لحفصة وأم سلمة، والذي ردت عليَّ أم سلمة، «فضحك رسول الله ﷺ، فلبث تسعًا وعشرين ليلة، ثم نزل». (أخرجه البخاري ٥٨٤٣، ومسلم ١٤٧٩).

٢- أخذه لسيرة الأنصار:

بيَّن عمر بن الخطاب ﷺ في الحديث السابق اختلاف نظرة مجتمع الأنصار للمرأة وتعاملهم معها عن نظرة قريش وتعاملهم، وحين جاء ﷺ إلى المدينة، واختلطت نساء قريش- ومنهن نساؤه ﷺ- بنساء الأنصار؛ تعلَّمت نساء قريش من نساء الأنصار، فأخذ النبي ﷺ سيرة الأنصار، وترك سيرة قريش.

قال ابن حجر حول حديث عمر: «وفيه أن شدة الوطأة على النساء مذموم؛ لأن النبي ﷺ أخذ بسيرة الأنصار في نسائهم، وترك سيرة قومه». (فتح الباري ٩/ ٢٩١).

ولو كان ما عليه قريش في التعامل مع المرأة خير وأولى؛ لما تركه ﷺ.

وهكذا يبدأ تأصيل هذا المعنى في بيت النبوة، فتأخذ المرأة حقها وكرامتها، ولو كانت عند أفضل البشر ﷺ، وتستشهد امرأة عمر رضي الله عنه بحال نساء النبي ﷺ معه.

وإنه ليصعب على مَن عاش بعض المكاسب في موقعه الاجتماعي أو السياسي أن يتنازل عنها، إلا أنه ﷺ يغيِّر من حاله وتعامله، ويأخذ بسيرة الأنصار مع نسائهم، فهي أقرب إلى ما يريده الله عز وجل، وهي أكثر تكريماً ورعاية للمرأة.

٣- الترحيب والسلام:

ويرحب ﷺ بالمرأة، ويسلم عليها، عن أم هانئ بنت أبي طالب رضي الله عنها قالت: ذهبت إلى رسول الله ﷺ عام الفتح، فوجدته يغتسل، وفاطمة ابنته تستره، قالت: فسلمت عليه، فقال: «مَن هذه؟» فقلت: أنا أم هانئ بنت أبي طالب، فقال: «مرحبًا بأم هانئ»، فلما فرغ من غسله، قام، فصلى ثماني ركعات ملتحفًا في ثوب واحد، فلما انصرف، قلت: يا رسول الله، زعم ابن أمي أنه قاتل رجلًا قد أجرته، فلان ابن هبيرة، فقال رسول الله ﷺ: «قد أجرنا مَن أَجَرْتِ يا أم هانئ»، قالت أم هانئ: وذاك ضحى. (أخرجه البخاري ٣٥٧، ومسلم ٣٣٦).

٤- قبول السلام والهدية:

حين تبعث إحدى النساء السلام للرسول ﷺ كان ﷺ يرد عليها التحية بمثلها، ويقبل ما تهديه له، عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: تزوج رسول الله ﷺ فدخل بأهله، قال: فصنعت أمي أم سليم حَيْسًا، فجعلته في تَوْر، فقالت: يا أنس، اذهب بهذا إلى رسول الله ﷺ فقل: بعثت بهذا إليك أمي، وهي تقرئك السلام، وتقول: إن هذا لك مِنَّا قليل يا رسول الله، قال: فذهبت بها إلى رسول الله ﷺ فقلت: إن أمي تقرئك السلام، وتقول: إن

هذا لك مِنَّا قليل يا رسول الله، فقال: «ضَعْهُ»، ثم قال: «اذهب، فادع لي فلانًا، وفلانًا، وفلانًا، ومَن لقيت، وسمَّى رجالًا ..». (أخرجه مسلم ١٤٢٨).

وردَّ ﷺ السلام على المرأة التي أرسلت إليه تسأله عن الحج، فعن ابن عباس رضي الله عنهما، قال: أراد رسول الله ﷺ الحج، فقالت امرأة لزوجها: أَحِجَّنِي مع رسول الله ﷺ على جملك، فقال: ما عندي ما أَحُجك عليه، قالت: أحِجَّنِي على جملك فلان، قال: ذاك حبيس في سبيل الله، فأتى رسول الله ﷺ فقال: إن امرأتي تقرأ عليك السلام ورحمة الله، وإنها سألتني الحج معك، قالت: أحِجَّنِي مع رسول الله ﷺ، فقلت: ما عندي ما أحُجك عليه، فقالت أحِجَّنِي على جملك فلان، فقلت: ذاك حبيس في سبيل الله، فقال: «أما إنك لو أحججتها عليه كان في سبيل الله؟» قال: وإنها أمرتني أن أسألك ما يعدل حجة معك، فقال رسول الله ﷺ: «أقرئها السلام، ورحمة الله، وبركاته، وأخبرها أنها تعدل حجة معي عمرة في رمضان». (أخرجه أبو داود ١٩٩٠).

٥- قبول إجارتها:

ومن الشواهد العملية لتكريمه ﷺ للمرأة: قبوله إجارتها، عن أبي مرة مولى أم هانئ بنت أبي طالب، أنه سمع أم هانئ بنت أبي طالب، تقول: ذهبت إلى رسول الله ﷺ عام الفتح، فوجدته يغتسل، وفاطمة ابنته تستره، قالت: فسلَّمت عليه، فقال: «مَن هذه؟»، فقلت: أنا أم هانئ بنت أبي طالب فقال: «مرحبا بأم هانئ»، فلما فرغ من غُسله، قام فصلى ثماني ركعات ملتحفًا في ثوب واحد، فلما انصرف، قلت: يا رسول الله، زعم ابن أمي أنه قاتل رجلًا قد أجرته، فلان ابن هبيرة، فقال رسول الله ﷺ: «قد أجرنا مَن أَجَرْتِ يا أم هانئ»، قالت أم هانئ: وذاك ضحى. (أخرجه البخاري ٣٥٧، ومسلم ٣٣٦).

ولسنا هنا بصدد نقاش الحكم الفقهي لإجارة المرأة، إنما الاستشهاد على تكريمه ﷺ، فلا يتصور فيمن لا يكرم المرأة أن يتقبل إجارتها في مسائل القتل، والدماء، ونحوها.

٦- الوصاة بها:

وأوصى ﷺ بالنساء، فعن أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ قال: «مَن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يُؤذِ جاره، واستوصوا بالنساء خيرًا؛ فإنهن خُلِقن من ضِلَع، وإن أَعْوَج شيء في الضلع أعلاه، فإن ذهبت تُقيمه؛ كسرته، وإن تركته؛ لم يزل أعوج، فاستوصوا بالنساء خيرًا». (أخرجه البخاري ٥١٨٥، و٥١٨٦، ومسلم ١٤٦٨).

وتمثل هذه الوصية الموجزة الجامعة منهجًا في تكريم المرأة، ورعايتها، والإحسان إليها، وتأتي هذه الوصية مع إقراره ﷺ بما فيها من النقص والقصور؛ تأكيدًا على أن ما يُرى من قصور المرأة لا يسوغ أن يتخذ مبررًا للإخلال بحقها في الرعاية والتكريم.

٧- الأمر بتقوى الله فيهن:

يوصي ﷺ بتقوى الله في التعامل مع المرأة، والتقوى كلمة جامعة لخير الدنيا والآخرة، وهي من أعظم ما يدفع إلى تكريمها، وحسن رعايتها.

عن جابر بن عبد الله ﷺ في قصة حج النبي ﷺ: «...فاتقوا الله في النساء، فإنكم أخذتموهن بأمان الله، واستحللتم فروجهن بكلمة الله، ولكم عليهن أن لا يوطئن فرشكم أحدًا تكرهونه، فإن فعلن ذلك؛ فاضربوهن ضربًا غير مبرح، ولهن عليكم رزقهن، وكسوتهن بالمعروف ...». (أخرجه مسلم ١٢١٨).

ويُحذِّر ﷺ من استغلال ضعف المرأة في الإساءة لها، وبخس حقها، فعن أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ قال: «اللهم إني أحرج حق الضعيفين: اليتيم والمرأة». (أخرجه أحمد ٩٦٦٦، وابن ماجه ٣٦٧٨).

٨- معيار خيرية الرجل:

ويعظِّم ﷺ شأن المرأة؛ فيجعل حسن التعامل معها معيارًا لخيرية الرجل، عن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «خيركم خيركم لأهله، وأنا خيركم لأهلي». (أخرجه الترمذي ٣٨٩٥، والدارمي ٢٣٠٦، وابن ماجه ١٩٧٧).

ولما كانت النظرة للمرأة والتعامل معها تتأثر بالمعايير الشخصية، فما يعده أحدهم إحسانًا قد يراه الآخر ضعفًا، وما يراه حزمًا وصرامة مقبولة قد يراه غيره قسوة مذمومة؛ أرشدنا ﷺ إلى اتخاذ هَدْيه معيارًا لتحديد الخيرية، فقال:«وأنا خيركم لأهلي».

ويتكرَّر هذا التأكيد والتوجيه النبوي في أحاديث أُخَرَ، عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «أكمل المؤمنين إيمانًا أحسنهم خلقًا، وخياركم خياركم لنسائكم». (أخرجه أحمد ١٠١٠٦).

عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما، قال: قال رسول الله ﷺ: «خياركم خياركم لنسائهم». (أخرجه ابن ماجه١٩٧٨).

٩- ربط الإحسان لها بالإيمان:

جعل ﷺ اللطف بالأهل من كمال إيمان صاحبه، فعن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «إن من أكمل المؤمنين إيمانًا أحسنهم خلقًا، وألطفهم بأهله». (أخرجه الترمذي٢٦١٢، وأحمد ٢٤٢٠٤).

فاللطف بالأهل هنا ليس مجرد كمال خلقي، أو بابًا من أبواب الأدب المستحسن، إنه مرتبط بكمال الإيمان.

١٠- النهي عن إهانتها:

ومع أمره ﷺ بتكريم المرأة، والإحسان إليها، ورعايتها، وإعلائه ﷺ من شأنها؛ فقد كان ينهى عن المعاملة المهينة لها، والمعبرة عن احتقارها.

عن بهز بن حكيم، عن أبيه، عن جَدِّه ﷺ قال: قلت: يا نبي الله، نساؤنا ما نأتي منها، وما نذر؟ قال: «حرثك، ائْتِ حرثك أَنَّى شئت، غير أن لا تضرب الوجه، ولا تقبِّح، ولا تهجر إلا في البيت، وأطعم إذا طعمت، واكْسُ إذا اكتسيت، كيف وقد أفضى بعضكم إلى بعض إلا بما حلَّ عليها». (أخرجه أحمد ٢٠٠٣٠، وأبو دواد ٢١٤٣، وابن ماجه ١٨٥٠).

فينهى ﷺ في هذا التوجيه عن العقوبة البدنية المهينة لها، والمتمثلة في ضرب الوجه، وعن العقوبة النفسية المتمثلة بالتقبيح، ويؤكد ﷺ على أن يساويها الرجل بنفسه في طعامه وكسائه، وما أكثر ما تعاني النساء اليوم من الألفاظ المهينة والجارحة، ومن عبارات الاحتقار.

١١- النهي عن الأنكحة المهينة:

شاعت في الجاهلية صور من الأنكحة المهينة للمرأة، فغيَّر النبي ﷺ، وأكَّد على كرامة المرأة ومنزلتها، فأبطل ﷺ تلك الصور من النكاح، ومنها:

- نكاح المتعة، وقد أُبيح في الشرع في حكمة استثنائية، وحين انتهت ظروف إباحته؛ نهى عنه ﷺ إلى الأبد.
- نكاح الشغار، عن ابن عمر رضي الله عنهما: «أن رسول الله ﷺ نهى عن الشغار»، والشغار: أن يزوج الرجل ابنته على أن يزوجه الآخر ابنته، ليس بينهما صداق. (أخرجه البخاري ٥١١٢، ومسلم ١٤١٥).

وكما نهى ﷺ عن الأنحكة المهينة، فقد حفظ كرامة المرأة في تفاصيل أحكام النكاح، ونهى عن أساليب التسلط المهينة من الأولياء؛ فقد كان أهل الجاهلية يجبرون المرأة على الزواج بمَن لا تريد، فأكد النبي ﷺ على أحقِّيَّة المرأة بأن تُسْتَأذن إن كانت بكرًا، وتُستأمر إن كانت ثَيِّبًا، عن أبي هريرة ﷺ، أن النبي ﷺ قال: «لا تُنكح الأيِّمُ حتى تستأمر، ولا تُنكح البكر حتى تُستَأْذَن» قالوا: يا رسول الله، وكيف إذنها؟ قال: «أن تسكت». (أخرجه البخاري ٥١٣٦، ومسلم ١٤١٩).

وحفظ ﷺ للمرأة حقها، فردَّ نكاح مَنْ زوَّجها وليها بدون رضاها، عن خنساء بنت خذام الأنصارية، أن أباها زوَّجها، وهي ثيب، فكرهت ذلك، فأتت رسول الله ﷺ «فردَّ نكاحه». (أخرجه البخاري ٥١٣٨).

ولم يكن ردُّ النكاح قاصرًا على خنساء ﵂، فقد ردَّ ﷺ نكاح فتاة بِكر زوَّجها وليها دون رضاها، عن ابن عباس ﵄: أن جارية بِكرًا أتت النبي ﷺ، فذكرت أن أباها زوَّجها، وهي كارهة، فخيرها النبي ﷺ. (أخرجه أحمد ٢٤٦٩، وأبو داود ٢٠٩٦، وابن ماجه ١٨٧٥).

وانتزع ﷺ امرأة من عبد الله بن عمر ﵄ حين زوَّجها وليها دون رضاها، فعن عبد الله بن عمر ﵄ قال: توفي عثمان بن مظعون، وترك ابنة له من خويلة بنت حكيم بن أمية بن حارثة بن الأوقص، قال: وأوصى إلى أخيه قدامة بن مظعون، قال عبد الله: وهما خالاي، قال: فخطبت إلى قدامة بن مظعون ابنة عثمان بن مظعون فزوَّجَنِيها، ودخل المغيرة بن شعبة- يعني إلى أمها-، فأرغبها في المال فحطت إليه، وحطت الجارية إلى هوى أمها، فأَبَيَا حتى ارتفع أمرهما إلى رسول الله ﷺ، فقال قدامة بن مظعون: يا رسول الله، ابنة أخي أوصى بها إلي، فزوَّجتها ابن عمتها عبد الله بن عمر، فلم أقصر بها في الصلاح، ولا في الكفاءة، ولكنها امرأة، وإنما حطت إلى هوى أمها، قال: فقال رسول الله ﷺ:

«هي يتيمة، ولا تُنكح إلا بإذنها»، قال: فانتُزِعت- والله- مِنِّي بعد أن ملكتها، فزوَّجوها المغيرة. (أخرجه أحمد ٦١٣٦).

وليس المقام هنا مقام بحث أحكام وتفصيلات هذه الأنكحة، وإنما المقصود أنه ﷺ أكد في هذه الأوامر، والأقضية التي قضاها على كرامة المرأة وحقها فيمَن تتزوجه، وأبطل ما أَلِفَه الناس من صور فيها انتقاص من كرامتها.

وقد سبق الحديث عن تنمية الكرامة في مجالات التربية النبوية، وما قيل هناك ينطبق على المرأة؛ فالنساء شقائق الرجال.

ولئن كان الاعتناء بتنمية الكرامة مطلب تربوي مهم في تربية الرجال، فهو في المرأة آكد؛ إذ المرأة تشعر بالضعف، وتُعاني من النظرة القاصرة تجاهها من كثير ممن حولها، بل امتدت هذه النظرة إلى بعض المتدينين وطلبة العلم، فصار أحدهم ينظر إلى جانب واحد من النصوص؛ لذا فهو يستحضر ما يتناسب مع نظرته، ويغفل عن هديه العملي ﷺ في التعامل مع المرأة، وعن اعتبار حسن التعامل معها معيارًا لخيرية الرجل.

وتكريم المرأة يظهر أثره على لغة الحديث حول المرأة وقضاياها، وعلى الخطاب الموجَّه لها، وعلى تعزيز شعورها بالكرامة، وأنها حق مكتسب، وليست مِنَّة، ولا تفضُّلًا.

التربية الإيمانية

التربية الإيمانية هي محور التربية النبوية ومرتكزها؛ فالإيمان مناط النجاة يوم القيامة، ولن تدخل الجنة إلا نفس مؤمنة، والمؤمنون يتفاضلون في منازلهم ودرجاتهم في الجنة بحسب تفاضلهم في الإيمان.

والإيمان يُصلح حياة صاحبه في دينه ودنياه، فيصلح علاقة العبد بربه تبارك وتعالى، وعلاقته بأسرته، وبمن حوله، وعلاقته بالموافقين والمخالفين، والأبرار والفجار، والإيمان يُصلح القلب، ويهذِّب السلوك والأخلاق.

وقد سبق الحديث مُفصلًا عن التربية الإيمانية في مجالات التربية النبوية، وكل ما قيل هناك ينطبق على الرجل والمرأة؛ فالنساء شقائق الرجال، وإنما نتناول هنا ما ورد في شأن المرأة بصفة خاصة.

وكما أن الخطاب الموجَّه للرجال تدخل فيه النساء، فكذلك الخطاب الموجه للنساء -باستثناء ما هو من خصوصياتها كاللباس ونحوه؛ فالرجال داخلون فيه-، فإذا علَّم النبي ﷺ المرأة دعاءً، أو بيَّن لها فضل عمل صالح كالصدقة، والإنفاق، ونحو ذلك، فلا يمكن أن نقول بأن هذا لا يشرع للرجال.

وفيما يلي جوانب من المنهج النبوي في التربية الإيمانية للمرأة:

التربية على الإيمان بالقَدَر:

الإيمان بالقضاء والقدر ركن من أركان الإيمان، لا يصح إيمان عبد إلا به، والإيمان بالقضاء والقدر له أثره على حياة المرأة؛ فهي لا تسلم من أن يصيبها ما تكره، من وفاة قريب، أو عزيز، أو فرقة وطلاق، ونحو ذلك.

ويُبيِّن ﷺ لإحدى أمهات المؤمنين حين سمعها تدعو بطول عمره ﷺ، وعمر والدها، وأخيها أن الآجال بيد الله عز وجل، عن عبد الله ﷺ، قال: قالت أم حبيبة زوج النبي ﷺ: اللهم أمتعني بزوجي رسول الله ﷺ، وبأبي أبي سفيان، وبأخي معاوية قال: فقال النبي ﷺ: «قد سألت الله لآجال مضروبة، وأيام معدودة، وأرزاق مقسومة، لن يعجل شيئًا قبل حله، أو يؤخر شيئًا عن حله، ولو كنت سألت الله أن يعيذك من عذاب في النار، أو عذاب في القبر، كان خيرًا وأفضل». (أخرجه مسلم ٢٦٦٣).

قال النووي: «فإن قيل: ما الحكمة في نهيها عن الدعاء بالزيادة في الأجل لأنه مفروغ منه، وندبها إلى الدعاء بالاستعاذة من العذاب، مع أنه مفروغ منه- أيضًا- كالأجل؟ فالجواب: أن الجميع مفروغ منه، لكن الدعاء بالنجاة من عذاب النار، ومن عذاب القبر، ونحوهما عبادة، وقد أمر الشرع بالعبادات، فقيل: أفلا نتكل على كتابنا، وما سبق لنا من القدر؟ فقال: اعملوا، فكل مُيسَّر لما خُلِق له، وأما الدعاء بطول الأجل فليس عبادة، وكما لا يحسن ترك الصلاة، والصوم، والذكر اتكالًا على القدر، فكذا الدعاء بالنجاة من النار، ونحوه، والله أعلم». (شرح صحيح مسلم ١٦/ ٢١٣).

الصبر عند المصيبة:

لما كانت المرأة سريعة التأثر عند المصائب؛ كان ﷺ يربي النساء على الصبر، والتسليم لقضاء الله عز وجل، عن أسامة بن زيد رضي الله عنهما، قال: أرسلت ابنة النبي ﷺ إليه أن ابنًا لي قُبِض، فأتنا، فأرسل يقرئ السلام، ويقول: «إن لله ما أخذ، وله ما أعطى، وكل عنده بأجل مُسمًّى، فلتصبر، ولتحتسب»، فأرسلت إليه تقسم عليه ليأتينها، فقام، ومعه سعد بن عُبادة، ومعاذ بن جبل، وأُبَي بن كعب، وزيد بن ثابت، ورجال، فرُفع إلى رسول الله ﷺ الصبي، ونفسه تتقعقع- قال: حسبته أنه قال: كأنها شَنٌّ- ففاضت عيناه، فقال سعد:

يا رسول الله، ما هذا؟ فقال: «هذه رحمة، جعلها الله في قلوب عباده، وإنما يرحم الله من عباده الرحماء». (أخرجه البخاري ١٢٨٤، ومسلم ٩٢٣).

وحين رأى ﷺ امرأة تبكي على فقيدها، ذكَّرها بتقوى الله، وأمرها بالصبر، عن أنس بن مالك ﷺ، قال: مرَّ النبي ﷺ بامرأة تبكي عند قبر، فقال: «اتَّقِي الله، واصبري» قالت: إليك عنِّي، فإنك لم تُصَب بمصيبتي، ولم تعرفه، فقيل لها: إنه النبي ﷺ، فأتت باب النبي ﷺ، فلم تجد عنده بوَّابين، فقالت: لم أعرفك، فقال: «إنما الصبر عند الصدمة الأولى». (أخرجه البخاري ١٢٨٣، ومسلم ٩٢٦).

وبيَّن ﷺ لهذه المرأة أن محكَّ الصبر عند الصدمة الأولى، وحين يمضي الوقت، ويزول حرُّ المصيبة، وتخف لوعتها بعد ذلك؛ فالكل يجيد الصبر.

الأمر بالعبادة:

كان ﷺ يأمر النساء بالعبادة، والصلة بالله عز وجل، فقد جاء من الليل، وأيقظ ابنته وزوجها عليًّا ﷺ، عن علي بن أبي طالب ﷺ، أن رسول الله ﷺ طرقه وفاطمة بنت النبي عليه السلام ليلة، فقال: «ألا تُصلِّيان؟» فقلت: يا رسول الله، أنفسنا بيد الله، فإذا شاء أن يبعثنا بعثنا، فانصرف حين قلنا ذلك، ولم يرجع إليَّ شيئًا، ثم سمعته وهو مُوَلٍّ يضرب فخذه، وهو يقول: ﴿وَكَانَ ٱلۡإِنسَٰنُ أَكۡثَرَ شَيۡءٖ جَدَلٗا﴾ (الكهف: ٥٤). (أخرجه البخاري ١١٢٧، ومسلم ٧٧٥).

قال ابن حجر: «قال الطبري: لولا ما علم النبي ﷺ من عِظَم فضل الصلاة في الليل، ما كان يزعج ابنته، وابن عمه في وقت جعله الله لخلقه سكنًا، لكنه اختار لهما إحراز تلك الفضيلة على الدعة، والسكون؛ امتثالًا لقوله تعالى﴿وَأۡمُرۡ أَهۡلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ﴾ الآية». (فتح الباري ٣/ ١١).

ويُوقظ النبي ﷺ زوجاته للصلاة من الليل فهي مما يعصم من الفتن، عن أم سلمة رضي الله عنها، أن النبي ﷺ استيقظ ليلة، فقال: «سبحان الله، ماذا أُنزل الليلة من الفتنة، ماذا أُنزل من الخزائن، من يُوقظ صواحب الحجرات؟ يا رب كاسية في الدنيا عارية في الآخرة». (أخرجه البخاري ١١٢٧).

ويحثُّ النبي ﷺ الرجال على أن يُوقظوا أهلهم للصلاة من الليل، عن أبي سعيد، وأبي هريرة رضي الله عنهما، قالا: قال رسول الله ﷺ: «إذا أيقظ الرجل أهله من الليل فصلَّيَا، أو صلَّى ركعتين جميعًا، كُتِبَا في الذاكرين والذاكرات». (أخرجه أبو داود ١٣٠٩، وابن ماجه ١٣٣٥).

وتخبر عنه زوجته عائشة رضي الله عنها أنه كان يوقظها لتوتر آخر الليل؛ عن عائشة رضي الله عنها، قالت: «كان النبي ﷺ يصلي، وأنا راقدة معترضة على فراشه، فإذا أراد أن يوتر أيقظني، فأوترت». (أخرجه البخاري ٥١٢، ومسلم ٥١٢).

الأمر بالذكر:

كان ﷺ يُعنى بتربية المرأة على ذكر الله عز وجل، ويحثها على ذلك، ويعلمها طائفة من الأذكار الفاضلة.

أرشد ﷺ أم هانئ إلى التكبير والتحميد، فعن أم هانئ بنت أبي طالب رضي الله عنها، قالت: جئت النبي ﷺ فقلت: يا رسول الله، إني امرأة قد ثقلت، فعلِّمْنِي شيئًا أقوله، وأنا جالسة، قال: «قولي: الله أكبر مائة مرة، فهو خير لك من مائة بدنَة مجلَّلة متقبَّلة، وقولي: الحمد لله مائة مرة، فإنه خير لك من مائة فرس مُسرَّجة، مُلجَّمة، حملتيها في سبيل الله، وقولي: سبحان الله مائة مرة، هو خير لك من مائة رقبة من بني إسماعيل تعتقينهن، وقولي: لا إله إلا الله مائة مرة، لا تذر ذنبًا، ولا يسبقه العمل». (أخرجه أحمد ٢٧٣٩٣، وابن ماجه ٣٨١٠).

ووجَّه ﷺ نساء المؤمنين عامة إلى الاعتناء بالذكر والتسبيح، فعن هانئ بن عثمان الجهني، عن أمه حميضة بنت ياسر، عن جَدَّتِها يسيرة- وكانت من المهاجرات- قالت: قال لنا رسول الله ﷺ: «يا نساء المؤمنين، عليكن بالتهليل، والتسبيح، والتقديس، ولا تغفلن فتنسين الرحمة، واعقدن بالأنامل، فإنهن مسئولات مستنطَقات». (أخرجه أحمد ٢٧٠٨٩، وأبو داود ١٥٠١، والترمذي ٣٥٨٣).

وبالإضافة للذكر المطلق كان ﷺ يُعنى بتعليم المرأة، وتوجيهها للأذكار المقيدة في أحوال وأوقات معينة.

فقد علَّم ﷺ ابنته فاطمة، وزوجها الذكر عند النوم، مُبيِّنًا لها أنه خير من متاع الدنيا، عن عليٍّ رضي الله عنه أن فاطمة رضي الله عنها اشتكت ما تَلْقَى من الرَّحَى مما تطحن، فبلغها أن رسول الله ﷺ أتي بسَبْي، فأتته تسأله خادمًا، فلم توافقه، فذكرت لعائشة، فجاء النبي ﷺ، فذكرت ذلك عائشة له، فأتانا، وقد دخلنا مضاجعنا، فذهبنا لنقوم، فقال: «على مكانكما»، حتى وجدت برد قدميه على صدري، فقال: «ألا أدلكما على خير مما سألتماه، إذا أخذتما مضاجعكما، فكبِّرَا الله أربعًا وثلاثين، واحمدا ثلاثًا وثلاثين، وسبِّحَا ثلاثًا وثلاثين، فإن ذلك خير لكما مما سألتماه». (أخرجه البخاري ٣١١٣، ومسلم ٢٧٢٧).

وعلَّم ﷺ زوجته جويرية رضي الله عنها ذكرًا تقوله حين تصبح، عن أم المؤمنين جويرية رضي الله عنها، أن النبي ﷺ خرج من عندها بكرة حين صلَّى الصبح، وهي في مسجدها، ثم رجع بعد أن أضحى، وهي جالسة، فقال: «ما زلتِ على الحال التي فارقتُكِ عليها؟» قالت: نعم، قال النبي ﷺ: «لقد قلتُ بعدك أربع كلمات، ثلاث مرات، لو وُزنت بما قلت منذ اليوم لوزنتهن: سبحان الله وبحمده، عدد خلقه، ورضا نفسه، وَزِنَةَ عرشه، ومِداد كلماته». (أخرجه مسلم ٢٧٢٦).

وعلَّم ﷺ أسماء بنت عميس ﵂ دعاء تقوله عند الكرب، فعنها ﵂ قالت: علمني رسول الله ﷺ كلمات أقولها عند الكرب: «الله ربي لا أشرك به شيئًا». (أخرجه أحمد ٢٧٠٨٢، وابن ماجه ٣٨٨٢، وعند ابن ماجه «الله الله ربي ....»).

وفي رواية لأبي داود (١٥٢٥): أنه ﷺ قال لها: «ألا أُعلمك كلمات تقولينهن عند الكرب- أو في الكرب-؟».

الأمر بالدعاء:

وكان ﷺ يأمر المرأة بالدعاء، ويعلِّمها جوامع الدعاء، فقد علَّم زوجته عائشة ﵂ هذا الدعاء الجامع، عن عائشة ﵂، أن أبا بكر ﵁ دخل على رسول الله ﷺ، فأراد أن يكلمه، وعائشة تصلي، فقال لها رسول الله ﷺ: «عليك بالكوامل»، أو كلمة أخرى، فلما انصرفت عائشة، سألته عن ذلك؟ فقال لها: «قولي: اللهم إني أسألك من الخير كله، عاجله وآجله، ما علمت منه، وما لم أعلم، وأعوذ بك من الشر كله، عاجله وآجله ما علمت منه، وما لم أعلم، وأسألك الجنة، وما قرَّب إليها من قول أو عمل، وأعوذ بك من النار، وما قرَّب إليها من قول أو عمل، وأسألك من الخير ما سألك عبدك ورسولك محمد ﷺ، وأستعيذك مما استعاذك منه عبدك ورسولك محمد ﷺ، وأسألك ما قضيت لي من أمر أن تجعل عاقبته رشدًا». (أخرجه أحمد ٢٥١٣٧، وابن ماجه ٣٨٤٦).

وعلَّم أم سلمة ﵂ هذا الدعاء، عن أم سلمة ﵂، أن رسول الله ﷺ كان يكثر في دعائه أن يقول: «اللهم مُقلِّب القلوب، ثبِّت قلبي على دينك»، قالت: قلت: يا رسول الله، أَوَ إِنَّ القلوب لتتقلب؟ قال: «نعم، ما من خلق الله من بني آدم من بشر إلا أن قلبه بين أصبعين من أصابع الله، فإن شاء الله عز وجل أقامه، وإن شاء أزاغه، فنسأل الله ربنا أن لا يزيغ قلوبنا بعد إذ هدانا، ونسأله أن يهب لنا من لدنه رحمة، إنه هو الوهاب» قالت:

قلت: يا رسول الله، ألا تعلمني دعوة أدعو بها لنفسي؟ قال: «بلى، قولي: اللهم ربَّ النبي محمد، اغفر لي ذنبي، وأذهب غيظَ قلبي، وأَجِرْنِي من مُضِلَّات الفتن ما أحييتنا». (أخرجه أحمد ٢٦٥٧٦).

وبالإضافة للأدعية المطلقة، كان ﷺ يعلمهن الأدعية المقيدة بأسباب وأوقات محددة، فحين سألته عائشة رضي الله عنها عما تدعو به ليلة القدر قال لها: «تقولين: اللهم إنك عفو تحب العفو، فاعف عني». (أخرجه أحمد ٢٥٣٨٤، والترمذي ٣٥١٣، وابن ماجه ٣٨٥٠).

وعلَّم ﷺ نساءه ما يَقُلْنَ حين تفقد إحداهن زوجها؛ فقد أتته أم سلمة رضي الله عنها فقالت له: يا رسول الله، إن أبا سلمة قد مات، قال: «قولي: اللهم اغفر لي وله، وأعقبني منه عقبى حسنة» قالت: فقلت؛ فأعقبني الله مَن هو خير لي منه، محمدًا ﷺ. (أخرجه مسلم ٩١٩).

وعلَّم ﷺ ابنته فاطمة رضي الله عنها أن تدعو بهذا الدعاء حين تنام: «اللهم ربَّ السماوات، وربَّ الأرض، وربَّ العرش العظيم، ربنا وربَّ كل شيء، فالقَ الحب والنَّوى، ومُنزل التوراة، والإنجيل، والفرقان، أعوذ بك من شَرِّ كل شيء أنت آخذ بناصيته، اللهم أنت الأول، فليس قبلك شيء، وأنت الآخر، فليس بعدك شيء، وأنت الظاهر، فليس فوقك شيء، وأنت الباطن، فليس دونك شيء، اقْضِ عنَّا الدَّيْن، وأغننا من الفقر». (أخرجه مسلم ٢٧١٣).

وعلَّم ﷺ أم سليم رضي الله عنها ما تقوله في صلاتها، عن أنس بن مالك رضي الله عنه، أن أم سليم، غدت على النبي ﷺ، فقالت: علِّمْنِي كلمات أقولهن في صلاتي، فقال: «كبِّري الله عشرًا، وسبِّحي الله عشرًا، واحمديه عشرًا، ثم سلي ما شئت». (أخرجه الترمذي ٤٨١).

كما علَّم ﷺ ابنته فاطمة رضي الله عنها، وابْنَتَي عمِّه دعاء يقُلْنَه دُبُر الصلاة، عن أم الحكم، أو ضباعة ابنتي الزبير، أنها قالت: أصاب رسول الله ﷺ سَبْيًا، فذهبت أنا وأختي، وفاطمة

بنت رسول الله ﷺ، فشكونا إليه ما نحن فيه، وسألناه أن يأمر لنا بشيء من السَّبْي، فقال رسول الله ﷺ: «سبقكن يتامى بدر، لكن سأدلكن على ما هو خير لكن من ذلك: تُكبِّران الله على إثر كل صلاة ثلاثًا وثلاثين تكبيرة، وثلاثًا وثلاثين تسبيحة، وثلاثًا وثلاثين تحميدة، ولا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، وهو على كل شيء قدير» قال عياش: وهما ابنتا عمِّ النبي ﷺ. (أخرجه أبو داود ٢٩٨٧).

الأمر بالاستغفار:

وأكد ﷺ على النساء كثرة استغفار الله عز وجل، عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «يا معشر النساء، تصدقن، وأكثرن الاستغفار، فإني رأيتكن أكثر أهل النار» فقالت امرأة منهن جَزْلَة[1]: وما لنا يا رسول الله أكثر أهل النار؟ قال: «تُكثرن اللَّعن، وتكفُرْن العشير، وما رأيت من ناقصات عقل ودين، أغلب لذي لُبٍّ منكن» قالت: يا رسول الله، وما نقصان العقل والدين؟ قال: «أما نقصان العقل: فشهادة امرأتين تعدل شهادة رجل، فهذا نقصان العقل، وتمكث الليالي ما تصلي، وتفطر في رمضان، فهذا نقصان الدين». (أخرجه مسلم ٧٩، وأخرجه البخاري ٣٠٤، عن أبي سعيد الخدري، من دون ذكر الاستغفار).

الحثُّ على الصدقة:

ربَّى النبي ﷺ المرأة على الصدقة، والبذل، والإحسان، فأمرهن بذلك أمرًا عامًّا، وربط ذلك بكونهن أكثر أهل النار، كما سبق في حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما، حيث قال: «يا معشر النساء، تصدقن، وأكثرن الاستغفار، فإني رأيتكن أكثر أهل النار» فقالت امرأة منهن جَزْلَة: وما لنا يا رسول الله أكثر أهل النار؟... (أخرجه مسلم ٧٩).

(١) قال النووي: «جزلة بفتح الجيم وسكون الزاي، أي ذات عقل ورأي، قال ابن دريد: الجزالة العقل والوقار». (شرح صحيح مسلم ١/ ٩٥).

وعن أبي سعيد الخدري ﷺ، خرج رسول الله ﷺ في أضحى، أو فطر إلى المصلى، ثم انصرف، فوعظ الناس، وأمرهم بالصدقة، فقال: «أيها الناس، تصدقوا»، فمرَّ على النساء، فقال: «يا معشر النساء، تصدقن؛ فإني رأيتكن أكثر أهل النار» فقلن: وَبِمَ ذلك يا رسول الله؟ قال: «تُكثِرن اللَّعن، وتكفُرْن العشير، ما رأيت من ناقصات عقل ودين، أذهب لِلُبِّ الرجل الحازم من إحداكن يا معشر النساء» ثم انصرف، فلما صار إلى منزله، جاءت زينب امرأة ابن مسعود، تستأذن عليه، فقيل: يا رسول الله، هذه زينب، فقال: «أيُّ الزَّيَانِب؟» فقيل: امرأة ابن مسعود، قال: «نعم، ائذنوا لها» فأذن لها، قالت: يا نبي الله، إنك أمرت اليوم بالصدقة، وكان عندي حُلِيٌّ لي، فأردت أن أتصدق به، فزعم ابن مسعود أنه، وولده أحق مَن تصدقت به عليهم، فقال النبي ﷺ: «صدق ابن مسعود، زوجك وولدك أحق مَن تصدقت به عليهم». (أخرجه البخاري ١٤٦٢).

كما كان ﷺ يحثهن على الصدقة، ويتلقى صدقاتهن حين يخطبهن في العيد، فعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: أشهد على النبي ﷺ - أو قال عطاء: أشهد على ابن عباس -: أن رسول الله ﷺ «خرج ومعه بلال، فظنَّ أنه لم يسمع فوعظهن، وأمرهن بالصدقة، فجعلت المرأة تلقي القرط والخاتم، وبلال يأخذ في طرف ثوبه». (أخرجه البخاري ٩٨، ومسلم ٨٨٤).

وعن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال: شهدت مع رسول الله ﷺ الصلاة يوم العيد، فبدأ بالصلاة قبل الخطبة، بغير أذان ولا إقامة، ثم قام متوكِّئًا على بلال، فأمر بتقوى الله، وحثَّ على طاعته، ووعظ الناس وذكَّرهم، ثم مضى حتى أتى النساء، فوعظهن وذكَّرهن، فقال: «تصدقن؛ فإن أكثركن حطب جهنم»، فقامت امرأة من سِطَة النساء، سفعاء الخدين، فقالت: لِمَ يا رسول الله؟ قال: «لأنكن تُكثِرن الشكاة، وتكفُرْن العشير»، قال: فجعلن يتصدقن من حُلِيِّهِنَّ، يُلقين في ثوب بلال من أقرطتهن وخواتمهن. (أخرجه مسلم ٨٨٥).

وتروي زينب امرأة ابن مسعود رضي الله عنهما أمره ﷺ للنساء بالصدقة، فتقول: كنت في المسجد، فرأيت النبي ﷺ فقال: «تصدقن، ولو من حُلِيِّكُنَّ»، وكانت زينب تنفق على عبد الله، وأيتام في حجرها، قال: فقالت لعبد الله: سَلْ رسول الله ﷺ أيجزي عنِّي أن أنفق عليك، وعلى أيتام في حجري من الصدقة؟ فقال: سلي أنت رسول الله ﷺ، فانطلقت إلى النبي ﷺ، فوجدت امرأة من الأنصار على الباب، حاجتها مثل حاجتي، فمرَّ علينا بلال، فقلنا: سَلِ النبي ﷺ أيجزي عنِّي أن أنفق على زوجي، وأيتام لي في حجري؟ وقلنا: لا تخبر بنا، فدخل فسأله، فقال: «مَن هما؟» قال: زينب، قال: «أيُّ الزَّيَانِب؟» قال: امرأة عبد الله، قال: «نعم، لها أجران، أجر القرابة، وأجر الصدقة». (أخرجه البخاري ١٤٦٦، ومسلم ١٠٠٠).

ويحثُّ ﷺ المرأة على الصدقة، والسخاء، والبذل، مُبيِّنًا لها أن الجزاء من جنس العمل؛ عن أسماء رضي الله عنها، قالت: قلت: يا رسول الله ما لي مال إلا ما أدخل عليَّ الزبيرُ، فأتصدق؟ قال: «تصدقي، ولا توعي، فيوعَى عليكِ». (أخرجه البخاري ٢٥٩٠).

كما أمر ﷺ أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها بذلك، عن ابن أبي مليكة، أن عائشة تصدقت بشيء، فأمرت بريرة أن تأتيها، فتنظر إليه، فقال لها النبي ﷺ: «لا تحصي؛ فيحصَى عليكِ». (أخرجه أحمد ٢٤٧٧٣).

ويوسِّع ﷺ للنساء باب الصدقة؛ فيرشدها لأن تنفق من بيت زوجها من غير مفسدة؛ فعن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «إذا أنفقت المرأة من طعام بيتها غير مفسدة، كان لها أجرها بما أنفقت، ولزوجها أجره بما كسب، وللخازن مثل ذلك، لا ينقص بعضهم أجر بعض شيئًا». (أخرجه البخاري١٤٢٥).

وفي رواية أخرى للبخاري (٢٠٦٦): يُبيِّن ﷺ أن لها نصفَ الأجر «إذا أنفقت المرأة من كسب زوجها، عن غير أمره، فله نصف أجره».

ولا يقف الأمر عند حثّ المرأة على النفقة مما تجد، بل يأمرها ﷺ بالعمل المباح، مُبيِّنًا لها أنه وسيلة للصدقة، وفعل المعروف، عن جابر بن عبد الله ﷺ قال: طُلِّقت خالتي، فأرادت أن تَجُدَّ نخلها، فزجرها رجل أن تخرج، فأتت النبي ﷺ، فقال: «بلى، فجُدِّي نخلك، فإنك عسى أن تصدقي، أو تفعلي معروفًا». (أخرجه مسلم ١٤٨٣).

ويحفِّز ﷺ نساءه على الصدقة، مُثنيًا على مَن امتازت بالسخاء والبذل، عن عائشة ﵂، أن بعض أزواج النبي ﷺ، قلن للنبي ﷺ: أينا أسرع بك لحوقًا؟ قال: «أطولكن يدًا»، فأخذوا قصبة يذرعونها، فكانت سودة أطولهن يدًا، فعلمنا بَعْدُ أنما كانت طول يدها الصدقة، وكانت أسرعنا لحوقًا به، وكانت تحب الصدقة. (أخرجه البخاري ١٤٢٠، ومسلم ٢٤٥٢).

وفي رواية مسلم: فكانت أطولنا يدًا زينب؛ لأنها كانت تعمل بيدها وتصدق.

وفي رواية للحاكم (٦٨٥٥): فكُنَّا إذا اجتمعنا في بيت إحدانا بعد وفاة رسول الله ﷺ نمد أيدينا في الجدار نتطاول، فلم نزل نفعل ذلك حتى توفيت زينب بنت جحش زوج النبي ﷺ، وكانت امرأة قصيرة، ولم تكن أطولنا، فعرفنا حينئذ أن النبي ﷺ إنما أراد بطول اليد الصدقة قال: «وكانت زينب امرأة صناعة اليد، فكانت تدبغ، وتخرز، وتصدق في سبيل الله عز وجل».

التوجيه إلى مجالات الإنفاق:

يُوجِّه النبي ﷺ النساء إلى أولويات الإنفاق، فعن كريب مولى ابن عباس أن ميمونة بنت الحارث ﵂ أخبرته، أنها أعتقت وليدة، ولم تستأذن النبي ﷺ، فلما كان يومها الذي يدور عليها فيه، قالت: أشعرت يا رسول الله أني أعتقت وليدتي، قال: «أَوَ فعلتِ؟»، قالت: نعم، قال: «أما إنك لو أعطيتها أخوالك؛ كان أعظم لأجرك». (أخرجه البخاري ٢٥٩٢، ومسلم ٩٩٩).

وفي رواية للنسائي في الكبرى (٤٩١٢): «أفلا تفدين بها بنت أخيك، أو بنت أختك من رعاية الغنم؟».

التوجيه للعارية:

ويُوجِّه النبي ﷺ نساء المسلمين للعارية والهبة، فعن حفصة رضي الله عنها، قالت: كُنَّا نمنع عواتقنا أن يخرجن في العيدين، فقدمت امرأة، فنزلت قصر بني خلف، فحدثت عن أختها، وكان زوج أختها غزا مع النبي ﷺ ثنتي عشرة، وكانت أختي معه في سِتٍّ، قالت: كُنَّا نداوي الكَلْمَى، ونقوم على المرضى، فسألت أختي النبيَّ ﷺ: أعلى إحدانا بأس إذا لم يكن لها جلباب أن لا تخرج؟ قال: «لِتُلْبِسها صاحبتها من جلبابها، ولتشهد الخير، ودعوة المسلمين». (أخرجه البخاري ٣٢٤).

وعن أم عطية قالت: أمرنا أن نخرج الحُيَّضَ يوم العيدين، وذوات الخدور، فيشهدن جماعة المسلمين، ودعوتهم، ويعتزل الحُيَّض عن مصلاهن، قالت امرأة: يا رسول الله، إحدانا ليس لها جلباب؟ قال: «لِتُلْبِسها صاحبتها من جلبابها». (أخرجه البخاري ٣٥١، ومسلم ٨٩٠).

ويحثُّ ﷺ نساء المسلمات على الإهداء لجيرانهن، عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «يا نساء المسلمات، لا تحقرن جارة لجارتها، ولو فِرْسِن شاة». (أخرجه البخاري ٢٥٦٦، ومسلم ١٠٣٠).

التربية السلوكية والأخلاقية

اعتنى ﷺ بالتربية السلوكية والأخلاقية للمرأة، فقد بُعث ﷺ ليُتمم صالح الأخلاق، ومن صور اعتنائه ﷺ بهذا الأمر ما يلي:

١- الأدب في الحديث:

عن عائشة رضي الله عنها قالت: أتى النبيَّ ﷺ أناسٌ من اليهود فقالوا: السَّام عليك يا أبا القاسم، قال: «وعليكم» قالت عائشة: قلت: بل عليكم السَّام والذَّام، فقال رسول الله ﷺ: يا عائشة، «لا تكوني فاحشة» فقالت: ما سمعت ما قالوا؟ فقال: «أَوَلَيْس قد رددت عليهم الذي قالوا؟ قلت: وعليكم». (أخرجه البخاري ٦٠٣٠، ومسلم ٢١٦٥، واللفظ لمسلم).

وحين سمع النبي ﷺ إحدى النساء تسبُّ الحُمَّى، أنكر عليها ذلك، فعن جابر بن عبد الله، أن رسول الله ﷺ، دخل على أم السائب، أو أم المسيب فقال: «ما لك يا أم السائب؟- أو يا أم المسيب- تُزَفْزِفِين؟» قالت: الحُمَّى، لا بارك الله فيها، فقال: «لا تسبي الحُمَّى، فإنها تذهب خطايا بني آدم، كما يذهب الكير خبث الحديد». (أخرجه مسلم ٢٥٧٥).

وذمَّ النبي ﷺ اللَّعن، وبيَّن أن اعتياده من أسباب العقوبة الأخروية، عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، قال: خرج رسول الله ﷺ في أضحى، أو فطر إلى المصلى، فمرَّ على النساء، فقال: «يا معشر النساء تصدقن؛ فإني أريتكن أكثر أهل النار» فقلن: وَبِمَ يا رسول الله؟ قال: «تُكثرن اللَّعن، وتكفُرْن العشير، ما رأيت من ناقصات عقل ودين، أذهب لِلُبِّ الرجل الحازم من إحداكن»، قلن: وما نقصان ديننا وعقلنا يا رسول الله؟ قال: «أليس شهادة المرأة مثل نصف شهادة الرجل» قلن: بلى، قال: «فذلك من نقصان عقلها، أليس

إذا حاضت لم تُصَلِّ، ولم تَصُمْ» قلن: بلى، قال: «فذلك من نقصان دينها». (أخرجه البخاري ٣٠٤، ومسلم ٧٩).

ونهى ﷺ الناس عن اللَّعن حتى لو كان مُوجَّهًا إلى دابة أو ماشية، عن عمران بن حصين رضي الله عنهما قال: بينما رسول الله ﷺ في بعض أسفاره، وامرأة من الأنصار على ناقة، فضجرت فلعنتها، فسمع ذلك رسول الله ﷺ فقال: «خذوا ما عليها ودعوها؛ فإنها ملعونة» قال عمران: فكأني أراها الآن تمشي في الناس، ما يعرض لها أحد. (أخرجه مسلم ٢٥٩٥).

ويُربِّي النبي ﷺ النساء على الأدب مع الله عز وجل، فيستدرك عليهن ما يخالف ذلك، فأنكر على عائشة رضي الله عنها الشهادة بالجنة للصغير الذي مات، عن عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها، قالت: توفي صبي، فقلت: طوبى له، عصفور من عصافير الجنة، فقال رسول الله ﷺ: «أَوَلَا تدرين أن الله خلق الجنة، وخلق النار، فخلق لهذه أهلًا، ولهذه أهلًا؟». (أخرجه مسلم ٢٦٦٢).

كما أنكر على أم العلاء رضي الله عنها شهادتها لمن مات بأن الله أكرمه، عن أم العلاء رضي الله عنها، أن عثمان بن مظعون طار له سهمه في السُّكْنَى، حين أقرعت الأنصار سُكْنَى المهاجرين، قالت أم العلاء: فسكن عندنا عثمان بن مظعون، فاشتكى، فمرَّضناه حتى إذا توفي، وجعلناه في ثيابه، دخل علينا رسول الله ﷺ، فقلت: رحمة الله عليك أبا السائب، فشهادتي عليك لقد أكرمك الله، فقال لي النبي ﷺ: «وما يدريك أن الله أكرمه؟»، فقلت: لا أدري، بأبي أنت وأمي يا رسول الله، فقال رسول الله ﷺ: «أما عثمان فقد جاءه والله اليقين، وإني لأرجو له الخير، والله ما أدري، وأنا رسول الله ما يُفعل به»، قالت: فوالله لا أُزَكِّي أحدًا بعده أبدًا، وأحزنني ذلك، قالت: فنمت، فأريت لعثمان عينًا تجري، فجئت إلى رسول الله ﷺ، فأخبرته، فقال: «ذلك عمله». (أخرجه البخاري ٢٦٨٧).

٢- تحذيره من السخرية والغيبة:

ولما كانت السخرية والوقوع في أعراض الآخرين من مساوئ الأخلاق، ومما قد يصدر من بعض النساء؛ فقد كان ﷺ يُعنى بتربية المرأة على البعد عن السخرية والاستهزاء، فحين قالت عائشة ﵂ كلمة عارضة في حق إحدى زوجاته ﷺ نهاها عن ذلك، وغلَّظ لها الأمر، فعن عائشة ﵂ قالت: قلت للنبي ﷺ: حسبك من صفية كذا وكذا، قال غير مسدد: تعني قصيرة، فقال: «لقد قلت كلمة لو مُزجت بماء البحر لمزجته» قالت: وحكيت له إنسانًا، فقال: «ما أحب أني حكيت إنسانًا، وأن لي كذا وكذا». (أخرجه أبو داود ٤٨٧٥، وأحمد ٢٥٥٦٠، والترمذي ٢٥٠٢).

وحين وصفت حفصةُ صفيةَ ﵄ بأنها ابنة يهودي؛ أنكر عليها ﷺ، وواسى صفية ﵂، عن أنس ﵁، قال: بلغ صفيةَ أن حفصة قالت: بنت يهودي، فبكت، فدخل عليها النبي ﷺ، وهي تبكي، فقال: «ما يبكيك؟» فقالت: قالت لي حفصة: إني بنت يهودي، فقال النبي ﷺ: «وإنك لابنة نبي، وإن عمك لنبي، وإنك لتحت نبي، ففيم تفخر عليك؟» ثم قال: «اتَّقِي الله يا حفصة». (أخرجه الترمذي ٣٨٩٤، وأحمد ١٢٣٩٢).

٣- مراعاة حيائها:

لما كان الحياء يغلب على المرأة، راعاه ﷺ وهو يتعامل مع النساء، عن أسماء بنت أبي بكر ﵄ قالت: تزوَّجني الزبير ﵁، وما له في الأرض من مال، ولا مملوك، ولا شيء غير فرسه، قالت: فكنت أعلف فرسه، وأكفيه مؤونته، وأسوسه، وأدق النَّوى لناضحه، وأعلفه، وأستقي الماء، وأخرز غربه وأعجن، ولم أكن أحسن أخبز، وكان يخبز لي جارات من الأنصار، وكُنَّ نسوةَ صدقٍ، قالت: وكنت أنقل النَّوى من أرض الزبير التي أَقْطَعَهُ رسول الله ﷺ على رأسي، وهي على ثلثي فرسخ قالت: فجئت يومًا، والنَّوى على رأسي،

فلقيت رسول الله ﷺ، ومعه نفر من أصحابه، فدعاني، ثم قال: «إخ إخ»؛ ليحملني خلفه، قالت: فاستحييت، وعرفت غيرتك، فقال: والله لحملكِ النَّوى على رأسك أشد من ركوبك معه، قالت: حتى أرسل إليَّ أبو بكر بعد ذلك بخادم، فكفتني سياسة الفرس، فكأنما أعتقني. (أخرجه البخاري ٥٢٢٤، ومسلم ٢١٨٢، واللفظ لمسلم).

التربية العاطفية

ترتبط العاطفة بالمرأة ارتباطًا وثيقًا، وتسهم في أدائها لوظيفتها في العلاقة الزوجية، والأمومة والتربية.

وغلبة العاطفة لدى المرأة ليست شرًّا محضًا، ولا أمرًا مذمومًا بإطلاق، وإلا لما خلقها الله سبحانه كذلك.

لذا فإن أي منهج تربوي يستهدف المرأة لا غنى له عن الاعتناء بالتربية العاطفية؛ فهي مكون رئيس من مكونات الشخصية الإنسانية، وتؤدي وظائف مهمة لا تستقيم الحياة بدونها.

وتمثلت أهم معالم التربية النبوية لعاطفة المرأة فيما يلي:

١ - النهي عما يثيرها:

تتسم المرأة برقة العاطفة، وسهولة استثارتها، وقد يؤدي ذلك إلى تجاوزها للقدر المشروع؛ لذا اعتنى النبي ﷺ بإبعاد ما يستثير عاطفة المرأة، ومن ذلك ما يلي:

أ- اتباع الجنائز:

نهى النبي ﷺ المرأة عن اتباع الجنائز، فعن أم عطية رضي الله عنها، عن النبي ﷺ قالت: «كُنَّا نُنْهَى أن نَحُدَّ على ميت فوق ثلاث، إلا على زوج أربعة أشهر وعشرًا، ولا نكتحل، ولا نتطيب، ولا نلبس ثوبًا مصبوغًا، إلا ثوب عصب، وقد رخص لنا عند الطُّهر إذا اغتسلت إحدانا من محيضها في نُبْذَةٍ من كُسْتِ أظفار[1]، وكُنَّا نُنْهَى عن اتباع الجنائز». (أخرجه البخاري ٣١٣، ومسلم ٩٣٨).

---

(١) قال النووي: «النبذة بضم النون القطعة، والشيء اليسير، وأما القسط فبضم القاف، ويقال فيه: كست بكاف مضمومة بدل القاف وبتاء بدل الطاء، وهو والأظفار نوعان معروفان من البخور، وليسا من مقصود الطيب، رخص فيه للمغتسلة من الحيض لإزالة الرائحة الكريهة، تتبع به أثر الدم لا للتطيب. والله تعالى أعلم». (شرح صحيح مسلم ١٠/١١٨-١١٩).

ب- زيارة القبور:

ونهى ﷺ المرأة عن زيارة القبور، فعن أبي هريرة ﷺ، أن رسول الله ﷺ لعن زَوَّارات القبور. (أخرجه الترمذي ١٠٥٦، وابن ماجه ١٥٧٦، وأحمد ٨٤٤٩، و النسائي ٢٠٤٣).

وقد علَّل أهل العلم هذا النهي بطبيعة المرأة ورقتها، قال الترمذي: «وقد رأى بعض أهل العلم أن هذا كان قبل أن يُرخص النبي ﷺ في زيارة القبور، فلما رخَّص دخل في رخصته الرجال والنساء، وقال بعضهم: إنما كره زيارة القبور للنساء؛ لقلة صبرهن، وكثرة جزعهن».

ج- الحداء والغناء:

أمر النبي ﷺ مَن كان يحدو في السفر بأن يرفق بالنساء، فعن أبي قلابة، عن أنس بن مالك ﷺ، قال: أتى النبي ﷺ على بعض نسائه، ومعهن أم سليم، فقال: «ويحك يا أنجشة، رويدك سوقًا بالقوارير» قال أبو قلابة: فتكلم النبي ﷺ بكلمة، لو تكلم بعضكم لعبتموها عليه، قوله: «سوقك بالقوارير». (أخرجه البخاري ٦١٤٩، ومسلم ٢٣٢٣).

قال النووي: «واختلف العلماء في المراد بتسميتهن قوارير على قولين ذكرهما القاضي وغيره، أصحهما عند القاضي وآخرين- وهو الذي جزم به الهروي، وصاحب التحرير، وآخرون-: أن معناه أن أنجشة كان حسن الصوت، وكان يحدو بهن، وينشد شيئًا من القريض والرجز، وما فيه تشبيب، فلم يأمن أن يفتنهن، ويقع في قلوبهن حداؤه، فأمره بالكفِّ عن ذلك، ومن أمثالهم المشهورة: الغنا رقية الزنى، قال القاضي: هذا أشبه بمقصوده ﷺ، وبمقتضى اللفظ، قال: وهو الذي يدل عليه كلام أبي قلابة المذكور في هذا الحديث في مسلم». (شرح صحيح مسلم ١٥/ ٨١).

والمقصود بكلام أبي قلابة هو قوله: «تكلم رسول الله ﷺ بكلمة، لو تكلم بها بعضكم؛ لَعِبْتُمُوهَا عليه».

قال ابن حجر: «وقيل: كان حسن الصوت بالحداء، فكره أن تسمع النساء الحداء؛ فإن حسن الصوت يحرك من النفوس، فشبَّه ضعف عزائمهن، وسرعة تأثير الصوت فيهن بالقوارير في سرعة الكسر إليها». (فتح الباري ١٠/ ٥٤٥).

٢- التفريغ المشروع:

راعى النبي ﷺ طبيعة المرأة، وغلبة العاطفة عليها، فأذن ﷺ للمرأة أن تَحُدَّ على غير زوجها ثلاثة أيام، وفي ذلك تفريغ لشحنة العاطفة، عن أم عطية ﵂، عن النبي ﷺ قالت: كُنَّا نُنْهَى أن نَحُدَّ على ميت فوق ثلاث، إلا على زوج أربعة أشهر وعشرًا، ولا نكتحل، ولا نتطيب، ولا نلبس ثوبًا مصبوغًا إلا ثوب عصب، وقد رخَّص لنا عند الطُّهر إذا اغتسلت إحدانا من محيضها في نُبْذَةٍ من كُسْتِ أظفار، وكُنَّا نُنْهَى عن اتباع الجنائز. (أخرجه البخاري ٣١٣، ومسلم ٩٣٨).

وعن زينب بنت أبي سلمة ﵂، قالت: لما جاء نعي أبي سفيان من الشام، دعت أم حبيبة ﵂ بصفرة في اليوم الثالث، فمسحت عارضيها، وذراعيها، وقالت: إني كنت عن هذا لغنيَّة، لولا أني سمعت النبي ﷺ يقول: «لا يحل لامرأة تؤمن بالله واليوم الآخر أن تَحُدَّ على ميت فوق ثلاث، إلا على زوج، فإنها تَحُدُّ عليه أربعة أشهر وعشرًا». (أخرجه البخاري ١٢٨٠، ومسلم ١٤٨٦).

قال ابن حجر: «وأباح الشارع للمرأة أن تَحُدَّ على غير زوجها ثلاثة أيام؛ لما يغلب من لوعة الحزن، ويهجم من ألم الوجد». (فتح الباري ٣/ ١٤٦).

ونلمس هنا التوازن في المنهج النبوي في تربية المرأة، فلم يهمل ﷺ طبيعتها وحاجتها، في المقابل لم يُبِحْ لها أن تسترسل مع هذه الطبيعة؛ فتقع في المحظور.

إن بعض مَن يتناولون قضية المرأة من الرجال أو النساء قد يخاطبون المرأة بما لا يتفق مع طبيعتها، ويطلبون منها ما لا تحتمله، وأبرز مثال على ذلك: الحديث عن التعدد، وربط كراهية المرأة الطبيعة لنكاح زوجها امرأة أخرى بكراهية حكم الشريعة، وها هي أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها تحكي مشاعرها الطبيعية حين رأت جويرية رضي الله عنها، عن عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها قالت: لما قسَّم رسول الله ﷺ سبايا بني المصطلق وقعت جويرية بنت الحارث في السهم لثابت بن قيس بن الشماس- أو لابن عمٍّ له-، وكاتبته على نفسها، وكانت امرأة حلوة، ملاحة، لا يراها أحد إلا أخذت بنفسه، فأتت رسول الله ﷺ تستعينه في كتابتها، قالت: فوالله ما هو إلا أن رأيتها على باب حجرتي فكرهتها، وعرفت أنه سيرى منها ما رأيت، فدخلت عليه، فقالت: يا رسول الله، أنا جويرية بنت الحارث بن أبي ضرار سيد قومه، وقد أصابني من البلاء ما لم يَخْفَ عليك، فوَقَعْتُ في السهم لثابت بن قيس بن الشماس- أو لابن عمٍّ له- فكاتبته على نفسي، فجئتك أستعينك على كتابتي، قال: «فهل لك في خير من ذلك؟»، قالت: وما هو يا رسول الله؟ قال: «أقضي كتابتك، وأتزوجك؟» قالت: نعم يا رسول الله، قال: «قد فعلت»، قالت: وخرج الخبر إلى الناس أن رسول الله ﷺ تزوج جويرية بنت الحارث، فقال الناس: أصهار رسول الله ﷺ، فأرسلوا ما بأيديهم، قالت: فلقد أعتق بتزويجه إياها مائة أهل بيت من بني المصطلق، فما أعلم امرأة كانت أعظم بركة على قومها منها. (أخرجه أحمد ٢٦٣٦٥).

ولم يمنع ذلك عائشة رضي الله عنها أن تُثني عليها بما هي أهله، فقالت عنها: «فما أعلم امرأة كانت أعظم بركة على قومها منها».

٣- اللطف مع المرأة، والرفق بها:

كان ﷺ لطيفًا رفيقًا بالمرأة، كما سبق في مقولته لأنجشة: «رويدك، سوقًا بالقوارير».

وكان ﷺ لطيفًا رفيقًا مع أمهات المؤمنين كما ستأتي الإشارة لذلك، ولم يكن لطفة ورفقه ﷺ بالمرأة خاصًا بنسائه رضوان الله عليهن، بل كان لسائر النساء نصيب من ذلك، عن أمية بنت أبي الصلت، عن امرأة من بني غفار قد سماها لي قالت: «أردفني رسول الله ﷺ على حقيبة رحله، قالت: فوالله لنزل رسول الله ﷺ إلى الصبح، فأناخ، ونزلت عن حقيبة رحله، وإذا بها دمٌ منِّي، وكانت أول حيضة حضتها قالت: فتقبضت إلى الناقة، واستحييت، فلما رأى رسول الله ﷺ: ما بي، ورأى الدم، قال: ما لك؟ لعلك نفستِ؟ قلت: نعم، قال: فأصلحي من نفسك، ثم خذي إناء من ماء، فاطرحي فيه ملحًا، ثم اغسلي ما أصاب الحقيبة من الدم، ثم عودي لمركبك قالت: فلما فتح رسول الله ﷺ خيبر رضخ لنا من الفيء، قالت: وكانت لا تطهر من حيضة إلا جعلت في طهورها ملحًا، وأوصت به أن يجعل في غسلها حين ماتت». (أخرجه أبو داود ٣١٣، وأحمد ٢٧١٣٦).

ومن صور اهتمامه ﷺ ولطفه بالمرأة: تفقدهن عند الغياب، عن ابن عباس رضي الله عنهما، قال: لما رجع النبي ﷺ من حجته قال لأم سنان الأنصارية: «ما منعك من الحج؟»، قالت: أبو فلان- تعني زوجها- كان له ناضحان، حجَّ على أحدهما، والآخر يسقي أرضًا لنا، قال: «فإن عمرة في رمضان تقضي حجة معي». (أخرجه البخاري ١٨٦٣، مسلم ١٢٥٦).

ومن صور ذلك- أيضًا-: عيادته ﷺ لبعض النساء حين تمرض، فعن أم العلاء رضي الله عنها قالت: عادني رسول الله ﷺ، وأنا مريضة فقال: «أبشري يا أم العلاء، فإن مرض المسلم يُذهب الله به خطاياه، كما تُذهب النار خبث الذهب والفضة». (أخرجه أبو داود ٣٠٩٢).

٤- اصطحاب زوجته إلى الطعام:

وحين دُعِي ﷺ للطعام من قبل أحد جيرانه اشترط ﷺ أن تصحبه زوجته، فعن أنس ﷺ أن جارًا لرسول الله ﷺ فارسيًّا كان طيب المرق، فصنع لرسول الله ﷺ، ثم جاء يدعوه، فقال: وهذه لعائشة؟ فقال: لا، فقال رسول الله ﷺ: لا، فعاد يدعوه، فقال رسول الله ﷺ: وهذه؟ قال: لا، قال رسول الله ﷺ: لا، ثم عاد يدعوه، فقال رسول الله ﷺ وهذه؟ قال: نعم- في الثالثة-، فقاما يتدافعان حتى أتيا منزله». (أخرجه مسلم ٢٠٣٧).

التربية الجمالية

المرأة مفطورة على حب الجمال والاهتمام به، وقد وصفها الله عز وجل بقوله: ﴿أَوَمَن يُنَشَّؤُا فِي ٱلْحِلْيَةِ وَهُوَ فِي ٱلْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ﴾(الزخرف: ١٨).

وقد اعتنى ﷺ بالتربية الجمالية للمرأة، ومن ذلك ما يلي:

١ - النهي عن التشبه بالرجال:

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «لعن رسول الله ﷺ المتشبهين من الرجال بالنساء، والمتشبهات من النساء بالرجال». (أخرجه البخاري ٥٨٨٥).

ولعن ﷺ مَن تتشبه بالرجال في لباسهم، فعن أبي هريرة رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ لعن الرجل يلبس لبسة المرأة، والمرأة تلبس لبسة الرجل. (أخرجه أحمد ٨٣٠٩، وأبو داود ٤٠٩٨).

كما لعن ﷺ المترجلات من النساء، وأمر بإخراج المخنثين من البيوت، عن ابن عباس رضي الله عنهما، قال: لعن النبي ﷺ المخنثين من الرجال، والمترجلات من النساء، وقال: «أخرجوهم من بيوتكم». (أخرجه البخاري ٥٨٨٦).

وتوعَّد ﷺ المترجلة من النساء بألا ينظر الله إليها يوم القيامة، فعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «ثلاث لا يدخلون الجنة، ولا ينظر الله إليهم يوم القيامة: العاقُّ بوالديه، والمرأة المترجلة- المتشبهة بالرجال-، والدَّيُّوث، وثلاثة لا ينظر الله إليهم يوم القيامة: العاقُّ بوالديه، والمدمن الخمر، والمنان بما أعطى». (أخرجه أحمد ٦١٨٠، والنسائي ٢٥٦٢).

٢- إنكاره ترك التزين المشروع:

لما كان التزين والتجمل فطرة في المرأة، وله أثر في أدائها لوظائفها الزوجية والأسرية، فقد كان ﷺ ينكر على مَن تترك التزين المشروع.

عن عائشة زوج النبي ﷺ، قالت: دخلت علي خويلة بنت حكيم بن أمية بن حارثة بن الأوقص السلمية، وكانت عند عثمان بن مظعون، قالت: فرأى رسول الله ﷺ بذاذة هيئتها، فقال لي: «يا عائشة، ما أبذَّ هيئة خويلة؟» قالت: فقلت: يا رسول الله، امرأة لا زوج لها، يصوم النهار، ويقوم الليل فهي كمن لا زوج لها، فتركت نفسها وأضاعتها، قالت: فبعث رسول الله ﷺ إلى عثمان بن مظعون فجاءه، فقال: «يا عثمان، أرغبت عن سُنَّتِي؟» قال: فقال: لا والله يا رسول الله، ولكن سُنَّتَكَ أطلب، قال: «فإني أنام وأصلي، وأصوم وأفطر، وأنكح النساء، فاتَّقِ الله يا عثمان؛ فإن لأهلك عليك حقًّا، وإن لضيفك عليك حقًّا، وإن لنفسك عليك حقًّا، فصم وأفطر، وصَلِّ وَنَمْ». (أخرجه أحمد ٢٦٣٠٨).

عن عائشة رضي الله عنها، أن امرأة مدَّت يدها إلى النبي ﷺ بكتاب فقبض يده، فقالت: يا رسول الله، مددت يدي إليك بكتاب فلم تأخذه، فقال: «إني لم أَدْرِ أَيَدُ امرأة هي، أو رجل» قالت: بل يد امرأة، قال: «لو كنت امرأة لغيَّرتِ أظفارك بالحناء». (أخرجه النسائي ٥٠٨٩، وأبو داود ٤١٦٦، وأحمد ٢٦٢٥٨).

ويطالب ﷺ الرجال أن يمنحوا الفرصة لزوجاتهم في الاعتناء بالزينة، عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما، قال: قفلنا مع النبي ﷺ من غزوة، فتعجلت على بعير لي قطوف، فلحقني راكب من خلفي، فنخس بعيري بعنزة كانت معه، فانطلق بعيري كأجود ما أنت راءٍ من الإبل، فإذا النبي ﷺ، فقال: «ما يعجلك؟» قلت: كنت حديث عهد بعُرْس، قال: «أبكرًا، أم ثَيِّبًا؟»، قلت: ثَيِّبًا، قال: «فهلَّا جارية تلاعبها وتلاعبك؟»، قال: فلما ذهبنا لندخل،

قال: «أمهلوا حتى تدخلوا ليلًا- أي عشاء-؛ لكي تمتشط الشَّعِثَة، وتستحد المغيبة». (أخرجه البخاري ٥٠٧٩، ومسلم ٧١٥).

وقوله ﷺ: «حتى تمتشط الشَّعِثَة..» دليل على تأصل هذا الأمر لدى المرأة، وإنما طالب الرجال هنا بمراعاة ذلك.

٣- أُبيح لها ما لم يُبَحْ للرجل:

وأذن ﷺ للمرأة في التزين بما لم يؤذن به للرجل، فعن عليٍّ ﷺ قال: أخذ رسول الله ﷺ ذهبًا بيمينه، وحريرًا بشماله، ثم رفع بهما يديه فقال:«هذان حرام على ذكور أمتي». (أخرجه أحمد ٧٥٠، وأبو داود ٤٠٥٧، والترمذي ١٧٢٠، والنسائي ٥١٤٤).

٤- منع التزين بالحرام:

وإباحة الزينة للمرأة والاعتراف بالدافع الفطري لها في ذلك لا يبيح التزين بالحرام؛ لذا فقد منع النبي ﷺ المرأة من التزين بالحرام.

فمنعها من الوصل، والوشم، وتفليج الأسنان، عن عبد الله ﷺ، قال: «لعن الله الواشمات والموتشمات، والمتنمصات، والمتفلجات للحسن، المغيرات خلق الله»، فبلغ ذلك امرأة من بني أسد يقال لها: أم يعقوب، فجاءت فقالت: إنه بلغني عنك أنك لعنت كيت وكيت، فقال: وما لي لا ألعن مَن لعن رسول الله ﷺ، ومَن هو في كتاب الله، فقالت: لقد قرأت ما بين اللوحين، فما وجدت فيه ما تقول، قال: لئن كنت قرأتيه لقد وجدتيه، أما قرأت: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾ (الحشر: ٧)؟ قالت: بلى، قال: فإنه قد نهى عنه، قالت: فإني أرى أهلك يفعلونه، قال: فاذهبي فانظري، فذهبت فنظرت، فلم تَرَ من حاجتها شيئًا، فقال: لو كانت كذلك ما جامعتنا. (أخرجه البخاري ٤٨٨٦، ومسلم ٢١٢٥).

وعن حميد بن عبد الرحمن، أنه سمع معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنهما عام حج على المنبر، فتناول قصة من شعر، وكانت في يدي حرسي، فقال: يا أهل المدينة، أين علماؤكم؟ سمعت النبي ﷺ ينهى عن مثل هذه، ويقول: «إنما هلكت بنو إسرائيل حين اتخذها نساؤهم». (أخرجه البخاري ٣٤٦٨).

عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «لعن الله الواصلة والمستوصلة، والواشمة والمستوشمة». (أخرجه البخاري ٥٩٣٣، وأخرجه مسلم ٢١٢٤ من حديث ابن عمر).

ورغم حاجة الزوج لتزين زوجته، وعظم حقه عليها، فإنه ﷺ ينهى المرأة عن طاعة زوجها حين يطلب منها التزين بالحرام، عن عائشة رضي الله عنها، أن امرأة من الأنصار زوَّجت ابنتها، فتمعط شعر رأسها، فجاءت إلى النبي ﷺ، فذكرت ذلك له، فقالت: إن زوجها أمرني أن أصل في شعرها، فقال: «لا، إنه قد لعن الموصلات». (أخرجه البخاري ٥٢٠٥، ومسلم ٢١٢٣).

وجاء في إحدى روايات الحديث أن دافع تلك المرأة: المرض والحاجة، وليس المبالغة في التزين، ومع ذلك لم يقرها ﷺ على ذلك، فعن عائشة رضي الله عنها أن جارية من الأنصار تزوجت، وأنها مرضت؛ فتمعط شعرها، فأرادوا أن يصلوها، فسألوا النبي ﷺ فقال: «لعن الله الواصلة والمستوصلة». (أخرجه البخاري ٥٩٣٤، ومسلم ٢١٢٣).

وعن أسماء بنت أبي بكر، رضي الله عنهما، أن امرأة جاءت إلى رسول الله ﷺ فقالت: إني أنكحت ابنتي، ثم أصابها شكوى، فتمرق رأسها، وزوجها يستحثني بها، أفأصل رأسها؟ «فسبَّ رسول الله ﷺ الواصلة والمستوصلة». (أخرجه البخاري ٥٩٥٣، ومسلم ٢١٢٢).

الاعتدال ومراعاة طبيعتها

يراعي النبي ﷺ طبيعة المرأة، ويوصي الرجال بالاعتدال في توقعاتهم منها، فعن أبي هريرة ﷺ، أن رسول الله ﷺ قال: «المرأة كالضِّلَع؛ إن أقمتها كسرتها، وإن استمتعت بها استمتعت بها، وفيها عوج». (أخرجه البخاري ٥١٨٤، ومسلم ٤٧).

قال ابن حجر: «وفي الحديث: الندب إلى المداراة لاستمالة النفوس، وتألف القلوب، وفيه سياسة النساء بأخذ العفو منهن، والصبر على عوجهن، وأن مَن رام تقويمهن؛ فاته الانتفاع بهن، مع أنه لا غنى للإنسان عن امرأة يسكن إليها، ويستعين بها على معاشه، فكأنه قال: الاستمتاع بها لا يتم إلا بالصبر عليها». (٩/ ٢٥٤).

وينهى ﷺ الرجل عن كراهية المرأة لبعض ما يراه منها، عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يَفْرَكْ مؤمن مؤمنة، إن كره منها خلقًا رضي منها آخر، أو قال غيره». (أخرجه مسلم ١٤٦٩).

ويحدث ﷺ زوجه عائشة ﷺ بحديث وِدِّي واصفًا حالها حين تغضب عليه، وحين ترضى، عن عائشة ﷺ قالت: قال لي رسول الله ﷺ: «إني لأعلم إذا كنت عنِّي راضية، وإذا كنت علي غَضْبَى» قالت: فقلت: من أين تعرف ذلك؟ فقال: «أما إذا كنت عنِّي راضية فإنك تقولين: لا وربِّ محمد، وإذا كنت غَضْبَى قلت: لا وَرَبِّ إبراهيم» قالت: قلت: أجل والله يا رسول الله، ما أهجر إلا اسمك. (أخرجه البخاري ٥٢٢٨، ومسلم ٢٤٣٩).

ويُؤكِّد النبي ﷺ على الواقعية في التعامل مع المرأة، عن أبي موسى ﷺ، قال: قال رسول الله ﷺ: «كَمُلَ من الرجال كثير، ولم يكمل من النساء إلا: آسية امرأة فرعون، ومريم بنت عمران، وإن فضل عائشة على النساء كفضل الثَّرِيد على سائر الطعام». (أخرجه البخاري ٣٤١١، ومسلم ٢٤٣١).

وتكرَّر وصفه ﷺ للنساء بأنهن ناقصات عقل ودين.

تعليم المرأة

التعليم أداة مهمة لبناء الشخصية الإسلامية، فيه تُرسخ حقائق الإيمان والاعتقاد، وبه يعرف المسلم أحكام عباداته لله عز وجل، وما يصح فيها ولا يصح، وبه يعرف الحلال والحرام، وحقوق الله عز وجل، وحقوق المخلوقين.

وليس أثر العلم الشرعي قاصرًا على التحصيل المعرفي فحسب، بل هو أداة تزكية النفس وتهذيبها، وتحقيق أعمال القلوب وخشية الله عز وجل، كما قال سبحانه: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ﴾ (فاطر: ٢٨).

وأهل العلم هم أهل العبادة والإنابة، كما قال سبحانه: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْءَاخِرَةَ وَيَرْجُوا۟ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ (الزمر: ٩).

ولما كانت النساء شقائق الرجال، فإن العلم الشرعي مطلب مهم لبناء شخصية المرأة وتكوينها؛ لذا اعتنى النبي ﷺ بتعليم المرأة، ومن صور هذا الاعتناء ما يلي:

١- حثُّه على تعليمها:

حثَّ النبي ﷺ على تعليم المرأة، وأوصى بذلك، عن أبي بردة، عن أبيه ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «ثلاثة لهم أجران: رجل من أهل الكتاب، آمن بنبيه، وآمن بمحمد ﷺ، والعبد المملوك إذا أدّى حق الله، وحق مواليه، ورجل كانت عنده أَمَةٌ فأدَّبها، فأحسن تأديبها، وعلَّمها، فأحسن تعليمها، ثم أعتقها، فتزوَّجها؛ فله أجران». (أخرجه البخاري ٩٧، ومسلم ١٥٤).

وفي الحديث حثٌّ للرجال والأولياء على الاعتناء بتعليم المرأة، وتربيتها، وتأديبها، فإذا كان ذلك في تعليم الأَمَةِ والجارية، فكيف بالزوجة والبنت؟

وليس الاستدلال على الأمر بتعليم المرأة قاصرًا على النصوص التي نصت صراحة على ذلك؛ فكل النصوص الآمرة بالعلم والتعليم، والدالة على فضله والثناء عليه تشمل المرأة والرجل، كما سبق.

٢- حضورهن مجالس تعليمه ﷺ:

تحفل كتب السنة النبوية بروايات عديدة تبين حضور النساء مجالس النبي ﷺ، وشهودهن الصلاة معه، وسماعهن لتعليمه ﷺ، وقد روت لنا أمهات المؤمنين وغيرهن من نساء الصحابة رضوان الله عليهن أجمعين أحاديث عِدَّة مما سمعنه منه ﷺ في المجامع العامة، ومن ذلك ما يلي:

عن هشام بن عروة قال: أخبرتني فاطمة بنت المنذر، عن أسماء بنت أبي بكر الصديق ﵄، قالت: دخلت على عائشة ﵂، والناس يصلون، قلت: ما شأن الناس؟ فأشارت برأسها: إلى السماء، فقلت: آية؟ فأشارت برأسها: أي نعم، قالت: فأطال رسول الله ﷺ جدًّا حتى تجلَّاني الغشي، وإلى جنبي قربة فيها ماء، ففتحتها، فجعلت أصب منها على رأسي، فانصرف رسول الله ﷺ، وقد تجلت الشمس، فخطب الناس، وحمد الله بما هو أهله، ثم قال: «أما بعد» قالت: ولغط نسوة من الأنصار، فانكفأت إليهن لأسكتهن، فقلت لعائشة: ما قال؟ قالت: قال: «ما من شيء لم أكن أُريته إلا قد رأيته في مقامي هذا، حتى الجنة والنار، وإنه قد أوحي إليَّ أنكم تفتنون في القبور، مثل- أو قريب من- فتنة المسيح الدجال، يؤتى أحدكم، فيقال له: ما علمك بهذا الرجل؟ فأما المؤمن- أو قال: الموقن، شكَّ هشام- فيقول: هو رسول الله، هو محمد ﷺ، جاءنا بالبينات والهدى، فآمنَّا، وأجبنا، واتبعنا، وصدَّقنا، فيقال له: نَمْ صالحًا، قد كُنَّا نعلم إن كنت لتؤمن به، وأما المنافق- أو قال: المرتاب، شكَّ هشام- فيقال له: ما علمك بهذا الرجل؟ فيقول: لا أدري، سمعت الناس يقولون شيئًا فقلت. (أخرجه البخاري ٩٢٢، ومسلم ٩٠٥).

وتروي لنا أم سلمة رضي الله عنها ما حضرته من مجلس تعليم النبي ﷺ، وحديثه عن حوضه ﷺ، عن أم المؤمنين أم سلمة، رضي الله عنها، أنها قالت: كنت أسمع الناس يذكرون الحوض، ولم أسمع ذلك من رسول الله ﷺ فلما كان يومًا من ذلك، والجارية تمشطني، فسمعت رسول الله ﷺ يقول: «أيها الناس» فقلت للجارية: استأخري عنّي، قالت: إنما دعا الرجال، ولم يدعُ النساء، فقلت: إني من الناس، فقال رسول الله ﷺ: «إني لكم فَرَط على الحوض، فإياي لا يأتين أحدكم، فيُذَبُّ عنّي كما يُذَبُّ البعير الضال، فأقول: فيمَ هذا؟ فيقال: إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك، فأقول: سُحقًا». (أخرجه مسلم ٢٢٩٥).

كما تروي فاطمة بنت قيس رضي الله عنها ما شهدته من حديثه ﷺ عن خبر الدجال، عن عامر بن شراحيل الشعبي، شعب همدان، أنه سأل فاطمة بنت قيس، أخت الضحاك بن قيس- وكانت من المهاجرات الأُوَل- فقال: حدثيني حديثًا سمعتيه من رسول الله ﷺ، لا تسنديه إلى أحد غيره، فقالت: لئن شئت لأفعلن، فقال لها: أجل، حدثيني، فقالت: نكحت ابن المغيرة، وهو من خيار شباب قريش يومئذ، فأُصيب في أول الجهاد مع رسول الله ﷺ، فلما تأيّمت خطبني عبد الرحمن بن عوف في نفر من أصحاب رسول الله ﷺ، وخطبني رسول الله ﷺ على مولاه أسامة بن زيد، وكنت قد حُدِّثت أن رسول الله ﷺ، قال: «مَن أحبني، فليحب أسامة» فلما كلمني رسول الله ﷺ قلت: أمري بيدك، فأنكحني مَن شئت، فقال: «انتقلي إلى أم شريك»، وأم شريك امرأة غنية من الأنصار، عظيمة النفقة في سبيل الله، ينزل عليها الضيفان، فقلت: سأفعل، فقال: «لا تفعلي، إن أم شريك امرأة كثيرة الضيفان، فإني أكره أن يسقط عنك خمارك، أو ينكشف الثوب عن ساقيك، فيرى القوم منك بعض ما تكرهين، ولكن انتقلي إلى ابن عمك عبد الله بن عمرو ابن أم مكتوم»- وهو رجل من بني فهر، فهر قريشي، وهو من البطن الذي هي منه- فانتقلت إليه، فلما انقضت عدتي سمعت نداء المنادي منادي رسول الله ﷺ ينادي: الصلاة جامعة،

فخرجت إلى المسجد، فصليت مع رسول الله ﷺ، فكنت في صف النساء التي تلي ظهور القوم فلما قضى رسول الله ﷺ صلاته جلس على المنبر، وهو يضحك، فقال: «ليلزم كل إنسان مُصلَّاه»، ثم قال: «أتدرون لِمَ جمعتكم؟» قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: «إني والله ما جمعتكم لرغبة، ولا لرهبة، ولكن جمعتكم، لأن تميمًا الداري كان رجلًا نصرانيًّا، فجاء، فبايع وأسلم، وحدثني حديثًا وافق الذي كنت أحدثكم عن مسيح الدجال .... الحديث» (أخرجه مسلم ٢٩٤٢).

ويحفظ ﷺ للمرأة هذا الحق في شهود مجالس تعليمه لأصحابه، فينهى أصحابه رضوان الله عليهم عن منع المرأة من الذهاب للمسجد، وشهود الصلاة معه، وحضور المرأة لمسجد النبي ﷺ ليس قاصرًا على الصلاة فحسب، بل هي تشهد مجالس تعليمه ﷺ.

عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما عن النبي ﷺ: «إذا استأذنت امرأة أحدكم إلى المسجد فلا يمنعها». (أخرجه البخاري ٥٢٣٨، ومسلم ٤٤٢).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «لا تمنعوا إماء الله مساجد الله، وليخرجن تَفِلَات». (أخرجه أحمد ٩٦٤٥، وأبو داود ٥٦٥).

وعن عائشة رضي الله عنها، عن النبي ﷺ قال: «لا تمنعوا إماء الله مساجد الله، وليخرجن تَفِلَات»، قالت عائشة: ولو رأى حالهن اليوم منعهن. (أخرجه أحمد ٢٤٤٠٦).

٣- سماعهن أسئلة الرجال:

حفظت لنا دواوين السنة النبوية أحاديث عِدَّة كان ﷺ يقرُّ فيها المرأة على سماع سؤال الرجال للنبي ﷺ، وتعليمه لهم.

عن عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها، أن الحارث بن هشام رضي الله عنه سأل رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، كيف يأتيك الوحي؟ فقال رسول الله ﷺ: «أحيانًا يأتيني مثل صلصلة

الجرس، وهو أشده عليَّ، فيفصم عني وقد وعيت عنه ما قال، وأحيانًا يتمثل لي الملك رجلًا فيكلمني، فأعي ما يقول»، قالت عائشة ﵂: ولقد رأيته ينزل عليه الوحي في اليوم الشديد البرد، فيفصم عنه وإن جبينه ليتفصد عرقًا. (أخرجه البخاري ٢، ومسلم ٢٣٣٣).

وقد يكون السؤال الذي تسمعه فيما يُستحيا منه، من أمور العلاقة بين الرجل والمرأة، فكان ﷺ يقرهن على ذلك.

سأله رجل عن إدراك الفجر للجنب، وهو يريد الصيام، وكانت عائشة ﵂ تسمعه من وراء الباب، عن عائشة ﵂، أن رجلًا جاء إلى النبي ﷺ يستفتيه، وهي تسمع من وراء الباب، فقال: يا رسول الله، تدركني الصلاة وأنا جنب، أفأصوم؟ فقال رسول الله ﷺ: «وأنا تدركني الصلاة وأنا جنب، فأصوم» فقال: لست مثلنا يا رسول الله، قد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك، وما تأخر، فقال: «والله، إني لأرجو أن أكون أخشاكم لله، وأعلمكم بما أَتَّقِي». (أخرجه مسلم ١١١٠).

وسأله آخر عن الغُسل لمن يجامع، ولم ينزل، وعائشة بجواره ﷺ فأجابه وهي تسمع، عن عائشة ﵂ قالت: إن رجلًا سأل رسول الله ﷺ عن الرجل يجامع أهله، ثم يكسل، هل عليهما الغسل؟ وعائشة جالسة، فقال رسول الله ﷺ: «إني لأفعل ذلك، أنا وهذه، ثم نغتسل». (أخرجه مسلم ٣٥٠).

وسأله آخر عن الاحتلام، وأم سليم ﵂ بحضرته، عن عائشة ﵂ قالت: سُئِل رسول الله ﷺ عن الرجل يجد البلل، ولا يذكر احتلامًا قال: «يغتسل»، وعن الرجل يرى أنه قد احتلم، ولا يرى بللًا، قال:«لا غُسل عليه» فقالت أم سليم: هل على المرأة ترى ذلك شيء؟ قال: «نعم، إنما النساء شقائق الرجال». (أخرجه أحمد ٢٦١٩٥، وأبو داود ٢٣٦، والترمذي ١١٣).

٤- تعليمهن أحكام العبادات:

وكان ﷺ يُعلِّم النساء أحكام العبادات، فقد علمهن ﷺ كيفية غسل الجنازة، فعن أم عطية ﵂، قالت: قال النبي ﷺ لهن في غسل ابنته: «ابدأن بميامنها، ومواضع الوضوء منها». (أخرجه البخاري ١٦٧، ومسلم ٩٣٩).

وعنها ﵂، قالت: دخل علينا رسول الله ﷺ حين توفيت ابنته، فقال: «اغسلنها ثلاثًا، أو خمسًا، أو أكثر من ذلك إن رأيتن ذلك، بماء وسِدر، واجعلن في الآخرة كافورًا- أو شيئًا من كافور- فإذا فرغتن فآذِنَّنِي»، فلما فرغنا آذَنَّاه، فأعطانا حِقْوَهُ، فقال: «أشعرنها إياه» تعني: إزاره. (أخرجه البخاري ١٢٥٣، ومسلم ٩٣٩).

٥- مباشرته تعليمها:

وروت لنا طائفة من النساء مباشرته ﷺ لتعليمهن، فعلَّم أم شريك ﵂ أن تقتل الأوزاغ، فعن عن سعيد بن المسيب، أن أم شريك أخبرته أن النبي ﷺ أمرها بقتل الأوزاغ. (أخرجه البخاري ٣٣٠٧، ومسلم ٢٢٣٧).

وكانت النساء يسألنه ﷺ فيستمع سؤالهن ويجيبهن، عن ابن عباس ﵄ أن امرأة من جهينة جاءت إلى النبي ﷺ فقالت: إن أمي نذرت أن تحج فلم تحج حتى ماتت، أفأحج عنها؟ قال: «نعم حجي عنها، أرأيت لو كان على أمك دَيْن، أكنت قاضية؟ اقضوا الله؛ فالله أحق بالوفاء». (أخرجه البخاري ١٨٥٢).

وعن ابن عباس ﵄، أن امرأة أتت رسول الله ﷺ فقالت: إن أمي ماتت، وعليها صوم شهر، فقال: «أرأيت لو كان عليها دَين، أكنت تقضينه؟» قالت: نعم، قال: «فدَيْن الله أحق بالقضاء». (أخرجه مسلم ١١٤٨).

وفي رواية لمسلم، والبخاري أن السائل رجل، والله أعلم.

وعن عبد الله بن بريدة، عن أبيه ﷺ قال: بينا أنا جالس عند رسول الله ﷺ، إذ أتته امرأة، فقالت: إني تصدقت على أمي بجارية، وإنها ماتت، قال: فقال: «وجب أجرك، وردها عليك الميراث» قالت: يا رسول الله، إنه كان عليها صوم شهر، أفأصوم عنها؟ قال: «صومي عنها» قالت: إنها لم تحج قط، أفأحج عنها؟ قال: «حجي عنها». (أخرجه مسلم ١١٤٩).

٦- البدء بتعليمها:

ومن اعتنائه ﷺ بتعليم المرأة: أنه لم يكن يقتصر على الإجابة عن سؤالها، أو شهودها مجالس التعليم، إنما كان يبادر إلى تعليمها، ويستثمر المواقف في ذلك، فحين رأى ﷺ القمر، وعنده عائشة علَّمها الاستعاذة بالله عز وجل، وأنه المقصود فيما جاء في سورة الفلق، عن عائشة ﵂، أن النبي ﷺ نظر إلى القمر، فقال: «يا عائشة، استعيذي بالله من شرِّ هذا، فإن هذا الغاسق إذا وقب». (أخرجه أحمد ٢٥٨٠٢، والترمذي ٣٣٦٦).

وحين تحكي له إحداهن ما عملته أو رأته، لم يكن ﷺ يكتفي بالسماع، بل كان يعلمهن، فبيَّن لهن حال الأمم السابقة مع أنبيائهم والصالحين فيهم، حين حدثته إحداهن عما رأته في أرض الحبشة، فعن عائشة ﵂، قالت: لما اشتكى النبي ﷺ ذكرت بعض نسائه كنيسة رأينها بأرض الحبشة، يُقال لها: مارية، وكانت أم سلمة، وأم حبيبة ﵄ أتتا أرض الحبشة، فذكرتا من حسنها وتصاوير فيها، فرفع رأسه، فقال: «أولئك إذا مات منهم الرجل الصالح بنوا على قبره مسجدًا، ثم صوَّروا فيه تلك الصورة، أولئك شِرار الخلق عند الله». (أخرجه البخاري ١٣٤١، ومسلم ٥٢٨).

٧- تخصيص المرأة بالتعليم:

ومع شهودها لمجالس العلم، وسماعها لأسئلة الرجال، فقد كان ﷺ يخصصها بالتعليم، ومن ذلك ما يلي:

أ- تخصيص الخطاب لها:

لم يكن ﷺ يكتفي في تعليم المرأة بحضور مجالِسِهِ العامة التي يحضرها الرجال، بل كان ﷺ يخصص لهن خطابًا خاصًا، وحديثًا لا يشاركهن فيه الرجال.

فقد كان ﷺ يخصهن بالحديث يوم العيد حين يفرغ من خطبة الرجال، فعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: خرج النبي ﷺ يوم عيد، فصلَّى ركعتين لم يُصلِّ قبل ولا بعد، ثم مال على النساء، ومعه بلال، فوعظهن، وأمرهن أن يتصدقن، فجعلت المرأة تلقي القُلْب والخُرْص. (أخرجه البخاري ١٤٣١، ومسلم ٨٨٤).

وعن ابن عباس رضي الله عنهما، قال: شهدت الفطر مع النبي ﷺ وأبي بكر، وعمر، وعثمان رضي الله عنهم يصلونها قبل الخطبة، ثم يخطب بعد، خرج النبي ﷺ كأني أنظر إليه حين يجلس بيده، ثم أقبل يشقهم حتى جاء النساء معه بلال، فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ يُبَايِعْنَكَ﴾ (الممتحنة: ١٢) الآية، ثم قال- حين فرغ منها-: «آنتن على ذلك؟» قالت امرأة واحدة منهن، لم يجبه غيرها: نعم،- لا يدري حسن من هي- قال: «فتصدَّقن»، فبسط بلال ثوبه، ثم قال: «هَلُمَّ لَكُنَّ فداء أبي وأمي»، فيلقين الفتخ والخواتيم في ثوب بلال، قال عبد الرزاق: الفتخ: الخواتيم العظام كانت في الجاهلية». (أخرجه البخاري ٩٧٩، ومسلم ٨٨٤).

ب- تخصيص مجلس للنساء:

ولم يكتفِ النبي ﷺ بتخصيص الخطاب لهن أثناء العيد والمجامع العامة، بل جعل لهن ﷺ يومًا علمهن فيه، فعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، قالت النساء للنبي ﷺ: غلَبنا عليك الرجال، فاجعل لنا يومًا من نفسك، فوعدهن يومًا لقيهن فيه، فوعظهن، وأمرهن، فكان فيما قال لهن: «ما منكن امرأة تقدم ثلاثة من ولدها؛ إلا كان لها حجابًا من النار» فقالت امرأة: واثنين فقال: «واثنين». (أخرجه البخاري ١٠١، ومسلم ٢٦٣٣).

٨- سماعه أسئلتها:

كان ﷺ يستمع لأسئلة النساء، ويجيبهن على ذلك، فعن أبي سعيد الخدري ﷺ، قال: خرج رسول الله ﷺ في أضحى، أو فطر إلى المصلى، فمرَّ على النساء، فقال: «يا معشر النساء تصدقن، فإني أريتكن أكثر أهل النار» فقلن: وَبِمَ يا رسول الله؟ قال: «تُكثرن اللَّعن، وتكفُرْن العشير، ما رأيت من ناقصات عقل ودين، أذهب لِلُبِّ الرجل الحازم من إحداكن»، قلن: وما نقصان ديننا وعقلنا يا رسول الله؟ قال: «أليس شهادة المرأة مثل نصف شهادة الرجل» قلن: بلى، قال: «فذلك من نقصان عقلها، أليس إذا حاضت لم تُصَلِّ، ولم تَصُمْ» قلن: بلى، قال: «فذلك من نقصان دينها». (أخرجه البخاري ٣٠٤، ومسلم ٨٠).

والسنة حافلة بمواقف استماعه ﷺ لأسئلة النساء، وفيما يلي نماذج لذلك:

أ- سماعه أسئلة أمهات المؤمنين:

تروي لنا أمهات المؤمنين رضوان الله عليهن مواقف عِدَّة كُنَّ يسألن فيها النبي ﷺ عما يشكل عليهن، فكان ﷺ يجيب عن أسئلتهن دون تذمُّر أو تبرم، وكثرة أسئلة أمهات المؤمنين له ﷺ، وتنوع هذه الأسئلة دليل على أنهن لمسن منه ﷺ حسن الاستماع، والإنصات، وسعة صدره لأسئلتهن.

سألته عائشة ﷺ عن أعمال الكفار في الجاهلية، وهل يؤجرون عليها، فأجابها ﷺ، عن عائشة ﷺ قالت: قلت: يا رسول الله، ابن جدعان كان في الجاهلية يَصِلُ الرحم، ويُطعم المسكين، فهل ذاك نافِعُه؟ قال: «لا ينفعه، إنه لم يقل يومًا: رَبِّ اغفر لي خطيئتي يوم الدين». (أخرجه مسلم ٢١٤).

وسألته ﵂ عن حال الناس يوم القيامة، عن عائشة ﵂ قالت: سألت رسول الله ﷺ عن قوله عز وجل: ﴿يَوۡمَ تُبَدَّلُ ٱلۡأَرۡضُ غَيۡرَ ٱلۡأَرۡضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ﴾ (إبراهيم: ٤٨)، فأين يكون الناس يومئذ يا رسول الله؟ فقال: «على الصراط». (أخرجه مسلم ٢٧٩١).

وسألته ﵂ عن البيت، عن عائشة ﵂، قالت: سألت النبي ﷺ عن الجدر أَمِنَ البيت هو؟ قال: «نعم» قلت: فما لهم لم يُدخلوه في البيت؟ قال: «إن قومك قصرت بهم النفقة» قلت: فما شأن بابه مرتفعًا؟ قال: «فعل ذلك قومك؛ ليدخلوا مَن شاؤوا، ويمنعوا مَن شاؤوا، ولولا أن قومك حديث عهدهم بالجاهلية، فأخاف أن تنكر قلوبهم، أن أدخل الجدر في البيت، وأن ألصق بابه بالأرض». (أخرجه البخاري ١٥٨٤، ومسلم ١٣٣٣).

وسألته عن الالتفات في الصلاة، عن عائشة ﵂، قالت: سألت رسول الله ﷺ عن الالتفات في الصلاة؟ فقال: «هو اختلاس يختلسه الشيطان من صلاة العبد». (أخرجه البخاري ٧٥١).

وحين اعترض عليها أحد الصحابة رضوان الله عليهم في احتجابها عنه، سألت النبي ﷺ، عن عائشة ﵂، قالت: استأذن عليَّ أفلحُ، فلم آذن له، فقال: أتحتجبين منِّي، وأنا عمك، فقلت: وكيف ذلك؟ قال: أرْضَعَتْكِ امرأة أخي بلبن أخي، فقالت: سألت عن ذلك رسول الله ﷺ فقال: «صدق أفلح، ائذني له». (أخرجه البخاري ٢٦٤٤، ومسلم ١٤٤٥).

وكُنَّ رضوان الله عليهن يسألنه عن فضائل الأعمال ومراتبها، فعن عائشة ﵂، قالت: قلت: يا رسول الله، إن لي جارين فإلى أيها أهدي؟ قال: «إلى أقربهما منك بابًا». (أخرجه البخاري ٢٢٥٩).

وسألته ﵂ عن الدعاء الذي تدعو به في ليلة القدر، فعن عائشة ﵂ قالت: قلت: يا رسول الله، أرأيت لو أني علمت ليلة القدر، ما كنت أدعو به ربي عز وجل، أو: ما

كنت أسأله؟ قال: «قولي: اللهم إنك تحب العفو، فاعفُ عني». (أخرجه أحمد ٢٥٥٠٥، والترمذي ٣٥١٣، وابن ماجه ٣٨٥٠).

وسألته ﵁ عن الطاعون، عن عائشة ﵂ زوج النبي ﷺ، قالت: سألت رسول الله ﷺ عن الطاعون، فأخبرني «أنه عذاب يبعثه الله على مَن يشاء، وأن الله جعله رحمة للمؤمنين، ليس من أحد يقع الطاعون، فيمكث في بلده صابرًا محتسبًا، يعلم أنه لا يصيبه إلا ما كتب الله له، إلا كان له مثل أجر شهيد». (أخرجه البخاري ٣٤٧٤).

وكُنَّ يسألنه عما يشكل عليهن فهمه من كلام الله عز وجل، فعن عائشة ﵂، أنها قالت: يا رسول الله في هذه الآية: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤۡتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمۡ وَجِلَةٌ أَنَّهُمۡ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ رَٰجِعُونَ﴾ (المؤمنون: ٦٠) يا رسول الله، هو الذي يسرق، ويزني، ويشرب الخمر، وهو يخاف الله؟ قال: «لا يا بنت أبي بكر، يا بنت الصديق، ولكنه الذي يصلي، ويصوم، ويتصدق، وهو يخاف الله عز وجل». (أخرجه أحمد ٢٥٢٦٣، والترمذي ٣١٧٥، وابن ماجه ٤١٩٨).

ويسألنه رضوان الله عليهن عما يشكل عليهن من حاله أو قوله، فعن عائشة ﵂، أن رسول الله ﷺ كان إذا جلس مجلسًا، أو صلَّى، تكلَّم بكلمات، فسألته عائشة عن الكلمات، فقال: «إن تكلم بخير كان طابعًا عليهن إلى يوم القيامة، وإن تكلم بغير ذلك كان كفارة: سبحانك وبحمدك، لا إله إلا أنت، أستغفر الله، وأتوب إليه». (أخرجه أحمد ٢٤٤٨٦، والنسائي ١٣٤٤).

وسألته أم سلمة ﵂ عن الهجرة للنساء، فعن أم سلمة ﵂ قالت: «يا رسول الله، لا أسمع الله ذكر النساء في الهجرة». فأنزل الله تعالى: ﴿أَنِّي لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٖ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰۖ بَعۡضُكُم مِّنۢ بَعۡضٖ﴾ (آل عمران: ١٩٥). (أخرجه الترمذي ٣٠٢٣).

كما سألته ﵂ عن الجهاد للمرأة، عن أم سلمة ﵂، أنها قالت: يا رسول الله، يغزو

الرجال، ولا نغزو، ولنا نصف الميراث؟ فأنزل الله ﴿وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بِهِۦ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ (النساء: ٣٢). (أخرجه أحمد ٢٦٧٣٦، والترمذي ٣٠٢٢).

وسألته ﷺ عن نقض رأسها حين تغتسل للجنابة، عن أم سلمة ﵂ قالت: قلت: يا رسول الله، إني امرأة أشد ضفر رأسي، فأنقضه لغسل الجنابة؟ قال: «لا، إنما يكفيك أن تحثي على رأسك ثلاث حثيات، ثم تفيضين عليك الماء فتطهرين». (أخرجه مسلم ٣٣٠).

وسألته ﷺ عن الزكاة في الحُلِيِّ الذي تلبسه، عن أم سلمة ﵂ قالت: كنت ألبس أوضاحًا من ذهب، فقلت: يا رسول الله، أكنز هو؟ فقال: «ما بلغ أن تؤدى زكاته، فزكي، فليس بكنز». (أخرجه أبو داود ١٥٦٤).

وسألته ﷺ عن أجر إنفاقها على أولادها، فعن زينب ابنة أم سلمة ﵄، قالت: قلت: يا رسول الله، ألي أجر أن أنفق على بني أبي سلمة، إنما هم بَنِيَّ؟ فقال: «أنفقي عليهم، فلك أجر ما أنفقت عليهم». (أخرجه البخاري ١٤٦٧، ومسلم ١٠٠١).

وهكذا كانت أسئلة أمهات المؤمنين له ﷺ تمثل مصدرًا للتعلُّم، وفهم كلام الله عز وجل، وفقه كثير من أحكام العبادات، وكان تعليمه ﷺ لهن تعليمًا لأُمَّته.

ب- سماعه أسئلة الصحابيات:

كانت نساء الصحابة يأتين له ﷺ، فيسألنه عما يشكل عليهن من أمور الدين، فكان ﷺ يجيبهن عن ذلك، فسألته امرأة ابن مسعود ﵄ عن الصدقة على زوجها وأولادها، فأجابها ﷺ، فعن أبي سعيد الخدري ﵁، خرج رسول الله ﷺ في أضحى، أو فطر إلى المصلى، ثم انصرف، فوعظ الناس، وأمرهم بالصدقة، فقال: «أيها الناس، تصدقوا»، فمرَّ على النساء، فقال: «يا معشر النساء، تصدقن، فإني رأيتكن أكثر أهل النار» فقلن: وَبِمَ ذلك يا رسول الله؟ قال: «تُكثرن اللَّعن، وتكفُرْن العشير، ما رأيت من ناقصات عقل

ودين، أذهب لِلُبِّ الرجل الحازم من إحداكن يا معشر النساء»، ثم انصرف، فلما صار إلى منزله، جاءت زينب امرأة ابن مسعود تستأذن عليه، فقيل: يا رسول الله، هذه زينب، فقال: «أيُّ الزَّيَانِب؟» فقيل: امرأة ابن مسعود، قال: «نعم، ائذنوا لها» فأذن لها، قالت: يا نبي الله، إنك أمرت اليوم بالصدقة، وكان عندي حُلِيٌّ لي، فأردت أن أتصدق به، فزعم ابن مسعود أنه، وولده أحق مَن تصدقت به عليهم، فقال النبي ﷺ: «صدق ابن مسعود، زوجك وولدك أحق مَن تصدقت به عليهم». (أخرجه البخاري ١٤٦٢).

وسألته امرأة، وهو في الحج عن الحج عن أبيها فأجابها، عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما، قال: كان الفضل رديف رسول الله ﷺ، فجاءت امرأة من خشعم، فجعل الفضل ينظر إليها، وتنظر إليه، وجعل النبي ﷺ يصرف وجه الفضل إلى الشق الآخر، فقالت: يا رسول الله، إن فريضة الله على عباده في الحج أدركت أبي شيخًا كبيرًا، لا يثبت على الراحلة، أفأحج عنه؟ قال: «نعم»، وذلك في حجة الوداع. (أخرجه البخاري ١٥١٣، ومسلم ١٣٣٤).

كما سألته امرأة أخرى عن الحج عن أمها، فعن ابن عباس رضي الله عنهما، أن امرأة من جهينة، جاءت إلى النبي ﷺ، فقالت: إن أمي نذرت أن تحج فلم تحج حتى ماتت، أفأحج عنها؟ قال: «نعم حجي عنها، أرأيت لو كان على أمك دَيْن، أكنت قاضية؟ اقضوا الله، فالله أحق بالوفاء». (أخرجه البخاري ١٨٥٢).

وسألته امرأة عن صدقتها على أمها، وقضاء الصيام والحج عنها، عن عبد الله بن بريدة، عن أبيه رضي الله عنه قال: بينا أنا جالس عند رسول الله ﷺ إذ أتته امرأة، فقالت: إني تصدقت على أمي بجارية، وإنها ماتت، قال: فقال: «وجب أجرك، وردها عليك الميراث» قالت: يا رسول الله، إنه كان عليها صوم شهر، أفأصوم عنها؟ قال: «صومي عنها» قالت: إنها لم تحج قطُّ، أفأحج عنها؟ قال: «حجي عنها». (أخرجه مسلم ١١٤٩).

وسألته هند ﵂ عن أخذها من مال زوجها، فعن عائشة ﵂: قالت هند أم معاوية لرسول الله ﷺ: إن أبا سفيان رجل شحيح، فهل عليَّ جناح أن آخذ من ماله سِرًّا؟ قال: «خذي أنت وبنوك ما يكفيك بالمعروف». (أخرجه البخاري ٢٢١١، ومسلم ١٧١٤).

وسألته أسماء بنت أبي بكر ﵂ عن صلة أمها المشركة، فعن أسماء بنت أبي بكر ﵄ ، قالت: قدمت عليَّ أمي، وهي مشركة في عهد رسول الله ﷺ، فاستفتيت رسول الله ﷺ، قلت: وهي راغبة، أَفَأَصِلُ أمي؟ قال: «نعم، صِلي أمك». (أخرجه البخاري ٢٦٢٠، ومسلم ١٠٠٣).

وسألته سهلة بنت سهيل ﵂ عن دخول سالم عليها، فعن عائشة ﵂ قالت: جاءت سهلة بنت سهيل إلى النبي ﷺ، فقالت: يا رسول الله، إني أرى في وجه أبي حذيفة من دخول سالم، وهو حليفه، فقال النبي ﷺ: «أرضعيه»، قالت: وكيف أرضعه وهو رجل كبير؟ فتبسم رسول الله ﷺ وقال: «قد علمت أنه رجل كبير»، زاد عمرو في حديثه: وكان قد شهد بدرًا، وفي رواية ابن أبي عمر: فضحك رسول الله ﷺ. (أخرجه مسلم ١٤٥٣).

وسألته ضباعة ﵂ عما تفعل في إحرامها وهي شاكية، عن ابن عباس ﵄، أن ضباعة بنت الزبير بن عبد المطلب ﵂ أتت رسول الله ﷺ، فقالت: إني امرأة ثقيلة، وإني أريد الحج، فما تأمرني؟ قال: «أَهِلِّي بالحج، واشترطي أن محلِّي حيث تحبسني» قال: فأدركت. (أخرجه مسلم ١٢٠٨).

وسألته امرأة عن حج الصغير، فعن ابن عباس ﵄، عن النبي ﷺ لقي ركبًا بالروحاء، فقال: «مَن القوم؟» قالوا: المسلمون، فقالوا: مَن أنت؟ قال: «رسول الله»، فرفعت إليه امرأة صبيًّا، فقالت: ألهذا حج؟ قال: «نعم، ولك أجر». (أخرجه مسلم ١٣٣٦).

وسألته أم سليم ﵂ عن الدعاء في الصلاة، عن أنس بن مالك ﵁، أن أم سليم غدت على النبي ﷺ، فقالت: علِّمْني كلمات أقولهن في صلاتي، فقال: «كبِّري الله عشرًا، وسبِّحي الله عشرًا، واحمديه عشرًا، ثم سَلِي ما شئت»، يقول: نعم نعم. (أخرجه الترمذي ٤٨١، وأحمد ١٢٢٠٧، والنسائي ١٢٩٩).

وسألته أسماء بنت عميس عن وقاية أولادها من العين، عن أسماء بنت عميس ﵂ قالت: يا رسول الله، إن ولد جعفر تُسرع إليهم العين، أفأسترقي لهم؟ فقال: «نعم، فإنه لو كان شيء سابق القدر لسبقته العين». (أخرجه الترمذي ٢٠٥٩).

ومن فقههن رضوان الله عليهن: سؤالهن له ﷺ عن الموقف الشرعي في التعامل مع الفتن والحوادث، فعن أم مالك البهزية ﵂ قالت: ذكر رسول الله ﷺ فتنة فَقَرَّبَهَا، قالت: قلت: يا رسول الله، مَن خير الناس فيها؟ قال: «رجل في ماشيته يُؤدي حقها، ويعبد ربه، ورجل آخذ برأس فرسه يخيف العدو، ويخيفونه». (أخرجه الترمذي ٢١٧٧).

ج- سماعه السؤال عما يُستحيا منه:

لقد كان ﷺ موصوفًا بالحياء، وأشد حياءً من العذراء في خِدْرِها، ومع ذلك لم يكن حياؤه ﷺ يمنعه من تعليم المرأة ما تحتاجه في دينها؛ لذا فقد كان ﷺ يستمع لأسئلة النساء فيما يُستحيا منه في أمور الطهارة، والعلاقة الزوجية ونحو ذلك، ولم يكن ﷺ ينكر عليهن هذا السؤال، أو ينهاهن عنه.

سألته سبيعة بنت الحارث ﵂ عن عِدَّة المتوفى عنها زوجها، ومتى يحل لها أن تتزوج، فعن سبيعة بنت الحارث ﵂، أنها كانت تحت سعد بن خولة، وهو من بني عامر بن لؤي، وكان ممن شهد بدرًا، فتوفي عنها في حجة الوداع، وهي حامل، فلم تنشب أن وضعت حملها بعد وفاته، فلما تعلت من نفاسها، تجمَّلت للخُطَّاب، فدخل عليها أبو السنابل بن

بعكك، رجل من بني عبد الدار، فقال لها: ما لي أراك تجمَّلت للخُطَّاب، ترجين النكاح؟ فإنك والله ما أنت بناكح حتى تمر عليك أربعة أشهر وعشر، قالت سبيعة: فلما قال لي ذلك جمعت عليَّ ثيابي حين أمسيت، وأتيت رسول الله ﷺ فسألته عن ذلك، «فأفتاني بأني قد حللت حين وضعت حملي، وأمرني بالتزوج إن بدا لي». (أخرجه البخاري ٣٩٩١، ومسلم ١٤٨٤).

قال البخاري: باب الحياء في العلم، وقال مجاهد: «لا يتعلم العلم مستحي، ولا مستكبر»، وقالت عائشة: «نِعْمَ النساء نساء الأنصار، لم يمنعهن الحياء أن يتفقهن في الدين»، ثم أورد بإسناده حديث أم سلمة ﵂ قالت: جاءت أم سليم إلى رسول الله ﷺ فقالت: يا رسول الله، إن الله لا يستحيي من الحق؛ فهل على المرأة من غُسل إذا احتلمت؟ قال النبي ﷺ: «إذا رأت الماء» فغطت أم سلمة- تعني وجهها-، وقالت: يا رسول الله، أوتحتلم المرأة؟ قال: «نعم، تربت يمينك، فبم يشبهها ولدها؟». (أخرجه البخاري ١٣٠، ومسلم ٣١٣).

واستمع ﷺ لأسئلتهن فيما يتصل بطهارة المرأة، فقد سألته أسماء ﵂ عن الغُسل من الحيض، عن عائشة ﵂ أن أسماء ﵂ سألت النبي ﷺ عن غُسل المحيض فقال: «تأخذ إحداكن ماءها وسدرتها، فتطهر، فتحسن الطهور، ثم تصب على رأسها، فتدلكه دلكًا شديدًا حتى تبلغ شؤون رأسها، ثم تصب عليها الماء، ثم تأخذ فِرْصَة مُمَسَّكَة، فتطهر بها» فقالت أسماء: وكيف تطهر بها؟ فقال: سبحان الله! تطهرين بها، فقالت عائشة- كأنها تخفي ذلك-: تتبعين أثر الدم، وسألته عن غُسل الجنابة، فقال: تأخذ ماء فتطهر، فتحسن الطهور، أو تبلغ الطهور، ثم تصب على رأسها، فتدلكه حتى تبلغ شؤون رأسها، ثم تفيض عليها الماء، فقالت عائشة: نِعْمَ النساء نساء الأنصار، لم يكن يمنعهن الحياء أن يتفقهن في الدين. (أخرجه مسلم ٣٣٢).

وسألته امرأة عن الصلاة في الثوب الذي أصابه دم الحيض، عن أسماء بنت أبي بكر أنها قالت: سألت امرأة رسول الله ﷺ، فقالت: يا رسول الله، أرأيت إحدانا إذا أصاب ثوبَها دمٌ من الحيضة، كيف تصنع؟ فقال رسول الله ﷺ: «إذا أصاب إحداكن الدم من الحيضة، فلتقرصه، ثم لتنضحه بماء، ثم لتصلي فيه». (أخرجه البخاري ٣٠٧).

كما سألته أم قيس بنت محصن ؓ، عن دم الحيض فعن عدي بن دينار قال: سمعت أم قيس بنت محصن تقول: سألت النبي ﷺ عن دم الحيض يكون في الثوب، قال: «حُكِّيه بِضِلَعٍ، واغسليه بماء وسدر». (أخرجه أبو داود ٣٦٣، وابن ماجه ٦٢٨، وأحمد ٢٦٩٩٨، والنسائي٢٩٢).

وسألته- أيضًا- عن ذلك خولة بنت يسار ؓ، فعن أبي هريرة، أن خولة بنت يسار ؓ أتت النبي ﷺ، فقالت: يا رسول الله، ليس لي إلا ثوب واحد، وأنا أحيض فيه، قال: «فإذا طهرت، فاغسلي موضع الدم، ثم صلي فيه»، قالت: يا رسول الله، إن لم يخرج أثره، قال: «يكفيك الماء، ولا يضرك أثره». (أخرجه أحمد ٨٧٦٧، وأبو داود ٣٦٥).

وسألته فاطمة بنت حبيش ؓ عن الاستحاضة، فعن هشام بن عروة، عن أبيه، عن عائشة ؓ، قالت: جاءت فاطمة ابنة أبي حبيش إلى النبي ﷺ، فقالت: يا رسول الله إني امرأة أستحاض، فلا أطهر، أفأدع الصلاة؟ فقال رسول الله ﷺ: «لا، إنما ذلك عرق، وليس بحيض، فإذا أقبلت حيضتك، فدعي الصلاة، وإذا أدبرت فاغسلي عنك الدم، ثم صلي»، قال: وقال أبي: «ثم توضئي لكل صلاة، حتى يجيء ذلك الوقت». (أخرجه البخاري ٢٢٨، ومسلم ٣٣٣).

وسألته- أيضًا- أم حبيبة ؓ عن الاستحاضة، فعن عائشة ؓ، أن أم حبيبة ؓ اسْتُحِيضت سبع سنين، فسألت رسول الله ﷺ عن ذلك، فأمرها أن تغتسل، فقال: «هذا عِرْق»، فكانت تغتسل لكل صلاة. (أخرجه البخاري ٣٢٧).

وعن عائشة ﵂، أنها قالت: إن أم حبيبة ﵂ سألت رسول الله ﷺ عن الدم، فقالت عائشة: رأيت مِرْكَنَها ملآن دمًا، فقال لها رسول الله ﷺ: «امكثي قدر ما كانت تحبسك حيضتك، ثم اغتسلي وصلِّي». (أخرجه مسلم ٣٣٤).

وحين اختلف أصحاب النبي ﷺ في وجوب الغسل بمجرد الجماع دون إنزال؛ سألوا أم المؤمنين عائشة ﵂، عن أبي موسى ﵁، قال: اختلف في ذلك رهط من المهاجرين، والأنصار فقال الأنصاريون: لا يجب الغسل إلا من الدفق، أو من الماء، وقال المهاجرون: بل إذا خالط فقد وجب الغسل، قال: قال أبو موسى: فأنا أشفيكم من ذلك، فقمت، فاستأذنت على عائشة، فأذن لي، فقلت لها: يا أماه- أو يا أم المؤمنين- إني أريد أن أسألك عن شيء، وإني أستحييك، فقالت: لا تستحيي أن تسألني عما كنت سائلًا عنه أمك التي ولدتك، فإنما أنا أمك، قلت: فما يوجب الغسل؟ قالت على الخبير سقطت، قال رسول الله ﷺ: «إذا جلس بين شعبها الأربع، ومس الختانُ الختانَ؛ فقد وجب الغسل». (أخرجه مسلم ٣٤٩).

إن تعدد هذه المواقف وكثرتها يُبيِّن عِظَمَ اعتنائه ﷺ بتعليم المرأة أحكام دينها، واهتمامه ﷺ بإجابتهن عما يشكل عليهن في ذلك، حتى تكرر هذا فيما يُستحيا منه، فكيف بما هو دونه؟

كما أن كثرة مَن يسألنه ﷺ وتنوعهن يشعر بأنه قد استقر لديهن سعة صدره ﷺ، وتقبله لهذه الأسئلة.

إن المتربي ترد لديه إشكالات عديدة، وتواجهه مسائل شرعية لا يعرف حكمها، أو صعوبات في تدينه وعلاقته بربه سبحانه، أو تعامله مع من حوله؛ لذا فهو بحاجة لمن يتجه إليه يسأله، ويستفتيه، ويستشيره، وهذا يتطلب سعة صدر المربي والمعلم، واعتناءه بالاستماع له، وعدم إشعاره بالتبرم والضيق من أسئلته.

د- سماعه سؤال الرجال عن حالهن:

ولم يكن اعتناؤه ﷺ بسؤال المرأة قاصرًا على سماعه أسئلة النساء مباشرة، بل كانت بعض النساء يوصين أزواجهن وأقاربهن بسؤاله ﷺ.

فهذه أخت عقبة بن عامر رضي الله عنهما توصي أخاها بسؤال النبي ﷺ، عن عبد الله بن مالك: أن أخت عقبة بن عامر رضي الله عنه، نذرت أن تحج ماشية، فسأل عقبة رضي الله عنه عن ذلك النبي ﷺ، فقال: «مُرْها فلتركب»، فظن أنه لم يفهم عنه، فلما خلا من كان عنده عاد فسأله، فقال: «مُرْها فلتركب؛ فإن الله عز وجل عن تعذيب أختك نفسها لَغَنِي». (أخرجه أحمد ١٧٢٩١، والترمذي ١٥٤٤، وأبو داود ٣٢٩٥).

وعند أبي داود: «فلتحج راكبة، وتكفر عن يمينها».

كما سأل أبو بكر رضي الله عنه رسولَ الله ﷺ عن حال زوجته في الحج، عن أسماء بنت عميس رضي الله عنها، أنها ولدت محمد بن أبي بكر بالبيداء، فذكر ذلك أبو بكر لرسول الله ﷺ، فقال رسول الله ﷺ: «مُرها فلتغتسل، ثم لتُهِلَّ». (أخرجه أحمد ٢٧٠٨٤، والنسائي ٢٦٦٣).

هـ- سؤالهن له عما يرين من حاله أو قوله:

ولم يكن سؤال المرأة للنبي ﷺ قاصرًا على ما يشكل عليها من مسائل عملية، بل إنها حين تسمع منه ﷺ ما يشكل عليها تسأله عن ذلك، وكان ﷺ يستمع لسؤالها ويجيبها.

ومن صور سؤالهن عما يشكل عليهن مما قاله ﷺ ما يلي:

عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «مَن أحب لقاء الله أحب الله لقاءه، ومَن كره لقاء الله كره الله لقاءه» قالت عائشة- أو بعض أزواجه-: إنا لنكره الموت، قال: «ليس ذاك، ولكن المؤمن إذا حضره الموت بُشِّر برضوان الله وكرامته، فليس شيء

أحب إليه مما أمامه، فأحب لقاء الله وأحب الله لقاءه، وإن الكافر إذا حضر بُشِّر بعذاب الله وعقوبته، فليس شيء أكره إليه مما أمامه، كره لقاء الله، وكره الله لقاءه». (أخرجه البخاري ٦٥٠٧).

وأخرجه مسلم (٢٦٨٤)، عن عائشة ﵂ قالت: قال رسول الله ﷺ: «مَن أحب لقاء الله، أحب الله لقاءه، ومَن كره لقاء الله، كره الله لقاءه» فقلت: يا نبي الله، أكراهية الموت؟ فكلنا نكره الموت، فقال: «ليس كذلك، ولكن المؤمن إذا بُشِّر برحمة الله، ورضوانه، وجنته؛ أحب لقاء الله، فأحب الله لقاءه، وإن الكافر إذا بُشِّر بعذاب الله وسخطه؛ كره لقاء الله، وكره الله لقاءه».

وإذا رأينه ﷺ يدعو بدعاء سألنه عن ذلك، فعن عائشة ﵂، أن رسول الله ﷺ كان يكثر أن يقول: «يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك وطاعتك» فقيل له: يا رسول الله- قال عفان: فقالت له عائشة-: إنك تكثر أن تقول: «يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك وطاعتك»، قال: «وما يؤمنِّي؟ وإنما قلوب العباد بين أصبعي الرحمن، إنه إذا أراد أن يقلب قلب عبد قلَّبه» قال عفان: «بين أصبعين من أصابع الله عز وجل». (أخرجه أحمد ٢٦١٣٣).

وأخرجه- أيضًا- أحمد (٢٦٥٧٦) عن أم سلمة قريبًا منه، والترمذي عن شهر بن حوشب عن أم سلمة ٣٥٢٢).

وتسأله عائشة ﵂ عن حال الناس يوم القيامة، حينما أخبر أنهم يحشرون حُفاة عُراة، فعن عائشة ﵂، قالت: قال رسول الله ﷺ: «تحشرون حُفاة عُراة غُرلًا» قالت عائشة: فقلت: يا رسول الله، الرجال والنساء ينظر بعضهم إلى بعض؟ فقال: «الأمر أشد من أن يهمهم ذاك». (أخرجه البخاري ٦٥٢٧، ومسلم ٢٨٥٩).

وكانت المرأة تسأله- أيضًا- عما يشكل عليها في تعامله ﷺ مع الآخرين، عن عائشة رضي الله عنها، أن رجلًا استأذن على النبي ﷺ، فلما رآه قال: «بئس أخو العشيرة، وبئس ابن العشيرة» فلما جلس، تطلَّق النبي ﷺ في وجهه، وانبسط إليه، فلما انطلق الرجل قالت له عائشة: يا رسول الله، حين رأيت الرجل قلت له كذا وكذا، ثم تطلقت في وجهه، وانبسطت إليه، فقال رسول الله ﷺ: «يا عائشة، متى عهدتني فَحَّاشًا، إن شر الناس عند الله منزلة يوم القيامة مَن تركه الناس اتِّقاء شره». (أخرجه البخاري ٦٠٣٢، ومسلم ٢٥٩١).

كما كُنَّ يسألنه رضوان الله عليهن عن أحواله في العبادة، فقد سألته حفصة رضي الله عنها عن عدم إحلاله في الحج، فعن ابن عمر، عن حفصة رضي الله عنهم، أنها قالت: يا رسول الله، ما شأن الناس حلوا بعمرة، ولم تحلل أنت من عمرتك، قال: «إني لبَّدت رأسي، وقلَّدت هديي، فلا أحل حتى أنحر». (أخرجه البخاري ١٥٦٦، ومسلم ١٢٢٩).

وحين رأته أم سلمة رضي الله عنها يصلي في وقت النهي سألته عن ذلك، فعن كريب، أن ابن عباس، والمسور بن مخرمة، وعبد الرحمن بن أزهر رضي الله عنهم، أرسلوه إلى عائشة رضي الله عنها، فقالوا: اقرأ عليها السلام مِنَّا جميعًا، وسلها عن الركعتين بعد صلاة العصر، وقل لها: إنا أُخبرنا عنك أنك تصلينهما، وقد بلغنا أن النبي ﷺ نهى عنها، وقال ابن عباس: وكنت أضرب الناس مع عمر بن الخطاب عنها، فقال كريب: فدخلت على عائشة رضي الله عنها، فبلغتها ما أرسلوني، فقالت: سَلْ أم سلمة، فخرجت إليهم، فأخبرتهم بقولها، فردوني إلى أم سلمة بمثل ما أرسلوني به إلى عائشة، فقالت أم سلمة رضي الله عنها: سمعت النبي ﷺ ينهى عنها، ثم رأيته يصليهما حين صلى العصر، ثم دخل عندي نسوة من بني حرام من الأنصار، فأرسلت إليه الجارية، فقلت: قومي بجنبه فقولي له: تقول لك أم سلمة: يا رسول الله، سمعتك تنهى عن هاتين، وأراك تصليهما، فإن أشار بيده، فاستأخري عنه، ففعلت الجارية، فأشار بيده، فاستأخرت عنه، فلما انصرف قال: «يا بنت أبي أمية، سألت عن الركعتين بعد العصر،

وإنه أتاني ناس من عبد القيس، فشغلوني عن الركعتين اللَّتين بعد الظهر فهما هاتان». (أخرجه البخاري ١٢٣٣، ومسلم ٨٣٤).

ويسألنه رضوان الله عليهن عما يرينه من حاله خلاف الأولى، فقد سألته عائشة ﵂ عن نومه قبل أن يوتر، عن سعيد بن أبي سعيد المقبري، عن أبي سلمة بن عبد الرحمن، أنه أخبره، أنه سأل عائشة ﵂ كيف كانت صلاة رسول الله ﷺ في رمضان؟ فقالت: «ما كان رسول الله ﷺ يزيد في رمضان، ولا في غيره على إحدى عشرة ركعة يصلي أربعًا، فلا تسل عن حسنهن وطولهن، ثم يصلي أربعًا، فلا تسل عن حسنهن وطولهن، ثم يصلي ثلاثًا» قالت عائشة: فقلت يا رسول الله: أتنام قبل أن توتر؟ فقال: «يا عائشة إن عَيْنَيَّ تنامان، ولا ينام قلبي». (أخرجه البخاري ١١٤٧، ومسلم ٧٣٨).

٩- المراجعة:

ولا يقف الأمر في سؤال المرأة للنبي ﷺ عما يشكل أو يلبس، بل يمتد إلى أن يراجعنه ﷺ، فحين تسمع إحداهن منه ﷺ ما تظن أنه يتعارض مع نص أو مبدأ شرعي قد تقرر لديها؛ فإنها تورد عليه ذلك وتراجعه.

فقد راجعته عائشة ﵂ حين سمعت منه ما ترى أنه يتعارض مع نص القرآن، عن ابن أبي مليكة، أن عائشة ﵂ كانت لا تسمع شيئًا لا تعرفه، إلا راجعت فيه حتى تعرفه، وأن النبي ﷺ قال: «مَن حُوسب عُذِّب» قالت عائشة: فقلت: أوليس يقول الله تعالى: ﴿فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا﴾ (الانشقاق: ٨) قالت: فقال: «إنما ذلك العرض، ولكن: مَن نوقش الحساب يهلك». (أخرجه البخاري ١٠٣، ومسلم ٢٨٧٦).

وقد وصف ابن أبي مليكة عائشة ﵂ هنا أن مراجعتها للنبي ﷺ أمر مستقر، فكانت تراجعه في كل ما لا تعرفه.

وراجعته- أيضًا- ﵂ حين حدَّث بحديث الجيش الذي يغزو الكعبة، فعن عائشة ﵂، قالت: قال رسول الله ﷺ: «يغزو جيشٌ الكعبةَ، فإذا كانوا ببيداء من الأرض، يُخسف بأولهم وآخرهم» قالت: قلت: يا رسول الله، كيف يُخسف بأولهم وآخرهم، وفيهم أسواقهم، ومن ليس منهم؟ قال: «يُخسف بأولهم وآخرهم، ثم يُبعثون على نياتهم». (أخرجه البخاري ٢١١٨).

كما راجعته أم سلمة ﵂ في حديث الجيش، فعن عبيد الله ابن القبطية، قال: دخل الحارث بن أبي ربيعة، وعبد الله بن صفوان، وأنا معهما على أم سلمة أم المؤمنين ﵂، فسألاها عن الجيش الذي يُخسف به، وكان ذلك في أيام ابن الزبير، فقالت: قال رسول الله ﷺ: «يعوذ عائذ بالبيت، فيبعث إليه بعث، فإذا كانوا ببيداء من الأرض خُسف بهم» فقلت: يا رسول الله فكيف بمن كان كارهًا؟ قال: «يُخسف به معهم، ولكنه يبعث يوم القيامة على نيته». (أخرجه مسلم ٢٨٨٢).

وراجعته عائشة ﵂ حين أخبر عن تغير حال أمته في آخر الزمان محتجة بالقرآن الكريم، فعن عائشة ﵂، قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لا يذهب الليل والنهار حتى تُعبد اللات والعزى» فقلت: يا رسول الله إن كنت لأظن حين أنزل الله: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُشۡرِكُونَ ﴾ (التوبة: ٣٣) أن ذلك تامًّا قال: «إنه سيكون من ذلك ما شاء الله، ثم يبعث الله ريحًا طيبة، فتوفى كل مَن في قلبه مثقال حبة خردل من إيمان، فيبقى مَن لا خير فيه، فيرجعون إلى دين آبائهم». (أخرجه مسلم ٢٩٠٧).

ولم يكن أمر مراجعته ﷺ خاصًّا بعائشة ﵂، فقد راجعته حفصة ﵂ حين شهد لأهل بيعة الرضوان بدخول الجنة، عن جابر بن عبد الله ﵄، قال: أخبرتني أم مبشر، أنها سمعت النبي ﷺ، يقول عند حفصة: «لا يدخل النار- إن شاء الله- من أصحاب

الشجرة أحد الذين بايعوا تحتها»، قالت: بلى يا رسول الله، فانتهرها، فقالت حفصة: ﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ﴾ (مريم: ٧١) فقال النبي ﷺ: قد قال الله عز وجل: ﴿ ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوا وَّنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ﴾ (مريم: ٧٢). (أخرجه مسلم ٢٤٩٦).

ولعله ﷺ انتهرها؛ لأنها قالت: «بلى» رضي الله عنها، لكنه أجابها بعد ذلك، قال النووي: «فيه دليل للمناظرة، والاعتراض، والجواب على وجه الاسترشاد، وهو مقصود حفصة، لا أنها أرادت رد مقالته ﷺ». (شرح صحيح مسلم ١٦/ ٥٨).

كما راجعته زينب رضي الله عنها حين أخبر عن حال يأجوج ومأجوج، عن أم حبيبة بنت أبي سفيان، عن زينب بنت جحش رضي الله عنهن أن النبي ﷺ دخل عليها فزعًا يقول: «لا إله إلا الله، ويل للعرب من شر قد اقترب، فُتح اليوم من ردم يأجوج ومأجوج مثل هذه»، وحلَّق بإصبعه: الإبهام، والتي تليها، قالت زينب بنت جحش: فقلت: يا رسول الله، أنهلك وفينا الصالحون؟ قال: «نعم، إذا كثر الخبث». (أخرجه البخاري ٣٣٤٦، ومسلم ٢٨٨٠).

وحين نهى ﷺ عن الإسبال راجعته أم سلمة رضي الله عنها في ذلك؛ لأن المرأة تحتاج إطالة ثيابها لتحقيق الستر، ثم راجعته رضي الله عنها مرة أخرى حين أجابها، عن أم سلمة رضي الله عنها، قالت: قلت: يا رسول الله، كيف بالنساء؟ قال: «يرخين شبرًا» قلت: إذن ينكشف عنهن يا رسول الله، قال: «فذراع، لا يزدن عليه». (أخرجه أحمد ٢٦٦٨١، والنسائي ٥٣٣٧، والترمذي ١٧٣١، وابن ماجه ٣٥٨٠، وأبو داود ٤١١٧).

لم يكن ﷺ يقتصر على سماع السؤال منهن، بل كان يتقبل مراجعتهن له، ويسمع لما يوردن من إشكال، فيجيب عليه ﷺ.

إن كلامه ﷺ وحي، وحق مطلق لا يتطرق إليه الخلل، ولا يسوغ الاعتراض عليه فيما يقوله ويفعله ﷺ، ومع ذلك كان صدره ﷺ يتسع لمراجعتهن، ولم تكن المراجعة منهن

اعتراضًا ورَدًّا لكلامه- حاشاهن رضي الله عنهن-، إنما كان سعيًا منهن لإجابة الإشكال، وفهم الأمر.

وكما سبق في الحديث عن السؤال، فإن تعدد حالات المراجعة دليل على ما لمسنه رضوان الله عليهن من قبوله ﷺ واتساع صدره لذلك.

وإذا كان على المربي أن يتسع صدره لسماع ما يورده عليه الطالب من إشكال واعتراض، فالهوى وحظ النفس قد يقود بعض المربين إلى أن يعدَّ ذلك من سوء الأدب، ومن التطاول على مقام الشيخ والأستاذ، وقد يطلب منه بلسان الحال لا بلسان المقال أن يقبل كل ما يسمع دون سؤال أو مناقشة، وهذا لا يليق بالمربي الحصيف.

١٠- استفساره عما يشكل عليه من حالها:

حين يكون الأمر مشكلًا، وظاهره المخالفة؛ فإنه ﷺ يسأل؛ ليعلمهن أحكام الدين، عن عبد الله بن عامر ﷺ، أنه قال: دعتني أمي يومًا، ورسول الله ﷺ قاعد في بيتنا، فقالت: ها، تعال أعطيك، فقال لها رسول الله ﷺ: «وما أردت أن تعطيه؟» قالت: أعطيه تمرًا، فقال لها رسول الله ﷺ: «أما إنك لو لم تعطه شيئًا؛ كُتبت عليك كذبة». (أخرجه أبو داود ٤٩٩١، وأحمد ١٥٧٠٢).

وحين رأى إحداهن قد صامت الجمعة سألها، وبيَّن لها حكم إفراد هذا اليوم بالصيام، عن جويرية بنت الحارث ﷺ، أن النبي ﷺ دخل عليها يوم الجمعة، وهي صائمة، فقال: «أَصُمْتِ أمس؟»، قالت: لا، قال: «تريدين أن تصومي غدًا؟» قالت: لا، قال: «فأفطري». (أخرجه البخاري ١٩٨٦).

عن أم سلمة ﷺ قالت: بينا أنا مع النبي ﷺ، مضطجعة في خميصة، إذ حضت، فانسللت، فأخذت ثياب حيضتي، قال: «أنفستِ» قلت: نعم، فدعاني، فاضطجعت معه في الخميلة. (أخرجه البخاري ٢٩٨، ومسلم ٢٩٦).

١١- أَمْرها بالتعليم:

ويأمر النبي ﷺ المرأة بأن تعلم غيرها، فعن الشفاء بنت عبد الله قالت: دخل عليَّ رسول الله ﷺ، وأنا عند حفصة فقال لي: «ألا تعلِّمين هذه رقية النملة كما علمتيها الكتابة؟». (أخرجه أبو داود ٣٨٨٧، وأحمد ٢٧٠٩٥).

والمرأة داخلة في عموم خطابه ﷺ بالأمر بالتعليم، كما في قوله ﷺ: «بلغوا عني ولو آية». (أخرجه البخاري ٣٤٦١).

وكما في قوله ﷺ «نضَّر الله امرءًا سمع مقالتي». (أخرجه الترمذي ٢٦٥٨، وابن ماجه ٢٣٠، وأحمد ١٦٧٣٨، وأبو داود ٣٦٦٠).

وحديث أبي موسى ﵁: «مَثَل ما بعثني الله به». (أخرجه البخاري ٧٩، ومسلم ٢٢٨٢)، وغيرها من النصوص.

ويتأكد على المربين الاعتناء بهذا الأمر في هذا العصر خاصة؛ حيث أصبحت المرأة مستهدفة بالغزو من الخارج والداخل، ويتضمن ذلك تعزيز دافع التعليم لديها، وتنمية مهاراتها في التعليم، والإلقاء، والإقناع؛ ليكون لها أثر على بني جنسها.

الوسائل والأساليب التربوية

تنوعت الوسائل والأساليب التربوية النبوية، وسبق تناول ذلك مُفصَّلًا فيما سبق.

وكل ما ورد أنه ﷺ كان يستخدمه من وسائل وأساليب فهو يشمل الرجال والنساء كالقصة، والموعظة، والعقوبة... إلخ.

ونتناول هنا بعض ما ورد أنه ﷺ استخدمه من وسائل وأساليب في تربية المرأة بصفة خاصة، وإن كانت الصورة لا تكتمل إلا بالرجوع لما سبق.

١ - إبعادها عن مواطن الفتنة:

جاءت الشريعة ملائمة لحال الإنسان وطبيعته، ومهما بلغ العبد من الإيمان، والتقوى، والصلاح فهو عُرضة للخطأ والمعصية؛ لذا اعتنت الشريعة بسد ذرائع أبواب المعصية، وكلما عظم شأن المعصية، أو قوي الداعي لها؛ صار الاعتناء بسد أبوابها وذرائعها آكد وأعظم.

وكانت فتنة الرجال بالنساء، والنساء بالرجال من أعظم ما يخشاه ﷺ على أمته، كما قال ﷺ: «ما تركت بعدي فتنة أضر على الرجال من النساء». (أخرجه البخاري ٥٠٩٦، ومسلم ٢٧٤٠).

لذا فقد اعتنى ﷺ بسد أبواب هذه الفتنة، وتربية المرأة على البعد عنها.

فكان ﷺ ينهى النساء عن الاختلاط بالرجال، فعن حمزة بن أبي أسيد الأنصاري، عن أبيه رضي الله عنه، أنه سمع رسول الله ﷺ، يقول، وهو خارج من المسجد، فاختلط الرجال مع النساء في الطريق، فقال رسول الله ﷺ للنساء: «استأخرن، فإنه ليس لكن أن تحققن الطريق، عليكن بحافات الطريق» قال: فكانت المرأة تلصق بالجدار حتى إن ثوبها ليتعلق بالجدار من

لصوقها به. (أخرجه أبو داود ٥٢٧٢).

وحين يحتاج الإمام إلى مَن ينبهه في الصلاة، فقد أمر ﷺ الرجال بالتسبيح، بينما أمر النساء بالتصفيق؛ لئَلَّا يسمع صوتها الرجال، ففي حديث سهل بن سعد ﷺ، أنه ﷺ قال: «يا أيها الناس ما لكم حين نابكم شيء في الصلاة، أخذتم في التصفيق، إنما التصفيق للنساء، مَن نابه شيء في صلاته فليقل: سبحان الله، فإنه لا يسمعه أحد حين يقول: سبحان الله إلا التفت». (أخرجه البخاري ١٢٣٤، ومسلم ٤٢١).

ونهى ﷺ المرأة عن أن تسافر دون محرم، فعن ابن عمر رضي الله عنهما، عن النبي ﷺ قال: «لا تسافر المرأة ثلاثًا إلا مع ذي محرم». (أخرجه البخاري ١٠٨٧، ومسلم ٨٢٧).

وعن أبي سعيد الخدري ﷺ قال: أربع سمعتهن من رسول الله ﷺ- أو قال: يحدثهن عن النبي ﷺ -، فأعجبنني وآنقنني: «أن لا تسافر امرأة مسيرة يومين ليس معها زوجها، أو ذو محرم، ولا صوم يومين: الفطر، والأضحى، ولا صلاة بعد صلاتين: بعد العصر حتى تغرب الشمس، وبعد الصبح حتى تطلع الشمس، ولا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد: مسجد الحرام، ومسجدي، ومسجد الأقصى». (أخرجه البخاري ١٨٦٤، ومسلم ٨٢٧).

وربط النبي ﷺ النهي عن ذلك بالإيمان باليوم الآخر تأكيدًا على أهميته، فعن أبي هريرة رضي الله قال: قال النبي ﷺ: «لا يحل لامرأة تؤمن بالله واليوم الآخر أن تسافر مسيرة يوم وليلة ليس معها حُرْمَة». (أخرجه البخاري ١٠٨٨، ومسلم ١٣٣٩).

كما قَرَن النبي ﷺ النهي عن السفر دون محرم بالنهي عن خلوة النساء بالرجال، عن ابن عباس رضي الله عنهما، قال: قال النبي ﷺ: «لا تسافر المرأة إلا مع ذي محرم، ولا يدخل عليها رجل إلا ومعها محرم»، فقال رجل: يا رسول الله إني أريد أن أخرج في جيش كذا وكذا،

وامرأتي تريد الحج، فقال: «اخرج معها». (أخرجه البخاري ١٨٦٢، ومسلم ١٣٤١).

ورغم أهمية متابعة الإمام، إلا أن النبي ﷺ أمر النساء بالتأخر بعد الرفع من السجود؛ لئلَّا يرين عورات الرجال، عن سهل بن سعد ﵁، قال: كان رجال يصلون مع النبي ﷺ عاقدي أزرهم على أعناقهم، كهيئة الصبيان، ويُقال للنساء: «لا ترفعن رؤوسكن حتى يستوي الرجال جلوسًا». (أخرجه البخاري ٣٦٢، ومسلم ٤٤١).

وأخرجه أبو داود (٨٥١)، وأحمد (٢٦٩٤٧) من حديث أسماء بنت أبي بكر ﵄، وفيه التأكيد على ذلك، وربطه بالإيمان باليوم الآخر، وفيه- أيضًا- التصريح بالعلة، عن أسماء بنت أبي بكر ﵂ قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «مَن كان منكن يؤمن بالله واليوم الآخر، فلا ترفع رأسها حتى يرفع الرجال رؤوسهم؛ كراهية أن يرين من عورات الرجال».

إنه يتأكد في تربية المرأة تعزيز جانب البعد عن مواطن الفتنة، وأن تُحذَّر من كل ما قد يلفت أنظار الرجل إليها، أو يغري بالسوء.

وثمَّة اعتناء عالٍ اليوم من الدعاة رجالًا ونساءًا في التحذير من مظاهر إغراء المرأة للرجل، وبخاصة فيما يتصل باللباس، والاختلاط بالرجال، ونحوه، ويعتني الدعاة بالتحذير من كثير من مظاهر اللباس المخالفة، وبخاصة مع تنوعها وشيوعها، ومع الحاجة لبيان المخالفات، والتحذير منها، إلا أن الدور الأهم ينبغي أن يتمثل في التربية على الحشمة، وتأصيل هذا المعنى في نفوس الفتيات، وأن يتحول الخطاب المتعلق بالحشمة من التركيز على المحاذير، وتعداد الصور المخالفة إلى تأسيس قيمة الاحتشام، والخطاب الإيجابي الذي يركز على فضيلة الحشمة والستر، وأنها مما يعلي من قيمة المرأة، إن هذه التربية هي التي تنمي الدافع الشرعي للاحتشام، وتقوى الوازع الداخلي، وتؤسس لعقلية ناقدة لكل الصور الوافدة المخالفة، دون الحاجة للحديث عن كل صورة جديدة

مخالفة، والتحذير منها.

وقد نهى ﷺ المرأة عن ارتياد المواطن التي لا تليق بالمرأة، ومنها الحمامات؛ لما تحويه من نزع للباس المرأة في غير بيتها، وتهوين أمر الستر والفضيلة.

عن عمر بن الخطاب ﷺ قال: يا أيها الناس، إني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «مَن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يقعدن على مائدة يُدار عليها الخمر، ومَن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يدخل الحمام إلا بإزار، ومَن كانت تؤمن بالله واليوم الآخر فلا تدخل الحمام». (أخرجه أحمد ١٢٦).

وعن سبيعة الأسلمية، قالت: دخل على عائشةَ نسوةٌ من أهل الشام، فقالت عائشة ﵂: ممن أنتن؟ فقلن: من أهل حمص، فقالت: صواحب الحمامات، فقلن: نعم، قالت عائشة ﵂: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «الحمام حرام على نساء أمتي». (أخرجه الحاكم ٧٨٦٥).

٢- التذكير باليوم الآخر:

من وسائل الخطاب النبوي للمرأة: تذكيرها بالإيمان باليوم الآخر، وشواهد ذلك عديدة، وقد سبقت الإشارة إليها في عدد من المواضع.

ومن ذلك: النهي عن السفر دون محرم (البخاري ١٠٨٨)، والنهي عن الإحداد على غير الزوج فوق ثلاث (البخاري ١٢٨٠)، ودخول الحمام (أحمد ١٢٥).

٣- التأكيد على خلق الحياء:

المرأة مجبولة على الحياء، حتى صار المثل يضرب بها في ذلك، فوُصف ﷺ بأنه: أشد حياء من العذراء في خِدْرِها.

وقد اعتنى ﷺ بتعزيز هذا الخلق وتأكيده لدى المرأة، حتى ظهر أثر ذلك على أحكام النكاح، فاكتفى من المرأة البِكر بالسكوت للتعبير عن رضاها بقبول الزوج.

عن عائشة ﵂ قالت: قال رسول الله ﷺ: «البكر تُسْتأذن» قلت: إن البكر تستحيي، قال: «إذنها صماتها». (أخرجه البخاري ٦٩٧١، ومسلم ١٤٢٠).

وعن ابن عباس ﵄، أن النبي ﷺ قال: «الأَيِّمُ أحق بنفسها من وليها، والبكر تُستأذن في نفسها، وإذنها صماتها». (أخرجه مسلم ١٤٢١).

٤- الموعظة:

الموعظة تحرك القلوب، وتستثير الوجدان، وقد وصف الله عز وجل كتابه بأنه موعظة فقال سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ (يونس: ٥٧).

وسبق الحديث مُفَصَّلًا عن منهجه ﷺ في التربية بالموعظة، وما ذكر هناك يشمل الرجال والنساء، ونورد هنا بعض المواقف التي كان ﷺ يستخدم فيها الموعظة في تربية المرأة وتوجيهها.

أولًا: الوعظ العام:

كان ﷺ يعِظ النساء في المجامع العامة، سواء ما يسمعنه منه بالاشتراك مع الرجال، أو في حديثه الخاص لهن، كما جاء في خطبتيه ﷺ العيد، وفيه: «وتوجَّه إلى النساء، ووعظهن»، وقد سبقت الإشارة للنصوص المتعلقة بذلك عند الحديث عن تعليم المرأة.

ثانيًا: الوعظ الفردي:

وربما وعظ النبي ﷺ المرأة بصورة فردية، إما أن يكون ذلك ابتداءً، كما فعل مع عائشة

﵂، فقد وعظها محذرًا لها من محقرات الذنوب؛ فعن عائشة ﵂، أن رسول الله ﷺ قال: «يا عائشة، إياكِ ومحقرات الذنوب؛ فإن لها من الله عز وجل طالبًا». (أخرجه أحمد ٢٤٤١٥، وابن ماجه ٤٢٤٣).

وقد يكون وعظه الفردي للمرأة حين يرى عليها ما يستوجب ذلك من وقوع في محظور، أو تقصير في طاعة، عن عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جده ﵁، أن امرأة أتت رسول الله ﷺ ومعها ابنة لها، وفي يد ابنتها مَسَكَتَانِ غليظتان من ذهب، فقال لها: «أتعطين زكاة هذا؟»، قالت: لا، قال: «أيسرك أن يُسَوِّرُكِ الله بهما يوم القيامة سِوارين من نار؟»، قال: فخلعتهما، فألقتهما إلى النبي ﷺ، وقالت: هما لله عز وجل، ولرسوله. (أخرجه أبو داود ١٥٦٣، والنسائي ٢٤٧٩).

وتكرر ذلك مع أم المؤمنين عائشة ﵂، فعن عبد الله بن شداد بن الهاد، أنه قال: دخلنا على عائشة زوج النبي ﷺ، فقالت: دخل عليَّ رسول الله ﷺ، فرأى في يدي فتخات من ورق، فقال: «ما هذا يا عائشة؟»، فقلت: صنعتهن أتزين لك يا رسول الله، قال: «أتؤدين زكاتهن؟»، قلت: لا، أو ما شاء الله، قال: «هو حسبك من النار». (أخرجه أبو داود ١٥٦٥).

ولا غِنى للنفس البشرية عن الموعظة، وتنوعها ما بين موعظة جماعية توجه في خطاب عام، وموعظة فردية حين يقتضي المقام ذلك.

والمواعظ النبوية ليست قاصرة على حالات ظهور الخطأ والتقصير، بل قد تكون ابتداءً ومبادرة، وهكذا فالمرأة كالرجل لا غنى لها عن الموعظة بين حين وآخر.

وكما سبق عند الحديث عن الموعظة، فلا بد من مراعاة الضوابط في ذلك، ومن أهمها: الاعتدال فلا تقود إلى التيئيس من رحمة الله ومغفرته، وألا تكثر فتُملَّ، بل تكون تخوُّلًا،

كما كان ﷺ يتخول أصحابه بالموعظة.

ويتأكد الاعتناء بالاعتدال في الموعظة فيما يتصل بتربية المرأة وتوجيهها؛ إذ تكثر حالات المبالغة في الخطاب الوعظي الموجه للمرأة، وكل شيء ينبغي أن يكون بقدر واعتدال.

٦- الثناء والتبشير:

ومن وسائل التربية النبوية للمرأة: الثناء والتبشير، فالإنسان كما يحتاج إلى التنبيه على الخطأ والتقصير يحتاج إلى الثناء في مواقف الإحسان والإجادة، وسبق الحديث مُفَصَّلًا عن الثناء النبوي، وما قيل هناك يشمل المرأة والرجل.

ونورد هنا بعض الشواهد المتعلقة بالثناء النبوي على المرأة.

أثنى ﷺ على خديجة رضي الله عنها، وأخبر أنها خير النساء، فعن عليٍّ رضي الله عنه، قال: سمعت النبي ﷺ، يقول: «خير نسائها مريم ابنة عمران، وخير نسائها خديجة». (أخرجه البخاري ٣٤٣٢، ومسلم ٢٤٣٠).

وأثنى ﷺ على عائشة رضي الله عنها، فعن أبي موسى رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «كَمُلَ من الرجال كثير، ولم يكمل من النساء إلا: آسية امرأة فرعون، ومريم بنت عمران، وإن فضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام». (أخرجه البخاري ٣٤١١، ومسلم ٢٤٣١).

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «فضل عائشة على النساء، كفضل الثريد على سائر الطعام». (أخرجه البخاري ٣٧٧٠، ومسلم ٢٤٤٦).

وأثنى ﷺ على خديجة، وفاطمة رضي الله عنهما، وقرنهما بمريم ابنت عمران وآسية، عن أنس

ﷺ، أن النبي ﷺ قال: «حسبك من نساء العالمين: مريم ابنة عمران، وخديجة بنت خويلد، وفاطمة ابنة محمد، وآسية امرأة فرعون». (أخرجه أحمد ١٢٣٩١، والترمذي ٣٨٧٨).

وأثنى ﷺ على نساء قريش، فعن أبي هريرة ﷺ قال: سمعت رسول الله ﷺ، يقول: «نساء قريش خير نساء ركبن الإبل، أحناه على طفل، وأرعاه على زوج في ذات يده». (أخرجه البخاري ٣٤٣٤، ومسلم ٢٥٢٧).

وأثنى ﷺ على نساء الأنصار رضوان الله عليهن، فعن أنس بن مالك ﷺ، قال: جاءت امرأة من الأنصار إلى النبي ﷺ فخلا بها[1]، فقال: «والله إنكن لأحب الناس إليَّ». (أخرجه البخاري ٥٢٣٤، ومسلم ٢٥٠٩).

ويثني ﷺ على المرأة، ويذكرها بفضائلها تطييبًا لخاطرها، وإزالة لما قد لحق بها من هم، كما فعل ﷺ مع أم المؤمنين صفية ﷺ، فعن أنس ﷺ، قال: بلغ صفيةَ أن حفصة، قالت: بنت يهودي، فبكت، فدخل عليها النبي ﷺ وهي تبكي، فقال: «ما يبكيك»؟ فقالت: قالت لي حفصة: إني بنت يهودي، فقال النبي ﷺ: «وإنك لابنة نبي، وإن عمك لنبي، وإنك لتحت نبي، ففيم تفخر عليك؟» ثم قال: «اتَّقِي الله يا حفصة». (أخرجه الترمذي ٣٨٩٤، وأحمد ١٢٣٩٢).

ومما يلحق بالثناء: تبشير المرأة بوعد الله عز وجل، فبشَّر ﷺ طائفة من النساء بنعيم الجنة، فبشر زوجته خديجة ﷺ ببيت في الجنة من قصب، لا صخب فيه، ولا نصب، فعن عائشة ﷺ، قالت: «ما غرت على امرأة للنبي ﷺ، ما غرت على خديجة، هلكت قبل أن يتزوجني، لما كنت أسمعه يذكرها، وأمره الله أن يبشرها ببيت من قصب، وإن كان ليذبح الشاة فيُهدي في خلائلها منها ما يسعهن». (أخرجه البخاري ٣٨١٦، ومسلم ٢٤٣٥).

---

(١) قال النووي: « هذه المرأة إما محرم له كأم سليم وأختها، وإما المراد بالخلوة أنها سألته سؤالاً خفيًّا بحضرة ناس، ولم تكن خلوة مطلقة، وهي الخلوة المنهي عنها » (شرح صحيح مسلم ١٦/٦٨).

وعن عبد الله بن أبي أوفى رضي الله عنهما، «بشَّر النبي ﷺ خديجة؟» قال: نعم، «ببيت من قصب، لا صخب فيه، ولا نصب». (أخرجه البخاري ٣٨١٩، ومسلم ٢٤٣٣).

وفي لفظ مسلم: «أكان رسول الله ﷺ بشَّر خديجة ببيت في الجنة؟...».

وقد ورد أن جبريل عليه السلام أمره بذلك، وأقرأها السلام منه، ومن الله عز وجل، عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: «أتى جبريل النبي ﷺ، فقال: يا رسول الله: هذه خديجة قد أتت معها إناء فيه إدام، أو طعام، أو شراب، فإذا هي أتتك، فاقرأ عليها السلام من ربها، ومنِّي، وبشِّرها ببيت في الجنة من قصب، لا صخب فيه ولا نصب». (أخرجه البخاري ٣٨٢٠، ومسلم ٢٤٣٢).

وبشَّر ﷺ ابنته فاطمة رضي الله عنها بأنها سيدة نساء المؤمنين، أو سيدة الأمة، فعن عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها، قالت: إنا كُنَّا- أزواج النبي- ﷺ عنده جميعًا، لم تغادر منا واحدة، فأقبلت فاطمة عليها السلام تمشي، لا والله ما تخفى مشيتها من مشية رسول الله ﷺ، فلما رآها رحب، قال: «مرحبًا بابنتي»، ثم أجلسها عن يمينه، أو عن شماله، ثم سارَّها، فبكت بكاءً شديدًا، فلما رأى حزنها، سارَّها الثانية، فإذا هي تضحك، فقلت لها- أنا من بين نسائه-: خصكِ رسول الله ﷺ بالسِّرِّ من بيننا، ثم أنت تبكين، فلما قام رسول الله ﷺ سألتها: عما سارَّك؟ قالت: ما كنت لأفشي على رسول الله ﷺ سره، فلما توفي، قلت لها: عزمت عليك بما لي عليك من الحق لما أخبرتني، قالت: أما الآن فنعم، فأخبرتني، قالت: أما حين سارَّني في الأمر الأول، فإنه أخبرني: «أن جبريل كان يعارضه بالقرآن كل سنة مرة، وإنه قد عارضني به العام مرتين، ولا أرى الأجل إلا قد اقترب، فاتقي الله واصبري؛ فإني نعم السلف أنا لك» قالت: فبكيت بكائي الذي رأيت، فلما رأى جزعي سارَّني الثانية، قال: «يا فاطمة، ألا ترضين أن تكوني سيدة نساء المؤمنين، أو سيدة نساء هذه الأمة؟». (أخرجه البخاري ٦٢٨٥، ومسلم ٢٤٥٠).

وأخبر ﷺ أنه رأى الرُّمَيْصَاء ﵁ في الجنة، عن جابر بن عبد الله ﵄، قال: قال النبي ﷺ: «رأيتني دخلت الجنة، فإذا أنا بالرُّمَيْصَاء، امرأة أبي طلحة، وسمعت خشفة، فقلت: من هذا؟ فقال: هذا بلال، ورأيت قصرًا بفنائه جارية، فقلت: لمن هذا؟ فقال: لعمر، فأردت أن أدخله فأنظر إليه، فذكرت غيرتك» فقال عمر: بأبي وأمي يا رسول الله أعليك أغار؟ (أخرجه البخاري ٣٦٧٩، ومسلم ٢٤٥٦).

وبشَّر ﷺ أم حرام بنت ملحان بأن تكون ممن يغزون في البحر، عن إسحاق بن عبد الله بن أبي طلحة عن أنس بن مالك ﵁، أنه سمعه يقول: كان رسول الله ﷺ يدخل على أم حرام بنت ملحان فتطعمه- وكانت أم حرام تحت عبادة بن الصامت-، فدخل عليها رسول الله ﷺ، فأطعمته، وجعلت تفلي رأسه، فنام رسول الله ﷺ، ثم استيقظ وهو يضحك، قالت: فقلت: وما يضحكك يا رسول الله؟ قال: «ناس من أمتي عرضوا عليَّ غزاة في سبيل الله، يركبون ثبج هذا البحر ملوكًا على الأسرة، أو: مثل الملوك على الأسرَّة»، شك إسحاق، قالت: فقلت: يا رسول الله، ادعُ الله أن يجعلني منهم، فدعا لها رسول الله ﷺ، ثم وضع رأسه، ثم استيقظ وهو يضحك، فقلت: وما يضحكك يا رسول الله؟ قال: «ناس من أمتي عرضوا عليَّ غزاة في سبيل الله»- كما قال في الأول- قالت: فقلت: يا رسول الله ادعُ الله أن يجعلني منهم، قال: «أنت من الأولين»، فركبت البحر في زمان معاوية بن أبي سفيان، فصرعت عن دابتها حين خرجت من البحر، فهلكت. (أخرجه البخاري ٢٧٨٨، ومسلم ١٩١٢).

المشاركة العملية

لا يقف الأمر في التربية النبوية للمرأة عند بناء الشعور بالمسؤولية، بل يعقب ذلك بإتاحة الفرصة للمشاركة العملية، فلها أثرها الفاعل في تربية المرأة.

لذا فقد كان للمرأة حضور فاعل في عهده ﷺ، ومشاركة عملية في القضايا العامة للمسلمين، وليس المقام هنا مقام تأصيل حدود مشاركة المرأة، ومقام استقصاء واقع مشاركتها في عهد النبي ﷺ، إنما بيان دور ذلك في تربية المرأة وتكوينها.

إن معاني التدين الصادق لا تُبنى بصورة فاعلة إلا من خلال المشاركة العملية، والتفاعل مع مواقف الحياة، والتربية من خلال المشاركة العملية تعزز الولاء للدين وأهله، وتنمي لدى صاحبها المهارات العملية التي تعينه على أداء الأدوار الدعوية، والإصلاحية، والاجتماعية.

وقد تنوعت مجالات المشاركة العملية للمرأة لتستوعب المشاركات الفردية، وتصل إلى المشاركة العملية في القضايا الكبرى، وفي الصراع مع الأعداء.

وفيما يلي بعض جوانب المشاركة العملية:

١- الإسهام في مصالح المسلمين العامة:

أتاح النبي ﷺ للمرأة أن تسهم في المصالح العامة للمسلمين، ومن صور ذلك: مشاركتها في بناء منبره الذي كان يخطب عليه ﷺ، وتوظيفها لما تملكه في خدمة مصالح المسلمين.

عن أبي حازم قال: أتى رجال إلى سهل بن سعد ﷺ يسألونه عن المنبر، فقال: بعث رسول الله ﷺ إلى فلانة- امرأة قد سماها سهل-: «أن مُرِي غلامك النجار، يعمل لي

أعوادًا، أجلس عليهن إذا كلَّمت الناس»، فأمرته يعملها من طرفاء الغابة، ثم جاء بها، فأرسلت إلى رسول الله ﷺ بها، فأمر بها فوُضعت، فجلس عليه. (أخرجه البخاري ٢٠٩٤، ومسلم ٥٤٤).

إن الأمر يتجاوز مجرد صناعة منبر، فهو إتاحة مجال للمرأة؛ لينمو لديها حسُّ المسؤولية والمشاركة، ولتسهم بما تستطيع، وبما هو في حدود إمكاناتها، فقد شاركت في هذه المهمة من خلال غلامها النجَّار.

كما أن إتاحة مثل هذه الفرص له أثره على صاحبته في شعورها بالرضا الداخلي عن مساهمتها ومشاركتها، فالإحسان والبذل له أثره في جلب السعادة لصاحبه.

قال السعدي: «ومن الأسباب التي تزيل الهم، والغم، والقلق: الإحسان إلى الخلق بالقول، والفعل، وأنواع المعروف، وكلها خير وإحسان، وبها يدفع الله عن البر والفاجر الهموم والغموم بحسبها، ولكن للمؤمن منها أكمل الحظ والنصيب، ويتميز بأن إحسانه صادر عن إخلاص واحتساب لثوابه فيهون الله عليه بذل المعروف لما يرجوه من الخير، ويدفع عنه المكاره بإخلاصه واحتسابه، قال تعالى: ﴿لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ (النساء: ١١٤)، فأخبر تعالى أن هذه الأمور كلها خير ممن صدرت منه، والخير يجلب الخير، ويدفع الشر، وأن المؤمن المحتسب يؤتيه الله أجرًا عظيمًا، ومن جملة الأجر العظيم: زوال الهم، والغم، والأكدار، ونحوها». (الوسائل المفيدة للحياة السعيدة، ١٧ - ١٨).

٢- المشاركة في بيعة العقبة:

كانت بيعة العقبة الأولى بداية لدخول الدعوة إلى المدينة، والعقبة الثانية بداية تحول

في أحداث السيرة، فهي التي مهدت للهجرة، وانتقال المسلمين إلى مرحلة الدولة، وبدء الجهاد في سبيل الله عز وجل.

وقد شارك في هذه البيعة امرأتان من الأنصار ﭫ، روى ابن إسحاق بإسناده إلى كعب بن مالك ﭬ، أنه قال: «ثم خرجنا إلى الحج، وواعدنا رسول الله ﷺ بالعقبة من أوسط أيام التشريق، قال: فلما فرغنا من الحج، وكانت الليلة التي واعدنا رسول الله ﷺ لها، ومعنا عبد الله بن عمرو بن حرام أبو جابر، سيد من ساداتنا، وشريف من أشرافنا، أخذناه معنا، وكُنَّا نكتم من معنا من قومنا من المشركين أمرنا، فكلمناه، وقلنا له: يا أبا جابر، إنك سيد من ساداتنا، وشريف من أشرافنا، وإنا نرغب بك عما أنت فيه أن تكون حطبًا للنار غدًا، ثم دعوناه إلى الإسلام، وأخبرناه بميعاد رسول الله ﷺ إيانا العقبة، قال: فأسلم، وشهد معنا العقبة، وكان نقيبًا.

قال: فنمنا تلك الليلة مع قومنا في رحالنا، حتى إذا مضى ثلث الليل خرجنا من رحالنا لميعاد رسول الله ﷺ، نتسلل تسلل القطا مستخفين، حتى اجتمعنا في الشِّعب عند العقبة، ونحن ثلاثة وسبعون رجلًا، ومعنا امرأتان من نسائنا: نسيبة بنت كعب، أم عمارة، إحدى نساء بني مازن بن النجار، وأسماء بنت عمرو بن عدي بن نابي، إحدى نساء بني سلمة، وهي أم منيع». (سيرة ابن هشام ١/ ٤٤٠-٤٤١).

٣- المشاركة في الهجرة:

مثَّلت الهجرة الخطوات الأولى لتحرك المسلمين خارج مكة، إما حفاظًا على دينهم، أو لتهيئة بيئة جديدة للدعوة والانطلاق.

وبدأ ذلك بالهجرة إلى الحبشة، فأذن النبي ﷺ لأصحابه رجالًا ونساءً في أن يهاجروا للحبشة.

وكان ممن هاجر إلى الحبشة: ابنة رسول الله ﷺ رقية ﵂ مع زوجها عثمان، وأم المؤمنين أم حبيبة بنت أبي سفيان ﵂، وأم المؤمنين أم سلمة ﵂، وسهلة بنت سهيل بن عمرو، وأسماء بنت عميس، وفاطمة بنت صفوان بن أمية، وأمينة بنت خلف، وكُنَّ جميعًا مع أزواجهن ﵃ أجمعين.

ثم جاءت الهجرة إلى المدينة، وهاجرت نساء المسلمين مع رسول الله ﷺ.

وخصَّ الله عز وجل المهاجرات بحكم ليس لغيرهن، وذلك بالزواج من رسول الله ﷺ فقال سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَحۡلَلۡنَا لَكَ أَزۡوَٰجَكَ ٱلَّٰتِيٓ ءَاتَيۡتَ أُجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتۡ يَمِينُكَ مِمَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَيۡكَ وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّٰتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَٰلَٰتِكَ ٱلَّٰتِي هَاجَرۡنَ مَعَكَ وَٱمۡرَأَةٗ مُّؤۡمِنَةً إِن وَهَبَتۡ نَفۡسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنۡ أَرَادَ ٱلنَّبِيُّ أَن يَسۡتَنكِحَهَا خَالِصَةٗ لَّكَ مِن دُونِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۗ قَدۡ عَلِمۡنَا مَا فَرَضۡنَا عَلَيۡهِمۡ فِيٓ أَزۡوَٰجِهِمۡ وَمَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُمۡ لِكَيۡلَا يَكُونَ عَلَيۡكَ حَرَجٞۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمٗا﴾ (الأحزاب: ٥٠).

وفي الهجرة المدَنيَّة أتاح النبي ﷺ للمرأة أن تشارك عمليًا في ترتيب أمر هجرته ﷺ، كما تحكي عائشة ﵂ ذلك.

عن عائشة ﵂ قالت: لم أعقل أبويَّ قطُّ، إلا وهما يدينان الدين، ولم يمرَّ علينا يوم إلا يأتينا فيه رسول الله ﷺ طرفي النهار، بكرة وعشية..... الحديث، وفيه قالت عائشة: فبينما نحن يومًا جلوس في بيت أبي بكر في نحر الظهيرة، قال قائل لأبي بكر: هذا رسول الله ﷺ متقنعًا، في ساعة لم يكن يأتينا فيها، فقال أبو بكر: فداء له أبي وأمي، والله ما جاء به في هذه الساعة إلا أمر، قالت: فجاء رسول الله ﷺ فاستأذن، فأذن له فدخل، فقال النبي ﷺ لأبي بكر: «أَخْرِج مَن عندك»، فقال أبو بكر: إنما هم أهلك، بأبي أنت يا رسول الله، قال: «فإني قد أُذن لي في الخروج» فقال أبو بكر: الصحابة، بأبي أنت يا رسول الله؟ قال رسول الله ﷺ: «نعم» قال أبو بكر: فخذ- بأبي أنت يا رسول الله- إحدى راحلتي هاتين، قال

رسول الله ﷺ: «بالثَّمَن»، قالت عائشة: فجهزناهما أحث الجهاز، وصنعنا لهما سفرة في جراب، فقطعت أسماء بنت أبي بكر قطعة من نطاقها، فربطت به على فم الجراب، فبذلك سميت ذات النطاق...». (أخرجه البخاري ٣٩٠٥).

٤- المشاركة في الجهاد في سبيل الله:

أتاح النبي ﷺ للمرأة أن تشارك في الجهاد في سبيل الله عز وجل، وتمثَّلت مشاركة المرأة في الجهاد في عدد من الصور:

الصورة الأولى: دعم المجاهدين ومساندتهم، أو ما يُسمَّى في العصر الحاضر بالخدمات اللوجستية.

ومن ذلك: ما كان في غزوة أحد، عن أنس ﷺ، قال: «لما كان يوم أُحُد، انهزم الناس عن النبي ﷺ، قال: ولقد رأيت عائشة بنت أبي بكر، وأم سليم، وإنهما لمشمرتان، أرى خَدَمَ سوقهما تَنْقُزَان القِرَب، وقال غيره: تنقلان القرب على متونهما، ثم تفرغانه في أفواه القوم، ثم ترجعان فتملآنها، ثم تجيئان، فتفرغانها في أفواه القوم». (أخرجه البخاري ٢٨٨٠، ومسلم ١٨١١)، وبوَّب عليه البخاري: (باب غزو النساء، وقتالهن مع الرجال).

وعن ثعلبة بن أبي مالك، أن عمر بن الخطاب ﷺ قسَّم مروطًا بين نساء من نساء المدينة، فبقي مرطٌ جيد، فقال له بعض من عنده: يا أمير المؤمنين، أعط هذا ابنة رسول الله ﷺ التي عندك، يريدون أم كلثوم بنت عليٍّ، فقال عمر: «أم سليط أحق، وأم سليط من نساء الأنصار، ممن بايع رسول الله ﷺ» قال عمر: «فإنها كانت تزفر لنا القِرَب يوم أُحُد». (أخرجه البخاري ٢٨٨١).

وعن الربيع بنت معوذ ﷺ، قالت: «كُنَّا مع النبي ﷺ نسقي، ونداوي الجرحى، ونرد القتلى إلى المدينة». (أخرجه البخاري ٢٨٨٢).

وفي غزوة الخندق أطعمت امرأةُ جابر ﷺ رسولَ الله ﷺ ومَن معه، عن جابر بن عبد الله ﷺ قال: لما حُفِر الخندق، رأيت بالنبي ﷺ خمصًا شديدًا، فانكفأت إلى امرأتي، فقلت: هل عندك شيء؟ فإني رأيت برسول الله ﷺ خمصًا شديدًا، فأخرجت إليَّ جرابًا فيه صاع من شعير، ولنا بهيمة داجن فذبحتها، وطحنت الشعير، ففرغت إلى فراغي، وقطعتها في بُرْمَتِهَا، ثم ولَّيْت إلى رسول الله ﷺ، فقالت: لا تفضحني برسول الله ﷺ وبمَن معه، فجئته فساررْته، فقلت: يا رسول الله ذبحنا بهيمة لنا، وطحنَّا صاعًا من شعير كان عندنا، فتعال أنت ونفر معك، فصاح النبي ﷺ فقال: «يا أهل الخندق، إن جابرًا قد صنع سُورًا[1]، فحيَّ هلا بهلكم» فقال رسول الله ﷺ: «لا تنزلن برمتكم، ولا تخبزن عجينكم حتى أجيء»، فجئت، وجاء رسول الله ﷺ يقدم الناس حتى جئت امرأتي، فقالت: بك وبك، فقلت: قد فعلت الذي قلت، فأخرجت له عجينًا، فبصق فيه وبارك، ثم عمد إلى بُرْمَتِنَا فبصق وبارك، ثم قال: «ادعُ خابزة فلتخبز معي، واقدحي من بُرْمَتِكُم، ولا تنزلوها»، وهم ألف، فأقسم بالله لقد أكلوا حتى تركوه وانحرفوا، وإن بُرْمَتَنَا لتغط كما هي، وإن عجيننا ليخبز كما هو. (أخرجه البخاري ٤١٠٢، ومسلم ٢٠٣٩).

الصورة الثانية: دفع أبنائهن للمشاركة مع المسلمين في الجهاد، ومما حفظته كتب السيرة موقف عفراء بنت عبيد بن ثعلبة بن سواد بن غنم، بايعت في العقبة، وهي والدة معاذ، ومعوذ، وعوف بني الحارث، يقال لكل منهم: ابن عفراء، قال ابن حجر: «وعفراء هذه لها خصِّيصة لا توجد لغيرها، وهي أنها تزوَّجت بعد الحارث البكير بن يا ليل الليثي، فولدت له أربعة: إياسًا، وعاقلًا، وخالدًا، وعامرًا، وكلُّهم شهدوا بدرًا، وكذلك إخوتهم لأمهم بنو الحارث، فانتظم من هذا أنها امرأة صحابية لها سبعة أولاد، شهدوا كلهم بدرًا مع النبي ﷺ». (الإصابة في تمييز الصحابة ٨/ ٢٤٠).

(١) قال النووي: «السور فبضم السين وإسكان الواو غير مهموز، وهو الطعام الذي يدعى إليه، وقيل الطعام مطلقًا، وهي لفظة فارسية». (شرح صحيح مسلم ١٣/ ٢١٦).

ويروي عبد الرحمن بن عوف ﷺ موقفه في بدر مع معاذ، ومعوذ ابني عفراء، فيقول: «إني لفي الصف يوم بدر إذ التفتُّ، فإذا عن يميني، وعن يساري فتيان حديثا السن، فكأني لم آمن بمكانهما، إذ قال لي أحدهما- سرًّا من صاحبه-: يا عمِّ أرني أبا جهل، فقلت: يا ابن أخي، وما تصنع به؟ قال: عاهدت اللهَ إن رأيته أن أقتله، أو أموت دونه، فقال لي الآخر- سرًّا من صاحبه- مثلَه، قال: فما سرني أني بين رجلين مكانهما، فأشرت لهما إليه، فشدا عليه مثل الصقرين حتى ضرباه، وهما ابنا عفراء». (أخرجه البخاري ٣٩٨٨).

تحميل المسؤولية

يُحمِّل النبي ﷺ المرأة المسؤولية عن نفسها، ويبدأ ﷺ بقريباته مُبيِّنًا لهم أن قرابتهم من رسول الله ﷺ ليست هي التي ستنجيهم، عن أبي هريرة ﷺ، أن النبي ﷺ، قال: «يا بني عبد مناف، اشتروا أنفسكم من الله، يا بني عبد المطلب، اشتروا أنفسكم من الله، يا أم الزبير بن العوام، عمة رسول الله، يا فاطمة بنت محمد، اشتريا أنفسكما من الله، لا أملك لكما من الله شيئًا، سلاني من مالي ما شئتما». (أخرجه البخاري ٣٥٢٧، ومسلم ٢٠٤).

وخاطب ﷺ ابنته فاطمة مُبيِّنًا لها أن من حقها سؤاله من المال، أما النجاة يوم القيامة فمدارها على العمل الصالح، عن أبي هريرة ﷺ، قال: قام رسول الله ﷺ حين أنزل الله عز وجل: ﴿وَأَنذِرۡ عَشِيرَتَكَ ٱلۡأَقۡرَبِينَ﴾ (الشعراء: ٢١٤)، قال: «يا معشر قريش- أو كلمة نحوها- اشتروا أنفسكم، لا أُغني عنكم من الله شيئًا، يا بني عبد مناف، لا أُغني عنكم من الله شيئًا، يا عباس بن عبد المطلب، لا أُغني عنك من الله شيئًا، ويا صفية عمة رسول الله، لا أُغني عنك من الله شيئًا، ويا فاطمة بنت محمد، سليني ما شئت من مالي، لا أُغني عنك من الله شيئًا». (أخرجه البخاري ٢٧٥٣، ومسلم ٢٠٦).

ويُحمِّل النبي ﷺ المرأة المسؤولية في بيت زوجها وولده، فعن عبد الله ﷺ، أن رسول الله ﷺ قال: «كلكم راعٍ، فمسئول عن رعيته، فالأمير الذي على الناس راعٍ، وهو مسئول عنهم، والرجل راع على أهل بيته، وهو مسئول عنهم، والمرأة راعية على بيت بعلها وولده، وهي مسئولة عنهم، والعبد راعٍ على مال سيِّده، وهو مسئول عنه، ألا فكلكم راعٍ، وكلكم مسئول عن رعيته». (أخرجه البخاري ٢٥٥٤، ومسلم ١٨٢٩).

عقوبة المرأة

العقوبة تؤدي وظيفة مهمة في ضبط السلوك البشري، فكما أن الثواب والثناء يدفع الإنسان إلى العمل والبذل، فإن العقوبة تحجزه وتمنعه عن التقصير في أداء الواجب، أو الجرأة في الوقوع في المحظور.

وقد نص القرآن الكريم على استخدام العقوبة في تربية المرأة، وتهذيب سلوكها، فقال سبحانه- في حق مَن تتمرَّد على طاعة زوجها-: ﴿وَٱلَّٰتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَٱهْجُرُوهُنَّ فِي ٱلْمَضَاجِعِ وَٱضْرِبُوهُنَّۖ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُواْ عَلَيْهِنَّ سَبِيلًاۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيًّا﴾ (النساء: ٣٤).

وأذن ﷺ في ضرب المرأة حين يقتضي المقام ذلك، فقال: «فاضربوهن ضربًا غير مبرح». (أخرجه مسلم ١٢١٨).

ولما كان هذا الحق قد يُساء استعماله من بعض الرجال؛ قيَّد النبي ﷺ مبدأ العقوبة بعامة، وضرب المرأة بخاصة.

ومن صور ذلك ما يلي:

١- النهي عن الضرب[1]:

نهى النبي ﷺ أصحابه عن ضرب النساء، فعن عبد الله بن زمعة عن النبي ﷺ قال: «لا يجلد أحدكم امرأته جلدَ العبدِ، ثم يجامعها في آخر اليوم». (أخرجه البخاري ٥٢٠٤)، ووقع في بعض الروايات: «ولعله أن يضاجعها». (أخرجه أحمد ١٦٢٢١، و ابن ماجه ١٩٨٣، والترمذي ٣٣٢٣)، وفي بعضها: «ثم لعله يعانقها». (أخرجه البخاري ٦٠٤٢).

---

(١) سبق الحديث عن العقوبة البدنية في فصل الوسائل، وبعض النصوص تكررت هنا وهناك.

وقد أشار ﷺ في هذا التوجيه إلى حاجة الرجل إلى زوجته، قال ابن حجر: «والمجامعة، أو المضاجعة إنما تستحسن مع ميل النفس، والرغبة في العشرة، والمجلود غالبًا ينفر ممن جلده، فوقعت الإشارة إلى ذمِّ ذلك، وأنه إن كان ولا بد فليكن التأديب بالضرب اليسير بحيث لا يحصل منه النفور التام، فلا يفرط في الضرب، ولا يفرط في التأديب». (فتح الباري ٩/ ٣٠٣).

وبوَّب البخاري على هذا الحديث: (باب ما يُكره من ضرب النساء) قال ابن حجر: «فيه إشارة إلى أن ضربهن لا يُباح مطلقًا، بل فيه ما يُكره كراهة تنزيه، أو تحريم على ما سنفصله». (فتح الباري ٩/ ٣٠٢-٣٠٣).

وعن حكيم بن معاوية البهزي، عن أبيه، أنه قال للنبي ﷺ: إني حلفت هكذا- ونشر أصابع يديه- حتى تخبرني ما الذي بعثك الله به؟ قال: «بعثني الله بالإسلام»، قال: وما الإسلام؟ قال: «شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا عبده ورسوله، وتقيم الصلاة، وتؤتي الزكاة، أخوان نصيران لا يقبل الله من أحد توبة أشرك بعد إسلامه»، قال: قلت: يا رسول الله، ما حق زوج أحدنا عليه؟ قال: «تُطعمها إذا أكلت، وتكسوها إذا اكتسيت، ولا تضرب الوجه، ولا تقبح، ولا تهجر إلا في البيت». (أخرجه أحمد ٢٠٠١١، وأبو داود ٢١٤٣).

وإطلاق النهي عن الضرب في هذه النصوص دليل على أنه استثناء، وخلاف الأصل.

٢- ذمُّ مَن يضرب النساء:

وذمَّ النبي ﷺ مَن يضربون النساء؛ فعن إياس بن عبد الله بن أبي ذباب، قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تضربوا إماء الله»، فجاء عمر إلى رسول الله ﷺ فقال: ذئرن النساء على أزواجهن، فرخص في ضربهن، فأطاف بآل رسول الله ﷺ نساء كثير يشكون أزواجهن،

فقال النبي ﷺ: «لقد طاف بآل محمد نساء كثير يشكون أزواجهن، ليس أولئك بخياركم». (أخرجه أبو داود ٢١٤٦، وابن ماجه ١٩٨٥).

وفي هذا التوجيه النبوي تأكيد على أن ضرب المرأة ليس من شأن الخيار، فشأن الخيار الرفق، والتوقير، والتقدير.

والرجل العاقل الصارم قلَّما يحتاج إلى الضرب؛ فحسن تعامله، واعتناؤه بتربية أهله وزوجته، سيقلل من المواقف التي يحتاج فيها إلى العقوبة، وحين تعيش المرأة في بيئة صحية، وتحظى بالرفق وحسن الرعاية؛ فقلَّما تقع فيما يوجب العقوبة، ومَن شذَّ منهن عن ذلك؛ فإن الحزم، والصرامة، وأساليب العقوبة البديلة تُغني عن الضرب.

ومَن تأمَّل حال مَن يلجؤون إلى ضرب نسائهم؛ أدرك صدق هذا الوصف النبوي: «ليس أولئك بخياركم»، فقلَّما يسلم هؤلاء من قسوة ونزق في طبيعتهم البشرية.

٣- التغليظ على مَن يضرب:

وفي مواقفه العملية ﷺ كان صارمًا وحازمًا مع مَن يضربون، حتى ولو كان المضروب جارية، أو أَمَة، ولو كان ذلك الضرب ناتجًا عن خطأ وتقصير في القيام بالواجب، عن معاوية بن الحكم السلمي ﷺ، قال: بينا أنا أُصلي مع رسول الله ﷺ، إذ عطس رجل من القوم، فقلت: يرحمك الله، فرماني القوم بأبصارهم، فقلت: واثكل أمياه، ما شأنكم؟ تنظرون إليَّ؟ فجعلوا يضربون بأيديهم على أفخاذهم، فلما رأيتهم يصمِّتونني لكني سكت، فلما صلَّى رسول الله ﷺ، فبأبي هو وأمي، ما رأيت معلمًا قبله، ولا بعده أحسن تعليمًا منه، فوالله، ما كهرني، ولا ضربني، ولا شتمني، قال: «إن هذه الصلاة لا يصلح فيها شيء من كلام الناس، إنما هو التسبيح، والتكبير، وقراءة القرآن»، أو كما قال رسول الله ﷺ قلت: يا رسول الله، إني حديث عهد بجاهلية، وقد جاء الله بالإسلام، وإن مِنَّا

رجالًا يأتون الكهان، قال: «فلا تأتهم» قال: ومِنَّا رجال يتطيرون، قال: «ذاك شيء يجدونه في صدورهم، فلا يصدنهم- قال ابن الصباح: فلا يصدنكم-» قال: قلت: ومِنَّا رجال يخُطُّون، قال: «كان نبي من الأنبياء يخطُّ، فمن وافق خطه فذاك» قال: وكانت لي جارية ترعى غنمًا لي قِبَل أُحُد والجوانية، فاطلعت ذات يوم، فإذا الذيب قد ذهب بشاة من غنمها، وأنا رجل من بني آدم، آسَفُ كما يأسفون، لكني صككتها صكة، فأتيت رسول الله ﷺ، فعظَّم ذلك عليَّ، قلت: يا رسول الله، أفلا أعتقها؟ قال: «ائتني بها» فأتيته بها، فقال لها: «أين الله؟» قالت: في السماء، قال: «مَن أنا؟» قالت: أنت رسول الله، قال: «أعتقها، فإنها مؤمنة». (أخرجه مسلم ٥٣٧).

لقد شعر معاوية ﷺ بالخطأ ابتداء، فهو الذي بادر بحكاية الموقف للنبي ﷺ، معلِّلًا ما صدر منه ببشريته وقصوره، حاكيًا ما جرى منها من تقصير.

وحين عظَّم النبي ﷺ الأمر، أراد معاوية ﷺ التكفير عن خطيئته، فرأى أن ذلك إنما يتِمُّ بإعتاقها، فاستأذن النبي ﷺ في عتقها.

وفي موقف آخر يأمر النبي ﷺ مَنْ ضرب الجارية بأن يعتقها، عن هلال بن يساف، قال: عجل شيخ، فلطم خادمًا له، فقال له سويد بن مقرن: عجز عليك إلا حر وجهها؟ لقد رأيتني سابع سبعة من بني مقرن ما لنا خادم إلا واحدة، لطمها أصغرنا، فأمرنا رسول الله ﷺ أن نعتقها. (أخرجه مسلم ١٦٥٨).

وفي رواية لمسلم (١٦٥٨): عن هلال بن يساف، قال: كُنَّا نبيع البَزَّ في دار سويد بن مقرن، أخي النعمان بن مقرن، فخرجت جارية، فقالت لرجل مِنَّا كلمة، فلطمها، فغضب سويد، فذكر نحو حديث ابن إدريس.

فإذا كان هذا التعامل النبوي مع عقوبة الجارية والأَمَة، فكيف بالحليلة، وشريكة الحياة، التي قال عنها سبحانه وتعالى: ﴿ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟

إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ (الروم: ٢١).

٤- متى تُضرب المرأة؟

جاء الإذن بضرب النساء في القرآن الكريم في سياق وصف مَن يقع منها النشوز في مقابل الصالحات الحافظات لحدود الله: ﴿فَٱلصَّٰلِحَٰتُ قَٰنِتَٰتٌ حَٰفِظَٰتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ ٱللَّهُ وَٱلَّٰتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَٱهْجُرُوهُنَّ فِي ٱلْمَضَاجِعِ وَٱضْرِبُوهُنَّ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيًّا﴾ (النساء: ٣٤).

وجاء الإذن النبوي بضرب المرأة في سياق إخلالها بمبدأ العفة.

ففي حجة الوداع ربط النبي ﷺ ذلك بأن تُوطِئ المرأة فراشَ الرجل مَن يكره، عن جابر بن عبد الله في قصة حجة النبي ﷺ وفيه: «فاتقوا الله في النساء، فإنكم أخذتموهن بأمان الله، واستحللتم فروجهن بكلمة الله، ولكم عليهن أن لا يُوطِئن فرشَكم أحدًا تكرهونه، فإن فعلن ذلك؛ فاضربوهن ضربًا غير مبرح...». (أخرجه مسلم ١٢١٨).

وفي رواية أخرى ربط النبي ﷺ عقوبة المرأة بالضرب بإتيانها الفاحشة، عن سليمان بن عمرو بن الأحوص قال: حدثني أبي ﷺ، أنه شهد حجة الوداع مع رسول الله ﷺ، فحمد الله، وأثنى عليه، وذكر، ووعظ، فذكر في الحديث قصة، فقال: «ألا واستوصوا بالنساء خيرًا، فإنما هُنَّ عَوان عندكم، ليس تملكون منهن شيئًا غير ذلك، إلا أن يأتين بفاحشة مبينة، فإن فعلن؛ فاهجروهن في المضاجع، واضربوهن ضربًا غير مبرح، فإن أطعنكم، فلا تبغوا عليهن سبيلًا، ألا إن لكم على نسائكم حقًّا، ولنسائكم عليكم حقًّا، فأما حقكم على نسائكم فلا يُوطِئن فرشَكم مَن تكرهون، ولا يأذنَّ في بيوتكم لمن تكرهون، ألا وحقهن عليكم أن تحسنوا إليهن في كسوتهن وطعامهن». (أخرجه الترمذي ١١٦٣، وابن ماجه ١٨٥١، وأحمد ٢٠٦٩٥).

لذا ذهب بعض شُرَّاح الحديث إلى أن الإذن بالضرب قاصر على مثل هذه الحالة، قال الشوكاني: «وظاهر حديث الباب- حديث عمرو بن الأحوص- أنه لا يجوز الهجر في المضجع والضرب إلا أن يأتين بفاحشة مبينة، لا بسبب غير ذلك». (نيل الأوطار ٦/ ٢٥٠).

وليس المقام بحثَ الحكم الفقهي لضرب المرأة، ومتى يسوغ ولا يسوغ؟ وأيًّا كان الاختيار والترجيح في ذلك، فإن هذه الأحاديث تبقى شاهدًا على تقييده ﷺ للضرب، وتضييقه لمجاله.

وضعف المرأة، وكونها أسيرة بين يدي زوجها، أو والدها قد يُغري الرجل بالعقوبة والتحقير، أو الضرب؛ لذا جاء المنهج النبوي ليحفظ للمرأة قيمتها وكرامتها، ويقيد العقوبة بما يجعلها وسيلة إصلاح تربوي، لا أداة انتقام، أو مهرب من الفشل في إدارة الخلاف الزوجي.

ولا تزال هذه لمسألة محل جدل على المستوى العلمي النظري ما بين إفراط وتفريط، فثمَّة مَن ينكر الضرب جملة وتفصيلًا، ويتعسف في تأويل النصوص التي أذنت بذلك، وبين مَن يجعل الاستثناء قاعدة، فيجعل الضرب فضيلة، وقد نفى ﷺ الخيرية عن مَن يفعلونه.

أما على المستوى العملي: فلا تزال الشكوى منه قائمة، وكثير منه يرد في سياق العقوبة والانتقام أكثر من التأديب والتهذيب، وهذا ظلم محرم، وعدوان لم يقل بجوازه أحد من المسلمين.

٥- النهي عن التقبيح:

ومن صور العقوبة: العقوبة النفسية؛ لذا ينهى ﷺ عن تقبيح المرأة وإهانتها

بالألفاظ الجارحة، فعن حكيم بن معاوية القشيري، عن أبيه ﷺ قال: قلت: يا رسول الله، ما حق زوجة أحدنا عليه؟ قال: «أن تطعمها إذا طعمت، وتكسوها إذا اكتسيت- أو اكتسبت-، ولا تضرب الوجه، ولا تقبح، ولا تهجر إلا في البيت» قال أبو داود: ولا تقبح: أن تقول: قبحك الله. (أخرجه أحمد ٢٠٠١٣، و أبو داود ٢١٤٢، وابن ماجه ١٨٥٠)، وقد سبق الحديث عن ذلك مُفصَّلًا بشواهده.

وفي حياته العملية ﷺ، وتعامله مع الرجال والنساء، لم تحفظ عنه كلمة فاحشة، وهو القائل ﷺ لعائشة ﵂:«يا عائشة، متى عهدتني فحّاشًا، إن شر الناس عند الله منزلة يوم القيامة مَن تركه الناس اتِّقاء شَرِّه». (أخرجه البخاري ٦٠٣٢).

إن التقبيح، والكلمات النابية تترك آثارًا على نفسية المرأة وشخصيتها قد لا تُمحَى، وقد لا يقل تأثير التقبيح عن تأثير الضرب، والعقوبة البدنية.

وقد تتطلب التربية اللوم، أو العتاب، أو القسوة حين يكون ذلك وسيلة للإصلاح، لكن التقبيح، واللفظ النابي غير اللائق لا يعبر عن تربية ناضجة، ولا يقود إلى إصلاح.

المرأة واللعب

اللعب حاجة فطرية للمرأة، وبخاصة من هي في سن الشباب، وقد راعى ﷺ هذه الحاجة، فكان يأذن لها في اللعب، بل ربما شاركها في ذلك.

وفيما يلي جوانب من تعامله ﷺ مع المرأة فيما يتصل باللعب:

١- الاعتراف به كحاجة:

تستنبط عائشة رضي الله عنها من إقرار النبي ﷺ لها على النظر لأهل الحبشة وهم يلعبون حاجةَ الفتاة للعب، وتدعو الأولياء لاعتبار هذه الحاجة، فعن عائشة رضي الله عنها قالت: «كان الحبش يلعبون بحِرَابهم، فسترني رسول الله ﷺ وأنا أنظر، فما زلت أنظر حتى كنت أنا أنصرف»، فاقدروا قدر الجارية الحديثة السن، تسمع اللهو. (أخرجه البخاري ٥١٩٠، ومسلم ٨٩٢).

٢- إذنه لها بالنظر للعب الرجال:

أقرَّ النبي ﷺ زوجته عائشة رضي الله عنها على النظر لأهل الحبشة، وهم يلعبون، بل دعاها ﷺ بنفسه، ووقف يسترها، كما تقول رضي الله عنها، وكان يوم عيد يلعب السودان بالدرق والحِراب، فإما سألت رسول الله ﷺ، وإما قال: «تشتهين تنظرين؟»، فقالت: نعم، فأقامني وراءه، خدِّي على خَدِّه، ويقول: «دونكم بني أرفدة»، حتى إذا مللت، قال: «حسبك؟»، قلت: نعم، قال: «فاذهبي». (أخرجه البخاري ٢٩٠٧، ومسلم ٨٩٢).

وفي رواية للترمذي (٣٦٩١): عن عائشة قالت: كان رسول الله ﷺ جالسًا، فسمعنا لغطًا، وصوت صبيان، فقام رسول الله ﷺ، فإذا حبشيةٌ تَزْفِن، والصبيان حولها، فقال: «يا عائشة، تعالي فانظري»، فجئت فوضعت لحيي على منكب رسول الله ﷺ، فجعلت أنظر

إليها ما بين المنكب إلى رأسه، فقال لي: «أما شبعت؟، أما شبعت؟» قالت: فجعلت أقول: لا؛ لأنظر منزلتي عنده، إذ طلع عمر، قالت: فَارْفَضَّ الناس عنها: قالت: فقال رسول الله ﷺ: «إني لأنظر إلى شياطين الإنس والجن قد فروا من عمر».

٣- اللعب في العيد:

ومما أقرَّ فيه ﷺ اللَّهو للمرأة: يوم العيد، عن عائشة رضي الله عنها، قالت: دخل أبو بكر، وعندي جاريتان من جواري الأنصار تغنيان بما تقاولت الأنصار يوم بُعاث، قالت: وليستا بمغنيتين، فقال أبو بكر: أمزامير الشيطان في بيت رسول الله ﷺ؟ وذلك في يوم عيد، فقال رسول الله ﷺ: «يا أبا بكر، إن لكل قوم عيدًا، وهذا عيدنا». (أخرجه البخاري ٩٥٢، ومسلم ٨٩٢).

٤- اللعب في العرس:

ومن مواطن اللَّهو المباح للمرأة: العرس، بل إنه ﷺ أمر بذلك، عن عائشة رضي الله عنها، أنها زفَّت امرأة إلى رجل من الأنصار، فقال نبي الله ﷺ: «يا عائشة، ما كان معكم لهو؟ فإن الأنصار يعجبهم اللَّهو». (أخرجه البخاري ٥١٦٢).

٥- اللعب بالبنات:

أقرَّ النبي ﷺ زوجته عائشة رضي الله عنها على اللعب بالبنات، عن عائشة رضي الله عنها، قالت: كنت ألعب بالبنات عند النبي ﷺ، وكان لي صواحب يلعبن معي، «فكان رسول الله ﷺ إذا دخل يتقمعن منه، فيسربهن إليَّ، فيلعبن معي». (أخرجه البخاري ٦١٣٠، ومسلم ٢٤٤٠).

وعن عائشة رضي الله عنها، قالت: قَدِمَ رسول الله ﷺ من غزوة تبوك، أو خيبر، وفي سهوتها ستر، فهبت ريح؛ فكشفت ناحية الستر عن بنات لعائشة لُعَبٍ، فقال: «ما هذا يا عائشة؟»

قالت: بناتي، ورأى بينهن فرسًا له جناحان من رقاع، فقال: «ما هذا الذي أرى وسطهن؟» قالت: فرس، قال: «وما هذا الذي عليه؟» قالت: جناحان، قال: «فرس له جناحان؟» قالت: أما سمعت أن لسليمان خيلًا لها أجنحة؟ قالت: فضحك حتى رأيت نواجذه. (أخرجه أبو داود ٤٩٣٢).

٦- مشاركته لهن اللعب:

وشارك النبي ﷺ زوجاته في اللَّعِب، واللَّهو المباح، عن عائشة ﵂ قالت: خرجت مع النبي ﷺ في بعض أسفاره، وأنا جارية لم أحمل اللحم، ولم أبدن، فقال للناس: «تقدموا» فتقدموا، ثم قال لي: «تعالي حتى أسابقك» فسَابَقْتُه، فَسَبَقْتُه، فسكت عنِّي، حتى إذا حملت اللحم، وبدنت، ونسيت، خرجت معه في بعض أسفاره، فقال للناس: «تقدموا» فتقدموا، ثم قال: «تعالي حتى أسابقك» فسابقته، فسبقني، فجعل يضحك، وهو يقول: «هذه بتلك». (أخرجه أحمد ٢٦٢٧٧، وأبو داود ٢٥٧٨).

وكان ﷺ يشارك زوجاته الغسل، فيصحب ذلك لعب وترفيه، عن عائشة ﵂ قالت: كنت أغتسل أنا ورسول الله ﷺ من إناء واحد، يبادرني وأبادره، حتى يقول: «دعي لي»، وأقول أنا: دع لي، قال سويد: يبادرني وأبادره، فأقول: دع لي، دع لي. (أخرجه النسائي ٢٣٩).

٧- دعوته أصحابه إلى ملاعبة زوجاتهم:

ودعا ﷺ صاحبه جابرًا ﵁ إلى ملاعبة زوجته، وعدَّ الملاعبة بين الزوجين أحد اعتبارات اختيار الزوجة، فعن جابر بن عبد الله ﵄، قال: كنت مع النبي ﷺ في غزاة، فأبطأ بي جملي وأعيا، فأتى عليَّ النبي ﷺ فقال «جابر»: فقلت: نعم، قال: «ما شأنك؟» قلت: أبطأ عليَّ جملي وأعيا، فتخلفت، فنزل يحجنه بمحجنه، ثم قال: «اركب»، فركبت، فلقد

رأيته أكفه عن رسول الله ﷺ، قال: «تزوَّجت؟» قلت: نعم، قال: «بكرًا أم ثَيِّبًا» قلت: بل ثيِّبًا، قال: «أفلا جارية تلاعبها وتلاعبك» قلت: إن لي أخوات، فأحببت أن أتزوج امرأة تجمعهن، وتمشطهن، وتقوم عليهن، قال: «أما إنك قادم، فإذا قدمت، فالكيس الكيس»، ثم قال: «أتبيع جملك» قلت: نعم، فاشتراه مني بأوقية، ثم قدم رسول الله ﷺ قبلي، وقدمت بالغداة، فجئنا إلى المسجد، فوجدته على باب المسجد، قال: «آلآن قدمت؟» قلت: نعم، قال: «فدع جملك، فادخل، فصَلِّ ركعتين»، فدخلت فصليت، فأمر بلالًا أن يزن له أوقية، فوزن لي بلال، فأرجح لي في الميزان، فانطلقت حتى ولَّيت، فقال: «ادع لي جابرًا» قلت: الآن يرد عليَّ الجمل، ولم يكن شيء أبغض إليَّ منه، قال: «خذ جملك، ولك ثمنه». (أخرجه البخاري ٢٠٩٧، ومسلم ٧١٥).

وعدَّ النبي ﷺ ملاعبة الرجل امرأته من الحق، وقرنها باللَّهو فيما يعين على الجهاد في سبيل الله، فقد جاء في حديث عقبة بن عمار ﷺ قوله ﷺ: «كل شيء يلهو به الرجل باطل، إلا رميه بقوسه، وتأديبه فرسه، وملاعبته امرأته، فإنهن من الحق». (أخرجه أحمد ١٧٣٠٠، والترمذي ١٦٣٧، وابن ماجه ٢٨١١).

رعاية البنات

يبدأ تأسيس شخصية المرأة وتكوينها من مرحلة الطفولة والشباب؛ ففي هذه المرحلة تتشكل كثير من معالم شخصيتها؛ لذا اعتنى ﷺ برعاية البنات منذ مراحل طفولتهن، ومن صور الاعتناء النبوي برعاية البنات ما يلي:

١ - تغيير نظرة الجاهلية عن البنات:

كان أهل الجاهلية يكرهون البنات، بل يتمعَّر وجه أحدهم حين يُبشَّر بالأنثى، قال سبحانه: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ۝ يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ مِن سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ ۚ أَيُمْسِكُهُ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ ۗ أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ (النحل: ٥٨ - ٥٩).

كما وصفهم سبحانه بالوصف نفسه في سورة الزخرف، فقال عز وجل: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَٰنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ﴾ (الزخرف: ١٧).

وعاب عليهم سبحانه وتعالى أن يجعلوا له البنات، وهم يكرهونهن، فقال عز وجل: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ ۚ وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ الْحُسْنَىٰ ۖ لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ النَّارَ وَأَنَّهُم مُّفْرَطُونَ﴾ (النحل: ٦٢).

قال قتادة: «وهذا صنيع مشركي العرب، أخبرهم الله تعالى ذكره بخبث صنيعهم، فأما المؤمن فهو حقيق أن يرضى بما قسم الله له، وقضاء الله خير من قضاء المرء لنفسه، ولعمري ما يدري أنه خير، لَرُبَّ جاريةٍ خير لأهلها من غلام، وإنما أخبركم الله بصنيعهم؛ لتجتنبوه، وتنتهوا عنه، وكان أحدهم يغذو كلبه، ويئد ابنته». (تفسير ابن جرير ١٤/ ٢٥٦).

قال ابن كثير: ﴿يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ﴾ أي: يكره أن يراه الناس ﴿مِن سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ ۚ أَيُمْسِكُهُ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ ۗ﴾ أي: إن أبقاها أبقاها مُهانة لا يورثها، ولا

يعتني بها، ويفضل أولاده الذكور عليها، ﴿ أَمۡ يَدُسُّهُۥ فِي ٱلتُّرَابِۗ ﴾ أي: يئدها: وهو أن يدفنها فيه حية، كما كانوا يصنعون في الجاهلية، أفمن يكرهونه هذه الكراهة ويأنفون لأنفسهم عنه يجعلونه لله؟». (تفسير ابن كثير ٤/ ٥٧٨).

جاء النبي ﷺ في هذا الواقع فغيَّره بفعله، فصلَّى ﷺ وهو حامل أمامة بنت العاص ﵁، عن أبي قتادة الأنصاري، «أن رسول الله ﷺ كان يُصلي، وهو حامل أمامة بنت زينب بنت رسول الله ﷺ، ولأبي العاص بن ربيعة بن عبد شمس، فإذا سجد وضعها، وإذا قام حملها». (أخرجه البخاري ٥١٦، ومسلم ٥٤٣).

وقد علَّل بعض شُرَّاح الحديث عمله ﷺ ذلك بتغييره لما كان عليه أهل الجاهلية، قال الفاكهاني: «وكأن السر في حمله أمامة في الصلاة؛ دفعًا لما كانت العرب تألفه من كراهة البنات وحملهن، فخالفهم في ذلك حتى في الصلاة للمبالغة في ردعهم، والبيان بالفعل قد يكون أقوى من القول». (فتح الباري ١/ ٥٩٢).

وروي عنه ﷺ النهي عن كراهية البنات، وقد صححه بعضهم، عن عقبة بن عامر قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تكرهوا البنات؛ فإنهن المؤنسات الغاليات». (أخرجه أحمد ١٧٣٧٣).

٢- محبة البنات والعناية بهن:

كان ﷺ يحب البنات، ويصرح بحبه لهن، عن عائشة ﵂، أن رسول الله ﷺ أُهْدِيَت له هدية فيها قلادة من جزع، فقال: «لأدفعنها إلى أحب أهلي إلي»، فقالت النساء: ذهبت بها ابنة أبي قحافة، فدعا النبي ﷺ أمامة بنت زينب، فعلقها في عنقها. (أخرجه أحمد ٢٤٧٠٤).

وروا الطبراني مطولًا، عن عائشة ﵂ قالت: أُهدي لرسول الله ﷺ قلادة من جزع ملمعة بالذهب، ونساؤه مجتمعات في بيت كلهن، وأمامة بنت أبي العاص بن الربيع جارية

تلعب في جانب البيت بالتراب، فقال رسول الله ﷺ: «كيف ترين هذه؟»، فنظرنا إليها فقلنا: يا رسول الله، ما رأينا أحسن من هذه، ولا أعجب، فقال: «ارددنها إليَّ»، فلما أخذها قال: «والله لأضعنها في رقبة أحب أهل البيت إليَّ»، قالت عائشة: فأظلمت عليَّ الأرض بيني وبينه خشية أن يضعها في رقبة غيري منهن، ولا أراهن إلا قد أصابهن مثل الذي أصابني، ووجمنا جميعًا سكوت، فأقبل بها حتى وضعها في رقبة أمامة بنت أبي العاص فسُري عنَّا. (أخرجه الطبراني ١٠٨٠ في المعجم الكبير).

وحين سأله عمه العباس رضي الله عنه عن أحب أهله إليه، صرَّح بأنها ابنته فاطمة رضي الله عنها، عن أسامة بن زيد رضي الله عنهما، قال: كنت جالسًا عند النبي ﷺ إذ جاء عليٌّ والعباس يستأذنان، فقالا: يا أسامة، استأذن لنا على رسول الله ﷺ، فقلت: يا رسول الله، عليٌّ، والعباس يستأذنان، فقال: «أتدري ما جاء بهما»؟ قلت: لا أدري، فقال النبي ﷺ: «لكني أدري، فأذن لهما»، فدخلا، فقالا: يا رسول الله، جئناك نسألك أي أهلك أحب إليك؟ قال: «فاطمة بنت محمد»، فقالا: ما جئناك نسألك عن أهلك، قال: «أحب أهلي إليَّ مَن قد أنعم الله عليه، وأنعمت عليه: أسامة بن زيد»، قالا: ثم من؟ قال: «ثم عليُّ بن أبي طالب»، قال العباس: يا رسول الله جعلت عمك آخرهم؟ قال: «لأن عليًّا قد سبقك بالهجرة». (أخرجه الترمذي ٣٨١٩).

ولئن ضعَّف بعض أهل العلم هذه النصوص التي صرح فيها ﷺ بحبه للبنات، فإن المواقف العملية التي تدل على حبه ﷺ للبنات تدل على هذا المعنى، ونكتفي بهذا الشاهد الذي يوضح صدق محبته ﷺ لابنته فاطمة رضي الله عنها، عن عائشة بنت طلحة، عن عائشة أم المؤمنين، قالت: «ما رأيت أحدًا أشبه سمتًا، ودلًّا، وهديًا برسول الله في قيامها وقعودها من فاطمة بنت رسول الله ﷺ» قالت: «وكانت إذا دخلت على النبي ﷺ قام إليها، فقبَّلها، وأجلسها في مجلسه، وكان النبي ﷺ إذا دخل عليها قامت من مجلسها، فقبَّلته، وأجلسته في مجلسها، فلما مرض النبي ﷺ دخلت فاطمة فأكبت عليه فقبَّلته، ثم

رفعت رأسها فبكت، ثم أكبت عليه، ثم رفعت رأسها فضحكت»، فقلت: إن كنت لأظن أن هذه من أعقل نسائنا، فإذا هي من النساء، فلما توفي النبي ﷺ قلت لها: أرأيت حين أكببت على النبي ﷺ فرفعت رأسك فبكيت، ثم أكببت عليه فرفعت رأسك فضحكت، ما حملك على ذلك؟ قالت: إني إذًا لَبَذِرة، أخبرني أنه ميت من وجعه هذا؛ فبكيت، ثم أخبرني أني أسرع أهله لحوقًا به فذاك حين ضحكت. (أخرجه الترمذي ٣٨٧٢، وأخرجه البخاري ٦٢٨٦، ومسلم ٢٤٥٠، بلفظ آخر، وقد سبق إيراده).

٣- الأمر بالإحسان للبنات:

وأوصى النبي ﷺ أصحابه بالإحسان إلى البنات ورعايتهن، وأكد على الأجر العظيم لمن فعل ذلك؛ عن عروة بن الزبير، أن عائشة زوج النبي ﷺ قالت: جاءتني امرأة، ومعها ابنتان لها، فسألتني فلم تجد عندي شيئًا غير تمرة واحدة، فأعطيتها إياها، فأخذتها فقسمتها بين ابنتيها، ولم تأكل منها شيئًا، ثم قامت فخرجت وابنتاها، فدخل عليَّ النبي ﷺ، فحدثته حديثها، فقال النبي ﷺ: «مَن ابتلي من البنات بشيء، فأحسن إليهن؛ كُنَّ له سترًا من النار». (أخرجه البخاري ٥٩٩٥، ومسلم ٢٦٢٩، واللفظ لمسلم).

قال النووي: «إنما سماه ابتلاء؛ لأن الناس يكرهونهن في العادة، قال الله تعالى: ﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴾». (شرح صحيح مسلم ١٦/ ١٧٩).

وبيَّن ﷺ أهمية الإحسان إلى البنات في مرحلة ما قبل البلوغ، عن أنس بن مالك ﷺ، قال: قال رسول الله ﷺ: «مَن عالَ جاريتين حتى تبلُغَا، جاء يوم القيامة أنا وهو»، وضم أصابعه. (أخرجه مسلم ٢٦٣١).

قال النووي: «ومعنى عالهما: قام عليهما بالمؤنة، والتربية، ونحوهما، مأخوذ من العول، وهو القرب، ومنه: ابدأ بمَن تعول، ومعناه: جاء يوم القيامة أنا وهو كهاتين». (شرح صحيح مسلم ١٦/ ١٨٠).

٤- ملاعبة البنات:

وكان ﷺ يلاعب البنات، عن عبد الله، عن أم خالد بنت خالد بن سعيد رضي الله عنها، قالت: أتيت رسول الله ﷺ مع أبي، وعليَّ قميص أصفر، قال رسول الله ﷺ: «سَنَهْ سَنَهْ» قال عبد الله: وهي بالحبشية: حسنة، قالت: فذهبت ألعب بخاتم النبوة، فزبرني أبي، قال رسول الله ﷺ: «دعها»، ثم قال رسول الله ﷺ: «أبلي وأخلقي، ثم أبلي وأخلقي، ثم أبلي وأخلقي» قال عبد الله: فبقيت حتى ذكر، يعني من بقائها. (أخرجه البخاري ٥٩٩٣).

وبوَّب البخاري على هذا- حديث أم خالد-: (باب مَن ترك صبية غيره حتى تلعب به، أو قبَّلها، أو مازحها).

تهيئة البيئة التربوية

ويؤكد النبي ﷺ على تهيئة البيئة التي تعين المرأة على أداء رسالتها، وينهى عن التفريق بين الوالدة وولدها، عن أبي أيوب ﵁ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «مَن فرَّق بين الوالدة وولدها؛ فرَّق الله بينه وبين أحبته يوم القيامة». (أخرجه الترمذي ١٢٨٣، وأحمد ٢٣٤٩٩).

وفي الدارمي (٢٥٢٢): بيان سبب رواية أبي أيوب ﵁ لهذا الحديث، عن أبي عبد الرحمن الحبلي، أن أبا أيوب كان في جيش ففرَّق بين الصبيان، وبين أمهاتهم، فرآهم يبكون، فجعل يرد الصبي إلى أمه، ويقول: إن رسول الله ﷺ قال: «مَن فرَّق بين الوالدة وولدها، فرَّق الله بينه وبين الأحباء يوم القيامة».

دورها في إعانة الرجل

ربَّى النبي ﷺ المرأة على إعانة زوجها على طاعة الله عز وجل، فقد بيَّن ﷺ أن من صفات الزوجة الصالحة أنها تعين الرجل على إيمانه، عن سالم بن أبي الجعد، عن ثوبان رضي الله عنه قال: لما أُنزلت: ﴿وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ (التوبة: ٣٤) قال: كُنَّا مع رسول الله ﷺ في بعض أسفاره، فقال بعض أصحابه: قد نزل في الذهب والفضة ما نزل، فلو أنا علمنا أي المال خير؛ اتخذناه، فقال: «أفضله لسانٌ ذاكرٌ، وقلبٌ شاكرٌ، وزوجة مؤمنة تعينه على إيمانه». (أخرجه أحمد ٢٢٣٩٢، والترمذي ٣٠٩٤، وابن ماجه ١٨٥٦).

كما أثنى على نساء قريش، وذكر في صفاتهن: «أحناه على طفل، وأرعاه على زوج في ذات يده». (أخرجه البخاري ٣٤٣٤، ومسلم ٢٥٢٧)، وسبقت الإشارة إليه.

ودعا ﷺ بالرحمة لمن توقظ زوجها لقيام الليل، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «رحم الله رجلًا قام من الليل فصلى، وأيقظ أهله فصلَّتْ، فإن أبتْ نضح في وجهها الماء، ورحم الله امرأة قامت من الليل، فأيقظت زوجها فصلى، فإن أبى نضحت في وجهه الماء». (أخرجه أحمد ٩٦٢٧، و أبو داود ١٣٠٨، وابن ماجه ١٣٣٦، والنسائي ١٦١٠).

كما أكد ﷺ مسؤولية المرأة عن بيت زوجها في قوله: «والمرأة راعية في بيت زوجها، ومسئولة عن رعيتها». (أخرجه البخاري ٨٩٣، ومسلم ١٨٢٩).

وفي رواية مسلم: « والمرأة راعية على بيت بعلها وولده، وهي مسئولة عنهم».

المربي في بيته

جعل الله نبيه محمدًا ﷺ أسوةً حسنة للمؤمنين، وهو ﷺ مشرع في كل أحواله، لا ينطق عن الهوى، قوله، وأمره، ونهيه تشريع، وإقراره على فعل يراه، أو قول يسمعه تشريع، وفعله ﷺ تشريع سواء أكان في عبادته لربه عز وجل، أم في تعامله مع الخلق، أم في هديه في عمل اليوم والليلة.

وقد اعتنى أصحاب النبي ﷺ بحفظ هَدْيه العملي ونقله إلينا، ومن ذلك: حاله ﷺ في بيته، حتى نقلت لنا زوجاته رضوان الله عليهن أدقَّ التفاصيل الخاصة، فنقلن تفاصيل تعامله مع أهله، حتى جوانب من علاقته الزوجية، وكيفية غسله وطهارته.

وهكذا تبدو حياة النبي ﷺ لأمته صفحة بيضاء، مفتوحة، ناصعة، فيعرف المسلم من تفاصيل حياة النبي ﷺ أكثر مما يعرف عن والديه.

ولا غنى للمربين عن دراسة حاله ﷺ في بيته، وتعامله مع زوجاته رضوان الله عليهن.

وفي هذا المبحث نتناول هديه ﷺ مع أهله، وتعامله مع زوجاته مركزين على ما يتصل بتربيته لهن، دون التطرق للأحكام الفقهية، أو عبادته ﷺ في بيته رغم أهمية ذلك، لكنه لا يتصل بموضوع البحث.

حسن الخلق وطيب المعاملة:

كان ﷺ أحسن الناس خلقًا، وأنقاهم سريرة، كيف لا وقد اصطفاه خالقه ومولاه سبحانه وتعالى، وزكَّاه، وطهَّره، وجَبَلَهُ على خير ما يُجْبَلُ عليه مخلوق؟

وشهد له سبحانه بحسن الخلق، وطيب المعشر، فقال: ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾، وامْتَنَّ سبحانه على المؤمنين بطيب تعامله ﷺ فقال: ﴿ لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ (التوبة: ١٢٨).

إلا أن كثيرًا ممن يحسن خلقهم مع الآخرين تختلف أحوالهم مع أهلهم وفي بيوتهم، حيث تزول الكلفة، ويحصل التبسط، فلا يبالي الشخص في مراعاة مشاعر أهله، كما هي حاله مع الآخرين.

لكنه ﷺ في بيته، ومع أهله كان له شأن آخر، تحدثنا أقرب نسائه إليه عائشة ﵂ عن ذلك، وقد سئلت عن خلقه في بيته، عن أبي عبد الله الجدلي، قال: قلت لعائشة: كيف كان خلق رسول الله ﷺ في أهله؟ قالت: «كان أحسن الناس خلقًا، لم يكن فاحشًا، ولا متفحشًا، ولا سخابًا بالأسواق، ولا يجزئ بالسيئة مثلها، ولكن يعفو ويصفح». (أخرجه أحمد ٢٥٩٩٠، والترمذي ٢٠١٦).

إن حسن خلق المربي في بيته ومع أهله- علاوة على دلالته على صدق أخلاقه، وبُعْدها عن التصنع، ومجاراة الناس- له أثره البالغ في تربيتهم على حسن الخلق؛ فهم يرونه النموذج الحي، في نومهم ويقظتهم، في السراء والضراء، في الصحة والسقم، في الجد والمزاح، وما من وسيلة أبلغ، ولا أعظم في غرس حسن الخلق من القدوة الحسنة.

ومن آثار اتصاف المربي بحسن الخلق في بيته وأهله: شعورهم بالاطمئنان والراحة، وهذا له أثره البالغ على الاستقرار، والصحة النفسية.

وله أثره على سمات الفرد وشخصيته وأدائه، فتثبت المشاهدات والدراسات العلمية أن من يعيشون استقرارًا أسريًا، ويحظون بمعاملة حسنة من والديهم هم من أفضل أقرانهم تحصيلًا دراسيًا، واستقرارًا نفسيًا، بل إن تأثير ذلك يمتد إلى حياتهم الزوجية رجالًا ونساءً، وإلى تعاملهم مع أولادهم.

وفي مقابل هؤلاء: فالذين يحظون بمعاملة غير حسنة من والديهم، أو من أحدهما أكثر عرضة للإخفاق، والمشكلات في شخصياتهم وتوافقهم.

كما أن من آثار ذلك: حسن التلقي من الوالدين؛ فالمتلقي لا ينفصل عن نظرة المتربي لمربيه ووالده، وقد قال سبحانه: ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ﴾(آل عمران: ١٥٩)،، فإذا كان هذا في حق النبي ﷺ والجيل الأول، فكيف بحق غيره من المربين والمتلقين؟

وقد رأينا عددًا من الآباء والأمهات الصالحين، المعتنين بأولادهم، لكنهم لم يوفقوا لحسن الخلق والتعامل معهم؛ فأثَّر ذلك في إخفاقهم في تربية أولادهم، بل ربما ولَّد ردَّة فعل قاسية من أولادهم؛ فبالغوا في الانحراف والشطط.

يخدم في بيته:

الرجل له القوامة في منزله، ومن أدوار زوجته أن تقوم بخدمته ورعايته، وقد كان ﷺ يعيش في بيته مع أطهر النساء، وخيرهن، وأبرَّهن، لن يترددن في خدمته، أو تلبية حاجاته، ومطالبه.

لكنه ﷺ كان يقوم بشؤونه، ويُعنى بأحواله، كما تحدثنا عن ذلك أم المؤمنين عائشة ﵂، فعن إبراهيم، عن الأسود، قال: سألت عائشة ﵂ ما كان النبي ﷺ يصنع في بيته؟ قالت: «كان يكون في مهنة أهله- تعني خدمة أهله-، فإذا حضرت الصلاة خرج إلى الصلاة». (أخرجه البخاري ٦٧٦).

عن هشام بن عروة، عن أبيه، عن عائشة ﵂، أنها سُئِلت ما كان رسول الله ﷺ يعمل في بيته؟ قالت: «كان يخيط ثوبه، ويخصف نعله، ويعمل ما يعمل الرجال في بيوتهم». (أخرجه أحمد ٢٤٩٠٣).

وعن القاسم، عن عائشة، قالت: سُئِلت ما كان رسول الله ﷺ يعمل في بيته؟ قالت: «كان بشرًا من البشر، يفلي ثوبه، ويحلب شاته، ويخدم نفسه». (أخرجه أحمد ٢٦١٩٤).

قال العراقي في ألفيته:

يَخْصِف نَعْلَه يَخِيطُ ثَوْبَه	يَحْلِب شَاتَه وَلَن يَعِيبَه
يَخْدمُ فِي مِهْنَةِ أَهْلِهِ كَمَا	يَقْطَعُ بِالسِّكِّينِ لَحْمًا قَدِما

الوفاء:

من الرجال مَن يحسنون معاملتهم مع أهلهم وأزواجهم وهم يعايشونهم ، أما حين يفرِّق بينهم الأجل، فقليل هم الذين يحفظون الود، وحسن العهد.

عاش محمد ﷺ مع خديجة ﵂ زهرة شبابه، وأنجبت له أولاده، وعاشت معه نشأة الدعوة، والصراع مع صناديد قريش، واختارها الله لجواره، وهو لا زال في مكة، فبقي ﷺ حافظًا لودها، يذكرها، ولا ينسى عهدها.

وامتد هذا الوفاء منه ﷺ ليشمل كل ما يذكِّره بخديجة ﵂، فكان يحسن إلى هالة بنت خويلد، عن عائشة ﵂، قالت: استأذنت هالة بنت خويلد- أخت خديجة- على رسول الله ﷺ فعرف استئذان خديجة، فارتاع لذلك، فقال: «اللهم هالة»، قالت: فغرت، فقلت: ما تذكر من عجوز من عجائز قريش، حمراء الشدقين، هلكت في الدهر، قد أبدلك الله خيرًا منها. (أخرجه البخاري ٣٨٢١، ومسلم ٢٤٣٧).

وفي رواية مسلم: «فارتاح» بدل «ارتاع».

قال النووي: «فارتاح لذلك، أي: هش لمجيئها، وسُرَّ بها لتذكره بها خديجة وأيامها، وفي هذا كله دليل لحسن العهد، وحفظ الود، ورعاية حرمة الصاحب والعشير في حياته ووفاته، وإكرام أهل ذلك الصاحب». (شرح صحيح مسلم ١٥/ ٢٠٢).

ويتجاوز وفاؤه ﷺ لأخت خديجة إلى صديقاتها، فيبقى حافظًا للود، محسنًا لهن، عن عائشة ﵂، قالت: ما غرت على أحد من نساء النبي ﷺ، ما غرت على خديجة، وما رأيتها، ولكن كان النبي ﷺ يكثر ذكرها، وربما ذبح الشاة، ثم يقطعها أعضاء، ثم يبعثها في صدائق خديجة، فربما قلت له: كأنه لم يكن في الدنيا امرأة إلا خديجة، فيقول «إنها كانت، وكانت، وكان لي منها ولد». (أخرجه البخاري ٣٨١٨، ومسلم ٢٤٣٥).

وعن عائشة ﵂ قالت: «ما غرت على امرأة، ما غرت على خديجة، ولقد هلكت قبل أن يتزوجني بثلاث سنين، لما كنت أسمعه يذكرها، ولقد أمره ربه عز وجل أن يبشرها ببيت من قصب في الجنة، وإن كان ليذبح الشاة، ثم يهديها إلى خلائلها». (أخرجه البخاري ٦٠٠٤، ومسلم ٢٤٣٥، واللفظ لمسلم).

اللطف:

كان ﷺ- علاوة على حسن خلقه- يتعامل بذوق عالٍ، ولطف مع أهل بيته رضوان الله عليهم، ولعل من أعظم ما يجلي هذا الذوق والخلق الرفيع منه ﷺ: موقفه مع صفية ﵂.

عن أنس بن مالك ﵁، قال: قَدِمَ النبي ﷺ خيبر، فلما فتح الله عليه الحصن ذُكِر له جمال صفية بنت حيي بن أخطب، وقد قُتِل زوجها، وكانت عروسًا، فاصطفاها رسول الله ﷺ لنفسه، فخرج بها، حتى بلغنا سد الروحاء حلَّت، فبنى بها، ثم صنع حيسًا في نطع صغير، ثم قال رسول الله ﷺ: «آذن من حولك»، فكانت تلك وليمة رسول الله ﷺ على صفية، ثم خرجنا إلى المدينة قال: فرأيت رسول الله ﷺ يحوي لها وراءه بعباءة، ثم يجلس عند بعيره، فيضع ركبته فتضع صفية رجلها على ركبته حتى تركب. (أخرجه البخاري ٢٢٣٥).

وعن أنس بن مالك ﵁ قال: كُنَّا مع النبي ﷺ مَقْفَلَهُ من عُسْفَانَ، ورسول الله ﷺ على راحلته، وقد أردف صفية بنت حيي، فعثرت ناقته، فصرعا جميعًا، فاقتحم أبو طلحة

فقال: يا رسول الله، جعلني الله فداءك، قال: عليك المرأة، فقلب ثوبًا على وجهه، وأتاها، فألقاه عليها، وأصلح لهما مركبهما فركبا، واكتنفنا رسول الله ﷺ، فلما أشرفنا على المدينة قال: «آيبون، تائبون، عابدون، لربنا حامدون، فلم يزل يقول ذلك حتى دخل المدينة». (أخرجه البخاري ٣٠٨٥، ومسلم ١٣٤٥).

وتستشهد أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها بتعامله ﷺ معها؛ فتوصي الرجال بمراعاة اللطف مع الجارية حديثة السن، عن عائشة رضي الله عنها قالت: «رأيت النبي ﷺ يسترني بردائه، وأنا أنظر إلى الحبشة يلعبون في المسجد، حتى أكون أنا التي أسأم، فاقدروا قدر الجارية الحديثة السن الحريصة على اللهو». (أخرجه البخاري ٥٢٣٦، ومسلم ٨٩٢).

التصريح بالحب:

لا يكتفي ﷺ في تعامله مع أهله بالحب القلبي فحسب، بل يصرح بذلك، ويتحدث به أمام الناس، فيسأله عمرو بن العاص رضي الله عنه عن أحب الناس إليه، فيجيبه أنها عائشة رضي الله عنها.

عن عمرو بن العاص رضي الله عنه، أن النبي ﷺ بعثه على جيش ذات السلاسل، قال: فأتيته فقلت: أيُّ الناس أحب إليك؟ قال: «عائشة»، فقلت: من الرجال؟ فقال: «أبوها»، قلت: ثم من؟ قال: «ثم عمر بن الخطاب» فعدَّ رجالًا. (أخرجه البخاري ٣٦٦٢، ومسلم ٢٣٨٤).

ويصرح ﷺ لابنته فاطمة رضي الله عنها بحبه لعائشة رضي الله عنها، فعن عائشة رضي الله عنها، أن نساء رسول الله ﷺ كُنَّ حزبين، فحزب فيه عائشة، وحفصة، وصفية، وسودة، والحزب الآخر: أم سلمة، وسائر نساء رسول الله ﷺ، وكان المسلمون قد علموا حب رسول الله ﷺ عائشة، فإذا كانت عند أحدهم هدية يريد أن يهديها إلى رسول الله ﷺ أخَّرها حتى إذا كان رسول الله ﷺ في بيت عائشة، بعث صاحب الهدية إلى رسول الله ﷺ في بيت عائشة، فكلم حزب أم سلمة، فقلن

لها: كلِّمي رسول الله ﷺ يكلم الناس، فيقول: من أراد أن يهدي إلى رسول الله ﷺ هدية، فليهده إليه حيث كان من بيوت نسائه، فكلمته أم سلمة بما قلن، فلم يقل لها شيئًا، فسألنها، فقالت: ما قال لي شيئًا، فقلن لها، فكلميه، قالت: فكلمته حين دار إليها- أيضًا-، فلم يقل لها شيئًا، فسألنها، فقالت: ما قال لي شيئًا، فقلن لها: كلميه حتى يكلمك، فدار إليها، فكلمته، فقال لها: «لا تؤذيني في عائشة، فإن الوحي لم يأتني وأنا في ثوب امرأة، إلا عائشة»، قالت: فقالت: أتوب إلى الله من أذاك يا رسول الله، ثم إنهن دعون فاطمة بنت رسول الله ﷺ، فأرسلن إلى رسول الله ﷺ تقول: إن نساءك ينشدنك الله العدل في بنت أبي بكر، فكلمته، فقال: «يا بنية، ألا تحبين ما أحب؟»، قالت: بلى، فرجعت إليهن، فأخبرتهن، فقلن: ارجعي إليه، فأبت أن ترجع، فأرسلن زينب بنت جحش، فأتته، فأغلظت، وقالت: إن نساءك ينشدنك الله العدل في بنت ابن أبي قحافة، فرفعت صوتها حتى تناولت عائشة، وهي قاعدة فسبَّتها، حتى إن رسول الله ﷺ لينظر إلى عائشة، هل تكلم، قال: فتكلمت عائشة ترد على زينب حتى أسكتتها، قالت: فنظر النبي ﷺ إلى عائشة، وقال: «إنها بنت أبي بكر». (أخرجه البخاري ٢٥٨١، ومسلم ٢٤٤٢).

الصراحة:

حبه ﷺ لأزواجه لا يمنعه من أن يكون صريحًا واضحًا معهن، وإن كان ذلك لا يتفق مع مشاعرهن.

عن عائشة، قالت: كان النبي ﷺ إذا ذكر خديجة أثنى عليها، فأحسن الثناء، قالت: فغرت يومًا، فقلت: ما أكثر ما تذكرها حمراء الشدق، قد أبدلك الله عز وجل بها خيرًا منها، قال: «ما أبدلني الله عز وجل خيرًا منها، قد آمنت بي إذ كفر بي الناس، وصدقتني إذ كذبني الناس، وواستني بمالها إذ حرمني الناس، ورزقني الله عز وجل ولدها إذ حرمني أولاد النساء». (أخرجه أحمد ٢٤٨٦٤، وأصله في الصحيحين البخاري ٣٨٢١، ومسلم ٢٤٣٧).

وفي رواية لأحمد (٢٥١٧١): فتمعَّر وجهه تمعرًا ما كنت أراه إلا عند نزول الوحي، أو عند المخيلة حتى ينظر: أرحمة أم عذاب؟

إن الصراحة من المربي ربما تثقل أحيانًا، لكنها تورث الاطمئنان، والثقة بمواقفه، فالذين تغلب عليهم المجاملة كثيرًا ما يفقدون ثقة من حولهم، وربما لم يطمئنوا لتعبيرهم عن مشاعر صادقة؛ لأنهم أَلِفُوا منهم المجاملة والتصنع، بخلاف من كان صريحًا واضحًا في تعامله.

ولم تكن صراحته ﷺ مع أهله وأصحابه لتقوده إلى التجاوز، بل كان شديد الحياء، قلَّما يواجه أحدًا بما يكرهه، وربما ورَّى، أو أوصى أصحابه بما يريد قوله لغيره.

الواقعية:

كان ﷺ- مع سمو نفسه، ومع حرصه على تربية أهله وزوجاته- واقعيًّا، يتعامل معهن بنظرة بشرية.

إنه يحدث عائشة ﵂ حديث محبٍّ وادٍّ، مخبرًا لها أنه يعرف حال غضبها ورضاها، عن عائشة ﵂، قالت: قال رسول الله ﷺ: «إني لأعرف غضبك ورضاك» قالت: قلت: وكيف تعرف ذاك يا رسول الله؟ قال: «إنك إذا كنت راضية قلت: بلى وربِّ محمد، وإذا كنت ساخطة قلت: لا وربِّ إبراهيم» قالت: قلت: أجل، لست أهاجر إلا اسمك. (أخرجه البخاري ٦٠٧٨، ومسلم ٢٤٣٩).

عن عائشة ﵂، قالت: «كنت أغار على اللاتي وهبن أنفسهن لرسول الله ﷺ، وأقول أتهب المرأة نفسها؟» فلما أنزل الله تعالى﴿تُرْجِى مَن تَشَآءُ مِنْهُنَّ وَتُـْٔوِىٓ إِلَيْكَ مَن تَشَآءُ ۖ وَمَنِ ٱبْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ﴾ قلت: ما أرى ربك إلا يسارع في هواك. (أخرجه البخاري ٤٧٨٨، ومسلم١٤٦٤).

ويستمع إليها ﵂، وهي تقارن نفسها بسائر زوجاته، مبينة تميزها، عن عائشة ﵂، قالت: قلت يا رسول الله، أرأيت لو نزلت واديًا، وفيه شجرة قد أُكل منها، ووجدت شجرًا لم يؤكل منها، في أيها كنت ترتع بعيرك؟ قال: «في الذي لم يرتع منها» تعني أن رسول الله ﷺ لم يتزوج بكرًا غيرها. (أخرجه البخاري ٥٠٧٧).

ومن واقعيته ﷺ مع أهل بيته: استيعابه ما قد يصدر منهن نتيجة الغيرة، والطبيعة البشرية، عن أنس ﵁ قال: كان النبي ﷺ عند بعض نسائه، فأرسلت إحدى أمهات المؤمنين بصحفة فيها طعام، فضربت التي النبي ﷺ في بيتها يدَ الخادم، فسقطت الصحفة فانفلقت، فجمع النبي ﷺ فلق الصحفة، ثم جعل يجمع فيها الطعام الذي كان في الصحفة، ويقول: «غارت أمكم»، ثم حبس الخادم حتى أتي بصحفة من عند التي هو في بيتها، فدفع الصحفة الصحيحة إلى التي كُسِرت صحفتها، وأمسك المكسورة في بيت التي كَسَرَت. (أخرجه البخاري ٥٢٢٥).

التربية على الاستشارة:

كان ﷺ يربى أهل بيته على الاستشارة، كما فعل ذلك مع عائشة ﵂، عن أبي سلمة بن عبد الرحمن أن عائشة ﵂ زوج النبي ﷺ أخبرته أن رسول الله ﷺ جاءها حين أمره الله أن يخير أزواجه، فبدأ بي رسول الله ﷺ فقال: «إني ذاكر لك أمرًا، فلا عليك أن تستعجلي حتى تستأمري أبويك»، وقد علم أن أبويَّ لم يكونا يأمراني بفراقه، قالت: ثم قال: «إن الله قال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزۡوَٰجِكَ﴾ (الأحزاب: ٢٨) إلى تمام الآيتين، فقلت له: ففي أي هذا أستأمر أبوي؟ فإني أريد الله، ورسوله، والدار الآخرة. (أخرجه البخاري ٤٧٨٥، ومسلم ١٤٧٥).

اللعب:

كان ﷺ يتيح لأهل بيته اللعب؛ فهو حاجة فطرية للإنسان، عن عائشة ﵂ قالت: دخل عليَّ رسول الله ﷺ، وعندي جاريتان تغنيان بغناء بُعاث، فاضطجع على الفراش، وحوَّل وجهه، ودخل أبو بكر، فانتهرني، وقال: مزمارة الشيطان عند النبي ﷺ؟ فأقبل عليه رسول الله عليه السلام، فقال: «دعهما»، فلما غفل، غمزتهما، فخرجتا، وكان يوم عيد، يلعب السودان بالدرق والحِراب، فإما سألت النبي ﷺ، وإما قال: «تشتهين تنظرين؟» فقلت: نعم، فأقامني وراءه، خَدِّي على خَدِّه، وهو يقول: «دونكم يا بني أرفدة»، حتى إذا مللت، قال: «حسبك؟» قلت: نعم، قال: «فاذهبي». (أخرجه البخاري ٩٤٩-٩٥٠، ومسلم ٨٩٢).

وكان ﷺ يقرها على اللعب مع صاحباتها، فعن عائشة ﵂ قالت: كنت ألعب بالبنات عند النبي ﷺ، وكان لي صواحب يلعبن معي، فكان رسول الله ﷺ إذا دخل يَتَقَمَّعْنَ[1] منه فَيُسَرِّبُهُنَّ إليَّ فيلعبن معي. (أخرجه البخاري ٦١٣٠، ومسلم ٢٤٤٠).

وزُفَّت إليه عائشة ﵂، ومعها لُعبها، فعن عائشة ﵂، أن النبي ﷺ تزوجها وهي بنت سبع سنين، وزُفَّتْ إليه وهي بنت تِسْعِ سنين، وَلُعَبُهَا معها، ومات عنها، وهي بنت ثَمانَ عشرة. (أخرجه مسلم ١٤٢٢).

وبقي لِعب عائشة ﵂ معها بقية حياتها مع رسول ﷺ، فتروي لنا ﵂ ماحدث في آخر حياة النبي ﷺ، عن عائشة ﵂ قالت: قَدِمَ رسول الله ﷺ من غزوة تبوك، أو خيبر

---

(١) قال ابن حجر: «قوله: يتقمعن، بمثناة وتشديد الميم المفتوحة، وفي رواية الكشميهني: بنون ساكنة وكسر الميم، ومعناه: أنهن يتغيبن منه ويدخلن من وراء الستر، وأصله من قمع التمرة، أي: يدخلن في الستر كما يدخلن التمرة في قمعها، قوله: فيسربهنَّ إلي، بسين مهملة ثم موحدة، أي: يرسلهن». (فتح الباري ١٠/ ٥٢٧).

وفي سَهْوَتِهَا سِتْرٌ، فهبت ريح؛ فكشفت ناحية السِّتْرِ عن بنات لعائشة لُعَبٍ، فقال: «ما هذا يا عائشة؟» قالت: بناتي، ورأى بينهن فرسًا له جناحان من رِقَاعٍ، فقال: «ما هذا الذي أرى وسطهن؟» قالت: فرس، قال: «وما هذا الذي عليه؟» قالت: جناحان، قال: «فرس له جناحان؟» قالت: أما سمعت أن لسليمان خيلًا لها أجنحة؟ قالت: فضحك حتى رأيت نَوَاجِذَهُ. (أخرجه أبو داود ٤٩٣٢).

إن بعض طلبة العلم ممن يتسمون بالجدية والصرامة يحرمون أولادهم من بعض المباحات، أو صور الترفيه الذي قد لا يستسيغونه دون دليل شرعي ظاهر، وربما احتجوا بأنهم موضع القدوة، وأولاد فلان من الناس، والقدوة مهما علا شأنه لن يكون بأعلى من مقام رسول الله ﷺ، ولن يكون أولاده بأفضل ولا خير من أمهات المؤمنين رضوان الله عليهن.

وقد سبق تناول اللعب للمرأة، وإنما نورد هنا ما يتصل بالبيت النبوي الطاهر.

المحادثة:

كان ﷺ يحادث نساءه ويؤانسهن، فعن عائشة رضي الله عنها، أن النبي ﷺ كان إذا صلَّى، فإن كنت مستيقظة حدثني، وإلا اضطجع حتى يؤذن بالصلاة. (أخرجه البخاري ١١٦١، ومسلم ٧٤٣).

وعنها رضي الله عنها قالت: كان رسول الله ﷺ إذا قضى صلاته من آخر الليل نظر، فإن كنت مستيقظة حدثني، وإن كنت نائمة أيقظني، وصلَّى الركعتين، ثم اضطجع حتى يأتيه المؤذن، فيؤذنه بصلاة الصبح، فيصلي ركعتين خفيفتين، ثم يخرج إلى الصلاة. (أخرجه أبو داود ١٢٦٢).

تحتاج الزوجة والأولاد إلى حديث والديهم معهم، وإلى أن يمنحوهم جزءًا من وقتهم، والقيمة هنا تتمثل في الحديث العفوي غير المرتبط بالنصح والتوجيه أو التعليم- وإن كان هذا مهمًّا- ولا المهام والواجبات الأسرية.

إن الحديث العفوي للوالدين مع أولادهم، أو للمربي مع تلامذته يشعرهم بقيمتهم وأهميتهم، ويسهم في تنمية الود، وتعزيز الصلة الإيجابية بين الطرفين، كما أنه يتيح الفرصة لاكتشاف كثير من الأخطاء والهفوات، وتصحيح أساليب التفكير، والحكم على المواقف، والواقع، والأشخاص، وتقويم المعلومات، والتعامل معها.

وتزداد ثمرة هذا التواصل والحديث حين يتسم بالعفوية، ويقل فيه التوجس من المربي، والتدقيق في التفاصيل، والسؤال عنها بما يشعر الطرف الآخر أن الهدف من الحديث هو معرفة ما لديه وتوجيهه، وليس نابعًا عن أهميته لدى المربي.

الاستماع والإنصات:

كان ﷺ يستمع لحديث أهل بيته، وينصت لهن، ومن الشواهد على ذلك الحديث المشهور حديث أم زرع، والذي استمع فيه ﷺ لعائشة ﵂، وهي تحكي له هذا الخبر الطويل، عن عائشة ﵂ قالت: جلس إحدى عشرة امرأة، فتعاهدن، وتعاقدن أن لا يكتمن من أخبار أزواجهن شيئًا، قالت الأولى: زوجي لحمُ جملٍ غثٍّ، ..... الحديث». (أخرجه البخاري ٥١٨٩، ومسلم ٢٤٤٨).

إن هذا الموقف النبوي الكريم منه ﷺ يجلِّي جانبًا من تواضعه وخلقه، فينصت ﷺ ويستمع لحديث طويل، وخبر من أخبار الجاهلية، وهو مَن هو ﷺ في الاعتناء بوقته، وقيمة الدقائق من حياته ﷺ.

قال القاضي عياض- في الفوائد الفقهية لهذا الحديث-: «في استهلال هذا الحديث من الفقه حُسْن عشرة الرجل مع أهله وتأنيسهن، واستحباب محادثتهن بما لا إثم فيه، كما فعل النبي ﷺ ها هنا بحديثه لعائشة ﵂، ومَن كان معها من أزواجه بخبر هؤلاء النسوة، وهكذا ترجم البخاري عليه: «باب حُسن العشرة مع الأهل»، وقد وردت الآثار الصحيحة بحسن عشرته ﷺ لأهله، ومباسطته إياهم، وكذلك السلف الصالح، وقد كان مالك ﵁ يقول: في ذلك مرضاة لربك، ومحبة في أهلك، ومثراة في مالك، ومنسأة في أجلك، قال: وقد بلغني ذلك عن بعض أصحاب النبي ﷺ، وكان مالك رحمه الله من أحسن الناس خلقًا مع أهله وولده، وكان يحدث يقول: يجب على الإنسان أن يتحبب إلى أهل داره حتى يكون أحب الناس إليهم». (بغية الرائد لما تضمنه حديث أم زرع من الفوائد ص٣٢).

وما قيل في الحديث مع الأهل ينطبق على الاستماع، فكما تحتاج الزوجة والأولاد إلى الحديث معهم، فهم كذلك بحاجة إلى الاستماع الذي يُعبِّر عن الاهتمام بهم، لا الاستماع المتعلق بمصالح الوالدين فحسب.

الأخذ بمشورتهن:

كان ﷺ يستمع لآراء أهل بيته، ويأخذ بمشورتهن، ففي حديث الوحي: استمع ﷺ لمشورة أم المؤمنين خديجة ﵂، وذهب معها إلى ورقة بن نوفل، فقد جاء في حديث بدء الوحي: فانطلقت به خديجة حتى أتت به ورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العزى ابن عم خديجة، وكان امرءًا تنصَّر في الجاهلية، وكان يكتب الكتاب العبراني، فيكتب من الإنجيل بالعبرانية ما شاء الله أن يكتب، وكان شيخًا كبيرًا قد عَمِيَ، فقالت له خديجة: يا ابن عم، اسمع من ابن أخيك، فقال له ورقة: يا ابن أخي ماذا ترى؟ فأخبره رسول الله ﷺ خبر ما رأى، فقال له ورقة: هذا الناموس الذي نزل الله على موسى، يا ليتني فيها جذعًا، ليتني أكون

حيًّا إذ يُخرجك قومك، فقال رسول الله ﷺ: «أوَمُخْرِجِيَّ هم؟»، قال: نعم، لم يأتِ رجل قطُّ بمثل ما جئت به إلا عُودِيَ، وإن يدركني يومك أنصرك نصرًا مؤزَّرًا، ثم لم ينشب ورقة أن توفي، وفَتَرَ الوحي. (أخرجه البخاري ٣، ومسلم ١٦٠).

ولم يكن أخذه ﷺ بمشورة أهل بيته قاصرًا على شأنه الخاص، بل أخذ ﷺ برأي زوجته أم سلمة ﵂ في شأن من شؤون المسلمين، ففي غزوة الحديبية، وبعد إبرام الصلح مع قريش، أمر النبي ﷺ أصحابه بأن يحلقوا وينحروا، فلم يفعل أحد منهم ذلك، فأشارت عليه زوجه أم سلمة ﵂، وأخذ بمشورتها، جاء في حديث المسور بن مخرمة، ومروان: فلما فرغ من قضية الكتاب قال رسول الله ﷺ لأصحابه: «قوموا، فانحروا، ثم احلقوا»، قال: فوالله ما قام منهم رجل حتى قال ذلك ثلاث مرات، فلما لم يقم منهم أحد، دخل على أم سلمة، فذكر لها ما لقي من الناس، فقالت أم سلمة: يا نبي الله، أتحب ذلك؟ اخرج ثم لا تكلم أحدًا منهم كلمةً حتى تنحر بُدْنَك، وتدعو حالقك فيحلقك، فخرج فلم يكلم أحدًا منهم حتى فعل ذلك: نحر بُدْنَه، ودعا حالقه فحلقه، فلما رأوا ذلك؛ قاموا، فنحروا، وجعل بعضهم يحلق بعضًا حتى كاد بعضهم يقتل بعضا غمًّا... (أخرجه البخاري ٢٧٣٤).

الحسم فيما يقتضي ذلك:

إن لينه ورفقه ﷺ في تعامله مع أهل بيته لم يكن مانعًا من حسمه ﷺ ما يحتاج إلى حسم، فقد يطيل أهل البيت المراجعة والحديث مما يقتضي حسم الأمر، وإقفال باب الجدل والنقاش، فعن عائشة أم المؤمنين ﵂، أن رسول الله ﷺ قال في مرضه: «مروا أبا بكر يصلي بالناس» قالت عائشة: قلت: إن أبا بكر إذا قام في مقامك لم يسمع الناس من البكاء، فمُرْ عمر فليصَلِّ، فقال: «مروا أبا بكر فليُصَلِّ للناس» قالت عائشة لحفصة: قولي له: إن أبا بكر إذا قام في مقامك لم يسمع الناس من البكاء، فمُرْ عمر فليُصَلِّ للناس،

ففعلت حفصة، فقال رسول الله ﷺ: «مه، إنكن لأنتن صواحب يوسف، مروا أبا بكر، فليُصَلِّ للناس» قالت حفصة لعائشة: ما كنت لأصيب منك خيرًا. (أخرجه البخاري ٧١٦، ومسلم ٤١٨).

ومع أهمية حسن تعامل الرجل مع زوجه وأولاده، والاستماع لهم، إلا أنهم يحتاجون إلى قدر من الموضوعية والصرامة، فمن حقهم النقاش والمراجعة، والاختلاف مع والديهم، لكن حين يبدي كلٌّ منهم رأيه بوضوح، ويشرح مبرراته وأسباب موقفه؛ فلا معنى لاستمرار الجدل، وكثرة الأخذ والرد.

وحَسْم الجدل حين يطول، وإغلاق بابه له أثره في بناء الشخصية، فيتربى الأهل والأولاد على هذا المنهج في حياتهم العملية، وتعاملهم مع الآخرين، وفي المقابل: فإن ممن يعتادون الإفراط في الجدل والخصومة، ولا يُتعامل معهم بقدر من الحسم؛ يمارسون هذا السلوك مع الآخرين؛ مما يولد التبرم، والقلق لدى مَن يتعامل معهم.

لقد كان ﷺ يتعامل مع المرأة باللين والرفق، ويوصيها بذلك، لكن حين يقتضي الأمر الحزم؛ فقد كان ﷺ حازمًا.

وربما أدى الأمر إلى الهجر والإعراض، عن ابن عمر رضي الله عنهما، قال: أتى النبي ﷺ بيت فاطمة، فلم يدخل عليها، وجاء عليٌّ، فذكرت له ذلك، فذكره للنبي ﷺ، قال: «إني رأيت على بابها سترًا مَوْشِيًّا[1]»، فقال: «ما لي وللدنيا» فأتاها عليٌّ، فذكر ذلك لها، فقالت: ليأمرني فيه بما شاء، قال: «ترسل به إلى فلان، أهل بيت بهم حاجة». (أخرجه البخاري ٢٦١٣).

وتكرَّر الأمر مع عائشة رضي الله عنها، فتروي لنا الموقف فتقول: قَدِمَ رسول الله ﷺ من سفر، وقد سترت بقُرامٍ لي على سَهْوَةٍ لي، فيها تماثيل، فلما رآه رسول الله ﷺ هتكه، وقال: «أشد

(١) قال ابن حجر: «وقال المطرزي: الوشي خلط لون بلون، ومنه وشى الثوب إذا رقمه ونقشه، وقال ابن الجوزي: الموشى المخطط بألوان شتى». (فتح الباري ٥/ ٢٢٩).

الناس عذابًا يوم القيامة الذين يضاهون بخلق الله» قالت: فجعلناه وسادة، أو وسادتين. (أخرجه البخاري ٥٩٥٤، ومسلم ٢١٠٧).

وفي رواية مسلم: «فتلوَّن وجهه، ثم تناول الستر فهتكه».

وقد أخذ بهذا الهدي صاحبه ابن مسعود ﷺ الذي كان أشبه الناس هديًا وسمتًا برسول الله ﷺ، فعن زينب امرأة عبد الله ﷺ، قالت: كان عبد الله إذا جاء من حاجة فانتهى إلى الباب، تنحنح وبزق، كراهية أن يهجم مِنَّا على شيء يكرهه، قالت: وإنه جاء ذات يوم، فتنحنح، قالت: وعندي عجوز ترقيني من الحمرة، فأدخلتها تحت السرير، فدخل، فجلس إلى جنبي، فرأى في عنقي خيطًا، قال: ما هذا الخيط؟ قالت: قلت: خيط أرقي لي فيه، قالت: فأخذه فقطعه، ثم قال: إن آل عبد الله لأغنياء عن الشرك، سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الرُّقى، والتمائم، والتِّوَلَة شرك» قالت: فقلت له: لم تقول هذا، وقد كانت عيني تقذف، فكنت أختلف إلى فلان اليهودي يرقيها، وكان إذا رقاها سكنت؟ قال: إنما ذلك عمل الشيطان كان ينخسها بيده، فإذا رقيتها كفَّ عنها، إنما كان يكفيك أن تقولي كما قال رسول الله ﷺ: «أذهب الباس ربَّ الناس، اشفِ أنت الشافي، لا شفاء إلا شفاؤك، شفاءً لا يغادر سقمًا». (أخرجه أحمد ٣٦١٥، وأبو داود ٣٨٨٣، وابن ماجه ٣٥٣٠).

إنكار المخالفة الشرعية:

وحين يرى ﷺ من أهل بيته ما يخالف الشرع؛ فقد ينكر ذلك، بل ربما ترك ﷺ الأمر المسنون حسمًا للمخالفة، عن عائشة ﷺ أن النبي ﷺ أراد أن يعتكف، فلما انصرف إلى المكان الذي أراد أن يعتكف، إذا أخبية: خباء عائشة، وخباء حفصة، وخباء زينب، فقال: «آلبرَّ تقولون بهن؟» ثم انصرف، فلم يعتكف حتى اعتكف عشرًا من شوال. (أخرجه البخاري ٢٠٣٤، ومسلم ١١٧٣).

لقد ترك النبي ﷺ هذه العبادة العظيمة، وهي الاعتكاف في العشر الأواخر؛ إنكارًا لما فعله أزواجه رضوان الله عليهن، قال ابن حجر: «وفيه ترك الأفضل إذا كان فيه مصلحة». (فتح الباري ٤/ ٢٧٧).

وأيًّا كان سبب إنكاره ﷺ عليهن، وترك الاعتكاف؛ فالحديث دليل على منهجه ﷺ في الإنكار على أهل بيته.

وينكر ﷺ على أهل بيته بيده، كما سبق في حديث عائشة ﵂ في هتكه ﷺ للستر.

والإنكار على أهل البيت جزء من مسؤولية الرجل عن أهل بيته، وقد أكد ﷺ على هذا المعنى في قوله: «كلكم راعٍ، ومسئول عن رعيته، فالإمام راعٍ، وهو مسئول عن رعيته، والرجل في أهله راعٍ، وهو مسئول عن رعيته، والمرأة في بيت زوجها راعية، وهي مسئولة عن رعيتها، والخادم في مال سيِّده راعٍ، وهو مسئول عن رعيته»، قال: فسمعت هؤلاء من رسول الله ﷺ، وأحسب النبي ﷺ قال: «والرجل في مال أبيه راعٍ، وهو مسئول عن رعيته، فكلكم راعٍ، وكلكم مسئول عن رعيته». (أخرجه البخاري ٢٤٠٩، ومسلم ١٨٢٩).

العقوبة:

وربما عاقب النبي ﷺ بعض أهل بيته حين يقتضي الأمر ذلك، فعن عائشة ﵂، أن رسول الله ﷺ كان في سفر له، فاعتلَّ بعير لصفية، وفي إبل زينب فضل، فقال لها رسول الله ﷺ: «إن بعيرًا لصفية اعتلَّ، فلو أعطيتها بعيرًا من إبلك؟» فقالت: أنا أُعطي تلك اليهودية؟! قال: فتركها رسول الله ﷺ ذا الحجة والمحرم شهرين، أو ثلاثة، لا يأتيها، قالت: حتى يئست منه، وحوَّلت سريري، قالت: فبينما أنا يومًا بنصف النهار، إذا أنا بظل رسول الله ﷺ مقبل. (أخرجه أحمد ٢٥٠٠٢، وأبو داود ٤٦٠٢).

وسبق تناول جزء من ذلك عند الحديث عن تربية المرأة.

الوصية بحق الزوجة:

ويوصي ﷺ الرجال بالقيام بحقوق الزوجة وأهل البيت، ويجعل ذلك مقدمًا على المبالغة في نوافل العبادات؛ ففي حديث عبدالله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما حين كان يبالغ في الاجتهاد في العبادة ذكَّره ﷺ بحق أهل بيته، فقال له: «فإن لزوجك عليك حقًا، ولزورك عليك حقًّا، ولجسدك عليك حقًّا»، وفي رواية أخرى لمسلم، أنه قال: «وإن لولدك عليك حقًّا». (أخرجه مسلم ١١٥٩).

الوصية بشؤون الذرية المادية:

ويوصي ﷺ بالاعتناء بحق الذرية في المال والعيش الكريم، ويُقدِّم ذلك على التوسع في الوصية بعد الموت، عن سعد بن أبي وقاص قال: مرضت بمكة مرضًا، فأشفيت منه على الموت، فأتاني النبي ﷺ يعودني، فقلت: يا رسول الله، إن لي مالًا كثيرًا، وليس يرثني إلا ابنتي، أفأتصدق بثلثي مالي؟ قال: «لا» قال: قلت: فالشطر؟ قال: «لا» قلت: الثلث؟ قال: «الثلث كبير، إنك إن تركت ولدك أغنياء خير من أن تتركهم عالة يتكفَّفون الناس، وإنك لن تنفق نفقة إلا أُجرت عليها، حتى اللقمة ترفعها إلى في امرأتك» فقلت: يا رسول الله، آأخلف عن هجرتي؟ فقال: «لن تخلف بعدي، فتعمل عملًا تريد به وجه الله، إلا ازددت به رفعة ودرجة، ولعل أن تخلف بعدي حتى ينتفع بك أقوام، ويُضرَّ بك آخرون، لكن البائس سعد ابن خولة» يرثي له رسول الله ﷺ أن مات بمكة. (أخرجه البخاري ٦٧٣٣، ومسلم ١٦٢٨).

مراعاة الحاجات النفسية:

كان ﷺ يراعي الحاجة النفسية لأهل بيته، فقد أذن لعائشة رضي الله عنها في النظر لأهل الحبشة وهم يلعبون- كما سبقت الإشارة إليه-، وقالت رضي الله عنها في ذلك: «كان الحبش يلعبون

بحرابهم، فسترني رسول الله ﷺ وأنا أنظر، فما زلت أنظر حتى كنت أنا أنصرف»، فاقدروا قدر الجارية الحديثة السن، تسمع اللهو». (أخرجه البخاري ٥١٩٠، ومسلم ٨٩٢).

ومن رعايته ﷺ للحاجة النفسية لأهل بيته: ما حصل منه ﷺ مع عائشة ﵂، فقد حاضت وهي في الحج، فأمرها ﷺ بالبقاء على إحرامها، وأخبرها أن طوافها يجزيها عن الحج والعمرة، فلم يزل الأمر في نفسها، فأذن لها ﷺ بالعمرة مراعاة لها، وقد جاء في حديث جابر ﷺ: وكان رسول الله ﷺ رجلًا سهلًا، إذا هويت الشيء تابعها عليه، فأرسلها مع عبد الرحمن بن أبي بكر، فأهلَّت بعمرة من التنعيم. (أخرجه مسلم ١٢١٣).

إن بعض الرجال قد لا يُقدِّر الحاجة النفسية لأهل بيته، ويتعامل مع حاجاتهم ومطالبهم بمنطقية عالية لا تتلاءم مع الطبيعة البشرية، وما فيها من عواطف ومشاعر، وهذا مخالف لهدي أكمل البشرية عقلًا ﷺ.

تبشيرهن بما يفرحهن:

ومن حسن تعامله وعشرته ﷺ مع أهل بيته: أنه يبشر نساءه بما يفرحهن، كما بشَّر عائشة ﵂ بشفائه مما أصابه من السحر، فعن عائشة ﵂، قالت: سُحِر النبي ﷺ، وقال الليث: كتب إلي هشام أنه سمعه، ووعاه عن أبيه، عن عائشة ﵂ قالت: سُحِر النبي ﷺ، حتى كان يخيل إليه أنه يفعل الشيء وما يفعله، حتى كان ذات يوم دعا ودعا، ثم قال: «أُشعرت أن الله أفتاني فيما فيه شفائي، أتاني رجلان: فقعد أحدهما عند رأسي، والآخر عند رجلي، فقال أحدهما للآخر: ما وجع الرجل؟ قال: مطبوب، قال: ومن طبَّه؟ قال لبيد بن الأعصم، قال: فيما ذا، قال: في مُشط، ومُشاقة وجُفِّ طلعةِ ذَكَر، قال: فأين هو؟ قال: في بئر ذَرْوَان» فخرج إليها النبي ﷺ، ثم رجع، فقال لعائشة حين رجع: «نخلها كأنها رؤوس الشياطين» فقلت: استخرجته؟ فقال: «لا، أما أنا فقد شفاني الله، وخشيت أن يثير ذلك على الناس شرًّا» ثم دفنت البئر. (أخرجه البخاري ٣٢٦٨، ومسلم ٢١٨٩).

الإخبار بالهموم:

وربما شارك ﷺ أهل بيته ونساءه همومه حين يرى أن في ذلك مصلحة، فقد حدَّث ﷺ أم المؤمنين خديجة رضي الله عنها بما أصابه حين نزل عليه الوحي، جاء في حديث بدء الوحي الذي روته أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها، وفيه: أول ما بُدئ به رسول الله ﷺ من الوحي الرؤيا الصالحة..... فرجع بها رسول الله ﷺ يرجف فؤاده، فدخل على خديجة بنت خويلد رضي الله عنها ، فقال: «زمِّلوني زمِّلوني»، فزمَّلوه حتى ذهب عنه الروع، فقال لخديجة، وأخبرها الخبر: «لقد خشيت على نفسي»، فقالت خديجة: كلَّا، والله ما يخزيك الله أبدًا، إنك لتصِلُ الرحم، وتحمل الكَلَّ، وتكسب المعدوم، وتقري الضيف، وتُعين على نوائب الحق، فانطلقت به خديجة حتى أتت به ورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العُزَّى ابن عم خديجة، وكان امرأ تنصَّر في الجاهلية، وكان يكتب الكتاب العبراني، فيكتب من الإنجيل بالعبرانية ما شاء الله أن يكتب، وكان شيخًا كبيرًا قد عَمِيَ، فقالت له خديجة: يا ابن عم، اسمع من ابن أخيك، فقال له ورقة: يا ابن أخي ماذا ترى؟ فأخبره رسول الله ﷺ خبر ما رأى، فقال له ورقة: هذا الناموس الذي نزل الله على موسى، يا ليتني فيها جذعًا، ليتني أكون حيًّا إذ يخرجك قومك، فقال رسول الله ﷺ: «أَوَمُخْرِجِيَّ هم»، قال: نعم، لم يأتِ رجل قطُّ بمثل ما جئت به إلا عُودِيَ، وإن يدركني يومك أنصرك نصرًا مؤزرًا، ثم لم ينشب ورقة أن توفي، وفَتَرَ الوحي. (أخرجه البخاري ٣، ومسلم ١٦٠).

التخصيص بالسر:

وربما خصَّ النبي ﷺ أهل بيته بالسر؛ فقد خصَّ ﷺ ابنته فاطمة رضي الله عنها بقرب أجله ﷺ ووداعه الدنيا، فعن عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها قالت: إنا كُنَّا أزواج النبي ﷺ عنده جميعًا، لم تغادر مِنَّا واحدة، فأقبلت فاطمة عليها السلام تمشي، لا- والله- ما تخفى مشيتها من مشية

رسول الله ﷺ فلما رآها رحب، قال: «مرحبًا بابنتي»، ثم أجلسها عن يمينه، أو عن شماله، ثم سارَّها، فبكت بكاءً شديدًا، فلما رأى حزنها سارَّها الثانية، فإذا هي تضحك، فقلت لها- أنا من بين نسائه-: خصَّك رسول الله ﷺ بالسر من بيننا، ثم أنت تبكين، فلما قام رسول الله ﷺ سألتها: عما سارَّك؟ قالت: ما كنت لأفشي على رسول الله ﷺ سره، فلما توفي، قلت لها: عزمت عليك بما لي عليك من الحق لما أخبرتني، قالت: أما الآن، فنعم، فأخبرتني، قالت: أما حين سارَّني في الأمر الأول، فإنه أخبرني: «أن جبريل كان يعارضه بالقرآن كل سنة مرة، وإنه قد عارضني به العام مرتين، ولا أرى الأجل إلا قد اقترب، فاتقي الله واصبري؛ فإني نعم السلف أنا لك» قالت: فبكيت بكائي الذي رأيت، فلما رأى جزعي سارَّني الثانية، قال: «يا فاطمة، ألا ترضين أن تكوني سيدة نساء المؤمنين، أو سيدة نساء هذه الأمة؟». (أخرجه البخاري ٦٢٨٥، ومسلم ٢٤٥٠).

* * *

الفصل الثامن: تربية الأطفال

تهيئة البيئة التربوية.

الرعاية المبكرة.

الرحمة والملاطفة.

الاهتمام.

المعاشرة والمجالسة.

التعليم والتأديب.

التهيئة للمسؤولية.

اللعب.

دعاؤه لهم.

أمره بالعدل بينهم.

تحسين الاسم.

تربية الأطفال

تعد مرحلة الطفولة مرحلة مهمة في حياة الإنسان، فمن خلالها تتشكل كثير من جوانب شخصيته، وتترسخ فيها معانٍ عِدَّة، وقيم تلازمه طوال حياته.

ولو تأملت في شخصية رجل بالغ، أو امرأة؛ فإنك تستطيع تفسير كثير من تصرفاتهم، وقيمهم، وجوانب شخصيتهم من خلال ما تلقوه من تربية في طفولتهم.

ولحكمة يريدها الله سبحانه وتعالى طالت طفولة الإنسان حتى وصلت إلى خمسة عشر عامًا، يتربى طوال هذه المرحلة، ويتهيأ لمرحلة الرجولة والتكليف.

وغرس الله عز وجل حب الطفل لدى والديه، وجعل الأولاد من زينة الدنيا، فقال سبحانه: ﴿ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾(الكهف: ٤٦)، وهذا يسهم في حرص الوالدين، واعتنائهم برعاية الطفل وتربيته، كما أنه يسهم في استمتاع الوالدين بملاعبة الطفل، وحمله، والتواصل معه، وهذا له أثره في نمو كثير من جوانب شخصيته، وتلبية كثير من حاجاته النفسية والعاطفية.

كما أحاطت الشريعةُ الطفولةَ بأحكام خاصة تتصل بحسن رعايتهم وتربيتهم: كالتسمية، والعقيقة، والختان، والإرضاع... ونحو ذلك.

ولأهمية التربية في مرحلة الطفولة؛ فقد ارتبط بها مفهوم التربية ارتباطًا ظاهرًا، حتى صار الأسبق للذهن حين يثار مصطلح التربية.

وجاء مصطلح التربية في القرآن الكريم مقترنًا بمرحلة الطفولة، كما قال سبحانه: ﴿وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا﴾(الإسراء: ٢٤)، وقال: ﴿قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ﴾(الشعراء: ١٨).

وتحفل كتب السيرة النبوية بمواقفه ﷺ في التعامل مع الأطفال، وتربيتهم، ورعايتهم، سواء في ذلك من عاشوا قريبًا منه: كالحسن والحسين رضي الله عنهما، وغيرهما، أو سائر أطفال المهاجرين والأنصار.

وفيما يلي نتناول جوانب من هَدْيه ﷺ في تربية الأطفال ورعايتهم.

تهيئة البيئة التربوية

تبدأ التربية الصحيحة من تهيئة البيئة التربوية الملائمة لنشأة الطفل، وتتمثل تلك البيئة في الأسرة؛ ولذا عنيت الشريعة بتهيئة البيئة الأسرية لتربية الطفل.

وتتمثل جوانب العناية بتهيئة البيئة التربوية للطفل في التربية النبوية فيما يلي:

١- تأصيل المسؤولية عن رعاية الأسرة:

أكد ﷺ على أصحابه مسؤولية كل فرد عن رعاية أولاده وأسرته، وبيَّن أنه سيسأل يوم القيامة عن هذه الأمانة والرعاية، عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «كلكم راعٍ، وكلكم مسئول عن رعيته، الإمام راعٍ، ومسئول عن رعيته، والرجل راعٍ في أهله، وهو مسئول عن رعيته، والمرأة راعية في بيت زوجها، ومسئولة عن رعيتها، والخادم راعٍ في مال سيِّده، ومسئول عن رعيته» قال:- وحسبت أن قد قال-: «والرجل راعٍ في مال أبيه، ومسئول عن رعيته، وكلكم راعٍ ومسئول عن رعيته». (أخرجه البخاري ٨٩٣، ومسلم ١٨٢٩).

قال النووي في شرح الحديث: «قال العلماء: الراعي: هو الحافظ، المؤتمن، الملتزم صلاح ما قام عليه، وما هو تحت نظره، ففيه أن كل مَن كان تحت نظره شيء فهو مطالب بالعدل فيه، والقيام بمصالحه في دينه، ودنياه، ومتعلقاته». (١٢/ ٢١٣).

وأمر الله عز وجل بوقاية الأهل من عذاب النار، فقال سبحانه:﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُ﴾ (التحريم ٦).

وحذَّر ﷺ من التفرقة بين الولد ووالدته، فعن أبي أيوب رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «مَن فرَّق بين الوالدة وولدها؛ فرَّق الله بينه وبين أحبته يوم القيامة»، (أخرجه الترمذي ١٢٨٣).

٢- اعتبار القدرة على التربية في اختيار الزوجة:

ولما كان تكوين الأسرة يبدأ من اختيار الزوجة؛ بيَّن النبي ﷺ أن معيار الدين أهم معايير اختيار الزوجة؛ فعن أبي هريرة ﷺ، عن النبي ﷺقال: «تُنكح المرأة لأربع: لمالها، ولحسبها، وجمالها، ولدينها، فاظفر بذات الدين، تَرِبَتْ يداك». (أخرجه البخاري ٥٠٩٠، ومسلم ١٤٦٦).

والمرأة ذات الدين هي التي ستكون قدوة لأولادها، وهي التي ستستشعر مسؤوليتها عن تربيتهم ورعايتهم، وتربيهم على مخافة الله عز وجل وطاعته.

وأقرَّ النبي ﷺ جابر بن عبد الله ﷺ على تفضيل الثَّيِّب على البكر، وهو يتزوج أول مرة من أجل مصلحة رعاية الأولاد وتربيتهم.

عن جابر بن عبد الله ﷺ، قال: غزوت مع رسول الله ﷺ، قال: فتلاحق بي النبي ﷺ، وأنا على ناضح لنا، قد أعيا فلا يكاد يسير، فقال لي: «ما لبعيرك؟»، قال: قلت: عَيِيَ، قال: فتخلف رسول الله ﷺ، فزجره، ودعا له، فما زال بين يدي الإبل قُدَّامَها يسير، فقال لي: «كيف ترى بعيرك؟»، قال: قلت: بخير، قد أصابته بركتك، قال: «أفتبيعنيه؟» قال: فاستحييت، ولم يكن لنا ناضح غيره، قال: فقلت: نعم، قال: فبعنيه، فبعته إياه على أن لي فقار ظهره، حتى أبلغ المدينة قال: فقلت: يا رسول الله إني عروس، فاستأذنته، فأذن لي، فتقدمت الناس إلى المدينة حتى أتيت المدينة، فلقيني خالي، فسألني عن البعير، فأخبرته بما صنعت فيه، فلامني، قال: وقد كان رسول الله ﷺ قال لي- حين استأذنته-: «هل تزوجت بكرًا أم ثيِّبًا؟»، فقلت: تزوجت ثيِّبًا، فقال: «هلَّا تزوجت بكرًا تلاعبها وتلاعبك»، قلت: يا رسول الله، توفي والدي- أو استشهد-، ولي أخوات صغار، فكرهت أن أتزوج مثلهن، فلا تؤدبهن، ولا تقوم عليهن، فتزوجت ثيِّبًا؛ لتقوم عليهن وتؤدبهن، قال: فلما قدم رسول

الله ﷺ المدينة غدوت عليه بالبعير، فأعطاني ثمنه، وردَّه عليَّ، قال المغيرة: هذا في قضائنا حسن، لا نرى به بأسًا. (أخرجه البخاري ٢٩٦٧، ومسلم ٧١٥).

وفي رواية للبخاري (٢٣٠٩): إن أبي توفي، وترك بنات، فأردت أن أنكح امرأة قد جربت خِلًّا منها، قال: «فذلك».

٣- ثناؤه على الحُنو على الولد:

أثنى ﷺ على مَن يحنو على الولد، وجعل ذلك معيارًا لخيرية النساء؛ فعن أبي هريرة ﷺ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «نساء قريش خير نساء ركبن الإبل؛ أحناه على طفل، وأرعاه على زوج في ذات يده». (أخرجه البخاري ٣٤٣٤، ومسلم ٢٥٢٧)، وسبقت الإشارة لذلك.

والحُنو على الولد يسهم في تهيئة البيئة التربوية الصالحة للطفل.

٤- الترغيب في صلاح الولد:

أعظم غاية تُرتجى من تربية الولد: صلاحه، وطاعته لله عز وجل، وقد رغَّب ﷺ في هذا الأمر، وبيَّن أن صلاح الولد من أسباب استمرار العمل الصالح للميت بعد موته، فعن أبي هريرة ﷺ، أن رسول الله ﷺ، قال: «إذا مات الإنسان انقطع عنه عمله إلا من ثلاثة: إلا من صدقة جارية، أو علم يُنتفع به، أو ولد صالح يدعو له». (أخرجه مسلم ١٦٣١).

وهذا مما يحفز الوالدين على الاجتهاد في إصلاح أولادهما؛ ليتحقق لهما هذا الفضل، ولا ينقطع الأجر بعد موتهما.

٥- رعاية فاقدي الأبوين:

حين يفقد الولد أباه وأمه، فقد كان ﷺ يُعنى بتهيئة البيئة البديلة لتربيته ورعايته، عن عبد الله بن بريدة، عن أبيه، أن ماعز بن مالك الأسلمي ﷺ أتى رسول الله ﷺ، فقال: يا رسول الله، إني قد ظلمت نفسي، وزنيت، وإني أريد أن تطهرني، فردَّه، فلما كان من الغد أتاه، فقال: يا رسول الله، إني قد زنيت، فردَّه الثانية، فأرسل رسول الله ﷺ إلى قومه، فقال: «أتعلمون بعقله بأسًا، تنكرون منه شيئًا؟» فقالوا: ما نعلمه إلا وفي العقل من صالحينا فيما نرى، فأتاه الثالثة، فأرسل إليهم- أيضًا- فسأل عنه، فأخبروه أنه لا بأس به، ولا بعقله، فلما كان الرابعة حفر له حفرة، ثم أمر به، فرُجِم، قال، فجاءت الغامدية، فقالت: يا رسول الله، إني قد زنيت فطهِّرْني، وإنه ردَّها، فلما كان الغد، قالت: يا رسول الله، لِمَ تردَّني؟ لعلك أن تردني كما رددت ماعزًا، فوالله إني لَحُبْلَى، قال: «إما لا فاذهبي حتى تلدي»، فلما ولدت أتته بالصبي في خرقة، قالت: هذا قد ولدته، قال: «اذهبي فأرضعيه حتى تفطميه»، فلما فطمته أتته بالصبي في يده كسرة خبز، فقالت: هذا يا نبي الله قد فطمته، وقد أكل الطعام، فدفع الصبي إلى رجل من المسلمين، ثم أمر بها، فحُفر لها إلى صدرها، وأمر الناس فرجموها، فيقبل خالد بن الوليد بحجر، فرمى رأسها فتنضح الدم على وجه خالد فسبَّها، فسمع نبي الله ﷺ سبَّه إياها، فقال: «مهلًا يا خالد، فوالذي نفسي بيده لقد تابت توبة، لو تابها صاحب مَكْس؛ لغُفِر له»، ثم أمر بها، فصلى عليها، ودُفنت. (أخرجه مسلم ١٦٩٥).

وجاء في إحدى روايات الحديث لدى مسلم: «فقام رجل من الأنصار، فقال: إليَّ رضاعه يا نبي الله» قال النووي: «ويكون قوله في الرواية الأولى: قام رجل من الأنصار فقال: إليَّ رضاعه، إنما قاله بعد الفطام، وأراد بالرضاعة: كفالته وتربيته، وسماه رضاعًا مجازًا». (شرح صحيح مسلم ١١/ ٢٠٢).

وعظَّم ﷺ شأن اليتيم، وقرن كافله بنفسه الشريفة ﷺ، وذلك مما يحفز الناس على كفالته، وعلى حسن تربيته ورعايته.

عن سهل بن سعد ﷺ، عن النبي ﷺ قال: «أنا وكافل اليتيم في الجنة هكذا»، وقال بإصبعيه: السبابة، والوسطى. (أخرجه البخاري ٦٠٠٥).

وهذا الأجر العظيم المترتب على كفالة اليتيم يشمل اليتيم القريب والبعيد، عن أبي هريرة ﷺ، قال: قال رسول الله ﷺ: «كافل اليتيم له أو لغيره، أنا وهو كهاتين في الجنة»، وأشار مالك بالسبابة، والوسطى. (أخرجه مسلم ٢٩٨٣).

وبلغ من رعايته ﷺ باليتيم أن أصبح مضرب المثل في ذلك؛ فعن عائشة ﷺ، أنها تمثلت بهذا البيت، وأبو بكر ﷺ يقضي: وأبيض يستسقى الغمام بوجهه ربيع اليتامى عصمة للأرامل، فقال أبو بكر ﷺ: ذاك والله رسول الله ﷺ. (أخرجه أحمد ٢٧).

العناية المبكرة

اعتنى ﷺ بالمولود ساعة خروجه إلى الدنيا، ويتمثل ذلك في سيرته العملية وهديه ﷺ، وفي توجيهاته وأوامره لأصحابه.

ومن صور الاعتناء النبوي المبكر بالمولود ما يلي:

١- التأذين:

حين وُلد الحسن ﷺ أَذَّن النبي ﷺ في أذنه، عن عبيد الله بن أبي رافع، عن أبيه قال: «رأيت رسول الله ﷺ أذَّن في أُذُنِ الحسن بن عليٍّ حين ولدته فاطمة بالصلاة». (أخرجه الترمذي ١٥١٤).

قال ابن القيم: «وسر التأذين- والله أعلم-: أن يكون أول ما يقرع سمع الإنسان كلماته المتضمنة لكبرياء الرب وعظمته، والشهادة التي أول ما يدخل بها في الإسلام، فكان ذلك كالتلقين له شعار الإسلام عند دخوله إلى الدنيا، كما يُلقَّن كلمة التوحيد عند خروجه منها، وغير مستنكر وصول أثر التأذين إلى قلبه وتأثيره به، وإن لم يشعر، مع ما في ذلك من فائدة أخرى، وهي: هروب الشيطان من كلمات الأذان، وهو كان يرصده حتى يولد فيقارنه للمحنة التي قدرها الله وشاءها؛ فيسمع شيطانه ما يضعفه ويغيظه أول أوقات تعلقه به، وفيه معنى آخر، وهو: أن تكون دعوته إلى الله، وإلى دينه الإسلام، وإلى عبادته سابقة على دعوة الشيطان، كما كانت فطرة الله التي فطر عليها سابقة على تغيير الشيطان لها ونقله عنها، ولغير ذلك من الحكم». (تحفة المودود ص٢١).

٢- التحنيك:

كان ﷺ يحنك الأطفال، وهم صغار، فأول ما يدخل أفواههم ريقه الشريف ﷺ

فعن أسماء رضي الله عنها: أنها حملت بعبد الله بن الزبير رضي الله عنهما، قالت: فخرجت، وأنا متم، فأتيت المدينة، فنزلت بقباء فولدته بقباء، ثم أتيت به النبي ﷺ فوضعته في حجره، ثم «دعا بتمرة فمضغها، ثم تفل في فيه، فكان أول شيء دخل جوفه ريق رسول الله ﷺ، ثم حنَّكه بتمرة، ثم دعا له، وبرَّك عليه، وكان أول مولود وُلد في الإسلام». (أخرجه البخاري ٣٩٠٩، ومسلم ٢١٤٦).

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: «أتي النبي ﷺ بصبي يُحنِّكه، فبال عليه، فأتبعه الماء». (أخرجه البخاري ٥٤٦٨، ومسلم ٢٨٦).

وفي رواية لمسلم (٢٨٦): «أن رسول الله ﷺ كان يؤتى بالصبيان، فيبرك عليهم ويحنكهم، فأُتِيَ بصبي، فبال عليه، فدعا بماء، فأتبعه بوله، ولم يغسله».

وعن أبي موسى رضي الله عنه قال: «وُلد لي غلام، فأتيت به النبي ﷺ فسماه إبراهيم، فحنَّكه بتمرة، ودعا له بالبركة، ودفعه إليَّ»، وكان أكبر ولد أبي موسى. (أخرجه البخاري ٥٤٦٧، ومسلم ٢١٤٥).

وحنَّك ﷺ عبد الله بن أبي طلحة رضي الله عنهما، عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: كان ابن لأبي طلحة يشتكي، فخرج أبو طلحة، فقبض الصبي، فلما رجع أبو طلحة، قال: ما فعل ابني، قالت أم سليم: هو أسكن ما كان، فقرَّبت إليه العشاء فتعشى، ثم أصاب منها، فلما فرغ قالت: وَارُوا الصبي، فلما أصبح أبو طلحة أتى رسول الله ﷺ فأخبره، فقال: « أعرستم الليلة؟» قال: نعم، قال: «اللهم بارك لهما» فولدت غلامًا، قال لي أبو طلحة: احفظه حتى تأتي به النبي ﷺ، فأتى به النبي ﷺ وأرسلت معه بتمرات، فأخذه النبي ﷺ فقال: «أمعه شيء؟» قالوا: نعم، تمرات، فأخذها النبي ﷺ فمضغها، ثم أخذ من فيه، فجعلها في في الصبي، وحنَّكه به. (أخرجه البخاري ٥٤٧٠، ومسلم ٢١٤٤).

قال النووي: «اتفق العلماء على استحباب تحنيك المولود عند ولادته بتمر، فإن تعذر فما في معناه، وقريب منه من الحلو؛ فيمضغ المحنِّك التمر حتى تصير مائعة بحيث تُبتلَع، ثم يفتح فمَ المولود، ويضعها فيه؛ ليدخل شيء منها جوفه». (شرح صحيح مسلم ١٤/ ١٢٢-١٢٣).

وقال: «وفي هذا الحديث- حديث أنس- فوائد منها تحنيك المولود عند ولادته، وهو سنة بالإجماع». (شرح صحيح مسلم ١٤/ ١٢٣).

٣- تحسين الاسم:

الاسم يُخاطَب به الإنسان ويُدعى به، ويلازمه في كل أحواله؛ لذا اعتنى بحسن تسمية المولود، وغيَّر ﷺ ما لا يناسب من الأسماء؛ فعن سهل ﵁ قال: أُتِيَ بالمنذر بن أبي أسيد إلى النبي ﷺ حين وُلد، فوضعه على فخذه، وأبو أسيد جالس، فلها النبي ﷺ بشيء بين يديه، فأمر أبو أسيد بابنه، فاحتمل من فخذ النبي ﷺ، فاستفاق النبي ﷺ فقال: «أين الصبي؟» فقال أبو أسيد: قلبناه يا رسول الله، قال: «ما اسمه؟» قال: فلان، قال: «ولكن أَسْمِهِ المنذر»، فسماه يومئذ المنذر. (أخرجه البخاري ٦١٩١، ومسلم ٢١٤٩).

قال ابن حجر: «قال الداودي: سماه المنذر؛ تفاؤلًا أن يكون له علم ينذر به». (فتح الباري ١٠/ ٥٧٦).

ولما كان الاسم قد يكون له أثر على صاحبه غيَّر ﷺ بعض أسماء أصحابه، عن عبد الحميد بن جبير بن شيبة، قال: جلست إلى سعيد بن المسيب، فحدثني: أن جده حَزْنًا قَدِمَ على النبي ﷺ فقال: «ما اسمك؟» قال: اسمي حَزْن، قال: «بل أنت سهل» قال: ما أنا بمغير اسمًا سمَّانيه أبي، قال ابن المسيب: «فما زالت فينا الحُزُونَة بعد». (أخرجه البخاري ٦١٩٣).

وبوَّب البخاري على هذا الحديث، وحديث سهل السابق: باب تحويل الاسم إلى اسم أحسن منه.

ونهى ﷺ عن بعض الأسماء التي قد تؤدي بالبعض إلى التطير، عن سمرة بن جندب، قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تُسمِّ غلامك رباحًا، ولا يسارًا، ولا أفلح، ولا نافعًا». (أخرجه مسلم ٢١٣٦).

وفي رواية لمسلم (٢١٣٧): «ولا تسمين غلامك يسارًا، ولا رباحًا، ولا نجيحًا، ولا أفلح، فإنك تقول: أثم هو؟ فلا يكون فيقول: لا إنما هن أربع، فلا تزيدن عليَّ».

قال الخطابي: «قد بيَّن النبي ﷺ المعنى في ذلك، وذكر العلة التي من أجلها وقع النهي عن التسمية بها، وذلك أنهم كانوا يقصدون بهذه الأسماء، وبما في معانيها إما التبرك بها، أو التفاؤل بحسن ألفاظها، فحذَّرهم أن يفعلوه؛ لئلا ينقلب عليهم ما قصدوه في هذه التسميات إلى الضد، وذلك إذا سألوا، فقالوا: أثم يسار؟ أثم رباح؟ فإذا قيل: لا، تطيروا بذلك وتشاءموا، به وأضمروا على الأياس من اليسر والرباح، فنهاهم عن السبب الذي يجلب لهم سوء الظن بالله سبحانه، ويورثهم الأياس من خيره». (معالم السنن ٤/ ١٢٨).

كما غيَّر ﷺ اسم عاصية، فعن ابن عمر رضي الله عنهما: «أن ابنة لعمر كانت يُقال لها: عاصية فسماها رسول الله ﷺ جميلة». (أخرجه مسلم ٢١٣٩).

كما غيَّر ﷺ ما يقتضي التزكية من الأسماء، عن أبي هريرة رضي الله عنه، أن زينب كان اسمها بَرَّة، فقيل: تُزكي نفسها، فسماها رسول الله ﷺ زينب. (أخرجه مسلم ٢١٤١).

قال النووي: «وقد ثبت أحاديث بتغييره ﷺ أسماء جماعة كثيرين من الصحابة، وقد بيَّن ﷺ العلة في النوعين وما في معناهما، وهي: التزكية، أو خوف التطيُّر. (شرح صحيح مسلم ١٤/ ١٢٠-١٢١).

٤- العقيقة:

عقَّ ﷺ عن الحسن والحسين، فعن عكرمة، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «عقَّ رسول الله ﷺ عن الحسن والحسين رضي الله عنهما بكبشين كبشين». (أخرجه النسائي ٤٢١٩).

وأمر ﷺ أصحابه بذلك، وحثَّهم عليه، فعن سلمان بن عامر الضبي رضي الله عنه، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «مع الغلام عقيقة، فأهريقوا عنه دمًا، وأميطوا عنه الأذى». (أخرجه البخاري ٥٤٧١).

الرحمة والملاطفة

ارتبطت الرحمة بالنبي ﷺ، حتى وصفه الله عز وجل بأنه أُرسل رحمة للعالمين، قال عز وجل: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾ (الأنبياء: ١٠٧)

ولم تكن الرحمة صفة عارضة من صفات النبي ﷺ، بل بلغ من قيمتها أن سُمِّي بها ﷺ، فعن أبي موسى الأشعري رضى الله عنه قال: كان رسول الله ﷺ يسمى لنا نفسه أسماء، فقال: «أنا محمد، وأحمد، والمقفي، والحاشر، ونبي التوبة، ونبي الرحمة». (أخرجه مسلم ٢٣٥٥).

وتمثِّل الرحمة معلمًا بارزًا في تعامله ﷺ مع الأطفال، وتبلغ رحمته ﷺ بالأطفال أن يبكي وتدمع عيناه، ويصرِّح بحزنه ﷺ، وهو أعظم الخلق إيمانًا ورِضًى بما قدر الله عز وجل.

عن أنس بن مالك ﷺ قال: دخلنا مع رسول الله ﷺ على أبي سيف القين، وكان ظئرًا لإبراهيم عليه السلام، فأخذ رسول الله ﷺ إبراهيم، فقبَّله، وشمه، ثم دخلنا عليه بعد ذلك، وإبراهيم يجود بنفسه، فجعلت عينا رسول الله ﷺ تذرفان، فقال له عبد الرحمن بن عوف ﷺ: وأنت يا رسول الله؟ فقال: «يا ابن عوف، إنها رحمة»، ثم أتبعها بأخرى، فقال ﷺ: «إن العين تدمع، والقلب يحزن، ولا نقول إلا ما يرضى ربنا، وإنا بفراقك يا إبراهيم لمحزونون». (أخرجه البخاري ١٣٠٣، ومسلم ٢٣١٥).

ورحمته ﷺ بالصغار لا تخرجه عن الأدب الشرعي، فهو يأمر ذويهم بالصبر والاحتساب، مُذكِّرًا إياهم بأن الأمر بيد الله عز وجل.

عن أسامة بن زيد رضي الله عنهما قال: أرسلت ابنة النبي ﷺ إليه: إن ابنًا لي قُبِضَ فأتنا، فأرسل يقرئ السلام، ويقول: «إن لله ما أخذ، وله ما أعطى، وكلٌّ عنده بأجل مسمى،

فلتصبر ولتحتسب، فأرسلت إليه تُقسم عليه ليأتينها، فقام، ومعه سعد بن عبادة، ومعاذ بن جبل، وأُبَي بن كعب، وزيد بن ثابت، ورجال؛ فرُفع إلى رسول الله ﷺ الصبي، ونفسه تتقعقع، قال: حسبته أنه قال: كأنها شَنٌّ، ففاضت عيناه، فقال سعد: يا رسول الله، ما هذا؟ فقال: «هذه رحمة جعلها الله في قلوب عباده، وإنما يرحم الله من عباده الرحماء». (أخرجه البخاري ١٢٨٤، ومسلم (٩٢٣).

لقد اعتذر ﷺ عن حضور وفاته إلى أن أقسمت عليه ابنته، فاستجاب وأتى، ولم يُؤدِّ ذلك الإلحاح والإصرار منها إلى انفعاله ﷺ، وتحجر مشاعره.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: لما حضرت بنت لرسول الله ﷺ صغيرة، فأخذها رسول الله ﷺ فضمها إلى صدره، ثم وضع يده عليها، فقضت وهي بين يدي رسول الله ﷺ، فبكت أم أيمن، فقال لها رسول الله ﷺ: يا أم أيمن، أتبكين ورسول الله ﷺ عندك؟ فقالت: ما لي لا أبكي، ورسول الله ﷺ يبكي؟ فقال رسول الله ﷺ: «إني لست أبكي، ولكنها رحمة»، ثم قال رسول الله ﷺ: «المؤمن بخير على كل حال؛ تُنزع نفسه من بين جنبيه، وهو يحمد الله عز وجل». (أخرجه النسائي ١٨٤٣، وأحمد ٢٤٧٥).

ورحمته ﷺ بالصغار ليست قاصرة على حال المصيبة والمرض، فها هو يُعبِّر ﷺ عن رحمته بهم، وهم في كامل صحتهم وحيوتهم.

عن أسامة بن زيد رضي الله عنهما، كان رسول الله ﷺ يأخذني، فيقعدني على فخذه، ويقعد الحسن على فخذه الأخرى، ثم يضمهما، ثم يقول: «اللهم ارحمهما؛ فإني أرحمهما». (أخرجه البخاري ٦٠٠٣).

وتفوق رحمته ﷺ سائر الناس، فيصفه أصحابه رضوان الله عليهم بأنه أرحم الناس.

عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: «ما رأيت أحدًا كان أرحم بالعيال من رسول الله ﷺ

قال: كان إبراهيم مسترضعًا له في عوالي المدينة، فكان ينطلق، ونحن معه، فيدخل البيت، وإنه لَيُدَّخَنُ[1] وكان ظِئْرُهُ قَيْنًا، فيأخذه، فيقبّله ثم يرجع». (أخرجه مسلم ٢٣١٦).

قال النووي: «ففيه بيانُ كريمِ خلقه ﷺ، ورحمته للعيال والضعفاء، وفيه جواز الاسترضاع، وفيه فضيلة رحمة العيال والأطفال، وتقبيلهم». (شرح صحيح مسلم ١٥/٧٦).

إن مشاعر الرحمة لديه ﷺ لم تكن ناشئة من رؤيته لهم، بل كان ﷺ يقصد أعلى المدينة؛ ليلقى ابنه إبراهيم، فما أعظم هذا القلب الرحيم!

ولا تقف رحمته ﷺ بالصغار عند امتلاكه لهذه المشاعر، فهو ينتقد ﷺ مَن نُزعت منهم الرحمة وفقدوها، ويُبيِّن ﷺ أن هؤلاء من أبعد الناس عن رحمة الله.

عن أبي هريرة ﷺ قال: قبّل رسول الله ﷺ الحسن بن عليٍّ، وعنده الأقرع بن حابس التميمي جالسًا، فقال الأقرع: إن لي عشرة من الولد ما قبّلت منهم أحدًا، فنظر إليه رسول الله ﷺ، ثم قال: «مَن لا يرحم لا يُرحم». (أخرجه البخاري ٥٩٩٧، ومسلم ٢٣١٨).

وفي موقف آخر يُعبِّر ﷺ تعبيرًا بليغًا يصف فيه حال مَن فقدوا الرحمة، عن عائشة ﵂ قالت: جاء أعرابي إلى النبي ﷺ؛ فقال: «تقبلون الصبيان، فما نقبلهم» فقال النبي ﷺ: «أو أملك لك أن نزع الله من قلبك الرحمة؟». (أخرجه البخاري ٥٩٩٨، ومسلم ٢٣١٧).

ويُبيِّن ﷺ شقاء مَن نُزعت منه الرحمة، عن أبي هريرة ﷺ قال: سمعت أبا القاسم الصادق المصدوق ﷺ صاحب هذه الحجرة يقول: «لا تُنزع الرحمة إلا من شقي». (أخرجه أبو داود ٤٩٤٢، والترمذي ١٩٢٣).

---

(١) تفسيرها جاء في الرواية الأخرى لمسلم: ثم دفعه إلى أم سيف، امرأة قين يقال له: أبو سيف، فانطلق يأتيه واتبعته، فانتهينا إلى أبي سيف، وهو ينفخ بكيره، قد امتلأ البيت دخانًا (٢٣١٥).

والتعبير بالنزع يوحي بالشدة، وأن الأصل بقاء هذه الرحمة، واستقرارها في النفس، إلا أن الله عز وجل قد نزعها من هؤلاء نزعًا .

وتؤدي الرحمة وظائف مهمة في رعاية الأطفال، ومن أهمها وظيفتان:

الوظيفة الأولى: أنها تدفع الوالدين لحمايته ورعايته، وتلبية حاجاته، فرحمة الأم بطفلها تدفعها لتستيقظ، وتهجر الفراش، وربما تسهر الليالي؛ استجابة لبكاء صغيرها، وتدفع الأب لينفق نفيس أمواله في علاج طفله ورعايته، حتى لو قرَّر الأطباء أن فرص شفائه محدودة.

ومن أمثلة ذلك: قصة عائشة رضي الله عنها مع الأم التي أعطتها عائشة رضي الله عنها التمرة، فآثرت بها ابنتيها. (أخرجه البخاري ١٤١٨، ومسلم ٢٦٢٩).

ومن أمثلة ذلك- أيضًا-: ما جاء في حديث أبي هريرة رضي الله عنه، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «جعل الله الرحمة مائة جزء، فأمسك عنده تسعة وتسعين جزءًا، وأنزل في الأرض جزءًا واحدًا، فمن ذلك الجزء يتراحم الخلق، حتى ترفع الفرس حافرها عن وليدها؛ خشية أن تصيبه». (أخرجه البخاري ٦٠٠٠، ومسلم ٢٧٥٢).

الوظيفة الثانية: أنها تسهم في تلبية حاجة الطفل للقبول والأمان، وسيأتي مزيد تفصيل لذلك.

الإشعار بالمحبة:

لم تكن محبة النبي ﷺ للأطفال مشاعر قلبية جامدة، بل كان ﷺ يعبر عنها ويظهرها لهم، عن أنس بن مالك رضي الله عنه، أن النبي ﷺ استقبله ذات يوم صبيان الأنصار والإماء، فقال: «والله إني لأحبكم». (أخرجه أحمد ١٤٠٤٣).

وأمر النبي ﷺ أصحابه بإبداء مشاعر المحبة لمن يحبونه، فعن أنس ﷺ، قال: مرَّ رجل بالنبي ﷺ، وعند النبي ﷺ رجل جالس، فقال الرجل: والله يا رسول الله، إني لأحب هذا في الله، فقال رسول الله ﷺ: «أخبرته بذلك؟» قال: لا، قال: «قم فأخبره؛ تثبت المودة بينكما»، فقام إليه فأخبره، فقال: إني أحبك في الله، أو قال: أحبك لله، فقال الرجل: أحبَّكَ الذي أحببتني فيه. (أخرجه أحمد ١٣٥٣٥، وأبو داود ٥١٢٥).

إن الطفل يحتاج إلى أن تصله رسائل بالمحبة من والديه، سواء أكانت هذه الرسائل تعبيرًا لفظيًا عن الحب، أم تعبيرًا بلغة المشاعر: كالمداعبة، والاحتضان، والقُبلة.

الاهتمام

كان ﷺ يهتم بالأطفال، ويعتني بهم، حتى وهو ﷺ في قمة انشغاله، فيعتني بهم، وهو في الصلاة فيحملهم، والصلاة قُرَّة عين النبي ﷺ، وسماها شغلًا، وهو أصدق الناس مناجاة لربه في الصلاة، ومع ذلك لم تمنعه من الاهتمام بالأطفال.

عن أبي قتادة الأنصاري، أن رسول الله ﷺ كان يصلي، وهو حامل أمامة بنت زينب بنت رسول الله ﷺ، ولأبي العاص بن ربيعة بن عبد شمس، فإذا سجد وضعها، وإذا قام حملها. (أخرجه البخاري ٥١٦، ومسلم ٥٤٣).

وفي موقف قريب من موقف الصلاة، في خطبته ﷺ، فيأتي سِبْطَاه: الحسن والحسين يعثران، فيترك خطبته ﷺ ويحملهما، ثم يعود إلى خطبته، عن أبي بريدة ﷺ قال: كان رسول الله ﷺ يخطبنا، فجاء الحسن والحسين عليهما قميصان أحمران، يمشيان ويعثران، فنزل رسول الله ﷺ من المنبر، فحملهما، فوضعهما بين يديه، ثم قال: «صدق الله ورسوله: ﴿إِنَّمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَأَوۡلَٰدُكُمۡ فِتۡنَةٞ﴾ (التغابن: ١٥)، نظرت إلى هذين الصبيين يمشيان ويعثران، فلم أصبر حتى قطعت حديثي ورفعتهما». (أخرجه أحمد ٢٢٩٩٥، والترمذي ٣٧٧٤، والنسائي ١٥٨٥، وأبو داود ١١٠٩، وابن ماجه ٣٦٠٠).

ومن صور الاهتمام النبوي بالأطفال ما يلي:

١ - تلقيهم للنبي ﷺ:

ترك اهتمام النبي ﷺ بالأطفال أثره على الأطفال، فصاروا يشتاقون للقائه، ويأنسون به ﷺ، حتى كانوا يتلقونه، وهو قادم من السفر؛ مما يوحي بإحساسهم، وشعورهم بافتقادهم من صاحب القلب الكبير ﷺ.

عن السائب بن يزيد ﷺ قال: ذهبنا نتلقى رسول الله ﷺ مع الصبيان إلى ثنية الوداع. (أخرجه البخاري ٣٠٨٣).

وعن عبد الله بن جعفر ﷺ قال: كان رسول الله ﷺ إذا قَدِمَ من سفر تلقي بصبيان أهل بيته، قال: وإنه قدم من سفر فسبق بي إليه، فحملني بين يديه، ثم جيء بأحد ابني فاطمة، فأردفه خلفه، قال: فأدخلنا المدينة، ثلاثة على دابة. (أخرجه مسلم ٢٤٢٨).

٢- إردافهم على الدابة:

ومن اهتمامه ﷺ بالأطفال: أنه كان يردفهم معه على دابته، وكان لصبيان آل بيته عظيم الشرف في ذلك، فتروي لنا كتب السنة مواقف عديدة لإردافه ﷺ لهم، ومنها ما يلي:

عن ابن عباس ﷺ قال: أتى رسول الله ﷺ، وقد حملَ قُثَمَ بين يديه، والفضل خلفه، أو قُثَمَ خلفه، والفضل بين يديه، فأيهم شر، أو أيهم خير؟ (أخرجه البخاري ٥٩٦٦).

عن عبد الله بن أبي مليكة، قال عبد الله بن جعفر لابن الزبير ﷺ: أتذكر إذ تلقينا رسول الله ﷺ أنا، وأنت، وابن عباس؟ قال: نعم، فحملنا، وتركك. (أخرجه البخاري ٣٠٨٢، ومسلم ٢٤٢٧، واللفظ لمسلم).

وعن عبد الله بن جعفر ﷺ، قال: لو رأيتني، وقُثَم، وعبيد الله ابني عباس، ونحن صبيان نلعب، إذ مرَّ النبي ﷺ على دابة، فقال: «ارفعوا هذا إليَّ» قال: فحملني أمامه، وقال لِقُثَم: ارفعوا هذا إليَّ، فجعله وراءه، وكان عبيد الله أحب إلى عباس من قثم، فما استحى من عمه أن حمل قُثَم وتركه، قال: ثم مسح على رأسي ثلاثًا، وقال كلما مسح: «اللهم اخلف جعفرًا في ولده» قال: قلت لعبد الله: ما فعل قثم؟ قال: استشهد، قال: قلت: الله أعلم بالخير، ورسوله بالخير، قال: أجل. (أخرجه أحمد ١٧٦٠).

وعن إياس، عن أبيه ﷺ قال: لقد قُدتُ بنبي الله ﷺ والحسن والحسين ﷺ بغلته الشهباء، حتى أدخلتهم حجرة النبي ﷺ هذا قُدَّامه، وهذا خلفه. (أخرجه مسلم ٢٤٢٣).

وسبق في تلقيهم له حديث عبد الله بن جعفر ﷺ، وفيه: فأدخلنا المدينة ثلاثة على دابة. (أخرجه مسلم ٢٤٢٨).

وإردافه ﷺ لهم لا ينتهي أثره عند الركوب بدلًا من المشي؛ فهو يتيح لهم القرب الجسدي منه ﷺ والتواصل معه، ناهيك عن الأثر المعنوي حين يسيرون أمام الصغير والكبير، وهم رِدْف خير البشر ﷺ فهنيئًا لهم ذلك الشرف، وتلك البركة و المنزلة، وجمعنا بهم ونبينا ﷺ في دار كرامته.

٣- تفقد حالهم:

من اهتمامه ﷺ بالصغار: تفقده لحالهم، واعتناؤه بإصلاح ما يحتاج إلى إصلاح، عن عبد الله بن جعفر ﷺ أن النبي ﷺ أمهل آل جعفر ثلاثًا أن يأتيهم، ثم أتاهم فقال: «لا تبكوا على أخي بعد اليوم» ثم قال: «ادعوا لي بني أخي»، فجيء بنا كأنا أفرخ، فقال: «ادعوا لي الحلاق» فأمره، فحلق رؤوسنا. (أخرجه أبو داود ٤١٩٢، والنسائي ٥٢٢٧، وأحمد ١٧٥٠ مطولًا).

إن الطفل يحتاج إلى العناية بصحته ونظافته، وإلى تعاهد حاله، وأثر تلك العناية ليس قاصرًا على تلبية حاجاته فحسب، بل هو يُشعره بقيمته ومكانته.

كما أن الاهتمام بشأن الطفل ونظافته؛ يجعله أكثر جاذبية للكبار؛ ليعانقوه ويلاعبوه، وهذا يسهم في إشعاره بقيمته، وتعزيز ثقته بنفسه.

٤- ملاطفتهم وممازحتهم:

يحتاج الأطفال إلى قدر من التلطف والتبسط في معاملتهم، وقد كان ﷺ وهو في أعلى المقامات وأشرفها، وهو يتواصل مع كبار أصحابه، ومع الملوك وزعماء القبائل، ويعيش التفكير لمستقبل الدعوة وأحوال المسلمين، ومع ذلك كله كان يجد الوقت ليعايش الصغار، ويهتم بهم، ويلاطفهم.

عن أم خالد بنت خالد قالت: أُتِيَ رسول الله ﷺ بثياب فيها خميصة سوداء قال: مَن ترون نكسوها هذه الخميصة؟ فأُسكت القوم، قال: ائتوني بأم خالد، فأُتِيَ بي النبي ﷺ فألبسها بيده، وقال: «أبلي وأخلقي» مرتين، فجعل ينظر إلى علم الخميصة، ويشير بيده إليَّ، ويقول: يا أم خالد، هذا سَنَا، والسَّنَا بلسان الحبشية الحسن. (أخرجه البخاري ٥٨٤٥).

ويتبسط ﷺ في ملاطفة الصغار وممازحتهم؛ فعن محمود بن الربيع ﵁ قال: عقلت من النبي ﷺ مَجَّة مجَّها في وجهي، وأنا ابن خمس سنين من دلو. (أخرجه البخاري ٧٧، ومسلم ٣٣).

٥- التلطُّف في مناداتهم:

كان من اهتمامه ﷺ بالصغار أنه يتلطف في مناداتهم، ويحسن مخاطبتهم، فعن أنس بن مالك ﵁ قال: قال لي رسول الله ﷺ: يا بُنَيَّ. (أخرجه مسلم ٢١٥١).

يحتاج الطفل إلى أن يلمس لغة راقية في تخاطب الكبار معه، وفي مناداته، وإلى اختيار الألفاظ الحسنة التي لا تشعره بالنقص، أو تجرح مشاعره.

وتسود في كثير من المجتمعات والبيئات ألفاظ دارجة في وصف الطفل ومناداته، تعطي دلالة سلبية، وتوصل رسائل استهانة، وقلة تقدير، والجدير بالآباء، والأمهات،

والمعلمين تلافي هذه اللغة السلبية غير اللائقة، واستبدالها بألفاظ فصيحة لا توصل الإيحاء السلبي كعبارة: (الطفل)، أو (يا صغير)، أو (الناشئ، الشبل....).

٦- مراعاة أمهات الصغار:

ومن رعاية الطفل والإحسان إليه: رعاية أمه، وتقدير حالها؛ فهذا مردُّه في النهاية إلى الطفل نفسه؛ لذا فقد كان ﷺ يراعي حال الأمهات حتى وهو في صلاته، فيخفف الصلاة، ويتجوَّز فيها.

عن أبي قتادة ﷺ، عن النبي ﷺ قال: «إني لأقوم في الصلاة أريد أن أطول فيها، فأسمع بكاء الصبي؛ فأتجوَّز في صلاتي كراهيةَ أن أشق على أُمِّه». (أخرجه البخاري ٧٠٧).

وعن أنس بن مالك ﷺ، أن النبي ﷺ قال: «إني لأدخل في الصلاة، وأنا أريد إطالتها، فأسمع بكاء الصبي، فأتجوز في صلاتي؛ مما أعلم من شدة وجد أمه من بكائه». (أخرجه البخاري ٧٠٩).

وعن شريك بن عبد الله قال: سمعت أنس بن مالك ﷺ يقول: «ما صليت وراء إمام قط أخف صلاة، ولا أتم من النبي ﷺ، وإن كان ليسمع بكاء الصبي، فيخفف؛ مخافة أن تفتن أمه». (أخرجه البخاري ٧٠٨، ومسلم ٤٧٠).

وفي رواية لمسلم (٤٧٠): «كان رسول الله ﷺ يسمع بكاء الصبي مع أمه، وهو في الصلاة؛ فيقرأ بالسورة الخفيفة، أو بالسورة القصيرة».

لم يكن مصدر تجوُّزه ﷺ في صلاته قلة شأن الصلاة لديه؛ فهي قرة عينه، وإليها يفزع حين يحزبه أمر، لكنه ﷺ يتجوز فيها بما لا يخل بأركانها؛ فيراعي المقصدين معًا: حسن الصلاة، ورعاية الطفل وأمه.

يأمر بالإحسان للبنات:

عاش ﷺ في مجتمع يحتقر الإناث، ولا يقيم لهن وزنًا، ويصور القرآن حال بعضهم حين يرزق بأنثى، وكيف تعلوه الكآبة، ويسود وجهه، فيقول سبحانه: ﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ۝٥٨ يَتَوَٰرَىٰ مِنَ ٱلْقَوْمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓ ۚ أَيُمْسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُۥ فِى ٱلتُّرَابِ ۗ أَلَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾ (النحل: ٥٨ - ٥٩).

وتأصلت كراهية الأنثى في ثقافة ذلك المجتمع حتى لازمت تهنئتهم بالزواج، فكانوا يهنئون المتزوج بقولهم: بالرفاء والبنين.

فجاء محمد ﷺ فأزال هذا الموروث الثقافي، وهذا الامتهان للأنثى، وأكد على الإحسان للأنثى ورعايتها.

عن عائشة ﵂، قالت: دخلت امرأة معها ابنتان لها تسأل، فلم تجد عندي شيئًا غير تمرة، فأعطيتها إياها، فقسمتها بين ابنتيها، ولم تأكل منها، ثم قامت، فخرجت، فدخل النبي ﷺ علينا، فأخبرته، فقال: «مَن ابتلي من هذه البنات بشيء كُنَّ له سترًا من النار». (أخرجه البخاري ١٤١٨، ومسلم ٢٦٢٩).

ووعد ﷺ مَن اعتنى بتربية البنات بالأجر العظيم، فعن أنس بن مالك ﵁ قال: قال رسول الله ﷺ: «من عال جاريتين حتى تبلغا، جاء يوم القيامة أنا وهو»، وضم أصابعه. (أخرجه مسلم ٢٦٣١).

قال النووي: «ومعنى عالهما: قام عليهما بالمؤنة، والتربية، ونحوهما مأخوذ من العول، وهو القرب، ومنه: ابدأ بمَن تعول». (شرح صحيح مسلم ١٦/ ١٨٠).

وقد سبق تناول ذلك مفصلًا.

المعاشرة والمجالسة

كان ﷺ يجالس الأطفال ويعاشرهم صغارًا وكبارًا، يحظى أهل بيته بنصيب وافر من ذلك، ويأتي المهاجرون والأنصار بصغارهم له ﷺ، فيضعهم في حجره الشريف، ويلاطفهم، ويجالسهم؛ فيدركون في ذلك بركة مجالسة النبي ﷺ ورؤيته، ويتعلمون من هديه ﷺ، ويشعرون بقيمتهم ومكانتهم.

ومن صور معاشرته و مجالسته الكريمة للأطفال ما يلي:

١- المسح والملامسة:

التواصل البدني والجسدي له أثره على الصغير والكبير، لكن أثره على الطفل أبلغ؛ فإدراكه يرتبط بالمعاني المحسوسة أكثر من المجردة.

وقد كان ﷺ يمسح على أبدانهم ورؤوسهم في لمسة عطوفة حانية، عن جابر بن سمرة ؓ قال: صليت مع رسول الله ﷺ صلاة الأولى، ثم خرج إلى أهله، وخرجت معه، فاستقبله ولدان، فجعل يمسح خَدَّي أحدهم واحدًا واحدًا، قال: وأما أنا فمسح خَدَّي قال: فوجدت لِيَدِه بردًا، أو ريحًا كأنما أخرجها من جؤنة عطار. (أخرجه مسلم ٢٣٢٩).

وحين سألته امرأة أن يبايع ولدها، وهو لا يبلغ سن التكليف اعتذر عن مبايعته، ومسح رأسه، ودعا له، عن زهرة بن معبد، عن جَده عبد الله بن هشام، وكان قد أدرك النبي ﷺ، وذهبت به أمه زينب بنت حميد إلى رسول الله ﷺ، فقالت: يا رسول الله بَايِعْه، فقال: «هو صغير»، فمسح رأسه، ودعا له، وعن زهرة بن معبد، أنه كان يخرج به جَده عبد الله بن هشام إلى السوق، فيشتري الطعام، فيلقاه ابن عمر، وابن الزبير ؓ، فيقولان له: «أشركنا، فإن النبي ﷺ قد دعا لك بالبركة»، فيشركهم، فربما أصاب الراحلة كما هي، فيبعث بها إلى المنزل. (أخرجه البخاري ٢٥٠١).

٢- عيادة مَن يمرض:

وقد يعود ﷺ الصبي حين يمرض أو يحتضر؛ ليدعو له، ويطيب خاطر أمه، عن أسامة بن زيد رضي الله عنهما قال: أرسلت ابنة النبي ﷺ إليه: إن ابنًا لي قُبِضَ، فأْتِنَا، فأرسل يقرئ السلام، ويقول: «إن لله ما أخذ، وله ما أعطى، وكل عنده بأجل مسمى، فلتصبر، ولتحتسب»، فأرسلت إليه تقسم عليه ليأتينها، فقام، ومعه سعد بن عبادة، ومعاذ بن جبل، وأُبَيِّ بن كعب، وزيد بن ثابت، ورجال، فرُفِع إلى رسول الله ﷺ الصبي، ونفسه تتقعقع- قال: حسبته أنه قال: كأنها شَنٌّ- ففاضت عيناه، فقال سعد: يا رسول الله، ما هذا؟ فقال: «هذه رحمة جعلها الله في قلوب عباده، وإنما يرحم الله من عباده الرحماء». (أخرجه البخاري ١٢٨٤، ومسلم ٩٢٣).

٣- المواساة عند المصيبة:

حين تلم بالصغار مصيبة، فقد كان ﷺ يواسيهم، ففي غزوة مؤته، جاء يواسي أولاد جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه، فعن عبد الله بن جعفر، قال: بعث رسول الله ﷺ جيشًا، استعمل عليهم زيد بن حارثة .... وفيه: فأمهل، ثم أمهل آل جعفر ثلاثًا أن يأتيهم، ثم أتاهم فقال: «لا تبكوا على أخي بعد اليوم، ادعوا إليَّ ابني أخي» قال: فجيء بنا كأنا أفرخ، فقال: ادعوا لي الحلاق، فجيء بالحلاق فحلق رؤوسنا، ثم قال: «أما محمد: فشبيه عمنا أبي طالب، وأما عبد الله: فشبيه خَلقي وخُلقي»، ثم أخذ بيدي فأشالها، فقال: «اللهم اخلف جعفرًا في أهله، وبارك لعبد الله في صفقة يمينه»، قالها ثلاث مرار، قال: فجاءت أُمنا، فذكرت له يتمنا، وجعلت تفرح له، فقال: «العَيْلَةَ تخافين عليهم، وأنا وليهم في الدنيا والآخرة؟». (أخرجه أحمد ١٧٥٠، وأخرجه مختصرًا أبو داود ٤١٩٢، والنسائي ٥٢٢٧).

وأخرجه البيهقي في دلائل النبوة (٤/ ٣٧١) مطولًا: عن يحيى بن أبي يعلى، قال: سمعت عبد الله بن جعفر يقول: أنا أحفظ حين دخل رسول الله ﷺ على أمي، فنعى لها أبي، فأنظر إليه، وهو يمسح على رأسي، ورأس أخي، وعيناه تهراقان الدموع، حتى تقطر لحيته، ثم قال: «اللهم إن جعفرًا قد قدم إليك إلى أحسن الثواب، فاخلفه في ذريته بأحسن ما خلفت أحدًا من عبادك في ذريته»، ثم قال: «يا أسماء، ألا أبشرك؟» قالت: بلى، بأبي وأمي يا رسول الله: «إن الله جعل لجعفر جناحين يطير بهما في الجنة»، قالت: فأعلم الناس ذلك، فقام رسول الله ﷺ، فأخذ بيدي يمسح بيده رأسي، حتى رقى على المنبر، وأجلسني أمامه على الدرجة السفلى، والحزن يُعرف عليه، فتكلم، فقال: «إن المرء كثير بأخيه، وابن عمه، ألا إن جعفرًا قد استشهد، وقد جعل له جناحان يطير بهما في الجنة»، ثم نزل رسول الله ﷺ فدخل بيته، وأدخلني معه، فأمر بطعام، فصنع لأهلي، وأرسل إلى أخي فتغدينا عنده غداءً طيبًا مباركًا، عمدت سلمى خادمته إلى شعير، فطحنته، ثم نسفته، ثم أنضجته، وأدمته بزيت، وجعلت عليه فلفلًا، فتغديت أنا وأخي معه، فأقمنا ثلاثة أيام في بيته ندور معه كلما صار في بيت إحدى نسائه، ثم رجعنا إلى بيتنا، فأتانا رسول الله ﷺ، وأنا أساوم شاة أخ لي، فقال: «اللهم بارك له في صفقته»، قال عبد الله: فما بعت شيئًا ولا اشتريت شيئًا إلا بورك لي فيه.

٤- مؤاكلة الصبي الصغير:

وكان ﷺ يأكل معهم في صحن واحد، عن عمر بن أبي سلمة رضي الله عنهما قال: كنت غلامًا في حجر رسول الله ﷺ، وكانت يدي تطيش في الصحفة، فقال لي رسول الله ﷺ: «يا غلام، سَمِّ الله، وكُلْ بيمينك، وكُلْ مما يليك، فما زالت تلك طعمتي بعدُ». (أخرجه البخاري ٥٣٧٦، ومسلم ٢٠٢٢).

ودلت بعض روايات الحديث على أنه ﷺ هو الذي ابتدأه بالدعوة إلى الطعام، وهذا أصرح في الدلالة على تواضعه ﷺ.

ففي رواية لأحمد (١٦٣٣٩): دعاني رسول الله ﷺ لطعام يأكله فقال: «ادْن، فسَمِّ الله عز وجل، وكُلْ بيمينك، وكُلْ مما يليك».

وللترمذي (١٨٥٧): أنه دخل على رسول الله ﷺ، وعنده طعام قال: «ادْن يا بُنَيَّ، وسَمِّ الله، وكُلْ بيمينك، وكُلْ مما يليك».

٥- إصلاحهم في حجره:

كان الصحابة رضوان الله عليهم يأتون بصبيانهم الصغار لرسول الله ﷺ؛ لينالوا بركة تحنيكه ودعائه، فكان يحملهم في حجره الشريف، حتى ربما بال أحدهم على ثيابه ﷺ، فعن عائشة رضي الله عنها قالت: كان النبي ﷺ يُؤتَى بالصبيان، فيدعو لهم، فأُتِيَ بصبي، فبال على ثوبه، فدعا بماء، فأتبعه إياه، ولم يغسله. (أخرجه البخاري ٦٣٥٥، ومسلم ٢٨٦).

وقد تعددت المواقف في ذلك، ومنها ما يلي:

عن أم قيس بنت محصن، أنها أتت بابن لها صغير لم يأكل الطعام إلى رسول الله ﷺ؛ فأجلسه رسول الله ﷺ في حجره، فبال على ثوبه، فدعا بماء فنضحه، ولم يغسله. (أخرجه البخاري ٢٢٣، ومسلم ٢٨٧).

وعن عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها، أنها قالت: أُتِيَ رسول الله ﷺ بصبي، فبال على ثوبه، فدعا بماء فأتبعه إياه. (أخرجه البخاري ٢٢٢، ومسلم ٢٨٦).

وعن لبابة بنت الحارث قالت: كان الحسين بن عليٍّ رضي الله عنهما في حِجر رسول الله ﷺ، فبال عليه، فقلت: البس ثوبًا، وأعطني إزارك حتى أغسله، قال: «إنما يُغسَل من بول الأنثى، ويُنضَح من بول الذكر». (أخرجه أبو داود ٣٧٥، وابن ماجه ٥٢٢).

وعن أبي السمح ﷺ قال: كنت أخدم النبي ﷺ، فكان إذا أراد أن يغتسل قال: وَلِّنِي قفاك، فأوليه قفاي، فأستره به، فأُتِيَ بحسن أو حسين رضي الله عنهما فبال على صدره، فجئت أغسله فقال: «يُغسَل من بول الجارية، ويُرَشُّ من بول الغلام». (أخرجه أبو داود ٣٧٦، والنسائي ٣٠٤، وابن ماجه ٥٢٥).

٦- إعطاؤهم باكورة الثمر:

كان ﷺ يبدأ بالصبيان، فيعطيهم باكورة الثمر، فعن أبي هريرة رضي الله عنه، أنه قال: كان الناس إذا رأوا أول الثمر جاءوا به إلى النبي ﷺ، فإذا أخذه رسول الله ﷺ، قال: «اللهم بارك لنا في ثمرنا، وبارك لنا في مدينتنا، وبارك لنا في صاعنا، وبارك لنا في مُدِّنا، اللهم إن إبراهيم عبدك، وخليلك، ونبيك، وإني عبدك ونبيك، وإنه دعاك لمكة، وإني أدعوك للمدينة بمثل ما دعاك لمكة، ومثله معه»، قال: ثم يدعو أصغر وليد له، فيعطيه ذلك الثمر. (أخرجه مسلم ١٣٧٣).

التعليم والتأديب

بعث الله نبيه ﷺ معلمًا؛ لذا اعتنى بتعليم أصحابه، وكان للصغار نصيب من تعليمه وتأديبه ﷺ.

ومن صور اهتمامه ﷺ بتعليم الصغار وتأديبهم ما يلي:

١ - الكتابة:

اعتنى ﷺ بتعليم الأولاد الكتابة، وجعل ذلك فداء لبعض أسارى بدر، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «كان ناس من الأسرى يوم بدر لم يكن لهم فداء، فجعل رسول الله ﷺ فداءهم أن يعلِّموا أولاد الأنصار الكتابة». (أخرجه أحمد ٢٢١٦).

٢ - الدعاء:

فقد علَّم ﷺ سِبطَه الحسن رضي الله عنه دعاء القنوت؛ فعن الحسن بن عليٍّ رضي عنهما قال: علمني رسول الله ﷺ كلمات أقولهن في قنوت الوتر: «اللهم اهدني فيمن هديت، وعافني فيمن عافيت، وتولَّني فيمن توليت، وبارك لي فيما أعطيت، وقِني شر ما قضيت؛ فإنك تقضي، ولا يُقضى عليك، إنه لا يذل مَن واليت، تباركت ربنا وتعاليت». (أخرجه أحمد ١٧١٨، وأبو داود ١٤٢٥، والترمذي ٤٦٤، والنسائي ١٧٤٥، وابن ماجه ١١٧٨).

وعلَّمهم ﷺ التشهد في الصلاة، فعن ابن عباس رضي الله عنهما، أنه قال: كان رسول الله ﷺ يعلمنا التشهد كما يعلمنا السورة من القرآن، فكان يقول: «التحيات المباركات، الصلوات الطيبات لله، السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته، السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين، أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمدًا رسول الله». (أخرجه مسلم ٤٠٣).

وعن ابن عباس رضي الله عنهما، أن رسول الله ﷺ كان يعلمهم هذا الدعاء، كما يعلمهم السورة من القرآن، يقول: قولوا: «اللهم إنا نعوذ بك من عذاب جهنم، وأعوذ بك من عذاب القبر، وأعوذ بك من فتنة المسيح الدجال، وأعوذ بك من فتنة المحيا والممات». (أخرجه مسلم ٥٩٠).

٣- الأحكام والآداب:

وكان ﷺ يعلمهم سنة السلام؛ فعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال لي رسول الله ﷺ: «يا بُنَيَّ، إذا دخلت على أهلك فسلِّم؛ يكن بركة عليك، وعلى أهل بيتك». (أخرجه الترمذي ٢٦٩٨).

وعن أبي الحوراء، قال: قلت للحسن بن عليٍّ رضي الله عنه: ما حفظت من النبي ﷺ؟ فقال: «الصلوات الخمس». (أخرجه الطبراني في الكبير ٢٧٠٩).

ولم يكن تعليمه ﷺ سنة السلام قاصرًا على القول، بل كان يعلمهم بفعله ﷺ؛ فعن أنس بن مالك رضي الله عنه أنه مرَّ على صبيان فسلَّم عليهم، وقال: كان النبي ﷺ يفعله. (أخرجه البخاري ٦٢٤٧، ومسلم ٢١٦٨).

وعن سَيَّار، قال: كنت أمشي مع ثابت البناني، فمرَّ بصبيان، فسلَّم عليهم، وحدَّث ثابت أنه كان يمشي مع أنس، فمرَّ بصبيان، فسلَّم عليهم، وحدَّث أنس أنه كان يمشي مع رسول الله ﷺ فمرَّ بصبيان، فسلَّم عليهم. (أخرجه مسلم ٢١٦٨).

وعن أنس رضي الله عنه قال: كان رسول الله ﷺ يزور الأنصار، فيسلِّم على صبيانهم، ويمسح برؤوسهم، ويدعو لهم. (أخرجه النسائي في السنن الكبرى ٨٢٩١).

عن أنس رضي الله عنه قال: مرَّ علينا النبي ﷺ ونحن نلعب، فقال: «السلام عليكم يا صبيان». (أخرجه أحمد ١٢٨٩٦).

وعلَّمهم ﷺ سنة الاستئذان؛ فالصغار يعيشون مع والديهم، ويجهلون كثيرًا مما يحدث بين الزوجين، ويكثر دخولهم غرف والديهم؛ لذا جاء في كتاب الله عز وجل النص على تعليم الصغار أدب الاستئذان، قال سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِيَسْتَـْٔذِنكُمُ ٱلَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ وَٱلَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُواْ ٱلْحُلُمَ مِنكُمْ ثَلَٰثَ مَرَّٰتٍ ۚ مِّن قَبْلِ صَلَوٰةِ ٱلْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ ٱلظَّهِيرَةِ وَمِنۢ بَعْدِ صَلَوٰةِ ٱلْعِشَآءِ ۚ ثَلَٰثُ عَوْرَٰتٍ لَّكُمْ ۚ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌۢ بَعْدَهُنَّ ۚ طَوَّٰفُونَ عَلَيْكُم بَعْضُكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْـَٔايَٰتِ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ (النور: ٥٨).

لذا فقد كان ﷺ يعلم الصغار من أهل بيته هذ السنة؛ فعن أنس ﷺ قال: كنت خادمًا للنبي ﷺ قال: فكنت أدخل بغير استئذان، فجئت يومًا فقال: «كما أنت يا بني، فإنه قد حدث بعدك أمر، لا تدخلن إلا بإذن». (أخرجه البخاري في الأدب المفرد ٨٠٧).

٤- إبعادهم عن المحرمات:

ومن عنايته ﷺ بالصبيان تعليمًا وتأديبًا: أنه كان يبعدهم عن المحرمات- وإن كانوا غير مكلفين-، ومما ورد في ذلك ما يلي:

- نهيه ﷺ عن القزع في رأس الصبي؛ فعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: سمعت رسول الله ﷺ ينهى عن القزع، قال عبيد الله: قلت: وما القزع؟ فأشار لنا عبيد الله قال: إذا حلق الصبي، وترك ها هنا شعرة، وها هنا، وها هنا، فأشار لنا عبيد الله إلى ناصيته، وجانبي رأسه، قيل لعبيد الله: فالجارية والغلام؟ قال: لا أدري، هكذا قال: الصبي، قال عبيد الله: وعاودته، فقال: أما القصة، والقفا للغلام: فلا بأس بهما، ولكن القزع: أن يترك بناصيته شعر، وليس في رأسه غيره، وكذلك شق رأسه هذا وهذا. (أخرجه البخاري ٥٩٢٠، ومسلم ٢١٢٠).

- نهيه عن إلباسهم الحرير؛ فعن عبد الرحمن بن يزيد، قال: كنا عند عبد الله، فجاء ابن له عليه قميص حرير، فقال: «مَن كساك هذا؟» قال: أمي، قال: فشقه، قال: «قُلْ لأمك تكسوك غير هذا». (أخرجه الطبراني في الكبير ٨٧٨٧).
- توعَّد ﷺ مَن سقى الصغير الخمر، فعن ابن عباس رضي الله عنهما، عن النبي ﷺ قال: «كل مخمر خمر، وكل مسكر حرام، ومَن شرب مسكرًا بُخست صلاته أربعين صباحًا، فإن تاب؛ تاب الله عليه، فإن عاد الرابعة؛ كان حقًّا على الله أن يسقيه من طينة الخَبَال»، قيل: وما طينة الخَبَال يا رسول الله؟ قال: «صديد أهل النار، ومَن سقاه صغيرًا لا يعرف حلاله من حرامه، كان حقًّا على الله أن يسقيه من طينة الخَبَال». (أخرجه أبو داود ٣٦٨٠).

٥- نهيه عن الكذب عليهم:

قد يتساهل بعض الآباء والأمهات في الكذب على الصغير؛ فهو يصدِّق ما يسمعه، وبعض طلباته لا يمكنهم التخلص منها إلا بالكذب، والكذب على الصغير- علاوة على أنه فعل محرم بذاته- يُربِّيه على التساهل بالكذب، والجرأة عليه.

لذا ينهى ﷺ عن الكذب على الصغير؛ فعن عبد الله بن عامر رضي الله عنه أنه قال: أتانا رسول الله ﷺ في بيتنا، وأنا صبي، قال: فذهبت أخرج لألعب، فقالت أمي: يا عبد الله، تعالَ أعطك، فقال لها رسول الله ﷺ: «وما أردت أن تعطيه؟» قالت: أعطيه تمرًا، قال: فقال رسول الله ﷺ: «أما إنك لو لم تفعلي؛ كُتبت عليك كذبة». (أخرجه أحمد ١٥٧٠٢، وأبو داود ٤٩٩١).

٦- تنبيههم حين المخالفة:

حين يقع الصبي فيما يخل بالأدب الشرعي، فإن النبي ﷺ كان ينبهه على ذلك؛ فعن

عمر بن أبي سلمة ﷺ قال: كنت غلامًا في حجر رسول الله ﷺ، وكانت يدي تطيش في الصحفة، فقال لي رسول الله ﷺ: «يا غلام، سَمِّ الله، وكُلْ بيمينك، وكُلْ مما يليك»، فما زالت تلك طعمتي بعدُ. (أخرجه البخاري ٥٣٦٧، ومسلم ٢٠٢٢).

وعن أبي هريرة ﷺ، أن الحسن بن عليٍّ ﷺ أخذ تمرة من تمر الصدقة، فجعلها في فيه، فقال النبي ﷺ- بالفارسية-: «كخ كخ، أما تعرف أنَّا لا نأكل الصدقة». (أخرجه البخاري ٣٠٧٢، ومسلم ١٠٦٩).

وعدم تكليف الصبي لا يعفي والديه من الاعتناء بتأديبه وتوجيهه، وصرفه عما يخل بالأدب الشرعي؛ فإنه ينشأ على ما اعتاده في صغره، وها هو عمر بن أبي سلمة ﷺ يُبيِّن كيف أن التأديب والتعليم النبوي لازمه طوال حياته، فيقول ﷺ: فما زالت تلك طعمتي بعدُ.

٧- عدم التعنيف على الخطأ:

إدراك الطفل محدود، ووعيه بما يسوغ، وما لايسوغ لازال قاصرًا، وعليه فلا يتوقع من الطفل أن يتصرف كالكبار، ولا بد أن تصدر منه تجاوزات وأخطاء.

وقد كان ﷺ يتبسط مع الصغار، ويتحمل تجاوزهم وخطأهم، ويتقبل منهم ما لا يتقبله كثير من الكبار.

عن أم خالد بنت خالد بن سعيد قالت: أتيت رسول الله ﷺ مع أبي، وعليَّ قميص أصفر، قال رسول الله ﷺ: سَنَهْ سَنَهْ، قال: عبد الله، وهي بالحبشية: حسنة، قالت: فذهبت ألعب بخاتم النبوة، فزبرني أبي، قال رسول الله ﷺ دعها، ثم قال رسول الله ﷺ: «أبلي وأخلقي، ثم أبلي وأخلقي، ثم أبلي وأخلقي»، قال عبد الله: فبقيت حتى ذُكِرَ، يعني: من بقائها. (أخرجه البخاري ٥٩٩٣).

عن عبد الله بن شداد، عن أبيه قال: خرج علينا رسول الله ﷺ في إحدى صلاتي العشاء، وهو حامل حسنًا أو حُسينًا، فتقدم رسول الله ﷺ فوضعه، ثم كبر للصلاة، فصلى، فسجد بين ظهراني صلاته سجدة أطالها، قال أبي: فرفعت رأسي، وإذا الصبي على ظهر رسول الله ﷺ، وهو ساجد، فرجعت إلى سجودي، فلما قضى رسول الله ﷺ الصلاة قال الناس: يا رسول الله، إنك سجدت بين ظهراني صلاتك سجدة أطلتها حتى ظننا أنه قد حدث أمر، أو أنه يوحى إليك، قال: «كل ذلك لم يكن، ولكن ابني ارتحلني، فكرهت أن أعجله حتى يقضي حاجته». (أخرجه النسائي ١١٤١، وأحمد ١٦٠٣٣).

وعن البراء بن عازب قال: كان النبي ﷺ يصلي، فجاء الحسن والحسين، أو أحدهما، فركب على ظهره، فكان إذا سجد رفع رأسه، قال بيده، فأمسكه، أو أمسكهما، ثم قال: «نعم المطية مطيتكما». (أخرجه الطبراني في الأوسط ٣٩٨٧).

إن كثيرًا من الآباء، والأمهات يطالبون أطفالهم بما هو أعلى من قدرتهم، ويتوقعون منهم انضباطًا عاليًا يفوق نضجهم، وحينما يكونون بحضرة الآخرين يصرُّون على أن يبدو أطفالهم بصورة أعلى من واقعهم الحقيقي.

لذا؛ فإنهم يتابعونهم بالغمز والإشارة، وحين لا تكفي الإشارة يعلو العتاب، وقد يتحول إلى صراخ وعقوبة، وتهديد بعدم اصطحابهم مرة أخرى؛ فتتحول التجمعات والمناسبات إلى كابوس للطفل، بدلًا من كونها متعة وبهجة.

وليس البديل إهمال الأطفال، وتركهم يتصرفون بكل عفوية، ويؤذون الآخرين، فلا بد من قدر من التدريب على الانضباط، ووضع الحدود الملائمة، وتعليمهم الآداب العامة.

ومن المهم أن يكون التدريب، والمطالبة بالانضباط متلائمًا مع قدرة الطفل، وسِنِّه، وإدراكه، وأن يكون بأسلوب لائق، بعيدًا عن القسوة والعنف.

وهذا نلمسه في هديه ﷺ في تعامله مع الأطفال؛ فهو لا يكتفي بتقبل تصرفاتهم كما هي دون توجيه، فحين رأى عمر بن أبي سلمة رضي الله عنهما يخل بآداب الطعام؛ علَّمه ﷺ كيف يأكل، ولم يكن تعليمه ﷺ له بالنهر، والقسوة، والصرامة، إنما بتوجيهٍ أبويٍّ حانٍ.

٨- العقوبة:

الأصل في التعامل مع الصغير هو الرحمة والرفق، والأخذ باللين، والله سبحانه يعطي على الرفق ما لا يعطي على العنف، إلا أن هناك حالات استثناء تتطلب قدرًا من الصرامة، وربما العقوبة.

وقد جاء الأمر النبوي بعقوبة الطفل الممتنع عن الصلاة بالضرب حين يبلغ عشر سنين؛ فعن عبد الملك بن الربيع بن سبرة، عن أبيه، عن جَده رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ: «مُروا الصبي بالصلاة إذا بلغ سبع سنين، وإذا بلغ عشر سنين فاضربوه عليها». (أخرجه أبو داود ٤٩٤، والترمذي ٤٠٧، والدارمي ١٤٣١).

عن عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جَده رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «مُروا أولادكم بالصلاة، وهم أبناء سبع سنين، واضربوهم عليها، وهم أبناء عشر، وفرِّقوا بينهم في المضاجع». (أخرجه أبو داود ٤٩٥، وأحمد ٦٦٨٩).

ولأهمية الصلاة وعِظَم شأنها، ولأن المحافظة عليها تتطلب تعويدًا من الصغر؛ جاء التوجيه النبوي بأمر الصبي بها حين يُميِّز، وضَرْبه حين يصل العاشرة، رغم أنه لا زال غير مكلف في الغالب.

التهيئة للمسؤولية

التربية النبوية للطفل لم تكن لتنتهي عند تلبية الحاجات النفسية والعاطفية، ولا الرعاية الجسدية، بل امتدت لتشمل تهيئة الطفل لتحمل المسؤولية، وإعداده لوظيفته في الحياة.

وتسهم الرعاية الجسدية، والاجتماعية، والنفسية، والاهتمام العاطفي بالطفل في بناء شخصيته وتهيئته لتحمل المسؤولية؛ فهي تنمي لديه التواصل، والثقة بالنفس، وتحسين نظرته لذاته، كما تسهم في تحقيق الاستقرار النفسي لديه، وتهيئته لما بعد مرحلة الطفولة.

وقد كان ﷺ يهيىء الصغار لتحمل المسؤولية من خلال الاعتناء ببناء الشخصية السوية، وتلبية الحاجات الفطرية، ومن خلال التربية الشرعية بالتعليم، والتأديب، والتوجيه، وسبق تناول ذلك.

وبالإضافة لتلك التهيئة، كان ﷺ يوليهم بعض المسؤوليات؛ فقد ولى عمرو بن سلمة ﵁ إمامة قومه، وهو لما يزل صغيرًا، يحدثنا ﵁ عن ذلك فيقول: كنا بماء ممر الناس، وكان يمرُّ بنا الركبان فنسألهم: ما للناس، ما للناس؟ ما هذا الرجل؟ فيقولون: يزعم أن الله أرسله، أوحى إليه، أو: أوحى الله بكذا، فكنت أحفظ ذلك الكلام، وكأنما يُغْرَى[1] في صدري، وكانت العرب تلوَّم بإسلامهم الفتح، فيقولون: اتركوه وقومه؛ فإنه إن ظهر عليهم فهو نبي صادق، فلما كانت وقعة أهل الفتح، بادر كل قوم بإسلامهم، وبدر أبي قومي بإسلامهم، فلما قدم قال: جئتكم والله من عند النبي ﷺ حقًّا، فقال:

(١) في بعض نسخ البخاري: «يُقَرُّ»، قال ابن حجر: «قوله: فكأنما يقر كذا للكشميهني بضم أوله، وفتح القاف وتشديد الراء، من القرار، وفي رواية عنه: بزيادة ألف مقصورة من التقرية أي يجمع، وللأكثر: بهمز من القراءة، وللإسماعيلي: يغرى بغين معجمة وراء ثقيلة، أي: يلصق بالغراء، ورجحها عياض». (فتح الباري ٨/ ٢٣).

«صلُّوا صلاة كذا في حين كذا، وصلُّوا كذا في حين كذا، فإذا حضرت الصلاة، فليؤذِّن أحدكم، وليؤُمُّكم أكثركم قرآنًا»، فنظروا، فلم يكن أحد أكثر قرآنًا منِّي، لما كنت أتلقى من الركبان، فقدموني بين أيديهم، وأنا ابن ست، أو سبع سنين، وكانت عليَّ بردة، كنت إذا سجدت تقلصت عنِّي، فقالت امرأة من الحي: ألا تغطوا عنا است قارئكم؟ فاشتروا، فقطعوا لي قميصًا، فما فرحت بشيء فرحي بذلك القميص. (أخرجه البخاري ٤٣٠٢).

وكلَّف أنسًا ﷺ بمهمة، وأوصاه ألا يخبر أحدًا بها، فلم يخبر أنس ﷺ بذلك حتى أقرب الناس إليه، عن ثابت، عن أنس ﷺ، قال: أتى عليَّ رسولُ الله ﷺ، وأنا ألعب مع الغلمان، قال: فسلَّم علينا، فبعثني إلى حاجة، فأبطأت على أمي، فلما جئت قالت: ما حبسك؟ قلت بعثني رسول الله ﷺ لحاجة، قالت: ما حاجته؟ قلت: إنها سر، قالت: لا تحدثن بسرِّ رسول الله ﷺ أحدًا، قال أنس: والله لو حدثت به أحدًا لحدثتك يا ثابت. (أخرجه مسلم ٢٤٨٢).

وفي رواية للبخاري (٦٢٨٩)، ومسلم (٢٤٨٢): «أسرَّ إليَّ النبي ﷺ سرًّا، فما أخبرت به أحدًا بعده، ولقد سألتني أم سليم فما أخبرتها به».

وأسرَّ ﷺ إلى عبد الله بن جعفر بحديث لم يحدث به عبد الله أحدًا، عن عبد الله بن جعفر ﷺ قال: أردفني رسول الله ﷺ ذات يوم خلفه، فأسرَّ إليَّ حديثًا، لا أحدث به أحدًا من الناس. (أخرجه مسلم ٣٤٢).

اللعب

اللعب جزء من كيان الطفل وعالمه، فأي طفل لا يلعب؟ اللعب شأن الطفل ودَيْدَنُه، غنيًّا كان، أو فقيرًا، راضيًا أو ساخطًا، حين يخلو بنفسه، وحين يلقى غيره، يلعب في منزله، أو في منازل الآخرين، في السوق، والشارع، والمسجد، فأينما وُجد الطفل؛ وُجد اللعب.

لذا كان النبي ﷺ وهو أكثر الناس جدية، وهو مَن يأتيه الوحي من السماء، وحامل أعظم رسالة إصلاح للبشرية أجمع، كان ﷺ يعطي الأطفال حقهم في اللعب، ويتقبل منهم ما لا يتقبله كثير من الآباء والأمهات، بل ويشارك صبيان أهل بيته اللعب.

وفيما يلي جوانب من تعامله ﷺ مع لعب الأطفال:

١- إتاحة الفرص لهم للعب:

عن عائشة رضي الله عنها قالت: كنت ألعب بالبنات عند النبي ﷺ، وكان لي صواحب يلعبن معي، فكان رسول الله ﷺ إذا دخل يَتَقَمَّعْنَ[1] منه، فَيُسَرِّبهن[2] إليَّ، فيلعبن معي. (أخرجه البخاري ٦١٣٠، ومسلم ٢٤٤٠).

لقد كان ﷺ يُراعي حاجة أم المؤمنين، فيأذن لها باللعب مع صواحبها، ويراعي حاجتهن فيُسَرِّبهنَّ إليها، واعتيادها رضي الله عنها اللعب بحضرته ﷺ شاهد على إقراره ﷺ لها على ذلك.

٢- عرضه على عائشة أن تشاهد مَن يلعبون:

عن عائشة رضي الله عنها، قالت: دخل عليَّ رسول الله ﷺ، وعندي جاريتان تغنيان بغناء

(١) يتغيبن منه ويدخلن من وراء الستر. (فتح الباري ١٠/ ٥٢٧).

(٢) أي: يرسلهن. (فتح الباري ١٠/ ٥٢٧).

بُعاث، فاضطجع على الفراش، وحوَّل وجهه، ودخل أبو بكر، فانتهرني، وقال: مزمارة الشيطان عند النبي ﷺ؟ فأقبل عليه رسول الله عليه السلام، فقال: «دعهما»، فلما غفل غمزتهما، فخرجتا، وكان يوم عيد، يلعب السودان بالدرق والحِراب، فإما سألت النبي ﷺ، وإما قال: «تشتهين تنظرين؟»، فقلت: نعم، فأقامني وراءه، خَدِّي على خَدِّه، وهو يقول: «دونكم يا بني أرفدة»، حتى إذا مللت، قال: «حسبك؟» قلت: نعم، قال: «فاذهبي». (أخرجه البخاري ٩٤٩-٩٥٠، ومسلم ٨٩٢).

وفي رواية للترمذي (٣٦٩١): عن عائشة، قالت: كان رسول الله ﷺ جالسًا، فسمعنا لغطًا، وصوت صبيان، فقام رسول الله ﷺ فإذا حبشيةٌ تَزْفِن، والصبيان حولها، فقال: «يا عائشة، تعالي فانظري»، فجئت، فوضعت لحيي على منكب رسول الله ﷺ، فجعلت أنظر إليها ما بين المنكب إلى رأسه، فقال لي: «أما شبعت؟، أما شبعت؟» قالت: فجعلت أقول: لا؛ لأنظر منزلتي عنده.

وفي بعض روايات الحديث تُوجِّه عائشة رضي الله عنها الأولياء بتقدير حاجة الجارية إلى اللعب، فعنها رضي الله عنها قالت: «كان الحبش يلعبون بحِرابهم، فسترني رسول الله ﷺ وأنا أنظر، فما زلت أنظر حتى كنت أنا أنصرف»، فاقدروا قدر الجارية الحديثة السن، تسمع اللهو». (أخرجه البخاري ٥١٩٠، ومسلم ٨٩٢).

قال النووي: «قولها: وأنا جارية، فاقدروا قدر الجارية العَرِبَة حديثة السن، معناه: أنها تحب اللهو، والتفرج، والنظر إلى اللعب حبًّا بليغًا، وتحرص على إدامته ما أمكنها، ولا تمل ذلك إلا بعذر من تطويل». (شرح صحيح مسلم ٦/ ١٨٥).

٣- الترخيص في اللعب ما لم يرخص في غيره:

ومن أقوى الدلائل على مراعاة حاجة الصغير إلى اللعب: أنه ﷺ رخَّص في لعب

الصغير ما لم يرخص فيه لغيره، وبغض النظر عن تفاصيل الخلاف الفقهي في هذه المسائل، إلا أن جمهورًا من الفقهاء علَّلوا ذلك بالترخيص باللعب؛ فدل على أن اللعب حاجة معتبرة للطفل، يرخص فيه لأجله ما لا يرخص فيه لغيره.

ومما ورد فيه الترخيص لأجل اللعب ما يلي:

أ- الترخيص في الصور:

عن عائشة ﵂ قالت: قَدِمَ رسول الله ﷺ من غزوة تبوك، أو خيبر وفي سهوتها ستر، فهبت ريح؛ فكشفت ناحية الستر عن بنات لعائشة لُعَبٍ، فقال: «ما هذا يا عائشة؟» قالت: بناتي، ورأى بينهن فرسًا له جناحان من رِقاعٍ، فقال: «ما هذا الذي أرى وسطهن؟» قالت: فرس، قال: «وما هذا الذي عليه؟» قالت: جناحان، قال: «فرس له جناحان؟» قالت: أما سمعت أن لسليمان خيلًا لها أجنحة؟ قالت: فضحك حتى رأيت نواجذه. (أخرجه أبو داود ٤٩٣٢).

وعنها ﵂ قالت: كنت ألعب بالبنات عند النبي ﷺ، وكان لي صواحب يلعبن معي، فكان رسول الله ﷺ إذا دخل يتقمَّعنَ منه فيُسَرِّبهنَّ إليَّ، فيلعبن معي. (أخرجه البخاري ٦١٣٠، ومسلم ٢٤٤٠).

قال ابن حجر- عن حديث لعب عائشة-: «واستدل بهذا الحديث على جواز اتخاذ صور البنات واللعب، من أجل لعب البنات بهن، وخصَّ ذلك من عموم النهي عن اتخاذ الصور، وبه جزم عياض، ونقله عن الجمهور، وأنهم أجازوا بيع اللعب للبنات؛ لتدريبهن من صغرهن على أمر بيوتهن وأولادهن». (فتح الباري ١٠/ ٥٢٧).

عن عائشة ﵂ أن النبي ﷺ تزوجها، وهي بنت سبع سنين، وزُفَّت إليه، وهي بنت تسع سنين، ولُعَبها معها، ومات عنها، وهي بنت ثمان عشرة. (أخرجه مسلم ١٤٢٢).

ب- التسامح في بعض ما يصدر منهم نتيجة اللعب:

عن أنس ﷺ قال: كان رسول الله ﷺ من أحسن الناس خلقًا، فأرسلني يوما لحاجة، فقلت: والله لا أذهب، وفي نفسي أن أذهب لما أمرني به نبي الله ﷺ، فخرجت حتى أمرَّ على صبيان، وهم يلعبون في السوق، فإذا رسول الله ﷺ قد قبض بقفاي من ورائي، قال: فنظرت إليه، وهو يضحك، فقال: «يا أنيس أذهبت حيث أمرتك؟» قال: قلت: نعم، أنا أذهب يا رسول الله. (أخرجه مسلم ٢٣١٠).

لقد أرسل ﷺ أنسًا ﷺ في مهمة، فقال: والله لا أذهب، ومرَّ عليه ﷺ مع صبيان يلعبون فضحك ﷺ ولم يعنِّفه، خلافًا لما يفعله كثير من الآباء والأمهات حين لا يستجيب الطفل لأمرهم، أو حين ينشغل باللعب عن تنفيذ ما طُلب منه.

ولا يعني ذلك إهمال الانضباط، وترك الحبل على الغارب للطفل، وانهماكه في اللعب على حساب مهامه الجادة، إنما التعامل مع حاجات الطفل بواقعية واعتدال.

ج - إقرار لعب الطفل بالطير:

أقرَّ النبي ﷺ لعب الطفل بالطير، فعن أنس ﷺ قال: كان النبي ﷺ أحسن الناس خلقًا، وكان لي أخ يقال له: أبو عمير- قال: أحسبه فطيم-، وكان إذا جاء قال: «يا أبا عمير، ما فعل النُّغَيْر» نُغَرٌ كان يلعب به، فربما حضر الصلاة، وهو في بيتنا، فيأمر بالبساط الذي تحته فيكنس وينضح، ثم يقوم، ونقوم خلفه، فيُصلِّي بنا. (أخرجه البخاري ٦٢٠٣، ومسلم ٢١٥٠).

قال ابن حجر في فوائد هذا الحديث: «وفيه جواز تكنية مَن لم يولد له، وجواز لعب الصغير بالطير، وجواز ترك الأبوين ولدهما الصغير يلعب بما أبيح اللعب به، وجواز إنفاق المال فيما يتلهى به الصغير من المباحات، وجواز إمساك الطير في القفص ونحوه،

وقص جناح الطير؛ إذ لا يخلو حال طير أبي عمير من واحد منهما، وأيهما كان الواقع التحق به الآخر في الحكم». (فتح الباري ١٠/ ٥٨٤).

وأبو هريرة ﷺ أكثر أصحاب النبي ﷺ رواية للحديث، ولا يكاد يعرف إلا بهذه الكنية، وسبب تكنيته بها: لعبه وهو صغير، فعن عبد الله بن رافع، قال: قلت لأبي هريرة، لمِ كُنيت أبا هريرة؟ قال أما تفرق منِّي؟ قلت: بلى، والله إني لأهابك، قال: كنت أرعى غنم أهلي، فكانت لي هريرة صغيرة، فكنت أضعها بالليل في شجرة، فإذا كان النهار ذهبت بها معي، فلعبت بها، فكَنوني أبا هريرة. (أخرجه الترمذي ٣٨٤٠).

٤- إذنه للأطفال أن يلعبوا معه:

عن عبد الله عن خالد بن سعيد، عن أبيه، عن أم خالد بنت خالد بن سعيد قالت: أتيت رسول الله ﷺ مع أبي، وعليَّ قميص أصفر، قال رسول الله ﷺ: سَنَهْ سَنَهْ، قال عبد الله: وهي بالحبشية: حسنة، قالت: فذهبت ألعب بخاتم النبوة، فزبرني أبي، قال رسول الله ﷺ: دعها، ثم قال رسول الله ﷺ: «أبلي وأخلقي، ثم أبلي وأخلقي، ثم أبلي وأخلقي»، قال عبد الله: فبقيت حتى ذُكر، يعني: من بقائها. (أخرجه البخاري ٥٩٩٣).

لقد أذن ﷺ في هذا الموقف الأبويِّ لأم خالد أن تلعب بجسده الشريف، ونهى والدها عن انتهارها، وبوَّب البخاري على هذا الحديث: (باب مَن ترك صبية غيره حتى تلعب به، أو قبَّلها، أو مازحها).

٥- مشاركتهم اللعب:

وربما شاركهم ﷺ اللعب؛ فعن ابن عباس ﷺ قال: كنت ألعب مع الصبيان، فجاء رسول الله ﷺ، فتواريت خلف باب، قال: فجاء، فَحَطَأَني حَطْأَةً، وقال: «اذهب، وادع لي معاوية» قال: فجئت فقلت: هو يأكل، قال: ثم قال لي: «اذهب فادع لي معاوية»

قال: فجئت فقلت: هو يأكل، فقال: «لا أشبع الله بطنه» قال ابن المثنى: قلت لأمية: ما حطأني؟ قال: قَفَدَنِي قَفْدَةً. (أخرجه مسلم ٢٦٠٤).

لقد داعب ﷺ ابن عباس ﷺ، ثم أمره بالمهمة، قال النووي: «وفي هذا الحديث جواز ترك الصبيان يلعبون بها ليس بحرام». (شرح صحيح مسلم ١٦/ ١٥٦).

وكان ﷺ كثيرًا ما يلاعب سبطيْه ﷺ، ومن ذلك هذا الموقف: عن يعلى العامري، أنه خرج مع رسول الله ﷺ إلى طعام دُعوا له، قال: فاستمثل رسول الله ﷺ- قال عفان: قال وهيب: فاستقبل رسول الله ﷺ- أمام القوم، وحسين مع غلمان يلعب، فأراد رسول الله ﷺ أن يأخذه، قال: فطفق الصبي يفرُّ ها هنا مرة، وها هنا مرة، فجعل رسول الله ﷺ يضاحكه حتى أخذه، قال: فوضع إحدى يديه تحت قفاه، والأخرى تحت ذقنه، فوضع فاه على فيه، فقبله وقال: «حسين منِّي، وأنا من حسين، أحبَّ الله مَن أحبَّ حُسينًا، حسين سِبْطٌ من الأسباط». (أخرجه أحمد ١٧٥٦١، وابن ماجه ١٤٤).

٦- حملهم على عاتقة:

وكان ﷺ كثيرًا ما يحملهم على عاتقه الشريف، عن أبي هريرة ﷺ قال: كنا عند رسول الله ﷺ، وهو يُقَسِّم تمرًا من تمر الصدقة، والحسن بن عليٍّ في حِجره، فلما فرغ حمله النبي ﷺ على عاتقه، فسال لعابه على النبي ﷺ، فرفع النبي ﷺ رأسه، فإذا تمرة في فيه، فأدخل النبي ﷺ يده فانتزعها منه، ثم قال: «أما علمت أن الصدقة لا تحل لآل محمد». (أخرجه أحمد ٧٧٥٨).

وعن أبي هريرة ﷺ، قال: خرج علينا رسول الله ﷺ، ومعه حسن وحسين، هذا على عاتقه، وهذا على عاتقه، وهو يلثم هذا مرة، وهذا مرة، حتى انتهى إلينا، فقال له رجل: يا رسول الله، إنك تحبهما، فقال: «مَن أحبَّهما فقد أحبني، ومن أبغضهما فقد أبغضني». (أخرجه أحمد ٩٦٧٣).

وعن أبي هريرة ﷺ قال: رأيت النبي ﷺ حاملًا الحسن بن عليٍّ على عاتقه، ولعابه يسيل عليه». (أخرجه أحمد ٩٧٧٩، وابن ماجه ٦٥٨).

وعن البراء ﷺ، قال: رأيت النبي ﷺ، والحسن بن عليٍّ على عاتقه، يقول: «اللهم إني أحبه فأحِبَّه». (أخرجه البخاري ٣٧٤٩، ومسلم ٢٤٢٢).

وحمل أبو بكر الحسنَ ﷺ على عاتقه حين رآه، فعن عقبة بن الحارث، قال: صلى أبو بكر ﷺ العصر، ثم خرج يمشي، فرأى الحسنَ يلعب مع الصبيان، فحمله على عاتقه، وقال: بأبي، شبيهٌ بالنبي لا شبيهٌ بعلي، وعليٌّ يضحك. (أخرجه البخاري ٣٥٤٢).

٧- السؤال عنهم لملاعبتهم:

لم تكن ملاعبته ﷺ قاصرة على حال لقائه بهم، بل ربما سأل عنهم، وذهب إليهم في بيوتهم، عن أبي هريرة الدوسي ﷺ، قال: خرج النبي ﷺ في طائفة النهار، لا يكلمني ولا أكلمه، حتى أتى سوق بني قينقاع، فجلس بفناء بيت فاطمة، فقال «أَثَمَّ لُكَع، أَثَمَّ لُكَع» فحبسته شيئًا، فظننت أنها تلبسه سخابًا، أو تغسله، فجاء يشتد حتى عانقه، وقبَّله، وقال: «اللهم أحببه، وأحب من يحبه». (أخرجه البخاري ٢١٢٢، ومسلم ٢٤٢١).

قال ابن حجر: «وفي الحديث بيان ما كان الصحابة عليه من توقير النبي ﷺ والمشي معه، وما كان عليه من التواضع من الدخول في السوق، والجلوس بفناء الدار، ورحمة الصغير، والمزاح معه، ومعانقته، وتقبيله». (فتح الباري ٤/ ٣٤٢).

٨- منع ما فيه مخالفة:

واللعب في المنهج النبوي لا يسوغ ترك الحبل على الغارب للطفل، بل من مسؤولية وليه أن يمنعه من الوقوع في الحرام لأجل اللعب.

عن أبي هريرة ﷺ، قال: كان رسول الله ﷺ يُؤتى بالتمر عند صِرَام النخل، فيجيء هذا بتمره، وهذا من تمره حتى يصير عنده كومًا من تمر، فجعل الحسن والحسين ﷺ يلعبان بذلك التمر، فأخذ أحدهما تمرة، فجعله في فيه، فنظر إليه رسول الله ﷺ، فأخرجها من فيه، فقال: «أما علمت أن آل محمد ﷺ لا يأكلون الصدقة». (أخرجه البخاري ١٤٨٥، ومسلم ١٠٦٩).

بوَّب النووي في صحيح مسلم: (الرخصة في اللعب الذي لا معصية فيه في أيام العيد). (٢/ ٦٠٧).

وضَعْف التمييز لدى الطفل مدعاة للوقوع في الحرام، فعلى ولي الطفل أن يمنعه من المحرمات ما لم يكن ذلك مأذونًا فيه للطفل، والحرام شؤمه واقع على مَن يقارفه صغيرًا أو كبيرًا، والصغير، وإن لم يكن مكلفًا؛ فإن الولي مكلف، وعليه إبعاد طفله عن الحرام.

ومع انفتاح مجتمعات المسلمين على العالم الآخر تنتشر كثير من الألعاب التي تحوى المحرمات، ومن أبرز ذلك: المعازف التي قلَّما تفارق لعبة من ألعاب الطفل، وأشد من ذلك ما يرتبط بأساطير وثنية تمجد الوثنية، وتقدح في مقام الله عز وجل، وهذا يقع كثيرًا في الألعاب الإلكترونية المتداولة عبر أجهزة الألعاب الخاصة، أو البرامج التي تعمل على الهواتف، والأجهزة الكفية.

وفي كثير من بلاد المسلمين تعلو أصوات المعازف والغناء في أماكن اللعب العامة، فينشأ الصغير على استمراء المعازف وإلفها، ويستنكر بعد ذلك مَن يحدِّثه عن تحريمها.

٩- استخدام اللعب وسيلة لتعويدهم على العبادة:

وقد كان أصحاب النبي ﷺ يستخدمون اللعب وسيلة لتحفيز صبيانهم على الطاعة، وشغلهم عن الانصراف عنها، فعن الربيع بنت معوذ ﷺ، قالت: أرسل النبي ﷺ غداة

عاشوراء إلى قرى الأنصار: «من أصبح مفطرًا، فليتم بقية يومه، ومن أصبح صائمًا، فليصم»، قالت: فكُنَّا نصومه بعد، ونُصوِّم صبياننا، ونجعل لهم اللعبة من العهن، فإذا بكى أحدهم على الطعام أعطيناه ذاك حتى يكون عند الإفطار. (أخرجه البخاري ١٩٦٠، ومسلم ١١٣٦).

١٠- السلام على الأطفال وهم يلعبون:

ويسلم ﷺ على الصبيان وهم يلعبون، والسلام فيه مؤانسة لهم، وإقرار لهم على اللعب، عن ثابت قال: قال أنس ﷺ: «أتى رسول الله ﷺ على غلمان يلعبون، فسلَّم عليهم»، وفي رواية أحمد: «صبيان وهم يلعبون». (أخرجه أبو داود ٥٢٠٢، وأحمد ١٢٧٢٤).

قال ابن حجر: «قال ابن بطال: في السلام على الصبيان تدريبهم على آداب الشريعة، وفيه طرح الأكابر رداء الكبر، وسلوك التواضع، ولين الجانب». (فتح الباري ١١/ ٣٣).

الدعاء لهم

ويدعو ﷺ للصغار، فعن البراء ﷺ قال: رأيت النبي ﷺ، والحسن على عاتقه يقول: «اللهم إني أحبه، فأَحِبَّه». (أخرجه البخاري ٣٧٤٩، ومسلم ٢٤٢٢).

ودعا ﷺ لخادمه أنس بن مالك ﷺ؛ فرأى أنس أثر هذا الدعاء المبارك، عن أنس ﷺ، قال: دخل النبي ﷺ على أم سليم، فأتته بتمر وسمن، قال: «أعيدوا سمنكم في سقائه، وتمركم في وعائه، فإني صائم»، ثم قام إلى ناحية من البيت، فصلى غير المكتوبة، فدعا لأم سليم وأهل بيتها، فقالت أم سليم: يا رسول الله، إن لي خويصة، قال: «ما هي؟»، قالت: خادمك أنس، فما ترك خير آخرة ولا دنيا إلا دعا لي به، قال: «اللهم ارزقه مالًا وولدًا، وبارك له فيه»، فإني لمن أكثر الأنصار مالًا، وحدثتني ابنتي أمينة: أنه دفن لصلبي مقدم حجاج البصرة بضع وعشرون ومائة. (أخرجه البخاري ١٩٨٢، ومسلم ٦٦٠).

ويوصي ﷺ بالدعاء للأولاد قبل خلقهم، فيرشد الزوج للدعاء عند الجماع، فعن ابن عباس رضي الله عنهما، عن النبي ﷺ، قال: «أما إن أحدكم إذا أتى أهله، وقال: بسم الله، اللهم جنِّبنا الشيطان، وجنِّب الشيطان ما رزقتنا، فرزقا ولدًا لم يضره الشيطان». (أخرجه البخاري ٣٢٧١، ومسلم ١٤٣٤).

ويدعو لهم، وهم نُطف في أرحام أماتهم، عن أنس ﷺ قال: مات ابن لأبي طلحة من أم سليم، فقالت لأهلها: لا تحدثوا أبا طلحة بابنه حتى أكون أنا أحدثه قال: فجاء، فقرَّبت إليه عشاء، فأكل وشرب، فقال: ثم تصنَّعت له أحسن ما كان تصنع قبل ذلك، فوقع بها، فلما رأت أنه قد شبع، وأصاب منها، قالت: يا أبا طلحة، أرأيت لو أن قومًا أعاروا عاريتهم أهل بيت، فطلبوا عاريتهم، ألهم أن يمنعوهم؟ قال: لا، قالت: فاحتسب ابنك، قال: فغضب، وقال: تركتني حتى تلطخت، ثم أخبرتني بابني! فانطلق حتى أتى

رسول الله ﷺ، فأخبره بما كان، فقال رسول الله ﷺ: «بارك الله لكما في غابر ليلتكما .... الحديث». (أخرجه مسلم ٢١٤٤، وأصله في البخاري ١٣٠١).

والدعاء للأولاد فيه لجوء إلى الله عز وجل، واعتراف بالعجز والقصور، والحاجة والطاعة له سبحانه وتعالى.

وفيه إيمان بأن القلوب بيد الله عز وجل، فمهما أوتي الإنسان من قدرة، وبلاغ، وبيان، ومهما امتلك من أدوات التأثير فلن يهدي من أراد الله عز وجل ضلاله وغوايته.

والدعاء للأولاد كان شأن الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم، فقد قال عز وجل- عن خليله إبراهيم عليه السلام-: ﴿رَبِّ ٱجْعَلْنِى مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِى رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَآءِ﴾ (إبراهيم: ٤٠).

وقال سبحانه- عن خليله إبراهيم-: ﴿وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ﴾ (إبراهيم: ٣٥).

وأخبر تبارك وتعالى أن الدعاء للذرية من صفات عباده المؤمنين، فقال- عن عباد الرحمن-: ﴿وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾ (الفرقان: ٧٤).

وقال- عن حال العبد المؤمن حين يبلغ كمال الأشد-: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَصْلِحْ لِى فِى ذُرِّيَّتِىٓ إِنِّى تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ (الأحقاف: ١٥).

وربما أعجب الإنسان بفكره أو مهاراته، أو رأى أن تعلُّمه يؤهله لأن يستقلَّ بإصلاح ذريته، فيأتي الدعاء ليربي في الإنسان معرفة قدره، وحاجته لربه سبحانه وتعالى، وحين يتحقق له ما يريد من صلاح ذريته؛ ينسب ذلك لله عز وجل، ويضيف النعمة لمسديها سبحانه، وقد قال عز وجل- عن نبيه ﷺ-: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ﴾ (آل عمران:

١٥٩)، فوفَّقه سبحانه لسلوك الأسلوب المناسب، ثم هدى قلوب أصحابه، وألَّف بينهم، ﴿لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَّا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ﴾ (الأنفال:٦٣).

النهي عن الدعاء عليهم:

ومع دعائه ﷺ لهم، فقد نهى عن الدعاء عليهم فقال: «لا تدعوا على أنفسكم، ولا تدعوا على أولادكم، ولا تدعوا على أموالكم، لا توافقوا من الله ساعة يسأل فيها عطاء، فيستجيب لكم». (أخرجه مسلم ٣٠٠٩).

الأمر بالعدل بينهم

العدل قيمة مطلقة، يخاطب به كل مسلم أيًا كان موقعه: حاكمًا أو محكومًا، رجلاً أو امرأة، فكل مَن تولى مسؤولية تجاه غيره فهو مطالب بالعدل، وقد بيَّن النبي ﷺ المنزلة العالية يوم القيامة لمن يتحلون بالعدل- بمن فيهم من يعدل مع أهله- فقال ﷺ: «إن المقسطين عند الله على منابر من نور، عن يمين الرحمن عز وجل، وكلتا يديه يمين، الذين يعدلون في حكمهم، وأهليهم، وما وُلُّوا». (أخرجه مسلم ١٨٢٧).

قال النووي: «وأما قوله ﷺ: «الذين يعدلون في حكمهم، وأهليهم، وما وُلُّوا» فمعناه: أن هذا الفضل إنما هو لمن عدل فيما تقلده من خلافة، أو إمارة، أو قضاء، أو حسبة، أو نظر على يتيم، أو صدقة، أو وقف، وفيما يلزمه من حقوق أهله، وعياله، ونحو ذلك، والله أعلم». (شرح صحيح مسلم ١٢/ ٢١٢).

وجاء النص صريحًا في النهي عن التفضيل بين الأولاد، وأنكر ﷺ على مَن فعل ذلك، فعن النعمان بن بشير رضي الله عنهما، قال: سَأَلَتْ أمي أبي بعض الموهبة لي من ماله، ثم بدا له فوهبها لي، فقالت: لا أرضى حتى تشهد النبي ﷺ، فأخذ بيديَّ، وأنا غلام، فأتى بي النبي ﷺ، فقال: إن أمه بنت رواحة سألتني بعض الموهبة لهذا، قال: «ألك ولد سواه؟»، قال: نعم، قال: فأراه، قال: «لا تشهدني على جور»، وقال أبو حريز عن الشعبي، «لا أشهد على جور». (أخرجه البخاري ٢٦٥٠، ومسلم ١٦٢٣).

وعن جابر رضي الله عنه قال: قالت امرأة بشير: انحل ابني غلامك، وأَشْهِد لي رسول الله ﷺ، فأتى رسول الله ﷺ فقال: إن ابنة فلان سألتني أن أنحل ابنها غلامي، وقالت أشهِدْ لي رسول الله ﷺ، فقال: «أله إخوة؟ قال: نعم، قال: أفكلهم أعطيت مثل ما أعطيته؟ قال: لا، قال: فليس يصلح هذا، وإني لا أشهد إلا على حق». (أخرجه مسلم ١٦٢٤).

وعن عبد الله بن عتبة بن مسعود أن رجلًا جاء إلى النبي ﷺ فقال: إني تصدقت على ابني بصدقة فاشهد، فقال: «هل لك ولد غيره؟ قال: نعم، قال: أعطيتهم كما أعطيته؟ قال: لا، قال: أشهد على جور؟!». (أخرجه النسائي ٣٦٨٤).

ويعالج ﷺ حالات الاختلال في العدل حتى في المشاعر؛ فيوجِّه أصحابه إلى العدل بين أولادهم، عن أنس ﷺ، أن رجلًا كان جالسًا مع النبي ﷺ، فجاء بني له، فأخذه فقبَّله، وأجلسه في حِجره، ثم جاءت بنية له، فأخذها، فأجلسها إلى جنبه، فقال النبي ﷺ: «فما عدلت بينهما». (أخرجه البيهقي في شعب الإيمان ٨٣٢٧).

ويتجلَّى في هذا الموقف جانبان مهمان في العدل:

الأول: العدل في إظهار المشاعر والعواطف، وهذا من أكثر ما يحصل من الوالدين؛ إذ يتسم بعض الأطفال بالظرافة واللطافة، فيستحسن من حوله ذلك منه، ويمنحونه قدرًا أكبر من غيره في الملاعبة، والاحتفاء، والاهتمام، أو الاستماع لحديثه، وهذا يوغر صدور إخوته وأخواته عليه، ويشعرهم بالتمييز.

الثاني: العدل بين الذكر والأنثى؛ إذ يُفضِّل كثير من الآباء والأمهات الذكر على الأنثى، ويمنحونه قدرًا أعلى من الاهتمام، ويتجاوزون أكثر عن أخطائه وعيوبه، وقد يستمر ذلك إلى ما بعد مرحلة الطفولة.

* * *

الخاتمة

الخاتمة

الحمد لله وحده، والصلاة والسلام على من لا نبي بعده، أما بعد:

فهذا حاصل ما جاد به القلم الضعيف، والخاطر المكدود، وهذا ما تيسر جمعه وتحريره من هدي النبي ﷺ ومنهجه في التربية والتعليم، والتزكية والتوجيه والرعاية.

ومهما أوتي المرء من فصاحة وبلاغة، ومهما تمكن من أدوات البيان واللغة فلن يستطيع أن يعبر عن هذا المنهج، وتلك التربية التي لم تعرف البشرية مثيلًا لها.

اجتهدت في هذا العمل المتواضع في جمع ما وقفت عليه من أخبار ومواقف تتصل بالتربية النبوية، وفي تصنيفها وتبويبها، والتعليق عليها بما يناسب المقام.

ولن يسلم مثل هذا الجهد من قصور وخطأ، ومن فوات ماهو أقرب للاستشهاد على حساب ما هو دونه، ومن استشهاد في غير موضعه، أو تحميل للنص ما لا يحتمله.

ولا يسلم أيضًا من تعبير لا يليق بمقام سيد البشر؛ جاء نتيجة قصور وضعف في البيان، أو اجتهاد لم يوافق الصواب.

وقد بقي في ذهني كثير مما لم يسعفني الوقت لاستقصائه، أو تحريره وتجويده، ورأيت أنه مهما بقي هذا العمل لديَّ فسأزيد فيه وأنقص، وأعدِّل وأبدِّل، فالأمر كما قال القاضي عبد الرحيم البيساني- معتذرًا للعماد الأصفهاني عن كلامٍ استدركه عليه-: «إنه قد وقع لي شيء، وما أدري أوقع لك أم لا؟ وها أنا أخبرك به، وذلك أني رأيت أنه لا يكتب إنسان كتابًا في يومه، إلَّا قال- في غده-: لو غُيِّر هذا لكان أحسن، ولو زِيد كذا لكان يستحسن، ولو قدِّم هذا لكان أفضل، ولو تُرك هذا لكان أجمل، وهذا من أعظم العبر، وهو دليل على استيلاء النقْص على جملة البشر».

والهدي النبوي في التربية والتعليم أوسع من أن يحيط به باحث متمكن، فكيف بقليل البضاعة، مشتت الذهن، تقذفه المشاغل يمنةً ويسرةً؟.

أسأل الله عز وجل أن يقيل عثرتي، ويعفو عن زللي، ويتجاوز عن قصوري، وأسأله سبحانه أن يرزقنا محبته عز وجل، ومحبة نبيه ﷺ، وأن يجعلنا ممن يتبعون سنته، ويقتفون هديه، ويدعون إلى منهجه، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وآله وصحبه.

* * *

قائمة المراجع

قائمة المراجع

- إحكام الإحكام شرح عمدة الأحكام، ابن دقيق العيد، مطبعة السنة المحمدية.
- إحياء علوم الدين، أبو حامد محمد بن محمد الغزالي الطوسي، دار المعرفة - بيروت.
- أدب الدنيا والدين، أبو الحسن علي بن محمد بن محمد بن حبيب البصري البغدادي، الشهير بالماوردي، دار مكتبة الحياة، ١٩٨٦م.
- الأدب المفرد، أبو عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري، تحقيق: محمد فؤاد عبدالباقي، المطبعة السلفية - القاهرة، مصر، ١٣٧٥هـ.
- الأدب المفرد، أبو عبد الله محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة البخاري، تحقيق: سمير بن أمين الزهيري، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع- الرياض، ط١، ١٤١٩ هـ.
- الأساليب النبوية في التعامل مع أخطاء الناس، محمد بن صالح المنجد، دار الإيمان للطبع والنشر والتوزيع.
- الاستقامة، تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن عبد الله بن أبي القاسم بن محمد ابن تيمية الحراني الحنبلي الدمشقي، تحقيق: د/ محمد رشاد سالم، جامعة الإمام محمد بن سعود، ط ١، ١٤٠٣.
- أسد الغابة في معرفة الصحابة، عز الدين أبو الحسن علي بن محمد الجزري المعروف بابن الأثير، دار ابن حزم - بيروت، لبنان، ط ١، ١٤٣٣هـ.
- أسس الصحة النفسية، عبد العزيز القوصي، مكتبة النهضة المصرية - القاهرة.

- الأسس النفسية والاجتماعية لرعاية الشباب، عمر التومي الشيباني، الدار العربية للكتاب - طرابلس، ليبيا، ١٩٨٧م.
- الإصابة في تمييز الصحابة، أبو الفضل أحمد بن علي بن محمد بن أحمد بن حجر العسقلاني، تحقيق: عادل أحمد عبد الموجود وعلى محمد معوض، دار الكتب العلمية - بيروت، ط ١، ١٤١٥هـ.
- أطفال المسلمين كيف رباهم النبي الأمين ﷺ، جمال عبدالرحمن، دار طيبة الخضراء - مكة المكرمة، ط٧، ١٤٢٥هـ.
- إعلام الموقعين عن رب العالمين ، محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية، تحقيق: محمد عبد السلام إبراهيم، دار الكتب العلمية - بيروت، ط ١، ١٤١١هـ.
- أعلام النبوة، أبو الحسن علي بن محمد بن محمد بن حبيب البصري البغدادي، الشهير بالماوردي، دار ومكتبة الهلال - بيروت، ط ١، ١٤٠٩ هـ.
- أمثال الحديث المروية عن النبي ﷺ، أبو محمد الحسن بن عبد الرحمن بن خلاد الرامهرمزي الفارسي، تحقيق: أحمد عبد الفتاح تمام، مؤسسة الكتب الثقافية - بيروت، ط ١، ١٤٠٩هـ.
- الإيمان، أبو عبد الله محمد بن إسحاق بن محمد بن يحيى بن مَنْدَه العبدي، تحقيق: د/ علي بن محمد بن ناصر الفقيهي، مؤسسة الرسالة - بيروت، ط ٢، ١٤٠٦هـ.
- البداية والنهاية، أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي البصري ثم الدمشقي، تحقيق: علي شيري، دار إحياء التراث العربي، ط ١، ١٤٠٨ هـ.

- بغية الرائد لما تضمنه حديث أم زرع من الفوائد. القاضي عياض بن موسى اليحصبي السبتي. تحقيق: صلاح الدرين بن أحمد ألأدلبي. محمد الحسن أجانف. محمد عبدالسلام الشرقاوي. وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية المغربية. ١٣٩٥هـ.
- تاريخ الإسلام وَوَفيات المشاهير وَالأعلام، شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن قَايْماز الذهبي، تحقيق: الدكتور بشار عوّاد معروف، دار الغرب الإسلامي، ط ١، ٢٠٠٣ م.
- تاريخ الأمم والملوك، أبو جعفر محمد بن جرير الطبري، تحقيق: أبي صهيب الكرمي، بيت الأفكار الدولية.
- التحرير والتنوير «تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد»، محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر بن عاشور التونسي، الدار التونسية للنشر - تونس، ١٩٨٤ هـ.
- تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي، أبو العلا محمد عبد الرحمن بن عبد الرحيم المباركفوري، دار الكتب العلمية - بيروت.
- تحفة المودود بأحكام المولود. محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية. تحقيق عبد القادر الأرناؤوط. مكتبة دار البيان - دمشق. ط ١. ١٣٩١هـ.
- تربية النبي ﷺ لأصحابه رضوان الله عليهم في ضوء الكتاب والسنة، خالد بن عبد الله القرشي، دار التربية والتراث - مكة، و دار المعالي - عمّان، ط ١، ١٤٢١هـ.

- التعريفات. علي بن محمد بن علي الزين الشريف الجرجاني. دار الكتب العلمية بيروت -لبنان. ط ١. ١٤٠٣هـ.
- تفسير القرآن العظيم، أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي البصري ثم الدمشقي، تحقيق: سامي بن محمد سلامة، دار طيبة للنشر والتوزيع - الرياض، ط٢، ١٤٢٠هـ.
- التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد، أبو عمر يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر بن عاصم النمري الأندلسي، تحقيق: مصطفى بن أحمد العلوي أ ومحمد عبد الكبير البكري، وزارة عموم الأوقاف والشؤون الإسلامية - المغرب، ١٣٨٧هـ.
- التوجيه غير المباشر وأثره في التربية وتغيير السلوك. صالح بن عبدالله بن حميد. دار المسلم. الرياض.
- تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله السعدي، تحقيق: عبد الرحمن بن معلا اللويحق، مؤسسة الرسالة، ط ١، ١٤٢٠هـ.
- جامع البيان عن تأويل آي القرآن، أبو جعفر محمد بن جرير الطبري، تحقيق: أحمد محمد شاكر، ومحمود محمد شاكر، مكتبة ابن تيمية - القاهرة، مصر، ط٢.
- جامع العلوم والحكم في شرح خمسين حديثًا من جوامع الكلم، زين الدين عبد الرحمن بن أحمد بن رجب بن الحسن السلامي البغدادي ثم الدمشقي الحنبلي، تحقيق: شعيب الأرناؤوط، إبراهيم باجس، مؤسسة الرسالة - بيروت، ط٧، ١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م.

- الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله ﷺ وسننه وأيامه، أبو عبد الله محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة الجعفي البخاري، تحقيق: محمد زهير بن ناصر الناصر، دار طوق النجاة - بيروت، لبنان، ط ١، ١٤٢٢هـ.
- جامع بيان العلم وفضله، أبو عمر يوسف بن عبد البر، تحقيق: أبي الأشبال الزهيري، دار ابن الجوزي - الدمام، السعودية، ط ١، ١٤١٤هـ - ١٩٩٤م.
- الجامع لأحكام القرآن. أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري الخزرجي شمس الدين القرطبي. تحقيق: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش. دار الكتب المصرية - القاهرة. ط٢. ١٣٨٤ه.
- الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع ، أبو بكر أحمد بن علي بن ثابت بن أحمد بن مهدي الخطيب البغدادي، تحقيق: د/ محمود الطحان، مكتبة المعارف - الرياض.
- الجامع لشعب الإيمان، أبو بكر أحمد بن الحسين البيهقي، تحقيق: مختار أحمد الندوي، مكتبة الرشد - الرياض، السعودية، ط ١، ١٤٢٣هـ.
- الخراج، أبو يوسف يعقوب بن إبراهيم بن حبيب بن سعد بن حبتة الأنصاري، المكتبة الأزهرية للتراث، تحقيق: طه عبد الرؤوف سعد، سعد حسن محمد.
- الخصائص الكبرى، عبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين السيوطي، دار الكتب العلمية - بيروت.
- دلائل النبوة ومعرفة أحوال صاحب الشريعة، أبو بكر أحمد بن الحسين البيهقي، تحقيق: د/ عبد المعطي قلعجي، دار الكتب العلمية - بيروت، لبنان، ط ١، ١٤٠٨هـ.

- دلائل النبوة ومعرفة أحوال صاحب الشريعة، أحمد بن الحسين بن علي بن موسى الخُسْرَوْجِردي الخراساني، أبو بكر البيهقي، دار الكتب العلمية - بيروت، ط ١ - ١٤٠٥ هـ.
- ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر، عبد الرحمن بن محمد بن محمد، ابن خلدون أبو زيد، ولي الدين الحضرمي الإشبيلي، تحقيق: خليل شحادة، دار الفكر - بيروت، ط ٢، ١٤٠٨ هـ.
- الرسول المعلم ﷺ وأساليبه في التعليم، عبدالفتاح أبو غدة، مكتبة المطبوعات الإسلامية - حلب، ط ١، ١٤١٧هـ.
- الروض الأنف في شرح السيرة النبوية، لابن هشام، أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الله بن أحمد السهيلي، تحقيق: عمر عبد السلام السلامي، دار إحياء التراث العربي - بيروت، ط١، ١٤١٢هـ.
- الروض الداني إلى المعجم الصغير، أبو القاسم سليمان بن أحمد بن أيوب اللخمي الطبراني، تحقيق: محمد شكور محمود الحاج أمرير، المكتب الإسلامي - بيروت، لبنان، ط ١، ١٤٠٥هـ.
- زاد المعاد في هدي خير العباد، محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية، مؤسسة الرسالة - بيروت، مكتبة المنار الإسلامية، الكويت، ط ٢٧، ١٤١٥هـ.
- الزهد ويليه الرقائق، أبو عبد الله عبد الله بن المبارك المرزوي، تحقيق: حبيب الرحمن الأعظمي، دار الكتب العلمية - بيروت، لبنان، ط٢، ١٤٢٥هـ.

- سنن ابن ماجه، أبو عبد الله محمد بن يزيد القزويني، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء الكتب العربية - القاهرة، مصر.
- سنن أبي داود، أبو داود سليمان بن الأشعث الأزدي السِّجِسْتاني، تحقيق: شعَيب الأرنؤوط، ومحَمَّد كامِل قره بللي، دار الرسالة العالمية - دمشق، سوريا، ط ١، ١٤٣٠هـ.
- سنن الترمذي، أبو عيسى محمد بن عيسى بن سَوْرة الترمذي، تحقيق: أحمد محمد شاكر، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي - مصر، ط٢، ١٣٩٨هـ.
- السنن الكبرى، أبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب النسائي، تحقيق: حسن عبد المنعم شلبي، أشرف عليه: شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة - بيروت، لبنان، ط ١، ١٤٢١هـ
- السنن الكبير، أبو بكر أحمد بن الحسين بن علي البيهقي، تحقيق: د/ عبد الله بن عبد المحسن التركي، مركز هجر للبحوث والدراسات العربية والإسلامية - القاهرة، مصر، ط ١، ١٤٣٢هـ.
- سنن النسائي بشرح الحافظ جلال الدين السيوطي وحاشية الإمام السندي، أبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب النسائي، تحقيق: عبد الفتاح أبو غدة، مكتب المطبوعات الإسلامية - حلب، سوريا.
- سير أعلام النبلاء، شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن قَايْماز الذهبي، تحقيق: مجموعة من المحققين بإشراف الشيخ شعيب الأرناؤوط، مؤسسة الرسالة، ط ٣، ١٤٠٥ هـ.

- سيرة ابن إسحاق (كتاب السير والمغازي)، المؤلف: محمد بن إسحاق بن يسار المطلبي بالولاء، المدني، تحقيق: سهيل زكار، دار الفكر - بيروت، ط١، ١٣٩٨هـ.
- السيرة النبوية لابن هشام. عبد الملك بن هشام بن أيوب الحميري المعافري، أبو محمد، جمال الدين. تحقيق: مصطفى السقا وإبراهيم الأبياري وعبد الحفيظ الشلبي. شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر. ط٢. ١٣٧٥هـ.
- شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة، أبو القاسم هبة الله بن الحسن بن منصور الطبري الرازي اللالكائي، تحقيق: أحمد بن سعد بن حمدان الغامدي، دار طيبة - السعودية، ط٨، ١٤٢٣هـ.
- شرح الأربعين النووية، محمد بن صالح بن محمد العثيمين، دار الثريا للنشر.
- شرح رياض الصالحين، محمد بن صالح بن محمد العثيمين، دار الوطن للنشر - الرياض، ١٤٢٦ هـ.
- شرح صحيح البخاري، لابن بطال، ابن بطال أبو الحسن علي بن خلف بن عبد الملك، تحقيق: أبي تميم ياسر بن إبراهيم، مكتبة الرشد - السعودية، الرياض، ط ٢، ١٤٢٣هـ.
- شرح صحيح مسلم، أبو الأشبال حسن الزهيري آل مندوه المنصوري المصري.
- شرف أصحاب الحديث، أبو بكر أحمد بن علي بن ثابت بن أحمد بن مهدي الخطيب البغدادي، تحقيق: د/ محمد سعيد خطي اوغلي، دار إحياء السنة النبوية - أنقرة.

- شرف المصطفى، عبد الملك بن محمد بن إبراهيم النيسابوري الخركوشي، أبو سعد، دار البشائر الإسلامية - مكة، ط١، ١٤٢٤ هـ.
- شعب الإيمان، أحمد بن الحسين بن علي بن موسى الخُسْرَوْجِردي الخراساني، أبو بكر البيهقي، تحقيق: د/ عبد العلي عبد الحميد حامد، مكتبة الرشد للنشر والتوزيع- الرياض، بالتعاون مع الدار السلفية ببومباي - الهند، ط١، ١٤٢٣ هـ.
- الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية. أبو نصر إسماعيل بن حماد الجوهري الفارابي. تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار. دار العلم للملايين - بيروت. ط ٤. ١٤٠٧ هـ.
- صحيح ابن حبان بترتيب ابن بلبان، الأمير علاء الدين علي بن بلبان الفارسي، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة - بيروت، لبنان، ط2، 1414هـ.
- الضعفاء الكبير، أبو جعفر محمد بن عمرو بن موسى بن حماد العقيلي المكي، تحقيق: د/ عبد المعطي أمين قلعجي، دار المكتبة العلمية - بيروت، لبنان، ط1، ١٤٠٤هـ.
- الضعفاء، أبو جعفر محمد بن عمرو بن موسى بن حماد العُقَيلي، تحقيق: حمدي بن عبد المجيد بن إسماعيل السلفي، دار الصميعي - الرياض، السعودية، ط١، ١٤٢٠هـ.
- الطبقات الكبرى، القسم المتمم لتابعي أهل المدينة ومن بعدهم، أبو عبد الله محمد بن سعد بن منيع الهاشمي بالولاء، البصري البغدادي المعروف بابن سعد، تحقيق: زياد محمد منصور، مكتبة العلوم والحكم - المدينة المنورة، ط٢، ١٤٠٨.

- عارضة الأحوذي بشرح صحيح الترمذي. أبو بكر محمد بن عبدالله بن محمد بن عبدالله المرعوف بابن العربي المالكي. منشورات محمد علي بيضون. دار الكتب العلمية-بيروت.ط١. ١٤١٨هـ.
- العرف الشذي شرح سنن الترمذي، محمد أنور شاه بن معظم شاه الكشميري الهندي، تصحيح: الشيخ محمود شاكر، دار التراث العربي - بيروت، لبنان، ط١، ١٤٢٥ هـ.
- عصر الخلافة الراشدة محاولة لنقد الرواية التاريخية وفق منهج المحدثين، أكرم بن ضياء العمري، مكتبة العبيكان.
- عون المعبود شرح سنن أبي داود، محمد أشرف بن أمير بن علي بن حيدر، أبو عبد الرحمن، شرف الحق، الصديقي، العظيم آبادي ، دار الكتب العلمية - بيروت، ط٢، ١٤١٥ هـ.
- العيال، أبو بكر عبد الله بن محمد بن عبيد بن سفيان بن قيس البغدادي الأموي القرشي المعروف بابن أبي الدنيا، تحقيق: د/ نجم عبد الرحمن خلف، دار ابن القيم - السعودية، الدمام، ط١، ١٤١٠هـ.
- العين. أبو عبد الرحمن الخليل بن أحمد بن عمرو بن تميم الفراهيدي البصري. تحقيق: د مهدي المخزومي، د إبراهيم السامرائي. دار ومكتبة الهلال.
- فتح الباري شرح صحيح البخاري، زين الدين عبد الرحمن بن أحمد بن رجب بن الحسن السلامي البغدادي ثم الدمشقي الحنبلي، مكتبة الغرباء الأثرية - المدينة النبوية، ط١، ١٤١٧ هـ - ١٩٩٦ م.

- الفتح الرباني من فتاوى الإمام الشوكاني، محمد بن علي بن محمد بن عبد الله الشوكاني اليمني، حققه ورتبه: أبو مصعب «محمد صبحي» بن حسن حلاق، مكتبة الجيل الجديد - صنعاء، اليمن.
- فضائل الصحابة، أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل بن هلال بن أسد الشيباني، تحقيق: د/ وصي الله محمد عباس، مؤسسة الرسالة - بيروت، ط١، ١٤٠٣هـ.
- فقه السيرة، محمد الغزالي السقا، دار القلم - دمشق، تخريج الأحاديث: محمد ناصر الدين الألباني، ط١، ١٤٢٧ هـ.
- الفقيه و المتفقه، أبو بكر أحمد بن علي بن ثابت بن أحمد بن مهدي الخطيب البغدادي، تحقيق: أبي عبد الرحمن عادل بن يوسف الغرازي، دار ابن الجوزي - السعودية، ط٢، ١٤٢١هـ.
- القصص في الحديث النبوي دراسة فنية وموضوعية. محمد بن حسن الزير. ط٣. ١٤٠٥هـ.
- كتاب الأموال، أبو عُبيد القاسم بن سلّام بن عبد الله الهروي البغدادي، تحقيق: خليل محمد هراس، دار الفكر - بيروت.
- كتاب المصاحف، أبو بكر بن أبي داود، عبد الله بن سليمان بن الأشعث الأزدي السجستاني ، تحقيق: محمد بن عبده، الفاروق الحديثة - مصر، القاهرة، ط١، ١٤٢٣هـ.
- كشف الأستار عن زوائد البزار على الكتب الستة، نور الدين علي بن أبي بكر الهيثمي، تحقيق: حبيب الرحمن الأعظمي، مؤسسة الرسالة - بيروت، لبنان، ط١، ١٣٩٩هـ.

- كشف المشكل من حديث الصحيحين، جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي، تحقيق: علي حسين البواب، دار الوطن - الرياض.
- الكفاية في علم الرواية، أبو بكر أحمد بن علي بن ثابت بن أحمد بن مهدي الخطيب البغدادي، تحقيق: أبي عبد الله السورقي‌إبراهيم حمدي المدني، المكتبة العلمية - المدينة المنورة.
- لسان العرب. محمد بن مكرم بن على، أبو الفضل، جمال الدين ابن منظور الأنصاري الرويفعى الإفريقى. دار صادر - بيروت. ط ٣. ١٤١٤ هـ.
- لسان العرب. محمد بن مكرم بن على، أبو الفضل، جمال الدين ابن منظور الأنصاري الرويفعى الإفريقى . دار صادر - بيروت. ط ٣- ١٤١٤ هـ.
- مجلة البيان، المنتدى الإسلامي - لندن.
- مجموع الفتاوى، تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن تيمية الحراني، تحقيق: عبد الرحمن بن محمد بن قاسم، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف - المدينة النبوية، المملكة العربية السعودية، ١٤١٦هـ.
- المجموع شرح المهذب، أبو زكريا محيي الدين يحيى بن شرف النووي، دار الفكر.
- المجموعة الكاملة لمؤلفات الشيخ عبدالرحمن بن ناصر السعدي رحمه الله. مركز صالح بن صالح الثقافي بعنيزة. ١٤٠٧هـ.
- المحدث الفاصل بين الراوي والواعي، أبو محمد الحسن بن عبد الرحمن بن خلاد الرامهرمزي الفارسي، تحقيق: د/ محمد عجاج الخطيب، دار الفكر - بيروت، ط٣، ١٤٠٤هـ.

- مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين، محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية، تحقيق: محمد المعتصم بالله البغدادي، دار الكتاب العربي - بيروت، ط٣، ١٤١٦ هـ.
- المدخل إلى السنن الكبرى، أبو بكر أحمد بن الحسين البيهقي، تحقيق: د/ محمد ضياء الرحمن الأعظمي، أضواء السلف - الرياض، السعودية، ط٢، ١٤٢٠هـ.
- المربي محمدﷺ: التربية النبوية، شمولها، أهدافها، طرائقها، محمد سعيد المولوي، مكتبة دار المعرفة للنشر والتوزيع - الكويت، ط٢، ١٤٠٩هـ.
- مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح، علي بن (سلطان) محمد، أبو الحسن نور الدين الملا الهروي القاري، دار الفكر - بيروت، لبنان، ط١، ١٤٢٢هـ.
- المستدرك على الصحيحين، أبو عبد الله الحاكم النيسابوري، تحقيق: أبي عبد الرحمن مقبل بن هادي الوادعي، دار الحرمين- القاهرة، مصر، ط١، ١٤١٧هـ.
- المستدرك على الصحيحين، أبو عبد الله الحاكم محمد بن عبد الله بن محمد بن حمدويه بن نُعيم بن الحكم الضبي الطهماني النيسابوري المعروف بابن البيع، تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية - بيروت، ط١، ١٤١١هـ.
- مسند أبي يعلى الموصلي، أحمد بن علي بن المُثنى التميمي، تحقيق: حسّين سليم أسد، دار المأمون للتراث - دمشق، سوريا، ط٢، ١٤١٠هـ.
- مسند الإمام أحمد بن حنبل، أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل الشيباني، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، وعادل مرشد، وآخرون، مؤسسة الرسالة - بيروت، لبنان، ط١، ١٤١٦هـ.

- مسند الحميدي، أبو بكر عبد الله بن الزبير القرشي، تحقيق: حسن سليم أسد الدَّارَاني، دار السقا - دمشق، سوريا، ط١، ١٩٩٦م.
- مسند الدارمي، المعروف بسنن الدارمي، أبو محمد عبد الله بن عبد الرحمن بن الفضل بن بَهرام الدارمي، تحقيق: حسين سليم أسد الداراني، دار المغني - الرياض، السعودية، ط١، ١٤٢١هـ.
- المسند الصحيح المختصر بنقل العدل عن العدل إلى رسول الله ﷺ، أبو الحسين مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء الكتب العربية - القاهرة، مصر.
- معالم السنن، وهو شرح سنن أبي داود، أبو سليمان حمد بن محمد بن إبراهيم بن الخطاب البستي المعروف بالخطابي، المطبعة العلمية - حلب، ط١، ١٣٥١ هـ.
- المعجم الأوسط، سليمان بن أحمد بن أيوب بن مطير اللخمي الشامي، أبو القاسم الطبراني ، تحقيق: طارق بن عوض الله بن محمدأعبد المحسن بن إبراهيم الحسيني، دار الحرمين - القاهرة، ١٤١٥هـ.
- المعجم الصغير لرواة الإمام ابن جرير الطبري، أكرم بن محمد زيادة الفالوجي الأثري، الدار الأثرية - الأردن، دار ابن عفان - القاهرة.
- المعجم الصغير، أبو القاسم سليمان بن أحمد بن أيوب اللخمي الطبراني، دار الكتب العلمية - بيروت، لبنان، ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م.
- المعجم الكبير، سليمان بن أحمد بن أيوب بن مطير اللخمي الشامي، أبو القاسم الطبراني، تحقيق: حمدي بن عبد المجيد السلفي، مكتبة ابن تيمية - القاهرة، ط٢.

- المغازي، محمد بن عمر بن واقد السهمي الأسلمي بالولاء، المدني، أبو عبد الله، الواقدي، تحقيق: مارسدن جونس، دار الأعلمي - بـيروت، ط٣، ١٤٠٩/١٩٨٩.
- المغني، أبو محمد موفق الدين عبد الله بن أحمد بن محمد بن قدامة الجماعيلي المقدسي ثم الدمشقي الحنبلي، الشهير بابن قدامة المقدسي، مكتبة القاهرة، ١٣٨٨هـ.
- مفتاح دار السعادة ، محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية، تحقيق: علي بن حسن بن علي بن عبدالحميد. دار ابن عفان- الخبر.
- مكارم الأخلاق للطبراني (مطبوع مع مكارم الأخلاق لابن أبي الدنيا)، سليمان بن أحمد بن أيوب بن مطير اللخمي الشامي، أبو القاسم الطبراني، دار الكتب العلمية - بيروت، لبنان، ط١، ١٤٠٩ هـ.
- المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج، أبو زكريا محيي الدين يحيى بن شرف النووي، دار إحياء التراث العربي - بيروت، ط٢، ١٣٩٢هـ.
- منهج التربية الإسلامية، محمد قطب، دار الشروق، ط٨، ١٤٠٨هـ.
- منهج القرآن في التربية. محمد شديد. مكتبة الآداب للطباعة والنشر والتوزيع. ١٩٩٨م.
- الموطأ، مالك بن أنس أبو عبد الله الأصبحي، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، الناشر: دار إحياء التراث العربي - بيروت، لبنان، ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م.
- النبي الكريم ﷺ معلمًا، فضل إلهي، إدارة ترجمان الإسلام، ججر أنواله، باكستان، ط١، ١٤٢٤هـ.

- النظرية التربوية في طرق تدريس الحديث النبوي. يوسف صديق . دار ابن القيم. ط١ . ١٤١٢هـ.
- نيل الأوطار، محمد بن علي بن محمد بن عبد الله الشوكاني اليمني، تحقيق: عصام الدين الصبابطي، دار الحديث - مصر، ط١، ١٤١٣هـ - ١٩٩٣م.

* * *